مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ والأَرْبَعُونَ

سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ التَّاسِعُ والأَرْبعُونَ

سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 3-51-641-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 3-51-641-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

﴿۞فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ١٤٦ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ١٤٧ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ١٤٨﴾ [الصافات: 145 - 148]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الذِّكرُ في الرَّخاء يُقابل بالذِّكر حال الضَّراء

لقد كان من تقديرِ العزيز العليم أن يبتلي نبيَّه ﷺ بالهلاكِ في بطن الحوت، إلّا أنَّ الحقَّ تعالى لَمّا رأى من عبدِهِ مِن ذكر للّه في حال الرَّخاء؛ آثر عليه الرَّحمة والإنقاذ في الضَّرّاء؛ فأخرج نبيَّه مِن ظلمات بطنِ الحوت إلى نور الدُّنيا سالمًا[1] في مشهدٍ أذهلَ العقول، وأبهرَ الأبصار؛ ليؤكِّد للعالمين أنَّ قدرتَهُ تعالى تتجاوزُ كلَّ تصوُّرٍ، وأنَّ رحمتَهُ وسعت كلَّ شيءٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾: فعلٌ ماضٍ مع فاعله ومفعوله، وجذره اللُّغويُّ (نبذ)، والنَّبذ أن تطرح الشَّيء من يدك قدّامك أو خلفك، ويسمّى الإلقاء نبذًا، ومنه التَّمر يُلقى في الجرَّة؛ ليكونَ نبيذًا، ويقال: جلس فلانٌ نُبذةً، أي: جلسَ في ناحيةٍ ما، والنّون والباء والذّال أصلٌ عربيٌّ صحيح يدلُّ على الطَّرح والإلقاء، وإذا طرحتَ شيئًا لقلَّة الاعتداد والاهتمام به؛ فهو منبوذٌ، والرَّمي والإبعاد يُسمّى نبذًا، ومنه نبذَ الكتابَ وراءَهُ، أي: ألقاهُ، وأبعدَهُ، والمعنى المحوريُّ للنَّبذِ أن تطرحَ عنك الشَّيء، وتنحّيه بعيدًا مع تخلٍّ عنه، وقد يكون النَّبذُ حقيقيًّا، وقد يرد مجازًا[2]، ومعنى ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ في الآية، أي: فطرحناهُ في الأرض الخالية[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 294.

(2) الرّاغب، المفردات، والزبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نبذ).

(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 28.

2) ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾: اسم مجرَّدٌ ممدود، الجذر اللُّغويُّ منه (عري)، والعريُّ بمعنى الخلوِّ، يقال: فرس عريٌّ؛ إذا لم يكن على ظهرهِ شيءٌ، والعراءُ الأرض الخالية الَّتي لا يكونُ فيها شيءٌ يستر الإنسانَ، ويجوز أن يقصرَ، فيقال: العرى بمعنى السّاحة والفناء؛ لخلوِّه من الأبنيةِ ونحوها، وللعين والرّاء والحرف المعتلِّ أحد أصلين يدلُّ على الخلوِّ والفناء والفراغ والمفارقة، ومنه التَّعرية بمعنى التَّجرُّد من الشَّيء، وكلُّ ما اتَّسع من الأرضِ فهو عراءٌ، وكلُّ فضاءٍ لا ساترَ فيه؛ فهو عراءٌ، فمعناه المحوريُّ: أن يتجرَّد الجسم من أيِّ شيء يغشاه، أو شأنه أن يغشاه، ومنه العُرْيُ؛ إذا كان متجرِّدًا مِنَ الثّياب[1]، ومعنى ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ في الآيةِ محلِّ التَّفسير: ساحل البحر، أو بالفضاء على ظاهر الأرض، أو في المكان الخالي القفرِ مِنَ الشَّجر والبناء ونحوه[2].

3) ﴿سَقِيمٞ﴾: صيغةُ مبالغةٍ على زنةِ (فَعيل)، وجذرهُ اللُّغويُّ (سقم)، والسَّقم معروفٌ، وهو ما يصيب المرءَ من الدّاء، والسَّقم هو المرضُ، والسّين والقاف والميم أصلٌ صحيحٌ في كلام العرب يدلُّ على المرض، والسَّقم بهذا المعنى قد يكون ممّا يعتري الجسمَ والبدنَ، وقد يكون ممّا يعتري النَّفس، وقد يرد بمعنى طول المرض، ويقال: هو سقيمُ الصَّدر؛ إذا كان حاقدًا[3]، والمعنى المحوريُّ للسَّقم جفافُ البدن بما كان من علَّة شديدة، ومرض فيه تجعله ساكنًا جافًّا، وقد يقال عن النَّحيل: إنَّهُ سقيمٌ، والسَّقم قد يكون مادّيًّا حقيقيًّا، وقد يكون معنويًّا[4]، ومعنى ﴿سَقِيمٞ﴾ في الآية لا يخرجُ عن المعاني الَّتي ذكرها اللُّغويّون، ومعناهُ عليلٌ مريضٌ ممّا ناله مِنَ التقام الحوتِ له عليه السلام[5].

4) ﴿يَقۡطِينٖ﴾: اسمٌ على زنةِ (يَفْعيل)، وجذرهُ اللُّغويُّ (قطن)، وهو شجرة القرع، وكلُّ شجرٍ انبسطَ في الأرض ليس له ساقٌ كالقثّاء، وهو كلُّ شيء يخرج من الأرض، وينبتُ، لكنَّه يموت مِن عامِهِ؛ فهو يقطينٌ، وقيل: هو ورقُ القرعِ لا القرعُ نفسه[6]، أو هو كلُّ ما انبسط

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عري - عرو).
(2) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 152.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (سقم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سقم).
(5) النّسفي، حقائق التّأويل: 3/ 137.
(6) الهروي، الغريبين، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (قطن).

من الشَّجر، وامتدَّ كالدُّبّاء والحنظل[1]، وكلُّ ما كان من النَّبات متَّسع الأوراق، ويستر ما تحته؛ فهو يقطينٌ[2]، ومعنى ﴿يَقۡطِينٍ﴾ الواردة في سياق قصَّة يونسَ عليه السلام: "شجرةٌ من الشَّجر التي لا تقومُ على ساقٍ، وكلُّ شجرةٍ لا تقوم على ساق كالدُّبّاء والبِطّيخ والحنظل ونحو ذلك، فهي عند العربِ يَقۡطينٌ"[3].

5) ﴿حِينٍ﴾: ظرفٌ دالٌّ على الوقت من الزَّمان، والحاء والياء والنّون أصلٌ واحدٌ، ثمَّ يُحمل عليه، والأصل الزَّمان، فالحين الزَّمان قليلهُ وكثيرهُ"، وهو الحقبة من الدَّهر، وإذا حانَ الحينُ؛ فقد قرُب الوقت، وهو كالوقت يصلح لجميع الزَّمان طال أم قصر[4]، " ومعنى تمتيعِهم إلى ﴿حِينٍ﴾، أي: يمتِّعهم في حياتِهم الدُّنيا إلى أن تنتهيَ مدَّةُ آجالهم[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بين اليأسِ والأملِ ومِن أعماق البحرِ إلى رحاب السَّماء

فألقينا يونسَ مِن بطن الحوت بالمكان الخالي مِنَ الشَّجر والنَّبات، وهو عليل البدنِ مِن أجل ما ناله في بطن الحوت من ضعفِ بدنه، ثمَّ بيَّن الحقُّ سبحانه لُطْفَهُ بعبده، ورعايته له حتّى لا يصيبَهُ الحرُّ والبرد؛ إذ ظلَّله بالنَّبات ممّا كان ورقُهُ كلُّه منبسطًا على وجه الأرض، كالقرع والبطّيخ والقثّاء ونحوه، فلمّا شُفي مِن سَقَمِهِ، ورضي عنه ربُّه؛ أرسلَهُ مرَّةً أخرى إلى قومه الذين هرب منهم، فلمّا شاهدوا علاماتِ حلول العذابِ؛ آمنوا إيمانًا خالصًا، فمتَّعناهم بالحياة الدُّنيا إلى وقتِ انقضاءِ آجالهم، ونهايةِ أعمارهم[6].

(1) وابن دريد، جمهرة اللّغة: (يفعيل).
(2) ابن الأنباريّ، الزّاهر: 1/ 450، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قطن).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 112.
(4) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ، (حين).
(5) الواحدي، التّفسير البسيط: 19/ 117.
(6) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 258 - 261.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ﴾:

لَمّا كان عليه السلام يسبّح ربَّهُ في بطن الحوتِ؛ استجاب له، وأنجاه

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ﴾ هي الفاءُ الفصيحةُ الَّتي تفصح عن كلام مقدَّرٍ يُستدَلُّ عليه بقوله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ﴾، فإنَّه عليه السلام كان يسبِّح ربَّه في بطن الحوت بقولِه: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]، فكان مِن شأنِ ذلك التَّسبيح أنِ استجابَ له الحقُّ سبحانه، وأنجاه مِن بطن الحوت، ونبذه بالعراء[1].

الغرضُ مِن إسنادِ النَّبذ إلى ضمير العظمة:

إظهارُ عظمةِ اللهِ وقدرتِه المطلقة على التَّدبير والتَّقدير

أسندَ فعلَ النَّبذ في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ إلى الضَّمير (نا)، ونكتةُ هذا الإسناد: إظهارُ عظمة الحقِّ سبحانه[2]، وتوكيدُ قدرتِهِ المطلقة على التَّدبير والتَّقدير، فكلُّ ما يحدث في الكون هو بإرادَتِهِ وحكمتِه، وهو المتصرِّفُ في كلِّ شيء، وهو الذي يقدِّرُ الأرزاق والأعمار، وينقلُ عبادَهُ من حال إلى حال، وبهذا يرتفع الأمرُ عن حيِّز الأسباب المادّيَّة، ويصبح مرتبطًا بالإرادةِ الإلهيَّة، والحكمة الرَّبّانيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل النَّبذ مادّةً واشتقاقًا:

القصدُ إلى بيان دوام اللّائمة

التَّعبيرُ بالنَّبذ في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ﴾، فيه إشارةٌ إلى حالة مِنَ الرَّمي والإبعاد، ليس فقط عن الماء إلى اليابسة، بل عن رضوانِ اللّه تعالى، فكأنَّه مع خروجه من بطنِ الحوتِ ما زال يصارع نفسَهُ وشهواتها، ولم ينل بعدُ القَبول التّامَّ من ربِّه، وما زال داخلًا في لائمته، وإن كان يسير في تلك الطَّريق[3]، وآية ذلك أنَّ النَّبذ معناه الطَّرح واللَّفظ والإلقاء مع الاستهانة به[4]، فالنَّبذ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 177.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 294.

(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1030 - 1031.

(4) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 201.

هنا ليس عقابًا نهائيًّا، بل هو دعوةٌ للتَّوبة والتَّضرُّع، ليصل العبدُ إلى مرتبة الرِّضا الإلهي.

بلاغةُ التَّعبير بالمجاز العقليِّ في ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾:

إضافةُ الخطابِ إلى ما يدلُّ على خلق أفعال العباد

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ﴾ من باب المجاز المرسلِ، فإنَّ النّابذ الحقيقيَّ هو الحوت الذي التقمه، لكنَّه أضاف النَّبذ إلى نفسه سبحانه مجازًا؛ لأنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ كلُّها له سبحانه[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ شيء بيده سبحانه وأنَّ الحوتَ لم يكن إلّا أداة في يد اللّه تعالى لتنفيذ حكمتِه، فاللّٰه تعالى هو الَّذي ألهم الحوتَ أن يلفظَ يونس في المكان الَّذي يريده.

معنى الباءِ ودلالتها في قوله: ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾:

الـدَّلالـةُ على تـقـيـيـد الـنَّـبـذ بالأرض الخالية

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾ لإفادة الظَّرفية، وهو معنى يختلف عن معنى (في) الأصل في الظَّرفية، فإنَّ "ظرفيَّة (في) ظرفيَّةُ تضمُّنٍ واحتواءٍ، وظرفيَّة الباء ظرفيَّة ملاصقة واقتران"[2]، والمعنى: نبذناهُ بالأرض الَّتي تخلو من النَّبات والشَّجر[3]؛ لتدلَّ على ملاصقة يونس عليه السلام الأرض الخالية حين النَّبذ، أي: إنَّه وقعَ مباشرةً عليها بلا حائل يؤيِّده أنَّ الحقَّ سبحانه أنبت عليه من الشَّجر ما يكون منبسطًا على الأرض ملاصقًا ممّا يضطرُّ المستظلُّ بها - وهو هنا يونس - أن يلاصقَ خدَّه بالأرض[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ العراء مادَّة وصيغة:

من أعماق البحر إلى سَعة العراء وقسوة الخلاء

معنى العراءِ في قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ هي الأرضُ الفسيحة الخالية من النَّباتات والظِّلال، وهي الأرض القاحلةُ الجرداء، واشتُقَّت هذه الكلمةُ من العريِّ، أي: عدم الاستتار أو

(1) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 28.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 93.
(3) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 28.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1031.

التَّغطية، فالأرضُ العراء هي الأرضُ المكشوفة التي لا شيءَ يسترها[1]، وقد استُعمِلت هذه الكلمةُ؛ للدَّلالة على المكان الخالي والواسع حيث أُلقي بنبيِّ اللّه يونس عليه السلام بعد خروجه من بطن الحوت.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ واو الحال[2]؛ إذ بيَّنت لنا حال يونس عليه السلام عند نبذه بالعراء، وصوَّرت لنا حالته المزرية، وضعفه الشَّديد، وكأنَّه فرخٌ ممعوط لا ريش له[3] يواجه قسوةَ الطَّبيعة وحده في محنة شديدةٍ أنجاه اللّه منها بواسع رحمته، وعظيم قدرته.

نُبِذَ على حالة من السَّقم والمرض كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريشٌ

غرضُ تقديم المسندِ إليه على المسند:

قدَّم المسند إليه على المسندِ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾؛ لإفادة الاهتمام بنبيِّ اللّه يونس عليه السلام، وتقديم الضَّمير للتَّوكيد[4]، أي: توكيدُ حالة الضَّعف والوهن الَّتي كان عليها بعد أن قذفَهُ الحوتُ بعد أن كان نبيًّا مرسلًا، وها هو الآنَ يصارعُ المرض والعجز في مكانٍ خالٍ.

القصدُ إلى بيان حالة الوهنِ في أعماق البحر وقصَّة الصَّبر

موقعُ جملة: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ودلالته:

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ جملةٌ ابتدائيَّةٌ مؤلَّفة من الضَّمير الواقع مبتدأ، والاسم بعده الواقع خبرًا[5]، والجملة الاسميَّة في موقع الحال من ضمير النَّصب المتَّصل بفعل النَّبذ العائد على يونس عليه السلام والمعنى: "ألقيناه بالأرض الفضاء حالةَ كونِهِ عليلًا سقيمًا؛ لشدَّة ما لحقه من تَعَبٍ، وهو في بطن الحوت"[6].

تصويرُ الحالةِ العليلة ليونسَ عليه السلام في بطن الحوت

دلالةُ التَّعبير بـ﴿سَقِيمٌ﴾ مادّة وصيغة:

استعمل لفظ ﴿سَقِيمٌ﴾، أي: مريضٌ على زنةِ (فَعيل) الدّال

تصويرُ بدنِ يونس عليه السلام كبدن الطِّفل من الشِّدَّة والضَّغطة

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 16/ 347.
(2) بهجت، الإعراب المفصّل: 10/ 64.
(3) النّحاس، إعراب القرآن: 3/ 297.
(4) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 201.
(5) الدّرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 312.
(6) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 112.

على المبالغة[1] في السَّقم، فإنَّه مضاعف المرض والسَّقم؛ إذ قضى مدَّة طويلة في ظلمات ثلاث يعاني من الشِّدَّة والضَّغط وقلَّة الهواء والغذاء، ممّا أدّى إلى ضعف جسده، وهزال بدنه، حتّى أصبحَ كطفلٍ حديثِ الولادة، يفتقر إلى القوَّة والحيويَّة[2].

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾:

عطفُ حالةِ النَّبذ في العراء على حالة الإنبات في ذلك المكان الوبيل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ دالَّةٌ على العطف؛ إذ عطفت جملة الإنبات هذه على جملة النَّبذِ[3]، فالواو هنا تربطُ بين حالتين متضادَّتين: حالةِ النَّبذ في العراءِ، وهو سقيمٌ، وحالةِ الإنباتِ في ذلك المكان القاحل، وهو عطف بديعٌ يبرز قدرةَ اللّٰه تعالى على التَّحويل والتَّبديل.

الغرضُ من إسنادِ الإنبات إلى ضمير العظمةِ (أنبتنا):

الإحالةُ على ما ينبئ عن عظمةِ الله تعالى

أسند فعلَ الإنبات إلى الضَّمير (نا) المؤذنِ بعظمة الخالق سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾، فهو إعلانٌ صريحٌ عن قدرة اللّٰه تعالى المطلقة، وسلطانه القاهر على كلِّ شيء، ويؤكِّد أنَّ هذا الإنبات لم يكن أمرًا طبيعيًّا، بل هو إعجاز إلهيٌّ؛ إذ إنَّ ذلك المكانَ لم يكن صالحًا للزِّراعة، ولا ينبت فيه شيءٌ، فكيف ينبتُ فيه ما لا ينبت إلّا بالماء الكثير[4]، لكنَّها عظمة الخالق، وقدرتُه على إيجاد الحياةِ مِنَ العدم.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الإنبات مادَّة وصيغة:

الدَّلالةُ على عظمة الخالق في إنبات ما يصلح الأبدان

التَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ دالٌّ على عنايته سبحانه بنبيِّه، فقد نبذه الحوتُ في مكانٍ لا زرعَ فيه ولا شجر، مكان عراء إلّا أنَّ المولى سبحانه أنبتَ عليه شجرةَ اليقطينِ الَّتي لم تكن موجودة

(1) بدر الدّين بن مالك، شرح ابن الناظم على ألفيّة ابن مالك، ص: 304.
(2) الحداد، التّفسير الكبير: 5/ 323.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1988.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 294.

في المكان أصلًا؛ إيذانًا بقدرته تعالى وعظمته مع ما تحمله مِنَ الغذاء والحماية والدَّواء[1]، ويؤيِّد ذلك التَّعبيرُ بالفعل المبدوء بهمزة التَّعدية، فإذا قيل: نبتَ الشَّجرُ؛ كان نابتًا بنفسِه، ولكنَّه قال هنا: أنبتنا، أي: نحن مَن أنبت، ففيه إشارة إلى أنَّ هذه الأرض ممّا لا ينبت فيها الزَّرع والشَّجر إلّا بفعل فاعل هو الحقُّ سبحانه فضلًا وامتنانًا على نبيِّه عليه السلام.

ويجوز أن يكونَ التَّعبيرُ بفعل الإنبات متعدّيًا بالهمزة أراد به دلالتين عظيمتين: الأولى أن يبيِّن قدرتَهُ على إيجاد الحياة من العدم، فاليقطين لم يكن موجودًا قبل أن ينبتَهُ اللّه، والثّانية أن يُظهر حكمتَهُ في خلقِهِ، فنموُّ اليقطين على ساقٍ دلَّ على أنَّ اللّه أراد ليونس ظلًّا يحتمي به، ولولا ذلك؛ لكان اليقطينُ ساقطًا على الأرض لا يغني عنه شيئًا[2].

نكتةُ تعديةِ الإنبات بـ(على):

الدَّلالةُ على قوَّة الخالق ورحمته بعباده

استعملَ فعلَ الإنبات متعدّيًا بأداةِ الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ في إعلانٍ بديعٍ عن قدرةٍ إلهيَّة لا متناهية، فبعد أن بلغ سقمُ يونس مبلغًا عظيمًا؛ جعلناه في مكان بورٍ، ثمَّ أنبتنا عليه شجرةً من يقطين، فحرف الاستعلاءِ هنا ليس صلةً، بل يدلُّ على الحاليَّة، أي: أنبتنا تلك الشَّجرةَ، وحالُها أنَّها مستعليةٌ عليه[3]؛ لتكونَ له ظلًّا، وهذا التَّعبير القرآنيُّ يصوِّر لنا عنايةَ اللّه بعبدِهِ، وكيف أنَّه يرفعُ من قدرِهِ، ويحيي موتَ قلبِهِ بنعمته.

غرضُ تنكيرِ ﴿شَجَرَةً﴾:

عــبَّر الـبـيـانُ القرآنيُّ بما له ساق تعظيمًا لأجل نبيِّه يونس عليه السلام

اتَّفقت آراءُ اللُّغويّين على أنَّ اليقطين نباتٌ لا ساق له، متَّسع الأوراق، ينبسط في الأرض، وأنَّه من نوع النَّجم إلّا أنَّ الحقَّ تبارك وتعالى

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 202.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 358.
(3) الطّيبي، فتوح الغيب: 13/ 204.

عبَّر عنه بلفظ الشَّجر الدّالِّ على اشتمالهِ على السّاق بقوله تعالى: ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾؛ إعظامًا لأجل نبيِّه يونس عليه السلام[1].

وفي تنكير ﴿شَجَرَةً﴾ معنًى بلاغيٌّ قد يكون خفيًّا، وهو دلالتُها على العموم، وفيه ردٌّ على ما كان من كلامِهم من أنَّ الشَّجرة ما كان لها ساقٌ وجوبًا، والصَّحيح أنَّها أعمُّ[2]، وآيةُ ذلك أنَّه لَمّا نكَّرها؛ بيَّنها بقوله تعالى: ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾، وهو ما لا ساقَ له.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾:

بيانُ جنسِ الشَّجرة للدَّلالة على نعمة التَّدبير والتَّقدير

وردت ﴿مِّن﴾ في لسان العرب على عدَّة معانٍ، ومن هذه المعاني دلالتُها على التَّبيين[3]، وهو المعنى الوارد في قوله تعالى: ﴿شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ في بيان دقيق لجنس الشَّجرة، فـ﴿مِّن﴾ دالَّة على التَّبيين[4]، أي: إنَّ هذه الشَّجرة تنتمي إلى جنس اليقطين، وهذا التَّحديدُ الدَّقيق ليس عبثًا، بل هو إشارةٌ إلى قدرة الله تعالى على التَّدبير والتَّقدير من جهة، ودرءًا لمن يظنُّ أنَّها شجرة بالمعنى الحقيقيِّ للشَّجر المشتمل على السّاق، والمراد نباتُ اليقطين، وهو كما " قال مقاتل: يعني: القرعَ، وهو قول الجميع، قالوا: كان يستظلُّ بظلِّها من الشَّمس"[5].

وفي التَّعبير بـ﴿مِّن﴾ البيانيَّة في قوله تعالى: ﴿مِّن يَقْطِينٍ﴾ مزيَّة خاصَّة، فإنَّه يجوز أن يقولَ: وأنبتنا عليه يقطينًا، فإنَّه كافٍ، لكنَّه آثرَ الإطناب؛ لأنَّ التَّوضيحَ بعد الإجمال أجملُ، والتَّوضيح بعد الإهمال أفضلُ، وكلُّه ممّا يقع موقعًا حسنًا مِنَ النُّفوس[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 294.
(2) ابن عادل، اللّباب: 16/ 347.
(3) الورّاق، علل النّحو، ص: 208.
(4) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 320.
(5) الواحديّ، الوسيط: 3/ 533.
(6) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 321.

الغرضُ مِن تنكيرِ ﴿يَقۡطِينٖ﴾:

العلَّةُ في تنكير الشَّجرة الَّتي أنبتها المولى سبحانه على نبيِّه العليل يونس عليه السلام أنَّ اليقطينَ اسمٌ جامع لكلِّ ما ينبسط على وجه الأرض من غير أن يكونَ له ساقٌ(1).

بسطُ الدّلال بتعبيد ما يصلح الأبدان بكلِّ ما ينسدحُ على الأرض

وفي ذكرِ اليقطين بلاغةٌ معجزة؛ فإنَّها من الأشجار الَّتي تقطن في الأرض وتلازمها، فهي عندئذٍ صالحةٌ لأن يأويَ إليها الإنسان، ويقطن عندها العليلُ حتّى يصلحَ حالُهُ بما كان منه تعالى من تعظيم حالها، وإخراجها عن عادة أمثالها حتّى غطَّته كالعريش(2)، وهو ما كان مِن شأنِ يونسَ عليه السلام بعد أن نُبِذَ بالعراء، وهو سقيمٌ.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ﴾:

من بطنِ الحوت أنقذ الله عبده وشفاه من سقمِهِ وزاده بأن شرَّفه برسالته

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ﴾ لإفادة العطف؛ فإنَّ جملة الإرسال معطوفةٌ على جملة النَّبذ(3)، فبعد أن أنقذَهُ المولى سبحانه من بطنِ الحوتِ، وشفاه من سقمِهِ؛ عطَفَ عليه نعمةً أخرى عظيمةً، وهي شرفُ الرِّسالة، فلم نكتفِ بإنقاذِ عبدنا يونس مِن الهلاك، بل شرَّفناه بحمل رسالتِنا، لتكمل بذلك نعمتنا عليه.

ويجوز أن تكونَ جملةُ الإرسال معطوفةً على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لتبيِّن لنا بديع الصّياغة القرآنيَّة، فإنَّها تجمعُ بين الإيجاز والمعنى العميق، فهي كمن يقول: أعجبَني زيدٌ وكرمُهُ؛ إذ دلَّ العطفُ على ارتباط إرسالِ يونسَ بكونِهِ مِن المرسلين، وبيَّنت أنَّ هذا الإرسال كان بداية لحالة، وانتهت بحالة أخرى، وهي تحقيق الإيمان في قلوب النّاس(4).

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 62.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 295.
(3) صافي، الجدول: 12/ 87.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 285.

الغرضُ مِن إسنادِ الإرسال إلى ضمير العظمة ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ﴾:

الـدَّلالـةُ على عظمة المرسِل سبحانه

أُسنِدَ فعلُ الإرسال إلى الضَّمير (نا) العائدِ عليه سبحانه، بقوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ﴾؛ تأكيدًا على عظمة الحقِّ سبحانه، وقدرته المطلقة المستوليةِ على كلِّ شيء[1]، وتذكيرًا بعظمة الخالق وجلاله، والمعنى: أنَّنا مَن أرسلنا رسولنا، وليس قوَّة أخرى، فلا قدرةَ لسوانا على ذلك.

فائدةُ ذِكر الإرسال في إعادته إلى قومه:

ترتيبُ الإرسال هنا بعد الإنجاء دالٌّ على إعادة إرسـال يونس عليه السلام إلـى أهل نينوى من غير قومه

في إعادة لفظ الإرسال مرَّةً أخرى فائدةٌ تدلُّ على أنَّه إرسالٌ جديد بموجب ترتيب هذا الإرسالِ على فعل الإنجاء من الحوت، فمقتضى ما في كُتُبِ اليهود عن يونسَ عليه السلام أنَّ الحقَّ سبحانه أمره بالذَّهاب إلى نينوى، ومناداتهم المناداة التي يكلِّمه بها، وهم اليهود القاطنون في نينوى، وهم أسرى الآشوريّين[2].

ويجوزُ أن يكونَ الإرسالُ المذكور في ختام القصَّة إلى مئةِ ألفٍ، أو يزيدون هو عين الرِّسالة الأولى التي كانت سببًا في إباقهِ، فإنَّ الحقَّ سبحانه وتعالى يذكر أنَّهم آمنوا بعدما رأوا أماراتِ العذاب، فمتَّعهم بمتاع الدُّنيا ونعيمها، وهذا التَّمتيعُ هو الذي أغضب يونس، فأبق منهم، ممّا يدلُّ على عمقِ إيمانه، وحرصهِ على هداية قومه[3].

نكتةُ ذِكرِ هذا العدد الضَّخم في القرآن الكريم:

القصدُ إلى بيان عظمة المهمَّة الَّـتـي أُنيطت بيونس عليه السلام

المراد من ذكر هذا العددِ الضَّخم في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ بيانُ كثرتِهم[4] وعظم عددهم، فهو رقمٌ كبيرٌ يعطي انطباعًا قويًّا بضخامة الجماعة التي أُرسل إليها يونس عليه السلام، وبهذا التَّعبير يُبرز القرآن الكريم عظمةَ الرِّسالة التي حملها يونس،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 179.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 487.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 7/ 286.

وصعوبة المهمَّة التي كُلِّف بها؛ إذ كان عليه أن يدعو قومًا كُثرًا ضالّين إلى جادَّة الحقِّ والصّواب.

غرضُ ذِكر العدد وحذف المعدود:

الاقتـصـارُ على ذِكـر الـعـدد بأن يـشـمـلَ تـقـديـر المعدود، ليكونَ مناسبًا للعدد وما عطف عليه

يجوزُ في غرض الاقتصارِ على ذِكر العددِ مِن دون ذكرِ المعدود أن يشملَ تقديرُ لفظ المعدود؛ ليكونَ مناسبًا للعدد وما عطف عليه، فإنَّ ﴿يَزِيدُونَ﴾ لا يصحُّ عطفه على ﴿مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾؛ فيكون تقديرُ المعدود لفظ (أشخاص)، فيكون المعنى: أرسلناه إلى أشخاص هم مئةُ ألفٍ، أو أشخاصٍ يزيدون على مئةِ ألفٍ[1]، أو على تقدير جماعة، أي: "وأرسلناه إلى جماعةٍ لو رأيتموهم؛ لقلتم: هم مئة ألفٍ أو أكثر"[2].

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالتها:

الـتَّـأكـيـد على الكثرة بما يضفي على الكلام قوَّةً

حرف العطف ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ له غير معنًى واحدٍ منه على رأي الكوفيّين وغيرهم هو حرف دالٌّ على ما تدلُّ عليه (بلْ) من الإضراب[3]، أي: إنَّه يقطع ما سبق من كلام، ويورد معنًى جديدًا، فالمعنى: أنَّ يونس ﷺ أُرسِل إلى مئةِ ألف، بل يزيدون، فيكون الحرفُ مؤكِّدًا على كثرة عدد أهل نينوى، ويضفي على الكلام قوَّةً وتأكيدًا.

ويجوز أن يكون الحرف مؤذنًا بالتَّخيير، كما هو أصله في لسان العرب[4]، وهذا على رأي البصريّين المانعين القول بالإضراب، فالمقصودُ أنَّه إذا رآهم الرّائي مِنَ القوم؛ تخيَّر في تقدير عددهم بمئة ألفٍ، أو زادَ عليه أكثر[5]، دون تحديدٍ دقيق للعدد.

(1) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 323.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 132.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 179.
(4) الزّجاجي، حروف المعاني، ص: 13.
(5) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 62، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 179 - 180.

ويجوز أن يكونَ معنى ﴿أَوْ﴾ لإفادة الشَّكِّ، إلّا أنَّ هذا الشَّكَّ لا يتوجَّه نحو المخبر عن أمرهم هذا، فإنَّه منزَّه عن أن يعتريَهُ شكٌّ، وهو الحقُّ سبحانه إنَّما هو شكُّ النّاظرين إليهم، فإنَّهم من الكثرة حتّى يشكَّ النّاظر، فيقعَ شكُّه بين كونهم مئةَ ألفٍ، أو أكثر فوقها لا تحتها[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿يَزِيدُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

القـصـدُ إلى ترجية النَّبيِّ ﷺ بكثرة الأتباع

عبَّر عن كثرة الأتباع والنّاصرين ترجيةً لنبيِّه يونس ﷺ بقوله تعالى: ﴿يَزِيدُونَ﴾، ففي الزّيادة قرَّةٌ للعين، وسرور للقلب، وإفهامٌ بوقوع الزّيادة حقًّا، وهؤلاءِ المرسل إليهم أهلُ نينوى من غير قومهِ[2]، والتَّعبير بصيغة المضارع مؤذنٌ بتوالي الزّيادة مِنهم واستمرارها.

والتَّعبيرُ بفعل الزّيادة بصيغته المضارعيَّة يدلُّ على عددٍ هائلٍ ومتغيِّرٍ باستمرار، فالنَّبيُّ يونس قد أُرسل إلى قوم يتكاثرون، وينمون في كلِّ لحظةٍ، ولا يمكن حصرُ عددهم في لحظة، فالمواليد تتوالدُ، والأعداد تتزايد، فيصعبُ على أيِّ لسان أن يلحقَ بحصر هذا العدد المتجدِّد[3]؛ ليوضِّح عظمَ تحدّي الرِّسالة الَّتي حملها يونسُ ﷺ، وكيف كان عليه أن يواجهَ جماهير غفيرة تتجدَّد أعدادها باستمرار.

ويجوزُ أن يكونَ فعلُ الزّيادة في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُونَ﴾ حاصلًا مع استمرار التَّبليغ والدَّعوة إلى اللّه تعالى[4]؛ ليصوِّر لنا حركةً مستمرَّة ودائمة في زيادة أعداد المؤمنين، وذلك بفضل استمرار دعوة نبيِّ اللّه يونس ﷺ، وكأنَّ الآية ترسم لوحة حيَّة تتجدَّد فيها ألوان الإيمان يومًا بعد يوم، فيزدادُ نور الحقِّ سطوعًا، وتتَّسع دائرة المؤمنين؛ إذ جعل النُّموَّ والتَّوسُّع في الدّين مرتبطًا باستمرار الدَّعوة.

(1) القونوي وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 322.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 296.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1032.
(4) مجموعة مؤلفين، التّفسير الوسيط: 8/ 456.

إيمانُ قومِ يونس عليه السلام سببٌ لما كان من إرسالِهِ وانشراح صدره

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾:

من معاني الفاءِ عند العرب أن تكونَ لإفادة العلّة والسّبب في عطف الجمل والأوصاف[1]، وفي قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ الفاءُ هنا عاطفة لإفادة هذا المعنى؛ فإنَّه لمّا "تسبَّب عن إتيانهِ إليهم انشراح صدرهِ بعد ما كان حصل لَهُ مِن الضّيق الَّذي أوجبَ له ما تقدَّم"[2]، فإيمانُهم متسبِّبٌ عن إرسال يونس إليهم مرَّةً أخرى بعد ما جرى له في البحرِ، وما بعدَهُ من نجاته وشفائه.

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ الدّاخلة على فعل الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾؛ للتَّعقيب العرفيِّ، فبعد أن أرسلَ اللّه نبيَّهُ يونس عليه السلام إليهم، ودعاهم إلى الإيمانِ؛ امتنعوا عن الاستجابة، فوعدَهم بالعذابِ، فخشعوا، وتابوا[3]، فإنَّ إيمانَهم جاء نتيجةً مباشرة لهذا التَّهديد والعذاب الوشيك.

ويجوز أن تكونَ الفاء دالَّةً على سرعة الاستجابةِ لدعوة نبيِّ اللّه يونس عليه السلام إيّاهم لَمّا دعاهم أوَّلَ الأمر ممّا يؤكِّد استعدادهم للإيمان، أمّا ما كان من تلبُّثهم قليلًا قبل القَبول بالدَّعوة؛ فهو حقٌّ لهم، فإنَّ الإنسان إذا عُرض عليه خطبٌ جلل؛ بحثَ، وأطال النَّظر؛ كي يميِّز الحقَّ مِنَ الباطل، وفيه إلماحةٌ مهمَّة ليونس أنَّه لو صبر قليلًا عليهم؛ لآمنوا، ولما أصابه ما أصابَهُ من العنت واللأواء[4].

الـدّلالـة على تـحقُّقِ مقصد الإجابة من غير تخلُّف

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى واو الجماعة ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾:

دلَّ الإسنادُ إلى واو الجماعة أنَّهم شاهدوا آياتِ العذاب، فاستجابوا جميعَهم[5] لدعوته استجابة تامَّة من غير أن ينِدَّ أحد

(1) المراديّ، الجنى الدّاني، ص: 64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 296.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 180.
(4) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 12/ 1032.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 41.

منهم متخلِّفًا، واتَّبعوا نوره هدًى وسبيلًا، فلقد كان إيمانهم ثمرةَ يقينٍ راسخٍ، وشاهدًا على قدرة اللّه وعظمته، فاستحقّوا بذلك رضاهُ ورحمتهُ.

الغرضُ مِن حذف متعلّق الإيمان ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾:

شموليَّةُ الإيمانِ للتَّأكيد على التزام المؤمن بكافَّة جوانب العقيدة

حذْفُ متعلِّق الإيمان في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ يعكس شموليَّة الإيمان بكلِّ ما يجب أن يُؤمنَ به دون تحديد معيَّن، لتشمل جوانبَ العقيدةِ كلَّها بتركيز الفعل على الإيمان بشكل عامٍّ، وفيه تأكيدٌ على أنَّ الإيمان الصّادق يشمل جميعَ أركان الدّين، ويعبِّر عن التزام كامل وشامل.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾:

تجرُّد النُّفوس عن الحظوظ يورث النَّعيم الدُّنيوي

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ عاطفة دالة على السَّبب؛ لأنَّهم لَمّا جرَّدوا أنفسهم من الحظوظ النَّفسانيَّة، وتمثَّلوا بالصِّفات الملكيَّة بإيمانهم؛ كان هذا الإيمان سببًا لرفع العذاب الواجب بمدعاة كفرِهم، وكان سببًا لأن نمتِّعهم في حياتهم الدُّنيا إلى أجلهم[1].

الغرضُ إسناد الفعل للضّمير الدّالِّ على التَّعظيم ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾:

نِعَمُ اللهِ لا تزول بالإنفاق

لَمّا أراد الامتنانَ عليهم؛ قال سبحانه: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ﴾ مسندًا فعل الإمتاع إلى الضَّمير (نا) الدّالِّ على عظمته تعالى وقدرته، أي: متَّعناهم ونحن ما عليه من باهر العظمة، وما نقصت تلك المنَّة من عظمتنا شيئًا[2]، وفي ذلك تأكيدٌ صريحٌ على عظمة اللّه، وقدرته المطلقة، فقد متَّعناهم بنعمنا الكثيرة، وما نقص من ملكنا شيئًا.

بلاغةُ التَّعبير بالكناية في: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾:

التَّمتيعُ كنايةٌ عن ردِّ العذاب وصرف العقوبة

أطعمَ اللّه تعالى قوم يونس من النِّعَمِ الدُّنيويَّة، وأبقاها لهم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 296.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 296.

كنايةً عن صرف العذاب عنهم، وتأخير العقوبة[1]، فكأنَّ اللّه تعالى قد أوقف سيف العذاب عن رقابهم، وأمدَّ لهم في الحياة الدُّنيا؛ ليتوبوا، ويعودوا إلى الحقِّ في تعبير يصوِّر نِعَمَ اللّهِ وآلاءَهُ، وكيف أنَّها تأتي متتابعةً ومتراكمة على المؤمنين.

نكتةُ تعديةِ الإمتاع بـ﴿إِلَىٰ﴾:

القصدُ إلى مدِّ مسالك التَّوبة بتعدية فعل التَّمتيع

استُعمِلَ فعلُ التَّمتيع الذي وهبه الحقُّ سبحانه لقومه متعدّيًا بحرف انتهاء الغاية ﴿إِلَىٰ﴾[2]؛ لأنَّ معنى قوله تعالى: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾، فمتَّعناهم بالحياةِ إلى حين منتهى أجلهم متيحًا لهم فرصة التَّوبة والإيمان، دون أن يعجِّل بعقابهم[3]، ففي هذا التَّأخير رحمة واسعةٌ مِنَ اللّه، ودعوة لهم للعودة إليه، والتَّوبة مِن ذنوبهم، وكأنَّ اللّه يقول لهم: خذوا من متع الدُّنيا ما شئتم، ولكن اعلموا أنَّ الأجل آتٍ - لا محالةَ - فاستعدّوا له بالتَّوبة والإيمان.

غرضُ تنكير ﴿حِينٖ﴾:

الدَّلالةُ على قصد التَّمتيع إلى انقضاء الآجال المقدَّرة في الأزل

أوردَ لفظ الحين منكَّرًا في قوله تعالى: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾؛ لأنَّه أراد الإشارة إلى أنَّ تمتيعَهُ تعالى قوم يونس عليه السلام كان إلى أن يأتي أجل كلِّ فرد منهم[4]، أو يمتِّعهم إلى انقضاء آجالهم المقدَّرة والمضروبة في الأزل[5]، وفي كلا الأمرين فالأجلُ يدلُّ على مدَّة غير محدَّدة، ومجهولة بالنِّسبة إليهم، وأنَّ اللّه وحده يعلمُ متى يأتي هذا الأجل.

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 261.
(2) الزمخشريّ، المفصل، ص: 380.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 620.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 358.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 296.

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ
إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ
وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 149 - 153]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من أقاصيص الأنبياءِ إلى باطل الشِّرك في فساد إثبات المشركين الأولاد لله تعالى

فيما مرَّ من آياتٍ ذكرَ الحقُّ سبحانه ما كان مِن أقاصيص الأنبياء عليهم السلام، وكفر أقوامهم بهم، وإشراكهم، فعاد هنا إلى بيان مذاهب المشركين، وإظهار قبحها، والإشارة إلى سخافتها، ومن جملتها إثباتهم الأولاد له سبحانه، وزعمهم أنَّها من جنس البنات لا من جنس الذُّكور، وطلب منه أن يستفتيَهم موبِّخًا تخصيصه بالبنات، وتخصيصهم بالبنين، وهذا معطوفٌ على قوله في أوَّل السّورة من قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ [الصّافّات: 11][1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾: فعلُ أمرٍ مِن المزيد على زنة (استَفْعِلْ)، وجذرهُ اللُّغويُّ (فتو)، ومنه الفُتيا والفتوى كالفقيه الذي يبيِّن ما كان مبهمًا، والإفتاء في المسألةِ الإجابةُ عنها، والتَّفاتي بين النّاس التَّحاكم[2]، ومن معاني الفُتيا الجوابُ عمّا يُشَكُّ فيه من الأحكام، والاستفتاءُ يردُ بمعنى السُّؤال[3]، والأصلُ في الفاء والتّاء والحرف المعتلّ دلالتُه على توضيح الحكم وتبيينه[4]، والفُتّيا تبيين المشكل،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 359.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والزمخشريّ، أساس البلاغة: (فتو).
(3) الرّاغب، المفردات، والزّبيدي، تاج العروس: (فتي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتى).

"فهو مِن المفارقة والتَّمييز وفضِّ التباس الأمر وتشابكه"[1]، ومعنى ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾، أي: سلهم، والمقصودون هنا أهلُ مكَّة[2].

2) ﴿ٱلۡبَنُونَ﴾: اسمٌ ملحقٌ بجمع المذكَّر السّالم، مفرده (ابن)، وجذره اللُّغويُّ (بنو)، والأصلُ في الباء والنّون والحرف المعتلِّ: "الشَّيءُ يتولَّد عن الشَّيء، كابن الإنسان وغيره، وأصل بنائه (بنو)، والنِّسبة إليه بنويٌّ، وكذلك النِّسبة إلى بنت وإلى بنيّات الطَّريق"، والابنُ هو الولد، ومِن البناء يأتي "الابن، (وأصله بنو)؛ إذ هو امتدادٌ لأبيه، ناشئٌ منه، يمدُّ ذرّيَّته، ويقيمها"، وسُمّي الابنُ ابنًا؛ لأنَّه مِن بناء الأب، فجعله اللّٰه تعالى بناءً، وأوجده، ويُقال لكلِّ ما يحصل من التَّربية والتَّفقُّد وكثرة الخدمة والقيام بالأمر[3]، ومعنى ﴿ٱلۡبَنُونَ﴾ في الآية محلِّ التَّفسير: الذُّكورُ من الأولاد[4]؛ إذ جعلَهم الكفّار لأنفسهم، وجعلوا البناتِ للّٰه، تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

3) ﴿شَٰهِدُونَ﴾: جمع سالم، مفرده (شاهد)، والجذر اللُّغويُّ منه (شهد)، والأصلُ في الشّين والهاء والدّال الحضور والعلم والإعلام، ولا يخرج من فروعهِ شيءٌ ممّا ذُكِر[5]، يقال: شهدَ يشهدُ شهادة، والمشهد: محضرُ النّاس، وشهد الشَّيء؛ إذا حضره، وعاينه، والشَّهيد هو القتيل في سبيل اللّٰه، قال قوم: سُمّي بذلك؛ لأنَّ ملائكة الرَّحمة تشهده، أي: تحضره، والشَّهادة أن يكون منك حضورٌ مع المشاهدة بالبصر أو بالبصيرة، ومن معاني الشَّهادة الخبرُ القاطع الأكيد[6]، و"الشَّهادة الإخبارُ عن معرفة تقوم مقام الرُّؤية، والشّاهد المخبر بها، وهو في اللُّغة على وجوه أحدها: الحضورُ، شهدته: حضرته، والآخر الإعلام، شهد الشُّهود، وهو إعلام ما عندهم"[7]، ومعنى ﴿شَٰهِدُونَ﴾ في الآية، أي: فهل كان هؤلاءِ الكافرون شاهدين حاضرين حينما خلق اللّٰه تعالى البنات؟[8].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فتو - فتى).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 393.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بنو/ بني).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 400.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شهد).
(6) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (شهد).
(7) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 268.
(8) السّمرقندي، بحر العلوم: 3/ 153.

4) ﴿إِفْكِهِمْ﴾: الإفكُ اسمٌ ثلاثيٌّ مجرَّدٌ، جذره اللُّغويُّ (أفك)، ومعنى الإفك: الكذبُ، والصَّرف عنِ الحقيقةِ بالكذب والباطل، والأصلُ في معنى الهمزة والفاء والكاف: هو أن تقلبَ الشَّيء، وتصرفَهُ إلى غير جهتهِ[1]، وأكثر ما يُستخدم في الكذب؛ "لأنَّ الكذبَ صرفُ الكلام عمّا ينبغي أن يكونَ عليه"، وكلُّ ما ورد في القرآن الكريم من اشتقاقاتِ هذه المادَّة اللُّغوية؛ فهو بمعنى التَّغيير، والصَّرف عن الوجه الصَّحيح الذي يجب أن يكون مادّيًا أو معنويًّا[2]، ومنه اللَّفظةُ موضع الشّاهد ﴿إِفْكِهِمْ﴾، فالإفكُ في الآية بمعنى الكذب وصرف الكلام من الحقِّ إلى الباطل[3].

5) ﴿أَصْطَفَى﴾: فعل ماضٍ مزيد مصدَّرٌ بهمزة الاستفهام، والأصل (أاصطفى) وزنه (افْتَعَل) والجذر اللُّغويُّ (صفو)، والصَّفو ما كان نقيض الكدرة، يقال: صفا الماء يصفو صفوًا، ومنه الصَّفاءُ، ويقال: فلانٌ صفوتي، أي: هم خيرتي وخُلّصاني، والأصلُ في معنى الصّاد والفاء والحرف المعتلِّ أنَّه "ضدُّ الكدر... إذا خلص، يقال: لك صفو هذا الأمر وصفوته"[4]، ومعنى الاصطفاء أخذُ صفو الشَّيء مثلما يكون الاختيار في تناول خيره، واللّه تعالى عندما يصطفي بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوب الموجود في غير المصطفين، واصطفاء الشَّيء: اختيارُهُ بما يشبه الأخذ؛ لأنَّه أصفى جنسه، أو أجوده[5]، ومعنى ﴿أَصْطَفَى﴾ في الآية: أي: اختار البنات[6]، وفضَّلهنَّ على البنين، وهو سؤال إنكاريٌّ عليهم.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

سل قريشًا المُنذَرين عن وجه القسمة الضّيزى الَّتي قسموها أن جعلوا للّه الإناث، ولأنفسهم الذُّكور، مع كراهتهم الشَّديدة لهنَّ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهنَّ، فهل شهدوا خلْقَهُم إناثًا حتّى فاهوا بتلك العظيمة؟ وما ذلك إلّا لإفكِهم العظيم، حتّى قالوا:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أفك).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أفك).
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 452.
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صفو).
(5) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صفو).
(6) الفيروزابادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عبّاس، ص: 379.

ولد اللّهُ، أي: صدر منه الولدُ، مع أنَّ ذلك الفعلَ مِن خواصِّ الأجسام القابلة للفساد، وما ذلك إلّا لكذبهِم في مقالتهم، فكيف يصطفي البناتِ على البنين[1]؟.

كـذب قـريـشٍ وافـتراؤهـم على الله في قسمتهم الجـائـرةِ بنسبة الـبـنـات لـه سبحانه

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتها في قوله: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾:

دلالـةُ الـفـاء التَّفريعيَّة على الأمر بإبطال ما نسبَهُ المشركون إلى الـلـه من الولد

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ تفريعيَّةٌ؛ لتأكيد بطلان ادِّعاء المشركين، وتفنيد حُجَجهم، وحثَّ اللّه نبيَّه الكريم على مواجهتهم بالحجَّة الدّامغة، مستدلًّا بأمثلة واضحة من الأمم السّابقة، ليقطع الطَّريق أمام شبههم بنسبتهم الولد للّه تعالى، ويُثْبت صِدق رسالته[2].

ويجوز أن تكونَ الفاءُ لترتيب الأمر على ما سبق؛ لتسلسل الأحداثِ، وتأكيد حجَّةِ اللّه على المشركين، فبعد أن ذكر الحقُّ سبحانه أنَّ رُسلَهُ هم أعلامُ الخلق وأصفياؤه، يأتي ليكشفَ عن تناقض عقيدتِهم الباطلة، فكأنَّه يقول: يا أيُّها المشركون أنتم تزعمون أنَّ اللّه اصطفى البنات على البنين، وهذا القولُ باطلٌ لا يقبله عقل سليمٌ لا سيَّما وأنَّكم قد رأيتم كيف اختار اللّه رسلَهُ من أعلم النّاس وأتقاهم[3].

ويجوزُ أن تكونَ الفاء عاطفةً من دون مهلة وتراخٍ، عطفت فعل الاستفتاء هذا على مثله في أوَّل السّورة من قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ﴾ [الصافات: 11]، وهو استفتاءُ قريشٍ عن وجه إنكارهِم البعثَ، ثمَّ جاء الاستفتاءُ الثّاني في أمر القسمةِ الضّيزى الَّتي نسبوا فيها البنات للّه تعالى، واستأثروا هم بالبنين[4].

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 229.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 180.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 143.
(4) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 63.

ويجوز أن تكونَ الفاءُ استئنافيَّةً، ممّا يعني: أنَّ الطَّلب يأتي بنبرةٍ مِنَ التَّهكُّم والتَّوبيخ؛ إذ يطلب المولى سبحانه من نبيِّه أن يوجِّهَ الفتوى إلى مشركي مكَّة وغيرهم من الأعرابِ، سائلًا إيّاهم عن الخبر وما يدَّعون[1]، وهذا الاستفهامُ التَّهكُّميُّ يفضح سخافةَ افتراءاتِهم، ويكشفُ تناقضاتِهم بوضوح.

ويجوزُ أن تكونَ الفاءُ هنا الفاءَ الفصيحة التي تفصح عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا كان اللّٰه سبحانه موصوفًا بنعوت الكمال والعظمة والجلال، متفرِّدًا بالخلق والرُّبوبيَّة، وكان جميع الأنبياء مقرّين بالعبوديَّة، داعين العبادَ إلى حقيقة التَّنزيه والتَّوحيد، وأردت توبيخ هؤلاء المشركين وتقريعهم على زعمهم الفاسد؛ فأقول لك: استخبِرْهُم على سبيل التَّوبيخ والتَّجهيل[2].

الغرضُ من التَّعبيرِ بالأمر في قوله: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾:

أسئلةُ التَّوبيخ بما كان مِن الاعتقادات المشوَّهة

صيغةُ الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ تحمل في طيّاتها التَّقريع والتَّوبيخ[3]؛ إذ يدعو الحقَّ ﷻ عباده إلى التَّفكُّر في عقيدتهم المشوَّهة، التي تنسب إليه صفات النَّقص، وتجعله شريكًا في الخلق.

ويجوزُ في صيغة الأمر أن تكونَ دالَّةً على التَّهكُّم البيِّن[4]، وتحمل في طيّاتها سخريَّة لاذعة، بادِّعائهم أنَّ الحقَّ سبحانه قد ولد، وهم بذلك يجعلون له من الصِّفات ما لا يليق بجلاله، إلّا أنَّهم في الوقت نفسه يرفضون ما يكرهونه من خلقِهِ من البنات، ويرغبون في الذُّكور، فجعلوا له تعالى ما يكرهون، متناسين أنَّ اللّٰه تعالى هو الخالق لما يشاء[5].

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 205.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 279.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 488.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 302.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 180.

الإشـارةُ إلى كمال جهالةِ الإنسان وضلالتهِ بظنّه بربّه النّقصَ والتّقصير

نكتةُ المبالغةِ في فعل الاستفتاء بزيادة السّين والتّاء:

أوردَ فعل الاستفتاءِ على زِنَةِ (استَفْعِلْ)، وهو فعلٌ مزيد بالسّين والتّاء الدّالة على المبالغة، وفيه إشارةٌ إلى عمق الجهل الذي يكتنف النّفس البشرية؛ إذا تُرِكت لتجول في متاهات الهوى، وإذا وُكِّلَ الإنسان إلى نفسِه الخسيسةِ، وطبيعتِه الرَّخيصة؛ فيصبحُ أسير أهوائهِ وظنونه، ويتوهَّم في ربِّه صفات النّقص والتّقصير، وهو توهُّمٌ دالٌّ على ضلاله وغبائه وغفلته[1].

ضميرُ الفاعل عائدٌ على الرَّسول وضمير الغيبة عائد على المفعول المفهوم من المقام

مرجعُ الضّميرين في قولِه: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ ودلالته:

في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ غير ضمير واحد؛ الأوَّل ضميرُ الفاعلِ العائد على الرَّسول ﷺ، والثّاني ضمير المفعول، وهو ضمير الغيبةِ، وهو عائدٌ على غير مذكور محدَّدٍ إنَّما يُعلم مِن المقام، ويُفهم مِن سياق الكلام[2].

الاستفهامُ الإنكاريُّ في كشف زيف الادّعاءات وتناقض التّفضيلات

الغرضُ مِنَ الاستفهامِ ﴿أَلِرَبِّكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ تأتي الهمزةُ للاستفهام الإنكاري والإبطالي[3]؛ إذ يُسائل اللّه تعالى المشركين بشكل استنكاريٍّ عمّا يدَّعون، هذا الاستفهام يفضح زيف ادِّعاءاتهم، ويظهر تناقض أقوالهم؛ إذ يُنكِر عليهم نسبتهم البناتِ للّه تعالى، بينما يفضِّلون البنين لأنفسِهم، فما أقبحَهُ مِن تفضيلٍ! وما أسخفَهُ من ادِّعاءٍ!

سوقُ الاستفهام الإنكاريِّ باللّام لدفع ما ينافي كمالَ اللهِ وعظمته

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾؛ لإفادة التَّخصيص[4] استفهام إنكاري، أي: إنَّهم يجعلون لربِّك الذي خلقك، فسوّاك،

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 7/ 491.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 180.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 205.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 303.

فأحسنَ إليك البنات خاصَّةً له، ولهم البنون، ما لهم كيف يحكمون؟ أيريدون أن يجعلوا للّه مِنَ الصِّفات ما ينافي كمالَهُ وعظمتَهُ؟

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيَّة وإضافتها في ﴿أَلِرَبِّكَ﴾:

تخصيصُ الملك سبحانه بصفاتِ الكمال والجمال

في قوله تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ استعمل لفظ الرُّبوبيَّة، وأضافَهُ إلى ضميرهِ ﷺ في دلالة على عظمة الرَّبِّ، وصفاته العليا، وتأكيد على خصوصيَّة العلاقة بين العبدِ وربِّه؛ لَما تحمله الرُّبوبيَّة من الهداية والإحسان والإنعام، فإنَّه تعالى مَن هداك إلى الصِّراط المستقيم، وأكملَ خلقَك، واصطفاكَ لرسالتِه، وفي هذا الإفرادِ للضَّمير إشارةٌ قويَّة إلى أنَّ اللّه تعالى لا يختار إلّا الأفضل والأشرف والأكمل مِن خَلقِه[1].

والضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ معنيٌّ به الرَّسول ﷺ[2]، وقد أضافه هنا إلى لفظ الرَّبِّ دون ضميرِهم تشريفًا لنبيِّه ﷺ كما أنَّ هذه الإضافةَ تدلُّ على أنَّ المشركين الذين ينسبون البناتِ إلى اللّه سبحانه قد نفوا ربوبيَّتَهُ عن أنفسِهم[3].

بلاغةُ العدول عن الإضافة لضمير المشركين:

نـفـيُ الإضـافـة عـن الـذيـن لا يستحقّونها

ضميرُ المفعول في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ راجعٌ إلى المشركين، لكنَّه عدل عن إضافة الرَّبِّ إلى ضميرهم في قوله تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ بأن يقول: ألربِّكم، لما في ترك الإضافةِ إليهم من تحسينٍ لهم[4]، والحال أنَّهم لا يستحقّونها؛ بما كان من جرمِ مقالتِهم العظيمة، وافترائهم الشَّنيع على اللّه تعالى، فإنَّهم لا يستحقّون شرفَ الإضافة إليه سبحانه.

الغرضُ من تقديم شبه الجملة على المسند إليه:

الـتَّـخـصـيـص قـصـده زيـادة الـتَّـشـنـيـع والتَّفظيع لمقالة الكافرين

في تقديم شبهِ الجملة على المسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿أَلِرَبِّكَ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 303.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 143.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 126.

﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ يتجلّى غرضُ التَّخصيص الذي يحمل في طيّاته زيادةَ التَّشنيع عليهم، والتَّفظيع لقولهم[1]، وهو أسلوبٌ يبرهن على مدى بشاعة افتراءاتهم، ويعكس عِظمَ استنكار اللّٰه تعالى لزعمهم في نسبتِهم للّٰه ما يكرهون لأنفسِهم.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْبَنَاتُ﴾:

سوق التَّعريفِ العهديِّ لبيان ما كان مقابلًا للبنين من خلقهِ

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْبَنَاتُ﴾ لتعريف العهد الذِّهنيِّ، وهو ما كان مقابلًا للبنين من خلقهِ لا ما كان مؤنَّثًا من جنسه، فإنَّ الإناث أضعفُ خلقًا مِنَ الذُّكور، ثمَّ إنَّ الأنوثة قد تكونُ في غير الحيوان، وإنَّ الإناثَ في بعض الأجناس أشرفُ، فنصَّ هنا على البنات[2].

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَلَهُمُ﴾:

عطفُ المفارقات في كشف تناقضِ تفضيل البنين على البنات

الواو من قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ دالَّةٌ على العطف، والجملة معطوفةٌ على ما قبلها من قوله: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾، فهي في محلِّ نصب مفعول به مثلها لفعل الاستفتاء[3]، وهذا العطفُ يُظهر ارتباط الأجزاء المختلفة من النَّصِّ، في إشارة إلى أنَّهم من اختاروا لأنفسهم البنين، وتركوا البناتِ للّٰه تعالى ممّا يفضحُ تناقضَهم، فـ"كيف يليق بقومِكَ يا حبيبي أن ينسبوا لي ما يكرهون، ولأنفسهم ما يحبّون، وأنا المنزَّهُ عن ذلك كلِّه؟"[4].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿وَلَهُمُ﴾:

شناعةُ نسبةِ البنات لله تعالى وتخصيصُ غيره بالبنين دونه

من معاني اللّام في كلام العرب دلالتها على الاختصاص[5]، وهو معناها الوارد في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ بأن جعلوا البناتِ للّٰه

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 519.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 303.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 87.
(4) ملا حويش، بيان المعاني: 3/ 470.
(5) ابن الحاجب، الكافية، ص: 51.

تعالى، وخصّوا أنفسَهم بالبنين دونه تعالى[1]، وهذا تخصيصٌ باطلٌ يكشف عن جحودِهم لنِعَمِ اللّه وعن انحراف عقائدهم.

القصدُ إلى التَّخصيص لغرضِ التَّشنيع على الكفار والتَّقبيح لقولهم

الغرضُ من تقديم شبه الجملةِ على المسند إليه:

تقديمُ شبه الجملةِ على المسندِ إليه في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ ظاهرُهُ تخصيصُهم بالبنين غير أنَّه يتضمَّن مزيدًا من التَّشنيع والتَّقبيح لمرتكبهم، والتَّفظيع لأقوالهم وادِّعاءاتهم[2] في أنَّهم يودّون لأنفسِهم الجيِّد، وللّه تعالى ما دون ذلك.

الدَّلالةُ على حصر الكفّارِ جنسَ البنين والاستئثار به غرورًا وجهلًا وكِبرًا

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡبَنُونَ﴾:

(ال) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ لاستغراق الجنسِ، أي: إنَّ لهم البنين دون استثناءٍ، وأنَّهم حصروا هذا الجنسَ لهم، واستأثروا به، وهو استئثارٌ وتخصيصٌ يعكس حجمَ الغرور والكِبر الذي بلغوه؛ إذ اعتقدوا أنَّهم وحدهم يستحقّون النِّعَمَ، متجاهلين فضلَ اللّه تعالى، وعظيمَ نعمتِه عليهم.

الفصلُ بين الجمل بما يدلُّ على إفحام الكافرين الحُجَّة

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ﴾:

فصلُ الجملةِ من قوله تعالى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا﴾ عمّا قبلَهُ مِن كلامٍ؛ لورود ﴿أَمۡ﴾ منقطعةً بمعنى (بل)، ويكون ما بعدها سؤالًا، أي: بل أخلقنا الملائكة إناثًا، وقد حضروا خلقنا إيّاهم[3].

الإضرابُ عن نسبةِ البنات له تعالى واستفهام عن خلقِهِ الإناث

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

وترد ﴿أَمۡ﴾ منقطعةً بمعنى (بل) في كلامِ العربِ[4]، وهو عين معناها في قوله تعالى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا﴾ بأن أضربَ عن ادِّعائهم أنَّ له البناتِ، ولهم البنين، والاستفهام مقترنٌ بها لا

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 303.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 8/ 519.

(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 398.

(4) سيبويه، الكتاب: 3/ 172.

يفارقها، تقديره: أخلقنا الملائكةَ إناثًا[1]، فالسُّؤال هنا ليس طلبًا للمعلوم، بل هو استهزاءٌ بقولهم، وتحدٍّ لهم بأن يأتوا بدليل على ادِّعائهم الباطلَ.

والاستفهام هنا واردٌ موردَ الإنكار والتَّعجُّب والاستغراب من جرأة المشركين في نسبة البنات إلى اللّه تعالى من دونِ علمٍ[2].

الغرضُ من إسناد الفعل في ﴿خَلَقْنَا﴾:

تصريحٌ بمظهر العظمةِ وأنَّ الخالق فعل إلهيٌّ محضٌ

أُسنِدَ الفعلُ إلى الضَّمير المجموع بقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا﴾ تصريحًا بمظهر العظمة والجبروت[3]؛ إذ إنَّ إسنادَ فعل الخلقِ إلى ضمير الجمعِ (نا) يؤكِّدُ أنَّه فعلٌ إلهيٌّ محضٌ، وأنَّ اللّهَ وحده هو الخالق، وأنَّ ما في الكون جميعًا من مخلوقاتٍ من صُنْعِه وتقديرِه.

معنى (ال) ودلالتها في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

جميعُ الملائكة داخلونَ في الافتراء عليهم

(ال) في لفظ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ تُفيد الاستغراقَ والشُّمول، وهي تشيرُ إلى شمول جميع الملائكة في الحُكم، فإنَّ الافتراءَ على اللّه تعالى بأنَّ الملائكةَ إناثٌ يشمل كلَّ الملائكةِ دون استثناء، وبذلك يظهر الافتراء الواضح في ادِّعائهم.

بلاغةُ الالتفاتِ مِن الغيبةِ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾:

التَّشويقُ وإثارة الانتباه لدى المخاطَب لتعزيز الشُّعور بالمسؤوليَّة والنَّظر في قدرة الخالق

في ضميرِ التَّكلُّم من قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا﴾ التفاتٌ بليغ مِن الغيبة: ﴿أَلِرَبِّكَ﴾ إلى التَّكلُّم: ﴿خَلَقْنَا﴾، فإنَّه إذا استفتاهم؛ قال لهم: أم خلق الملائكةَ[4]، وغرضه التَّشويقُ والإثارة؛ فيشعر المخاطَب أنَّ اللّه تعالى يوجِّه كلامَهُ إليه مباشرةً، فيعزِّز عنده الشُّعور بالمسؤوليَّة، والنَّظر في قدرة الخالق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 304.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.

استهانةٌ شديدةٌ في جعْلِ الملائكة إناثًا

الغرضُ مِن تنكير ﴿إِنَٰثًا﴾:

تنكيرُ لفظِ الإناث مِن قولِه تعالى: ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا﴾ يأتي في سياق الاستهانة الشّديدة؛ إذ يعبِّر هذا النَّصُّ عن تعجُّبٍ واستنكار عظيمين تجاه جعلِ المشركين الملائكةَ إناثًا، وهُم لم يكونوا حاضرين عند خلْقِنا لهم؟[1] هذا الاستفهام البلاغيُّ يُبرِزُ ضعفَ هذا الادِّعاء، ويفضح زيفه، ويقع قوله تعالى: ﴿إِنَٰثًا﴾ موقعَ الحالِ مِنَ الملائكة[2].

حال الَّذين ينسبونَ إلى الله ما لا يليق به ثابت لهم

معنى الواوِ ودلالتها في قوله: ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ حاليَّةٌ، والجملةُ بعدها في محلِّ نصب حال[3]، أي: والحال أنَّ هؤلاءِ الَّذين ينسبون إلى الحقِّ ﷻ ما لا يليق به، هم في الحقيقة شاهدونَ على افتراءاتِهم وكذبهم، أي: إنَّهم ثابتٌ لهم شهود ذلك، ولا يغيبون عنه[4]، وهو تعبيرٌ يبيِّن مدى بشاعة فِعلِهم، فهي جملةٌ لتقييدِ الإنكار، وهي حُجَّة قاطعة تدحض ادِّعاء المشركين؛ إذ لا يمكنهم إثباتُ ادِّعائهم إلّا بالمشاهدة المباشرة[5].

تخصيصُ الكافرين بعلم المشاهدةِ استهزاءً بهم وتجهيلًا لهم

غرضُ تقديم المسندِ إليه على المسندِ ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾:

قدَّم المسند الضَّمير (هم) العائد على الكافرين على المُسندِ إليهِ الاسم المجموع جمع مذكر سالمًا في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ لإفادة التَّخصيص، أي: إنَّ اجتراءهم على قولهم ذاك كان بمدعاةِ حضورِهم حينما خلق الملائكة إناثًا، فتقديمُ المسند إليه هنا، وتخصيصهم بالحضور والمشاهدة واردٌ موردَ الاستهزاءِ بهم،

(1) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 281.
(2) المنتجب، الكتاب الفريد: 5/ 398.
(3) بهجت، الإعراب المفصّل: 10/ 67.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 304.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.

والتَّجهيل لهم في نفي الخبرِ الصّادق منهم، ودحض الاستدلال الصَّحيح عنهم[1].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿شَـٰهِدُونَ﴾ مادّة وصيغة:

شهادةُ الزَّيف في استنكار الافتراءاتِ في قول الكافرين بأُنوثة الملائكة

والتَّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿شَـٰهِدُونَ﴾ واردٌ مورد الاستهزاء بهم، والتَّجهيل لحالهم[2]، وفي إيراد الشَّهادة بالاسميَّة جمعًا زيادةٌ في الإنكار عليهم، ممّا يدلُّ على أنَّ جميع الذين ينسبون للّه ما لا يليق به هم في الحقيقة يشهدون على هذا الافتراءِ بأعينِهم، ممّا يُظهرُ بشاعةَ افتراءاتِهم وتناقضهم.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ﴾:

الجملة الاعتراضيَّة لتوكيد بطلان ادِّعاء المشركين

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾ عمّا سبقَها من جملٍ؛ لأنَّها جملةٌ اعتراضيَّةٌ وردت بين جمل الاستفتاء[3]، وجاءت توكيدًا على أهمّيَّة ما ورد فيها، وتشديدًا على بطلان قولِ المشركين، وادِّعائهم بأنَّه تعالى قد ولد له زورًا وكذبًا.

ويجوزُ أن يكونَ قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾ جملةً استئنافيَّةً تأتي من جهة الحقِّ ﷻ، خارجةً عنِ الاستفتاء، وموجَّهة لإبطال أصلِ مذهبِهم الفاسد، وهذه الجملةُ تأتي لتوضِّح أنَّ مبنى هذا المذهبِ ليس إلّا الإفكَ الصَّريح، والافتراء القبيح، دون أن يكونَ لديهم دليلٌ واضح، أو شبهة يمكن الاعتمادُ عليها[4].

معنى ﴿أَلَآ﴾ ودلالتها:

استفتاحٌ وتنبيهٌ للاهتمام بالخبر الدّالِّ على إفكهم وكذبهم

من معاني ﴿أَلَآ﴾ في لسانِ العرب أنَّها تأتي استفتاحيَّةً؛ لإفادة التَّنبيه[5]، والوارد منه كذلك في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 63.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 63.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 144.
(5) ابن الحاجب، أمالي ابن الحاجب: 2/ 838.

﴿لَيَقُولُونَ﴾؛ فهي هنا حرفُ تنبيهٍ استفتح بها الكلام؛ لأجل الاهتمام بالخبرِ[1]، وكأنَّ الله تعالى يقول: انتبهوا جيدًا لما سأخبركم به عن هؤلاء المكذِّبين.

نكتةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

التَّأكيد المتتابعُ يكشف كمالَ قبحِ افتراءات الكافرين

ثمَّة عدَّةُ مؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾، والغايةُ منها إبرازُ مدى زيف المشركين وكذبهم بشكل لا يقبل الشَّكَّ، وتعزيزُ الحقيقة المطلقة لكذبهم، فاستعمل ﴿أَلَآ﴾ للاستفتاح لإفادة الانتباهِ، و(إنَّ) لتأكيد حقيقةِ الإفك، ولام التَّوكيد في فعل القولِ[2]، وتقديم الجارِّ والمجرور، وتتابع هذه المؤكِّدات يفيدُ بيانَ كمالِ قبح افتراءاتهم، ويشير إلى أنَّ الكذب هو عادة متأصِّلة فيهم؛ إذ يعكس هذا التَّتابع مدى قربِهم من الإفكِ لرسوخهم فيه[3]، فتلك المؤكِّدات تبيِّن أنَّ الكذبَ جزءٌ لا يتجزَّأ مِن طبيعتهم.

معنى ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها:

الدَّلالةُ على الكذب والافتراء وراء الادِّعاءات الزَّائفة

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾ دالَّةٌ على العلَّة والسَّببية، فإنَّ المعنى من أجل إفكهم وكذبهم[4]، أي: إنَّ الكذب والافتراء هو الذي يدفعُهم إلى القولِ بما يقولونه من نسبةِ الولد إليه سبحانه، وأنَّ ما يقولونه هو محضُ كذبٍ نابع مِن أنفسِهم.

نكتةُ التَّعبير بلفظ الإفك:

سقوطُ ادِّعاءات الكذب بين المستحيل وغياب الدَّليل

التَّعبيرُ بالإفك في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾ هو ارتقاءٌ في تجهيلهم وتبيان فسادِ أقوالهم؛ إذ يوضِّح الحقُّ ﷻ أنَّ ما يدعونه هو محضُ كذبٍ وافتراءٍ، بل هو قولٌ مستحيل يتجاوز حدودَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.
(2) الدّعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 116.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 329.
(4) السّيواسي، عيون التّفاسير: 4/ 17.

المعقولِ فضلًا عن كونِهِ بدون أيِّ دليل أو برهان[1]، وهو ما يعرّي زيفَ ادِّعاءاتِهم، ويؤكِّد جهلَهُم وسوء فهْمِهم لطبيعة الخلق الإلهيِّ.

دلالةُ صيغةِ الإفك وإضافته إلى ضميرِهم:

الإفكُ الواردُ في الجملة من قوله تعالى: ﴿إِفۡكِهِمۡ﴾ واردٌ على صيغة المصدر الدّالَّة على بلوغ الغايةِ في الحدث، ففي المصدريَّة خلوصُ الفعلِ مِن أيِّ شائبةٍ أو نقص، وفي إضافتهِ إلى ضميرهم تشنيعٌ عليهم، وتقبيحٌ لهم، فكان الإفكُ كظلِّهم الذي يلازمهم بما تبثُّه الإضافة من معنى الملابسة[2].

الإفـــكُ ظـلٌّ الـكـذب الـذي يلازم الكافرين ويـــشـــوِّهُ سمعتَهم

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَيَقُولُونَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ مزحلقةٌ تفيد التَّوكيد[3]؛ لإظهار مدى زيف المشركين وكذبهم، وهذا التَّوكيد يشير إلى أنَّ ادِّعاءاتهم ليست مجرَّد أكاذيب عابرة، بل هي جزءٌ مِن طبيعتهم المستمرَّة في الافتراء والكذب، ممّا يؤكِّد إفكَهم، ويظهرُهُ بشكل قاطع.

ســـــوقُ لامِ التَّوكيد لكشف الزَّيف المستمرِّ فـي ادِّعـــاءات المشركين

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع في ﴿لَيَقُولُونَ﴾:

شأنُ التَّعبير بالفعل المضارع أن يدلَّ على التَّجدُّد، وأنَّ من شأنه أن يتكرَّر، ويقع مرَّة أخرى[4]، والوارد من قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُونَ﴾ في هذا السّياق في أنَّهم مستمرّون[5] بقولِ ذلك الإفكِ العظيمِ: ولد اللّهُ، تعالى عنه سبحانه علوًّا كبيرًا.

تـجـدُّدُ الإفـكِ واسـتـمـراريَّـة الـكـذب في زعم الكافرين

ويجوز في التَّعبير بالفعل المضارع أن يكونَ على نيَّة حكاية حال ماضية[6]، ممّا يجعلُ بشاعةَ كذبهم تبدو، كما لو أنَّهم يقولونه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 181.
(2) الصّبان، حاشية الصّبان على شرح الأشموني: 2/ 356.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 207.
(4) السّبكي، عروس الأفراح: 1/ 316.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 305.
(6) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/ 114.

الآن[1]، وتُبيِّن كذبَهُم المستمرَّ، وتجعل إفكَهم حاضرًا أمامَ القارئِ، ممّا يعكس مدى زورِ مزاعمهم بشكل حيٍّ وواضحٍ.

سرُّ التَّعبير بالاسم الجليل دون الأسماء والصِّفات الأخرى:

الإحالةُ على الذّات الجامعة لجميع الصِّفات

عدل عن مظهرِ العظمة إلى الاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، وهو علمٌ دالٌّ على الذّات الإلهيَّة الجامعة لجميع صفات الكمال؛ إشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من صفاته، وكلَّ نعتٍ من نعوتِه العظيمة تأبى الولديَّة[2]، فاللّه ﷻ في عظمتِه وقدسيَّتِه يستحيل أن يكونَ له ولد؛ لأنَّه هو الخالقُ الواحد الأحد الصَّمد المستغني عن الذُّريَّة والنَّسل والولد.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

عطفُ الكذبِ على مقالة إفكِ الكافرين

الواو من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ دالَّة على العطف ممّا يعكس ارتباط المعنى السّابق باللّاحق، فالإفكُ بمعنى الكذب، وادِّعاؤهم بأنَّ للّه ولدًا جزءٌ من سلسلة أكاذيبهم المتعدِّدة، فكان منطقًا أن يتَّبعها بالعطف، ويخبر عنهم بصفة الكذب[3]؛ ليبرزَ بذلك الطّابع المتأصِّل في افتراءاتهم، ويُظهِر زيف أقوالهم.

موقع: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ودلالته:

ادِّعاءُ الولد افتراء وحالهم يشير إلى الكذب الملازم لطبيعتهم

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ جملةٌ خبريَّةٌ من المبتدأ والخبر واقعةٌ موقعَ الحالِ من الضَّمير الواو في جملة القول المتقدِّمة[4]، وهي جملةٌ مؤذنةٌ بكذبهم دالَّة على الحال، فهؤلاء عندما قالوا: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، إنَّما قالوه وهم في حالة من الكذب والافتراء مصاحب لأقوالهم، وتُظهر مدى زيف ادِّعاءاتهم، وعظم افترائهم؛ إذ يتبيَّن أنَّ كذبهم ليس حادثًا عابرًا بل هو حال ملازم لهم، ومُعبِّر عن طبيعتهم.

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّري: 23/ 207.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 305.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.
(4) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 88.

غرضُ تتابعِ المؤكّدات في قوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾:

تتابعُ المؤكّدات لفضح الادّعاءات وكشف زيف الافتراءات

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ غير مؤكِّد واحد، فقد صدَّر الجملة الخبريَّة بـ(إنّ) المؤكِّدة المشبَّهة بالفعل، وأدخل لام التَّوكيد على الخبر[1]، ويفيد تتابعُ المؤكِّدات تحقيقَ زيف افتراءات المشركين، وإظهارَ كذبهم الواضح، وإظهارَ الحقيقة المطلقة لهم، وفضح ادّعاءاتهم الباطلة، وهذا التَّتابعُ البديع يضفي على النَّصِّ قوَّةً وإقناعًا.

معنى اللّام ودلالتها في قوله: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾:

اللّامُ المزحلقةُ لتأكيد حقيقة الكاذبين وكشف زيف المدَّعين

الأصل في اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾ أن تكون للابتداء لكنها زُحلِقَت إلى الخبر كراهةَ اجتماعِ مؤكِّدين على اسم واحد، وتُسمّى اللّام المزحلقة[2]، وهذه اللّام تردُ؛ لتعزيز الحقيقة المطلقة بأنَّهم كاذبون، ففيه بيانُ مدى تمسُّكهم بالكذب، ويفضح طبيعتَهم الحقيقيَّة التي تتَّسم بالإفك والافتراء، ممّا يُزيل أيَّ شكٍّ أو ريبة قد تكون في ذِهن المستمِع.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾:

بين الجملتَين كمالُ اتِّصال في المعنى ممّا أوجبَ الفصلَ، فهو بذلك عودٌ إلى الاستفتاءِ[3]، وقد تآزرتِ الجملتان في نفي ادِّعائهم وبطلان شركهم.

بلاغةُ الاستفهامِ ونوعه وغرضه في ﴿أَصۡطَفَى﴾:

توبيخٌ وتقريعٌ في كشف تناقض ادّعاءات المشركين

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ دالٌّ على التَّوبيخ والتَّقريع[4] للمشركين الذين يدَّعون أنَّ الحقَّ سبحانه اختار البنات دون البنين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.
(2) مجموعة مؤلّفين، إعراب القرآن الكريم: 3/ 1990.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 360.

والاستفهامُ في جملة الاصطفاءِ ارتقاءٌ في التَّجهيل والإفحام، فلو سلَّمنا بأنَّ اللّٰه تعالى اتَّخذ ولدًا، فلماذا يصطفي البنات دون البنين؟ والبنون أفضل عندكم[1]؟ فالاستفهامُ في الجملة لإنكار هذا الادِّعاء؛ بغيةَ إثبات إفكهم، وتقرير كذبِهم[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 144.

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ١٥٦ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾

[الصافات: 154 - 157]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

على كلِّ دعوى بيِّنةٌ، ولا بيِّنةَ للمشركين على زعمهم الكاذب

لـمّا ذكرتِ الآيات السابقةُ مزاعمَ المشركين الباطلةَ، من إثبات الأولاد للّه ﷻ، وزَعْمِهم أنَّها من جنس الإناث لا من جنس الذكور؛ أبطل سبحانه دعاويَهم، وبكَّتهم بالإتيان بالأدلَّة على ما يفترونه[1]، فطالبهم أن يأتوا بحُجَّة واضحة، وبرهان مبينٍ على زعْمِهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَحۡكُمُونَ﴾: (حكم) أصلٌ واحد، وهو المَنْعُ، فالحُكْمُ هوَ المَنْعُ مِنَ الظُّلْم، وسُمّيَتْ حَكَمَةُ الدّابَّةِ؛ لأنَّها تَمْنَعُها، والحِكمَةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمْنَعُ مِنَ الجَهل[2]، والحُكمُ أعمُّ من الحِكمَة، فكلُّ حِكمَةٍ حُكمٌ، وليس كلُّ حُكمٍ حِكمَةً، فإنَّ الحُكم أن يُقضَى بشيءٍ على شيء، فيقول: هو كذا، أو ليس بكذا[3]، والمعنى هُنا: تَقْضونَ بالحُكم الجائر في حقِّ ربِّ العالمين، وهو أنَّهم نسبوا أخَسَّ الجِنسين وما يتطَيَّرون منه، ويتوارى أحدهم من قومه - عند بشارته به - إلى ربِّهم، ونسبوا أحسن الجنسين إلى أنفُسهم[4].

2) ﴿تَذَكَّرُونَ﴾: (ذكر) أصلان، أحدهما: ذَكَرْتُ الشَّيء، خلاف نسيتُهُ، فالذِّكْرُ: الحفظُ للشَّيء وتَذَكُّرُه، ثم حُمِل عليه الذِّكر

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 359.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(3) الراغب، المفردات: (حكم).
(4) السّمين، الدّر المصون: 9/ 334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

باللِّسان، أي: جَرْيُ الشَّيء على لسانك[1]، فهو ما ذكرْتَه بلسانك، وأظهرْتَه، والذِّكْرُ: الصَّلاة للّه تَعالَى، والدُّعاء، والثَّناءُ، وقِراءَة القُرآن، والتَّسبيحُ، والشُّكْرُ، والطّاعة[2]، ويأتي الذِّكر بمعنى الوعظ؛ لأنَّه إذا تذكَّر؛ قد يزدجر[3]، ومعنى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ هنا: تتَّعظون، وتنزجرون عن قول الباطل.

3) ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّة والقهر، ومنها قيل للوالي: سلطان، وسُمّيت الحُجَّة سلطانًا؛ لأنَّها تهجُم على القلوب، أو لأنَّها تقهَر المُنكِرَ، أو المُعارِضَ على التَّسليم، ولا يُقال للحُجَج: سلاطين، لجرَيان السُّلطان بمعنى الحجَّة مَجرَى المصادر، وسَلاطة اللِّسان هي: القوَّة على القول، وأكثر ما تُستعمَل في الذَّمِّ[4]، والسُّلطان هنا: الحُجَّة والبرهان[5].

المَعْنى الإجماليُّ:

توبيخُ المشركين على كَذِبهم، وتحدّيهم بأنْ يأتوا بالدَّليل عليه

تُخاطب الآيات الكريمة المشركين توبيخًا على قولهم وزعمهم بأنَّ البناتِ للّه تعالى، بقولها: بئسَ الحكمُ تحكمون - أيُّها القومُ - أن يكون للّه البناتُ، ولكم البنون، وأنتم لا ترضَون البناتِ لأنفسكم، فكيف تجعلون له ما لا ترضونه لأنفسكم؟ أفلا تتذكَّرون أنَّه لا يجوز، ولا ينبغي أن يكونَ للّه ولد؟ تعالى اللّه عن ذلك علوًّا كبيرًا، أم لكم حُجَّةٌ بيِّنة على قولكم وافترائكم؟ إن كانت لكم حُجَّة في كتابٍ من عند اللّه؛ فأتوا بها إن كنتم صادقين في قولكم[6].

(1) الخليل، العين، وابن فارس، المقاييس: (ذكر).
(2) الأزهري، التهذيب: (ذكر).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سلط).
(5) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 1/ 503، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/ 385.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 642، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

بيانُ افتراء المشركين بحكم باطل ووصفٍ آثم

فُصِلَ قَوْلُ اللّه تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ عن الجملة السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 153]؛ لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتّحاد الجملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّلُ الثّانية من الأولى منزلة نفسها[1]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 153]، فإنَّ إنكار اصطفاء البنات يقتضي عدم الدَّليل في حكمهم ذلك، فأبدل ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ من إنكار ادِّعائهم اصطفاءَ اللّه البناتِ لنفسه[2]، لبيان أنَّ حُكمَهم باطلٌ في خلوِّه عن الدَّليل.

غرضُ الالتفات من الغَيبة إلى الخطاب:

مباغتةُ الغائب الآثم توبيخٌ مبين وتقريع متين

انتقل النَّظمُ الكريم في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ إلى ضمير الخطاب - بعد أن سيقت الآياتُ السّابقة بضمير الغَيبة من قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 151 - 153] - على سبيل الالتفاتِ، والغرض البلاغيُّ منه هو تقريع المشركين وتوبيخهم على مقالتهم الباطلة، الَّتي لا تستند إلى نقل ولا إلى عقل[3]، فإنَّ للالتفات شأنًا في مجابهة المخاطَبين لتقريعِهم والازدراء عليهم.

غرضُ الاستفهام بـ﴿مَا﴾:

الإنكارُ على المشركين فيما أتوه من البهتان العظيم

تضمَّن قَوْلُهُ تَعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استفهامًا بـ ﴿مَا﴾ فأفاد الإبهام، وبسبب هذا الإبهام كانت كلمة (ما لك؟) ونحوها في الاستفهام يجب أن تُتلى بجملة حال تُبَيِّنُ الفعل المستفهَمَ عنه نحو: ﴿مَا لَكَ لَا

(1) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 108.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 182.

(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.

﴿تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: 11]، وقد بُيِّنَتْ هنا بما تضمَّنتهُ جملة: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾. وغرض الاستفهامِ توبيخ المشركين والإنكار عليهم عمّا استقرَّ لهم، وثبت حتّى قالوا ما قالوه من البهتان العظيم(1)، فإنَّ هذا الحكم لمّا صدر عنهم في حقِّ اللّه تعالى لم تكن عقولُهم حاضرة، ولم تكن قلوبهم متفكِّرة، فوجَّه لهم هذا الخطاب الاستفهاميَّ ليوقِفهم على أنَّهم أتَوا المنكرَ العظيم، وأنَّهم في حالٍ لم يتمكَّنوا معها من الحكم الصّائب.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

إذا اختصَّ الإنسانُ بحماقةٍ كان لها ظلمةٌ في حكمه

دلَّ حرفُ اللّامِ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ على الاختصاص المتعلِّق بمعنى الاستقرار، أي: ما استقرَّ لكم أيُّها المشركون، واختصصتم به حتى تحكموا بهذا الحكم الجائرِ مِن نسبة أخسِّ الجنسين - وهو الإناث - إلى اللّه سبحانه مع كونكم لا ترضونه لأنفسكم؟ كأنَّه قيل لهم: ما الذي أصابكم مِنَ الغفلة والحماقة والإغراب حتى قلتم ما قلتم؟ وما الذي اختصصتم به من الوصف المُزري بالعقلاء؟.

نكتةُ فصْلِ الاستفهامِ عن الاستفهام:

استفهام الحال يُبيِّن الاستفهام المُبهَم

فُصل قول اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾؛ لأنَّه جاء بيانًا وتفصيلًا لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ﴾؛ فلمّا كانت ﴿مَا﴾ موغلةً في الإبهام؛ اقتضى ذلك أنْ تُتلى بجملةِ حال تُبَيِّنُ الفعلَ المستفْهَمَ عنه، فبُيِّنَتْ هنا بما تضمَّنته جملة: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، فهو استفهامٌ يُبيِّن استفهامًا، والفصل لكمال الاتِّصال.

دلالةُ الاستفهام بـ﴿كَيۡفَ﴾:

أداة الاستفهام ﴿كَيۡفَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾

---

(1) السّمين، الدّر المصون: 9/ 334، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

الإنكارُ التَّوبيخيُّ مُصاحبٌ لكلِّ مفترٍ على الله سبحانه

في موضع الحال من ضمير ﴿تَحۡكُمُونَ﴾، وقد قُدِّمت لصدارة الاستفهام، وآثر النَّظمُ الكريم الاستفهامَ بالأداة ﴿كَيۡفَ﴾ دون (ماذا)؛ لأنَّها اسمُ استفهامٍ عن الحال، فالمعنى: (ما حالكم وصفتكم الَّتي اتَّصفتم بها لمّا حكمتم هذا الحكمَ الباطل، ونطقتم بهذا القول الزّائف؟)، ففيه مزيدُ توبيخٍ لما أنَّ الإنكار قد انصبَّ على الحال الَّذي صاحبهم في هذه المقولة، فهو إنكارٌ توبيخيٌّ، ملتصقٌ بهم ما داموا ناطقين بما نطقوا به.

دلالةُ الفعل ﴿تَحۡكُمُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عنادُ المشركين مستمرٌّ منذ لحظة الضَّلال إلى حين الخطاب

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مادَّة الحكم في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾؛ لدلالته على أنَّ افتراءَ المشركين كان صادرًا عن عنادٍ بالغ، لا عن رأيٍ طائش، فهُم أحكموا قيلَهم بعناد الشِّرك، وتكذيب الحقِّ، وجاء الفعل ﴿تَحۡكُمُونَ﴾ بصيغة المضارع دلالةً على أنَّ ما صدر عنهم في الماضي استمرَّ معهم إلى حين الخطاب، وهو ما يُناسب الإنكارَ عليهم.

بلاغةُ الإيجاز في تتابُعِ الاستفهامَيْن:

ازدحامُ دلالتَي الإنكار والتَّعجيب توبيخٌ على البهتان العجيب

توالى في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ استفهامانِ: أحدهما عن الشَّيءِ الَّذي حصل لهم؛ ليحكموا هذا الحكم، وثانيهما عن الحالة الَّتي اتَّصفوا بها لمّا حكموا هذا الحُكم الباطل، وفي هذا إيجازُ حذفٍ تقديرُهُ: (ما لكم تحكمون هذا الحكمَ؟ كيف تحكمونه؟)، وحُذِف متعلِّق ﴿تَحۡكُمُونَ﴾؛ لِما دلَّ عليه الاستفهامان من كون ما حُكِّموا به مُنْكَرًا يحِقُّ العجبُ منه، فكلا الاستفهامين إنكارٌ وتعجيب[1].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

دلالة الاستفهام بالهمزة:

جاء قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مصدَّرًا بحرف الهمزة، وهي تدلُّ هنا على الاستفهام الإنكاريِّ. والفاء للتَّفريع، فقد فرَّع الاستفهام الإنكاري لتوبيخهم عن عدم تذكُّرهم واستبعاد حصوله منهم، وعدم تفهُّمهم فيما يصدر من أحكام باطلة.

دلالة فاءِ ﴿أَفَلَا﴾:

الاستفهام مفرَّعٌ على المذكور، أو مـعـطـوفٌ على محذوفٍ

عَطَفَتِ الفاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ على محذوفٍ مفهوم من السّياق، أي: (أعَمَيتم عن الحقائق، وضللتم عن الشواهد، فلا تتذكَّرون بطلان قولكم؟)، أو التَّقدير: (ألا تلاحظون ذلك؟ فلا تتذكَّرون بطلانه؟)، فإنَّه مركوزٌ في عقل كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ، وهذا على تقدير المعطوف عليه المحذوف بعد الهمزة، ويحتمل أن تكون مقدَّمةً من تأخير، والأصل: (فألا تذكّرون؟)، فقُدِّمت الهمزة على الفاء؛ لأنَّ لها الصَّدارة[1]، ويكون المعطوف عليه مذكورًا في السّياق المتقدِّم، والفاء تفريعُ استفهامٍ على آخر.

بلاغةُ اختيار ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

ليس بين نفوس البشر وطبيعة الـفِـطَـر إلّا أن تتذكَّر

استعمل النَّظمُ الكريم مادَّة الذِّكر في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؛ لتقريع المشركين وتوبيخِهم على عدم التَّذَكُّرِ، والتَّذَكُّرُ: التَّأمُّلُ، وهو بهذه الصّيغة لا يُطْلَقُ إلّا على ذِكْرِ العَقْلِ لمعقولاته، أي: حركته في معلوماته، فهو قريبٌ من التَّفَكُّرِ، إلّا أنَّ التَّذَكُّرَ لـمّا كان مشتقًّا من مادَّة الذِّكْرِ الَّتي هي في الأصل جريان اللَّفظ على اللِّسان، والَّتي يُعَبَّرُ بها أيضًا عن خُطورِ المعلوم في الذِّهن بعد سهوه وغيبته عنه؛ كان مشعرًا بأنَّه حركة الذِّهن في معلومات مُتَقَرِّرَةٍ فيه مِن قبلُ[2]، ومجيءُ هذا الفعل بصيغة المضارع دالٌّ على استمرار

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 208، ودرويش، إعراب القرآن: 10/ 71.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.

المشركين في جهلهم، وعدمِ تذكُّرهم وتجدُّد الغيِّ منهم، وباستمرار غيِّهم يستمرُّ الإنكار عليهم.

اختـلافُ المباني دالٌّ على اختلاف المعاني

لطيفةٌ في توجيهِ قراءاتِ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾:

اختلفَ القرّاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: فقرأ حمزة والكسائيُّ وخلفٌ وحفص بتخفيف الذّالِ: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾، وقرأ الباقون بالتَّشديد: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾[1]، فوجهُ قراءة التَّشديد: ﴿تَذَّكَّرُونَ﴾ أنَّ أصلها: (تَتَذَكَّرون)، فأُدغم تاء تفعَّل في الذّال؛ لقُرب مخرجَيهما، ووجهُ قراءة التَّخفيف: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّه على حذف إحدى التّاءين، وهي الثّانية[2]، وقد روعي التَّخفيف في كلتا القراءتين، غيرَ أنَّ التَّخفيف في قراءة التَّشديد كان بإدغام الحرفين المتقاربين تسهيلًا، وفي القراءة الثّانية حصل التَّخفيف بالحذف، ولعلَّ في هذا التَّخفيف إشارةً إلى حثِّهم على أنْ يحصُلَ منهم أدنى تذكُّر، فيعلموا بُطلان مقالتهم[3].

الإنــكـــارُ على المشركين انتفاء الـتَّـذكُّـر عنهم فعلًا ومفعولًا

نكتة حذف متعلّق التَّذَكُّر:

حُذِفَ مفعول التَّذَكُّر في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، إمّا لإفادة العموم، فيشمل كلَّ ما هو مغروزٌ في النَّفس البشريَّة، مِن غير أن يُقصدَ النَّصُّ على مفعول معيَّنٍ[4]، وإمّا لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم، فيُفيد التَّركيز على فعل التَّذَكُّر في حدِّ ذاته، والاقتصارَ على إثبات معنى الفعل لإفادة الوجود المجرَّد في الشَّيء دون التَّعرُّض للمعمول[5]، فيُجعل المتعدّي كغير المتعدّي في أنَّك لا ترى له مفعولًا لا لفظًا ولا تقديرًا، وإذا كان الكلام مُنصَبًّا إلى

(1) ابن الجزري، النشر: 02/ 266.
(2) ابن زنجلة، حجّة القراءات، ص: 279.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 09/ 264.
(4) الخطيب القزويني، التلخيص، ص: 127.
(5) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 153.

غرض مِن الأغراض؛ جُعل سياقه له وتوجُّهُه إليه، كأنَّ ما سِواه مرفوضٌ مُطَّرَح[1].

الانتقالُ من الاستنكار إلى المطالبة بالاستدلال

نوعُ ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها:

﴿أَمۡ﴾ في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ - على أصحِّ الوجوه - منقطعةٌ غيرُ متَّصِلة بما قبلها ألبتَّة، وهي تُفسَّر بحرف (بل) مَع همزةِ الاستفهام، أي: (بل ألَكم سلطان مبين؟)، ومعناها الإضرابُ الانتقاليُّ[2].

التَّعجيب من حماقة المشركين في إفْكِهم المبين

بلاغة الاستفهام بـ﴿أَمۡ﴾:

يتجلّى في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ أسلوبُ الاستفهام الإنكاريِّ الَّذي تقتضيه ﴿أَمۡ﴾، والغرضُ منه الإنكار والنَّفي، فالمعنى: (ما لكم سلطانٌ مبين)، فأنكر أن تكون لهم حجَّةٌ على ما قالوه مِن أنَّ الملائكة بناتُ اللّه، كما أنَّ في الاستفهام عن دعوى المشركين بصيغة الإنكارِ أثرًا في تلقّي السّامع هذه الدَّعوى بمزيد الاشمئزازِ والتَّعجُّب من حماقة أصحابها[3].

إبطالُ استقرارِ دليلٍ واضحٍ عند المشركين، يختصّون به عن غيرهم

معنى لامِ الجرِّ:

دلَّ حرفُ اللّام الجارَّةِ في قول اللّه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾ على الاختصاص المتعلِّق بمعنى الاستقرار، أي: (أم استقرَّ، وثبت لكم سلطانٌ مبين، واختصصْتُم به، حتى تحكُموا بهذا الحكم الجائرِ، مِن نسبة أخسِّ الجنسين - وهو الإناث - إلى اللّه سبحانه، مع كونِكم لا ترضونَهُ لأنفسكم؟).

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

قُدِّم شبه الجملة ﴿لَكُمۡ﴾ على المبتدأ ﴿سُلۡطَٰنٞ﴾، في قول اللّه

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 10/ 103، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 170.

تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾؛ لغرض المبالغة في الاختصاص الَّذي دلَّت عليه اللّام، والمقصودُ نفْيُ اختصاصهم بسلطان مبين على ما قالوه من البهتان العظيم(1).

بلاغةُ التَّعبير بالسُّلطان نكرةً:

مطالبةُ الوضيعِ بأعلى الرُّتبِ تهكُّمٌ كاشفٌ وبيانٌ فاضح

آثرَ النَّظم الكريم استعمالَ السُّلطان في قول اللّه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾؛ لزيادة التَّهكُّم بالمشركين، فإنَّ مِن شأن مَن ادَّعى مثل ادِّعائهم أن يأتيَ على كلامِه بسلطان يتَّصف بالقوَّة الحاكمة على الدَّليل المذكور، ولمّا طولِبوا بالسُّلطان، وهم لا يملكون أقلَّ الأدلَّة على ما يقولون؛ كان ذلك تهكُّمًا بهم، وجاء اللَّفظ منكَّرًا، لإبهامه وعدم تعيينِ المراد منه؛ للدَّلالة على اتِّساع مجال المعارضة والتَّحدّي للمشركين في الإتيان بأيِّ سلطان مهما كان، وفي هذا غايةُ التَّبكيت والتَّعجيز لهم.

فائدةُ الوصف بلفظ ﴿مُّبِينٞ﴾:

تأكيدُ معنى التَّهكُّم والتَّعريض بالسُّلطان المبين

وُصِف السُّلطان في قول اللّه تعالى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ﴾ بأنَّه ﴿مُّبِينٞ﴾، الَّذي جاء على وزن مُفْعِلٍ بمعنى فَعيلٍ، فقد اشتُقَّ (المبين) مِن أبانَ يُبينُ إبانَةً، فهوَ مُبينٌ، بمعنى الظُّهور، والباء والياء والنّون أصل واحد، وهو بُعد الشَّيء وانكشافه(2)، ومعنى السُّلطانِ المبينِ في الآية: الحجَّة الموضِّحة للحقِّ(3)، وأكَّد هذا الوصفُ معنى التَّهكُّم المراد في الآية، فإنَّ السُّلطان المطلوب ليس أيَّ سلطان، بل هو مبين، مع ما في الوصف من التَّعريض بالسُّلطان المبين الَّذي جاء به سيِّد المرسلين.

نوعُ الفاءِ ودلالتها الرّابطة:

مِن جملة السُّلطان المبين كتابٌ مِن عند اللّه، لكنَّهم كاذبون على الله

الفاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ للتَّفريع والتَّرتيب، فقد تفرَّع على إنكار أنْ تكونَ لهم حجَّةٌ بما قالوا:

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

خطابُهم بالإتيان بكتابٍ من عند الله على ذلك إن كانوا صادقين فيما زعموا، أي: فإن لم تأتوا بكتابٍ على ذلك؛ فأنتم غير صادقين(1)، وتحتمل أن تكونَ الفاءَ الفصيحةَ، وهي الّتي تفصح عن شرط مقدَّر، والتَّقدير: إن كان عندكم سلطان مبين؛ فأتوا بكتابكم(2).

بلاغةُ اختيارِ مفردة الإتيان:

تعجيزُ المشركين عن الاستدلال لزعمهم زيادةٌ في التّهكُّم بهم

أوثِرَ في قول الله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ استعمالُ مفردة الإتيان لما فيه من الإشارة إلى يُسر إحضار الموجود، وهو الكتابُ المُفترض، ولمّا كان الكتابُ لا وجودَ له؛ كان هذا مِن باب المبالغة في التَّهكُّم بالمشركين، بأنَّ الإتيان بسلطان مبينٍ على افترائهم سهْلٌ عليهم، فلمّا عجزوا؛ دلَّ ذلك على كذبهم وافترائِهم، كما أنَّ في التَّعبير بالإتيان احتمالَ جلبِ الشَّيء وإحضاره، سواء بالاسترفاد من الآخر، أم بالاختراع من الجالب، فأفاد التَّوسعةَ عليهم في التَّحدّي، بمعنى: (سواءٌ كان الإتيانُ من قِبَلِهم أم مِن جهةٍ أخرى تقوم مَقامَهم؛ ليظهر عجزُهم من جميع الجهات)(3).

غرضُ الأمر ودلالته:

تبكيتُ المشركين بإظهار عجزهم وفضحِ كذبهم

الأمرُ بالإتيان في قول الله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ ليس على حقيقتهِ، بل خرجَ مخرجَ التَّعجيز، بجعلهم كالمأمور بالإتيان، فيعمدون إلى التَّنفيذ، فلا يستطيعون، فيكون ذلك أشدَّ تبكيتًا وتقريعًا(4)، ويرادُ بهذا التَّعجيزِ: التَّحدّي؛ إذِ المقامُ مقامُ إظهار عجزِهم عن إثبات ما قالوه بدليل العقل والنَّقل، فإنَّهم إن حاولوا ذلك بعد سماعِهم الأمر، ولم يمكِّنهم؛ ظهر عجزُهم، وبان للعَيان.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.
(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 19.
(4) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.

دلالةُ الإيماءِ في خطابِ الجمع:

الخطابُ شاملٌ لكلِّ مُفترٍ على الله هذا الافتراءَ

لمّا جاء الأمرُ في قول الله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ دلَّ على أنّه موجَّهٌ إلى جميع المخاطَبين الَّذين افترَوُا الافتراءَ المبين، والَّذين تابعوهم من أصحاب التَّقليد المتين، فالخطاب لا يختصُّ بمعيَّنين وقتَ نزول القرآن فحَسْب، بل يتناول كلَّ مَن يصدُر عنه هذا البهتانُ على امتداد الأزمان، ويدخل فيه المشركون وقت النُّزول دخولًا أوَّليًّا، كما يؤذِن التَّعبيرُ بصيغة الخطاب قوَّةَ حجَّة القرآن في دحضِ شبهات الكفّار في كلِّ زمان ومكان، ولو اجتمعوا كلُّهم على أن يأتوا بسلطانٍ واحدٍ على زعمهم لن يأتوا به.

نكتةُ إضافة الكتاب إلى الضمير:

انتفاءُ الخبر الصّادق والعقل الزّاجر دليلُ البهتان الفاضح

أضيفَ لفظُ الكتاب في قول الله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ﴾ إلى ضميرِ المشركين عَلَى وجه الفرض، كما دلَّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، والمعنى: (فأتوا بحجَّتكم من كتابٍ جاءكم من عند الله بأنَّ الَّذي تقولون: إنَّ له البنات، ولكم البنين، حقٌّ وصدق، فإنَّ مثل هذا يُعلَم بالخبرِ أو العقل، والعقل الصَّحيح يردُّه، والخبر لا وجودَ له، فثبت كذبُكم وافتراؤكم؛ فإذا لم ينزل عليكم كتاب سماويٌّ، فيه ذِكرُ ذلك الحكم، فلِمَ تُصِرّون على الكذب والبُهتان؟)[1].

نكتةُ استعمال أداة الشَّرط ﴿إِنْ﴾:

التَّشكيك بصدق المخاطَب يُثير العجزَ جِهارًا

جاء أسلوب الشَّرط في قول الله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ باستعمال حرف ﴿إِنْ﴾ الدّالِّ على قلَّة تحقُّق الوقوع، دون (إذا) الدّال على قوّة مظنَّة الوقوع، وذلك لأنّه الأنسب بالسّياق، فصدقُهم في دعواهم غيرُ ثابتٍ، وجعْلُه شرطًا للإتيان بالكتاب المتضمِّن السُّلطانَ المبين زيادةُ نفيٍ وتعجيز.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 643، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 283.

غرضُ أسلوب الشَّرط:

افتراضُ صدق المشركين تهكُّمٌ يلوي على الكاذبين

مجيءُ الشَّرط في قول اللّه سبحانه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ للتَّعريض بكذب المشركين وافترائهم ومجانبتهم الحقَّ فيما قالوه من البهتان، فإنَّه لمّا كان كذبهم فيما قالوه معلومًا، كان قوله: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ استهزاءً وتهكُّمًا بهم؛ إذ جُعِل الصِّدق ممّا يمكن أن يتَّصفوا به، وهو كقولك لأحد الجبناء: إن كنت شجاعًا؛ فالقَني، ومعلوم أنَّ اللِّقاء ممتنعٌ مِن جهته[1]، فجاء الشَّرطُ على وجه التَّهكُّم بهم؛ لأنَّ فيها إطماعًا بتحقُّق الشَّرط مع العلم باستحالته[2].

نكتةُ حذْفِ جواب الشَّرط:

حذْفُ المعلوم إطلاقٌ للفكرِ وتحريكٌ للنَّفس

جوابُ الشَّرطِ في قول اللّه تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه ما ذُكِرَ قبلَه، والتَّقدير: (إن كنتم صادقين أنَّ اللّه اصطفى البناتِ على البنين؛ فأتوا بسلطان مبين على ذلك)، فلمّا انتفى إتيانُهم بسلطان؛ حُذِفَ الجواب مِنَ النَّصِّ مشاكَلةً، كما أنَّ في حذف المتعلِّق إنكارَ اتِّصافهم بصفة الصِّدق على وجه المبالغة والتَّعميم، فإنَّ مَن يفتري مثل ذلك الافتراءِ ينتفي عنه وصفُ الصِّدق فيما قاله انتفاءً أوَّليًّا، ويشمل عدمَ صدقهِ في كلِّ ما يقوله[3].

دلالةُ توالي الاستفهام في الآيات:

تسفيهُ أحلامِ مشركي قريش وتجهيل نفوسهم واستركاك عقولهم

تكرَّر الاستفهام الإنكاريُّ في سياق قول اللّه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ﴾، ناعيًا على مشركي مكَّة جهلَهم المُفرِط، القائمَ على ثلاث جهالات: أولاها: التَّجسيم؛ لأنَّ الولادة من خصائص الأجسام، وثانيتها: تفضيل أنفسهم على ربِّهم، حيث جعلوا أوضعَ الجنسين - في اصطلاحهم ومفهومِهم - للّه، تعالى عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا، وادَّعَوا أرفعهما

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 265.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 101، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 2/ 45.

لهم، وتلك جهالةٌ ما بعدها جهالة، وثالثتها: أنَّهم استهانوا بأكرم خلق اللّهِ وأقربهم إليه، حيث أنَّثوهم، وقد كانوا يتعايرون بوصف الأنوثةِ، ويعتبرونه مِن دلائل المهانةِ وسمات الخِسَّة.

فهذه الآياتُ صادرةٌ عن سخط عظيم، وإنكار فظيع، واستبعاد لأقاويلهم شديد، وما الأساليب الَّتي وردت عليها إلّا ناطقة بتسفيه أحلام قريش، وتجهيل نفوسها، واستركاك عقولها، مع استهزاء وتهكُّم وتعجيب، من أن يُخْطِر مُخطِرٌ مثل ذلك على بالٍ، ويحدِّثَ به نفسًا، فضلًا بأن يجعله معتقَدًا، ويتظاهرَ به مذهبًا[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السُّلطان والآية والحجَّة والبرهان:

السُّلطان أقوى الأدلَّـة، والآية علامة فارقة، والحجَّة إثبات وجه الدَّلالة

أصلُ السُّلطان من السُّلطة والقوَّة، ومنه السَّليط لقوَّة اشتماله، والسَّلاطة لحدَّة اللِّسان[2]، والسُّلطان: إظهارُ ما يتسلَّط به على نقيض المعنى بالإبطال[3]، أمّا الآية؛ فهي العلامةُ[4]، والحجَّة في كلام العربِ ما يُقصد به إثبات المخالِف بحيث لا يجد منه تخلُّصًا، والبرهان: هو إظهار صحَّة المعنى وإفساد نقيضه[5].

فالسُّلطان أقوى هذه الألفاظ، فهو حجَّة موضِّحة للحقِّ[6]، ويدلُّ على معنى زائد عليها، وهو القوَّة في التَّنفيذ؛ ولذلك آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالَهُ في الرَّدِّ على المشركين.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 64، ودرويش، إعراب القرآن: 08/ 314.
(2) الكفويّ، الكليات، ص: 493.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والكفويّ، الكليات: 3/ 3.
(4) ابن فارس، المقاييس: (أيي).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 108، والجرجاني، التّعريفات، ص: 35.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 183.

﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ١٥٨﴾ [الصافات: 158]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

تعَدّي المشركين في إفكهم، وشناعة وصْفِهم له

لـمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ افتراءَ المشركين فيما نسبوه للّه تعالى من أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه؛ ناسب هنا أن يذكر افتراءً آخرَ يزيد الأوَّلَ شناعةً وقُبحًا، وهو افتراءُ النَّسَبِ بين اللّه وبين الجنِّ، فشفَّع قولهم السّابق - بولادة الملائكة - بقولِهم هذا في كيفيَّة حصول تلك الولادة، بأن زعموا أنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه من سَرَوات الجنِّ، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا[1].

فهو انتقالٌ من الاستدلال بطلب الدَّليل إلى الإعراض عنهم في ذكر مزيد شنائِعهم، وهو ما يُعزِّزه الالتفات من الخطاب إلى الغيبة، وهي افتراءاتٌ متتاليةٌ يُنزِّه اللّهُ سبحانه عنها في عقول البشر الأسوياء، وتنفر عن سماعها أسماعُ البشر الأتقياء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾: (جنن) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّتر والتَّستُّر، ومنه الجنُّ؛ لأنَّهم متستِّرون عن أعيُن الخَلْقِ[2]، والجِنُّ: جماعة ولَدِ الجانِّ، وجمعهم: الجِنَّةُ والجِنّانُ، سُمّوا به لاستجنانهم من النّاس، فلا يُرَونَ[3]، والجنُّ ضدُّ الإنسِ، الواحد جنّيٌّ، وقيل: سُمّيت بذلك؛ لأنَّها تُتَّقى، ولا تُرَى؛ لذلك سُمّي ما يقابلهم بالإنس؛ لأنَّهم يُؤنَسون، أي: يُبصَرون[4]، ومعنى الجِنَّة في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغوي، فهي إمّا الملائكة، وإمّا الشَّياطين[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 185.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(3) الخليل، العين: (جن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (جنن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 645، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 134.

2) ﴿نَسَبًا﴾: (نسب) كلمة واحدة قياسها اتِّصال شيءٍ بشيءٍ، ومنه النَّسيب في الشِّعر إلى المرأة، كأنَّه ذِكرٌ يتَّصل بها، ولا يكون إلّا في النِّساء، ومنه النَّسَبُ، سُمّيَ لاتِّصاله وللاتِّصال به، والنَّسَب والنِّسْبَة أيضًا: اشتراكٌ من جهةِ أحدِ الأبوين، وذلك إمّا بالطّول، كالاشتراك مِن الآباء والأبناء، وإمّا بالعَرْض، كالنِّسْبة بين بني الإخوة، وبني الأعمام، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهۡرٗاۗ﴾ [الفرقان: 54][1]، ومعنى ﴿نَسَبًا﴾ في الآية: قول المشركين: إنَّ الملائكة بناتُ الله مِن سروات الجنِّ، فهو في زعمهم نسبٌ أُفُقيٌّ مع الجنِّ، وطوليٌّ مع الملائكة، وقيل: نسبُ أُخوَّةٍ بين الله وبين الشَّيطان، فهو نسبٌ أفقيٌّ، تعالى الله عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا[2].

3) ﴿لَمُحۡضَرُونَ﴾: (حضر) أصلٌ يدلُّ على إيرادِ الشَّيءِ ووُروده ومُشاهَدَته، وحضر الشَّيءُ أو الأمرُ: أتى وجاء وتهيَّأ[3]، والإحضارُ: جَعْلُ الشَّيءِ حاضرًا، ومعنى ﴿لَمُحۡضَرُونَ﴾: يجوزُ أن يكونَ من الإحضارِ، أي: جَعْلُ الشَّيءِ حاضرًا، أي: إنَّ الكفّار القائلين تلك المقالة يحضرون العذابَ لا يغيبونَ عنه، أي: لا يخرُجونَ منه، أو أنَّ الجنَّ يحضرون الحسابَ، لا يغيبون عنه، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى مأتيٍّ بهم إلى العَذابِ، فقد كَثُرَ في القُرآنِ استعمالُ مُحْضَرٍ ونحوِهِ بمعنى مُعاقَب[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

شناعةُ افتراء الكفّار يُغني عن ردِّ افترائهم

يحكي الله - تعالى ذكرُهُ - في هذه الآيات عن المشركين إفكَهم المبينَ: مِن جعلهم بينه وبين الملائكة قرابةً ونسبًا، مع أنَّ الملائكة قد

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نسب).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 645، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 135.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حضر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 646، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64.

علمت أنَّ المشركين مُحضَرون للعذاب يوم القيامة[1]، أو من جعلهم للّه ﷻ تزوُّجًا إلى الجنِّ، مع أنَّه علِمَ الجنُّ أنَّهم مُحضَرون للحساب يوم القيامة.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتها:

أهــلُ الباطلِ يُـحيلـون على الجهلِ المحضِ لـلـهـروبِ من الجوابِ الحقِّ

تحتمل الواوُ في قَوله تَعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ أن تكون للعطف، فقد عطفت هذه الجملة على القول من جملة: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٥٢﴾ [الصافات: 151 - 152]، أي: شفَّعوا قولهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: 152] بأن جعلوا بين اللّه وبين الجنِّ نسبًا بتلك الولادة، أي: بيَّنوا كيف حصلت تلك الولادة بأن جعلوها بين اللّه تعالى وبين الجنَّة نسبًا[2]، فأحالوا على مجهولٍ محض للخلوص من الجواب الحقِّ، وتحتمل الواو أن تكون استئنافيَّة، فالكلام مستأنف مَسوقٌ للإنحاء عليهم باللّائمة واستركاك عقولهم، بأنَّ مَن نسبوهم إلى اللّه تعالى يعلمون مصائرَهم المحزنة[3].

نكتةُ استعمالِ فعل الجعل:

فظاعةُ الباطلِ في تداولِهِ ورضاه

آثرَ النَّظم الكريم استعمالَ فِعلِ الجعل في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾، وهو لفظ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ مِن فَعَلَ وصَنَعَ وسائرِ أخواتها، ويتصرَّف على أوجهٍ حسب السّياق الَّذي يرِدُ فيه[4]، وهو في هذه الآية بمعنى الحُكم بالشَّيء على الشَّيء، فقد حكم المشركونَ زورًا وبهتانًا أنَّ بين اللّه وبين الملائكة أو الجنِّ نسبًا، ونكتةُ إيثار هذا الفعل على الحكم: هو أنَّهم

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 185.

(3) درويش، إعراب القرآن: 08/ 317.

(4) الراغب، المفردات: (جعل).

نزَّلوا (الجعل) منزلةَ الفعل المستقرِّ، بأن صيَّروا حكمَهم مجعولًا متداوَلًا بينهم، لا أنَّهم حكموا بالظَّنِّ أو الشَّكِّ، وهنا تكمن فظاعةُ الأمر وسوء الحال.

بلاغةُ الالتفات:

الإعـراضُ عن القبيح مزيَّة الكلام الفصيح

التفتَ الكلام من الخطاب في الآيات السّابقة: ﴿فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إلى الغيبةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾؛ ونكتةُ ذلك: الإيذانُ بانقطاعِهم عن الجواب، واقتضاءُ حالِهم القبيحةِ أن يُعرض عنهم، بطرْحِهم عن رتبة الخطاب، وبحكايةِ شنائِعهم للغير[1]، فهو انتقالٌ من المطالبة بالسُّلطان، إلى الإعراض عن شنائعِهم وافتراءاتهم.

نكتةُ تقديم الظَّرف:

قُدِّم ذِكرُ الظَّرف على المفعول في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾: للاهتمام بِه، فهو موضعُ الإنكار الشَّديد، والنَّسب تفسيرٌ لهذه البينيَّة.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾:

الاجتنان لفظٌ يحتمل دخولَ كلِّ مستَتِرٍ عن الأبصار

جاء لفظ ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ في قَول اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾ مُعرَّفًا بـ(ال)؛ للدَّلالة على الجِنس المقتضي للعموم، وقد ذهب أكثر أهل التَّفسير إلى أنَّ الجِنَّة ها هنا الملائكة، بقرينة ما سبق من الآيات، وسُمّيتِ الملائكةُ جِنَّةً؛ لأنَّهم لا يُرَوْن - إذِ الاجتنانُ هو الاستتار عن الأبصار - أو لأنَّهم خُزّانٌ على الجِنان، وقيل: سمّوا جِنَّةً؛ لأنَّ جنس الملائكة والجنِّ واحدٌ، ولكن من خبُثَ من الجنِّ، ومَرَدَ، وكان شرًّا كلُّه؛ فهو شيطان، ومن طَهُرَ منهم، ونَسَكَ، وكان خيرًا كُلُّه؛ فهو مَلَك، وقال مجاهد: إنَّهم بطنٌ من بطون الملائكة، يقال لهم: الجِنَّة[2].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 336.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 645، والزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 64، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 134.

وقيل: إنَّ الجنسَ المقصودَ بـ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ في الآية: الجماعةُ من الجنِّ، والنَّسَبُ الَّذي زعمه المشركون كَذِبًا: هو النَّسْلُ بالمصاهرة؛ إذ قالوا زورًا وبهتانًا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللّه مِن سرَوات الجنِّ، ويرجِّح هذا التَّفسيرَ للجنَّة: أنَّ الأصل في العطف المغايرةُ، وقد سبق ذِكرُ مقالة الكفّار في الملائكة، فليست هذه الآيةُ بإعادةٍ لما سبق، وإنَّما زيادةُ تشنيعٍ على افتراء المشركين بذكر نعتهم لهذه الولادة.

وقيل: إنَّ الجنسَ المقصود بـ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾: أصلُ الجنِّ، وهو الشَّيطان؛ إشارةً إلى قول الثَّنَويّة ومن تأثَّر بهم أنَّ اللّه إلهٌ للخير، والشَّيطانَ إلهٌ للشَّرِّ، أي: (جعلوا بين اللّه وبين الشَّيطان نسَبَ أُخوَّة) - تعالى اللّه عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا - وهو بعيدٌ؛ لأنَّ هذا الاعتقادَ لم يكن معروفًا بين المخاطَبين من مشركي أهل مكَّة[1].

فائدة التَّعبير بـ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾:

شيوعُ الجنَّة في الملائكة وخصوص الجنِّ بما يقابل الإنس

جاء تعبيرُ النَّظم الكريم بلفظ ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ في قَول اللّه تَعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾ دون (الجنِّ)، وهما من أصل واحد، وهو السَّتر والتَّستُّر، فكلاهما متستِّرٌ عن أعيُن الخَلْق[2]، ويختلفان في علاقة العموم والخصوص: فلفظ ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن له الاجتنان، أي: الاستتار عن الأبصار، فيدخل في ذلك الملائكة والجنُّ[3]، ولفظ (الجنِّ) خاصٌّ بولد الجانِّ، وهو ما يُقابل الإنس[4]، فكان استعمال ﴿ٱلۡجِنَّةِ﴾ لإدخال الملائكة والجنِّ، فالمشركون زعموا نسبَ الولادة للملائكة، وزعموا أيضًا نسَبًا بالمصاهرة مع الجنِّ.

غرضُ تنكير لفظِ ﴿نَسَبٗاۚ﴾:

إبهامُ التَّفاصيل لتفظيع شأنِ الافتراء

نُكِّر لفظُ ﴿نَسَبٗاۚ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 186.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جن).
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 64.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (جنن).

﴿نَسَبًاۚ﴾؛ لأنَّه مبهمٌ من حيثُ الماهيَّة والوصف والكيفيَّة، وغرضُ التَّنكير تفظيعُ الافتراء بقطع النَّظر عن تفاصيله وبيانه، فإنَّ مجرَّد إثبات النَّسَب بين اللّه ﷻ والجِنَّة عمومًا منكرٌ في الفكر، منتِنٌ في القلب.

نوعُ الواو ودلالتُها:

حالُ أهل الحقِّ العلم وأهل الافتراء الادّعاء

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ دالَّةٌ على الحال، فالكفرة يقولون ما يقولون في شأنِ الملائكة، والحال أنَّ الجِنَّةَ عالمون أنَّ المشركين في ذلك القول الهُراء كاذبون، وأنَّهم محضرون للعذاب بسبب ما افتروه من الإفك المبين[1].

غرضُ التَّوكيد باللّام و(قد):

توكيدُ الحقائقِ في مقابل ذِكر المزاعم

ورد في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ حرف (اللّام) متَّصلًا بحرف (قد)، وهذه اللّام هي الدّاخلة على جواب القسم، فلولا هذه اللّام؛ لم يُعلم أنَّ في الكلام قَسَمًا مقدَّرًا، فقد مهَّدت له الجواب، ولذا تُسمّى ممهِّدة ومُؤذِنة[2]، وقد دخلت (اللّام) على (قد) الدالَّةِ على التَّحقيق مبالغةً في التَّأكيد، وكثُر في الكلام اقترانُ جملةِ جواب القسم بـ(قد)؛ لأنَّ القسم يهيّئ نفسَ السّامع لتوقُّعِ خبرٍ مهمٍّ، فيُؤتى بـ(قد)؛ لأنَّها تدلُّ على تحقيق أمر متوقَّعٍ، والغرضُ مِن تأكيد هذا الخبر بكلِّ هذه المؤكِّدات هو المبالغةُ في تكذيب المشركين الَّذين جعلوا بين الجِنَّة وبينه تعالى نسبًا، والجِنَّةُ أعلم منهم بحقيقة الحال، وبما للمفترين على اللّه مِن سوءِ المآل[3].

نكتةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

ورد الفعل ﴿عَلِمَتِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ

(1) درويش، إعراب القرآن: 08/ 317.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 2/ 173.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 208.

احتمالُ الحقيقةِ والمجازِ في مُضيِّ تحقُّق العلم

﴿لَمُحۡضَرُونَ﴾ بصيغة الماضي المفيدة للتَّحقُّق، وظاهره أنَّ هذا العلم حاصلٌ للجنَّة فيما مضى، ولعلَّ ذلك حصل لهم من زمانِ تمكُّنهم من استراق السَّمع، وعلى هذا فالاستعمالُ على حقيقته، ويجوز أن يكون مِن استعمال الماضي في موضع المستقبل لتحقيق وقوعهِ، مثل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، فيكون مجازًا، أي: ستعلم الجنَّة ذلك يوم القيامة، والمقصود أنَّهم يتحقَّقون ذلك، ولا يستطيعون دفْعَ العذاب عنهم، فقد كانوا يعبدون الجنَّ لاعتقاد وجاهتهم عند اللّه سبحانه بذلك النَّسب المزعوم(1).

تعيينُ مرجع ضميرِ ﴿إِنَّهُمۡ﴾:

جزاءُ مَنِ افترى على الله الكذبَ أن يُجرَّ لِهَون العذابِ جَرًّا

يحتمل أن يكونَ مرجع الضَّمير (هم) في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ للكفرة، والمعنى: (أنَّهم يقولون ما يقولون في الملائكة، وقد عَلِمَ الملائكة أنَّهم في ذلك كاذبون مفترون، وأنَّهم مُحضَرون النّارَ، معذَّبون بما يقولون)، ويحتمل أن يرجعَ إلى أقرب مذكور، وهو لفظ ﴿ٱلۡجِنَّةُ﴾، فعلى القول بأنَّهم الشَّياطين، فالمعنى: أنَّه (قد علمتِ الشَّياطينُ أنَّ اللّه تعالى يُحضِرهم - ولا بُدَّ - النّارَ، ويعذِّبهم بها، ولكن من جعل معنى ﴿ٱلۡجِنَّةُ﴾ الملائكةَ قال: إنَّ معنى كونِهم محضرين أنَّهم يُحضَرون حسابَ المشركين، والأوَّل أولى؛ لأنَّ الإحضار إذا أُطلق؛ فالمرادُ به العذابُ على المشهور(2).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإحضار:

أثـرُ الاتِّسـاقِ العامِّ في اختيار الألفاظ وترجيح المعاني

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالإحضار في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾، والمعنى: (إنَّهم لَمَأْتيٌّ بهم إلى العذاب)، فقد كثُرَ في القرآن استعمالُ مُحضَرٍ ونحوه بمعنى مُعاقَب،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 187.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 64، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 145، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 284.

وهو ما جاء في سياق هذه السّورة، في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ۝٥٧﴾ [الصافات: 57]، وقوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٢٨﴾ [الصافات: 127 - 128]، ولسياق السورة أثرٌ في اختيار الألفاظ إنِ اتَّسقت في دلالتها[1]، وفيه أنَّ جهنَّم سجنُ الكافرين في الآخرة، فكما أنَّ المجرم في الدُّنيا يُساق إلى السِّجن، وهو كارهٌ له، فكذا المجرم في العُقبى يُساق، ويجرُّ إلى النّار بالسَّلاسل والأغلال، فيذوق وبال كفره وتكذيبه.

لطيفةُ الكناية في الإخبار بالإحضار:

النّـارُ مَحضَرُ الكفّار، وجهنَّم سِجن الفجّار

في الإخبار عن مصير المفترين على اللّه من قَول اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ كناية عن كذِبهم؛ لأنَّ الإحضار إنَّما يكون على إكراه وإجبار، فيُجاء بالكافر رغم أنفه على كراهة، ولو كانوا صادقين في افترائِهم؛ لَمَا أُحضِروا للعذاب[2].

بلاغةُ صيغة اسم المفعول:

الإيـمـاءُ إلى العـذاب المقيم والإحضار المهين

آثر النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ باسم المفعول من الإحضار في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾، دون التَّعبير بالفعل المبنيِّ للمفعول (يُحضرون)، ونكتةُ ذلك إرادةُ الثُّبوت والدَّوام الَّذي يدلُّ عليه الاسم، فهُم إذا حضروا العذابَ؛ استقرّوا فيه، ولم يخرجوا منه، فهو وصفٌ لازم لهم[3]، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ۝٤٥﴾ [الشورى: 45]، فالتَّعبيرُ بالاسم يقتضي الدُّخولَ والإقامة، فكان اسمُ المفعول هو الألصقَ بالتَّرهيب.

نكتةُ توالي المؤكِّدات:

جاء الكلامُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 646، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 64، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 22/ 94.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 85، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 380.

المبالغةُ في تكذيبِ المفترين

لَمُحۡضَرُونَ﴾ على الخبرِ الإنكاريِّ، فقد أُكِّد بجملةٍ من المؤكِّدات: القسم، واللامُ الموطِّئة له، وحرف التَّحقيق (قد)، وحرف التَّوكيد (إنَّ)، واللّامِ المزحلقة، والمراد بهذا التَّأكيدِ: المبالغةُ في تكذيب المفترين؛ إذ أُضيف إلى عِلم الذين ادَّعوا لهم تلك النِّسبة[1].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 64.

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ١٦١ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ١٦٢ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ١٦٣﴾ [الصافات: 159 - 163]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

مـزاعـمُ الباطل تـرُدُّهـا كلمات الحقِّ

لـمّا ذكرتِ الآياتِ السّابقة ما زعمه المشركون المفترون على اللّه ﷻ من نسبةِ المخلوقين له، وأنَّ هذا القول هو الَّذي دعاهم إلى عبادة الجنِّ وعبادة الأصنام الَّتي سوَّلها لهم الشَّيطان؛ ناسب بعد ذلك بيانُ تنزيهِ اللّه سبحانه عن هذا الإفك العظيم، وعن كلِّ نقصٍ يَدَّعون، وأنَّ غيرَه لا يقدر أن يخالفَ مشيئته الكونيَّة، ولا إرادتَه في الخليقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: (خلص) أصل واحد مُطَّرِد، وهو تنقيةُ الشَّيءِ وتهذيبُه، يقولون: خَلَّصْتُهُ من كذا، وخَلَصَ هو[1]، والخالِص كالصّافي إلّا أنَّ الخالِص هو ما زال عنه شَوْبُهُ بعد أن كان فيه، والصّافي قد يقال لما لا شَوْبَ فيه، فحقيقةُ الإخلاص: التَّبرّي عن كلِّ ما دون اللّه تعالى[2]، ومن معنى جَعل الشيء خالصًا صافيًا ورد كل (مخلِص) و(مخلِصون) بكسر اللام، أي: الموَحِّدين الذين أخلصوا دينَهم للّه، وأمّا بفتح اللام؛ فهُم الَّذين أخلصهم اللّه لرسالته، وهذا معنى كُلِّ المخلَصين في القرآن[3]، وكلا المعنيين مقصودٌ في الآية، فقد وردت القراءة بفتح اللّام وبكسرها[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(2) الراغب، المفردات: (خلص).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلص).
(4) ابن الجزري، النشر: 02/ 295.

2) ﴿بِفَاتِنِينَ﴾: (فتن) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابتِلاءٍ واختِبارٍ[1]، ويُسمَّى الصّائغُ الفتّانَ[2]، وأصلُ الفِتنة: إدخالُ الذَّهبِ النّارَ للتَّصْفيةِ، يُقال: فتنْتُ الذّهبَ، أي: اختبرْتُه بالنّار، ثمَّ استُعير لكلِّ اختبارٍ بأمرٍ محضٍ[3]، وسُمّيَ الكفرُ فتنةً؛ لأنَّ الكُفرَ إظهارُ الفساد عند الاختبارِ[4]، وقال الماورديُّ: وإنَّما سُمّي الكفرُ فتنةً؛ لأنَّه يُؤدّي إلى الهلاك كالفِتنة[5]، ومعنى الفاتن في هذه الآية: المُضِلُّ والمُفسِد، الَّذي يحمل غيرَهُ على الفتنة والكفر[6].

3) ﴿صَالِ﴾: الصّادُ واللّامُ والحَرفُ المُعتَلُّ أصلٌ يدلُّ على النّار، وما أشْبَهَها مِنَ الحُمَّى، ومنه قَولُهُم: صَلَيْتُ العودَ بالنّارِ، والصَّلَى صَلَى النّارِ، واصطَلَيْتُ بِالنّارِ، والصِّلاءُ: ما يُصطَلَى بِهِ وما يُذْكَى بِهِ النّارُ ويوقَدُ[7]، وأصلاهُ النّارَ، وصَلاهُ صَلْيًا أَدْخَلَهُ إيّاها، وأثْواهُ فيها، وأصلُ الصَّلى لإيقادِ النّارِ، والمَعْنى هُنا: نُدْخِلُهُ فيها، فَيُلاقي حَرَّها وشِدَّتَها[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الهُدى والضَّلال بيد ذي الجلال وحده

ينزِّهُ اللّه نفسَهُ في هذه الآيات عمّا لا يليق بجلالهِ من افتراءِ المشركين، لكنَّ عبادَ اللّه حقَّ العبادة، الَّذين يوحِّدون اللّه، ويُخلِصون عبادتهم له، ولا يشركون به فيها شيئًا: لا يصِفونه إلّا بما يليقُ بهِ، وكذلك عبادُ اللّه الَّذين اصطفاهم لحمل الرِّسالة، والَّذين اختارهم لتوحيدِهِ واتِّباع رسلهِ، ينزِّهونه عن كلِّ نقصٍ وافتراءٍ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(3) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/ 405.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/ 625.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 1/ 251.
(6) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 135.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلي).
(8) الخليل، العين: (وصل)، وابن مَنْظورٍ، لِسانُ العَرَبِ: (صلا)، والسَّمينُ، عُمدَةُ الحُفَّاظِ: (صلي)، والزَّبيديُّ، تاجُ العَروسِ: (صلي)، والرَّاغِبُ، المُفرداتُ: (صلا).

فلذلك إنَّكم - أيُّها المشركون باللّه - وما تعبدون من دون اللّه مِن آلهة، ما أنتم بمضلّين الَّذين أخلصَهم اللّهُ لعبادته وتوحيده، ما أنتم بمضلّين أحدًا إلّا مَن قدَّر اللّه ﷻ عليه أن يَصْلَى الجحيمَ لكفرهِ وظلمهِ، فإنَّ الأمر بيد اللّه وحده(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى لفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾:

سبحان اسم مصدرٍ وهو علمٌ على التَّنزيه

ورد في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ استعمالُ لفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾؛ للدَّلالة على تنزيه اللّه ذي العظمة المطلقةِ، و﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمُ التَّسبيح، وهو اسمُ مصدرِ (سَبَّحَ) المضاعف، وليس مصدرًا؛ لأنَّه لم يجِئ على أبنية مصادر الرُّباعيِّ، وقيل: هو مصدر (سبح) مخفَّفًا بمعنى (نزَّه)، فيكون كالغُفران والشُّكران والكُفران من غفر وشكر وكفر، وقد كثُر استعمالُهُ منصوبًا على المفعوليَّة المطلقة بإضمار فعله كـ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 23]، وهو مصدرٌ منصوبٌ على أنَّه بدلٌ من فعله، وأصل الكلام: (أُسَبِّحُ اللّهَ سبحانًا)، فلمّا عوِّض عن فعلِه؛ صار: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ بإضافته إلى مفعوله الأصليِّ، وهو ممنوعٌ من الصَّرف للعلميَّة وزيادة الألف والنّون(2)، قال سيبويه: "وأمّا ترْكُ تنوين (سبحان)؛ فلأنَّه صار عندهم معرفة"(3).

دلالةُ استعمال الحرفِ (عن):

كلُّ نقيصةٍ فهي بعيدة عن ذي الجلال والعظمة

جاء الحرف (عن) مُدغَمًا في (ما) من قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، وقد أفاد الحرفُ (عن) المجاوزة، فهو بمعنى (بَعُدَ)(4)، ومعنى البُعدِ مناسبٌ لسياق الآية من تنزيه اللّه ﷻ وعلوِّهِ وبُعدِه عنِ الَّذي وصفه به المشركون مِن الولادة واصطفاء

---

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 414.
(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 324.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.

البنات، وهو أيضًا إبعادٌ للفكر والتَّأمُّل عن ساحة النَّقص التي جعلها أولئك الجهلةُ للّه ربِّ العالمين، فإذا سبَّح العبدُ، ونزَّه مولاه؛ ابتعدَ عن كلِّ نقصٍ.

نوعُ (ما) ودلالَتها:

احتمالُ المصدريَّة والموصوليَّة جمعًا بين الثَّبات والتَّجدُّد

تحتمل أداة (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أن تكون مصدريَّةً، والتَّقدير: (ﷻ عن وصفهم الجاهليِّ في حقِّ اللّه)، ويجوز أن تكون مَوصولةً بمعنى الَّذي، والعائدُ محذوفٌ، أي: (سبحان اللّه العظيم عنِ الذي يصفونه من الأقوال الباطلة)، وكيف يشركون بالخالق سبحانه بعضَ خلقهِ، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، واحتمال (ما) للمصدريَّة يُلحَظ فيه جانب الاسميَّة والثَّبات، كما أنَّ احتمال (ما) للموصوليَّة يُلحَظ فيه جانب الفعليَّة والتَّجدُّد، وكلاهما يتناسب مع واقعهم الجاهليِّ الشِّركيِّ، فإنَّ اعتقادَهم كان عن عنادٍ وإصرارٍ، وكانوا مستمرّين في ادِّعائه والدِّفاع عنه.

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

المداومةُ على الأوصاف الباطلة يستلزم التَّشنيعَ والتَّقريع

جاء التَّعبير بصيغة المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّ وصفَهم لم يصدُر مرَّةً واحدة، بل كان متجدِّدًا مستمرًّا، ففيه دلالةٌ على تجدُّد صدور تلك المقالات الشَّنيعة عنهم واستمرارهم في كفرهِم[1]، وهو ما يزيد مِنَ التَّشنيع عليهم، وإقامةِ الحجَّة عليهم في كونهم سلكوا طريقَ الباطل، وداوموا عليه.

نكتةُ حذف مفعول ﴿يَصِفُونَ﴾:

كلُّ ما صدر عن المشركين من الباطل فاللّه منزَّهٌ عنه

جاز حذفُ مفعول الفعل ﴿يَصِفُونَ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ بدلالة قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ عليه، أي: (سبحان اللّه عمّا يصفه به المشركون)، وحُذِف الضَّميرُ إيجازًا للعلم به، فإنَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 95.

الكلام في هذه الآيات كلِّها مُتعلِّقٌ بشؤون اللّه تعالى[1]، أو ليشمل كلَّ وصفٍ باطل ممّا ذُكِرَ في السياق، وممّا قالوه في غالب شأنِهم.

بلاغةُ جملةِ الاعتراض:

التّنزيهُ وقع بين ذمِّ المشركين ومدح المؤمنين

جاء قولُ اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ اعتراضًا بين جملة الإخبار عن علم الجِنَّة بعذاب المفترين يوم القيامة، وبين استثناء عبادِ اللّه المخلصين، وذلك أنَّ الاعتراض بين الجملتَين أفاد تنزيهَ اللّه تعالى عن أعمال المشركين قبل استثناء العباد المخلصين من ذلك؛ ذمًّا لصنيع المشركين، ومدحًا للعباد المخلصين، وللإيماء بأنَّ التَّنزيهَ واقعٌ لدى العباد موقعَ القبول والعمل.

نوعُ الاستثناء وغرضه الدَّلاليُّ:

المخلصون يَنجون من باطل الدُّنيا، فيَنجون من عذاب الآخرة

يحتمِل الاستثناءُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ وجوهًا من حيثُ الاتِّصال والانقطاع، فقد يكون استثناءً متَّصلًا من المحضرين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾، أي: إنَّهم ناجون مِنَ العذاب الذي سيلحق المحضرين، ويكون الاستثناءُ مُرشَّحًا لأنْ يكونَ معنى الإحضار للعذاب، لا لمُطلَقِ الحضور، ونظيره قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ [مريم: 72]، وقيل: هو استثناءٌ متَّصلٌ من ضمير الجعل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ﴾، وقيل: هو استثناءٌ منقطعٌ من المحضرين، أو مِن ضمير الجعل، أو مِن ضمير الوصف في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾، ومعناه: (ولكنَّ المخلصين بُرَآءُ مِن أن يصفوه بذلك)[2].

ولا مانعَ مِن أن يكونَ الاستثناءُ شاملًا للأمرين في الدَّلالة العامَّة، لا في الاستثناء الصناعيِّ، فإنَّ عبادَ اللّه تعالى مُستثنَون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 192.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 188.

مِن أن يصدُرَ عنهم الباطل، فهُم لذلك مُستثنَون من أن يكونوا من أهل النّار والعذاب، فإذا كانوا بعيدين عن مثل هذا الوصف، فهُم أبعدُ من دخول النّار وحضور العذاب.

دلالةُ التَّعبير بالعباد:

(العباد) مُشعرٌ بالخصوصيَّة والحظوة، بخلاف دلالةِ (العبيد) على العموم

استعمل النَّظمُ الكريم صيغة الجمع ﴿عِبَادَ﴾ دون (عبيد) في قول الله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ - وهو جمع عَبْدٍ كالعبيد - لما فيها من الإشعارِ بالخصوصيَّة، فإنَّ غالب استعمال صيغة (العباد) في القرآن يُشعر بخصوصيَّة العباد، سواءً في الدُّنيا أم في الآخرة، وأنَّ لهم شأنًا، بخلاف العبيد، فلا يُلحَظ فيهم هذا، بل يُلحظ فيهم معنى كونهم عبيدًا للّه تعالى اختيارًا أم إجبارًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46].

نكتةُ الإضافة في ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾:

تشريفُ عباد الله المخلصين، بإضافتهم إلى ربِّ العالمين

دلَّت الإضافةُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ على معنى الاختصاص، لإفادة تشريفِهم باختصاصهم عبادًا له سبحانه دون غيره، واختصاصهم أيضًا دون سائر المخلوقات بكونِهم عبادًا له، والمعنى: (إلّا العبادَ المشرَّفين المكرَّمين المعظَّمين بإضافتهم إلى اسم اللّه)[1].

بلاغةُ التَّعريض بـ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

شرطُ القَبول إخلاصُ النّيَّة لله، وخلاص العمل من الشِّرك

يرجع أصل مادَّة (خلص) إلى تَنْقية الشَّيءِ وتَهذيبه[2]، وقد جاء الإخلاصُ في قول اللّهِ تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ من معنى جَعل الشَّيء خالصًا صافيًا، وهو على قراءة (المخلِصين) بكسرِ اللّام[3] اسمُ فاعل، أي: (المَوَحِّدين الذين أخلصوا دينَهم للّه)، فحقيقةُ الإخلاص التَّبرّي من كلِّ ما دون اللّه تعالى، وجاء استعمالُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 59.
(2) الراغب، المفردات: (خلص).
(3) ابن الجزري، النشر: 02/ 295.

هذه المفردة في هذا السّياق؛ لبيان أنَّ شرط قَبول العبد هو الخلاص من الشِّرك، وإخلاص النّيَّة للّه تعالى، وأنَّ إيمان العبد لا يُقبَل إلّا بالنّيَّة الخالصة، والأعمال المخلصة، ففيه تعريضٌ بالمشركين، الَّذين لم يُخلصوا نيّاتِهم، ولم يُخلِّصوا أعمالهم وأقوالهم من الشِّرك.

بلاغةُ الفاء الفصيحة:

ترتيبُ العذابِ على العلم بالحقِّ ومخالفته

الفاءُ في قول اللّه تَعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ هي الفصيحة، وهي الَّتي تفصح عن جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ، والتَّقدير: (إذا علمتم أنَّ عبادَ اللّه المخلصين مُنزَّهون عن مثلِ قولكم، فإنَّكم لا تفتنون إلّا مَن هو صالي الجحيم)[1]، وتأتي بلاغة الفصيحة في كون تعذيبِ المشركين مترتِّبًا على عِلمهم أنَّ هناك عبادًا مخلصين للّه تعالى، سيَنجون باعتقادهم للحقِّ، فهي مقابَلةٌ لبيان مآل الحقِّ ومُنتهى عمل الباطل.

معنى واوِ ﴿وَمَا﴾:

تنوُّع التَّوجيهِ الدَّلالي بتنوُّع حروف المعاني

تحتمل الواو في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ العطفَ والمعيَّة، فعلى العطف يكون المعنى: (فإنَّكم ومعبوديكم ما أنتم وهم جميعًا بفاتنين إلّا أصحابَ النّار، وعلى المعيَّة تكون الواو بمعنى (مع)، والمعنى: (فإنَّكم مع ما تعبدون)، أي: (فإنَّكم قرناؤُهم وأصحابُهم، لا تبرحون تعبدونها)، وعلى هذا الوجه يجوز أن يوقَفَ على قوله: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ سدَّ مسدَّ الخبر[2].

نكتةُ التَّعبير بالموصول:

تقريعُ المشركين بإقامة الحجَّة عليهم

آثرَ النَّظم استعمال الاسم الموصول في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يقل: (فإنَّكم ومعبوديكم)[3]، وذلك لتقريع المشركين بما في حيِّز الصِّلة، وهو عبادة غير اللّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 188.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 65.
(3) درويش، إعراب القرآن: 08/ 318.

والإشراك به بعضًا من المخلوقات العاجزة عن أدنى الأمور، فذمَّهم بذلك مِن أوَّل الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾ [الأحقاف: 5]، فإنَّ مَن يعبد المعذَّب في النّار؛ فإنَّه واقعٌ في منتهى الاحتقار.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

جاء فِعْلُ العبادةِ في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ بِصيغَةِ المضارع؛ للدَّلالة على أنَّ عبادتهم للأوثان مستمرَّة متجدِّدة، ممّا يزيد مِن تشنيعِهم وتقريعهم بذمِّ أفعالهم الدّائمة.

نكتةُ حذف مفعول ﴿تَعْبُدُونَ﴾:

حُذِفَ مفعولُ فعلِ العبادة من قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ على سبيل الإيجاز اللَّفظيِّ، وتكثيرِ المعاني بإرادة العموم، فيشمل كلَّ المعبودات الَّتي اتَّخذها المشركون آلهةً من دون اللّه تعالى.

علَّةُ فصل جملة ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾:

تـنـوُّعُ المـعـاني الدَّلالية بتنوُّع الأوجه الإعرابيَّة

قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ إمّا أن يكونَ خبرَ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، وذلك على جعل واوِ ﴿وَمَا﴾ عاطفةً، و(ما تعبدون) معطوفةً على اسم (إنَّ)، فتكون جملة: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ خبرَ (إنَّ)، والمعنى: (إنَّكم ومعبوديكم ما أنتم بمضلّين أحدًا إلّا مَن قدَّر اللّه عليه الضَّلالَ).

وإمّا أن تكون جملةُ: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ استئنافيَّةً، وذلك على القول بأنَّ واوَ ﴿وَمَا﴾ للمعيَّة؛ لأنَّه على هذا الوجه يجوز أن يوقف على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾، ومعناه: (فإنَّكم مع ما تعبدون)، أي: (الخبرُ أنَّكم مع قرنائكم، لا تبرحون تعبدونها)[1].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 65.

نوعُ ﴿مَآ﴾ ودلالتها:

فتنةُ الكفّار لا تنال أحدًا على الحقيقةِ لا في الحال ولا الاستقبال

لفظُ ﴿مَآ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ نافيةٌ حجازيَّةٌ تعمل عملَ (ليس)، وهي أوسعُ منها استعمالًا، فـ(ليس) مختصَّةٌ بنفي الجمل الاسميَّة، وأمّا ﴿مَآ﴾؛ فتنفي الجمل الفعليَّة والاسميَّة، فإذا دخلت على الجملة الاسميَّة؛ كان نفيها للحال عند الإطلاق، وإذا قُيِّدت؛ كانت بحسب القيدِ، وهي في هذه الآية للحال والاستقبال، فالكفّار وآلهتم ليسوا بفاتنين أحدًا حال الخطاب وفي المستقبل إلّا مَن كتب اللّه عليه الضَّلال[1]، واختيرت للدَّلالة على عموم النَّفي واستغراق الزَّمن.

تعيينُ مرجع ضمير ﴿عَلَيۡهِ﴾:

تطاولُ الكفرِ لا ينالُ عبادَ الله المخلصين

يجوز في الضَّمير المتَّصل في لفظ ﴿عَلَيۡهِ﴾ مِن قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ أن يكونَ عائدًا إلى اسم الجلالة في قوله: ﴿لَيَقُولُونَ ١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: 151 - 152]، أو في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، بتضمين (فاتنين) معنى (مُفسدين)، مِن: فتَنَ فلانٌ على الرَّجل امرأتَه، أي: أفسدها، والمعنى: (ما أنتم بمُفسدين أحدًا على اللّه)، ويجوز أن يعودَ الضَّميرُ إلى الاسم الموصول مِن ﴿وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ بمراعاة إفراد لفظهِ، وتكون (على) للتَّعليل والسببيَّة، والمعنى: (ما أنتم بفاتنين أحدًا بالَّذي تعبدونه)، أو يعود الضَّميرُ على (ما) بتضمين (فاتنين) معنى (حاملين)، وبحذف مضافٍ تقديرُه (العبادة)، أي: (ما أنتم بحاملين أحدًا على عبادة ما تعبدون)[2].

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

الاهتمامُ بالمقدَّم لإظهار مقصود الأفعال

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ على اسم الفاعل؛ للاهتمام بالضَّمير العائد على اللّه ﷻ،

(1) درويش، إعراب القرآن: 08/ 318، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 190.

أو على ما يعبدون من دون اللّه، فمقصود أفعال المخاطَبين إيقاعُ النّاس في الشِّرك باللّه، كما أشركوا به أنفسُهم، وهذا هو موضع البشاعة والشَّناعة، لكنَّ حلمَ الحليم حال دون قصدهم اللَّئيم.

بلاغةُ التَّضمين في استعمال حرف الاستعلاء:

تضمينُ اللَّفظ معنى آخر إيجازٌ في اللفظ وتكثيرٌ في المعنى

تعدّى اسم الفاعل (فاتنين) في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ بحرفِ الجرِّ (على) لتضمين (فاتنين) معنى (مفسدين)؛ إن كان الضَّمير المجرور بها عائدًا إلى اسم الجلالة، كما يقال: أفسد العبدَ على سيِّده، وتكون (على) للاستعلاء المجازيِّ؛ لأنَّ تضمين (مفسدين) فيه معنى الغلبة، وإمّا لتضمينه معنى (حاملين) و(مسؤولين)، ويكون (على) بمعنى لام التَّعليل، كقوله: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ [البقرة: 185]، ويكون بين (على) ومجرورها مضافٌ تقديرُه: (على عبادة ما تعبدون)، والمعنى: (ما أنتم فاتنين أحدًا بالَّذي عبدتموهُ إلّا مَن سبق عليه القدرُ أنَّه يدخل النّار)، وهذا في معنى قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ۝٤٢ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٤٣﴾ [الحجر: 42 - 43]، فلا يتبعهم أحدٌ في دينهم إلّا مَن عرَّض نفسَه؛ ليكون صاليَ الجحيم[1]، وذهب بعض العلماء إلى أنَّ (على) هنا بمعنى (الباء)، فيكون من تناوب الحروف[2]، والقول بالتَّضمين هو الأليق بالكلام الفصيح.

غرضُ الباء في التَّوكيد:

توكيد النَّفي قوَّةٌ في إثبات المطلوب

اقترن خبر ﴿مَآ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ بالباء لتوكيد النَّفي المدلول عليه بحرف ﴿مَآ﴾ العاملةِ عمل (ليس)، وقال ابن السَّرّاج: "وقد أدخلوا الباءَ في خبر (ليس) توكيدًا للنَّفي، تقول: ألست بزيدٍ؟ ولست بقائم"[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 190.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 647.
(3) ابن السرّاج، الأصول في النّحو: 01/ 90.

براعةُ استعمال مفردة (فاتنين):

جمع لفظ الفتنة المعنى الأصلي والسياقي بإيجاز بديع

آثرَ النَّظم الكريم استعمالَ مفردة الفتنةِ في قول اللّه تَعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾، وهو مشتقٌّ من الفتنة، وهي في الأصل اختبار الذَّهب بالنّار لتظهر جودتُه من رداءته[1]، غيرَ أنَّ معنى الفاتن في هذه الآية هو المُضِلُّ والمُفسِد، يقال: فَتَنَ فلانٌ على فلان امرأتَهُ، أي: أفسدها عليه، وأضلَّها، حاملًا إيّاها على عصيان زوجها[2]، واستعمال الفتنة دون الإفساد والإضلال لبيان أنَّ إفسادهم النّاس على دين اللّه تعالى كان فتنةً شديدةً، لا يصبر عليها إلّا العبادُ المخلصون، فهُم فتنوا النّاس بالمُضِلّات الفعليَّة والقوليَّة، وبأنواعٍ من التَّهديد والوعيد، وألوانٍ من الإغراء الشَّديد، بغرض إفسادهم وإغوائِهم وإضلالِهم.

نكتةُ حذف المفعول:

لا سلطانَ لأحدٍ على أحدٍ في الضَّلال

حُذِفَ مفعول (فاتنين) في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ للعموم، والتَّقدير: بفاتنين أحدًا، والدَّليل على قصد العموم صحَّة الاستثناء بعده في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾، فالاستثناءُ معيار العموم[3]، وفيه إثباتُ أنْ ليس لأحد على أحد سلطان، وليس لمشرك أن يفتِنَ أحدًا إلّا بإرادة اللّه المحضة، فلا يستجيب لفتنتهم إلّا مَنِ اختار النّارَ على الجنَّة.

معنى الاستثناء ونوعه:

ليس لأحدٍ قدرةٌ على إضلال أحد

المستثنى ﴿مَنۡ﴾ في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ مستثنًى مِن المفعول المحذوف لاسم الفاعل (فاتنين)، الَّذي تقديرُه (أحدًا) الدالُّ على العموم، ويجوز أن يكون لفظ ﴿مَنۡ﴾ هو مفعول

(1) الرّاغب، المفردات: (فتن).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 135.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 190.

فاتنين، ويكون الاستثناءُ حينئذٍ مفرَّغًا[1]، ومعنى الاستثناء أنَّ الكفار وما يعبدونه لا يقدرون على إضلال أحد من عباد الله إلّا مَن هو مِن أهل النّار، وهم المصرّون على الكفر باختيارِهم وإرادتهم.

(1) درويش، إعراب القرآن: 08/ 318، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 331.

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦﴾ [الصافات: 164 - 166]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

أقوال الملائكة المكرمين تدحض اعتقاد المشركين

لمّا ذكرت الآيات السابقة تنزيهَ اللّهِ عن ادِّعاء المشركين وزعمهم، وتنزيهَ المؤمنين أن يقترفوا ما افتراه المشركون، وأنَّه ليس لأحد أن يُضِلَّ أحدًا إلّا مَن اختار طريق الضَّلال؛ ناسب الانتقالُ إلى بيان حال الملائكةِ في السَّماء، وأنَّهم هم الذين يُسبِّحون اللّه تعالى، ولا يَعصونه ما أمَرهم، لا كما زعم المبطلون من المشركين، وناسب ذِكر قيل الملائكة لبيان حالهم التَّعبُّدي، بعد ذِكر افتراء المشركين في اعتقادهم في شأن الملائكة مع اللّه تعالى، فهو لنفي الاعتقادِ الباطل، وتأسيس الاعتقاد الحقِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَقَامٞ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ عَلَى انتِصابٍ أو عَزْمٍ، ويقال: قامَ كذا، وثبت، وركز بمعنًى، والمَقامُ يكونُ مَصدرًا واسمَ مكانِ القيام وزمانِه، نحو قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: 14][1]، وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗى﴾ [البقرة: 125]، وإذا جعلتَهُ مِن (قامَ يقومُ)؛ فهو مفتوحٌ، وإن جعلتَهُ مِن (أقامَ يُقيمُ)؛ فمضمومٌ، كقولِه تعالى: ﴿حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾ [الفرقان: 76]، أي: مَوضِعًا[2]، والمقصود هنا: أنَّ لكلِّ ملَك موضعًا معلومًا في السَّماوات يعبد اللّه فيه لا يتجاوزه[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (قوم).

(2) الرّازي، مختار الصّحاح: (قوم).

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 287.

2) ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: (صفف) أصلٌ يدلُّ على استواءٍ في الشَّيء وتَساوٍ بين شيئين في المقرِّ، مِن ذلك الصَّفُّ، وذلك إذا وقف كلُّ واحد إلى جنب صاحبه، واصطفَّ القوم، وتصافّوا، والأصل في ذلك الصَّفْصَفُ، وهو المستوي من الأرض، والصَّفُّ قد يُجعل - فيما قاله أبو عبيدة - بمعنى الصّافِّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ [الصف: 4]، ويحتمل أن يكونَ مصدرًا، وأن يكون بمعنى الصّافّينَ، ومعنى ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ في الآية: الملائكةُ الصّافّون في مواقف العبوديَّة[1].

3) ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: (سبح) أصلٌ يدُلُّ على جِنْسٍ مِن العِبادةِ، والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّقديسُ والتَّبرِئَةُ؛ يُقال: سَبَّحْتُ اللّهَ، وسَبَّحْتُ لَهُ، أُسَبِّحُهُ تَسبيحًا وسُبحانًا، أي: نَزَّهْتُه، وبَرَّأْتُه من كُلِّ سوءٍ ونَقْصٍ[2]، ويُطلَق التَّسبيحُ بهذا المعنى على قَوْلِ: سُبحانَ اللّهِ، فيُقالُ: سَبَّحَ الرَّجُلُ، أي: قال: سُبحانَ اللّهِ، ويأتي التَّسبيحُ أيضًا بمعنى التَّنَفُّلِ والتَّطَوُّعِ بالعبادةِ[3]، والمقصودُ مِن تسبيح الملائكة علَى المَعنى الآخر: نَحْمَدُكَ ونصلّي لك[4]، وعلى الأوَّل: نُنَزِّهُك مِنَ السّوء تعظيمًا لك[5].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

مَــن أعــلــن الخضوع المطلقَ لله نفى الشِّرك المطلق

تُبيِّن الآية الكريمة براءةَ الملائكة ﷷ عمّا قاله فيهم المشركون، وأنَّهم عباد اللّه، لا يعصونه طرفةَ عينٍ، فما مِنهم مِن أحدٍ إلّا له مقامٌ وتدبيرٌ قد أمره اللّه بهِ، لا يتعدّاه، ولا يتجاوزه، وليس لهم من

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 65، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 362.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سبح)، والخطّابي، غريب الحديث، ص: 685.
(3) ابن سيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سبح)، والمناوي، التوقيف، ص: 96.
(4) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/ 36.
(5) الماورديّ، النُّكَت والعيون: 1/ 96 - 98.

الأمرِ شيءٌ، وهم الصّافّونَ في طاعة اللّه تعالى، وهم المسبِّحون والمنزِّهون للّه عمّا لا يليق به، فكيف بعد هذا يكونون شركاء للّه؟ تعالى اللّه عمّا يفتريه المفترون[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

تحتملُ الواو الاستئناف والعطف وكلاهما في الرَّدِّ على المشركين

يحتمل أن تكونَ الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ استئنافيَّةً لحكاية اعتراف الملائكة للرَّدِّ على عَبَدتهم، كأنَّه قيل: (ويقول الملائكة الذين جعلتموهم بناتِ اللّه، وعبدتموهم بناءً على ما زعمتم مِن أنَّ بينهم وبينه تعالى مناسبةً، وجنسيَّةً جامعة)، وتحتمل أن تكونَ عاطفةً على قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فيكون عطفًا على معنى الاستثناءِ المنقطع؛ لأنَّ معناه أنَّهم ليسوا أولادَ اللّه تعالى، وعُطف عليه أنَّهم يتبرَّؤون مِن ذلك، فالواو عاطفةٌ قولًا محذوفًا يدلُّ عليه أنَّ ما بعد الواو لا يصلح إلّا أن يكونَ كلامَ قائل، والتَّقدير: (ويقول الملائكة ردًّا على المشركين: ما مِنّا إلّا له مقامٌ معلوم، وإنّا لنحن الصّافون، وإنّا لنحنُ المسبِّحون)[2].

بلاغةُ النَّفيِ بـ(ما):

التَّأكيدُ على اختلاف درجات الملائكة في منازل الطّاعة

جاء الحرفُ (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ لنفي استواء الملائكة، واختلافِ درجاتهم في المعارف والطّاعات، وفي منازل الخدمة والعبوديَّة، وقد أوثِرَ الحرفُ (ما) هنا لما فيه من معنى التَّأكيد الذي ليس في غيرِه، كما قال سيبويه: "وإذا قال: (لقد فعل)، فإنَّ نفيَهُ: (ما فعل)؛ لأنَّه كأنَّه قال: (واللّه لقد فعل)، فقال: (واللّه ما فعل)"[3]، فلمّا أكَّد المشركون الإثبات،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 708.

(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 318، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 190، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 146.

(3) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

وأصرّوا على افترائِهم؛ أُكِّد النفيُ بـ(ما)، تأكيدًا أبلغَ مِنَ النَّفي بـ(لم) أو (ليس)[1].

نوعُ (من) ودلالتها:

لكلِّ ملك مرتبة ومنزِلة فيها أمرٌ معلومٌ وعمل مروم

يدلُّ حرف الجرِّ (من) في قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ على بيان الجنس، أي: (ما مِن أحد من جنس الملائكة إلّا له مرتبةٌ، ومنزلةٌ، ووظيفةٌ لا يتعدّاها)، فمنهم المَوَكّل بالأرزاق، ومنهم المَوَكَّل بالآجال، ومنهم المَوَكَّل بإنزال الوحي، ومنهم راكعٌ لا يُقيم صُلبَه، ومنهم ساجدٌ لا يَرفع رأسَه خضوعًا لعظمة ربِّه، وخضوعًا لهيبته، وتواضعًا لجلاله، ولكلٍّ منزلتُهُ من العبادة، والتَّقريب، والتَّشريف[2].

تعيين مرجع الضَّمير:

نسبة الكلام إلى الملائكة المقرَّبين أو إلى عباد الله المؤمنين

الظّاهر أنَّ مرجع ضمير (نا) من قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ هو الملائكة، وأنَّ الآيةَ حكايةٌ عن قولهم، وهذا مذهب الجمهور، فقوله تعالى في الآيات الموالية: ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾، ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ يدلُّ على ذلك، فقد شاع وصف الملائكة بأمثالها في القرآن، كما جاء في أوَّل السّورة وصفُهم بالصّافات، وأمّا وصفُهم بالتَّسبيح؛ فكثيرٌ في القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: 5]، وأُشير إلى تفاوُتِ مقاماتهم في مثل قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١﴾ [التكوير: 20 - 21]، وقوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤﴾ [النَّجم: 13 - 14]، فالسّياق القرآنيُّ العامُّ وسياق السورة الخاصُّ يؤيّدانِ أنَّ الآيات من قول الملائكة.

ويحتمل أن يكونَ هذا ممّا أُمِر النَّبيُّ ﷺ أن يقولَه للمشركين، عطفًا على التَّفريع الَّذي في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ إلى

(1) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 287.

آخره، ويتَّصل الكلام بقوله: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ [الصافات: 149] إلى هنا، والمعنى: (ما أنتم بفاتنينا فتنة جراءة على ربِّنا - فنقولُ مثلَ قولكم: الملائكةُ بنات الله، والجنُّ أصهار الله - فما منّا إلّا له مقام معلوم لا يتجاوزه، وهو مقام المخلوقيَّة للّه والعبوديَّة له)[1]، وفي الاحتمالين فإنَّ الضَّمير يرجع إلى من خضع للّه ربِّ العالمين، وردَّ قول المشركين.

نكتة الالتفات من الغَيبة إلى التَّكلُّم:

تنويعُ المقام لكمال الاعتناء بتحقيق الكلام

عدل النَّظمُ القرآنيُّ من الغَيبة في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ١٥٠﴾ [الصافات: 149 - 150]، وفي قوله أيضًا: ﴿وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾، إلى التَّكلُّم في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ على سبيل الالتفاتِ، فهو من كلامه تعالى، لكنَّه حُكي بلفظ الملائكة، وأصله: (وما منهم إلّا له مقامٌ معلوم)، والنُّكتة في الالتفات إلى الخطاب: إظهارُ كمال الاعتناء بتحقيق مضمون الكلام[2].

معنى القصر ونُكتَته:

حصرُ الملائكة في مقام العُبوديَّة للرَّدِّ على المزاعمِ الكفريَّة

جاء أسلوبُ القصرِ في قول الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ﴾ بالجمع بين النَّفي بأداة (ما) والاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾، والتَّقدير: (وما منا أحدٌ متّصِفٌ بصفةٍ من الصِّفات إلّا بصفةِ أن يكونَ له مقامٌ معلوم من الطّاعة والعُبوديَّة لا يتجاوزه)، والقصر إضافيٌّ لا حقيقيٌّ؛ لأنَّه لا يخلو أحد من صفات متعدِّدة[3]، ونكتة القصر: دفع كلِّ صفةٍ عن الملائكة إلّا الصِّفة المذكورة من كونِهم لهم مقام معلوم، وأنَّهم قائمون على طاعة الله عبوديَّةً وخضوعًا، لنفي ادِّعاء المشركين.

(1) السّمين، الدّر المصون: 9/ 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 191.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 147.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 339.

نوعُ اللّام ودلالتها:

اختصاصُ كلِّ مَلَكٍ بمقامٍ معلوم

اللّام الداخلةُ على الضَّمير في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ للاختصاص، أي: (ما مِن ملَك من معشرِ الملائكة إلّا له قدْرٌ معيَّن، ومقامٌ معلوم في السَّماوات، يعبد اللّه تعالى فيه، مقامٌ خاصٌّ به لا يتجاوزه).

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

السّياق موصلٌ لمعرفةِ الاختصاص وتعيين الاهتمام

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾؛ لإفادة الاختصاص، توكيدًا على الاختصاص المُفاد من اللام، والمعنى: أنَّ لكلِّ ملَكٍ مقامًا معلومًا يختصُّ به دون غيره من الملائكة، سواءً أكان هذا المقامُ معنويًّا يُرادِف المرتبةَ والمنزلة، أم كان مادّيًّا بأن يختصَّ كلُّ ملَك في السَّماوات بموضعٍ يعبد اللّه تعالى فيه لا يتجاوزهُ، والَّذي يُرشِّح الاختصاصَ السياقُ، فإنَّ الحصرَ، وذِكْرَ المقام المعلوم يُعيِّنان أنَّ التَّقديمَ كان للاختصاص، روى أبو ذرٍّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: "أطَّتِ السَّماءُ، وحقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضِعُ أربعِ أصابعَ إلّا ومَلَكٌ واضِعٌ جبهَتَهُ للّه ساجدًا"[(1)].

بلاغةُ التَّعبير بالمقام:

مقامُ الملائكة يجمع بين المكان والمكانة

استعمل النَّظمُ الكريم لفظَ المقام في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾، وأصله مكانُ القيام، والمقصودُ هنا إمّا أن يكونَ لكلِّ مَلَك موضعٌ معلوم في السَّماوات يعبد الملكُ اللّهَ تعالى فيه لا يتجاوزه، وإمّا أن يكونَ المقام بمعنى المرتبةِ والمنزلة والوظيفة الَّتي لا يتعدّاها: فمنهم الموكَّل بالأرزاق، ومنهم الموكَّل بالآجال، ومنهم الموكَّل بإنزال الوحي، ومنهم راكعٌ لا يقيم صلبه، ومنهم ساجدٌ لا يرفع رأسه خضوعًا لعظمة ربِّهِ، وخضوعًا لهيبتهِ، وتواضعًا

(1) أخرجه الترمذي برقم: (2312)، قال الألباني: صحيح بشواهده.

لجلالهِ، ولكلٍّ منزلتُه من العبادة، والتَّقريب، والتَّشريف[1]، وهذان الاحتمالان - وهما المكان والمكانة - مرادان، فإنَّ لكلِّ مَلَكٍ مكانًا ومكانةً لا يتعدّاها.

غرضُ تنكيرِ ﴿مَقَامٌ﴾:

جاء لفظُ المقام نكرةً في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ للتَّعظيم، فمقامُ الملائكة عظيمٌ عند خالقها؛ إذ وصفهم بأنَّهم ﴿عِبَادٌ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾ [الأنبياء: 26].

بلاغةُ الكناية في ﴿مَّعۡلُومٌ﴾:

علمُ الملائكة لا لمردِّ المعرفة، بل لكمال العمل وتمام الطّاعة

وُصِف المقامُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ بأنَّه معلوم، والمعلوم: المعيَّن المضبوط، وأُطلق عليه وصف ﴿مَّعۡلُومٌ﴾؛ لأنَّ الشَّيء المعيَّن المضبوطَ لا يشتبه على المتبصِّرِ فيه، فمَن تأمَّله؛ علِمَه، والعلم هنا علم الملائكة بمقامهم، وهو كنايةٌ عن التزامهم بذلك المقام الذي لا يتجاوزونه، فالمعلوم هو مكان الملَك ومكانته في القيام بما أمرَ اللّه تعالى به، لا مجرَّدُ الإخبار عن عِلمهم بالمقام، فأطلق المعلوم، وأراد العمل والالتزام.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواوُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ لعطف الجملة على السّابقة، أي: (يقولون: ما منا إلّا له مقام معلوم، ويقولون: إنا لنحن الصّافون).

بلاغة القصر:

الملائكةُ هم الصّافون في مواقفِ العبودية لا غيرُهم

جاء أسلوب القصر في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ على طريقِ تعريفِ جزأي الجملة، وضميرُ الفصل من قوله: ﴿لَنَحۡنُ﴾ يفيد قصرًا مؤكَّدًا، فهو قصرُ قلبٍ، أي: إنَّ الملائكة هم الصّافّون في مواقفِ العبوديَّة لا غيرُهم، ودون ما وصفتموهم به

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 287.

أيُّها المشركون من البنوَّة للّه تعالى[1]، فهو قريبٌ من نكتة القصر الوارد في الآية السّابقة.

لا يعتري الملائكة في مقام العبوديَّة ما يعتري البشر

معنى تعريف ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ بـ(ال):

جاء لفظ ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ معرَّفًا بـ (ال) الموصولةِ، بمعنى: (نحن الَّذين نَصُفُّ أجنحتَنا)، وضابط (ال) الموصولة أن تكون صلتُها صفةً صريحةً، وهي هنا اسم الفاعل (صافّون)، والنُّكتة في استعمال اسم الفاعل دون الجملة الفعليَّة: إفادةُ الثُّبوت والدَّوام، فهُم على الدَّوام صافّون، لا يتطرَّق لهم تقصير أو ضعف أو غفلة أو عصيان.

الإيماء إلى أنَّ الملائكة تعبد الله مجتمِعةً في اصطفافٍ واحد

بلاغةُ التعبيرِ بمادَّة الاصطفاف:

جاء استعمال مفردة ﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾ في قول اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ لدلالتها على معانٍ محتملة يتَّسع لها السّياق، فَهُمُ الصّافون في مواقفِ العبوديَّة، والصّافون أقدامَهم في الصَّلاة، وأجنحتَهم في الهواء منتظرين ما يُؤمَرون به، والصّافون أجنحتَهم حولَ العرش داعين للمؤمنين، وقيل: إنَّ المسلمين إنَّما اصطفّوا في الصَّلاة منذ نزلت هذه الآية، وليس يصطفُّ أحدٌ من أهل المِلل في صلاتهم غيرُ المسلمين[2]، وهذا المعنى مستفادٌ من الآيةِ لا أنَّه تفسيرها، فقد توافق اصطفافُ المؤمنين في الصَّلاة مع اصطفاف الملائكة في مقامات العبوديَّة، وقد دلَّ هذا اللَّفظ على أنَّ الملائكة إنَّما تعبد اللّه تعالى مجتمِعةً في اصطفاف واحد.

الدَّلالة على عموم معاني الاصطفاف

نكتةُ حذف متعلِّق اسم الفاعل:

جوَّز حذفَ متعلِّقِ اسم الفاعل في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ دلالةُ قوله: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ عليه - أي: (الصّافون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 362، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 192.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 65، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 362.

لعبادته سبحانه) - فإنَّ الكلام في هذه الآيات كلِّها متعلِّقٌ بشؤون اللّه تعالى[1]، ونكتة هذا الحذف: دخولُ معانٍ تشمل كلَّ أنواع العبادة التي تندرج ضِمنَ أعمال الملائكة، ممّا نعلمه وممّا لا نعلمه.

غرض توالي المؤكِّدات:

ردُّ كلام المنكرِ على لسانِ المُفْتَرى عليهم

جاء الكلام في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ بتوالي مؤكِّدات عِدَّة، وهي: حرف التَّوكيد (إنَّ)، واللّام المزحلقة، وضمير الفصل، وتعريف الجزأين، وذلك لتأكيد مضمون الكلام؛ ردًّا على من يزعم خلافَ ذلك، فإنَّ الملائكة هم الصّافون للعبادةِ بصوَرِها كافَّةً، وإنَّ الخبرَ الآتيَ على ألسُنِ الملائكة الذين افتُري عليهم أقوى في ردِّ اعتقاد المفترين من أهل الجاهليَّة.

نوعُ الواو ودلالتها البيانيَّة:

في العطف إتمامٌ لتنزيه الله، على لسان من افتُرِيَ بهم الافتراء

الواو في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ لعطفِ الجملة على السّابق، لإفادة أنَّ لكلٍّ منهم مقامًا معلومًا، وأنَّهم الصّافون، وأنَّهم المسبِّحون، فبَعدَ أن أخبر الملائكةُ عن أنفسهم بأنَّهم يصُفّون أجنحتَهم في مقام العبوديَّة أدَبًا مع ربِّهم ﷻ، عُطف عليه في هذه الآية الإخبارُ بأنَّهم هم المسبِّحون اللّهَ عمّا نسبه إليه الكفرةُ من الأقوال الباطلة، ويأخذ التَّوكيد في هذه الآية حكمَ التَّوكيد والقصر الوارِدَينِ في السّابقة.

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ بـ(ال):

دوامُ الملائكة على التَّسبيح من غير انقطاع ولا فتور

جاء لفظ ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ معرَّفًا بـ(ال) الموصولةِ، والمعنى: (لَنحنُ الّذين نسبِّحُ ربَّنا)، وضابط (ال) الموصولة أن تكون صلتُها صفةً صريحة، وهي هنا اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾، والنُّكتة في استعمال اسم الفاعل دون الجملة الفعليَّة: إفادة الثُّبوت والدَّوام، فهُم المُسبِّحون

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 362، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 192.

المنزِّهون اللّه تعالى في جميع الأوقات، يسبِّحونه، ويعبدونه، لا كما زعم المشركون.

نكتةُ استعمال مادَّة التَّسبيح:

ذِكـرُ التَّـنـزيه ليُقابل ضدَّه من افتراء المشركين

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مادَّة التَّسبيح في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾، والتَّسبيح تنزيهُ اللّه جلَّ ثناؤُه من كُلِّ سوءٍ، وممّا أضافه إليه المشركون[1] مِن الباطل ونحوه، وقيل: ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ هم المُصَلّون، وقيل: القائمون بمجموع التَّسبيح باللِّسان والصَّلاة، والمقصودُ مِن ذِكر هذه الصِّفات: أنَّ صفاتِ الملائكة هي متعلِّقة بالعبوديَّة، وليسوا كما وصفهم به الكفّار من أنَّهم بنات اللّه سبحانه[2]، وآثر النَّظمُ الكريم استعمال هذه المادَّة ردًّا على المشركين في عدم تنزيه اللّه تعالى، ولبيانِ أنَّهم القائمون بالتَّنزيه إنِ استكبر المشركون عن تنزيه اللّه وعبادتِه.

نكتةُ حذف متعلِّق ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾:

حـذْفُ المعلومِ مـن الـكـلام لدلالةِ السّياق على تعيينه

حُذِفَ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ متعلِّقُ اسم الفاعل ﴿ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾؛ لدلالة قوله: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ عليه، أي: المنزِّهون له سبحانه، ولدلالة عمومِ السياق عليه، فإنَّ الكلام في هذه الآيات كلِّها متعلِّق بتنزيه اللّه تعالى وتسبيحه[3].

نكتةُ ترتيب هذه الصِّفات:

الـتَّرتـيـب على طريقِ التَّرقّي، مِـنَ المـبـدأ إلى الدَّوام

جاءت الآياتُ: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ على طريق التَّرقّي: فبدأت الملائكة بذكر المقام المعلوم الذي هو كنايةٌ عن المكانة التي جعلها اللّه لهم في العبوديَّة والطّاعة، ثم ذكروا أنَّهم الصافّون في الاجتماع على العبادة، وأنَّهم لا يَحيدون عنها في ثباتٍ ودوام، وأنَّهم المنزِّهون

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سبح).

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 288.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 362، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 192.

المسبِّحون، فلا يصِفون اللّهَ تعالى إلّا بما يليق به، فذكروا أوَّلًا مقامَ العبوديَّة، ثم حالَهم فيه، ثم ما استمرّوا عليه، وهذا في غاية البراعة في ذِكر المبدأ والدَّوام، وهو غايةٌ في مدح هؤلاء الذين جعلَهم اللّهُ تعالى عباده المكرَمين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفتنة والبلاء:

دلالاتُ الفتنة أوسع من دلالات الابتلاءِ

تتقارب معاني الفتنة والابتلاء في اللُّغة: فالفتنةُ هي ابتلاء واختبار، والابتلاء: هو الاختبار والتَّجريب والامتحان[1]، ولهذا ساوى بعضُ علماء اللُّغة بينهما، يقول الراغب: وجُعِلَتِ الفتنةُ كالبلاء في أنَّهما يُستَعملان فيما يُدفَع إليه الإنسانُ من شدَّة ورخاء، وهما في الشِّدَّة أظهرُ معنًى وأكثرُ استعمالًا[2].

إلّا أنَّ هناك بعضَ الملامح الدَّلاليَّة الَّتي تُمَيِّز اللَّفظين، وهي أنَّ الابتلاءَ: اختبارُ الإنسان بالشِّدَّة والضَّرّاء، ليُرى أيَصبِر أم يجزَع؟ واختباره بالسَّرّاء والنِّعم ليُرى أيشكرُ، أم يبطَر؟ ولهذا استُعمِل البلاء في الخير والشَّرِّ أكثر.

أمّا الفتنة؛ فهي مادَّة الابتلاء، أي: هي إيقاعُ الإنسان في الشِّدَّة مِن أجل اختبارِه بها، وورد لفظ الفتنة في الاستعمال القرآنيِّ على عدَّة وجوهٍ إضافةً لمعنى الابتلاء والاختبار، منها: العذاب، والشِّرك، والكفر، والتَّعذيب والتَّحريق، والحَيرة، والضَّلال؛ فدلالات الفتنة أوسعُ من دلالات الابتلاء[3]، ولهذا آثر النَّظم القرآنيُّ استعمالها في هذه الآية، وهي هنا بمعنى الإضلال.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بلو).

(2) الراغب، المفردات، ص: 481.

(3) الراغب، المفردات، ص: 482، ومحمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 48، والنزهي، الفروق اللغوية، ص: 201.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾

[الصافات: 167 - 170]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من دحض المزاعم إلى التَّهديد والوعيد

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مزاعم المشركين الباطلة في الملائكة، ودحضَها بأقوال الملائكة أنفسِها، باعترافها للّه بالعبوديَّة؛ ناسب أن يرجعَ الكلام إلى ذِكر مقالةٍ أخرى من مقالات المشركين الكاذبة[1]، لتوبيخهم بالوعيد والتَّهديد.

شرح المفردات:

1) ﴿ذِكۡرٗا﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على خلاف النِّسيان، تقول: ذَكَرْتُ الشَّيءَ، خِلافُ نَسِيتُهُ، ثمَّ حُمِلَ عَليهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنكَ عَلى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أي: لا تَنْسَهُ[2]، كما يُطلَقُ الذِّكْرُ على حضور الشَّيءِ القلبَ أو القولَ، ولذلك قيل: الذِّكْرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلب، وذِكرٌ باللِّسانِ[3]، ومعنى ﴿ذِكۡرٗا﴾ في الآية: هو كتابٌ سماويٌّ من عند اللّه ﷻ، كتوراةِ موسى وإنجيلِ عيسى عليهما السلام[4].

2) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: (أول) أصلان؛ أحدُهما: ابتداء الأمر وانتهاؤه، فـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمعُ: (أوَّلٍ)، وهو ضِدُّ الآخِر، وقيل: أصلهُ (وَوَل)، فقُلِبَتِ الواوُ الأولى همزةً، وأُدغِمَت إحدى الواوين في الأخرى، فقيلَ: أوَّلٌ. ومعناهُ: كونُ الشَّيءِ ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسه، فيكونُ كلُّ ما يماثلهُ فيه تاليًا لهُ، أي: كائنًا بعدهُ، والأوَّل: يكون كذلك

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 288.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.

بانضمام ثانٍ وثالثٍ إليه بعدَهُ، والأوَّل: الأسبقُ، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96][1]، والأوَّلون في الآية: هم بنو آدمَ مِنَ الأمم السّابقةِ.

3) ﴿عِبَادَ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ[2]، فالنّاس كلُّهم عِبادُ اللّه، بل الأشياء كلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخير، وبعضَها بالاختيار[3]، والعبوديَّة قسمان: عامَّة وخاصَّة، فالعبوديَّة العامَّة: عبوديَّةُ أهل السَّماوات والأرض كلِّهم للّه، فهذه عبوديَّة القهر والملك، والعبوديَّة الخاصَّة: عبوديَّة الطّاعة والمحبَّة واتِّباع الأوامر[4]، وهي المقصودة في الآية.

4) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: (خلص) أصل واحد مُطَّرِد، وهو تنقيةُ الشَّيءِ وتهذيبُهُ؛ يقولون: خَلَّصْتُهُ من كذا، وخَلَصَ هوَ[5]، والخالِص ما زال عنه شَوْبُهُ بعد أن كان فيه، بخلاف الصّافي، الَّذي قد يُقال لما لا شَوْبَ فيه، فحقيقةُ الإخلاص: التَّبرّي عن كلِّ ما دون اللّه تعالى[6]، ومِن معنى جَعلِ الشَّيء خالصًا صافيًا ورَدَ كلٌّ من مخلِص ومخلِصين بكسر اللّام، أي: الموَحِّدون، الَّذين أخلصوا دينَهم للّه، وأمّا بفتح اللام؛ فهُم الَّذين أخلصهم اللّهُ لرسالته، وهذا معنى كُلِّ المخلَصين في القرآن[7]، وكِلا المعنيين مقصودٌ في الآية، فقد وردَتِ القراءة بفتح اللّام وبكسرها[8].

❁ المعنى الإجماليُّ:

تكذيبُ المشركين للرّسولِ الأمين بعد إقرارهم بالحقِّ المبين

تُبيِّن الآية الكريمة أنَّ هؤلاء المشركين من قريش كانوا يقولون

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(3) الراغب، المفردات: (عبد).
(4) ابن القيّم، مدارج السّالكين، ص: 180.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(6) الراغب، المفردات: (خلص).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلص).
(8) ابن الجزري، النشر: 02/ 295.

قبل أن يبعثَ إليهم محمَّد ﷺ نبيًّا: لو جاءنا من الكُتُبِ والأنبياء ما جاء الأوَّلين قبلَنا، لكنّا عبادَ اللّه المُجتبينَ بالإيمان، المخلِصين في العبادة، لكن جاءهم ذكرُ الأوَّلين وعِلمُ الآخرين، في أكمل الكُتُبِ على أفضل الرُّسل، وهو ما نزل على محمَّد ﷺ من الكتاب والحكمة: كفروا به، فسوف يعلمون ما لهم مِنَ العذاب في الآخرة(1)؛ لمخالفتهم ما كانوا يقولونه قبل البعثة، وما ذلك إلّا بسبب كفرِهم وعنادهم.

الإيضاح اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

ترتيبُ الوعيدِ على مقالة المشركين بعد إبطال الافتراء

الواو في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ عاطفةٌ الآيةَ على السّابق، فهي مقالةٌ أخرى من مقالات المشركين الباطلة، معطوفةٌ على ما تقدَّمها من ذِكر كفر المشركين وقولهم بتعدُّد الإله، وبإنكار البعث، وما وصفوا به الرَّسولَ ﷺ من السِّحرِ والجنون، ثمَّ بما نسبوا للّه ممّا لا يليق بإلهيَّتِهِ(2)، وغرض العطف: بيانُ ما يترتَّب على هذه المقالة من الوعيد، بعد دحض المعتقد الزّائف.

نوعُ (إنْ) وتوجيهها:

احتمال حرف (إن) للنَّفي والتَّأكيد

تحتمل (إنْ) في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ أن تكون نافيةً، وتكون اللام في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بمعنى (إلّا)، ويحتمل أن تكون مخفَّفةً من (إنَّ) المشدَّدةِ المستعملةِ للتَّوكيد، وتكون اللّامُ في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ هي الفارقة بين (إنْ) المخفَّفة من الثَّقيلة وبين (إنْ) النافية، واسمها ضمير شأن محذوف، والأخير هو الراجح كما ذكره الآلوسي(3)، وعليه فهي تفيد أن القوم قد قالوا ذلك بالفعل، ولم يتقوله أحدٌ عليهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 655، نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 148.

نكتةُ تتابع المؤكِّدات:

تتابعت المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾، بـ(إنْ) مع اللّام، وبضمير الشّأن، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم، وليسدَّ عليهم باب الإنكار(1).

غرضُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾:

مقالةُ المشركين كانت حكايةً ثابتةً لا واقعةً نادرة

آثرَ النَّظم الكريم ذِكرَ فعل الكون الماضي المسنَدِ لواو الجمع في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مقالتهم هذه كانت ثابتةً لهم، وكانوا يقولونها على الدَّوام، وليست قولًا عابرًا، والإخبار عن الشَّيء بصيغة الماضي يقتضي كونَ المخبَر عنه متقدِّمًا على ذلك الإخبار(2)، فقد قالوا هذه المقالةَ قبل بعثة الرَّسول ﷺ، ثمَّ ظهر منهم بعدَ البعثة التَّكذيبُ والنُّفورُ البليغ.

تعيين مرجع الضَّمير:

المشركون هم أصحابُ الأقوال المتناقضة

يعود الضَّمير في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ على جماعة المشركين الذين حكى عنهم القرآن في هذه السّورة أباطيلَهم المُنكَرةَ من قولهم بتعدُّدِ الإله، وإنكار البعث، وما وصفوا به الرَّسول ﷺ من السِّحر والجنون، ثمَّ بما نسبوا للّه ما لا يليق بإلهيَّته(3)، كلُّ ذلك بعدَ أن تمنّوا أن يكون لهم ما كان للسّابقين.

نوع اللّام في ﴿لَيَقُولُونَ﴾:

احتمالُ اللّام أن تكون الفارقة وبمعنى الاستثناء

اللامُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ إمّا أن تكونَ بمعنى الاستثناءِ إذا كانت (إن) نافية، وإما أن تكونَ الفارقة بين (إن) المخفَّفة من الثَّقيلة والنّافية، وقد رجح الآلوسي الرأي الأخير(4)، وعليه تكون اللام فارقةً أفادت تأكيد كفار قريش قولهم مع تجدده الذي أفادته صيغة المضارع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 148.

دلالةُ التعبير بصيغة المضارع:

تكرُّرُ المَقال لا يعني صِدقَ القائل

ورد في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ فعلُ (يَقولونَ) بصيغة المضارع الدّالَّةِ على التَّجدُّدِ، للإشعار بتكرُّرِ هذا القول منهم، فهو وإن صدر عنهم في الماضي، إلّا أنَّهم كثيرًا ما كانوا يردِّدون مضمونَه قبلَ مجيء الرَّسول ﷺ إليهم، بأنْ لو كان عندهم كتابٌ من كتب الأوَّلين - كالتَّوراة والإنجيل - لكانوا من عبادِ اللّه المخلصين له بالعبادة والطّاعة[1].

معنى ﴿لَوۡ﴾:

اشتراطُ الأماني عند الكاذبين مجلبةٌ للنَّدم عند مجيء الحقِّ المبين

أداة ﴿لَوۡ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ حرفٌ للشَّرط، وهي للدَّلالة على امتناع الشَّيء لامتناع غيره، فإذا دخلت على النَّفي؛ صيَّرته إلى الإثبات، ولو دخلت على الإثبات؛ صار بمعنى النَّفي[2]. فالمشركون زعَموا قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ أنَّ امتناع كونهم من عباد اللّه المخلصين إنَّما سببُه امتناعُ وجود ذِكرٍ كذِكر الأوَّلين بين أيديهم، ثمَّ أرسل اللّه إليهم خيرَ رسول وخيرَ ذِكرٍ، فكفروا به، فظهر بذلك كذبُهم وزَيْفُ ادِّعائهم، وسيعلمون عاقبةَ كفرِهم ومآلَ جحودهم.

غَرَضُ أسلوب الشَّرط:

الشَّرط يُراد به الطَّلب وتحقيق الغرض

ورد أسلوب الشَّرط في قول اللّه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، وغرضُه البلاغيُّ: تعليقُ الجواب على حصولِ مضمونِ الشَّرط، فيحصل الثّاني بحصول الأوَّل، فالمشركون اشترطوا إنزالَ كتابٍ من عند اللّه كالتَّوراة والإنجيل؛ ليكونوا عبادَ اللّه المخلصين، فلمّا تحقَّق الشَّرطُ ببعثة النَّبيِّ ﷺ؛ كفروا، وأخلفوا اللّه ما وعدوه، وكذبوا فيما كانوا يدَّعونه،

(1) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 118.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/ 61.

فهُم اشترطوا وجود الذِّكر للعبادة، فلمّا وُجد؛ نكسوا عن الصِّراط، فخالفوا ما اشترطوه، وبادروا الكفرَ بالتَّكذيب، ففي استعمال الشَّرط هنا بيانُ أنَّ ما تمنَّوه إنَّما هو أمانٍ كاذبةٌ، صدرت عن الرَّغبة في تقليد أهل الكتاب.

غرضُ تقديم الظَّرف:

طلب الاختصاص بكتابٍ كما خُصَّ الأوَّلون

قُدِّم ذِكرُ الظَّرف ﴿عِندَنَا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على اسم ﴿أَنَّ﴾ - وهو ﴿ذِكْرًا﴾ - للاختصاص، أي: (لو أنَّ عندهم كتابًا خاصًّا بهم، كما خُصَّ الأوَّلون بكُتُبٍ وذكرٍ)، فقد رغِب المشركون في الجاهليَّة بأن يخُصَّهم اللّٰه سبحانه بكتابٍ سماويٍّ من عنده، نظيرَ كُتُبِ الأوَّلين من التَّوراة والإنجيل، فخصَّهم اللّٰه سبحانه بأفضلِ الرُّسل، وبأفضلِ كتاب، كما طلبوا بأسلوب الشَّرط، لكن كذَّبوا، وكفروا، فسوف يعلمون مآلَ كذِبهم.

نكتةُ تنكير ﴿ذِكْرًا﴾:

طلبُ ذكرٍ عظيم يكتسبون به العَظَمة

جاء لفظُ ﴿ذِكْرًا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُنَكَّرًا، والغرضُ مِن تنكيره الإبهامُ والعموم، فهُم يريدون ذِكرًا يختصّون به كما هو الأمر بالنِّسبة لغيرهم، والإبهام له علاقة مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ من أراد أن يُعظِّم شيئًا؛ أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفُه، وتذهب النَّفس فيه كلَّ مذهبٍ، وتتشوَّق إلى معرفة خبره وتفصيله.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر ﴿ذِكْرًا﴾:

بيانُ رغبة المشركين من نزول الكتاب عليهم

أوثِرَ التَّعبيرُ بالمصدر ﴿ذِكْرًا﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهو مصدر (ذَكَرَ)؛ إذا تلفَّظَ، وذَكَرَ؛ إذا خطر ببالِه شيءٌ، ومعناه هنا الكتابُ المقروء، سُمّيَ ﴿ذِكْرًا﴾؛ لأنَّه يُذَكِّرُ النّاس بما يجب عليهم، ولأنَّ فيه التَّذكيرَ باللّٰه واليوم الآخر، وتسمية القرآن ﴿ذِكْرًا﴾ تسمية لم يكن للعرب علمٌ بها قبل أن تنزلَ،

فصار الذِّكْرُ صنفًا من أصناف الكلام الَّذي يُلقى للنّاس لقصد وعيه وتلاوته[1]، أو سُمّي ﴿ذِكْرًا﴾؛ لأنَّ به ذكرَهم في الآخرين، وقد شملها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]، ومرادُهم بذلك التَّمنّي أن يكون لهم شرفٌ عظيم، وذِكرٌ في العالمين، وأن يكونَ لهم ما يذكِّرهم بالله، ويُرشِدهم إلى عبادته الخالصة، ليصيروا من عباده المُصطَفَين، كما كان لبقيَّة الأمم المتقدِّمة.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

رغبةُ المشركين في إنــزال اللـه عليهم كتابًا مثلَ الكُتُبِ السّابقة

يحتمِل حرف ﴿مِّنَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أن يكونَ للجنس، أو للابتداء: فعلى كون ﴿مِّنَ﴾ جنسيَّةً؛ فقد اشترط المشركون كتابًا من جنس كُتُبِ الأوَّلين، مثلَها في كونها من عند الله تعالى، به يتذكَّرون، وبه يشرُفون كما تذكَّر الأوَّلون بكُتبهم، وشَرُفوا بها، وعلى كونها ابتدائيَّةً يكون المشترَط ذِكرًا جائيًا من الرُّسل الأوَّلين، أي: مثل موسى وعيسى[2].

معنى تعريفِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

التعريف بـ(ال) في قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ للجنس، فالمقصود عمومُ الرُّسل السّابقين الذين أُنزِلَ عليهم كتابٌ سماويٌّ، كتوراةِ موسى وإنجيلِ عيسى عليهما السلام[3].

معنى اللّام في ﴿لَكُنَّا﴾:

اللّام في قول الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ واقعةٌ في جواب ﴿لَوْ﴾، وهي لبيان زعْم المشركين أنَّهم سيصيرون إلى عباد الله المخلصين بشرط أن يتحقَّق اختصاصُهم بكتابٍ من عند الله.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 16.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 148، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.

نكتةُ مجيء جواب الشَّرط ماضيًا:

توكيدُ تحقُّق إيمان المشركين عند تحقُّق نزول الذِّكر الحكيم

استُعمل فعل الكون (كنّا) ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ - وهو جوابٌ للشَّرط المتقدِّم في قولهم: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّحقُّق، فزعموا أنَّ اتِّصافهم بالعبوديَّة والإخلاص ثابتٌ كثبوت ما وقع في الزَّمن الماضي؛ لو تحقَّق نزولُ كتاب من عند الله عليهم من جنس التَّوراة والإنجيل، وهذا نظيرُ قولهِ تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 157]، فغرضُ التَّعبير بفعل الجواب ماضيًا: الدَّلالةُ على تحقُّق ذلك المَشروط له منهم ويقينيَّته.

بلاغةُ القصر وغرضه:

مبالغةُ المشركين في بيان رغبتهم في إخلاص العبوديَّة

تضمَّن قولُ الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ صيغةَ قصر بتعريف الجزأين؛ فالمسند إليه معرَّفٌ بالإضمار، والمسند معرَّفٌ بالإضافة، فلمّا وُصِف المسنَد بـ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، وهو معرَّفٌ بلام الجنس؛ حصل قصر عباد الله الَّذين لهم صفة الإخلاص في المسند إليه، أي: (لكنّا عبادَ الله المخلصين دون غيرنا)، وهذا قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغة في ثبوت صفة الإخلاص لهم، حتّى كانوا شبيهين بالمنفردين بالإخلاص لعدم الاعتداد بإخلاص غيرهم في جانب إخلاصهم، وهذا يؤوَّل إلى معنى تفضيل أنفسِهم في الإخلاص للّٰه حينئذٍ، كما صُرِّح به في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 157][1]، وهو ما يدلُّ على مبالغتهم فيما ادَّعوهُ مِنَ الإخلاص في العبادة، وقدرتِهم على الإفصاح عن معانٍ تدلُّ على الصِّدق العالي، والرَّغبة الجموح، وهم على عكس ما ادَّعوه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 194.

نكتةُ إضافة العباد إلى اسم الجلالةِ:

> من خصَّ الله بالعبادة كان من أهله المخلَصين

الإضافةُ في قول اللّه تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بمعنى لام الاختصاص، أي: (لكنّا عبادًا للّه)، فالإضافةُ تُفيد تشريفهم باختصاصهم عبادًا له سبحانه دون غيرِه، كما أرادوا بأسلوب القصر اختصاصَهم أيضًا بكونهم عبادًا له دون سائر المخلوقات، والمعنى: أنَّهم كانوا يزعمون بأنْ لو عندهم ذكرٌ من الأوَّلين؛ لصاروا أهلًا للإضافة إلى المحيط بصفات الكمال، كالذين وصفوا في قول اللّه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63][(1)]، وفيه مزيد عناية بإبراز صفات الخضوع والانقياد للّه تعالى، فهُم يريدون بهذه الإضافة أن يتَّصفوا بصفة العبوديَّة، الشّاملةِ لكلِّ أسباب الهداية والخضوع لأمر اللّه وتوحيده.

نوع الفاء ودلالتها:

> العِبرة بما يصدُر عن القلوب، لا بما تلهَج به الألسُن

الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ﴾ تحتمل أن تكون للتَّعقيب على فعل ﴿لَيَقُولُونَ﴾، أي: استمرَّ قولُهم حتى كان آخره أن جاءهم الكتابُ، ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ﴾، وتحتمل أن تكونَ للتَّفريع على فعل ﴿لَيَقُولُونَ﴾، وهو بيانٌ لما استكنَّ في القلوبِ، لا لبيان ما نطقت به الألسن، وتحتمل أن تكونَ الفصيحةَ، وهي الَّتي تُفصِح عن جواب شرط مقدَّر، والتَّقدير: (فجاءهم ذكرٌ، فكفروا به)، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ٤٢﴾ [فاطر: 42][(2)]، وهو ما يُفيد العجبَ من كفرهم، أي: أقسموا باللّه على وعدِهم بالإيمان، ثمَّ لمّا جاءهم الحقُّ كفروا به!

نوعُ الباء ودلالتها:

الباءُ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ﴾ لتعدية فعل (كفَر)،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 313.

(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 321، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 194.

والضَّمير المجرور بالباء ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى الذِّكر الَّذي رغِبوا فيه، فالمشركون كفروا بالقرآن وبالنَّبيِّ الَّذي أُنزِل عليه بعدَ كلِّ الَّذي زعموه من ادِّعاء الإيمان والإخلاص(1).

أعجبُ العجب أن يقعَ الكفرُ بالمطلوب المنتظر

دلالة الفاء البيانيَّة:

الفاءُ في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرط المقدَّر، أي: (إن جاء وقتُ حسابهم؛ فسوف يعلمون عاقبةَ كفرِهم)، واستعمال الفاء دالٌّ على التَّعقيب وسرعة نزول العقاب بهم جزاءَ كفرِهم، ويمكن أن تكونَ الفاء للتَّفريع، وهي الَّتي يكون ما بعدها نتيجةً لما قبلها، ففُرِّع تهديدُهم بالعقاب عن كفرِهم بالكتاب وبالرَّسول المنزَّل عليه.

سوف يعلم الكافرُ جزاءَ كفرِه

معنى (سوف) ودلالتها:

(سوف) حرف تسويف وتنفيس أو استقبال، وهي أوسعُ زمانًا من السّين عند البصريّين؛ لأنَّ كثرة الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وهي مرادفةٌ لها عند غيرِهم، والغرضُ مِن استعماله في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ تأكيدُ الوقوع؛ لأنَّ حرف التَّنفيس يؤكِّد المستقبل، وهو يتضمَّن ترقُّبَ ذلك التَّهديدِ وانشغالَ البال بما يوحيه ذلك مِنَ الوعيد، فكلَّما طالت مدَّة انتظارهم الوعيدَ؛ زاد عذابهم واضطرابهم وخوفهم من وقوعه، وهو أبلغُ في إيلامهم وتوجُّعهم(2).

ترقُّب التَّهديد وانشغال البال بما يوحيه مِنَ الوعيد

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

دلَّت صيغة المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ على الاستقبال بقرينة الحرف (سوف)، وفي هذا الاستقبال كناية عن التَّهديد والوعيد؛ لأنَّ إخبارهم بأنَّهم سيعلمون يفيد علمَ وقوعِ سوء

الكنايةُ عن وقوع العذاب في اليوم الموعود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 02/ 329.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 08/ 91.

العاقبة لهم مستقبلًا - لا محالة - والمقصود به عذابُ يوم القيامة، فهو اليومُ الموعود لجزاء الكافرين بكفرِهم.

غرضُ الجملة الخبريَّة:

التَّهديدُ الشَّديد والوعيد الأكيد جزاءُ التَّكذيبِ

خرج الخبرُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ مخرجَ التَّهديد والوعيد، فكفّارُ قريشٍ - بعد أن جاءهم ما تمنّوا الحصولَ عليه من الذِّكر والكتاب المهيمن على كلِّ الكُتُبِ - أعرضوا عنه، وكفروا به، فهدَّدهم اللّه سبحانه بأنَّهم سوف يعلمون عاقبةَ عنادهم وما سيحُلُّ بِهم من نقمته وعذابه، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب مِنَ الوعيد الأكيد، والتَّهديد الشَّديد، على كفرِهم بربِّهم، وتكذيبهم برسولهِ ﷺ[1].

نكتةُ حذفِ المفعول:

إبهامُ العذابِ تحقيرٌ وتصغير لشأن الموعود به

حُذِفَ المفعولُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ لقصد الإبهام والعموم المناسِب للتَّهديد والوعيد؛ لتذهب النَّفسُ في تخيُّل ما ينتظرهم كلَّ مذهبٍ، فالمشركون سيعلمون عاقبةَ كفرِهم وغائلته، وسيندمون على كفرِهم وتكذيبهم، ولمزيد التَّوبيخ والتَّقريع، فإنَّ إبهام العذاب فيه مزيدُ توبيخٍ وتحقير للموعود بالعذاب.

(1) المراغي، التّفسير: 23/ 90.

﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: 171 - 173]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من بيان موقف المكذِّبين، إلـى بيـان سنَّة ربِّ العالمين في الغابرين

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مقالةَ المشركين قبل البعثة، ومخالفتَها عند البعثة في التَّكذيب والافتراء والكفر، وتهديدَ اللّه سبحانه لهم بأنَّهم سوف يعلمون عاقبةَ كفرهم؛ ناسب أن يذكرَ بعد ذلك سنَّته ﷻ مع المرسَلين، وأنَّ النَّصر حليفُهم على الدَّوام؛ تسليةً لرسول اللّه ﷺ ممّا لاقى مِن كفر قومِهِ وعنادِهم، فهو انتقالٌ مِن ذكرِ موقف المكذِّبين، إلى بيان عاقبة مشابِهيهم مِنَ السّابقين، فإن لم ينتفعوا بما أُنزل مِنَ القرآن - كما لم ينتفع السّابقون بما أُنزل عليهم - فسيصيبهم ما أصاب السّابقين، فهُم أمام أحد خيارين: إمّا الإيمان، وإمّا العذاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَبَقَتۡ﴾: (سبق) أصلٌ يدلُّ على التَّقدُّم في السَّيْر، والاستباقُ: التَّسابُق، ثمَّ يُتجوَّزُ به في غيرِه مِنَ التَّقدُّم، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]، أي: المتقدِّمونَ إلى ثوابِ اللّه وجنَّته بالأعمالِ الصّالحةِ[1]، ومقصود ﴿سَبَقَتۡ﴾ في الآية: مَضَتْ في أُمِّ الكتاب[2].

2) ﴿كَلِمَتُنَا﴾: (كلم) أصلٌ يدلُّ على الجُرح والشَّقِّ، والكلام النُّطقُ المُفهِم[3]، والكلمةُ: الواحدة مِنَ الكَلِم والكَلام، كلَّمته تكليمًا

(1) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 130.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلم).

وكلامًا، وتكلَّمتُ تكلُّمًا[1]، أي: نَطَقت نُطْقًا مَفْهومًا[2]، اشتُقَّ الكلامُ مِنَ الكَلْم؛ لأنَّهُ يَشُقُّ الأسماعَ بِوصولِهِ إلَيها، وهو التَّأثير المُدرَكُ بإحدى الحاسَّتين، فالكلامُ: مُدرَكٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ: بحاسَّة البَصَر[3]، والكلمة هي مواعيدُ ربِّكَ، فلا مُغيِّرَ لها، وكلماتُ اللّه: ترجعُ إلى العباراتِ أو إلى المتعلَّقاتِ مِنَ الوعدِ والوعيدِ وغيرِهما[4]، والمرادُ بقوله: ﴿كَلِمَتُنَا﴾ في الآية: قضاؤُه وحُكمُه الَّذي أوجبَه[5].

3) ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾: (نصر) أصلٌ يدلُّ على إمدادٍ بزيادةٍ وقوّةٍ[6]، ولازِمُهُ: دَفْعُ الضُّرِّ[7]، ومنه سُمّيَ المطرُ نصرًا[8]، والنَّصرُ على العَدوِّ: إعانَةُ الخصم عليه في حَرْبٍ أو غيرها بقوَّةِ النّاصر وغَلَبَتِه[9]، ونُصْرَةُ اللّه للعبد ظاهرة، ونُصْرَةُ العبدِ للّه هو نصرته لعباده، والقيامُ بحفظ حدوده، ورعايةُ عهوده، واعتناقُ أحكامه، واجتناب نواهيه[10]، فالنَّصر في الآية بمعنى المعونة حالًا أو مآلًا[11].

4) ﴿جُندَنَا﴾: (جند) أصلٌ يدلُّ على صلابَةِ الشَّيءِ وغِلَظِه، ومنه: الجَنَدُ، وهي الأرضُ الصُّلبةُ، والجُنْدُ العسكر، سُمّوا كذلك لما فيهم مِنَ الغِلْظَةِ[12]، والجُنودُ جَمعُ جُنْدٍ؛ إذِ الجُندُ يُجمَعُ على جُنودٍ وأجنادٍ[13]، وجندُ اللّه في الآية: هم الغزاةُ؛ لتكونَ كلمة اللّه هي العليا، قال عليُّ بنُ أبي طالب: جندُ اللّه في السَّماء الملائكة، وفي الأرض الغزاةُ[14].

5) ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾: (غلب) أصلٌ يدلُّ على شِدَّةٍ مع عُلوٍّ ما وعِظَم جِرْم، ومنه حديقةٌ غلباءُ، أي: عظيمةٌ متكاثِفة مُلتَفَّة، قال تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠﴾ [عبس: 30]، يُقال:

(1) ابن دريد الأزدي، جمهرة اللّغة: (كلم).
(2) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (كلم)، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 73، والمناويّ، التّوقيف، ص: 283.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 507، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 7/ 71.
(5) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/ 1083.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (نصر).
(7) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 79.
(8) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نصر).
(9) الفيّوميّ، المصباح المنير: (نصر)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 486.
(10) الراغب، المفردات: (نصر).
(11) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نصر).
(12) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (جند).
(13) ابن سيده، المحكم: (جند).
(14) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 490، والصّاوي، الحاشية على الجلالين: 03/ 290.

غلب الرَّجل غَلْبًا وغَلَبًا وغَلَبَةً ومغلَبًا ومغلَبَةً، أي: قهَره[1]، ومعنى ﴿ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ في الآية: يشمل عُلوَّهم على عدوِّهم في مقام الحِجاج وملاحم القتال في الدُّنيا، وعُلوَّهم عليهم في الآخرة[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

سنَّةُ الله قاضية بالنَّصر المَتين، عند تكامُل الشَّرط المُبين

تُبيِّن الآيات الكريمة أنَّ اللّه تعالى قضى، وحكَم في أمِّ الكتاب لعباده المرسَلين أنَّ لهم النُّصرةَ على أعدائهم بالحُجَّة والقوَّة، وأنَّ جندَه المجاهدين في سبيله لَهُمُ الغالبون لأعدائهم في كلِّ مقام، باعتبار العاقبة والمآل[3]، وهذه سنَّةٌ ماضيةٌ لا إيقافَ لها؛ إذا تتامَّت شروطُها، وتكاملت أركانُها، وتحقَّقت مضامينُها، بأن يكون العبادُ المرسَلون على طريق الحقِّ والنّور، فإنَّ جندَ اللّه تعالى يتنزَّل نصرُهم المبين.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتها:

تحتمل الواو عطفَ التَّبشير على التَّهديد، والاستئنافَ لتقرير الوعيد

تحتمل الواو في قَوْلِ اللّه تَعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أن تكونَ لعطف الآية على ما قبلها، ففي هذه الآية بيانٌ لبعض الوعيد الَّذي تضمَّنه قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، فهو بمنزلة بدل البعض من الكلِّ، ولكنَّه غلب عليه جانبُ التَّسلية، فعُطِف بالواو عَطفَ القصَّة على القصَّة[4]، ويمكن أن تكونَ الواو للاستئناف، فتكونَ الآية جملةً مستأنَفةً مقرِّرةً للوعيد[5] أن يحلَّ بالمشركين ما حلَّ بالسّابقين، فإنَّ نصر اللّه لعباده المرسَلين هو عذابٌ منه للكافرين.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (غلب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 195.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 657، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 194.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 288.

تأكيدُ وعدِ الله بالنَّصر من مُلهِمات الثَّبات والصَّبر

دلالةُ التَّوكيد بـ (لقد):

استعمل النَّظمُ الكريم في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ حرفَ (اللّام) متَّصلًا بحرف (قد)، واللّام هي الدّاخلة على جواب القسَم، فهي دالَّةٌ على أنَّ في الكلام قسَمًا مُقدَّرًا، فقد مَهَّدَت له الجواب، ولذا تُسمّى ممهِّدةً ومُؤذِنَة[1]، وكثُر في الكلام اقترانُ جملة جواب القسم بـ (قد)؛ لأنَّ القسَمَ يهيِّئ نفسَ السّامع لتوقُّع خبرٍ مُهِمٍّ، فيُؤتى بـ(قد)؛ لأنَّها تدلُّ على تحقيق أمرٍ متوقَّعٍ، فاللّامُ أفادَتْ، بدخولها على (قد): المبالغةَ في التَّأكيد، والغرضُ مِن تأكيد هذا الخبر: هو العناية بمضمونه، والمبالغةُ في تأكيد وعد اللّه لعباده بالنَّصر والغلَبةِ على الكفّار[2]، لاسيَّما أنَّ الآيات مكيَّةٌ، وكان المؤمنون يعيشون حياةَ الاضطهاد والمعاناة، فتوكيد ذلك مِن مُلهِمات الثَّبات والصَّبر.

نصرُ المرسلين وعدٌ من الله سابِق، وعقابه بالكافرين لاحِق

بلاغةُ استعمال مادَّة السَّبق:

آثرَ النَّظم الكريم في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا﴾ استعمالَ فعلِ السَّبقِ؛ للدَّلالة على أنَّ كلمةَ اللّه بنصر عباده مُتقدِّمةٌ في الزَّمن، فهو أمرٌ قضاه اللّهُ قبلَ خلقِ السَّماء والأرض، وكتبَهُ في أُمِّ الكتاب[3]. فاستعمالُ مادَّة السَّبق هنا يُرسِّخ في قلب المؤمن الثِّقةَ بوعد اللّه، وأنَّ النَّصرَ مع الصَّبر، ولن يكون إلّا ما أراد اللّهُ تعالى.

كلمةُ الله منجزةٌ فلا تتخلَّف ولا تتجزَّأ

دلالةُ استعمال لفظ الكلِمَة:

المقصودُ بالكلمة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾: هو الوَعْدُ بعلوِّهم على عدوِّهم، في مقام الحِجاج، وملاحِم القتال في الدُّنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرة[4]، وجَعلِ العاقبة

(1) الشهاب، عناية القاضي: 2/ 173.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 208.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 130.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 195.

الطَّيّبة لهم، فقد عيَّن السّياقُ هذه الكلمةَ بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾، كما جاء الوعدُ تصريحًا في قول اللّه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][1].

سرُّ إفرادِ الكلمة:

كلمةُ الله بنصر الرُّسل وأتباعِهم لا تتجزَّأ، ولن تتخلَّف

جاء التَّعبيرُ عن الوعدِ بالنَّصر في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بإفراد الكلمة، وهي في الحقيقة كلماتٌ عِدَّة، وجاء معناها في قول اللّه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21]، وسببُ إفراد الكلمات أنَّها لـمّا انتُظمت في معنًى واحد، وتضامَّت، وارتبطت غايةَ الارتباط؛ كانت في حُكم كلمةٍ مفرَدة، كما يُقال: كلمةُ الإخلاص، والتَّوحيد، والشَّهادتين.

فإفرادُ الكلمة هنا من باب الاستعارة، والمشهورُ أنَّ إطلاقَ الكلمة على الكلام مجازٌ مرسَلٌ، من إطلاق الجزء على الكلِّ، والغرضُ منها بيانُ أنَّها لا تتجزَّأُ، ولا تتخلَّفُ، وأنَّها منجزة بوعد الكريم سبحانه، وقال بعض العلماء: إطلاقُ الكلمة على الكلام حقيقةٌ لغويَّةٌ، وأمّا اختصاص الكلمة بالمفرد؛ فهو اصطلاحٌ لأهل العربيَّة، فعليه لا يُحتاج إلى تأويل[2].

فائدةُ إضافة الكلمة إلى ضمير العظمة:

وعدُ الله العظيمِ حقٌّ، وهو واقعٌ لا محالة

أُضيفت الكلمة في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا﴾ إلى الضمير (نا)، والإضافةُ تحتمل أن تكونَ بمعنى اللام، فتكون محمولةً على الاختصاص، أو بمعنى (مِن) محمولةً على الابتداء، أي: صدرت عن اللّه تعالى، فهي أمرُهُ وكونه، وضمير (نا) يدلُّ على التَّعظيم، وبيانِ علوِّ قدرِه سبحانه، لتعدُّدِ صفاته الحميدة،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 139.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 67، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 139، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 149.

ومواهبه الجزيلة، ومثل هذا التَّعبير يعبِّر به الملوكُ والعظماءُ عن نافذِ أمرهم ونهيهم، فالإضافة هنا إلى ضمير العظمة تُدخل المهابةَ في قلوب عباده، وتُؤكِّد ما صدر مِنَ اللّٰه وعدًا وتهديدًا، فالعظيمُ جلَّ شأنُه وعَدَ بنصر عباده، وبغلبة أعدائه، ووعدُه حقٌّ آتٍ لا محالة[1].

سرُّ الجمعِ على (عِباد):

غـالـبُ جمع العـبـاد في القرآن للتَّكريم والتَّشريف

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبير بالجمع (عباد) في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا﴾، وهو جمع عَبْدٍ كالعبيد، غير أنَّ جمع (عَبد) على (عِباد) يُقصَد معه التَّكريم، والعبيد قد يُقصدُ منه خلاف التَّكريم، ولذلك قال هنا: ﴿لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، بخلاف جمعه على (عبيد)، كالَّذي في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]؛ لأنَّه مكان تشفيقٍ وإعلام بقلَّة مقدرتهم، وأنَّه تعالى ليس بظلّام لهم مع ذلك[2].

نكتةُ الإضافة في (عبادنا):

تـشـريـفُ عبادِ الـلـه المخلصين بإضافتهم إلى ربِّ العالمين

إضافةُ لفظ العباد إلى الضَّمير: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا﴾ بمعنى اللام، فهي دالَّةٌ على الاختصاص، لإفادة تشريفهم باختصاصهم عبادًا له سبحانه دون غيره، فهُم الذين أخلصوا للّٰه العبادةَ في كلِّ حركةٍ وسكون، فصاروا أهلًا للإضافة إلى العظيم، المحيطِ بصفات الكمال، كقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63][3].

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

النَّصرُ متحقِّقٌ عـنـد تـحـقُّـق الـعـبـوديَّـة فــي الاقـتـداء بالمهديّين

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ للجنس الَّذي يفيد العمومَ والاستغراق، فجميع الرُّسل وأتباعهم المؤمنين موعودون بالنَّصر والغلبة على

---

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

(2) ابن عطية، المُحرّر الوجيز: 461/ 1، وأبو حيان، البحر المحيط: 231/ 3، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 294/ 3.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 313.

أعدائهم في الدُّنيا والآخرة، فالوعد قائمٌ، والنَّصر مكتوبٌ لمن تحقَّق فيه أنَّه عبدٌ لله تعالى، وأتى بشروط النَّصر من الالتزام بشرع الله ووحيه، والمضيِّ على سنَّة المرسلين في الصَّبر واليقين.

نكتة وصف العباد بـ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾:

شرطُ بلوغِ نصر الله للمؤمنين اقتفاءُ أثر المرسَلين

وُصِف العباد بأنَّهم مرسَلون في قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ونكتة ذلك أنَّ الرُّسل هم الواسطة بين الرَّبِّ وعباده، فهُم الَّذين يتلقّون كلماتِه، ويبلِّغونها إلى النّاس، وهو كذلك وصفُ مدح لهم، والمعنى: (الذين زدناهم على شرف الإخلاص في العبوديَّة شرفَ الرِّسالة)[1]، والوصف يقتضي التَّخصيص، لكن ليس المراد بالتَّخصيص أنَّ النَّصر للمرسلين دون غيرهم، بل هو لهم ولغيرِهم مِنَ المؤمنين، بشرط أن يقتفي الأتباعُ نهجَ المُرسَلين.

علَّةُ فصل الجملة:

بيانُ الكلمة السّابقة بالنَّصر المبين

فُصِل قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ عمّا قبلَه - وهو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ - لوجود كمال الاتِّصال بينهما، وهو اتِّحاد الجملتين اتِّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنزَّل الثّانيةُ من الأولى منزلةَ نفسِها[2]، فقد وقعت جُمْلَةُ: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ بيانًا وتفسيرًا للكلمة الَّتي سبقت مِنَ الله لعباده المرسلين في الآية الأولى، أي: الكلام المتضمِّن وعدَهم بأن ينصرهم اللهُ على الَّذين كذَّبوهم، وعادَوهم، وهذه بشارةٌ للنَّبيِّ ﷺ عَقِبَ تسليته؛ لأنَّه داخلٌ في عموم المرسلين[3].

غرضُ توكيد الخبر:

جاء الخبر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ مؤكَّدًا

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 289.
(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 195.

إلهابُ نفوس المؤمنين يُحرِّكهم للثَّبات حتّى نزول النَّصر

بتأكيدات عدَّة مِن حرف التَّوكيد (إنَّ)، واللّام المزحلقة، وضميرِ الفصل (هُمْ)، وتعريفِ الجزأين، فالخبر إنكاريٌّ، والغرض منه تثبيتُ المعنى في نفوس المؤمنين، فهُم وإن دخلوا في مسمّى الإيمان إلّا أنَّ الإيمان يتفاوت بين أفراد المؤمنين، والخبر متعلِّقٌ بخبرٍ غيبي مُستَقبَل - وهو النَّصر - فتقويته بالتَّأكيد للإلهاب والتَّهييجِ بتنزيلهم منزلةَ المُنكِر، وتحريكٍ للنُّفوس المؤمنة لبعث الحقِّ فيها.

بلاغةُ القصر ونوعه:

من نصره الله؛ فلا يُغلب، ومن خذله الله؛ فلا يُنصر

القصر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ آتٍ من تعريف جزأي الجملة، وضميرِ الفصل، والقصر قصر قَلب، للرَّدِّ على من ظنَّ أنَّهم المهزومون، وهو ما يوافق مقتضياتِ النُّزول وملابساته، أي: (إنَّ عبادنا المذكورين لهُم المنصورون خاصَّةً لا غيرُهم)، على أعدائهم في الدُّنيا والآخرة، فمَن نصرناه؛ فلا يُغلب، كما أنَّ مَن خذلناه؛ لا يُنصر[1].

معنى تعريف ﴿ٱلۡمَنصُورُونَ﴾:

عبادُ الله منصورون على الدَّوام، في كلِّ عصرٍ وآن

جاء لفظ ﴿ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ معرَّفًا بـ (ال) الموصولةِ، بمعنى: (الذين ينصرهم الله ﷻ)، وضابط (ال) الموصولة أن تكون صلتُها صفةً صريحة، وهي هنا اسم المفعول (منصورون)، والنُّكتة في استعمال اسم المفعول دون الجملة الفعليَّة: إفادةُ الثُّبوت، فعبادُ الله منصورون على الدَّوام في كلِّ عصرٍ وآن، سواء في الحال أو في المآل، فأفاد التَّعريف العموم والاستغراق والشُّمول.

دلالةُ استعمالِ مادَّة النَّصْر:

أوثِر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ التَّعبيرُ بلفظ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 289.

النَّصرُ حسّيٌّ ومعنويٌّ، والعِبرة بالعاقبة والمآل لا بالمبدأ والحال

﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾، وهو اسمُ مفعولٍ من الفعل (نَصَرَ)، وتدور تصاريف هذه المادَّة على إتيان خيرٍ وإيتائه، ومنه: نصْرُ اللّه تعالى للمسلمين، وهو إيتاؤهم الظَّفَرَ على عَدوِّهم[1]، والنُّصرَةُ: حسنُ المعونة[2]، فعبادُ اللّه المرسَلون منصورون في جهادهم على الكافرين، واللّه سبحانه هو النَّصير الموثوقُ بألّا يُسْلِمَ أولياءَه، ولا يخذُلَهم[3]، وفي استعمال هذه المادَّة اللغويَّة إيماءٌ إلى أنَّ النَّصر قد يكون متحقِّقًا في الدُّنيا أو الآخرة، فالنَّصر له دلالةٌ معنويَّة، وأخرى محسوسةٌ ماديَّة، فأيُّ النَّصرين تحقَّق؛ فقد نُصر المرسلون، وغلب المؤمنون.

دلالة العطف بين الجمل الخبريَّة:

عطفُ بيانِ وسيلة النَّصر على ذِكر الغاية

عُطِف قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾؛ فبعد أن وعَد سبحانه بنصرة عباده المرسَلين عطفَ عليه بشارةَ المؤمنين بالظَّفَرِ على أعدائهم، فإنَّ المؤمنين جندُ اللّه وأنصارُه، نصروا دينَه، وتلقَّوا كلامَه[4]، وهما وعْدانِ من اللّه تعالى: الأوَّلُ فيه الغاية، والآخر فيه بيانُ الوسيلة، وهي الغلَبة في المآل بواسطة جند اللّه تعالى.

بلاغةُ التَّعميم بعد التَّخصيص:

ذِكرُ الإمام المتبوع يستلزم ذِكرَ الأُمَّةِ التّابِعة

لـمّا خصَّ اللّهُ سبحانه المرسَلين بالنُّصرة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطف عليه قولَهُ: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾؛ لنكتة العموم والشُّمول، فقوله: ﴿جُندَنَا﴾ يشمل المرسَلين وأتباعَهم، فهو تعميمٌ بعد التَّخصيص، فعُلم أنَّ المرادَ بعباد اللّه المرسلين: الأنبياءُ والمؤمنون؛ لأنَّ ذِكرَ الإمام والمَتبوعِ يستلزم ذكرَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).
(2) الخليل بن أحمد، العينُ: (نصر).
(3) الحَلِيمي، المنهاج: 1/ 205.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 195.

الأُمَّةِ والتّابِع(1)، وفي عطفِ غلَبة الجند على نصرة المرسلين بيانٌ للعمل ضمن السُّنَن الَّتي أوجدها اللّه تعالى في سبيل تحقيق النَّصر والغلبة، وأنَّ الأمر يحتاج إلى عملٍ قائم على الإيمان، والتزامِ منهج الهدى واليقين.

غرضُ الجملة الخبريَّة:

تنزيلُ غيرِ المنكِر منزلةَ المنكِر إذا اقتضى السّياق التَّأكيد

جاء الخبرُ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ مشتملًا على تأكيداتٍ من اسميَّةِ الجملة، وحرف التَّوكيد (إنّ)، واللّامِ المزحلقة، وضميرِ الفصل، وتعريفِ الجزأين، وذلك لتوكيد مضمون الخطابِ في وقت استبعاد تحقيق غلبة المؤمنين على الكافرين، فإنَّ السورة مكيَّةٌ، وكانت الغلبةُ للكافرين، فالخبر لتوكيد ما يُنكِره الكافرون، ولتطمين المؤمنين إلى مضمونه.

نوعُ القصر وبلاغته:

كسر توقُّع الباطل يوقعه في الانهزام النَّفسي

في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قصرٌ بطريق تعريف جزأيِ الجملة، والقصر قصر قلب لِما يعتقده المشركون من أنَّ المؤمنين سيُهزَمون، والمعنى: (إنَّ جند اللّه هم الغالبون لا غيرُهم)، فمَن نصره اللّه العزيز؛ لا يُغلب، كما أنَّ مَن خذله؛ لا يُنصر(2).

دلالةُ التَّعبير بلفظ الجند:

الجندُ تُحيط بهم معاني الصَّلابة والاجتماع والقوَّة

آثرَ النَّظم الكريم استعمالَ مفردةِ الجند في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ دون رديفاتها، ومعناه في الأصل: الأنصار والأعوان، والمراد منه هنا: أنصارُ دين اللّه، وهم المؤمنون، وجندُ اللّه هم الغُزاة؛ لتكونَ كلمةُ اللّه هي العليا، وقال عليُّ بن أبي طالب: جند اللّه في السَّماء الملائكة، وفي الأرض الغزاة(3)، ونكتة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 314، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 346.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 289.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 490، والصّاوي، الحاشية على الجلالين: 03/ 290.

الاستعمال أنَّ هذه المفردةَ مقترِنةٌ في أصلها اللُّغويِّ بمعنى الصَّلابة والثبات، وأثَرُ ذلك في جند اللّٰه تعالى، مع مناسبة ذكر الجند مع الغلبة؛ لِما توحي به المفردتان من الصَّلابة والتَّماسك.

نكتةُ الإضافة في ﴿جُندَنَا﴾:

تعظيمُ جند الله وتشريفهم بإضافتهم إلى ربِّهم

أُضيف لفظُ الجند إلى ضميرِ العظمة في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾؛ لتعظيم شأن الجندِ، وتشريفِهم بإضافتهم إلى مولاهم ﷻ، وفي الإضافة دليلُ التَّأييد والمهابة والقوَّة.

معنى تعريفِ ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾:

عبادُ الله غالبونَ على الدَّوام، في كلِّ عصرٍ وآن

جاء لفظ ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ معرَّفًا بـ (ال) الموصولة، وهي بمعنى: (الذين يغلِبون أعداءَ الدّين)، وضابطُ (ال) الموصولة أن تكون صلتُها صفةً صريحة، وهي هنا اسم الفاعل (غالبون)، والنُّكتة في استعمال اسم الفاعل دون الجملة الفعليَّة إفادةُ الثُّبوت، فعباد اللّٰه غالبون على الدَّوام في كلِّ عصرٍ وآن، سواء في الحال أو في المآل.

بلاغةُ استعمال مادَّةِ الغَلَبَة:

الإيماء إلى الإعجاز الغيبي، في إرداف النَّصر بالغلبة القاهرة

أوثِر في قول اللّٰه تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ استعمالُ لفظِ ﴿ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾، وهو اسمُ فاعلٍ من الفعل (غَلَبَ)، وأصله يدلُّ على قوَّة وقهر وشدَّة، ومعناه هنا يشمل عُلوَّهم على عدوِّهم في مقام الحجاج، وملاحم القتال في الدُّنيا، وعُلوَّهم عليهم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [البقرة: 212]، فهو استعمالٌ للغلبة في حقيقتها ومجازها[1]، وأوثرت على مادَّة النَّصر، فلم يقل: (لهم المنصورون)، كما قيل في شأن المرسلين؛ لأنَّ النَّصر عامٌّ، بينما الغلبة متَّجهةٌ هنا إلى القوَّة الحسّيَّة والمادّيَّة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 195.

والقهر الغالب، بقرينة عطفِها على النَّصر، ففي هذا الاستعمال بيانُ أنَّ المؤمنين ستكون لهم الغلبة الكبرى في قابلِ الأيام، وأنَّ بهذه الغلبة تكتمل نُصرةُ المرسَلين، فهذا الإخبارُ من باب الإعجاز الغيبيِّ، فقد تحقَّقت غلَبةُ المؤمنين، وامتدَّتِ الفتوحاتُ، وانتصرتِ الدَّعوةُ المحمَّديَّة.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤ وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٨ وَأَبۡصِرۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ ١٧٩﴾ [الصافات: 174 - 179]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِن ذِكر الوعد والوعيد إلى الأمر بالإعراض عن المعاندين

لـمّا ذكرتِ الآيات السابقة سنَّة اللّه تعالى في نصرة رسلهِ وأوليائه، وغلَبةِ جنده والمؤمنين، وعدًا للمؤمنين، ووعيدًا للكافرين؛ ناسب خطابُ رسول اللّه ﷺ بترك الكافرين والإعراض عنهم إلى اليوم الذي تحلُّ فيه الحسرة والنَّدامة على الكافرين، فهو انتقال مِن ذِكر سنَّة اللّه تعالى في نصرة المؤمنين، إلى الأمر بالإعراض عن الكافرين، لتكميل الوعيد، والثِّقة بما عندَ اللّه تعالى مِن نزول النَّصر المبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَوَلَّ﴾: (ولي) أصلٌ يدلُّ على القربِ[1]، يُقالُ: والَى فلانٌ فلانًا؛ إذا أحبَّه، وقرَّبَه، وأدناه إليه، والتَّولّي مصدرُ تولَّى، أي: اتَّخذه وليًّا، وإذا عُدّي بـ (عَن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وترك القُربِ، فمِنَ الأوَّل قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومِنَ الثّاني قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][2]، وحقيقة هذا التَّولّي: المفارقةُ، واستُعمل في هذه الآية مجازًا في عدم الاهتمام بما يقوله المشركون[3]، والإعراض عن استهزائِهم وتهديدهم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(2) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (ولي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196، والزّحيلي، التّفسير الوسيط: 03/ 2192.

2) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾: (بصر) أصلٌ يدلُّ على إمساكٍ في أثناءٍ، كبَصَرِ الرؤية التي هي التقاطٌ في العين[1]، ومنه أيضًا العلمُ بالشَّيءِ، كما يقالُ: فلانٌ بصيرٌ به[2]، فيجوزُ أنْ يبصرَ الإنسانُ بقلبِهِ وروحِهِ، ويقالُ لها: قوَّةُ الإدراكِ القلبيَّةِ[3]، وعندَ ذاكَ تُسمّى البصيرةَ، أو بصرَ النَّفسِ[4]، والمقصودُ في الآية ليس النَّظر إلى ذواتهم لكن إلى أحوالهم، أي: (تأمَّلْ أحوالَهم؛ ترَ كيف ننصرُك عليهم)، وهذا وعيدٌ بما حلَّ بهم يومَ بدر[5].

3) ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾: (عجل) أصلٌ يدلُّ على سَبْقٍ بتحصيل الشَّيء قبل وقتِه[6]، ومنه العَجَلُ والعَجَلة: طَلَبُ الشَّيء وتَحَرّيه قبل وقتِه[7]، واستعجلته: حَثَثْتُه، وأمَرْتُه أن يُعَجِّل في الأمر، والاستعجال والإعجال والتَّعَجُّل بمعنًى واحدٍ: الاستحثاث وطلب العَجَلة، واستعجل الرَّجلَ: حثَّه، وأمره أن يُعَجِّل في الأمر[8]، والمقصودُ في الآية: طلَبُ المشركين سرعةَ نزولِ العذاب، مبالغةً منهم في تكذيب النَّبيِّ ﷺ والاستهزاءِ بالوعيد.

4) ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾: (سوح) كلمةٌ واحدةٌ، يُقال: ساحةُ الدّار باحَتُها، والجمع ساحٌ وساحاتٌ، مثل: ساعةٍ وساعاتٍ وساعٍ، وسوح أيضًا مثل بَدَنَة وبُدْن وخَشَبَة وخُشْب، ومعناها الموضع المتَّسِعُ أمامها[9]، والعرب تقول: نزل بساحة فلان العذابُ والعقوبةُ، وذلك إذا نزل به[10].

5) ﴿فَسَآءَ﴾: (سوأ) أصلٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاء[11]، ثُمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ[12]، وهو أيضًا كلُّ ما يَغمُّ الإنسان[13]، ساء: أي: قَبُحَ، والسّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ، ساء يَسوءُ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بصر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(3) الراغب، المفردات: (بصر).
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 46.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عجل).
(7) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصّحاح: (سوح).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 660.
(11) الأزهري، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(12) ابن الهائم، التبيان، ص: 73.
(13) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 123، وابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 113، والرّاغب، المفردات: 1/ 441.

سوءًا، يقالُ: ساء الشَّيءُ: قَبُح، فهو سيِّئٌ[1]، وقال اللَّيثُ: يقالُ: ساءَ ما فعل صنيعًا يسوءُ، أي: قبُح صنيعُهُ صنيعًا، والسَّيِّئُ والسَّيِّئة: عملانِ قبيحانِ[2]، والمعنى هنا: قَبُحَ وبِئْسَ صباحُ الكافرين، الَّذين أُنذِروا بعذابنا، وكذَّبوا به، فلم يؤمنوا[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أُمِرَ النَّبيُّ الكريم بـالإعـراض عن المشركين حتّى يأتيَهم اليقينُ

يأمرُ اللَّهُ سبحانه في هذه الآيات الكريمة رسولَهُ الكريم بأن يُعرِضَ عَمَّن عاند، ولم يَقبَلِ الحقَّ حتّى تنقضيَ الـمُدَّة الَّتي أمهَلَهُم فيها، ويأتيَ أمر اللَّه بعذابهم، ويقول له: أنظِرهم أيُّها الرَّسولُ، وارتقِب ماذا يحُلُّ بهم مِنَ العذاب بمخالفتك، وسوف يرى هؤلاء الكفّار ما يحُلُّ بهم من عذاب اللَّه، أفبنزول عذابِنا بهم يستعجلونك؟ فإذا نزل عذابُنا بهم، فبئس الصَّباحُ صباحُهم، فأعرض عنهم حتّى يأذنَ اللَّه بعذابِهم، وأنظرهم فسوف يرون ما يحُلُّ بهم مِن العذابِ والنَّكال[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاء ودلالتها:

الـنُّـصـرةُ لـك، والـغـلَـبـةُ لأتباعك، وليس لـهـؤلاء إلّا العذابُ القريب، فتولَّ عنهم

وُصِل قول اللَّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ بما قبله بحرف الفاء؛ لأنَّه مُفَرَّعٌ على التَّسلية الَّتي تضمَّنها قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، ويحتمل أن تكونَ هذه الفاء فصيحةً، أفصحَتْ عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: (إذا علمتَ أن النُّصرَةَ والغلَبَةَ لك ولأتباعك، وأردتَ بيان ما هو الأصلح لك: فأقول لك: تولَّ عنهم)، أي: أعرِض عن كفّار مكَّة، واصبر على أذاهم[5].

---

(1) الخليل، العين: (باب اللّفيف من السّين سيّئ)، والزَّبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة: (سوأ).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 09/ 131، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 291.
(4) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 194، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 289.

توريث المؤمنين العِزَّة، والمشركين الذِّلَّة

بلاغةُ استعمالِ الفعلِ (تَوَلَّ) مادَّةً وصيغةً:

أمرَ اللّهُ سبحانه نبيَّه الكريم بقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، وحقيقة التَّولّي: المفارقة، كما في قِصَّة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ۝٩٠﴾ [الصافات: 90]، واستُعمل هنا مجازًا في عدم الاهتمام بما يقولونه، وتركِ النَّكد من إعراضهم، والمعنى: (أعرض عنهم - أيُّها النَّبيُّ - واصبر على أذاهم لك، إلى مدَّةٍ معلومة عند اللّه تعالى، فإنّا سنجعل لك النَّصر في النِّهاية)، وهذا وعدٌ للنَّبيِّ ﷺ، وأمرٌ له بموادعةِ أو مهادنة المشركين إلى أمدٍ معلوم[1]، مع ما في هذه المفردة من تمكينِ العزَّة للرَّسول والمؤمنين، ووَضعِ المشركين المعاندين في موضعهم الَّذي يستحقّونه مِنَ الإهمال والإغفال.

الإعـراضُ عن الكفّار يستلزم الابتعاد الفكريَّ والأخلاقيَّ

دلالةُ التَّعدية بالحرف (عن):

دلَّ الحرفُ (عَن) في قول اللّه سبحانه: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ على المُجاوَزَةِ والمباعدةِ، وذَلِكَ لِكَوْنِ التَّولّي عن الكفّار يستلزم البعدَ عنهم وعدم التَّعرُّضَ لهم، حتّى يأذنَ اللّه بعذابهم، وحينئذٍ سوف يرون ما يحُلُّ بهم من العذاب والنَّكال.

اتِّساقُ الإعراض مع الإعراض

نكتةُ إيثار الإضمار:

جاء الأمرُ بالتَّولّي عن المشركين في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ دون أن يُقالَ: (فتولَّ عن المشركين) ونحوه، على طريق الإضمار دون الإظهارِ؛ لزيادة التَّهديد والوعيد المتضمِّن في الأمر بالإعراضِ، فإنَّ النَّظم قد أعرض عن التَّصريح باسمهم، كما أُمر عليه السلام بالإعراض عنهم، وهذا من بديع الإيجاز المفهوم من عموم السّياق.

غـايةُ الـتَّـولّي حـلـولُ وقـت الهلاك

دلالةُ استعمال ﴿حَتَّىٰ﴾:

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ هو الغاية، فغايةُ التَّولّي عن المشركين والإعراضِ عنهم وعدمِ مقاتلتهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196، والزّحيلي، التّفسير الوسيط: 03/ 2192.

هو حلول الحين الذي قدَّره الله سبحانه لهلاكهم، واستعمال ﴿حَتَّىٰ﴾ في الغاية يختلف عن (إلى)، فإنَّ (حتّى) لا تستعمل إلّا لما كان آخرًا أو مُتَّصلًا به، أمّا (إلى)؛ فتُستعَمل لعموم الغايات، سواءٌ كانت آخرَ جزء من الشَّيء أم لا[1].

بلاغةُ اختيار لفظ الحين:

إبهامُ الألفاظ في سياق الوعيد يزيدُها ترهيبًا وقوَّةً

جاء في قول الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ لفظُ الحين، ومعناه وقتٌ أو زمنٌ معلوم عند الله، ومدَّةٌ يسيرة يُؤمَر بعدها النَّبيُّ ﷺ بجهادهم، فقد كان ﷺ أوّلَ الأمر مأمورًا بالتَّبليغ والإنذار، والصَّبرِ على أذى الكفّار، تأليفًا لهم، ثمَّ أُمر بالجهاد في السَّنَة الثّانية من الهجرة، وهي مُدَّة الكفِّ عن القتال، وقد أُبهم هذا الظَّرفُ، ولم يتقيَّد بقيدٍ يوضِّح معناه؛ ليتناسب مع دلالة الوعيد وقوَّته وبأسِه، فالإبهام يزيد من قوَّة التَّهديد والوعيد، لغموضه وذهاب الظَّنِّ فيه مذاهبَ، فيحتمل لفظُ الحين في الآية معانيَ متنوِّعة، كما قيل فيه: الموت، والوقت الذي أُمهلوا إليه، وفتح مكَّة، والقتل ببدر[2].

نكتةُ العطف في ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾:

ليس بعد التَّولّي إلّا إبصار الإدبار

عُطِف الأمرُ بالإبصار في قول الله تعالى: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ على الأمرِ بالتَّولّي في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ بحرف الواو، الدالِّ على الجمع والاقتران، فأُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بالتَّولّي عن المشركين إلى مدَّةٍ معيَّنَةٍ، يعقُبها حلولُ العذاب بهم، فيُبصِرهم مأسورين مقتولين مُدبِرين، في غزوة بدر وغيرها.

غرضُ الأمرِ بالإبصار:

تقريبُ الأمر المستقبَل، وتسلية النَّبيِّ بنصرٍ قريب

صيغةُ الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ محمولة على الإرشاد، والمرادُ بأمر النَّبيِّ ﷺ إبصارَهم على الحال المنتظَرة

(1) السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 35.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 659، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 139، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 290.

الموعودة: الدَّلالةُ على أنَّها كائنةٌ واقعةٌ - لا محالةَ - وأنَّ كينونَتها قريبةٌ، كأنَّها قُدّام ناظريه، وفي ذلك تسليةٌ له، وتنفيسٌ عنه[1].

براعةُ استعمال مادَّة الإبصار:

الجمعُ بينَ المعنويّات والحِسّيّات، وبينَ الوسائلِ والغايات

استعمل النَّظمُ الكريم فعلَ الأمر ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾، وليس المرادُ النَّظرَ إلى ذواتهم، لكن إلى أحوالهم، أي: (تأمَّل أحوالَهم؛ تَرَ كيف ننصرُك عليهم)، وهذا وعيدٌ بما حلَّ بِهم يوم بدر[2]، فإنَّ الإبصارَ يتضمَّن العلم، وسببُ إيثارِه على العلم أنَّ وسيلةَ العلم البصرُ، فالرَّسول ﷺ سيُبصِرهم في هزيمتهم وحَتفِهم وإدبارهم، وهذا الإبصار سينشأ عنه العلم بالحال، فجمع اللَّفظ بين الوسيلة والغاية، بين إبصار المحسوسات، ودَرْكِ الأحوال والمآلات.

تعيينُ مرجِع الضَّمير:

عُدّيَ فعلُ الإبصارِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ إلى الضَّمير؛ اتِّساقًا مع المذكور في فعل التَّولّي، والمراد معلومٌ من السّياق، وهم المشركون.

نكتةُ حذف متعلِّق فعلِ الإبصار:

تهويلُ ما سيحلُّ بالمشركين من نكال ووعيد

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾، والتَّقدير: (وأبصرهم مأسورين مقتولين)، أو: (وأبصِرهم وما يُقضى به عليهم من أسْرٍ وقتْل)، والنُّكتة في إيثار الحذف: تهويلُ ما سيحلُّ بالمشركين وتفظيعُه من نكالٍ ووعيدٍ، حتّى تذهب النَّفسُ في تقديرِه كلَّ مذهبٍ، وليُبنى الكلامُ على الإجمال، وهو الأقربُ إلى سياق الوعيد، لِما فيه مِنَ الإبهام في إنزال الآلام.

بلاغةُ الكناية:

عُبِّرَ في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ﴾ عن ترتُّبِ نزول العقاب بِهم

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 68.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196.

بفعل الإبصار؛ للدَّلالة على أنَّ ما توُعِّدوا به واقعٌ - لا محالة - وأنَّه قريبٌ، حتّى أنَّ الموعودَ بالنَّصر يَتَشَوَّفُ إلى حلولِه، فكان ذلك كنايةً عن تحقُّقِه وقُربه؛ لأنَّ تحديقَ البصر لا يكون إلّا إلى شيء أَشْرَفَ على الحلول(1).

الأمـرُ بالإبصار كنايةٌ عن قربِ الانتصار

نوعُ الفاءِ ومعناها:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾؛ للتَّفريع على الأمر بالإبصار: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، والنُّكتة في ذلك إنذارهم بوعيدٍ قريبٍ على بشارة النَّبيِّ بقُربه، فإنَّ ذلك المبصَرَ يَسُرُّ النَّبيَّ ﷺ، كما يُحزِن أعداءَهُ.

تفريعُ مساءة المشركين على مسرَّة النَّبيِّ الكريم

دلالةُ استعمال (سوف):

(سوف) في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أختُ السّين في الدَّلالة على الاستقبال، وهي أوسعُ زمانًا من السّين عند جمهور النُّحاة؛ لأنَّ كثرةَ الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وهي مرادِفةٌ لها عند غيرهم، وغرَض استعمال (سوف) في هذا السّياق: تأكيدُ الوقوعِ؛ لأنَّها تؤكِّد المستقبَل، وهو يتضمَّن ترقُّبَ ذلك التَّهديد، وانشغالَ البال بما يوحيه ذلك من الوعيد، فكلَّما طالت مدَّةُ انتظارهم الوعيدَ؛ زاد عذابُهم واضطرابهم وخوفهم من وقوعه، وهو أبلغُ في إيلامهم وتوجُّعهم(2).

الأمـرُ بالتَّرقُّب والتَّربُّصِ تهديدٌ ووعيدٌ

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

جاء الفعل ﴿يُبْصِرُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ بصيغة المضارع، مقترنًا بـ(سوفَ)؛ للدَّلالة على الاستقبال، والمضارع يدلُّ على أنَّهم عند إبصارهم سوف يُبصِرون أمرًا عظيمًا؛ لِما يدلُّ عليه مِنَ الاستمرار والتَّجدُّد، فإبصارُهم سوف يبقى مستمرًّا لهول الموقف، فقد توعَّد اللّه الكفّارَ بأنَّهم سيرَون جزاء كفرِهم بالنَّبيِّ

كنايةٌ باستمرار الإبصار وتجدُّده، عن هَولِ الموعود وشِدَّته

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 139، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196.

ﷺ في الدُّنيا من قتلٍ وأسرٍ، ويومَ القيامة سيُبصِرون الجحيم، قبل أنْ يُلقَوا في العذاب الأليم.

نكتةُ حذف مفعول ﴿يُبۡصِرُونَ﴾:

الإبهامُ في سياق الـوعـيـد مـزيـدُ وعيدٍ

حُذِفَ مفعولُ فعلِ الإبصار في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ إيجازًا واكتفاءً لمزيد الوعيد والتّهديد، فإنَّ حذف المفعول إبهامٌ للمصير المتوعَّد به المشركون، وفي الإبهام في سياق الوعيد مزيدُ وعيد، بحلول الهزيمة بالكفّار، وما يلحقها من عذابٍ دنيويٍّ من أسر وتقتيل، ومن عذاب أخرويٍّ في جهنَّم، وبئس المصيرُ، وفي هذا الحذف أيضًا رعايةٌ للفواصل السّابقة واللاحقة.

فنُّ الاكتفاءِ والاختزال:

اكتفاءٌ بالإبصار، واخــتــزالٌ للمُبصَرات

في قول اللّه تعالى: ﴿وَأَبۡصِرۡهُمۡ فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾ اكتفاءٌ، كأنَّه قيل: (أبصِرْهم وما ينزِل بهم، فسوف تُبصِر ما وعدناك، وليُبصِروا ما ينزل بهم، فسوف يبصرونه)[1]، أو يُحمَل الكلام على الإيجاز والاختزال، فيكون المعنى: (وانظر، وارتقِب ما يحلُّ بهم من العذاب والنَّكال بمخالفتك وتكذيبك، فسوف يُبصرون انتشارَ دينك، وإقبال النّاس عليه أفواجًا، زرافاتٍ ووحدانًا)[2].

بلاغةُ الاستفهام وغرضه:

علَّةُ الاستعجال العناد وغرض الاستفهام التّقريع والتَّوبيخ

الاستفهام في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾: للإنكار التَّعجُّبيِّ، لتوبيخ المشركين على مطالبتهم بتعجيل العذاب واستعجاله، والمعنى: كيف يجرؤون على استعجال عذاب اللّه الشّديد؟ إنَّهم يستعجلونه لتكذيبهم وكفرهم بالنَّبيِّ محمَّد ﷺ[3]، فعلَّة الاستعجال العنادُ وسطوة الكفر، والاستهزاء بما أوعدهم اللّه إيّاه، فاستحقّوا التَّوبيخ والتَّقريع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 196.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 290.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 290، والزّحيلي، التّفسير الوسيط: 03/ 2193.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ إمّا أنَّها تفريعٌ على التَّأجيل المذكور في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾، فإنَّه لمّا نزل قولُه: ﴿فَسَوۡفَ يُبۡصِرُونَ﴾؛ قالوا استعجالًا واستهزاءً لفرَط جهلهم: متى هذا؟ أرِنا العذابَ الَّذي تخوِّفنا به، وعجِّلْه لنا، فنزل قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، والمعنى: أنَّ الرَّسول ﷺ كان يهدِّدهم بالعذاب وما رأوا شيئًا بعدُ، فكانوا يستعجلون نزولَ ذلك العذابِ على سبيل الاستهزاءِ، فبيَّن تعالى أنَّ ذلك الاستعجالَ جهل؛ لأنَّ لكلِّ شيء من أفعال اللّه تعالى وقتًا معيَّنًا، لا يتقدَّم عليه، ولا يتأخَّر عنه، فكان طلب حدوثه قبل مجيء ذلك الوقت جهلًا[1]، وإمّا أنَّ الفاءَ عاطفةٌ داخلةٌ على محذوف، والتَّقدير: (أبعد هذا التَّكرير من الوعيد يُنكِرون عذابَنا، فيستعجلون به؟).

موقفُ المُعانِد الجاهل استعجالُ المصائب، لا الخوفُ من وقوعها

نوعُ الباءِ ودلالتها الرابطة:

تعدّى الفعل ﴿يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ بحرف الباءِ، وقد يتعدّى فعلُ الاستعجال بنفسه، نحو: استعجلت الشَّيء، أو يكون على نزع الخافض نحو قوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، فمفعولُهُ هو الَّذي يقع التَّعجيل به، ويتعدّى إلى أكثر من واحد بالباء، فقالوا: استعجل بكذا، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: 57][2]، وتحمل الباء معنى السَّببيَّة، فإنَّ مدار الاستفهام التَّوبيخي التَّقريعي هو أن يكون الوعيد بنزولِ العذاب هو سبب الاستعجال.

أعجب الكفر أن يكون الوعيد بالعذاب سببَ الاستعجال

نكتةُ إضافة العذاب إلى ضمير العظمة:

أضيفَ لفظُ العذاب في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 363، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 197.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.

ترهيبُ المَوعودين، وتقويةُ معنى الإنكارِ في الاستفهام

إلى ضمير العظمة (نا) لتهويل العذاب وتفخيمِه، فألَمُ العذاب يتفاوت حسبَ مصدره، ولا شكَّ أنَّ عذابَ العظيمِ سبحانه عظيمٌ، يناسِب قهرَهُ وسلطانَهُ، فغرضُ هذه الإضافة ترهيبُ الموعودين به، وزيادةٌ في الإنكار على استعجالهم، كأنَّه قيل: (أفبعذابِ الرَّبِّ القادر يُستعجل؟).

نكتةُ تقديم لفظ العذاب:

موضعُ الإنكارِ في كَون الاستعجال بعذاب الله تعالى

قُدِّمَ متعلِّق فعلِ الاستعجال - وهو العذابُ - عليه في قول اللّٰه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، فلم يقل: (أفيستعجلون بعذابنا؟): للاهتمام بشأنِ العذاب، وأنَّه عذابٌ عظيم لا يُقدَر عليه، وهو مناسِبٌ لتوبيخ المشركين على مطالبتهم بتعجيل العذاب؛ إذ كيفَ يجرؤون على استعجال عذابِ اللّٰه الشَّديد؟[1]، فجهةُ استنكار الاستعجال أنَّه صادرٌ عمَّن جهل شأن عذاب اللّٰه تعالى، لا لمجرَّد وقوع الاستعجال، فجاءت عناية النَّظم بما اقتضاه مقامُ غفلتهم عن عذاب اللّٰه، وقدَّم لفظَ العذاب على فعلِ الاستعجال، فإنَّ البشر يستعجلون الخيرَ، لكن أن يستعجلوا عذابَ اللّٰه الَّذي بلغ من الشِّدَّة والشَّرِّ غايتَه؟ فهذا موضع الإنكار، ومنزل التَّعجُّب.

بلاغة الكناية في ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾:

الاستعجالُ تكذيبٌ وعنادٌ بذكر الدَّليل

الاستعجالُ هو طلب العجلة في مجيء أمرٍ، وهو المرادُ من قول اللّٰه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾، واستعجال المشركين للعذاب كنايةٌ عن تكذيبِهمُ النَّبيَّ ﷺ، واستهزائِهم بالوعيد؛ إذ الاستعجال دليل التَّكذيب؛ فإنَّ الإنسان إذا علِم بوقوع الشَّرِّ؛ فإنَّه يُسارع لدفع أسبابه، لا لطلب المسارعة في إيقاعه، فلمّا استعجلوا؛ دلَّ ذلك على تكذيبِهم وعنادِهم الشَّديد، وهذا سرُّ اختيار لفظ الاستعجال دون التَّكذيب، ولو قيل: (أفبعذابنا يُكذِّبون؟)؛ لدلَّ على التَّكذيب

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 290، والزّحيلي، التّفسير الوسيط: 03/ 2193.

فقط، دون بقيَّة المعاني الَّتي أفادها لفظُ الاستعجال، وهذا في غاية الإيجاز.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

تصوير الاستهزاء بتجدُّد الاستعجال

ورد في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فعلُ الاستعجالِ بصيغة المضارع، الَّتي تفيد تكرُّرَ الحدَثِ ودوامَه واستمرارَه، وهو موافقٌ لسياق الآية، فما انفكَّ المشركون يستبطِئون العذابَ، ويكرِّرون استعجاله، ويستمرّون في الاستهزاء بالنَّبيِّ ﷺ، وفي المضارعة أيضًا إفادةُ تصوير مشهد الاستعجال المُنبِئَ عن الاستهزاء، ولو قيل: (أفبعذابنا استعجلوا؟)؛ لكان مجرَّدَ إخبارٍ عمّا وقع منهم، والمقصودُ هو تصويرُ مشهد الاستهزاء الصّادر عن تجدُّد الحدث.

دلالةُ صيغة الاستفعال:

مبالغةُ المشركين في تكذيب الصّادق الأمين

دلَّ حرفا السّينِ والتّاءِ في قول اللّه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ على طلب العجلة والمبالغة فيها، والاستعجالُ هو الإسراع، والعرب تقول: استَعْجلتُ فُلانًا، أي: حَثَثْتُه، ويقولون عَجِلتُه، بمعنى: سَبَقْتُه، كما قال اللّه تعالى: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 150][1].

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

بيانُ المعاني المختزَلة، والإيماءُ إلى سرعة نزول العذاب

الفاء في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، إمّا أن تكونَ الفصيحة؛ لأنَّها تُفصِح عن مقدَّرٍ محذوف، والتَّقدير: (إن كانوا يستعجلون بالعذاب، فإذا نزل بهم؛ فبئس وقتُ نزوله)، وإمّا أن تكون عاطفةً دالَّةً على تعقيب الاستعجال بنزول العذاب[2]، واستعمال الفاء للدَّلالة على المحذوف، ولبيان سرعة نزول العذاب: هو ما يتّسق، ويتلاءم مع سياق الوعيد.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجل).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 197.

تحقُّقُ الوعيد بالعذاب الشَّديد، من دلائلِ إعجاز القرآن المجيد

دلالةُ التَّعبير بـ(إذا):

ورد في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، استِعمالُ حرف الشَّرط (إذا) دون (إن)؛ لنكتة التَّهديد بحَتميَّة وقوع العذاب، فإنَّ (إذا) تستعمل عندما يكون الشَّرط فيها مقطوعًا بوقوعه[1]: (فإذا نزل العذاب بمحلَّتهم؛ فبئس اليومُ يومُهم لهلاكهم ودمارهم)، وقد تحقَّق فيهم هذا الوعيدُ يوم بدرٍ وما وقع لهم فيه من قتلٍ وأسر؛ ففيه إلماحٌ إلى الإعجاز الغيبيِّ، وما سيكون لهم في الأيّام القادمة.

ترك ذِكرِ العذاب تفخيمٌ له، وتعظيم لمآله

نكتةُ عدم التَّصريحِ بالفاعل:

لم يُذكر فاعل النُّزول في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾ إيجازًا؛ لكونه معلومًا من سباق السياق، وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، والإيجاز مقدَّمٌ على الإطناب، فأوجز ذكرَهُ لمعرفته، ولِما يورِّثه من التَّفخيم والتَّعظيم.

نزولُ العذاب التصاقٌ لا يغادر، وعقابٌ لا يُفارق

بلاغةُ استعمال حرف الباء:

حرفُ الباء الوارد في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، إمّا أنْ يُحمَل على التَّناوب، فيكون بمعنى (في)؛ لأنَّه دالٌّ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، أي: (نزل في ساحتهم)، وإمّا أن يكون فعل ﴿نَزَلَ﴾ مضمَّنًا معنى الالتصاق، أي: (إذا التَصَقَ بساحتهم، ولم يغادرْها حتى يُهلِكَها)، وهو الأقرب للسّياق والنَّظم ودلالةِ حرف الباء عليه، والأنسب لمعنى الوعيد والتَّهديد.

نزولُ العذاب في ساحة الأقوام أشدُّ مِن نزوله في آحادهم

بلاغةُ استعمالِ لفظ السّاحة:

عُبِّر بلفظ السّاحة في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ومعناها في اللُّغة: فناءُ دار الرَّجل، أو هي الخالي مِن الأبنية، وجمعها سوحٌ، فألفها عن واو، وتصغَّر

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.

على سويحة، وإمّا أن يكونَ استعمال هذا اللَّفظ هنا على حقيقته، فإنَّ العرب تقول: نزل بساحة فلان العذابُ والعقوبة، وذلك إذا نزل به[1]، وإمّا أن يكونَ حُمِل على الكناية، فالعربُ تُستعمل هذه اللَّفظة فيما يرِد على الإنسان من خير أو شرٍّ، قال الفرّاء: العرب تكتفي بِذكر السّاحة عن القوم، فشُبِّهَ العذاب بجيشٍ هجم، فأناخ بفنائهم بغتةً[2]، وتحتمل أن تكون مجازًا مرسلًا، علاقته محلّيَّة، فأُطلِق المحلُّ - وهي السّاحة - والمرادُ القوم الَّذين حلّوا فيها[3]، والأدنى من الاستعمال، والأقرب مِن الفصاحة: أن تكونَ على الحقيقة، فإنَّ نزولَ العذاب بساحة القوم المعذَّبين أعمُّ وأشدُّ من نزول العذاب بالمعذَّبين فقط، وإن حُمِل الكلام على أنَّ المقصود ما حصل لقريش يوم بدر، فإنَّ العذابَ نزل بساحتهم لِما لحقهم مِنَ الحزن والإرهاق وفقدِ الأحبَّة والأموال، والتَّهديد هنا محمولٌ على المبالغة في شأن العذاب.

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

التَّمثيل البيانيُّ يُجسِّد المعانيَ لتهويل الوعيد، وتفخيمِ التَّهديد

يتضمَّن قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ صورةً بيانيَّة بديعة، من نوعِ الاستعارة التمثيليَّة المكنيَّة، فقد مُثِّل العذابُ النّازلُ بهم بعد ما أُنذِروه، فأنكروه بجيشٍ أنذر بهجومه قومَهُ بعضُ نُصّاحِهم، فلم يلتفتوا إلى إنذاره، ولا أَخَذوا أُهبتهم، ولا دَبَّروا أمرهم تدبيرًا يُنجيهم، حتى أناخَ بفنائِهم بغتةً، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم، قال الزَّمخشريُّ: "وما فصحت هذه الآية، ولا كانت لها الرَّوعة التي تحسُّ بها، ويروقك موردها على نفسك وطبعك؛ إلّا لمجيئها على طريقة التَّمثيل"[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 660.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 140، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 490.
(3) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 120.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 04/ 68.

ترتيب مساءة المعذَّبين على نزول العذاب

معنى فاءِ ﴿فَسَآءَ﴾:

الفاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ رابطةٌ لجواب (إذا) بفعل شرطِه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ﴾[1]، وبلاغة الجملة الشَّرطيَّة ارتباطُ حصول الثّاني بحصول الأوَّل، والمعنى: (فبئس صباحُ المنذَرين صباحُهم وقتَ نزولِ العذاب الموعودِ بفنائهم).

نكتةُ استعمال الفعل (ساء):

بـئـس وسـاء صـبـاحُ الـذيـن أُنذِروا فكذَّبوا

فعلُ (ساءَ) في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ من أفعال الذَّمِّ، وحكمُه حكمُ (بئس)، فهو جامدٌ قاصرٌ محكومٌ لفاعله بما يُحكَم لفاعل (بئس)، تقول: ساء الرَّجُل زيدًا، ويُعزِّز هذا قراءةُ عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه: (فبئسَ صَباحُ المُنذَرينَ)[2]، والمعنى: (قَبُحَ وبِئْسَ صباحُ الكافرين، الذين أُنذروا بعذابنا، وكذَّبوا به، فلم يؤمنوا)، والمخصوص بالذَّمِّ صباحُهم، أي: (فساء صباحُ المنذَرين صباحُهم)[3].

توجيهُ تخصيصِ الصَّباح بالذِّكر:

مـن سـاء صـبـاحُـهُ؛ ساء سائرُ يومه

أُسنِد فعل (ساء) إلى الصَّباح في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾؛ لنكتةٍ بلاغيَّة، وهي أنَّ عادةَ العرب أن يُغيروا صباحًا، فسُمّيت الغارة صباحًا، وإن وقعت في وقتٍ آخر، وصار سوءُ الصَّباح يُستعَمل في حلول الغارات والرَّزايا، مثل قول الصّارخ: يا صباحاه[4]، فذِكرُ الصَّباح باعتبار المشهور من كلامِهم في نزول العقاب عليهم، كما أنَّ في ذكر الصباح إشعارًا واستحضارًا لما يُعانيه العربُ في تلك الغارات، فإنَّ استحضار العذاب مُعينٌ على الحذر منه، مع الفرق بين الصَّباحَين والعذابَين.

---

(1) بهجت، الإعراب المفصل: 10/ 79.

(2) وهي قراءة شاذة، يُنظر: الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 396.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 09/ 131، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 291.

(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 04/ 68، وأبو حيان، البحر المحيط: 09/ 131.

توجيهُ الصّورة البيانيَّة:

الصَّباحُ كنايةٌ عن نزول العذاب، أو من علائقِ الهيئة المُشَبَّه بها

قولُ اللّه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ إمّا أن يكونَ مِن قبيل الكناية، فقد وقع هذا الاستعمالُ لِما شاع عند العرب من الغارة في وقت الصَّباح، فذُكِر ذلك الوقتُ كنايةً عن ذلك العمل، وإمّا أن يكونَ من باب الاستعارةِ، فلفظ (الصَّباح) مستعارٌ من صباح الجيش المُبَيِّت لوقت نزول العذاب، فيكون من علائقِ الهيئة المشبَّه بها، فإنَّ شأنَ الغارة أن تكون في الصَّباح، ولذلك كان نذيرُ المجيء بغارة عدوٍّ ينادي: يا صباحاه! نداءَ ندبةٍ وتَفجُّع[1].

معنى تعريف ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾:

أفعالُ المدح والذَّمِّ تقتضي الشُّيوع، فيعمُّ كلَّ منذَرٍ معانِد

جاء لفظ ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ معرَّفًا بـ(ال) الدّالَّة على تعريف الجنس، ونكتة ذلك أنَّ أفعال المدح والذَّمِّ تقتضي الشّيوعَ والإبهام، فلا يجوز أن تكون للعهد، وفي وصف الكفّار بـ﴿ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ ترشيحٌ للتَّمثيل، وتوريةٌ في اللَّفظ؛ لأنَّ المشبَّهين مُنذَرون مِنَ اللّه بالعذاب، والذين يسوءُ صباحُهم عند الغارة هم المهزومون، فكأنَّه قيل: (فإذا نزل بساحتهم؛ كانوا مغلوبين)[2]، وهو ما يتَّسق مع قوله تعالى في السِّباق: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾.

دلالة الواو العاطفة:

ما بين الخبر ووقوعه إلّا تولٍّ عن المدبرين

عطف قول اللّه تعالى: ﴿وَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ على جملة: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمۡ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾؛ لأنَّ معنى الآية المعطوف عليها الوعدُ، أنَّ اللّه سينتقم منهم، فعُطِف عليه أمرُه رسولَه ﷺ بألّا يهتمَّ بعنادهم[3]، فإذا نزل الإخبارُ بالوعيد؛ فما على العبد إلّا أن ينتظر نزولَ الموعود، فما بين الخبر ووقوعه إلّا تولٍّ عن المُدبِرين.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 363، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 291، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 197.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 291، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 197.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 198.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: 180 - 182]

براعةُ الاختتام، بتنزيه المولى عنِ الأوهام، ومدحِ الرُّسُل الكرام

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة وعيدَ المشركين بسبب إعراضهم وتكذيبهم بالحقِّ؛ ناسب بعد ذلك ذِكرُ تنزيهِ اللّه ﷻ، وليكونَ ختامُ السّورةِ مردودًا على أوّلها وثناياها، وليكون التَّنزيه بيانًا للعاقبة الَّتي ستكون للمؤمنين في الدُّنيا والآخرة، مع قَرنِ التَّسبيح بالحمد، لِما أنَّ الحمدَ يعقُب التَّسبيح على الدَّوام، وهو حمدٌ يلفُّ كلَّ المحامد في الزَّمان كلِّه، فهو انتقالٌ مِن ذِكر وعيد الكافرين، إلى ذِكر عاقبة المؤمنين، مع ما في هذا الختام مِن ذِكر التَّسبيح والحمد؛ لتكون خاتمةُ السّورة ناطقةً بالخير الثّابتِ للّه، بما يليق به تعالى وصفاته الحُسنى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعِزَّةِ﴾: (عزز) أصلٌ يدُلُّ على شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما مِن غَلَبَةٍ وقهر[1]، فالعِزَّةُ: القوَّة والشِّدَّةُ والغَلَبَةُ والرِّفعة والامتناعُ، خِلافُ الذُّلِّ[2]، وهي حالةٌ مانِعة للإنسان من أن يُغلَب، مِن قولِهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبَةٌ[3]، فهذه المادَّةُ لا تَخرجُ عن معانٍ ثلاثةٍ: الغَلَبَة، يقولون: مَن عَزَّ؛ بَزَّ، أي: من غَلَبَ؛ سَلَب، والشِّدَّة والقوَّة، ومنه: عَزَّ يَعَزُّ، ونَفاسَة القَدر، يقال منه: عَزَّ يَعِزُّ، والمقصودُ في الآية: المعاني الثَّلاثة، قال الفرّاء: "فإنَّها، أي: ﴿ٱلۡعِزَّةِ﴾ للّه جميعًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عزّ).
(2) ابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (عزز).
(3) الرّاغب، المفردات: (عزّ).

أي: كلُّ وجهٍ مِنَ العزَّة فلله"[1]، فربُّ العزَّة في الآية معناه أنَّه سبحانه مُنفَرِدٌ بالعزَّة الحقيقيَّة وهي القوَّة، والشِّدَّة، والغلبة، والرِّفعة[2].

2) ﴿وَسَلَٰمٌ﴾: (سلم) أصلٌ، مُعظَمُ بابه من الصِّحَّة والعافية، فالسَّلامة: أن يَسلَم الإنسان من العاهة والأذى، قال أهل العلم: اللّه جلَّ ثناؤه هو السَّلام لسلامته ممّا يلحق المخلوقين من العَيبِ والنَّقص والفناء[1]، ومعنى السَّلام عليكم: أمَّنكم اللّهُ مِنَ العذاب في الدُّنيا والآخرة[4]، فمعنى ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾: أمَنَةٌ من اللّه للمرسلين الَّذين أرسلهم إلى أُمَمِهم مِن فَزَعِ يوم العذاب الأكبر، وغيرِ ذلك من مكروهٍ أن ينالهم من قِبَلِ اللّه تبارك وتعالى[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنزيهُ اللّه عن كلِّ نقصٍ، وحمده على تسليم المؤمنين مِن كلِّ شرٍّ

خُتِمت السّورة بهذه الآيات الكريمات، الَّتي فيها تنزيه اللّه تعالى ربِّ العِزَّة عمّا يصفه هؤلاءِ المفتَرون عليه، وفيها تحيَّةُ اللّه الدّائمة وثناؤهُ وأمانُهُ لجميع المرسلين، ثمَّ الحمدُ للّه ربِّ العالمين في الأولى والآخرة، فهو المستحقُّ لذلك وحدَه لا شريك له[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيات:

مجيءُ الآيات في موقع الفذلكة للسورة كلّها

جاء قول اللّه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ، فبعدَ ذِكر افتراءاتِ المشركين المختلفة في هذه السّورة؛ استأنف بتنزيهِ اللّه سبحانه عن كلِّ تلك الأقاويلِ، وفيه تعليمُ المؤمنين كيفيَّة تسبيحه سبحانه وتحميده

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 367.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 1/ 260.
(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (سلم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 297، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/ 527.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 661.
(6) نخبة مِنَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.

والتَّسليم على رُسُلِهِ عليهم السلام، وجاءت هذه الآياتُ استئنافًا لتقع من السّابق موقع الفَذْلَكَة؛ لما احتوت عليه السّورة مِنَ الأغراض، جمعت تنزيهَ اللّه والثَّناءَ على الرُّسل والملائكة وحمْدَ اللّه على ما سبق ذكرُه من نعمة على المسلمين، مِن هدًى ونصرٍ وفوز بالنَّعيم المقيم(1).

دلالةُ الأصلِ الاشتقاقي للفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾:

لفظُ (سبحانَ) دالٌّ على العظمة المطلقة والتَّنزيه الكامل

جاء في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ استعمالُ لفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾؛ للدَّلالة على تنزيه اللّه ذي العظَمة المطلقة، و﴿سُبۡحَٰنَ﴾ اسمُ التَّسبيح، وهو اسمُ مصدرِ (سَبَّحَ) المضاعف، وليس مصدرًا؛ لأنَّه لم يجِئْ على أبنية مصادر الرُّباعي، وقيل: هو مصدر (سَبَحَ) مخفَّفًا بمعنى: نزَّه، فيكون كالغُفران والشُّكران والكُفران، مِن غفرَ، وشكر، وكفر، وقد كثُر استعماله منصوبًا على المفعوليَّة المطلَقة، بإضمار فعلِه كـ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 23]، فأصل الكلام: سَبِّحْ ربَّك سبحانًا، فلمّا عوِّض به عن فعلِه؛ صار: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ بإضافته إلى منصوبه الأصليِّ، وهو ممنوعٌ مِنَ الصَّرف للعلميَّة وزيادة الألف والنّون(2)، قال سيبويه: "وأمّا ترْكُ تنوين (سبحان)؛ فلأنَّه صار عندهم معرفة"(3).

بلاغةُ اختيار عنوان الرُّبوبيَّة:

المتحلّي بالكمال المطلَقِ مُنزَّهٌ عن أوصاف النَّقص

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوان الرُّبوبيَّة في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لما في وصف الرُّبوبيَّة مِنَ الدَّلالة على الشَّفقة بالمربوب، ومحبَّة الخير له، فإنَّ الرُّبوبيَّة داعيةُ الإحسان للخلق والتَّربية والرِّزق الكريم، والرَّبُّ هو المُحسِن بكلِّ نعمة دنيويَّة ودينيَّة(4)، ومَن كان هذا شأنهُ؛ نُزِّه عن صفات النَّقص والاحتياج.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 198 - 199.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 414.
(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 324.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 100.

غرضُ الإضافة في ﴿رَبِّكَ﴾:

تشريفُ الرَّسول وتكريم النَّبيِّ عن مطاعن الحاقد الغبيِّ

أُضيف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَب في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لتشريفه والعناية به بإضافته وخطابِهِ، كأنَّه قيل: (سبحان من هو مُربّيك ومُكْمِلك ومالك العزَّة والغلبة على الإطلاق عمّا يصفه المشركون به) مِنَ الأشياء الَّتي منها تركُ نصرتك عليهم، كما يدلُّ عليه استعجالهم بالعذاب[1]، مع ما فيه مِنَ الإيماء إلى الوعد بالنَّصر الكريم، فإنَّ مَن أرسلك قادرٌ على أن ينصرك.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾:

انفرادُ صاحب الرُّبوبيّة بالعزَّة الحقيقيَّة، الَّتي منها عزَّةُ كلِّ عزيز

أضيف اسمُ الربوبيَّة إلى العزَّة في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لاختصاصه بها، كأنَّه قيل: ذو العِزَّة، كما تقول: صاحبُ صِدقٍ، لاختصاصه بالصِّدق، ومعنى كونه تعالى مالكَ العِزَّة: أنَّه منفرِدٌ بالعِزَّة الحقيقيَّة، وهي العزَّة الَّتي لا يشوبها افتقارٌ، فإضافةُ ربٍّ إلى العِزَّة على معنى لام الاختصاص، ويجوز أن يُرادَ أنَّه ما مِن عزَّةٍ لأحد من الملوك وغيرهم إلّا وهو ربُّها ومالكها، كقوله تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، والفرق بين الوجهَين: أنَّ الإضافة على الوجهِ الأخير بمعنى المُعِزِّ، وعلى الأوَّل بمعنى العزيز بنفسِهِ، ولكلٍّ وجهٌ من المبالغة خلا عنه الآخر، ففي التَّعبير بالإضافة إثراءٌ للمعنى[2].

معنى تعريف ﴿ٱلۡعِزَّةِ﴾:

العزَّة كلُّها لله وحدَه، وهو المنفرِدُ بها على الحقيقة

جاء لفظ العِزَّة معرَّفًا بـ(ال) في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لإفادة الاستغراقِ، فالعزَّةُ كلُّها للّه سبحانه؛

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 150.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 68، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 199، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 150.

لأنَّ كلَّ شيء مِلْكٌ له ﷻ، فَلَمْ يبقَ لغيره شيءٌ، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء: 139]، وقيل: إنَّ التَّعريف في العزَّة كالتَّعريف في الحمد، وهو تعريف الجنس، فيقتضي انفرادَهُ تعالى به؛ لأنَّ ما يثبت لغيره من ذلك الجنس كالعدَمِ[1].

دلالةُ استعمال حرف (عن):

اتِّساقُ دلالة (عن) مع التَّسبيح، فالله بعيدٌ عن كلِّ نقصٍ قبيح

ورد في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ لفظُ ﴿عَمَّا﴾، وهو حرفُ الجرِّ (عَنْ) مدغمًا في (ما)، وقد أفاد الحرفُ (عن) المجاوزةَ، وهو تجاوُزٌ بمعنى (بَعُدَ)[2]، ومعنى البُعدِ مناسِبٌ لسياق الآية من تنزيهِ اللّهِ ﷻ، وعلوِّه، وبُعدِه عمّا وصفه به المشركون من الأباطيل والنَّقائص.

دلالةُ (ما):

تنزيهُ الله شاملٌ لجميع الأوصافِ الباطلة، والأقوالِ الكاذبة

تحتمل (ما) في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أن تكونَ مصدريَّة، والتَّقدير: (سبحانَ ربِّك عن وصفهم)، ويجوز أن تكون بمعنى (الذي)، أي: (سبحان ربِّك عن الَّذي يصفه به الكفرة مِنَ الأقوال الباطلة)، تعالى اللّه عمّا يقولون علوًّا كبيرًا، فجمع الاحتمالات الفعليَّة - كما هو في الاسم الموصول - والاسميَّة - كما هو في المصدريَّة - لتنزيه اللّه تعالى عن كلِّ وصفٍ قبيحٍ وقع، أو سيقع؛ فدلَّ ذلك على شمول تنزيهه لجميع النَّقائص في كلِّ وقتٍ وحين.

نكتةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

عقابُ الله للمشركين لما يتجدَّد من أفعالهم، لا لما تبدَّد

آثرَ النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لبيان أنَّ اللّه تعالى إنَّما ذمَّهم على صنيعهم المتجدِّد، واستمرارِهم في الكفر، لا على قولٍ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 364، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 199.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.

صدَرَ عنهم مرَّةً واحدة، مع الإيماء إلى أنَّ ذلك الفعلَ كائنٌ فيهم وقتَ نزول الآيات؛ تهديدًا لما يصفون به اللّه ﷻ من المقالات الشَّنيعة.

نكتةُ حذف مفعولِ ﴿يَصِفُونَ﴾:

الكلامُ المحذوف يــدلُّ عليه السّياقُ والمقام

حُذِفَ مفعول فعلِ الوصف في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لدلالة قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾ عليه، أي: (سبحان ربِّك عمّا يصفه به المشركون ممّا يقتضي النَّقائصَ، لِما ثبت من ضلالهم وبُعدِهم عن الحقِّ)، فحُذِف الضَّميرُ إيجازًا للعلم به، فإنَّ الكلام في هذه الآيات كُلِّها متعلِّقٌ بشؤون اللّه تعالى[1]، وليَعُمَّ الفعلُ جميعَ ما يحتمله الكلام مِنَ المعاني، أو لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ اللازم، وذلك بجعل جميع ما صدر عن المشركين في حقِّ اللّه تعالى باطلًا؛ إذ بعض الحقِّ في أمور العقائد الباطلة مُلحَقٌ بالباطل.

براعةُ التَّرتيب بالعطف:

ترتيبُ التَّدلّي، بتنزيه المُرسِل، ثــمَّ تـنـزيه المُرسَلين

عُطِفَ قَوْلُ اللّه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ على قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ للتَّرتيب عن طريق التَّدلّي، فبعدَ تنزيه اللّه تعالى جاء ذكرُ سلامة المرسلين من صُنع النَّقائص الَّتي تُنافي الرِّسالة، فهو تنزيهٌ للمرسلين عن وصف المشركين واتِّهامِهم الرَّسولَ الخاتمَ بالكذب والافتراء والشِّعر والكهانة والجنون، فالعطف دلَّ على ترتيب التَّنزيه مِنَ المُرسِل إلى الرَّسول والرِّسالة، فتنزيهُ الرَّسول تابعٌ لتنزيه المرسِل سبحانه.

وفي الآية تعميمٌ بعد تخصيص، فلقد تقدَّم في هذه السّورة السَّلامُ على مَن شاء اللّه سبحانه تخصيصَه مِن رسلِه، ثمَّ جاء في هذه الآية السَّلامُ على مجموع المرسلين؛ تكريمًا لهم، وإعلاءً لقدرهم؛ لكونهم وسائطَ بين اللّه وبين عباده[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 319، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 192.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 320.

نكتة تنكير ﴿وَسَلَٰمٌ﴾:

أمَنَـةُ المرسلين من كُلِّ المكاره، وفوزهم بجميع المآرب

أوثِرَ في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تنكيرُ لفظِ السَّلام؛ للدَّلالة على التَّعظيم، فهو سلامٌ عظيمٌ، وأمَنَةٌ من اللّه للمرسلين، الَّذين أرسلهم إلى أممهم الذين ذكرهم في هذه السّورة وغيرهم، سلامٌ من فزَعِ يومِ العذاب الأكبر، ونجاةٌ من كلِّ المكاره، وفوزٌ بجميع المآرب[1].

معنى تعريفِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

شُمول وصف المرسَلين لكلِّ من اتَّصف بهذا الوصف

يفيدُ تعريفُ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الاستغراقَ، فهو يشمَلُ كلَّ من يتَّصف بأنَّه مرسَلٌ من اللّه تعالى لتنفيذ أمره، وإعلاء كلمته، فالمرسَلون هم الَّذين يبلِّغون رسالاتِ اللّه إلى الأمم، ويبيِّنون لهم ما يحتاجون إليه من الأمور الدّينيَّة والدُّنيويَّة[2].

نكتةُ عطف الحمد على التَّسبيح:

عُطِفت جملةُ: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما قبلها للجمع بين التَّسبيح والتَّحميد، فالتَّسبيح ابتداء، والحمد اكتمال، فمَن لم يُسبِّحِ اللّه في بداياته؛ لم يحمدْهُ في نهاياته.

معنى تعريف لفظ الحمد:

استغراقُ المحامدِ كلِّها لله، فلا مُنعِمَ على العباد سواه

جاء لفظُ الحمدِ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معرَّفًا بـ(ال)، إمّا للدَّلالة على العهد، أي: (الحمدُ المعهودُ الذي حَمِدَ اللّه به نفسَه، وحَمِدَهُ به أولياؤُه)[3]، "والعِبرَةُ بِحَمدِ مَن ذُكِر، فَلا فَرْدَ مِنهُ لِغيرِه"[4]، وإمّا لتعريف الجنس، كما اختاره

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 661، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 199، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 293.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 293.

(3) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/ 482 - 483.

(4) الشّربيني، السِّراج المُنير: 1/ 8.

الزَّمخشريُّ[1]، وإمّا للاستغراق[2]، وهو قول المُحَقِّقين[3]، ومعناه: أنَّ الحمدَ في الحقيقة كُلَّهُ لله، فما مِن خيرٍ إلّا وهو موليه، بِوَسَطٍ أو بِغَيْرِ وسَطٍ[4]، وقيل: إنَّها لِلكَمالِ، وهو مُخرَّجٌ على كلامٍ لِسيبَوَيهِ في (ال) الدّاخلةِ على الصِّفات[5].

نوعُ اللّامِ ومعناها:

استحقاقُ الرَّبِّ الحمدَ والثَّناءَ من أهل الأرض والسَّماء

دخلتِ اللامُ على اسم الجلالة في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ويحتمل أن تكونَ للاستحقاق: فالله سبحانه مستحِقٌّ للمدح والثَّناء، جديرٌ أن يَحمدَه أهلُ الأرض والسَّماء، وتحتمل أن تكونَ اللّام لِلمِلك، أي: إنَّه سبحانه خالقٌ لكلِّ مَنْ نَطَقَ بالحَمْدِ، فكان مالكًا له؛ إذِ الخالقُ مالكٌ، وتحتمل أن تكونَ للاختصاص، أي: إنَّ الله له سبحانه بكُلِّ المحامدِ اختصاصًا[6]، وكونُ اللّامِ للاستحقاقِ أشْبَهُ بالقواعدِ، ولهذا اقتَصَرَ أبو حَيّان على هذا المعنى[7]، فإنَّ لامَ الاستِحقاقِ هي الواقِعَة بَين مَعنًى وذاتٍ[8]، كما في هذه الآية.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

استحقاقُ الله للحمد، وثبوته وإن لَم يَحمَدْهُ أحدٌ

أوثِر في قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ التعبيرُ بالجملة الاسميَّة دون الفعليَّة، فلم يقل: (واحمدوا الله) أو نحوها؛ وذلك لأنَّ الجملةَ الفعليَّةَ توهِمُ أنَّ الخلقَ قادرٌ على تَوفيَةِ الحَمْدِ حقَّهُ، بخلافِ الاسميَّة، فإنَّها تفيد استحقاقَ الله تعالى للحَمْدِ قَبْلَ حَمْدِ الخلقِ له.

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 1/ 10.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّرُ الوجيز: 1/ 66.
(3) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/ 164.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 1/ 27.
(5) الشّربيني، السّراج المنير: 1/ 8.
(6) الواحديّ، التّفسير البسيط: (1/ 483)، والقِنَّوجي، فتح البيان: 11/ 161.
(7) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/ 34.
(8) ابن هشام، مغني اللَّبيب، ص: 275.

ومِن أسباب اختيارِ الاسميَّة أنَّ جملة: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دالَّةٌ على استحقاقِ اللّه ﷻ لِلحَمدِ، بخلاف (واحمدوه)، فَلا تدُلُّ على ذلك، واللَّفظ الدّالُّ على استحقاقِ اللّه لِلحَمْدِ مُقَدَّمٌ على غيرِه.

ومنها أيضًا أنَّ في جملة ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ مِنَ الاستِغراق لأنواع المحامد ما لَيسَ في (واحمدوه)، فقولُه تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ دخَلَ فيه حَمْدُهُ، وحَمْدُ غيرِه جميعًا مِن لَدُن خَلْقِ العالم إلى انتهاءِ دخول أهل الجنَّةِ الجنَّةَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس: 10][1].

ومنها أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ جملةٌ اسميَّة، وهي دالَّة على الثُّبوت والاستمرار بالقرائنِ، بخلاف (واحمدوه) ونحوها، فإنَّها جملةٌ فعليَّة تَدُلُّ على الحدوثِ، والثُّبوتُ والاستمرارُ أنسَبُ في مقام الثَّناءِ[2].

ومنها أنَّ في جملة: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إثباتًا للحَمْدِ مع التَّعريضِ بالاستِغناءِ عن الخلقِ، أي: (والحمد للّه وإن لَمْ يَحْمَدْهُ أحدٌ)[3].

غرَضُ مجيءِ الخبرِ بمعنى الإنشاء:

وجوبُ المسارعة إلى الامتثال، بما جاء في صورة الثَّبات

جاء الخبرُ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مرادًا به الأمر، بمعنى (واحمدوه)، ونكتةُ ذلك إخراجُ الأمر في صورة الخبر تأكيدًا للأمر، وإشعارًا بأنَّه ممّا يجب أن يُتلقّى بالمسارعة إلى امتثاله، فالإخبارُ تصويرٌ للمأمور به المستقبَل كأنَّه موجودٌ قد امتُثِل، فدلَّ هذا النَّظم على ثبوت الحمد للّه تعالى، ووجوبه على جميع الخلق، على أبلغِ وجه وآكَدِه[4].

نكتةُ إيثار اسم الجلالة:

تعظيمُ توحيد الألوهيَّة، واستحضار صفات الكمال

أوثِرَ في قَوْلِ اللّهِ تَعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذِكرُ الاسم الأعظم (اللّه)، الجامعِ لأسمائِه الحسنى؛ تعظيمًا لحقِّ الألوهيَّة،

(1) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/ 166.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 1/ 191.
(3) ابن عَجيبة، البحر المديد: 1/ 53.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 54.

وتقريرًا للقوَّة الكاملة والعزَّة القاهرة للّه سبحانه، فهو جديرٌ بكلِّ الصِّفات الفائقة، المقتضيَة لتنزيهه عن كلِّ نقصٍ[1]، وحمده على كلِّ جميلٍ، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُختصَّةٌ به وحدَه سبحانه، فيُذْكرُ اسمُ الجلالَةِ لإحضارِ المعنى الجامعِ لِصفاتِ الكمالِ[2].

نكتةُ ذِكر الربوبيّة بعد الألوهيّة:

أعظمُ بيانٍ للمحمود ذِكرُ إنعامه على الحامد

وصف اللّه سبحانه نفسه بالرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، بعد أن أَرْشَدَ عبادَهُ إلى حَمْدِهِ ﷻ المُستَحَقِّ له؛ لأنَّ العبد إذا رأى نِعَمَ اللّه تعالى على نفسه واضحةً، وشاهَد آثارَها على غيره؛ عرف أنَّه تعالى ربُّ الخلائق أجمعين، ربُّ الثَّقلين الجنِّ والإنس، فقال: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقد أوثِر التَّعبير بوصف الرُّبوبيَّة دون سواه من أسماء اللّه وصفاته: لِما في وصف الرُّبوبيَّة من الدَّلالة على الشَّفقة بالمربوب، ومحبَّةِ الخير له، فهو المُحسن بكلِّ نعمةٍ دنيويَّةٍ ودينيَّةٍ على خلقه[3].

دلالةُ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تعريفًا وجمعًا:

ربوبيَّةُ الله شاملةٌ لجميع المخلوقات، فلهُ الحمدُ وحدَه

جاء لفظ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في قول اللّه: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُعَرَّفًا بـ (ال) الدّالَّةِ على تعريف الجنس المقتضي للعموم، فهو اسمُ جَمْعٍ للعالَم، والمرادُ بـ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: أصنافُ الخلائق[4]، وهو مشتقٌّ مِنَ العِلم أو العَلامَة[5]، فأمّا اشتقاقُهُ مِنَ العِلْم؛ فهو جارٍ على مَن يَخُصُّ العالمين بالعُقَلاء، وأمّا اشتقاقُه مِنَ العَلامة؛ فَلِأنَّ المخلوقَ عَلامةٌ على وجودِ خالقِه، وهو أَعَمُّ من الأوَّل، وبجمع ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وتعريفه بـ(ال) للجنس؛ دلَّ على الاستغراق الشُّموليِّ، فلا يبقى عالَمٌ إلّا وهو داخل في مفهوم هذا اللَّفظ.

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 100.
(4) العُلَيْمِيّ، فتح الرَّحمن: 1/ 42.
(5) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/ 489.

براعةُ اختتامِ السّورة بالحمد:

توفيقُ الله العبدَ للتّسليم من جملة النِّعم الموجِبة للحمد

في قول اللّه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تقدَّم التَّنزيه، وتوسَّط التَّسليم على المرسلين بين تسبيحه تعالى وتحميده؛ لختم السورة الكريمة بحمده تعالى، مع ما فيه من الإشعار بأنَّ توفيقَه تعالى للتَّسليم من جملة نِعَمِه تعالى الموجِبة للحمد، وفي تقديم التَّنزيه أيضًا اهتمامٌ به ذاتًا ومقامًا، فلمّا كان التَّنزيهُ عمّا يصفه به المشركون مضمَّنًا الإشارةُ إلى سوء حالِهم وفظاعةِ منقلبهم؛ أردف ﷻ ذلك بالإشارة إلى حسن حال المرسَلين، الدّاعين إلى تنزيهه تعالى عمّا لا يليق به[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 151.

سُورَةُ صٓ

سُورَةُ صٓ

❁ التَّعريف العامُّ بالسورة

سورةُ (ص) كلُّها مكّيَّةٌ بالاتِّفاق[1]، وهي السّورةُ الثّامنة والثَّلاثون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق؛ جاءت بين سورتَي الصّافّات والزُّمر، وهي الثّامنةُ والثَّلاثون أيضًا في ترتيبها النُّزوليِّ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ القمر وقَبْلَ سورَةِ الأعراف[2].

وهي خمس وثَمانون آية في البَصْريِّ - وعندهم خلاف في عدِّ آية -، وستٌّ وثمانون آية في العدد المدنيِّ والمكّيِّ والشّاميِّ، وثمانٍ وثمانون آية في الكوفيّ[3]، وسببُ اختلافِهم في عددها هو اختلافُهم في تحديد فواصل ثلاث آياتٍ منها.

فضائل السورة:

عند البحث والتَّحقيقِ في آثار فضلِها نجدُ أنَّها تدخل في السّور المثاني، الَّتي قال فيها النبيّ ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: "أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ"[4].

اسم السورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ (ص) لم يثبت لها اسمٌ آخرُ

سُمّيَتْ في المَصاحفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والآثارِ عن السَّلَفِ سورَةَ (صَ) كَما يُنطَقُ بِاسمِ حَرفِ الصّاد تسْمية لها بأوَّل

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 491، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 142.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 201، ودروزة، التفسير الحديث: 2/ 298.
(3) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 214.
(4) أخرجه أحمد في المسند، الحديث رقم: (16982)، والطبراني في المعجم: (22/ 76)، الحديث رقم: (187)، والبيهقي في شعب الإيمان: (2415)، 352.

كَلِمَةٍ مِنْها، وبُدِئَ به بهذه السّورة كغيرها مِنَ السّور المبدوءةِ بحروف هجائيَّةٍ، بقصد تحدّي العرب، وإثبات إعجازِ القرآن[1].

وورد في الإتقان أنَّ هناك مَن سمّاها سورةَ (داوودَ)، ثمَّ عقَّب السّيوطيُّ قائلًا: "وذَلِكَ يَحتاجُ إلى مُستنَدٍ مِنَ الأثرِ"[2].

ويمكن أن يُقالَ: إنَّ تسميتها بسورة (ص) إنَّما جاء مرتبطًا مع محورها العامِّ الَّذي يجمع آياتِها، والَّذي يقوم على بيان سُنَّة اللّه الماضية في ديمومة الصِّراع الأزليِّ على هذه البسيطة، سواءٌ أكان بين أهل الحقِّ وأهل الباطل من جهةٍ، أو بين عناصرِ كلِّ فئةٍ على حِدة من جهةٍ ثانيةٍ؛ ولذا بيَّنت السّورة الكريمة أساليبَ أهلِ الحقِّ في مواجهة شبهاتِ أهلِ الباطلِ، وذلك مِن خلال عرض نماذجَ مِن حياة كوكبة مِنَ الأنبياء الذين عاشوا صراعاتٍ مع أقوامِهم، رغم ما أكرمَهم اللّه تعالى به من نِعَمٍ عظمى، ولذا فإنَّ تسميتَها بسورة (ص) فضلًا عن ارتباطِها المباشر بمفردة الصِّراع الذي مثَّلته الخصومات المختلفة الَّتي عرضتها السّورةُ الكريمة، فإنَّها ترتبطُ بشكلٍ آخر بصراع الكفّار الأزليِّ في شأن القرآنِ الكريم وتكذيبهم له، فما جاءت هذه الحروف المقطَّعة إلّا تحدّيًا لهم، وإعلانًا لعجزهم بأن يأتوا بمثل ما جاء بِهِ القرآنُ، فتسميتُها بهذا الحرف إنَّما كان إشارةً لمحور هذا الصِّراع الدّائم.

المحور العام للسورة:

محور السّورة يقوم على بيان سُنَّة الله تعالى في ديمومة الصِّراع الأزليِّ بين الحقِّ والباطل

يقرير محور هذه السورة سنَّة اللّه الماضية في نصرة دينهِ وحفْظِ دعوته ودعاته، ويمكن إيجازُ محور هذه السّورة في كونِها جاءت لتبيِّن سنَّة اللّه في تحقيق الصِّراع الأزليِّ بين الخلائق، سواءٌ أكان بين أهل الحقِّ وأهل الباطل من جهةٍ، أم بين أهل الحقِّ أو الباطل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 201، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 23/ 161.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 199.

أنفسِهم، وأنَّه لا بدَّ من أن ينتصرَ أهلُ الحقِّ على أهل الباطلِ في نهاية الأمر.

فالصِّراع البشريُّ سنَّةٌ ماضيةٌ ما دامت الحياة، ولا بدَّ من أن يكون طرفا الصِّراع على خصومة دائمةٍ، كلٌّ يرى أنَّه على الحقِّ المبين، فلا بدَّ أن يُدافع أصحاب الحقِّ عن حقِّهم، وأن يستفرغوا الأسباب في سبيله، وأن يوقنوا أنَّ الغلبة لا بدَّ أن تكون لحقِّهم على باطل عدوِّهم، وأنَّه إن لم يتحقَّق لهم ما أرادوا في دنياهم، فعَلَيهم أن يوقنوا أنَّه لا بدَّ وأن يجتمع الخصومُ عند ربِّهم، فيعطي كلَّ فريقٍ منهم ما يستحقُّه.

موضوعات السورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورة حــولَ قـضيَّـة الـصِّـراع الأزليِّ بين أهـل الحقِّ وأهل الباطل

إنَّ موضوعَ هذه السّورة لا يخرج عن موضوعاتِ السّور المكّيَّة في بيان أصول الاعتقاد، وتفصيل ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: تناولت السورة بيان الغاية الكبرى، وهي إثباتُ البعث والحساب ووصف نعيم أهل الجنَّة وعذاب أهل النّار.

ثانيًا: عرضت السورة منذُ الآيات الأولى لقضيَّة التَّوحيد: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾.

ثالثًا: تناولت السورة موضوعَ الوحي والرِّسالة: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾، ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

رابعًا: توجَّهت السّورة بقصَّة بدء الخلق، قصَّةِ آدمَ عليه السلام وسجود الملائكة له إلّا إبليس، وطرده مِنَ الجنَّة، وصبِّ اللَّعنةِ عليه إلى يوم القيامة، وتوعُّدِهِ وأتباعه بملءِ جهنَّم منهم.

خامسًا: ذكرت السورة أنَّ جندَ اللّه هم الغالبون، وإن رُئي أنَّهم

ضعفاء، وإن تأخَّر نصرهم، وهي بذلك تُسرّي عن النَّبيِّ ﷺ لما يجده في صراعه مع قومه، وتبيِّنَ له بعض النَّماذج البشريَّة من قصص الأنبياء الذين سبقوه.

سادسًا: أكثرت السورة مِن ذِكر نماذج مِن الخصومات الأزليَّة، يقول ابن القيِّم: "فتأمَّل ما اشتملت عليه سورة (ص) من الخصومات المتعدِّدة، فأوَّلُها خصومةُ الكفّار مع النَّبيِّ ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ إلى آخر كلامِهم، ثمَّ اختصامُ الخصمين عند داوودَ، ثمَّ تخاصمُ أهل النّار، ثمَّ اختصامُ الملأ الأعلى في العِلم، وهو الدَّرجات والكفّارات، ثمَّ مخاصمةُ إبليسَ، واعتراضُهُ على ربِّه في أمره بالسُّجود لآدم[1].

سابعًا: بيَّنتِ السورة أثرَ إبليس في هذا الصِّراع الأزليِّ، وحذّرت منه؛ إذ أعلن تمرُّده من أوَّل الأمر عند أمر الله تعالى الملائكة بالسُّجود لآدم قائلًا: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 76 - 83].

ثامنًا: ذكرت السورة للكافرين عاقبة مَن سبَقَهم في كفرهم وعنادهم تحذيرًا لهم، حتَّى لا يصيبَهم ما أصابهم، واقتضاها هذا الأمرُ أن تبيِّنَ عاقبة هذا الصِّراعِ يوم القيامة أيضًا.

تاسعًا: أماطت السورة اللِّثام عن نوعٍ آخر من الصِّراع سينشأ بين المشركين أنفسِهم يوم القيامةِ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ [ص: 62 - 64].

عاشرًا: خُتِمَت السّورة ببيان إخلاص النَّبيِّ ﷺ في تبليغ رسالتهِ دون طلب أجر، ممّا يدلُّ على نبوَّته، وأردفه بإعلان كونِ القرآنِ رسالةً للثَّقلين: الإنس والجنِّ، وأنَّ المشركين بعد موتِهم يعلمون حقيقة أمره[2].

(1) ابن القيّم، تفسير ابن القيّم: 3/ 174.
(2) الزحيليّ، التَّفسير المنير: 23/ 162.

تميَّزت سورةُ (ص) بخصائص موضوعية أفردتها عن غيرها مِنَ السّور

الخصائصُ الموضوعيَّةُ لسورة (ص):

تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بموضوعاتٍ لم ترد في غيرها مِنَ السّور مثل:

أولًا: ذِكر بعض النِّعمِ الَّتي أنعمَ اللّه تعالى بها على سليمانَ وداوودَ عليهما السلام.

ثانيًا: تفرَّدت بذكرِ بعضِ الفِتن الَّتي تعرَّضوا لها كالخصمَيْن مع داوودَ عليه السلام، والصّافنات الجياد وإلقاءِ الجسدِ على كرسيِّ سليمانَ عليه السلام.

ثالثًا: كذلك تفرَّدت السورة بذكرِ بعض التَّفصيلات في قصَّة أيّوب عليه السلام زيادة على ما جاء في سورة الأنبياء.

رابعًا: اختصَّت السّورةُ بتفصيلات عن قصَّة آدمَ عليه السلام لم ترد في السّور السِّتَّة الأخرى الَّتي ذكرتها؛ مثل القسمِ الَّذي أقسم به إبليسُ بإغواء بني آدم سوى المخلصين منهم.

خامسًا: تفرَّدتِ السّورةُ الكريمة بذكر مشاهد حواريَّة وخصومات بين الكافرين أنفسهم في جهنَّمَ، فقال تعالى عنهم: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ۝٦١ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ۝٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ۝٦٤﴾ [ص: 59 - 64].

تميَّزت سورةُ (ص) بخصائص أسلوبية أفردتها عن غيرها مِنَ السّور

الخصائصُ الأسلوبيَّة لسورة (ص):

أولًا: تفرَّدتِ السّورة الكريمةُ بأنساق تعبيريَّةٍ فريدةٍ، منها: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾، ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾، ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ

﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾، ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾، وغيرها الكثير.

ثانيًا: تكرَّرت فيها بعضُ الأنماط التَّعبيريَّة بشكل لافتٍ مثل قولها عن داوود: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص: 25]، وعن سليمان أيضًا: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ [ص: 40]، وقالت عن داوود: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]، وقالت: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩﴾ [ص: 19]، ووصفت سليمان بقولها: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص: 30]، وعن أيّوب: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾ [ص: 44].

ثالثًا: تكرَّرت فيها بعضُ الألفاظِ التَّعبيريَّة بشكل لافتٍ مثل (مآب) الَّتي وردت في السّورة أربع مرّات[1]، و(أناب) التي وردَت مرَّتَيْن[2]، ومثل كلمة (وهب) ومشتقّاتها؛ إذ وردت ثلاث مرّات[3]، والفعل (خصم) ومشتقّاته؛ إذ ورد أربع مرّات[4].

رابعًا: تميَّزتِ السّورة الكريمة بذكرها ألفاظًا فريدة في جذرها اللُّغويِّ، لم ترد في غيرها مِنَ السّور، وهي ﴿مَنَاصٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾، و﴿قِطَّنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾، وقوله: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ [ص: 31] في أثناء قصَّة سليمان ﷺ مع الخيل: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١﴾ [ص: 31]، وقوله: ﴿رُخَآءً﴾ [ص: 36] في القصَّة السّابقة: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾ [ص: 36]، ولا شكَّ أنَّ هذا كلَّهُ مرتبطٌ بمحور السّورة الكريمة في بيانِ سنَّة اللّه في ديمومة الصِّراع بين أهل الحقِّ وأهل الباطل ونصرة اللّه تعالى لأهل الحقِّ.

مناسبة سورة (ص) لما سبقها:

هذه السّورة متمِّمةٌ لما تقدَّم في سورة الصّافّات، ومنها:

(1) الآيات: 25، 40، 49، 55.
(2) الآيتان: 24، 34.
(3) الآيات: 30، 35، 43.
(4) الآيات: 21، 22، 65، 69.

سورة (ص) متَّصلة تمامًا بسورة الصّافّات مضمونًا وأسلوبًا

الأوّل: أنَّ اللّه تعالى حكى في آخر سورة الصّافّات قول الكفار: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩﴾ [الصافات: 168 - 169]، ثمَّ كفروا به، ثمَّ افتتح هذه السّورة بالقَسم بالقرآن ذي الذِّكر، لتفصيل المجمل هناك.

الثاني: أنَّ هذه السّورةَ بعد الصّافات، كـ(طس) النَّمل بعد الشُّعراء، وكـ(طه) والأنبياء بعد مريم، وكيوسف بعد هود، في كونها متمِّمة لها بذكر مَن بقي مِنَ الأنبياء ممَّن لم يُذكَرْ في تلك، مثل داوود وسليمان وأيوب وآدم، وأشار إلى بقيَّة مَن ذُكِرَ[1].

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 23/ 161.

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

البُشرى بانتشار الدّين في الآفاق بعد تنزيهِ الله ذاتَهُ، وتشريفِه رسلَهُ

لَمّا نزَّهَ ربُّنا ﷻ نَفْسَهُ في ختام سورة الصافّات عن كلِّ شائبةِ نقصٍ، وأثبت له كلَّ كمال ناصًّا على العزَّة، وأوجب للمرسلين السَّلامة؛ ناسب أن يفتتحَ هذه بالإشارة إلى دليل ذلك بخذلان مَنْ يُنازِع فيه، فأخبر النَّبيُّ بأنَّ أمرهم - مع الضَّعف الذي هم فيه والرَّخاوة والإطباق - مهيَّأٌ لعلوٍّ وانتشارٍ يملأُ الآفاق[1].

وثَمَّ وجهٌ آخرُ لمناسبة مطلع سورة (ص) لخاتمة ما قبلها: وهو أنَّه لَمّا حكى اللّه ﷻ في خاتمة الصافّات أنَّ الكُفّارَ كانوا يَقولونَ: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨﴾ [الصافات: 168]؛ لأخلَصوا العِبادَةَ لِلَّهِ، وأخْبَرَ أنَّهُم كفروا بالذِّكر لمّا جاءهم؛ بَدَأ هَذِهِ السّورَةَ بِالقَسَمِ بِالقُرآنِ الذي كذَّبوا به، وأخْبَرَ عَنْهُم أنَّهُم كافِرونَ، وأنَّهُم في تَعَزُّزٍ ومشاقَّةٍ لِلرَّسولِ الَّذي جاءَ بِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ أهْلَكَ مِنَ القُرونِ الَّتي شاقَّتِ الرُّسُلَ؛ لِيَتَّعِظوا[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾: (ذكر) أصلانِ، أحدهما: ذَكرتُ الشَّيءَ، خلاف نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَليهِ الذِّكرُ باللِّسانِ، يَقولونَ: اجعَلْهُ مِنكَ عَلى ذُكْرٍ، أي: لا تَنْسَهُ[3]، وهو عند الرّاغب: هيئةٌ للنَّفس بها يُمَكِّنُ الإنسانُ أن يحفظَ ما يقتنيه مِنَ المعرفة، وتارةً يُقالُ لحضور الشَّيء: القلبُ أو القول[4]، ويرى العسكريُّ أنَّ أصلَ الذِّكر يعود إلى القوَّة، فيقول:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 322.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 134.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ذكر).

"والذِّكر بالقلب يرجع إلى القوَّة؛ لأنَّ الشَّيءَ يثبت في القلب مع الذِّكر، فكان له قوَّة، والذِّكر باللِّسان شبيهٌ بذلك، وهو في القرآن بمعنى: الشَّرفِ والنَّباهةِ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44]، وبمعنى: البيان، قال اللّٰه: ﴿أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ﴾ [الأعراف: 63]، أي: بيان، وقال: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ يعني: ذا البيان، وقيل: ما ذُكِرَ فيه مِنَ الأقاصيص والحلال والحرام"[1].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

القرآنُ ذو شرفٍ عظيمٍ، ودليلٌ دامغٌ على صِدق الرَّسول فيما يُبَلِّغُه عن ربِّه

تُخبر الآيةُ الكريمة أنَّ اللّٰهَ سبحانه أقسمَ بالقرآن الكريم ذي الشَّرف العظيم، والمشتمل على مواقفَ وقصصٍ تُذكِّر النّاس، وتعظُهم بما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم، على أنَّ الرَّسولَ ﷺ صادقٌ في كلِّ ما يُبَلِّغُهُ عن ربِّه، ولم يصدر منه أبدًا ما يخالف الحقَّ الذي أُمِر بتبليغه للناس[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الافتتاح بالحرفِ: ﴿صٓۚ﴾:

وجــوهُ إعـجـازِ البيان القرآنيِّ متعدِّدةٌ متنوِّعةٌ

افتتح النَّظمُ الكريم السّورة الَّتي نزلت لبيان مصائر السّابقين، الَّذين شاقّوا اللّٰهَ ورسلَهُ بـ: ﴿صٓۚ﴾، وهو أحدُ الحروفِ المقطَّعة الَّتي حار العلماءُ في تفسيرها، وعجز أربابُ الفصاحة والبلاغةِ مِنَ العرب عن فهمها والإتيان بمثلِها؛ للدَّلالةِ على إعجاز القرآنِ الكريمِ الَّذي قام على أحرفِهم الَّتي يتكلَّمون بها، ولكنَّهم مع ذلك لا يستطيعون أن يأتوا بمثلِها، وبجانب إعجازه البيانيِّ المتمثِّل في تركيبهِ من الحروف الَّتي يتكلَّمون بها، والَّتي تحدّاهم أن ينسجوا

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 221.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 129.

على منوالها، وتشتمل هذه السّورةُ وغيرُها مِن سور القرآن على نوعٍ ثانٍ مِنَ الإعجازِ، يتمثَّل في اشتمالِها على المعاني والعِبر والعظات الَّتي تعظ النّاس، وتذكِّرهم، وتدعوهم إلى تأمُّل ما حدث للكافرين السّابقين الَّذين رفضوا اتِّباع المرسلين، وكفروا باللّه ربِّ العالمين، وهي أخبارٌ ومواقفُ لم يكن باستطاعة أحدٍ الإحاطةُ بها، ولا معرفةُ شيءٍ عنها.

سرُّ الافتتاحِ بالقسم وغرضُه:

تأكيدُ المُقْسَمِ عليه، والتَّنبيه إلى أهمّيَّة ما تتضمَّنه السّورة

بعد افتتاح السورة بالحرفِ القرآنيِّ: ﴿صٓ﴾ يأتي القَسَمُ بالقرآنِ الكريم، ذي الشَّرف العظيم، فالواو هنا على الأظهرِ أنَّها واو القسم، وذلك لتذكيرهم بما يهزُّ القلوبَ، ويرقِّقُها، ويوقظُها ممّا هي فيه مِنَ اللَّهو والغفلة؛ لتأكيد المُقْسَم عليه أوَّلًا، وللتَّنبيه إلى أهمّيَّة ما تتضمَّنه السّورةُ من معانٍ ومفاهيمَ لها عظيمُ الأثرِ في تحريك النُّفوس وتوجيهها إلى الطّاعات وزجرها عن المعاصي والمُخالفاتِ، التي يأتي على رأسها الكفرُ باللّه تعالى، ومعاداةُ أنبيائه ورُسُلِه، الَّذين أرسلهم لإخراج النّاس مِنَ الظُّلمات إلى النّور.

سرُّ اصطفاء (القُرآنِ) مُقْسَمًا به:

تشريفُ القرآن وتعظيمه، ولفت الانتباه إلى ضرورة الإيمان به والعمل بما فيه

أوثِرَ القسمُ بـ (القُرآنِ) في مفتتحِ السّورة؛ تشريفًا له، وتعظيمًا لشأنِه[1]، ولفتًا لأنظار المخاطَبين إلى ضرورةِ الإيمانِ بهِ، والإقبال عليه، وفَهْم ما فيه، والاتِّعاظ بما يقصُّه مِن أخبار الأمم السّابقة، والعمل بما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (القُرآنِ):

في التَّعبيرِ عن المقسم به بـ: (القُرآنِ) إشارتان: أولاهما: التَّنبيهُ إلى ضرورة المداومة على قراءتِهِ؛ لشرفِهِ واشتماله على ما ينفع القارئينَ في دنياهُم وآخرتهم، والأخرى: تنبيهُ المخاطَبين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 203.

قــراءةُ الـقـرآن والإنـصـات لمَـنْ يـقـرؤهُ هـدايـةٌ وبركةٌ

إلى ضرورة الاستماع لمن يقرؤه والإنصات عند قيام أحد بذلك؛ لِما للاستماع والإنصات مِن أثرٍ في الفهم المُفضي إلى العمل، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: 204].

دلالةُ قيدِ المُقسم به بوصف: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾:

تفخيمُ القرآنِ، والتَّـنـبيـهُ إلى اشتمالهِ على ما يعظُ النّاس وينفعهم

وُصِفَ (القُرآن) بـ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾؛ زيادةً في تفخيمه، ودلالةً على شرفه، وتنبيهًا إلى اشتماله على ما يذكِّر النّاس، ويعظُهم، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم، والمعنى: ذو "الموعظةِ والتَّذكير بما يُعرف، والعلوِّ والشَّرف والصِّدق الذي لا ريب فيه عند كلِّ أحد، فكلُّ مَن سمعه اعتقد شرفَهُ، وصدَّق الآتي به"(1).

سرُّ الإضافة في قوله: ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾:

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ﴿ذِي﴾ مضافًا إلى ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾؛ لأنَّ ﴿ذِي﴾ تُضافُ إلَى الأشياءِ الرَّفيعةِ، فتجري على متَّصفٍ مَقْصودٍ التَّنْويهُ به، والتَّعظيم لشأنه(2).

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾:

القرآنُ ذو شرفٍ ومكانة، وبيانٍ معجزٍ، يهدي إلـــى الـصِّـراط المستقيمِ

سبق القولُ بأنَّ ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ في القرآن له معانٍ كثيرةٌ، منها: الشَّرفُ والمكانة، ومنها: البيانُ المعجزُ، ومنها: الموعظةُ والتَّذكيرُ، ووصف (القُرآنِ) به في مفتتح السّورة يفيد هذه المعانيَ كلَّها، من غير تضارُبٍ بينها، ولا اختلاف في تأويلها، فالقرآنُ الكريمُ ذو شرفٍ كبيرٍ، ومكانة رفيعة عند الله تعالى وعند الخلق أجمعين، كما أنَّه ذو بيانٍ معجزٍ ولغةٍ ساحرةٍ، عجز أربابُ الفصاحة والبلاغة عن معارضتها أو النَّسج على منوالها، وأقرّوا جميعًا بعجزهم عن مجاراتها، وفيه أيضًا مِن قصص السّابقين وحكايات الغابرين

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 323.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 203.

ما يكفي لترقيقِ القلوب وتهذيب الطِّباع، وفيه تذكيرٌ بالواجبات وتوضيحٌ للمنهيّات الكفيلة بإخراج النّاس من الظُّلمات إلى النّور، وهدايتهم بإذن ربِّهم إلى الصِّراط المستقيم[1].

دلالةُ حذفِ جواب القسم:

في تَعْيينِ جوابِ القَسَمِ قولان: "أوَّلُهُما: أن يَكونَ مَحذوفًا دَلَّ عَليهِ الحَرفُ ﴿صٓ﴾، فَإنَّ المَقصودَ مِنْهُ التَّحَدّي بِإعجازِ القُرآنِ وعَجزِهِم عَن مُعارَضَتِهِ، بأنَّهُ كَلامٌ بِلُغَتِهِم ومُؤَلَّفٌ مِن حُروفِها، فالتَّقديرُ: والقُرآنِ ذي الذِّكْرِ إنَّهُ لَمِن عِندِ اللّهِ؛ لِهَذا عَجَزْتُم عَنِ الإتيانِ بِمِثلِهِ.

القرآنُ الكريم مِن عند الله، ولهذا عجز الكافرون عن معارضتِهِ

ثانيهِما: أنَّ الجَوابَ مَحذوفٌ أيضًا دَلَّ عَليهِ الإضرابُ الَّذي في قَولِهِ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، فَكَأنَّهُ قيلَ: إنَّهُ لَذِكْرٌ، ولَكِنَّ الَّذينَ كَفَروا في عِزَّةٍ وشِقاقٍ يَجْحَدونَ أنَّهُ ذِكْرٌ، ويَقولونَ: سِحْرٌ مُفْتَرًى، وهُم يَعلَمونَ أنَّهُ حَقٌّ[2].

والغَرَضُ من حَذْفِ جَوابِ القَسَمِ هُنا: الإعراضُ عَنْهُ إلَى ما هوَ أجدَرُ بِالذِّكرِ، وهوَ صِفَةُ الَّذينَ كَفَروا، وكَذَّبوا القُرآنَ عِنادًا أو شقاقًا مِنهُم، ويمكن أن يكونَ الغرضُ مِن حذْفِهِ كونَهُ مفهومًا مِن المعنى والسّياق[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 366.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 203.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 203.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢﴾ [ص: 2]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بيانُ الحائِلِ بَينَ الكافِرينَ والتَّذكُّرِ بِالقُرْآنِ الكَريمِ

بعد أن أقسم اللّٰه تعالى في الآية السابقة على أنَّ القرآن معجزٌ في بيانه، وذو شرفٍ ومَكانة، ومشتملٌ على ما يَعظ النّاسَ ويهديهم؛ ناسب أن ينتقلَ في هذه الآيةِ إلى بيانِ حال الكفّار تجاه الرَّسول والقرآن، وأنَّهم في عناد واستكبار، يحول بينهم وبين التَّذَكُّر والإيمان، ويجعلهم مع الرَّسول في نزاعٍ وشقاقٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِزَّةٖ﴾: (عزز) أصلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِن غَلَبَةٍ وقَهْرٍ[2]، والمعنى المحوريُّ الذي يدور عليه هذا الأصل: تماسُكُ الجِرم الرَّخو حتَّى يبلغَ الشِّدَّة والصَّلابة التّامَّة، فمن حسّيِّه: تَعَزَّز لحمُ الناقة: اشتدَّ، وصلُبَ، ومِن معنويِّه: عَزَزْت القومَ، وعَزَّزتهم وأعْزَزْتهم: قوَّيتهم، وشدَّدْتهم، ومنه: ﴿فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ [يس: 14][3]، والعِزَّةُ: حالةٌ مانعة للإنسان مِن أن يُغلبَ، قال تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء: 139]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]، وقد يُمدح بالعِزَّة تارة، ويُذمُّ بها تارة كَعِزَّةِ الكفّار، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ العِزَّةَ الَّتي للّٰه ولرسوله وللمؤمنين هي الدائمة الباقيةُ، وهي العِزَّةُ الحقيقيَّة[4]، والعِزَّةُ التي للكافرين هي: الامتناع والعناد؛ أخذًا مِنَ الاشتداد الَّذي هو أصلُ معنى التَّركيب،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 130.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزّ).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(4) الراغب، مفردات القرآن: (عزَ)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 61.

فالشَّديد لا يلين، ولا يستجيب للجذب، والقرآن لا يصفهم بالعزَّة الَّتي هي ضدُّ الذِّلَّة[1].

2) ﴿وَشِقَاقٍ﴾: (شقق) أصلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى انصِداعٍ في الشَّيء، ومِنَ البابِ: الشِّقاقُ[2]، وهوَ الخِلافُ والمخالفة وكونك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحبك، وإذا انصَدَعَتِ الجَماعَةُ، وتفَرَّقَتْ؛ يُقالُ: شَقّوا عَصا المسلمين، قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا﴾ [النساء: 35]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137]، أي: مخالفة، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، أي: صار في شقٍّ غير شقِّ أوليائه[3]، ويمكن أن يكونَ بمعنى: العداوةِ، قال تعالى: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: 32]، أي: عادوه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الكافرون في عداوةٍ واستكبار عن قَبول الهدى الذي جاءهم به الرَّسولُ

تُبَيِّنُ الآيةُ حقيقةَ الكافرين وحالَهم تجاه القرآن الكريم والرَّسول ﷺ، فتوضِّح أنَّهم - دائمًا وأبدًا - في عنادٍ واستكبارٍ عن قبول الهُدى الذي جاءهم به الرَّسولُ من عند الله، وفي مخالفةٍ وعداوةٍ لكلِّ ما لا يتَّفق مع ما وجدوا عليه آباءهم من عبادةٍ للأصنام، ومن عكوفٍ على عاداتِهم الباطلة[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿بَلِ﴾ ودلالتها في أوَّل الآية:

تحقيقُ أنَّ القرآنَ ذو ذِكرٍ، وأنَّ الكفّار مشاقّون متعزِّزون

يقول ابن عاشور: ﴿بَلِ﴾ هنا لِلإضرابِ الإبطاليِّ؛ لإبطالِ تَوَهُّمٍ يَنْشَأُ عَنِ الكلامِ الَّذي قَبلَهُ؛ إذ دَلَّ وصفُ (القُرآنِ) بـ ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ على أنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ سامِعيهِ تَذْكيرًا ناجِعًا، فعُقِّبَ بِإزالَة توهُّم مَنْ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شقَّ).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (شق).
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 267.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 130.

يَتَوَهَّمُ أنَّ عَدَمَ تَذَكُّرِ الكُفّارِ لَيْسَ لِضَعْفٍ في تَذْكيرِ القُرآنِ، ولَكِن لأنَّهم مُتَعَزِّزونَ مُشاقّونَ، والمَقْصودُ مِنهُ تَحقيقُ أنَّهُ ذو ذِكرٍ، وإزالَةُ الشُّبْهَةِ الَّتي قَد تَعْرِضُ في ذَلِكَ.

ولَكَ أن تَجعَلَ ﴿بَلِ﴾ إضرابَ انتِقالٍ مِنَ الشُّروعِ في التَّنويهِ بالقُرآنِ إلَى بَيانِ سَبَبِ إعراضِ المُعرِضينَ عَنْهُ؛ لأنَّ في بَيانِ ذَلِكَ السَّبَبِ تَحقيقًا لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ[1].

الغرضُ من التَّعبير بالاسم الموصول:

ذمُّ الكافرين وبيان السَّبب في عنادهم واستكبارهم

عبَّر النَّظمُ عن الكافرين بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دون الاسم الظّاهرِ، فلم يقل: (بل الكافرون)؛ ليتوصَّل بفعل صلتِهِ الماضي: ﴿كَفَرُواْ﴾ - الدالِّ على تشبُّعهم بالكفر ورسوخِهم فيه - إلى ذمِّهم، وإلى بيان السَّبب الذي دفعهم إلى الاستكبار والعناد، ومخالفة الرَّسول ﷺ ومعاداتِه[2]، وهو أنَّ الكفرَ متأصِّلٌ في كيانهم، متغلغل في أعماقهم.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالته:

الكافرون متلبِّسون بعزَّةٍ على الحقِّ، حتَّى عَموا عنه

﴿فِي﴾ حرف جر يفيد الظَّرفيَّة المجازيَّة هنا، والتَّعبير به في قوله: ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ ما هم عليهِ من عنادٍ ومخالفةٍ للحقِّ، قد أحاط بهم مِن كلِّ جوانبهم، كما يحيط الظَّرفُ بالمظروف[3]، ومِن ثمَّ أعماهم عن اتِّباع الحقِّ والإيمان به[4]، والمَعنى: (مُتَلَبِّسونَ بِعِزَّةٍ عَلَى الحَقِّ[5]، وامتناعٍ واستكبارٍ عن قَبوله).

الغرضُ من تنكير المجرور وتأنيثه:

جيءَ بالاسم المجرورِ وما عطف عليه ﴿عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ نكرتَين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 205.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 204.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 130.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 323.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 204.

جحودُ الكافرين وصدُّهم عن قَبول الحقِّ

للتَّفخيم والتَّهويل[1]، والدَّلالة على أنَّهما ليسا مجرَّدَ عناد ومخالفة يمكن للكافرين تجاوزهما، ولكنَّهما عنادٌ ومخالفةٌ استبدّا بهم، وتغلغلا في نفوسِهم، لدرجة أنَّهم لا يستطيعون التَّخلُّص منهما، أو التَّراجع عنهما، ما يدلُّ على "شدَّتهما وتفاقمهما"[2].

دلالةُ عطف: (شِقاقٍ) على: ﴿عِزَّةٖ﴾:

الكافرون لم يكتفوا بالتَّعزُّز عن التَّذكُّر بالقرآن، فناصبوا الرَّسول والمؤمنين العداء

جاء النَّظمُ القرآنيُّ بقوله: ﴿وَشِقَاقٖ﴾، الدّالِّ على المخالفة والعداوة، معطوفًا على: ﴿عِزَّةٖ﴾؛ للإشارة إلى أنَّهم لم يكتفوا بالكفر والتَّعزُّز عن التَّذكُّر بالقرآن واتِّباع الرَّسول، وإنَّما أعلنوا الحربَ على الإسلام، وناصبوا الرَّسولَ ﷺ والمؤمنين به العداء والبغضاء.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العِزَّة والكِبْر:

الأوَّل يدلُّ على العناد والاستكبار، والثاني إظهارُ عِظَمِ النَّفس ورفعُها فوق الاستحقاق

الأوَّل: يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِن غَلَبَةٍ وقَهْرٍ، وهو: حالةٌ مانعة للإنسان من أن يُغلب، قال تعالى: ﴿أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ١٣٩﴾ [النساء: 139]، وقد يُمدح به تارة، ويُذَمُّ به تارة كَعِزَّةِ الكفّارِ، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾، والمرادُ به هنا: الامتناعُ والعناد؛ أخذًا مِنَ الاشتداد الذي هو أصلُ معنى التَّركيب. **والثاني**: يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّغَرِ، وهو: إظهارُ عظم الشَّأْنِ، ورفع النَّفس فَوق الاستِحقاق، فيرى الإنسانُ نفسَهُ أكبرَ مِن غيرِه، وأعظمُ الكِبر الكِبرُ على اللهِ بالامتناع عن قَبولِ الحقِّ والإذعان له بالعبادة[3]، وهو صفةٌ لا ينبغي أن تكونَ إلّا لله، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾ [الحشر: 23].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 324.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 71.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (كبر).

ولمّا كان الَّذي يحول بين الكفّار وتذكُّرِهم بما يحكيه القرآنُ مِن مواعظَ وأحداثٍ هو الاستكبارُ الممزوج بالعِناد والتَّعزُّز؛ ناسبَ التَّعبير بـ (العِزَّةِ)؛ لاتِّساقه مع حقيقة المشركين وواقعهم.

الشِّقاق والعداوة:

الأوّل يدلُّ على الصَّدع والعداوة الظَّاهرة، والثّاني يدلُّ على التَّجاوز القلبيّ

الأوَّلُ: يَدُلُّ عَلى انصِداعٍ في الشَّيءِ، ومِنه الخِلافُ والمخالفة، وكونك في شِقٍّ غير شِقِّ صاحبك، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا﴾ [النساء: 35]، وقال: ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: 137]، أي: مخالفة، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: 13]، أي: صار في شقٍّ غير شقِّ أوليائِه، ويمكن أن يكونَ بمعنى: العداوة، كما قال تعالى: ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: 32]، أي: عادوه، أمّا **الثّاني**؛ فيَدُلُّ عَلَى التَّجاوز ومنافاة الالتئام، وتارةً يُعتبر بالقلب؛ فيقال له: العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتارةً بالمشي؛ فيقال له: العَدْوُ، وتارةً في الإخلال بالعدالةِ في المعاملة؛ فيقال له: العُدْوانُ والعَدْوُ، قال تعالى: ﴿فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: 108][1]، ولمّا كانت حقيقةُ الكافرين لا تقتصر على مجرَّد منافاة الالتئام، ولكنَّهم تجاوزوا ذلك إلى العداوة والمشاقَّة، وأعلنوها بصراحةٍ ووضوح؛ كان التَّعبيرُ بـ (الشِّقاق) أنسبَ مِنَ التَّعبير بـ (العداوة) الدّالِّ على مجرَّدِ التَّجاوز القلبيِّ مِن غير إيذاء أو انضواء تحت لواء فريق آخر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (عدا).

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾

[ص: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

تخويفٌ وإنذارٌ بالهلاك لمَنْ تلبَّسوا بالتَّعزُّز على الحقّ ومشاقَّةِ الرَّسول

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ السَّبَبَ الَّذي حال بين الكفّار والانتفاع بما في القرآن الكريم مِن ذِكرى وموعظة هو تلبُّسُهم بالتَّعزُّز على الحقِّ ومشاقَّة الرَّسول والَّذين آمنوا؛ ناسب أن تأتيَ هذه الآيةُ لتخويفهم وإنذارِهم بالهلاك الَّذي حصلَ للأمم الَّتي كانت كذلك مِن قبلهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَرۡنٖ﴾: (قرن) أصلانِ صَحيحانِ، أحدُهُما يَدُلُّ عَلى جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ، ومنه القَرْنُ، وهو: القوم المُقْتَرِنونَ في زمنٍ واحدٍ، وجمعُهُ قُرونٌ والآخَرُ: شَيءٌ يَنتَأُ بِقوَّةٍ وشِدَّةٍ[2]، والمراد هنا من ﴿قَرۡنٖ﴾: الأمَّة، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾ [المؤمنون: 42][3].

2) ﴿وَّلَاتَ﴾: قيل: التّاء زائدة فيه كما زيدت في ثمَّت وربَّت، تقديره: لا حين، وقال بعضُهم: معناه (ليس)، وقيل: أصله (ليس)، فقُلبت الياء ألفًا، وأبدل مِنَ السّين تاء، كما قالوا: نات في ناس، وقال بعضُهم: أصله (لا)، وزيد فيه تاء التَّأنيث تنبيهًا على السّاعة أو المدَّة، كأنَّه قيل: ليست السّاعة أو المدَّة حين مناص[4].

3) ﴿حِينَ﴾: (حين) أصلٌ واحِدٌ يدلُّ على الزَّمان قَليلهِ وكَثيرِه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 366، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 130.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 206.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (لات).

يُقال: عامَلْتُ فُلانًا مُحايَنَةً، مِنَ الحينِ، وأحيَنْتُ بالمَكانِ: أقَمتُ بِهِ حينًا، وحازَ حين كَذا، أي: قَرُبَ[1]، والحائنُ: الَّذي قَرُبَ أجلُهُ، وذكروا أنَّ الحينَ في القرآنِ تأتي على أربعة أوجه: السَّنة، قال: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: 25]، أي: كلَّ سنةٍ، ومنتهى الآجال، قال: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 36]، والسّاعة، وهو المرادُ هنا، كما قال: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ١٧﴾ [الروم: 17]، أي: ساعة غروب الشَّمس وساعة طلوعها، وزمان غير محدَّد، قال: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 88][2].

4) ﴿مَنَاصٍ﴾: (نوص) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرَدُّدٍ ومجيءٍ وذَهابٍ، وناصَ عَن قَرْنِهِ يَنوصُ نَوْصًا، والمَناصُ المَصدَرُ، والمَلجَأُ أيضًا، قالَ سُبحانَهُ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[3]، يُؤَوَّل المناص بالمَفَرِّ والمهرب وبالملجأ، والمؤدَّى واحدٌ، فكلُّ فرارٌ مِنَ المصير، وكلُّ مَنْفيٌّ[4].

المَعنى الإجماليُّ:

جُـــؤارٌ في غيرِ وقتِهِ، واستغاثةٌ بعد فوات الأوانِ

تبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ اللّه سبحانه قد أهلكَ كثيرًا مِنَ الأمم الَّتي تعزَّزت على الحقِّ، وشاقّوا الرُّسل الَّذين أُرسلوا لهدايتهم، مع أنَّهم كانوا أشدَّ قوَّةً وأكثر أموالًا وأولادًا من كفّار مكَّة وما حولها، كما توضِّحُ الآيةُ أنَّ هؤلاءِ الكفّار عندما رأوا مقدِّمات العذاب وعلاماتِهِ؛ تابوا إلى اللّه، وجأروا إليه بالدُّعاء؛ كي يرفعَهُ عنهم، واستغاثوا به حتَّى يكشف ما نزل بهم، ولكنَّ دعاءهم كان في غير وقتِهِ، واستغاثتهم جاءت بعد فوات الأوان، ومِن ثَمَّ لم يُنْجِهم من عذاب اللّه ملجأٌ، ولم يجدوا منه مهربًا[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 194.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نيص).
(5) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 231، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 131.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

أفـعـالُ المستكبرين تدفع السّامعين إلى السُّؤال عن مصائرِهم

جاءت آيةُ: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الآيةُ الثّانية عن سؤال أثارَهُ الكلام السّابق في نفس المتلقي؛ إذ إنَّ العِزَّةَ عَنِ الحَقِّ والشِّقاقَ للّٰهِ ولِرَسولِهِ ﷺ مِمّا يُثيرُ في خاطِرِ السّامِعِ أن يَسألَ عَن جَزاءِ ذَلِكَ[1]، فجاءت هذه الآيةُ؛ لتُجيب عن ذلك السُّؤال وتوضِّحه، ومِن ثَمَّ فُصِلَت عمّا قبلها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال.

نوع ﴿كَمۡ﴾ ودلالتها:

اللّٰه تعالى أهلكَ كثيرًا مِنَ الأمم بسبب عُتوِّها وتعزُّزها على الحقِّ

﴿كَمۡ﴾ في قوله: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ خبريَّةٌ، وليست إنشائيَّة، عُبِّرَ بها؛ للدَّلالة على كثرةِ الأممِ الَّتي أهلكها اللّٰه تعالى بسببِ عُتوِّها وتعزُّزها على الحقِّ، وعدائها للرُّسل الَّذين أرسلهم اللّٰه تعالى لإخراجهم مِنَ الظُّلمات إلى النّور بإذنِ ربِّ العالمين.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

موتُ المُعادين للرَّسول سيكون مصحوبًا بالعذاب والتَّرويع

في التَّعبير بمفردةِ: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ - الَّتي تدلُّ على الموت والعذاب[2] - ترهيبٌ للكفّار وإعلامٌ بأنَّ موتهم لن يكونَ مقصورًا على خروج الرّوحِ مِنَ الجسدِ، ولكنَّه سيكون مصحوبًا بأنواعٍ مِنَ العذاب والتَّرويع، جزاء تعزُّزهم على الإيمان ومناصبتهم العداء لرسول اللّٰه، كما حدث مع السّابقين تمامًا بتمام؛ ليحصلَ لهم بذلك ألمٌ نفسيٌّ قبل الألم الحسّيِّ، فيرجعوا عمّا هم فيه من عنادٍ وعداوةٍ، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على حصول الإهلاكِ ووقوعهِ بما لا يدعُ مجالًا للشَّكِّ أو الإنكار، لا سيَّما وأنَّ الكافرين على علمٍ بذلك؛ بسبب قُربِ الهالكين مِن زمانِهم وديارهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 206.

(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 502.

الغرضُ مِن إسناد فعل الإهلاكِ إلى ضمير العظمةِ:

هلاكُ العظيم أليمٌ، لا دافع له

أسند النَّظمُ الكريم فعلَ الإهلاكِ إلى ضمير الحقِّ بصيغة المتكلِّم المُعَظِّم نفسَهُ؛ لتفخيم الفعل وتهويله، والدَّلالة على أنَّ اللّٰهَ تعالى - بما لَهُ مِنَ العظمة والاقتدار - قادرٌ على إهلاك الكافرين المتعزِّزين على الحقِّ المُشاقّين للرَّسول، كما أهلك كثيرًا مِنَ الأمم التي فَعَلَتْ مثل ذلك من قبل.

نوع ﴿مِن﴾ ودلالتها في: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ ابتدائيَّة، تدلُّ على قُرب الهالكين زمانًا ومكانًا من كُفّار مكَّة وما حولها[1]، وفي هذا مزيدُ إنذارٍ وتهديدٍ؛ إذ العذابُ قد حلَّ بالأمم الَّتي كانت قريبةً من عهدهم، فلن يكونَ بعيدًا عنهم.

موقعُ قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾، ودلالةُ تقديمه:

البيانُ القرآنيُّ مهتمٌّ ببيان مصائر السّابقين؛ تحذيرًا وتخويفًا للمستمعين

قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِم﴾ يَجوزُ أن يَكونَ ظَرفًا مُسۡتَقِرًّا، وقع صِفَةً لِـ ﴿قَرۡنٍ﴾ مُقَدَّمَةً عَليهِ؛ للاهتِمامِ بِمَضمونِه، وإيماءً إِلَى أَنَّهُم أُسوَةٌ لَهُم في العِزَّةِ والشِّقاقِ، وأَنَّ ذَلِكَ سَبَبُ إهلاكِهِم، ويجوزُ أن يَكونَ مُتَعَلِّقًا بِـ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾ عَلى أَنَّهُ ظرفٌ، وقُدِّمَ عَلى المَفعولِ؛ لِيَكونَ تَقديمُهُ اهتِمامًا بِهِ؛ إيماءً إلى الإهلاكِ أيضًا[2].

الغرضُ مِنَ الإضافةِ في: ﴿قَبۡلِهِم﴾:

المُعاندونَ للرَّسول ليسوا بمنأًى عن الهلاك الَّذي حصل لأسلافهم

في إضافة (قَبۡلِ) إلى الضَّمير العائد إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في قوله: ﴿قَبۡلِهِم﴾ عِدَّةُ دلالاتٍ: أَوَّلُها: أنَّ هؤلاءِ الكافرين الذين يَتَعَزَّزون على الحقِّ، ويشاقّون الرَّسولَ ﷺ ينهجون نهجَ الكافرين الَّذين كانوا مِن قبلهم، ويسيرون على منوالِهم.

ثانيًا: أنَّهم يعرفون ما حدث لِمَنۡ سبقوهم مِن عقاب، وما نزل بهم من عذابٍ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 325.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 206.

ثالثًا: أنَّهم ليسوا بمنأًى عن أن يحصلَ لَهم مثلُ ما حصل لأسلافِهم، الَّذين كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، وأكثر أموالًا وأولادًا.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في: ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِّن قَرۡنٖ﴾ حرفُ جرٍّ صلةٌ، عبَّر به النَّظمُ الكريمُ؛ زيادةً في تأكيد أنَّ اللّٰه تعالى أهلكَ كثيرًا مِنَ الأمم السّابقة على كُفّار مكَّة وأهلها؛ بسبب عنادهم وعدائهم للرُّسل الذين أُرسلوا إليهم؛ تخويفًا وتحذيرًا مِن أن يلقَوا مصيرَهم، ويهلكوا مثلهم.

الغرضُ مِن تنكير: ﴿قَرۡنٖ﴾:

جيءَ بالاسم المجرورِ: ﴿قَرۡنٖ﴾ نكرة - وهو تمييز لإبهام ﴿كَمۡ﴾ الخبريَّة قبله - لِما يفيدُهُ التَّنكير مِنَ العموم والشُّمول، الدّالِّ على أنَّ الإهلاك شمل أممًا كثيرةً، وطال قرونًا عديدةً، لا مقارنةَ بين أهلِ مكَّة وبينها في العددِ والعدَّةِ، ولا في الأموالِ والأولادِ.

الإهـلاكُ شمل أممًا أكثر أموالًا وأولادًا من أهل مكَّة

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَنَادَواْ﴾:

الفاءُ في قوله: ﴿فَنَادَواْ﴾ تدلُّ - بجانب التَّفريع - على التَّعقيب، ما يعني أنَّ مقدِّمات العذاب وعلاماتِه أفزعَتِ الكُفّار المُشاقّين للرُّسل فزعًا شديدًا، وأوصلتهم لدرجةٍ عالية مِنَ الرُّعب، فلم يتأخَّروا في الجؤار إلى اللّٰه كي ينجيَهم ممّا هم فيه، وسارعوا في الاستغاثةِ بِهِ حتَّى يرفعَ عنهم ما نزل بهم؛ لأنَّهم أيقنوا أنَّ نزولَ العذابِ حاصلٌ - لا محالة - وأنَّه لا يستطيع أحدٌ أنْ يدفعَهُ عنهم سوى اللّٰه ﷻ.

لا يستطيع أحدٌ أن يدفعَ العذابَ إلّا الله

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَنَادَواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ بالفعل: ﴿فَنَادَواْ﴾؛ لدلالته بمعناه ومبناه على أنَّ الكافرين - عند نزول العذابِ بهم - بالغوا في الاستغاثةِ باللّٰهِ، وألحّوا في التَّوسُّل إليه، وعلَتْ أصواتُهم بكلِّ كلمات النَّدم، وجميع عبارات الحسرةِ والأسفِ، راغبين في رفع العقابِ عنهم، آملينَ في

الهالكون بالغوا في الاستغاثةِ، وألـــحّـــوا في الـتَّـوسُّـل بعد فوات الأوان

النَّجاة ممّا حلَّ بهم، وفي التَّعبير به ماضيًا دلالةٌ على تحقُّق النِّداء وتأكُّد الاستغاثة من غير شكٍّ أو ريبٍ؛ إنذارًا لمشركي مكَّة وتهديدًا.

الغرضُ مِن إسنادِ الفعل إلى ضميرِ الجماعةِ:

في إسناد فعلِ النِّداء إلى ضمير الجماعةِ في قولهِ: ﴿فَنَادَواْ﴾ دلالةٌ على أنَّ جميعَ الكافرين فعلوا ذلك بلا استثناءٍ، سواء منهم الصِّغار والكبار، والرِّجال والنِّساء، فالعذابُ قد عمَّ الجميع بجريرة كفرِهم واستكبارهم عن دين اللّه تعالى.

بلاغةُ حذفِ معمول فعل النِّداء:

حـذْفُ المعمولِ يـزيـد مِـن ثـراء المـعـنـى وكـثـرة الوجوهِ

يُفهم من قوله: ﴿فَنَادَواْ﴾ أنَّهُم نادوا عِندَ نُزولِ العَذابِ في الدُّنيا، ولَكن النَّظم لم "يَذكُرْ بأيِّ شَيءٍ نادَوا؛ لعدَّة وُجوه، **الأوَّلُ:** وهوَ الأظهَرُ أنَّهُم نادَوا بالاستِغاثَةِ؛ لأنَّ نداءَ مَن نَزَلَ بِهِ العَذابُ لَيسَ إلّا بالاستِغاثَةِ، **الثّاني:** نادَوا بِالإيمانِ والتَّوبَةِ عِندَ مُعايَنَةِ العَذابِ، **الثّالِثُ:** نادَوا، أي: رَفَعوا أصواتَهُم، يُقالُ: فُلانٌ أندَى صَوتًا مِن فُلانٍ، أي: أرْفَعُ صَوتًا[1]، أو المراد أنَّهم فعلوا النِّداء ذعرًا ودهشةً من غيرِ قصد منادى، فيكون الفعل لازمًا[2]، وأيًّا كان المرادُ؛ ففي التَّعبيرِ بالفعل (نادَوْا) دلالةٌ على شدَّة فزعِهم، وعظيمِ هلعِهم وخوفِهم، واستبدادِ رغبتِهم في المساعدةِ والإنقاذ، وفيه دعوةٌ للمشركين إلى الإقلاعِ عمّا هم فيه، حتَّى لا يحصل منهم مثلُ هذا النِّداءِ.

دلالةُ جملة: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾:

جُمْلَةُ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ في مَوضعِ الحالِ، والمعنى: فَنادَوا مُبتَهِلينَ في حالٍ لَم يَكُن ذَلِكَ الوَقتُ وقتَ فِرارٍ مِنَ العَذابِ[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 366.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 326.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 366، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 208.

دلالةُ النَّفي بـ: (لاتَ):

عند نزولِ العذابِ لن يُستجاب للتَّضرُّع والاستغاثة

أوثِرَ نفيُ جملة الحال بـ (لاتَ)؛ العاملة عمل (ليس) والمزيدة بحرف التّاء، لدلالتِها بمعناها ومبناها على نفي الاستجابةِ لضراعاتِ الهالكين وعويلهم، ونفي النَّظرِ إلى ما هم فيه مِن فزعٍ وهلعٍ؛ نفيًا مؤكَّدًا قاطعًا[1] لا يمكن معه حصولُ الرَّأفةِ بحالهم بأيِّ شكلٍ مِنَ الأشكال؛ بسبب ما كانوا عليه من التَّمادي في الكفر والعناد والتَّبجُّح في الاجتراء على اللّه ورسله، والتَّشكيك في العذاب، ونفي حصولِه.

الغرضُ مِن إضافة ﴿حِينَ﴾:

بيانُ الوقتِ الَّذي لا تنفع فيه التَّوبةُ، ولا يُجدي فيه الدُّعاءُ

جيءَ بـ ﴿حِينَ﴾ مضافًا إلى ﴿مَنَاصٍ﴾ في قوله: ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾؛ لبيان الوقتِ الَّذي لا ينفع فيه الدُّعاء، ولا تُقبل فيه التَّوبة، ولا يمكن أثناءه الفرارُ أو الهرب، وفيه تحذيرٌ للمتلقّين من كفّار مكَّة وغيرهم من الانتظار بالتَّوبة والإيمان إلى هذا الحين الَّذي لم يُقبل فيه شيءٌ مِنَ السّابقين، ولن يُقبلَ في مثله شيءٌ منهم ولا من غيرهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 326.

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾ [ص: 4]

كـلامُ المشركين برهانُ كونِهم في عزَّة وشقاق

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بعد أن أخبرت الآياتُ السابقةُ أنَّ الكفّار في عزَّةٍ وشقاقٍ؛ ناسب في هذه الآيةِ حكاية ما صدر عنهم من كلام فاسدٍ، يؤكِّد ذلك ويوضِّحه، فذكرتِ الآية الكريمة اتِّهامَهم الرَّسولَ ﷺ بالكذب، وتسميتَهم ما جاء به سحرًا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنذِرٞ﴾: (نذر) كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَخويفٍ أو تَخَوُّفٍ، مِنهُ الإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعضُهُم بَعضًا، ومنهُ النَّذرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ؛ إذا أخلَفَ، والنَّذيرُ: المُنذِرُ، والجَمعُ النُّذُرُ[2]، ويقع على كلِّ شيءٍ فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيره، قال تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢﴾ [نوح: 2]، وقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر: 89]، وقال أيضًا: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦﴾ [النجم: 56]، أي: من جنس ما أُنذِرَ به الَّذين تقدَّموا[3].

2) ﴿كَذَّابٌ﴾: (كذب) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى خِلافِ الصِّدقِ، ومنه الكَذِبُ: خِلافُ الصِّدقِ، يقال: كَذَبَ كَذِبًا، وكَذَّبْتُ فُلانًا: نَسَبتُهُ إلَى الكَذِبِ، وأَكْذَبْتُهُ: وجدْتُهُ كاذِبًا[4]، وهو: اسمٌ موضوعٌ للخبر الَّذي لا مُخْبِر له على ما هو به، سواءٌ كان الكذبُ فاحشَ القبحِ، أو غير فاحش القبح[5]، ويقال في المقال والفعال، قال تعالى:

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 138، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 214.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (نذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).
(5) أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، ص: 450.

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: 105]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون: 1][1].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

اتِّهامٌ بالسِّحر والكذب يتفرَّع عن عِزَّةٍ واستكبارٍ وحسدٍ

تحكي الآيةُ سيِّئةً من سيِّئات الكافرين المتفرِّعة عن عزَّتهم الفارغة واستكبارهم بالباطل، فتُبَيِّنُ اعتقادَهُم أنَّ الرِّسالةَ تتنافى مع البشريَّة، وأنَّ الأولى والأجدر أنْ يأتيَ بها ملكٌ مُرسَل مِن عند اللّه، ومِن ثَمَّ عدّوا رسالةَ محمَّدٍ ﷺ أمرًا عجيبًا خارجًا عن نطاق العقل والمألوف، فقالوا: هذا ساحرٌ؛ لأنَّه يأتي بما نعجز عن تفسيرهِ وتعليلِه، وكذّابٌ فيما يدَّعيه، ويرويه عن ربِّ العالمين[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾:

بيانُ سببٍ جديد من أسباب تعزُّز الكافرين عن التَّذكُّر بالقرآن

الواو في قوله: ﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ لعَطْف ما بعدها عَلَى جُمْلَةِ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، فهوَ مِنَ الكَلامِ الذي حَصَلَ الإضرابُ للانتِقالِ إليه، والمَعنَى: أنَّهُ استَقَرَّ في نُفوسِهِمُ استِحالَةُ بَعثَةِ رَسولٍ مِنهُم، وذَلِكَ سَبَبٌ آخَرُ لانصِرافِهِم وتَعَزُّزِهِم عَنِ التَّذَكُّرِ بِالقُرآنِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل: (عَجِبوا):

المشركون أنكروا أن يكونَ الرَّسول واحدًا منهم أشدَّ الإنكار

في التَّعبير بالفعل: (عَجِبوا) دلالةٌ على أنَّ الكافرين عدّوا كونَ الرَّسول واحدًا منهم أمرًا عجيبًا خارجًا عن احتمالِ الوقوعِ، وأنكروه أشدَّ الإنكارِ، لا أنَّهم اعتقدوا وقوعَهُ، وتعجَّبوا منه[4]؛ لأنَّهم يرون أنَّه مساوٍ لهم في الخِلقة الظّاهِرَةِ والأخلاقِ الباطِنَةِ والنَّسَبِ والشَّكْلِ

(1) الراغب، مفردات القرآن: (كذب).
(2) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 231.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 208.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 214.

والصّورَةِ، فَكَيفَ يُعقَلُ أن يُخْتَصَّ مِن بَينِهم بِهَذا المَنصِبِ العالي وتلك الدَّرجة الرفيعة؟[1].

التَّـنـبـيـهُ على كمال جهالتهم وشدَّة حسدِهم لرسول الله

والغرضُ مِن هَذِهِ الكَلِمَةِ التَّنبيهُ عَلَى كَمالِ جَهالَتِهِم؛ إذ جاءَهُم رَجُلٌ يَدعوهُم إلَى التَّوحيدِ وتَعظيمِ المَلائِكَةِ والتَّرغيبِ في الآخِرَةِ، والتَّنْفيرِ عَنِ الدُّنيا، ثُمَّ إنَّ هَذا الرَّجُلَ مِن أقارِبِهِم يَعْلَمونَ أنَّهُ كانَ بَعيدًا مِنَ الكَذِبِ والتُّهمَةِ، وكُلُّ ذَلِكَ مِمّا يوجِبُ الاعترافَ بِتَصديقِهِ، ثُمَّ إنَّ هَؤُلاءِ الأَقْوامَ لِحَماقَتِهِم يَتَعَجَّبونَ مِن كونه مِن رَهطِهِم وعَشيرَتِهِم، وكانَ مُساويًا لَهُم في الأسبابِ الدُّنيَوِيَّةِ، فاستَنكَفوا مِنَ الدُّخولِ تَحتَ طاعَتِهِ ومِنَ الانقيادِ لِتَكاليفِهِ، وعَجِبوا أنْ يُخْتَصَّ مِن بَينِهِم بِرِسالَةِ اللَّهِ، وأن يَتميَّزَ عنهُم بهذه الخاصّيَّة الشَّريفة، وبالجملة فما كان لهذا التَّعجُّب سببٌ إلّا الحسدَ[2].

الغرضُ مِن إسناد الفعل إلى واو الجماعة:

الدَّلالةُ على أنَّ الإنكارَ والرَّفض كـان مـن جميع الكافرين

أُسنِدَ الفعلُ: (عَجِبوا) إلى ضمير الجماعة العائد إلى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ جريًا على الأصل في إسناد الفعل إلى ضمير الفاعل الذي سبق ذِكرُه، ولأنَّ الضَّميرَ يُفيد ما يُفيده الاسمُ الظّاهرُ من أنَّ ذلك الإنكار كان من جميع الكافرين، سواء في ذلك السّادة والتّابعون، والمعنى: عجب هؤلاء المشركون من قيام واحد منهم، لينذرهم بسوء عاقبة الشِّرك، ويأمرهم بعبادة اللّه وحده، وترك ما يعبدون من دونه[3].

الغرضُ مِن حذف حرف الجرِّ في قوله: ﴿أَن جَآءَهُم﴾:

التَّـعـجُّـب هنا لـيـس مـعـنـاه الانـــدهـــاش، ولـكـنَّـه الـرَّفـض والإنكار

عُدّيَ فعلُ التَّعجُّب إلى المصدر المؤوَّل: ﴿أَن جَآءَهُم﴾ بدون حرف الجرِّ، فلم يقل: (وعجبوا من أن جاءهم)؛ للدَّلالة على أنَّ تعجُّبَهم هنا متضمِّنٌ لمعاني الرَّفض والإنكار لكون الرَّسول القائم بإنذارهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 367.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 367.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 132.

واحدًا منهم، وليس المُراد مجرَّد التَّعجُّب والاندهاش، الموجود في مثل قوله: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 73].

دلالةُ التَّعبير بالمجرور مصدرًا مؤوَّلًا:

الــدَّلالــةُ على تـحـقُّق المجيء وحـصـولـه من غير شكٍّ أو ريب

أوثِرَ التَّعبيرُ عن المجرور بالمصدر المؤوَّل دونَ الصَّريح، فقيل: ﴿أَن جَآءَهُم﴾، ولم يقل: (وعجبوا من مجيء منذرٍ)؛ لدلالة المصدر المُنسبكِ من ﴿أَن﴾ والفعل الماضي على تحقُّق المجيء وحصولهِ مِن غير شكٍّ أو ريب، ولما يُشعر به من حركة النَّذير فيهم، وتكرُّر إنذارهِ لهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل المجيء دونَ الإتيان:

بـيـانُ اعـتـقـاد الـكـافـريـن أنَّ الرِّسالةَ أمرٌ ذو أهـمّـيَّـةٍ وخطر يـسـتـدعـي كـون القائم به ملكًا لا بشرًا

تعبيرُ القرآنِ بالمجيء في قوله: ﴿جَآءَهُم﴾ لا يُقصد منه الإشارة إلى ما فيه من صعوبةِ الحركة، إنَّما استعمالُهُ على سبيل التَّوسُّع والمجاز في بيان شأن الآتي ومكانته، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الكافرين يعتقدون أنَّه مجيءٌ له شأنُه وأهميَّته، ومِن ثَمَّ لا ينبغي أن يقوم به، ويُختار له واحد منهم، وأنَّ الواجب أن يكون القائمُ بالإنذار ملكًا لا بشرًا مثلهم.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بـ: ﴿مُّنذِرٌ﴾ دون (مُبَشِّر):

الإنــذارُ كـاشـفٌ عن واقعِ الأقوامِ وحالِ الكافرين

أوثِرَ التَّعبيرُ عن الرَّسول بوصف النِّذارة في قوله: ﴿مُّنذِرٌ﴾ دون وصف التَّبشير؛ لبيانِ أنَّ أهلَ مكَّة ومَن حولها كانوا متلبِّسين بالمعاصي مُصرّين على الشِّرك بالله، فلزمهم الإنذارُ دونَ البِشارة[1]، وللدَّلالة على أنَّ الإنذارَ - مع شدَّته وقوَّة تأثيره في النَّفس - لم يُجْدِ معهم نفْعًا، ولم يُؤَثِّرْ فيهم، فكانوا دائمًا في تعزُّز على الحقِّ ومشاقَّة للرَّسول الَّذي بعثه الله به، وإذا كان هذا حالَهم مع الإنذار؛ فكيف يكون مع التَّبشير؟

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 209.

الغرضُ مِن تنكير اسم الفاعل، وإيثار التَّعبير به:

أوثِرَ التَّعبيرُ بالاسم المُشتق: ﴿مُّنذِرٌ﴾ نكرةً؛ لِما يفيده التَّنكيرُ مِنَ العموم والشُّمولِ الدّالِّ على أنَّ الكافرين لن يؤمنوا بالرَّسول القائم بالنِّذارة، سواء أكان منهم أم مِن غيرهم، وسواء أكان مِن البشر أم مِن الملائكة، وسيناصبونَهُ العداء والشِّقاق دائمًا، "ولمّا كان تعجُّبُهم من مطلق نذارته لا مبالغته فيها؛ أتى باسم الفاعل دونَ فعيلٍ"(1).

الــكـــافــرونَ سـيـنـاصـبـون الرَّسول العداء سواء أكان ملكًا أم بشرًا

معنى (مِنْ) ودلالتها في: ﴿مِّنْهُمْۖ﴾:

(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنْهُمْۖ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد التَّبعيض، وفي التَّعبير به دلالةٌ على أنَّ الرَّسولَ القائم بالنِّذارة واحدٌ من قريش الَّتي هي من العرب الذين هم مِن البشر، وليس مِن الملائكة أو من الجنِّ، و"كونُ النَّذير بما يحلُّ مِنَ المصائب من القوم المُنذَرين - مع كونه أشرفَ لهم - أقعدُ في النِّذارة؛ لأنَّهم أعرفُ به، وبما هو منطوٍ عليه من صِدقٍ وشفقة وغير ذلك، ولكونهم إليه أميلَ، وهم لكلامه أقبلُ"(2).

كونُ النَّذير مِن الـقـوم أشـرفَ لـهـم وأقـعـد في النِّذارة

ويضيف ابن عاشور: ثُمَّ إن كانَ التَّبعيضُ المُستَفادُ مِن حَرفِ (مِنْ) مُرادًا بِهِ أنَّهُ بَعضُ العَرَبِ أو بَعضُ قُرَيشٍ؛ فَأمرُ تَجهيلِهِم في عَجَبِهِم مِن هَذا النَّذيرِ بَيِّنٌ، وإن كانَ مُرادًا بِهِ: أنَّهُ بَعضُ البَشَرِ - وهوَ الظّاهِرُ - فَتَجهيلُهُم لأنَّ مَن كانَ مِن جِنسِهِم أجدَرُ بأن يَنصَحَ لَهُم مِن رَسولٍ مِن جِنسٍ آخَرَ كالمَلائِكَةِ، وهَذِهِ جَدارَةٌ عُرفِيَّةٌ، وهَذا العَجَبُ تَكَرَّرَ تَصريحُهُم بِهِ غَيرَ مَرَّةٍ، فَهوَ مُستَقِرٌّ في قَرارَةِ نُفوسِهِم، وهوَ الأصلُ الدّاعي لَهُم إلَى الإعراضِ عَن تَصديقِهِ(3).

الإشـــــارةُ إلى سـوء نظرهم، وتأصُّل الكفر في نفوسِهم

دلالةُ الواو في: ﴿وَقَالَ﴾:

جاءَ النَّظمُ بفعل القول معطوفًا على فعل التَّعجُّب بالواو الَّتي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 327.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 327.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 209.

تُفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّ كفرَهم واستكبارهم كان مصحوبًا ومُسوَّغًا باتِّهام الرَّسول ﷺ بالكذب، وادِّعاء أنَّ ما جاء به سحرٌ، وليس وحيًا أوحاه الله تعالى إليه، وفيه أيضًا مزيدُ تعجيبٍ مِن شأنهم وتقبيحٌ لصنيعِهم.

زيادةُ التَّعجيب مِن شأن الكافرين، وتقبيح صنيعهم

دلالةُ التَّعبير بفعل القولِ ماضيًا:

التَّعبيرُ بفعل القول - الموضوع لإبراز ما تَتَصَوَّرُه النَّفسُ - ماضيًا في جملة: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، فيه دلالةٌ على أنَّ الكفرَ عقيدةٌ راسخةٌ في نفوس أهل مكَّة، ومتغلغلٌ فيها، وأنَّ ما خرج من ألسنتهم ما هو إلَّا إعرابٌ عمّا استقرَّ في قلوبهم، ومِن ثَمَّ لم يُجْدِ معهم الإنذارُ أيَّ نفع، ولم يُحدِثْ فيهم شيئًا من التَّغيير، وفيه كذلك تحذيرٌ للمشركين وغيرهم مِنْ أنَّ هذه الأقوال وأمثالَها تعدُّ إدانةً لَمن يقولُها، وسيلقى حسابَه عليها في الدُّنيا والآخرة؛ إن مات مُصِرًّا عليها مؤمنًا بها.

ما ينطقُ به اللِّسان إعرابٌ عمّا استقرَّ في الوجدان

بلاغةُ التَّعبير بالظاهر بدلًا من الضَّمير:

كان مقتضى الظاهر أن يُقال: (وقالوا هذا ساحر...) ولكنَّ النَّظم الكريم عدل عن التَّعبير بالضَّمير إلى التَّعبير بالاسم الظاهر، فقال: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ "تَنبيهًا عَلى الصِّفَةِ الَّتي أوجَبَت لَهُمُ العجبَ، حتَّى نَسَبوا مَن جاءَ بالهُدَى والتَّوحيدِ إلى السِّحْرِ والكَذِبِ"[1]، فعبَّر عنهم بصفة الكفر؛ ليتقرَّرَ أنَّه لا يقول في نبيِّ الله هذه المقالة إلَّا جاحدٌ لكلِّ خير، كافرٌ بكلِّ حقيقة، وأنَّ الكفر يقترن بالكذب والبهتان، ومجانبة الصِّدق والعدل، ولولا أنَّه أفسدَ طباعَهم؛ لما اجترؤوا على مَنْ يعرفون فضلَهُ وشرفَهُ وصِدقَهُ[2]، ما يعني أنَّه لا يتجاسرُ على مثل ما يقولونَهُ

الكفرُ مقترنٌ بالكذب والبهتان، ومُجانبةِ الصِّدقِ والعدل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 138.
(2) أبو موسى، محمَّد محمَّد، خصائص التراكيب، ص: 247.

إلّا المتوغِّلون في الكُفر، الضالعون في الفسوق، الغارقون في المعاصي والإجرام[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّةِ إعرابٌ عمّا استقرَّ في النَّفس واعتقده القلب

يحكي النَّظمُ الكريمُ تعبيرَ الكافرين بالجملة الاسميَّة في قولهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾؛ لبيان اعتقادهم أنَّ السحرَ والكذبَ ملازمان للرَّسول، ثابتان له، وأنَّه لا ينفكُّ عنهما بحالٍ مِنَ الأحوال، فلمّا كانت عقيدتهم كذلك؛ ناسب أن يكون تعبيرُهُم بالجملة الاسميَّة لِما تفيده من ثبات المعنى ودوامه، بخلاف التَّعبير بالفعل الذي يدلُّ على التَّجدُّد أو على مجرَّد القيام بالعمل من غير مداومةٍ عليه ولا ثباتٍ.

الغرضُ مِن التَّعبير باسم الإشارة: ﴿هَٰذَا﴾:

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة يُستعمل للقريب، والمقصودُ به هنا: رسولُ اللّه، وغرضُهم مِن استعماله الازدراءُ والتَّحقيرُ، كما هي عادة الكافرين وديدنُهم.

دلالةُ التَّعبيرِ عن الخبر باسم الفاعل: ﴿سَٰحِرٌ﴾:

الرَّميُ بالسِّحر عادةُ المشركين عند ما لا تَقْبَلُ عقولُهم ما يُدعون إليه

في إسناد اسمِ الفاعل: ﴿سَٰحِرٌ﴾ إلى اسم الإشارة دلالةٌ على أنَّ الكافرين يزعمون أنَّ ما يقولُهُ الرَّسول من كلام الوحي يشبه كلام السَّحرة، في كونه غيرَ مفهوم ولا معروف، ولا تستوعبُهُ العقول، فعندما "لَم تَقبَلَ عُقولُهُم ما كَلَّمَهُم بِهِ زَعَموا ما لا يَفهَمونَ مِنهُ - مِثلَ كَونِ الإلَهِ واحِدًا أو كَونِهِ يُعيدُ المَوتَى أحياءً - سِحرًا؛ إذ كانوا يَألَفونَ مِنَ السِّحرِ أقوالًا غَيرَ مَفهومَةٍ"[2]، ولم يعبِّروا بصيغة مبالغةٍ؛ لئلّا يكون ذلك إيضاحًا جاذبًا للقلوب إليه[3].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 72، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 214.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 209.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 328.

دلالةُ التَّعبيرِ بوصف الكذب بصيغة المبالغة:

المشركون يسعون لتسويغِ كفرِهم باتِّهام غيرهم

في تعبير الكافرين بوصفِ الكذبِ: ﴿كَذَّابٌ﴾ بصيغة المبالغة دلالةٌ على وقاحتِهم، وبلوغِهم في التَّعزُّز على الحقِّ والشِّقاق مبلغًا كبيرًا؛ إذ رمَوهُ بالإبلاغ في الكذب، وكانوا من قبلُ يسمّونه الصّادق الأمين، وهم يعلمون أنَّه لم يتجدَّد له شيءٌ إلّا إتيانه بأصدق الصِّدق والحقِّ، مع ترقّيه في مدارج الكمال من غير خفاء على أحدٍ له أدنى تأمُّل[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 328.

﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ٥﴾ [ص: 5]

مُناسَبَةُ الآيةِ لما قبلَها:

دعـوةُ الرَّسـول إلــى التَّـوحيد سـبب مـعـاداة المـشـركـين لـه وانشقاقهم عنه

لمّا ذكر النَّظمُ في الآيات السابقة تعزُّزَ المشركين على الحقِّ وانشقاقهم عن الرَّسول ﷺ واتِّهامهم له بالسِّحر والكذب؛ ناسب أن يأتيَ في هذه الآية بما جعلوه مسوِّغًا لذلك، وهو دعوتُه لهم إلى توحيد اللّٰه وترك عبادة ما سواه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُجَابٌ﴾: (عجب) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى كِبْرٍ واستِكبارٍ لِلشَّيءِ، ومنه العَجَبُ: عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَبًا، وأمْرٌ عَجيبٌ، وذَلِكَ إذا استُكْبِرَ واستُعْظِمَ[2]، وزَعَمَ الخَليلُ أنَّ بَيْنَ العَجيبِ والعُجابِ فَرْقًا، فأمّا العَجيبُ والعَجَبُ مِثْلُه، فالأمْرُ يُتَعَجَّبُ مِنهُ، وأمّا العُجابُ: فالَّذي يُجاوِزُ حَدَّ العَجيبِ، وذَلِكَ مِثْلُ الطَّويلِ والطّوالِ، فالطَّويلُ في النّاسِ كَثيرٌ، والطّوالُ: الأهوَجُ الطّولِ[3].

المَعنى الإجماليُّ:

المـشـركـون يقبلـون تـعدُّدَ الآلـهـة، ويرفضون عبادة إلهٍ واحدٍ

تبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ المشركين أنكروا ما دعاهم إليه رسول اللّٰه ﷺ في مجلس عمِّه أبي طالب مِن توحيد اللّٰه، وترك عبادة ما سواه مِن الآلهة المزعومة، وأنَّهم أجمعوا على أنَّ عبادةَ إلهٍ واحد أمرٌ في غاية العجب والإنكار؛ لكونِه على خلاف ما ألفوهُ، ودرجوا عليه من التَّقليد، الَّذي أعماهم عن النَّظر الصَّحيح والفكر السليم، فتمسَّكوا بما وجدوا عليه آباءهم، وقاسوا الأمور الحيَّة الَّتي هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 328، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 209.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).
(3) الفراهيدي، العين: (عجب).

في مُكنة الفرد منهم، فرأوا أنَّه يستحيل عليه القيام بمطالب هذا الكون، فقالوا بتعدُّد الآلهة، وتعجَّبوا مِمَّن يقول بوحدة الإله[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

السَّبب في فصل الآية عمّا قبلها:

اتّهم المشركون الرَّسول بكلِّ أنواع التُّهم

جاءت جملة: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لأنَّها بمنزلة البيان لها[2]، ما يعني أنَّ السَّبب في فصلهما هو كمالُ الاتّصال، الذي تُنَزَّلُ فيه الجملةُ الثّانيةُ من السّابقة عليها منزلةَ التّابع من المتبوع، فتُفصَلُ عنها لما بينهما من الاتّصال المعنويِّ، الذي يستغنيان به عن الواصل اللَّفظي، وحسَّن الفصلَ بينهما كذلك اختلافُهما خبرًا وإنشاءً، فيكمل انقطاعُهما لفظيًّا، لكنَّهما يتَّصلان معنويًّا.

الغرضُ مِن الاستفهام في قوله: ﴿أَجَعَلَ﴾:

التَّعجُّبُ والإنكارُ هو جوابُ المشركين عند الدَّعوة إلى التَّوحيد

الهمزة في قوله: ﴿أَجَعَلَ﴾ للاستفهام الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ[3]، الذي يَقصد به المشركون إنكارَ ما دعاهم إليه رسولُ اللّه ﷺ من إفراد اللّه تعالى بالعبادة وترْكِ الآلهةِ الّتي يعبدونها من دونه، يُضاف إلى ذلك ما يمتاز به أسلوبُ الاستفهام من إثارة المتلقّي وتحريكه إلى التفكُّر في مضمون الكلام؛ لعلَّه يقتنع بحجَّتهم، ويؤازرُهم في رفضهم وإنكارهم.

دلالةُ التعبير بالفعل: (جَعَلَ):

الدَّعوةُ إلى التَّوحيد خارجٌ عن المألوف مخالفٌ للواقع في زعم المشركين

تعبيرُ المشركين بالفعل: (جَعَلَ) الدالِّ على التَّصيير والتَّحويل[4] فيه إشارةٌ إلى أنَّ ما يدعوهم إليه الرَّسول ﷺ من توحيد اللّه، وترْك عبادةِ الآلهة التي اتَّخذوها من دونه لا يعدوا أن يكون زعمًا خارجًا عن المألوف، مخالفًا للواقع الذي وجدوا عليه آباءهم وأجدادهم،

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 231.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 210.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (جعل).

ومِن ثَمَّ لا يمكنهم قَبولُه بسهولة، أو التَّسليم له به على الفور؛ لأنَّ ذلك في الفعل محالٌ[1].

دلالةُ إسنادِ فعل الجعل إلى ضمير الرسول:

الدَّعوةُ إلى التَّوحيد مِن مخترعات الرَّسول في زعمهم

إسنادُ الكافرين فعلَ الجعْلِ إلى ضمير الرَّسولِ في قولهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ﴾ فيه دلالةٌ على أنَّهم يعتقدون أنَّ تلك الدَّعوة من أفكار الرَّسول وأقواله، وليست وحيًا أوحاه اللّٰه تعالى إليه، وبذلك يؤكِّدون اتِّهامهم له بالكذب والافتراء على اللّٰه.

نوع (ال) ومعناها في المفعول الأول:

تعدُّدُ الآلهةِ وكثرتُها ممّا ألفه المشركون وعهدوه

(ال) في المفعول الأوَّل لفعل الجعل: ﴿ٱلۡأٓلِهَةَ﴾ يمكن أن تكونَ لتعريف العهد، والمعنى: أجعل الآلهة التي عهدناها كثيرةً متعدِّدةً إلهًا واحدًا، لا يُعبد أحدٌ معه، ولا يساعده في تدبير أمورِ الكونِ غيرُه؟ ويمكن أن تكون لتعريف الجنس، والمعنى: أجعل الآلهة كلَّها إلهًا واحدًا، لا أحد معه، ولا شريك له؟.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعول به الثاني مفردًا نكرةً:

الكافرون يعتقدون عدمَ قدرةِ إلهٍ واحدٍ على فعل كلِّ شيء

عبَّر المشركون بالمفعول الثاني: ﴿إِلَٰهٗا﴾ مُفردًا نكرة، لما يفيده الإفراد والتَّنكيرُ من جعل الرَّفض مقبولًا، والإنكار مستساغًا، لما يوحي به من عجز ذلك الإله وعدم قدرتِهِ على القيام بما تقوم به جموعُ الآلهةِ، والمعنى: "كَيفَ يكونُ إلَهٌ واحِدٌ يَرزُقُ الجَميعَ، ويَنظُرُ في كُلِّ أُمورِهِم؟"[2].

سرُّ وصفِ المفعول بـ ﴿وَٰحِدًاۖ﴾:

عبادةُ إلهٍ واحدٍ أمرٌ غير معهودٍ لدى الكافرين وغيرُ مُستَساغ

وصفُ المفعول ﴿إِلَٰهٗا﴾ بـ ﴿وَٰحِدًاۖ﴾ دلالةٌ على زيادة عجب الكافرين وشدَّة اندهاشهم مِن دعوة الرَّسول إلى توحيد اللّٰه وإفراده بالعبادة، ونبذ الآلهة الَّتي وجَدوا آباءهم وأجدادهم عاكفين على

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 73.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 138.

عبادتها، والمعنى: أنترك عبادةَ تلك الآلهةِ كلِّها، ولا نعبدُ إلّا إلهًا واحدًا فقط؟.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ودلالته:

الــدَّعــوة إلى الـتَّـوحـيـد أمـرٌ يَتَعَجَّبُ منه من انتكست فطرته

لّما اتَّهم الكافرون رسولَ اللّه ﷺ بالسِّحر والكذب، وبيَّنوا ذلك بدعوته لهم إلى توحيد اللّه، وترْكِ عبادة ما سواه؛ جاؤوا بهذه الجملة لتكون علَّةً لكلامهم، والمعنى: إنَّ هَذا الأمرَ يُتَعَجَّبُ مِنهُ، كَما يُتَعَجَّبُ مِن شَعوَذَةِ السّاحِرِ[1]، فالفصلُ هنا إمّا لكمال الاتِّصال؛ لأنَّها علَّة الاستفهام، أو لشبه كمال الاتِّصال؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن سؤالٍ مُقدّرٍ: لماذا هذا الإنكار عليه؟.

الغرضُ مِن تتابُعِ المؤكِّدات:

المــشــركــون يسعون لإقناع الآخرين بصواب ما ذهبوا إليه

جاءت جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ مؤكَّدةً بـ﴿إِنَّ﴾ واللام والجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على أنَّ عجبَ الكافرين وإنكارهم دعوةَ الرَّسولِ إلى التَّوحيد بلغ مبلغَ العقيدةِ الَّتي لا شكَّ فيها، ولا تراجع عنها، ما يفيد أنَّ كلامَهُ لن يؤثِّر فيهم، ووعودُهُ لن تُرَغِّبَهم، وتخويفَه لن يزحزحهم عن عبادة ما وجدوا عليه آباءهم.

وثمَّ أمرٌ آخر يدلُّ عليه مجيءُ كلامهم مشتملًا على هذه المؤكِّدات، وهو أنَّه لمّا كان الكلامُ في الإلهيَّة الَّتي هي أعظم أصول الدين، وكان ﷺ وكلُّ مَن تبعه، بل وكلُّ منصف ينكرون أن يكون هذا عجبًا، بل العجبُ كلُّ العجبِ ممَّن يقبل عقله أن يكونَ الإله أكثر مِن واحد؛ أكَّدوا قولهم لذلك، وإعلامًا لضعفائهم وتثبيتًا لهم بأنَّهم على غاية الثِّقة والاعتقاد لما يقولون، ولم يزلزلْهُم ما رأوا من منذرِهِم من الأحوال الغريبة الدالَّة على صِدقه[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 210.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 328، 329.

الغرضُ من التَّعبير باسم الإشارة:

الاستهانةُ بالمشار إليه والتَّقليل من شأنه

قولُ الكافرين: ﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة أرادوا به: دعوةَ الرَّسول إلى التَّوحيد، التي عبروا عنها بجملة: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾، وغرضُهم من التَّعبير به الاستهانةُ بهذه الدَّعوة، والتَّقليلُ من شأنها، والحثُّ على الإعراض عنها، وعدمِ الإصغاء لها، يُزادُ على ذلك الدَّلالة على جدارة المسند إليه بما أخبر به عنه، وهو كونُهُ أمرًا بالغًا في العَجَب والاستغراب مبلغًا لا نظيرَ له، ولا شبيهَ به.

الغرضُ مِن تنكير الخبر: (شَيۡءٌ):

التَّعبيرُ في الخبر بلفظ: (شَيۡءٌ) نكرة فيه كذلك تحقيرٌ للمسندِ إليه وتهوينٌ مِن شأنه، وتأكيدٌ للدَّعوة إلى الإعراض عنه، كأنَّه أمرٌ غيرُ ذي بالٍ.

دلالةُ تقييدِ الخبر بوصف: ﴿عُجَابٌ﴾:

الدَّعوةُ إلى التَّوحيد أمرٌ بالغ الغاية في العَجَب عند المشركين

في وصف الخبر بقولهم: ﴿عُجَابٌ﴾ دلالةٌ على أنَّ الدَّعوة إلى التَّوحيد الذي ندبهم إليه رسولُ الله أمرٌ بالغُ الغاية في العَجَب وعدم الاستساغة، ولا مثيل له في ذلك؛ لأنَّه على خلافِ ما أَلِفوا عليهِ آباءَهم، الذينَ أجمعوا على ألوهيَّتِهم، وواظَبوا على عبادتِهم، كابرًا عن كابر، فإنَّ مدارَ كلِّ ما يأتون وما يذرون من أمورِ دينِهم هو التَّقليدُ والاعتيادُ، فيعدّون ما يخالفُ ما اعتادوه عجيبًا، بل مُحالًا[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 329.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾ [ص: 6]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

تـواصٍ بالـدَّوام عـلى الـشِّرك بعد الدَّعوة إلى التَّوحيد

بعد أن بَيَّنَتِ الآيةُ السّابقةُ إنكارَ المُشركين دعوة الرَّسول إلى توحيد اللّه، وترْكِ عبادة ما سواه مِن الآلهة، الَّتي لا تضرُّ، ولا تنفع، وعدَّهم عبادةَ إلهٍ واحدٍ أمرًا لا نظير له في العَجَب وعدم الاستساغة؛ ناسب أنْ تُبَيِّن هذه الآيةُ ما تواصَوا به، واتَّفقوا عليه فيما بينهم، بعدما خرجوا مِن المجلس الَّذي جمعَهُم برسول اللّه ﷺ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱنطَلَقَ﴾: (طلق) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى التَّخليَةِ والإرسالِ، يُقالُ: انطَلَقَ الرَّجُلُ يَنطَلِقُ انطِلاقًا؛ إذا مرَّ متخلِّفًا[2]، والمعنى المحوريُّ لهذا الأصل: تسيُّبُ ما كان محبوسًا في حوزة أو جوف، مندفعًا منها بقوَّة ابتعادًا أو انبساطًا، وقد استعمل في مجرَّد الاندفاع بابتعادٍ دون قيد الخروج من حيِّزٍ أو جوفٍ، يقال: استَطلق الظَّبي وتَطَلق: استَنَّ في عَدْوِه، فمضى، ومرَّ لا يلوي على شيء، والانطلاق سرعةُ الذَّهاب، ومن هذا قوله تعالى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمۡ يَتَخَٰفَتُونَ ٢٣﴾ [القلم: 23]، وقوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾، أي: انصرفوا قائلين لأنفسهم ذلك[3].

2) ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: (ملأ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ هيَ الزَّمَنُ الطَّويلُ، وإذا هُمِزَ دَلَّ عَلى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ، ومِنهُ المَلَأ: الأشرافُ مِنَ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 138.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (طلق).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (طلق).

النّاسِ؛ لأنَّهم مُلِئوا كَرَمًا[1]، كما يُطلق على الجماعةِ من النّاس يجتمعون؛ ليتشاوروا، ويتحادثوا، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، وقال: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 60]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: 20][2].

3) ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾: (صبر) أصلٌ يدلُّ على الحَبْس، يُقالُ: صَبَرْتُ نَفْسي عَلَى ذَلِك الأمرِ، أي: حَبَستُها[3]، وهو: نقيضُ الجَزَع، وحقيقتُه: الثَّباتُ للمصيبة أو المشقَّة والتَّماسك والاستمرار في ما هو فيه، وعدم الانقطاع أو الزَّوال عنه، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [البقرة: 45]، أي: بالثَّبات على ما أنتم عليه من الإيمان، وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة: 155]، وكلُّ ما في القرآن من هذا التَّركيب فهو يعني: الثَّبات عند الشِّدَّة أو المجاهدة[4].

4) ﴿يُرَادُ﴾: (رود) مُعْظَمُ بابِهِ يَدُلُّ عَلَى مَجيءٍ وذَهابٍ مِن انطِلاقٍ في جِهَةٍ واحِدَةٍ، تَقولُ: راوَدْتُهُ عَلى أن يَفعَلَ كَذا؛ إذا أَرَدْتَهُ عَلَى فِعْلِهِ[5]، والإرادَةُ: من رادَ يَرودُ؛ إذا سعى في طلب شيءٍ، وهي في الأصل: قوَّةٌ مركَّبةٌ من شهوة وحاجة وأمل، وجُعل اسمًا لنزوع النَّفس إلى الشَّيء مع الحكم فيه بأنَّه ينبغي أن يفعلَ أو لا يفعل[6]، ومعنى قوله: ﴿يُرَادُ﴾، أي: مَصْنوعٌ مُرادٌ مِنهُ مَقصِدٌ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

توضِّح الآيةُ الكريمةُ ما جاء في كُتُبِ السّيرة أنَّ كبراء مكَّة وأشرافها انطلقوا من المجلس الَّذي جمَعَهُم برسول اللّٰه ﷺ (في حضور عمِّه أبي طالب)، ودعاهم فيه إلى تركِ آلهتهم وعبادة اللّٰه

نوائبُ الدَّهر تدعو إلى التَّناصح بالصَّبر

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(2) الفراهيدي، العين، والرّاغب، مفردات القرآن: (ملأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبر).
(4) الراغب، مفردات القرآن، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رود).
(6) الراغب، مفردات القرآن: (رود).

تعالى وحده، وأخذوا يتحاورون قائلين: امشوا، واتركوه، وسيروا على ما أنتم عليه، واصبروا على عبادةِ آلهتِكم، واجتمعوا عليها، فإنَّ دعوةَ محمَّد إلى التَّوحيد، وتشدُّدَه في نفي الآلهة شيءٌ عظيمٌ يريد إمضاءه وتنفيذه، مهما كانت الظُّروف، وإنَّ هذا الأمر لنائبةٌ من نوائب الدهر يُراد بنا، فلا حيلة معه إلّا الصَّبر والمثابرة عليه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في أول الآية:

جَلَدُ الكافرين في الاستمرار على كفرِهم

الواو في قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ﴾ يمكن أن تكونَ عاطفةً على محذوف، تقديره: فقاموا، وانطلقَ الملأُ منهم، ويجوز أن تكونَ استئنافيَّةً، والكلام بعدها مستأنفٌ مسوق؛ لتقرير تآمرهم بعد انصرافِهم من مجلس اجتماعِهم عند أبي طالب[2].

دلالةُ التَّعبير بفعل الانطلاق:

الإسراعُ في الانصراف برهانٌ على رفْضِ الرِّسالة والكفر بالدَّعوة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن خروج الكافرين من المجلس الذي جمعهم برسول اللّه ﷺ، ودعاهم فيه إلى التَّوحيد بالفعل (انطَلَقَ) المزيد بحرفين؛ للدَّلالة على إسراعهم في الانصرافِ، وعدم انتظارهم بعد أن طالبَهم الرَّسول بقول كلمة التَّوحيد، فيما يُعَدُّ رفضًا لدعوته، وإعراضًا عن رسالته، هذا إذا كان الانطلاق على حقيقتِهِ، ويمكن أن "يُضَمَّنَ الفعلُ معنى القول، ويكون المعنى: انطَلَقوا مُتَحاوِرينَ ماذا يَصۡنَعونَ؟ وعلامَ يعزمون بعد هذه الدَّعوة التي أصرَّ الرَّسولُ ﷺ على تبليغهم بها، ودعاهم إلى ضرورة نطقها[3].

دلالةُ إسنادِ الفعل إلى ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾:

أُسنِدَ فعلُ الانطلاق إلى ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ المُعَرَّف بـ(ال)، وهم الأشرافُ

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 232.
(2) الدرويش، إعراب القرآن: 8/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211.

والسّادةُ؛ لدفع توهُّم أنَّ ما فعلوه لا يفعلُهُ عاقل، فربَّما ظنَّ السّامع أنَّ المنطلق منهم أسقاط مِن الناس من غيرهم[1]، وإذا كان هذا هو فعلُ السّادة والأشراف مِن المشركين؛ فلا شكَّ أنَّه قد تتابع أقوامهم في متابعتهم موافقين لهم في شِركِهم ومعاداتهم النَّبيَّ ﷺ.

إعـراضُ الكبار يـترتَّـب عليه إعـراضُ الأتبـاعِ والصِّغار

معنى ﴿أَنِ﴾ ودلالتها في جملة: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ﴾:

يقول ابن عاشور: ﴿أَنِ﴾ تَفسيريَّةٌ؛ لأنَّ الانطِلاقَ إن كانَ مَجازًا؛ فهوَفي الشُّروعِ، فَقد أُريدَ بِهِ الشُّروعُ في الكَلام، فَكانَ فيهِ مَعنَى القَولِ دونَ حُروفِهِ، فاحتاجَ إلَى تَفسيرٍ بِكَلامٍ مَقولٍ، وإن كانَ الانطِلاقُ عَلَى حَقيقَتِهِ، فيقتَضي أنَّهُمُ انطَلَقوا مُتَحاوِرينَ في ماذا يَصنَعونَ، ولَمّا أُسْنِدَ الانطِلاقُ إلَى ﴿ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ عَلَى أنَّهُم ما كانوا ليَنطَلِقوا إلّا لِتَدبيرٍ في ماذا يَصنَعونَ، فَكانَ ذَلكَ مُقتَضيًا تحاوُرًا وتقاولًا احتيجَ إلَى تَفسيره بِجُملَةِ: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾[2].

انطلاقُ النّاس غـالـبًا يـكـون مصحوبًا بتقاوُلٍ يـحـتـاج إلى تفسير

الغرضُ مِن التَّعبير بالأمر: ﴿ٱمْشُواْ﴾:

﴿ٱمْشُواْ﴾ فعل أمر، قالَهُ الكافرون لبعضهم، أو قالَهُ الأشرافُ لغيرهم، بغرض النُّصح والتَّوجيه إلى ما ينبغي عليهم فِعلُهُ في الحالة الَّتي هم فيها، والأمرُ بالمَشيِ يُحتمَلُ أن يَكونَ حَقيقَةً، أي: انصَرِفوا عَن مَكانِ المُجادَلَةِ، واشتَغِلوا بِالثَّباتِ عَلى آلِهَتِكُم، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مَجازًا في الاستِمرارِ عَلى دينِهِم، كَما يُقالُ: سِر كَما سارَ الكِرامُ، أي: اعمَلْ كَما عَمِلوا، ومِنهُ سُمّيَتِ الأخلاقُ والأعمالُ المُعتادَةُ سيرَةً[3].

الـكـافـرون يـتـنـاصـحـون بـالمداومةِ على عبادة الأصنام

دلالةُ عطف الأمر بالصَّبر:

(اصْبِروا) فعلُ أمرٍ أيضًا، يُقصد به: النُّصحُ بالتَّمسُّك بعبادة

الـثَّـبـاتُ على الأمور يحتاج إلى التَّسلُّح بالصَّبر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 329.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 138.

الآلهة والثَّبات عليها، وعدم الاستجابةِ لدعوة محمَّد إلى تركها، وعبادة اللّه وحدَهُ[1]، وجاؤوا به معطوفًا على الأمر بالمشي بالواو الَّتي تفيد المشاركة؛ للدَّلالة على تواصيهم بعمل الأمرين معًا؛ لأنَّ المشي بمعناه السّابق يحتاج إلى التَّسلُّح بالصَّبر والتَّحلّي به، لكونه معينًا عليه، ومساعدًا في القيام به، "قال القشيريُّ: وإذا تواصى الكفّارُ فيما بينهم بالصَّبر على آلهتهم؛ فالمؤمنونَ أولى بالصَّبرِ على عبادة ربِّهم والاستقامة في دينهم"[2].

معنى حرف الجرِّ ودلالته:

في تعدية فعلِ الأمر بالصَّبر إلى معمولِه بحرف الجَرِّ المُفيد للاستعلاء في قوله: ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ دلالةٌ على تضمين (اصبروا) معنى: اعكفوا، واثبتوا، فحرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ هنا للاستعلاء المجازي، وهو التَّمكُّن مثل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، وليس هو حرف (على) المتعارف تعدية فعل الصَّبر به في نحو قولهِ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: 10]، فإنَّ ذلك بمعنى (مع)[3].

الصَّبرُ على الأشياء، يعني الثَّبات على فعلها والاجتهاد في الدَّوام عليها

علَّةُ فصل جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ عمّا قبلها:

جُملةُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ تَعليلٌ لِلأمرِ بالصَّبرِ عَلى آلِهَتِهِم[4]، ومِن ثَمَّ فُصِلَت عن جملتِهِ، كما يُفصَلُ الجواب عن السُّؤال، فيما يُعرف بلاغيًّا بشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تنبثق فيه الجملةُ الثّانية عن الأولى، كما ينبثق الفرعُ عن الأصل.

الغرضُ مِن تتابع المؤكِّدات:

جاءت جملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ مؤكَّدةً بـ﴿إِنَّ﴾ واللّام والجملة الاسميَّة؛ للإبلاغ في تأكيد مضمونها، وتَقويَةِ شَكِّهِم في

تأكيدُ الكلام فيه تقويةٌ للشُّكوك في المُتَحَدَّث عنه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 330.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211.

صِحَّةِ دَعوَة النَّبيِّ بأنَّها شَيءٌ أرادَهُ لِغَرَضٍ، أي: لَيسَ صادِقًا، ولَكِنَّهُ مَصْنوعٌ مُرادٌ مِنهُ مَقصِدٌ، كَما يُقالُ: هَذا أمرٌ دُبِّرَ بِليلٍ[1].

الغرضُ مِنَ التَّعبير باسم الإشارة:

الـدَّلالـةُ على جـدارة المسند إلـيـه بـالـخبر المسند

وقولهم: ﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارةٍ أرادوا به هنا: دَعْوَةَ النَّبيِّ ﷺ إيّاهُم أن يَقولوا: لا إلَهَ إلّا اللّهُ[2]، وقيل: أرادوا به ظُهورَ محمَّد ﷺ، وعُلوَّهُ بِالنُّبوَّةِ[3]، وأيًّا كان المرادُ؛ ففي التَّعبير به استهانةٌ بالمشار إليه وتقليلٌ مِن شأنه، وتأكيدٌ لجدارتهِ بالخبر المسند إليه، وهو كونُهُ شيئًا مدبَّرًا، ومقصودًا لذاتِه.

الغرضُ مِن تنكيرِ خبر ﴿إِنَّ﴾:

تفخيمُ المُتَحَدَّثِ عنه ووضعُه في بؤرةِ الاهتمام

التَّعبيرُ في الخبر بلفظ: ﴿لَشَيۡءٌ﴾ نكرة فيه تعظيمٌ للأمر الذي يدعوهم إليه النَّبيُّ ﷺ، وتنبيهٌ إلى عدم الاستهانةِ به، ووضعِه في بؤرة الاهتمام، لخطرِهِ وأهمّيَّته، وعدم قدرة العبارةِ على توصيفه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 211.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [ص: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

استكمالُ مقالةِ المشركين التي قالوها بعد انصرافهم من مجلس الرَّسول

بعد أن ذكر النَّظمُ الكريم في الآية السّابقةِ ما تواصى به المشركونَ عند انصرافهم من المجلسِ الَّذي دعاهم فيه رسولُ اللّٰه إلى التَّوحيد وترْكِ عبادة آلهتِهم الَّتي يدعون من دون اللّٰه؛ ناسب أن يستكملَ ما قالوه في هذه الآية، مِنْ أنَّهم ما سمعوا مثل هذه الدَّعوة مِن قبل، أو فيما أُخبروا عنه في آخر الزَّمان، وأنَّ محمَّدًا يختلقُها؛ ليسيطرَ على مقاليد الأمور، ويدين له النّاس بسببِها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمِلَّةِ﴾: (ملّ) أصلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى تَقليبِ شَيءٍ، والآخرُ عَلَى غَرَضٍ مِنَ الشَّيْءِ[2]، والمِلَّة كالدّين، وهو: اسم لِما شرعَ اللّٰه تعالى لعباده على لسان الأنبياءِ، ليتوصَّلوا به إلى جوار اللّٰه، ولا تُضاف إلّا إلى النَّبيِّ الَّذي تُسند إليه، نحو قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران: 95]، وقوله ﷺ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ﴾ [يوسف: 38]، ولا توجد مضافة إلى اللّٰه، ولا إلى آحاد أمَّة النَّبيِّ، ولا تُستعمل إلّا في حملة الشَّرائع، فلا يقال: ملَّة اللّٰه، ولا يقال: ملَّتي وملَّة زيد، وأصلُ المَلَّة مِن: أمللت الكتاب، قال تعالى: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: 282][3].

2) ﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: سُمّيت الآخرة آخرة؛ لأنَّ الدُّنيا تؤدّي إليها، وآخر الشَّيء خلاف أوَّله، فأوَّلُه ما بُدِئ منه، وآخره ما ينقطع عند

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 134.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملَّ).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (ملل).

تمامِهِ، ويجوز مع ذلك أن يجعلَ أوَّل الشَّيء آخره، وآخر الشَّيء أوَّله، إذا قدَّر غير التَّقدير الأوَّل، وقوله تعالى: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلْآخِرَةِ﴾، وهي ملَّة عيسى عليه السلام كذا قيل، ويجوز أن يكون معناه: ما سمعنا أنَّ مثل ما تأتي به يكون في آخر الزَّمان[1]، ويجوز: ما أدركوا عليه آباءهم، أو الملَّة المنتظرة؛ لأنَّهم كانوا يسمعون مِنَ الأحبار والكهّان أنَّ رسولًا يُبعث، ويكون آخر الأنبياء، فلمّا جاءهم؛ جحدوا، واستيقنتها أنفسهم ظلمًا[2].

4) ﴿ٱخْتِلَٰقٌ﴾: (خلق) أصلانِ، أَحَدُهُما: تَقديرُ الشَّيءِ، والآخَرُ: مَلاسته، فالخلقُ أصله: التَّقدير، وكلُّ مقدَّر مخلوق، ويُستعمل في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 1]، أي: أبدعهما، ومنه: الاختلاقُ، يقال: اختلقَ الكلامَ؛ إذا زَوَّره، وقَدَّرَه[3]، وقال أيضًا: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: 17]، وقال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾، فسمّي الكذب اختلاقًا؛ لأنَّه يُقدَّر، ويُزيَّن ليتشبَّه بالصِّدق[4].

المَعنى الإجماليُّ:

دعوةُ الرَّسول إلى التَّوحيد كلامٌ مُختَلَقٌ لم يسمعْهُ المشركون من أحدٍ غيره

تستكمل الآيةُ الكريمةُ مقالةَ الكُفّار الَّتي قالوها بعد خروجهم من المجلس الذي دعاهم فيه الرَّسول إلى عبادة اللّه وحده، وترْكِ عبادة الآلهة الَّتي اتَّخذوها من دونه، فتبيِّن أنَّهم قالوا: ما سمعنا بهذا الدّين الَّذي يدعوننا إليه محمَّد في ملَّة العرب الَّتي أدركنا عليها آباءنا، أو ما سمعنا بهذا الَّذي يقوله محمَّد في الملَّة الآخرة، وهي ملَّةُ عيسى عليه السلام، ويصح أن يكونَ المعنى: ما سمعنا بهذا الَّذي يدعوننا إليه محمَّد كائنًا في الملَّة الَّتي تكون في آخرِ الزَّمان، والَّتي

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 94، 93.
(2) السيوطي، معترك الأقران: 12/ 134.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 207.

حدَّثنا عنها الكهّانُ وأهل الكتاب، ثم أكَّدوا نفيهم لعدم سماعِهم ما جاء به الرَّسول ﷺ بقولهم: إنْ هذا إلّا اختِلاقٌ، أي: ما سمعنا شيئًا ممّا يقوله، وما يقوله ما هو إلّا كذبٌ وتخرُّصٌ اختلقه من عند نفسه، دون أن يسبقَهُ إليه أحدٌ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ: ﴿مَا سَمِعۡنَا﴾ ممّا قبله ودلالته:

الفصلُ لكمال الاتِّـصـال أو لشبهه

جملة: ﴿مَا سَمِعۡنَا﴾ يمكن أن تكونَ مُبَيِّنَةً لِجُملة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾؛ لأنَّ عَدَمَ سَماعِ مِثلِهِ يُبَيِّنُ أنَّهُ شَيءٌ مُصطَنَعٌ مُبتَدَعٌ، ما يعني أنَّها فُصِلَت عنها لكمال الاتِّصال، الَّذي تنزَّل فيه الجملة الثانية من الأولى منزلةَ التابع من المتبوع[2]، ويمكن أن تكونَ الجملةُ مستأنفةً استئنافًا بيانيًّا؛ للإجابة عن سؤالٍ أثارَهُ الكلامُ السّابق في نفس المتلقّي، تقديرُه: فما حال ما يقوله؟ فتأتي الآيةُ لتحكيَ ما أجابوا به عن هذا السُّؤال، ومن ثَمَّ فُصِلَت عمّا قبلها كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال[3].

دلالةُ نفي فعل السَّمع بـ ﴿مَا﴾:

المشركون ينفونَ سماعَهم بدعوة التَّوحيد من أحد غيرِ محمَّد نفيًا لا حدودَ لَهُ

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا سَمِعۡنَا﴾ حرف نفي، عبَّر به المشركون لنفي سماعِهم الدَّعوةَ إلى التَّوحيد من أحد غيرِ رسول اللّه ﷺ، وآثروا التَّعبير به؛ لأنَّ من خصائصِهِ نفي الجمل الاسميَّة والفعليَّة، وهو آكَدُ في النَّفي من غيره، وأوسع استعمالًا[4]، كما أنَّه يدلُّ بمبناه المختوم بألفِ المدِّ على بلوغ نفي سماعِهم بهذهِ الدعوة مبلغًا لا حدود له.

دلالةُ نفي فعل السَّمع دون غيره:

نـفـيُ الـخـبـر المـسـموعِ أدلُّ على نفي الخبر المرئيِّ وغيرِه من الأخبار

آثرَ المشركون نفْيَ السَّماع في قولهم: ﴿مَا سَمِعۡنَا﴾، لأنَّ نفي الخبر المسموع أدلُّ على انتفاء الخبر المرئيِّ وغيره من الأخبار، فإذا

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 212.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 331.
(4) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.

كان المشركون لم يسمعوا عن أحدٍ دعا بهذه الدَّعوة من قبل ولا في عصرِهِم، فهذا يعني أنَّهم لم يروا ذلك أيضًا، وفيه تمهيدٌ لرمي الرَّسول باختلاق هذه الدَّعوة، ونفي الوحي بها إليه.

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل السَّمع المنفي ماضيًا:

نفيُ الفعلِ في الزَّمن المضارع لا يدلُّ على انتفائه في الزَّمن الماضي

أوثِرَ التَّعبير بفعل السَّمع المنفيِّ ماضيًا؛ لدلالته على تحقُّق انتفاء سماع الكافرين بهذه الدَّعوة، والتَّأكُّد منه دون شكٍّ أو ريبٍ، ولو جاء التَّعبيرُ بالمضارع؛ لفُهِم انتفاءُ السَّماع في الحال، وعدم انتفائه في الماضي، وبه يصبحُ نفي سماعِهم لا جدوى من ورائِهِ، ولا احتجاج به على اختلاق الرَّسول هذه الدَّعوة.

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة في موضع الضَّمير:

زيادةُ تمييزِ المُشارِ إليه وإحضارُه في ذهن المتلقّي

كان مقتضى الظاهر أن يُقال: (ما سمعنا به)، لكنَّ النَّظم وضع اسم الإشارة موضعَ الضَّميرِ، فقال: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾، والمرادُ به: الدَّعوة إلى التَّوحيد؛ لقصد زيادة تمييز المشار إليه، وإحضاره في ذهنِ المتلقّي[1]، فيزدادُ رفضه له وإنكاره.

الغرضُ مِن الكناية في قوله: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾:

الأسلوبُ الكنائيُّ يمتاز بالتعبير عن المعنى مصحوبًا بالدَّليل

ما يحكيه القرآنُ الكريمُ من قول الكفار: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ كنايَةً عَنِ الاستِبعادِ واتِّهامِ الرَّسول ﷺ بِالكَذِبِ[2]، والافتراء فيما يقوله، ويدعوهم إليه مِن تركِ عبادة الأصنام وإفراد اللّٰه تعالى بالعبادة، وآثروا التَّعبيرَ بالأسلوب الكنائيِّ؛ لتميُّزه بالتَّعبير عن المعنى مقرونًا بالدَّليل، فهُم لم يريدوا اتِّهام الرَّسول بالكذب فقط، ولكنَّهم أرادوا إقامةَ الدَّليل على ذلك، فادَّعوا أنَّهم لم يسمعوا أنَّ أحدًا قال بمقالته هذه في الملَّة الآخرة.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 212.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 212.

معنى حرفِ الجرِّ ودلالته:

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ حرف جرٍّ يفيد الظَّرفيَّة، وفي تعبيرِهم به دلالةٌ على أنَّهم لم يسمعوا، ولم يجدوا في أسفار الملَّة الآخرة ما يدلُّ على الدَّعوة إلى التَّوحيد الَّتي دعاهم إليها رسولُ اللّه ﷺ، وفيه تأكيدٌ لانتفاء السَّماع وزيادة تمهيد للتُّهمة بالاختلاق.

المشركونَ ينفون العثورَ في أسفار السّابقين على شيءٍ يدعو إلى التَّوحيد

سرُّ تقييدِ نفي السَّماع بالجارِّ والمجرور:

تقييدُ المشركين نفيَ سماعِهم عن دعوة التَّوحيد بقولهم: ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، يدلُّ على أنَّهم عالمون بوجودِه في الملَّة الأولى، وأنَّهم مدركون أنَّ إبراهيم عليه السلام ومَن بُعِثَ مِن أولادِه الَّذين هم آباؤهم إلى عمرو بن لُحَيٍّ كانوا بعيدين من الشِّرك ملازمين للتَّوحيد، وأنَّه لا شبهةَ لهم إلّا كونه سبحانه لم يغيِّر عليهم في هذه المدد الطوال، وكانوا أيضًا يعرفون البعثَ، ولكنَّهم تناسوه[1].

المشركون يعلمون أنَّ إبراهيمَ وأولاده كانوا على التَّوحيد

دلالةُ وصف المجرور بـ ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

وَصْفُ الكافرين ﴿ٱلۡمِلَّةِ﴾ بكونِها ﴿ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يجوز أن يكونَ معناهُ: دينَ النَّصارَى؛ إذ استَشهَدَ المُشرِكونَ عَلى بُطلانِ تَوحيدِ الإلَهِ بأنَّ دينَ النَّصارى الَّذي ظهر قَبلَ الإسلامِ أثبَتَ تَعَدُّدَ الآلِهَةِ، ويَكونُ نَفْيُ السَّماعِ كِنايَةً عَن سَماعِ ضِدِّه، وهوَ تَعَدُّدُ الآلِهَةِ، ويَجوزُ أن يُريدوا بـ ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: المِلَّةَ الَّتي هُم عَلَيها، ويَكون قَولُهُم: ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كِنايَةً عَنِ استِمرارِ انتِفاءِ هَذا إلى الزَّمَنِ الأخيرِ، فَيُعلَم أنَّ انتِفاءَهُ في مِلَّتِهِمُ الأولَى بِالأحرَى[2].

الكافرون يزعمونَ أنَّه لا يوجد في النَّصارى ولا في أجدادهم مَنْ دعا إلى التَّوحيد

موقعُ جملة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ ممّا قبله:

جملة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ بيانٌ لقولهم: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 331.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 212، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 369.

الكافرون يتّهمون الرّسول بالكذب تلميحًا وتصريحًا

﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾[1]، ما يعني أنَّها تنزَّل منها منزلةَ التابع من المتبوع، فتُفصل عنها لما بينهما من كمال الاتِّصال، الَّذي تقوى فيه العلاقاتُ بين الجمل لدرجة تستغني بها عنِ الواصل اللفظيِّ، ويمكن أن تكونَ تأكيدًا للجملة ذاتها[2]، لما فيها من التَّصريح بالكذب والاختلاق بعدما أشاروا، وألمحوا إليه في قولهم: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، فيتأكَّد اتِّهامُهم للرَّسول بالكذب مرَّتين، إحداهما على سبيل التَّلميح، والأخرى على سبيل التَّصريح، ويمكن أن يكونَ سببُ الفصل شبه كمال الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ في الذِّهن، مفادُه: إذًا ما حقيقةُ هذا الزَّعم أو هذه الدَّعوة؟.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِنۡ﴾ في أوَّل الجملة:

﴿إِنۡ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ حرف نفي، أوثِرَ التَّعبيرُ به دون غيرِه مِنَ الحروف النّافية؛ لِما يفيده مِن قوَّة النَّفي وتأكيده معنًى وجرسًا.

الغرضُ مِن وضع الاسم الظاهر موضعَ الضَّمير:

الدّلالةُ على كون الاسم الظّاهر جديرًا بالمسند المُخْبَرِ به عنه

كان مقتضى الظّاهر أن يُقال: (إن هو إلّا اختلاق)، ولكنَّ بيان الكافرين الَّذي يحكيه القرآن الكريم عدل عنِ التَّعبير بالضَّمير إلى إعادة اسم الإشارةِ مع قُرْبِ العهدِ به، لتمييز المشارِ إليه واستحضاره في ذهن المخاطَبِ، والدَّلالة على كونِه جديرًا بالمسند المُخْبَر به عنه، فيتأكَّد لدى المخاطَب صِدقُ المشركين في اتِّهامهم الرَّسولَ بالكذب والاختلاق.

بلاغةُ القصرِ بطريق النَّفي والاستثناء:

في جملة: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ قَصَرَ المشركون ما دعاهم إليه الرَّسول من توحيد الألوهيَّةِ على كونِهِ اختلاقًا، قصرًا إضافيًّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 331.

غرضُهُ القلبُ، بطريق النَّفي والاستثناء؛ لتأكيد أنَّ ما دعاهم إليه الرَّسول ما هو إلّا اختلاقٌ وكذبٌ بعد نفي أن يكونَ وحيًا أوحاه اللّٰهُ إليه، وآثروا النَّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لأنَّه يمتازُ عن غيرِه بأنَّه يُستعمل عندما يريد المتكلِّم التَّأثير في المخاطَب وإقناعه بما يوجِّهه إليه؛ لأنَّه ينكرهُ، ويدفعهُ، لا سيَّما إذا خيف عليه اتِّباعُ غيره والاقتداءُ به، ما يدفع المتكلِّم إلى التَّعبير بالنَّفي والاستثناء؛ لأنَّه يكون للأمر الَّذي ينكره المخاطَب، ويشكُّ فيه[1]، فالمشركون يسعونَ إلى إقناعِ بعضِهم وإقناع أتباعِهم بأنَّ دعوة محمَّد إلى التَّوحيد افتراءٌ واختلاقٌ، حتَّى لا ينخدعَ أحدٌ بكلامِه، ويستجيبَ لدعوتِه.

المشركون لا يرونَ دعوةَ الرَّسول إلى التَّوحيد إلّا أنَّها كذبٌ واختلاقٌ

مزيَّةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّا﴾:

التَّعبيرُ بالنَّفي والاستثناء يمنح الأسلوبَ - بجانب القصر - مزيَّة الإثارة والتَّشويق إلى الخبر الذي يأتي بعد ﴿إِلَّا﴾، والموضِّح حقيقة دعوة الرَّسول من وجهةِ نظرِ المشركين، وأنَّها لا تخرج عن الكذبِ والاختلاقِ، فإذا وردَ الخبرُ بعد تطلُّع النُّفوس إليه؛ ثبت فيها، وتمكَّن منها؛ لأنَّ المعنى إذا أُلقي على سبيل التَّشويق، تطلَّعت النَّفسُ إلى معرفتِه على سبيل التَّصريح، فتتوجَّه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا أُلقي تمكَّن فيها فضلَ تمكُّن وكان شعورها به أتمَّ[2].

التَّشويقُ إلى معرفة حقيقةِ الدَّعوة لتثبت في نفوس المتلقّين

الغرضُ مِن تنكير المستثنى:

عبَّر المشركونَ عن المستثنى بقولهم: ﴿ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ نكرةً؛ لِما يفيده التَّنكيرُ من عموم المعنى وشموله كلَّ ما جاء بهِ الرَّسول، ويدخل في ذلك دعوتُهُ إلى التَّوحيد دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا، ويمكن أن يكونَ الغرضُ من التَّنكير أيضًا تعظيمَ هذه الدَّعوة والإشارة إلى بلوغها في الكذب والاختلاق مبلغًا لا نظيرَ له.

المشركون يزعمون أنَّ دعوةَ الرَّسول إلى التَّوحيد اختلاقٌ عظيمٌ لا نظيرَ له

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، ص: 332.
(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: خفاجي: 3/ 196.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاختلاق والافتراء:

الأوَّلُ اختلاقُ ما لا أصل له وتزويرُهُ، والثاني قد يكون للإصلاح والإفساد

الأوَّل يدلُّ على تقديرِ الشَّيْءِ، فكلُّ مقدَّرٍ مخلوقٌ، ويُستعمَلُ في إبداع الشَّيء من غير أصل ولا احتذاء، ومنه: الاختلاقُ، يقال: اختلق الكلام؛ إذا زَوَّرَهُ، وقَدَّرَه[1]، قال تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت: 17]، وقال: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾، والثاني يدلُّ على قطْعِ الجلد للخرز والإصلاح، والإفراءُ للإفساد، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثرُ، واستعملَهُ القرآن في الكذب والشِّرك والظُّلم[2]، ومِنَ البابِ: فُلانٌ يَفري الفَري؛ إذا كانَ يأتي بِالعَجَبِ، كَأَنَّهُ يَقطَعُ الشَّيءَ قَطعًا عَجَبًا[3].

ولمّا كان قصدُ المشركينَ رميَ الرَّسولِ بالكذبِ واتِّهامَهُ بالدَّعوة إلى ما لم يدعُ إليه أحدٌ مِن قبلهِ؛ كان التَّعبيرُ بـ (الاختلاق) أنسبَ لذلك، وأدلَّ عليه من (الافتراء)، الذي يمكن أن يكونَ غرضُه الإصلاحَ والسَّير على منهاج السّابقين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (فرى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فرى).

﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ٨﴾ [ص: 8]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بيانُ سببِ اتِّهام المشركين لرسولِ الله بالسِّحر والكذب ورفض دعوته إلى التَّوحيد

بعد أن بيَّنت الآياتُ السابقةُ تعجُّبَ المشركين مِن كونِ الرَّسول واحدًا منهم، وذكرت مقالتَهم في أمْرِ التَّوحيد الَّذي دعاهم إليه رسولُ اللَّه ﷺ؛ ناسبَ أن تبيِّنَ هذه الآيةُ السَّببَ الحقيقيَّ الذي دفعهم إلى اتِّهام الرَّسول بالسِّحر والكذب، ورفْضِ دعوتِهِ إلى توحيد اللَّه، وهو الحقدُ والحسد وإنكارُ أن يختصَّ اللَّه تعالى رسولَهُ بالرِّسالة، دون أشرافِهم ورؤسائِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ - ﴿ذِكۡرِيۚ﴾: (ذكر): ذَكَرتُ الشَّيءَ، خِلافُ نَسيتُه، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيهِ الذِّكرُ بِاللِّسانِ، يَقولونَ: اجعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، أي: لا تَنْسَهُ[2]، وأصل الذِّكر: القوَّة[3]، تارة يُقال، ويراد به هيئةٌ للنَّفس بها يُمَكِّنُ الإنسانُ أن يحفظَ ما يقتنيه من المعرفةِ، وتارة يُقال لحضور الشَّيء: القلبُ أو القولُ[4]، يقول العسكريُّ: "والذِّكر بالقلب يرجع إلى القوَّةِ؛ لأنَّ الشَّيء يثبت في القلبِ مع الذِّكر، فكان له قوَّة، والذِّكر باللِّسان شبيهٌ بذلك، ويأتي في القرآنِ لمعانٍ كثيرةٍ منها: الوحيُ، قال تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾"[5]، وقال أيضًا: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 134، والزمخشري، الكشاف: 4/ 72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 221.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (ذكر).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 223.

لو ذاقَ المشركونَ شيئًا مِنْ عذابِ اللهِ؛ لتيقَّنوا بأنَّ الرَّسولَ حقٌّ والقرآنَ حقٌّ

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

توضِّح الآيةُ الكريمةُ سببَ معاداةِ المشركين لرسول الله واتِّخاذهم شِقًّا غير شِقِّه، وانضوائهم تحت لواءٍ غيرِ لوائِه، وهو إنكارُهم أن يكونَ الله تعالى قد اختصَّه بالرِّسالة دونَهم، واصطفاه لاستقبال وحي اللهِ إلى أهل الأرضِ من بين سادتِهم ورؤسائِهم، كما توضِّحُ الآيةُ أنَّهم لم يكتفوا بالشَّكِّ في رسول الله، وإنما شكّوا كذلك في القرآن الذي أيَّدَهُ الله تعالى به، والسَّبب في ذلك أنَّهم لم يذوقوا شيئًا من عذابِ الله، ولو أنَّهم ذاقوه؛ لزال حسدُهم وشكُّهم، وتيقَّنوا بأنَّك على الحقِّ المبين، وهم على الباطل الَّذي لا يحوم حولَهُ حقٌّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتِها:

الفصلُ للاختلاف بين الخبريَّة والإنشائيَّة

يجوز أن يكونَ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ مِن كلام عموم الكافرين المحكيِّ بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾، فيكون متَّصلًا بقوله: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ ويكون قوله: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ بيانًا لجملة ﴿كَذَّابٌ﴾؛ لأنَّ تقديره: هذا كذاب؛ إذ هو خبر ثانٍ لـ (كان)، ولكونِه بيانًا للَّذي قبلَهُ لم يعطف عليه، ويكون ما بينهما مِن قوله: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ إلى قوله: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ اعتراضًا بين جملتي البيان.

ويجوز أن يكونَ من تمام كلام الملأِ، واستُغني به عن بيان جملةِ كذاب؛ لأنَّ نُطقَ الملأ به كافٍ في قول الآخرين بموجبه، فاستغنوا عن بيان جملةِ كذّاب[2].

الغرضُ مِن الاستفهام في قوله: ﴿أَءُنزِلَ﴾:

الهمزةُ في قوله: ﴿أَءُنزِلَ﴾ للاستِفهام الإنكاري[3]، الدّال على

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 135، 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 213.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 213.

إنكار المشركين اختصاصَ رسول اللّه بإنزال الذِّكر عليه دونهم، وأنَّهم ينفون اصطفاء محمَّد بإنزال الوحي عليه، دونَ أشرافِهم ورؤسائهم، وفي هذا تنبيهٌ إلى أنَّ سببَ كونِهم في شقاقٍ دائمٍ مع الرَّسول هو الإنكار والنَّفي الدّالُّ على تغلغل الحسد والحقد عليه في قلوبِهم.

الـكـافـرونَ ينكرون اصطفاءَ الرَّسول للرِّسالة دون رؤسائِهم وأشرافِهم

الغرضُ من بناء فعلِ الإنزالِ لِما لم يُسَمَّ فاعلُهُ:

جاء فعلُ الإنزالِ فيما يُحكى مِن كلام المشركين مبنيًّا لِما لم يُسمَّ فاعلُه، فقالوا: ﴿أَءُنزِلَ﴾، ولم يقولوا: (أأَنْزَلَ اللّهُ عليه..)؛ لأنَّ فاعلَ الإنزال معلومٌ معروفٌ، وهو اللّه ﷻ، وعندما يكون الفاعلُ معروفًا فلا حاجة لدى المتكلِّم للتَّصريح به، وفيه دلالةٌ على أنَّ إنزالَ الوحي من الأمور المعروفة بدهيًّا عن اللّهِ تعالى؛ إذ لا قدرةَ لأحدٍ غيره على فعل ذلك، ويمكنُ أن يكونَ الغرض من بناءِ الفعل لغيرِ الفاعل الإشارةِ إلى أنَّ اهتمامَ الكافرين منصبٌّ على إنكار الإنزال نفسِه، واختيار محمَّد رسولًا دون أيِّ واحد منهم.

إنزالُ الوحي من الأمورِ البدهيَّة المعروفة عن الله تعالى

دلالةُ التَّعبيرِ عن الرَّسول بالضَّمير:

عبَّر المشركون عن الرَّسولِ ﷺ بالضَّمير في قولهم: ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ جريًا على عادة الكفّار مع رُسُلِ اللّه في التَّقليل مِنْ شأنهم، والحطِّ من قدرهم، ليتسنَّى لهم إنكارُ ما اختصَّهم اللّهُ تعالى به مِن شرف الرِّسالة ومهمَّة البلاغ، "التَّي يعتقد الكافرون أنَّها مهمَّة شريفة، لا يقوم بها إلّا الأشرافُ"[1]، وعبَّروا بحرف الاستعلاء إشارةً إلى أنَّ مثلَ هذا الَّذي يذكره لا يقولُهُ إلّا مَن غُلِبَ على عقلهِ[2].

عــادةُ الـكُـفّـار مع رُسُـل الله الـتَّـقـلـيـلُ مِـنْ شأنهم والحطُّ مِنْ قدرهم

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور على نائب الفاعل:

في تقديم الجارِّ والمجرور: ﴿عَلَيۡهِ﴾ على نائب الفاعل: ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 369.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 335.

الكُفّارُ مهتمّون بنفي اختصاص الرَّسول بإنزال الـوحـي عليه دونَ غـيره مِـنَ الأشراف

دلالةٌ على اهتمام الكافرين بنفي وإنكار أنْ يكونَ الإنزالُ على رسولِ اللّه دون غيره من أشراف مكَّة أو الطّائف، بدليلِ ما يحكيه القرآنُ عنهم في قولِه تَعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، ولم يُريدوا بِهَذا الإنكارِ تَجويزَ أصلِ الرِّسالةِ عَنِ اللّهِ، وإنّما مُرادُهُمُ استِقصاءُ الاستِبعادِ، فإنَّهم أنكَروا أصلَ الرِّسالةِ، كَما ورد في قولِهِ: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ وغَيرِهِ مِنَ الآياتِ[1].

الغرضُ مِن تعريف نائبِ الفاعلِ باللّام:

الكفّارُ يُـقِـرّونَ بـأنَّ الـقـرآنَ وحـيٌ مِـنْ عند الـلـه، ولكنَّهم يُـعـانـدون ويستكبرون

جاء نائبُ الفاعل: ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ مُعَرَّفًا بـ(ال) الَّتي تفيد العهدَ؛ للدَّلالة على أنَّ المشركين ينكرون إنزال القرآن الَّذي عهدوا الرَّسولَ يتلوه على مسامعهم، ويقرؤُهُ عليهم ليلًا ونهارًا، ما يعني أنَّهم يُقِرّون بأنَّه وحيٌ من عند اللّه، ولكنَّهم يُعاندون، ويستكبرون، وآثروا التَّعبيرَ عن القرآن بـ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ دون غيرِهِ مِنَ الأسماءِ؛ لذِكْرِه أحوالَهم، وحديثِه عن شؤونِهم.

معنى حرف الجرِّ ودلالته:

الكفّارُ يَدَّعون أنَّ محمَّدًا ليس أهـلًا لـلـنُّـبـوَّة؛ لأنَّـه لـيس مِن أشرف النّاس

﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الابتداء، وفي تعبيرِهم بِهِ تأكيدٌ لكون محمَّدٍ واحدًا منهم، وليس شريفًا مِن أشرافهم، أو مَلَكًا من الملائكة، حتَّى يكون أهلًا للنُّبوَّة التي هي "أشرفُ المَراتِبِ، فوجبَ ألّا تَحصُلَ إلّا لأشرفِ النّاسِ، ومحمَّد لَيسَ أشرفَ النّاسِ، فوجبَ ألّا تحصلَ له النُّبوَّة"[2]، كما يدَّعون.

سرُّ تقييد الفعل بـ ﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾:

جاء فعلُ الإنزالِ مُقَيَّدًا بقولهم: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مَناط إنكارِ المشركين هو كونُ الرَّسول ﴿مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ الَّذي هوَ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 213، 214.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 369.

مَوْضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ عَلَيهِ، والمعنى: كيف يدَّعي محمَّد أنَّه قد أنزل عليه القرآنَ مِن بيننا، ونحن السّادة الأغنياءُ العظماء، وهو دوننا في ذلك؟ إنَّنا ننكر، وننفي دعواه النُّبوَّة مِن بيننا[1].

سببُ إنكارِ الكافرين دعوةَ الرَّسول كونُهُ واحدًا مِن بينهم

معنى ﴿بَلۡ﴾ ودلالته:

التَّنبيهُ إلى حقيقة المشركين، وتسليةُ الرَّسول عمّا أصابه مِن أذاهم

قولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ﴾، يقول فيه ابن عاشور: يَجوزُ أن يَكونَ جَوابًا عَن قَولِهِم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾، أي: لَيسَ قَصدُهُمُ الطَّعنَ في اختِصاصِكَ بالرِّسالَةِ، ولَكِنَّهُم شاكّونَ في أَصْلِ إنْزالِه، فَتَكونُ ﴿بَلۡ﴾ إضرابًا إبطاليًّا تكذيبًا لِما يَظْهَرُ مِن إنكارِهم إنزالَ الذِّكْرِ عَليهِ مِن بَينِهِم عَلى ما تَقَدَّمَ، أي: إنَّما قَصدُهُمُ الشَّكُّ في أنَّ اللَّه يوحي إلى أحَدٍ بِالرِّسالَةِ، فَيَكونُ مَعْنَى ﴿فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾: شَكًّا مِن وُقوعِه، ويَجوزُ أنْ يَكونَ انتِقالًا مِن خَبَرٍ عَنهُم إلى خَبَرٍ آخَرَ، فيكونَ استِئنافًا، وتكونَ ﴿بَلۡ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ، والمَعنَى: وهُم في شَكٍّ مِن ذِكري، أي: في شَكٍّ مِن كُنْهِ القُرآنِ، فَمَرَّةً يَقولونَ: افتَراهُ، ومَرَّةً يَقولونَ: شِعْرٌ، ومَرَّةً يقولون: سِحْرٌ، ومَرَّةً يقولون: أساطيرُ الأوَّلينَ، ومَرَّةً: قَولُ كاهِنٍ، فالمُرادُ بِالشَّكِّ: حَقيقَتُه، أي: التَّردُّدُ في العِلم[2].

معنى الحرف ﴿فِي﴾ ودلالته:

الشَّكُّ يحيط بالمشركين إحاطة الظَّرف بالمظروف

﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي شَكّٖ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد الظَّرفيَّة المجازية، فدلَّ على استعارة خفيَّة، وتشبيه جميل؛ إذ يساعد التَّعبيرُ به في تصوير الشَّكِّ على أنَّه حفرةٌ عميقةٌ تردَّى فيها المشركون، وصاروا لا يستطيعون الخروجَ منها، حتَّى غدا يحيط بهم إحاطةَ الظَّرف بالمظروف[3]، ما يدلُّ على شدَّة تمكُّنِه منهم، وعدم قدرتهم على التَّخلُّص منه.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 134.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 214.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 214.

المشركون وقعوا في شكٍّ لا يُقادر قدرُه، ولا تُحيط العبارةُ بوصفِه

الغرضُ من تنكير الاسم المجرورِ:

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالاسم المجرور: ﴿شَكٍّ﴾ نكرةً منوَّنًا؛ لما يفيده التَّنكير والتَّنوين من تعظيم الشَّكِّ وتفخيمه معنًى وجرسًا، والمعنى: أنَّهم وقعوا في شكٍّ لا يُقادر قدْرُه، ولا تُحيط العبارةُ بوصفه، ومَن كان هذا حالَهُ؛ فليس ثمَّة ريبٌ في أنَّه لن يؤمنَ بالرَّسول، ولن يؤمنَ بالوحي الَّذي اصطفاه الله تعالى لتلقّيه، وسيأتي لذلك بالحُجَجِ الواهية والبراهين الكاذبة، وسيكون دائمًا في شِقٍّ غيرِ شِقِّ الله ورسولِه.

معنى حرف الجر ﴿مِّن﴾ ودلالته:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ ابتدائيَّةٌ لِكونِ الشَّكِّ صِفَةً لَهُم، أي: نَشَأَ لَهُمُ الشَّكُّ في شَأْنِ ذِكْري، أي: مِن جانِبِ نَفيِ وقوعِهِ، أو في جانِبِ ما يَصِفونَهُ بِهِ[1]، مِن أنَّه شعرُ شاعرٍ، أو سحرُ ساحرٍ، أو أساطيرُ الأوَّلين، أو: افتراه محمَّد، كما سبق بيانُهُ.

تفخيمُ شأن القرآن وبيان أنَّه مِن عند الله تعالى

دلالةُ التَّعبير عن القرآن بالاسم الظاهر:

كان مُقتضى الظاهر أن يُقال: (أأنزلَ عليه الذِّكر مِن بيننا بل هم في شكٍّ منه)؛ إذ المقصودُ بالذِّكر في الموضعين: كتابُ اللهِ تعالى، ولكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ عدل عن التَّعبير بالضَّمير إلى إعادة التَّعبير بوصف الذِّكر، فقال: ﴿مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ تفخيمًا لشأنه، و"تَوَصُّلًا إلى التَّنْويهِ بِهِ، ببيان أنَّهُ مِن عِندِ اللهِ ﷻ"[2].

التَّشنيعُ بالمشركين، وتقبيحُ صنيعِهم، وبيان أنَّهم شكّوا فيما لا ينبغي أن يَطولَهُ شكٌّ

الغرضُ من إضافة الذِّكر إلى ياء المتكلِّم:

جاء البيانُ القرآنيُّ بإضافة الذِّكر إلى ضمير الحقِّ سبحانه في قوله: ﴿مِّن ذِكۡرِيۚ﴾، لتقبيح صنيع المشركين، والتَّشنيع بهم، ولتسلية النَّبيِّ ﷺ، وتخفيف ما يلاقيه مِن أذاهم، ببيان أنَّهم لم يكتفوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 214.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 214.

بالشَّكِّ في اختصاصه بالرِّسالة دونهم، فزادوا عليه الشَّكَّ فيما لا ينبغي أن يَتَطَرَّقَ إليه شكٌّ، فشكّوا في الذِّكر الَّذي أنزله اللّهُ إليه، وأيّده به، والَّذي أعجزهم ببيانه السّاحر، وقهرهم بنظمِهِ الفريد.

سرُّ تتابع الإضرابِ في قوله: ﴿بَل لَّمَّا﴾:

سببُ جرأةِ المشركين على الشِّقاق إمهالُ الله لهم، وتأخُّرُ نزول العذاب بهم

أتبَعَ النَّظمُ الكريمُ الإضرابَ الأوَّلَ بإضرابٍ آخَرَ في قوله: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾؛ ليُبَيِّنَ أنَّ الَّذي جَرَّأَهُم عَلَى هَذا الشِّقاقِ أنَّهُم لَمّا تأخَّرَ حُلولُ العَذابِ بِهِم؛ ظَنّوا وعيدَهُ كاذِبًا، فَأخَذوا في البَذاءَةِ والاستِهزاءِ، ولو ذاقوه؛ لأَلْقَمَتْ أفواهَهُمُ الحَجَرُ[1].

معنى النَّفي بـ ﴿لَّمَّا﴾ ودلالته:

تهديدُ الكافرين بقربِ نزولِ العذاب بهم إن هم استمرّوا على ما هم عليه

﴿لَّمَّا﴾ حرفُ نَفيٍ بمعنى (لَمْ) إلّا أنَّ في ﴿لَّمَّا﴾ خُصوصيَّةً، وهيَ أنَّ المنفيَّ بها متَّصِلٌ الانتِفاءِ إلى وقتِ التَّكَلُّمِ بِخِلافِ (لَمْ)؛ فلِذلِكَ كانَ النَّفيُ بـ ﴿لَّمَّا﴾ قد يُفْهَمُ منهُ تَرَقُّبُ حُصولِ المَنفيِّ بَعدَ ذَلِكَ[2]، ففي إيثارِ التَّعبيرِ بِهِ هنا تهديدٌ للكافرين بقُربِ نزولِ العذابِ بهم إن هم استمرّوا على ما هم عليهِ، ومعنى الجملة: أنَّ السَّببَ الذي دفع هؤلاء إلى عدم التَّذكُّر بالقرآن ومشاقَّةِ الرَّسول ﷺ، ورفْضِ دعوتِه إلى التَّوحيد، وإنكارِ رسالته، والشَّكِّ في الوحي النّازل إليه، هو إمهالُ اللّهِ تعالى لهم، وعدمُ أخْذِهِم بذنوبِهم، ولكنَّ العذابَ لَنْ يتأخَّر عنهم كثيرًا، إن هم استمرّوا على ما هُم فيه مِن حَسَدٍ وشَكٍّ وإنكارٍ.

نوعُ المجازِ وبلاغتُهُ في قولِهِ: ﴿يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾:

القرآنُ يُخَوِّفُ المشركين بتصوير العذابِ بالطَّعام، وتصويرِ نزولِهِ بالتَّذوُّق

في التَّعبير بالفعل: ﴿يَذُوقُواْ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّه فيها نزولُ العذاب وحلولُه بالكافرين بالتَّذَوُّق، بجامع الإحساس والشُّعور في كلٍّ، ثمَّ حُذِفَ المشبَّهُ، واستُعير التَّذوُّقُ لنزول العذاب، واشتُقَّ منه ﴿يَذُوقُواْ﴾ بمعنى: يُعذَّبوا، ويمكن أن تكونَ الاستعارةُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 214.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 214، والمرادي، الجنى الداني: 23/ 215.

مكنيَّةً في كلمة: ﴿عَذَابِ﴾، بتشبيهه بالطَّعام الذي يتذوَّقه الإنسانُ، ثم حُذِفَ المشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بشيءٍ مِن لوازمه، وهو التَّذوُّق، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، وأيًّا كان نوعُ الاستعارة؛ ففي التَّعبير نوعٌ من التَّهديد والتَّخويف المفضي إلى العظةِ والاعتبار والرُّجوع عن الحقدِ والحسدِ والشَّكِّ الدافع إلى تكذيب رسولِ اللّه، ورفْضِ ما دعاهم إليه، والحثِّ على الإيمان به، وبالقرآن المُنَزَّلِ عليه.

الغرضُ مِن إضافة المفعولِ به إلى ياء المتكلِّم:

اللهُ تعالى هو مُقَدِّرُ العذابِ والقاضي به على الكافرين

أضافَ النَّظمُ كلمةَ ﴿عَذَابِ﴾ إلَى ياءِ المُتَكلِّم، لتفخيم العذاب وتهويله، وللدَّلالةِ على اختِصاصِهِ بِاللّهِ تعالى؛ إذ هو مقدِّره وقاضٍ به عليهم ولوقوعِهِ على حالةٍ غير جاريةٍ على المعتاد؛ إذ الشَّأن أن يستأصلَ الجيش القويُّ الجيشَ القليلَ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 215.

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠﴾ [ص: 9 - 10]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

إثباتُ عجزِ المشركين عن اختيارِ مَن يشاؤونَ لتلقّي وحي الله

بعدَ أن ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ السَّبب في شقاق الكافرين لرسول اللّه وإنكارِهم الوحي المُنَزَّلَ عليه دونهم، هو إمهالُ اللّه تعالى لهم، وتأخيرُ نزول العذاب بهم؛ ناسب في هاتين الآيتين أن يُنْكِر اعتراضَهم على اختيار نبيِّه ﷺ للرِّسالة، بأسلوب توبيخيٍّ تهكُّميٍّ، ينفي امتلاكَهم خزائنَ رحمة اللّه العزيز الوهّاب، وينفي قدرتَهم على التَّصَرُّف في شيء من ملكوت السَّماوات والأرض وما بينهما، بغرضِ إثبات عجزِهم عن أنْ يختاروا للنُّبوَّة مَنْ يشاؤونَ، ويتركوا مَنْ لا يَرضَون؛ لأنَّ ذلك مِن خصائصِ اللّهِ تعالى وحدَه، لا شريكَ له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُ﴾: (خزن) أصلٌ يَدُلُّ عَلى صيانَةِ الشَّيءِ، يُقالُ: خَزَنْتُ الدِّرْهَمَ وغَيْرَهُ خَزْنًا[2]، وهو: حفظُ الشَّيءِ في الخِزانَة، ثمَّ يعبِّر به عن كلِّ حِفظٍ، كحفظِ السِّرِّ ونحوه، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [المنافقون: 7]؛ إشارةً إلى قدرتِه على ما يريد إيجادَهُ، وقوله تعالى: ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر: 22]، أي: حافظين له بالشُّكر[3]، وقوله: ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ يعني: لَيسوا مُتَصَرِّفينَ في خَزائِنِ الرَّحمَةِ، فيعطون ما شاؤوا، ويمنعون مَنْ شاؤوا ما شاؤوا[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 215، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 136.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).

(3) الراغب، مفردات القرآن: (خزن).

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.

2) ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾: الهِبَةُ: أن تجعلَ مُلكك لغيرِكَ بدون عوضٍ، يقال: وَهَبْتُهُ هِبَةً ومَوْهِبَةً ومَوْهِبًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، وقال أيضًا: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ﴾ [ص: 30]، ويوصف اللّه بالواهِبِ والوَهّابِ بمعنى: أنَّه يعطي كلًّا على استحقاقِه، قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ﴾ [إبراهيم: 39][1].

2) ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾: (رقي) أصلٌ يَدُلُّ على الصُّعودِ، ومنه قَولُكَ: رَقيتُ في السُّلَّمِ أرقَى رُقيًّا، قالَ تعالى: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾ [الإسراء: 93]، وقال: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾[2]، أي: ليصعدوا سببًا بعد سببٍ[3].

4) ﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: السَّبَبُ (بالتَّحريك): القويُّ الطَّويل من الحِبال، يمتدُّ في مهوى البِئرِ إلى الماءِ، ولا يُسَمَّى سببًا حتَّى يُصعَد بِهِ[4]، فأصلُهُ الحَبلُ، ثمَّ قيل لكلِّ شيءٍ وصلتَ به إلى موضع أو حاجة تريدُها: سببٌ، تقول: فلانٌ سببي إليك، أي: وصلني، وما بيني وبينك سببٌ، أي: وصلة ورحم، قال تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ يعني: أبوابَ السَّماء، ويجوز أن يكونَ في الحبالِ وغيرِها ممّا يُتَوصَّلُ به إلى الموضعِ العالي[5].

المَعنى الإجماليُّ:

عَجْزُ المشركين عن القيام بأيِّ شيءٍ من أفعال اللّه برهانٌ على عجزِهم عن اختيار مَنْ يُحبّون للرِّسالة

تنكرُ الآيةُ الأولى على الكُفّار اعتراضَهم على اصطفاءِ اللّه تعالى نبيَّه محمَّدًا للرِّسالة دونهم، نافيةً أنْ يملكوا خزائنَ رحمةِ اللّه، حتَّى يُعطوا منها مَنْ يشاؤون، ويمنعوها عمَّن يشاؤون، ويتخيَّروا للنُّبوَّة صناديدهم، ويترفَّعوا بها عن رسولِ اللّه، مؤكِّدةً أنَّ المالكَ لذلك

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (وهب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، مفردات القرآن: (رقى).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (سبب).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 252.

كلِّه هو اللّهُ العزيز الوهّاب، وتأتي الآيةُ الثّانيةُ لتأكيد ما أفادته الآيةُ الأولى مِنْ عدم ملكيَّتهم شيئًا مِنْ خزائنِ اللّه، ومُضيفةً إليه أنَّهم - أيضًا - لا يملكون أيَّ شيءٍ مِن العوالم العلويَّة أو السُّفليَّة، وإنَّما هم خلقٌ صغير مِن خلق اللّه العظيم، ومِن ثمَّ تطالبهم - بقصد التَّعجيز - أن يستخدموا كُلَّ ما لديهم مِن أسباب تُمَكِّنُهم مِنَ التَّصرُّف في ملكوت السَّماء والأرض إنْ كانوا يستطيعون[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَمۡ﴾ ودلالتها في أوَّل الآية:

إبـطـالُ قـدرة المـشـركـين على التَّصرُّف في أيٍّ مِن خزائن رحمة الله

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ﴾ مُنْقَطِعَةٌ، وهيَ أيضًا لِلإضرابِ الانتقاليِّ، وتُشْعِرُ بِاستِفهام بَعدَها، غرضُه الإنكارُ والتَّوبيخُ والنَّفي، إنكارًا لِقَولِهِم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾[2]، والمعنى: إنَّ هؤلاءِ الكُفَّار لَيسوا مُتَصرِّفينَ في خَزائِنِ الرَّحْمَةِ، فيُعطون مَن شاؤوا، ويمنعون مَنْ شاؤوا ما شاؤوا، ويَصطَفونَ للرِّسالةِ مَنْ أرادوا[3].

غرضُ تقديم الظَّرف ﴿عِندَهُمۡ﴾:

الاهـتـمـامُ بنفي العنديَّة؛ لأنَّها مـنـاطُ الإنـكـار والتَّوبيخ

قَدَّمَ النَّظْمُ الظَّرفَ على المبتدَأ، فقال: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾، ولم يقل: (أم خزائن رحمة ربِّك عندهم)؛ للاهتمام بنفي العنديَّة؛ إذ هيَ مَناطُ الإنكارِ والتَّوبيخ، كَقَولِه: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: 32]، والمعنى: لَيستْ خَزائنُ فَضْلِ اللّهِ تعالى عِندَهُم، فيتصدَّونَ لحرمانِ مَنْ يَشاؤونَ حِرْمانَهُ مِنْ مَواهِبِ الخَيرِ، فإنَّ المَواهِبَ مِنَ اللّهِ يُصيبُ بِها مَن يَشاءُ، فَهوَ يَختارُ لِلنُّبوَّةِ مَن يَصطَفيهِ، ولَيسَ الاختيارُ لَهُم، فيجعلون مَنْ لَمْ يُقَدِّموهُ عَليهم في دينِهِم غَيْرَ أهلٍ لأَنْ يَخْتارَهُ اللّهُ[4].

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 136، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 216.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 215.

الغرضُ مِن إضافةِ الظَّرف إلى ضميرِ الغائب:

جيءَ بالظَّرف مضافًا إلى ضمير الغائب العائد إلى المشركينَ في: ﴿عِندَهُمْ﴾، لنفي اختصاص المشركين بامتلاكِ أيِّ شيءٍ من خزائن رحمةِ اللّه سبحانه، ونفي قدرتِهم على التَّصرُّف في أيِّ شيءٍ منها بالإعطاء أو المنع، ويدخل في ذلك أمرُ الرِّسالة دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا، وأوثِرَ التَّعبيرُ عنهم بضمير الغائب دونَ الاسم الظّاهر أو ضمير الخطاب؛ استهانةً بهم وتحقيرًا لشأنهم.

التَّعبيرُ عن المشركين بضمير الغائب فيه استهانةٌ بهم وتحقيرٌ لشأنهم

بلاغةُ الاستعارةِ في الآية:

في قوله تعالى: ﴿خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّهَتْ فيها رَحْمَةُ اللّهِ بِالشَّيءِ النَّفيسِ المَخزونِ، الَّذي تَطمَحُ إلَيهِ النُّفوسُ، في أنَّهُ لا يُعْطَى إلّا بِمَشيئَةِ خازِنِه، ثم حُذِفَ المشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو الخزائنُ، عَلى سَبيلِ الاستِعارَةِ المَكنيَّةِ، الَّتي تبيِّن قيمةَ الرَّحمة ومكانتها، وأنَّ اللّه تعالى لا يعطيها إلّا لمَنْ يستحقُّ مِنْ عبادِه، فلا مجال فيها للأهواء، ولا أثر فيها لعمل النُّفوس، وإثباتُ الخَزائِنِ: تَخْييلٌ مِثْلَ إثباتِ الأظْفارِ لِلْمُنْيَةِ[1]، والتَّعبيرُ بها جمعًا للإشارةِ إلى أنَّها غيرُ متناهيةٍ[2].

رحمةُ اللهِ كشيءٍ نفيسٍ مخزونٍ تطمح النُّفوسُ لنوالِه، وتهفو القلوبُ لتحصيلِه

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّحمة مضافةً، وسرُّ إيثار وصف الرُّبوبيَّة:

في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ أُضيفت الرَّحمةُ إلى اسم الجلالةِ؛ تفخيمًا لها، وتعظيمًا لشأنها، وللدَّلالة على اختصاص اللّه تعالى بها، فليس لأحد أيُّ نوعٍ مِنَ التَّصرُّف فيها، "فالإضافَةُ عَلى مَعنَى لامِ الاختِصاصِ، والعُدولُ عَن اسمِ الجَلالَةِ إلى وصف الرُّبوبيَّة؛ لأنَّ لَهُ مَزيدَ مُناسَبَةٍ لِلغَرَضِ الَّذي ورد الكَلامُ فيهِ؛ إيماءً إلى أنَّ تَشْريفَ اللّه تعالى رسولَهُ بِالنُّبوَّةِ مِنْ آثارِ صِفَةِ رُبوبيَّتِهِ لَهُ؛ لأنَّ وصْفَ الرَّبِّ

النُّبوَّةُ عطيَّةٌ مِنَ الله يتفضَّلُ بها على مَن يَشاء مِنْ عبادِهِ المُصْطَفَيْنَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 216.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 370.

مُؤْذِنٌ بالعِنايَةِ والإبلاغِ إلى الكَمالِ"[1]، ما يدلُّ على أنَّ النُّبوَّة عطيَّةٌ مِنَ اللّه ﷻ يتفضَّلُ بها على مَن يَشاء مِنْ عبادِهِ المُصْطَفينَ[2].

الغرضُ مِن إضافةِ (رَبِّ) إلى ضمير الخطاب:

الرَّسولُ ﷺ جديرٌ بالنُّبوَّة مُستحِقٌّ لها

في إضافة اسم الرَّبِّ ﷻ إلى ضمير الخطاب العائد إلى النَّبيِّ ﷺ في قوله: ﴿رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ تشريفٌ للرَّسول وتكريمٌ وتأكيدٌ؛ لأنَّ اختيارَهُ للنُّبوَّة مؤذنٌ بعناية اللّه به، وإبلاغه درجةَ الكمالِ، وإشارةٌ إلى جدارتِه بها واستحقاقه لها.

الغرضُ مِن وصفِ اسم الجلالة بـ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾:

لا بدَّ فيمن يَهَبُ النُّبوَّةَ أنْ يكون عزيزًا وهّابًا

وصفَ البيانُ اسمَ الجلالة (رَبِّ) بـ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ الدّال على: أنَّ اللّه تعالى لايغلبه شيء؛ لِإبْطالِ تَدَخُّلِهِمْ في تَصَرُّفاتِه، كما وُصِفَ بـ ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ الدالِّ على كثرةِ مواهبِهِ وعطاياه؛ لإبطالِ جَعْلِهِمُ الحرمانَ مِنَ الخَيْرِ تابِعًا لِرَغباتِهِم دونَ مَوادَّةِ اللّهِ تَعالى[3]، وتَقريرُ ذلك أنَّ مَنْصِبَ النُّبوَّةِ مَنْصِبٌ عَظيمٌ، ودَرَجَةٌ عاليَةٌ، والقادِرُ عَلى هِبَتِها يَجِبُ أن يَكونَ (عَزيزًا)، أي: كامِلَ القُدرَةِ، و(وَهّابًا)، أي: عَظيمَ الجودِ، وذَلِكَ هو اللّهُ سبحانه، وإذا كانَ اللّهُ تَعالَى كامِلَ القُدرَةِ وكامِلَ الجودِ؛ لَمْ يَتَوَقَّفْ كَوْنُهُ واهِبًا لِهَذِهِ النِّعْمَةِ عَلَى كَوْنِ المَوهوبِ مِنهُ غَنيًّا أو فَقيرًا، ولَم يَختَلِفْ ذَلِكَ أيضًا بِسَبَبِ أنَّ أعداءَهُ يُحِبّونَهُ، أو يَكْرَهونَهُ[4].

معنى ﴿أَمْ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ﴾:

رُدود القرآن تأتي على جميع مزاعم الكافرين وتُخْرِسُ ألسِنَتَهم

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ﴾ حرفُ إضرابٍ ينتقل به النَّظمُ إلَى الرَّدِّ الَّذي يَأْتي عَلى جَميعِ مَزاعِمِ الكافرين، ويَشْمَلُ بِإجْمالِهِ جَميعَ النُّقوضِ التَّفْصيليَّةِ لِمَزاعِمِهِمْ بِكَلِمَةٍ جامِعَةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 216.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 216.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 216.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 370.

كالحَوْصَلَة، فَيُشْبِهُ التَّذْييلَ لِما يَتَضَمَّنُهُ مِنْ عُمومِ المُلْك، وعُمومِ الأماكِنِ المُقْتَضي عُمومَ العِلم، وعُمومَ التَّصَرُّف، ينْعَى عَلَيهِم قَولُهُم في المُغَيَّباتِ بلا عِلْمٍ، وتَحَكُّمُهُم في مَراتِبِ المَوجوداتِ بِدونِ قُدرَةٍ ولا غِنًى[1].

التَّهكُّمُ والإنكار لقُدرة الكافرين على التَّصرُّف في شيءٍ مِن ملكوت السَّماء والأرض

و﴿أَمْ﴾ تُشعِر أيضًا باستفهامٍ إنكاريٍّ تهكُّميٍّ، ينفي أن يكونَ للمشركين شيءٌ من القدرة على التَّصرُّف في ملكوت السَّماء والأرض، والمعنى: هل لهم شيءٌ من ملك السَّماء والأرض؟ وإن كان لهم شيء؛ فليصعدوا في الطُّرق التي توصِّلهم إلى ما نملكُهُ حتَّى يستولوا عليه، ويدبِّروا أمره، ويُنزلوا الوحي على مَن يختارونه للنُّبوَّة من أشرافهم[2].

الغرضُ مِن تقديم الجار والمجرور:

الكافرون غيرُ مختصِّين بامتلاك شيءٍ في السَّموات والأرض

قدَّم النَّظمُ الجار والمجرور: ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ، فقال: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولم يقل: (أمْ ملكُ السَّماوات والأرض وما بينهما لهم)؛ لأنَّ الاهتمامَ منصبٌّ على نفي اختصاصهم بامتلاكِ شيءٍ في السَّماوات والأرض، ونفي قدرتهم على التَّصرُّف فيه؛ إذ هو مناطُ التَّهكُّم والإنكار، والمعنى: إنْ كانَ لَهُم شَيءٌ مِن ذَلِكَ؛ فَلْيَصعَدوا في الأسبابِ، وليمنحوا النُّبوَّة مَنْ يشاؤون[3].

الغرضُ مِن إضافة ﴿مُّلْكُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أضيف الـ﴿مُّلْكُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ ليكونَ النَّفيُ والتَّهكُّم متوجِّهًا إلى اختصاص الكافرين بالتَّصرُّف فيهما، والقدرة على تصريفِ أمورِهما، فالإضافةُ على معنى لام الاختصاصِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 216.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 136، والزمخشري، الكشاف: 4/ 74.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 140.

بلاغةُ الطِّباق بين: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

مَنْ يملكُ القدرةَ على تصريف السَّماوات والأرض يملك القدرة على اختيارِ الرَّسول

بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ طباقٌ يدلُّ على قدرةِ مَنْ يملكهُما، ويستطيعُ تصريفَ أمورِهما على معرفةِ حَقائِقِ الأشياءِ، والتَّكلُّم عَن عِلم في كُنْهِ الإلَهِ وصِفاتِهِ، وفي إمكانِ البَعْث وعَدَمِه، وفي صِدق الرَّسول أو ضِدِّهِ، وأن يفتحَ خَزائِنَ الرَّحمَةِ، فَيُفيضَ مِنها عَلى مَنْ يُعْجِبُهُ، ويَحْرِم مَنْ لا يَرْمُقُهُ بِعَيْنِ استِحسانٍ[1].

سرُّ التَّرتيبِ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾:

ترتيبٌ تنازليٌّ يُفضي إلى القدرة على هِبَةِ النُّبوَّة ومنعِها

بدأ النَّظمُ بـ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جريًا على الأصل في تقديم الجمعِ على المفردِ، وتقديمِ الأكثرِ على الأقلِّ، ولأنَّ مَنْ مَلَك السَّماوات، وقَدَرَ على تصريفِ أمورِها، كان قادرًا على مُلْكِ الأرض وتصريف أمورِها، ومَنْ مَلَك السَّماوات والأرض، وقدر على تصريف أمورهما، كان قادرًا على امتلاك ما بينهما وتصريف أموره من باب أولى، ومَنْ مَلَك السَّماوات والأرض وما بينهما كان قادرًا على التحكُّم في خزائن رحمة اللّه، وقادرًا على هِبَةِ النُّبوَّة لِمَنْ يشاء ومَنْعِها ممَّنْ يَشاءُ.

الغرضُ من التَّعبير باسم الموصول العام:

اختيارُ ناسٍ للنُّبوَّة وحرمان آخرين من اختصاص ربِّ العالمين

عبَّر النَّظمُ في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ باسم الموصول (ما)؛ لِما يفيده بمعناه ومبناه المنتهي بألف المدِّ مِنَ الدَّلالة على عموم المُلْك لكلِّ الأشياء الموجودة بين السَّماء والأرض، ويدخل فيها اختيارُ ناسٍ للنُّبوَّة وحرمانُ آخرين دخولًا أوَّليًّا برهانيًّا.

معنى الفاءِ ودلالتها في جملة: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾:

الفاءُ في جملة: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ، تقديرُه: إن كان عندهم خزائن رحمتنا، ولهم ملكُ السَّموات والأرض وما بينهما؛

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 217، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.

تَرتُّبُ الارتقاءِ في الأسـبـاب على مُلك السَّماوات والأرض

فليصعدوا في السَّماء[1]، ما يعني: أنَّها تفيد ترتُّب الأمر بالارتقاء في الأسباب على ملك السَّماوات والأرض... وتفيد كذلك مطالبة الكافرين بالإسراع في الارتقاء؛ لأجل الإتيان بالخبرِ الصَّحيح في أمر النُّبوَّة والوحي من السَّماء، طالما أنَّ محمَّدًا يختلِقُهما، ويكذِبُ في ادِّعائه لهما، ولا يخفى ما فيه مِنَ التَّعجيز والتَّحدّي الدّال على صدق الرَّسول، وعناد الكفار وكِبرهم في شِقاقهم له، ورفْضِ الإيمانِ به.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بالمضارع المقترن بلام الأمر:

الأمـرُ بالمضارع المـقـترن بـالـلّام آكـدُ في المعنى، وأقوى في الإلزام من فعلِ الأمر

جاءَ الأمرُ بالارتقاء مضارعًا مقترنًا بلام الأمرِ في قوله: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾؛ لِما تُفيده صيغةُ الأمر هذه من المبالغةِ في الحثِّ على ضرورة الارتقاء، والأمر به بأسلوبٍ آكدَ وأقوى مِنْ فعل الأمر[2]؛ زيادةً في تعجيز الكافرين، وإظهارًا لافترائهم فيما يدَّعونه على رسول اللّه، والمعنى: "فليتكلَّفوا الرُّقيَّ؛ إن كان لهم ذلك"[3].

دلالةُ التَّعبير بحرف الجرِّ المفيد للظَّرفيَّة:

المـخـاطَـبـون مطالبون بعدم الـتَّـقـصـير في الأخذ بالأسباب لـلـوصول لخبر السَّماء

عُدّيَ فعل الارتقاء إلى المفعول بحرف الجرِّ المُفيد للظرفيَّة في قوله: ﴿فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾؛ للدَّلالة على مطالبة الكافرين بأن يَجِدّوا في الأخذ بالأسباب، وينغمسوا فيها انغماسَ الظَّرف في المظروف[4]، وألّا يُقَصِّروا في ذلك حتَّى لا يَبقى لهم عذرٌ إن عجزوا عن الارتقاء، ولم يستطيعوا التَّوصُّل إلى شيءٍ من أخبار السَّماء.

دلالةُ التَّعريف في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾:

المـخـاطَـبـون مـطـالـبـون بـأن يـأخـذوا بـكـلِّ الأسـبـابِ المـعـروفـةِ المعهودة

(ال) في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ لتعريف العهدِ، والمرادُ: أن يأخذوا بكلِّ الأسباب المعروفة لهم، المعهودة عندهم، والَّتي اعتادوا الأخذَ بها في

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 136.
(2) توفيق، صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، ص: 18.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 338.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 217.

كلِّ أمرٍ من أمور حياتهم؛ إذ مِن "المعروفِ أنَّ لِكُلِّ مَحَلٍّ مُرْتَفِعٍ أسبابًا يُصْعَدُ بِها إِلَيه"[1]، والقصدُ مِن ذلك كلِّهِ إثباتُ عجزهم، والتَّهكُّم بهم وبأقوالهم، وبيان أنَّهم أدعياءُ كذّابون فيما يزعمون، ويهرفونَ بما لا يعرفونَ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 217.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 136.

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ١١﴾ [ص: 11]

بيانُ حقيقة المشركين، وبُشرى بقربِ انتصار المؤمنين عليهم

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بعد أن أظهرت الآيتانِ السّابقتان عجْزَ الكافرين عن التَّصرُّف في خزائن رحمةِ الله، ونفتْ قدرتَهُم على مُلك السَّماوات والأرض وما بينهما، بما في ذلك النُّبوَّة الَّتي يدَّعون أنَّ محمَّدًا ليس أهلًا لها؛ ناسب أنْ توضِّحَ هذه الآيةُ للرَّسول والمؤمنين معه حقيقةَ هؤلاء المشركين، وشدَّة ضعفهم، وأنْ تبشِّرَ بما يؤول إليه أمرهم من الهزيمة والخيبة في المستقبل القريبِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جُندٌ﴾: (جند) أصلٌ يَدُلُّ عَلى التَّجمُّعِ والنُّصرَةِ، يُقالُ: هُم جُندُهُ، أي: أعوانُهُ ونُصّارُهُ، والجَنَدُ: الأَرْضُ الغَليظَةُ فيها حِجارَةٌ بيضٌ[2]، ويُقال للعسكر: الجُند اعتبارًا بالغلظة، ثم يُقال لكلِّ مجتمع: جندٌ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾ [الصافات: 173]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾ [الدخان: 24]، وجمع الجند: أجناد وجُنود، قال تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥﴾ [الشعراء: 95][3].

2) ﴿مَهْزُومٌ﴾: (هزم) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى غَمْزٍ وكَسْرٍ، فالهَزْمُ: أن تَغْمِزَ الشَّيءَ بيدكَ، فَينهَزِمَ إلى داخِلٍ، كالقِثّاءَةِ والبِطّيخَةِ، ومِنْهُ الهَزيمَةُ في الحَرْبِ[4]؛ لأنَّه كما يُعَبَّر عنه بذلك يعبَّر عنه بالحطم والكسر، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251]، وقال أيضًا: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾[5].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 140، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 136.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جند).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (جند).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هزم).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (هزم).

3) ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾: (حزب) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيءِ، فَمِن ذَلِكَ الحِزْبُ: الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ(1) فيها غِلَظٌ، قال ﷻ: ﴿أَيُّ ٱلۡحِزۡبَيۡنِ أَحۡصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدٗا ١٢﴾ [الكهف: 12]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ﴾ [المجادلة: 19]، وقوله: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ [الأحزاب: 22]: عبارة عن المجتمعين لمحاربة النَّبيِّ، وقوله: ﴿فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾ [المائدة: 56]، يعني: أنصار اللّه(2).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

المشـــركـــون - مهما تحزَّبوا وكثروا - هم جندٌ مهزومون أمام قوَّة المؤمنين

تبشِّر الآية الكريمة بقرب انتصار الرَّسول والمؤمنين على المشركين - الذين يَتَعَزَّزون على الحقِّ، ويُعادون الرَّسولَ، ويرفضون دعوته إلى التَّوحيد، ويسمّونها اختلاقًا وافتراءً، ويرون أنَّه ليس أهلًا للنُّبوَّة - في مواطن عديدة، والمعنى: لا تهتمَّ أيُّها الرَّسول الكريم بأمرِ هؤلاء المشركين، ولا تكترث بجُموعهم، فهُم - سواءٌ أكانوا قليلين أم كثيرين - لا قيمةَ لهم بجانب قوَّتنا الَّتي لا يقف أمامها شيءٌ، ومهما تحزَّبوا عليك؛ فهُم جندٌ مهزومون مغلوبون أمام قوَّةِ المؤمنين في مواطن متعدِّدة(3).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ﴾:

استئنافٌ خارجٌ مَخرجَ البشارة بـأنَّ المُشـركين مُقَدَّرٌ انهزامُهم قريبًا

قوله تعالى: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ استِئنافًا يَتَّصِلُ بِقَولِهِ: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾، أُريدَ بِهِ وصلُ الكَلامِ السّابِقِ، فَلَمّا تَقَضَّى الكَلامُ عَلى تَفْصيلِ ما لِلَّذينَ كَفَروا مِن عِزَّةٍ وشِقاقٍ، وما لِذَلِكَ مِنَ الآثارِ؛ ثُنِيَ العِنانُ إلى تَفْصيلِ ما أُهْلِكَ مِنَ القُرونِ أمثالِهِم مِن قَبْلِهِم في الكُفْرِ، ويَجوزُ أن يَكونَ استِئنافًا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (حزب).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (حزب).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 137.

ابتِدائيًّا مُستَقِلًّا خارِجًا مَخرَجَ البشارَة للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ هَؤُلاءِ جُندٌ مِنَ الأحزابِ مَهزومٌ، أي: مُقَدَّرٌ انهِزامُهُ في القَريبِ[1].

الغرضُ مِن تنكير: ﴿جُندٌ﴾:

التَّنكيرُ قد يكون مفيدًا للتَّحقيرِ أو التَّعظيمِ، ولكلٍّ دلالتُهُ الخادمةُ للمعنى

عبَّر البيانُ عن المشركين المجتمعين لمُشاقَّة رسولِ اللّه، وإنكار الوحي المنزل عليه، ورفض دعوته إلى عبادة اللّه وحده بقوله: ﴿جُندٌ﴾ نكرة، والغرضُ مِن التَّنكير هو الإهانةُ والتَّحقيرُ[2]، المفضي إلى حثِّ الرَّسول ﷺ على المضي قُدُمًا في تبليغ رسالته، وإتمام دعوته، غير عابئٍ بهم، ولا مكترث لهم[3]، فهؤلاءِ ليس لهم شيءٌ مِن القدرة أو القوَّة الَّتي تعيق مسيرته، وستتحقَّق هزيمتهم قريبًا.

ويمكن أن يكونَ الغرضُ من التَّنكير والتَّنوين هو التَّعظيم إن كانت الإشارةُ إلى جندِ الأحزاب يومَ بدرٍ[4]، والمعنى: أنَّهم مهزمون مهما بلغوا مِنَ الاجتماع والقوَّة.

معنى ﴿مَّا﴾ ودلالتها:

عبَّر النَّظمُ الكريم بـ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿جُندُ مَّا﴾، وهي صِفَةٌ أُريدَ بها التَّعظيمُ عَلى سَبيلِ الهُزْءِ بهم، أو التَّحقير؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ في الصِّفة تُستَعمَلُ لهَذَين المعنيَين[5]، ويمكنُ أن تكونَ للإبهام، كقولِه: جِئْتُ لأمرٍ ما، وعِندي طَعامٌ ما[6]، ولا يخلو أيضًا من الدَّلالة على التَّحقير أو التَّهويل على سبيل الاستهزاءِ.

ويجوز أن تكونَ ﴿مَّا﴾ حرفًا زائدًا يؤكِّد معنى ما قبلَهُ، فهي توكيدٌ لما دلَّ عليه ﴿جُندٌ﴾ بمعناه[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 217، 218.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 339.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 75، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 216.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 218.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 140.
(6) الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 370.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 219.

سرُّ التَّعبيرِ بالظَّرف: ﴿هُنَالِكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ ظَرفُ مَكانٍ يُشارُ بِه لِلبَعيدِ، والظّاهِرُ أنَّهُ يُشارُ بِهِ لِلمَكانِ الَّذي تَفاوَضوا فيهِ مَعَ رَسولِ اللّه ﷺ، وهوَ مكَّة، فَيَكونُ ذَلكَ إخبارًا بِالغَيْبِ عَن هَزيمَتِهِم بِمكَّة يَومَ الفَتح، وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارَةٌ إلى الارتِقاءِ في الأسبابِ، أي: هَؤُلاءِ القَومُ - إن راموا ذَلِكَ - جُندٌ مَهزومٌ، وقيلَ: أُشيرُ بِـ﴿هُنَالِكَ﴾ إلَى جُملَةِ الأصنامِ وعَضُدِها، أي: هُم جُندٌ مَهزومٌ في هَذِهِ السَّبيلِ، وقيل: الإشارَةُ إلى يَوْمِ بَدْرٍ، وقيلَ: الإشارَةُ إلى عامِ الخَندَقِ بِالمَدينَةِ، وقيل: وهُنالِكَ: إشارَةٌ إلى حَيثُ وضَعوا فيهِ أنْفُسَهُم مِنَ الانتِدابِ لِمِثْلِ ذَلِكَ القَولِ العَظيمِ مِن قَولِهِم: لِمَن يَندُبُهُ لِأمرٍ لَيسَ مِن أهلِه: لَستَ هنالك[1]، ويقول الرازي: وأمّا قَولُهُ: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ فَيَجوزُ أنْ يَكونَ صِفَةً لِجُنْدٍ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُتَعَلِّقًا بِـ ﴿مَهۡزُومٞ﴾[2]، وأيًّا كان مرجعُ اسم الإشارة، وأيًّا كان إعرابُه، ففي التَّعبير به بشارةٌ للرَّسول والمؤمنين معه بأنَّ أمرَ هؤلاء المشركين - الذين تعزَّزوا على الذِّكر الحكيم، وشاقّوا الرَّسول، ورفضوا دعوته إلى توحيد اللّه، وزعموا أنَّه ليس أهلًا للنُّبوَّة - سيؤول إلى هزيمةٍ وانسحاقٍ أمام المسلمين في كلِّ الأماكن الَّتي سيلاقونهم فيها، مِنْ بعد نزولِ هذه الآية الكريمة[3].

أمْــرُ هــؤلاءِ المـشـركـين سـيـؤول إلــى هـزيـمـةٍ وانـسـحـاقٍ في كلِّ الأماكن الَّتي سيلاقون فيها المـسـلـمـين من بعدُ

موقع ﴿مَهۡزُومٞ﴾ الإعرابيِّ ودلالته:

قوله: ﴿مَهۡزُومٞ﴾ يمكن إعرابُهُ خبرًا لـ ﴿جُندٞ﴾ الَّذي ساغ الابتداءُ به؛ لكونهِ موصوفًا بـ ﴿هُنَالِكَ﴾، و﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ نَعْتًا لِـ ﴿جُندٞ﴾، وأنْ يَتَعَلَّقَ بِـ ﴿مَهۡزُومٞ﴾، وأنْ يَكونَ نَعْتًا لَهُ[4]، وعلى هذا تكونُ الجملة الاسميَّة دالَّةً على ثبوت الهزيمة لهؤلاءِ الجند ودوامها

الـكـفّـارُ جـنـدٌ مـغـلـوبـون على أيِّ حالٍ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 140.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 266/ 370.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 339.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1098.

في أيِّ مكان يلتقون فيه مع المسلمين، أو في المكان الذي تحزَّبوا فيه، أو أساؤوا فيه لرسول الله ﷺ، ويمكن أن يعربَ ﴿مَهۡزُومٞ﴾ صفةً لـ ﴿جُندٞ﴾ الواقع خبرًا لمبتدأ محذوف، تقديرُهُ: هم جندٌ مهزومون[1]، ما يعني: أنَّ الهزيمةَ صفةٌ راسخة ثابتة لهم[2]، على الرَّغم من كثرتِهم وتحزُّبهم.

دلالةُ المجازِ في التَّعبير باسم المفعول:

هزيمةُ المشركين مِنَ المسلمين في المستقبل واقعةٌ لا محالة

التَّعبيرُ عن هزيمة المشركين في المستقبلِ باسمِ المفعول: ﴿مَهۡزُومٞ﴾ - الدّالِّ على حصول الهزيمةِ في الحال - مجازٌ مرسلٌ بعلاقة اعتبار ما يكون؛ إذ المعنى: مهزومٌ مستقبلًا، واستعمالُ ما هوَ لِلحالِ في مَعنى المُستَقبَلِ فيه تَنْبيهٌ عَلى تَحقيقِ وُقوعِه، فَكَأنَّهُ مِنَ القُرْبِ بِحَيثُ هوَ كالواقِعِ في الحالِ[3].

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

المناوئون للإسلام في كلِّ زمان هم حلقة في سلسلة مِن الأحزاب لا تنقطع

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ حرفُ جرٍّ يفيدُ التَّبعيضَ، والمَعنَى: أنَّ هَؤُلاءِ الجُنْدَ مِن جُملَةِ الأُمَمِ، وهوَ تَعريضٌ لَهُم بِالوَعيدِ، بأن يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ الَّتي تحزَّبت ضدَّ رسلها عليهم السلام، قالَ تَعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ [غافر: 30 - 31][4].

نوعُ (ال) ودلالتها في ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

الهزيمةُ والخيبة هي سُنَّة الله مع كلِّ من يعادي دينه ومنهجه

(ال) في ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ يمكن أن تكونَ لتعريف العهد، والمعنى: أنَّ هؤلاء المشركين الذين تحزَّبوا ضدَّك، وقالوا فيك ما قالوا، سيحصل لهم من الهزيمةِ والخيبة مثل ما حصلَ للأحزاب الَّذين تحزَّبوا ضدَّ أنبيائهم، وقصَّ عليك القرآن ذكرَهم.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 140.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 339.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 219.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 219، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 339.

ويمكن أن تكونَ لتعريف الجنس، والمعنى: أنَّ هؤلاءِ المشركين سيحصل لهم من الهزيمةِ والخيبة مثلُ ما حصل لجنس الأحزاب الذين تحزَّبوا ضدَّ أنبيائِهم، سواء قصَّ القرآن ذِكرهم، أم لم يقصَّ، فهذه سنَّةُ اللّه مع جنس الأحزاب.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المهزوم والمغلوب:

المــــهـــزومُ لـن تقومَ له قائمة، والمغلوب يمكنُهُ الـــعــودة من جديد

الأَوَّلُ يَدُلُّ عَلى غَمْزٍ وكَسْرٍ، ومِنهُ الهَزيمَةُ في الحَربِ[1]، ويُعبَّر عنه بالحطم والكسْرِ، قال تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 251]، وقال أيضًا: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾[2]، ما يفيد: أنَّ المهزومَ تنكسر شوكتُهُ إلى الأبدِ، ولن تقومَ له قائمةٌ، أمّا المغلوبُ؛ فيدلُّ على شدَّة ومغالبة[3]، بصيغة المفاعلة، وهو في القرآنِ يفيد أنَّ المغلوبَ لم تنكسرْ شوكتُهُ، ويمكنه بعد ذلك أن يفوزَ، وينتصرَ، كما في قوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: 2-3]، ولمّا كانت الآية بشارةً للرَّسول والمؤمنين معه؛ ناسب التَّعبيرُ بـ ﴿مَهْزُومٌ﴾؛ لدلالتِه على أنَّ شوكةَ هؤلاء المشركين ستنكسر، وتنسحق أمام المسلمين في مستقبل الأيام، ولن تقومَ لهم قائمةٌ، وأنَّ اللّه تعالى سينصر عبده، وينجزُ له وعده بإظهاره على الدّين كلِّه، وهو ما لا يتحقَّق؛ إذا جاء التَّعبيرُ بـ (مغلوب).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (هزم).

(2) الراغب، مفردات القرآن: (هزم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غلب).

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤﴾ [ص: 12 - 14]

بيانُ الأحزابِ الذين كذَّبوا رسلَهم، فحَقَّ عليهم عِقابُ ربِّهم

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد أنْ وضَّحتِ الآيةُ السّابقةُ أنَّ المشركين الَّذين يناصبون رسول الله العداء ما هم إلّا جندٌ مهزومٌ، كسائر الجنود الذين تحزَّبوا ضدَّ أنبيائهم ورسلهم؛ تسليةً للرَّسول، ووعدًا له بالنَّصر، وتعريضًا بوَعيدِ مُكَذِّبيهِ بأنَّهُم صائِرونَ إلى ما صارَت إلَيهِ الأحزابُ الَّذينَ هَؤُلاءِ منهُم؛ ناسب أن تأتي هذه الآياتُ بما هو كالبيان لهذا التَّعريضِ، والدَّليل عَلى المَصيرِ المَقصودِ عَلى طَريقَةِ قياسِ المُساواةِ[1]، وذلك بذكر أقوامٍ من الأحزاب كذَّبوا رُسُلَهم، فحَقَّ عليهم عِقابُ ربِّهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَوۡتَادِ﴾: (وتد): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ الوَتِدُ[2]، وهو: ما رُزَّ في الحائط أو الأرض من الخشب[3]، يقال: وَتَدَ الوتِدُ وَتْدًا وتِدَةً ووتَّد، كلاهما: ثبت، ووَتَدْتُه: أَثْبَتُّه، وتِدٌ واتِدٌ: ثابت رأس منتصب، والمعنى المحوريُّ لهذا الجذر: الثَّباتُ رسوخًا، فوظيفةُ الوتد أن تشدَّ به الخيام ونحوها، وعلى التَّشبيه به قالوا: أوتاد الفم: أسنانُهُ، وأوتادُ الأرض: الجبالُ؛ لأنَّها تثبِّتها، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧﴾ [النبأ: 6 - 7]، وقال: ﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠﴾ [الفجر: 10][4]، أي: ذي المُلك الثّابت الرّاسخ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وتد).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (وتد).

(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وتد).

2) ﴿لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾: (أيك) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ اجتِماعُ شَجَرٍ[1]، قال الخَليلُ: الأيكَةُ غَيضَةٌ تُنبِتُ السِّدْرَ والأراكَ، ويقالُ: أيكَةٌ أيِّكَةٌ: مثمرة[2]، وتَكونُ من ناعِمِ الشَّجَرِ، والمعنى المحوريُّ: التفافُ الشَّجر بعضُه على بعضٍ مع نعومة وخفَّة، كالأيكة الموصوفة، قال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ﴾ [الشعراء: 176]: كانوا أصحابَ شَجَرٍ مُلْتَفٍّ[3].

3) ﴿فَحَقَّ﴾: (حقّ) أصلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلى إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِهِ، وهو نَقيضُ الباطِلِ[4]، وقيل: الشَّيء الثّابت الرّاسخ المتمكّن بشريعة صحيحة أو عرف عامٍّ مسلَّم، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ، وثَبَتَ، قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾ [يونس: 32]، وقال: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [القصص: 63]، أي: ثَبَت، وقال أيضًا: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾ [الزمر: 71]: وجَبت، وثَبَتَتْ؛ بسبب مخالفتِهم صاحبَ الأمرِ سبحانه[5].

4) ﴿عِقَابِ﴾: (عقب) أصلانِ يَدُلُّ أحَدُهُما عَلى تَأْخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بَعدَ غَيْرِه، ومِنَ البابِ: عاقَبْتُ الرَّجُلَ مُعاقَبَةً وعُقوبَةً وعِقابًا، وإنَّما سُمّيَتْ عُقوبَةً؛ لأنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ[6]، والعاقِبةُ يختصُّ إطلاقها بالثّواب، نحو قول الله تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83]، وقد تُستَعمل في العقوبة أيضًا نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ [الروم: 10]، والعُقوبَةُ والمعاقبة والعِقاب يختصُّ بالعذاب، و﴿عِقَابِ﴾ هنا بمعنى: (مجازاتي لهم بالعذاب)[7].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

تبيِّنُ هذه الآياتُ عقابَ أقوامٍ سبقوا الكفّارَ في التَّحزُّب ضدَّ رسلِهم، فناصبوهم العداء، وكذَّبوا بوحي اللهِ المُنَزَّل عليهم، وهم: قوم نوح وعاد وفرعون ذو السلطان الثّابت

(1) الفراهيدي، العين: (أيك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أيك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حق).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حق).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقب).
(7) الراغب، مفردات القرآن: (عقب).

كلُّ الَّذينَ كذَّبوا رُسُلَ الله حقَّ عليهم عقابُهُ أيًّا كانوا ومهما كانوا

الأركان، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة، الذين شاقّوا رُسُلَهم، فحقَّت عليهم جميعًا كلمةُ اللّه، وحاقَ بهم سوءُ العذاب، فأغرقَ اللّهُ قوم نوح بالطّوفان، وأهلك فرعونَ وجندَهُ في البحر، وقومَ هود بالريح، وقومَ صالح بالصَّيحةِ، وقومَ لوط بالخسف، وأصحابَ الأيكة بعذاب الظُّلَّة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾:

تراكيبُ القرآنِ تثير النُّفوسَ للسؤال عن مصائر الغابرين

جاءت جملة: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ مفصولةً عن جملة: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ لأنَّها بدلٌ منها، أو بيانٌ لها[2]، ما يعني أنَّها فُصِلت عنها لكمال الاتِّصال، الَّذي تنزل فيه الجملة الثانية من الجملة السّابقة عليها منزلةَ التّابع مِنَ المتبوع، ويمكن أن يكونَ الفصلُ لشبه كمال الاتِّصال، الَّذي تُجيب فيه الآيةُ الثّانيةُ عن سؤال أثارتْهُ الآيةُ السّابقةُ في نفس المُتَلَقّي عن الأحزاب الذين هُزِموا بسببِ معاداتهم الأنبياءَ والمرسلين.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

الأقوامُ المذكورون كذَّبوا رُسُلَهم وشاقّوهم من غير شكٍّ أو افتراء

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل: ﴿كَذَّبَتۡ﴾ ماضيًا؛ للدَّلالة على حصوله من الأقوام الواردِ ذكرُهم مِنْ غير شكٍّ أو افتراء، ولتحذير مشركي مكَّة من السَّير على منوالِهم في تكذيب الرَّسول وعدم تصديقه فيما يُبَلِّغُه عن ربِّه، لا سيَّما إذا لم يُعهد عليه كذبٌ من قبلُ؛ لأنَّ مَنْ لم يكذبْ على النّاس؛ لن يكذبَ على اللّه تعالى من باب أولى.

الغرضُ من تقديم الظَّرف، وسرُّ إضافته:

قَدَّمَ البيانُ الظَّرفَ: ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ على المُسند إليه: ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛

(1) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 233.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.

لأنَّ الاهتمامَ منصبٌّ على بيان ما حدثَ للكفّار السّابقين مِن عقاب بسبب تكذيبِهم لرسلِهم وتحزُّبهم ضدَّهم، عسى أن يكونَ بيانُ ما حلَّ بهم رادعًا لأهل مكَّةَ عن أن ينهجوا نهجَهُم، أو يسيروا على منوالِهم، يقوّي ذلك إضافةُ الظَّرف إلى الضَّمير العائد إلى مشركي مكَّة وكفّارها، والمُشْعِرُ بأنَّ هذا البيانَ خاصٌّ بهم، وموجَّهٌ إليهم، علَّهم يفيقون.

القرآنُ الكريمُ يُشعر المشركين بأنَّ بيانَهُ خاصٌّ بهم، عَلَّهم يفيقون

دلالةُ التَّعبيرِ عن الفاعل بـ ﴿قَوْمُ﴾ مضافًا:

عبَّر البيانُ عن فاعل التَّكذيب بـ ﴿قَوْمُ﴾، الدالِّ على اجتماع النّاس وقيامهم بعزم وحماس[1] مضافًا إلى ﴿نُوحٍ﴾ في قوله: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ المكذِّبين هم أهلُه وقومُه، وأنَّ الذي كان متوقَّعًا منهم أن يحتشدوا خلفَهُ، ويقوموا لمؤازرته، لا أنْ يقوموا لتكذيبِه ومعاندته، والتَّحزُّب ضدَّه، وثمَّة إشارةٌ أخرى تُفيد أنَّ كونَهُ واحدًا منهم لم يكن شفيعًا في عدم نزول عقابِ اللّه تعالى بهم.

كونُ الرَّسولِ مِنْ قومه لم يكن شفيعًا في عدم نزول عِقابِ الله بهم

دلالةُ العطفِ والتَّرتيب بين الأحزابِ المُكَذِّبين:

عطف البيانُ على ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ كلًّا مِنْ (عاد وفِرْعَوْن...) بالواو التي تُفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا مثلَهم في تكذيبِ الرُّسل، والتَّحزُّب ضدَّهم، وبدأ النَّظم الكريم بـ: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ لأنَّهم كانوا أوَّلَ المكذِّبين، وكان لهم مِنَ القوَّة والاجتماع ما لم يتحقَّق لغيرهم ممَّن جاؤوا بعدهم، ولأنَّهم استمرّوا في عزَّتهم وشقاقهم حتَّى بعدما رأوا الماء، وأيقنوا بالعذاب، ولم يسمحوا بالإذعان ولا بالتَّضرُّع إلى نوح عليه السلام في أن يركبوا معه، أو يدعو لهم، فينجوا، وثنَّى النَّظمُ بـ (عادٍ) قوم هود عليه السلام؛ لأنَّهم جاؤوا بعد قوم نوحٍ في الزَّمان، ولأنَّ لهم من الضَّخامة والعزِّ ما ليس لغيرهم، مع قوَّة الأبدان وعلوِّ الهمم واتِّساع الملك، حتَّى بنوا جنَّة في الأرض، ولأنَّهم استمرّوا في

العطفُ دلالةٌ على المماثلةِ في التَّكذيب، والتَّرتيب جاء وفق الزَّمان والقوَّة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

شقاقِهم إلى أن خرجَت عليهم الرّيح، ورأوها تحمل الإبلَ فيما بين السَّماء والأرض، وهجم عليهم أوائلها، وهم يرون هودًا، ومَن معه من المؤمنين - ﵃ - في عافية منها، ولم يدعْهُم الشِّقاقُ يسألونه في الدُّعاء لهم، ولا يذعنون لِما دعاهم إليه، وجاء النَّظمُ بعد (عاد) بـ (فِرْعَوْن)؛ لأنَّه كان أضخمَ ملكًا، وأرسخَ حكمًا، وقهر غيره بعزِّ سلطانِه وكثرة أعوانِه، حتَّى ادَّعى الألوهيَّة في زمانِه، وتَكَبَّر بسَعة مُلكِه، والأنهارِ الجاريةِ مِنْ تحته[1].

سرُّ تخصيص (فِرْعَوْنَ) بإسناد التَّكذيب إليه:

فرعونُ أوَّلُ مَنْ كفر مِن قومِه، وهو السَّببُ في تكذيبهم والحاثُّ لهم عليه

خُصَّ (فِرْعَوْنُ) بإسنادِ التَّكْذيبِ إلَيهِ دونَ (قَوْمِه)؛ لكونِه أوَّلَ الكافرين منهم، والسَّببَ في تكذيبهم، والمُلْهِمَ لهم فيه، والحاثَّ لهم عليه، فقد أرسل اللّهُ تعالى موسى إليه؛ ليُطْلِقَ بَني إسرائيلَ، فَكَذَّبَ موسى، فَأمَرَ اللّهُ موسَى بمجادَلَتِهِ لإبطالِ كُفْرِه، فتَسَلْسَلَ الجدالُ في العَقيدَة، ووَجَبَ إشهارُ أنَّ فِرعَونَ وقَومَهُ في ضَلالٍ؛ لِئَلّا يَغتَرَّ بَنو إسرائيلَ بِشُبُهاتِ فِرعَونَ، ثُمَّ كانَ فِرعَونُ عَقِبَ ذَلِكَ مُضْمِرًا أذَى موسَى ومُعلِنًا بِتَكذيبِه[2].

دلالةُ وصفِ (فِرْعَوْنَ) بـ ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾، وسرُّ إضافته:

كثرةُ الأوتادِ لم تَحُلْ بين فرعونَ وعذابِ الله

قولُهُ: ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ يعني: صاحب الأوتاد، وجيءَ بِهِ مضافًا؛ للدَّلالة على تفرُّد فرعونَ بها، واختصاصه بامتلاكها دونَ غيرِه ممَّن كذَّبوا رسلَهم، وتحزَّبوا ضدَّهم، ووصفه النَّظمُ بـ ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾، لِبيان عَظَمَةِ مُلْكِهِ وقوَّتِه، والدَّلالةِ على أنَّ ذَلِكَ لم يكن ليَحولَ بينَهُ وبينَ عَذابِ اللَّهِ عندما نزل به وبقومه[3]، سواءٌ أكانت الأوتادُ مجازًا أم حقيقةً؛ إذ قيل في تفسيرها: "كانتْ لَهُ أوتادٌ وخَشَبٌ يَلْعَبُ بِها وعَلَيها، وقال السُّدّيُّ: كانَ يَقْتُلُ النّاسَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 341.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.

بالأَوْتادِ، ويُسَمِّرُهُم في الأرضِ بِها، وقالَ الضَّحّاكُ: أرادَ المَبانيَ العَظيمَةَ الثّابِتَةَ، وقيلَ: عِبارَةٌ عَنْ كَثْرَةِ أَخْبِيَتِهِ"[1]، وثمَّ مَنْ فسَّرها بالأهرام الَّتي اختُصَّ بها الفراعِنُ في مِصرَ، وجاز تسميتُها أوتادًا تشبيهًا لها بالجبالِ في الرُّسوخ في الأرض والعظم والسُّموِّ والعلوِّ والارتفاع[2].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾:

ثــبــاتُ مُـلـك فرعونَ ورسوخُه يـشـبـه ثـبـاتَ البيت المُطْنَبِ بالأوتادِ

أصلُ قولِه: ﴿ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ مِنْ ثَباتِ البَيْتِ المُطْنَبِ بأوتادِه، فشُبِّه به ثباتُ العزِّ والملك واستقامة الأمر، ثم حُذِفَ المشبَّهُ، واستُعير له المشبَّهُ به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة الأصليَّة[3]، الَّتي تُبَيِّنُ ما كان يتمتَّع به فرعونُ من الأسباب الموجِبة ثباتَ المُلك وتقويتَهُ، من عُلوِّ السُّلطان بكثرة الأعوان، والتَّفرُّد بالأوامر، وسَعة العقل، ودقَّة المكر، وكثرة الحيل بالسِّحر وغيره، وجودة التَّدبير بالعدل فيما يزعم، وصَوْلَةِ القهر[4] وغير ذلك.

دلالةُ العطف في قوله: ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ﴾:

الـتَّـكـذيـبُ والـشِّـقـاقُ والتَّحزُّبُ سماتٌ مـشـتـركـةٌ بين المناوئين للرُّسل على مرِّ العصور

جيءَ بـ ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾ معطوفين على ﴿وَفِرۡعَوۡنُ﴾ بالواو التي تُفيد المشاركة؛ للدَّلالة على أنَّهم فعلوا مثله ومثل سابقيه في تكذيب رسلِهم ومناصبتهم العداء، وتكذيب الوحي المُنَزَّل عليهم من ربِّهم، وكانوا مثلهم أيضًا في القوَّة والمنعة وكثرة المُتَحَزِّبين.

السِّرُّ في تقديم ذِكر (فِرْعَوْن):

أوجهُ الشَّبهِ بين فرعون ومشركي مـكَّـةَ كـثـيرةٌ متعدِّدةٌ

تَقديمُ ذِكرِ (فِرْعَوْنَ) عَلى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾ مَعَ أنَّ قِصَّتَهُ حَدَثَتْ بَعْدَ قَصَصِهِم؛ لأنَّ حالَهُ مَعَ موسَى أشْبَهُ بِحالِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 139.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 71، في الهامش أسفل الصفحة.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 76، 75.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 342، 341.

زُعماءِ أَهْلِ الشِّرْكِ بِمكَّةَ مِنْ أحْوالِ الأُمَمِ الأُخرى، فَإنَّهُ قاوِمَ موسى بِجَيْشٍ، كَما قاوَمَ الْمُشرِكونَ الْمُسلِمينَ بِجُيوشٍ[1].

الغرضُ مِن إضافة ﴿وَقَوۡمُ﴾ إلى ﴿لُوطٖ﴾:

المأمولُ في أقوامِ الرُّسلِ القيامُ لمساندتهم، وليس القيامَ لشقاقِهم

عبَّر البيانُ بـ ﴿وَقَوۡمُ لُوطٖ﴾ مضافًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ المكذِّبين هم أهلُه وقومُه، وأنَّ الذي كان متوقَّعًا منهم أن يحتشدوا خلفَهُ، ويقوموا لمؤازرته، لا أنْ يقوموا لتكذيبِه ومعاندتهِ والتَّحزُّبِ ضدَّهُ، وثَمَّةَ إشارةٌ أخرى تُفيد أنَّ كونَهُ واحدًا منهم لم يكن شفيعًا في عدم نزولِ عقابِ اللّه تعالى بهم.

الغرضُ مِن الإضافةِ في: ﴿وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾:

القرآنُ يُسَمّي كلَّ أمَّةٍ بما امتازت به عن غيرها

عبَّر النَّظمُ الكريم عن قوم شعيبٍ عليه السلام بـ (أَصْحابُ الأَيْكَةِ) بإضافتهم إلى ﴿لۡـَٔيۡكَةِۚ﴾ الَّتي تعني: الشَّجرَ النّاعم الْمُلتفَّ - كما سبق - لتفرُّدهم بهذه المزيَّة دون غيرهم من الأمم الَّتي ورد ذِكرُها؛ إذ لم يكن هذا النَّوعُ من الشَّجر ينبت في أرض غيرِ أرضِهم، وفي التَّعبير عنهم بهذا الاسم دون (قوم شعيب) دلالةٌ على أنَّ شعيبًا عليه السلام لم يكن منهم، وإنَّما أرسلَهُ اللّه تعالى إليهم، ويقوّيه التَّعبيرُ عنهم في سورة الأعراف بقوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: 176 - 177]، معبِّرًا باسمه دون: (أخوهم)، كما وصفت السّورة غيره مِنَ الأنبياء والمرسلين[2].

الغرضُ مِن حذف المفعولِ في جملة: ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

قد يُحذَفُ المفعولُ للتَّشنيع بالفعل، وتقبيح صدوره مِنَ الفاعل

ذكرَ البيانُ القرآنيُّ في هاتين الآيتين فعلَ التَّكذيب: ﴿كَذَّبَتۡ﴾ وفاعلَه: ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾، ولم يذكر المفعولَ؛ لدلالة السّياق عليه، ما يعني أنَّه معلومٌ معروفٌ، والمعلومُ المعروفُ لا يُحتاجُ إلى التَّصريح به، ويمكن أن يكون الغرضُ من حذفهِ التَّشنيعَ بفعل هؤلاء المتحزِّبين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 221.

(2) السيوطي، معترك الأقران: 2/ 310.

وتقبيحَ صنيعهم، وربَّما جاء الحذفُ؛ "لأنَّهُ سَيَرِدُ ما يُبَيِّنُهُ في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، كَما سَيأتي"(1).

موقعُ جملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ ودلالته:

جُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ مُعترِضَةٌ بَينَ جُملَةِ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ﴾، وجُملَةِ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، جيءَ بها للتَّنبيه إلى أنَّ هؤلاءِ المكذِّبين شاقّوا رُسُلَهم، وتحزَّبوا ضدَّهم، في إلماحة إلى أنَّ ما يفعلُهُ كفّارُ مكَّة مع رسول اللّه ﷺ مشابهٌ لفعل الأحزابِ، وسينزل بهم من العذاب مثلُ ما نزل بهؤلاء الأحزاب.

يأتي الاعتراضُ غالبًا لقصد التَّنبيهِ إلى معنى يكون مِنَ الأهمّيَّة بمكان

الغرضُ مِنَ التَّعبير باسم الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الغرضُ من التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ في جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ هو التَّعظيم، أي: تَعظيم قوَّة السّابقين في التَّجنُّد والاجتماع على مَنْ يناوئونه(2)، "والظّاهرُ أنَّ الإشارَةَ بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى أقْرَبِ مَذْكورٍ، وهُم قَوْمُ نوحٍ ومَنْ عُطِفَ عَلَيهم، وفيهِ تَفْخيمٌ لِشَأنِهم وإعلاءٌ لَهُم عَلى مَنْ تَحَزَّبَ عَلى رَسولِ اللّه، أي: هَؤُلاءِ العُظَماءُ لَمّا كَذَّبوا؛ عوقِبوا"(3)، وأنَّ العقاب إذا نزل بهم؛ فإنَّ نزولَهُ بكم سيتحقَّق، ولن يعيقَهُ عائقٌ من باب أولى.

الأحزابُ المهزومون هم الَّذين صدر التَّكذيب منهم

الغرضُ مِن تعريف الطَّرفين في: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾:

في جملة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾ قُصِرَتْ صِفَةُ الأحزابِ عَلى المُشارِ إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بادّعاءِ أنَّهم الأُمَمُ المُتَحَزِّبَةُ، وأنَّ غيرَهُم لَمّا يَبلُغوا مَبلَغَ أن يُعَدّوا مِنَ الأحزابِ، فَظاهِرُ القصرِ ولامُ التَّعريفِ لِتَأكيدِ مَعنَى الكَمالِ، والمعنَى: أولَئِكَ المَذكورونَ هُم الأُمَمُ الَّتي لا تُضاهيهم أُمَمٌ في القوَّةِ والشِّدَّةِ، وهَذا تَعريضٌ بِتَخويفِ مُشْركي العَرَبِ مِن أن يَنْزِلَ بِهِم ما نَزَلَ بِأولَئِكَ(4).

كُفّارُ قريش لم يبلغوا مبلغَ السّابقين في القوَّة والتَّحزُّب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 220.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 342.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 141.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222، 221.

تقريرُ تكذيبِ المشركين لرسلهم والتّمهيد لاستحقاقِهم العقابَ

موقعُ جملة: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا﴾ ممّا قبلَها ودلالته:

جُمْلَةُ: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لِجملةِ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلَى قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾، ما يعني أنَّها جاءت مفصولةً عمّا قبلَها، لما بينهما مِن كمال الاتِّصال الَّذي تنزل فيه الجملةُ الثّانيةُ من السّابقة عليها منزلةَ التّابع مِن متبوعهِ، فستغني بما بينهما من رباط معنويٍّ عن الرّابط اللَّفظيِّ، وهو "استئنافٌ جيءَ به؛ تقريرًا لتكذيبهم على أبلغ وجهٍ، وتمهيدًا لما يعقبه من استحقاق كلِّ أمَّة من الأمم المذكورة ما نزل بها من عقاب"[1].

لا صـــــفة للأحـزاب إلّا تكذيبُ أنبيائهم ورسلهم

الغرضُ مِن التَّعبير بأسلوب القصر:

في قولهِ تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ قصرُ موصوف على صفة قصرًا حقيقيًّا، بطريق النَّفي والاستثناء، معناه: "ما كُلُّ حزب من الأحزاب محكومًا عليه بحكم إلّا محكومًا عليه بأنَّه كذَّب الرُّسل، أو مُخبَرًا عنه بخبرٍ إلّا مُخبَرًا عنه بأنَّه كذب الرُّسل"[2]، والغرضُ مِن التَّعبير بهذا الطَّريق المبالغةُ في تأكيد تكذيب الأحزاب، وإثباتُ أنَّهم لم يصدِّقوا رسلَهم على الرَّغم مِنَ المعجزات والبراهين التي جاؤوا بها لإثبات أنَّهم رسلُ اللّهِ، وقد أخْبَرَ النَّظمُ "أوَّلًا عَنهُم بِأنَّهُم كذَّبوا، وأكَّدَ ذَلِكَ بالإخبارِ عَنهُم بِأنَّهُم لَيسوا إلّا مُكَذِّبينَ عَلى وجهِ الحَصرِ، كَأنَّهُم لا صِفَةَ لَهُم إلّا تَكْذيبُ الرُّسُلِ لِتَوَغُّلِهِم فيها"[3].

التَّعبيرُ بألفاظ العموم يفيد الشُّمول، وينفي حصول التَّصديق بأيِّ شكل

الغرضُ مِنَ التَّعبير بلفظ العموم:

عبَّر النَّظمُ عن الأحزاب المُكذِّبين بلفظ ﴿كُلٌّ﴾؛ لأنَّه يدلُّ على

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 164.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 164.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222.

التَّأكيد والجزم بحصول التَّكذيب من جميع الأمم الوارد ذكرُها بلا استثناءٍ، كما أنَّه ينفي احتمالَ حصولِ التَّصديق من بعضِها أو مِن غالبيَّة أفرادها بأيِّ شكلٍ مِنَ الأشكال.

الغرضُ مِن حذفِ المضافِ إليه في ﴿كُلٌّ﴾:

تقليلُ شأنِ المحذوف، وصونِ اللِّسان عن ذكرِه صراحة أو إضمارًا

التَّنوينُ في ﴿كُلٌّ﴾ تنوينُ عوضٍ عن مضافٍ إليه محذوفٍ، تقديرُه: إن كلُّهم[1]، والغرضُ من حذف الضَّمير العائد على الأحزاب لكونِهِ معلومًا من السّياق، بجانب تقليلِ شأنِهم، وتحقير أمرهم، وازدراء فعلِهم، وصون اللِّسان عن ذِكرهم صراحةً أو إضمارًا؛ لأنَّهم كذَّبوا رسلَ اللّه، وشاقّوهم، وكفروا بما أُنزل إليهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي: ﴿كَذَّبَ﴾:

الأحزابُ توغَّلوا في التَّكذيب توغُّلًا ليس معه احتمالُ تصديقٍ

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالفعل: ﴿كَذَّبَ﴾ ماضيًا؛ لدلالتِهِ بمعناه على حصول تكذيب المُرسلين مِنَ الأقوام السّابق ذكرُهم من غيرِ شكٍّ أو افتراء، ودلالته بمبناه - مُضعَّف العين - على أنَّهم بالغوا في التَّكذيب، وتوغَّلوا فيه توغُّلًا ليس معه أيُّ احتمالٍ لحصول التَّصديق بأيِّ صورةٍ من الصّور.

سرُّ تعديةِ فعل التَّكذيب إلى الجمع:

تكذيبُ واحد من الرَّسل يُفهم منه تكذيبُ جميعِ المرسلين

عُدّيَ الفعلُ ﴿كَذَّبَ﴾ إلى ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بِصيغةِ الجَمْعِ، مَعَ أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ إنَّما كَذَّبَت رَسولَها لِقَصدِ تَفظيعِ التَّكذيبِ وتشنيعِه[2]، والإشارةُ إلى أنَّ مَنْ كذَّب رسولًا واحدًا مع ثبوت رسالته، فقد استهانَ بمَنْ أرسلَهُ، وذلك ملزومٌ لتكذيب جميع مَنْ يرسلُهُ؛ لتساوي المعجزاتِ الَّتي ثبَّتت رسالتَهم بها في إيجاب التَّصديق[3]، ولأنَّ الرُّسلَ يُصَدِّقُ كلٌّ منهم الكلَّ، وكلُّهم متَّفقون على الحقِّ، فتكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ لهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 222.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 344.

جميعًا، ويمكن أن يكونَ التَّعبيرُ بالجمع من قبيلِ مقابلة الجمعِ بالجمع، والمقصودُ تكذيبُ كلِّ حزبٍ لرسولِه[1].

بلاغةُ الإبهامِ والتَّوضيح في ذِكر تكذيب الأحزاب:

التَّسجيلُ باستحقاق الكافرين أشدَّ العذاب وأبلغه

ذكرَ النَّظمُ الكريمُ تكذيبَ الأحزاب أوَّلًا في الجملة الخبريَّة: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائيَّة: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا﴾، فأوضح فيها أنَّ كلَّ واحدٍ مِنَ الأحزاب كذَّب جميعَ الرُّسل؛ لأنَّهم إذا كذَّبوا واحدًا منهم؛ فقد كذَّبوهم جميعًا، وفي تكرير التَّكذيب وإيضاحِه بعد إبهامه، والتَّنويع في تكريرِه بالجملة الخبريَّة أوَّلًا، وبالاستثنائيَّة ثانيًا، وما في الاستثنائيَّة من الوضع على وجهِ التَّوكيد والتَّخصيص: أنواعٌ من المبالغة المُسجَّلَة عليهم باستحقاق أشدِّ العقابِ وأبلغه[2].

معنى الفاءِ ودلالتها في: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾:

المكذِّبون يعاقبون في الدُّنيا عقابًا حسّيًّا وعقابًا نفسيًّا، ليبلغ عقابُهم ذروته

الفاءُ الواردةُ في قوله: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ حرف عطف يفيد بجانب التَّعقيب معنى التَّسبُّب، والمعنى: أنَّ مبالغةَ هؤلاء الأحزاب في تكذيب رسلهم، واتِّهامهم زورًا وبهتانًا بالافتراء والاختلاق وغيرها مِنَ التُّهم الشَّنيعة، تَسبَّبَ عنه استحقاقُهم العذابَ الَّذي أنزلَهُ اللّه بهم، على وجه السُّرعة والمباغتة وعدم الإمهال، فحصل لهم بذلك نوعان مِنَ العقاب، أحدُهما حسّيٌّ، ويتمثَّل في الإغراق أو الإحراق أو الهلاك بالرّيح أو غيره ممّا يعرفهُ القاصي والدّاني، وتنطق به الآثار والأخبار، والآخر نفسي، ويتمثَّل في الصَّدمة والمباغتة وعدم إعطائهم فرصةً للتَّوبة أو الرُّجوع عمّا هم فيه، وبذلك يبلغ عقابُهم على التَّكذيب في الدُّنيا قمَّتَهُ وذروته، بجانب ما ينتظرهم من عقابٍ وعذابٍ في الآخرة.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 164، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 139.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 76.

دلالةُ التَّعبير بالماضي: ﴿فَحَقَّ﴾:

مَـنْ قـدر على إيـقـاع العقاب فيما مضى قادرٌ على إيقاعِهِ فيما هو آتٍ

عبَّر النَّظمُ عن استحقاق الكافرين العقابَ بالفعل الماضي: ﴿فَحَقَّ﴾ لعدَّة مقاصد: أوَّلها: الدَّلالة على أنَّ هذا العقابَ بنوعيه الحسّيِّ والنَّفسيِّ عقابٌ عادلٌ لا ظلمَ فيه ولا تجاوز، ثانيها: الدَّلالة على وقوعِ العذابِ وحصوله وعدم قدرة الأحزابِ على التَّخلُّص منه بأيِّ سببٍ مِنَ الأسباب[1]، على الرُّغم مِن قوَّتهم وشدَّتهم، وثالثها: إنذارُ مشركي مكَّة بوقوعه عليهم، وتهديدهم بنزولهِ بهم إن هم استمرّوا على تكذيبِ رسول اللّه ومشاقَّته والتَّعزُّز على الحقِّ؛ لأنَّ مَنْ أوقعه فيما مضى على مَنْ هم أشدُّ منهم قادرٌ على إيقاعهِ عليهم فيما هو آتٍ من باب أولى.

الغرضُ مِن الإضافة في ﴿عِقَابِ﴾:

تكذيبُ الرَّسول تـكـذيـبٌ لـمـن أرسـلَـهُ، وذلك كـفـيـلٌ بإيـقـاع العذابِ على من يفعلُه

الأصل في قوله: ﴿عِقَابِ﴾ أنَّه مضاف إلى ضمير المتكلِّم - العائد إلى المولى سبحانه، والتَّقدير: (عقابي) - إضافةَ تفخيمٍ وتهويلٍ وتعظيم للعذاب الذي أوقعَهُ اللّه على المشركين الذين اجترؤوا على تكذيبِ رسلِهِ؛ لأنَّ تكذيبَهم فيه نوعٌ مِنَ الاستهانةِ بِمَن أرسلَهم، "والمَقصودُ مِنهُ زَجرُ السّامِعينَ"[2] وتخويفُهم؛ لما فيه من إلماحٍ إلى أنَّ تكذيبَ الرَّسول ﷺ فيه اجتراءٌ على اللّهِ واستهانةٌ بعقابِه، وهو ما يوجب إيقاعَ العذابِ وإنزالَهُ على وجهِ السُّرعةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العقاب والعذاب:

الأوَّل يحصل على وجـه السُّرعة، والآخـر يُحتمل حصولُهُ بعد حين

العقابُ ينبئُ عَنِ استِحقاق، وسمّي بذلك؛ لأنَّ الفاعِل يستَحقُّهُ عقيب فعلِهِ، ويجوز أن يكونَ العَذاب مُسْتَحقًّا وغير مُستَحَقٍّ، وأصل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 344.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 372.

العقاب التُّلُوُّ، وهوَ تأديةُ الأوَّل إلَى الثّاني، يُقال: عقب الثّاني الأوَّل؛ إذا تلاه، وعقب اللَّيل نهارٌ، واللَّيلُ والنَّهارُ هما عقيبان، وعاقبت اللِّصَّ بالقطعِ الَّذي يتلو سرقته، ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص: 83] وعلى المُجرمين؛ لأنَّها تعقب المُتَّقينَ خيرًا والمجرمين شرًّا[1]، ولمّا كان قصدُ النَّظم الكريم تهديدَ مشركي مكَّةَ وتخويفَهم بنزول العذابِ بِهم، كما نزل بِمَن سبقوهم في التَّحزُّب والتَّكذيب؛ كان التَّعبير بـ (العقاب) أنسبَ؛ لدلالتِهِ على السُّرعة الباعثةِ على الارتداعِ عن التَّكذيب والمشاقَّة، بخلاف مفردة (العذاب) الدّالةِ على احتمال حصولِ العقابِ بعد حينٍ، وهو ما يجعل التَّهديد غير مُجْدٍ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾ [ص: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

تهديدُ مشركي مكَّةَ بنزول العذاب بهم كما نزل بالأحزاب من قبلِهم

لَمّا أشعرَ قولُهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ بتهديدِ مُشْركي قُريشٍ بِعَذابٍ يَنتَظِرُهُم، جَريًا عَلى سُنَّةِ اللّهِ في جَزاءِ المُكَذِّبينَ رُسُلَهُ؛ ناسبَ أن يَعطِفَ عَلى جُمْلَةِ الإخبارِ عَن حُلولِ العَذابِ بالأحزابِ السّابِقينَ جُملَةَ تَوَعُّدٍ بِعَذابِ الَّذينَ ماثَلوهُم في التَّحَزُّبِ والتَّكذيبِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنظُرُ﴾: (نظر) أصلٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ إلى مَعنًى واحدٍ، هو: تَأَمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ يُسْتَعارُ، ويُتَّسَعُ فيه، فَيُقالُ: نَظَرْتُ إلَى الشَّيءِ أنظُرُ إليهِ: عايَنْتَه، ويُقال: نَظَرْتُ الشَّيْءَ: انْتَظَرْتُهُ، كَأنَّهُ يَنظُرُ إلَى الوَقْتِ الَّذي يأتي فيهِ[2]، والنَّظَرُ: الانتِظارُ، قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122]، وقال: ﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس: 102][3].

2) ﴿صَيۡحَةٗ﴾: (صيح) أصلٌ صَحيحٌ، هوَ: الصَّوْتُ العالي، ومِنهُ الصّياحُ، والواحِدَةُ: صَيحَةٌ[4]، وهي: رفع الصَّوت بشدَّة، قال تعالى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [يس: 29]، وقال أيضًا: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [ق: 42]، أي: النَّفخ في الصّور، وأصلُه: تشقيقُ الصَّوت، مِن قولهم: انصاحَ الخشبُ، أو الثَّوب؛ إذا انشقَّ، فسُمع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 223.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(3) الراغب، مفردات اللغة: (نظر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صيح).

منه صوتٌ، ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تُفزِع؛ عبَّر بها عن الفزعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73][1].

3) ﴿فَوَاقٍ﴾: (فوق) أصلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلى عُلوٍّ، والآخَرُ عَلى أَوْبَةٍ ورُجوعٍ، قالَ اللَّه تَعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾[2]، وفيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: رجوعٌ، أي: لا يرجعون بعدها إلى الدُّنيا، وهو على هذا مشتقٌّ مِن الإفاقةِ. الثاني: ترداد، أي: هي واحدةٌ لا ثاني لها. الثالث: ما لها من تأخيرٍ ولا توقُّفٍ مقدارَ فواق ناقة، وهو ما بين حَلبتيها[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المشركون ينتظرون صيحةً لا فَواق بعدها

توضِّحُ الآيةُ الكريمةُ أنَّ مشركي مكَّة لا ينتظرون إلّا صَيْحَةً واحِدَةً، ينفُخُها إسرافيلُ في الصّور، فَإذا هُم مِنَ الأجداثِ إلى رَبِّهِم يَنسِلونَ، وهي نفخةٌ سريعةُ الوقوعِ ليس لها توقُّفٌ ولا انتظارٌ، ولها ميعادٌ حددَّه اللّهُ تعالى لنْ تتأخَّرَ عنه، أو تتقدَّمَ عليه، كما أنَّها صيحةٌ واحدةٌ، ليس بعدها عودةٌ إلى الدُّنيا، ويتمُّ بعدها كلُّ شيء يتعلَّق بالبعث والجزاء والعقاب[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾:

عقابُ الله حالٌّ بالمشركين، لا شكَّ فيه

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ﴾ يمكن أن تكونَ استئنافيَّة، والكلامُ بعدها مستأنفٌ مسوقٌ لتقرير عقاب كفّار مكَّة، بعد بيان عقاب من سبقوهم في الغواية[5]، ويمكن أن تكونَ الواو لعطفِ ما بعدها عَلَى جُمْلَة: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾، بغرض تخويف مشركي مكَّة

(1) الراغب، مفردات اللغة: (صيح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فوق).
(3) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 90.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 140.
(5) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 338.

وتهديدهم باستحقاق العذاب، كما استحقَّه السابقون عليهم؛ بسبب مماثلتهم لهم في تكذيبِ الرَّسول والتَّحزُّبِ ضدَّه.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَنظُرُ﴾:

المشركون يتوقَّعون نزولَ العذابِ بهم لتأكُّدهم مِن استحقاقِهم له

عبَّر النَّظمُ عن انتظار مشركي مكَّة نزولَ العذابِ بهم، كما نزل بمَن سبقَهم، بالفعل المضارع: ﴿يَنظُرُ﴾، ومعناه: ينتظرون، وجعلَهم النَّظمُ منتظرين للعقاب مع أنَّهم لم ينتظروه على سبيل الحقيقة؛ للإشعار بتحقُّق وقوعه، وأنَّهم بصدد لقائِه، فهُم لذلك في حكم المنتظرين له، كأنَّهم يتوقَّعونه، ويعتقدون قربَهُ منهم؛ بسبب ما كانوا فيه من شدَّةِ العناد والتَّصميم على الكفر والاستكبار عن الإذعان للحقِّ، وتعاطي جميع أسباب العذابِ، وثمَّة دلالةٌ أخرى تفيد أنَّهم لمّا كانوا يعرفون صِدق الآتي إليهم، ويقطعون بصحَّة ما يقول؛ صاروا كأنَّهم يرون وقوعَ العذابِ، لكنَّهم لا يرجعون[1] عن الأسبابِ الموجِبة له.

الغرضُ مِنَ التَّعبير عن الفاعل باسم الإشارة:

تحقيرُ شأنِ المُشارِ إليه وصون اللِّسان عن ذكره

﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ اسمُ إشارةٍ يحتمل أن يعود إلى كُفّارِ قُريشٍ؛ لأنَّ تَجَدُّدَ دَعْوَتِهِم ووعيدِهم وتكذيبِهم يومًا فَيَومًا جَعَلَهُم كالحاضِرينَ، فَكانَتِ الإشارَةُ مَفهومًا منها أنَّها إليهِم[2]، ويحتمل أن تكونَ الإشارةُ إلى "جميع الأحزاب لاستحضارِهم بالذِّكر، أو لأنَّهم كالحضور عند اللّه"[3]، والاحتمال الأوَّل أقوى وأكثر مناسبةً للسّياق؛ لأنَّ القرآنَ إذا استعمَلَ ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾، ولَم يَكُنْ مَعَهُ مُشارٌ إلَيهِ مَذكورٌ؛ كان المقصودُ به المُشرِكينَ مِن أهلِ مكَّة[4]، وأيًّا كان المشارُ إليه، فالغرضُ مِنَ التَّعبيرِ عن الفاعل به دون الاسم الصَّريح هو تحقيرُ شأنهم، وازدراء فِعلهم، وصون اللِّسان عن ذِكرهم.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 345، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 140.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 223.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 77.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 223.

نوعُ المجازِ في إسناد فعل الانتظار إلى المشركين ودلالتُه:

عذابُ الكافرين مُحقَّقٌ وقوعُه وهم بصدد لقائِه

في إسنادِ فعلِ الانتِظارِ إلى اسم الإشارةِ العائدِ للمشركين - في حينِ أنَّهُم غافِلونَ عَن ذَلِكَ، ومُكَذِّبون بظاهِرِه - مَجازٌ عَقليٌّ، علاقته المفعوليَّة؛ لأنَّ الحقيقةَ التي يستندُ إليها: أنَّ المسلمينَ يَنتَظِرون نزولَ ذلك بهم، أو يَنتَظِرُ نزوله بِهِمُ المَلائِكَةُ الموَكَّلونَ بِحَشْرِهِم عندَ النَّفخَةِ، فَلَمّا كانوا مُتَعَلَّقَ الانْتِظارِ؛ أُسْنِدَ الفِعْلُ ﴿يَنظُرُ﴾ إلَيهِم لِمُلابَسَةِ المَفعوليَّةِ عَلى نَحوِ قولِه تعالى: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة: 21]؛ للإشعارِ بتحقُّق وقوعِه، وأنَّهم بصددِ لقائِه، كما سبق بيانه.

دلالةُ التَّعبيرِ عن المفعول بـ ﴿صَيۡحَةٗ﴾ نكرة:

الصَّيحةُ الَّتي ستنزل بالمشركين ستكون عظيمةً صاعقةً

عبَّر النَّظمُ عن مفعول فعل الانتظار بـ ﴿صَيۡحَةٗ﴾ نكرة منوَّنة؛ للدَّلالةِ على أنَّه تهديدٌ لمشركي مكَّة بِصَيحَةٍ عظيمة صاعِقَةٍ، كَصَيحَةِ ثَمودَ، أو صَيحَةِ النَّفخِ في الصّورِ الَّتي يَقَعُ عِندَها البَعثُ لِلجَزاءِ[1]، "والمَعنَى: أنَّهُم وإن لَم يَذوقوا عَذابي في الدُّنيا؛ فَهوَ مُعَدٌّ لَهُم يَومَ القيامَةِ، فَكَأنَّهُم بِذَلِكَ العَذابِ، وقَد جاءَهُم، فَجَعَلَهُم مُنْتَظِرينَ لَها عَلى مَعنَى: قُربِها مِنهُم"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوب القصرِ بالنَّفي والاستثناء:

الإثارةُ والتَّشويق إلى ما يأتي بعد إلّا

التَّعبيرُ بالنَّفي والاستثناء في قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ﴾ يمنح البيانَ مزايا كثيرة، منها: الإثارةُ والتَّشويقُ إلى المفعول الذي يأتي بعد ﴿إِلَّا﴾، والموضِّح حقيقة ما ينتظر المشركون وقوعَه ولحاقَهُ بهم من العذاب جزاءَ عنادِهم وتكذيبِهم، فإذا وردَ المفعول بعد تطلُّع النُّفوس إليه؛ ثبت فيها، وتمكَّن منها، وساعد على ردعِها وزجرِها؛ لأنَّ المعنى إذا أُلقي على سبيل التَّشويق؛ تطلَّعت النَّفسُ إلى معرفتِه على سبيل التَّصريح، فتتوجَّه إلى ما يرد بعد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 223.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 372.

ذلك، فإذا أُلقي؛ تمكَّن فيها فضلَ تمكُّنٍ، وكان شعورُها به أتمَّ، وتأثُّرُها به أشدَّ.

قصرُ الصِّفة على الموصوف

وفي التَّعبيرِ بأسلوب النَّفي والاستثناءِ في قوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً﴾ قصرَ النَّظمُ الكريمُ ما ينتظره المشركون مِنَ العذاب - الذي حلَّ بمَنْ كانوا قبلَهم مِن المتحزِّبين - على الصَّيحة الَّتي تأخذهم على غرَّة، ولا تترك لهم فرصةً كي يفيقوا، ويرجعوا عمّا هم فيه مِن تكذيبٍ وتحزُّبٍ، ويدخلوا في زمرة المؤمنين المصدِّقين، وأوثِرَ التَّعبير بالنَّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لما يمتاز به مِن إبلاغٍ في التَّأكيد، يناسب المخاطَب الَّذي يتمسَّك بما هو فيه أشدَّ التَّمسُّكِ، وينكر العزوفَ عنه إلى غيرِه أشدَّ الإنكار، من خلال نفيه أن ينتظرَ المشركون أيَّ شيءٍ أوَّلًا، ثمَّ قصر انتظارَهم على الصَّيحة الصاعقة المباغتة ثانيًا، ولذا قال العلماء: إنَّ التَّعبيرَ بالنَّفي والاستثناء يكون في الأمر الَّذي ينكره المخاطَب، ويشكُّ فيه[1].

سرُّ تقييدِ المفعول بـ: ﴿وَٰحِدَةٗ﴾:

الصَّيحةُ الَّتي ستنزل بالمشركين ستهلكهم دفعةً واحدةً

في وصف الصَّيحة بأنَّها ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ إشارَةٌ إلَى أنَّ الصّاعِقَةَ الَّتي ستحلُّ بالمشركين ستكون عظيمةً مُهلِكةً، ولن تحتاجَ إلى تكرار؛ لأنَّها ستقضي عليهم دفعةً واحدةً، أو أنَّ النَّفْخَةَ واحِدَةٌ لا ثاني لها، وهي نَفْخَةُ البعث، وفيه من الإرعاب والتَّخويف ما يدفع ذوي العقل إلى التَّفكُّر المفضي إلى الإقلاعِ عمّا هم فيه مِن تحزُّبٍ وتكذيب، ويدعو إلى الإيمان والتَّوحيد.

دلالةُ وصف الصَّيحة بالجملة الاسميَّة:

وصف البيانُ القرآنيُّ الصَّيحة بجملة: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾؛ للدَّلالة على سرعتها، وعدم توقُّفها[2]، وأنَّها لا تترك فرصةً لأحدٍ

(1) الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، ص: 332.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 165.

كي يفيقَ، ويتراجعَ عمّا هو فيه، والمعنى: لَيسَ بَعدَها إمهالٌ بِقَدْرِ الفَواقِ[1]، أو: ما لها من رجوعٍ، كما يرجع اللَّبن في الضِّرع عن الفَواق، وكما يرجعُ المريض بالإفاقةِ مِن المرضِ إلى الصِّحَّة، أو ما لها مِن انفصالٍ وافتراقٍ، بقدر ما يتنفَّسُ فيه أحدٌ أقلَّ تنفُّسٍ وأقصره زمنًا، كما هي عادةُ الأصوات المألوفة، يكون فيها ترجيعٌ يوجب في الصَّوت تقطُّعًا يصير به وقعه ضعيفًا فاترًا[2]، وفيه ما يدعو المستمعين إلى التَّوبة والإنابة قبلَ وقوعِ الصَّيحة، لاستحالة حصول ذلك في وقتِها.

القـرآنُ يـدعـو المستمعين إلى التَّوبة والإنابة قبـل وقـوع الصَّيحة

الغرضُ مِن تقديم ﴿لَهَا﴾:

في جملة: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ قَدَّمَ النَّظمُ الكريم الجارَّ والمجرور: ﴿لَهَا﴾ على قوله: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾؛ لأهمّيَّة إعلام المستمعين بأنَّ من خصائص الصَّيحة وسماتها أنَّها واحدةٌ، لا ثاني لها، وأنَّها أيضًا سريعةٌ لا تمنح أحدًا فرصةً للإفاقة والعودة؛ لِما للإعلام بهذه الخصّيصة مِن أثرٍ بالغٍ في التَّخويف والارتداع.

الصَّيحةُ المنتظرة سريعةٌ لا تمنح أحـدًا فـرصـةً للإفاقة والعودة

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن فَوَاقٍ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد تأكيدَ انتفاءِ الفواق عن الصَّيحة بأيِّ شكلٍ من الأشكال، وبأيِّ صورةٍ من الصّوَرِ؛ إذ من الممكنِ أنْ يتبادرَ إلى الذِّهن أنَّ لها ارتدادًا يُمنَح فيه المعذَّبون بها فرصةً للإفاقة والتَّوبة، فجيءَ بحرف الجرِّ لنفي ذلك نفيًا قاطعًا مؤكَّدًا.

عـذابُ الظّالمين أليمٌ شديدٌ

الغرضُ مِن تنكير ﴿فَوَاقٍ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بالاسم المجرور: ﴿فَوَاقٍ﴾ نكرة؛ لما يفيدهُ التَّنكير من التَّقليل، ما يعني: انتفاءَ أن يكونَ للصّيحة فواقٌ، ولو بأقلِّ مقدارٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 224.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 346.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّظر والبصر:

الأوّل يدلُّ على التَّأمُّل والانتظار، والثّاني يدلُّ على الوضوح

النَّظَرُ يدلُّ على تَأمُّلِ الشَّيءِ ومعاينتِهِ، ثُمَّ يُسْتَعارُ، ويُتَّسَعُ فيهِ، فيقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أنظُرُ إليهِ: عايَنْتُهُ، ويُقال: نَظَرْتُ الشَّيءَ: انتَظَرْتُهُ، كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذي يَأْتي فيهِ[1]، ومنه النَّظَرُ بمعنى: الانتظارِ، قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢﴾ [هود: 122][2]، والبَصَرُ أصلُهُ من الوضوح، ومنه: أبصرتُه لمحًا باصرًا، أي: بصرًا واضحًا، ويُطلق على البصرِ بالقلب، والبصرِ بالعين (الرُّؤية)، والبصرِ بالحجَّة[3].

ولمّا كانت الآيةُ تتحدَّث عمّا ينتظرهُ المشركون من عذاب، ويتوقَّعون نزوله بهم بين وقتٍ وآخر؛ ناسبَ التَّعبير بمفردة (النَّظر)؛ للدَّلالة على التَّرقُّب، وتأكُّد الحصول كالأشياء المنظورة المشاهدة، بخلاف مفردةِ (البصر) الَّتي تخلو من معنى الانتظار والتَّرقُّب، وتجعل الجانب النَّفسي مِنَ العِقاب غير مُحَقَّقٍ، وبه يكون الخبرُ غيرَ وافٍ بالرَّدع والتَّهديد الذي تقصد إليه الآية الكريمة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(2) الراغب، مفردات اللغة: (نظر).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 124، 123.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ١٦﴾ [ص: 16]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

حكايةُ استخفافِ المشركين بالتَّهديد وتكذيبِهم بيوم الحساب والوعيد

بعد أن هدَّد اللّهُ تعالى في الآية السّابقة بمعاقبة المشركين بصيحةٍ واحدةٍ ما لها من فَواقٍ؛ جزاءَ تكذيبِهم رسولَ اللّهِ وتحزُّبِهم ضدَّهُ؛ ناسب أن تحكيَ هذه الآيةُ استخفافَهم بذلك التَّهديد، وتكذيبَهم بيوم الحساب والوعيد، مِن خلال إيرادِ طلبِهم تعجيلَ العذابِ قبل مجيء يوم الحساب؛ إظهارًا لِعدم اكتِراثِهم بالوعيدِ، وعدم تصديقِهم النَّبيَّ ﷺ في كُلِّ وعيدٍ، حتّى الوعيدِ بِعَذابِ الدُّنيا الَّذي يَعتَقِدونَ أنَّهُ في تصرُّف اللّهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَجِّل﴾: (عجل) تدُلُّ على الإسراعِ، ومنه: العَجَلَةُ في الأمرِ، يُقالُ: هو عَجِلٌ وعَجُلٌ[2]، وهي طلبُ الشَّيءِ وتحرّيه قبلَ أوانِهِ، وهو مِن مقتضى الشَّهوة، قال تعالى: ﴿سَأُوْرِيكُمۡ ءَايَٰتِي فَلَا تَسۡتَعۡجِلُونِ ٣٧﴾ [الأنبياء: 37]، وقال: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [طه: 114]، وقال: ﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ﴾ [طه: 83][3].

2) ﴿قِطَّنَا﴾: (قطّ) أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ عَلى: قَطْعِ الشَّيءِ بِسُرعَةٍ عَرضًا، يُقالُ: قَطَطْتُ الشَّيءَ أَقُطُّهُ قَطًّا، ومنه القِطُّ، وهو: الصَّكُّ بالجائِزَة، وبِهِ يُفَسَّرُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾، كأنَّهم أرادوا كُتُبَهُمُ الَّتي يُعطَونَها مِنَ الأجرِ في الآخِرَةِ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 224.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عجل).

(3) الراغب، مفردات اللغة: (عجل).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطّ).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

المشركون يَدْعون الله بإنزال العذابِ الّذي تَوَعَّدَهُم به في الدُّنيا قبل الآخرة

تحكي الآيةُ الكلامَ الَّذي قاله المشركون الجاهلون بعد تهديدِهم بالصَّيحة الصّاعقة الَّتي لا فواقَ لها، فتوَضِّحُ أنَّهم دعوا اللّٰه تعالى - استهزاءً وسخريةً - بأن يُعَجِّلَ لَهم نصيبَهم مِنَ العذاب الذي تَوَعَّدَهم به، وألّا يؤخِّرَه عنهم إلى يوم الحساب(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾:

مبالغةُ المشركين في الإنكارِ والتَّحدّي

الواو في قوله: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ لعطف ما بعدها عَلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾؛ إذ توضِّح السّورةُ أنَّ القومَ تعجَّبوا لشبهات ثلاث، أوَّلُها: تَتَعلَّقُ بالإلَهيّاتِ، وهو قَولُهُ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾، والثّانيَةُ: تَتَعَلَّقُ بالنُّبوّاتِ، وهوَ قولُهُ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾، والثّالثةُ: تَتَعلَّقُ بالمعادِ، وهو قولُهُ تعالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ وذلِكَ لأنَّ القَومَ كانوا في نهايَةِ الإنكارِ لِلقَوْلِ بِالحَشْرِ والنَّشرِ، فكانوا يَستَدِلّونَ بِفَسادِ القَولِ بِالحَشرِ والنَّشرِ عَلى فَسادِ نُبوَّتِه ﷺ(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القول مسندًا إلى ضمير الجماعة:

المشركون مجتمعونَ على إنكارِ البعثِ وتكذيبِ الرَّسول

ما يقوله بعضُ الكافرين ترجمةٌ لما هو راسخٌ في نفوسِهم أجمعين

تعبيرُ القرآنِ بفعل القولِ الموضوع لإبراز ما يُتَصوَّر في النَّفس(3)، فيه دلالةٌ على أنَّ ما نطقت به ألسنةُ المشركين، وحكاه عنهم القرآنُ الكريمُ، فيه إقرارٌ منهم بإنكار البعثِ، وتكذيبُ رسولِ اللّٰه في كلِّ ما يقول، ويخبرُ به، كما أنَّه دليلٌ على استهانتهم بالعقاب الَّذي توعَّدَهم اللّٰه تعالى به في الدُّنيا والآخرة.

وأُسنِدَ فعلُ القول إلى ضمير الجماعة العائد إلى المشركين مع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 347، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 140.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 373، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 225.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (قول).

أنَّ القائل هو: النَّضر بن الحارث، أو أبو جهل؛ لأنَّ القوم كانوا حاضرين المجلسَ الَّذي قيل فيه ذلك الكلامُ، ورضوا به جميعًا، ولم يعترِضْ أحد منهم عليه(1).

الغرضُ من حذف حرف النِّداء:

عادة المشركين إيهام المخاطَبين بأنَّهم قريبون من الله متَّصلون به

﴿رَبَّنَا﴾ هو بداية قولِ المشركين، الذي يحكيه القرآنُ الكريم، وهو أسلوبُ نداءٍ حذفَ الكفارُ ياءه؛ للإيهام بأنَّهم قريبون مِنَ اللّه تعالى، وأنَّه مطَّلع عليهم، عالم بما يشغَلُهم، وتعتمل به صدورهم، وأن ذلك يغنيهم عن استعمال حرف النِّداء المُشعر بوجود فجوةٍ بين الرَّبِّ سبحانه وبين المبتهل المتضرِّع، وذلك كلُّه مِن باب الكذبِ والاستخفاف، كما هو العهدُ بهم.

الغرضُ من النِّداء بعنوان الرُّبوبيَّة، وسرُّ مجيئه مضافًا:

إمعانُ المشركين في الاستهزاء، كأنَّهم يدعون بكمال الرَّغبة والابتهال

في ندائِهم اسمَ الرَّبِّ الموضوع للعناية والرِّعاية والتَّعهُّد(2) في قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ إمعانٌ في الاستهزاء، كأنَّهم يطلبون ذلك بكمال الرَّغبة وصِدق الابتهال(3)، وفي إضافتهم اسمَ الرَّبِّ إلى ضميرهم تَظاهرٌ بالإقرار بربوبيَّةِ اللّه، وإشعار باختصاصه برعاية مصالحهم، وتعهُّد أمورهم، وكأنَّ ما يَدْعون به من تعجيل العذاب مصلحةٌ أكيدةٌ، ومنفعةٌ مُلِحَّةٌ، يتوسَّلون إلى اللّه لتحقيقها.

الغرضُ مِن التَّعبير بفعل الأمر: ﴿عَجِّل﴾:

قولُهم بعد النِّداء: ﴿عَجِّل﴾ فعل أمر غرضُه التَّوسُّل والتَّرجّي بإنزال ما يطلبون على وجه السُّرعة، لِما في التَّعجيل به من المصلحةِ والإحسان من وجهةِ نظرهم(4).

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 225.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (رب).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 166.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 347.

الغرضُ مِن تقديم المجرور على المفعول به:

آثرَ المكذِّبون تقديمَ الجارِّ والمجرور: ﴿لَّنَا﴾ على المفعول به: ﴿قِطَّنَا﴾؛ لإبراز شدَّة اهتمامهم بالاطِّلاع على ما ينتظرهم في الآخرة، أو على صحائفِهم التي دوِّنت فيها أعمالهم، على سبيل الاستهزاء والسُّخرية.

المشركون شديدو الاهتمامِ بمعرفة ما ينتظرهم في الآخرة

دلالةُ التَّعبيرِ بالـ(قِطّ)، والغرض من إضافته:

الـ(قِطّ) يعني: القسطَ مِنَ الشَّيءِ؛ لأنَّه قطعةٌ منه، ويقال لصحيفة الجائزة: قِطٌّ؛ لأنَّها قطعةٌ مِن القرطاس، وقد فُسِّر بهما، فقيل معناه: نصيبنا مِنَ العذاب الَّذي وعدته، كقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ﴾ [الحج: 47]، وأيًّا كان المقصودُ، فطلبُ الكافرين تعجيلَ أمرٍ من أمور الآخرة، وإضافته إلى ضميرِهم إضافةَ تخصيصٍ، فيه ما لا يخفى مِنَ الاستهزاء والإنكار لحقيقة البعثِ وما فيه من حسابٍ وعقابٍ، كما هي عادتُهم، فبعد أن سلكوا مسلكَ الإنكار الصَّريح في مواضع أخرى يسلكون هنا مسلك الإنكارِ المصحوب بالسُّخرية والاستهزاء.

عادةُ الكافرين إنكارُ ما يتَّصل بأمر البعث وما فيه من حسابٍ وعقابٍ

سِرُّ تقييد الفعلِ بالظَّرف ﴿قَبۡلَ﴾:

وتعبيرُهم بالظَّرف ﴿قَبۡلَ﴾ دلالةٌ على رغبتِهم في حصولِ ذلك في أيِّ وقتٍ، قبل يوم الحساب؛ إذ جعلوا جميعَ الزَّمانِ الَّذي بينهم وبينه ظرفًا لذلك، وجعلوا تعجيلَهُ مِنَ الإحسان إليهم دلالةً على الإغراق في الاستهزاء[1].

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ عَنِ الآخرة بـ ﴿يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾:

آثر الكفّارُ التَّعبيرَ عن الآخرةِ بـ ﴿يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ دونَ غيره مِنَ الأسماء؛ لمزيد من السُّخرية والإنكار، ذلك أنَّهم لا يؤمنون بالحسابِ أصلًا، ومن كفرَ بالحسابِ؛ فإنَّه يكفر بالآخرة، وينكرُ ما

الكفّار يعبِّرون بيومِ الحساب دونَ غيرِه لمزيد مِنَ السُّخرية والإنكار

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 347.

فيها من بعثٍ وعقابٍ، وكأنَّ المعنى: عَجِّل لنا نصيبَنا في الدُّنيا قبل يوم الحسابِ؛ لأنَّنا لا نؤمن بوقوعِهِ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يوم الحساب ويوم البعث ويوم القيامة:

الأوَّل روعيت في تسميتِهِ جزئيَّة الـحـسـاب، والـثـاني جزئيَّة البعث، والثالث جزئيَّة القيام

ثلاثتها مِن أسماء يوم القيامة، لكن الأوَّل روعيت في تسميته جزئيَّةُ الحسابِ، الَّتي هي أعظمُ ما يقع في يوم القيامةِ، والأشدُّ وقعًا في القلوب، لكون الحسابِ كاشفًا عن حال المرءِ[2]، كما أنَّ وقوع الحساب "مُفصِحٌ عن تحقُّق القيام الَّذي هو مقتضى المقام"[3]، والثاني روعيت في تسميته جزئيَّةُ البعث، التي هي أوَّلُ ما يحدث في القيامة، وكلُّ ما فيه مِن أحداثٍ وأهوال يأتي تبعًا لها، فمَن أنكرها؛ أنكرَ ما في يوم القيامةِ كلِّه، والثّالث روعيت في تسميته جزئيَّةُ القيام للحشر والحساب والجزاء، إمّا بالثّواب وإمّا بالعقاب.

ولأنَّ السياق جاء لإبرازِ استخفاف الكافرين بالعذاب الَّذي توعَّدهم به الحقُّ ﷻ؛ كان تعبيرُهُم بـ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ أدلَّ على ذلك، لما في التَّعبير به من إظهار عدم الاكتراثِ بالقيامة كلِّها؛ إذ الحساب أشدُّ ما فيها، كما أنَّ مصير النّاس في الآخرةِ يتحدَّد وفقًا لموقفهم فيه، ومِن ثَمَّ فإنَّ إظهارَ استخفافِهم به يترتَّب عليه استخفافُهم بالقيامة كلِّها، وبكلِّ ما فيها.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 141.

(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 346.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 4/ 399.

﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: 17]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لمّا بالغَ الكُفّارُ في عِنادهم وسَفاهتهم؛ حيثُ قالوا: إنَّه ساحِرٌ كذّابٌ، أمَرَ اللّهُ رَسولَه بالصَّبرِ على قَومِهِ وما يتفوَّهونَ به من أذًى وخُبث، وأنْ يَستعينَ على الصَّبرِ بالعبادةِ للّه وحْدَه، وبذِكْرِ حالِ العابِدينَ من الأنبياءِ والمُرسَلين[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱصْبِرْ﴾: (صبر) أصل يدلُّ على الحَبْس، يُقالُ: صَبَرْتُ نَفْسي على ذلك الأمْرِ، أيْ: حَبَسْتُها[2]. والصَّبْرُ: الإمساكُ في ضيق، يقال: صَبَرْتُ الدّابَّة: حَبَسْتُها بلا عَلَف. والصَّبْرُ: حَبْسُ النَّفْس على ما يقتضيهِ العقلُ والشَّرْع، أو عَمّا يقتضيانِ حَبْسَها عنه، فالصَّبْرُ لفظٌ عامٌّ، فإنْ كان حَبْسَ النّفس لِمُصيبة سُمّي صَبْرًا، ويُقابلُه الجَزَع، وإنْ كان في قتالٍ سُمّي شجاعةً، ويضادُّهُ الجُبْن، وإنْ كان في نائبةٍ مُضْجِرَةٍ سمّي رَحْبَ الصّدْر، ويضادّهُ الضّجرُ، وقد سَمّى اللّه تعالى كلّ ذلك صَبْرًا، ونبّه عليه بقوله: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة: 177]، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [الحَجّ: 35]. ويُعَبَّر عن الانتظار بالصَّبْر لِما كانَ حقُّ الانتظار أنْ لا ينفكّ عن الصّبر بل هو نوعٌ من الصّبر، كما قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: 48]، أي: انتظر حُكْمَه لك على الكافرينَ[3]. والمرادُ بالصَّبر في الآية: عدمُ الإياسِ منَ الدَّعوة بسببِ ما يقولونَه من تكذيبٍ وسفاهةٍ.

2) ﴿ٱلْأَيْدِ﴾: يدلُّ أصْلُهُ عَلَى القوَّةِ والحِفْظ[4]، والأيْدُ والآدُ: القوَّةُ. والتّأْييد: مَصْدَرُ أيَّدتُهُ أي: قَوَّيْتُه[5]، وتَأيَّد الشَّيْءُ: تَقَوّى، والأيْدُ مفردٌ بوزن البَيْع، وهو مصدرٌ، وليس جَمْعَ

(1) السَّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 711.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صبر).
(3) الرَّاغب، المفردات: (صبر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أيد).
(5) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ، وابن منظور، لِسان العَرب: (أيد).

يدٍ، يقال: آدَ الرّجلُ يَئيدُ أيْدًا وإيادًا بالكسر إذا قَويَ واشتدَّ، فهو أيِّدٌ، مثلُ سَيِّد وهَيِّن، ومنه قولُهم: أيَّدَك اللّهُ تأييدًا. والمرادُ به في الآيةِ: ما كانَ عليه داوودُ ﷺ من القوَّةِ على العِبادة(1).

3) ﴿أَوَّابٌ﴾: آبَ أوْبًا وإيابًا ومَآبًا: رَجَعَ. والمآبُ: مَصْدرُ الفعل واسمُ الزّمان والمكان. والأوْبُ: ضَرْبٌ مِن الرُّجوع، وذلك أنّ الأوْبَ لا يقالُ إلّا في الحيوان الّذي له إرادةٌ، بخلافِ الرُّجوع، فإنّه يقالُ فيهِ وفي غيره. والتَّأْويبُ: سَيْرُ النَّهار(2)، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ٢٥﴾ [الغاشية: 25]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩﴾ [النَّبأ: 39]، والأوّاب كالتّوّاب، قال تعالى: ﴿أَوَّابٍ حَفِيظٍ ٣٢﴾ [ق: 32](3)، وهو في الآية: الرّاجِعُ إلى اللّه تعالى بتَرْك المَعاصي وفِعْل الطّاعات.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

اصبِرْ - أيُّها الرسول - على ما يتَقوَلّه هؤلاءِ المُكَذِّبونَ المُعاندون مِمّا تَكرهُهُ، ولا يُرضيك، واذكرْ عبدَنا داوودَ صاحبَ القوّةِ على مقارعةِ أعدائِه، والصَّبرِ على طاعةِ اللّه وحدَه، إنَّه كانَ كثيرَ الرُّجوع إلى اللّه بالتَّوبة، والعملِ بما يُرضيه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفصل لكمال الانقطاع:

مِـن خُـلُـقِ المُرسَلين الصّبرُ على المكذِّبين

جُملة ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ لا محلّ لها استئنافيّة، وفُصِلت عَمّا قَبْلَها: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ١٦﴾ [ص: 16]؛ لكمالِ الانقطاع، واختلافِ الجملتَين خَبَرًا وإنشاءً، فجملةُ (قالوا) خبريَّة، وجملة ﴿ٱصْبِرْ﴾ إنشائيَّة، والغرضُ بيانُ الموقفِ من المكذِّبينَ بالصَّبر على أذاهُم واتهاماتِهم الباطلة، ويحتملُ أنَّ الفصلَ وقعَ في

(1) القنوجي، فَتْح البيان: 12/ 21.
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمْدة الحُفَّاظ: (أوب).
(3) الرَّاغب، المفردات: (أوب).

جوابِ سؤالٍ مقدَّر؛ إذ بعدَ تخرُّصِ المكذِّبين نشأ سؤالٌ عن الموقف منهم، وكيفيّةِ التّعامُل معَهم، فأجابَ عن ذلك بالأمرِ بالصَّبر والتّأسّي بسيَرِ الأنبياءِ الَّذين أظهرَهمُ اللهُ على عدوِّهم، فالفصلُ لشِبهِ كمالِ الاتّصال.

غَرض الأمر بالصّبر:

دوامُ الصَّبر عنوانُ الفَخْر

دلّ الأمر بالصَّبر على الدَّوام والاستمرار فيه، أي: داوِمْ على الصَّبْر، واستَمِرَّ عليه. وفيه تهديدٌ للكُفّار، وتسليةٌ للرَّسول ﷺ، كما تضمّنَ الأمرُ توجيهًا للدُّعاة إلى الله تعالى بأهميَّة التّحلّي بصفةِ الصَّبر، وأنّ الظّفَر فيه، إذ أمرُ النّبيِّ ﷺ - وهو القدوة - بذلك، أمرٌ لكلِّ مَن مضى على طريقتِهِ في التّبليغِ والدَّعوة والإرشاد، ودلّ الأمرُ على الثّباتِ على الموقف، وعدمِ التّنازلِ عن الدَّعوة، سواء بالمجابهة، أو بعدمِ الرّدِّ على الأذى.

نُكْتَةُ التَّعبير بِحَرْف الاستعلاء:

التّعالي على الأذى جلوسٌ على قمّة الصَّبر

أشارَ بِحَرْفِ الِاسْتِعْلاءِ إلى شِدَّة تَأثُّر النَّبيِّ ﷺ؛ بإعراض الكفّار عن الإيمانِ بدعوتِه، واستهزائهم بِهِ، وإلى عَظيمِ الصَّبْرِ[1]، إذ دلالةُ الاستعلاء هنا معنويّةٌ ومجازيّة؛ إذ لا يكون الصّبرُ فوقَ ما يقولونَه من اتّهاماتٍ وأكاذيبَ، والغرضُ من علوِّ الصّبر وهيمنتِهِ على الأذى أنْ يترفّع النّبيُّ الكريم ﷺ عليهم، وعلى أوهامِهم واتّهاماتهم، وأنْ يهتمَّ للدّعوة والمنهج، ولا يلتفتَ ولا يكترثْ لسيلِ الاتّهامات، كما دلَّ حرفُ الاستعلاء على عظيمِ تحمُّلِ النّبيِّ الكريم لأذى قومِه، ولذا أُمِرَ بالمداومةِ على ذلك التّحمُّلِ من أجل تحقيق أعلى درجاتِ الصَّبر.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع:

عَبّر النّظمُ الكريم بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ إصرارهم

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 349.

استمرارُ التّكذيب داعٍ إلى الثّبات والصَّبر

على الكُفْر، وعِنادِهم واستهزائهم وتَقَوُّلهم على الرَّسول ﷺ، ولاستحضارِ الصّورة الماضية، وللإشعار بأنَّ ما قالوه في الماضي يُجدِّدونَه في الحاضر والمستقبل؛ فعليه أنْ يَتهيَّأَ لاستقبال هذه الأقوال الباطلة بِصَبر وسَعة صَدْرٍ حتّى يحكُمَ الله تعالى بحُكْمِه العادل بينَه وبينهم[1]، وتلك مواساةٌ له ﷺ، وكأنَّه يُراد أنْ يُقال له: إنَّهم "يُجَدِّدونَ قَوْلَه في كُلِّ حينٍ مِنَ الأقْوالِ المُنْكِيَةِ الموجِعَةِ المُبْكِيَةِ؛ فَإنَّهُ لَيْسَ لِنَقْصٍ فيك، ولَكِنَّهُ لِحِكَمٍ تَجِلُّ عَنِ الوَصْفِ، مَدارُها زِيادَةُ شَرَفِكَ، ورِفْعَةِ دَرَجاتِكَ"[2]، وفي إسنادِ الفعلِ المضارعِ إلى جماعتهم ما يدلُّ على تواطُئِهم واتّفاقِ كلمتِهم على الباطل والكذبِ والزَّيف.

حَذْفُ الضّمير العائد لـ ﴿يَقُولُونَ﴾:

دعوةُ الرَّسولِ ﷺ إلى تَحمُّل شَتَّى صُنوفِ أذى أعدائه

حَذفَ النّظمُ الكريم معمولَ الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، والتّقدير: (يقولونه)؛ بناءً على أنَّ (ما) اسمٌ موصول، وذلك لتعميم صَبْره ﷺ على جميع ما يَصْدُرُ مِن هؤلاء الكفّار مِن أقوال تُؤْذيه، وللتّركيز من خلالِ هذا الإيجازِ الحذفيِّ على فعلِ القول المُسنَد إليهم دونَ المَقول، الذي تقدَّمتِ الإشارة إليه، إظهارًا لشناعةِ قولهم، واستقباحًا واستفظاعًا له.

دلالة الوصل في ﴿وَٱذْكُرْ﴾:

التّأسّي بالأنبياء والمرسلين وصولًا إلى الظّفَر المبين

عطفَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ الطّلبيّةَ الواردةَ في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ على الأمر بالصَّبر، عطفَ الإنشاءِ على الإنشاء لكمالِ الاتّصال بينهما، ولدعوةِ الرَّسولُ ﷺ إلى الاقتداءِ بالأنبياءِ والمرسَلين - وأوّلُهم ذِكْرًا داوودُ عليه السلام - في الصَّبْر؛ و"بَدَأَ مِن أهْلِ الشَّرَفِ بِمَن كانَ أوَّلُ أمْرِهِ مِثْلَ أوَّلِ أمْرِ هذا النَّبيِّ الكَريمِ في اسْتِضْعافِ قَوْمِهِ لَه، وآخِرُ أمْرِهِ مَلِكًا ثابِتَ الأرْكانِ، مَهيبَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 141.
(2) البِقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 349.

السُّلْطانِ؛ ليَكونَ حالُهُ مَثَلًا لَه، فيَحْصُلَ بِهِ تَمامُ التَّسْلِيَة"[1]، وأفاد النَّظمُ أيضًا جَلالَةَ قَدْرِ المُقتدى به في الصَّبْرِ عَلى طاعَة اللَّهِ، وذَلِكَ تَشْرِيفٌ عَظيمٌ، وإكْرامٌ لِداوُدَ ﵇، حَيْثُ أمَرَ اللَّه أفْضَلَ الخَلْقِ مُحَمَّدًا ﷺ بِأنْ يَقْتَدِيَ بِهِ في مَكارِمِ الأخْلاقِ[2]. وفي التّأسّي بالأنبياء والتّنبُّهِ لما قاسَوْهُ من تعبٍ عظيمٍ في مجالِ الدَّعوة إلى اللّه تعالى تنبيهٌ للقوم إلى أنَّ أمرَ هذا النّبيِّ ليسَ بِدعًا، بل حالُه شبيهٌ بحال أولئك الصّالحين الّذين ظفروا بالفوز في نهاية المطاف، فالعطفُ إمّا أنْ يكونَ عَطْفًا على قَوْلِه: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بِأنْ أتْبَعَ أمْرَهُ بِالصَّبْرِ وبِالتَّأسّي بِبَعْضِ الأنْبياءِ السّابِقينَ فيما لَقوهُ مِنَ النّاسِ، ثُمَّ كانَتْ لَهم عاقِبَةُ النَّصْرِ وكَشْفُ الكَرْبِ، وإمّا أنْ يَكونَ عَطْفًا على مَجْموعِ ما تَقَدَّمَ عَطْفَ القِصَّة، والغَرَضُ هوَ هوَ[3].

دلالةُ فعلِ الأمر ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾:

المقصودُ أصالةً وتبَعًا

آثرَ النَّظمُ الكريم إيرادَ فعلِ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾؛ ليَجمعَ بين دلالةٍ مقصودةٍ أصالةً، ودلالةٍ مقصودةٍ تبعًا؛ فالدّلالةُ الأصليّة: تنبيهُ النّبيِّ ﷺ على تذكُّر حالِ داوودَ ﵇ التّذكُّرَ القلبيَّ من خلال استرجاعِ فضائله وما آلَ إليه أمرُه ممّا أُخبِرَ بها سابقًا، وخصالِه التي يُخبَرُ بها الآن؛ لتسليتِه وحفظِ كماله الشَّريف، فالمقصودُ بالذِّكر هنا التَّذكُّر، بمعنى التَّذكُّر القَلْبي، أي: تَذَكَّرْ قِصَّةَ داوود ﵇ وصُنْ نَفْسَكَ أنْ تَزِل فَتُعاتَبَ كما عوتِب؛ لِتَرْكِه الأوْلَى، وليس المراد الذِّكر اللِّسانيّ[4]. والدّلالةُ التّبعيّةُ إعلامُ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 349.

(2) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/ 184.

(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 376، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 226.

(4) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 7/ 187.

المشركين والمسلمين بخبر هذا النّبيِّ الذي لم يكنْ له مُلكٌ وجندٌ وسُلطان، لكنَّ اللّه تعالى أظفرَهُ بعدوِّه حتّى صار مَلِكًا عظيمًا.

سِرُّ التَّعبير بِالعبوديَّة:

العـبـوديَّـة لله تـعـالى أشـرفُ الدّرجات

آثر النّظمُ التّعبير بِوَصف العبوديَّة في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾؛ إشارةً لمكانة داوودَ ﵇ عِنْد رَبِّه، ولتشريفه بتلك العبوديَّة للّه تعالى، حيثُ إنّها أعلى مقامات العَبْد، وللإشارةِ إلى تَحَقُّق تلك العبوديَّة في داوود ﵇، ولم يكتفِ بقوله: (واذكر داوود)؛ لأنَّ ذِكْرَ الشّيءِ مُبهمًا ثمَّ العمدَ إلى تفصيلِه يورِثُ تقريرًا له في ذِهنِ السّامع معَ تحقيقِ مزيدٍ من الإصغاءِ نتيجةَ التّشويق؛ إذِ الحاصِلُ بعدَ الطَّلب أعزُّ من المُنساق بلا تعَب.

نُكْتَةُ الإضافة إلى نون الجَمْع:

تعظيمُ الأنبياء واجـــبٌ عـلى الأتقياء

عبّر النّظمُ الجليل بالإضافة إلى نون الجَمع في قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ بَعْدَ وصْف داوودَ ﵇ بالعبوديَّة للّه تعالى، لتحقيق كمالِ التَّعظيم والتَّشريف، ويدلُّ بطريق الإشارة على وجوبِ تعظيم الأنبياء، وأنَّ تلك خُلّةُ الأتقياء. ولذا عَبَّرَ سبحانه عَن نَفْسِه بِصيغَة الجَمْع الدّالَّة على نِهايَة التَّعْظيم، لأنَّ ذَلِك غايَةُ التَّشْريف[1].

الموقع الإعرابيُّ لـ: ﴿دَاوُۥدَ﴾:

تقرير النِّسبة وتـقـويـتُـهـا في ذِهنِ السّامع

اشتملَ قولُه: ﴿عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ على ﴿دَاوُۥدَ﴾ وهو بدلٌ أوْ عطفُ بيان من ﴿عَبۡدَنَا﴾، والغرضُ من البيان: التّوضيحُ والكشفُ بذِكْر اللَّفظ باسمِه الدّالِّ عليه؛ ليكون أوضحَ له وأبينَ، فيَحْصُلُ عندَه التّمييزُ بشكلٍ أكملَ وأبرز، كما أنَّ البدليَّةَ تفيدُ أنَّ البدلَ هو المقصودُ بالحُكم، فيُفيدُ بذِكرِ المُبدَل منه تقريرَ النِّسبة وتقويتَها في ذهنِ السّامع، و﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ صفةٌ للبدل بمركَّبٍ إضافيٍّ بمعنى

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/ 185، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 376، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 227.

(ذا القوة)، و﴿ٱلۡأَيۡدِ﴾ مصدرٌ يتوصَّل للوصفِ به بـ(ذو)، وفائدةُ التَوصيف إظهارُ صفةٍ له تفسِّرُ سببَ الأمر بتذكُّره وعدم نسيانِه، فيكونُ الوصفُ بمثابةِ التّعليل. وقد أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بِذِكْر داوودَ عليه السلام؛ ترغيبًا في الضَّمير المأمورِ به، بأنَّ له فيه مِن إحسانِ اللّه إليه على نَحْوِ إحسانِهِ لداوودَ عليه السلام، ولكي يتقوَّى على الصَّبْر بِذِكْره قوَّةَ داوودَ عليه السلام في العِبادة[1].

نُكْتَةُ البَدْءِ بِداوودَ عليه السلام:

تبشيرُ الرَّسول ﷺ

ابتُدِيء بِذِكْر داوود عليه السلام؛ لأنَّ اللّه تعالى أعطاه مُلْكًا وسُلطانًا لم يكُن لأحدٍ مِن آبائه، ففي ذِكْره إشارةٌ إلى أنَّ شأنَ محمَّد ﷺ يصيرُ إلى العِزَّة والسُّلْطان، ولم يكن له مَنَعَةٌ ولا جُنْد؛ فأشبهَ حالُه ﷺ حالَ داوودَ عليه السلام[2].

بيان المراد بالكِناية ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾:

القوَّةُ مَحمودَةٌ إنِ اسْتُعْمِلت في نَصْرِ دينِ الله، والتَّمكين لَه

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ على صِفةٍ هي القُوَّة الكاملةُ والشّديدة؛ لأنَّ إضافة صاحبِ إلى المصدر تجعلُه متمكِّنًا فيها حائزًا لأعلى درجاتِها ومميّزاتها. والمقصودُ هنا القوَّةُ والاجتهادُ في أداء العبادةِ والأمانة، والقوَّةُ في الدّين، وتَحَمُّلُ مشاقِّه وتكاليفه، والنُّهوضُ بأعباءِ النُّبوَّة، حيثُ كان داوودُ عليه السلام يصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا، ويقومُ نِصْفَ اللَّيل. والدَّليل على أنَّ المراد بالقوَّة القوَّةُ في الدّين لا في البَدَن، قولُه تعالى تعليلًا للأمر بالتّذكّر لداوودَ الموصوفِ بأنّه ذو الأيد: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: رَجّاعٌ إلى مَرْضاة اللّه تعالى، وهذا لا يستلزِمُ القوَّةَ في البَدَن[3]. وإنْ كان هذا لا يَمْنَع أيْضًا قوَّةَ البَدن؛ لأنَّه عليه السلام ما كان لِيَقْوى على الاجتهاد في العِبادة إنْ لَم

(1) الواحديّ، التَّفسير البسيط: 19/ 171.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 226.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 7/ 187، والقاسميّ، مَحاسن التَّأويل: 14/ 5084.

يَكُن صحيحَ الجِسْم، قَويَّ البُنْيان. وكانَ داوُدُ قَدْ أُعْطيَ قوَّةً نادِرَةً، وشَجاعَةً وإقْدامًا عَجيبَيْنِ، وكانَ يَرْمي الحَجَرَ بالِمقْلاعِ فَلا يُخْطِئُ الرَّمْيَةَ، وكانَ يَلْوي الحَديدَ ليَصْنَعَهُ سَرْدًا لِلدُّروعِ بأصابِعِه، وهَذِهِ القوَّةُ مَحْمودَةٌ؛ لِأَنَّهُ اسْتَعْمَلَها في نَصْرِ دينِ التَّوْحيدِ[1]، ونلحظُ تحقُّقَ التّناسبِ بين الأمرِ بالصَّبر على مشاقِّ الدّعوة، ذلك الأمرُ الذي يحتاجُ إلى القوّة والثّباتِ بذِكْرِ صفةِ القوّة عند داوود ﷺ؛ إذ من لوازم الصَّبر التّحلّي بالقوّة وتذكُّرِ مواطنِ القوّة فيمَن سبقَ من الأنبياء.

دلالةُ الفَصْل بالجملةِ الاسميّة المؤكَّدة:

إثبـاتُ العِلَـلِ والأسبابِ

فُصِلت الجملةُ الاسميّة: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها واقعةٌ تعليلًا لجملة الأمْر: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، إذِ الأمرُ دالٌّ على سؤالٍ مقدّرٍ يقعُ ما بعدَه جوابًا له؛ وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الأمرَ بالتّذكُّر لِقَصْد التَّأسّي والاقتداءِ بداوودَ[2]؛ فداوودُ ﷺ مَوصوفٌ بالقوَّةِ والعُبوديَّةِ؛ وذلك لأنَّه رَجّاعٌ إلى اللّهِ ﷻ، وكلُّ مَن كان رَجّاعًا إلى اللّهِ فسوفَ يكونُ قويًّا في عُبوديَّتِه[3]، ونلحظُ أنَّ الجملةَ اشتملتْ على أكثرَ من توكيد؛ فهي اسميّةٌ مؤكَّدةٌ بـ(إنَّ)، معَ الاشتمالِ على صيغة المُبالغة؛ ليكونَ أثبتَ للمطلوبِ، وأقوى في الحُكم، وأدلَّ على المقصود من التّعليل.

دلالة التَّعبير بصيغة المبالغة:

توكيدُ أوْبةِ داوودَ ﷺ بمُؤكّدين

آثَر النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة المبالغة: ﴿أَوَّابٌ﴾؛ دلالةً على كَثْرة رجوع داوود ﷺ إلى اللّه تعالى، وإلى شِدَّة خَشْيته مِنْه سبحانه، والمُرادُ: الرُّجوعُ إلى ما أمَرَ اللّٰه بِهِ، والوُقوفُ عِنْدَ حُدودِهِ وتَدارُكُ ما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 227.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 227.
(3) ابن عُثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 87.

فَرَّطَ فيهِ، والتّائِبُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ الأوّابُ، وهذا غالِبُ اسْتِعْمال القُرْآن الكريم، وهو مَجازٌ[1]، ولا يخفى أنَّ الصّبرَ على أقاويلِ المُكذّبين تحتاجُ إلى قدوةٍ صالحةٍ، قد مارستِ الصّبرَ من خلال القوَّة التي حصلَتْ بكثرةِ الرُّجوعِ إلى الله تعالى والتّمسُّكِ بأوامره، وفي ذلك إرشادٌ للنّبيِّ ﷺ بأنَّ الرّجوعَ إلى الله، والتّمسُّكَ بأوامره سببٌ لتحصيلِ القوَّةِ، التي تُمِدُّ بالصَّبر والثّبات على المنهج.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 227.

﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: 18 - 19]

مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

في الآية السّابقة أَمْرٌ للرَّسول ﷺ بالاقتداء بداوودَ عليه السلام في الصَّبْر، وفي هاتينِ الآيتَين بيانٌ لبعضِ فضائلِ داوودَ عليه السلام، وإنعامِ اللّه تعالى عليه بنِعَمٍ جعلتْهُ مُؤيَّدًا وقويًّا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَخَّرْنَا﴾: (سخر) أصل يَدُلُّ على التَّذليل والاحْتِقار والاسْتِذْلال، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُنا: سَخَّرَ اللّهُ عز وجل الشَّيْءَ، وذَلِكَ إذا ذَلَّلَه لِأَمْرِه وإرادَتِه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: 13]. ويُقالُ رَجُلٌ سُخْرَةٌ: يُسَخَّرُ في العَمَلِ، وسُخْرَةٌ أيْضًا، إذا كانَ يُسْخَرُ مِنْه. ويُقالُ: سُفُنٌ سَواخِرُ مَواخِر. فالسَّواخِرُ: المُطيعَةُ الطَّيِّبَةُ الرّيحِ، والمَواخِرُ: الَّتي تَمْخَرُ الماءَ وتَشُقُّهُ[1]. والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصّ قَهْرًا، فالمُسَخَّرُ هو المقيَّضُ للفعل، والسُّخْرِيُّ: هو الذي يُقْهَر فَيَتَسَخَّرُ بإرادتِه، قال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزّخرف: 32]. والمرادُ به في الآية: جعلُ الجبالِ مُطيعةً لأمره، ومنقادةً لتسبيحِه؛ إذ تُشاركُهُ التّسبيحَ والتّمجيدَ للّه تعالى.

2) ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾: (عَشَوَ) أَصْلٌ يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ[2]. والعَشِيُّ: النَّهارِ مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، وهو المقصود هنا، أو مِنَ الظُّهرِ إلى نِصْفِ اللَّيلِ، أَوْ صَلاةِ العَصرِ، أو آخِرِ النَّهارِ، والعِشاءُ: هوَ أوَّلُ ظَلامِ اللَّيلِ. وعَشْواءُ اللَّيلِ: ظُلْمَتُه.

3) ﴿وَٱلْإِشْرَاقِ﴾: (شَرَقَ) أصلٌ يدُلُّ على إضاءةٍ وفتحٍ[3]. والإشراق: مصدرُ أشرقَتِ الشّمسُ، أي: أضاءَتْ، يقال: شَرَقَتِ الشّمسُ شُروقًا: طلعَتْ، وأشرقَتْ: أضاءَتْ، وشَرِقَتْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سخر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عشو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شرق).

- بالكَسْر - أخذَتْ ودَنَتْ للغُروب[1]. والإشراق: وقْتُ إشراقِ الشَّمسِ وسُطوعِها وصَفاءِ ضَوئِها، وهو وقتُ صَلاةِ الضُّحى، وهو غيرُ الشُّروقِ؛ لأنَّ الشُّروقَ هو وقتُ طُلوعِ الشَّمسِ، يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ: إذا طَلَعَت. والمرادُ بـ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ في الآية إمّا خصوصُ وقتِهما المُعيَّن، أوِ الاستمرارُ في كلِّ وقتٍ على التّسبيحِ والتّمجيد ما سبَّحَ داوودُ للّه تعالى.

4) ﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾: أي: مَجموعةً. وأصلُ الحَشرِ: يدُلُّ على السَّوقِ والبَعثِ[2]، يقالُ: حَشَرَهُم يَحْشُرُهم ويَحْشِرُهم حَشْرًا، أي: جَمَعَهُم؛ ومِنْهُ يَوْمُ المَحْشَرِ. والحَشْرُ: جَمْعُ النّاسِ يَوْمَ القيامَةِ. والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليه القَوْمُ، وكَذَلِكَ إذا حُشِروا إلى بَلَدٍ أو مُعَسْكَرٍ أَوْ نَحْوِهِ[3]. والحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مَقرّهم، وإزعاجِهم عنه إلى الحربِ ونحوِها. ولا يقالُ الحَشْرُ إلّا في الجماعة، قال اللّه تعالى: ﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾ [الشّعراء: 36][4]. والمرادُ به في الآية: جمعُ الطّيور من أكنانِها له ومن حوله؛ لكي تُرَجِّعَ تسبيحَه وتمجيدَه للّه تعالى.

5) ﴿أَوَّابٞ﴾: أي: رَجّاعٌ توّابٌ، مِن قَولِهم: آبَ الرَّجُلُ إلى أهلِه: إذا رجَعَ[5]. وأصلُ (الأَوْب): يدُلُّ على رُجوعٍ. وآبَ يَؤوبُ أَوْبًا وأَوْبَةً وإيابًا. والأوّابُ: التّائبُ. والمآبُ: المَرْجِعُ. والأَوْبُ: سُرْعَةُ تَقْليبِ اليدينِ والرِّجْلَيْنِ في السَّيْر، والتَّأْويب: السَّيْرُ بالنَّهار أجمعَ، والنُّزولُ باللّيْل[6]. والمرادُ به في الآية: أنَّ الطّيور المجموعةَ له ترجِعُ إليه لتُرَجِّعَ صوتَه بالتّسبيح والتّنزيهِ للّه تعالى.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هاتينِ الآيتين الكريمتين ذِكْرٌ لِبَعْضِ فضائلِ داوودَ عليه السلام التي أَيَّدَهُ اللّه تعالى بها؛ لشِدَّة إنابته لرَبِّه وعبادته، حيثُ سَخَّرَ اللّهُ الجبالَ معه، تُسَبِّح معَه بِحَمْد ربِّها، وتُقَدِّسُهُ وتُنَزِّهُهُ أَوَّلَ النَّهار وآخِرَه، كَما سَخَّر سبحانه الطَّيْرَ معه مجموعةً تُسَبِّحُ، وتُطيعُ تَبَعًا له.

(1) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحُفَّاظ: (شرق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حشر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (حشر).
(4) الرَّاغب، المفردات: (حشر).
(5) ابن قُتَيْبة، غريب القرآن، ص: 378.
(6) الجَوْهَري، الصِّحاح: (أوب)، والكَفَوي، الكُلِّيَّات، ص: 209.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفصل في قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا﴾:

اللّـهُ تعالى مصدرُ القوّة والتّأييد

عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ﴾، وهي جملة استِئنافيّةٌ مَسوقةٌ لِبَيانِ قِصَّة داوودَ عليه السلام، أوْ لتعليلِ قوَّته في الدّين وأوّابيَّته إلى مَرضاته تعالى، وتقديرُ الكلام: اذْكُرْ فَضائِلَ داوود وما أنْعَمْنا عَلَيْهِ من تَسْخيرِ الجبالِ وكَيْتَ وكَيْتَ[1]، فتكون الجملة واقعَةً بَيانًا لِجُمْلَة: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا﴾، وهذه عِلَّة فَصْلها. ويحتملُ أنَّها فُصِلت لـ(شِبهِ كمالِ الاتّصال)؛ إذ نشأ سؤالٌ من وصفِ داوودَ بالقوّة عن مصدرِها ونوعِها، فجاءتِ الجملةُ بيانًا لمصدرِ تلك القوَّة، وهو اللّه تعالى، ولنوعِها، وهي تسخيرُ الجبال والطّيرِ له.

دلالات التّوكيد والإسناد و(أل):

البَشَرُ مَجْبولٌ على إنكار الخَوارق

أُكِّدت قدرةُ اللّه تعالى على تسخيرِ الجبالِ مع داوودَ عليه السلام بـ(إنَّ، واسميَّة الجملة، وتضعيفِ الفعل)، وفي هذا دلالةٌ على مُطلقِ قُدرتِه تعالى، وإشارةٌ إلى أنَّ المُعجزاتِ الحِسّية التي أيَّدَ اللّهُ بها رُسُلَه وأنبياءَه عليهم السلام إنَّما هي بِمَدَدِه سبحانه وبإذنه. والتّأكيدُ أيضًا؛ "لِما طُبِعَ عَلَيْهِ البَشَرُ من إنْكارِ الخَوارِقِ؛ لِتَقَيُّدِه بالمَألوفاتِ"[2]، والتَّعبيرُ بنون الجَمْع في: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا﴾ مَعَ إيرادِ الفعلِ مُضعّفًا تعظيمٌ لهذا التَّسخير، وتفخيمٌ لشأنِه. و(أل) في ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ للاستغراقِ الدّالِّ على الشُّمول العُرْفيّ، فَكُلُّ الجبال كانتْ تَذْكُرُ اللّه تعالى مع داوودَ عليه السلام؛ اقتِداءً به في عِبادةِ اللّه تعالى.

نُكْتَةُ التّقديم والتّأخير للظّرف:

ذَكَرَ اللّهُ تعالى مِنَ النِّعَم الَّتي خَصَّ بِها داوودَ عليه السلام تسخيرَ الجبال مُسبِّحةً، وقد تقيَّد التّسبيحُ بالظّرف (مع)، وهو ظَرْفٌ دالٌّ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، والآلوسيّ، روح المعاني: 23/ 239.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 350.

أصالةُ داوودَ في التّسبيح، وتبعيّةُ الجبالِ والطّيور له في ذلك

المشاركة، مُتَعَلِّقٌ بِالفِعْلِ ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾، ولَيْس ظَرْفًا لِلفعل: ﴿سَخَّرۡنَا﴾؛ وقد قُدِّمَ عَلى مُتَعَلَّقِه هنا وفي سورة الأنبياء؛ لإرادة الاختصاص، لكنّه وردَ هنا متأخِّرًا عن ذِكْر ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾، فقال: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾؛ لإبراز القوّة التي تأيَّدَ بها، فكان ذكرُ الجبال أوّلَ الأمر دالًّا على موطنِ التّأييد والقوّة التي جاءتِ الجملة لبيانها، في حين تقدَّمَ الظّرفُ على الجبال في سورة الأنبياء، حيثُ قال: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ٧٩﴾ [الأنبياء: 79]؛ لِلاهْتِمام بِمَعيَّتِه المَذْكورَةِ بِهِ؛ إظهارًا لِكَرامَةِ داوُدَ عليه السلام[1].

دلالةُ الجملة الفعليّة المضارعيّة:

المخلوقاتُ بأسرها خاضعةٌ لربِّها

وقعتِ الجُمْلَةُ الفعليّة ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ على الحالِ، وفي هذا بَيانُ ما أعْطاهُ اللّهُ لداوودَ عليه السلام مِنَ البُرْهانِ والتَّأييد والمُعْجِزَةِ، وهو تَسْبيحُ الجِبالِ مَعَه، أيْ: يُقَدِّسْنَ اللّهَ سُبْحانَه، ويُنَزِّهْنَه عَمّا لا يَليقُ بِهِ مَعَه بِصَوْتٍ يَتَمَثَّلُ لَهُ، أوْ يَخْلُقُ اللّهُ تَعالى فيها الكَلامَ[2]، وعبَّر عن الحال بالمُضارِعِ دونَ اسم الفاعل (مُسَبِّحاتٍ) الَّذي هو الأصلُ في الحالِ؛ لأنَّه أُريدَ الدَّلالةُ على تَجدُّدِ تَسبيحِ الجِبالِ مَعَه كلَّما حضَرَ فيها، ولاستِحضارِ تلك الحالةِ الخارقةِ للعادةِ من حُدوثِ التَّسبيحِ مِنَ الجِبالِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، وحالًا بعْدَ حالٍ؛ لِأنَّها جَمادٌ. وكأنَّ السّامِعَ حاضِرٌ تلك الجبالَ يَسمَعُها تُسَبِّحُ، ويراها فيتعَجَّبُ مِن القدرة الإلَهيَّة[3]. قال مُقاتل: كان داوود عليه السلام إذا ذَكَرَ اللّهَ ذَكَرَت الجبالُ معه، وكان يَفْقَه تسبيحَ الجبال[4]. وأجاز البقاعيّ في: "﴿يُسَبِّحۡنَ﴾؛ أنْ يَكونَ اسْتِئْنافًا؛ وأنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 228.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، والشَّوْكاني، فَتْح القدير: 4/ 599.

(3) الزَّمخشري، الكَشَّاف: 5/ 250، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 188، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 228.

(4) القنوجي، فَتْح البَيان: 16/ 377 - 378.

يَكونَ حالًا، بِمَعْنى أَنَّهُنَّ يَنْقَدْنَ لَهُ بِالتَّسْبيحِ؛ قالًا وحالًا؛ انْقيادَ المُخْتارِ المُطيعِ لِلَّهِ"[1].

نُكْتَةُ ذِكْرِ نونِ النّسوة:

تسبيحُ كُلِّ جَبَلٍ بِصَوْتٍ غَيْرِ مُشْبِهٍ للآخَر

وردَ الفعلُ المضارعُ مُسنَدًا إلى نونِ النُّسوة في قوله تعالى: ﴿مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾؛ إشارَةً إلى أنَّها فوقَ ما لَها مِنَ الصَّلابَةِ، صارَتْ في غايَةِ اللّينِ والرَّخاوَةِ، يُسَبِّحُ كُلُّ جَبَلٍ مِنها بِصَوْتٍ غَيْرِ مُشْبِهٍ بِصَوْتِ الآخَرِ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَقْرَبُ إلى التَّمْييزِ؛ والعِلْمِ بِتَسْبيحِ كُلٍّ عَلى انْفِرادِهِ[2]، ولذا قال البقاعيّ: "ولَمْ يَقُلْ: (مُسَبِّحَةً) أوْ: (تُسَبِّحُ)؛ لِئَلّا يُظَنَّ أنَّ تَسْبيحَها بِصَوْتٍ واحِدٍ؛ لِيُشْكِلَ الأَمْرُ في بَعْضِها"[3].

سِرُّ إيثارِ الظّرف على حَرْف الاختصاص:

تَبَعيّةُ الجِبالِ لـداوودَ عليه السلام واقتدائِها بِه في تسبيحِه

أوثِرَ الظّرفُ الدّالُّ على المصاحبة على حَرْف الاختصاص (له) في قوله تعالى: ﴿مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾؛ لِما أُشيرَ إليه في سورة الأنبياء في قوله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: 79] من أنَّ تسخيرَ الجبال لم يكن بطريقِ التَّصرُّف الكُليّ فيها إليه، كتسخيرِ الرّيح وغيرها لسليمانَ عليه السلام، بل بطريقِ التَّبعيّةِ له والاقتداءِ به، قيل: كانَ تسخيرُها أنَّها تسيرُ معه إذا أرادَ سيرَها إلى حيثُ يريد[4].

الدّلالة بين الحقيقة والمجاز:

للجَماد إرادة، فالتّسبيح لا يكون إلّا بها

يحتملُ قوله: ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ الحقيقةَ؛ بأنْ خَلَقَ اللّهُ تعالى الكلامَ فيها، وذلك أمرٌ ممكنٌ، حيث جَعَلَها تتكلّمُ على سبيل الحقيقة، وفيها تشخيصٌ للجمادات؛ إذ "للجماد إرادةٌ؛ لأنَّ التَّسبيحَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بإرادة، ويدُلُّ على ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ

(1) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.
(2) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.
(3) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 568.

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾" [الإسراء: 44][1].

ويحتملُ إرادةَ المجاز فتكونُ هنالك استعارةٌ مكنيّةٌ تخيليَّة، حيثُ شُبِّهتِ الجبالُ بعاقلاتٍ يُسَبِّحنَ اللّهَ تعالى، وفي هذه الاستعارةِ تشبيهُ حِسّيٍّ جامد بِحِسّي حيّ متحرّك، وبناءً عليه تكونُ الجبال المنقادةُ المطيعةُ لأمره السّائرةُ بسيره كأنَّها تُسبّحُ بحالها دونَ مقالها، ويترجّحُ لدينا الأوّل؛ لأنَّ عذوبةَ صوتِه جَعَلتِ الجماداتِ تُحِسُّ وتنتشي بقدرة اللّه تعالى، حتّى إنَّها أخذتْ بالتّسبيح للّه تعالى، وذلك أظهرُ دلالةً على قوله: ﴿دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

دلالةُ ذِكْرِ المتُعلّق:

لِفَضيلَة الأزْمنَة والأمْكِنَة أثَرٌ في فَضيلَةِ ما يَقعُ فيهما مِنَ العِباداتِ

في تَخْصيص هَذَيْنِ الوَقْتَيْنِ (العَشيّ والإشراق) بِالذِّكرِ في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ دِلالةٌ عَلى اخْتِصاصِهما بِمَزيدِ شَرَفٍ، فَيَصْلُحُ ذَلِك الشَّرَفُ سَبَبًا لِتَعْيينِهما لِلصَّلاةِ والعِبادَة، فَإنَّ لِفَضيلَةِ الأَزْمِنَةِ والأَمْكِنَةِ أثَرًا في فَضيلَةِ ما يَقَعُ فيهما مِنَ العِباداتِ[2]، كما أنَّ تخصيصَ الوقتين بالذِّكر دالٌّ على أنَّ أوّل النَّهارِ وآخِرَه عامرانِ بالتّنزيهِ والتّسبيح للّه تعالى، ويقتضي أنْ يكونَ باقي الأوقاتِ مشغولًا بهما أيضًا.

بلاغةُ الطّباق بين أوّل النّهار وآخره:

اغتنام الأوقات في ذِكْر الله دَأْبُ الأنبياء والصّالحين

في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ طباقٌ بديعٌ بينَ أوّلِ النَّهار وآخِرِه، أوْ بينَ صلاةِ العِشاء وصلاةِ الضُّحى؛ دلالةً على استغراقِ تسبيح الجبال معَ داوود عليه السلام لِطَرَفي اللّيل والنّهار؛ إذِ الطّباقُ دالٌّ على وقتينِ بينهما تمانعٌ وتضادٌّ، فيكونُ التّسبيحُ إمّا مختصًّا بهما أوْ مُستغرِقًا لجميعِ الأوقات، فيدلّ الطّباقُ على ترشيحِ إرادة الدّوام والاستمرار.

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 91.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 23/ 236.

سِرُّ التّقديمِ والتّأخير للعشيّ والإشراق:

فَضيلة العِبادة لَيْلًا

قُدِّم التَّسبيحُ ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ على التَّسبيح بـ(الإشراقِ) في قوله: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾؛ لبيان فَضل التَّسبيح والاستغفار في هذا الوقتِ، خصوصًا لِمَن اقترف ذَنْبًا في يومِه، فيتوبُ منه قبلَ أنْ ينامَ، فلا يُكْتَب عليه شيءٌ. وأيضًا لأنَّه "لَمّا كانَ في سياق الأَوْبَة، وكانَ آخِرُ النَّهارِ وقْتَ الرُّجوعِ لِكُلِّ ذي إِلْفٍ إلى مَأْلَفِه، مَع أنَّه وقْتُ الفُتور والاسْتِراحَة مِنَ المَتاعِب؛ قالَ: ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ أي: تَقْوِيَةً لِلْعامِلِ، وتَذْكيرًا لِلْغافِلِ. ولَمّا كانَ في سياقِ الفَيْضِ والتَّشْريف بِالقُرْآنِ قالَ: ﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾؛ أيْ: في وقْتِ ارْتِفاعِ الشَّمْسِ عَنِ انْتِشابِ النّاسِ في الأَشْغالِ؛ واشْتِغالِهِمْ بالمَآكِل والمَلاذِّ، مِنَ الأَقْوالِ والأَفْعالِ؛ تَذْكيرًا لَهُمْ؛ وتَرْجيعًا عَنْ مَأْلوفاتِهِم إلى تَقْديسِ رَبِّهِم سُبْحانَه، ولَيْسَ الإشْراقُ طُلوعَ الشَّمْسِ؛ إنَّما هو صَفاؤُها وضَوْؤُها؛ وشُروقُها طُلوعُه"(1).

دلالةُ الباءِ الجارّة:

استيعابُ الذِّكْر كُلَّ العَشيِّ والإشراق

آثرَ النّظمُ الكريمُ تعديَةَ فعلِ التّسبيح إلى اسم الزَّمانِ بـ(الباء) الدّالّة على الإلصاقِ وضعًا في قوله: ﴿يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ﴾، دونَ حرفِ الظَّرْفيَّة (في)، وإنْ كانت متضمّنةً لَمعناها؛ لأنَّه أريدَ استيعابُ الوقت، فالباء تدلُّ على الاستيعابِ والإحاطة بوقتَي العشيّ والإشراق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ﴾ [الحجّ: 29]، ولهذا لا بدَّ من استيعاب البيتِ بالطّواف والإحاطة؛ إذًا جاءتِ (الباءُ) مكانَ (في) للدّلالة على الاستيعاب، يعني: كُلَّ العَشيِّ(2). والأصلُ في الالتصاقِ أنْ يكون بمحسوسٍ، ففي الالتصاقِ بالزّمان دلالةٌ على اشتمال الزّمان على ذلك الفعلِ اشتمالًا كلّيًّا، وتشخيصٌ للزّمان

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 351.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 88.

بجَعْلِه كالمحسوس من كَثْرةِ التّسبيح فيهما، حتّى صارا مكانًا يَلتصقُ الحدثُ به.

سرُّ التّغاير:

بقي أنّ (العشيّ) اسمٌ للزّمان المخصوص، حاصلٌ بعد (الإعشاءِ) بخلاف (الإشراق)، فإنّه مصدرٌ يدلُّ على (الشّروق) دلالةَ الفعلِ على الانفعال، ولعلَّ سرَّ التّغاير بينهما التّناسبُ معَ التّسخير للجبال الذي يلزمُ منه انفعالُها، فذُكِرَ العشيُّ معها دونَ الإعشاء، ومع التّسبيح للجبال الذي هو فعلٌ، فناسبَه الإشراق.

الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾:

حــالُ تسبيحِ الطَّيْر مع داوودَ عليه السلام

قولُه تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾ مَعْطوفٌ عَلى ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾، أوْ مفعولٌ به لفعلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه ما قبلَه، وانْتِصابُ ﴿مَحۡشُورَةٗۖ﴾ عَلى الحالِ مِنَ الطَّيْر، أيْ: وسَخَّرْنا الطَّيْرَ حالَ كَوْنِها مَحْشورَةً، أيْ: مَجْموعَةً إلَيْه، تُسَبِّحُ اللَّه مَعَهُ[1].

سِرُّ العُدولِ عن الجملةِ الحاليَّة:

تَجَدُّدُ التَّسبيح، وثبوتُ الحَشْر

عُدِلَ عن الجملة الفعليّة الحاليّة ﴿يُسَبِّحۡنَ﴾ إلى الحال المفردة في قوله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ﴾، حيثُ لَمْ يُقَل: (والطَّيرَ يُحْشَرْنَ)؛ لأنَّه ليس المقصودُ الدّلالةَ على تَجَدُّد الحَدَث، أي: الحَشْر، مِثْلَما كان في التَّسبيح مِن إرادة الدّلالة على الحدوثِ شيئًا بَعْد شيء، ولذا جيء به اسمًا لا فعلًا؛ للإشارةِ إلى ثبوت الحَشْر، "كَما أنَّه لو قيل: وسَخَّرنا الطَّيْرَ يُحشَرن، على أنّ الحَشْر يوجدُ مِن حاشِرِها شيئًا بَعْدَ شيء، والحاشرُ هو اللّهُ ﷻ لكان خلْفًا؛ لأنّ حَشْرها جملةً واحدةً أدُلُّ على القُدْرة"[2].

(1) الواحِديّ، التَّفسير البسيط: 19/ 173، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البَيْضاويّ: 7/ 189، والشَّوْكانيّ، فَتْح القدير: 4/ 560.

(2) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 4/ 81، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البَيْضاوي: 7/ 189.

الإسناد إلى الفاعل والمفعول:

جميعُ الخلائق تُعْلِن التّقديسَ والتّنزيه

نلحظُ أنّ النّظمَ الكريم أسندَ التّسبيحَ إلى الجبال، وصرّح بكونها فاعلَ التّسبيحِ، لكنَّه أضمرَ فاعلَ الحشرِ وجعلَ الطّيرَ مفعولًا للحشر في قوله تعالى: ﴿ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾؛ لأنّ ذلك أبلغُ في التّسخير وأوضحُ؛ إذِ التّسخيرُ جعلَ الجمادَ يتكلَّم في الزّمن، والحيوانَ المعروفَ بأفراده الكثيرة يجتمعُ في المكان لسماع تسبيح داوودَ عليه السلام - وهَذِهِ مُعْجِزَةٌ لَهُ لِأَنَّ شَأْنَ الطَّيْرِ النُّفُورُ مِنَ الإِنْسِ[1] - ليُنشِدَ الجميعُ معه أحلى كلماتِ التّقديس للّه ربِّ العالَمين، ونتلمَّس في لفظ ﴿مَحْشُورَةً﴾ معنى البعثِ والإحياء والجمعِ من أمكنةٍ متعدِّدة، وكأنَّ تسبيحَ داوود عليه السلام وصلَها، فاجتمعتْ له وحضرت لديهِ طائعةً مُنقادَة، وذلك دليلُ القوّة والتّأثير في صوتِه ولَحْنِه الجميل، عندَما يُقدّسُ اللّهُ تعالى ويُسبِّحُه ويعبُدُه.

الطّباقُ الجليُّ والخفيّ بين العشي والإشراق:

التّـوّابـون هـمُ الأقوياءُ حقيقةً

كما تحقّقَ الطّباقُ بين (العشيِّ والإشراق) الدّالّينِ على شمولِ التّنزيه للزّمان كلِّه، يتحقّقُ الطّباق بينَ ذِكْرِ ﴿ٱلْجِبَالَ﴾ باعتبارِ كونِها جمادًا، وذِكْرِ (الطّير) باعتبارِ كونِها حيوانًا مُتحرِّكًا، وبينَ (الزّمان) المُعبَّر عنه بالعشيِّ والإشراق، و(المكانِ) الَّذي يَستلزمُه الحشرُ والاجتماع، وفي هذا الطّباقِ بيانٌ صريحٌ عن كمالِ التّسخير المستلزم كمالَ الإكرام والتّأييدِ والقوَّة، وما ذلك إلّا لأنّه أوّابٌ للّه تعالى، كثيرُ الرّجوع إلى مولاه الغَنيّ.

دلالة الفَصْل في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾:

الـجـزاءُ مـن جنس العمل

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ اسْتِئْنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَضمون ما قَبْلَهُ، مُصَرِّحٌ بِما فُهِمَ مِنهُ إجْمالًا مِن تَسْبيحِ الجبالِ والطَّيْرِ[2] دالٌّ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 229.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567.

أنَّ الجزاءَ من جنسِ العمَل؛ فهو كثيرُ الرّجوع إلى اللّهِ تعالى، والجبالُ والطّيرُ كثيرةُ الرّجوع إليه، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ مَن كان رجّاعًا إلى اللّه تعالى، مُعلِنًا كمالَ الخضوع له؛ فإنَّ الكائناتِ بأنواعِها وأشكالِها تخضعُ له وتنقادُ مُسخَّرَةً لأمرِه، توفيقًا من اللّه تعالى وإكرامًا.

تصديرُ الجملة الاسميَّة بأداة الاستغراق:

كــلُّ الـخـلائـقِ تخضعُ للأوّابين

صُدّرتِ الجملةُ الاسميّةُ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ بكَلَمة ﴿كُلّٞ﴾، وهي تدلُّ عَلى أصْل مَعْناها مِن الشُّمول والعموم العُرفيّين. أيْ: كُلُّ واحِدٍ مِنَ الجِبالِ والطَّيْرِ يرجعُ إلى داوودَ خاضعًا ومنقادًا ومطيعًا؛ لأنّه كان كثيرَ الرّجوع إلى اللّه تعالى بالتّوبة والعبادة.

دلالةُ التّنكير في قوله: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾:

كمالُ التّكريم للعبد أن تخضع لـه الـخـلائـقُ مجتمعةً

دلَّ التَنكيرانِ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ على العمومِ والتّفخيم، إذِ التّنوينُ الأوّلُ عِوَضٌ عَن المُضافِ إلَيْه المحذوفِ إيجازًا وتَعميمًا. والتَّقْدير: كُلُّ المَحْشورَةِ لَهُ أوّابٌ، أيْ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلَيْه، والتّنوينُ الثّاني أفادَ التَّفخيم، ونلحظُ التّقابلَ بين قوله فيما سبق: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وقولِه هنا: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾؛ حيثُ عبَّر سابقًا عن داوودَ ﷺ بالضّمير الدّالِّ على الانحصار والتّعيين، وعبّر هنا عن الخلائقِ منَ الجبال والطّير بلفظِ النّكرة؛ للدّلالة على أنَّ كمالَ التّكريم للعبد أن تخضع له الخلائقُ مجتمعةً، فإنْ كان داوودُ ﷺ بذاته راجِعًا أوّابًا، فإنَّ جميعَ الخلائقِ المذكورة ترجعُ له إكرامًا.

مَرْجِعُ الضَّمير في ﴿لَّهُۥٓ﴾:

طـاعـةُ الـجـبـالِ والـطَّـيرِ لـداوودَ ظـاهــرًا ولـلـه تعالى باطنًا

يحتملُ مرجعُ الضَّميرِ ﴿لَّهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ وجهين؛ **الأوّل:** أنّه راجِعٌ إلى اللّهِ ﷻ، والمعنى: كُلٌّ مِن داوودَ ﷺ والجِبالِ والطَّيْرِ مُطيعٌ للّه تعالى، واللّام للتّقوية لا غير. **والثّاني:** أنه راجع إلى ﴿دَاوُۥدَ﴾، وحينَئِذ تحتمل (اللّام) أن تكون للتّعدية

والتّقوية، فتكون الطّيرُ والجبال آيةً لداودَ ﵇، راجعةً إليه مسبّحةً بتسخيرِ اللّه تعالى إيّاها له. ويحتملُ أنْ تكونَ للتّعليل، فتكون آيةً للّه تعالى لِأَجْلِ تَسْبيح داوُدَ إكرامًا له. والذي يترجّحُ لدينا الاحتمالُ الثّاني؛ لأنَّ الآية مسوقةٌ لإظهار قوّة داوودَ وكرامته عند اللّه تعالى، وأنْ تكون اللّامُ للتّقوية؛ لأنَّ كمالَ الإكرام أنْ تؤوبَ الكائناتُ له إكرامًا بتسخيرِ اللّه تعالى لها.

سِرُّ الإفراد في ﴿أَوَّابٌ﴾:

الإفـــــرادُ لــــلاحـــتراس، وإزالةِ الالتباس

عبّر النّظمُ الكريم عن الخبر بلفظِ الإفراد في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ للإشارة إلى شِدَّةِ زَجَلِها بالتَّأويبِ وعَظَمَتِه، ولإفادة الحُكْم على كُلِّ فَردٍ، ولو جُمِع لَطَرَقه احتمالُ أنَّ الحُكمَ على المَجموعِ يُقَيِّدُ الجَمْعَ، فَكَأَنَّ داوُدَ ﵇ يَفْهَمُ تَسْبيحَ الجبالِ والطَّيْرِ، ويَنْقادُ لَهُ كُلٌّ منهُما إذا أمَرَهُ بِالتَّسْبيحِ؛ إذ كُلُّ مَن تَحَقَّقَ بِحالِهِ ساعَدَهُ كُلُّ شَيْءٍ[1].

نُكْتَةُ التّقديمِ للجارّ والمجرور:

تأييدُ الأنبياء بالمعجزات قوّةٌ مختصّةٌ بهم

عبَّر النّظمُ الكريم بالجارّ والمجرور مُقدَّمًا في قوله: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ عَلى مُتَعَلَّقِه؛ لِلاهْتِمام بِالضَّميرِ المَجْرورِ، ولإرادة الاختصاص لداوودَ ﵇ بهذه المعجزةِ الفريدة، إذ كانَ من معجزاتِهِ ﵇ التي أيّده اللّهُ بها، أنّه متى ما سبّحَ وصلَّى للّه تعالى؛ فإنَّ الجبالَ والطّيورَ تُسبِّحُ معَه، وتجتمعُ لديه لسَماعِ تسبيحاتِهِ وصلواتِه.

لطيفةُ العدولِ المادّيِّ والصّيغيّ:

التّنويهُ بأهميّة التّوبةِ والرّجوع إلى الله تعالى

في النّظم الكريم وقعَ عُدولانِ؛ أحدُهما: مادّيٌّ يتعلّقُ بحروف الكلمة؛ إذ لم يقل: (مسبِّح أوْ مُرجِّع)، والآخرُ: في الصّيغة يتعلّقُ بهيئةِ الكلمة؛ إذ لم يقل: (يؤوب)؛ لأنّ مادّة ﴿أَوَّابٌ﴾ تحتملُ معنيين؛ أحدُهما: مُسَبِّح؛ إذِ الأَوْبُ هنا الرُّجوع إلى التَّسبيح، والرَّجّاع إلى

---

(1) البَيْضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 26، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 353.

التَّسبيح مُسَبِّح. ووُضِعَ الأوّابُ مَوْضِعَه؛ لِأنَّها كانَتْ تُرَجِّعُ التَّسْبيحَ فهي مسبّحة[1]، وثانيهما: الرّجوع والخضوع والانقياد والطّاعة؛ وسواء كانت مسبحةً أو خاضعةً فإنّ مادة الأواب تدلُّ على الرّجوع إلى اللّه تعالى، فيكون في اختيار المادّة تنويهٌ بشأن التّوبة والإنابة والخضوع للّه تعالى، ولأنَّ صيغة ﴿أَوَّابٌ﴾ من صيغ المبالغة، فتُفيد كثرةً ومبالغةً في الخضوع والتّوبة على سبيل الاستمرار والتّجدُّد، بخلاف الفعلِ (يؤوبُ) الدّالِّ على استمرار الخضوعِ من دون مبالغةٍ فيه.

دلالة الجناس في ﴿أَوَّابٌ﴾:

مَــنْ آبَ إلــى اللــه آبَــتْ له المخلوقاتُ كرامةً

اشتملَ قولُه تعالى هنا على كلمة ﴿أَوَّابٌ﴾ في قوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهي غَيرُ ﴿أَوَّابٌ﴾ في قَولِه قبلُ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهذا من الجناس التّامِّ؛ إذِ اتّحدَ اللّفظانِ واختلف المعنيانِ؛ للإشارة إلى أهميَّة الرُّجوعِ إلى اللّه تعالى، الذي يترتّبُ عليه الخضوع والموافقةُ من الخلائق، فلَمْ تَتَكرَّرِ الفاصِلةُ[2]، إذِ الفَرقُ بَيْنَه وبيْنَ ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ في أحدِ معنييهِ السّابقينَ على الموافَقةِ في التَّسبيحِ، والمُداوَمةِ عليه، والسّابقُ يدلُّ على الرّجوعِ والإنابةِ للّه تعالى[3].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 567، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 379.
(2) ابن عاشور، التَّحرير، والتَّنوير: 23/ 229.
(3) شيخ زاده، حاشية على تفسير البَيْضاوي: 7/ 189، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 380.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

في الآية السّابقةِ إشارةٌ إلى مُلْك داوودَ عليه السلام، وبُرْهانٌ عليه مِن حَيْثُ إنَّه مالكٌ التَّصرُّفَ في الأَشْياءِ العَظيمَةِ قَسْرًا، فكانَ كَأنَّه قيلَ: كُلُّ ذَلِكَ إثْباتًا لِنُبوَّتِه؛ وتَعْظيمًا لِمُلْكِه، وفي هذه الآية تصريحٌ بهذا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَشَدَدْنَا﴾: الشَّدُّ: العَقدُ القَويُّ، وأصلُ (شددَ) يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[2]. والشَّدُّ: العَدْوُ. وشَدَّ النّهارُ: ارتفعَ. وشَدَّ عَضُدَه: قوّاه. واشْتَدَّ الشَّيءُ: من الشِّدَّة[3].. والمراد هنا: قَوَّيْنا وثبّتنا دعائمَ مُلكِه.

2) ﴿ٱلْحِكْمَةَ﴾: أصلُ (حَكَمَ) يدُلُّ على المَنعِ[4]. ومنه سُمّيت اللّجامُ: حَكَمَةَ الدّابّة. والحِكْمةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمنَعُ من الجَهلِ. والحِكْمَةُ: إصابةُ الحَقِّ بالعِلْم والعقل، فالحكمةُ مِن الله تعالى: معرفةُ الأشياء وإيجادُها على غايةِ الإحكام، ومِن الإنسان: معرفةُ الموجودات وفعلُ الخيرات[5]. والمقصود هُنا: النُّبوَّة، وإصابة الصَّوابِ في القولِ والفعلِ مع الإتقان.

3) ﴿وَفَصْلَ﴾: أصلُ (فَصَلَ) يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانته[6]. وهو بَوْنُ ما بينَ الشَّيئَينِ. والفَصْلُ من الجَسَد: موضِعُ المَفْصِل، وبينَ كلِّ فَصْلَيْنِ وصْلٌ. والفَصْلُ: القَضاء بين الحقِّ والباطل، واسمُ ذلكَ القضاءِ فَيصَلٌ. وقضاءٌ فَيْصَليٌّ وفاصِلٌ. وحُكْمٌ فاصِلٌ[7]. وقولُ الله جلّ وعزّ: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا﴾ [فصّلت: 3] لَهُ مَعنيان؛ أحدهُما:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 355.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (شدد).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (شَدَدَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حَكَمَ).
(5) الرَّاغب، المفردات: (حَكَمَ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فَصَلَ).
(7) الخليل، العين: (الفصل).

تُفصّلُ آياتُه بالفواصل، والمعْنَى الثّاني: فصّلناه: بيّنّاه[1]. والمرادُ هنا: بَيانُ الكَلامِ وبلاغَتُهُ، وجَمْعُه للمَعنى المقصودِ الفاصِلِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

ذَكَرَ اللّهُ تعالى مِنّتَه وعطاياه على داوودَ ﷺ بالمُلْك العظيم، حيثُ قَوّاه بِما أعطاه مِن الأسباب وكثرة العَدَد والعُدَدِ، التي بها قوَّى اللّهُ مُلْكَه، ثمّ ذَكَرَ مِنَّتَه عليه بالنُّبوَّة والعِلْم العظيم، والبيان الشّافي في كُلِّ قَصْد، والفَصْل في الكلام والحُكْم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل في ﴿وَشَدَدْنَا﴾:

إتمامُ النّعمة بالمُلْكِ والنُّبوَّة

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ عاطفةٌ على ما قبلَها، عطفَ الخبرِ على الخبر؛ لكمالِ الاتّصالِ بين الجملتين؛ والغرضُ من العطف: إظهارُ تمامِ النِّعمة على هذا النّبيِّ الصّالح؛ إذ هيّأ اللّهُ تعالى له المُلْكَ على بني إسرائيلَ، وثبّتَ دعائمَهُ، وآتاهُ النّبوَّة والكتابَ معَ الحِكمة والبيانِ الفصيح الفاصلِ بين الحقِّ والباطل.

الفعلُ الماضي مادّةً وصيغةً وإسنادًا:

العطاءُ الإلهيّ مفخَّمٌ وعظيمٌ

آثرَ النّظمُ الجليل إيرادَ الفعلِ ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ الدّالِّ بمادّتِه على إعطاءِ داوودَ مُلكًا قويًّا؛ إذ مادّةُ الفعل تُشيرُ إلى أنّه مُلكٌ مشدودٌ قويُّ الدّعائم ثابتُ الأركانِ، غيرُ قابلٍ للفكِّ والحلّ، والدّالِّ بصيغته على أنّه أمرٌ ثابتٌ محقَّقُ الوقوع غيرُ قابلٍ للنّقض والإبطال، والدّالِّ بإسناده إلى ضميرِ المتكلّمين الجمعِ على تعظيم هذا العطاء الإلهيِّ، والمِنّةِ الرَّبانيَّةِ لداوودَ ﷺ.

(1) الأزهريّ، جمهرة اللّغة: (الفصل).
(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 454.

دلالةُ الاستعارة في ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ﴾:

الملكُ المبنيُّ على أُسُسٍ راسخةٍ لا يزولُ

في تعليقِ الشّدّ بالمُلك استعارةٌ مكنيّةٌ؛ إذ شبّه المُلكَ بحبلٍ مشدودٍ ومفتولٍ، لا يمكنُ فتحُه ولا هدمُه ولا إبطالُه، ثمَّ حذفَه وأبقى من خواصِّه ولوازمه الشّدَّ، وأسندَه إلى (الملك) تخييلًا وإظهارًا للمُلك المعنويِّ بهيئةِ الأمر الحسيِّ؛ ليكون دالًّا على أنَّ المُلك الذي وهبه اللّهُ لداوودَ كان مُلْكًا ثابتًا لا يزولُ، ولا يمكنُ التّجاسُرُ على نقضِه وإبطالِه، ولذا وقعتِ الإضافةُ في ﴿مُلۡكَهُۥ﴾ للدّلالة على تخصيص ذلك المُلْك القويِّ الّذي وهبَهُ اللّه تعالى لداوودَ عليه السلام، وتأكيد نِسْبته إليه تصريحًا، وذلك من تمام النِّعمة وكمالها، فيتولّدُ الأُنسُ في قلبِ النّبيِّ صلى الله عليه وسلم عندَ ذِكْره والالتفاتِ إلى أمره، بما يؤولُ إليه أمرُ دعوته وأُمّته من مُلكٍ عظيم في حالِ أوبتها إلى ربِّها، وعملِها بشريعتِه وأحكامِه.

دلالةُ الوصل في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

من إتمامِ نِعمة المُـلـك الـنّـبـوّةُ والحِكْمة

وُصِلت الجملةُ الفعليّة في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ بما قبلَها من منحِ المُلك القويِّ الذي لا يزولُ؛ لكمال الاتّصال بين الجملتين الخبريّتين، وذلك الوصلُ أفادَ إكمال النّعمة وإتمامَها على داوودَ؛ إذ وهبه اللّه ملكًا عظيمًا، ونبوّةً صادقة، وخطابًا فصْلًا مبينًا.

دلالةُ الماضي مادّةً وصيغةً وإسنادًا:

رِزْقُ اللهِ وإنعامُه يسيرٌ وسهلٌ

أوثِرَ التّعبيرُ بالفعل الماضي في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾، الدّالِّ بمادَّته على المَنح بكلّ يُسرٍ وسُهولة دونَ فعل المجيء؛ للإشارة إلى سُهولة هذا الإتيانِ وتَأتّيه ويُسْره، والدّالِّ بصيغته على تحقُّق ذلك الإتيان، وأنّه لا سبيلَ إلى إنكارِهِ ونفيِه، والدّالِّ بإسناده على عظَمةِ الإتيان؛ إذِ العظيمُ تعالى لا يمنح إلّا النّعمةَ العظيمة، وفيه إشارةٌ إلى وجوب القيامِ بذلك المُؤْتَى العظيم، من خلالِ تنفيذ أحكامِ

الحكمة وأوامِرها، فالتَّعبير بنون الجَمْع فيه إشارةٌ إلى عظَمة ذلكم العطاءِ الإلهيِّ وفخامته، وهل يوجدُ أفضلُ مِن عطاء النُّبوَّة والعِلْم؟!

دلالة التّعريف لـ ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾:

النّـبـوّةُ أعلى كمالاتِ الحِكْمة

عبَّر النّظمُ الكريمُ بالاسم المعرّف باللّام في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾، وهي اللّامُ الجِنْسيَّةُ المُفيدةُ للكمال والاستغراق، وأعلى درجاتِ الحِكمة الوحيُ، الّذي يمتلكُ الكمالَ والتّنوُّع في الحِكمة وأفرادِها؛ لأنَّ حُسنَ التّصرُّف والنّظرَ في حقائقِ الأمور ومعرفةَ الأسرارِ والكمالاتِ، لا تتحقّقُ بشكلٍ كاملٍ من دون وحْيٍ؛ ومن ثَمَّ كان العدولُ عن الوحي والموحَى به إلى الحِكمة، فتكونُ (الزّبور) حكمةً عظيمةً؛ لاشتمالِها على الحقّ المُبين.

دلالةُ الاستعارة التّصريحيّة والمَكنيّة:

العـدولُ إلى الحِكْمة فيه مزيدٌ من القوّة

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ على الاستعارة التّصريحيَّة والمَكنيّة، إذ دلّ النّظمُ على تشبيه الموحَى به من الزّبور بالحِكمة أوّلًا، ثمّ تشبيهِ الحكمة بأمرٍ يُمنحُ كالمال والمُلك، فأسندَ إليها الإيتاءَ تخييلًا؛ للدلالة على أنَّ الوحيَ أعلى ما ينالُهُ الإنسانُ من المواهبِ والمِنَح، فتتحقَّقُ الاستعارتانِ التّصريحيّةُ والمكنيّة، وإنّما شبّه الوحيَ بالحكمة؛ لبيان أنّها أنسبُ بالشِّدَّة والقوَّة؛ إذِ الحِكْمةُ من الأمر المُحكَم القويِّ الشّديد، فهي أنسبُ بالمقام والسّياق الدّالِّ على أنَّ داوود ذو الأيدِ والقوّة في المُلك وفي الشَّريعة معًا، وبذَينك يمتلكُ السُّلطتَينِ الدّنيويَّة والدّينيَّة.

دلالةُ تقديم ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ على (فصل الخطاب):

التَّقديمُ للسَّبب والشَّرف

عبَّر النّظمُ الكريمُ عن المُؤتَى به لداوود عليه السلام بتقديم ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ على (فَصْل الخِطاب) في قوله: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾؛ لِشَرفها، أي: شَرَفِ النُّبوَّة والوحي وكَمالِ العِلْم على فَصلَ الخِطابِ، أي: الكلام البليغ الفاصلِ بين الحقِّ والباطل، وبين الصَّواب

والخطأ، فيكون التّقديمُ مراعاةً للأشرف، كما يحتملُ أنّ المنظورَ إليه في التّقديم التّرتُّبُ والتّسبُّب؛ إذ يلزم من إيتاءِ الوحي والحكمة التّمكُّنُ من الخطاب الفاصلِ بين الصَّواب والخطأ.

دلالةُ عطف ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾:

كمالُ نَفْس داوودَ عليه السلام، وكمالُ خَلْقِه

(الواو) في قوله: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ عاطفةٌ على ﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قَبْلَها، وقد بَيَّنَ أبو حَيّان وجْهَ ارتباطِ المعطوفِ بالمعطوف عليه بقوله: "ولَمّا كانَ تَعالى قَدْ كَمَّلَ نَفْسَ نَبيِّهِ داوُدَ بِالحِكْمَةِ، أرْدَفَهُ بِبَيانِ كَمالِ خَلْقِهِ في النُّطْقِ والعِبادَةِ"[1]، ويظهرُ لنا أيضًا أنَّ الحكمةَ المتمثّلةَ بالحُكم الشَّرعيِّ السَّديد، والوَحْي الإلهيِّ الحكيم، يحتاجانِ إلى لسانٍ فصيحٍ، وقوّةٍ نُطقيَّةٍ مُبيّنةٍ تعملُ على إفشاءِ الحِكمة وتبليغ الدّعوة وإظهارِ الصَّواب وإبطالِ الخطأ.

دلالة إضافة المصدر ﴿وَفَصۡلَ﴾:

النّعمةُ في منطقٍ واضحٍ، مُفرّقٍ بين الحقِّ والباطل

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ على تركيبٍ إضافيٍّ، تكوّن من (الفصل) وهو مصدرٌ مضافٌ إلى موصوفِه؛ إذِ الأصلُ: الخطابُ الفَصْلُ، وفي إضافةِ المصدر إلى موصوفه مدحٌ للخطاب بأنَّه كاملُ الوضوح والسَّداد؛ فهو مفصولٌ بعضُهُ عن بعضٍ، أوْ حاسمٌ مُحكَمٌ فهو فاصلٌ بين الصَّواب والخطأ، إذِ (الفَصْلُ): التَّمييزُ بين الشَّيْئَين. وقيل للكلام المُبين: (فَصْلٌ) بمعنى المفعول، وأصْله: أنَّهم يقولون كلامٌ مُلْتَبِسٌ مُختلطٌ لا يَبين؛ لتداخُله أوْ مُعاظلته، فقيل في نقيضِه: كلامٌ فصلٌ، أي: واضحٌ سديدٌ، وبناءً عليه فإنَّ الإسناد حقيقيٌّ؛ إذِ الخطابُ يقعُ عليه الفصلُ. ويجوز أن يكونَ الفصلُ بمعنى الفاعل، أي: الفاصلُ بين الحقِّ والباطل، وبينَ الصَّحيح والفاسد وبينَ السَّمين والغثّ[2]، وبناءً عليه: فإنَّ الإسناد

---

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 374.

(2) درويش، إعراب القرآن: 3/ 343.

مجازٌ عقليٌّ؛ إذِ الخطابُ لا يكون فاصلًا، لكنّه أُسند إليه الفصلُ لأنّه الآلةُ، ونلمح في إضافة المصدر للموصوف قوّةً اتّصفَ بها الممدوحُ لسانًا، كما اتّصفت نفسُه بقوّة الحِكمة، وذلك منسجمٌ مع كونه ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾ [ص: 21]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

في الآيةِ السّابقةِ ثناءٌ من اللّه تعالى على داوودَ ﷺ، وفي هذه الآية ذُكِرتْ قِصَّتُه هذه؛ ليُعلَمَ أنَّ مِثلَ قِصَّتِه لا يَقدَحُ في الثَّناءِ عليه، والتَّعظيمِ لِقَدْرِه، وإنْ تضَمَّنَت استِغفارَه رَبَّه[1]. وأيضًا: "لَمّا ذَكَر اللّهُ تعالى أنَّه آتى نَبيَّه داوودَ ﷺ الفَصلَ في الخِطابِ بيْنَ النّاسِ - على قَولٍ في التَّفسيرِ -، وكان مَعروفًا بذلك مَقصودًا؛ ذكَرَ تعالى نبَأَ خَصمَينِ اختَصَما عِندَه في قَضيَّةٍ، جعَلَهما اللّهُ فِتنةً لداوودَ ﷺ، ومَوعِظةً لخَلَلٍ ارتكَبَه، فتابَ اللّهُ عليه، وغفَر له"[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَؤُاْ﴾: أصلُ (نَبَأ) يدُلُّ على الإتيانِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[3]. والنَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، يحصُلُ به عِلْمٌ أوْ غَلَبَة ظَنّ، ولا يقالُ للخَبَرِ في الأصل (نَبَأٌ) حتّى يتضمّنَ هذه الأشياءَ الثّلاثة، وحَقُّ الخبرِ الّذي يقالُ فيه نَبَأٌ أنْ يَتعرَّى عن الكذب، كالتّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النّبيّ ﷺ[4]. ونَبَّأ وأَنْبَأ: أخبرَ، ومنه اشْتُقَّ (النَّبيّ). وتَنَبَّأ فلانٌ: ادَّعى النُّبوَّة. والنَّبْأة الصَّوْتُ الخفيُّ[5]. والمرادُ به في الآية: الخبرُ الصّادق المهمّ، الّذي وصلتْ مسامعُه للجميع.

2) ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾: مَصدرُ (خَصَمَه)، والعَرَبُ إذا نعتَت بالمَصدَرِ أفردَتْه وذَكَّرَتْه، وعليه فالخَصمُ يُرادُ به الجَماعةُ والواحِدُ والاثنانِ، ويجوزُ جَمْعُه وتثنيتُه؛ لِتَناسي أصلِه الّذي هو المصدَرُ، وتنزيلِه مَنزِلةَ الوصفِ[6]. وأصْلُ (خصم) يدُلُّ على مُنازَعةٍ[7]. يُقال: خاصَمْتُه وخَصَمْتُه مُخاصَمَةً وخِصامًا. وأصْلُ المُخاصَمَة: أن يَتَعَلَّق كُلُّ واحد بِخَصْم

(1) أبو حَيّان، البحر المُحيط: 7/ 375.
(2) السَّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 709.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نَبَأ).
(4) الرَّاغب، المفردات: (نَبَأ).
(5) الجَوْهَريّ، الصّحاح: (نَبَأ).
(6) الشِّنقيطيّ، دَفْع إيهامِ الاضطراب عن آيات الكِتاب، ص: 199.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خَصِمَ)، وابن الجَوْزيّ، تَذْكِرة الأريب، ص: 326.

الآخَرِ، أي: جانبِهِ. والجَمْع خُصوم وأخصام. والخَصيمُ: الكثير المُخاصَمة، قال تعالى: ﴿هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾ [النّحل: 4]، والخَصِمُ: المُخْتَصّ بالخُصومة، قال تعالى ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزُّخرف: 58][1]. والمرادُ به في الآية الخصمانِ اللّذانِ وقعَ بينهما تنازعٌ كبيرٌ، حتى اختَصما واحتاجا إلى التحاكُم فيما بينهما.

3) ﴿تَسَوَّرُواْ﴾: أي: صَعِدوا وتَسَلَّقوا، يُقالُ: تَسَوَّرتُ الحائِطَ والسّورَ: إذا عَلَوْتَه[2]. وأصْلُ (سور) يدُلُّ على عُلوٍّ وارتِفاعٍ[3]، ويُساوِرُ إنسانًا إذا تَناوَلَ رأْسه. وفلانٌ ذو سَوْرَةٍ في الحَرْبِ، أي: ذو نَظَرٍ سَديدٍ. والسَّوّارُ مِنَ الكِلابِ: الَّذي يأْخذ بالرّأْس. والسَّوْرَةُ: الوَثْبَةُ. ويُقالُ: إنَّ لِغَضَبِهِ لسَوْرَةً. والسّورُ: حائطُ المَدينَةِ[4]. والمرادُ به في الآية: أنَّ هؤلاءِ المتخاصمين تسلَّقَا المحرابَ، فكان دخولُهما غريبًا، حتّى تفاجأ بهما أمامَهُ.

4) ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: هو مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ ومُصَلًّى وأشرَفُه، ويُطلقُ على المَسجِدِ، وموضع العبادةِ، والغُرفةِ، والموضعِ العالي الشَّريفِ[5]. ومِحرابُ المسجد قيل: سُمّي بذلك؛ لأنَّه موضعُ مُحاربةِ الشَّيطان والهَوى، وقيل: سُمّي بذلك لِكَون حقّ الإنسان فيه أنْ يكونَ حريبًا من أشغال الدّنيا ومن توزّعِ الخواطر، وقيل: الأصل فيه أنّ محرابَ البيت صدرُ المجلس، ثمَّ اتُّخِذتِ المساجد فسُمّي صدرُه به، وقيل: بل المحرابُ أصلُه في المسجد، وهو اسمٌ خُصّ به صَدْرُ المجلس، فَسُمّي صَدْرُ البَيْت مِحْرابًا؛ تشبيهًا بِمِحراب المسجد[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى: وهلْ أتاك - أيّها الرَّسول - نَبَأُ المُتخاصِمَين حينَ تَسَلَّقا على داوودَ مِحْرابَه في مكانِ عبادتِه، حينَ دخَلوا عليه فجأةً ففَزِعَ منهم، قالوا له: لا تخَفْ، نحن خَصْمانِ ظَلَمَ أحدُنا الآخر؛ فاحكُمْ بَيْنَنا بالحُكم العادل الحَقِّ، ولا تتجاوَزْه إلى غَيرِه فتَظْلِم، وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ البَعيد عن الهَوى والزَّيْغ.

(1) الرَّاغب، المفردات، والسَّمين الحَلَبيّ، عُمدَة الحُفَّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (خَصَمَ).
(2) السِّجْسْتانيّ، غريب القرآن، ص: 455، والكَفَوِي، الكُلّيّات، ص: 321.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سَوَرَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سَوَرَ)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 89.
(5) الجَوْهَريّ، الصِّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حَرِبَ).
(6) الرَّاغب، المفردات: (حَرِبَ).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ﴾:

الـــواقـــعـــةُ الجـزئـيّـةُ دليـلُ الحُـكـمِ الرَّشيد والـــخِـــطـــاب السَّديد

الواو في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ عاطفة، والجُملَةُ الفعليّة الاستفهاميّة مَعطوفَةٌ عَلى الجُملَةِ الاسميّة ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾، والعطف هُنا مِن باب عَطْف الجُمَل على الجُمَل؛ لبيانِ مثالٍ جزئيٍّ على حُكمه وفصلِ خطابِه، فقد أمرَ اللّهُ تعالى النّبيَّ ﷺ بذِكْرِ العبد الصّالح داوودَ عليه السلام، القويِّ بتسخير الجبال والطَّير، ومِنْحَةِ المُلك الشّديد، والوَحْيِ الحكيم والخطابِ الفصل، فهذا المعطوف مثالٌ على حُكْمه الرّشيد، وخطابِه الفاصل بينَ الصَّواب والخطأ.

دلالةُ عطفِ الإنشاء على الإخبار:

إضفاءُ التّفاعل بالتّغايرِ الشّكليِّ بين المتعاطفَينِ

الجُمْلَةُ الإنشائيَّةُ في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ مَعْطوفَةٌ عَلى الجُمْلَة الخبريّة في قوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾، وهذا العطف لا يجوز عند البيانيّين بخِلاف النّحويين؛ وإنّما ساغ ذلك لأنّ الجملةَ في الآية إنشائيّةٌ لَفْظًا؛ لكونها مصدَّرةً بأداة الاستفهام، خبريَّةٌ معنًى؛ لأنّها قَصَّتْ شَأْنًا من شَأنِ داوُدَ عليه السلام مَعَ رَبِّه تعالى، فَهي نَظيرُ ما قَبْلَها، وهذا مُسَوِّغ عَطْفِ الخبر على الإنشاء[1]، ولعلَّ السّرَّ في إحداثِ التّغايُرِ بينَ المتعاطِفَين على مُستوى الشّكلِ إظهارُ حُكْمِه العميقِ وخطابِه الفاصلِ بين الصَّواب والخطأ على هيئَةِ المُستفهَم عنه؛ لإثارةِ التّعجُّب من ذلك الحُكْم والخطابِ الفاصل المُبين، كما يتولّدُ من التّغاير بينَ الأسلوبينِ نوعٌ من شدِّ الانتباه لما يُلقى من الكلام، ويُحقّقُ مَزيدًا من الإصغاء مَعَ إضفاءِ التّفاعُل مع الخطاب؛ لوجودِ السّؤال المحتاجِ للبيان والإفصاح.

الغَرضُ من الاستفهام:

معنى الاستفهام في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ للتَّعجيبِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 230.

الاسْتِفْهام تَهْيِئَةُ نَفْسِ المُخاطَبِ وإعْدادُها لِلتَّلَقّي

والتَّشويق إلى استماع ما بَعْدَه؛ لكونه أمرًا غريبًا، كما تقولُ لمخاطَبِكَ: هل تعلمُ ما وقعَ اليومَ؟ ثمَّ تذكرُ له ما وقعَ[1]، فَكَأَنَّ هَذا الاسْتِفْهامَ إنَّما هو تَهْيِئَةُ نَفْسِ المُخاطَبِ وإعْدادُها لِلتَّلَقّي[2]. وتفصيلُ هذا التَّعجيب أنَّه جَعلَ المخاطَب مُعَجَّبًا بما أُلْقيَ إليه، أَوْ مُتعجِّبًا منه، أَوْ عَدَّه أمرًا عجيبًا، هذا مع المُخاطَب الَّذي لايَعْرِف بالقِصَّة، ويُراد إعلامُه بِها، فيُقال له: هل سَمِعتَ بكذا[3].

أيضًا فإنَّ الاستفهام فيه إشارةٌ إلى أنَّه مِنَ الأنباءِ العَجيبةِ، الَّتي حَقُّها أَنْ تَشيعَ ولا تَخفَى على أحَدٍ، وفي الاستِفهام معنَى التَّشويق إلى استِماعِه؛ وذلك أنَّ هذه القِصَّةَ إنْ كانتْ مَعلومةً للسّامِعِ، فيَكونُ في الاستِفهام بَعْثٌ له، وتَحريضٌ على إشاعَتِها، وإعلام النّاسِ بها، أي: كأنَّك ما عَلِمْتَها حيثُ تُخْفيها، ولا تُؤدّي حقَّها من الإذاعة، وإنْ لم تكُن معلومةً كان تأنيبًا على التَّقاعُدِ عن استِعلامِها، وتَشويقًا إلى استِماعِها[4].

سِرُّ التَّعبير بالماضي مادّةً وصيغةً:

تَسويةُ حالِ الإتيانَين

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿أَتَىٰكَ﴾ دونَ (جاءك)؛ لأنَّه إعلام وإخبار مِن رَبِّ العالَمين، عالم الغَيْب والشَّهادة؛ لذا فهو إتيانٌ سَهْلٌ يسير، كما أنَّ النّظم عبَّر عن منحةِ الحُكم والخطاب الفصلِ بالإتيان، فقال: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾، والمعطوف عليه مثالٌ من أمثلة حُكْمه الرَّشيد، وقضائِه الحَقّ، فعَبّر عنه بالإتيانِ أيضًا، تسويةً بينَ الإتيانَين؛ الإتيانُ الذي هو منْحَةٌ من اللّه لداوود عليه السلام، والإتيانُ الذي هو منحةٌ من اللّه لمحمّد ﷺ بما جرى له؛ لتتحقَّقَ من خلال هذه التّسويةِ مقارنةُ حالِه ﷺ مع قومه، بحالِ داوود وما آل إليه أمرُهُ من

(1) القَنوجي، فَتْح البيان: 12/ 25.
(2) ابن عَطِيَّة، المُحَرَّر الوَجيز: 4/ 432.
(3) الشِّهاب الخَفاجيّ، عِناية القاضي، حاشية على تفسير البيضاويّ: 7/ 304.
(4) أبو حَيَّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 7/ 375، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 571.

مُلك رشيد وحُكم قويٍّ سديد، فيتحققُ مدلولُ قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

بلاغة المجاز العَقْليّ والعدول:

خَبَرٌ يَرِدُ على المَسامِعِ بِنَفْسِه دونَ أن يَنْقُلَه ناقل

ضميرُ الخِطابُ في قوله: ﴿أَتَىٰكَ﴾ يَجوز أن يكون للرَّسول ﷺ، وهو الرّاجح؛ لأنَّ المراد من الذِّكر والقَصِّ تحقيقُ الصّبر على الدَّعوة ومشاقِّها. ويجوز أنْ يَكونَ لِكُلِّ سامعٍ يَتَأتَّى لَه الخِطاب، وفي قوله: ﴿أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ مجازٌ عقليٌّ، وذلك في إسناد الإتيان إلى النَّبَأ؛ إذِ النَّبَأ يؤتَى به، ولا يَأْتي بنفسِه، وبلاغةُ المجازِ العَقْليّ وسِرُّه الإيذانُ بفخامةِ شَأنه، حتَّى لِكَأنَّه يَرِد على المَسامِع بِنَفْسه، دونَ أن يَنْقُلَه ناقلٌ[1]، وإنَّما عدلَ عن (الخبر والحديث) وما يرادفُهما إلى (النّبأ)؛ للدّلالة على أنَّه خبرٌ عظيم وعجيب، وكانَ الحُكْمُ فيه بليغًا وفَصْلًا مُبينًا واضحًا.

دلالة التّعريف في ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾:

تأشير النّزاع دونَ المتنازِعَين هو المغزى من القصّة

التَّعريفُ في كلمة: ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ للعَهدِ الذِّهنيِّ، أي: فَردٍ غَيرِ مُعَيَّنٍ من جِنسِه، أي: نَبأُ خَصمٍ غيرِ مُعَيَّنٍ هذا خَبَرُه، وفي هذا التّعريفِ القريبِ من معنى النّكرة تأشيرٌ على أنَّ المغزى من القصَّةِ تحديدُ محلِّ التّنازع والخصومةِ بينَ الطَّرفينِ، دونَ تحديدِ المُتنازِعَين بأسمائهما؛ إذ لا فائدةَ من ذكرِهما باسمِهما المعيَّن. ولهذا ورد التّعبير عن المنازِعَين بلفظٍ يحتمل التَّثنِيَةَ الحقيقيّة والمجازيّة، إذ أُريدَ به هنا خَصْمان حقيقةً أو مجازًا؛ لقَولِه بعْدَه: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾، أي فردانِ أَوْ فَوجانِ مُتَخاصِمانِ، لأنَّ الخَصْم في الأصلِ مصدرٌ يُرادُ به الجَماعةُ والواحِد والاثنان، ويجوزُ جَمْعُه وتثنيتُه؛ لِتَناسي

(1) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 399.

أصْلِه الَّذي هو المصدَرُ، وتنزيلِه مَنزِلةَ الوصفِ[1]، إذِ التّركيزُ على الخصومةِ والحدثِ الَّذي وقع التّخاصمُ فيه دونَ الإخبارِ بكونِهما فَرْدَينِ أوْ جماعتَين، فضلًا عن ذِكر أسمائِهما.

دلالة الاستعارة في لفظ ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾:

المبالغة في الخصومة والنّزاع

عبَّر النّظمُ الكريم عن المُتنازعينِ بلفظ ﴿ٱلۡخَصۡمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾" على سبيل الاستعارة التّصريحيَّة؛ حيثُ شبَّههما بصورةِ الخصم، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ وأبقى المشبَّهَ به؛ ليَدلَّ على شِدَّة المخاصَمة والنّزاعِ بين الفريقَين، فتَسْميتُهُما بالخَصْم مَجازٌ بِعَلاقةِ الصّورَة، وهي من عَلاقةِ المُشابَهَةِ في الذّاتِ، لا في صِفَةٍ من صِفاتِ الذّات، وعادَةُ عُلَماءِ البَيانِ أنْ يُمَثِّلوها بِقَوْلِ القائلِ إذا رَأى صورَةَ أسَدٍ: هَذا أسَدٌ"[2].

سرُّ التّعبير بضميرِ الجمع في ﴿تَسَوَّرُواْ﴾:

تَوَحُّد الخَصمان في إظهار الخُصومة

عبَّر النّظمُ الكريم بضمير الجمع في ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ مع أنَّ مرجِعَه مفردٌ لفظًا مثنًّى معنًى للقرينة ﴿خَصۡمَانِ﴾؛ سواءٌ كان مثنًّى حقيقيًّا أوْ مجازيًّا، فيصدُقُ بالجمع، والمَرجِعُ هو (خصم) في قوله تعالى: ﴿۞وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾، فلم يقل (تسوّر)؛ دَلالَةً عَلى أنهم عَلى كَلِمَةٍ واحِدَةٍ في إظْهارِ الخُصومَةِ؛ لا يَظْهَرُ لِأحَدٍ مِنهم أنَّهُ مُتَوَسِّطٌ مَثَلًا؛ ونَحْوُ ذَلِكَ[3] ورشّحَ ضَميرُ الرَّفع المُتَّصِل (واو الجماعة) إرادَةَ المُثَنّى المجازيّ، أي: إنَّ الخصمَين بمعنى الجماعة التي افترقَتْ فرقتَين، والمَعْنى: إذْ تَسَوَّرا المِحْرابَ، لأنَّ العَرَب يَعْدِلونَ عَنْ صيغَة التَّثْنيَة إلى صيغَة الجَمْع إذا كانَتْ هُناكَ قَرينَةٌ؛ لأنَّ في صيغَة التَّثْنيَة ثِقَلًا لِنُدْرَة اسْتِعْمالِها، ومنه قولُه تَعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التّحريم: 4] أيْ: قَلْباكُما[4].

---

(1) الشَّنقيطيّ، دَفْع إيهام الاضطراب عن آيات الكِتاب، ص: 199.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 231.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 356.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 231.

دلالةُ الفعل الماضي مادّةً وصيغةً:

شدّةُ الخصومة مانعةٌ من الاصطبار

عبَّر النّظمُ الكريم عن دخولِ القوم المتخاصمينَ إلى داوود عليه السلام بالفعل الماضي المشتقِّ من الجامد، وهو لفظ (السّور) الفاصلِ بين دار الحُكم والقوم، فلم يدخلوا عليه من البابِ المُعدِّ لذلك، بل ارتقَوُا السّورَ ودخلوا إليه، حتّى تفاجأ بكيفيَّة دخولِهم وأصابَهُ الفَزَعُ، ويظهر أنَّ السّورَ عالٍ وصعبُ المُرتقى، فجاءتِ الصّيغةُ الصّرفيّةُ الدّالّةُ على مكابدةٍ في الصّعود تصويرًا لِشدَّة المخاصمة، ولمنعِ الحرّاس دخولَهم عليه من الباب، فلم يَستطيعوا الانتظار والاصطبار حتّى يَتفرَّغ لهم، ومِن ثَمَّ كانت صيغةُ الفعل المزيد دالّةً على مُكابدةٍ في الارتقاء والدّخول، وتصويرًا لِشدّة الخصومة حتّى لم يصبروا على عَرض خصومتِهم.

دلالةُ الظَّرف ﴿إِذۡ﴾:

تحديدُ وقتِ الحَدَثِ ربطٌ للمخاطَبِ بالقصَّة

عبَّر النّظمُ القرآنيُّ بالظَّرف الزَّمانيِّ ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾، وهو مُتَعَلِّقٌ بمَحْذوفٍ - إذا جُعِلَتْ ظَرْفًا لِلزَّمَنِ الماضي - دَلَّ عَلَيْهِ الخَصْمُ، والتَّقْديرُ: تَحاكَمَ الخَصْمُ في وقتِ تسوّروا. ويجوز اعتبار ﴿إِذۡ﴾ اسْمًا لِلزَّمَنِ الماضي مُجَرَّدًا عَنِ الظَّرْفيَّةِ، فيُعرب بَدَلَ اشْتِمالٍ مِنَ الخَصْمِ، والتّقدير: وهل أتاك نبأُ وقتِ التّسوُّر؛ كما في قَوْلِهِ تَعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا﴾ [مريم: 16]، والظّرف هو مَناط التَّعجيب في هذه القِصَّة، حتّى صارَ ذِكْرُ الخَصْم تمهيدًا له؛ لأنَّ في التَّسَوُّر معنى الاقتحام، وهو يُنافي توقيرَ الأنبياء، ويزيدُ تهويلَ هذا الاقتحام الحالةُ التي كانَ عليها داوودُ من الاستغراق في العِبادة[1]، ويُشيرُ تحديدُ زمنِ تسوُّرِ المحرابِ إلى أنَّ داوود عليه السلام جعَلَ له وقتًا يخلو فيه برَبِّه، وتَقَرُّ عَينُه بعبادتِه، وتُعينُه على الإخلاصِ في جميع

(1) عبد العظيم المَطْعني، التَّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 399.

أموره، فكان في هذا الوقتِ مُلازِمًا مِحرابَه لعبادةِ رَبِّه؛ ولهذا تسَوَّر الخَصمانِ عليه المحرابَ؛ لأنَّه كان إذا خلا في مِحرابِه لا يأتيه أحدٌ، ولم يجعَلْ كُلَّ وقتِه للنّاسِ(1).

بلاغة الكناية في ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾:

التَّلَطُّفُ في رَدِّ الإنسانِ عن مَكروهِ صَنَعه، وألّا يُؤخَذَ بالعُنفِ ما أمكَنَ

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ على مكانِ التّسوُّر، وهو المِحْرابُ الذي يُعَدُّ أشْرَفَ ما في مَوْضِعِ العِبادَةِ؛ الَّذي كانَ داوُدُ عليه السلام بِهِ. وتسوُّرُ المحرابِ كِنايَةٌ عَنْ مدى التّنازُعِ العظيم والاختلافِ الكبير، حتّى جاؤوه في يَوْمِ العِبادَةِ؛ ومِن غَيْرِ البابِ؛ فَخالَفوا عادَةَ النّاسِ في الأمْرَيْنِ؛ وكَأنَّ المِحْرابَ الَّذي تَسَوَّروهُ كانَ فيهِ بابٌ مِن داخِلِ بابٍ آخَرَ(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبَأ والخبر:

النَّبأ إخبارٌ بحَدَثٍ عظيم وشأنٍ خطير، بخلافِ الخبر

لِكُلٍّ مِن الكلمتين سِياقٌ خاصّ، وألفاظٌ خاصَّة يتمُّ استعمالُ كُلٍّ منهما فيه، فكلمة (النَّبَأ) عندما يكون هناك خَبَرٌ لا يَعْرِفُه المُخْبَر، أمّا كلمة (الخبر) فتُستعملُ عندما تكون هناك احتماليّةٌ في معرفةِ المُخْبَر بالخَبَر مِن قبلُ، وإذا كان لا يَعْلَمُه فرُبَّما هو غيرُ متأكّدٍ منه، أَوْ سمِع عنه مِن قَبْلُ، لذلك يقال: أخبرني عن نفسي، ولا يقالُ: نَبِّئْني عن نَفْسي؛ لأنَّ الشّيءَ الّذي سيُخبره به هو يعرفُه بالفعل.

وتستعمل كلمةُ (النَّبَأ) في الحديث عن الأحوالِ الماضية وقصصِ الأنبياء التي تُعْتبر مجهولةً، ولم يَتِمَّ ذِكْرُها سِوى في القرآن الكريم، قال اللّه تعالى في كتابه الكريم ﴿فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَـٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦﴾ [الشّعراء: 6]، وذلك لأنَّه شيءٌ غيرُ معروف، والنَّبَأ له معنًى عظيم، فكُلُّ آيات القرآن الكريم تَدلُّ أنَّ النَّبأ هو أعظمُ وأهمُّ

(1) السَّعْديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 710.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 356.

كثيراً من الخبر، وفي أخبار الماضين والرُّسُلِ استَعمل القرآنُ نبأ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ٩﴾ [إبراهيم: 9]، والذي يتبيّنُ أنَّ النّبأ إخبارٌ بحَدَثٍ عظيم وشأنٍ خطير، بخلاف الخبر، فالعلاقة بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلق.

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ تفصيلٌ وبيانٌ لسابقتها؛ إذْ أَخْبَر سبحانه عن دخولِ الفريقينِ المُتخاصمَينِ على داوودَ ﵇، وبَيَّن كَيْفيَّته، فقال: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾، وهذا الآيةُ الكريمة بيانٌ لِأثَر هذا الدُّخول على داوودَ ﵇ وسَبَبِه ورغبتِهم في التوصُّل إلى الحُكم الصَّحيح في خصومتِهم، والهدايةِ إلى الطَّريق المستقيم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَفَزِعَ﴾: الفَزَعُ: الفَرَقُ والذُّعْرُ مِنَ الشَّيْءِ، وهوَ في الأصل مصدرٌ. وفَزِعَ مِنْهُ وفَزَعَ فَزَعًا وفَزْعًا وفِزْعًا وأفْزَعه وفَزَّعَه: أخافَه ورَوَّعَه، فَهوَ فَزِعٌ[1]، والفَزَعُ: انقباضٌ ونِفارٌ يَعتري الإنسانَ مِنَ الشَّيءِ المُخيف، وهو من جنسِ الجَزَع، ولا يقال: فَزِعْتُ مِنَ الله، كما يقال: خِفتُ منه[2]. والمرادُ به في الآية: الخوفُ الشّديد النّاجمُ عن المُفاجأة وعدم التّوقُّع.

2) ﴿خَصۡمَانِ﴾: الخَصْمُ: المُنازِعُ المُجادِلُ المُخاصِم. ويستوي فيه الجمعُ والمؤنَّث؛ لأنَّه في الأصل مصدرٌ، ومِن العربِ مَن يثنّيه ويجمعُهُ فيقول: خَصْمانِ وخُصومٌ. والخَصيمُ أيضًا: الخَصْمُ، والجمعُ خُصَماءُ[3]. والخُصومَةُ: الجَدَلُ. والخُصْمُ: الجانِبُ، والجَمْعُ أخْصامٌ. والخَصِمُ بِكَسْرِ الصّادِ: الشَّديدُ الخُصومَةِ[4]، وأَصلُ المُخاصَمَة: أن يتعلّقَ كلّ واحدٍ بخُصم الآخر، أي: جانبِه[5]. والمرادُ به في الآية: طرفانِ وقع بينهما نزاعٌ شديدٌ حتّى تحوّلَ إلى قضيّةٍ وقع فيها الجدالُ المحتاجُ إلى قاضٍ عدلٍ يحكمُ بينهما فيها.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فَزِعَ).

(2) الرَّاغب، المفردات: (فَزِعَ).

(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (خَصِمَ).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (خَصِمَ).

(5) الرَّاغب، المفردات: (خَصِمَ).

3) ﴿بَغَىٰ﴾: بَغَى: طغَى وتعدَّى، والبَغْيُ: الظُّلْمُ، وأيضًا: قَصْدُ الفسادِ، وأصلُ البَغي: تَجاوُزُ الحَدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ، أي: تَجاوَزَ الحدَّ في فسادِه[1]. والبَغي: طَلَبُ تجاوُزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى، تجاوزَه أم لَمْ يَتَجاوزْه، فتارةً يُعْتَبر في القَدْر الذي هو الكِمّية، وتارةً يُعْتَبر في الوَصف الذي هو الكَيفيَّة. والابتغاءُ قد خُصّ بالاجتهاد في الطّلب، فمتى كان الطّلبُ لشيءٍ محمودٍ فالابتغاءُ فيه محمودٌ[2]. والمرادُ به في الآية: التّعدّي والظُّلمُ وغَمطُ الحقوق.

4) ﴿تُشۡطِطۡ﴾: (شطَطَ) أصلٌ يدُلُّ على المَيلِ[3]. وشَطَّتِ الدّارُ تَشِطُّ وتَشُطُّ شَطًّا وشُطوطًا: بَعُدَتْ. وتُشْطِط: تَجُرْ وتُسرِفْ وتَتجاوَزْ. والشَّطُّ: جانبُ النِّهرِ والوادي والسِّنام. والشَّطوط: النّاقةُ الضَّخمةُ السِّنام. والشّطاطُ: البُعدُ واعتدالُ القامةِ أيضًا. والشَّطَطُ: مجاوزةُ القَدْرِ في كُلِّ شيء[4]. والمرادُ به في الآية: الجَوْرُ في الأحكامِ والظُّلمُ عندَ القضاء.

5) ﴿سَوَآءِ﴾: (سَوي) أصلٌ يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئَين[5]. والسَّواءُ: العدلُ. قال اللّه تعالى: ﴿فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: 58]. وسَواء الشَّيء: وسَطُه[6]. والمرادُ به في الآية: وسطُ الطّريق، وهو كنايةٌ عن الصِّراط المستقيم، والحُكم الصّائب في الخصومة.

6) ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾: (صرط) أصله بالسّين، فهوَ مِنْ بابِ الإبْدالِ[7]، و(سرط) أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى غَيْبَةٍ في مَرٍّ وذَهابٍ. مِنْ ذَلِكَ: سَرَطْتُ الطَّعامَ، إذا بَلَعْتَهُ؛ لِأنَّهُ إذا سُرِطَ غابَ. وبَعْضُ أهْلِ العِلْمِ يَقولُ: السِّراطُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأنَّ الذّاهِبَ فيهِ يَغيبُ غَيْبَةَ الطَّعامِ المُسْتَرَطِ[8]، والسَّرْطُ منه الاستِراط، وهو سُرعة الابتلاعِ من غيرِ مَضْغٍ[9]، وقولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: 6]، كُتِبَتْ بالصّاد، والأصل

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فَزِعَ).
(2) الرّاغب، المفردات: (بَغي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شَطَطَ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (شَطَطَ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سَوِي).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (شَطَطَ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 349.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/ 152.
(9) الخليل، العين: 7/ 211.

السّين، ومَعْناهُ: ثَبِّتْنا على المِنْهاج الواضِح[1]. والمراد به في الآية: الطّريقُ. وهوَ الطّريقُ المسلوكُ، واستُعير للحُكم الصّائبِ الفاصِلِ بينَ الحقِّ والباطِلِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

فَزِعَ داوودُ عليه السلام من دخول الخَصْمين عليه فُجاْةً في محرابِه، فقالوا مُطَمْئِنينَ لَه: لا تَخَفْ، فنحنُ ما جِئنا لإيذائِك، بَلْ نحنُ خَصمانِ ظَلَمَ أحدُنا الآخَرَ، فاقضِ بينَنا بالعَدل، ولا تَجُرْ علينا في الحُكم، وأرشِدْنا إلى الصَّواب، والطَّريقِ المُستقيم، والمَنْهَجِ القَويم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تَعدُّدُ الأوجه الإعرابيّة:

تكرّرت ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ﴾، ويجوز في إعرابها عِدَّةُ أوْجه، حيثُ يمكن أنْ تُعْرَب بَدَلًا من ﴿إِذۡ﴾ الأولى في قوله: ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ﴾ بَدَلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ، بِأَنْ يُجْعَلَ زَمانُ التَّسَوُّرِ وزَمانُ الدُّخولِ لِقُرْبِهِما بِمَنزِلَةِ المُتّحِدَيْنِ، أوْ بَدَلَ اشْتِمالٍ، بِأنْ يُعْتَبَرَ الامْتِدادُ، وعلى هذَينِ الوجهينِ تكون (إذ) اسمَ زمان مجرّدٍ من الظّرفيَّة، أوْ ظَرْفًا لـ﴿تَسَوَّرُواْ﴾، ويُعْتَبَرُ امْتِدادُ وقتِه، وإلّا فالتَّسَوُّرُ لَيْسَ في وقْتِ الدُّخولِ، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالدُّخولِ إرادَتُه، وفيه تَكَلُّفٌ؛ لِأنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ مَجازًا لا يَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾، فَيَحْتاجُ إلى تَفْريعِهِ على التَّسَوُّرِ، ويجوز تَعَلُّقُه بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذْكُرْ[2]، فيكون مفعولًا به، والذي يترجّحُ لدينا أنّه بدلٌ من بدل؛ إذ أُريدَ تحديدُ طبيعةِ الخَصم أنَّه صارَ إلى زمنٍ يَتسوّرُ المحرابَ عند التّقاضي؛ لإضفاءِ دلالةِ الحاجة الماسَّة إلى الحُكم، حتّى إنَّه

تكرارُ الظّرف والزّمان يولجُ السّامعَ إلى قلبِ الحدَث

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 12/ 232.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 23/ 244.

لم يدخل عليه من الباب، ثمَّ أبدلَ من وقت التّسوُّر وقتَ الدّخول؛ لأنَّ زمن التّسوُّرِ ممتدٌّ إلى الدّخول، وفي حرصِ النَّظم الجليل على تعيينِ زمن الحدثِ تحديدًا دقيقًا، تصويرٌ للمشهد بكافّةِ ظروفه الزّمنيَّة، ممّا يولّدُ ارتباطًا عميقًا بالحَدَثِ والقِصَّة.

نُكْتَةُ التَّصريح باسم العَلَم:

الإشعارُ بِقُرْب المَنزلة

عبّرَ النّظمُ الجليلُ بالاسمِ العَلَم في قوله تعالى: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ إشْعارًا بِما لَه مِن قُرْبِ المَنزِلَةِ؛ وعَظيمِ الوُدِّ؛ مُستعمِلًا حرفَ الاستعلاءِ الّذي يوحي بِثِقَلِ الاختبار، أي: ابْتِلاءً منّا لَهُ؛ مَعَ ما لَه مِن ضَخامَةِ المُلْكِ؛ وعِظَمِ القُرْبِ مِنّا، ونلحظُ في تسوُّرِ المحراب والدّخولِ عليه في موضِعِ عُزلتِهِ وعبادته دلالةً كنائيّةً على عظيمِ افتقارِه لحمايةِ مَولاه الغنيِّ، وأنَّ كلَّ ما عليه من قوّةٍ ومُلْكٍ عظيم، وحِكمةٍ بالغةٍ، وخطابٍ فصلٍ، فإنَّه بإقدارِ اللّه تعالى له، وأنَّه لا يملكُ من دون رعايةِ اللّه به شيئًا من الأمر، حتّى إنَّ الخَصْمَ وصلوا إليه بكلِّ يُسرٍ وسُهولة.

دلالة العطف في ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾:

خَــوْفُ داوودَ عليه السلام تقتضيه الـطّـبـيـعـةُ والجِبِلَّة

عُطِف قولُه: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ﴾ على دخولهم عليه بـ(الفاء) الدّالَّة على التَّعقيب والتّسبُّب، وقد دَلَّتِ الجملةُ المعطوفة على ترتّب فَزَعِ داوودَ عليه السلام على دُخول الخَصْمين بشكلٍ مُفاجِئٍ عليه. ودلَّ التّعبيرُ بالفعل الماضي (فزِع) على تَحَقُّق فَزع داوودَ عليه السلام، وفزعه "أنَّهما أَتَياه لَيلًا في غير وقتِ دخولِ الخصوم، ودخلوا عليه بغيرِ إذنه، ولم يَدخلوا من الباب الذي يدخلُ منه النّاس"[1]. وخَوْفُ داوودَ عليه السلام هنا تقتضيه الطّبيعةُ والجِبِلَّةُ، والأنبياءُ يَلحَقُهم مِن الطّبائعِ البَشَريَّةِ ما يَلحَقُ غَيْرَهم؛ حيثُ لَحِقَه الفَزَعُ كما يَلحَقُ سائِرَ النّاسِ[2]. وفي

(1) القنوجيّ، فَتْح البيان: 12/ 28.

(2) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين - سورة ص، ص: 115.

كلمةِ (الفزع) ما يُشيرُ إلى بلوغِه القمّةَ في الذُّعر، الَّذي أصابَهُ من ذلك الدُّخولِ غيرِ المعتاد، "وَهوَ انْفِعالٌ يَظْهَرُ مِنْهُ اضْطِرابٌ على صاحِبِهِ مِنْ تَوَقُّعِ شِدَّةٍ أَوْ مُفاجَأةٍ"[1]، وتعدَّى الفعلُ بالجارّ والمجرور ﴿مِنۡهُمۡۖ﴾؛ لبيان مصدرِ الفزع ومُسبِّبه، وفي ذلك كنايةٌ عن افتقارِ المَلَك العظيمِ لرحمةِ ربِّه وخالقِه الكريم.

مصدرُ الفَزَعِ يحملُ رسالةَ الطُّمأنينة

دلالةُ الفَصْل في ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾:

فُصِلَت جُملة ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ للاستئناف البيانيّ، المُسمّى بشِبْهِ كمالِ الاتِّصال، حيثُ وقَعَت جَوابًا عن سُؤالٍ اقتضاه حِكايةُ فَزَعِ داوودَ ﷺ، كأنَّه قيلَ: فماذا قالوا عِندَ مُشاهَدَتِهم لِفَزَعِه؟ فقيل: قالوا إزالةً لِفَزَعِه: ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾[2]، وفي إزالةِ الخوف بعبارةِ ﴿قَالُواْ﴾ ما يدلُّ على أنَّهم شعَروا بفزَعه الشّديدِ، وآلَمَهم ذلك حتّى إنَّهم بادَروا إلى طمأنتِه بالكلام الّذي يُشعِرُ المقابلَ بالسَّكينة والرّاحة النّفسيّة، وأنّهم مجرَّدُ خَصْم يطلبُ التّقاضي عندَ العادل الحكيم.

النَّهيُ عن الأضعف يتضمّنُ النّهيَ عن الأشدّ

دلالة النّهي في ﴿لَا تَخَفۡۖ﴾:

دلَّ النّهيُ الواردُ مقولًا لهم: ﴿لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ﴾ على طلبِ عدمِ الخوفِ والكفِّ عنه والاستمرارِ فيه؛ ولم يقلِ النّظم: (لا تفزع) كما وقع له؛ لأنَّ النّهي عن الفزَع لا يقتضي النّهيَ والكَفَّ عن الخوف؛ إذِ الفَزَعُ أشدُّ حالات الخوف، ولذا طلبوا عدمَ الخوفِ فضلًا عن الفزَع. وإنَّما نهَوهُ عن الخوف رأفةً به، وليتمكّنَ من النَّظر في قضيّتِهم، ويحكُمَ بينهم بالحقّ، إذِ الخائفُ لا يستطيعُ أنْ يتصوَّرَ القضيّةَ، بل يكونُ مشوّشَ الذّهنِ، فلا يبدرُ منه حُكمٌ صحيحٌ، ولا خطابٌ فاصلٌ بين الخطأ والصّواب.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 232.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 568، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 357، ومحيي الدِّين درويش، إعراب القرآن: 8/ 346.

بلاغة الإيجاز بِحَذْف المبتدأ:

مـــراعـــاةُ الـخَـصـمـيْن للحالة النَّفسيّة

في قوله تعالى: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ﴾ إيجازٌ بِحَذْف المبتدأ، والتَّقديرُ: نَحْنُ فَوْجانِ مُتَخاصِمانِ على تَسْمِيَةِ مُصاحِبِ الخَصْمِ خَصْمًا[1]. وقد راعى الخَصْمانِ الحالةَ النَّفسيَّة التي كان عليها داوودُ عليه السلام عندَما فوجيء بِهِما، فأجْملوا بالحذفِ كاشفينَ عن هَدَفهم مِن المجيءِ إليه ليَذْهبَ الرَّوْعُ عنه، ثُمَّ فَصَّلوا. وفي الإخبارِ عن أنفسِهم بأنَّهم خصمانِ إشارةٌ إلى أنَّ الخصومة فيما بين الدّاخلينَ عليه، ولا علاقةَ له بها، فقد حدَّد النّظمُ الطّرفينِ المُتخاصمَين؛ ليكونَ أبلغَ في إزالةِ خوفِه وفَزَعِه، ولذا لم يقولوا: (خصم بغى) كما عبّر عنهم في قوله: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾.

العدول عن الجَمع إلى التَّثنية:

العَرَبُ إذا نَعَتَت بالمَصدَرِ تَصَرَّفت فيه

عُدِلَ عن الجَمْعِ في ﴿قَالُواْ﴾ إلى التَّثنية ﴿خَصۡمَانِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ﴾ لِما سَبَقَ ذِكْرُه مِن أنَّ لَفْظَ الخَصْم مَصدَرٌ (خَصَمَه)، ويُرادُ به الجَماعةُ والواحِد والاثنان، ويجوزُ جَمْعُه وتثنيتُه، وقال الكِسائيُّ: "جَمَعَ لمّا كان خبرًا، فلمّا انقضى الخبرُ وجاءت المخاطبةُ أخبر الإثنان عن أنفسهما فقالا: خصمان"[2]. ونلحظُ دلالةً أخرى: وهو أنَّ التّعبير بالجمع دليلٌ على أنَّهم كانوا جماعةً، وأنّه فَزِعَ من كثرتهم كما فَزِعَ من طريقةِ دخولِهم، فتكلَّموا جميعًا رأفةً به، وإزالةً لخوفه، وبعد أنْ أمّنوه واطمأنَّ إلى أنّهم مصدرُ أمانٍ، عبّروا عن كونهم فَوْجَينِ من المُختصِمينَ قدِ انقسَموا إلى فِرقتينِ، ولذا لم يقولوا: (خصم أو خُصوم)؛ لئَلّا يفهمَ منه أنَّ لديهم أكثرَ من قضيّةٍ واحدةٍ.

بلاغة التَّفصيل بَعْد الإجمال:

في قوله: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ تفصيلٌ بَعْد إجمال، وبيانٌ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 16، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 357.

(2) القنوجي، فتح البيان: 12/ 29، والصَّاوي، حاشية على تفسير الجلالَيْن: 3/ 331.

أبــهــمَ أوَّلًا؛ ليُفَصِّلَ ثانيًا؛ ليَكونَ أوْقَعَ في النَّفْس

ذلك أنَّ في قوله: ﴿خَصۡمَانِ﴾ إجمالًا بالحذف، تقديرُه: نَحْن فَريقانِ في خُصومَةٍ؛ ثُمَّ بَيَّنوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِم: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا﴾ أي: طَلَبَ طِلْبَةَ عُلوٍّ واسْتِطالَةٍ ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾؛ فَأَبْهَمَ أوَّلًا ليُفَصِّلَ ثانيًا، فَيَكونَ أَوْقَعَ في النَّفْسِ[1]. وقَوْلُه: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ هو على سَبيلِ الفَرْضِ والتَّقْديرِ، وعَلى سَبيلِ التَّعْريضِ؛ لِأَنَّ مِنَ المَعْلومِ أَنَّ المَلَكَيْنِ لا يَبْغيانِ[2]. ونلحظُ إنصافًا في تقديمِ الدّعوى للحاكم؛ إذ نسبوا البغيَ لكلٍّ من الطَّرفينِ على سبيلِ السَّويَّة، وفيه دلالةٌ على طمأنة الحاكم بأنَّهم مصدرُ خيرٍ لا سوء. وإنَّما عرَّفوا البعضَ الأوّلَ ونسَبوه إلى أنفسهم، ونكَّروا البعضَ الثّاني؛ إظهارًا للباغي وتعيينًا له وتمييزًا، واعترافًا بأنَّ بعضَهم باغٍ ليس إلّا، فلا بدَّ أن يكون البعضُ الآخَرُ منهم قد وقعَ عليه البغيُ؛ فلا حاجةَ إلى تعريفِه وتمييزه.

دلالة فاء ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا﴾:

إيـجـازُ الـكـلام مُـحـقِّـقٌ لمزيـدِ الـطّـمـأنـيـنـة والسّلام

آثَر النّظمُ الكريمُ الإتيانَ بالفاءِ الفصيحة في قوله: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ التي أنْبَأت عن شَرْطٍ محذوفٍ، تقديره: إن كُنتَ عرفتَ خَبَرَنا فاحْكُمْ. وفي طَيِّ (الفاء) لِما حُذِف قبلَها إشعارٌ بوجوبِ حُسْنِ عَرْضِ الخُصومةِ؛ مُراعاةً لحال القاضي ووقته، كما دلَّ الاقتصار على تعيينِ سببِ دخولهم عليه بطريقةٍ غيرِ معهودة ومُفزعةٍ، وهو طلبُ التّحاكُم والتّقاضي ليس إلّا، فيزدادُ طمأنينةً وسلامًا وراحةً من ذلك الفَزَعِ السّابق، ويجوز عَدُّ الفاءِ تفريعيّةً؛ إذ بَعْدَ بيانِ المُتَخاصِمَين بوجود بَغْيٍ وقَعَ، تفرّعَ عَنْهُ طَلَبُ الحُكْم.

دلالة الأمر ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا﴾:

إظـهــارُ مـدى الـحـاجـةِ إلى الإنصاف

عبَّر النّظمُ الجليل بفعلِ الأمر (احْكُمْ) في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا﴾؛ لإظهارِ مزيدِ الحاجةِ إلى النُّصحِ والإرشاد والتَّذكير، ولبيانِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 357.

(2) الشَّوْكانيّ، فَتْح القدير: 4/ 561.

أنَّهم وقعوا في حالةٍ من البَغي، دَفَعتْهُم إلى الأمرِ بالحُكم والقضاءِ؛ لفضِّ المُنازعة والخصومة؛ إنصافًا لَمن وقع عليه البَغيُ، وردًّا للباغي، وفي الأمر إشارةٌ إلى وجوبِ اتّخاذ النّاس حُكّامًا صادقينَ، يُحقّقونَ العدالةَ بين النّاس، ويُظهرونَ وجهَ الصّواب عند المنازعةِ والاختصام، وأنَّ مَن تولَّى أمرَ القضاء يتوجّبُ عليه إظهارُ الحُكمِ وإفشاؤُه عندَ الحاجة.

دلالة الظّرف ﴿بَيۡنَنَا﴾:

وجوب الإنصاف في الحُكم

دلّ الظّرفُ المكانيُّ في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ على تحديدِ محلِّ الحُكم، والغرضُ من الظّرف بيانُ أن يكونَ الحُكمُ متوزِّعًا بينهم، لا يميلُ إلى بعضٍ دونَ بعض، ففيه إشارةٌ إلى وجوبِ إيقاعِ الحُكمِ بينَهم في الوسط من دونِ ميلٍ إلى خصمٍ دونَ غيره.

دلالة الحال في الجارّ والمجرور ﴿بَيۡنَنَا﴾:

لا يَمنَعُ القاضي مِن الحُكمِ بالحَقِّ سوءُ أدَبِ الخَصْمِ، وفِعلُه ما لا يَنبَغي

الجارُّ والمجرور في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ في محلِّ النّصب حالٌ، والباءُ للإلصاق والمُلابَسة، وأفادتْ تقييدَ الحُكم بأنْ يكونَ حُكْمًا عادِلًا لا يَنْفكَّ الحَقُّ عنه، مُلْتَبِسًا به، وليس أيَّ حُكم ولو كان ظُلمًا أوْ جَوْرًا، والحقُّ هو "الأمْرُ الثّابِتُ؛ الَّذي يُطابِقُهُ الواقِعُ؛ وإنَّما سَألاهُ ذَلِكَ مَعَ العِلْمِ بِأنَّهُ لا يَحْكُمُ إلّا بِالعَدْلِ؛ لِيَكونَ أجْدَرَ بِالمُعاتَبَةِ عِنْدَ أدْنى هَفْوَةٍ"[1]، وفي الحال إشارةٌ إلى أنّه لا يَمنَعُ القاضي مِن الحُكمِ بالحَقِّ سوءُ أدَبِ الخَصمِ، وفِعلُه ما لا يَنبَغي[2].

دلالة تعريف (الحقّ):

التَّذْكير بالحَقِّ والواجِب لا يُعَدُّ جَفاءً للقاضي

وردَ (الحقُّ) معرّفًا باللّام في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ المفيدةِ للجِنْس والحقيقة، والمرادُ: الطَّلَبُ مِن داوودَ عليه السلام أنْ يَحكُم بِحُكْمٍ عادلٍ نَزيهٍ، يصيبُ فيه عينَ حقيقةِ الحقِّ، ولا يكونُ ذلك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 357.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 712.

إلّا بالتّأمُّل والنّظر الهادئ، والرّؤية العميقةِ والتّفكير الصَّحيح، والاتّكاءِ على قواعدِ العقل والدّين.

دلالة الوصل في ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾:

وجوبُ قَبولِ النَّصيحة بَصْدرٍ رَحْبٍ، والعملُ بها إنْ كانت حَقًّا

عطفَ النّظمُ الكريم الجملةَ الطّلبيّةَ بأسلوبِ النّهي في قوله: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾، على الجملةِ الطّلبيّةِ بأسلوبِ الأمر ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ عطفَ الإنشاءِ على الإنشاء، وإنْ كانتِ الجملةُ المعطوفُ عليها في محلِّ الجزم فالمعطوفةُ عليه كذلك، وفي عطفِ النّهي إشارةٌ إلى أنَّ "المَوعوظَ والمَنصوحَ ولو كان كبيرَ القَدْرِ، جَليلَ العِلْم، إذا نصَحَه أحَدٌ أوْ وعَظَه لا يَغضَبُ ولا يَشمَئِزُّ، بل يُبادِرُه بالقَبولِ والشُّكر؛ فإنَّ الخَصمَين نصَحا داوودَ ﷺ، فلم يَشمَئِزَّ ولم يَغضَبْ"[1]. كما أفادَ عطفُ النّهي على الأمر بالحُكم الثّابت والحقِّ الاحتراسَ عن أنْ يكون الحُكمُ بالحقّ ملتبسًا بشيء من الشّطط، فنفَوْهُ بالنَّهي عنه، فأفادَ العطفُ أن يكونَ الحُكمُ بالحقِّ خالصًا ومَحْضًا لا يَشوبُهُ شيءٌ من الشَّطَط والاعوجاجِ والانحرافِ عنه.

دلالةُ النَّهي ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾:

عَدَمُ مُعاقبةِ النّاصِحِ بالحَقّ

دلّ النّهي في قوله: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ على الاستعطاف للحاكِم، والتّذْكيرِ والنُّصح والإرْشادِ، ويُصْرَفُ عَنْ إرادَةِ الجَفاءِ والتَّجاوزِ في طَلَب الخَصْمَيْنِ أنَّهما عَرَفا أنَّ داوود ﷺ حاكِمٌ عادلٌ[2]، وفي الجملة دَليلٌ على أنَّ "الخُصومَ إذا خاطَبوا الحاكِمَ الَّذي يَقْضي بَيْنَ النّاس بمِثلِه، وقالوا: اعْدِلْ في حُكمِك، ولا تَجُرْ علينا! لم يكُنْ ذلك منهما سوءَ أدَبٍ، ولا يُجوزُ للقاضي أنْ يَجِدَ عليهما، ولا يُعاقِبَهما[3]، كما دلَّ النّهيُ على تأكيدِ الأمرِ السّابق، وهو أنْ يكونَ حكمُه حقًّا وصِدْقًا؛

(1) السَّعْدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 712.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 234.

(3) القَصَّاب، النُّكَت الدَّالّة على البيان: 3/ 752.

لأنَّ جملةَ النّهي عن الشّطَط والزّيغِ عن الحقِّ تُعطي مضمونَ الأمرِ بالتزامِ الحُكم الصّائب الثّابت.

لطيفة فَكِّ الإدغام في ﴿تُشۡطِطۡ﴾:

القـلـيـلُ من الغُبن في الحُكم محلُّ التغاضي

عبّر النّظمُ الكريم عن النّهي عن الظّلم والجَوْرَفي إصدارِ الحُكم بقوله: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾، ومعناه: لا توقِع البُعْدَ؛ ومُجاوَزَةَ الحَدِّ؛ لا في العِبارَةِ عَنْ ذَلِكَ؛ بِحَيْثُ يَلْتَبِسُ عَلَيْنا المُرادُ؛ ولا في غَيْرِ ذَلِكَ؛ أوْ: ولا تُمْعِنْ في تَتَبُّعِ مَداقِّ الأُمورِ؛ فَإنّي أرْضى بِالحَقِّ عَلى أدْنى الوُجوهِ. وفي فَكِّ الإدْغامِ إشارَةٌ إلى أنَّ النَّهْيَ إنَّما هو عَنِ الشَّطَطِ الواضِحِ جِدًّا[1]، وفي ذلك النَّهي دلالةٌ على أنَّ طلبَهم الحُكمَ بالحقّ الّذي لا يقبلُ شيئًا من الخطأ مستحيلٌ أوْ مُتعذّرٌ؛ لأنَّ الحاكمَ البشريَّ مهما كان عادلًا فإنّه غيرُ قادرٍ على إصابةِ الصَّواب المُطلَق، ولذا عقّبوهُ بالنَّهي عن الشَّطَط، وهو البُعْد الكبيرُ عن الحقّ؛ لأنَّ البُعدَ القليلَ مقبولٌ والغبنَ اليسيرَ يُتغاضَى عنه.

دلالة الوصل والأمر في ﴿وَٱهۡدِنَآ﴾:

غـايـةُ التّحاكم إحـقـاقُ الـحـقّ والاهـتـداءُ إلى الصَّواب

عطفَ النّظمُ الكريم الأسلوبَ الطّلبيَّ في قوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ على الأسلوبِ الطّلبيِّ المتقدّم عطفَ الإنشاء على الإنشاء؛ للدّلالةِ على مطلوبٍ آخرَ من التّحاكُم فوقَ الحُصولِ على الحقِّ والإنصافِ وعدم الابتعاد عنهما حينَ إصدارِ الحُكم، وهو الهدايةُ إلى الرّأيِ الصَّواب؛ خوفًا من الوقوعِ في الظُّلم وانتهاكِ الحقوقِ والحدود، إذ مِن شأن المُتخاصِمَين الحرصُ على الوصولِ إلى الحُكم الصّائبِ معَ الهِدايةِ لطريقِ الحقِّ والعِلْمِ به، وأفادَ الأمرُ دلالةَ الإرشادِ والاستعطاف.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ (الهداية):

استُعير لَفْظ (الهِداية) في قوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 357.

لِلْبَيانِ وإيضاحِ الصَّوابِ[1]، والاستعارةُ تَبَعِيَّةٌ مُجَرَّدة، ويتحقّقُ في هذه الاستعارةِ تجسيدُ العِلْم والدّلالة على أنّهما هدايةٌ ووضوحٌ، ووصولٌ إلى الصّواب.

بيانُ الحَقِّ هدايةٌ للصَّواب

دلالةُ التَّعبير بالمصدر:

عبّر النّظمُ الكريمُ بالمصدرِ المُستعمَل بمعنى الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾، إذِ السَّواءُ بمعنى (المُستوي)، والطّريقُ المُستوي هو الطَّريقُ الواضحُ الَّذي لا ميلَ فيه ولا انحرافَ عنه، فهو كنايةٌ عنِ الاهتداءِ إلى الرَّأي الدَّقيق والحُكم الفَصْل، فقوله: ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ مُسْتَعارٌ لِلْحَقِّ والطَّريق الواضِح الَّذي لا يَشوبُهُ باطِلٌ؛ لِأنَّ الصِّراطَ الطَّريقُ الواسِعُ، والسَّواءُ منه هو الَّذي لا التِواءَ فيه ولا شُعَبَ تَتَشَعَّبُ منه، فَهو أسْرَعُ إيصالًا إلى المَقْصود بِاسْتِوائِه، وأبْعَدُ عَنِ الِالتِباسِ بِسَلامَتِه مِن التَّشَعُّبِ[2]، وقد أشار البِقاعيُّ إلى سِرِّ إيثار التَّعبير بـ ﴿سَوَآءِ﴾ بأنه: "لَمّا كانَ الحَقُّ لَهُ أعْلى وأدْنى وأوْسَطُ؛ طَلَبوا التَّعْريفَ بِالأوْسَطِ؛ فَقالوا: أرْشِدْنا إلى وسَطِ الطَّريقِ الواضِحِ؛ فَلا يَكونَ بِسَبَبِ التَّوَسُّطِ مَيْلٌ إلى أحَدِ الجانِبَيْنِ؛ الإفْراطِ في تَتَبُّعِ مَداقِّ الأمْرِ؛ والتَّفْريطِ في إهْمالِ ذلِكَ"[3].

يَليقُ بِالقاضي تَحَمُّلُ المُتَخاصِمينَ، فَحالُ المَرْءِ وقْتَ التَّخاصُمِ لا يَخفى

بلاغةُ التَّشبيهِ التَّمثيليّ:

في قوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ تشبيهٌ تَمْثيليٌّ لِحالِ الحاكِم بِالعَدْلِ بِحالِ المُرْشِدِ الدّالِّ عَلى الطَّريقِ المَوصلَة؛ فَهو من التَّشبيه التَّمْثيليّ القابِلِ تَجْزِئَةَ التَّشْبيه في أجْزائِه. ويُفهمُ من العبارة هُنا: أنَّ حُكْمَ القاضي العَدْلِ يُحمَلُ عَلى الجَرْيِ على الحَقِّ، وأنَّ الحُكْمَ

حُكْمُ القاضي يَجِبُ أنْ يَكونَ بِالحَقِّ شَرْعًا؛ لِأنَّهُ هَدْيٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 234.
(3) ابن جُزّي، التَّسهيل في علوم التَّنزيل: 2/ 251.

يَجِبُ أنْ يَكونَ بِالحَقِّ شَرْعًا لِأنَّهُ هَدْيٌ، فَهو والفُتْيا سَواءٌ في أنَّهُما هُدًى، إلّا أنَّ الحُكْمَ فيهِ إلْزامٌ[1].

تعقيبُ النّهي بالأمر ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ﴾:

حِلْم نَبيّ الله داوودَ عليه السلام وسَعةُ صَدْره

ذُكِرَ الأمرُ في قوله: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ بَعْد النَّهْي في قوله: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾؛ تأكيدًا على استعطافِ داوودَ عليه السلام، وحَثِّه على الحُكْم بالحَقِّ، وإرشادِهم إليه إرشادًا واضِحًا مُحْكَمًا، كما أنَّ الشّطَطَ في الحُكْم والابتعادَ عن الصَّواب تجهيلٌ للمُتخاصِمَين، وإيقاعٌ لهما بمزيدِ الحَيْرةِ والشَّكِّ، ولذا عقّبَه بالهدايةِ اللّازمةِ عن عدمِ الشَّطَط.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 234 - 235.

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾ [ص: 23]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

في هذه الآية تفصيلٌ للدَّعوى، ونَصٌّ عليها بَعْدَ إجمالِها في الآية السّابقة، فالفريقانِ المُتخاصِمان: "لَمّا أخبَروا عن وُقوعِ الخُصومةِ على سَبيلِ الإجمالِ، أردَفوه ببَيانِ سَبَبِ تلك الخُصومةِ على سَبيلِ التَّفصيلِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾: (كفل) أَصْلٌ يدُلُّ على تَضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2]. والكَفالة: الضَّمان. ويقال: هو كافيهِ وكافِلُهُ، وهو يَكفيني ويَكفُلني: يَعولني ويُنْفِق عليّ. والكافل: العائلُ والضّامنُ، والَّذي لا يأكلُ أو يصِلُ الصّيام، والجمع: كُفَّلٌ وكُفَلاءُ[3]، والمعنى: انزِلْ عنها لي، واجعَلْني كافِلَها.

2) ﴿وَعَزَّنِي﴾: (عزز) أصلٌ يدُلُّ على شِدَّةٍ وقوَّة[4]، واسْتَعَزَّ فلانٌ بحَقّي، أي: غَلَبَني. والعِزُّ: خلافُ الذُّلّ، ومَطَرٌ عَزٌّ، أي: شديد. وعَزَّ الشَّيءُ يَعِزُّ وعِزَّة وعِزازة، إذا قلَّ لا يكادُ يوجَدُ، فهو عزيز. واسْتُعِزَّ بفلانٍ، أي: غُلِبَ في كُلِّ شَيءٍ، مرضٍ أَوْ غيره[5]، والعَزيزُ: مِنْ صِفاتِ اللَّهِ ﷻ وأسمائِه الحُسْنَى، والمرادُ به في الآية: غلَبَني وقهَرَني.

3) ﴿ٱلۡخِطَابِ﴾: أَصلُ خَطَبَ: الكَلامُ بَيْنَ اثْنَيْن، يُقالُ: خاطَبَهُ يُخاطِبُهُ خِطابًا، والخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ. وفي النِّكاح: الطَّلَبُ أَنْ يُزَوَّجَ، والخُطْبَةُ: الكَلامُ المَخْطوبُ بِهِ. ويُقالُ: اخْتَطَبَ القَوْمُ فُلانًا، إذا دَعَوْهُ إِلَى تَزَوُّجِ صاحِبَتِهِمْ. والخَطْبُ: الأَمْرُ يَقَعُ؛ وإنَّما سُمّيَ

(1) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/ 383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كَفَلَ).
(3) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التَّمييز: (كَفَلَ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عزَّ).
(5) الجوهريّ، الصِّحاح: (عَزَّ).

بِذَلِكَ لِما يَقَعُ فيه[1]. والمراد به في الآية: الكلامُ والجدالُ وكثرةُ المراجعة في الحوار.

المَعْنى الإجْماليُّ:

قالَ أحَدُ الخَصْمَين لِداوودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً، وليَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: مَلِّكْني إيّاها بحيثُ تكونُ تحتَ كَفالَتي، وغَلَبَني في المُحاجَّةِ والمُخاطَبةِ!

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي﴾:

بيانٌ وتفصيلٌ للخصومة

الاستئنافُ في قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي﴾ لِبَيانِ ما فيه الخُصومةُ، وفُصِلَتِ الجملةُ عن سابقتِها؛ لكمال الاتِّصال؛ حيثُ وقعتْ هذه الجملةُ بَيانًا وتفصيلًا للخصومةِ المفهومةِ إجمالًا من قوله: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ﴾؛ إذ كلُّ خصومةٍ تَستدعي دَعوى وقضيّةً يقعُ حولَها الاختلافُ والتّقاضي.

دلالةُ التَّعبير باسمِ الإشارة في ﴿هَـٰذَآ أَخِي﴾:

اسـمُ الإشـارة يَكْشِفُ عن مكانِ ومكـانـةِ أحَـد الخُصوم

في التَّعبير باسم الإشارة للقريب في قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي﴾ إشارةٌ إلى قُرْب المكان والمكانة، فأخوه المُتنازِعُ معَه بجواره قريبٌ مِنه، وهوَ أخوه أيًا كانت هذه الأُخوَّة، فهي أقْرَبُ النّاسِ إلَيه صِلَةً، كما أفادَ اسمُ الإشارة تعيينَ الخصم بشكلٍ يرفعُ عنه أيَّ إبهام، ويزيلُ عنه كلَّ توهُّم، وفي هذا التّعيين إثارةُ انتباه المُستمعينَ إلى أنَّ الخَصْم حاضرٌ في الخصومة، غيرُ متخلِّفٍ عن مجلسِ القضاء، فلم يحضُر بوكيلِه أوْ بنائبِه.

دلالةُ التَّوكيد:

التّأكيد؛ لِغرابة الـخَـبَر، ونُــدْرَة حدوثِه

التّأكيد في قوله: ﴿إِنَّ هَـٰذَآ أَخِي﴾ بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة؛ لغرابةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خَطَبَ).

الخَبَر، ونُدْرَة حدوثه، وبيانُ هذا: أنَّه لَمّا كانَت هذه الدَّعوى بِأَمْرٍ مُسْتَغْرَبٍ يَكادُ أَلّا يَسْمَعَه أحدٌ إِلّا أَنْكَرَه؛ ساقَ الكَلامَ مُؤَكَّدًا[1]، كما أفادَ التّوكيدُ تنزيلَ غيرِ المُنكر منزلةَ المُنكر؛ لأنَّ مَن يقومُ بهذا العملِ الظّالم، الظّاهرِ نكارتُهُ وفسادُهُ، كأنَّه يُنكِرُ ما أقدمَ عليه من دعوى ظالمةٍ وفاسدةٍ.

دلالة التَّعبير بالأُخوَّة:

الأُخــوَّة تقتضي عَدَمَ البَغْيّ

في التَّعبير عن الخَصْم بعنوان الأُخوَّة في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ تَمهيدٌ لِبَيانِ كَمالِ قُبحِ ما فَعَل به صاحِبُهُ[2]، وأيضًا نُصَّ على الأُخوَّة؛ لاقتضائها عَدَمَ البَغي، وأنَّ بَغْيَه الصّادرَ منه أعظَمُ من غَيرِه، سواءٌ كانت أُخوَّةً في الدّينِ أوِ النَّسَبِ أوِ الصَّداقةِ أوِ الأُلْفَةِ أوْ أُخوَّةَ الشِّرْكةِ والخُلْطَةِ[3]، ونَلْحظُ في التّعريف بالخصم باسمِ الإشارة أوّلًا ما يدلُّ على تعيينِ شخصِهِ وذاتِه، وفي الكرِّ عليه بلقبِ الأُخوّة ما يدلُّ على منزلتِهِ ووصفِه، وبهذا تَحدّدَ الخصمُ ذاتًا ووصفًا، وذلك أكملُ في مجلِس القضاء.

أثرُ الموقع الإعرابيّ لـ ﴿هَٰذَآ أَخِى﴾:

اسْـتِـبْـعـادُ مُخاصَمَةِ الأخ، واسـتِـفـظـاعُ الاعتداء عليه

يَجوزُ في إعراب ﴿أَخِى﴾ الواردِ في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ أَنْ يَكونَ بَدَلًا من اسم الإشارةِ، والخبرُ حينَئِذٍ: ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ﴾، فيكونُ البدلُ دالًّا على تقريرِ الحُكم وتأكيدِ النّسبة، وأنَّ ذِكْر المشار إليه من أجل تحديده، لكنَّ اللّائمةَ الكبرى أنّ هذا المشارَ إليه أخوه، وأنّه محطُّ الاهتمام والقصدِ بالحُكم الآتي، أَوْ أَنْ يَكونَ خَبَرَ (إنَّ)، وهو أَرْجَح؛ لِأَنَّ فيه زيادةَ استِفظاعِ اعتِدائه عليه[4]، ويكون غَرَضُ التَّأكيدُ حينَئِذٍ لِأَجْلِ اسْتِبْعاد مُخاصَمَةِ الأخ، وعُدْوانِه عَلى أخيه، ويُعْرَب ما بَعْدَهُ اسْتِئْنافًا[5].

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 358.
(2) القَنوجيّ، فَتْح البيان: 12/ 29.
(3) السَّعْديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 714.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 235.
(5) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 358.

دلالةُ تقديمِ شبهِ الجُملة:

الاهتمامُ بإظهارِ فداحةِ القضيَّة

أفادَ تقديمُ شبهِ الجُملة الواقعِ خَبَرًا في قوله: ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ القَصْرَ، وهو مِن باب قَصْرِ الصِّفةِ على الموصوف قَصْرًا إضافيًا بطريق التَّقديم، وأفادَ القَصْرُ الاهتمامَ دونَ التّخصيص؛ لأنَّ المبتدأ نكرةٌ يتعيّنُ تأخيره، فالتّقديمُ للاهتمام، والقَصْرُ لإظهارِ فداحةِ الاستئثار بالمُلك لكلّ الشّركة، وأنَّ ملكيّتَه الكبيرةَ لم تمنعْهُ من الطّمعِ ممّا في يدي من الملكيَّة الصّغيرة، حتّى نافسَني فيها وأراد ضمَّها إلى ملكيّتِه، وما ذاك إلّا دليلُ الطّمعِ وعدمِ المُبالاةِ بحُقوقِ الضُّعفاء والفُقراء.

دلالة التّمييز لبيان المعدود:

بيـانُ المُبهـم شرطٌ في وضوح الدّعوى

عبّر النّظمُ الجليل عند بيانِ المعدود بالتّمييز في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾؛ للكشفِ عن المُبهم المعدود؛ وتلك وظيفةُ التّمييز في رفعِ الإبهام عن الذّوات، والغرضُ من التّمييز توضيحُ محلِّ الخصومة؛ إذ بعدَ أنْ بيّنَ الخصمَ وحدَّده بذاته ووصفه، لجأ إلى تحديدِ محلِّ التّخاصُم، وهو طبيعةُ المالِ المشترك فيه، وأنّه من جنسِ النّعاج، ولم يكتفِ بذِكْرها في بيانِ المعدود، بل كرَّرها في قوله: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، مع أنّها قد عُلمت ممّا سبق؛ تأكيدًا لكون ملكيّتِه من هذا الجنس، وتقليلًا لها بذِكْرها مُنكّرةً، حتّى إنّها لا يَطمَعُ فيها المُنصِفُ، بل تُثيرُ الرّأفةَ والرّحمةَ في قلبِه، وبذلك يظهرُ مدى قسوةِ هذا الخصمِ الذي لم يَرأفْ بحاله، مع علمِه بأنّه لا يملك إلّا شيئًا لا قيمةَ له مقارنةً بملكيّتِه.

دلالةُ النّعت في ﴿نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾:

الـتّـوصـيـفُ يُناسِبُ التّقليل

آثرَ النّظمُ إيرادَ النَّعْتِ في قوله تعالى: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، وذلك لرَفْعِ احتمالِ أنْ يكونَ المُرادُ مِن ﴿نَعۡجَةٗ﴾ إرادةَ الجِنْس؛

فيكونُ النّعتُ بها للتّخصيصِ والتّحديد، أوْ أنَّ الإفراد مفهومٌ من ﴿نَعۡجَةَ﴾؛ لأنَّ التّاءَ للوَحْدة، فيكون النّعتُ حينَئذ تأكيدًا[1]، وفائدةُ التّخصيصِ والتّأكيدِ تحقيقُ غرضِه الأساس، وهو الوصفُ بالقلَّة التي هي محلُّ الشَّفقة؛ إلّا أنَّ الخَصْم بالغُ القسوةِ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ كَمالَ الأُنوثَة في النَّعْجة إذا كان المراد ظاهرَ اللَّفظ فيها، فَيَكونُ أدَرَّ وأحْلَبَ لما يُطْلَبُ منها[2].

دلالةُ العطف في ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾:

شرحُ الدَّعوى مُفصّلةً أوضحُ للحاكمِ وأبينُ له

عطفَ النّظمُ الكريم بالفاء في قوله: ﴿وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾، وهي إمّا دالّةٌ على السَّبَبيَّة والتّرتُّب، أي: نجم عمّا أخْبر به المُتكلِّمُ من الخَصْمين قَوْله: ﴿فَقَالَ﴾. وإمّا أنْ تكون الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكْريّ[3] من دونِ دلالةٍ على التّسبُّب، والَّذي يترجّحُ لدينا المعنى الأوّل؛ إذ اندفعَ الخصمُ بكلّ شراهةٍ وشعورٍ بالقوّة وعِظَم المُلْك أنْ يطالبَ أخاهُ بضَمِّ النَّعجة إلى نعاجه، فيزدادَ ثراءً وقوّةً بدلًا من أنْ يهَبَ شيئًا من نِعاجِه إلى نعجةِ خَصْمِه؛ ليَعتدلَ حالُهُ وتقوى ملكيّتُه.

دلالة الكناية في ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾:

المُـراوغـةُ في الحديث شأنُ القُساة

اشتملَ قَوْلُه تعالى: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ أي: مَلِّكنيها بالبَيْع، أوِ الهِبَة، والمراد بالمِلْك هُنا مِلْكُ العَيْن، أو المعنى: اجْعَلْها في كَفالَتي، أي: حِفْظي، وهو كِنايةٌ عن صِفةٍ هي الإعطاءِ والهِبة، أيْ: هَبْها لي[4]، ويجوز اعتبارُه مجازًا مُرْسلًا في القُدْرة على التَّصرُّف، ودلَّ ارتكابُ المجازِ على أنَّ القُساة من الشُّرَكاء مُراوِغونَ في استعمالِ الكلام؛ فهو لم يُصرِّحْ له بلفظ (الإعطاء)، فلم يقل له:

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 358.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 376.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 386.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 235.

(أعطِنيها)، بل عبّر عن ذلك بلفظ (الكفالة)؛ ليوحيَ بأنَّه يضمُّها إليه من أجلِ توفيرِ ما تحتاجُ إليه من مؤونةٍ ونفقةٍ، مع أنَّه يُريدُ في الحقيقةِ أخذَها وتملُّكَها؛ لعجزِ صاحبِها عن القيامِ بما تحتاجُهُ من رِعاية.

دلالةُ الوصل في ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾:

من شأنِ الشُّركاء استغلالُ حاجةِ الشَّريك وعَجْزِه

عطفَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ الخبريَّة الواردةَ في قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ على الجملةِ الخبريّةِ في قوله: ﴿فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ قوله: ﴿أَكۡفِلۡنِيهَا﴾ طالبًا الكفالةَ؛ لأنّي عاجزٌ عن القيامِ بواجباتِ رعايتِها؛ مُستغلًا حاجتي، وذلك ما سبّبَ قَهري ومَغلوبيّتي في الخطابِ والنِّقاشِ معه.

سِرُّ جَعْلِ الخِطاب ظَرفًا لِلعِزَّةِ والغلَبة:

تَنزيلُ المَدلول مَنزِلَةَ المَظروف، والدّالِّ منزلةَ الظَّرف

وقعَ في قَولِه تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ كونُ العزّةِ والغلَبة مظروفًا، والخطابِ الدّالِّ عليها ظرفًا لها؛ وذلك أنَّ (عزَّني) بمعنى: غَلَبَني في مُخاطَبتِه، أي: أظهَرَ في الكَلامِ عِزَّةً علَيَّ وتَكَبُّرًا وتَطاوُلًا؛ "فجَعَلَ الخِطابَ ظَرفًا لِلعِزَّةِ؛ لأَنَّ الخِطابَ دَلَّ على العِزَّةِ والغَلَبةِ؛ فوَقَعَ تَنزيلُ المَدلولِ مَنزِلةَ المَظروفِ، وهو كَثيرٌ في الاستِعمالِ"[1]، فنقولُ مثلًا: (العِلْمُ في كلامي) مع أنَّ الكلامَ دالٌّ على العِلْم، فنجعلُ الدّالَّ ظرفًا والمدلولَ مظروفًا له، وفي هذا التّعبيرِ دلالةٌ على أنَّ كلامَه لا يَحتوي إلّا على العِزَّة والتّطاوُل والتّهكُّم، إذ بيانُ المدلولِ على أنَّه مظروفٌ للدّالّ يُعطي اختصاصَ الدّالِّ بذلك المدلول، فلم يكُن في كلامِ الخَصْمِ إلّا العزّةُ والقهرُ والتّطاوُلُ والظُّلْم.

بلاغةُ الإيجاز في ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ إيجازٌ بالحَذْف،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 235.

الحِجاجُ لَوْ كان في مَحَزِّه لَم يَكن للخصومةِ سبيل

والتَّقدير: "فقال لي: أكفلنيها، فقلتُ له: لا أُكْفِلُها، ثُمَّ أعادَ الكلام، وغَلَبني في مخاطبته إيّاي مَحاجَّةً، بِأنْ جاء بِحِجاج ليس مُطابِقًا للواقع، لكن لَم أقْدرْ على رَدِّه لِكَوْنه ألْحَنَ، ولا بُدَّ مِن اعتبار هذا القَيْد ليُظْهِر الخُصومةَ، فإنَّ الحِجاجَ لَوْ كان في مَحَزِّه لَم يَكن للخصومةِ سبيلٌ"(1).

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 386.

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ ٢٤﴾ [ص: 24]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

في الآيةِ السّابقةِ سَمِع داوودُ ﵇ الدَّعوى التي رَفعَها إليه أحَدُ الخَصمينِ، وفي هذه الآيةِ أصدرَ حُكْمَه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَعۡجَتِكَ﴾: يدلُّ أصل الكلمةِ في اللُّغة على لَوْنٍ مِنَ الألْوان، مِنْهُ النَّعَجُ: البَياضُ الخالِصُ. وجَمَلٌ ناعِجٌ: حَسَنُ اللَّوْنِ كريمٌ. ومِنْهُ النَّعْجَةُ مِنَ الضَّأْنِ، ويَكونُ مِنْ بَقَرِ الوَحْشِ ومِنْ شاءِ الجَبَلِ. يُقالُ لإناثِ هَذِهِ الأجْناسِ: نِعاجٌ. ونِعاجُ الرَّمْلِ: البَقَرُ. ونَعِجَ الرَّجُلُ: أكَلَ لَحْمَ نَعْجَةٍ فَأُتْخِمَ عَنْه. وأرْضٌ ناعِجَةٌ: سَهْلَةٌ[1]. وقد يُكَنَّى بِها عن المرأة.

2) ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾: (خَلَطَ) أصلٌ يدُلُّ على الجَمعِ بين الشَّيئَينِ فأكثر، سواءٌ كانا مائعينِ أوْ جامدَينِ، أوْ أحدُهما جامدًا والآخَرُ مائِعًا. وهو أعَمُّ من المَزْجِ؛ فإنّه يَختصُّ بالمائعاتِ[2]. وخَلَطْتُ الشَّيءِ بغيره خلطًا فاخْتَلَط. وخالَطَه مُخالَطَةً وخِلاطًا، واخْتَلَطَ فلانٌ، أي: فسَدَ عقلُه. والتَّخليطُ في الأمر: الإفسادُ فيه. والخليطُ: المُخالِط، كالنَّديم المُنادِم، والجَليسِ المُجالِس. وهو واحدٌ وجمعٌ[3]. والمقصود هُنا: الشُّركاء في الأموال.

3) ﴿فَتَنَّٰهُ﴾: أصل الفَتْنِ: إدخالُ الذّهب النّارَ لتظهرَ جودتُهُ من رَداءتِه، واستُعْمِل في إدخالِ الإنسانِ النّار. وتارةً يُسمّونَ ما يحصلُ عنه العذابُ فِتْنةً، فيُستعمَلُ فيه نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة: 49]، وتارةً في الاختبار؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (نَعَجَ).
(2) السَّمين الحلبيّ، عُمدة الحُفَّاظ: (خَلَطَ).
(3) الجوهريّ، الصِّحاح: (خَلَطَ).

﴿فُتُونًاۚ﴾ [طه: 40]، وجُعلتِ الفتنةُ كالبلاء في أنَّهما يُستعملان فيما يدفعُ إليه الإنسان من شِدّة ورَخاء، وهما في الشّدّةِ أظهرُ معنىً وأكثرُ استعمالاً، كقوله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء: 35][1]. والمرادُ: اختبرْناهُ.

4) ﴿وَخَرَّ﴾: وأصْلُه (خَرَر): وهو اضْطِرابٌ وسُقوطٌ مع صوتٍ. والمعنى المحوريّ: هويَ الشَّيءُ بِقوَّةٍ وتدارك لِتَسَيُّبه أوْ تَسَيُّبِ أثنائه[2]. والخَريرُ: صوتُ الماء. وخَرَّ الماءُ يَخِرُّ خَريرًا. وعينٌ خَرّارَةٌ. وخَرَّ للّه ساجداً يَخِرُّ خُروراً، أي: سَقَطَ مُضطرِباً خائِفاً مَعَ صوتٍ في هَويِّه.

5) ﴿رَاكِعٗا﴾: رَكَعَ يَرْكَع رَكْعًا ورُكوعًا: طَأْطأ رأْسَه، وأصلُ (رَكَعَ): يدُلُّ على انحناءٍ في الإنسانِ وغيرِه. ويُقالُ: ركَع الرَّجُلُ إذا افْتَقَرَ بَعْدَ غِنًى وانْحَطَّت حالُه. وركَعَ الشيخُ: انْحَنَى مِنَ الكِبَر، والرَّكْعةُ: الهويُّ في الأرض[3]. والمعنى هنا: ساجِدًا بقرينة الخَرِّ، وعبَّر بالرُّكوعِ عنه؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ منهما نوعٌ مِنَ الانحناء.

6) ﴿وَأَنَابَ۩﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوَبَ): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه[4]. والنَّوْبُ: رُجوعُ الشَّيءِ مرّةً بعدَ أُخرى. يقال: نابَ نَوْبًا ونَوْبَةً، وسُمّي النَّحْلُ نَوْبًا لرجوعِها إلى مَقارِّها. والإنابةُ إلى اللّه تعالى: الرّجوعُ إليه بالتّوبةِ وإخلاصِ العمَلِ[5].

المَعنى الإجماليُّ:

حَكَمَ داوودُ عليه السلام بَيْنَ الخَصْمَيْن بَعْدَ سماعِ أحدِهما وسكوتِ الآخرِ الدّالِّ على الإقرارِ بالذّنب، وقال مخاطِبًا صاحبَ الدَّعوى: لقد ظَلَمَكَ أخوكَ حينَ طَلَبَ منك ضَمَّ نعجتِك إلى نعاجه، وإنَّ كثيرًا مِن الشُّرَكاء ليَعتدي بعضُهم على بعضٍ بأخذِ حَقِّه استغلالًا لضيقِ يدِهم، ويطمعُ بعضُهم في مالِ الآخرِ إلّا المُؤمنينَ الّذين يعملونَ الأعمالَ الصّالحات؛ فإنَّهم يُنْصِفون شركاءَهم ولا يَظلمونَهم لقوَّة إيمانِهم، ولِبُعْدهم عن كُلِّ ما يُغضِبُ اللّه،

(1) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فَتَن).
(2) جَبَل، المعجم الاشتقاقي المُؤَصَّل: (خَرَّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (رَكَعَ).
(4) الكَفَوي، الكُلِّيَّات: 1/ 202، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نَوَبَ).
(5) الرَّاغب، المفردات: (نَوَبَ).

وإنَّ المُتَّصِفين بذلك الّذين يعدلونَ في أحكامِه قليلٌ. وأيقنَ داوود عليه السلام حينَ حَكَمَ بينَ الخَصْمينِ أنَّ اللّه تعالى اختبرَه بهذه القضيَّة؛ تدريبًا على التَّثبُّت في القضاء، فطَلَبَ المغفرةَ مِن ربِّه وسَجَدَ تقرُّبًا إلى اللّه، وتابَ إليه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلّة الفَصْل في قوله: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾:

صدورُ الحُكمِ الحقِّ قبلَ استنفادِ النّظرِ التّامّ

وقعتْ جُمْلَة: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ مفصولةً عَمّا قبلها؛ لشِبْه كمال الاتِّصال؛ فهي مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ حيثُ وقعتْ جوابًا عن سؤالٍ مفادُه: بِمَ أجاب داوودُ عليه السلام؟ أو بتقديرِ الاستئناف النّحويّ، والمعنى: "قالَ؛ أيْ: عَلى تَقْديرِ صِحَّةِ ما قُلْتَ، وذَلِكَ أنَّهُ لَمّا رَأى الخَصْمَ قَدْ سَكَتَ؛ ولَمْ يُنْكِرْ مِمّا قالَ المُدَّعي شَيْئًا، ورُبَّما أظْهَرَ هَيْئَةً تَدُلُّ عَلى تَصْديقِهِ؛ قالَ ذَلِكَ؛ فَعوتِبَ وإنْ كانَ لَهُ مُخْرَجٌ، كُلُّ ذَلِكَ تَدْريبًا عَلى التَّثَبُّتِ في القَضاءِ، وألّا يُنَحّى نَحْوَ القَرائِنِ؛ وألّا يَقْنَعَ فيهِ إلّا بمِثْلِ الشَّمْسِ"[1]، ونلحظُ في الاستئنافِ ما يدلُّ على السُّرعةِ في الحُكْم قبل السُّؤالِ للخصم الآخرِ عن حُجّتِه ودليلِه، فلا بدَّ من سَماع الطّرفينِ وعدمِ الاكتفاء بالسُّكوت، أوِ الأماراتِ الدّالّة على الموافقة.

دلالاتُ توالي التّأكيد:

حالُ مَن فَعَلَ شَيئًا مُؤْذِنٌ بإنْكارِ كَوْنِهِ ظالِمًا، وكَوْنِ فِعلِه ظُلْمًا

اجتمعتْ عدّةُ مؤكّدات في الحُكم الصّادر من داوودَ عليه السلام، منها: اللّام في قوله: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾، وهي المَوَطِّئة للقَسَم، والتَّقدير: واللّهِ قَدْ أوْقَعَ ما فَعَلَهُ مَعَكَ في غَيْرِ مَوْقِعِه عَلى تَقْديرِ صِحَّةِ دَعْواكَ[2]. وجَوابُ القَسَم المحذوفُ قُصِدَ به وبالقَسَم المُبالَغةُ في إنكارِ ما سَمِعَه مِن فِعْلِ خَليطِه، وتَهجينِ طَمَعِه؛ إذْ طَلَبَ صاحبُ التِّسْعِ والتِّسعين نَعْجةً أنْ يَضُمَّ إليه النَّعْجةَ الواحدة، التي مَع صاحبه ولم يَكُن مَعَه

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 16/ 359.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدّرر: 16/ 359.

غيرُها بعدَ أنْ عرفَ الشّريكُ أنّه غيرُ قادرٍ على رعايةِ نعجتِه، وتكاليفِ تلك الرّعاية، فطلبَ منه بحجّة كفالتِها ضمَّها إلى نعاجه تمليكًا ظُلمًا وبُهتانًا، ومن الموكّدات حرفُ التّحقيق (قد) الواقعُ في سياقِ القَسَم؛ رَدْعًا لِلظّالم؛ عَلى تَقْديرِ صِحَّةِ الدَّعْوى؛ بِالمُبالَغَةِ في إنْكارِ فِعْلِه؛ لِأنَّ حالَ مَن فَعَلَ شَيْئًا مُؤْذِنٌ بِإنْكارِ كَوْنِه ظالِمًا، وكَوْنِ فِعْلِهِ ظُلْمًا؛ مُفْتَتِحًا لِقَوْلِهِ بِحَرْفِ التَّوَقُّع؛ لِاقْتِضاءِ حالِ الدَّعْوى لَه"[1].

دلالة التّضمين في قوله: ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾:

ممارسةُ الظّلمِ قولًا وفعلًا

في قوله تعالى: ﴿ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾ تضَمُّنُ السُّؤالِ مَعنى الإضافةِ والضَّمِّ، فَعُدّي تعديتَها، أيْ: بإضافةِ نَعجَتِكَ إلى نعاجِه على سَبيلِ السُّؤالِ والطَّلَبِ؛ حيثُ السُّؤالُ سُؤالُ مُطالبةٍ ومُغالبَة لا سُؤالَ خُضوعٍ؛ إذْ لو كان كذلك لَم يَكُن فيه عِتابٌ ولا لَوْمٌ ولا توبيخٌ[2]؛ ولذلكَ عَدّاهُ بـ ﴿إِلَىٰ﴾، فالسُّؤالُ هنا سُؤالُ الطَّلَبِ لا سؤالُ الاستعلام؛ لذا كان ظُلْمًا، وفي هذا التّضمينِ حَكَمَ داوودُ على الخَصم بأنَّه مارسَ الظُّلمَ قولًا مِن خلال السُّؤالِ والمُطالبة، وفِعلًا من خلال الضّمِّ والإضافة، وتلك فائدةُ التّضمين الذي يتحقّقُ من خلاله المعنيانِ اللّذانِ يظهرانِ مُمتزجَينِ؛ ليُحقِّقا معنًى يجمعُ بين الأصل والمُضمَّن معًا. فإن قيلَ: كيف سارعَ داوودُ عليه السلام إلى تصديقِ أحدِ الخصمينِ حتّى ظلمَ الآخَرَ قبلَ استماعِ كلامِه؟ أُجيبَ: ما قال ذلك إلّا بعدَ اعترافِ صاحبِه، ولكنَّه لَمْ يُحْكَ في القرآنِ؛ لأنَّه معلوم[3]. أوْ أنَّ هذه كانت عجلةً من داوودَ عليه السلام؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾ من غيرِ تثبُّتٍ ببَيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ، هل كان هذا كذا أو لم يكُن؟[4].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 359.
(2) الطِّيبي، فُتوح الغَيْب: 13/ 268.
(3) الزَّمخشريّ، الكشَّاف: 5/ 258، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 337، والصَّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين: 3/ 332.
(4) النَّحَّاس، إعراب القرآن: 3/ 309، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 167.

دلالةُ الباء في ﴿بِسُؤَالِ﴾:

تعليلُ الحُكْم من عَدْلِ القضاء

عبَّر النّظمُ الكريم بـ(الباء) الدّالّة على السّببيَّة في قوله تعالى: ﴿ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾؛ للدّلالة على تعليلِ الحُكم على الخصم بالظُّلم؛ والغرضُ من التّعليل بيانُ علّةِ الحُكمِ وقوّتِه وصرامتِه، وهي من علاماتِ الحُكم الحقِّ، الدّالّ على العدل القائم على البُرهان الدّامغ، وفي هذا تأشيرٌ لمحلِّ الظُّلم والبَغي، وكَوْنُ هذا السُّؤالِ ظُلْمًا؛ لأنَّه في غير موضعه، أو لأنَّه يُؤَدّي إلى الظُّلْم، بمعنى التَّصَرُّف في حَقِّ الغير.

دلالة الوصل في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾:

الـغـالـبُ في الـشُّـركـاءِ غيرِ المؤمنينَ البَغْيُ والخيانة

عُطِف قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ على جملةِ مقولِ القول: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾؛ لتقريرِ حالةٍ كليَّةٍ عامّةٍ، واشتقاقِ قانونٍ يشملُ كثيرًا من صور الشَّراكات التّجاريّة، التي يسودُها في الغالبِ البَغيُ والخيانة، فيكونُ العطفُ بمثابةِ الدّليلِ على صحّة الحُكْم الصّادر والتّعليل لوجاهتِه، فهو جوابٌ لقولهم: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾؛ إذ تأييدُ الحُكم بالدَّليل يُعطي هدايةً إلى طريقٍ مُستقيم لا انحرافَ عنه ولا اعوجاج، ويجوزُ أنْ تكون الواو حاليَّةً؛ لبيان سَبَب البَغْي، وهو اختلاطُ أموالهم، فلا يُستَغْرَب ذلك من طالبِ الكَفالة، وإمّا أن تكونَ ابتدائيَّةً فيكونُ ابتداءَ كلامٍ غيرِ مَحكيٍّ عن داوودَ عليه السلام[1].

سِرُّ توالي التَّوكيداتِ:

الـظُّـلْـمُ صفةٌ لـصـيـقـةٌ بـالـشّـركـاءِ غيرِ الصّالحين

اشتمل قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي﴾ على جملة من المُؤكّدات، هي: (إنّ) واسميّةُ الجملة ولامُ التّوكيد الدّاخلة على خبر (إنَّ)، والتَّقدير: يتعدَّى بَعْضُهم على بَعْض، ويظلمُه غيرَ

(1) الشِّهاب الخَفاجيّ، عِناية القاضي: 7/ 306، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 388، ومحمود الصَّافي، الجدول في إعراب القرآن: 4/ 432.

مُراعٍ لحِقةٍّ إلّا الَّذين آمنوا وعملوا الصّالحاتِ؛ فإنَّهم يَتحامَونَ ذلك، ولا يظلمونَ خليطًا ولا غيرَه ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾، وإنّما أُكِّدَ الكلامُ بتلك المُؤكِّدات؛ لأنَّ هذه عادةُ الخُلطاء والقُرناء؛ إذِ الظُّلْم صِفَةٌ لصيقة بالنُّفوس العاصية، ولكونِ الكلام ممّا يحتملُ الرّدَّ والإنكار، فقوّاه بالمؤكّدات ليكونَ نفيًا لتلك الأوهام، ودفعًا لها، ولأنَّه جاءَ لإثباتِ صحّةِ الحُكم ووجاهتِه، فيُناسبُه التّوكيد؛ لأنَّ تقويةَ العِلَّة تقويةٌ للمعلول بها، وهو الحُكم الصّادرُ بكون الخَصمِ ظالمًا لأخيه.

دلالةُ التنكير في ﴿كَثِيرٗا﴾:

عمومُ الحُكم يُعطي قيمةً له

الغرضُ مِن التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي﴾ العمومُ، أيْ: مُطلَقًا مِنكُم، ومِن غَيْرِكُم[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ داوود عليه السلام سايرَ ظاهِرَ دَعوى الخَصْمَيْن، كما أنَّ من شروط نجاح الخطاب بتحقيقِ الإصغاء له، والاهتمام به أنْ يكونَ حُكمًا كلّيًّا أو شبيهًا بالكليِّ؛ لتؤخذَ منه العِبرةُ والقيمة.

دلالة النّعت بقوله: ﴿مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾:

الدّليلُ على ترجيح أنّ النّعاج غَنَم

وقعَ الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ نعتٌ للكثرةِ النَّكرة؛ لأنَّها صادقةٌ على الشُّركاءِ وغيرهم، فأرادَ تخصيصَ تلك الكثرةِ بالشُّركاء الَّذين يخلطونَ أموالَهم، و﴿مِّنَ﴾ بيانيَّة، والتّعريفُ في ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ للاستغراق الدّالِّ على العموم، وهذا يتناسبُ مع دلالة التَّنكير في ﴿كَثِيرٗا﴾ محافظةً على دلالةِ الشُّمول، وفي هذا النَّعتِ دَليلٌ على أنَّ العَرَبَ وإنْ سَمَّتِ النِّساءَ بالنِّعاجِ، فهي في هذا الموضِع نِعاجُ الغَنَم - على أحدِ القولَين -؛ لأنَّ الخُلَطاءَ لا يكونونَ في النِّساءِ، إنَّما يَكونونَ في الغَنَمِ[2]. وفي العدولِ

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 388.

(2) القَصَّاب، النُّكَت الدَّالّة على البَيان: 3/ 752.

عن (الشُّركاء) إلى ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ تحديدٌ لكون الشّركة قائمةً على خِلطة حيواناتٍ دونَ شَراكةِ الأموال.

اقترانُ اللّام بالفعل المضارع ﴿لَيَبۡغِي﴾:

عَـدوُّكَ مِـن صـديـقـك مُـسـتـفـاد، فلا تَـسـتَـكۡـثِرَنَّ من الصِّحاب

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي﴾ لامُ التَّوكيد؛ لتقرير أنَّ أكثَرَ الشُّرَكاءِ يَحصُلُ مِن أحدِهم بَغْيٌ على الآخَرِ، "وهذا مِن الغَريبِ أن يَكونَ الإنسانُ كُلَّما قَرُبَ إلى الشَّخصِ توُقِّعَ منه البَغيُ أكثَرَ ممّا لو كان بعيدًا؛ لأنَّ البعيدَ ليس بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ، لكنَّ الَّذي بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ وهو الشَّريكُ، هو الَّذي رُبَّما يَجحَدُه أو يُنكِرُه، أو يَفعَلُ شيئًا لم يَأذَنْ به أو ما شابَهَ ذلك"[1].

مَوْقِع جملة (يَبْغي):

التّوكيدُ المتتابع تقريرٌ للقاعدة الكليَّة

وقعتِ الجملةُ الواردة في قوله تعالى: ﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ﴾ جوابًا لقَسَم محذوف، والأصلُ: (لَيَبْغِيَنْ) بنونِ التَّوكيد الخفيفة، والفعلُ جوابٌ قَسَم مُقدَّر، والقَسَم المُقدَّر وجوابُه خبر (إنَّ)، وتقدير الكلام: واللّه لقد ظلمك... وإنَّ كثيرًا من الخُلَطاء واللّه لَيَبْغِيَنَّ، فحُذِفَت النّون[2]، وتَوالي المؤكِّدات تقريرٌ للقاعدةِ الكليَّة، وتثبيتٌ لها في ذِهنِ السّامع. والتَّعبيرُ بالمضارع فيه إشارةٌ إلى أنَّ ظُلْم مُعْظم الشُّرَكاء عادَةٌ مُسْتَمِرَّة؛ لِنَقص الوازع الدّيني، وفي إسنادِ الفعل إلى الفاعل وهو الضّمير، وإيرادِ بدَلِه ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ تناغمًا مع قولِ المُدّعي سابقًا: ﴿خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾، فقرَّر وقوعَ البغي وصدورَه من بعضِ الشُّركاء على بعضِهم الآخَر.

دلالةُ الكِناية:

وَعۡـظُ الظّـالـم وتسليَةُ المظلوم

في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ كِنايةٌ عن أمْرِهما

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 117.

(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 9/ 371.

بأنْ يَكونا مِنَ المُؤمِنينَ الصّالِحينَ، وأنَّ ما فَعَلَه أحَدُهما ليس مِن شَأنِ الصّالِحينَ[1]، وقَصَدَ داوودُ ﷺ بهذا الكلام الوَعْظَ للخَصْم الذي بَغى، والتَّسْلية بالتَّأسّي للخَصْم الذي بُغيَ عليه.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

مدحُ الشُّركاءِ الصّالحين، وذَمُّ الشُّركاءِ الفاسِدين

الاستثناء الواردُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُتَّصلٌ، والمعنى: أنّ الخلطاء شاملون للمؤمنين والصّالحين وغيرهم؛ ثمّ استثنى بعضًا ممّا قبله، وهم المؤمنون والصّالحون من عموم ما سبق؛ لبيان أنّهم يَتحامَون ذلك، ولا يظلمون خليطًا ولا غيرَه[2]، ووَقَعَ قولُه: ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ بَدَلًا مِن ضمير ﴿لَيَبۡغِي﴾ لتقريره وتفصيله. ويحتمل أنَّ الاستثناء مُنْقطِع بدليل قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾؛ فَعُلِمَ منه أنَّ المراد بالكثير الذينَ لَم يُؤمنوا ولَمْ يعملوا الصّالحات[3]، وتحديدُ طبيعة الاستثناء يعتمدُ على دلالة (أل) في ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾، فإنْ كانت للاستغراقِ فالاستثناءُ متّصلٌ، وإنْ كانت للعهد المختصِّ بالكافرينَ فالاستثناءُ مُنقطع. ونعتقدُ أنَّ الاستثناءَ المنقطعَ أنسبُ للمُراد؛ إذ شأنُ المؤمنين الّذين يعملونَ الصّالحات عدمُ البغي، بخلافِ الكفّار الّذين يعملونَ المعاصيَ والشُّرور، فإنَّ مَن شأنُه التّجاوزَ على ربِّه وقوانينه، والتّجاوزَ على شُركائه وإخوانه، وفيه أيضًا تعريضٌ بالتّاجر الكافر الفاسد، وتحذيرٌ من التّعامُل معه إلّا بحذَرٍ شديد.

دلالةُ الموصول وصِلَته ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تعليل الحُكم، ومَدحُ القِلّة المؤمنة

آثرَ النّظمُ إيرادَ المستثنى اسمَ موصولٍ وصِلَتُه ﴿ءَامَنُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ تعليلًا للحُكم مِن خلال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 236.
(2) القَنّوجي، فَتْح البيان: 12/ 30.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 389.

جملة الصِّلة، والغرضُ مَدْحُ تلك القِلَّة المؤمنة مِن الخُلَطاءِ، أي: الشُّركاء الَّتي لا تَبْغي ولا تتجاوز ولا تَتَعدَّى ولا تطيش. وجاءتْ صِلَةُ الموصولِ جملةً فعليّة فعلُها ماضٍ؛ للإشارة إلى تَحَقُّق إيمانِهم ورُسوخِه.

سِرُّ تقديمِ الإيمان على العمل الصّالح:

الإيمـان شَـرْط قَبول الأعمال

قُدِّم الإيمان على العمل في قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للاهتمام به؛ إذِ الإيمانُ شَرْطُ قَبولِ الأعمال؛ لذا قُدِّم الأهمُّ. وحُذِف مُتَعَلِّق الإيمان؛ للعِلْم به، والعبارةُ حَثٌّ للخَصْمَين أن يَكونا مِنَ الصّالِحينَ؛ لِما هو مُتقَرِّرٌ في النُّفوسِ من نَفاسةِ كُلِّ شَيءٍ قَليلٍ[1].

نُكْتَة عَطْف العمل الصّالح على الإيمان:

تـلازمُ الإيـمـان والعمل الصّالح

عَطْفُ العملِ الصّالحِ على الإيمانِ مِن باب عَطْف الخاصِّ على العامّ؛ لِبيان فَضْل العملِ الصّالح، وشِدَّةِ تلازمِه معَ الإيمان؛ تَصْديقًا لِما ادَّعَوْه مِنَ الإيمانِ، وفي قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بِحَذْف الموصوفِ للعِلْم به، والتَّقدير: الأعمالَ الصّالحات.

دلالة جمع ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الـحـضُّ على عـمَـل جميع أنواع البرِّ

في التَّعبيرِ بالمفعول به في قوله: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جَمْعًا إرشادٌ للمؤمن، وتوجيهٌ لَهُ بألّا يَتْرك بابًا مِن أبواب البِرِّ والخير والصَّلاح إلّا وطرَقها كُلَّها ما استطاعَ لذلك سبيلًا، وفي الجمع أيضًا إشارةٌ إلى كَثْرةِ الأعمال الصّالحةِ وتَنَوُّعِها، ولا يخفى ما دَلَّ عليه التَّعبيرُ بِجَمْعِ الصِّفة إلى مَدْحِ المؤمنين الْمُتَّصفينَ بِهذا، فالَّذين آمنوا وعمِلوا الصّالحات لا يَقَعُ مِنهم بَغْيٌ.

غرضُ الواو والتّنكير في ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾:

تفخيم وتشريف

الواوُ في قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ اعتراضيَّة، والجملة لا محلّ لها من الإعراب، الغرضُ منها بيانُ كميَّة الشُّركاء منهم؛ فإنْ كان

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 236.

الشُّركاء من غير المؤمنين كثرةً كاثرةً، فإنَّ الشُّركاءَ من المؤمنينَ قلّةٌ قليلة، والغرضُ من التَّنكير التَّفخيمُ والتّشريف لتلك القِلَّة المؤمنة، مِن الخُلَطاء العادلينَ غيرِ المعتدين. وفي الجَمع بيْن هذَين الوَصفَين: الإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ إشارةٌ إلى قِلَّة المُتَّصفينَ بِهما بالنِّسبَة إلى غيرهم[1].

دلالة التّقديم والتّأخير في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾:

العَدْلُ في غايَةِ القِلَّةِ

(قليل) في قوله: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾ خبرٌ مقدّمٌ مرفوع، و(ما) صِلَةٌ لتوكيد القِلَّة والتَّعجيب، وقيل: هي موصولةٌ. و﴿هُمۡۗ﴾ ضميرٌ منفصلٌ مبتدأٌ مؤخّر، وأُخِّرَ المُبْتَدَأُ وقُدِّمَ الخَبَر؛ اهْتِمامًا بِهِ، وللتَّنبيه على قِلَّته؛ لِأنَّ المُرادَ التَّعْريفُ بِشِدَّةِ الأسَفِ عَلى أنَّ العَدْلَ في غايَةِ القِلَّةِ؛ أيْ: فَتَأسَّ بِهِمْ أيُّها المُدَّعي؛ وكُنْ مِنهم أيُّها المُدَّعى عَلَيْهِ[2]، والتَّعبير بالقِلَّة؛ لِبيان كَمال قِلَّتهم بالإضافة إليهم[3]، بقي أنَّ بينَ القِلّة والكثرة طباقًا بديعيًّا، حُدِّدَ فيه جانبُ الباغينَ من العادِلين.

فائدة التَّذييل:

تَسْلية المَظلوم وإرشادُ الظّالم

دلّ التَّذييل في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ إلى قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ على موعظةِ السّامع؛ بأنْ يَتَحَرَّى في اختيار الشَّريك الصّالح، وأنْ يُجيد معاملةَ الخُلطاء المُعتدين؛ لَعَلَّهم يُقْلِعوا عن ظُلْمهم واعتدائهم، وفي التَّذييل أيْضًا تَسْلِيَةٌ للمَظْلوم[4] وإرشادٌ للظّالم.

دِلالةُ العَطْف في قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾:

غَمُّ داوود عليه السلام

أشارَ البِقاعيُّ إلى دِلالة العَطْف بالواو في قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ فقال: "ولَمّا كانَ هَذا القَدْرُ مَعْلومًا؛ عَطَفَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾؛

(1) ابن عُثيمين، تفسير ابن عثيمين، سورة (ص)، ص: 117.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 360.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 390.
(4) الطِّيبيّ، فُتوح الغَيْب: 13/ 269.

أيْ: بِذَهابِهِمْ قَبْلَ فَصْلِ الأَمْرِ؛ وقَدْ دَهَمَهُ مِن ذَلِكَ أَمْرٌ عَظيمٌ مِن عَظَمَةِ اللَّهِ؛ لا عَهْدَ لَهُ بِمِثْلِهِ"[1].

سِرُّ التَّعبير عن العِلْم بالظَّنِّ:

العِلْمُ النّظريُّ لا يخلو من تردُّدٍ في أوّله

(ظَنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾ بمعنى: عَلِمَ داوودُ وأيْقَنَ، وعَبَّرَ بِالظَّنِّ عَنْ عِلْم داوودَ عليه السلام أنَّه امتُحِن؛ "لأنَّهُ عِلْمٌ نَظَريٌّ اكْتَسَبَهُ بِالتَّوَسُّمِ في حالِ الحادِثَةِ، وكَثيرًا مّا يُعَبَّرُ عَنِ العِلْمِ النَّظَرِيِّ بِالظَّنِّ؛ لِمُشابَهَتِهِ الظَّنَّ مِن حَيْثُ إنَّهُ لا يَخْلو مِن تَرَدُّدٍ في أوَّلِ النَّظَرِ"[2].

دلالةُ قصر الموصوف على الصّفة:

عِصْمَةُ الأنبياء عليهم السلام

القَصْر في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ من قَصْرِ المَوْصوفِ عَلى الصِّفَةِ قَلْبًا، أيْ: هَذِه القِصَّةُ مَقْصورَةٌ عَلى الفِتْنَةِ؛ حيثُ بادَرَ داوودُ عليه السلام إلى نِسْبَةِ المُدَّعى عَلَيْهِ إلى الظُّلْمِ؛ مِن قَبْلِ أنْ يَسْمَعَ كَلامَه، ويَسْألَهُ المُدَّعي الحُكْمَ؛ فَعاتَبَه اللَّه عَلى ذَلِك، والأنْبياءُ عليهم السلام لِعُلُوِّ مَقاماتِهِم يُعاتَبونَ عَلى مِثْلِ هَذا، ولا تَعَلُّقَ لَها بِالخُصومَةِ. ولَوْ كانَ المُرادُ ما قيلَ مِن قِصَّةِ المَرْأةِ؛ الَّتي عَلى كُلِّ مُسْلِم تَنْزيهُهُ وسائِرَ إخْوانِه عليهم السلام عَنْ مِثْلِها؛ لَقيلَ: (وعَلِمَ داوُدُ)؛ ولَمْ يَقُلْ: ﴿وَظَنَّ﴾ كَما يَشْهَدُ بِذَلِكَ كُلُّ مَن لَهُ أدْنى ذَوْقٍ في المُحاوَراتِ[3].

دلالة التَّعبير بالماضي:

عِـلْـمٌ يَقينيٌّ بالابتلاء

دَلَّ التَّعبيرُ بالفعل الماضي مرّتينِ في قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ على تَحقُّق ظَنِّ داوودَ عليه السلام وتَيَقُّنِه من ابتلاءِ رَبِّه لَه، واختبارِه بتلك الحكومة، وفي هذا إشارةٌ إلى وجوبِ التَّرَيُّث في إصدارِ الأحكام لِكُلِّ مَن يَتَصَدَّى للقضاءِ بين النّاس، وألّا يَأْخُذَ بالظّاهر حتّى يَسمَعَ للأطرافِ كلِّها.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 360.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 26/ 239.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 361.

دلالة العطف بالفاء:

وجوبُ المُبادرة إلى الأوْبة والاستغفار فَوْرَ اقترافِ الذَّنب

أوَمَا العطفُ بالفاء في قوله: ﴿فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾ إلى مُبادرةِ داوودَ عليه السلام إلى طَلَبِ مغفرةِ رَبِّه فَوْرَ عِلْمه بأنَّه قد فُتِنَ؛ لأنَّه لَم يَتَرَيَّث في حُكْمه بين المُتخاصِمين؛ إذ حَكَمَ بَعْد سماعِه لِطَرفٍ واحدٍ في القَضيَّة. ولا يخفى أنَّ (الفاء) هُنا للسَّببيَّة؛ إذْ الاستغفار مُسَبَّبٌ عن ظَنّ داوودَ عليه السلام بِأنَّه قَدْ فُتِنَ، وبهذا الصَّنيع يكونُ استغفارُه عقيبَ ظنِّه الفتنةَ والاختبار، كما أنَّ حُكمَه عقيبَ سَماعِ كلامِ أحدِ الخصمين، فبادر إلى التّوبة من دون تريُّثٍ، كما بادر إلى الحُكم بلا تريُّثٍ ومُهلة، لتكونَ أَوْبَتُهُ إلى ربِّه مُجانسةً لما وقعَ منه.

سِرُّ التَّعبير بِوَصْف الرُّبوبيَّة مضافًا إلى الضَّمير:

الوقوعُ في الفتنة موجِبٌ للرِّعاية والتّربية

استدعى مقامُ الضَّعْف والشُّعورِ بالذَّنْب التَّعبيرَ بِوَصْف الرُّبوبيَّة، وإضافته إلى الضَّمير في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾؛ لِما يَدُلُّ عليه من معاني التَّربيَة والرِّعايةِ والإحسانِ واللُّطْف، فداوودُ عليه السلام بادرَ بِطَلَبِ المغفرة مِن مولاهُ الَّذي مَنَّ عليه بالمُلْك والحُكْم، واصطفاه بالنُّبوَّة لإصداره حُكْمًا بَعْدَ سماعِهِ لأقوالِ خَصْمٍ واحدٍ دونَ الآخر، وآثَرَ التّعبيرَ عن الاستغفارِ بالفعلِ الماضي؛ لِيُضارعَ ظنَّه وفتنتَه المُعبَّر عنهما بالماضي؛ ليكونَ طلبُه المغفرةَ مُتحقِّقًا تحقُّقَهما.

دلالة الحال ﴿رَاكِعٗا﴾:

الرُّكوع لا يكون إلّا لله تعالى

آثرَ النّظمُ الجليلُ عطفَ الجملةِ الفعليَّة في قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾، على الجملةِ الفعليّة ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾؛ للدّلالةِ على وقوعِ إحداثِ فعلَين؛ أحدُهما: قوليٌّ يتمثّلُ بالاستغفار، والآخرُ: حركيٌّ يتمثّلُ بالخُرورِ والهويِّ على هيئةِ الرّاكعِ السّاجد، فيكون فعلُه مطابقًا لقوله ومؤيِّدًا له، لكنَّه عدَّى فعلَ الاستغفارِ إلى المفعولِ به الدّالِّ على الذّات الجليلةِ المستحقَّة للاستغفار، في حين علّقَ الفعلَ الثّانيَ بالحالِ الدّالِّ على الاحتراس؛ إذِ الخُرور لا يَكونُ إلّا لِلسُّقوطِ عَلى الأرْض،

وقد يكون لِغَيْر العِبادَة، فقيَّده بالحال تبيينًا وتقييدًا لذلك السُّقوط المقارِنِ لهيئة الرّاكع السّاجد، والرُّكوعُ: الِانْحِناءُ بِقَصْدِ التَّعْظِيمِ دونَ وُصولٍ إلى الأَرْضِ، كما قالَ تَعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: 29]، وأيضًا فَتَقْيِيدُ فِعْلِ (خَرَّ) بِحالِ ﴿رَاكِعًا﴾" تَمَجُّزٌ في فِعْلِ (خَرَّ) بِعَلاقَةِ المُشابِهَةِ؛ تَنْبيهًا عَلى شِدَّةِ الِانْحِناءِ حَتّى قارَبَ الخُرورَ[1].

تنوُّعُ المجاز بتنوُّع دلالاتِ الألفاظ:

تـشـابـكُ هيئةِ الرّكوع بالسُّجود تصويرٌ دقيقٌ لخشيةِ داوودَ ربَّه

يَتَحَدَّد نَوْعُ المجاز في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ بناءً على تأويل الرُّكوع؛ فإذا فُسِّر اللَّفظُ على ظاهره وهو الانحناء المعروف دونَ السّجود، فيكون هنالك استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ في الفعل (خرّ)؛ إذ شبَّه (الركوع) بـ(الخرور) الدّالِّ على السُّقوط، ثمَّ حذف المشبَّه وأبقى المشبّهَ به، والغرضُ إظهارُ كميّةِ ركوعِه المقاربِ لهيئةِ السُّجود الدّالِّ على شدَّةِ الاستغفار والإنابة، أي: للإشارة إلى شِدَّةِ الِانْحِناءِ حَتّى قارَبَ الخُرورَ، والعلاقةُ المُشابَهة؛ إذِ الرُّكوعُ مُشابِهٌ للسُّجود في الخُرور للتَّعظيم. وأمّا إذا فُسِّر الرُّكوع بالسُّجود فيكون مجازًا مُرْسَلًا؛ لأنّ الرُّكوع مَبدَأُ السُّجود، ومُفْضٍ إليه؛ فَجُعِل كالسَّبب له، فيكون مجازًا مُرسلا بعلاقة السَّببيَّة[2].

وإلى هذَينِ المجازَين أشار ابنُ عاشور بقوله: "الرُّكوعُ: الِانْحِناءُ بِقَصْدِ التَّعْظِيمِ دونَ وُصولٍ إلى الأَرْضِ، قالَ تَعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: 29]، فَذَكَرَ شَيْئَيْنِ، قالوا: لَمْ يَكُنْ لِبَنِي إسْرائيلَ سُجودٌ عَلى الأَرْضِ، وكانَ لَهُمُ الرُّكوعُ، وعَلَيْهِ فَتَقْيِيدُ فِعْلِ (خَرَّ) بِحالِ ﴿رَاكِعًا﴾ تَمَجُّزٌ في فِعْلِ (خَرَّ) بِعَلاقَةِ المُشابِهَةِ، ومَن قالَ: كانَ لَهُمُ السُّجودُ، جَعَلَ إطْلاقَ الرُّكوعِ عَلَيْهِ مَجازًا بِعَلاقَةِ الإطْلاقِ"[3] بل بعلاقة السّببيَّة؛ إذِ الرّكوعُ سببٌ وآلةٌ للوصول إلى السُّجود.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 240.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 391.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 240.

دلالةُ العَطْف في قوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾:

ليس بعدَ الاستغفار والرّكوع إلّا الإنابةُ والخضوع

عبّر النّظمُ الجليلُ عن أحداثٍ وقعَتْ لدوادَ ﷺ بعدَ أنْ ظَنَّ وقوعَهُ في دائرةِ الابتلاءِ والاختبارِ، وأنّه لم يُحسِنِ الحُكمَ بين الخصمَينِ؛ لتعجُّلِه بإصدارِه دونَ تريُّثٍ وإمهال، فكانَ الاستغفارُ من ذنبٍ مظنونٍ والرّكوعُ مطأطئًا الرّأسَ لعظَمةِ ربِّه، والانتهاءُ بالإنابةِ والرُّجوع، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩﴾، والمعنى: رَجَعَ عَنْ أنْ يَعودَ لِمِثْلِها، والنُّكْتة في عَطْف الإنابة على الاستغفار تكمن في تغايُرِ معنى الإنابة والاستغفار؛ لذا عُطِف عليه، وإنِ اسْتَلْزَم أحدُهما الآخرَ[1]، وإنَّما ختم سلسلةَ الأفعال بالإنابة؛ لأنَّ الغايةَ من الاستغفار والسُّجود لمولاهُ هو الأوبةُ والخضوعُ للّه تعالى والرّجوعُ إليه، وعدمُ الوقوعِ في مثل ذلك الصَّنيع مجدَّدًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

خَرَّ وسَقَطَ ووَقَعَ:

الخُرور سُقوط وهَويٌّ إلى الأرض، والسُّقوط أعَمُّ مِن الوقوع

خَرَّ: الخُرور: هو سُقوط وهَويٌّ إلى الأرض. يقال: خرَّ خُرورًا. أي: سَقَطَ وهَوى. وخرَّ البِناءُ: سَقَطَ وتَهَدّم، أي: سَقَط من علوٍّ إلى سُفْلٍ بصوت، وخَرّ الرّجلُ مِن الجَبَل: هَوى، وخَرَّ على الأرض: تَهاوى، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحَجّ: 31]، ويقال: خَرَّ، لِمَنْ ركَع، أو سَجَدَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ [مريم: 58][2].

سَقَطَ: السُّقوطُ: طَرْحُ الشَّيء، إمّا مِن مكان عالٍ إلى مكان مُنْخفض، كسقوط الإنسان من السّطح، كقوله تعالى: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 391.
(2) الجَوْهريّ، الصِّحاح، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لِسان العَرب: (خَرَّ).

سَقَطُواْۗ﴾ [التّوبة: 49]، والسَّقْطةُ: الوَقْعةُ الشديدةُ. وسقَطَ يَسْقُطُ سُقوطًا، فَهوَ ساقِطٌ، وسَقوطٌ: وقَعَ[1]. والفرق بين السُّقوط والخُرور: أنَّ السُّقوط يكون فيه النُّزول ببُطء، والخُرور يكون فيه سُرعة النُّزول والسُّقوط. وأنَّ الخرور يكونُ مع صَوتٍ وسُرعةٍ بخلافِ السُّقوط، ولذا فإنَّ السُّقوطَ أعمُّ؟.

الفرق بَيْن السُّقوط والوُقوع هو: أنَّهما يشتركان في معنى السُّقوط من أعلى إلى أسفل، ويفترق كُلٌّ منهما بِملامِح دلاليَّةٍ تَخُصُّه، فالسُّقوط يأتي بمعني النَّدَم كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: 149]، ويأتي الوقوع بمعنى نزول الشَّدائد، كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾ [المعارج: 1]، وبمعنى ثبوت الأجر، كقوله تعالى: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [النِّساء: 100]، وبمعنى وقوع العذاب، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾ [الحِجْر: 29]. وبِناء عليه فالسُّقوط أعَمُّ مِن الوقوع[2].

التَّوبة الإنابة الأوْبَة:

الأوبةُ في اللّغة: اسمُ مرّةٍ من آبَ، وأصْلُه: الرُّجوعُ، والأَوْبُ: تَرْجيعُ الأيْدي والقَوائِم في السَّيْرِ[3]. والنَّوْب: رجوعُ الشّيء مرّةً بَعْد أُخرى، يقال: نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسُمّي النّحلُ نَوْبًا لرجوعها إلى مقارّها، ونابَتْهُ نائبةٌ، أي: حادثةٌ من شأنها أن تنوبَ دائبًا، والإنابة

أعَمُّ هذه الألفاظ (الأوْبَة) فهي الرُّجوع مُطْلَقًا، وأخصّ منها التّوبة؛ والإنابة أرْفعها منزلةً

(1) ابن منظور، لِسان العَرب: (سَقَطَ).

(2) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 296.

(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أوَبَ).

إلى اللّه تعالى: الرّجوع إليه بالتّوبة وإخلاص العمل[1]. والتَّوبة: يدلُّ الأصل على الرُّجوعِ، يُقالُ: تابَ مِنْ ذَنْبِهِ، أيّ: رَجَعَ عَنْهُ، يَتوبُ إلَى اللّهِ تَوْبَةً ومَتابًا، فَهوَ تائِبٌ[2].

تشترك الكلمات الثّلاثة في معنى (الرُّجوع)، وأعَمُّ هذه الكلمات (الأَوْبَة) فهي الرُّجوع مُطْلَقًا، والتَّوبَة أخَصّ منها؛ إذ إنَّها تتميَّز بِصدورها عن الذَّنب، سواءً أكانت رجوعًا مِن العبد عن المَعصية إلى الطّاعة، أمْ نَدَمًا على الذَّنْب، أمْ قبولَ اللّهِ تعالى تَوْبةَ عَبْده، أمّا الإنابةُ فهي أرْفع منزلةً؛ لأَنَّها رُجوعٌ إلى اللّه تعالى، وإقبالٌ عليه، وصدورٌ عن أمره، ولزومُ طاعته سبحانه[3].

(1) الرّاغب، المفردات: (نَوَبَ).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (تَوَبَ).

(3) محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة في القرآن الكريم، ص: 93 - 94.

﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾

[ص: 25]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

خُتِمَت الآيةُ السّابقةُ بِطلَب داوودَ ﵇ مغفرةَ رَبِّه، وسجودِه له، وتوبتِه، ورجوعِه إليه، وفي هذه الآية بيانٌ لِقَبول توبته، ومغفرةِ ذَنْبه، ومكانته عِنْد اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَغَفَرۡنَا﴾: أَصْلُ الغَفْرِ: السَّتْرُ والتَّغطية، والغُفْرانُ والغَفْرُ بِمَعْنًى واحد، يُقالُ: غَفَرَ اللّهُ ذَنْبَه غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها. والغُفران مَصْدرٌ كالكُفْران، أوْ اسمُ مَصْدر كسُحْبان[1]، والغفورُ الغَفّارُ جَلَّ ثَناؤُهُ، وهُما مِنْ أبنية المُبالَغَة، ومَعْناهُما السّاتِرُ لِذُنوبِ عِبادِه، المُتَجاوِزُ عَنْ خَطاياهُمْ وذُنوبِهِمْ. وكلُّ ثَوْبٍ يُغطَّى بِهِ شَيْءٌ، فَهوَ غِفارةٌ. وكُلُّ شَيْءٍ سَتَرْتَهُ فَقَدْ غَفَرْتَهُ، وكَذلِكَ غَفَرَ الشَّيبَ بالخِضابِ وأَغْفَرَه: سَتَرَه[2]. والمرادُ به في الآية: سترُ الذّنب وقبولُ التّوبةِ والإنابة.

2) ﴿لَزُلۡفَىٰ﴾: الزَّلَفُ والزُّلْفةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلةُ، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[3]. والزُّلْفَةُ: الطّائفةُ مِنْ أوّل اللَّيلِ، والجَمْعُ زُلَفٌ وزُلَفاتٌ. وزُلَفُ اللَّيلِ: ساعاتٌ مِنْ أوّله[4]، والمعنى هُنا: قُرْبةً ودَرَجةً ومَنزِلةً.

3) ﴿مَـَٔابٖ﴾: أي: مَرجعٍ ومُنقَلَبٍ. و(أوَبَ) أصلٌ يدُلُّ على رُجوعٍ[5]. الأَوْبُ: ضَرْبٌ مِنَ الرُّجوع، وذلك أنّ الأوبَ لا يقال إلّا في الحيوان الذي له إرادةٌ، والرُّجوعُ يقال فيه وفي غيرِه، يقال: آبَ أَوْبًا وإيابًا ومَآبًا. والأوّاب كالتّوّاب، وهو الرّاجع إلى اللّه تعالى بِتَرْك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غَفَرَ).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (غَفَرَ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زلف).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (زَلَف).
(5) السِّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 412.

المعاصي وفِعْل الطّاعات، قيل للتَّوْبة: أوْبَة، والتَّأويب، يقال في سَيْر النَّهار[1]. والأوْبُ: سُرْعَةُ تَقْليبِ اليدينِ والرِّجْلَيْنِ في السَّيْر[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

النّظمُ الكريم يُبَيِّنُ اعتِناءَ اللّهِ تعالى بأنبيائِه وأصفيائِه عندَما يقَعُ منهم شيءٌ، بفِتنتِه إيّاهم، وابتلائِهم بما به يَزولُ عنهم المحذورُ، ويَعودونَ إلى أكمَلَ مِن حالتِهم الأولى، كما جرَى لداوودَ عليه السلام، فغفَرَ اللّهُ تعالى له ذلك، وإنَّ له عِندَ رَبِّه مَنزِلةً عاليةً وحُسنَ مُنقَلَب[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف ﴿فَغَفَرۡنَا﴾:

(الفاء) في قوله: ﴿فَغَفَرۡنَا﴾ للسَّببيَّة والتّفريع؛ إذِ "الاستغفارُ المقرونُ بالشَّرْط سَبَبٌ عاديٌّ موجِبٌ للمغفرةِ والرَّحمة"[4]، والمعنى: بِسَبَبِ ذَلِك الذّنب، وتوبتِه، وسجودِه، وإنابتِه إلى رَبِّه غَفَرنا له، ودلَّ (الفاءُ) على أنَّ غُفران اللّه ذَنْبَ داوودَ عليه السلام كان إثْرَ ركوعِه وإنابتِه مُباشرةً، وهذا دليلٌ على سَعَة رَحمةِ اللّه تعالى بعباده. وفيه "أنَّ الاستغفارَ والعِبادةَ - خُصوصًا الصَّلاةَ - مِن مُكَفِّراتِ الذُّنوب؛ فإنَّ اللّهَ رَتَّب مَغفِرةَ ذَنْبِ داوودَ على استِغفارِه وسُجودِه"[5]، ويمكنُ أنْ يكونَ الغفرانُ مُترتّبًا على الاستغفار وحدَه؛ إذ طلبَ المغفرةَ عن مجرَّد الظّنِّ بالفتنة، وأنَّه أصابَهُ نوعُ تقصيرٍ بالتّعجُّل في إصدارِ الحُكم، يؤدّي إلى المغفرةِ من الكريم تعالى.

الاستغفار والعِبادة مِن مُكَفِّراتِ الذُّنوب

التَّعبير بالماضي مُسندًا إلى ضمير العظَمة:

التّعبيرُ بالفعل الماضي في قوله: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾ دالٌّ على

الغُفرانُ لا يَحسُنُ إلّا مَعَ القُدرَة

(1) الرّاغب، المفردات: (أوَبَ).
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (أوَبَ).
(3) السَّعْديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 712.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 393.
(5) السَّعْديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 712.

تَحَقُّقِ مغفرة ذَنْبِ داوودَ عليه السلام وتأكُّده، وأفادَ التَّعبيرُ بنون العَظَمة على عِظَم تلك المغفرة، فلَمّا "كانَ الحالُ قَدْ يُشْكِلُ في الإخْبارِ عَنِ المَغْفِرَةِ لَوْ عَبَّرَ بِضَميرِ الغائِبِ؛ لِإيهامِ أنَّ رَبَّهُ غَيْرُ المُتَكَلِّمِ، وكانَ الغُفْرانُ لا يَحْسُنُ إلّا مَعَ القُدْرَةِ؛ عادَ إلى مَظْهَرِ العَظَمَةِ؛ إثْباتًا لِلْكَمالِ، ونَفْيًا لِلنَّقْصِ فَقالَ: ﴿فَغَفَرۡنَا﴾ أيْ: بِسَبَبِ ذَلِكَ؛ وفي أثَرِهِ عَلى عَظَمَتِنا، وتَمامِ قُدْرَتِنا، غَفْرًا يُناسِبُ مِقْدارُهُ ما لَنا مِنَ العَظَمَةِ"[1]، وفي الجملة التفاتٌ من الغائب ﴿رَبَّهُۥ﴾ إلى المتكلِّم ﴿فَغَفَرۡنَا﴾؛ "تعْظيمًا للغُفران؛ لأنَّ عظيمَ الشَّأْنِ جَسيمُ الغُفران"[2]، ولمّا كان التّعبيرُ عن استغفار داوودَ بضمير الغَيبة ﴿رَبَّهُۥ﴾ أعادَ الضّمير في ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ﴾ بأسلوبِ الغيبة؛ ليكون هنالك تناسبٌ بين مرجع الضَّميرينِ؛ فلأنّه ربُّه غفرَ له.

دلالة اسم الإشارة في ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾:

اسم الإشارة يَطوي القِصَّةَ ويوجزُها

عبّر النّظمُ الكريم بـ"اسم الإشارَةِ في قَوْلِهِ: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ﴾؛ للإشارَةِ إلى ما دَلَّتْ عَلَيْهِ خُصومَةُ الخَصْمَيْنِ، مِن تَمْثِيلِ ما فَعَلَهُ داوُدُ بِصورَةِ قَضيَّةِ الخَصْمَيْنِ، وهَذا مِن لَطائِفِ القُرْآنِ؛ إذْ طَوى القِصَّةَ الَّتي تَمَثَّلَ لَهُ فيها الخَصْمانِ، ثُمَّ أشارَ إلى المَطْويِّ بِاسْمِ الإشارَةِ، وأتْبَعَ اللَّهُ الخَبَرَ عَنِ الغُفْرانِ لَهُ بِما هو أرْفَعُ دَرَجَةً، وهو أنَّهُ مِنَ المُقَرَّبينَ عِنْدَ اللَّهِ المَرْضيِّ عَنْهم، وأنَّهُ لَمْ يوقَفْ بِهِ عِنْدَ الغُفْرانِ لا غَيْرَ"[3]. والمعنى: فَغَفَرْنا ذلك التّقصيرَ لأجل احترام داوودَ وتعظيمه، وأحسبُ أنَّ اسمَ الإشارة يدلُّ على تعظيم ذلك التّقصير؛ لكنَّ عظمتَه ليس باعتبارِ ذاتِهِ ونفسِهِ، وإنَّما لما ظنَّه داوودُ تقصيرًا عظيمًا بالنّسبة لمنزلته، ولذا قيل: حسناتُ الأبرار سيّئاتُ المُقرَّبين.

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 364.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 393.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 241.

دلالة وصل ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾:

عطفَ النّظمُ الكريمُ الجملةَ الاسميَّة الخبريَّة على الجملةِ الفعليَّة الخبريَّة في قوله تعالى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾؛ للدّلالةِ على مزيد الإكرام لداوودَ عليه السلام، إذ عطفَ على الغُفْران لَه بما هو أرْفَعُ دَرَجَةً، وهو أنَّ داوود عليه السلام من المُقَرَّبينَ عِنْدَ اللَّه تعالى المَرْضيِّ عَنْهم، وأنَّهُ لَمْ يوقَفْ به عِنْدَ الغُفْرانِ لا غَيْر، وهذا ما دَلَّ عليه التَّعبيرُ بـ(الواو) التي تُفيد الجَمْعَ بين المعطوف والمعطوفِ عليه في معنًى واحدٍ. ويمكنُ أنْ تكون هذه الجملةُ الاسميّةُ في مقابلةِ قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعٗا﴾؛ إذ أقربُ ما يكون العبدُ إلى ربِّه أن يكونَ ساجدًا لمولاه، فهذا التّقرُّبُ جعلَ له ثوابًا يُلائمُهُ من جنسه، وهو الزُّلفى من ربِّه والقُربُ منه، فإنْ كان الاستغفارُ قد أُجيبَ عنه بالمغفرةِ فإنَّ الخُرور راكعًا وساجدًا أجيبَ عنه بالمنزلة القريبة والمكانةِ السّامقة، إذِ الخُضوعُ لعظَمةِ الجبّار بالسُّجود له يُفضي عندَ الكريم إلى القُرْب المُشْعرِ بالتّعظيم والرِّفعة.

تَرَقٍ في البُشْرى

دلالة توالي التّوكيدات:

اجتمعت عدّةُ مؤكّداتٍ في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾، هي: (إنَّ) واسميّةُ الجملة وتقديمُ الخبر ولامُ الابتداء، استدعاها مقامُ استغفار داوودَ عليه السلام وركوعِه لعظَمةِ مولاه؛ إذ لَمّا كانَ ذِكْرُ هَذا رُبَّما أَوْهَمَ شَيْئًا يُخِلُّ بِمَنْصِب النُّبوَّة ومقامِها، سيقَ في أُسْلوب التَّأْكيد؛ "لِإزالَةِ تَوَهُّم أنَّ اللَّه غَضِبَ عَلَيْه إذْ فَتَنَه؛ تَنْزيلًا لِمَقام الِاسْتِغْراب مَنزِلَةَ مَقام الإنْكار"[1].

تَـنْـزيـلُ مَـقـامِ الاسْـتِـغْـرابِ مَـنْـزِلَـةَ مَـقـامِ الإنْكارِ

دلالةُ تقديمِ الخبرِ على المبتدأ:

عبّر النّظمُ الكريم بتقدير الجارّ والمجرور الواقع خبرًا مقدّمًا على المبتدأ وظَرْفه في قوله: ﴿لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ - أي: له مَع الغُفْران

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 241.

مَن عادَ لمولاهُ خصَّه بصنوفِ الإكرام

- تعجيلًا للإخبارِ بمكانةِ داوودَ ﷺ عِنْد رَبِّه بَعْد استغفاره؛ لِتَرْكه الأَوْلى؛ وأنَّ الله تعالى رَفَع درجته، وأعْلى مكانته بَعْد قَبول تَوْبَته، فكان تقديمُ الخبر دالًّا على الاهتمام بداوودَ ﷺ، وتخصيصًا له بتلك المنزلةِ القريبةِ من ربِّه كسائرِ الأنبياءِ والمُرسَلين، وأنَّ تركَ الأَوْلى لم يُخرِجْه من تلك المنزلة، ولذا قدَّمَ الجارَّ والمجرور دفعًا لذلك التّوهُّم.

دلالة تقديمِ الظّرف على متعلّقه:

القُرْب من المولى شعورٌ بالسّكينة والاطمئنان

آثَرَ النّظمُ الكريم تقديمَ الظّرف على متعلَّقه في قوله تعالى: ﴿عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾؛ للدّلالة على مزيدٍ من القُرب والاختصاص والاهتمام؛ إذِ الزُّلفى والقُربى عندَ الله تعالى لا عندَ غيره، مُستعملًا في الظّرف نونَ الجَمْع؛ لِتَعظيم ذلكم العطاءِ الرَّبانيّ؛ لأنَّ ما يُنْسَبُ إلى العَظيم لا يَكونُ إلّا عَظيمًا.

سِرُّ تقديمِ الزُّلفى على حُسْن المآب:

بُشْرى تَستَتْبعُها بُشْرى أعْظَم

السِّرُّ في تقديم الزُّلْفى على حُسْن المَآب في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ هو التَّرَقّي مِن المُهِمِّ إلى الأهَمِّ، فالزَّلْفى: القُرْبى والمكانةُ الرّفيعةُ، وحُسْن المَآب: حُسْنُ المَصير، وهو كِنايةٌ عن موصوفٍ وهو الجَنَّة، وما فيها مِن حُسْنٍ وزينةٍ ونعيم، وما مِن شَكٍّ في أنَّ الجَنَّة هي المكانةُ التي لا تعلوها مكانةٌ. كما أنَّ تقديم الزُّلْفى بمثابةِ التَّوطِئَة لِما يَسْتَتبِعُها مِن نتيجة، فالمَكانةُ العالية الرَّفيعةُ التي بُشِّر بها داوودُ ﷺ مُؤَدّاها حُسْنُ المَرْجِع والمُنْقَلَب، وهو جَنَّة الخُلْد، "وزادَ في إظْهارِ الاهْتمام بذَلِكَ؛ نَفْيًا لِذَلِكَ الَّذي رُبَّما تُوهِّمَ؛ فَأكَّدَ قَوْلَهُ: ﴿لَزُلْفَىٰ﴾؛ أيْ: قُرْبَةً عَظيمَةً ثابِتَةً بَعْدَ المَغْفِرَةِ"[1]، وقد تقدّمَ أنَّ ذِكْرَ (الزُّلفى) متوسّطةٌ بين المغفرة وحُسنِ المآب مناسبٌ لتوسيطِ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 16/ 365.

(الخُرور راكعًا) بين الاستغفارِ والإنابة، كما كان هنالكَ تناسبٌ بين مكانِ الرّكوع وهو المحراب، ومكانِ الزُّلفى وهي العنديَّة.

دلالةُ العطف:

تـعـديـد لـرُتّـب الكَمال والتّرقّي

في تكرارِ العَطْف بالواو في قوله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ﴾ تعديدٌ لِما أعدَّه اللهُ لِنَبيِّه داوودَ ﵇ بَعْدَ المغفرة لِذَنْبه مِن مَنْزِلَة رفيعة، ومكانةٍ عالية، وكَرامةٍ، وحُسْنِ عاقِبَة، والتّقدير: وإنّ له عندَنا لحُسنَ مآب. ونلحظُ هنالكَ تناسُبًا بين قوله قبلُ: ﴿وَأَنَابَ۩﴾ وبينَ قوله هنا: ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٍ﴾؛ إذ ترتّبَ على الإنابةِ والرّجوع أن يكونَ له مكانٌ يؤوبُ إليه، وهو منزلةُ القُرْب والتّكريم ممَّن أنابَ إليه.

تَسْميةُ الرُّجوع إلى الآخرة بالمآب:

ما أعَـدَّه اللهُ لِـنَـبـيِّـه مِـن كرامات يَنْسِفُ الأباطيلَ التي نُسِجتْ

المَآبُ: إمّا مَصْدَرٌ ميميٌّ بِمَعْنى الأوْب، وهو الرُّجوعُ، أي: له رجوعٌ حَسَنٌ. والمُرادُ بِهِ: الرُّجوعُ إلى الآخِرَةِ. وسُمّيَ رُجوعًا؛ لِأنَّهُ رُجوعٌ إلى اللَّه، أيْ: إلى حِكْمَةِ البَحْتِ[1] ظاهِرًا وباطِنًا، قالَ تَعالى: ﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ٣٦﴾ [الرّعد: 36][2]، وإمّا اسمُ مكانٍ بمعنى: مكانِ الرُّجوع، أي: له مكانُ رجوعٍ حَسَنٌ، وأيًّا كان فإنّ الغَرَضَ من ذِكْر ذلك: "التَّرْقيَةُ في رُتَبِ الكَمالِ؛ لا غَيْرُ ذَلِكَ، وأدَلُّ دَليلٍ عَلى ذلك أنَّ هَذِهِ الفِتْنَةَ إنَّما هي بِالتَّدْريبِ في الحُكْمِ، لا امْرَأةٍ ولا غَيْرِها، وأنَّ ما ذَكَروهُ مِن قِصَّةِ المَرْأةِ باطِلٌ، وإنِ اشْتُهِرَ، فَكَمْ مِن باطِلٍ مَشْهورٍ ومَذْكورٍ هو عَيْنُ الزّورِ"[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإياب والرّجوع:

الإياب: يَدُلُّ الأصْلُ اللُّغويُّ على الرُّجوعُ، والأَوْبُ: تَرْجيعُ الأَيْدي

(1) البَحْت: الْخَالِص الَّذِي لَا يخالطه شَيْء، ينظر: ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بحت).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 241.
(3) البقاعي، نَظْم الدُّرَر: 16/ 365.

الرّجوع أعمّ من الإياب

والقَوائِمِ في السَّيْرِ. والمَآبُ: المَرْجِعُ[1]، يقالُ: جاؤوا مِن كُلِّ أوْبٍ، أي: مِن كُلِّ ناحيَةٍ[2].

والرُّجوع: العَوْدُ إلى ما كانَ منه البَدْءُ، أوْ تقديرُ البَدْءِ مكانًا كان أوْ فعلًا أوْ قولًا، وبذاته كان رجوعُه، أوْ بجُزءٍ من أجزائِه، أوْ بفعلٍ من أفعالِه[3]؛ والرُّجوعُ: العَوْدُ، والرَّجْعُ: الإعادة، والرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ في الطّلاق.

والفرق بين الإياب والرُّجوع: أنَّ الإياب هو الرُّجوع إلى مُنتهى المَقْصد، والرُّجوع يكون لذلك ولغيره[4]؛ فالرّجوع أعمّ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوَبَ).
(2) الجوهريّ، الصِّحاح: (أوَبَ).
(3) الرَّاغب، المفردات: (رَجَعَ).
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 87.

﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ٢٦﴾ [ص: 26]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لَمّا تَمَّمَ اللّهُ تعالى قِصَّةَ داوودَ عليه السلام التي حَكمَ فيها بينَ الخَصمينِ وتعجَّل القرارَ؛ أردفَها ببيانِ تفويضِ أمْرِ خلافةِ الأرضِ إليه[1]، وأنْ يلتزمَ الحُكمَ بالحقِّ بينَ النّاس، ولا يتّبعَ الهوى فيبتعدَ عن حُكم اللّه وقضائِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَلِيفَةٗ﴾: الخَليفَةُ: الَّذي يَخْلُفُ غَيْرَهُ في عَمَلٍ، أيْ: يَقومُ مَقامَهُ فيه، فَإنْ كانَ مَعَ وُجودِ المَخْلوفِ عَنْهُ قيلَ: هو خَليفَةُ فُلانٍ، وإنْ كانَ بَعْدَما مَضى المَخْلوفُ، قيلَ: هو خَليفَةٌ مِن فُلانٍ. والمُرادُ هُنا: المَعْنى الأوَّلُ بِقرينَةِ قَوْلِه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾[2].

2) ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾: الهوَى: مَيْلُ النَّفْسِ إلى الشَّهْوة. ويقال ذلك للنّفسِ المائلةِ إلى الشّهوة، وقيل: سُمّي بذلك؛ لأنّه يَهْوي بصاحبِهِ في الدّنيا إلى كلّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويَةِ، والهويُّ: سُقوطٌ مِن عُلوٍّ إلى سُفْل[3]، والهوَّةُ: الوَهْدَةُ العميقةُ. والهواءُ ممدودًا: ما بين السَّماء والأرض، والجمع الأَهْويَةُ، وكلُّ خالٍ هواءٌ[4]. والمرادُ به في الآية: النّهيُ عنِ اتّباعِ العاطفة في القضاءِ وتغييبِ العقل.

3) ﴿فَيُضِلَّكَ﴾: الضَّلال في الأصل: إمّا العُدولُ عن الطّريقِ المُستقيم، وإمّا الغَيبوبةُ والضَّياع، والأوَّلُ: يقابلُهُ الهِداية، والثّاني: يُقابلُه الوُجدان[5]، والضَّلالُ والضَّلالةُ: ضدُّ

---

(1) القنوجيّ، فَتْح البيان: 12/ 34.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 242.

(3) الرَّاغب، المفردات: (هَوى).

(4) الجوهريّ، الصِّحاح: (هَوى).

(5) السَّمين الحلبيّ، عُمْدة الحُفَّاظ: (ضَلَّ).

الهُدَى والرَّشاد. والضّالَّةُ ما ضَلَّ مِنَ البَهائِمِ لِلذَّكَرِ والأُنثى، يُقالُ: ضَلَّ الشّيءُ إذا ضاعَ، وضَلَّ عَنِ الطَّريقِ إذا جارَ[1]. ويقال: الضَّلالُ لِكُلّ عُدولٍ عن المنهج، عمدًا كان أَوْ سهوًا، يسيرًا كان أَوْ كثيرًا[2]. والمرادُ به في الآيَةِ: الإبعادُ عن طريقِ الحقِّ في الحُكم والقضاء، والضّياعُ في طريقِ الباطل.

4) ﴿سَبِيلِ﴾: يَدُلُّ الأصلُ على إِرْسالِ شَيْءٍ مِنْ عُلوٍّ إِلَى سُفْلٍ، وعَلَى امْتِدادِ شَيْءٍ. فالأوَّلُ مِنْ قيلِك: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها[3]. والسَّبَلُ: المَطَرُ الجَوْدُ. والمُمْتَدُّ طولًا: السَّبيلُ، وهوَ ما وضَحَ مِنْهُ، يُذَكَّر ويُؤَنَّثُ. وسَبيلُ اللّهِ: طَريقُ الهُدى الَّذي دَعا إليه، سُمّيَ بِذلِكَ لِامْتِدادِه، وأَسْبَلَ إزاره: أرخاه. وامرأة مُسْبِلٌ: أَسْبَلَتْ ذَيْلَها. وأَسْبَلَ الفرسُ ذَنَبَه: أرسله[4]. والسّابِلَةُ: المُخْتَلِفَةُ في السُّبُلِ جائيَةً وذاهِبَةً. والمرادُ به في الآيةِ: منهجُ اللّهِ وأحكامُهُ التي توصِلُ إلى رِضاهُ ورُضوانِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبَشِّر اللّهُ تعالى عَبْدَه داوودَ ﷺ بأنَّه صَيَّره خليفةً في الأرض، ومَلَّكَه فيها؛ ومنحَهُ القوّةَ مع الخضوعِ للّه تعالى؛ لِيُنَفِّذ الأحكامَ والقضايا الدّينيَّة والدُّنيويَّة، ويأمرَهُ اللّهُ تعالى بأنْ يَسْتَمِرَّ في الحُكْم بين النّاس بالعدْلِ والإنصاف، وينهاهُ عن اتِّباع الهوى في حُكْمه بينَ النّاس، بأنْ يميلَ مع أحَدِ الخَصمَيْنِ لقرابةٍ أَوْ صداقةٍ أَوْ يَميلَ عنه لعداوةٍ، فيكون هذا سببًا في الضَّلال، والبُّعْدَ عَن صراط اللّه المُستقيم، حيثُ إنَّ الَّذين يضلّون عن صراطِ اللّه المستقيم، لهم عذابٌ شديدٌ عظيمٌ بسبب تَرْكِهمُ الإيمانَ بيوم الحساب، أو تركِهم العملَ لذلك اليوم؛ إذ لو كانوا يذكرونَهُ ويَخافونَ منه لما مالوا معَ أهوائِهم.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصل ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ﴾:

فُصِلَتْ جملة ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ﴾ عَمّا قبلها؛ لأنَّها كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لحكايةِ ما

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ضَلَّ).
(2) الرَّاغب، المفردات: (ضَلَّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سَبَلَ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سَبَلَ).

خوطِبَ به داوودُ ﷺ بَعْدَما تَقَدَّم مِن قِصَّتِه، والغرضُ مِنَ الاستئنافِ بيانُ استحقاقِه للخطاب؛ إذ تأهّلَ بعدَ الغُفران ونيلِ الزُّلفى والمآبِ الحَسَن أنْ يكونَ خليفةً مُخاطبًا من اللّه تعالى بإقامةِ العدل، وعدمِ اتّباعِ الهَوى في الحُكم بينَ النّاس؛ ففيه "إشارَةٌ إلى أَنَّهُ اسْتُقْبِلَ بِهَذا الكَلامِ الأَلَذِّ عِنْدَ فَراغِهِ مِنَ السُّجودِ؛ إعْلامًا بِصِدْقِ ظَنِّه"[1]. ويحتملُ أن تكون الجملةُ معمولةً لقولٍ محذوف، أوْ حالًا من فاعل (غفرنا)، أي: غفرنا وقلنا: يا داوود، أوْ قائلينَ: يا داوود إنّا استخلفناك على الأرض، أيْ: صَفَحْنا عَنْهُ وذَكَّرْناهُ بِنِعْمَةِ المُلْكِ ووَعَظْناه، فَجَمَعَ لَه بِهَذا تَنْويهًا بِشَأْنِه وإرْشادًا لِلْواجِب[2].

بعدَ التّزكيةِ والقُربِ استحقّ الخلافةَ في الأرض

دلالةُ النِّداء ﴿يَٰدَاوُۥدُ﴾:

لَفْتُ انتباه المُخاطَب، وجَذْبُ تركيزه

عبّر الخِطابُ الجليل بِالنِّداء في قوله: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾؛ لِلَفْتِ انتباهِ داوودَ ﷺ، واسْتِرْعاء تركيزه، وتَهْيئته وجَذْب اهْتِمامه لِما سَيُقال له، ويُلْقى عَلَيه. وأوثِرَ التَّعبيرُ بحرف النِّداء الدّالِّ على البعيد؛ للإشارةِ إلى بُعْد منزلتِه في الفَضْل، وإلى عُلوِّ كرامتِهِ ومَكانتِهِ ﷺ عِنْد رَبِّه، كما كشفَ الخطابُ بالنّداء عن طلبِ الإقبالِ لسماعِ ما يُلْقَى إليه، وكأنَّه مطلوبٌ حضورُه لدَوحةِ القُدس والحَضْرة الإلَهيَّة، فخوطب بلفظٍ دالٍّ على الإقبال لسَماع التّوجيهِ والإرشاد.

دلالةُ التَّصريح بِاسم العَلَم:

الإقبالُ بالخِطاب تشريفًا، والتّصريحُ بالعَلَم تأنيسًا

في التَّصريح بالاسم العَلَم للمنادى في قوله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾ إقبالٌ عليه بالخِطاب؛ تأنيسًا له ﷺ وتلطيفًا، وتَشريفًا لَه بذلكمُ الخِطابِ الإلهيِّ له بَعْد ما تَقَدَّم، "صارِفًا القَوْل عَنْ مَظْهَرِ العَظَمَةِ إلى المواجَهَة بِلَذيذ الخِطابِ على نَحْوِ ما يَجْري بَيْنَ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 366.
(2) القنوجيّ، فَتْح البيان: 12/ 34، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 242.

الأحْباب"[1]، وعندما يسمعُ داوودُ ﷺ اسمَه بخطابِ اللّه تعالى يكونُ إقبالُه أشدَّ وانتباهُهُ أعظمَ، معَ شعورٍ بالفخر والزّهوِ أنْ يكون اسمُه العَلَم داخلًا في ضمنِ الخطابِ الإلَهيِّ له.

دلالة التّوكيد والإسناد للعَظَمة:

تنزيلُ غيرِ المُنْكِر منزلةَ المُنْكِر

اشتمل خطابُ الاستخلافِ على التّأكيد للخَبَر بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّه: "لَمّا كانَ مَضْمونُ الخَبَرِ لِزيادَةِ عَظَمَةٍ ممّا من شَأْنِه أنْ تَسْتَنْكِرَه نُفوسُ البَشَرِ؛ أكَّدَهُ لِذَلِك؛ وإظْهارًا لأنَّه ممّا يُرْغَبُ فيه لِحُسْنِه، وجَميل أَثَرِه، ويَنْشَطُ غايَةَ النَّشاطِ لِذِكْرِه؛ فَقالَ: (إنّا)؛ أيْ: عَلى ما لَنا مِنَ العَظَمَةِ؛ ﴿جَعَلۡنَٰكَ﴾"[2]، وفي تعظيم الجاعِلِ لذاته الجليلةِ تعظيمٌ للجَعْل المذكور، وأنَّه ممّا ينبغي القيامُ به على أكملِ وجهٍ وأحسنِ أداء.

دلالةُ التّعبير بالجَعْل:

الاختيارُ لكمالِ الإرادةِ الإلَهيّة

في التّعبيرِ بالجَعْل في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ﴾ إشارةٌ إلى عبوديَّة داوودَ ﷺ لِرَبِّه، وإلى مُطْلَق تَصَرُّفه سبحانه في خَلْقه، والمرادُ: صَيَّرناك، فـ(جَعَلَ) هنا بمعنى: صَيَّر؛ لذا فهي تنصب مفعولَين: (الكافُ) مفعولٌ أوّلُ، و(خليفةً) مفعولٌ ثان، والمرادُ: صَيَّرناك خليفةً لنا في تبليغ شَرْعِنا، ونلحظُ في دلالةِ (الجَعْلِ والتَّصيير) معنى التّهيئةِ للاستخلافِ وتوفير الاستعدادات والكمالاتِ اللّازمةِ لذلك؛ وقد تحقّقتْ من خلال تجربةِ الحُكم بينَ الخَصمَين، والغُفران والقُربى والإنابة، فاكتملتِ الحِكمتانِ العمليّةُ والنّظريّةُ، فصار أهلًا للاستخلافِ في الأرض والحُكم بينَ النّاس، وصار أهلًا للتّوجيهِ والإرشاد.

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 16/ 365.

(2) البقاعيّ، نَظْم الدّرر: 16/ 366.

أولــيــاءُ الأمــور خـلـفـاءُ الـلـه في الأرض

غَرَض تنكير ﴿خَلِيفَةً﴾:

دلّ التَّنكيرُ في قوله: ﴿جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على التَّفخيم والتَّعظيم والتَّشريفِ لقَدْرِ هذا الخليفةِ، "وهذا دليلٌ على أنَّ خلافةَ داوودَ عليه السلام الَّتي كانت قَبْلَ الفتنةِ باقيةٌ مستمرَّةٌ بَعْدَ التَّوبة"[1]. والمقصودُ: خلافةُ اللّه في عِمارة الأرض، وسياسةِ النّاس، وتكميلِ نفوسهم، وتنفيذِ أمْرِ اللّه تعالى فيهم[2]، كما دلَّ التّنكيرُ على أنَّ أولياءَ أمورِ النّاس في الأرض هُم خلفاءُ اللّه، وداوودُ عليه السلام أحدُ أولئك الخلفاءِ الّذين صيَّرهمُ اللّهُ تعالى بمحضِ عنايته، وعلى الأولياء والخلفاءِ جميعًا أنْ يجعلوا من هذه الوصايا لهذا الخليفةِ نِبراسًا لهم يعملونَ بها؛ لإحقاقِ الحقِّ وعدمِ اتّباعِ الهَوى.

الخلفاءُ اختيارٌ إلـهيٌّ وامتحانٌ ربانيٌّ

دلالةُ الظّرف والتّعريف:

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على (اللّام) المعرِّفة، وهي إمّا أن تكون للجِنْس، فيكون المقصودُ جَميعَ الأرْض، أي: الأرض كُلّها على سبيل الاستغراق العرفيّ، ويُرَشِّح هذا التَّعبيرُ بنون العَظَمة في قوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ﴾، وما فيها من دلالة على فخامةِ العَطاء، والمِنْحة لداوودَ عليه السلام، وأيضًا التَّعبيرُ بِحَرفِ الظّرفيَّة؛ الذي فيه: "إشارَةٌ إلى إطْلاقِ أمْرِهِ في جَميعِها، فَلا جُناحَ عَلَيْهِ فيما فَعَلَ في أيِّ بَلَدٍ أرادَها. ولَمْ يَذْكُرِ المَخْلوقَ تَعْظيمًا لَهُ بالإشارَةِ إلى أنَّ كُلَّ ما جَوَّزَهُ العَقْلُ فيهِ فَهو كَذَلِكَ، فَهو كانَ خَليفَةً في بَيْتِ المَقْدِسِ بالفِعْلِ عَلى ما اقْتَضاهُ صَريحُ الكَلامِ بالتَّعْبيرِ بـ ﴿فِي﴾. وأشارَ الإطْلاقُ إلى أنَّها الأرْضُ الكامِلَةُ؛ لِانْبِساطِ الحَقِّ مِنها بإبْراهيمَ عليه السلام وذُرِّيَّتِه عَلى سائِرِ الأرْضِ، وهو خَليفَةٌ في جَميعِ الأرْضِ بالقُوَّةِ، بِمَعْنى: أنَّهُ مَهْما حَكَمَ فيها صَحَّ"[3]. ويجوز أن تكونَ (اللّامُ) للعَهْد، فيكونُ المرادُ بالأرض أرْضَ مَمْلَكَته

---

(1) الصَّاوي، حاشية على تفسير الجلالين: 3/ 333.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 394.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 366.

المَعْهودَة، أيْ: جَعَلْناكَ خَليفَةً في أَرْضِ إسرائيل، والمَعْنى: "أَنَّهُ خَليفَةُ اللّهِ في إنْفاذِ شَرائِعِه لِلْأُمَّة المَجْعولِ لَها خَليفَةً، مِمّا يوحي بِهِ إلَيْه، ومِمّا سَبَق مِنَ الشَّريعَة الَّتي أوحيَ إلَيْه العَمَلُ بها، وأنّه خَليفَةٌ عَنْ موسى عليه السلام وعَنْ أحْبار بَني إسْرائيلَ الأوَّلينَ المَدْعوّينَ بِالقُضاة، أوْ خَليفَةٌ عَمَّنْ تَقَدَّمَهُ في المُلْك"[1]. وسواءٌ كانت خلافتُهُ الأرضَ بأكملِها أوْ ببعضِها، فالتّعبيرُ كنايةٌ عن لازم مفادُهُ: التّمليكُ والسَّيطرةُ والقوّةُ، مع التّأييدِ له بما يُثبِّتُ مُلكَهُ، ممّا وقعتِ الإشارةُ إليهِ في قولِه سابقًا: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾.

دلالة الفاء في ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾:

وجـوب الحُـكْم بالعَدْل على كُلِّ خليفةٍ

عبّر النّظمُ الكريمُ بالفاءِ الفصيحةِ الدّالّة على التّفريع والتّسبُّب في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾، والتّقديرُ: إنْ تقرّر لديك وعلِمتَ أنَّك خليفةُ اللّه فاحكُم؛ حيثُ فَرَّعتِ الأمرَ بالحُكْم بَين النّاس بالحَقِّ، على عِلْم داوودَ عليه السلام بكونه خليفةً، على أنَّ المرادَ بالحُكم خصوصُ حُكم اللّه وشَرعِه، وهذا يُشْعِر بالعَلِيَّة والشَّرَف والفَخامة؛ "لأنَّ داوود عليه السلام لمّا كان خليفةً للّه في الأرض اقتضى ذلك ألّا يُخالِفَ حُكْمُه حُكْمَ اللّه تعالى الّذي استخلفَه، بَل يكون ذلك وفْقَ إرادتِه ورضاه سبحانه. أوِ المُتَرَتِّبُ مُطْلَقُ الحُكْم؛ لِظهور تَرَتُّبه على كَوْن داوودَ عليه السلام خليفةً، وذُكِرَ الحقُّ لأنَّ به سَدادَهُ"[2].

دلالة الأمر:

لاعَـدْلَ في غير الشَّرْع الإلهيّ

أفادَ فعلُ الأمْرِ في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ الدَّيمومةَ والاستمرارَ، وفيه تَنْبيهٌ لِغَيْر المخاطَب مِمَّنْ وليَ أُمورَ النّاسِ أنْ يلتزمَ الحقَّ والحُكمَ به، وأمّا من حَيْثُ داوود عليه السلام فَهوَ مَعْصومٌ لا يَحْكُمُ إلّا بالحَقِّ[3].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 242.
(2) الشِّهاب الخَفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 7/ 307.
(3) أبو حيَّان الأندلسيّ، البحر المحيط: 7/ 378.

دلالةُ الظّرفِ والتّعريف:

وجوبُ العَدْل بين كلِّ الرَّعيَّة

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ على الظَّرف ﴿بَيۡنَ﴾؛ للدّلالة على أنْ يكونَ الحُكم بينَهم لا يميلُ لجهةٍ على حسابِ أُخرى، ودلَّ التّعريفُ على الاسْتِغْراقِ؛ إذْ أُمِر داوودُ عليه السلام بالحُكْم بَين كُلِّ النّاس، الَّذين وليَ أَمْرَهم بالحَقِّ من دون استثناء؛ لأنَّ العدلَ لا يتجزَّأ والحقَّ لا يتخصّص.

دلالةُ الجارّ والمجرور ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

العـدلُ هو الحُكمُ بالحقّ

عبّر النّظمُ الجليلُ عن متعلّقِ الحُكم بالجارِّ والمجرور في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ وهو في محلِّ النّصب حالٌ، والتّقديرُ: مُلتبِسًا بالحقّ، حيثُ أُمِرَ داوودُ عليه السلام بأنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ حُكْمًا لا يَنْفَكُّ عن الحَقِّ حتّى يكونَ عادلًا، وفي هذا التّركيبِ كنايةٌ عن الأمر بالعَدل؛ إذ يلزمُ من الحُكم بالحقِّ أنْ يكونَ عَدْلًا، وأفادتِ الحالُ تقييدَ الحُكم؛ إذِ الحُكمُ المُطلقُ عن التّقييدِ لا يُؤمَرُ به؛ لأنّه مَدعاةٌ للوقوعِ في الباطل.

دلالة تعريف (الحق):

من شأنِ الأنبياء الحُكمُ بالحقِّ المعهود

آثرَ النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن متعلَّق الحُكم مُعرَّفًا باللّام في قوله: ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾، وهي إمّا أن تكونَ للعَهد، أي: بالحقِّ الذي جاءَ به الأنبياءُ والمرسَلون، وهو شَرْعُ اللّه وحُكْمُه. فالحَقُّ هُنا ضِدُّ الباطل أوِ الظُّلم؛ لأنَّ داوودَ عليه السلام لا يَحْكُمُ إلّا بالحَقِّ. وإمّا أنْ تكونَ للجِنْس، فيشملُ كُلَّ ما يقالُ إنَّه حَقٌّ، والمراد بالحَقّ: العَدْلُ، والحُكْمُ الَّذي يُطابِقُ الواقع؛ لأنَّ الحَقَّ وُصِفَ به الحُكْم فصارَ بمعنى: العَدْل، أي: العَدْلُ المُطْلَق.

دلالةُ الوَصْل:

عطفَ النّظمُ الجليلُ الجملةَ الطّلبيّةَ المُشتملةَ على النَّهي في قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾، عَلى الجملةِ الطلبيَّةِ المُشتملةِ على الأمرِ

الحُكمُ بالحقّ لا يُمازِجُهُ شيءٌ مِن اتّباعِ الهَوى

في قوله: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾، وهو كالتَّأكيدِ لِما قَبْلَه، والعطف؛ لمُغايرته مفهومًا[1]، ولَعَلَّ النَّهْيَ هو المَقْصودُ مِنَ التَّفْريع، وإنَّما تَقدَّمَ عَلَيْهِ أمْرُهُ بالحُكْمِ بالحَقِّ؛ ليَكونَ تَوْطِئَةً لِلنَّهْيِ عَنِ اتِّباعِ الهَوى؛ سَدًّا لِذَريعَةِ الوُقوعِ في خَطَأِ الحَقِّ، فَإِنَّ داوُدَ ﷺ ممَّنْ حَكَمَ بالحَقِّ، فَأَمَرُهُ بِهِ بِاعْتِبارِ المُسْتَقْبَلِ[2]، ونُهيَ داوودُ ﷺ عن اتِّباعِ الهوى؛ تعظيمًا لهذا الأمر، ولا يلزم مِن نَهْيِهِ أنْ يكون هذا مُمْكنًا في حَقّ داوودَ ﷺ، فالنَّهْيُ عنِ اتِّباعِهِ الهَوى؛ لِقوَّة الهَوى في البَشَر؛ إذ إنَّهم مفطورونَ عليه[3]، وأفادَ قَرْنُ الأمرِ بالنّهي أن يكونَ الحُكمُ بالحقِّ الخالصِ الّذي لا يُمازِجُهُ شيءٌ من الهوى والعاطفةِ المغيّب فيها العقلُ والحِكمة، ففي هذا العطف احتراسٌ عنِ الحُكم الملتَبس بالحقّ وشيءٍ من الهوى، وفي هذا الاقترانِ أيضًا نلحظُ (الاحتباك)، حيثُ حُذِفَ من الأوّل (اتّبعْ) بدلالة (لا تتّبعْ)، ويكون المعنى: احكُم بالحقّ واتّبِعْه، وحُذِفَ من الثّاني (ولا تحكمْ) بقرينة (احكمْ)، ويكون المعنى: ولا تتّبِعِ الهوى ولا تحكم به، ولم يقل: (احكمْ بالحقِّ ولا تحكُمْ بالباطل)؛ لأنه أُريد تأشيرُ سببِ عدمِ الحُكم بالحقّ، وهو اتّباعُ الهوى، ولم يقل: (اتّبعِ الحقَّ ولا تتبعِ الهوى)؛ لأنه أُريدَ تأشيرُ لازمِ اتّباعِ الحقّ، وهو الحُكم به، وحاصلُ المراد: فاحكم بالحقّ ولا تكن مُتّبعًا الهوى فتحكمَ بالباطل حينَئذ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾:

حُـرْمَـةُ اتّـبـاعِ الهَوى لِما يُفْضي إلـــى الـهـلاك والخُسْران

عبّر النّظمُ الكريم في النّهي عنِ اتّباعِ الهوى بالتّعريف، فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ الدّالِّ على الجنس، فيكون النّهيُ عنِ اتّباعِ هذه الحقيقةِ عندَ الحُكم، وذلك بالانتهاء عنها وعدمِ اعتمادِها أثناءَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 394.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 242.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 122.

إصدارِ الأحكام. ويمكنُ أنْ تكونَ لِلاسْتِغْراق؛ ليَشملَ النَّهْيُ عنِ اتِّباعِ كُلِّ ما هو هَوًى وعاطفةٌ مشبوبةٌ خاليةٌ من الحِكمة والعَقل.

دلالةُ التّقابل بين الحق والهوى:

الحقُّ ناجمٌ عنِ العقل، والهوى مُؤدٍّ للباطل

قابلَ النّظمُ الجليلُ بين (الحقّ والهوى)، كما قابل بين (احكم ولا تتبع) في قوله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ ليُفسِّرَ أحدُهما الآخرَ؛ فإنَّ الحُكمَ بالحقِّ والوصولَ إلى الحقيقة عندَ القضاء يكونُ باستعمالِ العقل والحِكمة، وبذلك ذكرَ المسبَّب - وهو الحقُّ - وحذفَ السّبب للوصولِ إليه وهو العقلُ، وذكَر ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾ في المقابلِ ليكونَ سببًا للحُكم بالباطل الذي حذفَه، إذِ الوصولُ إلى الحُكم بالباطل المجانبِ للصّواب إنَّما يكونُ باتِّباعِ الهوى.

غَرضُ النَّهْي في ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾:

الوصولُ إلى كمالِ الحقِّ الخالص

أُمِرَ داوودُ عليه السلام أوَّلًا بالحُكْم، ولَمّا كانَ الهَوى قَدْ يَعْرِضُ لِغَيْرِ المَعْصوم أُمِرَ باجْتِنابِه، وذَكَرَ نَتيجَةَ اتِّباعه، وهو إضْلالُه عَنْ سَبيلِ اللّه، و"النَّهْيُ عَنِ اتِّباعِ الهَوى تَحْذيرٌ لَهُ وإيقاظٌ؛ ليُحَذِّرَ مِن جَرّاءِ الهَوى، ويَتَّهِمَ هَوى نَفْسِه ويَتَعَقَّبَه، فَلا يَنْقادُ إلَيْه إلّا بَعْدَ التَّأمُّلِ والتَّثَبُّتِ"[1]. فالغرضُ من النّهي التّحذيرُ الشّديدُ عن هذا العدوّ الذي يجولُ في نفس الإنسان، معَ التّهديدِ لمَن يُفكّر بمتابعةِ الهوى.

دلالةُ المضارع مادّةً وصيغةً:

أعْدى عَدوٍّ للإنسانِ هواه

عبَّر النّظمُ الكريمُ بالفعلِ المُضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾، وتُشيرُ المادّةُ إلى أنَّ اللّه تعالى قد عَفا عنِ الخَطَراتِ وما بادَرَ الإنْسانُ الرُّجوعَ عَنْهُ والخَلاصَ منهُ؛ تَوْبَةً إلى اللّه، وتُشيرُ صيغةُ (الافتعال) إلى عدمِ المبالغةِ في مُتابعةِ الهوى والجَرْي خلفَهُ؛ لأنّه يُؤدّي إلى شُيوعِ الظُّلمِ وانتشارِ الفساد. بقي أنَّ تعليقَ الاتّباع

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 23/ 242.

بالهوى استعارةٌ مكنيّةٌ؛ مبنيّةٌ على تشبيهِ الهوى بجسمٍ قابلٍ للسّير خَلْفَه من دون تفكيرٍ ولا نظّرٍ، ثمَّ حَذَفَه وأبقى من لوازِمه الاتّباع، وفي ذلك تشخيصٌ للهوى، وتنزيلٌ له منزلةَ المحسوسات، التي ينبغي الحَذَرُ منها.

الموقع الإعرابيّ لقوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾:

اتّباعُ الهوى سببٌ للابتعادِ عن شريعةِ الله

وقع قولُه تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ جَوابًا لِلنَّهْيِ، والفاعِلُ في ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ ضميرُ (الهَوى)، أوْ ضَميرُ المَصْدَرِ المَفْهومِ مِن ﴿وَلَا تَتَّبِعِ﴾، أيْ: فَيُضِلَّكَ اتِّباعُ الهَوى[1]، والعلاقةُ بين النّهي وجوابِه علاقةُ تسبُّبٍ، ومِن ثمَّ يكون الفعلُ المضارع منصوبًا بـ(أن) المضمرةِ وجوبًا بعد فاءِ السّببيَّة، والتّقديرُ: ولا يكُنْ اتباعٌ للهوى، فإضلالٌ عن السّبيل، والغرضُ من العطفِ بالفاء بيانُ أنّ إضلالَ الغافل عن شريعةِ اللّه والابتعادِ عن الحِكمةِ المتمثّلةِ بسبيلِه ومنهجِه باتّباع الهوى والانجرارِ خلفَه.

معنى الفاء في ﴿فَيُضِلَّكَ﴾:

النّفسُ إذا ضَرَيَتْ على اتّباع هواها صارَ لَها خُلُقًا

(الفاء) في قوله: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ للسَّبَبِيَّة، أي فيَضُلّك ذَلِك الاتِّباعُ؛ أوِ الهَوى؛ "لأنَّ النَّفْسَ إذا ضُرِبَتْ عَلى ذَلِكَ صارَ لَها خُلُقًا؛ فَغُلِبَ صاحِبُها عن رَدِّها عَنْه"[2]، وفيها البرهنةُ للحاكم أنّ الانجرارَ خلفَ العواطفِ والانفعالات؛ يودّي به إلى الضّلال المُبين.

دلالةُ الاستعارة التّصريحيّة:

الحقُّ المُبينُ سبيلُ الله تعالى

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على استعارةٍ تصريحيّة؛ إذ شُبِّهَ الحقُّ المتمثّلُ بالحِكمة والشَّريعة بالسَّبيل الموصلِ إلى اللّه تعالى والصِّراط المُستقيم، والغرضُ من الاستعارةِ: تصويرُ الحِكمة والشَّريعة على أنَّهما منهجٌ

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 7/ 378.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 16/ 368.

إلهيٌّ، على الحاكِم سلوكُهُ للوصولِ إلى رضا اللّه تعالى، ولتحقيقِ العدالةِ بينَ الخصومِ على الأرض.

دلالةُ الجملةِ الاستئنافيَّة:

التَّعْظيمُ لِأمْرِ سَبيلِهِ؛ والحَثُّ عَلى لُزومِه

وقعتْ جملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مُستأنَفَةً، مُقرِّرةً لِما قَبْلَها، وتَعْليلًا للأمر بالحُكْم بالحَقِّ، والنَّهْي عن الهَوى، وبَيانِ عاقبةِ اتِّباعِه؛ لذا فُصِلت عَمّا قَبْلها. والتَّأكيد بـ (إنَّ) واسميَّة الجملة؛ للمبالغة في وقوع عاقبة اتِّباع الهَوى[1]، وعُدِل عن أنْ يقال: إنَّك إنْ تَتَّبِعِ الهَوى، أوْ إنْ تَضِلَّ عن سبيلِ اللّه فَلَك عذابٌ شديد؛ تحاشيًا لِمواجهة داوودَ عليه السلام، ومُخاطبته بما يَسوؤُهُ، ومراعاةً لَمقام النُّبوَّة؛ لذا عُبِّر بالجملة الاستئنافيَّة الاستقلاليَّة، ليكونَ بمثابةِ قاعدةٍ كليّةٍ عامّةٍ تَمَسُّ كلَّ مُتّبِعٍ لِهَواهُ عندَ تطبيقِ الشّريعة والحُكم بين المُتخاصِمَين.

دلالةُ إضافةِ السّبيل إلى الله تعالى:

تعظيمُ المضاف لمزيدٍ من التّحذير

آثَر النّظمُ الجليل إضافةَ (السّبيل) إلى اللّه تعالى، فقال: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ "لأنَّه هو الذي وضَعَه، وهو الذي شَرَعَه، ولأنَّ هذا السَّبيلَ يُؤَدّي إلى اللّه، فأُضيفَ إليه باعتبار وضْعِه، وباعتبار نهايته، كَما أنَّ في تلك الإضافة وإفرادِها دليلٌ على أنَّ دين اللّه واحدٌ لا يَتَشَعَّب، وأنَّ سبيلَه واحدة"[2]، وتَحمِلُ الإضافةُ مع التّكريرِ للسَّبيل دلالةَ الاهتمام والتّعظيم له؛ فيوحي بمزيدٍ من التّحذيرِ عنِ اتّباع الهوى؛ إذ يَبتعدُ بذلك عن المنهج المنسوب إلى جهةِ العظَمة والتّقديس، ويُغادِرُ ما يقتضيهِ العقلُ السّليم والطّبعُ المُستقيم.

الإظهار موضع الإضمار:

آثرَ النّظمُ الكريمُ وضعَ الظّاهرِ موضعَ المضمر في قوله تعالى:

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 16/ 395.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة (ص)، ص: 128.

كَـمـالُ شَـنـاعَـةِ الـضَّـلالِ عَـنْ سبيل الله

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، بدلًا من القول: إنَّ الذين يضلّونَ عنه، فعمدَ إلى تكرارِ المركَّب الإضافيِّ؛ لِزيادَةِ التَّقْرير، والإيذانِ بِكَمالِ شَناعَةِ الضَّلال عَنْه[1]، وفيه دلالةٌ على تعظيم دينِ اللّه وشريعتِه ومنهجِه بتلك الإضافة، إلى لَفْظ الجلالة الجامعِ لِصفات الجلال والكمال، فقد: "لَفَتَ القَوْلَ عَن مَظْهَرِ العَظَمَةِ إلى الاِسْم الأَعْظَم الجامِع لِجَميع الأَسْماءِ الحُسْنى، والصِّفات العُلا؛ تَعْظيمًا لِأَمْرِ سَبيلِه، وحَثًّا عَلى لُزومِه، والتَّشَرُّف بِحُلولِه"[2].

دلالة تقديم الخبر:

مُتابَعَةُ الهَوى تـوجِـبُ سـوءَ العَذابِ

آثرَ النّظمُ الكريم تقديمَ الخبرِ من الجارِّ والمجرور على المبتدأ في قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ﴾؛ للتَّعجيلِ بما يَسوءُ الّذين يَتّبِعونَ أهواءَهم، "وتَفْسيرُه: أَنَّ مُتابَعَةَ الهَوى توجِبُ الضَّلالَ عَنْ سَبيلِ اللّهِ، والضَّلالُ عَنْ سَبيل اللّهِ يوجِبُ سوءَ العَذابِ؛ حيثُ إنَّ الهَوى يَدْعو إلى الاِسْتِغْراقِ في اللَّذّاتِ الجُسْمانيَّة، والاِسْتِغْراقُ فيها يَمْنَعُ مِنَ الاِشْتِغالِ بِطَلَبِ السَّعاداتِ الرّوحانيَّةِ الَّتي هي الباقياتُ الصّالِحاتُ؛ لِأَنَّهُما حالَتانِ مُتَضادَّتانِ فَبِقَدْرِ ما يَزْدادُ أَحَدُهُما يَنْقُصُ الآخَرُ، فَيَنْتُجُ أَنَّ مُتابَعَةَ الهَوى توجِبُ سوءَ العَذابِ"[3]، وفي التّعبيرِ عن الخبرِ بـ(لام) التّملُّك والاختصاص ما يفيدُ أنّ العذابَ قد صارَ مُلْكًا لهم ومختصًّا بهم دونَ غيرهم.

دلالةُ التّنكير والنَّعت:

الـتَّـهـويـلُ والتَّرهـيـبُ من العذاب موجِبٌ للرَّدع

عبّر النّظمُ الجليل عن العذابِ بالتّنكير في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدُۢ﴾؛ للدّلالة على أنّه عذابٌ مهولٌ ومخوفٌ منه، إذ تثيرُ النّكارة تهويلًا وترهيبًا عنيفًا للسّامعين من القضاة بين الخصوم،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 23/ 262.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 368/ 16.
(3) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 26/ 200.

وزادَ الأمرَ تهويلًا وترهيبًا توصيفُهُ بالشِّدَّة، فتحققّت دلالةُ عِظَمِ العذابِ مع شدّته، فهو كبيرٌ كمًّا، وعظيمٌ كيفًا.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا نَسُواْ﴾:

مِـن أسـباب التّباب نِسْيانُ يومِ الحِساب

عبَّر النّظمُ الكريمُ مُعلِّلًا بـ(الباء) الدّالّة على السّببيَّة استحقاقَ الضّالّينَ عن سبيل الله العذابَ الشّديد في قوله: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾، و(ما) مصدريَّة. والتّقدير: لَهُمۡ عَذابٌ شَديدٌ بنسيانِهم يَومَ الحِسابِ، أي: بِتَرْكِهم الإيمانَ بيوم الحساب، أَوْ بِتَرْكِهمُ العملَ لذلك اليوم، "فَلَوْ ذَكروهُ ووَقَعَ خَوْفُه في قلوبِهم، لَم يَميلوا معَ الهَوى الفاتِنِ!"[1].

دلالة المجاز المرسل:

من لـوازمِ التّركِ النِّسيانُ

عبَّر النّظمُ الجليلُ عن التّركِ للإيمانِ بيوم الحساب، أَوْ التّرك للعمل الصّالح واتّباع الهوى والضَّلال والباطل بـ(النّسيان) مجازًا مُرسَلًا، علاقتُه اللّازميَّةُ، وذلك في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ إذِ استحقاقُ العذابِ الشَّديدِ لا يكونُ عن النِّسيان وعدمِ التّذكُّرِ حقيقةً؛ بل عن تعمُّدِ التّركِ والانشغالِ بالباطل والهوى، وحُبِّ الدّنيا والملذّات، والسَّيرِ في طريق الكفر والنِّفاق، لكنَّه عبَّر عنه بلازمِه وهو النِّسيانُ؛ لبيان أنَّهم منِ انشغالِهم بالباطل وتحصيلِه، وعكوفِهم على الملذّات والحصولِ عليها، نَسوا ذلك اليوم ولم يستعدّوا له، فكان نسيانُهم تعبيرًا عن مدى انهماكِهم في الدّنيا ومفاتنِها ومباهجِها القصيرة الفانية، كما أنّ فيه إشارةً إلى أنَّ التّركَ لِمَن يُؤمنُ بيومِ الحساب غيرُ متصوَّر، فيكون نسيانُهم يومَ الحساب كنايةً عن عدمِ الإيمان به أصلًا، وعدمُ الاستعداد له بالعمل الصّالح دليلُ جَحْدِه وإنكاره.

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 711.

دلالةُ الإضافة إلى المعرّف بـ (أل):

موعدُ الحسابِ مصدرُ خوفٍ وتهديد

آثرَ النّظمُ الكريمُ ذِكْرَ يومِ القيامة بالمُركَّب الإضافيِّ في قوله تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾، الدّالِّ على اليوم الموعودِ المعروف، فكأنَّه انتقلَ من كونه مركَّبًا إضافيًّا إلى المعنى العَلَميِّ المخصوص بذلك اليوم، وفي التّعبير عنه باعتبارِ أصلِه تهديدٌ للنّاسينَ، وزَجْرٌ للمُعتَبرينَ، ووعظٌ للصّالحين، واللّام في ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ للعَهْد، وهو يوم القيامة. وأُضيف اليوم إليه؛ لأنَّ النّاس يُحاسَبون فيه، والإضافة لاميّةٌ للتّخصيص، من إضافة العامِّ إلى الخاصّ.

دلالةُ اسمِ الزّمان:

تحديدُ المنسيِّ سببٌ للإيقاظِ مِنَ الغَفْلة

عبَّر النّظمُ الكريمُ عن مُتعلَّقِ النِّسيان باسم الزمان ﴿يَوۡمَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾، وهو إمّا أن يكون مَفْعولًا لـ﴿نَسُواْ﴾، فَيَكونُ تَعْليلًا آخرَ صَريحًا لِثُبوتِ العَذابِ الشَّديدِ لَهم بِنِسْيانِ يَوْمِ الحِساب بَعْدَ التَّعليل الأوَّل، وهوَ الضَّلالُ عَنْ سَبيل اللّه تَعالى؛ إذ هو مُسْتَلْزِمٌ لِنِسْيانِ يَوْمِ الحِسابِ بِالمَرَّة، بَلْ هَذا فَرْدٌ مِن أفْرادِه، وعلى تقديرِ المفعوليَّة يكون ﴿يَوۡمَ﴾ اسمَ زمانٍ أُريدَ به نفسُ اليوم وذاتُه، وليس شيئًا نسوه في ذلك اليوم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسًا﴾ [الإنسان: 10]. وإمّا أن يكون ظَرْفًا لِقَوْله تَعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ أيْ: لَهم عَذابٌ شَديدٌ في يَوْمِ القيامَة؛ بِسَبَبِ نِسْيانِهِم الَّذي هو عِبارَةٌ عَنْ ضَلالِهِم، ومِن ضَرورَته أنْ يَكونَ مَفْعولُ ﴿نَسُواْ﴾ محذوفًا، تقديره: (سَبيلَ اللّه)، فَيَكون التَّعْليلُ المُصَرَّحُ بِهِ حينَئِذٍ عَيْنَ التَّعْليلِ المُشْعِرِ به بِالذّات غَيْرُه بِالعُنْوان[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّهْوَة والهَوى:

الشَّهْوَة: أَصْلُها نُزوع النَّفْس إلى ما تريده وتحبُّه[2]. وقد يُسَمَّى

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 573.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (شَهَو).

الشَّيءُ المُشْتَهى شهوةً مُبالغةً. وهي في الدُّنْيا ضربان: صادقةٌ وكاذبةٌ؛ فالصّادقة ما يختلّ البَدَن مِن دونه كشهوة الطَّعام عند الجوع. والكاذبة: ما لا يختلُّ البَدَن بدونه[1]، والشَّهْوة ضربانِ: محمودةٌ ومذمومةٌ، فالمحمودةُ مِن فِعْل الله تعالى، والمذمومةُ مِن فِعْل البَشَر، وهي استجابةُ النَّفْس لِما فيه لذّاتُها البدنيَّة.

الهوى أخص من الشّهوة وهو مذموم دائمًا، والشَّهوة تكون ممدوحةً ومذمومةً

والهَوَى: مَيْلُ النَّفْس إلى الشَّهوة، ويقال ذلك للنّفسِ المائلةِ إلى الشّهوة، وقيل: سُمّي بذلك لأنّه يَهْوي بصاحبه في الدّنيا إلى كُلّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويَة[2]. ويُطلقُ الهوى على الشَّخص الَّذي يتّبعُ عواطفَه وأوهامَه، من دونِ تحكيمٍ للعقل والحكمة والشَّريعة، فيَميلُ أينَما مالَ هواهُ، ولذا يكونُ مُتقلّبًا المزاجِ، مُتحيّرَ القرار، مُتعجّلَ التّصديق بالظّنون.

فمن حيثُ إنَّ الهَوى مَصْدرُ الشَّهوة يكونُ مرتبطًا بها ارتباطَ السَّبب بالمسبَّب، ومن حيثُ إنّه يَخْتصُّ بالمعنويّات كالمُعتقدات والآراء، يكونُ مُباينًا للشَّهوة التي تختصُّ بالمحسوسات من المستلذّات، ومن حيثُ إنَّه يكون مذمومًا دائمًا يكونُ أخصَّ من الشَّهوة التي تكون ممدوحةً ومذمومةً[3].

(1) السَّمين الحلبيّ، عُمْدة الحُفَّاظ: (شَهَو).

(2) الرَّاغب، المفردات: (هَوى).

(3) محمد محمد داود، معجم الفروق الدِّلاليَّة، ص: 307.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: 27]

الاحتجاجُ على مُنكِري البَعْثِ بحِكْمةِ الخَلْقِ

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لمّا جَرى في خطابِ داوودَ (عليه السلام) ذِكْرُ نِسيانِ يومِ الحِساب، وكانَ أقصى غاياتِ ذلك النِّسيانِ جُحودَ وقوعِه؛ لأنَّه يُفضي إلى عدمِ مُراعاتِه ومُراقبتِه أبدًا؛ اعتُرِضَ بينَ القِصَّتين بثلاثِ آياتٍ؛ لبيانِ حكمةِ اللّٰه تعالى في جَعْلِ الجزاءِ ويَومِهِ احتجاجًا على مُنكِريه من المُشركينَ.[1] وابتدأ الآياتِ الثَّلاثَ بهذه الآيةِ؛ لأنّها استدلالٌ إجماليٌّ على أنَّ مَن أنكرَ البعثَ كان بالضّرورةِ مُنكِرًا الحكمةَ من الخلقِ، وناسِبًا للّٰه الخالقِ العبثَ في خلقِهِ وإيجادِهِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَٰطِلًاۚ﴾: أصلُ (بَطَلَ) يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكْثه ولُبْثه[2]. يُقالُ: بَطَلَ الشَّيءُ: إذا ذَهَبَ ضَياعًا وخُسرانًا، والباطِلُ: اسْمُ فاعِلٍ من بَطَلَ الشَّيءُ يَبْطُلُ بُطْلًا وبُطْلانًا، ومَعناهُ: نَقيضُ الحَقِّ والصِّحَّةِ[3]، وهو ما لا ثباتَ له عندَ الفحصِ عَنه[4]. وهو أيضًا: التّالِفُ والضّائِعُ مِن الأشْياءِ، وجمعُهُ: بَواطِلُ، وقيل: أباطيلُ[5]. والمُرادُ بـ(الباطل) في الآية: نقيضُ الحقِّ، وهو العَبَثُ واللَّهو واللَّعِبُ دونَ حكمةٍ ونظامٍ[6].

2) ﴿ظَنُّ﴾: أصلُ (ظنَّ) يدلُّ على مَعنيينِ مُختلِفَين: يقينٍ وشَكٍّ[7].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 246.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (بطل).
(4) الراغب، المفردات: (بطل).
(5) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بطل).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 155.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظن).

وهو اسمٌ لما يَحصُلُ عن أمارةٍ، فمتى قَويَتْ أدَّتْ إلى العِلْمِ واليَقينِ[1]، يُقال: ظَنَنْتُ ظَنًّا؛ أيْ: عَلِمْتُ وأيقَنْتُ[2]، ومتى ضَعُفَتْ جِدًّا لم يتجاوَزْ حدَّ التَّوهُّم، فيكون معناها الشَّكَّ والاعتقادَ والتَّردُّدَ، يُقال: ظَنَنْتُ الشَّيءَ: إذا شَكَكْتَ فيه ولم تَتَيَقَّنْهُ[3]. ويأتي الظَّنُّ بمعنى الاتِّهام، والظِّنَّةُ: التُّهَمَةُ. وجَمْعُه: ظُنونٌ[4]. والمُرادُ بالظَّنِّ هنا: اعتقادُ المُخطِئ عن غيرِ دليلٍ، الَّذي يَحسَبُهُ صاحبُهُ حَقًّا وصَحيحًا[5].

المَعنى الإجماليُّ:

مَن ظَنَّ بالله سُبحانَهُ ما لا يَليقُ بِهِ فجَزاؤُهُ النّارُ

يقولُ تعالى مُنزِّهًا نفْسَه عن العَبثِ ومُتوعِّدًا الكفّارَ الَّذين يَظنّونَ ذلك: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بينهما عَبَثًا ولَعِبًا ولَهْوًا بلا غايةٍ ولا حِكمةٍ، وإنَّ ظنَّ الَّذين كفروا بأنَّ هذه المخلوقاتِ العُظمى خُلِقتْ عبَثًا لغيرِ غرَضٍ - فلا قيامةَ ولا حسابَ - هو ظنٌّ خاطئٌ كاذبٌ، فيا هلاكَ هؤلاءِ الكافرينَ في النّار يومَ المَعاد والنُّشور؛ جزاءَ ما قدَّموا منَ الشِّرك والعِصيان، وجحودِ نِعَمِ اللّه تعالى، وإنكارِ البَعْثِ[6].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

تقريرُ أمرِ المَعادِ والحِسابِ والحِكمةِ منَ الخَلْقِ

جاءَ قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ مُستأنَفًا مُقرِّرًا لما قبلَهُ من أمرِ المَعادِ والحساب؛ فإنّ خلقَ السّماءِ والأرض وما بينَهما من المخلوقاتِ مُشتمِلًا على الحِكَم الباهرة والأسرارِ البالغةِ والفوائدِ الجَمّة والنِّظامِ المُتقَنِ البديع أقوى دليلٍ

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظن)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 545، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 231.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 22/ 170، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 295.

(3) ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص: 62، وابن سيده، المخصص: 3/ 223.

(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (ظنن - ظن).

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8 - أ/ 26.

(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 78، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 191، والزحيلي، التفسير الوسيط: 3/ 2202.

على عِظَم القدرةِ الّتي لا يتعاصاها أمرُ المعادِ والحِساب، وجوَّزَ كونُ الجملةِ في موضعِ (الحال) مِن فاعلِ ﴿نَسُواْ﴾ [ص: 26] في الآية السّابقة؛ جيءَ بها لتفظيعِ أمرِ النّسيانِ؛ كأنّه قيلَ: بما نَسوا يومَ الحسابِ معَ وجودِ ما يُؤذِنُ به[1] ويُذكّرُ بشأنه مِن خلق العالمِ بنظامٍ وحقٍّ وحكمة، وكتابٍ مُنزَّلٍ مُذكّرٍ به مَن أرادَ أنْ يتذكّرَ.

دلالةُ النّفيِ بـ (ما):

نفيُ الباطلِ في الخَلْقِ إثباتٌ للحكمةِ فيهِ

وردَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ النّفيُ بـ(ما)، وهي موضوعةٌ لنَفْيِ الحالِ والاستقبال؛ لتحقيق العموم في نفيِ صدورِ أيِّ شيءٍ مِن خلقِ السّماءِ والأرضِ وما بَينَهُما مِنَ المخلوقاتِ باطِلًا من دونِ حِكمة[2].

علّةُ إسنادِ فعلِ الخَلْقِ إلى ضميرِ العظمةِ:

العظيمُ لا يصدُرُ عنهُ إلّا فعلٌ حكيم

أُسنِدَ فعلُ الخَلقِ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ إلى (نا) ضميرِ جماعة المتكلِّمين أو المُعَظِّم نفسَهُ، وفيه دلالةٌ على تعظيم الخالقِ سُبحانَه؛ فإنّ مثلَ هذا التّعبيرِ يُعبِّرُ به الملوك والعظماءُ النّافذُ أمرُهم ونهيُهم، وفيه أيضًا إدخالُ المهابة في قلوب العباد، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ العظيمَ تأبى له عظمتُهُ غيرَ الجِدّ العظيم، ولا يجوزُ عليه الباطلُ والعبَثُ[3]. كما يُسهِمُ تعظيمُ الفاعل في تعظيم الفعلِ نفسه بالإشارةِ إلى عظمةِ الخلق، ولا يكونُ الخلقُ عظيمًا إلّا إذا كان مُتقَنًا ومُحكَمًا ودقيقًا.

نوعُ (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تعريفُ الجنسِ يَقتضي العموم

وردتْ كلمتا ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ مُعرّفتينِ بأداة التّعريفِ (أل) الدّالّة على تعريفِ الجنس، سواءٌ أُريدَ بالسّماءِ الجنسُ الصّادقُ بجميع

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 180.
(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 318، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 370، والشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

السَّماوات على طريقةِ العموم الحقيقيِّ، أوِ الصّادقُ بسماواتٍ مشهورةٍ على طريقةِ العُموم العُرفيِّ، وهي السّماواتُ السّبعُ، وكذلك دلَّ تعريفُ (الأرض) على الجنسِ المُقتضي للعموم[1]. والغرضُ من العموم والاستغراقِ الدّلالةُ على أنَّ جميعَ العالم مخلوقٌ بالحقِّ والحكمةِ الَّتي لا يُحاطُ بأسرارها وخباياها، فكيف يُنسَى الحسابُ ويُستهزَأُ بالنُّشورِ والمَعاد؟!

بقي أنَّ بينَ ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ طباقَ التَّضادّ؛ للإشارةِ إلى أنّ جميعَ العوالم العلويّة والسُّفليّة مُبرَّأةٌ عن العبثِ واللّهْوِ في خلقِها وإيجادِها.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ على (الأرضِ):

اشـتـمـالُ السَّماوات على أعظمِ الآياتِ البيّنات

تقدّمَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ ذكرُ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ على (الأرض)؛ لأنَّ الآياتِ في السّماءِ أعظمُ منها في الأرض؛ لسَعَتِها وعِظَمِها، وما فيها من كواكبَ وشمسٍ وقمَرٍ وبروجٍ، معَ عُلوّها واستغنائِها عن عمَدٍ تُقلُّها أو عِلاقَةٍ ترفعُها، إلى غيرِ ذلك مِن عَجائبِها، فالآياتُ فيها أعظمُ دلالةً منَ الأرض[2].

وجهُ إفرادِ ﴿ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دونَ جَمْعِهما:

تعظيمُ المخلوقِ دليلُ حكمةِ الخالق

يُلاحَظُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ إفرادُ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، وقد جاءتْ مجموعةً في آياتٍ أخرى، والحاصلُ: أنّهُ حيثُ أُريدَ العددُ أُتيَ بصيغةِ (الجمع)، وحيثُ أُريدَ الجهةُ أُتيَ بصيغةِ (الإفراد)، وفي هذا الموضعِ أُريد بها جهةُ العلوّ كما أُريد بالأرض جهةُ السُّفل؛ للدّلالة على أنَّ جميعَ العوالم العُلويَّة والسُّفليَّة منزّهةٌ عن العَبث في خلقِها وإيجادِها، وفي ذلك تعظيمٌ لهذه المخلوقاتِ العظيمة المُحيطةِ بالإنسانِ، لتكونَ دليلًا على عظمةِ الخالق وحكمتِهِ ونزاهتِهِ عن العبثِ في إيجادِها وتخليقِها.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 97.
(2) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 1/ 130.

نفيُ البُطلانِ عن المُحيطِ والمُحاط

دلالةُ العطفِ بـ(الواو) في قوله: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

عُطِفتِ العوالمُ المحاطةُ المُعبَّرُ عنها بـ(ما بينهما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ بحرفِ (الواو) الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ؛ لإفادةِ شمولِ الحكمةِ لها جميعًا، إذ نفى اللّٰه سبحانه العبثَ والباطلَ عن جميعِ خلقِهِ المُحيطِ والمُحاطِ بجهتَي العلوِّ والسُّفْل.

حكمةُ اللهِ سُبحانَه ظاهرةٌ في كلِّ مَخلوقاتِهِ

وجهُ إيثارِ (ما) الموصولة:

استُعمِلَ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ الاسمُ الموصولُ المبهَمُ (ما)؛ لشُمولِ العوالِمِ جميعِها المحصورةِ بينَ السَّماءِ والأرض، والنّكتةُ البلاغيّةُ في إيثارِ وضعِ الاسمِ الموصولِ موضعَ الاسمِ الظّاهرِ التَّوصُّلُ لوصفِهِ بجملةِ الصِّلة، وهو هنا شمولُ الحكمةِ لجميعِ المخلوقاتِ المعلومةِ وغيرِها وما فيها من حِكَم باهرةٍ، وأسرارٍ بالغةٍ، ومصالحَ جمَّة[1]. ولم يكتفِ النَّظمُ بدخولِ الَّذي بينهما في ضمنِ العوالم العلويَّة والسُّفليَّة، بل نصّ عليهما؛ ليكون تصريحًا بما عُلِمَ ضمنًا، وتنصيصًا على دخولِهِ في الحكم بالمطابقةِ.

الحـاصـرُ والمحصورُ خالٍ مـن العـبـثِ الموهوم

معنى ظرفِ المكانِ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ في الآية:

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ لفظُ (بينَ)، والأصلُ فيه أنّه ظرفُ مكانٍ دالٌّ على مكانِ الاجتماعِ والاتّصالِ فيما يُضافُ هو إليهِ، وهو في هذه الآيةِ ظرفٌ دالٌّ على الحيّزِ الشّاملِ للمخلوقاتِ الكائنةِ بمكانِ افتراقِ السَّماءِ والأرض. بقي أنَّ النَّظمَ يستدلُّ بالنّظامِ الكونيِّ على نفيِ العبَثِ في الخلْقِ، فيكونُ العقلُ عندَ تأمُّله كافيًا في الحُكْمِ بأنَّ هذا النِّظامَ المُتقنَ دليلٌ على الصّانعِ الحكيمِ، ولا يليقُ بحكمتِهِ أنْ لا يُحاسِبَ النّاسَ على أعمالِ الخيرِ والشّرِّ الصّادرة منهم.

---

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 24/ 370.

دلالةُ لَفْظِ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾:

الخلقُ المُحكَمُ العظيم دليلُ الصّانعِ الحكيم

عُبّرَ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ بلفظ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾، وأصلُهُ ذهابُ الشّيءِ وقِلّةُ مُكثِه ولُبثِه. والباطلُ هنا: ضِدُّ الحقِّ، فكلُّ ما كان غيرَ حقٍّ فهو الباطلُ الزّائلُ، ولذلك قال تعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدّخان: 39].

والمرادُ بـ(الحقِّ) المأخوذِ من نفي (الباطل) هنا، هو أنّ تلك المخلوقاتِ قد خُلِقَتْ على حالةٍ لا تخرجُ عن الحقِّ؛ إمّا حالًا كخلقِ الملائكةِ والرّسُلِ والصّالحين، وإمّا مآلًا كخلقِ الشّياطينِ والمُفسدينَ؛ لأنّ إقامةَ الجزاءِ عليهم من بعدُ استدراكٌ لمُقتضَى الحقّ(1).

دلالةُ نصبِ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾:

تعدُّدُ الأوجهِ الإعرابيّةِ دليلُ تنوّعِ المعاني الدّلاليّة

ورد في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ لفظُ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾ منصوبًا، ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا على المصدريَّة، والتّقديرُ: (خَلْقًا باطِلًا) فيكونُ نفيُ البُطلانِ عن الخلقِ والإيجادِ نفسِه، بمعنى: لا لغرضٍ ولا لحكمةٍ من الخلقِ؛ لزوالِ العملِ العبثيِّ الّذي لا فائدةَ فيه، وجوّزَ كونُه حالًا من فاعلِ ﴿خَلَقۡنَا﴾ بتقديرِ مضافٍ؛ أي: ذَوي باطِلٍ، والباطِلُ: اللّعِبُ والعبَثُ؛ أي: ما خلقنا ذلك مُبطِلينَ لاعبينَ، وجُوِّزَ كونُه حالًا من المفعولِ أيضًا بنحوِ هذا التّأويل، أوْ على أنّه مفعولٌ لأجلِه؛ أي: لِلعَبَثِ واللَّهْو، بل للحِكْمَةِ(2). ويترجّحُ لدينا التّوجيهُ الأوّلُ؛ لأنَّ المرادَ لفتُ انتباهِ المُكذّبين بالنُّشور والحساب إلى خلقِ السّمواتِ والأرض، وما عليهما من نظامٍ وصنعةٍ عجيبة، يدلُّ ذلك الخلق المتقَنُ على خالقٍ حكيمٍ يمتحنُ عبادَه بربوبيّته ووحدانيّته؛ ليُحاسبَهم على إيمانِهم أو كُفرانهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 246.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 04/ 89، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 180، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 24/ 370.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾:

التّكرةُ في سياقِ النّفيِ تقتضي العُموم

نُكّرَ لفظُ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ﴾ لنكتةِ العُموم، ووجهُ ذلك أنّ لفظَ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾ نكرةٌ في سياقِ النّفي، فكلُّ خلقٍ فيه حكمةٌ عظيمةٌ وفائدَةٌ جسيمةٌ مشحونةٌ بضروبِ البدائع؛ تبصرةً للنُّظّار وتذكرةً لذوي الاعتبارِ، وتسبيبًا لِما ينتظمُ به أمورُ العباد في المَعاشِ والمَعاد[1].

بقي أنَّ في لفظ ﴿بَٰطِلٗاۚ﴾ مجازًا مُرسَلًا أوِ استعارةً تصريحيّةً؛ إذ سُمّيَ العملُ العبثيُّ الخالي من الغرضِ والحكمة بالباطلِ الزّائلِ؛ إمّا تسميةً للشّيء بما يستلزمُهُ، أوْ تشبيهًا للخالي من الحكمةِ بالزّائلِ بجامعِ عدمِ الانتفاعِ بهما.

بلاغةُ الإشارة في: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾:

استعارةُ البُعدِ المكانيّ للبُعْدِ المَعنويّ

أُشيرَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ إلى ظنِّ الكُفّار الفاسدِ الّذي هو المنفيُّ في العبارةِ المُتقدِّمةِ - أي: أنَّ خلقَ السَّماءِ والأرضِ باطلٌ - باسمِ الإشارةِ للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ استعارةً للبُعدِ المكانيّ في البُعدِ المعنويِّ وما فيه من معنى بُعدِ المشارِ إليهِ؛ للإشعارِ بخطورتِهِ وبُعدِهِ عن الصّواب، فالقولُ بأنّ اللّه سبحانه قد خلقَ الكون باطلًا خاليًا عن الغايةِ والحِكمة كلامٌ خطيرٌ عارٍ عنِ الصِّحَّة[2].

وجهُ إيثارِ لفظِ (الظّنّ) على (العِلْم):

بُطلانُ مظنونِ كُفّارِ مكّةَ في البَعْث

أوثِرَ في قَوْله تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ التّعبيرُ بلفظِ (الظَّنّ)، ومعناه: مظنونُ كُفّار مكّة، وسُمّي ظنًّا؛ لأنّه مخالفٌ للواقع؛ فهو باسمِ الظَّنّ أجدرُ؛ فالكفّار - وإنْ كانوا مُقرّينَ بأنّ اللّه هو الخالقُ - لمّا اعتقدوا بأنّ الجزاءَ الّذي هو حكمةُ خلقِ العالم باطلٌ؛

(1) القونوي، الحاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 396.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 372، والشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

لَزِمَهم أنْ يظنّوا أنّ المعلولَ باطلٌ ويَعتقدوا ذلك؛ أي: إنّهم يظنّون أنّ هذه الأشياءَ خُلقَتْ لا لغرضٍ ولا لحكمةٍ، ويقولون: لا قيامةَ، ولا بَعْثَ، ولا حِساب، وذلك يستلزمُ أنْ يكون خلقُ هذه المخلوقاتِ باطلًا(1). كما يلزمُ نسبةُ اللّه تعالى إلى عدم الحكمة، وأنَّه يفعلُ الأشياء كما يفعلُ العابثونَ واللّاهون، وهو مناطُ الحديثِ؛ إذ كيف يعتقدونَ أنَّه ربُّ السَّماء والأرض، وأنَّ فعله لهما عبثٌ ولهوٌ ولعب؟!

بقي أنَّ تسميةَ ذلك المعتقَدِ الباطلِ بـ(الظَّنِّ) للدَّلالةِ على أنَّ ما يتصوّرُهُ الكافرونَ من اعتقاداتٍ لا يخرجُ عن كونِهِ ظنًّا وشكًّا وتردُّدًا، فهم لا يَستيقنونَ حكمًا، ولا يُذعنونَ لعقيدةٍ إلّا ويخامرُهم فيها ظنٌّ وريبةٌ.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تقريعُ الكافرينَ بجحودِهم يومَ الدّين

عُدِلَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ عن الاسمِ الظّاهر (الكافرين) إلى التَّعبيرِ بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾؛ لتقريعِ الكفّار بما في حيّز الصّلة، وهو الكفرُ بحكمةِ اللّه ﷻ واليوم الآخِرِ والحِساب، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنّ ظنَّهم القبيحَ هذا ما هو إلّا نتيجةُ كُفرِهم وجُحودِهم للحقِّ(2).

دلالةُ التّعبيرِ بِ(الكفر) دونَ (الشِّرك):

الكفرُ أعمُّ من الشِّرك دلالةً وأكثرُ خِصالًا

أوثِر في قولِهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ التّعبيرُ بوصفِ (الكفر) دونَ (الشِّرك) لقصدِ العُموم، فالكفرُ خصالٌ كثيرةٌ، وكلّ خصلةٍ منها تُضادُّ خصلةً من الإيمان؛ لأنّ العبدَ إذا فعلَ خَصْلةً من الكفر فقد ضيّع خصلةً من الإيمان، وأمّا الشّركُ فهو خصلةٌ واحدةٌ، وهو إعتقادُ آلهةٍ مع اللّه أو من دونِ اللّه، وبذلك يكونُ الكفرُ أعمَّ من الشِّرك(3). كما أنّ سياقَ الآياتِ في ذكر الحكمةِ من الخلقِ، وثبوتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 248، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 370.
(2) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 155.
(3) النوويّ، شرح مسلم: 1/ 62.

البَعثِ بعدَ الموت، وجزاءِ النّاس يومَ القيامة قد ناسَبَ إيرادَ لفظِ الكفر الدّالِّ على الجُحودِ للحقِّ؛ لأنّه نقيضُ الإيمانِ بهذه المُغيّبات؛ في حينِ أنّ الشّرك نقيضُ التّوحيد[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿كَفَرُواْۚ﴾:

تحقُّقُ كُفرِ الكافرينَ ورسوخُهم فيه

جاءَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾ الفعلُ ﴿كَفَرُواْۚ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ كُفر الكافرينَ في الدّنيا، ورُسوخِ هذا الوصفِ فيهم؛ وذلك لأنّ الإخبارَ عن الشّيءِ بصيغةِ الماضي يَقتضي تحقُّقَ الخبر، ويقتضي كونَ المُخبَرِ عنهُ مُتقدِّمًا على ذلك الإخبارِ[2].

نكتةُ حذفِ مُتعلِّق الفعلِ ﴿كَفَرُواْۚ﴾:

اشتهارُهم بالكفرِ لازمٌ لَهُم

لم يذكرِ النّظمُ القرآنيّ المتعلِّقَ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ﴾؛ فلم يقل: (كفروا بحكمةِ اللّه أوْ كَفروا بالبعث والجزاءِ) أوْ غير ذلك؛ لأنَّ ذلك معلومٌ من السّياق، ومن المقرّر أنّه متى كان الفعل نَصًّا في مطلوبِهِ لا يُذْكَرُ المتَعَلِّقُ به إلّا لغرض بلاغيّ آخرَ مقصودٍ[3]. ويحتملُ أنَّ الفعل أُريدَ به اللُّزوم، والمعنى: أنَّ ذلك المعتقَدَ الباطلَ هو ظنُّ الَّذينَ وُجِد منهم الكفرُ وتحقَّقَ فيهم الجحودُ، وهو شعارُ عبدةِ الأصنام.

معنى (الفاءِ) في قوله: ﴿فَوَيۡلٞ﴾:

ترتيبُ ثبوتِ الويلِ لهم على ظنِّهم الباطل جزاءَ مَيلِهم كلَّ المَيل

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بحرفِ الفاءِ الدّالّةِ على التّفريع، بمعنى ترتيب ثبوتِ الوَيلِ لهم على ظنِّهم الباطلِ، وبيانِ العاقبةِ السَّيِّئةِ الّتي حلَّتْ بهم بسببِ هذا الظَّنّ الفاسدِ[4]. ويجوزُ أنْ تكونَ (الفاءُ) فصيحةً؛ لأنّها أفصحتْ عن

(1) أبو هلال العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 230.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(3) الشّعراويّ، التفسير: 7/ 224.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، والطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 155.

جوابِ شرطٍ مُقدّرٍ تقديرُهُ: إذا عرفتَ كونَ مَظنونِهم هذا، وأردتَ بيانَ عاقبتهم فإنَّني أقولُ لك: الهلاكُ كلُّ الهلاكِ للّذينَ كَفَروا[1].

سرّ التّعبيرِ بلفظِ (الوَيْل):

توعُّدُ الكافرينَ بالنّار جزاءً على سوء ظنِّهم

عُبّر في قولِه تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بلفظِ (الويل)، وأصلُهُ في اللّغةِ: العذابُ والهلاكُ والوعيدُ بحلولِ الشّرّ[2]. والمعنى: توعّدُ الكافرينَ بالهلاكِ المبينِ بسببِ ظنّهم الفاسدِ القادحِ في حِكمةِ ربِّ العالمينَ[3].

بلاغةُ الكنايةِ في لفظ (الويل):

الكنايةُ عن شدّة عذابِ الكفّار في النّار

تضمّنَ قولُه تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ كنايةً مشهورةً؛ إذ لفظُ (ويل) يدلّ على أشدِّ السّوء. ويقالُ: (ويلٌ له) للتّعجيب من شدّةِ سوءِ حالةِ المتحدَّثِ عنه، وهي هنا كنايةٌ عن شدّة عذابِ الكفّار في النّار[4].

سرُّ الإظهارِ موضعَ الإضمار:

الكفرُ سببٌ للظّنون وعلّةٌ لدخول النّار

عبّر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بالإظهار في مقامِ الإضمارِ؛ لنكتةِ الإشعارِ بعليّةِ صلةِ الموصول للحُكم؛ أي: إنَّ هذا الويلَ والهلاك لهم بسببِ كُفرهم. ولم يقلْ: (للّذين ظنّوا)؛ للإشارةِ إلى أنّ ظنَّهم القبيحَ هذا ما هو إلّا نتيجةُ كُفرِهم وجحودِهم للحقِّ[5].

دلالةُ ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾:

تنوّعُ المعاني الدّلاليّةِ بتنوُّعِ معاني الحروف

يجوزُ في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ ابتدائيّةً أوْ بيانيَّةً أوْ تعليليّةً؛ فعلى كونِها ابتدائيَّةً فالويلُ والهلاكُ

---

(1) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 24/ 370.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (ويل).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 372.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 249.
(5) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 155.

مُبتدَآنِ من ﴿ٱلنَّارِ﴾، وعلى كونها بيانيّةً فبيانُ الويل أنّه عذابُ النّار، وأمّا التّعليليّةُ فمعناها مفيدٌ عِلّيّةَ النّار في ثبوتِ الويلِ لهم صريحًا، بعد الإشعارِ بعِلّيَّةِ ما يؤدّي إليها من ظنِّهم الفاسدِ وكُفرِهم الفاحشِ؛ أي: فويلٌ لهم بسببِ النّار المُترتّبةِ على ظَنِّهم وكُفرِهم(1).

سرُّ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

النّارُ دارُ العِقاب للعُصاةِ والكفّار العُتاة

جاءَ لفظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ مُعرَّفًا بتعريفِ العَهْد؛ لأنّ المقصودَ بها دارُ العقابِ الموقَدة نارًا، الّتي أعدّها اللّه للعُصاة والكفّار، وقد حصلَ للعربِ العلمُ بها من أخبارِ أهلِ الكتاب، وبما نزلَ بعدَ ذلك من القُرآن(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخلْق والإنشاء والإيجاد والذَّرْء:

لا يَقدر على الإيجاد من العدم إلّا الخالقُ سبحانه

يظهرُ الفرقُ بينَ هذه الألفاظ في علاقةِ (العموم والخصوصِ)، إذ (الخلقُ) عامٌّ يشملُ الإيجادَ ويشملُ التَّقديرَ. وأمّا (الإيجادُ) فهو خاصّ بالإخراجِ من العدمِ إلى الوجودِ، وهو لا يكونُ إلّا للّهِ سُبحانه. وقد أُطلقَ (الخلقُ) في القرآنِ على إيجادِ الأشياء المعدومةِ؛ فهو إخراجُ الأشياءِ من العدمِ إلى الوجودِ إخراجًا لا صَنعةَ فيه للبشر، وصارَ ذلك مدلولَ مادّةِ (خلقَ) في اصطلاحِ أهل الإسلام، وخصَّ اسمُ (الخالقِ) به تعالى؛ فلا يُطلَقُ على غيره، ولو أطلقَهُ أحدٌ على غير اللّه تعالى بناءً على الحقيقة اللُّغويَّة لكانَ إطلاقُه عجرفةً، فيجبُ أنْ يُنبَّهَ على تركِه(3). قال الغزاليُّ في (المقصد الأسنى): "وأمّا الخالِق البارئ فلا مدْخلَ للعَبد أيضًا في هذَيْن الاسمين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 372، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 224، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 24/ 370.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 249.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 327.

إلّا بِنَوْعٍ من المجاز بعيدٍ، ووَجهُهُ: أنَّ (الخلق والإيجاد) يرجعُ إلَى اسْتِعْمالِ القُدْرَةِ بموجَب العلم، وقد خلق اللّه تعالَى للعَبد علْمًا وقدرةً، وله سَبيلٌ إلَى تَحْصيلِ مَقدوراته على وفْق تَقْديرِه وعلمِه"[1].

وأمّا (الإنشاءُ) فهو إيجادُ الشَّيءِ معَ تربيتِهِ، وأكثرُ ما يقالُ ذلك في الحَيَوانِ. قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [الملك: 23][2]. وأمّا (الذَّرْءُ) فيتميّزُ بملمَحِ الخلْقِ للتّكثير، ومعناهُ في اللّغةِ البَذْرُ والزّرعُ، ومنهُ (الذُّرّيَّةُ) في رَأْيِ مَن يَرى أنّ الذُّرّيّةَ أصلُها الذَّريئَةُ[3].

وقد أوثر في الآية لفظُ (الخلق)؛ لتعلّقِه بإيجادِ السّماواتِ والأرضِ من العدَم، ولا يقدرُ على ذلك إلّا الربُّ سُبحانه.

النّار وجهنّم والجحيم والسَّعير:

تـعـدُّدُ أوصـافِ النّارِ بما يُناسِبُ الـسّـيـاقَ من الوعيدِ

يتّضحُ الفرقُ بين هذه الألفاظِ في كون (النّار) اسمَ جنسٍ لمادّةِ الإحراقِ، وأمّا (جهنّمُ) فهي علَمٌ على دارِ العِقاب الموقَدةِ نارًا، وهي من قولِ العربِ: (ركيّة جهنّم)؛ أي: بعيدةُ القَعْرِ، فيَصفون جهنّمَ أنّها كالبئرِ العميقةِ المُمتلئةِ نارًا. أمّا (السّعير) فهو الالتهابُ، وهو فعيلٌ بمعنى مفعول؛ أي: مسعورٌ؛ أي: زيادةُ الوقود في النّار، وهو معامل معاملةَ المذكَّر؛ لأنّه من أحوال اللّهب، وقد يُطلَقُ علَمًا بالغلَبة على (جهنّمَ)، وذلك على حذفِ مُضافٍ؛ أي: ذاتُ سَعير. وأمّا (الجحيم) فهو أيضًا من أوْصاف النّار، وأصلُ الجَحيم النّارُ العظيمةُ تُجعلُ في حُفرةٍ ليدومَ لهيبُها. يقال: نارٌ جَحْمَةٌ؛ أي: شديدةُ اللَّهَب[4].

وقد أوثر في الآية لفظُ ﴿ٱلنَّارِ﴾؛ لعمومِه ومراعاةِ الفاصلةِ القرآنيّة.

---

(1) أبو حامد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، ص: 79.
(2) الراغب، المفردات: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذرأ).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 271، 7/ 13، 18/ 332.

﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨﴾ [ص: 28]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

مِنَ الحِكمَةِ عدمُ المُساواةِ بينَ جَزاءِ المُؤمنينَ والكافرينَ

لمّا بيّنَ اللّه تعالى في الآيةِ السّابقة على سبيلِ الإجمالِ أنّ إنكارَ الحَشْرِ والنّشْرِ يوجِبُ الشّكَّ في حِكمةِ اللّه تعالى بخلقِهِ السَّماءَ والأرضَ وما فيهما من آياتٍ باهرةٍ وحِكَمٍ عجيبةٍ ودلائلَ متينةٍ ذكَرَ في هذه الآية - على سبيلِ التّفصيلِ - الفرقَ بينَ جَزاءِ المؤمنينَ والكافرينَ[1]؛ إذ التَّشكيكُ بيومِ الحسابِ يؤدّي إلى التَّساوي بينَ مصيرِ المؤمنين باللّه تعالى والكافرينَ به، مع أنَّ المؤمنين قد تعرّضوا بإيمانهم إلى الإيذاءِ والتَّعبِ واحتمالِ المشاقِّ لنيل رضا ربِّهم والرّاحة في الدّار الآخرة، والكافرينَ قد تقلَّبوا في البلاد وتلذّذوا بصوَرِ الفساد، فأمرٌ بديهيٌّ أنْ لا يكونَ الموتُ خاتمةَ المَطاف، بل لا بدَّ من العدل والإنصاف، وإلّا لكانتِ الحياةُ عبثًا وباطلًا، واللّهُ تعالى منزّهٌ عنهما؛ فكيفَ يُقِرُّ المشركونَ بربوبيّته ويَنسبونَهُ إلى الجهل والعبَث واللّعب؟!

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿كَٱلۡفُجَّارِ﴾: أصلُ الفُجور: المَيْلُ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ. ومنه قَوْلُهم في الدُّعاءِ: (ونَتْرُكُ مَنْ يَفْجُرُكَ)؛ أي: يَخْتَلِقُ الكَذِبَ عليك[2]. ويُقال: أَفْجرَ الرَّجُلُ، إذا جاءَ بالفَجَر، وهو المالُ الكثير، وأَفجَرَ إذا كذَبَ، وأفجَرَ إذا عَصَى بِفَرْجِه، وأفجَرَ إذا كفَرَ، ومثلُهُ فَجَرَ وفَجَّرَ[3]. وفاعلُ الفُجورِ: فاجِرٌ، والجمعُ: فُجّارٌ[4]. وهم الَّذينَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 388.

(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فجر).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (فجر).

(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (فجر).

شِعارُهم الفُجورُ، وهو أشدُّ المَعصيةِ، والمُرادُ به: الكُفرُ وأعمالُه الَّتي لا يُراقِبُ أصحابُها التَّقوى[1].

المَعنى الإجماليُّ:

لا يَستوي عندَ اللهِ المؤمنونَ والمُفسِدونَ

يُبيِّنُ الحقُّ تعالى أنَّ حِكمتَه اقتضَتْ عدمَ المساواةِ بينَ الأخيارِ والأشرارِ، فيقولُ سبحانه: بلْ أنجعَلُ الَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي؟! بلْ أنجعَلُ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعذابَه بفِعلِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِه؟! كلّا؛ فأولئك لا يَستَوونَ عندَ اللهِ، ولا بُدَّ أن يُجازيَ كُلًّا منهم بما يَستَحِقُّه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ العطفِ بـ ﴿أَمْ﴾:

عدمُ استواءِ المؤمنينَ والكافرينَ في الجزاءِ

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بحرفِ العطفِ ﴿أَمْ﴾، وهي مُنقطِعةٌ غيرُ مُتَّصِلةٍ بما قبلَها البتَّةَ، وهي تُفسَّرُ بالحرفينِ: (بل وهمزةِ الاستفهام)، والتَّقديرُ: (بلْ أنجعلُ..؟)، ومعناها الإضرابُ الانتقاليُّ من نفيِ العَبَثِ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ إلى عَدَمِ العَبَثِ في خَلْقِ النّاسِ بإنكارِ المُساواةِ بينَ الصّالحينَ منهم والمُفسدين، وعَدمِ استواءِ المُؤمنينَ والكافرينَ في العَواقِبِ؛ ليكونَ مُقرّعًا لهم على إنكارِ البَعثِ والحِسابِ، الَّذي يلزمُ منه تجهيلُ الخالقِ وعبثيّتُه وعدمُ حِكمتِه!

بلاغةُ الاستفهامِ في الآيةِ:

يَتجلّى في قَوْلِه تَعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 250.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 79، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 63.

التّعجيبُ مِن حماقةِ المُشركينَ في جَعْلِهمُ المؤمنينَ كالكافرين

﴿كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أسلوبُ الاستفهام الإنكاريِّ الّذي تَقتضيهِ ﴿أَمۡ﴾ المُنقطِعة، والغرضُ منه الإنكارُ والنّفيُ، إذِ المعنى: أنّه لو بطلَ الجزاءُ كما يقولُ الكافرون لاستوتْ عندَ اللّه تعالى أحوالُ مَن أصلحَ وأفسَدَ، واتّقى وفجَرَ، وذلك مُنافٍ للعدلِ والحِكمة، فأنكرَ أنْ يكونوا سواءً عندَ اللّه ﷻ، ولمّا لم يُجازِ كلَّ فريقٍ على عمَلِه بما يَستحِقُّه في هذه الحياةِ الدّنيا - لأنَّ المُشاهَدَ من حال النّاس خلافُ ذلك - تعيّنَ أنْ يكون الجزاءُ في عالَمٍ آخرَ، وهو الّذي يسلكُ له النّاس بعدَ البعث. كما أنّ في الاستفهام عن دعوى المشركينَ بصيغة الإنكارِ أثرًا في تلقّي السّامعِ هذه الدّعوى بمزيدِ الاشمئزازِ والتعجُّبِ مِن حماقةِ أصحابِها[1].

سرُّ إيثارِ فعلِ الجَعْلِ:

الحُكمُ بالتّسويةِ مُنافٍ للحِكمةِ

أوثر في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ (جَعَلَ)، وهو لفظٌ عامٌّ في الأفعالِ كلِّها، وهو أعمُّ من الأفعالِ (فعلَ وصنعَ) وسائرِ أخواتِهما، ويَتصرّفُ على خمسةِ أوجُهٍ حسبَ السّياقِ الّذي يَرِدُ فيه[2]، وهو في هذه الآيةِ بمعنى الحُكم بالشّيءِ على الشّيءِ، ففي الآيةِ إنكارُ الحُكم بالتّسويةِ بينَ المؤمنينَ والكافرينَ، ونفيٌ لتصييرِ المؤمنينَ بمنزلةِ المُفسدينَ بسببِ عدم مُكافأتِهم على ما بذَلوهُ، وبالتّسويةِ بينَهم بالموتِ الّذي هو النِّهايةُ عندَ المُشركينَ.

دلالةُ المُضارَعةِ وضميرِ التّعظيمِ في ﴿نَجۡعَلُ﴾:

حكمةُ العظيمِ تمنعُ التّسويةَ بينَ الصّالحينَ والمُفسِدين

جاءَ الفعلُ ﴿نَجۡعَلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مضارعًا مُسنَدًا إلى ضميرِ العظمةِ؛ للدَّلالة على تعظيمِ المتكلِّم سُبحانه وعُلوّ قدرِه، وفيه أيضًا

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 90، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 249.
(2) الراغب، المفردات: (جعل).

إدخالُ المَهابةِ في قلوبِ العباد، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ العظيمَ تأبى له عظمتُه وحكمتُه التّسويةَ بينَ عباده المؤمنينَ الصّالحينَ وبينَ الكافرينَ المُفسدينَ من خلقِه[1]. وقد دلّتْ صيغةُ المضارع ﴿نَجۡعَلُ﴾ على التَّجدُّد الاستمراريّ؛ إذ الموتُ مصيرُ المُكلَّفين، فإنْ كان نهايةَ المَطاف فإنَّ الجعلَ واقعٌ على سبيلِ الاستمرار، وذلك لا يليقُ بحِكمةِ الجبّار.

علّةُ التّعبيرِ بالموصولِ في النّظْم:

إيمـانُ المؤمنين سببُ استحقاقِهمُ المدحَ مِن ربِّ العالَمين

عُبِّرَ في قولِه تَعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصِلَتِه ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دونَ الاسمِ الظّاهر (المُؤمنينَ أوِ المُصلحين)؛ لعمومِ الموصول وإبهامِه المُحتاجِ لجملةِ الصِّلة، الَّتي تفيدُ البيانَ بعدَ الإبهامِ والتَّوضيحَ بعدَ الإغماض، وللتّنبيهِ على علّةِ الحُكم، والإيماءِ إلى وجهِ عدمِ التّسويةِ بينَهم وبينَ المُفسِدين، إذ إيمانُ المؤمنينَ بربِّ العالمينَ وحرصُهُم على الأعمالِ الصّالحةِ علّةٌ لعدمِ تسويتِهِم بالكافرينَ المُفسِدينَ.

دلالةُ الفعلِ الماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقّقُ إيمانِ المؤمنين في الدّنيا ورُسوخُهم فيه

ورَدَ في قوله تَعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بصيغةِ الماضي؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ إيمانِ المؤمنين في دارِ الدّنيا، ورُسوخِ هذا الوصفِ فيهم؛ وذلك لأنّ الإخبارَ عن الشّيءِ بصيغةِ الماضي يَقتضي تحقُّقَ الخبر، ويَقتضي كونَ المُخبَرِ عنه مُتقدِّمًا على ذلك الإخبارِ[2].

دلالةُ اقترانِ الإيمانِ بالعَمَلِ الصّالِح:

عُطِفَ العملُ الصّالحُ على الإيمانِ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ تنبيهًا على فضيلةِ العمَلِ الصّالِحِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 370، والشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.

التّنبيهُ على فضيلةِ العملِ الصّالحِ بذِكْرِه مرّتينِ إشارةً وعِبارةً

بذِكْرِهِ مرَّتينِ: مُندرِجًا تحتَ لَفْظِ الإيمانِ - بناءً على أنَّ حقيقةَ الإيمانِ قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، وهذه دلالةُ إشارة - ومُنفرِدًا، وهذه دلالةُ عبارة؛ وذلك لعدَمِ التّهاونِ فيه، وللتّحذيرِ من الظّنّ بأنّ الإيمانَ كافٍ دونَ عمَلِ الصّالحات، أوْ مِن عطفِ المُغايِرِ بناءً على أنَّ الإيمانَ هو التَّصديقُ، والعملُ خارجٌ عن حقيقتِه، فيكونُ في العطف دلالةٌ على أنَّ مَن جمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ كان مُصلِحًا في الأرض.

سرُّ إيثارِ لفظِ (عملوا) دونَ غيره:

قصدُ المؤمنين إلى الأعمالِ الصّالحةِ والدّأبِ عليها

أوثر في قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التّعبيرُ بالفعل (عَمِلَ) دون غيره كـ(فعَلَ) مثلًا؛ لأنّ المؤمنَ يَقصِدُ إلى الأعمالِ الصّالحات، والعملُ لا يكونُ إلّا بقصد؛ فهو أخصُّ من الفعل[1]، كما يُطلَقُ الفعلُ (عمل) على مُعالجةِ الشّيءِ والدَّأبِ عليه، والمؤمنونَ يَجتهدونَ ويَدأبونَ على عمَلِ الصّالحاتِ.

نكتةُ حذفِ الموصوفِ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

التّرغيبُ في الصّلاحِ ذاتِه

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إيجازٌ بالحذف، فـ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوف، والتّقدير: وعَملوا الأعمالَ الصّالحاتِ[2]، والقرينةُ على تعيينِ المحذوف هو الفعلُ (عَمِلوا)، واكتفي بالقرينة عن التّصريح بالموصوفِ؛ اقتصادًا في اللَّفظ وإيجازًا في التّركيب، ونكتةُ ذلك تنزيلُ الصّفةِ منزلةَ الموصوف؛ لتتّجهَ الأذهانُ نحوَ الصّلاحِ نفسِه، وهذا أشدُّ أثرًا وأرسخُ في الحثِّ والتّرغيب.

دلالةُ التّعريف في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

الحثّ على استغراقِ الأعمالِ الصّالحةِ جميعًا

يجوزُ أنْ تكونَ (اللّامُ) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للاستغراقِ بقرينةِ دخولِها على الجمعِ فتفيدُ العمومَ والشُّمولَ، وفي ذلك ضربٌ من المبالغةِ في مدحِ أهلِ الإيمان، حتّى

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 4/ 359.

كأنّهم ما تركوا عملًا صالحًا من الأعمالِ إلّا عَمِلوه بالفعلِ أوْ بالنّيّة، وفيه إشارةٌ وحثّ على اغتنام الأعمالِ الصّالحة جميعًا، وأنْ لا يحْقِرَ المسلمُ من المعروفِ شيئًا، فلا يعلمُ العبد أيَّ عملٍ تكونُ به نجاتُهُ.

دلالةُ جمعِ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

شأنُ المؤمنين الصّادقين الاجتهادُ في الاستكثارِ منَ الصّالحات

جاءَ لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ من قولِه تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بصيغة الجمع، وفي ذلك إيماءٌ إلى الإتيانِ بها بأنواعِها دونَ الاكتفاء ببعضِها، فأعمالُ الخير كثيرةٌ، وينبغي للمؤمنِ الحرصُ على الاستكثارِ منها والاجتهادِ في طلَبِ أعلاها أجرًا.

نكتةُ المُغايرة في التّعبيرِ بينَ الفريقين:

تحقُّقُ الصَّلاحِ في المؤمنين، وثبوتُ الإفسادِ في الكافرين

يُلاحَظُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنّه عبّر عن المؤمنينَ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، ووصلَهُ بالفعلين ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وعبّر عن الكافرينَ بالوصف (المفسدين)؛ وذلك لأنّ الفعلَ يقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ والتَّحقُّقَ، والوصفَ يقتضي الثُّبوتَ، فالمؤمنونَ لا ينفكّون يعملونَ الصّالحاتِ، ويتجدّد منهم ذلك كلّ وقتٍ ويتحقّق، وأمّا في جانب الإفسادِ فالمرادُ مَن ثبتَ على فسادِهِ؛ لما في اسم الفاعل من الدّلالةِ على ثبوتِ صفةِ الإفسادِ في المذمومينَ به، ورُسوخ هذه الصِّفة فيهم، فهم مطبوعونَ على الفساد والإفساد[1]. ولئلّا يَدخُلَ فيه مَن أفسدَ وتابَ؛ فإنّه من فريق المؤمنين[2].

بلاغةُ الاكتفاءِ في الآيةِ:

ذكرُ الأهمِّ في كلّ فريق تعليلٌ لعدمِ التَّسوية

يُلحَظُ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ التَّعبيرُ بظاهرةِ الاكتفاءِ البديعيّ[3]؛ إذ حُذف في جانبِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لفظُ (المُصلحين)

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 373.
(2) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 371.
(3) الجرجانيّ، التعريفات، ص: 12.

بقرينةِ ذكرِ (المُفسِدين)، وحُذف (الَّذين كفروا وعصَوا) في جانبِ (المفسدين) بقرينةِ ذكرِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: الحذفُ من الأوّل لدلالة الثّاني وبالعكس، والسِّرُّ في ذلك بيانُ أنَّ الإصلاح في الأرض يكونُ بالإيمان والعملِ الصّالح، وأنَّ الإفساد في الأرض يكونُ بالكُفر والعِصيان، واقتصرَ في كلِّ فريق على الأهمِّ فيه تفصيلًا وإجمالًا؛ إذ فصّل في الإيمانِ والعمل الصّالح لأنّه يحتاجُ إلى مكافأةٍ، وأجملَ في الإفسادِ في الأرض لأنّه بيانٌ لوجهِ العقوبة، فلا يمكنُ إنكارُ البعث والحسابِ، وإلّا لزمَ نفيُ الحكمة بالتَّسويةِ بينَ الباذلين الجهدَ والمُتنعّمينَ بالإفسادِ في الأرضِ. أو أنّه ذكر أدنى الإيمانِ تنبيهًا على شرفِه، وأنّه سببُ السّعادة وإنْ كان على أدنى الوجوهِ، وذكرَ أعلى أحوالِ الفَساد إشارةً إلى أنّه يغفرُ ما دونَ ذلك لِمَن يشاء، وذكر أعلى أحوالِ التَّقوى إيماءً إلى أنّه لا يوصَفُ بها ويَستحِقُّ جزاءَها إلّا الرّاسخُ فيها؛ ترغيبًا للمؤمن في أنْ يترقّى إلى أعلى دَرَجاتها[1].

وجهُ تقديمِ المؤمنينَ على المُفسِدين:

العنايةُ بالمؤمنينَ وتشريفُهم، وإهمالُ المفسدينَ وتحقيرُهم

تقدّم في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ذكرُ المؤمنينَ على المفسدينَ لنكتةِ الاهتمام؛ إذ بدأ بالمؤمنين اعتناءً بهم وتشريفًا لهم، وأخّرَ المُفسدينَ إهمالًا لهم وتحقيرًا لشأنِهم.

دلالةُ التّشبيه في الآية:

وردَ في قولِه تعالى: ﴿كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ استعمالُ حرفِ (الكاف) الدّالِّ على التَّشبيهِ المقتضي للتّسويةِ بين الفريقين. والمعنى: إنكارُ المُساواةِ والمشابهةِ في الجزاءِ بينَ الَّذين آمنوا وعمِلوا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 373.

الصّالحات وبينَ المُفسدينَ في الأرض؛ فالتّسويةُ بينَهما لا يشكُّ عاقلٌ في فسادها ومُنافاتها للحكمة[1]. وإنَّما اقتصرَ النَّظمُ على إنكارِ المُشابهة في الجزاءِ؛ لأنَّ لازمَ مدّعى الكافرين بإنكارهم الحسابَ المساواةُ بين المؤمنين وغيرهم في المصير؛ إذ بالموتِ ينتهي المشهدُ بأكملِه، فلا مكانَ للجزاء ولا يومَ للحساب على الإيمان والكفران، والعملِ الصّالح والعملِ المُفسِد، فجاء النَّظمُ بنفيِ المساواةِ فقط دونَ بيانِ علوِّ منزلةِ المؤمنين وسفالةِ منزلةِ الكافرينَ.

نفيُ التّسويةِ بينَ المؤمنين والمُفسِدينَ

بقي أنَّ انتفاءَ اللّازم يستلزمُ انتفاءَ الملزوم، ويلزمَ مِن دعواهم إنكارَ يوم الحساب التَّسويةُ بين مصيرِ المؤمنين وغيرهم، وإذا ثبت انتفاءُ التَّسويةِ اللّازمة ثبت انتفاءُ الملزوم وهو دعوى الإنكار، وعلّةُ الانتفاءِ لزومُ تجهيلِ الحكيم تعالى، وذلك لا يصدرُ من عاقلٍ.

معنى حرف الجرّ ﴿فِي﴾:

كفرُ الكافرينَ يؤدّي إلى فسادِ الأرض وإفسادِ مَن فيها

استُعمِلَ في قَوْله تَعالى: ﴿كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ الدّالُّ على الظّرفيّة المكانيّة، والنّكتةُ في ذلك الإشارةُ إلى أنّ إفسادَ الكافرينَ يتغلغلُ في الأرضِ ويتجذّر فيها، حتى إنَّ الأرض لتفسُدُ بفسادِهم؛ فكيف بمَن فيها؟!

سرُّ تكرارِ ﴿أَمۡ﴾ العاطفة:

الارتقاءُ في الاستدلالِ على مُنكِري البَعْثِ والجزاء

يُلاحَظُ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ تكرّرُ لفظِ ﴿أَمۡ﴾، وهي هنا منقطِعةٌ أيضًا، ومُفادُها إضرابُ انتقالٍ ثانٍ؛ للارتقاءِ في الاستدلال على أنّ الحِكمةَ الربّانيَّةَ بمُراعاة الحقّ وانتفاءِ الباطلِ في الخلق تقتضي الجزاءَ والبعثَ لأجله. ومعنى الاستفهامِ الّذي تقتضيهِ ﴿أَمۡ﴾ الثّانيةُ الإنكارُ كالَّذي اقتضته ﴿أَمۡ﴾ الأولى، وهذا الارتقاءُ في الاستدلالِ لقصد زيادةِ التّشنيع على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 249.

مُنكري البعث والجزاء؛ بأنّ ظنّهم ذلك يقتضي جَعْلَ اللهِ المتَّقينَ مُساوينَ للفُجّار، وذلك ما لا يقوله عاقل[1].

دلالةُ الآيةِ بينَ التّكرير والتّأسيس:

التَّقْوَى وصفُ المؤمنينَ والفجورُ وصفُ الكافرين

يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ تكريرًا أو تأسيسًا، فقد تكون الآيةُ تكريرًا للإنكارِ الأوّلِ باعتبارِ وصفَينِ آخرَينِ هما أدخلُ في إنكارِ التَّسويةِ منَ الوصفينِ الأوّلين، وهما التَّقْوَى وصفُ المُؤمنينَ والفجورُ وصفُ الكافرين، فيَمنعانِ التَّسويةَ من الحكيم كما يمنعُ الوصفانِ الأوّلانِ؛ ففيه مُبالَغَةٌ.

وقد تكونُ هذه الآية تأسيسًا، فيكونُ الإنكارُ الأوّل بينَ المؤمنينَ والكافرينَ، والإنكارُ الثّاني بين المُتّقين من المؤمنين والفجّارِ منهم، ولذا قال ابن عبّاس: الآيةُ عامّةٌ في جميعِ المسلمينَ والكافرين. والقولُ الأوّلُ أرجحُ؛ لأنّ حملَ الفجّار على فجرةِ المؤمنين ممّا لا يساعِدُهُ المقام، والكَلام مسوقٌ لردِّ ظنّ الكفّار المذكور[2].

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

التّقوى تركُ المحظورات وبعضِ المباحات

عُبّر في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ بوصفِ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وهو اسمُ فاعل مجموعٌ من (التّقوى)، وهي في عُرفِ الشّرع: حِفْظُ النّفسِ عمّا يُؤَثِّمُ، وذلك بتركِ المحظور، ويتمّ ذلك بترك بعض المُباحات[3]، والمقصودُ مدحُ الرّاسخينَ من المؤمنينَ في التَّقوى الموجِبةِ للتَّوقّف عن كلّ ما لم يدلَّ عليه دليلٌ[4].

سرُّ التّعبير عن (المؤمنين) بالفعل، وعن ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ بالوصفِ:

ثبوت التّقوى وتجدّدُ الإيمان زيادةً ونقصانًا

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ عن التّقوى بالوصف ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وعن الإيمانِ والعمل الصّالح بالفعلِ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 250.

(2) الخطيب الشّربينِي، السِّراج المنير: 3/ 411، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 181.

(3) الرّاغب، المفردات: (وقى).

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 373.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنّ الفعل يقتضي التَّجدّدَ والحدوثَ، والوصفَ يقتضي الثُّبوتَ والرّسوخ، فالتّقوى أمرٌ اعتقاديٌّ تجدُّدُه خفيٌّ غيرُ ظاهر، وهو أقربُ للثُّبوت؛ وأمّا الإيمانُ والعملُ الصّالح فهو أمرٌ فعليّ يتجدّدُ شيئًا فشيئًا، ويزيدُ وينقُصُ، وتجدّدُه ظاهرٌ يدركُ بالحِسّ[1]. كما أنَّ مَن آمن وعمل صالحًا فإنَّه مُتَّقٍ، ومَن أفسدَ في الأرض فإنَّ فسادَهُ بسببِ فجورِه.

بلاغةُ (التّشبيهِ المقلوبِ) في الآية:

المبالغةُ في إنكارِ مُشابهةِ الكافرينَ للمُؤمنين

جعلَ بعضُ العلماء قولَهُ تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ من قبيلِ (التّشبيه المقلوب)، وظاهرُ الكلام: (أم نجعلُ المفسدين كالمُصلحينَ، أم نجعلُ الفجّارَ كالمُتّقين)، والغرضُ من ذلك إنكارُ مُشابهةِ الكافرين للمؤمنينَ؛ إذ لا وجهَ لعَكْسِه؛ والمرادُ نفيُ التَّشابُه لا التّشبيه، ووجهُ العدولِ عن ظاهر الكلامِ أنّ الكفّارَ لَمّا ظنّوا أنّ اللّه خلقَ السّماءَ والأرض وما بينَهما باطلًا جعلوا المؤمنينَ كالمفسدينَ في عدمِ المُؤاخذة[2]، فكان الرَّدُّ على وفْقِ دَعواهم.

نكتةُ الإطنابِ في الآيةِ:

زيادةُ التّهويلِ بفَضْحِ أمرِ الضّالّين

جاءتْ هذه الآية على أسلوبِ الإطناب، والمقصودُ منه زيادةُ التّهويلِ والتّفظيع على الّذينَ ظنّوا ظنًّا يُفضي إلى أنّ اللّه قد خلقَ شيئًا من السّماءِ والأرض وما بينَهُما باطلًا؛ فإنّ في الانتقالِ من دلالةِ الأضعفِ إلى دلالةِ الأقوى، وفي تكرير أداةِ الإنكار شأنًا عظيمًا في فضحِ أمرِ الضّالّين[3]. ولا يبعدُ أنَّ هذا الإطنابَ قد حقّقَ فوائدَ عدَّةً، منها كونُهُ بيانًا تعليليًّا لسرِّ إصلاحِ المُصلحين في الأرض وإفسادِ

(1) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 372.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 398.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 250.

المفسدينَ فيها؛ بأنَّ تقوى المؤمنينَ علَّةُ الإصلاح، وفجورَ المفسدينَ علّةُ الإفساد، وأنَّ شأنَ المؤمنين التَّقوى وشأنَ الكافرين المفسدينَ الفجورُ، كما أنَّ المتَّقيَ يتحمّلُ المغريات بسببِ تقواه ويتعبُ، والفاجرَ يتفلّتُ من كلِّ رادعٍ ومانع؛ فكيف يستويانِ يومَ الحِساب؟!

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُجور والفِسق والفُحْش:

عـمـومُ الفجور في كلِّ مَيْلٍ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ

يظهرُ الفرقُ بين هذه الألفاظِ في علاقة العمومِ والخصوص، فالفُجور عامٌّ في كلِّ مَيْلٍ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ. ولهذا يُقال: أفْجَرَ الرَّجُل إذا كذَبَ، وأفجَرَ إذا عصى بِفَرْجِه، وأفجَر إذا كَفَر[1]. فالفجورُ يشملُ الاعتقادَ واللِّسانَ والعملَ، وأمّا الفسقُ فأصلُهُ في اللّغة الخروجُ، ومعناه اصطلاحًا: الخروجُ من طاعةِ اللّه بارتكابِ الكبائر، فهو خروجٌ مذمومٌ. وأكثر ما يقالُ (الفاسِقُ) لَمِن التزمَ حكمَ الشّرع وأقرّ به، ثمّ أخلَّ بجميع أحكامِهِ أو ببعضِها[2]. ويكون غالبًا خاصًّا بالأفعال. وأمّا (الفُحشُ) فيدُلّ على قُبحٍ في شيءٍ وشَناعةٍ[3]؛ لمُجاوزتِهِ الحدَّ مع تكرُّهٍ له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفاحشةُ والفَحشاءُ: ما عظُمَ قبحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ[4]، وكلُّ ما حرَّمَهُ الشّرعُ فهو فاحِشٌ، لكنَّه غالبًا مختصٌّ بالأقوالِ.

وقد أوثر في الآية لفظُ (الفجّار)؛ لعمومِهِ ومُناسبتِهِ في مقابلة ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وكذلك لمراعاةِ الفاصلةِ القرآنيَّة.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (فجر).
(2) الراغب، المفردات: (فسق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فحش).
(4) الراغب، المفردات: (فحش).

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٢٩﴾ [ص: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

القرآنُ الكريمُ تدبُّرٌ وتذكُّرٌ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ الإيمانَ والتّقوى أحالَ في طلبِهما على كتابِه العزيز، فهو الّذي يُرشِدُ إلى مثل هذه المقاصدِ الشّريفة، وهو منبَعُ السّعادات والخيراتِ[1]. أو لمّا ذكرَ أنَّ خلق السّماءِ والأرض بما فيهما من أسرارٍ وأحوالٍ عجيبةٍ مُستلزمٌ لحكمةِ الخالق، وأنَّ من حكمتِهِ عدمَ التَّسويةِ بين المصلِحينَ والمُفسِدين بيَّنَ أنَّ القرآن الكريم أيضًا كالكونِ المنظورِ هدايةٌ مسطورةٌ لمَن أرادَ التَّدبُّرَ في أسرارِ آياتِهِ الدّالّةِ على حكمةِ المنزِلِ سبحانه، وموعظةٌ لمَن أرادَ التَّذكُّرَ بما يعرِضُ عليه من نسيانِ يومِ الحساب والجزاءِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُبَٰرَكٌ﴾: أصلُ (برك) يدلُّ على ثَباتِ الشَّيءِ[2]. والبَرْكُ: صدرُ البَعيرِ وإنِ استُعمِلَ في غيرِه، ويقالُ له: بركةٌ، وبَرَكَ البعير: ألقى بركَهُ، فاعتُبِر منه معنى اللُّزوم والثَّبات. والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. والمُبارك: ما فيه ذلك الخيرُ؛ ولمّا كان الخَيرُ الإلهيُّ يَصدرُ مِنْ حيثُ لا يُحَسُّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصَرُ قيلَ لكلِّ ما يُشاهَدُ منه زيادةٌ غيرُ محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركةٌ[3]. والمقصودُ بـ(المُبارَك) في الآية: المُنبثَّةُ فيه البرَكةُ، وهي الخَير الكثيرُ، وكلُّ آياتِ القُرآنِ مُباركٌ فيها؛ لأنَّها إمّا مُرشِدةٌ إلى خيرٍ، وإمّا صارِفةٌ عن شرٍّ وفسادٍ[4].

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 502، والهرريّ، حدائق الروح والريحان: 24/ 373.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برك).

(3) الراغب، المفردات: (برك).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 251.

2) ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾: أصلُ (دبر) هو آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه، والتَّدبيرُ: النَّظَرُ في عاقِبَةِ الأمْرِ، وتَقْويمُه على ما يكونُ فيه صَلاحُ عاقِبَتِه، وأدْبارُ الأمورِ: عَواقِبُها[1]. يُقال: دَبَّرَ الأمْرَ: إذا ساسَهُ ونَظَرَ في عاقِبَتِهِ؛ ليقعَ على الوَجْهِ الأكْمَلِ[2]، والتَّدَبُّرُ: التَّفكُّرُ؛ أي: تَحْصيلُ المَعْرِفَتَيْنِ لتَحْصيلِ مَعْرِفةٍ ثالِثَةٍ[3]. والمقصودُ به في الآية: التَّفكُّرُ والتَّأمُّلُ الَّذي يَبْلُغُ بِهِ صاحِبُهُ مَعْرِفَةَ المُرادِ مِنَ المَعاني[4].

3) ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أصلُ (لُبّ) يدُلُّ على لُزومٍ وثباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجَوْدَةٍ. يُقال: ألَبَّ بالمكان، إذا أقامَ به، يُلِبُّ إلبابًا. ورجُلٌ لَبٌّ بهذا الأمرِ، إذا لازمَهُ[5]. واللُّبُّ: العَقْلُ الخالصُ من الشّوائبِ؛ وسُمّي بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسانِ من مَعانيه، فاللُّبُّ كلُّ شيءٍ، ولُبابُه: خالِصُه وخيارُه. وقيل: هو ما زكَى من العَقل، فكلُّ لُبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[6]. واللَّبيبُ: العاقلُ الفاهمُ. والمرادُ بـ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ هنا: أهلُ العُقولِ الزَّكيَّةِ السَّليمةِ الَّتي تخلَّصتْ من شوائبِ الهَوى، وارتقَتْ في معارجِ التَّفكيرِ.

المَعنى الإجماليُّ:

لا شيءَ أنفعُ للقلبِ من قراءةِ القُرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ

يُثْني اللهُ الحقُّ ﷻ على كتابِه المجيد، ويُبيِّنُ حكمةَ إنزالِه، فيقولُ: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك يا مُحمَّدُ ﷺ، وهودائِمُ الخَيرِ، غزيرُ العِلم، كثيرُ النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ، أنزَلْناه؛ ليَتدَبَّرَ النّاسُ آياتِه، فيَتفَهَّموا ويَتتَبَّعوا ظواهِرَ ألفاظِه ويتأمَّلوها، ويُكثِروا من إمعانِ النَّظَرِ وإعادةِ الفِكرِ فيها؛ ليَفهَموا ما وراءَها من المعاني والحِكَمِ والأسرارِ،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (دبر).
(2) إبراهيم مصطفى، المعجم الوسيط: (دبر).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (دبر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 252.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).
(6) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لب - لبب).

وليَتَذكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ ما غَفَلوا عنه، فيَرتَدِعوا عن كُلِّ ضَلالةٍ، ويَهتَدوا إلى الرَّشادِ في كُلِّ أمرٍ[1]. وتحَثُّ الآيةُ الكريمةُ الأمَّةَ على العِنايةِ بهذا الكتابِ العظيم والتزامِه؛ لأنَّه إذا كان مُبارَكًا فإنَّ كُلَّ أحدٍ مِن البَشَرِ يريدُ أنْ يَنالَ بَركةَ هذا الشَّيءِ المُبارَكِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ:

فصلُ الجملتين لكمالِ الانقطاعِ بينَهُما

جاءَ قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ مَفصولًا عمّا قبلَهُ؛ لوجودِ كمالِ الانقطاعِ بينَهما، وهو اختلافُ الجملتينِ اختلافًا تامًّا بحيثُ لا تكونُ بينَ الجملتين مناسبةٌ في المعنى ولا ارتباطٌ، بل كلٌّ منهما مُستقِلٌّ بنفسِه[2]، إذ بعدَ الإمعانِ في تهديدِ المُشركينَ وتجهيلِهم في إعراضِهم عنِ التَّدبُّرِ بحكمةِ الجَزاءِ ويومِ الحسابِ؛ أعرضَ اللّه عن خطابِهم، ووجّهَ الخطابَ إلى النَّبيِّ ﷺ بالثّناءِ على الكتابِ المُنزّلِ عليهِ[3]. وهذا الإعراضُ يشيرُ إلى أنَّ مَن تدبّرَ آياتِ هذا الكتابِ المبارك وتذكّرَ ما فيه من أحكامٍ وبراهينَ فإنّه لن ينسى يومَ الحسابِ لكثرةِ الدَّلائلِ الَّتي أشارَ إليها هذا الكتابُ مُثبتًا لهُ.

بلاغةُ الاستئنافِ الاعتراضيِّ في الآيةِ:

التّنويهُ بشأنِ القرآنِ

الجملةُ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ من قبيلِ الاستئنافِ الاعتراضيِّ؛ وذلك لأنّ في هذا الاستئنافِ نظرًا إلى قولِه في أوَّلِ السّورة: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1] والنّكتةُ في ذلك إعادةُ التّنويه بشأنِ القرآنِ، كما سيعادُ ذلك في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٌۚ﴾ [ص: 49][4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 80، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 192، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 712.

(2) القزوينيّ، الإيضاح: 3/ 107.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.

سرّ إيثارِ لفظِ (الكتاب) دونَ غيرِه:

حفظُ الله لكتابِه في الصُّدورِ والسُّطور

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ إطلاقُ اسم (الكتاب) على (القرآن)؛ للإشارةِ إلى أنّ اللّه سبحانه أنزلَهُ ليُكتَب، وأنّ الأمّةَ مأمورةٌ بكتابتِه، وإنْ كان نزولُهُ على الرّسولِ ﷺ لفظًا غيرَ مكتوب، ففيه إشارةٌ إلى أنّه سيُكتبُ في المصاحِفِ، وقد يكونُ المرادُ بـ(الكتاب) ما نزلَ من القرآنِ قبلَ هذه السّورة، وقد كتبَهُ كُتّابُ الوحيِ[1]، ويحتملُ أنّه أشارَ إلى نزولِه من مكانٍ كان مكتوبًا فيه؛ للدّلالةِ على أهميَّةِ ما فيه، حتى إنَّه كُتب في اللّوحِ المحفوظ، ووُضِعَ في مكانٍ مكرّمٍ؛ لينزلَ ويصيرَ كتابًا في الأرض يعتمدُهُ المؤمنون في حياتهم، ويسيرونَ على منهجِهِ وقوانينِه.

نكتةُ التّنكيرِ في ﴿كِتَٰبٌ﴾:

تعظيمُ الكتابِ الجامعِ لصفاتِ الكَمال

وردَ في قولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ نكرةً، والنّكتةُ التّعظيمُ، فهو كتابٌ عظيمٌ مشتمِلٌ على كلّ صفاتِ الكمال، ولا كتابَ يوصَفُ بالكمالِ المُطلَقِ سِواه. ولهذا إذا أُطلِقَ الكتابُ انصرفَ إلى القرآن؛ لأنّ المطلَقَ ينصرفُ إلى الفردِ الأكملِ، والأكملُ بين الكتبِ هو القرآن، لأنّه منَ اللّه تعالى بلفظِه ومَعناهُ[2]. ونلحظُ في التَّنكيرِ الإشارةَ إلى أنَّه نوعٌ خاصٌّ بينَ الكتب، إذ تنكيرُهُ يدلُّ على عجيبِ آياته وعظيمِ مَعانيه وأدلّتِه.

الأوْجُهُ الإعرابيّةُ في لفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾:

التّعليلُ بالوصفِ لثبوتِ الخبرِ للمُبتدأ

يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ أوجهٌ من الإعراب، إذ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ خبرَ مبتدإ محذوفٍ، والتّقديرُ: (هذا كتابٌ)، وجملةُ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ صفةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ لفظُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ مبتدأً، وقد سوّغَ الابتداءَ به وصفُهُ بجملةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، و﴿مُبَٰرَكٞ﴾ هو

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 160.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4645.

الخبر. ولك أنْ تجعلَ ما في التَّنكيرِ من معنى التَّعظيم مُسوِّغًا للابتداءِ، وتجعلَ جملةَ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ خبرًا أوّلَ و﴿مُبَٰرَكٌ﴾ خبرًا ثانيًا أو صفةَ ﴿كِتَٰبٌ﴾ عندَ من يُجوِّزُ تأخيرَ الوصفِ الصّريح عن غيرِ الصّريح[1]. والَّذي يترجَّحُ لدينا أنّ (كتاب) مبتدأٌ خبرُهُ ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، وجملةَ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ وصفٌ مُعلِّلٌ لثبوتِ البركةِ فيه؛ فيكون الوصفُ علّةً دالّةً على ثبوتِ الخبر للمبتدأ.

دلالةُ الوصف بفعلِ الإنزال مُعظّمًا:

كـلامُ العظيـمِ بركةٌ

أُسنِدَ فعلُ الإنزال في قَوْله تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ إلى الضَّمير (نا)، الّتي تدلّ على تعظيمِ المتكلّم سبحانه وعلوِّ قدرِه، وفيه أيضًا إدخالُ المَهابةِ في قلوب العباد، وفي ذلك إشارةٌ إلى عظمةِ القرآن الكريم بما لا يُحاطُ به، فكلام العظيم عظيمٌ[2]، فلا غرابةَ أن يكونَ النّازلُ بركةً وخيرًا عميمًا.

سرُّ إيثارِ الإنزالِ دونَ التَّنزيلِ:

الإنـزالُ يكـونُ جُملـةً واحـدةً، والتّنزيلُ يكونُ مُنجَّمًا

أوثِرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ التّعبيرُ بلفظ (الإنزال) دون (التّنزيل)، وقَدْ ذَهَبَ بعضُ العلماءِ إلى التَّفريقِ بينَ هذين المصدرين (أنزلَ إنْزالًا، ونَزَّلَ تَنْزيلًا) مِنْ حيثُ المعنى، فقالوا: إنَّ الإنزالَ يكونُ جُملةً واحدةً، والتّنزيلَ يكونُ مُنجَّمًا[3]؛ أي: غالبًا.

دلالةُ حرفِ الجرّ (إلى):

دلالـةُ تنـوّعِ حروفِ المعاني في البيانِ القرآنيّ

يدلّ حرفُ الجرّ (إلى) في قَولِهِ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾ على معنى الانتهاء، فالقرآنُ كتابُ اللّه سُبحانه نزلَ به المَلَكُ من العالَمِ العُلويِّ حتّى ينتهيَ إلى قلبِ الرّسولِ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشُّعراء: 193 - 194]. والأكثرُ في النّظم القرآنيّ أنْ يتعدّى فعلُ الإنزالِ بالحرفِ (على)؛ لأنّه في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 181، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 370، والشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 311.

معنى الهبوط من فوق؛ كقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: 3]، بمعنى: أنّ الشّيء استقرّ عند المنزّل عليه وتمكّن منه. واختيار إحدى التّعديتين تفنّنٌ في الكلام[1].

ولعلَّ اختيار (إلى) أنّه أُريد هنا تحديدُ نهايةٍ لارتباطِه بقضيّةِ الحكمة، الَّتي يريدُ هؤلاءِ الجاحدونَ نفيَها بإنكارِ الحشر والحساب، بأنَّ ما يفعلُه المولى تعالى لا يخرجُ شيءٌ منه عن الحكمة، والمناسبُ لمعناها أنْ يستعملَ (إلى) الدّالّة على جهةِ المقصِد والانتهاء دونَ معنى الإحاطةِ والتَّمكُّن.

وجهُ وصفِ القرآن بـ﴿مُبَٰرَكٌ﴾:

القـرآنُ الكريم سببُ كـلّ خيرٍ عاجلٍ أو آجلٍ

وُصِفَ أو أُسنِدَ إلى (الكتابِ) في قَولِهِ تَعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ أنّه ﴿مُبَٰرَكٌ﴾، ومعنى البَرَكَة: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ[2]. ولا شكّ أنّ البركة أجمعَها في القرآن؛ لأنّه يورِث الجنّة ويُنقذُ من النّار. وكُلُّ آياتِ القرآن مباركٌ فيها؛ لأنّها إمّا مُرشدةٌ إلى خير، وإمّا صارفةٌ عن شرٍّ وفساد، وذلك سببُ الخير في العاجِلِ والآجلِ، ولا بركةَ أعظمُ من ذلك[3].

معنى (اللّام) في قوله: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾:

إنـــزالُ الـقـرآن للتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ لا لمجرَّدِ التّلاوة

اللّامُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ هي لامُ (كي)، وهي دالّةٌ على التّعليل، والمعنى: أنّ اللّه سبحانه أنزلَ القرآنَ ليتفكّرَ النّاسُ في آياتِهِ بالفِكر السّليم، فيَعرفوا ما يتبَعُ ظاهرَها من المعاني الفائقة، والتَّأويلات اللّائقة. وفي الآية دليلٌ على أنّ اللّه سبحانَه إنّما أنزلَ القرآن للتَّدبُّرِ والتَّفكُّر في معانيه، لا لمجرَّد التّلاوة بدون تدبُّرٍ فيها. وكذلك ظاهرُ هذه الآية يُعطي أنّ التّرتيل أفضلُ من الهَذِّ، إذِ التّدبّرُ لا يكونُ إلّا معَ التّرتيل[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 239.

(2) الراغب، المفردات: (برك).

(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 04/ 502، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 251.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 153، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 04/ 503، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 373.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ (يَدّبّروا):

تـدبُّـرُ الآيـات الـتَّـفـكُّـرُ فيها والـتَّـأمُّـلُ في مَعانيها

عُبِّرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بالفعل (يدَّبّروا)، وهو من التَّدبُّرِ المشتقِّ من الدُّبُر؛ أي: الظّهرِ، فقالوا: تَدَبَّرَ إذا نظرَ في دُبُرِ الأمر؛ أي: في غائبِهِ أوْ في عاقبتِهِ، فهو من الأفعالِ الّتي اشتُقَّتْ من الأسماءِ الجامدة. وتدبُّرُ الآيات: التَّفكُّرُ فيها والتَّأمُّلُ الّذي يؤدّي إلى معرفةِ ما يتبعُ ظاهرَها من التّأويلاتِ الصَّحيحة والمعاني الحسَنة.

توجيه القراءات في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ وبلاغتها:

إثـــراءُ المعـاني الدّلاليَّة بتنوّع الــــقــــراءاتِ القرآنيّة

تنوّعتِ القراءة في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، فقرأ الجمهور ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ بياءِ الغَيبةِ وتشديدِ الدّال. وقرأ أبو جعفر ﴿لِّتَدَبَّرُوٓاْ﴾ بالخطابِ مع تخفيف الدّال[1]. وأصلُ (يَدَّبَروا): يَتَدَبَّروا، فقُلبت التّاء دالًا؛ لقُربِ مَخرجَيهما؛ ليتأتّى الإدغامُ تخفيفًا، وهو صيغةُ تكلّفٍ مُشتقّةٌ من (دَبَرَ) بوزنِ (ضَرَبَ) إذا تَبِعَ، فتدبّرَه بمنزلةِ تتبّعَهُ، ومعناه: أنّه يَتعقّبُ ظواهرَ الألفاظِ؛ ليعلمَ ما يَدّبُر ظواهرَها من المعاني المكنونةِ والتّأويلاتِ اللّائقةِ. وأمّا قراءةُ أبي جعفرٍ ﴿لِّتَدَبَّرُوٓاْ﴾ فأصلُها: لِتَتَدَبَّروا، فحُذِفت إحدى التّاءينِ اختصارًا، والخطابُ للنَّبيِّ ﷺ ومَن معَهُ منَ المُسلمينَ[2]. وعلى كلٍّ من القراءتين فإنَّ الصّيغةَ تدلُّ على أنَّ تحقُّقَ التّدبُّر في معاني الآيات يحتاجُ إلى تأمّلٍ ومتابعةٍ دقيقةٍ وعنايةٍ فائقةٍ وصولًا إلى مقاصدِ النّظم ودلالاتهِ الخفيَّةِ الكامنة دُبُرَ الظّاهر.

دلالةُ صيغةِ المُضارع في ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾:

المُـداومـةُ على تـدبُّـرِ الـقـرآنِ الـكـريـم غـايـةُ الإنزالِ

أوثِرَ في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استعمالُ صيغةِ المضارع دونَ غيرها من الصّيَغ؛ لما تُفيدُهُ هذه الصّيغةُ من التَّجدُّدِ والمُداومة، فيجبُ أنْ يكونَ تدبّرُ القرآن الكريم والتَّأمّلُ في معانيهِ

(1) ابن الجزري، النشر: 02/ 361.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 252.

فِعلًا مُتكرّرًا مُتجدِّدًا؛ ليبلُغَ به صاحبُهُ معرفةَ المعاني الّتي أودِعَتْ فيه، بحيث كُلَّما ازدادَ المتدَبِّرُ تَدَبُّرًا انكشفتْ له معانٍ لم تكُن باديةً له باديَ النَّظَر(1).

دلالةُ التّعبيرِ بـ(الآيات) جمعًا مضافًا:

وجـــوبُ تـدبُّـرِ الحُجَجِ، للقُرآن غيرِ ذي العِوَجِ

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ لفظُ (الآيات) جمعًا، وهو جمعُ (آية)، وجذرُها يدلُّ على بقاءِ الشّيءِ في مكانه شاخِصًا علامةً لشيءٍ، وفيه معنى الكثرةِ والجَسامةِ أيضًا(2). والآيةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازمٍ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ به حسّيًّا كانَ أو عقليًّا(3). وآياتُ اللّه تعالى هي حُجَجُهُ وأدلّتُهُ على رُبوبيّتِهِ وأُلوهيّتِهِ، وما جاءتْ به رسلُهُ من شواهدَ على صدقِ ذلك(4). وقد جاءتْ في النّظم مجموعةً مضافةً للدّلالةِ على كثرتِها ووَفرَتِها؛ لكونِ الإضافةِ للاستغراقِ، فكلُّ الكتاب آياتٌ تحتاجُ إلى إمعانِ نظَرٍ وإعمالِ عقْلٍ؛ وتَشَخُّصُها في الآياتِ الكونيَّة ظاهرٌ، وأمّا في الآياتِ الشّرعيَّة ففيها معنى الجَسامةِ المعنويَّة، فهي لظُهورِها ووُضوحِها كالشّيءِ المُتشخِّصِ الّذي لا يَخفى.

وجهُ عطفِ (التَّذكُّر) بالواوِ:

التّذكُّرُ من آثارِ التَّدبُّرِ

عُطِفَ (التّذكّر) على (التّدبّر) في قَولِهِ تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بحرفِ (الواو) الدّالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه من باب عطفِ النّتيجةِ على السّببِ، فالتَّدبُّر مُفضٍ إلى التّذكُّر، والتّذكُّر من آثارِ التَّدبُّر(5). كما أنَّ التَّدبُّرَ يتعرّضُ للنِّسيان بسببِ طولِ مدَّةِ المُتابعة، فكانَ عطفُ التَّذكُّر عليه مشيرًا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 252.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصَّل: (أيي).
(3) الرّاغب الأصفهانيّ، المفردات في غريب القرآن، ص: 101، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير المنار: 1/ 238.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 1/ 552.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 252.

إلى أنَّ التَّدبُّرَ يحتاج إلى مراجعةٍ وكثرةِ مداومةٍ على قراءةِ آياتِ الكتاب؛ لكيلا يُنسى.

معنى (اللّام) وسرُّ تَكرارِها:

إنــزالُ الـقـرآن العظيم للتّدبّرِ والتَّذَكُّر

(اللّامُ) في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هي لامُ (كي)، وهي دالّةٌ على التّعليل، والمعنى: أنّ اللّه سبحانَه أنزلَ القرآنَ ليَتّعظَ النّاسُ وليتذكّروا ما هو موعظةٌ وموقِظٌ لهم من غَفَلاتهم، والمقصودُ من كلامِ الحقّ التّفكّرُ والتّذكُّر والاتّعاظُ به، لا حفظُ الألفاظ فقط، وكان الصَّحابةُ يَكتفونَ ببعضِ السّوَر القرآنيَّة، ويشتغلونَ بالعمل بها؛ فإنّ المقصودَ من القرآن العملُ به[1]. ويُلاحَظُ تكرّرُ حرفِ (اللّام) مع فعلَي (التّدبّر والتّذكّر)؛ للتّأكيدِ على كونِ كلّ واحد منهما غايةً لإنزالِ الكتابِ، وأنّ كلَّ واحدٍ منهما يستقلُّ بفائدةٍ زائدةٍ.

دلالةُ (يتذكّر) مادّةً وصيغةً:

الـحـثّ عـلى التَّذكّر وإعمالِ الذّهن في تطلُّبِه

جاءَ الفعلُ (يَتَذَكَّرَ) في الآيةِ بمعنى الاتّعاظِ؛ لأنّ العبدَ إذا تذكّرَ البرهانَ فقد يزدجِرُ[2]. والتَّذكّرُ: استحضارُ الذّهنِ ما كان يَعلمُهُ، وهو بهذه الصّيغةِ لا يُطلَقُ إلّا على ذِكرِ العَقلِ لمَعقولاتِهِ؛ أي: حركتِه في معلوماتِهِ، فهو قريبٌ من التَّفَكُّرِ، إلّا أنَّ (التَّذَكُّرَ) لـمّا كان مشتقًّا من مادّةِ الذِّكرِ الّتي هي في الأصلِ جريانُ اللَّفظِ على اللِّسان، والّتي يُعَبَّرُ بها أيضًا عن خُطورِ المعلوم في الذِّهن بعدَ سَهْوِهِ وغَيْبَتِهِ عنه كان مُشعِرًا بأنّه حركةُ الذّهنِ في معلوماتٍ مُتَقَرِّرَةٍ فيهِ من قبلُ[3]. ومجيءُ هذا اللَّفظ بوزن (تفعّل) الدّالِّ على تكلّفِ الفعلِ فيه حثّ على التَّذكّر وإعمالِ الذّهن في تطلّبه، كما أنّ صيغةَ المضارع تفيدُ تجدّدَ فعلِ التَّذكّر وتكرّره؛ لاستدامةِ الهداية بالقرآنِ والانتفاعِ بمواعظه.

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 374.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ذكر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.

سرُّ اختصاصِ التَّذكُّرِ بـ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

التَّدَبُّر لعمومِ المُنـزَل عليهم، والتَّذكُّرُ مخصوصٌ بالعُقَلاء منهم

عُبِّرَ في قَولِه تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بلفظ ﴿أُوْلُواْ﴾، وهو اسمُ جمعٍ لـ (ذو) بمعنى: صاحِب، والمعنى: ليتّعظ به أصحابُ العقولِ الخالصةِ عن شَوْبِ الوَهْم. فعمَّمَ النّظمُ القرآنيّ التَّدَبُّرَ لعموم المُنزَلِ عليهم، وخُصّ التَّذكُّرُ بالعُقَلاء؛ لأنّ التَّدبّر للفَهْم، والتَّذكُّرَ لوقوعِ الخشيةِ والإجلال[1].

نكتةُ الاكتفاءِ في الآية:

التَّصريحُ بالمتذكِّر تفسيرٌ للمتدبِّر

تتجلّى في قَولِه تَعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ظاهرةُ الاكتفاء، إذ ضميرُ ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ يحتملُ عمومَ المُنزَلِ فيهم الكتاب كما تقدَّم، أوِ العقلاءَ فقط، ويكونُ إسنادُ الفعلِ (يتذكّر) إلى (أولي الألباب) اكتفاءً عن وصفِ المتدبّرينَ بأنّهم أولوا الألباب، وذلك لأنّ التَّدبّر مُفْضٍ إلى التَّذكُّرِ، والتَّذَكُّرُ من آثار التَّدبُّر، فوَصْفُ فاعلِ أحدِ الفعلين مغنٍ عن وصفِ فاعلِ الفعلِ الآخَر[2]. وإنّما لم يُسنِد (التَّدبُّر) إلى أهل العقلِ؛ لأنَّ التَّدبُّر من خواصِّهم، لكنّه أظهرَهم في (التَّذكُّرِ)؛ لأنَّ مَن تدبَّر من أهل العقلِ والعلم ولم يتذكّرْ فإنَّه محرومٌ من العقل أصلًا؛ إذ لم ينفعْهُ علمُهُ ولم يكتسِبْ من عقلِه تذكُّرًا يُفيدُهُ.

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

أولوا الألبابِ هم أصحابُ العقولِ الزّاكية

خُصّ التَّذكّرُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بـ(أولي الألباب)، وهم أصحابُ العقولِ الزّاكية الخالصةِ منَ الشّوائب[3]. وسُمّي (اللُّبُّ) بذلك لكونه خالصَ ما في الإنسانِ من معانيه، فاللُّبُّ من كلِّ شيءٍ: خالِصُه وخيارُه، وكذلك لُبابُه. وقيل: هو ما زَكَى من العَقل، فكلُّ لبٍّ عقلٌ وليسَ كلُّ عقلٍ لُبًّا[4].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 374.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 89.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 181.
(4) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لب - لبب).

نكتةُ جمعِ لفظِ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مجموعًا، ولم يرد في القرآنِ الكريم إلّا بصيغةِ الجمع، يقول الرّافعيُّ في نُكتة ذلك: "إنّك ترى بعضَ الألفاظ لم تأتِ في القرآن إلّا مجموعةً، ولم يُستعمَلْ منها صيغةُ المفرد، فإذا احتاجَ إلى هذه الصّيغة استعملَ مُرادفَها؛ كلفظة (اللُّبِّ)، فإنّها لم تجئْ فيه مفردةً، بل جاءَ في مكانها (القلب)؛ وذلك لأنّ لفظَ (الباء) شديدٌ مجتمِعٌ، ولا يفضي إلى هذه الشّدَّة إلّا من اللّامِ الشّديدةِ المُسترخية، فلمّا لم يكن ثَمَّ فصلٌ بينَ الحرفينِ يتهيّأ معه هذا الانتقالُ على نسبةٍ بين الرّخاوة والشّدَّة تُحَسِّنُ اللّفظةَ مهما كانت حركةُ الإعراب فيها، نصبًا أَوْ رفعًا أَوْ جرًّا، فأسقطَها من نَظْمِهِ بتّة، على سعةِ ما بينَ أوّلِهِ وآخرِهِ، ولو حسُنَتْ على وجهٍ من تلك الوجوه لجاءَ بها حسنةً رائعةً"[1].

استحسانُ الجمعِ واستثقالُ المُفرد

بلاغةُ التّعريضِ في الآية:

يَتضمّنُ قَولُهُ تَعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فنًّا بديعًا وهو (التّعريض)، وهو كونُ معنى الكلام مفهومًا من عُرضِهِ؛ أي: جانبِهِ[2]. ففي هذه الآية نُسِبَ التَّذَكُّرُ إلى أولي الألباب والعقول، وفيه تعريضٌ بأنّ الّذين لم يتذكّروا بالقرآنِ ليسوا من أهل العقول أصلًا[3].

الّذين لم يتذكّروا بالقرآنِ ليسوا من أهلِ العقول أصلًا

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الألباب والعقول:

بين (العقل واللّبّ) عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ؛ فكلّ لبٍّ عقلٌ، وليس كلُّ عقل لبًّا. وعند تأمّلِ استعمالِ لفظَيِ (الألباب) و(العقول) يتبيّنُ لنا من معنى (اللّبِّ) أنّه يفيدُ ما كان من خالصِ صفاتِ الموصوف،

كلُّ لبٍّ عقلٌ وليس كلُّ عقلٍ لبًّا

(1) الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النّبوية، ص: 160.

(2) العلويّ، الطّراز: 1/ 195.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 253.

وهو العقلُ الخالصُ منَ الشّوائب، وسمّي بذلك لكونِهِ خالصَ ما في الإنسانِ مِن معانيه، واللّبُّ: هو الخالصُ من كلِّ شيء، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على لُزومٍ وثباتٍ، وعلى خُلوصٍ وجَوْدة[1]، فلُبُّ كلّ شيءٍ ولُبابُه: خالِصُه وخيارُه[2].

أمّا (العقل) فهو الحابسُ عن ذميم القولِ والفعل، وهو أصلٌ واحدٌ مُنْقاسٌ مُطّردٌ، يدلُّ مُعظمُهُ على حُبْسةٍ في الشّيء[3]. ويُفْهمُ من هذا التّأصيل اللّغويِّ أنّه قد روعي في تسميتِهِ عقلًا كونُهُ يحصِرُ معلوماتِ الموصوفِ به، كما روعي في تسميتهِ لبًّا كونُهُ من خالصِ صفاتِ الموصوفِ به[4]. فهو مفارقٌ للُّبِّ من هذا الوجهِ.

وبذلك يتّضحُ أنّ البيانَ الإلهيّ استعملَ كلمةَ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ في تذييلِ الآية الكريمة بدلَ (العقول)؛ لأنّها أليقُ بالتَّذكّر، فكلُّ عقلٍ يتدبّرُ كتابَ الله، ولكنْ ليسَ كلُّ عقلٍ يتذكّرُ بمواعظِهِ، إلّا إذا كان صاحبُهُ ذا لُبٍّ صافٍ، خالٍ من شوائبِ الكِبْرِ والعِناد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لب).
(2) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (لب - لبب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 84.

﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص: 30]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تكميلُ قصّةِ داوودَ بقصّةِ سُليمانَ عليهما السلام

جُعِلَ التَّخلُّصُ إلى مناقبِ سُليمانَ ﷺ من جهة أنّه مِن مِنَنِ اللّه على داوودَ ﷺ، فكانَتْ قصّةُ سليمانَ كالتّكملةِ لقصّةِ داوودَ ﷺ[1]. كما ناسبَ ذِكرُ قصّةِ سُليمان ﷺ بعدَ أنْ ذكرَ النَّظمُ أنَّ آياتِ اللّه ما يتدبّرُها إلّا العقلاءُ، ولا يتذكّرُ بما فيها من حِكَمٍ إلّا أولو الألباب، وأنَّ الأنبياءَ من أعلى النّاسِ تدبُّرًا وتذكُّرًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَهَبۡنَا﴾: الهِبَةُ: أنْ تجعلَ مُلكَكَ لغيرِكَ بغيرِ عِوَضٍ، يُقالُ: وهَبْتُهُ هِبَةً وموهِبَةً ومَوْهِبًا[2]. وتقولُ: وهَبَ اللّهُ لهُ الشَّيءَ، فهو يَهَبُ هِبَةً، وتواهَبَه النّاسُ بينهم، وكلُّ ما وُهِبَ لك من ولدٍ وغيرِه فهو مَوْهوبٌ[3]. والمرادُ به في الآية: إعطاءُ شيءٍ بلا مُقابلٍ وعِوَضٍ، وهو مَجازٌ في التَّفضُّل والإكرام.

2) ﴿أَوَّابٌ﴾: أصلُ (أوب) يدُلُّ على الرُّجوع[4]. يقال: آبَ فلانٌ إلى سيفِهِ؛ أي: ردّ يدَه إلى سيفِه[5]، ويُقال: آبَ الرّجلُ يَؤوبُ إيابًا إذا رَجَعَ إلَى مُستقَرِّه. والمَآبُ: المَرجِعُ. والأَوْبُ: الرُّجوع[6]. والأَوّابُ كالتوّاب، وهو الرّاجع إلى اللّهِ تعالى بتركِ المَعاصي وفِعْلِ الطّاعات، ومنه قيلَ للتَّوبة: أَوْبَةٌ[7]. والمقصودُ بالأوّابِ في الآية:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 253.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وهب).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (وهب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوب).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (أوب).
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (أوب).
(7) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أوب).

مُبالغَةٌ في الآيِبِ؛ أي: كثيرُ الأوْبِ. والمُرادُ من الأوْبِ إلى اللّه: الأوْبُ إلى أمرِهِ ونَهيِهِ[1].

المَعنى الإجماليُّ:

الأولادُ هِبةٌ للعبدِ مِن اللهِ ﷻ يَجِبُ شُكرُهُ عليها

يبيِّنُ اللّه تعالى جانبًا مِن قصَّةِ سُلَيْمانَ ﵇، فيقول: ووَهَبْنا لداوودَ ابنَه سليمانَ، نِعْمَ العَبدُ سليمانُ؛ لأنَّه كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللّهِ تعالى[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في الآيةِ ﴿وَوَهَبۡنَا﴾:

بَسْطُ قصَّةِ الابنِ بعدَ بَسْطِ قصَّةِ الأبِ

يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ أنْ تكونَ (الواوُ) استئنافيّةً، ويكونُ الكلامُ مُستأنَفًا مَسوقًا لبَسْطِ قصّةِ سُليمانَ بعدَ أنْ سبَقَ بسطُ قصّةِ داوودَ ﵉[3]. ويجوزُ أنْ تكونَ (الواوُ) للعطفِ، ويراد بها عطفُ القصَّةِ على القصَّةِ، إذ جملةُ ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ وما بعدَها عطفٌ على جملةِ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: 18] وما بعدَها من الجُمَلِ[4].

سرُّ عدمِ تكرارِ الفعلِ (اذكُر):

قصّةُ سُليمانَ تكملةٌ لقصّةِ داوودَ ﵉

يُلاحَظُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ عدمُ تكرارِ الفعلِ (اذكُر) مع قصّةِ سُليمانَ، كما افتُتِحَتْ قصّةُ داوودَ ثمَّ قصّةُ أيّوبَ ﵇، ونكتةُ ذلك أنّ قصّةَ سُليمانَ تكملةٌ لقصّةِ داوودَ ﵉، وأنّها إتمامٌ لما أنعمَ اللّه به على داوودَ؛ إذ أعطاهُ سليمانَ ابنًا بهجةً له في حياتِهِ، وورِثَ مُلكَهُ بعدَ مَماتِهِ[5]. كما أنَّ الفصلَ في قصّتِهما بالفعلِ (اذكر) يفصلُ بينهما، مع أنَّ كثيرًا من أحداثِ الولدِ جرَتْ في حياةِ الأبِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 254.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 64، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 712.

(3) درويش، إعراب القرآن: 08/ 358.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 253.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 253.

نكتةُ إيثارِ الفعلِ الماضي (وَهَبْنا):

الأولادُ الصّالحونَ من أعظمِ هِبات الله للعِباد

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ﴾ التّعبيرُ بالفعل (وَهَبْنا) دونَ غيره من الأفعالِ، نحو: (رَزَقْنا، أعْطَينا...)؛ لأنّ الهِبةَ هي عطاءُ الواهِبِ بطريقِ الإنعام والإحسانِ لا بطريقِ العِوَضِ والجزاء، وسليمانُ هو النِّعمةُ التّامّةُ لداوودَ ﵇؛ لأنّ الخِلافة الظّاهرةَ الإلهيَّة قد كَمُلَتْ لداوودَ، وظهرَ كمالُها في سُليمان، ولا حالةَ في الدّينِ والدُّنيا للبشَر أرفعُ من أنْ يجعلَ اللّه له ولدًا رسولًا إلى خلقِه، ويُلزِمَ الخلقَ طاعتَهُ والانقيادَ له مع ما يحصلُ فيه من عظيمِ المَنزلةِ في الآخرة، فتضمّنَت (الهبةُ) هبتينِ في الحقيقة: الولدَ واستمرارَ الرّسالةِ في النَّسل.

نكتةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ العظمةِ:

العـظـيـمُ لا يَهَبُ إلّا عظيمَ الهِبات

أُسْنِدَ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ﴾ فعلُ الهبةِ إلى الضَّميرِ (نا)؛ للدّلالةِ على عظمةِ الواهِبِ سُبحانه وعُلوِّ قَدْرِه؛ فإنّ مثل هذا التّعبيرِ يُعبّر به الملوكُ والعُظَماءُ النّافذُ أمرُهم ونهيُهم، وفيه أيضًا إدخالٌ للمَهابةِ في قلوبِ العِباد، فالعظيمُ عظيمٌ في جميع أفعالِه منَ الهِباتِ وغيرِها، كما أنَّ فيه دلالةً على عظمة الموهوب؛ فسليمانُ ﵇ انقادت له العوالمُ كلُّها.

معنى اللّامِ في ﴿لِدَاوُۥدَ﴾:

اختصاصُ داوودَ ﵇ بالهِبةِ العَظيمة

تعدَّى الفعلُ (وَهَبْنا) في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَۚ﴾ بـ(اللّام) الدّالّةِ على الاختصاصِ المفيدِ للغَرضِ استلزامًا، فقد اختصّ اللّه ﷻ داوودَ ﵇ بهبةٍ عظيمةٍ لأجلِه دونَ غيره، فقد وهبَه ابنًا لا نظيرَ له في ذلك الزّمانِ دينًا وعِلْمًا وحِكمةً وحِلْمًا وعَظمةً ورَحمةً، معَ اختصاصِه بالنّبوّة والذّكرِ الجميلِ عندَ جميعِ الأُمَمِ إلى قيامِ السّاعةِ[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 377.

سرُّ تقديمِ اسمِ (داوودَ):

الاعتناءُ بداوودَ والتّشريفُ له بتقديمِه في الذِّكْر

تقدّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِدَاوُۥدَ﴾ على المفعولِ ﴿سُلَيۡمَٰنَۚ﴾؛ لإفادةِ اختصاصِ داوودَ عليه السلام بهذه الهبةِ العظيمةِ، ولقصدِ الاعتناء بداوودَ والتّشريفِ له، كما أنَّ الموهوبَ له يتقدّمُ على الموهوبِ؛ إظهارًا لنوعٍ من الاستحقاقِ والتَّوقيرِ لهُ؛ وليكونَ امتنانًا آخرَ على النَّبيِّ داوودَ عليه السلام بعد جملةٍ منَ النِّعَمِ والمَكرُماتِ، وليَلزمَ من ذلك تأخيرُ ﴿سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ فيعودَ الضَّميرُ عليه في قولِه: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، والضَّميرُ إنّما يعودُ على أقربِ مذكورٍ على المشهورِ[1].

بلاغةُ صيغةِ المَدْحِ في الآية:

الثّناءُ على سُليمانَ بتمامِ العُبوديَّة

تضمّن قَوۡلُهُ تَعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ مدحًا وثناءً من اللّه تعالى على سُليمانَ عليه السلام أوّلًا، وكمالَ نِعمةٍ لداوودَ أيضًا، وقد جاءَتْ صيغةُ المَدْحِ بالفعلِ ﴿نِعۡمَ﴾، وهي من الإنشاءِ غيرِ الطّلبيّ؛ لأنّه لا يَستدعي مَطلوبًا وقتَ الكلامِ، وهو أسلوبٌ يُعبِّرُ عن الثّناءِ والإعجابِ بالشّيءِ بألفاظٍ مُعيّنةٍ، وهذه الصّيغةُ جُملةٌ فعليّةٌ مكوَّنةٌ من فعلٍ وفاعلٍ تُعربُ خبرًا مقدّمًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (سليمانُ)، وهذا المبتدأُ هو الّذي صيغَ المدحُ له، ويُسمّى (المخصوصَ بالمدحِ)، وإنّما حُذِفَ اعتمادًا على ظُهورِ المعنى وطلبًا للإيجازِ[2].

المخصوصُ بالمدحِ في الآية:

الابنُ شبيهُ أبيهِ في صِفاتِ الكَمال

المخصوصُ بالمدحِ في قولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ محذوفٌ، قيل: هو سُليمان، وقيل: داوودُ، والأوّل أوْلى؛ لأنّه أقربُ المذكورينَ، ولأنّه قال بعدَهُ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، والّذي يُرجِّحُ أنْ لا يكونَ المرادُ داوودَ: أنّ وصفَهُ بهذا المعنى قد تقدّم في الآيةِ المتقدِّمة، حيثُ قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ

---

(1) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 372.

(2) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/ 645، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 430.

عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ [ص: 17]، فلو أُريد بـ(الأوّاب) هاهنا أيضًا (داوودُ) للزمَ التّكرار، وعلى القول بأنَّه صفةٌ لسُليمانَ يلزمُ شبهُ الابنِ لأبيه في صفاتِ الكَمالِ في الفضيلة، فكان هذا أَوْلى. ومدحُ الولدِ بخصالٍ حميدةٍ يتضمّنُ مدحَ الوالدِ بها؛ لأنّهُ المَوهوبُ له[1].

دلالةُ التّعريفِ في ﴿ٱلۡعَبۡدُ﴾:

تشريفُ الإنسانِ بـعُـبـوديّـةِ الرَّحمن

وردَ في قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ لفظُ ﴿ٱلۡعَبۡدُ﴾ مُعرّفًا بـ(أل) الدّالةِ على استغراقِ الصّفةِ وتَمامها في الموصوفِ، والمعنى: أنّه هو العبدُ الكاملُ المُستغرِقُ لكلّ صفاتِ العُبوديَّة، حتّى صارتِ العبادةُ وصفًا له، والمقصودُ بالعبوديّة هنا العبوديّةُ الخالصة: عبوديّةُ الطّاعةِ والمحبّةِ واتّباعِ الأوامر[2]. كما أنَّ المدحَ بهذه الصّيغة يحملُ دلالةً على المبالغةِ في المدح؛ إذ إنَّ المادحَ قد مدحَ الجنسَ بأكملِه على سبيل الإجمالِ من أجلِ مدحِ المخصوصِ بالمَدح.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾:

كمالُ العبوديّةِ بكثرةِ الرُّجوعِ إلى الله تعالى

فُصِلَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ عن الجملةِ السّابقةِ، وهي قوله تعالى: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾؛ لوجودِ شبهِ كَمالِ الاتّصالِ بينهما؛ فقد وقعتْ جُمْلَةُ: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليلًا لما قبلَها من المدح، وهو يدلّ على أنّه إنّما استحقَّ المدحَ مِن مولاه سبحانه لأنّه كان أوّابًا، فيلزم أنّ كلَّ مَن كانَ كثيرَ الرّجوعِ إلى اللهِ تعالى في أكثرِ الأوقات وفي أكثرِ المُهمّات يستحقُّ الوصفَ بأنّه نِعْمَ العبدُ[3].

دلالةُ تأكيدِ الجُملة:

تأكيدُ مدحِ سُليمانَ بكثرةِ الرّجوعِ والعَوْدة

وَرَدَ قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مُؤكّدًا بحرفِ التّوكيد (إنّ) وباسميّةِ الجُملةِ؛ للدَّلالةِ على أحقّيَّته بالمدح والثّناء؛ لأنّه كان كثيرَ الطّاعة

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 389، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 401.
(2) ابن القيّم، مدارج السّالكين، ص: 180.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 389.

والعبادةِ والإنابةِ إلى ربّه في أكثرِ الأوقات، وفي كثيرٍ من المُهمّات اعتقادًا منه بأنّ كلَّ شيء من الخيرِ لا يتمُّ إلّا بإعانتِه وتوفيقِه[1].

سرُّ التّعبيرِ بصيغةِ المُبالغةِ ﴿أَوَّابٌ﴾:

الـرّجـوعُ إلى اللـه سُبحانَهُ بـإخـلاصِ العُبوديَّة

أوثِرَ في قَوْلِه تَعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ التّعبيرُ بلفظِ ﴿أَوَّابٌ﴾، وهو مبالغةٌ في الآيِبِ؛ أي: كثيرُ الأوْبِ؛ أي: الرّجوعِ إلى اللّه بقرينةِ أنّه مادِحُهُ. والمرادُ من الأوْب إلى اللّه: الأوْبُ إلى أمرِه ونَهيِه؛ أي: إذا حصلَ له ما يُبعِده عن ذلك تذكّرَ فآبَ وتابَ. والمعنى: أنَّ سليمانَ عليه السلام رجّاعٌ إلى اللّه سُبحانه بإخلاصِ العُبوديّة، بلا عِلّةٍ دنيويّة ولا أخرويّة، فهو رجّاعٌ إلى اللّه في جميعِ الأحوالِ في النِّعمةِ بالشُّكر، وفي المِحنةِ بالصَّبْرِ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَطيّة والهِبَة والمِنْحَة:

الـعَـطـيّـةُ أعـمُّ مُطلقًا من الهِبَةِ والمِنحةِ

تشتركُ هذه الألفاظُ في كونِها منَ التبرّعات، ويظهرُ الفرقُ بينها في علاقةِ العمومِ والخُصوص، فـ(الهبةُ) أحدُ أنواعِ العطيَّة[3]؛ لأنَّ العطيّةَ قد تكونُ بعِوَضٍ وبلا عِوَضٍ بخلافِ الهبة، فإنَّها لا تكون إلّا مُجرّدةً من العِوَض، كما يتجلّى الفرقُ بينهما في أنّ المُعطيَ يحقّ له أنْ يرجِعَ في عطيّتِه، وأمّا الواهبُ فلا يجوز له أنْ يرجعَ في هِبَتِه[4]، وقد ذهبَ بعضُ العلماءِ إلى فرقٍ آخرَ بينهما، فقال: إنّ العطيّةَ هي التَّبرُّعُ بالمالِ في مرضِ الموتِ المَخوفِ، والهبةَ أنْ يَتبرَّعَ بالمالِ في حالِ الصِّحَّة، أوْ في مرضٍ غيرِ مَخوف، أوْ في مَخوفٍ لم يمُتْ به[5]. وأصلُ (المِنحة) الشّاةُ أوِ البعيرُ يَمنَحُها الرّجلُ أخاهُ، فيَحتلبُها

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 376.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 376.

(3) الحطّاب، مواهب الجليل: 06/ 49.

(4) ابن جبرين، شرح عمدة الأحكام: 54/ 08.

(5) ابن العثيمين، الشرح الممتع: 11/ 65.

زمانًا ثمَّ يردُّها، قال بعضُهم: لا تكونُ المِنحةُ إلّا النّاقةَ، ثمَّ صارت كلُّ عطيّة منحةً لكثرةِ الاستعمال، وقال بعضُهم: كلُّ شيءٍ تقصدُ به قصدَ شيءٍ فقد منحتَهُ إيّاه[1].

وقد آثرَ النّظمُ القرآنيّ لفظَ (الهبة)؛ لأنّه الأنسبُ في سياقِ نعمةِ الأولادِ؛ إذ هو عطاءٌ بلا مُقابلٍ، وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما أنّه قال: أولادُنا من مَواهِبِ اللّه، ثمَّ قرأ: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩﴾ [الشّورى: 49][2].

آبَ وتابَ وعادَ ورجَعَ:

الـرّبُّ الكريم توّابٌ على العبدِ الأوّاب

هذه الألفاظُ يقتربُ بعضُها من بعضٍ لغةً، غيرَ أنّه يُمكنُ التّفريقُ بينها ببعض الخصائصِ الوضعيَّةِ والاستعماليَّة، فأعمّها دلالةً لفظُ (عادَ)، وهو أعمّ من (رجَعَ)،؛ لأنّ (الرّجوع) فعلُ الشّيءِ ثانيةً، ومصيرُهُ إلى حالٍ كان عليها، وأمّا لفظُ (العَوْدة) فيُستعملُ في هذا المعنى على الحقيقة، ويُستعمَلُ في الابتداءِ مجازًا، فيقالُ: قد عادَ إليّ من فلانٍ مكروهٌ، وإنْ لم يكُنْ قد سبقَهُ مكروهٌ قبلَ ذلك. وتأويلُهُ: أنّه لحقَني منهُ مكروهٌ. ومنه قولُه تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: 88]، والمعنى: أو لتَدْخُلُنَّ في ديننا؛ فإنّه عليه السلام لم يكنْ على دينِهم قَطُّ[3]. وأمّا لفظا (آبَ وتابَ) فهما وإنْ كانا بمعنى الرّجوعِ لغةً، إلّا أنّهما يستعملانِ كثيرًا في الرّجوع إلى اللّه وإلى الطَّريقِ المُستقيم، فاكتَسَبا حقيقةً شرعيَّةً إضافةً إلى حقيقتِهما اللُّغويَّة، وهي تركُ الذّنبِ مخافةَ اللّه تعالى، واستشعارَ قُبْحِه، والنّدمُ على ذلك، والعزيمةُ على عدم العود إليه[4]. ومنَ العلماء من

(1) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 515.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 375.
(3) العسكريُّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 313.
(4) صالح السّدلان، التوبة إلى اللّه، ص: 10.

جعلَ (آبَ وتابَ) بمعنًى واحدٍ، فالأوّابُ كالتوّاب، وهو الرّاجعُ إلى اللّه تعالى بتركِ المعاصي وفِعْل الطّاعات، ومنه قيلَ للتَّوبة: أَوْبَة[1]. وقد يظهرُ الفرق بينهما في كونِ لفظِ (تاب) أعمَّ دلالةً من (آبَ)؛ لأنّ معنى (آبَ) واحدٌ، أمّا (تابَ) فيختلفُ معناهُ باختلافِ تعديتِهِ، فقولُهم: تاب إلى اللّه معناه: رجعَ إليه بالطّاعةِ بعدَ المعصية، وأمّا تابَ اللّه على العبدِ فمعناه: رجعَ إليه بالمغفرة[2]. ولهذا خُصَّ الرَّبُّ سُبحانَه بلفظ (التَّوّاب)، وخصّ العبدُ بلفظِ (الأوّاب)، فكان هو الأنسبَ في سياقِ الآيةِ وذكرِ عُبوديّة سُليمانَ عليه السلام.

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أوب).

(2) الأزهري، تهذيب اللّغة: (توب).

﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١﴾ [ص: 31]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذكرُ حالٍ مِن أحوالِ أَوْبَةِ سُليمانَ عليه السلام

بعدَ أنْ وصَفَ سُليمانَ عليه السلام بأنّه أوّاب ذكرَ حالًا من أحوالِ أَوْبَتِهِ؛ ممّا يَستحِقُّ بها الإطراءَ والثّناءَ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عُرِضَ﴾: أصلُ الكلمةِ منَ العَرْضِ، وهو الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيءُ؛ أي: ظهَر وبَرَزَ[2]، وقيل: أصلُها من العَرْضِ وهو خلافُ الطّول، يُقالُ: اعترضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّي الرَّفْضُ إعراضًا؛ لأنَّ الرّافض أظهرَ خلافَ الشَّيء، أوْ لأنَّه كالواقِف عَرْضًا في وجْهِ الشَّيء[3]. ويُقالُ أيضًا: أعرَضَ لكَ الشَّيءُ من بعيدٍ: بدا وظهَرَ، وعَرَضَ له أمرُ كذا؛ أي: ظهَرَ، وعَرَضْتُ له الشَّيءَ؛ أي: أظهرتُهُ له وأبرزتُهُ إليه[4]. والعَرْضُ في الآيةِ مقصودٌ به الإمرارُ والإحضارُ أمامَ الرّائي.

2) ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: أصلُ (عشوَ) يدُلُّ على ظَّلام وعلى قِلَّة وُضوح في الشَّيءِ[5]. والعِشاءُ: أوّلُ ظلامِ اللّيلِ[6]. قال الأزهريّ: ويَقَعُ العَشيُّ على ما بينَ زَوال الشَّمْسِ إلى وقت غُروبِها، كلُّ ذلك عَشيٌّ، فإذا غابَتِ الشَّمْسُ فهو العِشاءُ[7]. والعشيُّ في الآية مرادٌ به: مِن وقتِ العَصْرِ إلى الغُروبِ[8].

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 376.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عشي).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (عشو، عشا، عشي).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (عشا).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 254.

3) ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾: أصلُ (صفنَ) يدُلُّ على جِنسٍ مِن القيامِ[1]. والصُّفونُ: أنْ تَصفنَ الدّابَّةُ وتَقومَ على ثلاثِ قَوائمَ لِتَستَريحَ. والصّافِنُ: الَّذي يَجمَعُ يَدَيهِ ويَثْني طَرَفَ سُنْبُكِ إحدى رِجلَيهِ. وقيل: الصّافِنُ فوقَ اليَدِ[2]. ولا يكونِ الصّافِنُ إلّا منَ الخيل والأفراس، وصفةُ قيامِها هذه من علاماتِ خِفَّتها الدّالَّة على كَرَم أصلِها وحُسْنِ خلالها.

4) ﴿ٱلْجِيَادُ﴾: أصلُ (جودَ) يدلُّ على التَّسمُّح بالشَّيء، وكَثرةِ العطاءِ. يُقالُ: رَجُلٌ جَوادٌ بَيِّنُ الجودِ[3]. وفرسٌ جوادٌ: بَيِّنُ الجَوْدَةِ[4]. وهو الفَرَسُ الذَّريعُ والسَّريعُ، والمصدرُ الجودَةُ[5]. والجيادُ في الآيةِ: جمعُ جَوادٍ، وهو الفرسُ الأصيلُ ذو الجَودةِ، الَّذي يسكُنُ حينَ وقوفِهِ ويُسرِعُ حينَ سَيْرِهِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخَـيْـلُ مصدرُ قوَّةٍ وجاهٍ ومَتاعٍ

يقولُ اللّه تعالى: إذ عُرِضَ على سُلَيمانَ في آخِرِ النَّهارِ الخَيلُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت، وأنَّها سريعةٌ في عَدْوِها إذا ركَضَتْ. فمِن نِعَمِ اللّه سبحانه عليه أنَّه أنعمَ عليه بالخيلِ الصّافنات الجياد، الَّتي تعدُّ عُدّةَ الحَرب، وآلةَ القتال المُهمَّةَ في مواجهةِ الأعداء، وكان عددُها ألفَ فرسٍ يُجاهَدُ عليها في سبيلِ اللّه تعالى[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الآيةِ بينَ الاتّصالِ والانفصالِ:

مـدحُ سُـليمانَ بـالأَوْبـةِ إلـى الـرّحـمـن دونَ تقييدٍ بزمانٍ

اختلفَ المفسِّرونَ في اتّصالِ قولِه تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفن).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (صفن).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جود).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (جود).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جود).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 64، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 378، والزحيلي، التفسير المنير: 23/ 204.

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ بما قبلَهُ أوِ انفصالِه عنه، فمِنهم مَن جعلَهُ مُتَّصِلًا، وجعلَ الظّرفَ ﴿إِذۡ﴾ من صلة ﴿أَوَّابٌ﴾ في الآية السّابقة، والتّقديرُ: (نِعْمَ العبدُ هو إذ كانَ من أعمالِه أنّه فعلَ كذا)، وتعليقُ هذا الظّرفِ بـ﴿أَوَّابٌ﴾ تعليقُ تعليلٍ؛ لأنّ الظُّروفَ يرادُ منها التَّعليلُ كثيرًا؛ لظهورِ عدم انحصارِ قولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ في هذه القصّةِ فقط؛ لأنّ صيغةَ ﴿أَوَّابٌ﴾ تَقتضي المبالغةَ، والأصلُ فيها الكثرةُ، فتعيّن أنّ ذكرَ حادثةٍ مِن حوادثِ أوْبَتِه كانَ لأنّها يَنجَلي فيها عِظَمُ أوْبتِه. ومِنهم مَن جعلَهُ مُنفصِلًا عمّا قبلَهُ، واقعًا في ابتداءِ الكلامِ، مَنصوبًا بمُقدّرٍ؛ أي: (اذكُرْ يا مُحمَّدُ إذ عُرِضَ عليهِ كذا وكذا)[1].

ورجّحَ بعضُ العلماء هذا القولَ الثّانيَ وضعّفَ الأوّلَ بحُجّةِ أنّ كونه ظرفًا لـ ﴿أَوَّابٌ﴾ تَقْيِيدٌ له بهذا الوقتِ، وهو لا يُلائِمُ المدحَ، لأنَّ المدحَ يرادُ به الوقتُ الممتدُّ، فالأوْلى كونُهُ ظَرْفًا للفعل (اذكُر) المُقدّر كما في نظائرِهِ، والقَوْلُ بأنّ الأهمَّ بيانُ كونِهِ (أوّابًا) في ذلك الوقتِ المُمتدِّ ضعيفٌ؛ إذ يدخلُ هذا تحتَ العُمومِ دُخولًا أوّليًّا[2]. وعلى التَّوجيهِ الأوّلِ فبينَ الجملتين شبهُ كمالِ الاتّصال، وعلى الثّاني بينهما كمالُ الانقطاع.

وجهُ حذفِ المسند إليه في ﴿عُرِضَ﴾:

حذفُ ما يُعلَمُ جائزٌ وبليغٌ

استُعمِلَ الفعل ﴿عُرِضَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ مبنيًّا للمفعول، ومَعنى العَرْضِ عليه: الإمرارُ والإحضارُ أمامَه، والتَّقدير: عرضَ سائِسو خَيلِهِ إيّاها عليه، والنّكتةُ في عدمِ التّصريحِ بالفاعلِ التّركيزُ على الفعلِ في حدّ ذاتِهِ وهو ﴿عُرِضَ عَلَيۡهِ﴾ دونَ التَّعرّضِ للفاعلِ؛ لوضوحِهِ منَ السّياق، وإذا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 503، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 403.

كان الكلامُ مُنصبًّا إلى غرضٍ من الأغراض جُعِلَ سياقُهُ له وتوجُّهُهُ إليه، كأنّ ما سِواهُ مَرفوضٌ مُطَّرَحٌ[1].

فائدةُ التّعبيرِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

دقّةُ النّظمِ القرآنيّ في اختيارِ حُروفِ المَعاني

عُدّيَ فِعْلُ العَرْضِ بحرف الجرِّ (عَلى) في قَوْلِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ دونَ غيره؛ لأنّ (عَلى) تدلُّ في الأصلِ على الاستعْلاءِ، وذلك مناسبٌ لسياقِ التّعبيرِ عن عرضِ الخدَمِ للخيلِ على مَلِكٍ عظيمٍ كسُليمانَ عليه السلام.

سرُّ التَّعبيرِ بالباءِ في ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾:

الدّلالةُ على معنى الإلصاق مع الظَّرفيّة

(الباءُ) في قولِهِ تعالى: ﴿عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ﴾ بمَعنى (في)، فهي دالّةٌ على الظَّرفيَّةِ الزّمانيّة، لأنَّ عرضَ الخيلِ على سُليمانَ عليه السلام كانَ في زمَنِ العَشيِّ. والغرضُ من العدولِ عن (في) إلى (الباء) الدّالَّةِ على الإلصاقِ الإشارةُ إلى أنَّ العرضَ كان مُلتصِقًا بهذا الوقتِ، حتّى إنَّ الوقتَ المذكورَ صار لصيقًا لا ينفكُّ عنه، معَ بيانِ امتدادِ العَرْضِ طوالَ المدَّةِ المذكورة، بخلافِ الظَّرفيَّةِ الّتي لا تُنبئُ عن ذلك الامتدادِ، والامتدادُ يُنبئُ عن هَيبةِ ذلك العَرْضِ العَظيم، ففي التَّعبير بالباءِ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شُبِّهَ الظّرفُ بالإلصاقِ بجامعِ الإحاطةِ.

دلالةُ التَّقييدِ بالظَّرفِ (العَشيّ):

مُناسَبةُ (العَشيّ) لعَرْضِ الخَيلِ

في قولِهِ تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ قُيّدَ عرضُ الخيل على سُليمان عليه السلام بوقتِ العَشيِّ، والعَشيُّ زمنٌ يمتدُّ منَ العصرِ إلى الغروب. وذلك وقتُ رجوعِ الخيلِ بعدَ رَواحِها من مَراعيها ومَراتِعِها. وذكرُ (العَشيّ) هنا ليس لمُجرّدِ التَّوقيت، بل ليُبنى عليه قولُه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ في الآيةِ الآتيةِ[2]، كما أفادَ التَّوقيتُ

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾ أُبَّهةَ مُلك سُليمان الَّذي انقادتْ لملكِه العوالمُ، حتّى إنّه يُعرَضُ عليه الخيلُ وقتَ راحتِه وتمتُّعِه على عادةِ الملوك العظامِ.

وجهُ التّعبيرِ بوصفِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾:

فـراهـةُ الخيـلِ بالتّفنُّنِ في ألوانِ السَّيرِ والتَّوقُّفِ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ لفظُ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ جمعُ (صافِنة)، وفي معناهُ خلافٌ بينَ أهلِ اللُّغة، وأشهرُ الأقوالِ فيه: هو الّذي يَقِفُ على إحدى يَدَيهِ ويقفُ على طرَفِ سُنْبُكِه، وقد يفعَلُ ذلك بإحدَى رِجلَيه، وهي علامةُ الفَراهةِ فيه، وفي معناه أقوالٌ أُخرى منها: أنّه الّذي يجمعُ يَدَيهِ ويُسوّيهما، أو هو القائمُ مُطلقًا... إلخ[1]. والغرضُ من ذكرِ الوصف أيضًا بيانُ أنَّها خيلٌ أصيلةٌ تتبختَرُ في مِشيتِها وتقفُ على هيئةٍ مخصوصةٍ، فتوحي بالجمالِ في الحركةِ والتَّوقُّف.

وجهُ التّعبيرِ بوَصْفِ ﴿ٱلۡجِيَادُ﴾:

جَـودَةُ الخيلِ في جَريِها

﴿ٱلۡجِيَادُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾: جمعُ جَواد، وقد اختُلِفَ أيضًا في اشتقاقِها؛ فهي إمّا مِنَ الجَوْدة، يقالُ: جادَ الفرسُ يجودُ جَوْدَةً وجودَةً بالفتح والضمّ فهو جَوادٌ للذَّكر والأنثى، وهو الّذي يجودُ في جَرْيِهِ بأعظمِ ما يَقدرُ عليه، والجمعُ: جيادٌ وأجْوادٌ وأجاويدُ، وقيل: جمعُ (جَوْدٍ) بالفتحِ كثيابٍ وثَوْبٍ، وقيل: مِنَ (الجيدِ) وهو العُنُق، والمعنى: طويلةُ الأجيادِ، وهو دالٌّ على فَراهتِها[2]. ولا مانعَ من ملاحظةِ كلِّ هذه المعاني الحسّيَّة والمعنويَّة؛ إذ لا تظهرُ الأُبَّهةُ الملَكيّة إلّا بعَرْضِ الخيلِ الأصيلةِ اللّائقة.

نكتةُ التّعريفِ في الوصفَين:

قَصْدُ الحقيقةِ بقَطْعِ النّظرِ عن الأفرادِ

اللّام في: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ هي (لامُ العهدِ الذِّهنيّ)، وهي الّتي تُعرّفُ حقيقةً ذهنيّةً يرادُ بها فردٌ مُبهم من أفرادِ الحقيقةِ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 503.
(2) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 411.

باعتبار عهديّتِه في الذّهنِ؛ لاشتمالِ الحقيقةِ عليه، كما في قولِه: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13]، وقولِهم: (ادخُلِ السّوقَ)[1]. وفائدةُ التَّعريفِ بها الإشارةُ إلى نفاستِها وقيمتِها المَعروفة لدى المُتخصِّصين في تربيةِ الخُيول.

دلالةُ الجمعِ بينَ الوَصفينِ:

تميُّزُ الخيلِ في جَرْيِها ووقوفِها

دلّ الجمعُ بينَ الوصفينِ في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ على أنّ الموصوفَ هي الخيلُ الخالصة، فالصّفونُ لا يكادُ يكونُ في الهُجُنِ، وإنّما هو في العِرابِ الخُلَّص. وقد وصفَها النّظمُ القرآنيّ بالصُّفونِ والجَودة؛ ليجمعَ لها بين الوصفين المحمودين واقفةً وجاريةً؛ يعني: إذا وقفَتْ كانت ساكنةً مُطمئنّةً في مواقِفِها، وإذا جَرَتْ كانت سِراعًا خِفافًا في جَرْيِها[2].

سرُّ تأخيرِ الوَصفينِ عنِ الظَّرفينِ:

تشَوُّقُ النّفوسِ وتشويقُها إلى المُؤَخَّر

يُلاحَظُ في قولِه تعالى: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ تأخيرُ وصفَي ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ عن الظَّرفين ﴿عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ﴾؛ لنكتةِ التّشويقِ إلى المُؤَخّر؛ فإنّ النّفسَ بعدَ سَماعِ فعلِ العَرْضِ تتشوّفُ لمعرفةِ المعروضِ على سُليمانَ عليه السلام[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجَواد والخَيل والفَرَس والحِصان:

تـنـوُّعُ أسـمـاءِ الـخَـيـلِ بتنوُّعِ صِفاتها دليلٌ على شَرَفِها

بينَ هذه الألفاظِ فروقٌ دقيقةٌ راجعةٌ إلى المعنى الاشتقاقيِّ لكلّ لفظٍ منها؛ إذ لفظُ (الخيل) اسمُ جمعٍ لا مفردَ له من لفظِه كـ(القوم)، فإذا أردتَ الكثرةَ قُلْتَ: خُيول، وإذا أردتَ القِلَّة قلتَ: أخْيال، وسُمّيتْ خَيْلًا لاختيالِها، مِنَ الخُيلاءِ، وهي اعتزازُ الجواد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 91.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 7/ 225.

بنفسه؛ لما يتمتَّعُ بِهِ من ميزاتٍ وتناسُقٍ وجمالٍ لائقٍ. ويقالُ في المفردِ من الخَيل: فرسٌ، أوْ حِصانٌ، أوْ جَوادٌ، أمّا (الفَرَسُ) فمِن الفَرْسِ، وهو يَدُلُّ على وطْءِ الشَّيْءِ ودَقِّه، فالفَرَسُ من هذا القياس؛ لركلِهِ الأرضَ بقوائمِهِ ووطئِه إيّاها[1]. قال القرطبيّ: "وسُمّي فرسًا؛ لأنّه يفترسُ مسافاتِ الجوِّ افتراسَ الأسدِ وثَبانًا، ويَقطعُها كالالتهام بيدَيهِ على كلِّ شيءٍ خبْطًا وتناوُلًا"[2]. وأمّا (الجوادُ) فمشتقٌّ من الجوْدِ، وهو التَّسمُّحُ بالشَّيء[3]، وكثرةُ العطاءِ والبذلِ؛ لما يُقدّمُهُ من الإسراعِ والعَدْوِ؛ ليُنقذَ فارسَهُ في ساعاتِ المِحَنِ والمُلمّات. وأمّا (الحِصانُ) فمشتقٌّ منَ الحِصْنِ، وهو المكانُ المنيعُ؛ إذ يَتحَصّنُ به الفارسُ عندَ مُقارعةِ الخُصوم. وفي كثرةِ أسمائها وتعدُّدِها دليلٌ واضحٌ على شرفها؛ فكثرةُ الأسماء دليلٌ على شرف المسمّى.

وقد آثرَ النّظمُ الكريمُ لفظَ (الجياد) الَّذي هو جمعُ (جَوادٍ)؛ للدّلالةِ على فَراهةِ خُيولِ سُليمانَ ﵇ ونفاسَتِها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرس).

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 194.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جود).

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الـجـهـادُ عنـدَ الأنـبـيـاءِ غـايـةٌ عُليا

لـمّا استعرضَ سُليمانُ الخيولَ الجيادَ أخبرَ أنّه أحبَّها؛ لكونها آلةَ الجهادِ ونشرِ دعوةِ الإسلام، وبَقيَ ينظرُ إليها حتَّى غابتْ عن العُيون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾: (حبّ) أصْلٌ يدلُّ على اللُّزوم والثَّباتِ[1]. والمَحَبَّةُ: تعلُّقُ القَلْبِ بَين الهِمَّةِ والأُنْسِ في البَذْلِ والمَنْعِ[2]، واشتقاقُهُ من أحبَّهُ إذا لَزِمَهُ[3]. وهو كذلك الوِدادُ، ونَقيضُه: البُغْضُ، يُقالُ: تَحَبَّبَ إليه؛ أيْ: تَوَدَّدَ إليه، وتقولُ: أحبَبْتُ الشَّيْءَ فأنا مُحِبٌّ وهو مُحَبٌّ[4]. والمقصودُ به في الآية: مَيْلُ النَّفْسِ إلى الحَسَنِ.

2) ﴿تَوَارَتۡ﴾: أصلُ التَّواري: الاخْتِفاءُ، يُقال: ورَّيْتُ الخَبَرَ أُوَرّيه تَوْريةً؛ إذا سَتَرْتَهُ وأظهرتَ غَيْرَهُ، كأنَّه مأْخوذٌ مِنْ وراءِ الإنسان؛ لأنَّه إذا قالَ: ورَّيتُهُ فكأنَّه يَجعلُه وراءَهُ حيثُ لا يَظهَر[5]. والوَرِيُّ: الضَّيْفُ؛ لاستتارِهِ عن أهلِ البيتِ حَياءً، وفُلانٌ وريُّ فُلانٍ؛ أي: جارُهُ الَّذي تواريه بيوتُهُ وتَسترُهُ[6]. والتَّوْرِيَةُ: إخفاءُ الخبَرِ وعدمُ إظهارِ السِّرِّ، تقول: ورَّيتُهُ تَوْريةً[7]. والمقصود بالتَّواري في الآية: الاستتارُ والاختفاءُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(2) الهروي، منازل السائرين، ص: 88.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حب).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (حب).
(5) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ورى).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورى).
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (ورى).

3) ﴿بِٱلۡحِجَابِ﴾: (حجب) أصلٌ يدُلُّ على المَنْع والسَّترِ[1]. يُقالُ: حَجَبْتُهُ عن كذا؛ أي: مَنَعْتُه. وحَجَبْتُ الشَّيءَ أَحْجُبُهُ حَجْبًا إذا سَترتَهُ[2]. والحِجابُ: السّاترُ للمَرْئيِّ من حائطٍ أَوْ ثَوْبٍ. وكلُّ شَيْءٍ حَجَبَكَ فقد سَترَكَ[3]. والحِجابُ في الآية: هو الغُبارُ الكثيفُ النّاشئُ من حركةِ استعراضِ الخيلِ الكثيرةِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

اللّائقُ بحالِ الأنبياءِ الاستغراقُ بالله

يخبرُ اللّه تعالى بما قالَه سليمان عليه السلام خلالَ استعراضِهِ الخيولَ الصّافناتِ الجيادَ على سبيلِ الشُّكرِ لربِّه، إذ قال: إنّي أحببتُ استعراضَ الصّافناتِ الجياد، وأحببتُ تدريبَها وإعدادَها للجهاد، من أجلِ ذِكر ربّي وطاعتِهِ وإعلاءِ كلمتِهِ، ونُصرةِ دينِه، وقد بقيتُ حريصًا على استعراضِها وإعدادِها للقتال في سبيل اللّه، حتَّى غابَتْ عن أعيُنِ النّاظِرينَ بسبب حُلولِ الظَّلام الَّذي يَحجبُ الرُّؤيةَ[4].

هذا هو التَّفسيرُ المُتعيِّنُ الَّذي يتّفقُ مع مركزِ النُّبوّة وشرفِ الرِّسالة ودلالة الحالِ في تعدادِ النّعم لا النِّقم على سُليمان، فلا يَصِحّ التَّفسير بشيءٍ يتنافى مع هذا، لا سيَّما وقد أمرَ اللّه تعالى نبيّنا ﷺ أنْ يتأسّى بداوودَ وسُليمان، كما في مَطلَعِ الآيات: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: 17][5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغايةُ منَ الاستعراضِ بيانُ حُبِّه إبلاغَ كلمةِ الحقِّ

بلاغةُ الوَصْلِ بـ(الفاء) في الآيةِ:

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حجب).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حجب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 234.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 83 - 85، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 194 - 195، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 159.
(5) الزحيلي، التفسير المنير: 23/ 200.

بما قبلَه بحرفِ (الفاء) الدّالَّة على التَّعقيبِ الزَّمنيّ، والتّعقيبُ هو باعتبارِ أواخرِ العَرْضِ المُستمرّ دونَ ابتدائِه، وللإيماءِ إلى تسبُّبِ القولِ عن ذلك العَرْضِ لآلةِ الجهاد، وبيانِ مَدى حُبِّه لها وعنايتِه بها من أجلِ تبليغِ الدَّعوةِ وإيصالِ كلمةِ الحقِّ.

دلالةُ فعلِ (القول) الماضي:

حكايةُ قصصِ السّابقينَ بالزّمَنِ الماضي

جاءَ فعلُ القولِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بصيغةِ الماضي المُناسبةِ لحكايةِ القصصِ الماضيةِ، وللدّلالةِ على وقوعِها في وقتٍ سابقٍ لزمنِ التَّكلُّم، وأنّ الغرضَ منها أخذُ العِبرةِ من قصصِ السّابقينَ.

سرُّ التّوكيدِ بـ(إنَّ):

كلُّ ما خلقه الله ينبغي تسخيرُه في سبيل الله

أُكِّدَ الكلامُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بحرفِ التَّوكيد (إنّ)؛ للدّلالةِ على كمالِ حُبِّه لآلةِ الحربِ والجهادِ، وسُرورِه بهذا النَّوعِ من المخلوقاتِ الَّتي سخَّرها اللّه تعالى من أجلِ إيصالِ كلمةِ الحقِّ لجميعِ الخَلقِ، وردًّا على مَن يشكُّ في صدقِ نيّتِه أوْ يظنُّ أنَّه يحبُّ ذلك لأمرٍ يتعلّقُ بالمُلك وحُبِّ السَّيطرةِ والأُبَّهة.

وجهُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾:

الإيثارُ من لوازمِ الحُبّ

ذهبَ جماعةٌ من المفسّرينَ إلَى أنّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ بمعنى: (آثرتُ)، وقد جاءَ بمعنى الإيثارِ في قَوْله تَعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [إبراهيم: 3]؛ أي: يُؤْثِرونَها، والإيثارُ من لوازمِ الحبّ، فيكونُ مجازًا مُرسَلًا من تسميةِ الشّيءِ باسمِ مَلزومِه.

والَّذي يبدو لنا إبقاءُ كلمةِ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ على مَعناها، وهو تعلُّقُ القلبِ بآلةِ الجهاد؛ لأهمّيَّتِها في نَشْرِ رسالةِ التَّوحيدِ الَّتي جاءَ بها جميعُ المُرسَلينَ.

نكتةُ الاستعارةِ في ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾:

الأمراضُ تحتاجُ إلى التّداوي بأضدادِها

تضمّنَ قولُهُ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ - على قولِ بعضٍ - صورةً بيانيّةً، فقد استعارَ النّظمُ إحبابَ البعيرِ - أي: لزومَ مكانِهِ عن تعَبٍ أوْ مرضٍ ونحوِه - لِلزوم سُليمانَ محبّةَ الخيل، ففي ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ استعارةٌ تبعيّةٌ لا يخفى حسنُها ومُناسبتُها للمقام. ويمكنُ أن يُقالَ: إنّه مجازٌ مُرسَلٌ، حيثُ ذُكِرَ المقيَّدَ وأُريدَ المطلق، ثُمَّ أريدَ المقيَّدُ الآخرُ فيكونُ مَجازًا بمرتبتينِ، أوْ أُريد المقيَّدُ الآخَرُ عَلَى أنّه فردٌ من أفرادِهِ فيكونُ مَجازًا بمرتبةٍ واحدة. والَّذي يظهرُ لنا أنَّ الحبَّ بمعنى تعلُّقِ القلبِ بالخيلِ؛ لكونها تحملُ الدّعوةَ، ويدافعُ بها المؤمنونَ عن الإسلام.

بلاغةُ التّضمينِ في ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾:

الإيجازُ بدلالةِ كلمةٍ على معنى كلمتينِ

عُدّي الفعلُ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بالحرفِ ﴿عَن﴾، والأصلُ أنْ يُعدّى بـ(على)؛ لأنّه بمعنى (آثرتُ) عندَ بعضهم؛ فمعنى أحببتُ حبَّ الخير: آثرتُ حبَّ الخير عَلَى ذكرِ اللّه ﷻ. ونظيرُهُ قولُه سبحانه: ﴿ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [التّوبة: 23]؛ أي: آثَروهُ عليه؛ ولهذا قالوا: إنّ الفعلَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ مُضمّنٌ معنى فعلٍ يَتعدّى بـ (عن)؛ كأنَّه قيل: أنَبْتُ أوْ عَوَّضْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذكر رَبّي، أوْ جعلتُ حبَّ الخير مُجْزِيًا أوْ مُغْنيًا عن ذكر ربّي(1). وبلاغةُ التَّضمين: أنْ يُدَلَّ بكلمةٍ واحدةٍ على معنى كلمتين(2).

والَّذي يتبيّنُ لنا: أنَّ ذلك تكلّفٌ واضحٌ؛ فقد جعلوا ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ بمعنى (آثرتُ)، وضمَّنوا ذلك معنى فعلٍ آخَرَ، والظّاهرُ أنَّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ مستعملٌ في معناه الَّذي هو تعلُّقُ القلبِ بالشَّيءِ لِمَقصدٍ

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 92، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 390.

(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 687.

سام تقدّم ذكرُهُ؛ إذ لا يليقُ بالنَّبيِّ المُرسَلِ سُليمانَ ﷺ أنْ يُؤثِرَ على ذكرِ اللّه شيئًا مِن الدُّنيا.

الأوجهُ الإعرابيّةُ في لفظِ ﴿حُبَّ﴾:

تنوّعُ المعاني الدّلاليّة بتنوُّعِ الوجوهِ الإعرابيّة

ذكر المفسِّرون في إعرابِ لفظِ ﴿حُبَّ﴾ مِن قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ عدَّةَ أوجه:

أحدُها: أنّه مفعولٌ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾؛ لأنّه بمعنى (آثرتُ).

الثّاني: أنّه مصدرٌ على حذفِ الزّوائد؛ أي: مفعولٌ مطلقٌ، والنّاصبُ له ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾.

الثّالث: أنّه مصدرٌ تشبيهيٌّ؛ أي: حبًّا مثلَ حبِّ الخيرِ.

الرّابع: أنّه مفعولٌ مِن أجلِهِ؛ إذا جُعِلَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ من أحبَّ البعيرُ إذا سقطَ وبركَ مِنَ الإعياء. والمعنى: قعدتُ عن ذِكرِ ربّي لحبِّ الخيرِ[1].

الخامس: أنّ أصلَ التّركيبِ في قوله تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ هو: أحببتُ الخيرَ حُبًّا، فحوِّلَ التَّركيبُ إلى ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ فصارَ ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ تمييزًا؛ لإسنادِ نسبةِ المَحبّة إلى نفسِهِ لغرضِ الإجمالِ ثمَّ التّفصيلِ؛ كقوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ [القمر: 12][2].

ولا يخفى أنّ توجيهَ (المفعول به والتَّمييز) من أقوى الوجوه؛ لأنَّ جعلَ ﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مَحبوبًا مبالغةٌ في توصيفِ حالِ سُليمان مَعَ خيله وآلات جهادِهِ في سبيلِ اللّه، فهو لم يكتفِ بحُبِّ الخيل، بل أحبَّ حُبَّها، وفي جعلِ الحبِّ مفعولًا به مجازٌ عقليٌّ أوِ استعارةٌ مكنيّةٌ؛ إذ الحبُّ لا يتعلّقُ الحبُّ به معمولًا له إلّا على ذَيْنِك التّقديرين.

بلاغةُ الجناسِ في ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ﴾:

في قولِهِ تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مُحسِّنٌ بديعيٌّ يُسمّى

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 9/ 376.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.

جناسَ الاشتقاق؛ إذ توافقَتْ كلمتا ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ و﴿حُبَّ﴾ في الحروفِ الأصولِ، وهو مُلحَقٌ بالجناسِ الاصطلاحيّ؛ إذ كثيرًا ما يُلحَقُ بالتّجنيس الكلمتانِ الرّاجعتانِ إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المُسامحة، ولما فيه من التَّجانُسِ اللَّفظيِّ والصَّوتيِّ[1].

جناسُ الإلحاقِ بما اتّفقَ في أصلِ الاشتقاق

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مُعرّفًا بـ(أل) الدّالّة على تعريفِ الجنس، فيَقتضي عُمومَهُ، والخيرُ في الأصلِ هو المالُ النّفيسُ كما في قولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: 180]، ولا شكّ أنّ الخيلَ من أعزِّ المالِ النّفيس. وقال بعضُ العلماء: إنّ الخيرَ هو الخيلُ، والعربُ تُسمّيها كذلك؛ لتعاقُبِ الرّاء واللّام، فتقول: انهمَلَتِ العينُ وانهمَرَت، وختلَتْ وخترَتْ إذا خدعَتْ. قال الفرّاء: "الخيرُ في كلامِ العربِ والخيلُ واحدٌ"[2]، ويَشهدُ لذلك حديثُ: «الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة»[3]، فكأنّها سُمّيتْ خيرًا لهذا[4]. وقيل: إنّ العربَ من عادتِهم التَّفاؤُلُ، ولهم بالخيلِ عنايةٌ عظيمةٌ، حتّى وصَفوا شياتِها، وزَعَموا دلالتَها على بَخْتٍ أوْ نَحْسٍ، فلعلَّهم سَمَّوْها (الخيرَ) تفاؤُلًا؛ لتتمحّضَ للسَّعدِ والبَخْتِ[5].

عمومُ الخيرِ في المالِ النّفيسِ

مَعنى ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾:

عُدّي الفعلُ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ من غيرِ اعتبارِ تضمينِه بالحرفِ ﴿عَن﴾، ومعناها المُجاوزة، والتَّقديرُ: (أحببتُ الخيرَ حبًّا فجاوزتُ ذكرَ

ذكرُ الله تعالى باعثٌ لحُبِّ الخيرِ

(1) العصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 405.
(3) أخرجه البخاري برقم: (3645).
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 194.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.

ربّي)[1]، ويجوز أن يتعلَّق ﴿عَن﴾ بمقدّرٍ كـ(مُعْرِضًا وبعيدًا)، وهو حالٌ من ضميرِ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾. ومع اعتبارِ تضمينِ الفعل ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ معنى (آثرْتُ) يكونُ ﴿عَن﴾ بمعنى (على)، قالَ الزّجّاج: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾: آثرتُ حبَّ الخير عَلَى ذكرِ اللّهِ ﷻ[2]. وجَوَّزَ بعضُ العلماء كونَ ﴿عَن﴾ تعليليّةً، والتّقدير: (أحببتُ الخيلَ بسببِ ذكر ربّي)؛ أي: بسببِ كتابِ اللّه تعالى وهو التَّوراةُ؛ فإنّ فيه مدحَ الخيلِ[3]، أَوْ بمعنى: إنّ هذه المحبّة الشّديدةَ إنّما حصلتْ عن ذكرِ اللّهِ وأمرِهِ لا عن الشّهوة والهَوَى[4].

ولا يَخفى ما في هذه الوجوهِ من عدمِ مُلاءمةٍ لمقام الأنبياء والمرسَلين، والصّوابُ أنَّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ باقٍ على معناه، وأنَّ ﴿عَن﴾ موضوعةٌ للمجاوزة، مستعملةٌ هنا بمعنى التَّعليل؛ إذِ السَّببُ باعثٌ على المسبّبِ، فيكونُ المُسبّبُ متجاوزًا عنه، وهكذا يتجاوزُ حبُّ الخيرِ عن سببِهِ وهو ذكرُ اللّه تعالى، ويكونُ الذِّكرُ للّه والاستغراقُ بالثَّناء عليهِ كما هو اللّائقُ بحالِ المُرسَلين سببًا لحُبِّ الخيلِ والخيرِ.

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿ذِكۡرِ﴾:

أفضلُ العِبادات ذكرُ الله بالجَنانِ واللِّسان

أوثر في قوله تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ التّعبيرُ بلفظِ (الذِّكر)، وأصلُهُ خلافُ النّسيان، ويُطلَقُ الذِّكْرُ على حضورِ الشّيءِ بالقلب أو بالقول، ولذلك قيلَ: الذِّكْرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلبِ وذِكرٌ باللّسانِ[5]. ومن المفسّرينَ مَن جعلَ (الذّكر) في هذه الآيةِ بمعنى التّوراة[6]، وهو نظيرُ الذِّكرِ في قولِه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾ [النَّحل: 43]؛ أي:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.
(2) الزجّاج، إعراب القرآن وبيانه: 4/ 331.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 184.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 390.
(5) الراغب، المفردات: (ذكر).
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 184.

الكتبِ المُتقدِّمة، وسُمّيَتْ ذكرًا؛ لأنّها تُذَكِّرُ النّاسَ بما يجبُ عليهم، أوْ لأنّ فيها التّذكيرَ باللّه واليوم الآخِرِ. وذهبَ بعضُهم إلى أنّ المرادَ بالذّكر هنا الصّلاةُ، فلعلَّها صلاةٌ كانَ رتَّبَها لنفسِهِ؛ لأنّ وقتَ العشيّ ليستْ فيه صلاةٌ مفروضةٌ في شريعةِ موسى عليه السلام إلّا المغربُ[1].

والَّذي يبدو لنا عدمُ الحاجةِ إلى تأويلِ (الذِّكر) بالتَّوراة أو بالصَّلاة، بل إبقاءُ (الذّكر) على معناه الأصليّ وهو الثّناءُ على اللّهِ بالقلب واللِّسان كما هو حالُ الأنبياء؛ فقد دفعَهُ الانشغالُ القلبيُّ باللّه تعالى إلى حُبِّ الخيلِ الّتي يغزو بها في سبيلِ اللّه تعالى، وليسَ كما فهِمه بعضُهم بأنَّه دفعَهُ الانشغالُ القلبيُّ بالخيلِ عن ذكر اللّه تعالى.

إيثارُ لفظِ (الرَّبّ) مُضافًا إلى ضميرِ المُتكلّم:

شفقةُ الرّبّ بالمَربوبِ والإحسانُ إليهِ

عُبِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بلفظِ (الرَّبِّ) دونَ ما سِواهُ من أسماءِ اللّه وصفاتِهِ؛ لما في وصفِ الرّبوبيَّة منَ الدّلالةِ على الشّفقةِ بالمَربوب، ومَحبّةِ الخيرِ له، ولتتأتّى الإضافةُ المُفيدةُ للتّشريف والقُربِ؛ فهو ربُّهُ الَّذي أحسنَ إليه بكلّ هذه النِّعَم من النّبوّةِ والمُلك وغيرهما[2].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾:

انشغالُ سليمانَ بالخيلِ حتَّى تَتوارى عن الأنظارِ

يدلُّ الحرفُ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ على الغايةِ والتَّدريج، وقد استشكلَ المفسّرونَ معنى (الغايةِ) هنا؛ لأنّ الفعلَ يكونُ قبلَها مُتطاوِلًا حتّى تصحَّ الغايةُ، وظاهرُ هذا اللّفظِ يدلُّ على أنَّ سليمانَ عليه السلام كانَ يقولُ: إنّي أحببتُ حبَّ الخيرِ عن ذكرِ ربّي، وكانَ يُعيدُ هذه الكلماتِ إلى أنْ توارتْ بالحِجاب، ولا يَخفَى بُعدُهُ، فلو قلنا: المرادُ: (حتّى توارتِ الصّافناتُ بالحجاب) كان معناهُ: أنّه حينَ وقعَ بصرُهُ عليها حالَ جَرْيِها كانَ يقولُ هذه الكلمةَ إلى أنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 255.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 425، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 04/ 202.

غابَتْ عن عينِه، ولو قلنا: المرادُ: (حتّى توارتِ الشّمسُ بالحجاب) كان معناه: أنّه كانَ يُعيدُ عينَ هذه الكلمةِ من وقت العصرِ إلى وقتِ المغرب، وهذا في غايةِ البُعد. والجمهورُ على أنّه ﵇ بَقي مشغولًا بتلك الخيلِ حتَّى غربتِ الشّمسُ وفاتتْ صلاةُ العصر[1].

والّذي يتبيَّنُ لنا وفْقَ ما تقدّمَ: أنَّ سليمانَ أحبَّ الخيلَ بسببِ ذكرِ ربِّه، وأنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ دالّةٌ على الغاية والتّدريج، والتَّقديرُ: فتَبِعَها ببصَرِهِ من حُبِّه لها حتّى توارَتْ تلك الجيادُ واستترتْ بالحِجابِ من الغُبارِ المُتشكّلِ أثناءَ حركتِها وجَرْيِها، ممّا يُنبئُ عن مَدى اهتمامِه بآلةِ الحربِ وإعجابِهِ بها لمقصدِ نشرِ الدّينِ والتَّوحيدِ.

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿تَوَارَتْ﴾ دونَ غيرِه:

التّــواري لازمٌ للاستعراضِ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ ﴿تَوَارَتْ﴾، وأصلُ التَّواري: الاخْتِفاءُ والاستتارُ عن الأبصار، وهو مقابلٌ مُضادٌّ للعَرْضِ في قولِه: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾؛ إذ العرضُ يدلُّ على الإقبالِ لأجل الاستعراض، فيكونُ التّواري عن الإنظارِ مُقابلًا له، ففيه صنعةُ الطِّباق.

مَرْجِعُ الضَّميرِ في ﴿تَوَارَتْ﴾:

حذفُ ما يُعلَمُ جائزٌ وبليغٌ

اختلفَ المُفسّرونَ في عَوْدِ الضّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾؛ وأشهرُ الأقوالِ أنّه عائدٌ على (الشّمس)، فهو كنايةٌ عن غيرِ مَذكور، مثل قولِهِ تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]؛ أي: على ظَهْرِ الأرض، وتقولُ العرب: هاجَتْ باردةً؛ أي: هاجَتِ الرّيحُ باردةً، وإنّما يجوزُ الإضمارُ إذا جرى ذِكْرُ الشَّيءِ أوْ دليلُ الذِّكْرِ، وقد جرى هاهنا الدَّليلُ، وهو قولُه: ﴿بِٱلْعَشِيِّ﴾، والعشيُّ ما بعدَ الزَّوال. وقالتْ طائفةٌ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخيلُ في المُسابَقة، وذلك أنّ سليمانَ كانَ له ميدانٌ مُستديرٌ يُسابقُ فيه بينَ الخيل، حتّى

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 154، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 390.

تَوارَتْ عنه وغابت عن عينِهِ في المُسابقةِ؛ لأنّ الشّمسَ لم يجرِ لها ذكرٌ، وهو ما نميلُ إليه؛ لأنَّ الغايةَ من ذكرِ تواري الخيلِ عن الأنظارِ بيانُ كثرتِها، حتَّى إنَّها شكّلَتْ بحركتِها وجَرْيِها غُبارًا كثيفًا، فكانتْ تَتوارى عن الإنظارِ بسببِهِ.

معنى (الباء):

الــحِــجــابُ مُشتمِلٌ اشتمالَ الــظّــرفِ على المظروفِ

يجوزُ في (الباء) الجارَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ أنْ تُحمَلَ على الظّرفيّةِ أوِ الاستعانةِ أوِ المُلابَسة، ومعنى الظّرفيّةِ والمُلابسةِ: أنّ الحجابَ اشتملَ على المُتواري (الشّمسِ أوِ الخيلِ) اشتمالَ الظّرفِ على المظروف، ومعنى الاستعانةِ: أنّ المُتواريَ (الشّمسَ أوِ الخيلَ) استترَتْ بشيءٍ يَحجبُها عنِ الأبصارِ[1].

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ (الحِجاب):

الــحِــجــابُ هو السّاترُ للأبصارِ عنِ الإبصارِ

عبّر النّظمُ الكريم بلفظِ (الحِجاب) في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، وأصلُ (حَجَبَ) يدلُّ على المَنْعِ والسَّتر[2]، فالحِجابُ: السّاترُ للمرئيِّ. وقد جاءَ لفظُ (الحجاب) مُعرّفًا بـ(أل) الدّالّة على المعهودِ، واختلفَ المفسّرونَ في تحديدِ هذا الحجابِ تبَعًا لاختلافِهم في المُتواري، فمَن قال: إنّ المُتواريَ هي الشّمسُ قال: الحجابُ هو مَغرِبُها أوِ الجبلُ؛ لأنّها تتوارى خلفَهُ، أو هي الأرضُ الّتي حالَتْ بينَهُ وبينَها فصارَتْ وراءَها حقيقةً[3]. ومَن قالَ: إنّ المُتواريَ هي الخيلُ قالَ: إنّ المرادَ بالحِجاب إصطبلاتُها أوْ ظلامُ اللّيلِ الّذي يَحجبُ الرُّؤيةَ[4].

والَّذي يبدو لنا: أنّ (الحجابَ) هنا هو الغبارُ الكثيف، وإنَّما عرّفَه وجعلَه معهودا؛ لأنّ من لوازمِ الاستعراضِ بالخيل نشوءَ غُبارٍ في الأفق، وهي تتوارى عن أنظارِ سليمانَ فيه.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 184، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 378.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حجب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 380، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 378.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 154، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 226.

ابتهاجُ سُليمانَ لا تحسُّرُه

غرضُ الخبرِ في الآيةِ:

خرجَ الخبرُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ على مذهبِ جمهورِ المُفسّرين مَخرجَ التَّحسُّرِ؛ اعترافًا بما صدرَ عنه من الاشتغالِ عن ذكر اللّهِ وندمًا عليه، ويرى آخرون: أنّ القولَ المنسوبَ للجمهور لا يناسبُ مَناصِبَ الأنبياء، فأوّلوا هذه الآيةَ بأنّه قد عُرِضَ على سليمانَ الخيلُ وهو في الصَّلاة، فأشارَ إليهم أنّي في صلاتي، فأزالوها عنهُ حتّى دخلَتْ في الإصطبلات، فقالَ لمّا فرغَ من صلاته: إنّي أحببتُ حبَّ الخير؛ أي: الّذي عندَ اللّه في الآخرةِ بسببِ ذكرِ ربّي، فشغَلَني ذلك عن رُؤية الخيلِ حتّى أُدخِلَتْ إصطبلاتِها[1]. والَّذي نراه: أنَّ الخبرَ دالٌّ على ابتهاج سليمانَ بذلك العَرضِ المَهيب الدّالِّ على قوّتِهِ في نشرِ أوامرِ اللّه ودينِهِ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 09/ 154.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾ [ص: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الاهتمامُ الفعليُّ بالخيل

لـمّا ذَكرَ في الآيةِ السّابقةِ ابتهاجَ سُليمانَ عليه السلام بآلةِ الحربِ والجِهاد قَلْبًا وحُبًّا ذكرَ في هذه الآيةِ فعلَهُ بالخيلِ؛ ليَجمعَ بين الاهتمامِ القلبيّ والفعليّ بها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رُدُّوهَا﴾: أصلُ الرَّدِّ: صرفُ الشّيءِ بذاتِه، أَوْ بحالةٍ مِن أحوالِه[1]، يُقالُ: رَدَّهُ عن طَريقِه؛ أَيْ: صَرَفَهُ[2]. ويأتي بمعنى: الإعادَةِ والإرْجاع، تَقول: رَدَّهُ إلى مَنْزِلِه؛ أيْ: أعادَهُ، ورَدَّ إلَيْه جَوابًا؛ أيْ: أرجَعَهُ وأرسَلَه[3]. ومِن مَعانيه أيضًا: المَنْعُ والرَّفْضُ، وشيءٌ مَردودٌ؛ أيْ: مرفوضٌ، ورَدَّ فُلانًا: خَطَّأَهُ؛ أيْ: لم يَقبلْهُ. والرَّدُّ في الآيةِ معناه: الإرجاعُ إلى المكانِ الَّذي يُؤتَى منهُ[4].

2) ﴿فَطَفِقَ﴾: طَفِقَ مِن أفعالِ الشُّروعِ في الفعلِ، يُقال: طَفِقَ يفعلُ كذا يَطْفَقُ طَفَقًا؛ أي: جعَلَ يفعَلُ[5]، كما يُقالُ: ظَلَّ يَفعلُ كذا، وأَخَذَ يفعَلُ كذا، ويُستعمَلُ في الإيجابِ دونَ النَّفي[6]. وطَفِقَ في الآية: من أفعالِ الشُّروعِ؛ أي: فَشَرَعَ.

3) ﴿مَسۡحَۢا﴾: أصلُ (مسح) يدُلُّ على إمرارِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[7] لإزالةِ ما عليهِ من غَبَشٍ أَوْ ماءٍ أَوْ غُبارٍ وغيرِ ذلك ممّا

(1) ابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (ردَّ - ردد).
(2) الجوهري، الصحاح: (ردد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ردد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 300.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح: (طفق).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (طفق).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسح).

لا يُرادُ بقاؤُهُ على الشَّيءِ، ويكونُ باليدِ أوْ خِرقةٍ أوْ ثوبٍ، ويُطلَقُ على القَطعِ، يُقالُ: مسَحَ رأسَهُ؛ إذا قطَعَهُ[1]. والماسِحُ: القتّالُ، يُقالُ: مَسَحَهُم؛ أي: قتَلَهُم[2]. و﴿مَسۡحَۢا﴾ في الآية: مصدرٌ أُقيمَ مُقامَ الفِعْلِ؛ أي: طَفِقَ يَمسَحُ مَسحًا. ولعلَّ معناه كنايةٌ عن القَتْلِ بالسَّيفِ؛ لأنَّ السَّيفَ يُمسَحُ عنه الدَّمُ بعدَ الضَّربِ به[3]. وقيلَ: المُراد به - وهو الرّاجحُ -: مسحُ سيقانِ الخيلِ ونَواصيها بيدِ سُليمان تكريمًا لها، وتفحُّصًا لأحوالِها حتّى يُعالجَ ما قد يكونُ بها من عيوبٍ[4].

4) ﴿بِٱلسُّوقِ﴾: أصلُ (سوق) يدلُّ على حَدْوِ الشَّيءِ، والسّاقِ للإنسانِ وغيره، والجَمْعُ: سوقٌ وسيقانٌ وأسْوُقٌ؛ إنَّما سُمّيتْ بذلكَ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها. ويُقالُ: امرأةٌ سَوْقاءُ، ورَجُلٌ أسْوَقُ، إذا كان عظيمَ السّاقِ[5]. ومنه أيضًا السّوْقُ: معروفةٌ؛ وسُمّيت بذلك؛ لأنَّ الأشياءَ تُساقُ إليها ومنها[6]. والمقصودُ به في الآية: جَمعُ ساقٍ، وهو ما بينَ الكَعْبِ والرُّكبةِ منَ الإنسانِ والحَيوان.

5) ﴿وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾: أصْلُ (عنق) يدُلُّ على امتدادٍ في شيءٍ. ومنه العُنُقُ: الرَّقَبَةُ والوُصْلَةُ ما بين الرَّأْسِ والجَسَدِ[7]. والأعْنَقُ: الطَّويلُ العُنُق، والأنثى عَنْقاءُ بيِّنة العَنَقِ[8]. والأعناقُ: جَمْعُ عُنُقٍ بِضَمَّتَيْنِ، وقد تُسكَّنُ النّونُ، وهو مؤنَّث. وقيلَ: المضمومُ النّونِ مؤنَّثٌ، والسّاكنُ النّونِ مُذَكَّرٌ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

طَلَبَ سُليمانُ ﷺ من جُندِهِ والقائمينَ على شأنِ الخيلِ أنْ يردّوها ويُعيدوها إليه، فلمّا أعادوها إليه شَرَعَ يَمسَحُ سيقانَها وأعناقَها؛ تشريفًا وإعزازًا لها وشفقةً عليها وإظهارًا لمكانتِها، إذ هي من أعظمِ ما يُساعِدُ المجاهدَ ويُعاونُهُ في دفعِ عدوِّهِ والانتصارِ عليه،

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح: (مسح)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 257.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (مسح).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 257.
(4) الزحيلي، التفسير المنير: 23/ 204.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).
(6) ابن عباد، المحيط في اللغة: (سوق).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (عنق).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 96، 23/ 257.
(9) الجوهري، الصحاح: (عنق).

وقد أبدى عليه السلام كمالَ التَّواضُعِ في مُباشرةِ ذلك الأمرِ بنفسِهِ. وهكذا يَضرِبُ الأنبياءُ الأمثالَ لأقوامِهم وأتباعِهم ليتأسَّوا بهم[1].

للخيلِ منزلةٌ عظيمةٌ في نفوسِ أصحابِها؛ لفضلِها وشَرَفِها

من كمالِ رَحمةِ الأنبياءِ الشَّفقةُ على الحَيوانِ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ قولِهِ: ﴿رُدُّوهَا﴾:

وردتِ الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ مفصولةً عن الجملةِ قبلَها؛ لأنّ بينَهما ما يُسمّى في البلاغةِ بـ(شبه كمال الاتِّصال)؛ إذ جملةُ ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ على قول الزّمخشريّ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ كأنّه قيل: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾، فهذا موضعٌ مُقتضٍ للسّؤال اقتضاءً ظاهرًا، وهو اشتغالُ نبيٍّ من أنبياء اللّه بأمرِ الدّنيا حتّى تفوتَهُ الصّلاةُ عن وقتها[2]. وتعقّبَهُ أبو حيّانَ بأنَّه لا يُحتاجُ إلى الإضمار؛ إذ الجملةُ مندرجةٌ تحتَ حِكايةِ القولِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾[3]. والّذي يتبيّنُ لنا: أنَّ السُّؤالَ نشأ من قوله: ﴿أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾، فأراد بيانَهُ وتوضيحَه فقال: علامةُ ذلك الحبِّ أنْ رُدّوها ... إلخ.

دلالةُ فعلِ الرَّدِّ:

الرَّدُّ إرجاعٌ إلى مكانٍ سابقٍ

عُبِّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ بفعلِ الرَّدِّ، ومعناهُ في اللُّغة: الإعادةُ والإرْجاعُ، والمرادُ به الأمرُ الصّادرُ من سُليمانَ عليه السلام بأنْ تُرجَعَ إليه الخيلُ من المكانِ الَّذي يُؤتَى بها منه[4]. وإنَّما طَلَبَ ردَّها إليهِ بعدَ أنْ أحسَّ بتَعَبِها في الجَرْيِ؛ شَفَقَةً بِها.

عَوْدُ الضّميرِ في ﴿رُدُّوهَا﴾:

تنوُّعُ المعنى باختلافِ مَرجِعِ الضَّميرِ

ضميرُ (الهاءِ) في قولِهِ تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾

(1) مقاتل، تفسير القرآن: 3/ 644، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 68، والزمخشري، الكشاف: 4/ 93، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 449.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 93.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 155.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 300.

﴿ٱلۡجِيَادُ﴾ بدلالةِ السّياق، والخطابُ في قولِهِ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ لسائِسي خَيلِه. وقيلَ: الضَّميرُ عائدٌ إلى الشّمسِ، والخِطابُ للملائكةِ، وهو في غايةِ البُعد.

فائدةُ التّعبيرِ بالجارّ والمجرور ﴿عَلَيَّۖ﴾:

الاستعلاءُ المجازيُّ دالٌّ على القربِ المكانيّ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ﴾ التَّعبيرُ بحرفِ الجرّ (على) دونَ (إلى)؛ للدّلالة على الاستعلاءِ المَجازيِّ المُناسِبِ لتعظيمِ كلامِ المُلوك، كما يفيدُ حرفُ الجرِّ (على) أنَّ الرَّدَّ ليس للعرضِ عليه، بل يُقرِّبونَها منهُ لغرضِ المَسْحِ عليها حُبًّا وكرامةً، وهذا لا يتحقّقُ بالرَّدِّ إليه؛ لأنّه قد يكونُ للعَرضِ عليه.

معنى (الفاءِ) في ﴿فَطَفِقَ﴾:

تعقيبُ الرَّدِّ بسُرعةِ المَسْحِ بها

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ بما قبلَهُ بحرفِ (الفاء)، وهي تعقيبيَّةٌ فصيحةٌ مُفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بسُرعةِ الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾؛ أي: فَرَدّوها عليه فطَفِقَ مَسْحًا... إلخ[1].

سرُّ إيثارِ الفعلِ (طَفِقَ):

الدّلالةُ على الشّروعِ بأفعالٍ مَخصوصةٍ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ استعمالُ الفعلِ (طفق) للدّلالةِ على الشّروع، واسمُها ضميرُ سُليمانَ، وخبرُها مقدّرٌ دلَّ عليه قولُهُ: ﴿مَسۡحَۢا﴾، فهو منصوبٌ بفعلٍ مقدّرٍ هو خبرُ (طفِقَ)؛ أي: فَطَفِقَ يمسَحُ مَسْحًا، وخبرُ هذه الأفعالِ لا يكونُ إلّا مضارعًا في العموم[2].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 185.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 377.

دلالةُ التّنكيرِ في ﴿مَسۡحَۢا﴾:

الحبُّ الشّديدُ للخيل والرّحمةُ العميقةُ بِهِ

وردَ لفظُ ﴿مَسۡحَۢا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾ نكرةً دالَّةً على نوعٍ مخصوصٍ منَ المَسْحِ الرَّحيم، وجاءَ ﴿مَسۡحَۢا﴾ مفعولًا مطلقًا لفعلٍ مقدّرٍ هو خبرُ (طَفِقَ) تقديرُهُ: (يمسحُ مسحًا)، بناءً على رأيِ مَن يُجوِّزُ حذفَ عاملِ المفعولِ المطلقِ المؤكِّد، واستعمالُ المفعولِ المطلقِ يُفيدُ تأكيدَ الفعلِ والمبالغةَ فيه، وأمّا على رأيِ مَن يمنَعُ حذفَ عاملِهِ؛ فهو مصدرٌ نائبٌ مَنابَ فعلِهِ؛ للدّلالةِ على حقيقةِ المَسْحِ ونوعيّتِهِ المخصوصة. وجوّز أبو البقاء أيضًا كونَه حالًا مؤوَّلًا بـ(ماسِحًا)، واستُشكِلَ هذا الوجهُ؛ إذ لا بدّ لـ(طَفِقَ) من الخبر، وليس هذا ممّا يَسُدُّ الحالُ فيه مَسَدَّهُ[1].

بلاغةُ (المجازِ) في لفظ (المَسْح):

الكنايةُ أبلغُ من الحقيقة

يتضمَّنُ قولُهُ تعالى: ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ - على التّفسيرِ المَشهور - مجازًا، إذ مسحُ الأعناق لازمُهُ العَقْرُ، يقالُ: مسحَ عِلاوته، إذا ضربَ عُنقَهُ[2]، ويقالُ أيضًا: مسحَ السّيفَ به. ولعلّ أصلَهُ كنايةٌ عن القتلِ بالسّيف؛ لأنّ السّيف يُمسَحُ عنه الدّمُ بعدَ الضَّرْبِ به[3]. والّذي يترجّحُ لدينا الحملُ على الحقيقةِ الّتي هي إمرارُ اليدِ ونحوِها؛ ليَمْسَحَ سيقانَها وأعناقَها؛ رفقًا بها ومحبّةً لها.

نكتةُ تعريفِ (السّوق والأعناق):

دلالـةُ (أل) على المضاف إليه

جاءَ لفظتا (السّوق والأعناق) في قولِهِ تعالى: ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مُعرّفتين بـ(أل)، والظّاهرُ أنّها عِوَضٌ عن المضاف إليه؛ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾ [النّازعات: 41]؛ أي: بسوقِها

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 377.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 93.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 257، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 403.

وأعناقِها، و(أل) قائمةٌ مَقامَ الضَّميرِ المُضافِ إليه، أوْ تكونُ للعهدِ عندَ من لم يُجوّزِ العِوَضيَّة(1).

بلاغةُ العطفِ بـ(الواو):

تربيةُ النّفسِ بقَطْعِ العَلائِقِ

عُطِفَتِ (الأعناقُ) على (السّوق) في قولِهِ تعالى: ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ بحرفِ العطف (الواو) الدّالِّ على الجمعِ والاقتران، وفائدةُ تخصيصِ (السّوق والأعناق) بالذِّكرِ دونَ بقيّةِ أجزاءِ جسدِها: أنَّ التَّعبَ والغُبارَ إنَّما يظهرانِ بشكلٍ بارزٍ في هذينِ العضوينِ، فأرادَ إزالةَ ما عليهما من ذلك حُبًّا وحنانًا وكرامةً.

نكتةُ تقديمِ مَسْحِ (السّوقِ) على (الأعناقِ):

مُراعاةُ الأهمِّ في إظهارِ الاهتمام

تقدّم في قولِهِ تعالى: ﴿مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مسحُ السّوقِ على الأعناقِ في الذّكر، فقال بعض المفسِّرينَ: إنّ سليمانَ عليه السلام فعلَ ذلك على سبيلِ العَقْرِ وتسهيلًا للنّحْر(2). والّذي يترجّحُ لدَينا وفْقَ ما تقدّمَ بيانُهُ: أنَّ السّوقَ يظهرُ فيها أثرُ التّعبِ والغُبار، فقدَّمها بالذِّكر مراعاةً للواقعِ؛ إذ يَبدأ بمَسْحِ سوقِها ليرتفعَ بعد ذلك إلى أعناقِها؛ إظهارًا منه لكمالِ الاهتمام بزينتِها وجَمالِها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

طَفِقَ وشَرَعَ وباشَرَ وبَدَأَ:

الـزّيـادةُ على الشّروعِ بالدّلالةِ علـى المُـلازَمـةِ والاستمرارِ

تجتمعُ هذه الألفاظُ في دلالتِها على الشُّروعِ، ويتميّزُ الفعلُ (طَفِقَ) عنها في الدّلالةِ على المُلازَمةِ والاستمرارِ، المأخوذِ من قولِ العَرَبِ: طَفِقَ بالمَوضِعِ؛ أي: لَزِمَهُ(3). وأمّا شرَعَ فهو دالٌّ على فتحٍ في

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 185، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 403.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 403.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (طفق).

امتدادٍ يكونُ فيه[1]، ويدلُّ الفعلُ (باشَرَ) على الظّهورِ، يقالُ: أبشَرتِ الأرضُ: إذا أخرجَتْ نباتَها[2]. وأمّا (بدأ) فدالٌّ على افتتاحِ الشّيءِ، يقال: بدأتُ بالأمرِ وابتدأتُ، من الابتداءِ[3].

وقد آثرَ النّظمُ القرآنيّ لفظَ (طَفِقَ)؛ للدّلالةِ على سُرعَةِ الشّروعِ مع الاستمرارِ بمسح أعناق الخيل وسوقها جميعًا إلى آخِرِها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (شرع).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدأ).

﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ٣٤﴾

[ص: 34]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

الإرشـــادُ إلى التَّأسّي بإنابةِ سُليمانَ

لمّا ذُكِرَ في هذه السّورةِ مِن قصصِ سُليمانَ ما فيه أسوةٌ وعبرةٌ وتحذيرٌ على عادةِ القُرآنِ في ابتدارِ وسائلِ الإرشادِ بالتَّرغيب والتَّرهيب، ولمّا كانت الآياتُ المتعلّقةُ بالاشتغالِ بالخَيل وابتهاجِهِ بها موقِعَ أُسوةٍ به جاءتْ هذه الآياتُ مُشيرةً إلى فتنةٍ عَرَضتْ لسُليمانَ، أعقَبَتْها إنابةٌ، ثمَّ أعقَبَتْها إفاضةُ نِعَمٍ عظيمةٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتَنَّا﴾: أصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[2]، يُقالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ؛ أيْ: أحْرَقْتُه بالنّارِ؛ لِتَمْييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائغُ: الفَتّان، وكَذلِكَ الشَّيْطانُ[3]. والفَتْنُ أيضًا: إدْخالُ الرَّوْعِ والاضْطِرابِ عَلَى العَقْلِ بِسَبَبِ تَسْليطِ ما لا تَسْتَطيعُ النَّفْسُ تَحَمُّلَه[4]، والفِتْنَةُ: الابْتِلاءُ والامْتِحانُ والاخْتِبارُ، يُقالُ: فَتَنْتُه أفْتِنُه فَتْنًا وفُتونًا: إذا امْتَحَنْتَهُ[5]، وهو المقصودُ في هذه الآيةِ.

2) ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾: أصلُ (لقي) يدُلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[6]، والإلقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيثُ تلقاهُ؛ أي: تراهُ، ثمَّ صارَ في التَّعارُفِ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[7]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ كقولِه: ﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ [الشُّعراء:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 259.
(2) الخليل، العين: (فتن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فتن).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 91.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فتن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(7) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).

223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ؛ أي: مِنْ غيرِ سَبْقِ تهيُّؤٍ كما في قولِهِ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][1]، والمُراد بالإلقاءِ في الآية: الطَّرْحُ والرَّميُ.

3) ﴿كُرْسِيِّهِۦ﴾: أصلُ (كرس) يدُلُّ على تلبُّدِ شَيءٍ فوقَ شَيءٍ وتجمُّعِه[2]. والكِرْسُ: أصلُ الشَّيءِ، يُقالُ: هو قديمُ الكِرْسِ. وكلُّ مُجتمِعٍ مِنَ الشَّيءِ كِرْسٌ[3]. وتَكَرَّسَ الشَّيءُ وتَكارَس: تَراكَمَ وتَلازَبَ. وتَكَرَّس أُسُّ البِناء: صَلُبَ واشتدَّ[4]. واشتُقَّتِ الكُرّاسَةُ مِنْ هَذا؛ لِأنَّها ورَقٌ بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ[5]. والكُرْسيُّ واحدُ الكراسيِّ: اسمٌ لِما يُقعَدُ عليهِ[6]، وهو المرادُ في الآيةِ.

4) ﴿جَسَدًا﴾: أصلُ (جسد) يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ واشتدادِه[7]. ومنهُ الجَسَدُ: البدنُ. تقول: تَجَسَّدَ، كما تقولُ من الجِسْمِ: تَجَسَّمَ[8]. وهو للإنسانِ، ولا يقالُ لغيرِ الإنسانِ جَسَدٌ من خَلْقِ الأرْضِ[9]. وقيل: الجَسَدُ هو الَّذي لا يَعْقِلُ ولا يُميِّزُ، إنَّما معنى الجَسَدِ معنى الجُثَّة فقطْ[10]. وأمّا المرادُ به في الآية: فهو الجِسْمُ ذو الأعْضاءِ؛ سَواءٌ كانَ حَيًّا أمْ لا[11].

5) ﴿أَنَابَ﴾: أصلُ (نوب) يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه[12]. ونابَ نَوْبًا ونَوْبةً، وسُمّي النَّحلُ نَوْبًا لِرُجوعِها إلى مَقارِّها. وفلانٌ يَنتابُ فلانًا؛ أي: يَقصِدُهُ مرَّةً بعدَ أُخرى. والمُنيبُ مِن أنابَ إذا رَجَعَ[13]، والإنابةُ إلى اللهِ تعالى: الرّجوعُ إليه بالتَّوبة وإخلاصِ العَمَلِ[14]، وهذا هو المقصودُ في الآيةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/ 123.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرس).
(3) الراغب، المفردات: (كرس).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (كرس).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كرس).
(6) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كرس).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جسد).
(8) الجواهري، الصحاح: (جسد).
(9) الخليل، العين: (جسد).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة: (جسد).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 16/ 286.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(13) ابن عباد، المحيط في اللغة: (نوب).
(14) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نوب).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المُؤمِنُ رجّاعٌ إلى اللهِ تعالى في جَميعِ أحوالِهِ

تبين الايات اختبار سُلَيمانَ، وإلقاء الجسد على كُرسيِّه، ثمَّ رُجوعه عليه السلام إلى رَبِّهِ وإنابته(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ بـ(الواو):

التَّأسّي بقصّةٍ أُخرى من قصصِ سُليمانَ عليه السلام

(الواوُ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ استئنافيّةٌ، فهذه قصّةٌ أُخرى من قصصِ سُليمانَ عليه السلام، فيها دروسٌ وائتساءٌ وعِبَرٌ، ويتجلّى فيها فضلُ اللّه سُبحانه على سُليمانَ وعظيمُ مَنزلتِهِ عندَ ربّه، فقد أسفرتْ هذه الفتنةُ عن رُسوخِهِ في مَقامِ الأَوْبَةِ، وفيه تعليمٌ للنَّبيّ صلى الله عليه وسلم؛ ليقتديَ به وبغيره من الأنبياء في الاستبصارِ بالبلاء، وبيانٌ لما يَعقِبُ المِحنةَ منَ المِنحةِ والثّناءِ(2). وإنَّما ذكرَ قصّةً أُخرى؛ لينسجِمَ تعدُّدُ القصصِ معَ كونِهِ أوّابًا للّه تعالى في القوَّة والكثرة، فلا يبعدُ أنْ تكونَ (الواو) عاطفةً هذهِ القصَّةَ على القصَّة السّابقة.

دلالةُ التّوكيدِ بـ(لَقَدْ):

المُبالغةُ في تأكيدِ ابتلاءِ اللهِ لِعبادِهِ المُرسَلينَ

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ حرفُ (اللّام) مُتّصِلًا بـ(قَدْ)، وتُسَمَّى لامَ القسم، ومعنى ذلك أنّه لولا هذه (اللّامُ) لم يُعلَمْ أنّ في الكلام قَسَمًا مُقدَّرًا، وقد دخلت هذهِ (اللّام) على (قد) الدّالّةِ على التّحقيقِ مُبالغةً في التّأكيد، وكثُرَ في الكلام اقترانُ جملة جوابِ القسم بـ(قد)؛ لأنّ القسمَ يُهيّئ نفسَ السّامعِ لتوقُّعِ خبرٍ مُهمّ، فيُؤتى بـ(قد)؛ لأنّها تدلّ على تحقيقِ أمرٍ مُتوقَّع. والغرضُ من تأكيدِ هذا الخبرِ بكلّ هذه المؤكّدات هو العنايةُ بمضمونِه، والمبالغةُ

---

(1) الواحدي، تفسير الوجيز، ص: 923، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 199، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 66.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 381.

في تأكيدِ ابتلاءِ اللّه لعبادِهِ المُرسَلين، والتَّقدير: (وعزّتي وجَلالي لقد ابتلَينا سُليمانَ)[1].

سرُّ التّعبير بالفعلِ ﴿فَتَنَّا﴾ مادّةً وصيغةً:

عبّر القرآنُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ بالفعل ﴿فَتَنَّا﴾، والفَتْن والفُتون والفِتنة: اضطرابُ الحالِ الشّديدِ الّذي يَظهَرُ به مقدارُ صبرِ وثباتِ مَن يحِلُّ به البلاء، والتّقدير: (باللَّه لقد ابتلينا سليمانَ بالمِحَن أوِ امتحنّاهُ بها)[2]، وقد جاء بصيغةِ الماضي الدّالّةِ على التَّحقُّقِ؛ لمُناسبتِها لحكايةِ الأحداثِ الماضيةِ[3]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ خلقَ الإنسانِ في الدُّنيا تعريضٌ له لمجموعةٍ من الفِتَن، فإنِ اقتدى بالأنبياءِ والصّالحين إزاءَها أُثيب، وإنْ ضَعُفَ أمامَها عوقِبَ إنْ لم يُنِبْ أوْ يَتُبْ.

امتحانُ صبرِ العبادِ لترتيبِ الثّوابِ

دلالةُ إسنادِ الفعلِ إلى ضميرِ التّعظيم:

أُسنِدَ الفعلُ ﴿فَتَنَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ إلى الضَّميرِ (نا)، الّتي تدلُّ على تعظيمِ المُتكلّم سُبحانه وعُلوِّ قَدرِه؛ لتعدُّدِ صفاتِهِ الحميدة ومَواهبِهِ الجزيلة، فإنّ مثل هذا التّعبيرِ يُعبّر به الملوكُ والعظماءُ النّافذُ أمرُهم ونهيُهم، وفيه أيضًا إدخالُ المَهابةِ في قُلوبِ العبادِ[4]، وابتلاءُ العظيمِ يعظُمُ على حسبِ قَدْرِ العبدِ؛ لِرَفْعِ درجتِهِ وثوابِهِ.

عِظَمُ البلاءِ على حسبِ قَدْرِ العباد

بلاغةُ العطفِ بـ(الواوِ) في قوله: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾ على قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ بحرفِ (الواو)؛ للدّلالةِ على أنّه بيانٌ للابتلاءِ وتفصيلٌ لأحداثِه.

كثرةُ الإنابةِ إلى اللهِ عندَ تزاحُمِ الفتن

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 208، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 381.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 408.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 257.

(4) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

والَّذي نميلُ إليه: أنَّ الآيةَ تضمّنَتْ قصَّتينِ موجَزتينِ، هما: ﴿فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ﴾ و﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا﴾؛ لدلالةِ العطفِ على المُغايرةِ، وذلك يتناسبُ مع كونِهِ أوّابًا للّهِ تعالى كثيرَ الرُّجوعِ إليه، فما إنْ تعرَّضَ لفتنةٍ أوْ حدثٍ مثيرٍ إلّا لاذَ بجَنابِ مَولاه.

دلالةُ فعلِ (الإلقاء) مادّةً وصيغةً:

وجودُ شيءٍ غيرِ مقدورٍ دفعُهُ مثيرٌ للفَزَعِ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾ استعمالُ فعلِ (الإلقاء)، وأصلُهُ: الرّميُ إلى الأرضِ والطَّرحُ، واستُعمِلَ هنا في الوَضْعِ على الكرسيّ. وقد جاءَ بصيغةِ الماضي للدِّلالة على تحقُّقِ الوقوعِ وحصولِه، ويوحي فعلُ (الإلقاءِ) أنَّه طرحٌ لشيءٍ غيرِ مقدورٍ دفعُهُ لقوّةِ ذلك الرَّمي، حتَّى إنَّ سليمانَ أحسَّ بشيءٍ منَ الفزعِ لحصولِ الطَّرحِ في مَكانٍ لم يَتوَقّعْهُ، وهو الكُرسيُّ الَّذي يعودُ له. ويُرشِّحُ هذا المعنى إسنادُ الفعل (ألقَينا) إلى الضَّمير (نا) الّذي يدلّ على تعظيم المتكلّم سبحانه وعظمةِ ذلك الحدثِ الَّذي اختُبِرَ به سليمانُ عليه السلام.

دلالةُ المجازِ العقليِّ في الإلقاء:

كلُّ شيءٍ بتقديرِ اللهِ سُبحانه وحِكمتِه

قال المفسّرونَ في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾: إنّ القابلةَ أوْ أمةً له هي مَن وضعَتِ الجسدَ على كرسيّ سُليمانَ ليراه، فيكونُ في (ألقَينا) مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ فيه إسنادًا للفعلِ إلى مُلابسٍ له، والفاعلُ الحقيقيّ هو اللّه سبحانه؛ لأنّ كلّ شيءٍ بتقديرِهِ وحِكمَتِه سبحانه[1].

معنى ﴿عَلَىٰ﴾:

تحديدُ محلِّ الإلقاءِ يُحدِّدُ قيمةَ الفَزَعِ

وردَ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ﴾ حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾، الدّالُّ على الاستعلاءِ الحقيقيِّ، بمعنى أنّ الجسدَ قد أُلقيَ فوقَ كُرسيِّ سُليمانَ، وأتى به النّظمُ ليُحدِّدَ مكانَ الإلقاءِ، وهو الكرسيُّ

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 409.

دونَ الأرضِ وغيرِها من الأماكِن؛ لأنَّ فعلَ الإلقاءِ يتعدَّى بـ(إلى) و(في) أيضًا.

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ (الكُرسيّ):

تميُّزُ المُلوكِ بالكراسيِّ والعُروش

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ﴾ التّعبيرُ بلفظِ (الكُرسيِّ)، وهو اسمٌ لِما يُقعَدُ عليه[1]، وقد جاءَ مُضافًا إلى ضميرِ سُليمان عليه السلام؛ للإشارةِ إلى كونِه مَلِكًا، فإنّ الكرسيَّ يقصد به كرسيُّ المُلك والسُّلطان، والإضافةُ فيه إلى الضّميرِ بمعنى (اللّام)، فهو كرسيٌّ لسليمانَ عليه السلام يمتلكُه ويختصُّ به وحدَه، وهذه الإضافةُ تدلُّ على أنَّ الجسدَ تابعٌ لهُ، وإلّا لما طُرِحَ على كُرسيِّه.

سرُّ تنكيرِ قوله: ﴿جَسَدًا﴾:

إطلاقُ الجَسدِ على الإنسانِ الخالي منَ الرّوح

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾ التّعبيرُ بلفظِ ﴿جَسَدًا﴾، وهو خاصٌّ ببدنِ الإنسانِ، ولا يقالُ لغيرِ الإنسانِ جَسَدٌ من خَلْقِ الأرض[2]. وقيل: فيه إشارةٌ إلى أنّه شِقُّ إنسانٍ ميّت، فالجَسَدُ هو الّذي لا يَعْقِلُ ولا يُميِّزُ؛ إذ معنى الجَسَدِ معنى الجُثَّة فقط[3]. وقد جاءَ نكرةً مُبهمًا، ولهذا اختلف المفسّرونَ في تعيينِه تبعًا لاختلافِهم في تحديدِ فتنةِ سليمانَ كما سبق، قال الطّيبيُّ: "وأشبهُ الأقاويلِ في إلقاءِ الجَسَدِ هو شِقّ الولدِ؛ لأنّه مُؤيَّدٌ بما رَويناهُ عن الأئمّة المُتَّقين"[4].

دلالةُ العطفِ بـ﴿ثُمَّ﴾:

الإنابةُ مُتراخيةٌ عن الابتلاءِ

يُلاحظُ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ أنّه عطفَ الإنابةَ بالحرفِ ﴿ثُمَّ﴾، ولم يعطِفْها بـ(الفاء) كما في قولِه: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ﴾ [ص: 24]، والنّكتةُ في ذلك الإشارَةُ إلى استِمْرارِ إنابتِه وامتدادِها؛ فإنَّ المُمتدَّ

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كرس).
(2) الخليل، العين: (جسد).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جسد).
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 288.

يُعطَفُ بها نظرًا إلى الآخِر، بخلافِ (الاستغفار)؛ فإنَّه يَنْبَغي المُسارعةُ إليه. وقال بعضُهم: إنّه كما يَنْبَغي الاستغفارُ عقيبَ الابتلاءِ فإنّه يَنْبَغي كذلك المُسارعةُ إلى (الإنابة) عقيبَه، والظّاهرُ أنّ الإنابةَ مُتراخيةٌ عن الابتلاء، ويمكنُ كذلك أنْ يُقالَ: إنّ ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي في الرُّتبة[1]. والّذي يبدو: أنَّ الإنابةَ حصلَتْ مُتأخِّرةً عن الإلقاء؛ إذِ الواقعُ يُنبئُ عن ذلك؛ لأنَّ رؤيةَ الجسدِ على الكرسيِّ تُثير الفزعَ أوّلًا والسُّؤالَ عنه، والانشغالَ به، وكيفيّةَ التَّعامُلِ معه، وذلك يستغرقُ وقتًا يؤدّي إلى التَّعبير عنه بأداةِ التَّراخي.

وجهُ التّعبير بالفعلِ ﴿أَنَابَ﴾:

الإنـابـةُ توبـةٌ ولـزومٌ للطّاعةِ في المُستقبَل

عُبِّر في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ بالفعلِ ﴿أَنَابَ﴾، وهو أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه[2]. وهو توبةٌ وزيادةٌ، ففي (الإنابة) معنى اللّزوم للطّاعةِ بعدَ الرّجوع بالتّوبة، قالَ ابنُ القيّم: "مَن نزلَ في منزلِ التَّوبة وقامَ في مَقامِها نزلَ في جميع مَنازلِ الإسلام، فإذا استقرّتْ قدمُهُ في منزلِ التّوبة نزلَ بعدَهُ منزلَ الإنابة، وقد أمرَ به تعالى في كتابِه، وأثنى على خليلِه به، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر: 54]"[3]. وفي قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق: 33] قالَ ابن عبّاس: راجعٍ عن معاصي اللّه مُقبلٍ على طاعةِ اللّه، وحقيقةُ الإنابةِ: عكوفُ القلبِ على طاعة اللّه ومَحبّته والإقبالِ عليه[4].

والّذي يترجّحُ لدَينا: أنَّ المراد به في السّياق لزومُ الطّاعة مجرَّدًا عن معنى التَّوبة؛ إذ لم تصدُرْ منه معصيةٌ، بل كان صابرًا على الفتنةِ والإلقاءِ معًا، وكانَ القصدُ بذكر إنابتِه الإشارةَ إلى محذوفٍ، وهو أنّه كان صابرًا ثمَّ أناب.

---

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 409.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).

(3) ابن القيّم، مدارج السّالكين: 2/ 55.

(4) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 1307.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: 35]

۞ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

تفسيرُ الإنابة بطلَبِ المغفرة

لمّا ذُكرَ في الآيةِ السّابقةِ فتنة سليمانَ ﷺ، وأنّه أنابَ إلى ربّه فسّرَتِ في هذه الآية الإنابة، جوابًا لِمَنْ سألَ عنها[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُلۡكٗا﴾: أصلُ (ملك) يدُلُّ على قوّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ. يُقالُ: أمْلَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ. ومَلَّكْتُ الشَّيْءَ: قَوَّيْتُهُ، والأصْلُ هذا. ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا[2]. والمُلْك: نَوعٌ من المِلْك بِكَسْرِ الميم، فالمِلْكُ جِنْسٌ، والمُلْكُ - بالضَّمِّ - نَوْعٌ مِنْهُ وهو أعْلَى أنْواعِهِ، ومعناهُ: التَّصرُّفُ في جماعةٍ عظيمةٍ، أوْ أُمَّةٍ عديدةٍ تصرّفَ التَّدْبيرِ للشُّؤون، والإقامَةِ للحُقوقِ، والرِّعايةِ للمصالِحِ، ودَفْعِ العُدوانِ عنها، وتوجيهها إلى ما فيهِ خيرُها، بالرَّغبةِ والرَّهبة[3]، والمُرادُ بالمُلكِ في الآية: التَّصَرُّفُ العظيمُ الشَّبيهُ بتصرُّفِ المَلِكِ.

2) ﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: الهِبَةُ: أنْ تجعَلَ مُلكَكَ لغيرِكَ بغيرِ عِوَضٍ[4]. تقولُ: وهَبْتُ الشَّيءَ أهَبُهُ هِبَةً ومَوْهِبًا. واتَّهبتُ الهِبَةَ: قَبِلْتُها[5]. ويوصَفُ اللّه تعالى بالواهِبِ والوَهّابِ[6]، تقول: وهَبَ اللّه له الشَّيءَ، فهو يَهَبُ هِبَةً، وتواهَبُ النّاسُ بَينهم، وكلُّ ما وُهِبَ لك من ولَدٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 383.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (ملك).
(3) الراغب، المفردات: (ملك)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 213.
(4) الراغب، المفردات: (وهب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وهب).
(6) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (وهب).

وغيرِه فهو مَوْهوبٌ[1]. والمرادُ بالوهّاب في الآية: الكثيرُ الهِباتِ المُنعِمُ على العِباد.

المَعْنى الإجْماليُّ:

طَلبُ المَغفرةِ مِن اللهِ تعالى سبَبٌ لانفِتاحِ أبوابِ الخَيراتِ في الدُّنيا

قال سُليمانُ عليه السلام: رَبِّ استُرْ علَيَّ سَهْوي ونِسياني، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتي بهما، وامنحني مُلكًا عظيمًا لا يتأتَّى لأحدٍ غيري مثلُه؛ إنَّك - يا ربِّ - كثيرُ الهِباتِ والعَطاءِ لِمَن تَشاءُ مِمّا تَشاءُ مِن خزائنِ رَحمتِك وفَضلِك[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ بفعلِ (القول):

اشتمالُ الإنابةِ على طلَبِ العَفْوِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ عمّا قبلَه - وهو قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ - لوجودِ كمالِ الاتّصالِ بينَهما، وهو اتّحادُ الجملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجًا معنويًّا، بحيثُ تُنزَّلُ الثّانيةُ منَ الأولى منزلةَ نفسِها[3]، فقد وقعتْ جُمْلَةُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ بدلَ اشتمالٍ من جُملة ﴿أَنَابَ﴾؛ لأنّ الإنابةَ تشتملُ على ترقُّبِ العَفْوِ عمّا عسى أن يكونَ قد صدرَ منهُ ممّا لا يُرضي اللّه تعالى صدورُهُ من أمثالِه[4]. كما يحتملُ النَّظمُ أنَّ الفصلَ بين الجملتين لشبهِ كمالِ الاتِّصال؛ إذ نشَأ من قولِه: ﴿أَنَابَ﴾ سؤالٌ عن طريقةِ الإنابة؛ فأجاب: بأنَّها طلبُ الغفران عن سَهْوٍ أوْ عزمٍ على فعلٍ لا يليقُ.

وجهُ إيثارِ لفظِ الرَّبِّ:

شفقةُ الرّبِّ بالمربوبِ والإحسانُ إليه

أُوثِرَ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ التّعبيرُ بوصفِ ﴿رَبِّ﴾ دونَ سِواهُ من أسماءِ اللّهِ وصفاتِهِ؛ لما في وصفِ الرّبوبيَّةِ من الدّلالةِ على

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (وهب).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 94، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 30، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 497، والزحيلي، التفسير المنير: 23/ 202.
(3) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 261.

الشّفقةِ بالمَربوبِ، ومَحبّةِ الخيرِ له، وذلك أنّ اسمَ (الرّبِّ) مشتقٌّ من التّربيةِ، ومعناها يرجعُ إلى تدبيرِ أمرِ المَربوبِ والرِّفقِ واللُّطفِ به؛ فهو أنسبُ لسياقِ الدُّعاء والتّضرُّع[1]. ولتتأتّى الإضافةُ المفيدةُ للتّشريفِ والقُربِ، فطلبَ مِن ربِّهِ الّذي أحسنَ إليه بكلّ النّعم من النّبوّة والملك وغيرها أنْ يغفرَ له الأمرَ الّذي كانت الإنابةُ بسببِهِ[2]. كما أنَّ (الرَّبَّ) مصدرٌ مضافٌ لمفعوله يُنبئُ عن مطلقِ التَّصرُّف بالمربوبِ، وهو الأنسبُ للدُّعاء بطلبِ المغفرةِ منه.

مناسبةُ حذفِ حرفِ النّداءِ في ﴿رَبِّ﴾:

الدّاعي قريبٌ من رَبِّهِ المُجيب

حُذِفَ حرفُ النِّداءِ (يا) في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ لنكتةِ الإيجازِ، وللإيذانِ بقُربِ اللّه تعالى منَ الدّاعي، وللإشعارِ بطلبِ المُبادرةِ إلى التّضرُّعِ بعدَ السّهْوِ والغَفلةِ، ويُحتمل أنْ تكونَ الصّيغة نداءً بمعنى الدّعاءِ والتّضرُّع؛ ليكونَ على خلافِ مُقتضى الظّاهر، ونكتةُ مجيءِ الدُّعاءِ والتّضرُّع بصيغةِ النّداء الّذي حُذفت منه الأداةُ هي الإشعارُ بقربِ الدّاعي إلى المَدعوِّ مع إقبال المدعوِّ إليه بالاستجابة.

سرُّ حذفِ الضّميرِ من لفظِ (الرّبِّ):

الاكتفاءُ بالكسرةِ عن (الياءِ) اختصارًا

أوثِرَ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ حذفُ الياءِ من ﴿رَبِّ﴾؛ لنكتةِ الاختصارِ والاكتفاءِ بالكسرةِ عن الياء، وهو المشهورُ من كلام العرب، ويجوز أيضًا إثباتُها (رَبّي)، ويحتملُ أنَّ الحذفَ لتقريبِ طلبِ المغفرةِ منَ المدعوِّ تعالى بحيثُ لا يكونُ هنالك حاجزٌ بينَهما تصويرًا لمدى حاجتِهِ إلى النَّظر في مطلوبه.

دلالةُ الطّلبِ في قولِه: ﴿ٱغۡفِرۡ﴾:

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ فعلُ الأمر ﴿ٱغۡفِرۡ﴾، وحقيقةُ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 16، والآلوسي، روح المعاني: 5/ 263، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 149.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 383.

العزمُ في الدّعاء سببٌ في إجابتِه

الأمرِ فيه أنَّهُ لِلدُّعاءِ؛ إذْ فيه طلبٌ مِنَ الأدْنى إلى الأعْلى، ونكتةُ مجيءِ الدُّعاءِ بصيغةِ الأمر العَزْمُ على طلَبِ الاستجابةِ وتمكينُ المَعنى في النّفس، والمرادُ بالمغفرة: عدمُ المؤاخذةِ بسَهْوٍ أوْ نِسيانٍ أوْ غفلةٍ تعرضُ للنّفسِ البشريَّةِ جبلّةً؛ لأنَّ هذا هو اللّائقُ صدورُهُ بحالِ الأنبياء والمُرسَلين عليهم الصَّلاةُ والسَّلام.

فائدةُ حذفِ (المفعولِ) من فعلِ المَغفرة:

التّأكيدُ على طَلَبِ المغفرةِ في حدِّ ذاتِها

طويَ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ ذكرُ المفعولِ به للفعلِ ﴿ٱغۡفِرۡ﴾، وتقديرُ الكلامِ: (اغفِرْ لي زلّتي، أوِ اغفِرْ لي خَطَئي)، والنّكتةُ في حذفِ المفعولِ التّركيزُ على معنى الفعلِ ﴿ٱغۡفِرۡ﴾ في حدّ ذاتِه، والتّأكيدُ على طَلَبِ المغفرةِ بعينِها، وليسَ السّياقُ في بيانِ الذّنبِ المَغفور، ومعلومٌ أنَّه إذا كان الكلامُ مُنصَبًّا إلى غرضٍ منَ الأغراضِ جُعِلَ سياقُهُ له وتوجّهُهُ إليه، كأنّ ما سواهُ مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[1].

دلالةُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لِي﴾:

تخصيصُ العبدِ نفسَهُ بسُؤالِ المَغفرة

جاءت اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ جارَّةً لضميرِ المُتكلِّم، ومعنى (اللّام) التّعليلُ، بمعنى: أنّ طلبَ المغفرة وحصولَها كان من أجلِ سُليمان نفسِه بما اتّصفَ به من توبةٍ وإنابةٍ، ففيه تخصيصٌ لنفسِه بسؤالِ المغفرة، وليفيدَ تقريرَ سببِ المغفرةِ وترتّبِها على دُعائِه المَذكور.

توجيهُ العطفِ بـ(الواو):

الجمعُ بينَ طلبِ صلاحِ الدّينِ وصلاحِ الدُّنيا

وُصِلَ قولُه تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ بما قبلَهُ بحرفِ (الواوِ) الدّالِّ على الجمعِ والاقتران، فقد جمعَ سُليمانُ ﵇ في دُعائِه بينَ سُؤالِ المغفرةِ وسُؤالِ المُلك، وقرنَ بينَ صلاحِ الدّين وصلاحِ الدّنيا، لكنَّه قدَّمَ التَّخليةَ على التَّحليةِ، ونَفْعَ الآخرةِ على نَفْعِ الدُّنيا.

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

دلالةُ الفعلِ (هبْ):

إنعامُ الوهّاب على العبادِ مِن دونَ أعواضٍ

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ بالفعلِ (هَبْ)، وهو في أصلِه فعلُ أمرٍ خرجَ مَخرجَ الدّعاءِ والتَّضرّعِ؛ إذ هو طلبٌ من الأدنى إلى الأعلى، ومعنى هذا الفعلِ طلبُ الهبةِ، والهبةُ: العَطيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأعْواضِ والأغْراضِ[1]. وسُليمانُ عليه السلام سألَ ربَّهُ الوَهّابَ، المُنعِمَ عَلى العِباد أنْ يُعطيَهُ مُلكًا عظيمًا من دونِ مُقابلٍ؛ وفي ذلك دلالةٌ على سَعَةِ مُلك اللّه تعالى الّذي لا ينفَدُ عطاؤُهُ.

علّةُ تقديمِ الاستغفارِ على استيهابِ المُلك:

وجوبُ تقديمِ مُهِمِّ الدّين على مُهِمّ الدُّنيا

دلَّ تقديمُ الاستغفارِ على استيهابِ المُلك في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ على أنّه يجبُ تقديمُ مُهِمِّ الدّينِ على مُهِمِّ الدُّنيا؛ لأنّ سُليمانَ عليه السلام طلبَ المغفرةَ أوّلًا ثمّ طلبَ المَملكة، وتدلّ الآيةُ أيضًا على أنّ طلبَ المغفرةِ من اللّه تعالى سببٌ لانفتاحِ أبوابِ الخَيرات في الدُّنيا؛ لأنّ سليمانَ طلبَ المغفرةَ أوّلًا، ثمَّ توسّلَ به إلى طلبِ المَملكة، وهذا شأنُ الأنبياءِ والمُرسَلين[2].

سرُّ تنكيرِ ﴿مُلۡكٗا﴾:

سؤالُ المُلكِ العظيمِ من الرَّبِّ العظيم

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ التّعبيرُ بلفظِ ﴿مُلۡكٗا﴾ منكّرًا، والنّكتةُ من تنكيرِهِ التَّعظيمُ؛ أي: مُلكًا عظيمًا، والعربُ تقول: إنّ له مالًا؛ أي: عظيمًا، وهذا التّعظيمُ مستفادٌ من الإبهامِ الّذي تدلُّ عليه النّكرةُ، فتذهبُ النّفسُ في تقديرِهِ كلَّ مَذهَبٍ. ومنَ المُلاحَظِ أنَّ فعلَ المغفرةِ لم يتعدَّ لمفعولٍ بخلافِ فعلِ الهبة؛ لأنَّ المغفرةَ جاءَت في مقابلة فتنةٍ مُبهمةٍ لم يُصرَّح بها، فتُرِكَ التَّصريحُ بمفعولِ الغُفران، واللّائقُ بشأنِ الأنبياءِ أنْ يكونوا غيرَ مفتونينَ بها، فليس لهم ذنبٌ، بل غفلةٌ أوْ سهوٌ، فيكونُ شاملًا لكلِّ شيءٍ من ذلك،

(1) الراغب، المفردات: (وهب).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 394.

وعُلِمَ من عطفِ طلبِ الهِبة على طلبِ المغفرةِ أنَّ إنابتَهُ لم تكنْ عن ذنبٍ متعمّدٍ، وإلّا لم يسألِ المُلكَ العظيمَ، فكانتْ إنابتُهُ تخليةً من سَهْوٍ وتحليةً بمُلكٍ معًا.

سُؤالُ اللهِ التّخصيصَ بمُلكٍ عظيمٍ على مَدى الأزمِنَة

بلاغةُ النّفي بِـ﴿لَّا﴾ دونَ (لَم):

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ النّفيُ بـ﴿لَّا﴾ دونَ غيرِها من أدواتِ النّفْي؛ لإفادةِ طلبِ سُليمانَ من اللهِ ﷺ الاختصاصَ بمُلكٍ لا يكونُ مثلُهُ لأحدٍ بعدَهُ في كلِّ الأزمنةِ؛ لما تتميّزُ به (لا) النّافيةُ من أنّ النّفيَ بها مطلقٌ في الأزمنةِ، في حينِ أنّ النّفيَ بـ(لم) يفيدُ النّفيَ في الماضي من دونِ التّعرّضِ للنّفيِ في الحاضِرِ والمُستقبَل.

سُؤالُ سُليمانَ عليه السلام لمُلكٍ لا يَتيسّرُ لأحدٍ مُستقبَلًا

وجهُ التّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يَنۢبَغِي﴾:

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ﴾ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ ﴿يَنۢبَغِي﴾، وهو مُطاوِعُ (بغاهُ)، كما أنّ الانكسارَ مُطاوِعُ (كَسَرَ)، ويُستعمَلُ تارةً بمعنى (لا يَصِحُّ)؛ كقولِهِ تَعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ [يس: 40]، وتارةً بمعنى: (لا يَتيسَّرُ) و(لا يَليقُ)، وقد جاءَ بصيغةِ المضارعِ للدّلالةِ على الاستقبال، بمعنى أنّ سُليمانَ عليه السلام سألَ مُلكًا لا يكونُ ولا يتيسّرُ لأحدٍ مِن بعدِهِ مُستقبَلًا[1].

عدمُ إتاحةِ الشّيءِ يَستلزِمُ عدمَ عطائه وإن كان مطلوبًا

الكنايةُ في لفظِ ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾:

يتضمّنُ قولُهُ تعالى: ﴿مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ﴾ كنايةً، فقد ارتقى سُليمانُ في تدرّجِ سُؤالِهِ إلى أنْ طلَبَ مُلكًا لا يَنبغي لأحدٍ من بعدِهِ؛ أي: لا يَتأتّى لأحدٍ من بعدِهِ وإنْ طلبَهُ وأرادَهُ؛ أي: لا يُعطيهِ اللهُ أحدًا يَبتغيهِ من بعدِهِ؛ فكنى بـ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ عن معنى: لا يُعطَى لأحدٍ؛ أي: لا تُعطيهِ أحدًا مِن بَعدي، فذكرَ الملزومَ وأرادَ اللّازمَ[2].

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 416.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 262، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 416.

المجازُ العقليُّ في ﴿لَّا يَنۢبَغِى﴾:

يمكنُ أيضًا حملُ قولِهِ تعالى: ﴿مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ﴾ على المَجاز، إذ فعلُ: ﴿يَنۢبَغِى﴾ مُطاوِعُ (بَغاهُ)، يقالُ: (بَغاهُ فانبَغَى له)، وليسَ للمُلكِ مطاوعةٌ، فإسنادُ الانبغاءِ إلى المُلك مجازٌ عقليٌّ، وحقيقته: انبغاءُ سببِهِ وهو الدُّعاءُ، وهذا من التَّأدّبِ في دُعائِهِ؛ إذ لم يقل: لا تُعطيهِ أحدًا من بَعدي[1].

تأدُّبُ الأنبياءِ في الدُّعاء

معنى (اللّام) في ﴿لِأَحَدٖ﴾:

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ﴾ حرفُ اللّامِ، ومعناها الاختصاصُ، فقد سألَ سُليمانُ ﷺ ربّه أنْ لا يُقيمَ لهُ مُنازِعًا في مُلكِهِ، وأنْ يَبقى له ذلك الملكُ على وجهِ الاختصاص به ولأجلِهِ دونَ غيره إلى مَوتِه.

المُلكُ عقيمٌ لا يقبلُ المُنازِعَ

نكتةُ إيثارِ لفظِ (أحدٍ):

أوثِرَ في قولِهِ تَعالى: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ﴾ التّعبيرُ بلفظِ (أحَدٍ) دون (واحدٍ)؛ لما يَتميّزُ به لفظُ (أحدٍ) من المُبالغةِ في الدّلالةِ على التَّفرُّدِ، فـ(أحدٌ) صفةٌ مشبّهةٌ مثلُ (حَسَن)، وصيغةُ الصّفةِ المشبَّهة تفيدُ تمكّنَ الوصفِ في موصوفِها بأنّه ذاتيٌّ له، أمّا (واحدٌ) فهو اسمُ فاعلٍ لا يفيدُ التَّمكُّنَ، ولأنّ لفظَ (أحدٍ) يستعملُ اسمًا بمعنى (إنسانٍ) في خصوصِ النّفي، ونظيرُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٣٨﴾ [الكهف: 38][2]. ويُفهَمُ بقرينةِ ﴿مُلۡكٗا﴾ أنّه سألَ مُلكًا يختصُّ به عن الملوكِ دونَ غيرهم من الأنبياءِ والمُرسَلين.

المُبالغةُ في الدّلالةِ على التَّفرُّد

معنى ﴿مِّنۢ﴾ في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾:

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ التّعبيرُ بحرفِ الجرّ ﴿مِّنۢ﴾، وهو دالّ في هذه الآيةِ على ابتداءِ الغايةِ الزّمانيّة،

تحديدُ محلِّ الابتداءِ إظهارٌ للتّميُّزِ حتّى الانتهاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 262.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/ 614.

والمعنى: أنّه لا يَنبغي لأحدٍ من النّاس من بعدي إلى يوم القيامة[1].

وحذفَ زمنَ الانتهاءِ واقتصرَ على زمنِ الابتداء؛ ليكونَ إظهارًا للتَّفوُّقِ الكلّيِّ الشّاملِ.

سرُّ إيثارِ الظَّرفِ (بعد):

طلبُ التّخصيصِ بكرامةٍ ومُعجزةٍ على النّبوّة

يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ أنْ يُحمَلَ الظَّرفُ ﴿بَعۡدِيٓۖ﴾ على ظاهره؛ أي: بعدَ حياتي. ويكونُ المعنى: أنّه لا ينبغي مثلُه لأحدٍ بعدَ وفاتي. ولا شكَّ أنّ سُليمانَ عليه السلام إنَّما قصدَ بهذا الدُّعاء قصدًا مبرورًا جائزًا؛ لأنّ للإنسانِ أنْ يرغبَ من فضلِ اللّه فيما لا ينالُهُ أحد، لا سيَّما بحسب المكانةِ والنّبوءة، فأرادَ عليه السلام أن يُفرده ربُّه من بينِ البشرِ بهذا المُلك؛ لتكونَ خاصّةً له وكرامةً ومُعجزةً على النّبوّة.

بلاغةُ المَجازِ في لفظِ ﴿بَعۡدِيٓۖ﴾:

البَعْديّةُ تَقتضي المُغايرةَ

وحملَ بعضُ المُفسّرين البعديَّةَ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ على المَجاز، فجعلوا ﴿بَعۡدِيٓۖ﴾ بمعنى: مِن غَيري أوْ من دوني، إذ البعديَّةُ تَقتضي المُغايرةَ وتَستلزِمُها، فيكونُ مَجازًا كقولِه تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ﴾ [الجاثية: 23]، فيكونُ المعنى: لا ينبغي لأحدٍ غيري؛ أي: في وقتِ حياتي، فهذا دعاءٌ بأنْ لا يُسلِّطَ أحدًا على مُلكِه مُدّةَ حياتِه. وعلّلوا هذا الحَمْلَ بأنّه المناسبُ لمقامِ النُّبوّة، لئلّا يكونَ في سؤالِه هذا الملكَ شيءٌ من الاهتمام بأنْ لا ينالَ أحدٌ غيرُهُ مثلَ ما ناله هو؛ فلا يردُ على ذلك أنّ مثل هذا يُعَدّ من الحَسَدِ[2].

وعلّلَ الزّمخشريُّ هذا الدّعاءَ بأنّ سُليمان عليه السلام كان ناشئًا في بيتِ المُلكِ والنّبوَّةِ وارِثًا لهما، وأرادَ أنْ يطلُبَ مِن ربِّه مُعجزةً فطلبَ عَلَى حسبِ إلفِهِ مُلكًا زائدًا على المَمالك زيادةً خارقةً للعادة بالغةً حدَّ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 386.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 416، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 262.

الإعجاز؛ ليكونَ ذلك دليلًا على نبوّته قاهرًا للمبعوث إليهم، وأنْ يكون معجزةً حتّى يخرقَ العاداتِ[1].

دلالةُ فصلِ الجملةِ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾:

تعليلُ رَجاءِ المغفرةِ والمُلْكِ بكونِ اللهِ هو الوّهاب

وردتِ الجملةُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ مفصولةً عن الجملةِ قبلَها؛ لأنّ بينَهما ما يسمّى في البلاغة بـ(شبهِ كمالِ الاتّصال)، وهو كونُ الجملةِ الثّانيةِ قويّةَ الارتباطِ بالأولى؛ لوُقوعِها جوابًا عن سُؤالٍ يُفهَمُ منَ الجُملةِ الأولى، فتُفصَلُ عنها كما يُفصَلُ الجوابُ عنِ السُّؤال[2]. فجملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ تعليلٌ لجملة ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾؛ إذ علَّلَ سليمانُ عليه السلام طلبَ المغفرة والهبةِ معًا بأنّه قد سألَ ربّه الكثيرَ المواهبِ والعطاءِ، الّذي يُعطي مَن يشاءُ ويَمنَعُ مَن يشاءُ[3].

فائدةُ تتابُعِ المُؤكِّداتِ:

المبالغةُ في تأكيدِ كرَمِ اللهِ تعالى

تتابعَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ عدّةُ مؤكِّدات، هي: (إنَّ)، والجملةُ الاسميّةُ، وضميرُ الفصل، وصيغةُ مبالغةِ اسم الفاعل، وكلُّها من مُؤكِّداتِ مضمونِ جُملةِ الإسناد، إذ سُليمان عليه السلام لمّا طلبَ مُلكًا عظيمًا أتى في صفتِهِ تعالى باللّفظ الدّالِّ على المُبالغةِ، مُؤكِّدًا بأنّه سُبحانه الكثيرُ الهِبات، لا يَتعاظَمُ عندَهُ هِبةٌ[4].

بلاغةُ التّعبيرِ بضميرِ الفصلِ:

وما بكُم مِن نعمةٍ فمِنَ الله وحدَهُ

أفادَ ضميرُ الفصل ﴿أَنتَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ أسلوبَ القَصْرِ، بمعنى اختصاصِ المُسندِ إليه بالمُسنَد، فصارَ المعنى: أنتَ الكريمُ كثيرُ الهِبَةِ لا غيرُك؛ لأنّ اللّه سبحانه يهبُ ما

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 95.
(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 384.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 157.

لا يملكُ غيرُهُ أنْ يَهَبَهُ[1]. وهو سُبحانه مَن يهَبُ عبادَه على الحقيقة، وكلّ ما في أيدي عبادِهِ من هِباتٍ وعَطيّاتٍ إنّما هي مِن جودِهِ وكَرَمِه.

فائدةُ (ألْ) في ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ وصيغتِها:

الـــواهـــبُ الحقيقيُّ المانحُ بـلا عِــوَضٍ ولا استحقاقٍ

عُرّفَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وصفُ ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ بـ (أل) الدّالَّةِ على استغراقِ الصّفة وكَمالِها في الممدوحِ سُبحانه، ودلّت صيغةُ المُبالغة ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ على أنّه تعالى يهبُ الكثيرَ والعظيمَ؛ لأنّ المبالغةَ تفيدُ الكثرةَ كَمًّا أوْ كيفًا، أوْ كليهما معًا بقرينةِ مَقام الدّعاء، فمغفرةُ السّهوِ من المواهبِ العظيمة؛ لما يترتّبُ عليها من درجاتِ الآخرة، وإعطاءُ مثلِ هذا المُلك هو هِبةٌ عظيمة على سبيلِ الحقيقةِ؛ إذ هو الواهبُ الحقيقيُّ الّذي يمنحُ كلَّ شيءٍ بلا عِوَضٍ ولا استحقاقٍ عليه.

ردُّ الأعجازِ على الصُّدور:

طَلَبُ الهبةِ لا يَنبغي إلّا مِنَ الوهّاب

اشتملَ قولُه تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ على مُحسّنٍ بديعيٍّ من أنواعِ (التّجنيس) يُسمّى ردَّ أعجازِ الكلامِ على ما تقدّمَها، وهو أنْ يوافقَ آخرُ كلمةٍ أوّلَ كلمةٍ منه[2]؛ لأنَّ طلبَ الهِباتِ العظيمةِ لا تكونُ إلّا من الوهّاب الحقيقيِّ، وكذلك تشتملُ الآيةُ على جناسِ الاشتقاق، حيثُ توافقتْ كلمتا (هَبْ والوهّاب) في الحروفِ الأصولِ وهي (وهب)، وهو ملحقٌ بالجناسِ الاصطلاحيّ؛ فكثيرًا مّا يُلحقُ بالتَّجنيسِ الكلمتانِ الرّاجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المُسامَحَةِ[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المُلْك والسُّلطان والحُكم:

يظهرُ الفرق بينَ هذه الألفاظِ في المعنى الدّلاليِّ لكلّ لفظ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 263.
(2) ابن المعتز، البديع، ص: 140.
(3) العصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.

دلالـةُ المُلك على التَّصرُّفِ والقوَّة

فـ(المُلك) أصلٌ صحيحٌ يدلّ على قوّةٍ في الشّيءِ، وسُمّي مُلْكًا لأنّ يدَ المَلِك فيه قويّةٌ صحيحةٌ[1]، والمُلك يكون على ضربينِ: مُلْكٍ هو التَّملُّكُ والتّولّي، ومُلْكٍ هو القوّةُ على ذلك تولّى أم لم يَتَوَلَّ[2]. أمّا (السّلطانُ) فهو من السّلطةِ والقوّة، وتدلّ مادّتُهُ على التّمكّنِ من القَهْر، يقالُ: سلّطتُهُ فتسلّطَ، ومنه سُمّي السُّلطان، ومنه السّليطُ لقوّةِ اشتمالِهِ، والسّلاطةُ لحدّةِ اللّسان[3]. وأمّا (الحُكم) فأصلُهُ المنعُ، يقال: أحكمتُهُ، ومنعتُهُ، والحُكم بالشّيء أنْ تقضيَ بأنّه كذا أوْ ليس بكذا؛ سواءٌ ألزَمْتَ غيرَك أم لم تُلزِمْهُ[4].

وقد آثرَ النّظمُ القرآنيُّ استعمالَ لفظِ (مُلك)؛ لعمومِهِ ودلالتِهِ على مُطلَقِ التّصرّف والقوّة، فيَستلزِمُ السُّلطةَ والحُكمَ معًا.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملك).
(2) الراغب، المفردات: (ملك).
(3) الكفويّ، الكليات، ص: 493.
(4) الراغب، المفردات: (حكم).

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ٣٨﴾ [ص: 36 - 38]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

استجابةُ دُعاءِ سُليمانَ بتسخيرِ الرّيحِ وأنواعِ الجانِّ

لمّا سألَ سليمانُ عليه السلام ربَّهُ الوهّابَ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ مِن بعدِهِ أعطاهُ سُبحانَهُ هاتينِ الهِبَتينِ؛ مِن تسخيرِ الرّيحِ وتسخيرِ الجنِّ؛ زيادةً في قوّةِ مُلكِهِ، وتحقيقًا لاستجابةِ دَعوتِهِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَخَّرْنَا﴾: (سخر) أصل يدُلُّ على احتقارٍ واستِذلالٍ. من ذلكَ قولُنا: سَخَّرَ اللّهُ عز وجل الشَّيء، وذلك إذا ذَلَّلَهُ لأَمْرِه وإرادته[2]. ويُقال: سَخَرَتِ السَّفينَةُ إذا أطاعَتْ وطابَ لَها السَّيْرُ، وتَسَخَّرْتُ دابَّةً لِفُلانٍ: رَكِبْتُها بغَيْرِ أجْرٍ[3]. ومن البابِ: سَخِرتُ منهُ، إذا هَزِئتَ به[4]. والمقصودُ بالتَّسخيرِ في الآية: التَّذليلُ والطّاعةُ بلا مُقابِلٍ.

2) ﴿رُخَآءً﴾: (رخو) أصل يدُلُّ على لينٍ. يُقالُ: أَرْخَتِ النّاقةُ، إذا استرخى صَلاها[5]. ويُقال: رَخيَ يَرْخَى رَخاءً، وهو رَخيُّ البالِ؛ أي: في نِعمَةٍ[6]. والرَّخاءُ: سَعَةُ العَيشِ، يقالُ: هو في عَيشٍ رَخيٍّ. والرُّخاء مِنَ الرّيح: اللَّيِّنةُ السَّريعةُ الَّتي لا تَتزعزَعُ[7]. وفَرَسٌ رِخْوٌ، إذا كانَتْ سَهْلَةً مُسْتَرْسِلَةً[8]. والمقصودُ بـ(الرُّخاءِ) في الآية: اللَّيِّنَةُ الَّتي لا زَعْزَعَةَ في هُبوبِها[9].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 264.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سخر).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رخو).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (رخو).
(7) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (رخو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رخو).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 264.

3) ﴿أَصَابَ﴾: (صوب) أصل يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستقرارِه قَرارَه، من ذلك الصَّوابُ في القَوْلِ والفِعل، كأنَّه أمرٌ نازلٌ مُستَقِرٌّ قَرارَه[1]. ومنهُ الصَّوْبُ: الإصابة، ومنه: أصابَ سَهْمُهُ: إذا وقع في الغَرَضِ، وجُعِلَ الصَّوْبُ لنزولِ المطرِ إذا كانَ بقدرِ ما ينفَعُ[2]. وعليه فـ﴿أَصَابَ﴾ في الآية مَعْناهُ: قَصَدَ، مِنَ الصَّوْبِ؛ أي: الجِهةِ؛ أي: تجري إلى أيِّ جِهةٍ قَصَدَ السَّيرَ إليها[3].

4) ﴿بَنَّآءٍ﴾: (بني) أصلٌ واحدٌ، وهو بِناءُ الشَّيءِ بضمِّ بعضِه إلى بعضٍ. تقولُ: بَنَيْتُ البِناءَ أبنيه[4]. والبُنْيانُ: الحائطُ، وأبنَيْتُ الرَّجلَ: أعطيتُه بِناءً أو ما يَبْتَني بِهِ دارَهُ[5]. والبَنّاءُ: مُدبِّرُ البُنيان وصانعُهُ، وهو اسمُ فاعلٍ مَصوغٌ على زِنَةِ المُبالغةِ؛ للدَّلالةِ على معنى الصِّناعة[6].

5) ﴿وَغَوَّاصٍ﴾: أصلُ (غوص) يدُلُّ على هُجوم على أمرٍ مُتَسَفِّلٍ، من ذلكَ الغَوْصُ: الدُّخولُ تحت الماءِ[7] وإخراجُ شيءٍ منه، ويقال لكلِّ مَن يهجُمُ على شيءٍ غامِضٍ فيُخرِجُهُ: غائِصٌ، عينًا كانَ ذلك المُخرَجُ أو معنًى. والغَوّاصُ: الَّذي يكثُرُ منه ذلك، وقد غاصَ يغوصُ غَوْصًا[8]. وعلى ما سبق فالغوّاصُ في الآية معناه: الَّذي يغوصُ في البحرِ؛ لاستخراجِ مَحارِ اللُّؤلؤِ، وهو أيضًا ممّا صيغَ على وزنِ المُبالغةِ؛ للدَّلالةِ على الصِّناعةِ[9].

6) ﴿مُقَرَّنِينَ﴾: (قرن) أصل يدُلُّ على جَمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ، ومنه قولُهُم: قارنْتُ بينَ الشَّيئَين[10]. والقِرانُ: الحَبْلُ الَّذي يُقْرَنُ به، وجَمْعُه قُرُنٌ[11]. والقَرْن: جَمْعُك بَين دابَّتينِ في حَبْلٍ[12]. والمُقَرَّنُ: اسمُ مفعولٍ من (قَرَّنَهُ) - مُبالغةٌ في قَرْنِهِ - أي: جعلَهُ قرينًا لغيرِه لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخَرِ[13]. والمرادُ به في الآية نوعٌ من الجنِّ مربوطونَ بالأغلالِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صوب).
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (صوب).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 265.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بنى).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 266.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوص).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غوص).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 266.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(11) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(12) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرن).
(13) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 266.

7) ﴿ٱلۡأَصۡفَادِ﴾: (صفد) أصل يدلُّ على شَدٍّ بِشَيْءٍ، ومنه الصَّفْدُ: الغُلُّ[1]. يُقالُ: صَفَدَهُ، إذا قَيَّدَهُ، وصَفَدْتُ الرَّجُلَ، فهو مصفودٌ، وصَفَّدْتُهُ فهو مُصَفَّدٌ[2]. والصِّفادُ: ما يوثَقُ به الأسيرُ مِن قَيْدٍ وغُلٍّ[3]. والمراد بالأصفادُ هنا: جَمْعُ صِفادٍ، وهو القَيْدُ والغُلُّ[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

مَن تـركَ شَيئًا للهِ عوَّضَهُ اللهُ خيرًا منه

فاستجابَ اللهُ تعالى دُعاءَ سُلَيمانَ بإعطائِه مُلكًا عَظيمًا، لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فذَلَّلَ لأجْلِه الرِّيحَ طائِعةً له كيفما يأمُرُها، فتَهُبُّ رِخوةً في غايةِ اللِّينِ إلى حيثُ أرادَ[5]، وسَخَّرَ له الشَّياطينَ الأقوياءَ الأشدّاء، فذلَّلَ كُلَّ بَنّاءٍ منهم، يَبنونَ لهُ ما يأمُرُهم ببنائِه؛ وذلَّلَ كُلَّ غوّاصٍ منهم، يَغوصونَ له في البِحارِ، فيَستَخرِجونَ لهُ اللَّآلِئَ وغيرَها[6]. وكانَ آخرونَ منهم مَرَدةً مُشاكِسينَ لا يلبّون دعوةَ الدّاعي، ويُخالفونَ ما أُمِروا به فيوضَعونَ في السَّلاسلِ والأغلالِ؛ ليُتَّقى شرُّهم[7]. والغرضُ من ذكرِ هذا الصّنفِ بيانُ سُلطتِه المُطلقة على الجنِّ؛ أنَّ مَن أفسدَ مِن غيرِ البنّائينَ والغوّاصين كانَت السّلاسلُ والأغلالُ نصيبَهُ، فمِنهُم من بابِ أوْلى؛ والكلُّ يعملُ طوعَ أمرِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصل بـ(الفاء) في ﴿فَسَخَّرۡنَا﴾:

تـفريـغُ تسخيرِ الـرّيحِ والجنّ علـى استجابةِ الدُّعاء

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ بما قبلَهُ بحرفِ (الفاء)، فقال بعضهم: إنّها للسّببِ؛ أي: بسببِ دعائه (سَخَّرْنا لَهُ الرّيحَ)، أو

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (صفد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(3) الجوهري، الصحاح: (صفد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 266.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 94، 97، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 205، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 384.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 266.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 122، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 165.

هي للتّفريع على ما تقدّمَ من طلبِ سُليمانَ مِن ربّه أنْ يهبَهُ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِهِ[1]. وقال بعضُهُم: إنّ الفاءَ عاطفةٌ على محذوفٍ يفهمُ مِن مضمونِ الكلامِ، تقديرُهُ: (فاستجَبْنا لهُ دُعاءَهُ فوهبْنا لهُ هذا المُلك)[2].

وجهُ التَّعبيرِ بلفظِ (سخّرنا):

تذليلُ الرّيحِ لأمرِ سُليمانَ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ (سخّرنا)؛ والتّسخيرُ: التّذليلُ والإلجاءُ إلى عملٍ بدونِ اختيارٍ، فسليمانُ ﵇ لمّا التمسَ من ربّهِ الوهّابِ أنْ يُعطيَهُ مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعدِهِ ذلَّلَ له الرّيحَ[3]. ولعلَّ اختيارَ لفظِ (التَّسخير) لمناسبتِهِ لِلَفظِ (الهبةِ)؛ إذ الهبةُ تكون عطاءً بلا عِوَضٍ، و(التَّسخيرُ) يكونُ عملًا بلا مُقابلٍ.

الاستعارةُ في لفظِ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾:

تسهيلُ سَيْرِ السُّفُنِ تسخيرٌ وانقيادٌ

في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ استعارةٌ مكنيّةٌ؛ إذ شبَّهَ النَّظمُ الرّيحَ بدابّةٍ طائعةٍ منقادةٍ، ثمَّ حذفَ المشبَّه به وأبقى من خواصِّه ولوازِمِهِ (التَّسخيرَ)، وأسندَه إلى ﴿ٱلرِّيحَ﴾ تخييلًا. ولا يبعدُ أنْ يكونَ التَّسخيرُ أيضًا مُستعارًا استعارةً تصريحيّةً تبعيَّةً؛ لتكوينِ أسبابِ صَرْفِ الرّيحِ إلى الجهاتِ الّتي يريدُ سُليمان توجيهَ سُفُنِهِ إليها؛ لتكونَ مُعيْنةً لسُفُنِهِ على سُرعةِ سَيْرِها، ولئلّا تعاكِسَ وِجْهةَ سُفُنِهِ[4].

نكتةُ إسنادِ الفعلِ (سخَّرَ) إلى ضميرِ التّعظيم:

تذليلُ الخالقِ العظيمِ مخلوقاتِهِ لنفعِ عبادِهِ

أُسنِدَ الفعلُ (سخّرنا) في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ إلى الضَّمير (نا) الّتي تدلّ على تعظيمِ المتكلّمِ سُبحانه وعلوِّ قدرِه؛ فإنّ مثل هذا التّعبيرِ يُعبّر به الملوكُ والعظماء النّافذُ أمرُهم ونهيُهم،

(1) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 373، والطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 164.
(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 360.
(3) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 164.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 264.

وفيه أيضًا إدخالُ المَهابةِ في قُلوب العباد[1]، واللّه سبحانه بما لهُ من العَظَمةِ ذلَّلَ لسُليمانَ ﷺ الرّيحَ وفْقَ أمرِهِ[2]. ونلمحُ بينَ الضَّميرِ ﴿لِي﴾ في قولِه: ﴿وَهَبْ لِي﴾ والضَّميرِ (نا) في قولِه: ﴿فَسَخَّرْنَا﴾ تقابُلًا بينَ المتواضعِ لعظمة اللّه بضميرِ الإفرادِ وبينَ المعظِّم ذاتَهُ بضميرِ الجمعِ.

معنى (اللّام) في الآية:

تمليكُ الرّيحِ لسُليمانَ كما أرادَ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ حرفُ (اللّام) الجارّةِ ضميرَ الغَيبةِ، ويظهرُ أنّها للتّعليل و(الأَجلِ)، ولهذا سُمّيتْ (لامَ الأجْلِ)[3]؛ أي: إنّ ذلك التّسخيرَ كانَ كرامةً من اللّه لأجلِه، بأنْ جعَلَ تصريفَ الرّيحِ مُقدّرًا على نحو رغبتِه[4]. ويجوزُ أنْ يكون التّعبيرُ بحرفِ (اللّام) في حقّ سُليمان ﷺ لأنّها دالّة على التّمليك والاختصاصِ، فقد جعلَ اللّه الرّيحَ تحتَ أمرِ سليمانَ وفي طاعتِهِ وحدهُ كما أرادَ بقوله: ﴿وَهَبْ لِي﴾[5].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُ﴾:

تخصيصُ سُليمانَ دونَ غيره بتسخيرِ الرّيحِ

تقدّمَ في قولِه تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ الجارُّ والمجرور ﴿لَهُ﴾ على المفعولِ ﴿ٱلرِّيحَ﴾؛ للدّلالةِ على الاهتمام بمطلوبِه ﷺ، وليكونَ مُناسبًا لدُعائِه في قولِه تعالى: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾، فقد تقدَّم ﴿لِي﴾ على ﴿مُلْكًا﴾، فتقدَّم في الإجابةِ ﴿لَهُ﴾ على ﴿ٱلرِّيحَ﴾، وهذا التَّوزيعُ المتناسقُ يولّدُ إيقاعًا صوتيًّا مُنسجِمًا، وانتظامًا في عمَلِ الفكرِ.

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلرِّيحَ﴾:

انقيادُ الرّيحِ لأمرِهِ؛ لصَبره على أمرِ ربِّه

جاء لفظُ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ مُعرّفًا

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 384.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 264.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 457.

بـ(أل) الدّالَّةِ على تعريفِ العهد الذِّهنيّ، وهي تُعَرِّفُ حقيقةً ذهنيّةً يُرادُ بها فردٌ مبهمٌ من أفرادِ الحقيقةِ باعتبارِ عهديَّتِهِ في الذّهن؛ لاشتمالِ الحقيقةِ عليه كما في قولِه: ﴿أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ﴾ [يوسف: 13]، وقولِهم: ادخُلِ السّوقَ[1].

مَوقِعُ جُملةِ ﴿تَجۡرِي﴾:

الجَرَيانُ مبيِّنٌ ومفسِّرٌ للتَّسخير

وَقَعَتْ جُمْلَةُ ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ حالًا لقوله: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾، وفائدةُ التَّقييدِ بالحالِ تفسيرُ التَّسخيرِ وبيانُهُ؛ إذ التَّسخيرُ مفيدٌ للانقيادِ، وذلك الانقيادُ قد بُيِّنَ ووُضِّحَ بأنَّها تجري بإذنِهِ وبإشارتِه إكرامًا من اللّه تعالى لنبيِّهِ الصّالحِ سُليمانَ. ويجوزُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ مفسِّرةً لجملةِ ﴿فَسَخَّرۡنَا﴾.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُضارعِ ﴿تَجۡرِي﴾:

دوامُ جَرَيانِ الرّيحِ في خِدمةِ سُليمانَ غُدوًّا ورَواحًا

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ بيانًا لهيئةِ حركةِ الرّيحِ؛ للدّلالةِ على سُرعةِ هُبوبها وتجدُّدِ حركتها؛ إذ أمرُها غاديةً ورائحةً إلى حيثُ أرادَ سليمانُ عليه السلام على حسَبِ إرادتِهِ[2]، كما أنّ مَجيئَهُ بصيغةِ المُضارعِ يُشيرُ إلى دوامِ جَرَيانها من دونِ انقطاعٍ في خدمةِ سُليمان.

بلاغةُ الاستعارةِ في ﴿تَجۡرِي﴾:

استعارةُ (الجَرْيِ) لبيانِ سُرعة الرّيحِ

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ التّعبيرُ بالفعلِ ﴿تَجۡرِي﴾ منَ الجَرْيِ، ومعناه: المَشْيُ السّريعُ، وقد استُعيرَ هنا لوصفِ سُرعةِ الرّيح؛ تشبيهًا لهُبوبها بالمَشْيِ السَّريع والحركةِ القويَّة، فتكون استعارةً تصريحيّةً تبعيّةً، وشأنُ الرّيحِ أنْ تتقلَّبَ في كيفيّاتِ هُبوبها، وفي كثيرٍ من الأحيانِ تهُبُّ شديدةً عاصِفةً، وقد تكونُ بأمرِ سُليمانَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 458.

ليّنةً مُساعِدةً لسيرِ السُّفُنِ، وهذا من تمامِ التّسخيرِ[1]. ويجوزُ أنْ تكونَ الاستعارةُ مكنيَّةً؛ إذ شُبِّهت الرّيحُ في حَرَكتِها بالسَّفينةِ الجاريةِ في الماءِ أوِ الماءِ الجاري المُناسبِ، ثمَّ حُذف المشبَّهُ به وأُبقيَ من خواصِّهِ ولوازمِهِ الجريانُ، وأُسنِدَ إليها على طريقةِ التَّخييلِ.

مَعنى الجارّ والمجرور ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾:

لسُليمانَ التَّأثيرُ في الرّيحِ بإذنِ الله

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ حرفُ الباءِ، ويجوزُ أنْ تكون للسّببيّةِ؛ بمعنى: أنّ جريَ الرّيحِ يحصُلُ بسببِ أمرِ سُليمان عليه السلام لها، ويجوز أنْ تكونَ للمصاحَبةِ؛ أي: مُصاحِبةً لأمرِهِ غيرَ خارجةٍ عنه في تسخيرِها[2]. وعُبّرَ بلفظِ (الأمر)، والمرادُ منَ الأمرِ هنا واحدُ الأوامرِ لا واحدُ الأمورِ، فهو بمعنى الإذنِ والتّصرُّفِ. وقد قيّدَ جريانَ الرّيحِ بالجارِّ والمجرورِ؛ للدّلالةِ على مُطلقِ التَّصرّفِ في الرّيحِ، فقد وهبَ اللّهُ عز وجل لسليمانَ عليه السلام الرّيحَ؛ لجريانِها كما يريدُ وفْقَ المَصلحةِ المُتوخّاة، فكان يتنقّلُ بها معَ جيشِهِ إلى كلِّ الأماكنِ لدعوةِ الخلقِ إلى عبادةِ اللّهِ وحدَهُ.

الاستعارةُ التَّصريحيّةُ في (أمْرِهِ):

صرفُ الرّيحِ حسبَ رغبةِ سُليمانَ عليه السلام

يرى بعضُ المفسّرينَ أنّ (الأمر) في قولِهِ تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ مستعارٌ للرَّغبةِ أوْ للدُّعاءِ؛ بأنْ يدعوَ اللّهَ أنْ تكونَ الرّيحُ متّجهةً إلى صوبِ كذا حسبَ خُطّةِ أسفارِ سَفائِنِهِ، أوْ يرغبَ ذلك في نفسِهِ، فيصرفَ اللّهُ الرّيحَ إلى ما يُلائمُ رغبتَهُ وهو العليمُ بالخفيّاتِ[3]. وفائدةُ الاستعارةِ بيانُ سيطرتِهِ على الرّيحِ، وكأنّها عاقلةٌ تعي أوامرَهُ وتدركُ ما يطلبُهُ.

سرُّ وصفِ الرّيحِ بكونِها ﴿رُخَآءً﴾:

وُصِفتِ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ بأنّها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 185.
(2) ابن عادل، اللّباب: 09/ 155.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 264.

رَخاوةُ الرّيحِ في هُبوبها بيانٌ لطيبِها وهُدوئِها

﴿رُخَآءً﴾ منَ الرَّخاوةِ؛ بمعنى: أنّها ليّنةٌ لا زعزعةَ في هُبوبِها؛ فهي تجري بأمرِ سُليمانَ عليه السلام ليّنةً مُساعِدةً لِسَيْرِ السُّفنِ، وهذا من التّسخير؛ لأنّ شأنَ الرّيحِ أنْ تتقلّبَ كيفيّاتُ هُبوبِها، وتهبُّ في كثيرٍ من الأحيانِ شديدةً عاصفةً؛ أي: إنّ عصفَها يصيرُ إلى لينٍ بأمرِ سُليمانَ عليه السلام[1]. بقي أنَّ ﴿رُخَآءً﴾ حالٌ من ضمير ﴿تَجْرِى﴾ العائدِ إلى ﴿ٱلرِّيحَ﴾، فهي ريحٌ هادئةٌ غيرُ شديدةٍ، ويكون المعنى: أنَّ اللّه تعالى جعلَ له الرّيحَ مُنقادةً جارية بشكلٍ هادئٍ.

الاستعارةُ في لفظِ ﴿رُخَآءً﴾:

الـرَّخـاوةُ من خواصِّ الأجسامِ لا الرّيحِ

استُعيرَ في قولِه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ لفظُ ﴿رُخَآءً﴾ وصفًا للرّيحِ؛ بمعنى: أنّها ليّنةٌ هادئةٌ لا تتَزَعْزَعُ؛ أي: لا تتحرّكُ لشدّتِها، فيكونُ مَجازًا عن عدمِ شدّةِ التَّحرُّك؛ إذ الرَّخاوةُ من خواصِّ الأجسامِ[2].

الجمعُ بينَ لفظَي (رُخاءً وعاصِفَةً) وصفينِ للرّيحِ:

لطفُ الرّيحِ في نفسِها، وعَصْفُها في عَمَلِها

وُصِفَتِ الرّيحُ في قولِه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً﴾ بالرَّخاوة، ووُصِفَتْ في قولِه تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ [الأنبياء: 81] بالعصفِ، ومعناه: الشّديدةُ في هُبوبِها؛ للإشارةِ إلى أنّها في قسوةِ هُبوبِها وعَصفِها لا تذرُ شيئًا أتتْ عليه إلّا أزالَتْهُ[3]، وجمعَ المفسِّرون بين الوصفينِ بأنّها كانت في نفسِها رخيّةً طيّبةً كالنّسيم، فإذا مرّت بكرسيّه أبْعَدَت به في مدّةٍ يسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: 12]، فكانَ جمعُها بينَ الأمرينِ: هي رُخاءٌ في نفسِها وعاصفةٌ في عَمَلِها، مع طاعتها لسُليمانَ في ذلك، وقيل: كانتْ في وقتٍ رُخاءً، وفي وقتٍ عاصفةً، لهُبوبِها على حُكمِ إرادتِه[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 264.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 415.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 4903.

(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 130.

وقالَ بعضُهم: إنّ العاصفةَ هي في القُفول على عادةِ البشرِ والدّوابّ في الإسراعِ إلى الوطَنِ، والرُّخاءَ كانت في البداءَةِ[1]. وقيل: عاصفةٌ باعتبارِ عملِها، ورُخاءٌ باعتبارِ لُطفها بهم؛ فلا يجدونَ لها مشقّةً[2].

نشرُ سُليمانَ الحقَّ والعدلَ حيثُما حلَّ أو ارتحلَ

نكتةُ التّعبيرِ بالظّرف ﴿حَيۡثُ﴾:

عُبِّر في قولِه تعالى: ﴿رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ بلفظِ ﴿حَيۡثُ﴾، وهو ظرفُ مكانٍ مبنيٌّ على الضَّمِّ، ولا يُستعمَلُ إلّا مُضافًا إلى الجُمَل، اسميّةً كانتْ أوْ فعليّةً؛ نحوُقولِه تعالى: ﴿فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ [الأعراف: 19][3]، وهي هنا ظرفٌ مُتعلّقٌ بالفعلِ ﴿تَجۡرِي﴾ أوْ (سخَّرنا)[4]. وفائدةُ التَّقييدِ به: أنَّ التَّسخيرَ أو الجَرَيانَ مرتبطانِ بالجهةِ الَّتي يريدُ أنْ يصلَ إليها، وفي ذلك كمالُ الهبةِ؛ إذ للموهوبِ مطلقُ الحرّيَّةِ في كيفيَّةِ الجَرَيان وكمّيَّتِه بينَ الرُّخاءِ والعصفِ ومكانِ الجَرَيانِ.

جريانُ الرّيحِ وفقَ إرادةِ سُليمانَ عليه السلام

سرُّ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿أَصَابَ﴾:

عُبِّر في قولِه تعالى: ﴿رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ بالفعلِ الماضي ﴿أَصَابَ﴾، ومعناه قَصَدَ، وهو مشتقٌّ من الصَّوْبِ؛ أي: الجِهَةِ؛ أي: تجري إلى الجهةِ الَّتي قصدَ السَّيرَ إليها. ويجوزُ أنْ تكونَ الهمزةُ في ﴿أَصَابَ﴾ للتَّعديةِ مِن (صابَ)؛ أي: حيثُ وجّهَ جنودَهُ وجعلَهم يصوبونَ صوبَ السّحابِ والمطَرِ[5].

الإصابةُ مسبّبةٌ عن الإرادةِ

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في ﴿أَصَابَ﴾:

في ﴿أَصَابَ﴾ من قولِه تعالى: ﴿رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ مجازٌ مرسَلٌ؛ فإنَّ ﴿أَصَابَ﴾ في النّظمِ الكريمِ لا يُناسبُ معناه المعروفَ وهو وقوعُ الصّوابِ، بل هو مجازٌ عن (أرادَ)؛ إذِ الإصابةُ مُسبّبةٌ عن الإرادة

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 93.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/ 458.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 2/ 210.
(4) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 417.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 157.

غالبًا، والدّاعي إلى المَجاز بيانُ أنّه مُصيبٌ في إرادتِه[1]. ولا يبعُدُ أنَّه مجازٌ بالاستعارةِ؛ إذ شبَّهَ الإرادةَ بالإصابةِ بجامعِ التَّحصيلِ له كاملًا وفْقَ الرَّغبة، ثمَّ حذفَ المشبَّهَ وأبقى المشبَّهَ به على سبيلِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ.

بلاغةُ الوصلِ بـ(الواو) في قوله: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾:

عـطـفُ تسخيرِ الشّياطينِ على تسخيرِ الرّيح

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ﴾ معطوفًا على ما قبلَهُ بحرفِ (الواو) الدّالِّ على الجمعِ والاقترانِ، فأخبرَ اللّه سُبحانه أنّه - معَ تسخيرِ الرّيح لسُليمان تجري بأمره - سخَّرَ له أيضًا كرامةً له الشّياطينَ الّذين عندَهُم خِفّةُ الرّيحِ معَ الاقترانِ بالرّوْحِ[2].

دلالةُ تعريفِ (الشّياطين) وجَمْعِهِ:

كـثرةُ الشّياطينِ المُـسـخّـريـنَ لسُليمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ لفظُ (الشّياطين) مُعرَّفًا، ويجوز أنْ يكونَ تعريفُهُ تعريفَ الجنس؛ أي: وسخَّرْنا جنسَ الشّياطينِ، ويجوزُ أن يكون تعريفَ العهدِ، والمرادُ به المُسخّرونَ منهم لطاعةِ سُليمانَ لا عمومُهُم[3]. كما أنّ مَجيئَهُ على صيغةِ منتهى الجُموع دالٌّ على كثرتِهم الكاثرةِ، وهو المناسبُ لسياقِ الامتنانِ في الآيةِ. ونرى رُجحانَ الحملِ على العمومِ والاستغراق؛ إذ دخولُ (أل) على الجمعِ مُفيدٌ للعمومِ بقرينةِ ﴿كُلَّ﴾، والمرادُ بهم كلُّ مَن أرادَ سُليمانُ تكليفَهُ بالبناءِ والغَوْص من عُتاةِ الجنِّ.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ (الشّياطين):

إطلاقُ الشَّيطانِ على الحاذِقِ في العَمَل

يجوزُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ حملُ لفظِ (الشّياطين) على حقيقتِه ومجازِه، فالأصلُ في الشّيطانِ أنّه الجنّيُّ، ويستعملُ مجازًا للبالغِ غايةَ المقدرةِ والحذقِ في العملِ الّذي يعمَلُه،

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 415.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 385.
(3) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 416.

فسخَّرَ اللّه الجنَّ لسليمانَ تسخيرًا خارقًا للعادةِ على وجهِ المُعجزةِ في كثيرٍ منَ الأعمالِ[1].

سرُّ التَّعبير بلفظةِ ﴿كُلَّ﴾:

استعمالُ (كلّ) في معنى الكثيرِ

وقع لفظُ ﴿كُلَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ مَوقِعَ البدلِ من (الشّياطِيْنَ) بدلَ بعضٍ من كُلٍّ؛ أي: كلَّ بنّاءٍ وغوّاصٍ منهم. و﴿كُلَّ﴾ هنا مُستعملةٌ في معنى الكثير، وهو استعمالٌ واردٌ في القرآنِ والكلامِ الفصيح، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ﴾ [يونس: 97]، وقال: ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل: 69][2]. وفائدةُ التَّقييدِ بالكلّيّةِ إفادةُ كمالِ التَّسخير لسليمان؛ إذ هو يتصرّفُ فيهم كلِّهم تشغيلًا في البناءِ وغوصًا في الماء.

وجهُ التّعبير بصيغة المبالغة ﴿بَنَّآءٖ﴾:

بناءُ الشّياطينِ للعجيبِ من المُدُنِ والأبنية

جاء لفظُ ﴿بَنَّآءٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ على صيغةِ المبالغةِ؛ للدّلالةِ على كثرةِ صُدورِ فعلِ البناءِ منهم وإتقانِه، معَ احترافِهم لصنعةِ البناءِ وجدارتِهم به على سبيل الكمالِ، فقد كانوا يبنونَ له ما شاءَ من الأبنية، قال تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: 13].

دلالةُ العطفِ بـ(الواو) في قوله: ﴿وَغَوَّاصٖ﴾:

عطفُ مهنةِ الغوصِ على حِرْفةِ البناء

وردَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ حرفُ (الواو) الدّالُّ على الجمع والاقتران، فعطفَ على البناء عملًا آخرَ للجنّ، وهو الغوصُ في أعماقِ البحار، وبذا جمعَ في النّظم بين الصّعودِ في جوِّ السّماء بالبناءِ والغوصِ نازلًا في أعماقِ الماءِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 265.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 265.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 385.

وَجْهُ التّعبيرِ بصيغةِ المبالغةِ (غوّاص):

استخراجُ الجانِّ الدُّرَّ واللُّؤلؤَ من البِحار

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ التّعبيرُ بلفظِ (غوّاص) على صيغةِ المُبالغةِ في سياقِ الامتنانِ؛ للدّلالةِ على كثرةِ صُدورِ فعلِ الغَوْصِ منهم، فقد كانوا يغوصونَ في البحرِ لاستخراجِ حِليةِ البحر، وهو أوّلُ مَنِ استخرجَ الدُّرَّ واللُّؤلؤَ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ [الأنبياء: 82][1].

بلاغةُ الوصلِ بـ(الواو) في قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾:

سلطةُ سليمانَ عليه السلام على عُمومِ الجنِّ

وُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ بما قبلَهُ بحرفِ (الواوِ)؛ ليعطِفَ (المقرّنينَ) على (البنّائين والغوّاصين) من الشّياطينِ، كأنّ سليمانَ عليه السلام فصلَ الشّياطينَ إلى عمَلَةٍ استعملَهُم في الأعمالِ الشّاقّة من البناءِ والغَوْصِ ونحوِ ذلك، وإلى مَرَدةٍ قرنَ بعضَهم معَ بعضٍ في السَّلاسلِ؛ لكفِّهم عن الشَّرِّ والفسادِ[2].

سرُّ التّعبيرِ بـ(آخَرينَ):

الدّلالةُ على المُغايرةِ في النّوعِ أو في الصِّفة

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ التّعبيرُ بلفظِ (آخرين) صفةً لموصوفٍ محذوفٍ معلوم من العطفِ تقديرُهُ: (وشياطينَ آخَرينَ)، وهو جمعُ (آخَرَ) بمعنى (مُغايِر)، فيجوزُ أنْ تكون المغايرةُ في النّوعِ من غيرِ نوعِ الجنّ، ويجوزُ أنْ تكونُ المغايرةُ في الصّفةِ؛ أي: غيرَ بنّائين وغوّاصين[3].

نكتةُ الوَصْفِ بـ﴿مُقَرَّنِينَ﴾:

قرنُ الشّياطين في أنفُسِهم كلٍّ على حِدَةٍ، أوْ قرنُ بعضِهم مع بعضٍ

قولُهُ تعالى: ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ نعتٌ ثانٍ، وهو اسمُ مفعولٍ من الفعلِ (قَرَّنَ)، وهو يَدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيْءٍ بالقَرَن، وهو الحبل[4]، فيجوز في معنى ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أنْ يُجعلَ كلُّ شيطان قرينًا لغيرِهِ مُقيّدًا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 158، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 385.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 227.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 266.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).

معَهُ لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخرِ، كما يجوزُ أن يكونَ المعنى أنّهم قد جُمِعَتْ أيديهم إلى أعناقِهم بالأغلالِ[1]. وعلى كِلا المعنيينِ فيه إشارةٌ إلى السَّيطرةِ المُطلقةِ لسليمانَ، والذُّلِّ التّامِّ لِمَن عَصَى أوامرَه عليه السلام.

سرُّ إيثارِ صيغةِ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ بالتَّضعيف:

المبالغةُ في تصفيدِ الشّياطينِ

عُدِلَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ عن (مقرونينَ) إلى صيغةِ التَّضعيفِ ﴿مُقَرَّنِينَ﴾؛ لأنّ تضعيفَ اللّفظِ يُشيرُ إلى تكثيرِ الفعلِ[2]، فهم مَربوطونَ رَبْطًا شديدًا في غايةِ الإحكامِ بشكلٍ مُبالغٍ فيه؛ كأنّهم يُقرّنونَ في الأغلالِ مرّةً بعدَ مرّةٍ[3].

معنى حرفِ الجرّ ﴿فِي﴾:

إحاطةُ الأصفادِ بالشّياطينِ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾، وهو دالٌّ على الظّرفيّة؛ لأنّ الأصفادَ لـمّا كانت مانعةً لهم من التّصرُّفِ في أنفسِهم جُعِلوا كأنَّهم أجمَعَهم فيها وإنْ لم يكنْ فيها إلّا بعضُ أعضائِهم؛ نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ [نوح: 7]. وفيه إيماءٌ إلى شدَّةِ غلِّ أيدي وأرجلِ هؤلاءِ الشّياطينِ في السّلاسلِ الّتي تَجمَعُ الأيديَ والأعناقَ، حتّى صاروا مُنغمِسينَ فيها ومُستقرّينَ، كأنّها صارتْ ظَرفًا لهُم[4].

وجهُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾:

إنزالُ العقوبةِ بعُصاةِ الشّياطينِ، وإفادةُ العِبرةِ للآخرين

عُبّر في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ بلفظِ ﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾ الدّالِّ على الشّدِّ الوثيقِ المُحكَم، والمقصودُ أنّ سليمانَ عليه السلام قد استعملَ الشَّياطينَ في الأعمالِ الشّاقّة كالبناءِ والغوصِ في الماءِ، وهنالك صنفٌ ثالثٌ من العُتاةِ لم يُطِعْ أمرَهُ وضعَهُ في السّلاسلِ والأغلالِ؛ كفًّا لشرِّه، وعقابًا له، وعِبرةً لغيرِه.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 194.

(2) الجوهري، الصحاح: (قرن).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 385، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 395.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 385.

وجهُ التّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَصۡفَادِ﴾:

خصوصُ القيودِ بالأرجُل وعمومُ الأصفادِ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ التّعبيرُ بالأصفادِ دونَ القُيودِ، والنّكتةُ في ذلك أنّ (القيدَ) خاصٌّ بالأرجُلِ، في حين أنّ (الصّفد) يُطلقُ على القيود وعلى الأغلالِ الجامعةِ بين الأعناقِ والأيدي، فهو أعمُّ منه وأنسبُ لسياقِ تشديدِ الوثاقِ[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليّة في الآية:

التّمثيلُ أقربُ إلى النّفوس بجعلِ المعقولِ كالمحسوسِ

يجوزُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ أنْ يكونَ معنى ﴿مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ حقيقيًّا، ويجوزُ أن يكون تمثيلًا لمنعِ الشَّياطينِ منَ التّفلّتِ وكفِّهم عن الشّرور بطريقِ التَّمثيلِ، ورجَّحَ البيضاويُّ رحمه اللّٰه التَّمثيلَ؛ لِما فيه من عدمِ اعتبارِ القيد، والمبالغةِ في دفعِ شُرورهم، ولكونِ التَّمثيلِ أقربَ إلى النُّفوس؛ بجَعْلِ المُتخيَّلِ كالمُحقَّقِ، والمعقولِ كالمحسوسِ[2].

(1) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 03/ 299.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 228، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 416.

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

تمامُ الامتنان بإطلاقِ التَّصرُّفِ في الإنعام

لمّا ذكرَ سُبحانه في الآياتِ السّابقةِ ما أنعمَ به على سُليمان عليه السلام منَ المُلك أعلمَهُ في هذه الآيةِ أنّه أباحَ له أن يتصرّفَ في كلّ هذا المُلكِ الواسعِ كما شاءَ من دونِ رقيبٍ ولا حسيبٍ[1].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَطَآؤُنَا﴾: (عطو) أصل يدُلُّ على أخْذٍ ومُناولةٍ. فالعَطْوُ: التَّناولُ باليَدِ، قال الخليلُ: ومنه اشتُقَّ الإعطاءُ. والمُعاطاةُ: المُناولةُ[2]. ويُقالُ: عاطَى الصَّبيُّ أهلَه، إذا عمِلَ وناوَلَ ما أرادوا. والعطاءُ: نَوَلٌ للرَّجُلِ السَّمْحِ[3]، وهي العَطيَّةُ، والجَمعُ عَطايا[4]. والمقصودُ بالعطاءِ في الآية: الهبةُ والكرمُ؛ أي: هذا التَّسخيرُ هِبَتُنا وكَرَمُنا[5].

2) ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾: (منن) أصلٌ يدُلُّ على اصطناعِ خَيْرٍ[6]. ومنه المَنُّ، تقولُ: مَنَّ عليه يَمُنُّ مَنًّا: أحسَنَ وأنعَم، والاسمُ المِنَّةُ. ومَنَّ عليه وامتَنَّ وتمَنَّنَ: قَرَّعه بمِنَّةٍ[7]. ومن صفاتِ اللّه تعالى: المَنّان، ومعناهُ: المُعطي ابتداءً[8]. وأمّا المَنُّ في الآية فأمْرٌ مُستعمَلٌ في الإذْنِ والإباحةِ؛ أي: فأنعِمْ على مَنْ شئتَ بالإطلاقِ، أوْ أمسِكْ في الخِدمةِ مَنْ شِئتَ[9].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 392.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (عطو).
(3) ابن سيده، المحكم: (عطو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عطو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 267.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (من).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (منن).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (من).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 267.

3) ﴿أَمۡسِكۡ﴾: (مسك) أصل يدُلُّ على حَبْسِ الشَّيءِ أوْ تَحَبُّسِه، وضِدُّهُ: الإطلاقُ والإرسالُ. والإمساكُ: البُخلُ؛ وكذا المَساكُ والمِساكُ والمَسيكُ: البَخيلُ أيضًا[1]. والإمساكُ أيضًا: القَبْضُ، يُقالُ: أمسكتُ الشَّيءَ بيدي إمساكًا؛ أي: قبضتُه، ومن معاني الإمساكِ: الكَفُّ والامتناعُ، يُقالُ: أمسكَ عن الطَّعامِ؛ أي: كَفَّ عنه وامتَنَعَ[2]. والمقصودُ بالإمساكِ في الآية: أخذُ الشَّيءِ مع الشَّدِّ عليهِ لئلّا يَنفلِتَ، وهو مجازٌ عنِ الحَبْسِ والمَنْعِ.

4) ﴿حِسَابٖ﴾: (حسب) أصلٌ يدلُّ على العَدِّ والإحْصاءِ، يُقال: حَسَبَ الشَّيءَ يَحْسُبُهُ، حَسْبًا وحُسْبانًا وحِسابًا وحِسْبَةً وحِسابَةً؛ أي: عَدَّهُ[3]. ويأتي بمعنى التَّحْديدِ، كما في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]. وكذلك بمعنى التَّعيينِ والإعدادِ للاهتمامِ بالشَّيء، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابٗا ٣٦﴾ [النبأ: 36]. والحِسابُ في الآيةِ مجازٌ وكنايةٌ عن التَّحديدِ والتَّقديرِ؛ أي: هذا عطاؤُنا غيرَ مُحدَّدٍ ولا مُقَتَّرٍ فيه؛ أي: عطاؤُنا واسعًا وافيًا لا تَضْييقَ فيهِ عليكَ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

قال الحقُّ سُبحانه لِنَبيِّه سُليمانَ ﷺ: هذا المُلْكُ الَّذي سأَلْتَ هو عَطاءٌ عَظيمٌ واسِعٌ وهَبْناك إيّاه؛ فأعْطِ مَن شِئتَ مِنَ النّاسِ، واحرِمْ مَن شِئتَ؛ فلا حرَجَ ولا مُؤاخَذةَ عليكَ في ذلكَ[5].

اللهُ تعالى كثيرُ الخَيرِ والبِرِّ بعبادِهِ الصّالحينَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (مسك).
(2) ابن سيده، المحكم، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والفيومي، المصباح المنير: (مسك).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 250، و23/ 267.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 100، 103، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 206، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 74.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ:

الاستئنافُ للتّنبيهِ على عَظَمةِ العَطاءِ

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ مَفصولًا عمّا قبلَهُ على سبيلِ الاستئناف؛ فإنّه لمّا كان ما أوتيَهُ سليمانُ عليه السلام مُلكًا عظيمًا نبّهَ على عظمتِهِ بكثرتِهِ ودَوامِهِ وعظمةِ مُؤتيهِ، فقال مُستأنفًا بتقدير: (قُلنا له: هذا عطاؤُنا)[1].

وجهُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

حضورُ الشَّيءِ حِسًّا أوْ ذِهنًا

استُعملَ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ اسمُ الإشارة إلى القريبِ ﴿هَٰذَا﴾؛ للإشارةِ إلى حاضرٍ حسًّا أوْ ذهنًا، والمشارُ إليه هو جميعُ ما أعطاه اللّه سُبحانه لعبدِهِ سُليمانَ عليه السلام؛ منَ المُلكِ العظيم، والمالِ، والبَسطةِ، والتَّسليطِ على ما لم يُسلَّطْ عليه غيرُهُ منَ الرّيحِ والشَّياطينِ وغيرِها منَ الخَوارقِ[2]. وإنَّما أوردَ النَّظمُ اسمَ الإشارة للدَّلالةِ على كمالِ تميُّزِهِ عن غيرِهِ من العطاء بأنَّه عطاءٌ عظيمٌ، ولم يستعملِ اسمَ الإشارة إلى البعيدِ؛ للدَّلالةِ على الفَخامةِ والتَّعظيمِ؛ لأنّه لتقدّمِ ذكرِهِ غنيٌّ عن التَّعظيم والتَّفخيم؛ إذ المذكورُ المتقدّمُ عطاءٌ غيرُ محدودٍ.

مَعنى (العَطاءِ) في الآيةِ:

حَمْلُ العَطاءِ على العُمومِ، أو تخصيصُهُ بالتَّسخيرِ

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ بلفظِ (العطاء)، وهو اسمُ مصدرٍ بمعنى المُعطَى، مثلُ الخلقِ بمعنى المخلوق، وقد حملَهُ فريقٌ من المفسّرينَ على جميع ما أعطاهُ اللّه سُبحانه لعبده سُليمانَ عليه السلام من المُلك والتّسخير وغيرهما، وقد خصّهُ بعضُ المفسّرينَ بأمر الشّياطينِ خاصّةً، والمعنى: هؤلاءِ الشّياطينُ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 392.

(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 418.

المُسخّرونَ عطاؤُنا(1). والأوْلى حملُهُ على العموم؛ لعدم المخصِّصِ؛ ولأنّه أدخلُ في الامتنان.

بقي أنَّ الحملَ على المعنى المصدريِّ أبلغُ؛ للدّلالة على كَمالِ العَطاءِ، حتّى إنَّ العطاءَ كلّهُ تحققَ في هذا المُخبَرِ عنه.

عطاءُ العظيمِ عظيمٌ

نكتةُ إضافةِ (العطاءِ) إلى ضميرِ التّعظيم:

أُضيفَ (العطاءُ) في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ إلى ضمير العظمةِ؛ لتعظيم شأنِ المضافِ؛ لانتسابِهِ إلى المضافِ إليه؛ فكأنَّه قيل: هذا عطاءٌ عظيمٌ أعطيناكَهُ، وفيه إشارةٌ إلى كثرتِه وعظمة قَدْرِه(2)، وفيه أيضًا إدخالُ المَهابةِ في قلوبِ العبادِ(3).

الامـتـنـانُ على سُـلـيـمـان بـتـخـصـيـصِـهِ بالمُلك العظيم

غرضُ الخبرِ:

أفادَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ الخصوصَ؛ أي: هذا عطاؤُنا الخاصُّ بك، ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ: أنّ هذا المُعطى هو اللّائقُ بتسميتِهِ عطاءً؛ لأنّه لا نظيرَ له في السَّلطنةِ والتَّسليطِ والاستيلاء. وقيل: فائدةُ الخبر بجعلِ قولِه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ قيدًا له، فتتمُّ الفائدةُ حينَئِذٍ، وإنْ لم يُجعَلْ قيدًا له فذكرُ ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ ليس للإخبارِ، بل ليترتَّبَ عليه ما بعدَه(4).

والَّذي يترجَّحُ لدينا: أنَّ الغرض من الإخبارِ تعظيمُ عطاءِ اللّه تعالى مُقارنةً بعطاءِ غيره، وأنَّ عطاءَ اللّه لا يُشاكِلُهُ عطاءٌ، وتمييزُ عطاءِ اللّه عن غيره بالكمالِ والتَّمام.

تـفـريـعُ المَـنّ والإمـسـاكِ عن العطاءِ

معنى (الفاءِ) في الآية:

وردَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ حرفُ الفاءِ، وهي للتّفريعِ عن هبةِ العَطاءِ، فيتسبّب عنه المنُّ أوِ الإمساكُ، وقال بعضُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 396.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 267.

(3) الشّهاب، عناية القاضي: 6/ 208.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 196، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 418.

المفسّرين: إنّ (الفاءَ) هنا فصيحةٌ[1]، أوْ هي فاءُ الجزاءِ الّتي تربطُ جوابَ الشَّرطِ بفعلِه[2].

سرُّ التَّعبير بفِعلَي الأمْرِ:

إطلاقُ التَّصرُّفِ في المُلكِ مَنًّا وإمساكًا

اختلفَ المفسّرونَ في دلالةِ فعلَي الأمر في قولِه تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ تبعًا لاختلافِهم في المقصود من (العطاء)، فحملَهُ بعضُهم على العمومِ المستفادِ من حذفِ المفعولِ، قال ابنُ عبّاسٍ ﵄: أعطِ مَن شئتَ وامنعْ مَن شئتَ بغير حسابٍ؛ أي: ليس عليك حرجٌ فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ. وخصّصَ بعضُ المفسّرين المنّ والإمساكَ بتسخيرِ الشّياطينِ فقط، فيكونُ المراد بالمنّ والإمساكِ إطلاقَهم وإبقاءَهم في الأصفادِ[3].

والَّذي يترجّحُ لدينا هو الأوّلُ؛ لأنَّ مِن كمالِ النّعمةِ في الهبةِ إطلاقَ يدِ الموهوبِ في التَّصرُّفِ بكلِّ النِّعَمِ دونَ رقيبٍ أوْ مُحاسِبٍ.

الكنايةُ في قولِه: ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾:

كنايةُ المَنِّ عن الإطلاقِ

تَتجلّى الكنايةُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ﴾ على القولِ بتخصيصِه بتسخيرِ الشّياطينِ في كونِ الفعلِ (امنُنْ) مشتقًّا من المَنّ المُكَنّى به عن الإنعامِ، والتّقدير: فأنعِمْ على مَن شئتَ بالإطلاقِ، أوْ أمسِكْ في الخدمةِ مَن شئتَ؛ فالمنّ: كنايةٌ عن الإطلاقِ بلازم الكلامِ وبقرينةِ الإمساكِ.

توجيهُ العطفِ بـ﴿أَوۡ﴾:

الإباحةُ المطلقةُ في الإعطاءِ والإمساكِ

يدلُّ العطفُ بـ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ على الإباحةِ؛ فقد فوّض اللّه إلى سُليمانَ ﵇ التَّصرُّفَ في هذا العطاءِ كيفما شاءَ، والمعنى: لا حرجَ عليكَ فيما أعطيتَ وفيما أمسكتَ.

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 08/ 360.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 196.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 396، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 196، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 267.

دلالةُ تقديمِ المنِّ على الإمساك:

أشارَ قوله تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ إلى إباحةِ المنع كنايةً؛ لأنّه لازمُ الإمساكِ، والأمر هنا للإباحةِ والتّسويةِ بقرينةِ ﴿أَوۡ﴾، لكنَّ تقديمِ المنِّ فيه إشارةٌ إلى أنّ الإعطاءَ هوَ الأوْلى.

تفضيلُ الإعطاء؛ فالسَّخاءُ صفة الأنبياء

نكتةُ حذفِ المفعولِ:

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ حذفُ المفعولِ من كِلا الفِعلينِ؛ لقصدِ العموم، والتّقديرُ: (فأعطِ مَن شئتَ ما شئتَ، أوِ امنَعْ مَن شئتَ ما شئتَ)، وللتّركيز على إرادةِ التَّخييرِ والتَّسويةِ، وإطلاقِ التَّصرُّف في حدِّ ذاته، وهذا من تمام نعمةِ العطاءِ. ومعلومٌ أنّه إذا كان الكلامُ مُنصبًّا على غرضٍ من الأغراض جُعِلَ سياقُهُ له وتوجُّهُهُ إليه، كأنّ ما سواه مرفوضٌ مُطَّرَحٌ[1].

إطلاقُ التَّصرُّفِ مِن تمام نعمة العطاء

نكتةُ تقديمِ التّفريع:

تقدّمَ التّفريعُ في قوله تعالى: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ - وكان حقُّهُ التّأخيرَ - لنكتةِ تعجيلِ المسرّةِ، والتّقدير: (هذا عطاؤُنا بغير حسابٍ فامنُنْ أوْ أمسِكْ)، ويشهد لذلك قراءةُ ابن مسعود: (هذا فامنن أوْ أمسكْ عطاؤُنا بغير حساب)[2]. ويحتملُ أنْ يكونَ قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ مُتعلّقًا بفعلِي المَنِّ والإمساكِ دونَ العطاءِ، فلا تقديمَ أصلًا.

والّذي يترجّحُ لدينا: أنّه مُتعلّقٌ بالأفعال الثّلاثةِ، وقد تنازعَتْهُ للدّلالةِ على أنَّ كُلًّا من (العَطاء والمنِّ والإمساك) بغيرِ حِساب، ولذا أخّرَهُ النَّظمُ، وسيأتي توضيحُهُ.

تعجيلُ المَسَرَّةِ بإباحةِ التَّصرُّفِ بالعطاءِ الإلهيِّ

معنى (الباء) في قولِهِ: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ حرفُ (الباء) للمُلابسة، والتَّقدير: (هذا عطاؤُنا مُلْتبِسًا بعدمِ المُحاسَبةِ على منّه وإحسانه،

ارتباطُ البيانِ القرآنيِّ بحروفِ المعاني

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

(2) وهي قراءة شاذة، يُنظر: الفرَّاء، معاني القرآن: 2/ 405.

ومنعِهِ وإمساكِهِ)؛ لتفويضِ التَّصرُّفِ فيه على الإطلاق[1]. ويجوزُ أن تكونَ (الباءُ) صلةً لا تعلُّقَ لها بشيءٍ، والتَّقدير: (عطاؤنا غيرَ ذي حسابٍ)؛ أي: إنّه لا يُحسَبُ ولا يُحصَى لكَثرتِهِ[2].

دلالةُ النّفيِ بلفظِ (غير):

مغايرةُ مجرورِ (غير) لموصوفِها ذاتًا أو صفةً

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ نفيُ الحسابِ بلفظِ (غير)، وهي كلمةٌ تفيدُ المغايرةَ، وأصلُها أنْ تدلَّ على مُغايرة مجرورِها لموصوفِها، إمّا ذاتًا وإمّا صفةً، وهي هنا في محلِّ نصبٍ على الحال، ويجوزُ في تعلُّقها ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّها متعلِّقةٌ بـ﴿عَطَآؤُنَا﴾؛ أي: عطاؤُنا بغيرِ حسابٍ ولا تقديرٍ، وهو دلالةٌ على كثرةِ الإعطاءِ.

الثّاني: أنّها حالٌ من ﴿عَطَآؤُنَا﴾ بجعلِ الباء صلةً؛ أي: غيرَ مُحاسَبٍ عليه؛ لأنّه جمٌّ كثيرٌ يعسُرُ على الحُسّابِ ضبطُهُ.

الثّالث: أنها مُتعلِّقةٌ بـ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾، ويجوزُ أن تكونَ حالًا من فاعلِهما؛ أي: غيرَ مُحاسَبٍ عليهما[3].

وقد تقدَّمَ أنَّ (الجارّ والمجرور) متنازَعانِ لكلٍّ من (العطاءِ والمنِّ والإمساك)؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلًّا من ذلك بلا حِسابٍ ولا مُحاسَبةٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿حِسَابٖ﴾ منكَّرًا:

عطاءُ الوهّابِ سُبحانه لسُليمانَ من دونَ تقديرٍ أو مُحاسَبة

عبّرَ عن (الحساب) في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ منكَّرًا، وهو يَحتملُ أنْ يكونَ من العدِّ؛ بمعنى: أنّ عطاءَ الوهّابِ سُبحانه جمٌّ كثيرٌ يعسُرُ على الحُسّاب ضبطُهُ، ويَحتملُ أنْ يكونَ من المُحاسَبةِ بمعنى المُؤاخذة، والمعنى: فامنُنْ أوْ أمسِكْ من دون مؤاخذةٍ عليك

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 392، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 418.
(2) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 2/ 372.
(3) ابن عادل، اللّباب: 16/ 425، وفاضل السّامرائي، معاني النحو: 2/ 262.

في ذلك[1]. وفي ورودِهِ نكرةً نكتةُ التّقليلِ أيضًا؛ حيث ورَدَ في سياقِ الإثبات؛ بمعنى نفيِ احتمالِ أدنى حسابٍ للعَطاءِ أو للمُعطَى.

الكنايةُ في نفيِ الحِساب:

عدمُ المُؤاخذةِ بالعطاءِ وسَلامةُ العاقبةِ فيه

يجوزُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أنْ يكونَ مجازًا وكنايةً عن عدمِ التّحديد والتّقدير؛ أي: هذا عطاؤُنا غيرَ مُحدَّدٍ ولا مُقتّرٍ فيه؛ أي: عطاؤُنا واسعًا وافيًا لا تضييقَ فيه عليك. ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ كنايةً عن عدمِ المُؤاخذةِ وسلامةِ العاقبةِ فيه، فهو عطاءٌ خالٍ عن حِسابٍ وعِتابٍ[2].

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المصون: 9/ 380.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 96، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 267.

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: 40]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

الجمعُ بينَ نِعَمِ الدّنيا وكرامةِ الآخِرة

لـمّا ذكَرَ تعالى ما أنعمَ به على عبدِهِ سُليمانَ عليه السلام من نِعَمِ الدُّنيا الَّتي يَحارُ العقلُ في إدراكها أبانَ ما لَهُ في الآخرة عندَ ربّه من مقامٍ كريمٍ وجنّاتٍ ونعيمٍ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَزُلْفَىٰ﴾: (زلف) أصل يدلُّ على اندفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ. يُقالُ: ازدلَفَ الرَّجُلُ: تقدَّمَ(2)، والزَّلَفُ والزُّلْفةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرَجة والمَنزلةُ(3)، وزَلَفَ إليه: دَنا منهُ. وأزْلَفَ الشَّيْءَ: قَرَّبَهُ(4)، والزُّلفى في الآيةِ مُرادٌ بها: القُرْبَةُ، والمَنزِلةُ العاليةُ.

2) ﴿مَـَٔابٍ﴾: (أوب) أصلٌ واحدٌ، وهو الرُّجوعُ(5). يُقالُ: آبَ فلانٌ إلى سيفِهِ؛ أي: ردَّ يدَهُ إلى سيفِهِ(6)، ويُقال: آبَ الرَّجُل يؤوبُ إيابًا إذا رَجَعَ إلَى مُستقَرّه، فالأَوْبُ: الرُّجوعُ، والمآبُ: المَرجِعُ(7).

المَعْنى الإجْماليُّ:

الأجرُ العظيمُ لسُليمانَ عندَ ربّه في الآخرةِ

يُؤكّدُ ربُّنا سُبحانه أنّ لسُليمانَ عندهُ في الدّارِ الآخرةِ لَقُربى ودرجةً رفيعةً فوقَ ما لهُ في الدُّنيا، وحُسْنَ مَرجِعٍ وإيابٍ؛ لأنّه كانَ منَ الأوّابين(8).

(1) الخطيب الشّربيني، السّراج المنير: 3/ 418.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (زلف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أوب).
(6) الخليل، العين: (أوب).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (أوب).
(8) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 452.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بـ(الواو):

فـوزُ سُليمانَ عليه السلام بسَعادةِ الدّارينِ

عُطفتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ على ما قبلَها بحرفِ (الواوِ) الدّالِّ على الجَمْعِ والاقتران، فقد كتبَ اللّه الكريمُ لعبدِهِ سُليمانَ عليه السلام السّعادةَ في الدّارينِ، وجمعَ له بينَ نِعَم الدُّنيا والكرامةِ والمثوبةِ لديهِ في جنّاتِ النَّعيم[1].

سرُّ التّوكيدِ بـ(إنّ):

دفـعُ تـوهُّـمِ نـقـصانِ حـظِّ الآخـرةِ بإيتاءِ حظِّ الدّنيا

جاءَ النَّظمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ مُؤكَّدًا؛ لدفعِ الإنكارِ التَّنزيليِّ؛ فقد أُكِّدَ بجملةِ مُؤكِّداتٍ؛ من اسميَّةِ الجُملة، وحرفِ التَّوكيدِ (إنّ)، واللّامِ المُزحلَقة، وتقديمِ ما حقُّهُ التَّأخيرُ؛ تنزيلًا للمُخاطَبِ غيرِ المُنكِرِ منزلةَ المُنكِرِ إذا اقتضى السّياقُ التّأكيدَ، فيؤكَّدُ له الكلامُ تأكيدَهُ للمُنكر[2]. والمرادُ بكلّ هذا التّأكيد دفعُ ما يُتوهّمُ من نقصانِ درجاتِهِ في الآخرةِ، بسببِ ما أوتيَ في الدّنيا من المُلكِ العظيم، والتّسخيرِ العَجيب[3].

فنُّ التّكميلِ في الآية:

التّكميلُ ببيانِ الثّوابِ الجزيلِ لسُليمانَ في الآخِرة

يرى بعضُ المفسِّرينَ أنّ قولَهُ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ مُشتملٌ على فنِّ التّكميلِ، وهو عندَ البلاغيّين نوعٌ من الإطناب، وهو: أنْ يأتيَ المتكلّمُ بمعنًى تامٍّ في فنٍّ من الفنونِ، فيرى الاقتصارَ عليه ناقصًا، فيُكملَهُ بمعنًى آخر[4]؛ إذ لمّا ذكرَ النّظمُ الكريمُ في الآياتِ السّابقةِ ما أُعطيَ سليمانُ عليه السلام من المُلك العظيم في الدُّنيا كمّل هذا المعنى؛ لدفعِ توهّمِ أنْ لا حظَّ تامًّا لهُ في الآخرة، معَ ما لهُ من المُلك العظيمِ في الدُّنيا[5].

---

(1) المراغي، التّفسير: 23/ 123.

(2) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 1/ 47.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/ 397.

(4) مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية: 2/ 340.

(5) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 419.

مَعنى اللّام في ﴿لَهُۥ﴾:

استحقاقُ سُليمانَ الثّناءَ في الدّنيا والآخِرة

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ حرفُ اللّامِ جارًّا لضميرِ الغَيبةِ العائدِ على سليمانَ عليه السلام، وهي لامُ الاستحقاق؛ لوقوعِها بين معنًى وذاتٍ[1]، فاستحقَّ سليمانُ عليه السلام عندَ ربِّهِ القُربى والدّرجةَ الرَّفيعةَ والمَنزلةَ الحَسَنةَ بإنابتِهِ إليه وتوبتِهِ وطاعتِهِ[2].

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ ﴿لَهُۥ﴾:

اختصاصُ سليمانَ عليه السلام بالكرامةِ في الآخرة

تقدّمَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ شبهُ الجُملة ﴿لَهُۥ﴾ على اسمِ (إنَّ)؛ لنُكتةِ الاختصاص، والمعنى: اختصاصُ سليمانَ عليه السلام بالكرامةِ والمثوبةِ لدى ربّه في الآخرةِ، كما اختصَّهُ في الدّنيا بالمُلْكِ العظيمِ والتّسخيرِ العجيبِ للرّيحِ والطّيرِ والشّياطين، وهذا الاختصاصُ على أهلِ زمانِهِ، أو أنَّ الاختصاصَ بالنِّسبةِ لغيرِ الأنبياءِ والمُرسَلينَ.

وجهُ إضافةِ الظَّرف إلى ضميرِ العظمةِ وتقديمِهِ:

الاهتمامُ بمحلِّ المآبِ ودارِ الثّواب

أُضيفَ الظّرفُ (عندَ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا﴾ إلى ضميرِ العظيمِ سُبحانه؛ للدّلالةِ على عظمةِ الثّوابِ الّذي أعدّهُ اللّه لعبادِهِ المُرسَلينَ والصّالحينَ في الآخِرةِ، وهو الجنّةُ، وقد جاءَ الظّرفُ في النّظمِ مُتقدّمًا على مُتعلَّقِهِ الواقعِ اسمًا لـ(إنَّ)؛ للدّلالةِ على الاهتمامِ بمحلِّ المآبِ وهو عندَ العظيمِ سُبحانه، ومحلُّ الظَّرفِ المتقدِّمِ النَّصبُ على الحاليَّة من الضّميرِ المستقرِّ في ﴿لَهُۥ﴾، وفائدةُ التَّقييد به الإشعارُ بعلوِّ المنزلةِ والمَكانة.

معنى اللّامِ في ﴿لَزُلۡفَىٰ﴾:

توكيدُ الكلامِ لتحقيقِ المَقام

اتّصلَ حرفُ (اللّام) في قَوْلِه تَعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ بلفظ (زلفى) الواقعِ اسمًا مؤخَّرًا لـ(إنّ)، وهي اللّامُ المزحلَقةُ،

---

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 275.

(2) الطّبريّ، جامع البيان (ت، التركي): 20/ 103، نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 436.

وأصلُها لامُ الابتداء، وغرضُها التّوكيدُ، والأصلُ أنْ تقعَ قبلَ (إنَّ)، لكنْ كَرِهَ العربُ أنْ يجتمعَ مُؤكّدانِ في محلٍّ واحدٍ - كما يقول النّحويّون - فزحلَقوا (اللّام) عن موضِعِها إلى المُتأخّر من خبرِ (إنَّ) أو اسمِها.

دلالةُ المصدرِ (زُلفى):

تبشيرُ سُليمانَ بمنزلةِ القُرْبِ في الآخِرة

عبَّر النّظمُ الكريمُ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ بلفظِ (الزُّلفى) وهو مصدرٌ كـ(البُشرى)، وهو القُربُ والدُّنوُّ والتّقدُّم؛ للدّلالةِ على أنَّ حقيقة القربِ يَنالُها سُليمان ﷺ. وفي المصدرِ كنايةٌ عن المنازلِ العاليةِ والدَّرجاتِ الرّفيعة في أعالي الجِنان.

توجيهُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَحُسۡنَ﴾:

الجمعُ بينَ القُربِ وحُسنِ المَرجِعِ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ بحرفِ (الواو) الدّالِّ على العطفِ والاقترانِ؛ فقد جمعَ اللّه سبحانَه لعبدِهِ سُليمانَ بين القُربِ والدُّنوِّ وحُسنِ المَرجِعِ إلى الجنّة.

نكتةُ إضافةِ (حُسْنَ) إلى ﴿مَـَٔابٖ﴾:

(الحُسْنُ) كلمةٌ جامعةٌ لكلّ مرغوبٍ

اختارَ النّظمُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ وصفَ (الحُسن) دونَ غيره؛ لكونِهِ كلمةً جامعةً لكلّ مرغوبٍ فيه، وهو وعدٌ بالجزاءِ الطَّيِّب الجميلِ الحَسَن، كما أفادَ هذا اللّفظُ تخصيصَ (المآبِ) بأنّه حَسَنٌ لائقٌ بما أعدّه اللّه لعبادِهِ المرسَلين في جنّاتِ النّعيم، وفيه حُسنٌ وجمالٌ. وهذه الإضافةُ من إضافةِ الصّفةِ إلى الموصوفِ، والتَّقدير: (ومآبًا حَسَنًا)، وفائدةُ العُدولِ تعجيلُ الأهمِّ - وهو (الحُسْنُ) - لفظًا، وتحويلُ (حَسَن) من كونه صفةً مشبّهةً إلى مصدرٍ؛ للدّلالة على كمالِ الحُسنِ معنًى.

دلالةُ لفظِ ﴿مَـَٔابٖ﴾:

حُسْنُ رجوعِ سُليمان ﷺ إلى ربّه يومَ الجَزاء

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ لفظُ ﴿مَـَٔابٖ﴾، وهو مصدرٌ ميميٌّ أوْ اسمُ مكانٍ، بمعنى الأَوْب والرّجوع أو مَحَلِّهما،

والمرادُ به هنا الرّجوعُ إلى الآخِرة، وسُمّي رجوعًا؛ لأنّه رجوعٌ إلى الجنّة ودارِ الكرامةِ(1).

ويُلحَظُ التّناسقُ بينَ كونِهِ عبدًا أوّابًا في مطلعِ قصّتهِ وبينَ كونِهِ ذا مآبٍ حسَنٍ آخرَ القصَّة.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الزُّلفى والقُرب:

عمومُ الزُّلفى في المنزلةِ والقُربى

يظهرُ الفرقُ بينَ لفظي (الزُّلفى) و(القُرب) في كون الزُّلفى أعمَّ دلالةً من القُرب، فقد تكون بمعنى القُربِ كقولِ العرب: لفلانٍ عندَ فلانٍ زُلفى؛ أي: قُربى. قالَ اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾، وقد تكونُ بمعنى الدّرجةِ والمَنزلةِ مُطلقًا، ولهذا قيلَ لمنازلِ اللَّيل: زُلَفٌ، قال تعالى: ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ [هود: 114]. وقد آثرَ النّظمُ القرآنيّ لفظةَ (زُلفى) للدّلالةِ على القُربِ والدُّنوِّ الدّالِّ على المنازلِ العاليةِ في أعالي الجِنان.

المآب والرّجوع والعَوْدة:

اختصاصُ المآبِ بالرّجوعِ للآخِرة

يقتربُ بعضُ هذه الألفاظِ من بعضٍ لغةً، غيرَ أنّه يمكنُ التّفريقُ بينها ببعض الملامحِ المعنويَّة، فأعمُّها دلالةً لفظُ (العَودة)، وهو أعمُّ من (الرّجوع)؛ لأنّ (الرّجوع): فعلُ الشّيء ثانيةً، ومصيرُهُ إلى حالٍ كان عليها، وأمّا لفظُ (العَوْدة) فيُستعملُ في هذا المعنى على الحقيقة، ويُستعمل في الابتداءِ مَجازًا، فيقال: قد عاد إليَّ من فلانٍ مكروهٌ، وإنْ لم يكن قد سبقَه مكروهٌ قبل ذلك. ومنه قولُهُ تعالى: ﴿۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ﴾ [الأعراف: 88]، والمعنى: أو لَتَدْخُلُنَّ في ديننا، فإنّه ﷺ لم يكُنْ على دينِهم قَطُّ(2). وأمّا لفظ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 241.
(2) العسكريُّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 313.

(مآب) فهو - وإنْ كان بمعنى الرُّجوعِ لغةً - يُستعمَلُ كثيرًا في الرّجوع إلى اللّه وإلى الطَّريقِ المُستقيم، فاكتسَبَ حقيقةً شرعيَّةً تُضافُ إلى حقيقتِهِ اللُّغويَّة، وهي الرّجوع إلى الآخرة؛ إمّا إلى جنّةٍ وإمّا إلى نارٍ.

وقد آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿مَـَٔابٍ﴾ للدَّلالةِ على حُسْنِ رُجوعِ سليمانَ عليه السلام إلى اللّهِ سُبحانه في الآخرة، وأنّ مُنتهاهُ إلى جنّاتِ النّعيم.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾ [ص: 41]

التَّأسّي بأحوالِ الأنبياء من علاماتِ الاصطِفاء

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

لمّا ذكرَ سُبحانَه قصّةَ داوودَ وسليمانَ عليهما السلام، وكانا ممَّن أفاضَ اللّه عليهما أصنافَ الآلاءِ والنَّعْماء أردفَها بقصّةِ أيّوبَ عليه السلام، وكان ممَّن خصَّهُ اللّه تعالى بأنواعِ البلاءِ؛ ليزدادَ النَّبيُّ ﷺ بذكرِ هذه الأخبارِ اعتبارًا وصبرًا وإقبالًا على اللّهِ تعالى[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّنِيَ﴾: (مسّ) أصلٌ يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا: لَمَسْتُهُ بيَدي، وهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزمر: 8][3]، والمَسوسُ من المياه: ما نالَتْهُ الأيدي[4]، وحاجةٌ ماسَّةٌ؛ أي: مُهِمَّةٌ[5]. والمَسُّ في الآية مُستعمَلٌ في الإصابةِ على وجهِ المجازِ؛ يعني: أصابني الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألَمٍ[6].

2) ﴿بِنُصۡبٖ﴾: (نصب) أصل يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، ومنه النَّصَبُ: الإعْياءُ مِنَ العَناءِ، ومَعْناهُ: أنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنتصِبًا قائمًا حتَّى يَعْيا[7]. والنُّصُبُ: الدّاءُ والبَلاءُ والشَّرُّ[8]. والنُّصبُ بِضَمٍّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 388، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 396.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 316.
(4) الخليل، العين: (مسس).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 269.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (نصب).

النّونِ وسُكونِ الصّادِ: المَشَقَّةُ والتَّعَبُ، وهي لُغةٌ في نَصَبٍ بفتحتين[1]. والنَّصبُ: المريضُ الوَجِعُ؛ وقَدْ نَصَبه المَرَضُ وأنْصَبَه[2]. والمقصودُ به في الآية: الشَّرُّ والمَشقَّةُ والعَناءُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

الشَّكوى إلى اللهِ تعالى لا تُنافي الصَّبرَ بوَجْهٍ

يَذكُرُ اللّه سُبحانه جانبًا من قصَّةِ أيّوبَ ﷺ، فيقولُ: واذكُرْ - يا مُحمَّدُ ﷺ - عَبْدَنا أيّوبَ حينَ نادَى رَبَّه قائلًا: يا رَبِّ، إنّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألمٍ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ العطفِ بـ(الواو):

عطفُ القصّةِ على القصّةِ لمزيدِ التَّذكيرِ والتَّعليمِ

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بحرفِ (الواو) الدّالّ على العطفِ والاقترانِ، وذلك لأنّ قوله: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ [ص: 17] وما عُطف عليه من قصّةِ سُليمانَ ﷺ، فهذا مثلٌ ثانٍ ذُكِّرَ به النَّبيُّ ﷺ أسوةً به في الصّبرِ على أذى قومِه، والالتجاءِ إلى اللّه الكريمِ في كَشْفِ الضّرّ[4].

سرُّ التَّعبير بلفظِ (اذكُرْ) صيغةً ومادّةً:

إرشادُ النَّبيِّ ﷺ ومَن تَبِعَهُ للاقتداءِ بالأنبياءِ السّابقين

عبّرَ النَّظمُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بصيغةِ الأمرِ (اذكُر)، وهو أمرٌ للنَّبيّ ﷺ ولأُمّتِه بالاقتداءِ بالأنبياءِ السّابقينَ في الصّبرِ على المَكارِه، ويُلاحَظُ أنّ الفعلَ (اذكُر) قد وردَ في قصّةِ أيّوبَ وداوودَ ﷺ، ولم يردْ في قصّةِ سليمانَ ﷺ؛ لكمالِ الاتّصالِ بينَه وبينَ أبيهِ داوودَ ﷺ؛ فكأنّهما قصّةٌ واحدةٌ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 269.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نصب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 105 - 107، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 74، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 714.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 268.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 228.

بقي: أنَّ مادّةَ (الذِّكر) التّلاوةُ؛ أي: (اتلُ قصّةَ عبدِنا أيّوب)، ونظيرُهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الشُّعراء: 69]، وإنّما قالوا: إنّ المقصودَ من الذِّكر هنا هو التّلاوةُ؛ لأنّ ذاكرَ ذلك في الكتابِ هو اللّه تعالى، والكتابُ كتابُهُ ﷻ، وقيل: إنّه ﷺ لكونِه النّاطقَ عنه تعالى، ومُبَلِّغَ أوامرِهِ ونَواهيهِ كانَ كأنّه الذّاكرُ في الكتابِ ما ذكرَهُ ربّه ﷻ(1).

لطيفةُ استهلالِ القصّةِ بالخطاب:

الإخبارُ بالمغيَّبات من دلائلِ نبوّتِهِ ﷺ

استُهلّتِ القصّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بالأمرِ (اذكُرْ) خطابًا للرّسول ﷺ ومَن تبِعَهُ؛ لأنّه ﵇ ما كانَ هو ولا قومُهُ ولا أهلُ بلدتِهِ مُشتغلينَ بالعلمِ ومُطالعة الكتب؛ فإذا أخبرَ عن هذه القصَّة كما كانت من غير زيادةٍ ولا نُقصانٍ كان ذلك إخبارًا عن الغيبِ، ومُعجِزًا قاهِرًا دالًّا على نبوَّتِهِ(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿عَبۡدَنَآ﴾:

تشريفُ أيّوبَ ﵇ بالعُبوديَّةِ والإضافةِ

عبّر القرآنُ الكريمُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ بلفظِ ﴿عَبۡدَنَآ﴾، وهو مدحٌ لأيّوبَ ﵇ بتمامِ عُبوديّتِهِ للّه سُبحانَه، والمقصودُ هنا العبوديّةُ الخالصة: عبوديّةُ الطّاعةِ والمَحبّة واتّباعِ الأوامرِ(3)، وقد دلّتِ الإضافةُ إلى ضميرِ العَظَمةِ على اختصاصِهِ بالقُربِ من العظيمِ سُبحانَهُ، وتشريفِهِ بكونِهِ عبدًا له سُبحانه، فهو أهلٌ للإضافةِ إلى عظيمِ جَنابِهِ(4).

نكتةُ ذكرِ سيِّدنا ﴿أَيُّوبَ﴾ باسمِهِ العلَم:

أيّوبُ مضربُ المَثلِ في الصّبرِ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ إيرادُ الاسم العلَم ﴿أَيُّوبَ﴾ بدلًا أوْ بيانًا؛ لِما اشتهرَ به مِن رَباطةِ القلبِ والصّبرِ على ما

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 413.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 21/ 541.
(3) ابن القيّم، مدارج السّالكين، ص: 180.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 388.

ابتُلِيَ بِهِ في جَسَدِهِ وأهلِهِ ومالِهِ لمدّةٍ طويلةٍ، حتّى صار مَضربَ المَثَلِ في الصَّبر، فيُقال: صبرٌ كصبرِ أيّوبَ.

بقي: أنَّ البدلَ يُفيدُ التَّوكيدَ والتَّقريرَ؛ لأنَّ البدلَ على نيَّةِ تكرارِ العاملِ، وأمّا البيانُ فيُفيدُ التَّوضيحَ والكشفَ والتَّشريفَ؛ لأنَّ الإضافةَ في ﴿عَبۡدَنَآ﴾ دالّةٌ على التَّشريفِ، فيكونُ التَّوضيحُ تشريفًا له بإيرادِهِ بخصوصِ لفظِهِ العلَمِ المَشهورِ به.

موقعُ الظّرفِ ﴿إِذۡ﴾ ودلالتُهُ:

أشرفُ أحوالِ العبدِ التجاؤُهُ لربِّهِ

وردَ قولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلَ اشتمالٍ من ﴿أَيُّوبَ﴾ عليه السلام؛ لأنّ زمنَ ندائِهِ ربَّهُ ممّا تشتملُ عليه أحوالُ أيّوبَ عليه السلام، وكأنَّ التَّقدير: (واذكُرْ وقتَ نداءِ أيّوبَ ربَّه)، وما ذكرُ ﴿عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ إلّا تمهيدٌ وتوطئةٌ لهُ، فلمّا أمرَ اللّه سُبحانه نبيَّهُ بذكرِ قصّةِ أيّوبَ عليه السلام بيّن أنّ المرادَ منها بعضُ أحوالِهِ الشّريفةِ ليتأسَّى بها، وخصَّ النّظمُ هذه الحالَ بالذِّكر من بينِ أحوالِهِ؛ لأنّها مَظهَرُ توكُّلِهِ على اللّه سُبحانه، واستجابةِ اللّه دُعاءَهُ بكشفِ الضُّرِّ عنهُ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَادَىٰ﴾:

دعاءُ أيّوبَ عليه السلام بكَشْفِ الضُّرِّ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ استعمالُ الفعلِ ﴿نَادَىٰ﴾ بصيغةِ الماضي الدّالّةِ على تحقّقِ الفعلِ، والمُناسِبةِ لحكايةِ قصصِ السّالفين، وهذا النّداءُ دعاءٌ؛ لأنّه يُفتتَحُ بـ: يا ربّ، ونحوِه، ولا شُبهةَ في أنّ المرادَ من هذا النّداءِ دعاؤُهُ ربَّهُ بكَشْفِ ما أصابَهُ من الضُّرّ في بدنِهِ وأهلِهِ ومالِهِ. ويظهَرُ منَ العدولِ عن الدُّعاءِ إلى النِّداءِ أنَّه وصلَ إلى مرحلةٍ في غايةِ الحَرَجِ والخُطورةِ، حتَّى توجَّهَ إلى ربِّهِ بالنّداءِ داعيًا الخلاصَ، وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بالصَّبرِ على الأذى وعدمِ تعجُّلِ الدُّعاءِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 268.

بلاغةُ التَّعبير بوَصْفِ الرّبوبيّةِ والإضافةِ:

شفقةُ الرَّبِّ بالمربوبِ وإحسانُهُ إليهِ

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ التّعبيرُ بوصفِ (الرّبوبيّة) دونَ سِواه من أسماءِ اللّه وصفاتِهِ؛ لِما في وصفِ الرُّبوبيّةِ منَ الدّلالة على الشّفقةِ بالمَربوبِ، مع الإضافةِ إلى ضميرِ النَّبيّ أيّوبَ ﷺ لنكتة تشريفِهِ والعنايةِ به بإضافتِهِ جزاءَ صَبرِهِ، كأنّه قيل: المُحسِنُ إليه الّذي عرفَ إحسانَه إليهِ في تربيتِهِ ببلائِهِ؛ كما عرفَ امتنانَهُ بظاهرِ نَعمائِهِ وآلائِهِ[1]. ويُلحَظُ أنّ النَّظمَ أضافَ العبوديَّةَ إلى اللّه تعالى قبلُ، وأضافَ هنا الرُّبوبيّةَ إلى ضميرِ أيّوب؛ وكأنَّه إشارةٌ إلى أنَّ المستحقَّ لقبَ العبوديَّةِ مَن أضافَ الرَّبَّ إليه واعتقدَهُ رَبًّا.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآيةِ:

إجابةُ النّداء من آثارِ الرُّبوبيَّةِ

انتقلَ النّظمُ الكريم من مَقامِ الغَيبة في قولِهِ تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ إلى مقامِ التّكلُّمِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ على سبيلِ الالتفاتِ بحكايةِ كلامِهِ عَلَى صورتِهِ بعينِهِ، ولولا الحكايةُ لقالَ: (أنّه مسَّهُ...) على الغَيبة. ونكتةُ الالتفاتِ العنايةُ بالدّعاءِ واستحضارُ حالةِ تضرُّعِهِ، والإشعارُ بأنّ إجابةَ النّداءِ من آثارِ الرُّبوبيَّةِ[2]. كما يَحمِلُ التَّكلُّمُ دلالةَ اللّوعةِ وشدّةِ الحاجةِ، حتّى أقدمَ على التَّصريحِ بذاتِهِ؛ لمسيسِ الحاجةِ إلى الإنقاذِ والاستجابةِ.

محلُّ المصدرِ المؤوَّل ﴿أَنِّي﴾:

تحديدُ المُنادى له؛ بيانًا لعُسْرِ موقفِهِ وتأزُّمِ حالِهِ

وقَعَ المصدرُ المؤوَّلُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ منصوبًا بنزعِ الخافِضِ المُتعلِّقِ بـ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، بحذفِ (الباءِ) التَّصويريَّةِ المحذوفةِ مع (أنَّ) اطِّرادًا؛ أي: (نادى بأنّي مسّنيَ الشّيطان..)[3]. والغرضُ من ذلك تحديدُ المنادى له؛ لأنّه محطُّ القصدِ والاهتمامِ؛ فبعدَ أنْ حدّدَ المُناديَ والمنادَى أرادَ تحديدَ المنادَى له الّذي وقعَ النِّداءُ لأجلِهِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 389.
(2) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 420.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 268.

بلاغةُ التَّوكيدِ بـ﴿أَنِّي﴾:

دلالةُ النّداءِ على شدّةِ البلاء

يشيرُ التّأكيدُ في قولِه تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ إلى شدَّة البلاءِ الّذي امتحَنَ اللّهُ به صبرَ أيّوبَ ﷷ، فقد بلغَ به الأذى في بدنِه وأهلِه ومالِه مبلغًا عظيمًا يفوقُ الوصفَ، وصبر عليه مِن دونِ أيّ تضجّرٍ أو تبرُّم مدّةً طويلةً تجاوَزَتْ سبعَ سنينَ أوْ ثماني عشرةَ سنةً على اختلافِ المُفسِّرين، ثمَّ التجأ إلى ربّه الرّحيم ليكشفَ عنه الضّرَّ، فذكرَ المنادَى له مشيرًا بالتّأكيد إلى أنّه - وإنْ كان حالُهُ فيما عُهِدَ من شدّةِ صَبرِه مُقتضيًا عدمَ الشَّكوى - أتاهُ من البلاءِ ما لا صبرَ عليه[1].

نكتةُ إيثارِ لفظِ (المسّ):

شيوعُ المَسِّ في إصابةِ الشَّرِّ

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ التّعبيرُ بلفظِ (المسّ) دونَ لفظِ (الإصابة) أوْ غيرِها؛ لنكتةِ سلوكِ أيّوبَ ﷷ طريقَ الأدبِ في تضرُّعِه إلى ربِّه سُبحانه، إذ جعلَ كلَّ ما حلَّ به منَ الضُّرِّ البالغِ كالمسِّ الخفيفِ[2]. ويُلحظُ أنَّ (المسَّ) يتناسبُ معَ الشّيطانِ وأثرِهِ الَّذي يكونُ خفيًّا غيرَ ظاهرٍ، فعبّرَ عنه بالمسِّ المناسِبِ لتأثيرِهِ الخفيِّ العميقِ.

وجهُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

الشّيطانُ المعهودُ هو إبليسُ، وتدخُلُ ذرّيّته فيه تبعًا

جاءَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لفظُ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مُعرّفًا باللّام، ويمكن أنْ تكونَ (أل) في ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ لتعريفِ الجنس، فيَقتضي عمومَ الشَّياطين. والظّاهرُ أنْ تكونَ (أل) فيه للعهد؛ أي: الشّيطانُ المعهودُ وهو إبليسُ، استئناسًا برواياتِ المفسّرينَ في قصّةِ إبليسَ معَ أيّوبَ ﷷ، ولأنّ جميعَ الشّرور بفعلِ هذا الشّيطان، وتدخلُ ذرّيّتُهُ فيه تَبَعًا[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 389.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 126.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 01/ 94.

اشتقاقُ لفظِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ ودلالتُهُ:

الشّيطانُ مُحترقٌ بعيدٌ عن الخير

اختلفَ أهلُ اللُّغة في اشتِقاقِ ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾[1]؛ فقالَ أكثرُهم: إنّ أصلَه (شَطَنَ)، والنّونُ فيهِ أصليَّةٌ، فيَكونُ عَلى هَذا القَوْلِ بِوَزْنِ فَيْعالٍ. و(شطن) أصْلٌ مُطَّرِدٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى البُعْدِ، يُقالُ: شَطَنَتِ الدّارُ تَشْطُنُ شُطونًا إذا كانتْ بَعيدَةً، والشَّطَنُ: الحَبْلُ. وهوَ القياسُ؛ لأنَّهُ بَعيدُ ما بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ[2]. وقيل: بل النّون فيه زائدةٌ، فيَكونُ عَلَى هَذا القَوْلِ بِوَزْنِ فَعْلان، مِن: شاطَ يَشيطُ؛ بمعنى احترقَ أوْ هلكَ، والشَّيْطانُ هالِكٌ لِغَيِّهِ وشَرِّهِ[3]. وكلُّ عاتٍ مُتمرِّدٍ من الجنِّ والإنسِ والدَّوابِّ شيطانٌ[4].

سرُّ نسبةِ المسِّ إلى ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾:

التّأدّبُ في خطابِ الله جَلَّ جَلَالُهُ

أوثِرَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ إسنادُ أيّوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ المسَّ بالنّصَب والعذابِ إلى الشّيطان، مع كونِ الفاعلِ لهما هو الرّبَّ سُبحانه، ولا يقدرُ على ذلك إلّا هو، والنّكتةُ في ذلك مراعاةُ الأدبِ في خِطاب المَولى سُبحانه؛ تنزيهًا للّهِ تعالى عن نِسبةِ أدنى شُبهةِ شرٍّ إليه، وفي هذا تأديبٌ للعبادِ في مُخاطبتِهِم بنسبةِ الخيرِ دونَ الشَّرِّ إليه؛ معَ اعتقادِ أنّ الكلَّ فعلُه، وتنبيهًا على أنّ الشَّرَّ ممّا ينبغي التّبرُّؤُ منهُ والبُعدُ عنهُ[5]. وقال بعض المفسِّرين: إنّ ظاهرَ إسنادِ المسّ بالنّصَبِ والعذاب إلى الشّيطانِ أنّ الشّيطان مسَّ أيّوب بهما حقيقةً، والمقصودُ ما كان يوسوسُ به إليه في مَرَضِهِ من تعظيم ما نزلَ به من البلاء، ويُغريه على الكراهةِ والجَزَع، فالتجَأَ إلى اللّه تعالى في أنْ يكفيَهُ ذلك بكشفِ البَلاء أو بالتَّوفيقِ في دفعهِ وردِّهِ

(1) الخليل، العين: (شطن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شطن).
(3) الراغب، المفردات: (شطن).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أنس).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/ 482.

بالصَّبرِ الجميل. وجوّزَ بعضُهم أيضًا أنْ يكونَ في الآيةِ مجازٌ عقليٌّ علاقتُهُ السّببيّةُ؛ بإسنادِ المسِّ إلى الشّيطانِ لكونِهِ سببًا فيهِ[1].

معنى (الباءِ) في الآية:

أثَــرُ حــروف المعاني في توجيهِ البيانِ القرآنيِّ

وردَ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ لفظةُ ﴿بِنُصۡبٖ﴾ مجرورةً بالباءِ، وقد اختلفَ المفسّرونَ في معنى الباءِ تبعًا لاختلافِهِم في معنى إسنادِ المَسِّ للشّيطان، فحملَهُ فريقٌ على التّعدية، أوْ أنّها باءُ الاستعانة بالآلة، مثلُ: ضربَهُ بالعصا. ورجَّحَ بعضُهم أنْ تُحمَلَ (الباءُ) على معنى السّببيّة؛ بجعلِ النُّصب والعذابِ مُسبِّبين لمسِّ الشّيطان إيّاه؛ أي: مسَّني بوسواسٍ سببُهُ نُصْبٌ وعذابٌ، فجعلَ الشّيطانَ يوسوسُ إلى أيّوبَ بتعظيمِ النّصبِ والعذاب عنده، ويلقي إليه أنّه لم يكُن مُستحِقًّا لذلك العذاب؛ ليزرعَ في نفس أيّوبَ سوءَ الظَّنّ باللّه أوِ السُّخطَ من ذلك. أوْ تُحمَلُ (الباء) على المُصاحبة؛ أي: مسَّني بوسوسةٍ مُصاحِبةٍ لضرٍّ وعذابٍ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ (نُصْبٍ):

أصلُ (النُّصْبِ) التَّعَبُ والمشقَّةُ

عبّر القرآنُ الكريم في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ﴾ بلفظِ (نُصْبٍ)، بضمِّ النّونِ وسكونِ الصّاد، وهي لغةٌ في (نَصَبٍ) بفتحتين، ومعناهُ في الآية: ضرٌّ ومَشقَّةٌ وهمٌّ داءٍ ووجعٍ وبلاءٍ يُثقِلُ صاحبَهُ، فيكدُّهُ ويُجهِدُهُ ويصلُ به إلى الغاية من كلّ ذلك[3].

القراءاتُ القرآنيّةُ في لفظ (نُصْب):

اختلافُ القراءات باختلافِ اللُّغات

تنوّعتِ القراءاتُ القرآنيّةُ في كلمةِ ﴿بِنُصۡبٖ﴾؛ فقرأ أبو جعفرٍ بضمّ النّون والصّاد ﴿بِنُصُبٍ﴾، وقرأ يعقوبُ بفتحِهما ﴿بِنَصَبٍ﴾، وقرأ الباقونَ بضمِّ النّونِ وإسكانِ الصّادِ ﴿بِنُصۡبٖ﴾[4]. وهذه

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 97، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 420.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 270.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 389.

(4) ابن الجزريّ، النشر: 02/ 361.

القراءاتُ كلّها بمعنًى واحدٍ، وإنّما اختلفتِ القراءاتُ باختلافِ اللُّغات، وقال أبو عبيدةَ: إنَّ (النَّصَبَ) بفتحتيْن: التّعبُ والإعياءُ، وعلى بقيّة القراءاتِ: الشّرُّ والبَلاءُ[1]. وفي كلا القراءتين جاءت إفادة شدّة ما لاقاه نبي اللّه أيوب عليه.

توجيهُ العطفِ بـ(الواو):

عطفُ السّببِ على المسبَّبِ

وردَ في قوله تعالى: ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ حرفُ (الواو) الدّالُّ على الجمعِ والاقتران، وعطفُ الألمِ على المشقّةِ والتّعبِ عطفُ السَّببِ على المسبَّبِ؛ لأنَّ (النُّصْبَ) بمعنى التّعبِ والإعياءِ والمشقّةِ البدنيّة اللّازمةِ، و(العذابَ) بمعنى الألمِ الحسّيِّ والتّعبِ الجسديِّ المتعدّي؛ أي: إنَّ العذابَ والألمَ الواصلينِ إليه مُسبِّبان للإعياءِ والتّعبِ اللّازم. ويظهرُ أنَّ تعبَهُ وألَمَهُ الحسّيَّ مقترنٌ بحرارةٍ تُنبئُ عنها كلمةُ (العذاب) الّتي تقترنُ بالنّار وألمِها الحسّيِّ.

نكتةُ إردافِ (النُّصبِ) بـ(العذاب):

إصابةُ أيّوبَ في بدنِهِ بتعبٍ وألمٍ

عبّرَ النَّظمُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ بلفظِ (عذابٍ)، وهو في الأصل: الألمُ الفادحُ الثّقيلُ النّاتجُ عن المَرَض؛ يعني: أصابَني الشّيطانُ بتعَبٍ وألمٍ. وذلك من ضرٍّ حلَّ بجسَدِهِ وحاجةٍ أصابَتْهُ في مالِهِ كما في الآيةِ الأُخرى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]. وقال قتادةُ ومقاتلٌ: النُّصْبُ في الجسدِ والعذابُ في المال، قال النّحّاس: وفيه بُعدٌ، والأَوْلى تفسيرُ (النُّصْب) بالمعنى اللُّغويِّ، وهو التّعبُ والإعياءُ، وتفسيرُ (العذابِ) بما يصدقُ عليه مُسمّى العذاب، وهو الألمُ، وكلاهما راجعٌ إلى البَدَنِ[2].

---

(1) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 24/ 395، وأبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 184، والسمين الحلبي، الدر المصون: 9/ 381.

(2) الهرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 24/ 395، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 270.

سرُّ تنكيرِ لفظَي ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾:

ابتلاءُ أيّوبَ عليه السلام بأذًى عظيمٍ

يدلُّ التّنكيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ على التّعظيم؛ فقد ابتُلِيَ أيّوبُ عليه السلام بأذًى عظيم يفوقُ الوصفَ في بدنِه وأهلِه ومالِه. كما يمكنُ حملُ التّنكير على النَّوعيَّة؛ بمعنى: أنّه قد ابتُلِيَ بنُصْبٍ وعذابٍ من نوعٍ خاصٍّ يختلفُ عن سائرِ أنواعِ البَلاء(1).

غرضُ الإخبارِ في الآية:

ضَراعةُ أيّوبَ لربِّهِ وطلبُ لُطفِهِ

خرجَ الخبرُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ مَخرجَ الدّعاءِ والشّكايةِ والضّراعةِ، وفيه كنايةٌ لطيفةٌ عن طلبِ لُطفِ اللّه به ورفعِ النُّصْبِ والعذابِ عنه؛ بأنّهما صارا مَدخلًا للشّيطانِ إلى نفسِهِ، فطلبَ العصمةَ من ذلك، على نحوِ قولِ يوسفَ عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [يوسف: 33](2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 270.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 269.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص: 42]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

ترقُّبُ إجابةِ دُعاءِ أيّوبَ عليه السلام

لـمّا شكا أيّوبُ عليه السلام إلى ربِّهِ ما مسَّهُ منَ الضُّرّ تشوَّفَ السّامعُ إلى جوابِهِ عن ذلك(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱرۡكُضۡ﴾: (ركض) أصل يدُلُّ على حرَكةٍ إلى قُدُمٍ(2). والرَّكْضُ: الضّربُ بالرِّجْل، فمتى نُسِبَ إلى الرّاكِبِ فهو إعداءُ مَركوبٍ، نحوُ: رَكَضْتُ الفرسَ، ومتى نُسِبَ إلى الماشي فوطءُ الأرضِ، نحوُ قولِهِ تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾(3). ومعنى الرَّكْض في الآية: الضَّربُ في الأرضِ بالرِّجْلِ، وقولُه: ﴿بِرِجۡلِكَۖ﴾ زيادةٌ في بيانِ معنى الفِعْلِ(4).

2) ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾: (غسل) أصل يدُلُّ على تطهيرِ الشَّيءِ وتنقيتِهِ. يُقالُ: غَسلتُ الشَّيءَ غَسْلًا. والغُسْلُ الاسمُ(5). والمُغْتَسَلُ: المَوضِعُ الَّذي يُغْتَسَلُ فيه، والماءُ الَّذي يُغْتَسَلُ به. والمَغْسِلُ، بكسرِ السّين وفتحها: مَغْسَلُ المَوتى، والجمع المَغاسِلُ. والغُسالَةُ: ما غَسَلْتَ به الشّيءَ(6). والمقصودُ بالمُغتَسَلِ هنا: اسمٌ للمكانِ الَّذي يُغتسَلُ فيه، أو المرادُ به: الماءُ الَّذي يُغتَسَلُ به(7).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 390، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 398.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ركض).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات: (ركض).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 270.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غسل).
(6) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (غسل).
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 168.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الأخْذُ بالأسبابِ يَحمِلُ لأيّوبَ الشِّفاءَ والعافيةَ

يذكُرُ الحقُّ سُبحانه إجابتَه لدُعاءِ أيّوبَ عليه السلام وما مَنَّ به عليه، فيقولُ: فاستَجَبْنا لأيّوبَ، وقُلْنا له: اضربْ برِجْلِك في الأرضِ، ففعَلَ، فنَبَعَ منها الماءُ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ باردٌ تَغتَسِلُ به وتَشرَبُ منه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآيةِ:

الإيذانُ باستجابةِ الدُّعاءِ

وردتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ مفصولةً عن الجملةِ قبلَها؛ لأنّ بينهما (شبهَ كمالِ الاتّصال)، وهو كونُ الجملةِ الثّانيةِ قويَّةَ الارتباطِ بالأولى؛ لوقوعِها جوابًا عن سؤالٍ يُفهَمُ من الجُملةِ الأولى، فتُفصَلُ عنها كما يُفصَلُ الجوابُ عن السّؤال[2]؛ فقد جاءت جملةُ: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ مقولةً لقولٍ محذوفٍ؛ أي: قُلنا له: اركُضْ برِجْلِكَ، وذلك إيذانٌ بأنّ هذا استجابةٌ لدعائِه[3]، ففي الكلامِ إيجازٌ بالحذف. والسِّرُّ في ذلك: أنَّ الحالةَ الَّتي وصلَ إليها أيّوبُ عليه السلام قد أدّتْ إلى إسقاطِ اللّفظِ الدّالِّ على (الاستجابةِ والقولِ)؛ للدُّخول سريعًا في تقديمِ العِلاج.

دلالةُ الأمرِ ﴿ٱرۡكُضۡ﴾:

الـرَّكْـضُ هو الدَّفْعُ القويُّ بالرِّجلِ

عُبِّر بفعلِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ﴾ عقيبَ تضرُّعِ أيّوبَ عليه السلام لرَبِّه، فكأنّه سأل ربَّه أنْ يزيلَ عنه تلك البليّةَ، فأجابَهُ اللّٰه إليه؛ بأنْ قالَ له: ﴿ٱرۡكُضۡ﴾، والرَّكضُ هو الدّفعُ القويُّ بالرِّجل، وأصلُهُ: رَكْضُ الدّابَّةِ بالرِّجْل، ومنه: ركضَ الفرسَ، وهذا من باب اتّخاذِ أسبابِ الشّفاءِ[4]. والفعلُ دالٌّ على عودةِ الشّفاء إلى رجلِه أوَّلًا؛ لأن

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 107، 108، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 211، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 714.

(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 180.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 270.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 398، والقونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 422.

حالَه قاربت الموتَ، فلمّا جاءهُ الأمرُ بالرَّكض بدأتِ الحياةُ تَدِبُّ في الإعضاءِ بقُدرة اللّه تعالى، وما الأمرُ بالرّكضِ إلّا مباشرةُ سببٍ، وأمّا الشِّفاءُ فأمرٌ مختصٌّ باللّه وحدَه، وفي هذا الأمرِ بعدَ الطّلب كنايةٌ عن الاستجابةِ وعودةِ الشّفاءِ له.

دلالةُ (الباء) في ﴿بِرِجۡلِكَۖ﴾:

وردَ الفعل ﴿ٱرۡكُضۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ مُتعدّيًا بحرفِ الباءِ، ومعناها الاستعانةُ بالآلةِ، مثلُ: ضربَهُ بالعصا؛ أي: مُستعينًا بالآلةِ المَخصوصةِ، وفي ذلك دلالةٌ على وجوبِ الأخذِ بالأسبابِ، وإنْ كانَ حصولُ الشّفاء والإقدارُ على الرَّكضِ مَوكولًا إلى اللّهِ تعالى وحدَهُ. وبناءً على ما مرَّ في تفسير (الرَّكض) - وهو النَّخسُ بالرِّجْل للأرضِ - تكونُ (الباء) للتَّعدية، ولا يكونُ منَ التَّصريح بما عُلِم ضِمْنًا؛ لأنَّ النّخسَ يكونُ بأيِّ طرفٍ منَ الأطرافِ، ويكونُ ذكرُ الرِّجْلِ دونَ اليدِ لأنَّها الآلةُ المُستعملةُ للوصولِ إلى مكانِ الاغتسال.

نكتةُ ذكرِ (الرِّجل):

زيـادةُ التّصوير بـذكـرِ الجارحةِ معَ الفعل

أوثِرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ ذكرُ لفظِ ﴿بِرِجۡلِكَۖ﴾ بعدَ الأمرِ بالرّكض، مع أنّ الرّكضَ في اللُّغةِ لا يكون إلّا بالضّربِ في الأرضِ بالرّجل، والنّكتةُ البلاغيّةُ في ذلك التّصويرُ وزيادةُ البيانِ للفعلِ، واستحضارُ صورةِ الفعلِ ماثلةً في الذّهنِ، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ﴾ [الأنعام: 38][1].

علّةُ الفصلِ في: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾:

الإيـجـازُ وبيـانُ الـعـلّـةِ أروعُ في النَّظم

وردتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ مفصولةً عن الجملةِ قبلَها، وهي قولُه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾؛ لأنّها مقولةٌ لقولٍ محذوفٍ، والتّقديرُ: فركضَ الأرضَ فنبعَ ماءٌ،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 270.

فقلنا له: هذا مُغتسَلٌ باردٌ وشرابٌ. ولا يبعدُ أنْ يكونَ علّةً للأمرِ بالرّكض لعلاقةِ (شبهِ كمالِ الاتّصال)؛ وكأنّه جرى في نفسِ أيّوبَ عليه السلام سؤالٌ عن علّةِ الأمرِ بركضِ الأرضِ برجلِه؛ فأجيبَ بأنَّ هذا المرئيَّ المُشاهدَ مَكانُ اغتسالِكَ من الأمراضِ والأوبئةِ.

دلالةُ الحذفِ في الآية:

حذفُ ما يُعلَمُ جائزٌ وبليغٌ

دلّتِ الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ على وجودِ إيجازٍ بالحذفِ لأكثرَ من جملةٍ واحدةٍ؛ لدلالةِ ما ذكرَ عليه؛ كقَوْله تَعالَى: ﴿فَأَرۡسِلُونِ ۝٤٥ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: 45 - 46] الآيةَ، تقديرُهُ: (فضربَ بها، فنبعَتْ عينٌ، فقيلَ: هذا مُغتسَلٌ...)[1].

نكتةُ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ للقريبِ:

قُربُ عينِ الماءِ؛ لسهولةِ تناوُلِ الدّواءِ

عُبِّرَ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ باسمِ الإشارةِ للقريبِ ﴿هَٰذَا﴾، والنّكتةُ في ذلك الإيماءُ إلى قُربِهِ وسُهولةِ تناوُلِه، كما دلَّ السّياقُ على أنّ الإشارةَ إلى ماءٍ؛ لأنّه الّذي يُغتسَلُ به ويُشرَبُ[2]. وظاهرُ لفظِ الإشارةِ يدلّ على أنَّ الرَّكضَ بمعنى النّخسِ والرَّكلِ لا الجَرْيِ في الأرضِ؛ لأنَّ القُربَ في اسمِ الإشارةِ يدلُّ على أنَّ تحريكَ الرِّجْلِ كان كافيًا في نَبْعِ الماءِ، فأُشيرَ إليه بالقريبِ، ولو كان الرّكضُ جريًا في الأرضِ لكانَ راكضًا إلى الماءِ، فيكونُ الأنسبَ التَّعبيرُ بـ(ذلك) للبعيدِ.

دلالةُ لفظِ ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾:

تحديدُ محلِّ الاغتسالِ يُطفِئُ لهيبَ المَرَضِ

وردَ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ لفظُ ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾، فحملَهُ بعضُ المُفسّرينَ على الموضعِ الّذي يُغتسَلُ فيه، وحملَهُ آخرونَ على الماءِ المُغتسَلِ به، فيكونُ اسمَ مفعولٍ من الفعلِ (اغتسلَ)؛ أي: مُغتسَلٌ به، فهو على حذفِ حرفِ الجرِّ وإيصالِ المُغتسَلِ القاصرِ إلى المفعولِ[3]. ولا يبعدُ أنْ يكونَ مصدرًا ميميًّا، والتَّقدير: هذا اغتسالُكَ،

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 422.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 391، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 270.

(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 97، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 162.

ويكون من الإخبارِ بالمصدرِ؛ للدّلالةِ على كمالِ ذلك الغُسل بتحقيقِهِ الشّفاءَ التّامّ.

غرضُ الخبرِ في الآية:

سُرعةُ الاستجابةِ كنايةٌ عن كمالِ الرّضا

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ خطابًا لأيّوبَ عليه السلام، والخبرُ فيه بمعنى الأمر، والتّقديرُ: (اغتسِلْ منهُ واشرَبْ)، وهذا مفهومٌ من قولِهِ: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ﴾؛ إذِ الخبرُ بأنّ هذا مغتسَلٌ لِمَن احتاجَ إلَى الغَسْلِ للتَّشفّي قرينةٌ واضحةٌ عَلى أنّ المرادَ الأمرُ بالغَسلِ والشُّربِ منه، وقد أوثِرَتْ صيغةُ الخبر؛ لأنّه آكدُ في الدّلالةِ على التَّحقُّقِ وسُرعةِ الامتثال[1].

دلالةُ وصفِ المُغتسَلِ بلفظِ ﴿بَارِدٌ﴾:

أثرُ الماءِ البارِدِ في العِلاجِ

وُصِفَ (المُغتسَلُ) في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ بأنّه ﴿بَارِدٌ﴾، وهو مرجِّح لإرادةِ اسمِ المفعولِ منه وهو الماءُ المُغتسَلُ به، وإنْ أمكنَ أنْ يوصَفَ المحلُّ بالبرودةِ تبعًا لبرودةِ الحالِّ فيه، أو حَدَثُ الاغتسال بالباردِ ببُرودةِ الماءِ المُستعمَلِ فيهِ أيضًا، ووصفُهُ بـ﴿بَارِدٌ﴾ إيماءٌ أيضًا إلى أنّه يُبرّدُ ظاهرَ جِلْدِهِ، وأنّ به زوالَ ما بأيّوبَ من الحمّى من القُروح. ولعلَّ وصفَ المُغتسَلِ بالـ﴿بَارِدٌ﴾ مقابلٌ لقولِهِ في الدُّعاء: ﴿بِنُصْبٍ﴾؛ إذ النُّصْبُ إعياءٌ وتعبٌ من المرضِ لا يَدفعُهُ إلى حالةِ النَّشاطِ إلّا الماءُ البارِدُ.

توجيهُ العطفِ بـ(الواو):

الاغتسالُ يُبرئُ الظّاهرَ، والشُّربُ يُبرئُ الباطنَ

جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ العطفُ باستعمالِ حرفِ (الواو) الدّالّ على الجمعِ والاقتران، فقد أُمِرَ أيّوبُ عليه السلام بالجمعِ بينَ الاغتسالِ بذلك الماءِ الّذي فيه شفاؤُهُ والشُّرْبِ منه، فبالاغتسالِ به يَبرأُ ظاهرُهُ، وبالشُّربِ منهُ يَبرأُ باطنُهُ. وهذا

(1) القونويّ، الحاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 422.

التَّوجيهُ مبنيٌّ على أنّه من عطفِ المُفردات. أمّا إذا قلنا: إنّه من عطفِ الجُمَلِ والتَّقدير: (وهذا شرابٌ باردٌ) فالنَّظمُ يكونُ مُحتمِلًا لنبعِ عَينينِ قريبتينِ منه؛ عينٍ للاغتسالِ وعينٍ للشُّربِ منها. ولا يبعُدُ أنْ يكونَ (الشَّرابُ) في مُقابلةِ قولِه عندَ الدُّعاء: ﴿وَعَذَابٍ﴾؛ إذِ العذابُ يوحي بالحرارةِ الدّاخليَّة الَّتي تحتاجُ إلى إطفاءٍ، فكانَ الشَّرابُ الباردُ دواءً لذلك العذابِ.

علّةُ تنكيرِ لفظِ (شَراب):

شرابٌ شافٍ من ربٍّ كريم

جاءَ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ لفظُ (شراب) منكَّرًا، والنّكتةُ التّعظيمُ، وبالتَّنكيرِ استُغنيَ عن وصفِ الشّراب، إذ منَ المعلوم أنّ الماءَ شرابٌ، فلولا إرادةُ التّعظيم لكانَ الإخبارُ عن الماءِ بأنَّه شرابٌ إخبارًا بأمرٍ معلوم، فكان مَأخَذُ تعظيم الشّراب هنا هو الاحتفاء بأيّوبَ عليه السلام، لأنّه شفاءُ ما بِهِ من مرَضٍ[1].

نكتةُ عدمِ وصفِ (شراب):

الحذفُ من الثّاني لدلالةِ الأوّلِ عليه

يُلاحظُ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ عدمُ وصفِ (الشّرابِ) بالبرودةِ، والنّكتةُ في ذلك الاكتفاءُ بالوصفِ السّابق للمُغتسَلِ عن إعادتِهِ مع الشّراب، مع ما في ذلك منَ الحفاظِ على الفاصلةِ القرآنيّةِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرّكض والضَّرْب:

عمومُ آلةِ الضّربِ وخصوصُ آلةِ الرّكضِ

بين لفظِ (الضّربِ) و(الرّكضِ) عمومٌ وخصوصٌ مطلقٌ، فالضَّرْبُ عامٌّ في إيقاعِ شيءٍ على شيءٍ، معَ اختلافِ الضّربِ كضَرْبِ الشَّيءِ باليدِ والعَصا والسّيفِ ونحوِها. وأمّا الرّكضُ فهو خاصٌّ بالضَّربِ في الأرضِ بالرِّجْلِ أوْ ضربِ الأرضِ ونخسِها بالرِّجل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 271.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝٤٤﴾ [ص: 43 - 44]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَيْنِ لِما قبلَهما:

بعدَ الشِّفاءِ منَ الأدواءِ، جاءَ مزيدُ العطاءِ، لتأكيدِ الرجاءِ لمَنْ صدقَ اللهَ في الدُّعاءِ

لَمّا ذَكرَ النَّظْمُ الحكيمُ مِحْنَةَ أيّوبَ عليه السلام الَّتي سيقتْ لِتُعَلِّمَ النّاسَ الصَّبْرَ علَى الشَّدائِدَ، وبعدَ أنْ أوْرَدَ ما فتَحَ اللّهُ تعالى له منْ بابِ الأمَلِ والرَّجاءِ والسَّلامَةِ من الدّاءِ، بقَوله: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [ص: 42] ناسبَ أن يُعَقّبَ علَى ذَلِكَ بذِكْرِ مِنَنٍ أُخْرَى من مِنَنِ اللّهِ على أيّوبَ عليه السلام، وهيَ العَطاءُ الجَزيلُ في الدُّنيا والآخرةِ بأنْ وهَبَ لَهُ أهْلَه، فأحياهُم لهُ بعدَ موتِهم، أو جَمَعَهُم له بعد تَفَرُّقِهم، أو أعطاهُ أجْرَ صَبْرِه على فُقْدانِهم، وأعطاهُ مِثْلَهم في الدّنيا، ولَيْسَتْ هَذه القَضيَّةُ ذاتَ أثَرٍ في الغَرَضِ الَّذي سيقَتْ لِأجْلِه قِصَّةُ أيّوبَ منَ الأُسْوَةِ، وإنَّما ذُكِرَتْ هُنا تَكْمِلَةً لِمَظْهَرِ لُطفِ اللّهِ بِأيّوبَ جَزاءً عَلى صَبْرِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَوَهَبْنَا﴾: (وهب): وهَبْتُ لِزَيْدٍ مالًا أهَبُهُ لَهُ هِبَةً أعْطَيْتُهُ بِلا عِوَضٍ يَتَعَدَّى إلَى الأوَّلِ بِاللّام، ووَهْبًا بِفَتْحِ الهاءِ وسُكونِها ومَوْهِبًا ومَوْهِبَةً بِكَسْرِهِما ولا يَتَعَدَّى إلَى الأوَّلِ بِنَفْسِه فَلا يُقالُ وهَبْتُكَ مالًا، والفُقَهاءُ يَقولونَهُ وقَدْ يُجْعَلُ لَهُ وجْهٌ وهوَ أنْ يُضَمَّنَ (وَهَبَ) مَعْنَى (أعطى)[2]. وتَقولُ: وهَبْتُ الشَّيْءَ أهَبُهُ هِبَةً ومَوْهِبًا. ويُقالُ أوْهَبَ إلَيَّ مِنَ المالِ كَذا، أيِ ارْتَفَعَ. وأصْبَحَ فُلانٌ مَوْهَبًا لِكَذا، أيْ مُعَدًّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 273.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 673.

لَهُ[1]. ووَهَبَ اللّه لك الشَّيءَ، يَهَبُ هِبَةً. وتَواهَبَهُ النّاسُ بينهمُ، والموهوبُ: الوَلَد، ويَجوزُ أنْ يكونَ ما يوهبُ لَكَ[2]. والهِبةُ: العَطيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأعْواضِ والأغْراضِ[3]، والمُرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾: جَمَعْناهُم عَلَيْه بَعدَ تَفرُّقِهِم، أوْ أحْيَيناهُم بعدَ مَوْتِهِم[4]. أوْ أعْطَيْناه في الآخرةِ أجْرَ صَبْرِه على فَقْدِهِم[5].

2) ﴿وَمِثْلَهُم﴾: (مثل): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى مُناظَرَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ. وهَذا مِثْلُ هَذا، أيْ نَظيرُهُ، والمِثْلُ والمِثالُ في مَعْنًى واحِدٍ. ورُبَّما قالوا مَثيلٌ كَشَبيهٍ. والمَثَلُ: المِثْلُ أيْضًا، كَشَبَهٍ وشِبْهٍ. والمَثَلُ المَضْروبُ مَأْخوذٌ مِنْ هَذا، لِأنَّهُ يُذْكَرُ مورًّى بِه عَنْ مِثْلِهِ في المَعْنَى[6]. والمِثْلُ: كلمةُ تَسْويَةٍ، يُقالُ: هذا مِثْلُهُ ومَثَلُهُ كما يقال شِبْهُهُ وشَبَهُهُ بمعنًى[7]. والمِثْلُ يُسْتَعْمَلُ عَلَى ثَلاثَةِ أوْجُهٍ: بِمَعْنَى الشَّبيهِ، وبِمَعْنَى نَفْسِ الشَّيْءِ وذاتِه، وزائِدَةٍ، والجَمْعُ أمْثالٌ، فمثال الأول: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ومثال الثاني: قَوْله تَعالَى ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنعام: 122]، ومثال الثالث: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: 137] أيْ بما آمنتم به[8]، وهوَ أعمُّ الألفاظِ المَوْضوعَةِ للمُشابَهَةِ؛ لِهَذا لَمّا أرادَ اللّهُ نَفْيَ التَّشْبيهَ مِنْ كُلِّ وجهٍ خَصَّهُ بالذِّكْرِ فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ﴾ [الشورى: 11][9]. واخْتُلف في المرادِ بـ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ على أرْبَعَةِ أقْوالٍ: أحَدُها: أنَّ اللَّه تعالى أحْيا لَهُ أهْلَهُ بِأعْيانِهِم، وآتاهُ مِثْلَهم مَعَهم في الدُّنْيا. والثّاني: أنَّهم كانوا قَدْ غُيِّبوا عَنْهُ ولَمْ يَموتوا، فَآتاهُ إيّاهُم في الدُّنْيا ومِثْلَهم مَعَهم في الآخِرَةِ. والثّالِثُ: آتاهُ اللَّه أُجورَ أهْلِهِ في الآخِرَةِ، وآتاهُ مِثْلَهم في الدُّنْيا. والرّابِعُ: آتاهُ أهْلَهُ ومِثْلَهم مَعَهم في الآخِرَةِ[10].

3) ﴿ضِغْثًا﴾: (ضغث) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى التِباسِ الشَّيْءِ بَعْضِهِ بِبَعْضٍ. يُقالُ لِلْحالِمِ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وهب).
(2) الخليل، العين: (وهب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(4) الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير: 23/ 205.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 365.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(7) الجَوْهَرِيّ، الصّحاح: (مثل).
(8) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 563.
(9) الرّاغب، المفردات، والفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (مثل).
(10) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 207.

أضْغَثَت الرُّؤيا. والأضْغاثُ: الأحْلامُ المُلْتَبِسَةُ. وضَغَثْتُ الشَّيْءَ ضَغْثًا مِنْ بابِ (نَفَعَ) جَمَعْتُهُ، ومِنْهُ الضِّغْثُ، وهوَ قَبْضَةُ حَشيشٍ مُخْتَلِطٌ رَطْبُها بيابِسِها[1]. وقالَ الخليلُ: هو أصْلٌ واحِدٌ[2]. وقولُه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ كانَ أيّوبُ عليه السلام قَدْ حَلَفَ أنْ يَضْرِبَ امرأتَهُ مِئَةَ ضَرْبَةٍ، لِسَبَبٍ ما، وكانَتْ مُحْسِنَةً لَهُ، فَجَعَلَ لَهُ سُبْحانَه خَلاصًا مِنْ يَمينِه بأهونِ شَيءٍ عليْه وعليْها، والمرادُ أنْ يأخذَ حُزمةً منْ أعوادٍ دقيقةٍ ويَضْرِبُها بِها بحيثُ يبلغُ عددُ الأعوادِ الّتي ضُرِبَتْ بها مئةَ عودٍ[3].

4) ﴿تَحۡنَثۡ﴾: حَنِثَ في يَمينِهِ يَحْنَثُ حِنْثًا إذا لَمْ يَفِ بموجِبِها فَهوَ حانِثٌ[4]، و(حنث) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الإثْمُ والحَرَجُ. يُقالُ: حَنِثَ فُلانٌ في كَذا، أيْ أثِمَ. ومِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: بَلَغَ الغُلامُ الحِنْثَ، أيْ بَلَغَ مَبْلَغًا جَرَى عَلَيْهِ القَلَمُ بالطّاعَةِ والمَعْصيَةِ، وأُثْبِتَتْ عَلَيْهِ ذُنوبُهُ. ومِنْ ذَلِكَ الحِنْثُ في اليَمينِ، وهوَ الخُلْفُ فيهِ. فَهَذا وجْهُ الإثْمِ. ومِنْ ذَلِكَ التَّحَنُّثُ وهوَ التَّعَبُّدُ. ومِنْهُ الحَديثُ: «أنَّ رَسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم كانَ يَأْتي غارَ حراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ»[5]. والمَعْنَى المِحْوَريُّ ثِقَلُ الشَّيْءِ ثِقَلًا بالِغًا، ولا يَكونُ ذَلِكَ إلّا بِسَبَبِ احْتِوائِه عَلَى غَليظٍ جَسيمٍ جافٍ ثَقيلٍ. ومن ذلك: حَنِثَ في يمينه: لم يَبَرَّ فيه، أي: حَلَفَ علَى كَذِبٍ، فالحِنْثُ الخُلْفُ في اليَمينِ ونَقْضُها والنَّكْثُ فيها، ومآلُ كُلِّ ذَلِكَ إلى الخُلْفِ. والخُلْفُ تخلّفٌ وثِقَلٌ عنِ الأداءِ، ومنْهُ قولُه تعالى: ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾[6]. والمرادُ: ولا تَأْثَمْ بتَرْكِ ما حَلَفْتَ عَلى فِعْلِه[7].

5) ﴿أَوَّابٌ﴾ (ءوب) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الرُّجوعُ[8] إلى المُسْتَقَرِّ[9]. وآبَ فُلانٌ إلَى سَيْفِه، أيْ: رَدَّ يَدَهُ ليَسْتَلَّهُ. وآبَ الغائِبُ يَؤوبُ أوبًا، أيْ: رَجَعَ[10]. والأوّابُ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلَى اللّه

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: 2/ 362، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (ضغث).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضغث).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضغث).
(4) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/ 154.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حنث)، والحديث رواه البخاريّ في صحيحه، كتاب بَدْءِ الوَحْي، حديث رقم: (3).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حنث).
(7) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 393.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوب).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أوب).
(10) الخليل، كتاب العين: (أوب).

ﷺ، مِنَ ذنبه. والأَوْبَةُ: الرُّجوع، كالتَّوْبِة. وآبَ مِنْ سَفَرِهِ يَؤوبُ أَوْبًا ومَآبًا (رَجَعَ)، والإيابُ اسْمٌ مِنْهُ فَهوَ آئِبٌ، وآبَ إلى اللهِ تَعالَى رَجَعَ عَنْ ذَنْبِه، وتابَ فَهوَ أوّابٌ مُبالَغَةً. وآبَتْ الشَّمْسُ رَجَعَتْ مِنْ مَشْرِقِها فَغَرَبَتْ والتَّأْويبُ سَيْرُ اللَّيْلِ وجاءوا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ مَعْناهُ مِنْ كُلِّ مَرْجِعٍ أَيْ مِنْ كُلِّ فَجٍّ[1]. والمرادُ بالأوّابِ هُنا: الراجعُ إلى اللهِ تعالى بتركِ المَعاصي وفِعْلِ الطّاعاتِ[2]، إذْ هوَ الأليقُ بِالسّياقِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

العَطاءُ الجزيلُ، والنعيمُ الوافرُ المقيمُ، جزاءٌ لمَنْ صبَرَ على ابتلاءِ اللهِ تعالى

بَعْدَ أَنْ اكتملتْ لأيّوبَ عليه السلام العافيةُ؛ مَنَّ اللّهُ عليْهِ بأنْ وهَبَ لَهُ ما كان قَدْ تَفَرَّقَ عنْهُ منْ ولَدِه، وبارَكَ لَه فيهِم فَضاعَفَهُم لَهُ، أو احتسبَ لَهُ أجْرَ الصابرينَ، ورزَقَهُ مِثْلَهُم، وأعْطاهُ كَثيرَ المالِ وجَليلَ الخَيْرِ، وكُلُّ ذَلِكَ كانَ مِنْ رحمةِ اللّهِ وفَضْلِه عليْهِ إذْ سَلَّطَ اللّهُ عليْهِ البَلاءَ فَصبَرَ، ثُمَّ أزالَ عَنْهُ ما نَزَلَ بِهِ ووَصَلَهُ بالآلاءِ والنَّعْماءِ، وذَلِكَ تَنْبيهًا لِذَوي العُقولِ الرَّشيدَةِ والبَصائِرِ النّافِذَةِ والقُلوبِ السَّليمَةِ علَى أنَّ مَنْ صَبَرَ ظَفَرَ ونالَ الجَزاءَ الحَسَنَ[3].

ثُمَّ زادَه سبحانه لصيانَةِ دينِ أيّوبَ عليه السلام ومقامِ نُبوَّتِه فجَعَلَ لهُ من قَسَمِه مَخْرَجًا، إذْ لا يَنْبَغي لِهذا العبدِ الصابرِ والنَّبيِّ المُحْتَسِبِ أَنْ يَحْنَثَ في قَسَمٍ أقْسَمَه لذاتِ اللّهِ سُبْحانَه، وخَتَمَ قِصَّتَه بمَكْمَنِ العبرَةِ فيها وهوَ الصَّبْرُ على بلاءِ اللّهِ سبحانَه.

فَيكونُ بِذَلِكَ قدْ وفَّى بقَسَمِه ولمْ يؤْذِ زوجَهُ الوَفيَّةَ لَه في مَرَضِه، ثُمَّ عَقَّبَ النَّظْمُ الحكيمُ مادِحًا أيّوبَ عليه السلام بالصَّبْرِ والاحتسابِ وحبسِ نفسِه علَى إرادَةِ رَبِّه، فَلَمْ يَسْتَطِعِ الشَّيْطانُ أَنْ يُزَعْزِعَ ثِقَتَهُ بِرَبِّه أوْ أَنْ يُقَلِّلَ مِن اعتِمادِه عليْهِ سُبْحانَه، فقدْ صَبَرَ على البَلاءِ؛ فَنِعْمَ

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: 1/ 28.
(2) الرّاغب، المفردات: (أوب).
(3) نخبة من المفسّرين، التّفسير الوسيط: 8/ 506.

العبدُ أيّوبُ، إنَّهُ رَجّاعٌ إلَى اللّهِ بِالتَّوْبَةِ والاسْتِغْفارِ، زيادَةً في حَسَناتِه ورَفْعِ دَرَجاتِه، لا بِسَبَبِ ذَنْبٍ جَناهُ، فَجازَيْناهُ بِتَفْريجِ كُرْبَتِه، مَعَ أنَّهُ لَيسَ في الشَّكْوَى إلَى اللّهِ إخْلالٌ بالصَّبْرِ، ولَكِنَّ إيمانَ الأنْبياءِ المُطْلَقَ التّامَ هو الَّذي يُعَرِّفُهُم أنَّ اللّهَ عَليمٌ بِهِم، وقَدْ لا يَطْلُبونَ مِنَ اللّهِ شَيْئًا لِإذْهابِ هَمِّهِم وغَمِّهِم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

تَعَدُّدُ المِنَنِ يَقْتَضي العَطْفَ إظْهارًا لفضلِ اللهِ ورَحْمَتِه

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قَوْلَ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ على قولِه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾ [ص: 42]؛ لِتَصلَ بينَ أجزاءِ قِصَّةِ أيّوبَ ﵇، أو عاطِفَةً بين الإنشاءِ في قولِه: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ [ص: 42] والخبرِ في قولِه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ إذْ لَمّا كانَ التَّقْديرُ: (فَفَعَلَ؛ اغْتَسَلَ؛ فَبَرَأَ ظاهِرُهُ؛ وسُرَّ باطِنُهُ)؛ عَطَفَ عَلَيْهِ[2]، "عَلى مُقَدَّرٍ مُتَرَتِّبٍ عَلى مُقَدَّرٍ آخَرَ يَقْتَضيهِ القَوْلُ المُقَدَّرُ آنِفًا، كَأنَّهُ قيلَ: فاغْتَسَلَ، وشَرِبَ فَكَشَفْنا بِذَلِكَ ما بِهِ مِن ضُرٍّ كَما في سورَةِ الأنْبياءِ"[3].

فلمّا ذكرَ أنَّه مَنَّ عليْهِ بالشِّفاءِ ظاهِرًا وباطِنًا، عطفَ عليه، بِإبداءِ نِعْمَةٍ أُخرى، وهيَ المَنُّ عليه بِهِبَةِ أهلِه الذّاهبينَ أو المُتَفَرِّقينَ عنه، ولَعَلَّ الإنعامَ بإعادةِ أهْلِه أكبرُ من التَّكَرُّمِ بهِبَتِهِم ابتداءً، لِما فيهِ مِنْ تَسْكينِ لواعِجِ الفقدِ عليهم.

بَلاغَةُ الكنايةِ في اخْتيارِ مُفْرَدَةِ الهِبَةِ:

الإخبارُ بالهِبَةِ عنِ الأهْلِ كِنايَةٌ عَنْ مَحْضِ التَّفَضُّلِ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التعبيرَ بالفعلِ (وَهَبْنا) لِما فيه من معْنَى الإعْطاءِ بلا عِوَضٍ، إذِ المَعْنَى هو إعطاءُ أيّوبَ ﵇ أهلَهَ ومثلَهم معه

(1) وَهْبَةُ الزُّحَيْليّ، التّفسير المنير: 23/ 209.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 391.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 229.

بِلا مُقابِلٍ، والهِبةُ: العَطيَّةُ الخاليةُ عَنِ الأَعْواضِ والأَغْراضِ[1]، ولمّا كان صبرُه على البلاءِ مَظِنَّةَ العِوَضِ، بيَّنَ هذا اللفظُ أنَّ ما كان لَه إنّما هو فضلٌ من اللّه ورحمة، فقول اللّهِ: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ كنايةٌ عنِ التَّفَضُّلِ بإعادَةِ الأهلِ لأيّوبَ لأنَّ إيتاءَه أهلَه كانَ بعدَ موتِهم أو تَفرُّقِهم عِنهُ، فَهو مَحْضُ تفضُّلٍ، فَفي التَّعبيرِ بالهِبَةِ كِنايَةٌ عنِ التَّفضُّلِ والتَّيْسيرِ، بإحداثِ تلكَ المُعْجِزَةِ الّتي لا يسْتِطيعُها سواهُ سُبحانَه.

تضمينُ الفعلِ (وَهَبْنا) مَعنَى (أبْقَيْنا):

الـــزِّيـــادة في الإنـعـام معنًى يَعْضُدُه السّياق

وللطّاهر بنِ عاشورٍ رأيٌ جديرٌ بالالتِفاتِ إليْهِ في معنَى الفعلِ (وَهَبْنا)، فقدْ ضَمَّنَهُ معنى الإبقاءِ، فقال: "ولَمْ يَتقَدَّمْ في هَذِهِ الآيَةِ، ولا في آيَةِ سورَةِ الأنْبياءِ، أنَّ أيّوبَ ﵇ رُزِئَ أهلَهُ، فَيَجوزُ أنْ يَكونَ مَعْنَى ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ أنَّ اللّٰهَ أبْقى لَهُ أهْلَهُ، فَلَمْ يُصَبْ فيهِمْ بما يَكْرَهُ وزادَهُ بَنِينَ وحَفَدَةً. ويَكونُ فِعْلُ (وهَبْنا) مُسْتَعْمَلًا في حَقيقَتِهِ ومَجازِه. ويُؤَيِّدُ هَذا المَحْمَلَ وُقوعُ كَلِمَةِ ﴿مَّعَهُمۡ﴾ عَقِبَ كَلِمَةِ ﴿وَمِثۡلَهُم﴾ فَإنَّ مَعَ تُشْعِرُ بِأنَّ المَوْهوبَ لاحِقٌ بِأهْلِه ومَزِيدٌ فيهِمْ. فَلَيْسَ في الآيَةِ تَقْديرُ مُضافٍ في قَوْلِه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، ولَيْسَ في الأخْبارِ الصَّحيحَةِ ما يُخالِفُ هَذا، إلّا أقْوالًا عَنِ المُفَسِّرينَ ناشِئَةً عَنْ أفْهامِ مُخْتَلِفَةٍ. ويُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ مِمّا أصابَهُ أنَّهُ هَلَكَ وأوْلادُهُ في مُدَّةِ ضُرِّهِ كَما جاءَ في كِتابِ أيّوبَ مِن كُتُبِ اليَهودِ وأقْوالِ بَعْضِ السَّلَفِ مِنَ المُفَسِّرينَ، فَيَتَعَيَّنُ تَقْديرُ مُضافٍ، أيْ: (وهَبْنا لَهُ عِوَضَ أهْلِهِ). وألْفاظُ الآيَةِ تَنْبو عَنْ هَذا الوَجْهِ الثّاني[2].

نُكْتَةُ إسْنادِ فِعْلِ (وَهَبْنا) إلَى ضَميرِ العَظَمَةِ:

تعظيمُ الواهبِ دليلٌ على عِظَمِ الهِبَةِ ونفاسَتِها عِنْدَ الموهوبِ له

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾، أَسْنَدَ البيانُ القُرآنيُّ الفِعْلَ (وَهَبْنا) إلى ضَميرِ التَّعْظيمِ، صارِفًا القَوْلَ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (وهب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 271.

إلى مَظْهَرِ الجَلالِ؛ تَنْبيهًا عَلى عَظَمَةِ الفِعْلِ، أيْ: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ[1]. وذَلِكَ لأنَّ تَعْظيمَ الواهِبِ دليلٌ على عِظَمِ الهِبَةِ ونَفاسَتِها عندَ المَوْهوبِ لَه، فقدْ مَنَّ اللّهُ سُبحانَه على أيّوبَ عليه السلام بأنْ جَمعَ شَمْلَهُ بِمَنْ تَفرَّقَ مِنْ أهْلِه، أوْ أحياهُم لهُ بعدَ مماتِهم، وسواءٌ أكانَ الأمرُ جَمعًا أم إحياءً فإنَّها نِعْمَةٌ عَظيمَةُ القدرِ جليلةُ الأثَرِ، فكانَ من بلاغَةِ النَّظْمِ الحكيمِ إسْنادُها إلى فاعِلها وهوَ اللّهُ سُبْحانَه، بنونِ العَظَمَةِ إشْعارًا بأهَمّيَتِها وجليلِ خَطَرِها.

دلالةُ على اخْتِصاصِ أيّوبَ عليه السلام بِنِعْمَةِ هِبَةِ الأهْلِ

نوعُ اللّامِ ومَعْناها:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، عَدَّى البَيانُ القُرآنيُّ الفِعْلَ (وَهَب) باللّام، إذ الأَصْلُ أَنْ يَتَعَدَّى إِلَى الأوَّلِ باللّام. كَما في: وهَبْتُ لِزَيْدٍ مالًا، ولا يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ فَلا يُقالُ: وهَبْتُكَ مالًا، والفُقَهاءُ يَقولونَهُ[2]. وعلى كلِّ حال فإنّ اللّامَ جاءت هُنا بمعنى التَّمْليكِ والتَّخْصيصِ[3]، للدّلالَةِ على اختصاصِ أيّوبَ عليه السلام بهذِهِ الهِبَةِ، الَّتي جاءتْ محضَ رحمةٍ من اللّه تعالى، وتخفيفًا عمّا أصابَه في سبيلِ اللّهِ، وعن احتسابِه صبرَه مَرْضاةً لِرَبِّه تعالى.

الاهْتِمامُ بالمَوْهوبِ لَهُ يَقتَضي تقديمَه لِمَزيدِ العنايَةِ بِه

غَرَضُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ علَى المَفْعولِ:

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، الجارَّ والمَجْرورَ ﴿لَهُۥٓ﴾ على المفعولِ به ﴿أَهۡلَهُۥ﴾، وتقديرُ الكلامِ: (ووَهَبْنا أهْلَهُ لَه)، وقدْ عَدَلَ البيانُ القُرآنيُّ عنْ هذا التَّقْديرِ اهْتِمامًا بالمَوهوبِ لهُ، إذِ السّياقُ سياقُ إنْعامٍ وتَفَضُّلٍ وإحسانٍ، فكانَ في التَّقْديمِ هَهُنا بيانٌ لِمَزيدِ العِنايَةِ بأيّوبَ عليه السلام.

بَلاغَةُ اخْتيارِ لَفْظِ الأهْلِ:

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ إحسانِ اللّهِ إلى أيّوبَ عليه السلام بهِبَةِ أوْلادِه لَه

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 391.
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وهب).
(3) الزّجاجيّ، كتاب اللّامات، ص: 62.

بقولِه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، فَعَبَّرَ بلفظِ (الأهَلِ) دونَ غَيْرِه، وذَلِكَ لأنَّ أهْلَ الرَّجُلِ مَنْ يَجْمَعُه وإيّاهُم نَسَبٌ أوْ دينٌ، أو ما يَجْري مَجْراهُما، وأهْلُ الرَّجُلِ في الأصْلِ مَنْ يَجْمَعُهُ وإيّاهُم مَسْكَنٌ واحِدٌ، ثُمَّ تُجوِّزَ بِهِ فقيل أهل الرجل لِمَنْ يَجْمَعُه وإيّاهُم نَسَبٌ[1]، وكذلك فإنَّ أهْلَ الرَّجُلِ أخَصُّ النّاسِ بِهِ[2]، وقدْ عَبَّرَ النَّظْمُ بلفْظِ الأهلِ للدلالةِ على الامتنانِ على أيّوبَ باجتماعِ شَمْلِه بأحبّائِه ومنْ يَلْزَمُهُ أمْرُهم، ويلْزَمُهُم أمْرُه.

أهْـلُ الـرَّجُـلِ أخَـصُّ الـنّـاسِ بِـهِ وألـصَـقُـهـم بِنَفْسِه

دَلالَةُ إضافَةِ لَفْظِ (أهْلِ) إلَى الضَّمِيرِ:

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظ (الأهلِ) في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ إلى ضميرِ الغائِبِ العائدِ على أيّوب عليه السلام، للدّلالَةِ على اخْتِصاصِهِم بِهِ[3]، وقُرْبِهِم مِنْه، ولِلإشارَةِ إلى ما بَلَغَ بِه مِنَ الشَّوْقِ لِلقائِهِم، وتَلَهُّفِه على الأُنْسِ والاجتماعِ بِهِم. وفي ذلكَ نِعْمَةٌ عُظْمى ومِنَّةٌ كُبْرى.

نـعـمـةُ الأهـلِ والـوَلَـدِ مِـنَ النِّعَمِ الجسيمَةِ والـعـطـايـا الجزيلَةِ

دلالَةُ واوِ العَطْفِ:

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ عاطِفَةً، فعَطَفَتْ هذه العبارَةُ على قولِ اللّه تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾، أي: ووهبنا له مع أهلِه مثلَهم؛ لذا يصح في إعراب الواو أيضًا أن تكون للمعيّة[4]، وعلى كلٍّ دَلَّتْ على مَزيدٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتي أنْعَمَ اللّهُ بِها على عَبْدِه أيّوبَ عليه السلام، فَلَمْ يَقْتَصِرِ العَطاءُ على جَمْعِ أهلِه أو إحيائِهِم أو إبْقائِهِم لَه - على اختلافِ المفسِّرين -[5]، بلْ زادَه اللّهُ مِنْ فَضْلِه فَوَهَبَ لَه مِثْلَهم.

اجتماعُ النِّعَمِ وكثرةُ بركتِها من آثارِ الصَّبْرِ على المكارِهِ

(1) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وهب).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (وهب).
(3) ابن عقيل، شرح ألفية ابن مالك: 3/ 46.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 351.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 506.

مَعْنَى لَفْظِ المِثْلِيَّةِ:

المُماثَلةُ في العددِ والمشابَهةُ في الصِّفات

مَعْنى (مِثْلَهم): مُماثِلُهم. والمُرادُ: مُماثِلُ عَدَدِهم، أيْ: ضِعْفَ عَدَدِ أهْلِهِ مِن بَنِينَ وحَفَدَةٍ[1]. والمماثلةُ لا تكون إلّا بين المتّفقَين، فإذا قيل: هو مثله في كذا فهو مساوٍ له في جهة دون جهة، وإذا قيل: هو مثله على الإطلاق فمعناه أنه يسدّ مسدّه[2]. وجاء اللّفظ جَمْعًا اعْتِبارًا بِالمَعْنى؛ لِأنَّهُ أفْخَمُ؛ وأقْرَبُ إلى فَهْمِ المُرادِ[3]. والحاصلُ منْ هذا كلّه بيانُ نعمةِ اللّهِ تعالى على أيّوبَ عليه السلام، وتبدُّلُ حالِه من الضُّرِّ والوَحْشَةِ إلى الصِّحَّةِ والأُنسِ بأحبابه وذويه، وهُما من أجلِّ نِعمِ اللّهِ على خَلْقِه، ولهذا اللفظِ إيماءٌ إلى أنَّ الموهوبين له يُشابهون أهلَه، فدلَّ لفظُ المثلِ على المماثلةِ صراحةً، والمشابهةِ إيماءً.

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ الظّرفِ (مَعَ):

إلحاقُ النِّعمِ بالنِّعمِ من عاداتِ صاحبِ المِنَنِ

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الظَّرفَ (مَعَ) للدّلالَةِ على زيادَةِ الإنعامِ واجتماعِ الإحسانِ بأيّوبَ عليه السلام، وقدْ آثر البيانُ القُرآنيُّ هذا الظَّرْفَ لأنَّه اسمٌ لِمَكانِ الاجْتِماعِ أوْ وقْتِه، وهيَ كلمةٌ تُضيفُ الشَّيْءَ إلَى الشَّيْءِ، واسْمٌ مَعْناه الصُّحْبَةُ[4]، ويحتملُ أنْ يَكونَ مَعْنى (وَهَبْنا) أنَّ اللّهَ أبْقى لَهُ أهْلَهُ، ويُؤَيِّدُ هَذا المَحْمَلَ وُقوعُ كَلِمَةِ ﴿مَّعَهُمْ﴾ عَقِبَ كَلِمَةِ ﴿وَمِثْلَهُم﴾ فَإنَّ (مَعَ) تُشْعِرُ بِأنَّ المَوْهوبَ لاحِقٌ بِأهْلِهِ ومَزيدٌ فيهِم[5]، وكلّ ذلك لبيانِ فَضيلةِ الصَّبْرِ وحُسنِ الجزاءِ عَلَيْها من صاحبِ الفضلِ المحضِ؛ فإنَّ اجتماعَ الخيرِ عند العطاءِ فيه من جزالةِ الكرمِ، وقوَّة الهبة ما لا يكونُ وهو مفرَّقٌ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 396.
(2) جمعة، دلالة المثليّة في آيات التّحدّي: 6.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 391.
(4) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 220.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 271.

أثرُ التّعليل في البَيانِ:

الرَّحمةُ عنوانُ القبولِ وسرمدُ القربِ

جاءتْ كَلِمَةُ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ منصوبَةً على أنّها مفعولٌ لأجْلِه، تَعْليلًا من اللّهِ تعالى لفِعْلِهِ ذَلِكَ، أيْ: أنَّ الهِبَةَ كانَتْ لِرَحْمَةِ اللّه تعالى إيّاهُ[1]، لا لأمرٍ آخر، فالرَّحمةُ عنوانُ القبولِ وسرمدُ القربِ.

بلاغةُ اخْتيارِ لَفْظِ الرَّحْمَةِ دونَ الفَضْلِ:

عطاءُ الله رحمةٌ والتّفضّلُ من آثارها

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ باستعمالِ مفردةِ الرَّحْمَةِ دونَ مفْرَدَةِ الفضْلِ، وذلك للدّلالَةِ على مدى ما بَلَغَه أيّوبُ عليه السلام من الضُّرِّ والاحتياجِ، ذلكَ أنَّ الرَّحمَةَ في الأصلِ الإنعامُ على المُحْتاجِ والرِّقَّةُ والعَطْفُ عليه، وأمّا الفَضْلُ فَهوَ الزّيادَةُ والخَيْرُ، والإفْضالُ الإحْسانُ[2]. وقدْ كانَ أيّوبُ عليه السلام في أشدِّ حالاتِ الاحتياجِ للإنعامِ والرَّأْفَةِ والتَّعَطُّفِ، ومن ثَمَّ كانَ التَّعبيرُ بالرَّحْمَةِ أبلغَ من التَّعبيرِ بالفضْلِ، إذْ كانَ قدْ بلغَ به من الضُّرِ ما بلغَه، كما أنَّ في ذِكْرِ الرَّحْمَةِ بيانٌ لعدمِ لُزوم شيءٍ على اللّهِ، فهو يعطي من يشاءُ ويبتَلي من يشاءُ[3]، ومقتضى الرَّحمةِ الفضلُ، فبذكرِ الرَّحمةِ يُعلَم أنَّ العطاءَ فضلٌ من اللّه تعالى، وهذا إيجازُ قَصْرٍ.

نُكْتَةُ ذِكْرِ ﴿مِّنَّا﴾:

أفادَ التَّعبيرُ بِـ(من) إظْهارَ العِنايةِ السّابِقَةِ والرِّعايَةِ التّامَّةِ بأيّوبَ عليه السلام

جاءَ ذكرُ ﴿مِّنَّا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، إذْ لا شَكَّ أنَّ الرَّحْمَةَ منْ اللّهِ تعالى وأنَّها منْ عَطائه وحْدَه دونَ سواه، ولكِنَّ النَّظْمَ الحكيمَ نَصَّ على كونِ الرَّحْمَةِ منْهُ لبيانِ مزيدِ اختصاصِ أيّوبَ ومن معه عليه السلام بالرَّحْمَةِ الإلَهيَّةِ، فثَمَّةَ

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 163.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 195، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم) و(فضل).

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 396.

فَرقٌ بينَ قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وبينَ أن يُقال: (رَحْمَةً وذِكْرَى لِأولي الألْباب)، فأفادَتْ (منْ) إظْهارَ مبدأ العِنايةِ السّابِغَةِ والرِّعايَةِ التّامَّةِ بأيّوبَ ﵇ جزاءً على حُسْنِ بلائِه وصَبْرِه. وجاءَ إدخالُها على نونِ العَظَمَةِ ليَخْلَعَ عليها مزيدًا من التَّفْخيمِ والتَّعْظيم، كما أنّ لفظ ﴿مِّنَّا﴾ جاء للدّلالة على أنّ هذه الرّحمةَ لم تخصَّه وحدَه بل شملتْ أولادَه ومَنْ معهم مِنْ مثلهم، فكانت رحمةً عامّةً، أمّا في سورة الأنبياء فقد قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الأنبياء: 84] فهذه الرّحمةُ خاصّةٌ بأيّوبَ[1].

دلالَةُ استعمال حَرْفِ (مِنْ):

ابــتــداء غـايـة صُـدورِ الإنـعـامِ والإحـــســـانِ والتَّفَضُّلِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ استعمل النَّظْمُ الحكيمُ حرفَ الجرِّ (مِنْ)، وذَلِكَ لأنَّ الرّحمة في قوله: ﴿مِّنَّا﴾ عامّةٌ يشترك فيها عموم الخلق[2]، وهذا لتشمل أيّوبَ وذرّيَّته وأمثالَهُم ممّن معهم. و(مِنْ) هَهُنا دالَّةٌ على ابتِداءِ الغايةِ[3]، فأشارتْ إلى أنَّ ابتداءَ نُزَولِ الرَّحْمَةِ تمّ مِنَ عندِ اللّه تعالى وحده، فاعتنى النَّظْمُ بإبْرازِ أصْلِ وُصولِ الرَّحْمَةِ إلى أيّوبَ لأنَّ السياقَ سياقُ بيانٍ للإنعامِ والإحسانِ والتَّفَضُّلِ عليه.

فائِدَةُ عَطْفِ الذِّكْرَى عَلَى الرَّحْمَةِ:

قـصـص الـقـرآن لـلـتّـوعـيـة لا للتّسلية

في مقامِ الامتِنانِ والإنعامِ على أيّوبَ ﵇ عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الذِّكْرى على الرَّحْمَةِ تَذْكيرًا للمُؤمنينَ بِذَلِكَ لِيَصْبِروا عَلى الشَّدائِدِ، كَما صَبَرَ، ويَلْجَؤوا إلى اللّه تعالى فيما يُصيبُهُم، كَما لَجَأَ، لِيَفْعَلَ سُبْحانَهُ بِهِم، ما فَعَلَ بِهِ مِن حُسْنِ العاقِبَةِ[4]، فإنَّ الإخبارَ وقَصَّ القصص

(1) الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 23/ 280.

(2) السّامرّائيّ، على طريق التفسير البياني: 2/ 198 - 211.

(3) الزّركشيّ، البحر المحيط: 3/ 189.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 198.

في القرآن للتّوعية لا للتّسلية، ومنه أنّ من وراء نزولِ الرّحمةِ غايةً وهي الذِّكرى.

نكتة اخْتيارِ (ذِكْرَى):

الذِّكْرى جامعةٌ لمعنى التّذكُّرِ والاعتبارِ فهي جامعةٌ بين الغايةِ ووسيلتِها

في قولِ اللّه تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ عَبَّرَ البيانُ القُرآنيُّ بـ(الذِّكرى) دونَ (التَّذْكِرة)، وذلكَ لأنَّ الذِّكْرَى اسمٌ للتَّذَكُّرِ، وهوَ ضِدُّ النِّسيانِ، فهو اسمُ مصدرٍ، قالَ الزَّجّاجُ: "ذِكْرَى مَصْدَرٌ فيهِ ألفُ التَّأْنيث، بِمَنْزِلَةِ دَعوتُ دَعْوَى، وبِمَنْزِلَةِ رَجَعْتُه رُجْعَى، واتقَيْتُ تَقْوَى، إلّا أنَّه اسمٌ في مَوْضِعِ المَصْدَرِ"[1]. والذِّكْرَى والتَّذْكِرَةُ مادَّتُهما اللَّفْظيَّةُ واحِدَةٌ، وأَصْلُهما المَعْنَويُّ واحِدٌ، فَهُما تَتطابَقانِ في بَعْضِ مَعانيهِما، فَتأْتيانِ بِمَعْنَى اقْتِباسِ الدَّرْسِ والعِبْرَةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢١﴾ [الزمر: 21]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾ [المزمل: 19]. ولكنَّ (ذكرى) تُسْتَعملُ في مقامِ العِبْرَةِ والمَوعِظَةِ على نحوٍ أكثرَ من استعْمالِها في التَّذْكيرِ الَّذي هو ضِدُّ النِّسْيانِ، كما أنَّ استعمالَ أبنيةِ المصادرِ المُنْتَهيَةِ بألفِ التأنيث أشَدُّ دلالةً على المُبالغةِ من غيرها، لِما فيها منَ الاتِّساعِ النّاشِئِ عن الألفِ المقصورةِ في آخرها، فدَلَّتْ على الدعوةِ إلى اسْتِفْراغِ كلِّ سَبَبٍ للتَّذْكير والاتّعاظِ، بِما اشْتَمَلَتْ عليه قِصَّةُ أيّوبَ من الإنعامِ والابتلاءِ كليهما، وعليه فقد جمعَ هذا اللّفظُ بين الأمرِ بالتَّذكُّرِ والاعتبارِ به، وهذا من بليغِ الإيجازِ اللّفظيِّ الجامعِ بين المعنى وغايته.

نوعُ اللّامِ ومَعْناها:

اختصاصُ أولي الألبابِ بالذِّكْرَى لسدادِ عُقولِهم ورشادِ نفوسِهم

جاءَتِ اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ للدّلالةِ على الاختصاصِ، فقدِ اخْتُصَّ أولو الألبابِ بِتِلْكَ

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 2/ 316.

الذِّكرى العَظيمَةِ المُؤَثِّرَةِ في النُّفوسِ؛ لأنَّ عُقولَهم قدْ فَهِمَتْها[1]، ولأنَّ نُفوسَهم قد وعَتْها، ذَلِكَ أنَّ قِصَّةَ أيّوبَ عليه السلام حَريَّةٌ بأنْ تُذَكِّرَ كلَّ ذي فَهْمٍ وإنابَةٍ أنَّ اللّهَ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ.

بَلاغَةُ اخْتيارِ (أولي) دونَ (أصْحاب):

تَدُلُّ كلمةُ (أولي) على الاختصاصِ وشِدَّةِ الاتِّصافِ بالعقلِ والحكمةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن استِعْمالِ كلمةِ (أصحابٍ) ونحْوِها، إلى استعْمالِ كلمةِ (أولي)، وذلكَ لأنَّ كلمةَ (أولي) جمْعٌ لا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِه، وهي تَلزمُ الإضافَةَ إلى اسْمٍ ظاهِرٍ[2]، ففيها مِنَ الاختصاصِ ما ليسَ في كَلِمَةِ (أصحابٍ) ونحوِها، فَهيَ تَدُلُّ على شِدَّةِ الاختصاصِ بالمُضافِ إليه، فكانَ التَّعبيرُ بِها أشدَّ في الدلالَةِ على العقلِ والحكمةِ اللّازمينِ لاستخراجِ الحكمِ والعِبَرِ بأدنى إشارةٍ.

نُكْتَةُ إضافَةِ (أولِي) إلَى ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

الألبابُ لها أصحابٌ ملاصقونَ لها ويُعرفون بها

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ كلمةَ (أولي) إلَى ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ للدّلالةِ على شِدَّةِ المُلازَمَةِ بين المضاف الملازم للإضافة (أولي) والمضاف إليه (الألباب) الدّالّ على اللبّ الّذي هو باطن العقل، الّذي من شأنه أن يلحظ الحقائق، وهو المنوّر بنور القدس، الصّافي عن قشور الأوهام والتّخيّلات، والخالص من الشّوائب سُمّي به لكونه خالصَ ما في الإنسان[3]، فخالصُ العقلِ لا ينْفَكُّ عنْ هؤلاءِ العُقلاءِ الحُكَماءِ، فَقُلُوبُهم نَقيّةٌ، وأفْئِدَتُهم ذَكيَّةٌ، وعُقولُهم حادَّةٌ، لا تَغيبُ عنْهم إشارَةٌ تدعو للإيمانِ، ولا تَفوتُهم لَمْحَةٌ مَهْما دَقّتْ، فَهُم مُتَّسِمونَ بصفاءِ الألبابِ قلبًا وقالبًا، وفي الإضافةِ دلالةٌ على أنَّ هؤلاءِ يلتصقونَ بالألبابِ، ويُعرفون بها.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 211.

(2) ابن هشام، أوضح المسالك إلى ألفيّة ابن مالك: 3/ 94.

(3) المناويّ، التوقيف: 287.

غرضُ جَمْعِ لفظِ ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾:

استَعْمَلَ البيانُ القُرْآنيُّ كلمةَ الألبابِ جَمعًا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، على نَهْجِ القُرآنِ في استعمالِها، فلمَ يُذْكَرْ لها مُفْرَدٌ في القرآنِ الكريم، فجاءتْ جمعًا؛ "وذَلِكَ لأنَّ لَفْظَ الباءِ شَديدٌ مُجْتَمِعٌ، ولا يُفْضي إلَى هذه الشِّدَّة إلّا منَ اللّام الشَّديدَةِ المُسْتَرْخيةِ، فَلَمّا لمْ يَكُنْ ثَمَّ فَصْلٌ بينَ الحَرْفَين يَتَهَيَّأُ مَعَهُ هذا الانْتِقالُ عَلَى نِسبةٍ بينَ الرَّخاوَةِ والشِّدَّة؛ تُحَسِّنُ اللَّفْظَةَ مَهْما كانَتْ حَرَكَةُ الإعرابِ فيها؛ نَصْبًا أو رَفعًا، أو جَرًّا؛ فَأَسْقَطَها منْ نَظْمِه بَتَّةً، عَلَى سَعَةِ ما بينَ أوَّلِه وآخِره، ولَوْ حَسُنَتْ علَى وجْهٍ منْ تِلْكَ الوُجوهِ لَجاءَ بها حَسَنَةً رائِعَةً، وهذا علَى أنَّ فيه لَفْظَةَ (الجُبِّ)، وهيَ في وزْنِها ونُطْقِها، ولَوْلا حُسن الائْتِلافِ بينَ الجيم والباءِ مِنْ هَذِه الشِّدَّةِ في الجيمِ المَضْمومَةِ ما أوردها في نَظْمِه الجليلِ"[1].

دِقَّـةُ الإعـجازِ الصَّوْتيِّ في نَظْمِ مفرداتِ القرآنِ وجُموعِه

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قوْلَه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ﴾ إمّا علَى الآيةِ السّابقَة، وهي قولُه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وإمّا على الآيةِ التي قبل السابقة، وهيَ قولُه تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: 42][2]، فجاءَ الوصلُ بشأنِ قَسَمِه الَّذي أقْسَمَه على امْرأتِه، إذْ لَمّا أجْمَلَ العَذابَ الصّالحَ لِألَمِ الظّاهِرِ؛ وذَكَرَ المُخَلِّصَ منهُ؛ أتْبَعَهُ التَّنْبيهَ عَلى أعْظَمِه؛ وهو ألَمُ الباطِنِ؛ بَلْ أبْطَنِ الباطِنِ؛ التَّعَلُّقُ بالاعْتِقادِ فيما وسْوَسَ لِزَوْجِه رضي الله عنها؛ بِما كادَ يُزِلُّها؛ فَحَلَفَ لَيَضْرِبَنَّها مائَةً؛ لِئَلّا تَعودَ إلى شَيْءٍ من ذَلِكَ؛ فَيُزِلَّها عَنْ مَقامِها؛ كما أزَلَّ غَيْرَها؛ فَأرْشَدَهُ إلى المُخَلِّصِ من ذَلِكَ الحَلِفِ؛ عَلى أخَفِّ وجْهٍ؛ لِأنَّها كانَتْ صابِرَةً مُحْسِنَةً؛ فَشَكَرَ اللّهُ لَها

بـلاغـةُ واوِ الـعـطـفِ في اسـتـكـمـالِ أحداثِ القصّة

(1) الرّافعيّ، إعجاز القرآن، ص: 160.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 229.

ذَلِكَ؛ وجَعَلَ هَذا المُخَلِّصَ بَعْدَها سُنَّةً باقيَةً لِعِبادِهِ؛ تَعْظيمًا لِأَجْرِها؛ وتَطْييبًا لِذِكْرِها؛ فَقالَ ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ﴾ عاطِفًا عَلى ﴿ٱرۡكُضۡ﴾ [ص: 42][1].

نُكْتَةُ حَذْفِ فِعْلِ القَوْلِ:

الحَثُّ على المُبادَرَةِ إلى إبرارِ القَسَمِ دونَ إبطاءٍ أو توانٍ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ حذَفَ النَّظْمُ الحكيمُ فِعلَ القولِ معَ الفعلِ (خُذْ) فَلَمْ يَقُلْ: (وقُلْنا لَهُ خُذْ بيَدِكَ) عَطْفًا علَى فِعْلِ (وهبنا)، فيكون من عطف الخبر على الخبر؛ لأنَّ العَطْفَ على الأوَّلِ أقْرَبُ لَفْظًا، وهَذا أنْسَبُ مَعْنًى، فَإنَّ الحاجَةَ إلى هَذا الأمْرِ لا تَمَسُّ إلّا بَعْدَ الصِّحَّةِ[2]. كما أنَّ حَذْفَ فعلِ القولِ يُشيرُ إلى الحَثِّ على المُبادَرَةِ إلى إبرارِ قَسَمِه دونَ إبطاءٍ أو توانٍ. فَهو مَقولٌ لِقَوْلٍ مَحْذوفٍ دَلَّتْ عَلَيْهِ صيغَةُ الكَلامِ، والتَّقْديرُ: وقُلْنا خُذْ بيَدِكَ ضِغْثًا فاضْرِبْ بِهِ ولا تَحْنَثْ، وهو قَوْلٌ غَيْرُ القَوْلِ المَحْذوفِ في قَوْلِهِ: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ [ص: 42] لِأنَّ ذَلِكَ اسْتِجابَةُ دَعْوَةٍ وهَذا إفْتاءٌ بِرُخْصَةٍ[3].

بَلاغَةُ اخْتيارِ لَفْظِ الأَخْذِ:

الأخْذُ أعَمُّ من التَّناوُلِ، وفيه معنَى القوَّةِ والقَهْرِ والسُّرعة

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التعبيرَ بِفعلِ الأخذِ دونَ فعلِ الإمساكِ أو التَّناوُلِ؛ وذَلِكَ لأنَّ الأَخْذَ حَوْزُ الشَّيْءِ وتَحْصيلُه، وذَلِكَ تارَةً بالتَّناوُلِ، وتارَةً بالقهرِ، فالأَخْذُ أعَمُّ، ويَجوزُ أن يُقالَ إنَّ التَّناوُلَ يَقْتَضي أخذَ شَيْءٍ يُسْتَعْمَلُ في أمرٍ مِنَ الأُمورِ[4]، ويوحي هذا اللفظُ بأنَّ الأخذَ يجبُ أن يكونَ سريعَ التَّناولِ والمُكنة، دون تردُّدٍ أو تدقيقٍ في المأخوذِ، ولمّا كان المطلوبُ أخذُه ضِغثًا ناسب استعمال الأخذ، ولو قال: (وتناول ضغثًا) لأوهم ضغثًا له مواصفات معيّنة وهو غير مراد.

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 392.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 229.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 273.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 139.

نَوْعُ الباءِ ودلالتها وفائِدَةُ ذِكْرِ اليد:

الاستعانة باليد، والاكتفاء بما تتسع له دون زيادة

جاءتِ الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ للاستعانة، فكأنَّ اليد آلة الاستعانة لأيّوبَ عليه السلام فلا تُفارِقُهُ إلّا بعدَ أنْ يَبَرَّ بِقَسَمِه، وهذا يَدُلُّ على شِدَّةِ التّمَسُّكِ بالوفاءِ باليمينِ. وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أن يأتيَ النَّظْمُ على مثلِ: (وخذ ضِغْثًا فاضْرِبْ بِهِ)، دون ذِكْرِ اليَدِ؛ ولكن في هذا اتساع في المأخوذ يتجاوز ما تحمله اليد، وهو غير مطلوب، لذا جاء التعبير القرآني ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ لفائدةٍ مقصودةٍ وهي أنَّ يكون الضّغثُ المأخوذ بحجم اليد لا غير، ولأن الضِّغث مِلء كفّ اليد من حشيش، وما أشبهه[1]؛ فلا يأتي بعيدانٍ كبيرةِ الحجم لا تتسع في اليد، كما أن اليد أُفرِدت لدفع توهّم أنَّ المطلوبَ هو أخذُ ضغثٍ باليدين، وذلك لتأكيدِ قِلَّة المأخوذِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ علَى المَفْعولِ:

تقديمُ الوسيلةِ على الغايةِ للمناسبةِ في أمرِ اليمينِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ الجارَّ والمَجْرورَ ﴿بِيَدِكَ﴾ على المفعولِ به ﴿ضِغۡثٗا﴾، وذلك للاهتمام بهذا التّخصيص المحدَّدِ باليدِ الّتي تحمل وسيلةَ الإبرارِ بالقَسَمِ، فمن البلاغة أحيانًا تقديمُ الجارّ والمجرور على المفعولِ به للاهْتمام بالمقدَّم، والتَّشْويقِ إلى المؤَخَّرِ[2]، فهو من بابِ تقديمِ الوسيلةِ الموصلةِ لإبرارِ القسَمِ والاهتمام بها.

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ الضِّغْثِ:

المُبالَغةُ في التَّيْسيرِ على أيّوبَ عليه السلام في الإبرارِ بَقَسَمِه والوفاءِ بِعهدِه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ تَخَيَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ مُفْرَدَةَ الضِّغْثِ دون غيرها، والمُرادُ بالضِّغْث: قَبْضَةٌ مِنْ قُضْبانٍ أَوْ حَشيشٍ مُخْتَلطَةِ الرَّطْبِ باليابِس، فهيَ قُضْبانٌ غَضَّةٌ

(1) العينيّ، عُمدة القاري: 18/ 301.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 9.

كثيرةٌ مُمْتَدَّةٌ بَعْضُها معَ بعضٍ[1]، وفي اختلاطِ الحشيشِ الرَّطْبِ باليابسِ إشارةٌ إلى بالغِ الرِّفْقِ بهذِه الزَّوْجَةِ الوَفيَّةِ المُخْلِصَةِ، والمَقْصودُ باستعمالِ الضِّغْثِ دونَ غيره كالحِزْمَةِ المبالَغَةُ في التَّيْسير على أيّوب عليه السلام في الإبرارِ بقَسَمِه، وكانَ أيّوب عليه السلام قَدْ حَلَفَ أنْ يَضْرِبَ امرأتَهُ مِئَةَ ضَرْبَةٍ، لِسَبَبٍ ما، فَجَعَلَ لَهُ سُبْحانَه خَلاصًا مِنْ يمينِه بأهونِ شيءٍ علَيْه وعلَيْها، والمرادُ أنْ يأخذَ حُزمةً مِنْ أعوادٍ دقيقةٍ ويَضْرِبُها بها بحيثُ يبلغُ عددُ الأعوادِ الَّتي ضُرِبَتْ بها مئةَ عودٍ، ولمّا كانَ لفظُ الضغثِ من الألفاظِ الغريبةِ ناسبَ اختيارُه لهذا الإبرارِ الفريدِ من نوعِه، فهي مناسبةٌ بين لفظٍ غريبٍ ومعنًى نادرٍ.

نَوْعُ الفاءِ ودَلالَتُها:

تصويرُ سرعةِ مشهدِ البرِّ بالقَسَم

جاءتِ الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ عاطِفَةً، فأفادَتِ الترتيبَ والتَّعقيبَ[2] والسُّرْعَةَ والفوريّة، فهي دليلٌ على الحثِّ على الإسراعِ إلى الإبرارِ بقَسَمِه فورَ تعافيه من سُقْمِه، اعترافًا بفَضْلِ اللّهِ عليهِ. وربما يُلْمَحُ فيها معنى السَّبَبِيَّةِ، فإنَّ أَخْذَ الضِّغْثِ سببٌ في الضَّرْبِ.

فائِدَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ الضَّرْبِ دونَ الجَلْدِ:

الضَّربُ إيقاعُ الضِّغثِ لا إصابَةُ الجِلْدِ

آثَرَ البيانُ القرْآنيُّ استعمالَ لَفْظِ الضَّرْبِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ دونَ لَفْظِ الجَلْدِ، لأنَّ مَعْنَى الجَلْدِ يَجوزُ أنْ يَكونَ بمعنى: (أصيبوا جِلْدَهُم بالضَّرْبِ)، يُقالُ: جَلَدْتُهُ: أيْ: (أَصَبْتُ جِلْدَهُ)، نَحْو: ظَهَرْتُه، وبَطَنْتُه، أي: (أَصَبْتُ ظَهْرَهُ)، وقيل المرادُ: اضْرِبوهُم بالجِلْدِ، نَحْو: عَصاهُ، أيْ: (ضَرَبَهُ بالعَصا). وأمّا الضَّرْبُ فَهوَ إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ[3]. ولَمّا كانَ المُرادُ في الآيَةِ الكَريمَةِ مُجَرَّدَ إيقاعِ الضِّغْثِ على زوجَتِه، وليْسَ إصابَةَ الجِلْدِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ضغث).

(2) الرّازي، مختار الصّحاح، ص: 233.

(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ضغث).

والبَشْرَةِ أَوْ الضَّربَ على الجِلْدِ، كانَ التَّعْبيرُ بالضَّرْبِ أنسبَ من التَّعبيرِ بالجِلْدِ، وأوْفَقَ للمَعْنى.

غرضُ الأمرِ ودلالة الباء:

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ هوَ الإلزام بالامتِثالِ للأمرِ الإلهي بتنْفيذِه، وإبرارِ قَسَمِه بما يُلائِمُ مقامَ النُّبوَّةِ من جهَةٍ، ومقامَ الوفاءِ لهذِه الزَّوْجَةِ المُتَفانيَة. فغرض الآمر عادةً هو أنْ يعلم أنّ المأمور هل يعزم على الفعل ويوطّن نفسَه على الانقياد والطاعة، أم لا؟[1] ولا شكّ فإنّ الأنبياء خيرُ من يمتثل لأمر اللّه تعالى. وجاءتِ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ لمعنى الاستِعانَة، فَهيَ دالَّةٌ على الأمرِ باستِعْمالِ الضِّغْثِ في الضَّربِ، دونَ غيرِه من أدواتِ الضَّربِ والعقابِ.

براعةُ حذفِ المفعولِ:

رعـايـةُ مشاعـرِ الـقـواريـرِ لـطفٌ ربـانيٌّ وإرشـادٌ رحمانيّ

آثر التّعبير القرآنيُّ إخفاءَ المضروبِ بالضغثِ وهي امرأةُ أيّوبَ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾، فلم يقل: (فاضربها به) فحذف المفعول به[2]، وذلك أنَّه لما لم يذكرِ النَّظم الكريمُ تفاصيلَ أمرِ الضَّربِ آثر أن يبقى الأمرُ على إجمالِه، وفي حذفِ المضروبِ وذكرِ أداةِ الضَّربِ دلالة على مزيدِ اللُّطْفِ بأيّوبَ عليه السلام وبامرأته[3]، فلا يَسْتَعْمِلُ غيرَه حتَّى لا يكونَ فيه إيذاءٌ لَها، إذِ المرادُ تَحَقُّقُ إبرارِ القَسَم دونَ تَحَقُّقِ الأذى الناتجِ عن الضَّربِ المُعتادِ في مثلِ هذه المواضِع، ففي فعلها هَشْهَشَةٌ وتحبُّبٌ لها.

بَلاغَةُ عَطْفِ النَّهْيِ عَلَى الأمْرِ:

الـنَّـهْـيُ تـوكـيـدٌ على التّشريفِ لا التّكليف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ إمّا مُقْحَمَةٌ زيدَتْ للتّأكيد؛ بحيث تكونُ صيغةُ النَّهي في (لا تَحْنَثْ) جوابَ الطَّلب المتمثّل في فعل

---

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 573.

(2) بهجت، الإعراب المفصّل: 10/ 116.

(3) الهلال، تفسير القرآن الثريّ: 23/ 282.

الأمر (فاضرِبْ) أراد - واللّه أعلم - فاضرب بِهِ لا تحنث[1]. وإمّا عاطفةٌ عَطَفَت النَّهْيَ (لا تَحْنَثْ) على الأمر، (فاضْرِبْ) ليكون هذا النَّهيُ تأكيدًا على أنَّ هَذِه الصِّفَةَ كافيةٌ في تَحَقُّقِ الإبرارِ بالقَسَم، حتّى وإنْ جاءتْ على غيرِ المُعتادِ في عقوبةِ الضَّرْبِ؛ ففي النَّهي مزيدُ لُطْفٍ بأيّوبَ عليه السلام، وفضلُ شَفَقَةٍ بامرَأتِه الوَفيَّةِ المُخْلِصَة.

دلالَةُ النَّهْيِ عَنِ الحِنْثِ:

الرُّخَصُ عطايا الإلهِ لعبادِه فعليهم قبولُها والسُّرورُ بها

جاءَ قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ بيَمينِكَ، فَإنَّ البِرَّ يَتَحَقَّقُ بِهِ، ولَقَدْ شَرَعَ اللَّهُ تعالى ذَلِكَ رَحْمَةً عَلَيْهِ وعَلَيْها، لِحُسْنِ خِدْمَتِها إيّاهُ، ورِضاهُ عَنْها، وهي رُخْصَةٌ باقيَةٌ في الحُدودِ في شَريعَتِنا، وفي غَيْرِها أيْضًا، لَكِنْ غَيْرُ الحُدودِ يُعْلَمُ مِنها بِالطَّريقِ الأوْلى[2].

بَلاغَةُ جُملةِ التَّعْليلِ:

الصَّبْرُ أصلٌ جامعٌ للرِّضا وجالبٌ للخلاصِ

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ تعليلًا لما أسْبَغَ اللّهُ تعالى عليه من المِنَّة بالنَّجاة من مَسِّ الشَّيْطانِ ونُصْبِه وعذابِه الَّذي حَلَّ به، أي: لأنّا وجدناه صابرًا جازيناه بما كان، رحمةً من اللّه تعالى، والصَّبرُ من الأخلاقِ العزيزةِ في العبادِ، وقدْ كانَ أيّوبُ عليه السلام يَحْمَدُ اللّه عز وجل، ولا يُخِلُّ بِذَلِكَ شَكْواهُ إلى اللّه تعالى مِنَ الشَّيْطانِ، لأنَّ الصَّبْرَ عَدَمُ الجَزَعِ، ولا جَزَعَ فيما ذَكَرَ كَتَمَنّي العافيَةِ، وطَلَبِ الشِّفاءِ، مَعَ أنَّهُ قالَ ذَلِكَ عَلى ما قيلَ خيفَةَ الفِتْنَةِ في الدّينِ[3].

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ فِعْلِ ﴿وَجَدۡنَٰهُ﴾ دونَ الإخْبارِ عَنْ كَوْنِهِ صابِرًا:

ظُهورُ صَبْرِ أيّوبَ في علمِ اللهِ تعالى ظُهورًا بالغًا دونَ مُجَرَّدِ الوَصْفِ بالصَّبْرِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عَنْ الإخبارِ عن صبرِ أيّوب بذكرِ فِعْلِ الوِجْدانَ، فقالَ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾، وعَدَلَ عن غيرِه من التّعبيرات فَلَمْ يَقُلْ: (إنَّهُ صابِرٌ)، أوْ: (إنَّهُ كانَ مِنَ الصّابِرين)، وذَلِكَ لِظُهورِ شِدَّةِ جَلَدِه وإيمانِه بِرَبِّه، إذ إنَّ "مَعْنى ﴿وَجَدۡنَٰهُ﴾ أنَّهُ ظَهَرَ في صَبْرِه

(1) الصاحبي، في فقه اللّغة العربيّة: 80.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 199.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 199.

ما كانَ في عِلْمِ اللهِ مِنهُ"[1]، وقد عَبَّرَ النّظْمُ بنونِ العَظَمَةِ فقالَ: ﴿إِنَّا﴾؛ أيْ: عَلى ما لَنا مِنَ العَظَمَةِ؛ وعَبَّرَ بالفعْلِ ﴿وَجَدۡنَٰهُ﴾؛ أيْ: وجَدْناهُ في عالَمِ الشَّهادَةِ؛ طِبْقَ ما كانَ لَنا في عالَمِ الغَيْبِ؛ لِيَتَجَدَّدَ لِلنّاسِ مِنَ العِلْمِ بِذَلِكَ ما كُنّا بِهِ عالِمينَ[2].

تَوْجيهُ تَخْصيصِ الصَّبْرِ بِالذِّكْرِ:

الصَّبْرُ على الابتلاءِ أعْلَى مقاماتِ العُبوديَّةِ، وهوَ أخَصُّ مقاماتِ الأنبياءِ

جاءَ خِتامُ التعليلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ بِذِكْرِ الصَّبْرِ؛ لأنَّ الصَّبْرَ على الابتلاءِ أعْلَى مقاماتِ العُبوديَّةِ، وهوَ أخَصُّ مقاماتِ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، ولَمّا كانَ السّياقُ لِلْحَثِّ عَلى مُطْلَقِ الصَّبْرِ في قَوْلِه: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: 17]، أتَى باسْمِ الفاعِلِ مُجَرَّدًا عَنْ مُبالَغَةٍ؛ فَقالَ: ﴿صَابِرٗاۚ﴾[3]، للدّلالَةِ على أهَمّيَّةِ التَّأسّي بسيَرِ الأنبياءِ، وفي مُقَدِّمَتِهم أيّوبُ عليه السلام، حَتَّى ضُرِبَ به المَثَلُ في الصَّبْرِ.

مُناسَبَةُ جُمْلَةِ المَدْحِ:

سِرُّ صبرِ أيّوبَ أنّه أوّابٌ توّابٌ

عَقِبَ ذِكْرِ التَّعْليلِ بَصَبْرِ أيّوبَ، خَتَمَ النَّظْمُ الحكيمُ الآيَةَ بِجُمْلَةٍ مَديحٍ على حُسْنِ بَلاءِ أيّوبَ عليه السلام، فقالَ: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾، فَعَلَّلَ بِهذا الخِتامُ مُؤَكِّدًا؛ لِئَلّا يُظَنَّ أنَّ بَلاءَهُ قادِحٌ في ذَلِكَ، وذَلكَ مِصْداقًا لقولِ النَّبيِّ ﷺ: (إنَّ مِنْ أشَدِّ النّاسِ بَلاءً الأنْبياءَ ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ ثُمَّ الَّذينَ يَلونَهُمْ)[4]، وفي جُمْلةِ التّعليلِ إيماءٌ إلى سرِّ صبرِه على البلاءِ، وهو أنَّه أوّابٌ توّابٌ.

بَلاغَةُ التَّعْليلِ بصفةِ الأوّابِ:

حُسْنُ الأوْبَةِ مُسْتَحِقٌّ للثّناءِ مُستَجلِبٌ لداعي الرَّجاءِ

جاءَتْ جُمْلَةُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تَعْليلٌ لِلثَّناءِ عَلَيْهِ بـ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾، إذِ الأوّابُ هوَ الرَّجّاعُ بِكُلّيَّتِهِ إلى اللهِ تعالى عَلى خِلافِ ما يَدْعو إلَيْهِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 275.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 394.

(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 394.

(4) أخرجه أحمد في مسنده، مسند النّساء، حديث رقم: (27721).

طَبْعُ البَشَرِ؛ فَهو واقِفٌ مَعَ اللّهِ بِحُسْنِ الأدَبِ؛ لا يُغَيِّرُهُ دَوامُ النِّعْمَةِ؛ ولا يُزْعِجُهُ تَواتُرُ البَلاءِ والمِحْنَةِ[1]، وقدْ جاءتْ (إنَّ) مُغْنيَةً عَنْ فاءِ التَّفْريعِ[2]، فأفادَتْ معْنَى التعليلِ، بَرَبْطِ مَقامِ العُبوديَّةِ بحسنِ الأَوْبَةِ إلى اللّهِ تباركت آلاؤه.

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿أَوَّابٌ﴾:

كثافةُ المعاني الشَّريفَةِ في لفظِ الأوّابِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التعبيرَ بلَفْظِ الأوبَةِ دونَ غيرِها من الألفاظِ الدّالَّةِ على صدقِ التَّوْبَةِ والرُّجوعِ إلى اللّهِ تعالى؛ وذلك لأنَّ الأوّابَ مُبالَغَةٌ في الآيِبِ، أيْ: كَثيرِ الأَوْبِ، أي الرُّجوعِ إلى اللّه بِقَرينَةِ أنَّهُ مادِحُهُ، والمُرادُ مِنَ الأَوْبِ إلى اللّهِ: الأَوْبُ إلى أمْرِهِ ونَهْيِه، أيْ: إذا حَصَلَ لَهُ ما يُبْعِدُهُ عَنْ ذَلِكَ تَذَكَّرَ فَآبَ، أيْ فَتابَ[3]، فدلَّ لفظُ ﴿أَوَّابٌ﴾ على أنَّ أيّوب عليه السلام كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللّه تعالى، طلبًا للرّحمةِ والأجرِ والطّمعِ في الثّوابِ، وطلبِ الاستغفارِ، ولعمومِ دلالةِ اللَّفظِ على هذا المعاني اختير دون غيرِه.

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 394.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 275.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 254.

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧﴾ [ص: 45 - 47]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ من الـقَـصَـصِ التَّفصيليِّ إلى الإجماليِّ

لَمّا انْتَهَى البيانُ القُرْآنيُّ الحكيمُ من إيرادِ قِصَّةِ أيّوبَ على أَوْجَزِ المسالكِ وأبيَنِها وأَوْفَرِها بالعِظَةِ والعِبْرَةِ، عَقَّبَ عليها بالإشارةِ إلى مَجْموعَةٍ مِنْ قَصَصِ الأنْبياءِ في هذِه السّورَةِ، فَذَكَرَ فيها قَصَصَ إبْراهيمَ وذُرّيَّتِهِ منَ الأنْبياءِ، إرادَةً لِمَزيدٍ منَ العِظَةِ والعِبْرَةِ، والتَّعْليم لَنا، والتَّخَلُّقِ بِأَخْلاقِهِم، والعَمَلِ بِأَعْمالِهِم، الَّتي مِنْ أَجْلِها اسْتَحَقّوا ما أعَدَّ اللّهُ لَهُم ولِأَمْثالِهِم في هذِه الآياتِ مِنَ الثَّوابِ الجَزيلِ والنَّعيمِ المُقيمِ، وهِيَ مَعْطوفَةٌ على بِدايَةِ القَصَصِ في هذِهِ السّورَةِ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]، إلَى أنْ قالَ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّارِ﴾: (دور) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إحْداقِ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ مِنْ حَوالَيْه، يُقالُ دارَ يَدورُ دَوَرانًا، والدَّوّاريُّ: الدَّهْرُ؛ لِأَنَّهُ يَدورُ بِالنّاسِ أَحْوالًا[2]. والدّارُ المَنْزِلُ، اعْتِبارًا بِدَوَرانِها الَّذي لَها بِالحائِطِ، وقيلَ: دارَةٌ، وجَمْعُها دِيارٌ، ثُمَّ تُسَمَّى البَلْدَةُ دارًا، والصَّقْعُ دارًا، والدُّنْيا كَما هِيَ دارٌ، والدّارُ الدُّنْيا، والدّارُ الآخِرَةُ، إشارَةً إلَى المَقَرَّيْنِ في النَّشْأَةِ الأولَى، والنَّشْأَةِ الأُخْرَى. وقيلَ: دارُ الدُّنْيا، ودارُ

(1) الزُّحَيْليّ، التّفسير المنير: 23/ 214.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).

الآخرةِ[1]، والمرادُ بِقَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: بِحُبِّ الآخِرَةِ وذِكْرِها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

القُوَّةُ في الحقِّ والإخلاصُ القلبيُّ طريقُ الاصطفاءِ الرّبّانيّ والاجتباءِ الإلهيّ

هذه الآياتُ القرآنيَّةُ تُرشِدُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يَذْكُرَ لِقَوْمِهِ قِصَّةَ إبْراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ، أصْحابَ الأعْمالِ الطَّيِّبَةِ والبَصائرِ النَّيِّرَةِ، الَّذينَ اسْتَعْمَلَ اللّه تعالى حَواسَّهَم في طاعَتِه، فَألْسِنَتُهُم رَطْبَةٌ بِذِكْرِه، وجَوارِحُهُم مَشْغولَةٌ بِعِبادَتِه، فقدْ جَمَعَ اللّهُ لَهُم كَمالَ العَمَلِ لَهُ، معَ عَظيمِ مَعْرِفَتِه. ثُمَّ بَيَّنَ الذِّكْرُ الحكيمُ أنَّ اللّهَ قدْ أخْلَصَهُم لَهُ ونَقّاهُم مِنْ كُلِّ شَوْبٍ وكُدورَةٍ قدْ تَنالُ مِنْ مكانَتِهِم، وجَمَّلَهُم بِتِلْكَ الخَصْلَةِ الطَّيِّبَةِ والخَلَّةِ الحَسَنَةِ، وهيَ تَذَكُّرُهُم الدّارَ الآخِرَةَ، يَعْمَلونَ لَها ويَسْعَوْنَ مِنْ أجْلِها، وكانَ نَصيبُهُم مِنَ الدُّنْيا عَمَلَ الخَيرِ وخَيرَ العَمَلِ، الَّذي يَقْدُمونَ بِهِ على رَبِّهِم، ويُقْبِلونَ بِصُحْبَتِه إلَى مَولاهم. فهذه الآياتُ يَتَحَدَّثُ اللّه تَعالَى بها عَنْ فَضائِلِ عِبادِهِ المُرْسَلينَ وأنْبِيائه العابِدينَ وعَنْ عَمَلِهِمُ الصّالِحِ وصَبْرِهِمْ وقُوَّتِهِمْ في العِبادَةِ، وعنِ البَصيرَةِ النّافِذَةِ، فَإِنَّهُمْ دَأبوا عَلَى الطّاعَةِ، وقَوَّيْناهُمْ عَلَى العَمَلِ المَرْضِيِّ، فَأحْسَنوا وقَدَّموا خَيْرًا، وآتَيْناهُمُ البَصيرَةَ في العِلْمِ والفِقْهَ في الدّيْنِ، والعَمَلَ النّافِعَ في الدُّنْيا[2]؛ ولذا فقدْ عَقَّبَ على ذلكَ بِتَزْكيةِ مَقامِهِم عندَ اللّهِ فَبَيَّنَ أنَّ هؤلاءِ الأنْبياءَ صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليْهِم الَّذينَ اجْتَباهُم واخْتارَهُم هُمْ صَفْوَةُ خَلْقِهِ وخِيارُ رُسُلِه وأفْضَلُ أنْبِيائه.

❁ الإيضاحُ اللُّغَوِيُّ والبَلاغِيُّ:

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ

(1) الرّاغب، المفردات: (دار).

(2) الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير: 23/ 214 - 215.

بيانُ ابتلاءاتِ النبيّين خيرُ معينٍ على تحمُّلِ مشاقِّ دعوةِ الكافرين

﴿وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ على ما سَبَقَ مِنْ قِصَّةِ أيّوبَ عليه السلام، وتحتمل أن تكونَ الآيةُ مَعْطوفةً عَلَى قَوْلِه تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧﴾ [ص: 17]، إلَى أنْ قال: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾. ويَتَمَثَّلُ تناسُبُ العطفِ في أنَّه تعالى لَمّا ذَكَرَ مَنِ ابْتَلاهُ في بَدَنِه؛ ومالِه؛ ووَلَدِه؛ ثُمَّ جَعَلَ لَهُ الماءَ بَرْدًا؛ وسَلامًا؛ وعافيَةً؛ ونِظامًا؛ وشِفاءً وقِوامًا؛ عَطَفَ عَلَيْهِ مَنِ ابْتَلاهُ بالنّارِ؛ عَلَى أيْدي الجَبابِرَةِ؛ فَجَعَلَها عَلَيْهِ بَرْدًا؛ وسَلامًا؛ بِاعْتِمادِهِ عَلَيْه؛ وصَبْرِه لَدَيْه؛ ونَجّاهُ من كَيْدِهِمْ؛ وجعَلَ يَدَهُ بِمُفْرَدِهِ فَوْقَ أيْديهِمْ؛ ثُمَّ ابْتَلاهُ بالهِجْرَةِ لِوَطَنِه؛ وأهْلِه؛ وعَشيرَتِه؛ وسَكَنِه؛ ثُمَّ بِذَبْحِ ابْنِه؛ فَصَبَرَ عَلى ذَلِكَ كُلِّه؛ اعْتِمادًا عَلى فَضْلِ اللّهِ[1].

غَرَضُ الأمْرِ ودلالتُه:

الأمْــرُ بذكـرِ ابـتـلاءاتِ المرسلينَ حضٌّ على الصَّبرِ وحثٌّ على الشُّكرِ

﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ في قوْلِ اللّهِ تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ فِعْلُ أمْرٍ، وفاعِلُهُ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْديرُهُ أنْتَ يعودُ عَلَى النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، أيِ اُذْكُرْ يا مُحَمَّدُ صَبْرَهُمْ عَلَى ما أصابَهُم، واذْكُرْ ثَباتَهُم عَلَى عَقائِدِهِمْ وتَأسَّ بِهِمْ[2]. وقَدْ جاءَ فِعْلُ الأمْرِ هُنا عَلَى وجْهِ الحَقيقَةِ، أيْ أمْرًا حَقيقيًّا للامْتِثالِ، على أصلِه المُرادِ منْهُ، وهوَ طَلَبُ الفِعْلِ علَى جِهَةِ الاسْتِعْلاءِ وعلَى جِهَةِ الحَقيقَةِ والإلْزامِ بِفِعْلِه، فَهوَ أمْرٌ بتبليغِ هذهِ القَصصِ الشَّريفَةِ للناسِ عامةً ولِلْمُسْلِمينَ خاصَّةً، وذلكَ للاعتبارِ والاتِّعاظِ والإرْشادِ بما فيها من الأخلاقِ العاليَةِ والمناقبِ الشّافيَةِ، والأمرُ هَهُنا للنبيِّ ﷺ أصالةً ولأُمَّتِه تبعًا؛ فإنَّ ذِكْرَ تلك الابتلاءاتِ يُرادُ به الامتثالُ والاقتداءُ لمشابهاتها.

تَوْجيهُ قِراءاتِ الجَمْعِ والإفْرادِ:

وَرَدَ في لفظِ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 395.

(2) الدَّرْويش، إعرابُ القرآنِ الكريمِ وبيانُه: 8/ 369.

قِراءَةُ الإفْرادِ محمولةٌ على الجنسِ، أمّا قِراءَةُ الجمعِ فعلى حقيقتِها

﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ قراءاتانِ، فقَرَأ ابْنُ كَثيرٍ: ﴿عَبۡدَنَا﴾ بغيْرِ ألِفٍ علَى التَّوْحيد، وقرَأ الباقونَ بالألِفِ عَلَى الجَمْعِ[1]. وقراءةُ الإفراد هيَ قِراءَةُ ابْنِ عَبّاسٍ، ووجْهُها أنَّ قَوْلَهُ: (عَبْدَنا) تَشْريفٌ عَظيمٌ، فَوَجَبَ أنْ يَكونَ هَذا التَّشْريفُ مَخْصوصًا بِأعْظَمِ النّاسِ المَذْكورينَ في هَذِهِ الآيَةِ وهو إبْراهيمُ[2]، لِأنَّهُ أصْلُ مَن عُطِفَ عَلَيْهِ دينًا وأُبُوَّةً؛ فَبَيَّنَ اللّهُ أساسَ عَطْفِهِ عَلَيْهِ في المَدْحِ بِالعُبوديَّةِ أيْضًا[3]، أو أن يكونَ المرادُ بالعبدِ الجنسَ[4].

وأمّا توجيهُ قراءَةِ الجمعِ: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ فَلِأنَّ غَيْرَ إبْراهيمَ مِنَ الأنْبياءِ قَدْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ هَذا الوَصْفُ فَجاءَ في عيسى عليه السلام: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزُّخْرُف: 59] وفي أيّوبَ: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ وفي نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء: 3]. فَمَن قَرَأ ﴿عَبۡدَنَا﴾ جَعَلَ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وحْدَهُ عَطْفَ بيانٍ لَهُ، ثُمَّ عَطَفَ ذُرّيَّتَهُ عَلى لَفْظِ ﴿عَبۡدَنَا﴾، وهي التي تشمل إسْحاقَ ويَعْقوبَ، ومَن قَرَأ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ جَعَلَ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ عَطْفَ بيانٍ لِلَفْظِ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾[5].

غَرَضُ إضافَةِ (عِبادِ) إلَى ضَميرِ الجَمْعِ:

إضافَةُ الأنبياءِ لله إضافةُ تَشْريفٍ وتنويهٍ ورِفْعَةِ شأنٍ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ كلمةَ (عِبادَ) إلى ضميرِ الجمعِ (نا) الدّالِ على العَظَمَةِ، وذلكَ لتأكيدِ نِسْبَةِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ إلى جنابِ الحقِّ سبحانه وتعالى، فَهُم المُبَلِّغونَ لِهَديهِ الجليل، الَّذينَ اصطفاهُم لِهَذِه المُهِمَّةِ الشَّريفَةِ، فَصيغَةُ الجمعِ في ضَميرِ الإضافَةِ (نا) الَّذي يُسَمَّى (ضَميرَ التَّعْظيمِ) - وَهوَ هُنا

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 361.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 395.
(4) السّمين، الدُّر المَصُون: 9/ 382.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.

الصّادِرُ عَنْ رَبِّ العِزَّةِ ﷻ - يُسْتَعْمَلُ إذا كانَ المَقامُ مَقامَ تَعْظيمٍ[1]؛ فكانتِ الإضافَةُ إضافَةَ تَشْريفٍ وتَنْويهٍ ورِفْعَةَ شأنٍ في الدارينِ.

براعة ترتيبِ ذِكرِ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾:

سِلْسِلَةٌ نَضيضَةٌ من أنبياءِ اللهِ الصابرينَ على الابتلاءِ والمحَنِ في ذاتِ اللهِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ ابتدأ البيانُ القُرآنيُّ الحكيمُ بِذِكرِ إبْراهيمَ ﵇ لأنَّهُ أصْلُ مَن عُطِفَ عَلَيْهِ؛ دينًا وأُبوَّةً؛ فَبَيَّنَ اللَّهُ أساسَ عَطْفِهِ عَلَيْهِ في المَدْحِ بِالعُبوديَّةِ؛ لِصَبْرِهِ عَلى دينِهِ في الغُرْبَةِ بَيْنَ عُبّادِ الأوْثانِ ومُباعَدي الإيمانِ؛ ثُمَّ أتْبَعَه بذِكْرِ ولَدِهِ إسْحاقَ ﵇ الَّذي اقْتَفا أثَرَهُ؛ وصَبَرَ صَبْرَهُ؛ وابْتُلِيَ بِفَقْدِ بَصَرِه. ثم ذَكَرَ يعقوبَ ولَدَ إسحاقَ ﵉، الّذي ابْتُلِيَ بَفَقْدِ ولَدِه نَبيِّ اللّهِ يوسفَ ﵇ بَهْجَةِ كَبِدِهِ؛ فَصَبَرَ أتَمَّ الصَّبْرِ في ذَلِكَ الضُّرِّ؛ وأبْلَغَ في الحَمْدِ والشُّكْرِ؛ فجاءَ هذا العِقْدُ النَّضيضُ مِنْ أنبياءِ اللّهِ الصّابِرينَ مِصْداقًا لقولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ [الطور: 21][2].

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿أُوْلِي﴾:

براعةُ انتقاءِ الألفاظِ والمباني لمناسبةِ الحقائقِ والمعاني

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن استِعْمالِ كلمةِ (أصحابِ) ونحْوِها، إلى استِعْمالِ كلمةِ ﴿أُوْلِي﴾، وذلكَ لأنَّ كلمةَ ﴿أُوْلِي﴾ جمْعٌ لا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ، وهي تَلزمُ الإضافَةَ إلَى اسْمٍ ظاهِرٍ[3]، ففيها مِنَ الاختصاصِ ما ليسَ في كَلِمَةِ (أصحابٍ) ونحوِها، فَهيَ تَدُلُّ على شِدَّةِ الاختصاصِ بالمُضافِ إليه، فكانَ التَّعبيرُ بها أشدَّ في الدَّلالَةِ علَى القوَّةِ في حقِّ اللّهِ وعِبادَتِه، والبصيرةِ في الفقهِ والدّينِ، اللَّذَيْنِ هُما مِنَ الضَّروراتِ اللّازمَةِ لتَبْليغِ دَعْوَةِ اللّهِ تعالى لِخَلْقِه وهِدايَتِهِم إلى طَريقِ الحقِّ والصوابِ.

---

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّة، ص: 821.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 395.
(3) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 94.

الجمعُ بينَ القوَّةِ والعلم من مشهوراتِ أصحابِ النُّبوّاتِ

دلالَةُ الإضافَةِ:

أُضيف لفظُ ﴿أُوْلِي﴾ إلَى ﴿ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ للدّلالةِ على شِدَّةِ المُلازَمَةِ والاتِّصافِ بالقوَّةِ البالِغَةِ والبَصيرَةِ النّافذَةِ والعقلِ الرّاجح في دينِ اللّهِ ودعوةِ خَلْقِه، فَهَذه السِّماتُ الطَّيِّبَةُ لا تنْفكُّ عنْ هؤلاءِ الأنبياءِ الأقوياءِ الحُكَماءِ، فَقُلوبُهم زَكيَّةٌ، وأفْئِدَتُهم ذَكيَّةٌ، وعُقولُهم حادَّةٌ، لا تَغيبُ عنْهم مُهِمَّةُ الدَّعْوَةِ إلى دينِ اللّهِ طَرْفَةَ عينٍ[1]؛ فقد عُرِفوا بالأيدي والأبْصارِ، حتّى اشْتُهِروا بها، وهذا دالٌّ على أنّهم جمعوا بينَ القوّة والعلم جمعًا تلازميًّا.

اجتماعُ المجاز والكِنايَةِ والتعريضِ في تركيبٍ واحد

بلاغةُ التّعبير المجازيِّ:

في قول اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يظهر أن المُرادَ بهذا التَّعبيرِ الدَّلالَةُ على القوَّةِ في الطّاعَةِ، والبَصيرَةِ في الدّينِ، فالأيْدي مَجازٌ مُرْسَلٌ عَنِ القوَّةِ، والأبصارُ جَمْعُ بَصَرٍ بِمَعْنى بَصيرَةٍ، وهو مَجازٌ أيْضًا لَكِنَّهُ مَشْهورٌ فيه، أوْ أولي الأعْمالِ الجَليلَةِ والعُلوم الشَّريفَةِ، عَلى أنَّ ذِكْرَ الأيْدي من ذِكْرِ السَّبَبِ، وإرادَةِ المُسَبَّبِ، والأبْصارُ بِمَعْنى البَصائِرِ مَجازٌ عَمّا يَتَفَرَّعُ عَلَيْها مِنَ العُلوم، كالأوَّلِ أيْضًا، وفي ذَلِك عَلى الوَجْهَيْنِ تَعْريضٌ بِالجَهَلَةِ البَطّالينَ أنَّهم كَفاقِدي الأيْدي والأبْصارِ، وتَوْبيخٌ عَلى تَرْكِهِمُ المُجاهَدَةَ والتَّأمُّلَ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ مِنهُما، وقيلَ: الأيْدي النِّعَمُ، أيْ أولي النِّعَمِ الَّتي أسْداها اللَّهُ تعالى إلَيْهِمْ مِنَ النُّبوَّةِ والمَكانَةِ، أوْ أولي النِّعَمِ والإحْسانات عَلى النّاسِ بِإرْشادِهِمْ وتَعْليمِهِمْ إيّاهُم، وفيهِ ما فيه[2]، فقولُه تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ كنايةٌ عن القوّة والعلم والمُكْنَةِ في الدّين.

غَرَضُ جَمْعِ ﴿ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾:

جاءتْ كَلمتا ﴿ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ جَمْعًا، للدّلالَةِ على المُبالَغَةِ

(1) الزُّحَيليّ، التّفسير المنير: 23/ 214 - 215.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.

في اتِّصافِ إبْراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقوبَ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليهم بالقوَّةِ الشَّديدَةِ؛ والأعمالِ السَّديدَةِ؛ لِأنَّ الأيْدِيَ أعْظَمُ آلاتِ ذَلِكَ؛ والْمُرادُ بَجْمعِ الأبْصارِ تأكيدُ تَمَتُّعِهم بالحَواسِّ الظّاهِرَةِ؛ والباطِنَةِ؛ الَّتي هي حَقيقَةٌ بأنْ تُذْكَر وتُمْدَحَ؛ لِقوَّةِ إدْراكِها؛ وعَظَمَةِ نُفوذِها؛ فيما هو جَديرٌ بأنْ يُراعى من جَلالِ اللّهِ؛ ومُراقَبَتِهِ في الحَرَكاتِ؛ والسَّكَناتِ؛ سِرًّا وعَلَنًا؛ وعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بالأبْصارِ؛ لِأنَّها أقْوى مَبادِئِه؛ ومَن لَمْ يَكُنْ مِثْلَهم كانَ مَسْلوبَ القوَّةِ؛ والعَقْلِ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَقْلٌ؛ فَكانَ عَدَمًا؛ فَهو أعْظَمُ تَوْبيخٍ لِمَن رَزَقَهُ اللّهُ قوَّةً وعَقْلًا؛ ثُمَّ لا يَصْرِفُهُ في عِبادَةِ اللّه والْمُجاهَدَةِ فيه سُبْحانَهُ[1]، والجمعُ لبيانِ تنوُّعِ القوى الّتي امْتَلَكوها، والعلوم الّتي اكْتَسَبوها.

بيانُ تنوُّعِ القِوى الّتي امْتَلَكوها، والعلوم الّتي اكْتَسَبوها

فائِدَةُ جُمْلَةِ التَّعْليلِ:

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ تعليلًا لوصْفِهم بأنَّهم ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾، فالجمْلَةُ عِلَّةٌ لِلأمْرِ بِذِكْرِهِمْ؛ لِأنَّ ذِكْرَهم يُكْسِبُ الذّاكِرَ الاقْتِداءَ بِهِمْ في إخْلاصِهِمْ ورَجاءَ الفَوْزِ بما فازوا بِه مِنَ الاصْطِفاءِ والأفْضَلِيَّةِ في الخَيْرِ[2]. فهي تَعْليلٌ لِما وُصِفوا بِهِ مِن شَرَفِ العُبوديَّةِ، وعُلوِّ الرُّتْبَةِ في العِلْمِ والعَمَلِ، أيْ: جَعَلْناهم خالِصينَ لَنا بِخَصْلَةٍ خالِصَةٍ عَظيمَةِ الشَّأْنِ[3]. إذْ لَمّا اشْتَدَّ تَشَوُّفُ السّامِعِ لِما اسْتَحَقّوا بِهِ هَذا الذِّكْرَ جاءتِ الجُمْلَةُ تأكيدًا لَمَحَبَّتِهِ تعالى لِمَدْحِهِمْ؛ ورَدًّا عَلى مَن يَنْسِبُ إلَيْهِمْ؛ أوْ إلى أحَدٍ مِنهم ما لا يَليقُ؛ كَما كَذَّبَهُ اليَهودُ فيما بَدَّلوهُ مِنَ التَّوْراةِ في حَقِّ إسْحاقَ في بَعْضِ الْمَواضِعِ[4]، ولبناءِ تعليلِ الاجتباءِ الإلهيِّ، فإنَّ معرفةَ عِلَلِ الاجْتِباءِ، موصِلَةٌ إلى مواضعِ الرِّضا، ومواقعِ القبولِ.

معرفةُ عِلَلِ الاجْتِباءِ، موصِلَةٌ إلى مواضعِ الرِّضا، ومواقعِ القَبولِ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 396.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 276.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 230.
(4) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.

فائِدَةُ التَّوكيدِ ودلالتُه:

التَّعريضُ بِمَنْ يَنْتَقِصُ مِنْ رُسُلِ اللهِ تعالى

جاءَ استعمالُ (إنَّ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ لتَوكيدِ خُلوصِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ مِنْ أيِّ شَيْنٍ أو عَيبٍ رُموا به. وتضَمَّنتْ (إنَّ) مَعنَى التَّعليلِ، فأغنتْ عن فاءِ التَّفْريعِ، كما هو الحال في قوله تعالى في سورَةِ يونُسَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [الآيَة: 96][1]، فإنَّها توحي بالتَّعريضِ بمن يقولُ بخلافِ ذلك.

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾:

تـنْـقيَـةُ جـنـابِ الأنـبـيـاءِ الـمُـخْـلَـصـيـنَ وتـطْـهـيرُهُـم مِـن افـتـراءاتِ المُفْتَرين

في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ الحكيمُ التَّعبيرَ بالفعْلِ ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ دونَ غيْرِه من الأفعالِ، وذلكَ لأنَّ مادَّةَ الخاءِ واللّامِ والصّادِ أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على تَنْقيَةِ الشَّيْءِ وتَهْذيبِه[2]، والخالِصُ كالصّافي، إلّا أنَّ الخالِصَ هوَ ما زالَ عَنْه شَوْبُه بَعدَ أنْ كانَ فيه، والصّافي قدْ يُقالُ لِما لا شَوْبَ فيه[3]. ففيه إشارةٌ إلى تَبْرِئَةِ كُلِّ نَبيٍّ من هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ وتَنْقيَةِ جنابِ المُخْلَصينَ وتطْهيرِهِم من افتراءاتِ اليَهودِ الَّذينَ لَمْ يَتَوَرَّعوا عنْ نِسْبَةِ أخْبارٍ شائِنَةٍ بحقِّهِم.

نَوعُ الهَمْزَةِ ودَلالَتُها:

همزةُ التَّعْديَةِ في الفعلِ لإفادةِ معنًى إضافِيٍّ كالصيرورةِ والجعلِ

الهَمْزَةُ في فعل: ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ لِلتَّعْديَةِ إلى المفعول به لفائدة معنى الصيرورة والجعل[4]، أي: جَعَلْناهم خالِصينَ، وفائدتُها هنا: اختصارُ الكلامِ في مقامِ الإيجازِ، فَبَدَلَ أنْ يُقالَ: صَيَّرنا الأنْبياءَ وجَعَلْناهم خالِصينَ، يقال: ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾، أيْ: طَهَّرْناهم من دَرَنِ النُّفوسِ فَصارَتْ نُفوسُهم نَقيَّةً مِنَ العُيوبِ العارِضَةِ لِلْبَشَرِ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 287.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).

(3) الرّاغب، المفردات: (خلص).

(4) رَضيّ الدّين، شرح الشّافية: 1/ 86.

دَلالَةُ إسْنادِ فِعْلِ (أخْلَصَ) إلَى ضَميرِ العَظَمَةِ:

الإخلاصُ الحقُّ لا يَتأتَّى إلا بتوفيقِ اللهِ سبحانه

أَسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ إلى ضميرِ العظمةِ؛ وذَلِكَ لِأنَّ الإخلاصَ للهِ أمْرٌ لا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ البَشَرِيَّةِ إلّا بِجَعْلٍ خاصٍّ مِنَ اللهِ تعالى وعِنايَةٍ لَدُنِّيَّةٍ، بِحَيْثُ تُنْزَعُ مِنَ النَّفْسِ غَلَبَةُ الهَوى في كُلِّ حالٍ، وتُصْرَفُ النَّفْسُ إلى الخَيْرِ المَحْضِ فَلا تَبْقى في النَّفْسِ إلّا نَزَغاتٌ خَفيفَةٌ تُقْلِعُ النَّفْسُ عَنْها سَريعًا بِمُجَرَّدِ خُطورِها، "أيْ: أَخْلَصْناهُم لَنا إخْلاصًا يَليقُ بِعَظَمَتِنا الَّتي لا تُدانيها عَظَمَةٌ"[1].

نَوْعُ الباءِ ودَلالَتُها:

أعظمُ الأسبابِ وأشرفُها الموصلُ إلى ذكرِ الحقِّ

الباءُ في كلمة ﴿بِخَالِصَةٖ﴾ تحتمل أن تكونَ سَبَبِيَّةً؛ إن كانت بمعنى جَعلناهُم خالصين، وفيها إشارَةٌ إلى سَبَبِ عِصْمَتِهِم، وعُبِّرَ عَنْ هَذا السَّبَبِ تَعْبيرًا مُجْمَلًا، تَنْبيهًا عَلى أنَّهُ أمْرٌ عَظيمٌ دَقيقٌ لا يُتَصَوَّرُ بِالكُنْهِ ولَكِنْ يُعْرَفُ بِالوَجْهِ، ولِذَلِكَ اسْتَحْضَرَ هَذا السَّبَبَ بِوَصْفٍ مُشْتَقٍّ مِن فِعْلِ ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ عَلى نَحْوِ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ لِمَن سَألَهُ عَنِ اقْتِناعِهِ مِن أكْلِ لَحْمِ الضَّبِّ: «إنّي تَحْضُرُني مِنَ اللهِ حاضِرَةٌ»[2]؛ أيْ: حاضِرَةٌ لا توصَفُ، ثُمَّ بُيِّنَتْ هَذِهِ الخالِصَةُ بِأقْصى ما تُعَبِّرُ عَنْهُ اللُّغَةُ، وهي أنَّها ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾[3]، وتحتمل أن تكونَ للتّعديةِ إن كانت ﴿أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ بمعنى: خصصناهم[4].

دَلالَةُ ذِكْرِ لفظِ (خالِصَةٍ):

الاتِّساقُ الدّلاليُّ من مزايا التّرابطِ بين الألفاظِ

جاءَتْ كلمةُ (خالِصَةٍ) في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ خلافًا لمقتضى الظّاهرِ؛ فلَمْ يَقُلْ: إنّا أخْلَصناهُم بِذِكْرَى الدّارِ، فعدلَ عن مقتضى الظّاهرِ إلى مقتضى الحال، وذلكَ لِما في ذكرِ هذهِ الكلمةِ (خالِصَةٍ) من دلالاتٍ كثيفةٍ مُتعانِقَةٍ، إذِ المرادُ أنَّ اللهَ

(1) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.

(2) رواه مالك في الموطّأ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في الضَّبِّ، حديث رقم: (1774).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 277.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 370.

تعالى أَخْلَصَهُمْ بأعْمالٍ؛ وأحْوالٍ؛ ومَقاماتٍ؛ وبَلايا؛ ومِحَنٍ؛ هي في مجموعِها سالِمَةٌ عَنْ شَوْبٍ ما؛ فَصاروا بِالصَّبْرِ عَلَيْها في غايَةِ الخُلوصِ[1]، ولتكونَ كلمةُ (خالصةٍ) صلةً بين الفعل ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ وما بعده، وتوطئةً لما بعدها من التّعريف بذكرى الدّار، لا سيّما على إعرابِ ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بدلًا.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ:

قــراءةُ التّنوين تُفيدُ التّفصيل، وقراءةُ الإضافَةِ تفيدُ التَّعْريفَ والتَّنْبيهَ عَلى دِقَّةِ الخُلوصِ

وَرَدَتْ في كلمة ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ قراءتانِ، فَقَرَأَ المَدَنيّانِ: نافِعٌ وأبو جعْفَرٍ وهشام بخلف عنه ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بِغَيْرِ تَنْوينٍ عَلَى الإضافَةِ، وقرأ الباقون بِالتَّنْوينِ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾[2]. فأمّا ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بدون تَنْوينٍ فتكونُ مُضافَةً إلى ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾، والإضافَةُ بَيانيَّةٌ؛ لِأَنَّ ذِكْرى الدّارِ هي نَفْسُ الخالِصَةِ، فَكَأَنَّهُ قيلَ: بِذِكْرى الدّارِ، ولَيْسَتْ من إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ ولا من إضافَةِ المَصْدَرِ إلى مَفْعولِهِ ولا إلى فاعِلِهِ، وإنَّما ذَكَرَ لَفْظَ ﴿بِخَالِصَةِ﴾ ليَقَعَ إجْمالًا، ثُمَّ يُفَصَّلَ بالإضافَةِ لِلتَّنْبيهِ عَلى دِقَّةِ هَذا الخُلوصِ، أمّا التَّعْريفُ بالإضافَةِ فَلِأَنَّها أقْصى طَريقٍ لِلتَّعْريفِ في هَذا المَقامِ[3]. وأمّا على قِراءَةِ الجُمْهورِ بِتَنْوينِ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ فَيَكونُ ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ عَطْفَ بَيانٍ أَوْ بَدَلًا مُطابِقًا. وغَرَضُ الإجْمالِ والتَّفْصيلِ ظاهِرٌ، وإبْدالُها مِنها مِن إبْدالِ الصِّفَةِ مِنَ المَوْصوفِ[4].

دَلالَةُ إضافَةِ ﴿ذِكْرَى﴾ لِلَفْظِ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

كثرةُ ذِكْرِ الموقفِ العظيمِ يَشْرُفُ بــه الــذّاكــرُ ويَعْظُمُ

إضافَةُ ﴿ذِكْرَى﴾ إلى ﴿ٱلدَّارِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعولِ، أي: ذِكْرُهُمُ الدّارَ الآخرةَ، فهي إشارةٌ إلى جليلِ أثَرِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ، فعَمَلُهم الَّذي استَحَقّوا به هذِه المكانَة العَليَّة هوَ تذكُّرُهم

(1) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 361.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 278.

الدّارَ الآخرةَ، و"تَذْكيرُهُمُ النّاسَ بالآخِرَةِ، وتَرْغيبُهم إيّاهم فيها، وتَزْهيدُهم عَلى وجْهٍ خالِصٍ مِنَ الحُظوظِ النَّفْسانيَّةِ، كَما هو شَأْنُ الأَنْبياءِ ﷷ. وقيلَ: المُرادُ بالدّارِ الدّارُ الدُّنْيا، وبِذِكْراها الثَّناءُ الجَميلُ، ولِسانُ الصِّدْقِ الَّذي لَيْسَ لِغَيْرِهِم، وحاصِلُ الآيَةِ: إنّا خَصَصْناهم بِالذِّكْرِ الجَميلِ في الأَعْقابِ"[1].

بَلاغَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿ذِكۡرَى﴾ دونَ مُرادِفاتِها:

اللفظُ القُرْآنيُّ جامعٌ للمعاني الكريمَةِ، فَمِنْ أيِّ زاويةٍ نَظَرْتَ إليه بَهَرَتْكَ أنوارُهُ

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ استعمالَ لفظِ ﴿ذِكۡرَى﴾؛ وذلك لأنَّ الذِّكْرَى اسْمُ مَصْدَرٍ يَدُلُّ عَلى قوَّةِ المَعْنى، مِثْلُ الرُّجْعى والبُقْيا لِأَنَّ زيادَةَ المَبْنى تَقْتَضي زيادَةَ المَعْنى[2]. والذِّكْرَى والتَّذْكِرَةُ مادَّتُهما اللَّفْظيَّةُ واحِدَةٌ، وأَصْلُهُما المَعْنَويُّ واحِدٌ، فَهُما تَتَطابَقانِ في بَعْضِ مَعانيهما، فَتَأْتيانِ بِمَعْنَى اقْتِباسِ الدَّرْسِ والعِبْرَةِ. ولكنَّ (ذِكْرَى) تُسْتَعْمَلُ في مقام العِبْرَةِ والمَوْعِظَةِ على نحوٍ أكثرَ من استعْمالِها في التَّذْكيرِ الَّذي هو ضِدُّ النِّسْيانِ، كما أنَّ استعمالَ أبنيةِ المصادرِ المُنْتَهيَةِ بألفِ التّأنيث أشَدُّ دلالةً على المُبالغةِ من غيرها، لما فيها مِنَ الاتِّساعِ الناشِئِ عن الألفِ المقصورةِ في آخرها، فدَلَّ السّياقُ هَهُنا على أنَّ أَنْبياءَ اللّهِ الكرامَ مَخْصُصونَ بِخُلوصِ تَذَكُّرِهم للآخرة، وتَذْكيرِ الخلقِ بها. "والمُرادُ إمّا أَنَّهُمُ اسْتَغْرَقوا في ذِكْرى الدّارِ الآخِرَةِ وبَلَغوا في هَذا الذِّكْرِ إلى حَيْثُ نَسوا الدُّنْيا. أو حُصولُ الذِّكْرِ الجَليلِ الرَّفيعِ لَهم في الدّارِ الآخِرَةِ، أو أنَّهُ تعالى أبْقى لَهُمُ الذِّكْرَ الجَميلَ في الدُّنْيا وقَبِلَ دُعاءَهم في قَوْلِه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشُّعَراء: 84]"[3]. ولا يَبْعُدُ أيُّ مَعْنًى من هذه المعاني الجليلَة، فإنَّ منْ بلاغةِ النَّظْم القُرْآنيِّ الشَّريفِ أنَّه يحْوي من المعاني ما لا حصْرَ لَه في وجْهٍ واحدٍ، كالأَحْجارِ الكَريمَةِ، فَمِنْ أيِّ زاويَةٍ نَظَرْتَ إليه بَهَرَتْكَ أنْوارُهُ وآلاؤُهُ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 277.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.

مَعْنَى تَعْرِيفِ لَفْظِ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

الدّارُ المعهودةُ في قلوبِ الصّادقين هي الآخرةُ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلدَّارِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ مُعَرَّفَةً بالألفِ واللّام، وهيَ هُنا للعهد، "فَإِطْلاقُ الدّارِ لِلْإِشْعارِ بِأنَّها الدّارُ في الحَقيقَةِ، وإِنَّما الدُّنْيا مَعْبَرٌ"[1]. فَأَشْعَرُ اللَّفظُ بحصرِ حَقيقَةِ الدّارِ فيها، فلا دارَ غيرُها على الحقيقةِ، إذْ هيَ دارُ المعادِ؛ ولأنَّها الدّارُ الَّتي لا يَسْتَحِقُّ غَيْرُها أنْ يُسَمّى دارًا بِوَجْهٍ[2]، فالدّارُ الَّتي هي مَحَلُّ عِنايَتِهِمْ هي الدّارُ الآخِرَة، لا الدّارُ الدُّنيا، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «فَأَقولُ ما لي ولِلدُّنْيا»[3]. وقيلَ: المُرادُ بالدّارِ الدّارُ الدُّنْيا، وبِذِكْراها الثَّناءُ الجَميلُ، ولِسانُ الصِّدْقِ الَّذي لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ[4].

دَلالَةُ العَطْفِ بالواوِ:

التَّنْبيهُ على أسرارِ الاصطفاءِ ومفاتيح الإجْتباء

جاءتِ الواوُ عاطِفَةً في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ فَعَطَفَتْ هذه الجُمْلَةَ على الجُمْلَةِ السّابِقَةِ بعْدَما دَلَّتْ على المَدْحِ البَليغِ، فَعَطَفَ عليْها ما يُلازِمُ الإخْلاصَ، فقالَ مُؤَكِّدًا لِمِثْلِ ما تَقَدَّمَ مِنَ التَّنْبيهِ على أنَّهُم مِمَّنْ يُغْتَبَطُ بِمَدْحِهِم، ورَدًّا على مَنْ رُبَمّا ظَنَّ خِلافَ ذَلِكَ بَكَثْرَةِ مصائِبِهِم في الدُّنْيا بِعَطْفِ اصْطِفائِهِم على العالَمينَ، وبيانِ خَيْرِيَّتِهِم[5]، ولأنَّه مِمّا يَبْعَثُ على ذِكْرِهِم بأنَّهُم اصْطافَهُم اللّهُ من بينِ خَلْقِه فَقرَّبَهُم إليهِ وجَعَلَهُم أَخْيارًا[6]، وقد ناسبَ ذلك كلَّه العطفُ بالواوِ، لخلوِّها عن معاني حروفِ العطفِ الأخرى.

غرضُ التَّوْكيدِ ودلالتُه:

أكَّدَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 278.
(3) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عبّاس، حديث رقم: (2788).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.
(5) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 279.

إظهارُ الفضائل بتوكيدِها وإبرازُ المكارمِ بتعيينها

﴿ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ خَيْريَّةَ هؤلاءِ الأنبياءِ الكِرام: إبراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ صَلواتُ اللّهِ وسَلامُه عليْهِم، بتأكيداتٍ ثلاثٍ هي: اسْتِعْمالُ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ المُؤَكِّدَةِ بنفسِها أوّلًا، والمُؤَكَّدَةِ بـ(إنَّ) ثانيًا[1]، والمُؤَكَّدَةِ بلام التَّوكيدِ ثالثًا في ﴿لَمِنَ﴾، وذَلِكَ لبيانِ فَضيلَةِ اصْطِفائِهم وخَيْريَّتِهم على النّاسِ أجْمَعينَ، ولِرَدّ أيِّ شُبْهَةٍ قَدْ تَطْرَأُ على ذِهْنِ أحَدٍ مِنَ النّاسِ بأنَّ ابْتِلاءَهُم دَليلٌ على نَقْصٍ في شَرَفِ الاصْطِفاءِ، أوْ غَمْزٌ في مقامِ الاخْتيارِ.

فائِدَةُ ذِكرِ الظَّرْفِ ﴿عِندَنَا﴾:

تَمَكُّنُ أنبياءِ اللهِ في مقامِ المَدْحِ لَدَيْهِ

جاء ذكرُ الظّرفِ ﴿عِندَنَا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، دون الإخبارِ المجرَّد، فلَمْ يَقُلْ: (وإنَّهُم لَمِنَ المُصْطَفَيْنَ الأخْيارِ)، وذَلِكَ لبيانِ مَكانَتِهم السّاميَةِ عِنْدَ اللّهِ تباركَتْ آلاؤُه، إذْ ذكرُ الظَّرفِ في هذا السّياقِ يُفيدُ تَمَكُّنَهُم في مقامِ المَدْحِ لَدَيْه، فالمرادُ بالعِنْديَّةِ: المَكانَةُ[2]، وهذا أرسخُ في المدحِ، وأقوى في الحمدِ من مجرّدِ الإخبارِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الظَّرْفِ ﴿عِندَنَا﴾:

عنايةُ الله بالمصطفين بذكرِ مكانتِهم وعلوِّ اختيارِهم

جاءَ النَّظْمُ الكَريمُ بتَقْديمِ الظَّرفِ ﴿عِندَنَا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ للاهْتِمامِ بِبَيانِ عَظيمِ مَكانَتِهم عِنْدَ اللّهِ تعالى، وفي ذَلِكَ تَأْكيدٌ لأفْضَليَّتِهم وخَيْريَّتِهم واصْطِفائِهم، فأظْهَرَ النَّظمُ الكريمُ مكانةَ هؤلاءِ الكرامِ بكونِهم عندَ اللّهِ تعالى مُصطَفَين، فالتَّقديم للعنايةِ والاهتمامِ[3].

غَرَضُ إضافَةِ الظَّرْفِ إلَى الضَّميرِ:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾

(1) المَراغيّ، علوم البلاغة، ص: 52، والجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 182.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 165.
(3) السَّامرّائيّ، أسرار البيان، ص: 21.

نـيــلُ شَـــرفِ الإضـافـةِ لله تـعـالى مــرومٌ مطلوبٌ مقصود

أضافَ البيانُ القُرْآنيُّ الظَّرْفَ ﴿عِندَنَا﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ، لِمَزيدِ التَّشْريفِ والاجْتِباءِ من اللّهِ تبارَكَتْ آلاؤُه، أي: بما لَنا مِنَ العَظَمَةِ والخِبْرَةِ بأصنافِ الخَلْقِ[1]، إذْ هوَ تعالى وحدَه العليمُ بأقْدارِ النّاسِ، وهوَ وحْدَه المُطَّلِعُ على سَرائِرِهم.

نَوْعُ (مِنْ) ودلالَتُها:

ذكــرُ بـعـضِ المـصـطَـفَـيْن تلميحٌ بأصلِهم وامتدادِهم

(مِنْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ للتَّبْعيضِ، أيْ مِنَ الّذين اتَّخذهمُ اللّهُ صَفْوَةً فصفّاهم مِنَ الأدْناس الأخْيارِ الّذينَ اختارهم[2]، فهؤلاءِ الرُّسُلِ الكِرام بَعْضُ عبادِ اللّهِ المُصْطَفَيْنَ الأخيارِ، وفي ذلِكَ دلالَةٌ على أنَّ اللّهَ تباركتْ آلاؤه يصطفي من عبادِه من يَشاءُ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: 75]، فإنَّ الفضلَ غيرُ مَحصورٍ في هؤلاء الأنبياءِ الأطْهارِ، ولَكِنَّهم يأْتونَ في مُقَدِّمَةِ من اصْطَفاهم اللّهُ مِنْ عبادِه، وهو تلميحٌ لأصلِ المصطفين، وتلويحٌ بامتدادِهم.

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ الاصْطِفاءِ:

الاصْـطِـفــاءُ يـحـمـلُ معنى التّعليلِ، وهو سبيلُ الاقتداء

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ استعمالَ مفردة الاصطِفاءِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، وذلِكَ لأنَّ أصلَ الصَّفاءِ خلوصُ الشيءِ من الشَّوبِ والكَدَرِ، فصَفاءُ السَّريرَةِ نَقاؤها، وصَفاءُ الذِّهْنِ وُضوحُه وجلاؤُه. ومِنْ ثَمَّ فالاصْطِفاءُ: تناوُلُ صَفْوِ الشيءِ، واصْطِفاءُ اللّهِ بعضَ عبادِه قد يكونُ بإيجادِهِ تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوبِ الموجودِ في غيرِه[3]. فالاصْطِفاءِ في حَقِّ الرُّسُلِ هو انْتِقاءُ صَفْوَةِ الخَلْقِ، إذْ هُمُ الأصْفى والأنْقى والأكْمَلُ والأبعدُ عن النَّقْصِ

(1) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 578.
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).

والرِّجْسِ وعنْ كُلِّ باطِلٍ وضَلالٍ، فآثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ هذه المفردةِ، لبيانِ أنَّ اللّه تعالى صفّاهم من كلِّ كَدَرٍ قبل أن يُرسِلَهم لبقيَّة خلقه، ولسائرِ عباده، ففيه معنى التّعليل، كما أنَّ فيه إشارةً إلى صراطِ الاقتداء.

غَرَضُ وصْفِ ﴿ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ﴾ بِلَفْظِ ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾:

ابتلاءُ الأنبياءِ بالمَصائِبِ دَليلُ الخيْريَّةِ؛ لا دَليلُ عَكْسِهِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ وصَفَ البيانُ القُرْآنيُّ المصطَفينَ بأنَّهُم أخيارٌ، رُغْمَ أنَّ المُصطَفى لا يَكونُ إلّا مِنَ الأخْيارِ، وذلكَ للدّلالَةِ على شِدَّةِ تَمَكُّنِ الوَصْفِ في المَوْصوفِ[1]؛ وأنَّ ابتلاءَ اللّهِ إيّاهم بالمَصائِبِ دَليلُ ذَلكَ؛ لا دَليلُ عَكْسِهِ؛ كَما يَظُنُّهُ مَن طُمِسَ قَلْبُهُ[2].

بَلاغَةُ جَمْعِ الأخْيارِ بِهَذِهِ الصّيغَةِ:

لُزومُ الخيريَّةِ لجميعِ أفعالِ المصطَفَينَ وصفاتِهم

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بصيغَةِ الجَمْعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، دون الجمع على صيغةٍ أخرى، وذلك للدّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ الكِرامَ مِنَ الفاضِلينَ عَلَيْهِمْ في الخَيْرِ، وهو جَمْعُ (خَيْرٍ) مُقابِلِ (شَرٍّ) الَّذي هو أفْعَلُ تَفْضيلٍ في الأصْلِ، وكانَ قياسُ أفْعَلِ التَّفْضيلِ أنْ لا يُجْمَعَ عَلى (أفْعالٍ)، لَكِنَّهُ لِلُزوم تَخْفيفِه حَتّى إنَّهُ لا يُقالُ: (أخْيَرُ) إلّا شُذوذًا، أوْ في ضَرورَةٍ، جُعِلَ كَأنَّهُ بِنْيَةٌ أصْليَّةٌ، وقيلَ: جَمْعُ (خَيِّرٍ) المُشَدَّدِ أوْ (خَيْرٍ) المُخَفَّفِ منهُ كَـ(أمْواتٍ) في جَمْعِ (مَيِّتٍ) بالتَّشْديد، أوْ (مَيْتٍ) بِالتَّخْفيفِ[3]. واحْتَجَّ العُلَماءُ بِهَذِهِ الآيَةِ في إثْباتِ عِصْمَةِ الأنْبياءِ، قالوا لِأنَّهُ تعالى حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِكَوْنِهِمْ أخْيارًا عَلى الإطْلاقِ، وهَذا يَعُمُّ حُصول الخَيْريَّةِ في جَميعِ الأفْعالِ والصِّفاتِ، بِدَليلِ صِحَّةِ الاسْتِثْناءِ وبِدَليلِ دَفْعِ الإجْمالِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 279.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.

بلاغةُ الاحْتِباكِ:

الإخْـلاصُ يَلْـزَمُ مِنهُ الِاصْطِفاءُ

قَوْلُ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ بعدَ قوْلِه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ مِنَ الِاحْتِباكِ: فَذِكْرُ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾؛ أوَّلًا: دَليلٌ عَلى (اصْطَفَيْناهُمْ) ثانيًا؛ وذِكرُ ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ ثانيًا دَليلٌ عَلى (المُخْلَصينَ) أوَّلًا؛ وسِرُّ ذَلِك أنَّ الإخْلاصَ يَلْزَمُ مِنهُ الاصْطِفاءُ؛ لا سيَّما إذا أسْنَدَهُ إلَيْهِ؛ بِخِلافِ العَكْسِ؛ بِدَليلِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: 32][1].

---

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 398.

﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ [ص: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

ذَكَرَتِ الآياتُ السّابقةُ الخَليلَ وابْنَهُ إسحاقَ الّذي بُشِّر بِهِ، والَّذي لَمْ يَخْرُجْ مِن كَنَفِهِ قَطُّ، ثم حفيدَه يعقوبَ عليهم السلام جميعًا؛ لِلتَّأسّي بِهِمْ في صَبْرِهِمْ عَلى الدّينِ؛ فلمّا تمّ ذكرهم قبل ذلك ناسَبَ أن يُتْبِعَهُ ولَدَهُ الَّذي امْتُحِنَ به عندما أُمِرَ بِالتَّجَرُّدِ عَنْهُ مرّتين؛ مَرَّةً بإسْكانه عِنْدَ البَيْتِ الحَرامِ صغيرًا من غيرِ مُعيلٍ؛ ليَصيرَ أصْلًا برَأْسِهِ في أشْرَفِ البِقاعِ؛ ومَرَّةً بِالأمْرِ بِذَبْحِهِ في تِلْكَ المَشاعِرِ الكِرامِ عندما صار فتًى يافعًا تحلو عينُ الأبوّة بالنَّظَرِ إليه؛ وبالصَّبرِ ثم الامتثالِ ثم الفداءِ صارَ ما أُضيفَ إلَيْهِ وإلى أبيه إبراهيمَ عَلَيْهِما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الأحْوالِ والأفْعالِ؛ مِنَ المَناسِكِ العِظامِ؛ وأفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ دَلالَةً عَلى أنَّهُ أصْلٌ عَظيمٌ بِرَأْسِهِ؛ مِن أُصولِ الأئِمَّةِ الأعْلامِ[1]، ثمَّ ذكرَ اليَسَعَ وذا الكِفلِ لما شابَها بِهِ إسماعيلَ عليه السلام مِنَ التَّفرُّدِ.

لا يكتملُ مدحُ البُنيان إلّا بذكرِ أوّلِ أركانِه وعظيمِ لَبِناتِه

❁ شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾: اسمٌ أعجميٌّ ممنوعٌ من الصَّرْفِ، وقيلَ عَرَبيٌّ وزْنُهُ (لَفَعُ)، وكانَ في الأصْلِ (يَسْعَى)، وقيلَ: وزْنُه (يَعَلُ)، وكانَ في الأصْلِ (يَوْسَعُ)، وقيلَ: وزْنُهُ (فَعَلَ) والياءُ مِن أصلِ الكَلِمَةِ. وقيل له: (يَسَعُ) لِسَعَةِ علمه، أو لِسَعْيِهِ فى طَلَبِ الحَقِّ وطاعَتِه[2]. وجُمْهورُ القُرّاءِ يَقْرَؤونَ ﴿وَٱلۡيَسَعَ﴾ بِلامٍ واحدَةٍ مُخَفَّفًا، وهُمُ ابْنُ كَثيرٍ، ونافِعٌ، وعاصِمٌ، وأبو عَمْرٍو وابْنُ عامرٍ وأبو جعفر ويعقوب وقَرَأَ حَمْزَةُ، والكِسائيُّ وخلف العاشر في سورتي الأنعام و(ص):

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 399.
(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (اليسع).

﴿وَٱلَّيۡسَعَ﴾ بلامَيْنِ مَعَ التَّشْديدِ وإسكان الياء. قالَ الفَرّاءُ: وهي أشْبَهُ بالصَّواب، وبأسْماءِ الأنْبياءِ من بَني إسْرائيلَ، ولِأنَّ العَرَبَ لا تُدْخِلُ الألِفَ واللّامَ عَلى (يَفْعَلُ)، إذا كانَ في مَعْنى فُلانٍ، يَقولونَ: هَذا (يَسَعُ) قَدْ جاءَ، وهَذا (يَعْمُرُ)، وهَذا (يَزيدُ)، فَهَكَذا الفَصيحُ مِنَ الكَلام. وقالَ مَكّيٌّ: مَن قَرَأهُ بِلامٍ واحِدَةٍ، فالأصْلُ عِنْدَهُ: يَسَعُ، ومَن قَرَأهُ بِلامَيْنِ، فالأصْلُ عِنْدَهُ: لَيَسَعُ، فَأدْخَلوا عَلَيْهِ حَرْفَ التَّعْريفِ[1]. وكانَ اليَسَعُ خِليفَةَ إلْياسَ ووَلِيَّ عَهْدِه، فاشْتَغَلَ بِدَعْوَةِ قَومِ إلْياسَ، وقامَ بِشَرائِطِ شَرْعِه، وهوَ مذكورٌ مِنْ جُمْلَةِ الأنْبياءِ[2]. وقالَ ابنُ كثيرٍ: "عَنِ الحَسَنِ، قالَ: كانَ بَعْدَ إلْياسَ اليَسَعُ، فَمَكَثَ ما شاءَ اللّٰهُ أنْ يَمْكُثَ؛ يَدْعوهُمْ إلَى اللّٰه مُسْتَمْسِكًا بِمِنْهاجِ إلْياسَ وشَريعَتِهِ، حَتَّى قَبَضَهُ اللّٰهُ إلَيْهِ، ثُمَّ خَلَفَ فيهِمُ الخُلوفُ، وعَظُمَتْ فيهِمُ الأحْداثُ والخَطايا، وكَثُرَتِ الجَبابِرَةُ، وقَتَلوا الأنْبياءَ، وكانَ فيهِمْ مَلِكٌ جَبّارٌ عَنيدٌ طاغٍ، ويُقالُ: إنَّهُ الَّذي تَكَفَّلَ لَهُ ذو الكِفْلِ إنْ هوَ تابَ وراجَعَ، دَخَلَ الجَنَّةَ، فَسُمِّي ذا الكِفْلِ. وقالَ مُحَمَّدُ بْنُ إسْحاقَ عنِ (اليسعَ): هوَ اليَسَعُ بْنُ أخْطوبَ[3].

2) ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾: الكِفْلُ بالكسر: الحظُّ والنَّصيبُ، ومنْه قوْلُه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ [الحديد: 28] أي: حَظَّيْن. ومن هذا المعنى أُخذ معنى المِثْليّة، فقالوا: ما لِفلانٍ كِفْلٌ أي مِثْلٌ، كأنَّ المَعْنَى: ليس هناك مَنْ له مِثْلُ قَدْرِه، وهوَ المُرادُ من قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِ﴾، وقيلَ إنَّ ذا الكِفلِ هو النَّبيُّ إلياسَ. وقيل بَلْ هوَ عبدٌ صالِحٌ، والكِفلُ: الحظُّ مِنَ اللّٰهِ تعالى[4]. قال ابن كثير: "والظّاهِرُ مِنْ ذِكْرِه في القُرْآنِ العَظيم بالثَّناءِ عَلَيْهِ مَقْرونًا مَعَ هَؤُلاءِ السّادَةِ الأنْبياءِ أنَّهُ نَبيٌّ عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ. وهَذا هوَ المَشْهورُ، وقَدْ زَعَمَ آخَرونَ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبيًّا، وإنَّما كانَ رَجُلًا صالِحًا وحَكَمًا مُقْسِطًا عادِلًا. وتَوَقَّفَ ابْنُ جَريرٍ في ذَلِكَ فاللّٰهُ أعْلَمُ"[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أثْنَتِ الآيَةُ الكريمةُ عَلَى عَدَدٍ آخَرَ مِنْ عِبادِه الصّالِحينَ فقال: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ

(1) مَكّي بن أبي طالب، الهداية: 3/ 2091، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/ 51.

(2) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (اليسع)، وابن الجزري، النشر: 2/ 260.

(3) ابن كثير، البداية والنّهاية: 2/ 285.

(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كفل).

(5) ابن كثير، البداية والنّهاية: 1/ 516.

﴿وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، وإسْماعيلُ هوَ ابنُ إبْراهيمَ عليه السلام ولمْ يُذْكَرْ فيما سَبَقَ معَ أبيهِ ومَعَ أخيهِ إسْحاق، ومَعَ ابنِ أخيهِ يَعْقوبَ، اعْتِناءً خاصًّا بِشَأنِه، ولِلإشارَةِ إلَى عَراقَتِهِ في الصَّبْرِ وفي تَحَمُّلِ الشَّدائِد. واليَسَعُ هو ابنُ شافاطَ أوْ أخْطوبَ: قيلَ استَخْلَفَهُ إلْياسُ مِنْ بَعْدِه علَى بَني إسْرائيلَ، ثُمَّ مَنَحُه اللّهُ تعالى النُّبوَّةَ، وذو الكِفْلِ هوَ ابنُ أيّوبَ، بَعَثَهُ اللّهُ تعالى بَعْدَ أبيه، وكانَ مُقيمًا بِالشّام. والأكْثَرونَ علَى أنَّهُ نَبيٌّ لِذِكْرِهِ مَعَهُم. وقيلَ هوَ رَجُلٌ صالِحٌ مِنْ بَني إسْرائيلَ، ولَمْ يَكُنْ نَبيًّا، وسُمّيَ بِذَلِكَ لِأنَّهُ تَكَفَّلَ لِأحَدِ أنْبيائِهم بِالقيامِ بِالطّاعاتِ فَوَفَّى بِذَلِكَ(1).

أنبياءُ اللهِ هُمْ مَـنـاراتُ الـهُـدَى وأئـمَّـةُ الإرْشـادِ والـتَّـوْجـيـهِ والاسْتِقامَةِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ العَطْفِ:

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قوْلَه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ على قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ لِتَنْتَظِمَ هذِهِ السِلْسِلَةُ الكَريمةُ مِنْ أنْبياءِ اللّهِ الكِرام، فَوَصَلَتْ ما بينَ إبْراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ، وإسماعيلَ واليَسَعَ وذي الكِفْلِ، للإشارَةِ إلى انْتِظامِ هؤلاءِ جَميعًا في موكبِ الصَّبْرِ على المَكارِه، وتَحَمُّلِ أعباءِ الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ، وضَرْبِ الأمْثالِ لعبادِ اللّهِ أجْمَعينَ في الصَّبرِ والجهادِ في سبيلِ اللّهِ، وما أبْلَوْا في طاعَتِهِ سُبْحانَه؛ ليَتِمَّ التَّأسّي بِهِم، في سُلوكِ مَناهِجِهِمْ في الصَّبْرِ عَلَى ما يَنالُكَ في اللّهِ، والنَّفاذِ لِبَلاغِ رِسالَتِهِ(2).

انتِظامُ الأنبياءِ جَميعًا في موكبِ الصَّبْرِ، وتَحَمُّلِ أعباءِ الدَّعْوَةِ

غَرَضُ الأمْرِ ودلالتُه:

جاءَ فعلُ الأمرِ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ في قوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ على بابِه، وهوَ طَلَبُ الفِعْلِ علَى جِهَةِ الاسْتِعْلاءِ

الأمْـرُ بتَبْليـغِ أخلاقِ المرسلينَ وبـيـانِ حـالِ المصطَفَيْنَ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 171 - 172.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 220.

والإلْزامِ بِفِعْلِه، فَهوَ أمْرٌ بتبليغِ هذه القَصصِ الشَّريفَةِ للناسِ عامةً وللمُسْلِمينَ خاصَّةً، وذلكَ للاعتبارِ والاتِّعاظِ والإرْشادِ بما فيها من الأخلاقِ العاليَةِ والمناقبِ الشّافيَةِ، والأمرُ هَهُنا للنبيِّ ﷺ أصالةً ولأُمَّته تبَعًا، "وَفي ذَلكَ إشارَةٌ إلى أنَّهُ ﷺ مَأمورٌ أيْضًا بِذِكْرِ جَميعِ المَذْكورينَ في الكِتابِ؛ ولِذَلِكَ جاءَ ذِكْرُهم كُلُّهم في القُرْآنِ العَظيمِ كَما لا يَخْفى"[1].

تَوْجيهُ تَخْصيصِ الأنْبياءِ بِالذِّكْرِ:

المَـدْحُ بِمَقامِ العُبوديَّةِ الحَقَّةِ لِلّهِ تعالى والصَّبْرِ على الشَّدائِدِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ خَصَّصَ النَّظْمُ الحكيمُ مَجموعةً بِعيْنِها من أنبياءِ اللّهِ بالذِّكْرِ، وهُمَ إسماعيلُ واليسعُ وذو الكِفلِ للمَدْحِ بمقامِ العُبوديَّةِ الحَقَّةِ للّهِ والصَّبْرِ على الشَّدائِدِ، وتوجيهُ ذلكَ أنَّهُ "لَمّا تَقَدَّمَ وصْفُ مَن كانوا قَبْلَ إبْراهيمَ عليه السلام بالأوْبَةِ؛ وخُصّوا بالتَّصْريحِ؛ لِما كانَ لَهم مِنَ الشَّواغِلِ عَنْها بِكُلٍّ من مِحْنَةِ السَّرّاءِ؛ ومِحْنَةِ الضَّرّاءِ؛ وكَذَلكَ بالعُبوديَّةِ سَواءً؛ وكانَ الأمْرُ بالذِّكْرِ مَعَ حَذْفِ الوَصْفِ المَذْكورِ لأجْلِه؛ والإشارَةِ إلَيْه بالتَّلْويحِ؛ ولا مانِعَ مِن ذِكْرِه؛ دالًّا عَلى غايَةِ المَدْحِ لَهُ لِذَهابِ الوَهْمِ في تَطَلُّبِه كُلَّ مَذْهَبٍ؛ مُعَمِّمًا لِلْوَصْفِ بالعُبوديَّةِ والأوْبَةِ بها جَميعَ المَذْكورينَ؛ عاطِفًا بِما أرْشَدَ إلَيْه العَطْفُ عَلى غَيْرِ مَذْكورٍ؛ عَلى ما تَقْديرُهُ: (إنَّهم أوّابونَ) لِيَكونَ تَعْليلًا لِذِكْرِهِمْ بِما عَلَّلَ بِهِ ذِكْرَ أوَّلِ مَذْكورٍ فيهِمْ"[2].

نَوْعُ الواوِ في قَوْلِه: ﴿وَكُلٌّ﴾:

الخَيْرِيَّةُ عِلَّةُ ذِكْرِ هؤلاءِ الأنْبياءِ وتأكيدِ فَضْلِهم ومَكانَتِهم عندَ اللهِ

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ عاطِفَةً، تَحْمِلُ مَعْنَى الفاءِ التَّفْريعيَّةِ الدّالَّةِ على التَّعْليلِ، فَكأنَّ ذِكْرَ الخَيْرِيَّةِ هَهُنا تَعْليلٌ للأمْرِ المفيدِ للإلزامِ بِذِكْرِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكِرامِ، وفيها كذلكَ معنَى التَّوْكيدِ على خَيْرِيَّتِهم ومَكانَتِهم عندَ اللّهِ تعالى.

---

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 399.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 399.

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ العُمومِ (كُلٌّ):

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ استعمالَ لَفْظِ (كُلٌّ) الدّالِ على العُمومِ في قولِ اللّهِ تباركَ آلاؤه: ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، دونَ غيرِه من الألفاظِ الصّالِحَةِ في هذا المَقامِ، مثل: (وهُمْ مِنَ الأخيارِ)، وذلِكَ لإرادَةِ تَعْميمِ الوَصْفِ بالخَيْرِيَّةِ وإسباغِه على كُلِّ الأنبياءِ الكِرامِ المَذْكورينَ في السّورَةِ، أيْ: هَؤُلاءِ المَذْكورونَ في هَذِهِ السّورَةِ مِنَ الأَنْبياءِ؛ قائِمونَ بِحَقِّ العُبودِيَّةِ؛ فَهم مِن خيارِ عِبادِنا؛ مِن هَؤُلاءِ الثَّلاثَةِ ومَن قَبْلَهُمْ[1]. وثَمَّ لَطيفَةٌ أُخْرى هَهُنا، وهيَ أنَّ هذه الجُمْلَةَ ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ هيَ خِتامُ ذِكْرِ الأنبياءِ الصّابِرينَ وما لاقَوْه من شَدائِدَ، وهم: داوودُ، وسُليمانُ، وأيّوب، وإبْراهيمُ، وإسحاقُ، ويَعْقوبُ، وإسماعيلُ، واليسعُ، وذو الكِفْلِ، فَناسبَ التَّعبيرُ بلَفْظِ (كُلٌّ) شُمولَهُم أجْمعينَ، تَمْهيدًا للانتقالِ عن جزاءِ المُتَّقينَ، ووَعيدِ الطّاغينَ المُكَذِّبينَ، فجَمَعَ جميعَ الأخيارِ قُبيلَ ذكرِ جزائِهم.

جمعُ الأخيارِ قُبيلَ ذكرِ جزاءِ جميعِ المتّقين

نَوْعُ التَّنْوينِ في لَفْظِ (كُلٌّ):

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ اسْتِعْمالَ تَنْوينِ العِوَضِ في لَفْظِ (كُلٌّ) في قَوْلِه ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالإضافَةِ، وتنوينُ العوضِ يُعَوَّضُ به عَنِ المُضافِ إلَيْهِ المقطوعِ عنه[2]، إذِ الأصلُ (وكُلُّ أولَئِكَ) أيْ: وكُلُّ أولَئِكَ الثَّلاثَةِ مِنَ الأخْيارِ، فأفادَ عُمومَ الخَيْرِيَّةِ في هؤلاءِ الأنبياءِ جَميعًا، فَهُمْ - بِلا اسْتِثْناءٍ - مشْهورنَ بالفَضْلِ والإحسانِ في مقامِ الابتلاءِ.

شُهْرَةُ هؤلاءِ الأنبياءِ جَميعًا في مقامِ الخَيْرِيَّةِ

نَوْعُ ﴿مِّنَ﴾ ودَلالَتُها:

﴿مِّنَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ ليستْ تَبْعيضيّةً، بل هي بيانيَّةٌ لأنّها مسبوقةٌ بأمرٍ مُبْهَمٍ[3] وهو كلمةُ (كُلٌّ) المقطوعةِ

الأنبياءُ الكِرامُ أمْثِلَةٌ تُحتَذَى وأئمةٌ بها يُقتدى

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 399.

(2) ابن عقيل، شرح ألفيّة ابن مالك: 1/ 17.

(3) الإيجي، شرح العضد على مختصر المنتهى الأصولي ومعه حاشية السعد والجرجاني: 1/ 50.

عن الإضافةِ، ولأنّها تقتضي اتّحاد الأوّل بالثّاني[1]، إذ الكلامُ عن توصيفِ مَنْ ذَكَرَهُمُ اللّهُ قبلَ ذلك، وهمْ أولئك الرُّسُلُ الكِرامُ بأنَّهم مِنْ نوعِ عبادِ اللّهِ الّذينَ تَتَمَثّلُ فيهم الخَيْريَّةُ، وفي ذلِكَ دلالَةٌ على أنَّ اللّهَ تباركتْ آلاؤه نَصَبَ هؤلاءِ الأنبياءَ الكِرامَ صلواتُ اللّهِ وسَلامُه عليهم ليَكونوا أمْثِلَةً تُحْتَذَى في مقامِ الصَّبْرِ وبُلوغِ مقامِ الخَيْريَّةِ، فإنَّ الخَيْريَّةَ غيرُ مَحصورَةٍ في هؤلاء الأنبياءِ الأطْهارِ، ولَكِنَّهم يأْتونَ في مُقَدِّمَةِ مَنِ اصْطَفاهُمُ اللّهُ مِنْ عبادِه للتَّأسّي والاعْتِبارِ.

نكتة التَّعْريفِ بالألف واللّام:

التَّعريفُ بالألف واللّام دلالةٌ على عَراقَةِ الأنبياءِ في مقامِ الصَّبْرِ

جاءَ لَفْظُ ﴿ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ مُعَرَّفًا باللّام، وذَلِكَ دونَ التَّعبيرِ بالنَّكِرَةِ، فَلَمْ يَقُلْ: (وكُلُّهُم أخيارٌ)، للدّلالَةِ على أَنَّ كُلًّا منهم أوّابٌ بالعَراقَةِ في وصْفِ الصَّبْرِ، وبِغَيْرِ ذَلِكَ مِن كُلِّ خَيْرٍ؛ عَلى أنَّ الصَّبْرَ جامِعٌ لِجَميعِ طُرُقِ الطّاعةِ؛ فَهُمُ الَّذينَ يَجِبُ الِاقْتِداءُ بِهِمْ في الصَّبْرِ عَلى الدّينِ؛ ولُزومِ طَريقِ المُتَّقينَ[2].

(1) السّيوطيّ، نواهد الأبكار: 3/ 140.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 399.

﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص: 49 - 52]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بَعْدَ الاصطفاءِ الدُّنيويّ يأتي بيانُ الإنْعامِ وحُسنِ الجزاءِ

لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ مجموعةً من الرُّسُلِ الكِرام، مع ذكرِ أوْصافِهم التي بها نالوا الخيرَ العميمَ، والاصطفاءَ الكريمَ في الدُّنيا، ناسَبَ الانتقالُ إلى بيان ما اصطفاه اللّه تعالى لعبادِه المتّقين المستجيبين للمصطَفَينَ الأخيارِ في الآخرةِ، والآياتُ كذلكَ مِنْ باب تَرَتُّبِ الجزاءِ الحسَنِ علَى الصَّبْرِ الجميلِ على الابتلاءِ، ولَمّا بَيَّنَ ﷻ أنَّ الأنْبياءَ المُتقَدِّمينَ صَبَروا عَلى المَكارِهِ والشَّدائِدِ، فَيَجِبُ عَلَى النَّبيِّ ﷺ أنْ يَقْتَديَ بِهِمْ في هَذا المَعْنى، وأنَّهُ ﷻ بَيَّنَ في هَذِهِ الآيَةِ أنَّ مَن أطاعَ اللَّهَ كانَ لَهُ مِنَ الثَّوابِ كَذا وكَذا، ومَن خالَفَهُ كانَ لَهُ مِنَ العِقابِ كَذا وكَذا، وكُلُّ ذَلِكَ يوجِبُ الصَّبْرَ عَلى تَكاليفِ اللّه ﷻ، وهَذا نَظْمٌ حَسَنٌ وتَرْتيبٌ لَطيفٌ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَـَٔابٖ﴾ (أوب) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ الرُّجوعُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ مِنْهُ ما يَبْعُدُ في السَّمْعِ قَليلًا، والأَصْلُ واحِدٌ[2]. وآبَ فُلانٌ إلَى سَيْفِهِ، أيْ: رَدَّ يَدَهُ ليَسْتَلَّهُ. وآبَ الغائِبُ يَؤوبُ أوبًا، أيْ: رَجَعَ[3]، وهو يدورُ حولَ رجوعِ الشَّيْءِ إلى مُسْتَقَرِّهِ[4]. والأوّابُ: كَثيرُ الرُّجوعِ إلَى اللّه ﷻ مِنَ ذنبه. والأَوْبَةُ: الرُّجوع، كالتَّوْبةِ. والمآبُ: المَصْدَرُ مِنْهُ، وهو أيضًا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 401.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أوب).
(3) الخليل، كتاب العين: (أوب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أوب).

اسْمُ الزَّمانِ والمَكانِ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14][1]، وقولُه: ﴿مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النبأ: 22]؛ أي: مَرْجِعًا، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ اسْمَ مَكانٍ[2].

2) ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ (وكا) يَدُلُّ عَلَى شَدٍّ شَيْءٍ وشِدَّةٍ. مِنْهُ الوِكاءُ: الَّذي يُشَدُّ بِهِ. ومِنَ البابِ تَوَكَّأْتُ عَلَى كَذا، أي اتَّكَأْتُ، لِأَنَّهُ يَتَشَدَّدُ بِهِ ويَتَقَوَّى بِهِ. وأَوْكَأْتُ فُلانًا إيكاءً: نَصَبْتُ لَهُ مُتَّكَأً. ووَكَأَ: تَوَكَّأَ عَلَى الشَّيْءِ واتَّكَأَ: تَحَمَّلَ واعتمَدَ، فَهوَ مُتَّكِئٌ. والتُّكأةُ: العَصا يُتَّكَأُ عَلَيْها في المَشْيِ. يُقالُ: هوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصاهُ، ويَتَّكِئُ. وأَتْكَأْتُ الرجُلَ إتْكاءً إذا وسَّدْتَه حَتَّى يَتَّكِئَ[3]. والمُتَّكَأُ: المَكانُ الَّذي يُتَّكَأُ عَلَيْهِ، والمِخَدَّةُ: المُتَّكَأُ عَلَيْها، ومِنْهُ قَوْلُه تعالى: ﴿وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا﴾ [يوسف: 31]، وقالَ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطور: 20]، و﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾ [يس: 56][4]. والاتِّكاءُ: جِلْسَةُ الرّاحَةِ والتَّرَفِ. وقولُه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ يقالُ: اتَّكَأَ الرَّجُلُ، وأصلُهُ: اوْتَكا، مثلُ: (اتَّزَنَ) من (الوزن)، والتُّكَأةُ بوزنِ فُعَلَة، قالَ: وأصلُهُ وُكَأَةٌ، فَقُلِبَتِ الواو تاء، كَما قالوا تُراثٌ، وأصلُهُ: وُراثٌ، واتّكأْتُ اتِّكاءً أصلُهُ أَوْتَكَيْتَ فأُدْغِمَتِ الواو في التّاء، وشُدِّدَتْ، وأصلُ الحَرفِ: وكَّأ يوَكِّئُ تَوْكِئَةً[5].

3) ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ (قصر) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى الحَبْسِ، يُقالُ: قَصَرْتُهُ إذا حَبَسْتُهُ، وهوَ مَقْصورٌ، أيْ مَحْبوسٌ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ٧٢﴾ [الرحمن: 72]. وامْرَأةٌ قاصِرَةُ الطَّرْفِ: لا تَمُدُّهُ إلَى غَيْرِ بَعْلِها، كَأنَّها تَحْبِسُ طَرْفَها حَبْسًا[6]. والمَعْنَى المِحْوَريُّ حَبْسٌ عنِ الانْتِشارِ طولًا أوْ عَرْضًا[7]. قالَ اللّهُ سُبْحانَهُ: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن: 56]: مَعْناه أنَّهُنَّ يَقْصُرْنَ أبصارَهُنَّ علَى أزْواجِهِنَّ فَلا يَنْظُرْنَ إلَى غَيْرِهِم رِضًى بِأزْواجِهِنَّ، وقيل: مَعْناه لا يَمْدُدْنَ أعْيُنَهُنَّ إلَى ما لا يَجوزُ[8]. وقيلَ: أيْ فاتِراتُ الطَّرْفِ، وهوَ صِفَةُ مَدْحٍ في الأعْيُنِ[9].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أوب).
(2) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (أوب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكا).
(4) الرّاغب، المفردات: (تكأ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تكأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قصر).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قصر).
(8) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (قصر).
(9) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (طرف).

4) ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ (طرف) أَصْلانِ؛ فالأوَّلُ: بفتح الراء، يَدُلُّ عَلَى حَدِ الشَّيْءِ وحَرْفِهِ، والثّاني: بسكون الراء يَدُلُّ عَلَى حَرَكَةٍ في بَعْضِ الأَعْضاءِ. فالأوَّلُ: طَرَفُ الشَّيْءِ والثَّوْبِ والحائِطِ، وقَوْلُهُمْ: عَيْنٌ مَطْروفَةٌ، مِنْ هَذا؛ وذَلِكَ أَنْ يُصيبَها طَرَفُ شَيْءٍ ثَوْبٍ أَوْ غَيْرِهِ فَتَغْرَوْرِقَ دَمْعًا. وأمّا الأَصْلُ الآخَرُ فالطَّرْفُ، وهوَ تَحْريكُ الجُفونِ في النَّظَرِ. هَذا هوَ الأَصْلُ ثُمَّ يُسَمّونَ العَيْنَ الطَّرْفَ مَجازًا[1]. والطَّرْفُ: تَحْريكُ الجفْنِ، وعُبِّرَ بِهِ عن النَّظَرِ إِذْ كانَ تَحْريكُ الجَفْنِ لازِمُهُ النَّظَرُ، وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، عِبارَةٌ عَنْ إِغْضائِهِنَّ لِعِفَّتِهِنَّ[2].

5) ﴿أَتۡرَابٌ﴾ (ترب) أَصْلانِ: أَحَدُهُما التُّرابُ وما يُشْتَقُّ مِنْهُ، والآخَرُ تَساوي الشَّيْئَيْنِ. فالأوَّلُ التُّرابُ، وهوَ التَّيْرَبُ والتَّوْرابُ. ويُقالُ تَرِبَ الرَّجُلُ إِذا افْتَقَرَ كَأَنَّهُ لَصِقَ بِالتُّرابِ، وأَتْرَبَ إِذا اسْتَغْنَى، كَأَنَّهُ صارَ لَهُ مِنَ المالِ بِقَدْرِ التُّرابِ، وأمّا الآخَرُ فالتِّرْبُ الخِدْنُ، والجَمْعُ أَتْرابٌ[3]. وقَوْلُه جل شأنه: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾، أي: لِداتٌ، تَنْشَأْنَ مَعًا، تَشْبيهًا في التَّساوي والتَّماثُلِ بِالتَّرائِبِ الَّتي هيَ ضُلوعُ الصَّدْرِ، أَوْ لِوُقوعِهِنَّ مَعًا عَلَى الأَرْضِ، وقيلَ: لأَنَّهُنَّ في حالِ الصِّبا يَلْعَبْنَ بِالتُّرابِ مَعًا[4]. وقيلَ: أترابٌ لِأَزْواجِهِنَّ، وهوَ أَكْثَرُ أُلْفَةً[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـعـدُّدُ أنـواعِ النَّعيمِ في جناتِ الخلدِ المقيمِ المُعَدَّةِ للصّابرينِ المتَّقينَ

بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ النَّظْمُ الحكيمُ بعضًا مِنْ صِفاتِ أنبياءِ اللّهِ الصّابرينَ على البلاءِ، ومَدَحَهُم وأعلى من شأنِهم للاقتداءِ والتَّأسِّي بِهِم، شَرَعَ في بيانِ ما أَعَدَّ اللّهُ لَهُم لِمَنْ سارَ على دَرْبِهِم مِنَ المُتَّقينَ الأخيارِ مِنْ حُسنِ المَرْجِعِ الَّذي يَرْجِعونَ فيهِ في الآخِرَةِ إلى رِضْوانِ اللّهِ ونَعيمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(2) الرّاغب، المفردات: (طرف).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(4) الرّاغب، المفردات: (ترب).
(5) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (ترب).

جَنَّتِه، فَهُم فيها مُتَّكِئونَ عَلَى الأرائِكِ والأسِرَّة، يَطْلُبون ما لَذَّ وطابَ مِمّا شاؤوا مِن أنْواعِ الفاكِهَةِ الكَثيرَةِ المُتَنَوِّعَة، وأنْواعِ الشَّرابِ الكَثيرِ العَذْبِ الطَّيِّبِ، وبَعْدَ وصْفِ المَسْكَنِ والمَأْكولِ والمَشْروب، ذَكَرَ اللّٰهُ تعالى ما يُمَتَّعونَ بِهِ مِنَ الأزْواجِ الطَّيِّبات، فأبانَ أنَّ لَهُم زَوْجاتٍ قاصِراتٍ طَرْفَهُنَّ على أزْواجِهِنَّ، لا يَنْظُرْنَ إلَى غَيْرِهِم، وهُنَّ لِداتٌ مُتَساوياتٌ في السِّنِّ، مُتَساوياتٌ في الحُسْنِ والجَمالِ، يُحِبُّ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا، فَلا تَباغُضَ ولا غيرَةَ عِنْدَهُنَّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ فَصْلِ الخِطابِ أوْ الانْتِقالِ الاقْتِضابيِّ:

إثــارَةُ انـتـبـاهِ السّامِعِ لِلخبرِ المذكورِ وتحفيزُ الذّهنِ لأهميّته

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ فَصَلَتْ جُمْلَةُ: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ﴾ الكَلامَ السّابِقَ عَنِ الكَلامِ الآتيَ بَعْدَها، قَصْدًا لِانْتِقالِ الكَلامِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مِثْلُ جُمْلَةِ: (أمّا بَعْدُ)، ومِثْلُ اسْمِ الإشارَةِ المُجَرَّدِ نَحْوَ: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ وقَوْلِه: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30]. وهو كَما يَقولُ الكاتِبُ إذا فَرَغَ مِن فَصْلٍ مِن كِتابِهِ وأرادَ الشُّروعَ في آخَرَ: (هَذا وقَدْ كانَ كَيْتَ وكَيْتَ). وهَذا الأُسْلوبُ مِنَ الانْتِقالِ هو المُسَمّى في عُرْفِ عُلَماءِ الأدَبِ بِالاقْتِضابِ[2]، وهو طَريقَةُ العَرَبِ ومَن يَليهِمْ مِنَ المُخَضْرَمينَ، ولَهم في مِثْلِهِ طَريقَتانِ: أنْ يَذْكُروا الخَبَرَ كَما في هَذِهِ الآيَةِ، وقَوْلِ المُؤَلِّفينَ: (هَذا بابُ كَذا)، وأنْ يَحْذِفوا الخَبَرَ لِدلالَةِ الإشارَةِ عَلى المَقْصودِ، كَقَوْلِهِ تعالى ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30]. وإنَّما صُرِّحَ بِالخَبَرِ في قَوْلِه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌۚ﴾ لِلاهْتِمامِ بِتَعْيينِ الخَبَرِ، وأنَّ المَقْصودَ مِنَ المُشارِ إلَيْهِ التَّذَكُّرُ والاقْتِداءُ، فَلا يَأْخُذُ السّامِعُ اسْمَ الإشارَةِ

(1) الزُّحَيْليّ، التّفسير المنير: 23/ 216.

(2) الزَّمَلْكانيّ، التِّبيان في علم البيان، ص: 184، والعَسْكَريّ، الصِّناعتين، ص: 39، والقَزْوينيّ، الإيضاح، ص: 307، والتخليص: 432 ، وابن الأثير، المَثَل السّائر: 3/ 139.

مَأْخَذَ الفَصْلِ المُجَرَّدِ والانْتِقالِ الاقْتِضابيِّ، مَعَ إرادَةِ التَّوْجيهِ بِلَفْظِ ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ بِتَحْميلِهِ مَعْنى حُسْنِ السُّمْعَةِ، أيْ: ذِكْرٌ لِأولَئِكَ المُسَمَّيْنَ في الآخَرينَ مَعَ أنَّهُ تَذْكِرَةٌ لِلْمُقْتَدينَ عَلى نَحْوِ المَعْنَيَيْنِ في قَوْلِهِ تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف: 44][1].

دَلالَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ لِلقَريبِ:

إرشادُ الأذهانِ إلى جزاءِ المصطفينَ في الجنانِ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ اسْتِعمالَ اسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ للقَريبِ[2]، لتحسُنَ المقابلةُ بين قُربِ ذِكْرِ أخبارِ الابتلاءِ وحسنِ بلاءِ أنبياءِ اللّهِ تعالى؛ في تَحَمُّلِ الابتلاءِ، والقوَّةِ في طاعَةِ اللّهِ والسَّعْيِ في مَرْضاته تعالى، وبين قربِ الجزاءِ بالنَّعيمِ المُقيم، فإنَّ اللّهَ تعالى أوْفَى من وعَدَ، وأكرمُ مَنْ أعْطى، فهي إشارةٌ إلى معنًى قريبٍ سابقٍ ذكرُه، ليكون حاضرًا في الأذهانِ عند ذكرِ نعيمِ الجنانِ.

تَعْيينُ مَرْجِعِ اسْمِ الإشارَةِ:

تعدُّدُ مرجعِ الإشارةِ من بلاغةِ القرآنِ واكتنازِ ألفاظِهِ بِالمَعاني المُتَكاثِرَةِ

يحتملُ عَوْدُ مرْجِعِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ إلى مَن مَضى ذِكرُه مِنَ الأنْبياءِ، "أيْ: ما تَلَوْناهُ عَلَيْكَ مِن أُمورِهِمْ؛ وأُمورِ غَيْرِهِمْ"[3]، وهو احتمالٌ قائمٌ على ظاهرِ النّظمِ والسّياق، ويحتملُ أن ترجعَ الإشارَةُ بـ﴿هَٰذَا﴾ إلى القُرْآنِ، أي: القُرْآنُ ذِكْرٌ[4]، وهو احتمالٌ مُنتَزَعٌ من إجمالِ البيان، والاحتمالانِ لا يتعارضان، فإنَّ المذكورَين في البيانِ إنّما وردَ ذكرُهم في القرآنِ، ويحتمل أن تكونَ الإشارةُ إلى ما احتواهُ لفظُ ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ من معنى الشَّرفِ، أيْ: شَرَفٌ تُذْكَرونَ بِهِ أبَدًا[5]، وهو احتمالٌ لا يتعارضُ مع المتقدِّم؛ فإنَّ أعظمَ شرفٍ ناله البشرُ هو القرآن الكريم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.

(2) الملك المؤيَّد، الكُنّاش: 1/ 263.

(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 400.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 166.

علَّة فصْلِ الآيةِ:

جاءَ قولُ اللّهِ تباركت آلاؤه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ اسْتِئْنافًا ابْتدائيًّا لِلتَّنْويهِ بِشَأْنِ القُرْآنِ راجعًا إلى غَرَضِ قَوْلِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص: 29][1].

بلاغةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ دونَ رَديفاتِها:

جمعُ معاني الشّرفِ الماضي والحاضر والآتي إلى يومِ الدّين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ التَّعبيرَ بِمُفْرَدَةِ (الذِّكْرِ) دون مُرادِفاتِها، فَلَمْ يَقُل: (هذ بيانٌ)، أو غيرِها ممّا قد يَصْلُحُ في هذا المقام، وذلك لأنَّ مُفْرَدَةَ (الذِّكْرِ) تَحمِلُ في طيّاتِها، وفي هذا السياقِ تَحْديدًا، ظِلالًا كثيفَةً من المعاني، فَهي قدْ تكونُ بِمعْنَى القُرْآنِ كما سَبَقَ، وقد تكونُ بِمَعْنَى التَّذْكيرِ والاعْتِبارِ، وقد يكونُ المَقْصودُ بها أنَّ لهؤلاءِ الأنبياءِ المذْكورينَ شَرَفًا وثَناءً جَميلًا يُذْكَرونَ بِهِ أبَدًا، أو هو شَرَفٌ في الدُّنْيا؛ ومَوْعِظَةٌ من ذِكْرِ القُرْآنِ ذي الذِّكْرِ[2]، وجميعُ هذه المعاني التي يحتملُها النَّظم مقبولةٌ، وإنَّ اختيارَ هذه المفردةِ لبيانِ أنَّها جمعتِ الشَّرفَ المُشارَ إليه في سيَرِ المصطَفَينَ، والشّرفَ المُرادَ في القرآنِ الكريمِ، والشّرفَ المضروبَ في العالمين إلى يوم الدّينِ.

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

المصطفون قادةُ الأتقياءِ، ونخبةُ الأولياء

تحتملُ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أنْ تَكونَ عطفًا على الجملة قبلها؛ كأنَّه قيل: هذا شرفٌ لهم في الدنيا، وإنَّ لهم في الآخرةِ لحسنَ مآب، وتحتملُ أن تكونَ من قبيل عطفِ القصَّة على القصَّة[3]، ويَجوزُ أنْ تَكونَ واوَ الحالِ[4]، والأوْلى أن تكونَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.

(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 579، والبقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 400، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281، ودَرْوَزة، التّفسير الحديث: 2/ 334.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.

من بابِ عطفِ القصَّةِ على القصَّة، لِما بينهما منَ التّلازُمِ والتّتابُعِ؛ فإنَّ شأنَ المصطفَينَ أن يكونوا قادةَ الأتقياءِ، ونخبةَ الأولياء.

التَّقوى هي معيارُ قَبولِ الأعمالِ لدخولِ الجنّات

تَوْجيهِ تَخْصيصِ المتَّقينَ بالذِّكْر:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ المتَّقون الّذين اتَّقَوُا اللّهَ فخافوه بأداءِ فرائضِه، واجْتناب معاصيه[1]، وقد خصَّ النَّظْمُ الحكيمُ أصحاب صِفَةِ التَّقْوى بالذِّكرِ دونَ غَيْرِهم؛ والَّتي يتَّصِفُ بِها الصّابِرونَ من الأنبياءِ وأتباعِهم، لِأنَّ التَّقوى هي أصلُ الصَّبرِ، وسرُّ الثّبات، وهي الموصلةُ إلى المطلوبِ على اليقين، فإنَّ الصّبرَ بلا تقوى، كشجرٍ بلا ثمر، وكسحابٍ بلا مطر.

اختصاصُ المتَّقينَ بالخلودِ في جناتِ النَّعيمِ

نَوْعُ اللّامِ ودلالتُها:

جاءَتِ اللّامُ جارَّةً في كلمةِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لإفادَةِ مَعْنى الاختصاص، أيْ: لَهم حُسْنُ مَآبٍ يَوْمَ الجَزاءِ[2]، فَهَؤُلاءِ المُتَّقونَ قَدِ اسْتَحَقّوا الخلودَ في الجنَّةِ - فَضْلًا من اللّهِ - جَزاءً على صَبْرِهم على ما ابْتَلاهُمُ اللّهُ به منْ أصْنافِ الابْتِلاءاتِ الشَّديدَةِ، الَّتي تَحَمَّلوها في ذاتِ اللّهِ حتَّى صاروا قُدواتٍ تُحْتَذَى من أتْباعِهم المؤْمنينَ، فَلَحِقوا بِهِم على دَرْبِ الخلودِ في جناتِ النَّعيمِ.

الإشارةُ إلى جَميعِ العَريقينَ في التَّقْوى الَّذينَ يَلْزَمونَ الصِّراطَ المُسْتَقيمَ

مَعْنى تعريفِ لَفْظِ (المتَّقينَ):

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ جاءَ النَّظْمُ الحكيمُ بتَعْريفِ كَلِمَةِ (المُتَّقينَ) باللّام، والمُرادُ بـ(المُتَّقينَ) إمّا الجِنْسُ، والأنبياءُ المَذْكورنَ في السورةِ الكريمَةِ داخِلونَ فيهِ دُخولًا أوَّلِيًّا، وإمّا نَفْسُ المَذْكورينَ؛ عَبَّرَ عَنْهم بِذَلِكَ مَدْحًا لَهم بالتَّقْوى الَّتي هي الغايَةُ القُصْوى في الكَمالِ[3]. فاللامُ هَهُنا إشارَةٌ إلى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 281.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.

جَميعِ العَريقينَ في وصفِ التَّقْوى؛ الَّذين يَلْزَمونَ - لِتَقْواهُمْ - الصِّراطَ المُسْتَقيمَ[1].

غَرَضُ تَقْديمِ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ علَى اسْمِ (إنَّ):

الأصل في التَّقديم توجيه العناية والاهتمام بما قُدِّم

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ الجارَّ والمَجْرورَ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على اسم (إنَّ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، للاهْتِمامِ بِذِكْرِ المُتَّقينَ، وللإشادَةِ بعراقَتِهِم في بابِ التَّقْوى، إذِ التَّقديم في الأصل للعنايةِ والاهتمام[2].

بَلاغَةُ التَّوْكيدِ:

تَعَدُّدُ وسائل التَّوكيدِ دليلٌ على حقيقةِ ما أعدَّ اللّهُ للمُتَّقينَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أكَّدَ البيانُ القُرْآنيُّ المَعْنَى بعَدَدٍ من المُؤَكِّداتِ، للمُبالَغَةِ في تَرسيخ جزاءِ المُتَّقينَ في نفوسِ المُتَلَقّينَ، فعَبَّرَ بالجُمْلَةِ الاسميَّة، الَّتي تُفيدُ الثَّباتَ والدَّوامَ، ثُمَّ جاءَ بـ(إنَّ) المُؤَكِّدَةِ لِمَضمونِ الجُمْلَةِ، لِتَرْسيخِ المَعْنَى وتأْكيدِه، ثُمَّ أدْخَلَ لامَ التَّوكيد، ثُمَّ نُقِلَتْ منْ صدارَةِ الجُمْلَةِ بالتَّقديمِ والتَّأْخير.

وأساليبُ التَّوكيد في اللّغة العربيّة، منها ما يكون تنبيهًا للسّامع، وما يكون توكيدًا للخبر، وما يكون تقويةً للرّغبة[3]، وما يكون للمبالغة في الوصف، كما هو الحال هنا؛ إذ جاء تَعَدُّدُ أساليبِ التَّوكيدِ للدَّلالةِ على حقيقةِ ما أعدَّ اللّهُ للمُتَّقينَ، ليَتَرَسَّخَ في نُفوسِهم وقُلوبِهم هذا الوعْدُ الجميلُ، فَيَصْبِروا على مَشاقِّ الدَّعْوَةِ إلى اللّهِ.

نُكْتَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿لَحُسْنَ﴾:

نعيمُ الجنَّةِ ممّا يُسْتَحْسَنُ في العقل والحسِّ، وهوَ أدْخَلُ في التَّمَتُّعِ بِلَذائِذِ الجنَّةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن استعمالِ لَفْظِ (خير مآبٍ) إلى (حُسْنَ مَآب) وذلك لأنَّ الحُسْنَ: عِبارَةٌ عنْ كُلِّ مُبْهِجٍ مَرْغوب فيه، وذَلِكَ ثَلاثَةُ أضْرُبٍ: مُسْتَحْسَنٌ منْ جِهَةِ العَقْلِ، ومُسْتَحْسَنٌ منْ جِهَةِ الهَوَى، ومُسْتَحْسَنٌ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.

(2) السَّامرّائيّ، أسرار البيان: 21.

(3) الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة: 6/ 1/ 195.

مِنْ جِهَةِ الحِسِّ، وأمّا الخَيْرُ فَهوَ ما يَرْغَبُ فيهِ الكُلُّ، كالعَقْلِ مَثَلًا، والعَدْلِ، والفَضْلِ، والشَّيْءِ النّافِعِ[1]. فجاءَ البيانُ القُرْآنيُّ بلفظِ (الحُسْنِ) لأنَّ نعيمَ الجَنَّةِ مِمّا يُسْتَحْسَنُ في الأحوالِ الثَّلاثَةِ، وهوَ أَدْخَلُ في الحِسِّ والتَّمَتُّعِ بِلَذائِذِ الجنَّةِ، وهوَ أنسبُ لِما ذُكِرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِن نَيلِ المُتَعِ الطَّيِّبَةِ مِنَ المَطْعَمِ والمَشْرَبِ والزَّوجاتِ الحِسانِ في الجنَّةِ.

دَلالَةُ إضافَةِ ﴿لَحُسۡنَ﴾ إلَى ﴿مَـَٔابِ﴾:

تكثيرُ المعنى، والدَّلالةُ على غزارته

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابِ﴾ وصْفَ (الحُسنَ) إلى المآب، مِنْ بابِ إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ؛ لتكثيرِ المعنى، وللدّلالةِ على غزارته، وذلك إمّا بالتَّأْويلِ كقولنا: (مَآبٍ ذي حُسْنٍ)، وإمّا بِدونِ هذا التَّأويل، بل قَصْدًا مباشرًا لِلْمُبالَغَةِ[2].

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿مَـَٔابِ﴾:

الاتِّساقُ اللَّفظيُّ والدّلاليُّ أصلٌ في الاجتباءِ والاختيارِ

آثر النَّظم الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿مَـَٔابِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابِ﴾ دونَ غَيْرِها من الألفاظِ الَّتي تَصْلُحُ في هذا المقامِ مثلُ (ثَواب) الَّتي ورَدَت في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]، وذَلِكَ لأنَّ المآبَ هوَ المَرْجِعُ، وإضافةُ (حُسْنُ) إلى ﴿مَـَٔابِ﴾ هي مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها، أيِ المآبُ الحَسَنُ، وهو الجنّة[3]، ففيه إشارَةٌ إلى أنَّ عاقِبَةَ الابتلاءِ الرُّجوعُ إلى اللّهِ، وأنَّ ما عِنْدَ اللّهِ تَعْويضٌ عَمّا لاقاه هؤلاءِ الأنبياءُ الكِرامُ وأتْباعُهم من مصائِبَ في الحَياةِ الدُّنيا. وفيه إشارَةٌ كذلكَ إلى أنَّ ما فَعَلَه هؤلاءِ الكِرامُ - مِمّا هوَ خِلافُ الأَوْلَى - لا يحولُ دونَ حُسنِ الرُّجوعِ وكَرَمِ الاستِقْبالِ في الآخِرَةِ. كَما أنَّ بينَ لفظِ (المآبِ)

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن) و(خير).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.
(3) مَجْمَع البحوث، التّفسير الوسيط، ص: 529.

ولفْظِ (الأوّابِ) رابطًا مَتينًا من حُسنِ الاتِّساقِ والانْسِجامِ، فكُلُّ عبْدٍ أوّابٍّ في الدُّنيا مآبُه إلى جنّاتِ الخلودِ.

بَلاغَةُ البَيانِ بَعْدَ الإجْمالِ:

في الإجمالِ تَشْويقٌ وإثارةٌ، وفي البيانِ إقْناعٌ وإمْتاعٌ

يَحْتَمِلُ قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أن يكونَ بَدَلَ اشْتِمالٍ، سواءٌ أكانت مَعْرِفَةً أم نِكرَةً؛ لأنَّ المَعْرِفَةَ تُبْدَلُ من النَّكِرَةِ، والنَّكِرَةَ تُبدَلُ منَ المعرفَةِ، ويَحْتَمِلُ أن يكونَ عطْفَ بيانٍ إنْ كانتْ نَكِرَةً فَحَسب، ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ نَصْبًا عَلى المَدْحِ، أو مفعولًا به لفعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه (أعني)[1]، وعلى هذه الاحتمالاتِ في الإعرابِ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ يكونُ بيانًا لقولِه تعالى: ﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٍ﴾، ذلكَ أنَّه سُبْحانَهُ لمّا شَوَّقَ إلى هَذا الجَزاءِ؛ أبْدَلَ منهُ؛ أوْ بَيَّنَهُ بِقوْلِه: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾؛ أيْ: إقامَةٍ في اسْتِمْراءٍ؛ وطيبِ عَيْشٍ؛ ونُموٍّ؛ وامْتِلاءٍ؛ وشَرَفِ أصْلٍ[2]، وما ألطفَ البيانَ بعد الإجمالِ، لا سيّما في أمورِ الغيبِ، والوعدِ بالنَّعيمِ المقيمِ.

غَرَضُ جَمْعِ ﴿جَنَّٰتِ﴾:

إفادَةُ التَّكثيرِ والتَّنوُّعِ لِتَعدُّدِ مراتِبِ الصّابِرينَ

جاءَتْ كلمةُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ جَمْعًا لإفادَةِ التَّكْثيرِ، وللتَّرْغيبِ في هذا الثَّوابِ العَظيمِ، وللحَثِّ على سلوكِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ. والجَنَّةُ تَأْتي في القُرْآنِ مَجْموعَةً وتَأْتي مُفْرَدَةً، فإذا عبَّر عنها بالجنّةِ مُفرَدةً فالمرادُ بها الجِنسُ، وإذا عبّر عنها بالجمعِ فالمراد بها أنواعُها[3]، فَباعْتِبارِ الجِنْسِ هيَ جَنَّةٌ واحِدَةٌ، وباعْتِبارِ الأنْواعِ هيَ جِنانٌ، وفي جمْعِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ بيانٌ لِسَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، وأنَّ الإنْعامَ والتَّفَضُّلَ إنَّما هوَ الأصْلُ الَّذي يَكونُ فيهِ العبدُ الطّائِعُ الصابرُ على الابتلاءِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ الجَمْعُ راجِعًا إلى تَعَدُّدِ الدّاخِلينَ فيها من أهل الإيمانِ،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 166، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203، والخطيب، التّفصيل: 23/ 291.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(3) العثيمين، تفسير العثيمين: 2/ 269.

وتَفاوُتِ مراتِبِهم في مقامِ الصَّبْرِ على الابْتلاءِ، فَلا يكونونَ جَميعًا في جَنَّةٍ واحِدَةٍ على دَرَجَةٍ واحِدَةٍ، بلْ يَكونونَ في مراتبَ مُتَفاوِتَةٍ، ويَكونُ الأُنْسُ بينَهم بالتَّزاوُرِ فيما بيْنَهم.

دَلالَةُ إضافَةِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلَى لَفْظِ ﴿عَدۡنٍ﴾:

جنّاتُ عدنٍ من مبتكراتِ القرآنِ اللفظيّةِ الدّالّةِ على معنًى مخصوصٍ

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ لَفْظَ ﴿عَدۡنٍ﴾ إلى ﴿جَنَّٰتِ﴾، وفي هذه الإضافَةِ قولانِ، الأولَ أن تكونَ ﴿عَدۡنٍ﴾ مِنَ الأعْلامِ الغالِبَةِ غَلَبَةً تَقْديريَّةً، ولُزومُ الإضافَةِ فيها أوْ تَعْريفُها بِاللّامِ أغْلَبيٌّ، فـ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ كـ(مَدينَةِ طيبَةَ)، وقيلَ: العَلَمُ مَجْموعُ ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ وهو أيْضًا مِن غَيْرِ الغالِبِ؛ لأنَّ المُرادَ مِنَ الإضافَةِ الَّتي تُعَوِّضُها العَلَمُ بِالغَلَبَةِ إضافَةٌ تُفيدُهُ تَعْريفًا. والآخَرُ: أنَّ (عَدْنًا) مَصْدَرُ (عَدَنَ) بِمَكانِ كَذا اسْتَقَرَّ، ومِنهُ المَعدِنُ لِمُسْتَقَرِّ الجَواهِرِ ولا عَلَميَّةَ ولا نَقْلَ هُناكَ، ومَعْنى ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ جَنّاتُ اسْتِقْرارٍ وثَباتٍ[1]، وهذه الإضافةُ أصبحتْ علمًا تركيبيًّا على الجنّاتِ الخالدةِ التي أعدَّها اللّهُ تعالى لعبادِهِ المؤمنين، ولا ينصرف عند الإطلاقِ لغيرِها، وهي من مُبْتَكَراتِ القرآنِ اللّفظيّةِ الدّالّة على معنًى مخصوصٍ.

فائدةُ اختيارِ لَفْظِ ﴿عَدۡنٍ﴾ دونَ لَفْظِ (الخُلودِ):

الجَمْعُ بينَ استقرارِ حالِ أهلِ الجنَّةِ ودوامِ محلِّهم

آثر النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ إضافَةَ لفظِ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى لَفْظِ ﴿عَدۡنٍ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالعَدْنِ الثَّباتُ والاسْتِقْرارِ، ولَمّا كانَتِ السورةُ تُشيرُ إلى تَقَلُّبِ أحْوالِ الأنبياءِ الكرامِ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليهم بينَ الابتلاءِ بالمَرَضِ وفقدِ الغنى وتَحَوُّلِ الأمورِ، والتّنقّلِ بين البلادِ جاءَ التَّعبيرُ بـ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ إشارَةً إلى ثباتِ حالِهم واستقرارِ نَعيمِهم دونَ تَحَوُّلٍ أو تَغَيُّرٍ، كما يستقِرُّ المَعْدِنُ في باطنِ الأرضِ، أو يستريضُ الماءُ في بطونِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 203.

الأَوْدِيَةِ[1]، فهم لن يتحوّلوا عن الجنّةِ، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ [الكهف: 108]؛ فحالُ أهل الجنّةِ الخلود، والجنَّةُ باقيةٌ دائمةٌ، فجمع هذا اللفظُ بين استقرارِ الحالِ والمحلّ.

فائدةُ صيغَةِ المُبالَغَةِ ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾:

الإشارةُ إلى كثرة الأبـوابِ ويُسْرِ فتحِها وجميل الاستِقْبالِ

في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ استعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ صيغةَ المُبالغةِ ﴿مُّفَتَّحَةٗ﴾، أيْ أنّها تُفْتَحُ تَفْتيحًا كَثيرًا وبَليغًا؛ مِن غَيْرِ أنْ يُعانوا في فَتْحِها شَيْئًا مِن نَصَبٍ؛ أوْ طَلَبٍ؛ أوْ تَعَبٍ. وأشارَ جَعْلُ هَذا الوَصْفِ مُفْرَدًا إلى أنَّ تَفْتيحَها عَلى كَثْرَتِها كانَ لَهم في آنٍ واحِدٍ؛ حَتّى كَأنَّها بابٌ واحِدٌ[2]، ففي الصّيغةِ إيماءٌ إلى كثرتِها، ويُسرِ فتحِها، كَما أنَّ في اسْتِعْمالِ صيغَةِ المُبالَغَةِ إشارَةً إلى كَمالِ الحَفاوَةِ، وحُسْنِ الإكرام، وجميلِ الاستِقْبالِ الَّذي تَتَلَقّى به الجَنَّةُ هؤلاءِ المُتَّقينَ الكرامَ بفضلِ اللّهِ ورَحْمَتِه، فَهي على أتّمِ استِعْدادٍ لاستقبالِ خيرَةِ خلق اللّهِ. فالمَلائكَةُ الموَكَّلونَ بالجنانِ إذا رَأَوْا صاحِبَ الجَنَّةِ فَتَحوا لَهُ أَبْوابَها وحَيَّوْهُ بالسَّلام، فَيَدْخُلُ كَذَلِكَ مَحْفوفًا بالمَلائِكَةِ عَلى أعَزِّ حالٍ وأجْمَلِ هَيْئَةٍ، كَما قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزُّمَر: 73]. وقدْ يَكونُ المُرادُ من هَذا الفَتْحِ، وصْفُ تِلْكَ المَساكِنِ بالسَّعَةِ، ومُسافَرَةِ العُيونِ فيها، ومُشاهِدَةَ الأحْوالِ اللَّذيذَةِ الطَّيِّبَةِ[3].

نَوْعُ اللّامِ ودَلالَتُها:

اختصاصُ المُتَّقينَ بِـكُـلِّ أسْـبـابِ النَّعيمِ والرّاحَةِ والرَّفاهيَةِ

اللّامُ في قَوْلِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ للاختصاصِ، بالمِلْكيَّةِ والاستِحْقاقِ[4]، فالأبوابُ فُتِّحَتْ لهُم قبل

(1) ابن منظور، لسان العرب: 13/ 279.
(2) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 402.
(4) الزّجاجيّ، كتاب اللّامات، ص: 62.

مجيئهم على وجهِ الخُصوصِ، لا أنَّها فُتِّحَتْ ثُمّ دَخلوها، بل كانت قد فُتِّحت لهم؛ فجاوؤا فدخلوها؛ فَهَؤُلاءِ المُتَّقونَ قدَ اخْتَصَّهُم اللّهُ بِكُلِّ أَسْبابِ النَّعيمِ والرّاحَةِ والرَّفاهيَةِ جَزاءً على صَبْرِهم على ما ابْتَلاهُمُ اللّهُ بِه مِنْ أَصْنافِ الابْتِلاءاتِ الشَّديدَة، فصارَ هؤلاءِ الأنبياءُ قُدواتٍ تُحْتَذَى على دَربِ الخلودِ في جنّاتِ النَّعيمِ.

فائدةُ تَقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ:

مزيدُ العِنايَةِ بالمُتَّقينَ والاحتفاء بِهِم، وتَخْصيصُهُم بهذِه المَكْرُمَةِ

قَدَّمَ البيانُ القُرْآنيُّ الجارَّ والمَجْرورَ ﴿لَّهُمُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ وكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ أنْ يتأخَّرَ فيقولُ: (جناتِ عَدنٍ مفتَّحةً الأبوابُ لَهُم)، وقد عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ ذلكِ إلى تقْديمِ الجارِّ والمَجْرورِ لبيانِ مزيدِ العِنايَةِ بهؤلاءِ المُتَّقينَ وللاحتفاءِ بِهِم، وتخصيصِ هذه المَكْرُمَةِ بِهِم لا بَغيرِهم، حَتّى إذا قَرَّ في نفوسِ المؤمنينَ في دارِ الابتلاءِ مِقْدارُ ما أعدَّ اللّهُ لَهم من التَّكْرِمَةِ في الآخرةِ لمْ يَنْدَموا على ما فاتَهُم من نعيمِ الدُّنيا، لاختصاصِ النَّعيمِ في الآخِرَةِ لهم دونَ سِواهُم. وكذَلكَ فَمِنْ مَزيدِ الإكرامِ ألّا "يَلْحَقَهُم في دُخولِها ذُلُّ الحُجّابِ؛ ولا كُلْفَةُ الاسْتِئْذانِ؛ بل تَسْتَقْبِلُهُمُ المَلائِكَةُ بالتَّبْجيلِ؛ والإكْرامِ"[1].

غَرَضُ جمْعِ ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾:

الإيماءُ إلى كثرةِ أبوابِ الجنّةِ وتنوّعِها

جاءَتْ كلمةُ ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ جَمْعًا لإفادَةِ التَّكْثيرِ والتَّنويعِ مَعَ أنَّها مِنْ جُموعِ القِلَّةِ؛ والسَّبَبُ أنَّ جُموعَ القِلَّةِ الَّتي لا يَأْتي مِنْها جَمْعُ تَكْسيرٍ تَبْقى عَلَى مَعْنَى التَّكْثيرِ[2]، فأبوابُ الجنَّةِ ثمانيةٌ، ولكلِّ بابٍ اسمٌ يخصُّه، وهؤلاءِ المتّقون لمّا فعلوا الخيرات، وعملوا الصّالحات، فُتِّحت لهم جميعُ الأبواب، وفي جمْعِ ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ بيانٌ لِسَعَةِ رَحْمَةِ اللّه، وأنَّ الإنْعامَ

(1) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.

(2) السيوطي، النكت على الألفية: 2/ 276، والكشاف: 2/ 300.

والتَّفَضُّلَ إنَّما هوَ الأصْلُ الَّذي يَكونُ فيهِ العبدُ الطائِعُ الصابِرُ على الابتلاءِ. ويَحْتَمِلُ أنْ يَكونَ الجَمعُ راجِعًا إلى تَعَدُّدِ الدّاخِلينَ فيها من أهل الإيمانِ، وتَفاوُتِ مراتِبِهم في مقامِ الصَّبْرِ على الابْتلاءِ، فَلا يَدْخُلونَ جَميعًا في بابٍ واحدٍ على دَرَجَةٍ واحِدَةٍ، بلْ يَكونونَ في مراتبَ مُتَفاوِتَةٍ، لأنَّ لِكُلِّ بابٍ من أبوابِ الجنَّةِ فِئَةً مَخْصوصةً تَدْخُلُ منه، فَأبْوابُ الجَنَّةِ كَثيرَةٌ بِحَسَبِ أُصولِ الطّاعاتِ(1)، فَفي ذلكَ تَرْغيبٌ في هذا الثَّوابِ العَظيمِ، وحَثٌّ على سلوكِ الطَّريقِ المُسْتَقيمِ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في طَيِّ حَدَثِ دُخولِ الجَنّاتِ:

طَــيُّ بـعـضِ الأحـداثِ يفتحُ شَـهـيَّـةَ الـفـكـرِ ويُـشـوِّقُ رغـبـةَ النّفسِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾ طَوَى النَّظْمُ الحكيمُ ذِكْرَ كيفيَّةِ دُخولِ الجنَّةِ، حيثُ شرع النَّظمُ بذكرِ الاتِّكاءِ، وما بين تَفَتُّحِ الأبوابِ والاتِّكاءِ مَطْويٌّ، وذلك للإشارَةِ إلى سُرْعَةِ تَمَتُّعِ هؤلاءِ المُتَّقينَ بِنَعيمِ الجَنَّةِ مُباشَرَةً، جَزاءَ ما لاقَوْهُ مِنَ الشَّدائِدِ والمَصائِبِ في الدُّنيا، فكانَ الإسْراعُ بِذِكْرِ النَّعيمِ تَعْويضًا لَهم عَمّا فاتَهُم في الدُّنيا، وللمُبالَغةِ في سُرعةِ إكرامِهم وحُسنِ استقبالِهم، فتَفْتيحُ الأبْوابِ كِنايَةٌ عَنِ التَّمَكينِ مِنَ الانْتِفاعِ بِنَعيمِها؛ لِأنَّ تَفْتيحَ الأبْوابِ يَسْتَلْزِمُ الإذْنَ بِالدُّخولِ وهو يَسْتَلْزِمُ التَّخْلِيَةَ بَيْنَ الدّاخِلِ وبَيْنَ الانْتِفاعِ بِما وراءَ الأبْوابِ(2)، ولما في طيِّ بعضِ الأحداثِ ما يُثيرُ في النّفسِ إلى الرّغبةِ في معرفتِها، مع التّشويقِ والتّرغيبِ في ذلك.

بلاغةُ الكنايةِ في اخْتيارِ لَفْظِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾:

الاتِّكاءُ في ظلالِ الجنانِ من أتَّمِ مظاهِرِ الرّاحَةِ والدَّعَةِ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلَفْظِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾، وذلكَ لأنَّ الاتِّكاءَ إنَّما هوَ جِلْسَةُ الرّاحةِ والتَّرَفِ، والمُرادُ هَهُنا أنَّهُم لَيْسَ لَهم شُغْلٌ سِوى

(1) الزَّبيديّ، إتحاف السّادة المتّقين: 10/ 525.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 282.

النَّعيم؛ ولا عَلَيْهِمْ كُلْفَةٌ أصْلًا[1]؛ فالمتَّكَأُ مِن مَظاهِرِ النِّعْمَةِ والتَّرَفِ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، فهي كنايةٌ عن صفةِ الرّاحةِ والاستقرارِ النّفسيِّ الذي يتمتّع به أهلُ الجنَّة، كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ [الطور: 20]، فالاتِّكاءُ من أتَمِّ مظاهرِ الدَّعَةِ والتَّرَفِ، لا تقومُ مقامَه صِفَةٌ أُخْرى كالاضطِجاعِ؛ لأنَّ الاضْطِجاعَ يَدُلُّ عَلَى لُصوقٍ بِالأرْضِ عَلَى جَنْبٍ، في دلالَةٍ على الضَّعْفِ والوهَنِ، وليس كذلك الاتِّكاءِ.

فائدةُ التّعبيرِ باسْمِ الفاعِلِ:

اتِّكاءُ أهلِ الجنّةِ ثابتٌ دائمٌ لا مؤقَّتٌ مُتبَدِّل

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الفاعِلِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ للدلالَةِ على ثباتِ حالِهم واستمرارِ نَعيمِهم في الجنَّة، فَلا تَعبَ ولا نَصبَ، بلْ هُم في راحَةٍ تامَّة، فلا يُضْطَرُّونَ للقيامِ لكسبٍ أو اجْتِلابٍ، فجمعَ اسمُ الفاعلِ بين التَّجدُّدِ والاستمرارِ والثَّباتِ والمُكْنة[2]، فاتِّكاؤهم اتّكاءُ استقرارٍ وراحةٍ، لا اتِّكاءُ مرحلةٍ زمنيةٍ مؤقَّتَةٍ يَتْبَعُها عَملٌ وجُهدٌ.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ:

أهلُ الجنَّةِ مستقرّون في نعيمِها راسخون في خيراتِها

جاءَ استِعْمالُ حرفِ الظَّرْفيَّةِ لإفادَةِ مَعْنى التَّضَمُّنِ والاحْتِواءِ[3]، فكأنَّ الجنَّةَ قدْ احْتَوتْ هؤلاءِ المُتَّقينَ وشَمَلَتْهُم فيها، فَهُم مَغْموسونَ في النَّعيمِ ظاهِرًا وباطِنًا، لا يَنْفَكّونَ عنِ التَّلَذُّذِ بهذا النَّعيمِ المُقيمِ والرّاحَةِ التامَّة، كما أنَّ حرفَ الظّرفيَّةِ يُرشِّحُ دلالةَ الاستقرارِ والثّباتِ، فهم متّكئون في الجنَّة، راسخون فيها، غيرُ متحوّلين عنها.

بَلاغَةُ جُمْلَةِ ﴿يَدۡعُونَ﴾ بينَ الحاليّةِ والاسْتِئْنافِ:

دلالةُ الفعل ﴿يَدۡعُونَ﴾ في قَوْلُه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ قيلَ: حال مِن ضَميرِ ﴿لَّهُمُ﴾، وهي حالٌ مُقدَّرة؛

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 401.
(2) السّامرّائيّ، معاني الأبنية في العربية، ص: 41، والزعبلاوي، دراساتٌ في النَّحو، ص: 482.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 58.

بيانُ حالِ المُتَّقينَ بَعْدَ دُخولِهم الجنَّةَ وتَنَعُّمِهِم فيها

لِأنَّ الاتِّكاءَ وما بَعْدَهُ لَيْسَ في حالِ تَفْتيحِ الأبْوابِ، بَلْ بَعْدَهُ، وقيلَ: حالٌ مِن ضَميرِ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾، وقالَ بَعْضُهُم: الأظْهَرُ أنَّ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَدْعُونَ﴾ قُدِّمَ رِعايَةً لِغَرضٍ بلاغيٍّ يقتضيه المعنى والسّياق، وهو قوَّةٌ في النَّظْمِ، وروعةٌ في الأسلوبِ، و﴿يَدْعُونَ﴾ اسْتِئْنافٌ لِبَيانِ حالِهِم، كَأنَّهُ قيلَ: ما حالُهم بَعْدَ دُخولِها؟ فَقيلَ: يَدْعونَ فيها بِفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ وشَرابٍ مُتَّكِئينَ فيها[1].

غَرَضُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ:

نَعيمُ المُتَّقينَ مُتَجَدِّدٌ لا يَنْقَطِعُ، فَهُم في مُتْعَةٍ تامَّةٍ لا يَمَلّونَ منها

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ المَضارِعَ ﴿يَدْعُونَ﴾ للدّلالَةِ على أنَّ نَعيمَ المُتَّقينَ مُتَجَدِّدٌ لا يَنْقَطِعُ، وأنَّهُم في مُتْعَةٍ تامَّةٍ لا يَمَلّونَ منها، فَهُم على الدَّوامِ يَطْلُبونَ فَيُجابونَ إلى ما طَلَبوا، فلا هُم يَكُفّونَ عنِ الطَّلَبِ، ولا العَطاءُ يَنْقَطِعُ بأيِّ حالٍ، فَهُم كُلَّما أرادوا أُعْطوا؛ مِن غَيْرِ مانِعٍ أصلًا؛ ولا حاجَةٍ إلى قيامٍ؛ ولا قُعودٍ؛ يُتْرَكُ بِهِ الاتِّكاءُ[2]، فَضْلًا مِن ربِّهِم، وجزاءً على صَبْرِهم على أعباءِ الدَّعوةِ ومَشاقِّ التَّكاليفِ.

بَلاغَةُ تَكْرارِ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ:

إقامةُ الاتِّكاءِ والدُّعاءِ كلٌّ منهما إقامةً مستقلَّةً في معناها ودلالتِها

كَرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرفَ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ فلم يقُل: (مُتَّكئينَ فيها يَدْعونَ بفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ وشَرابٍ)، لِأنَّ تَكْرارَ الكَلِمَةِ أحيانًا لَهُو أبْلَغُ في التَّأكيدِ مِنَ التَّأكيدِ بأدَواتِ التَّأكيدِ اللَّفظيَّةِ، وهوَ مِنْ مَحاسِنِ الفَصاحَةِ[3]، وها هُنا جاءَ لِبيانِ أنَّ اتِّكاءَهم في الجنَّةِ له حالٌ لاحقٌ له وهو أنَّهم يدعونَ فيها كذلك، فاتِّكاؤُهم ودعاؤُهم في الجنَّةِ كائنٌ مستقرٌّ راسِخٌ، لا يَنفكُّ أحدُ النَّعيمينِ عن الآخرِ، فجاءَ التَّكْرارُ لإفادَةِ مَعْنًى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 204.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.

(3) السِّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 3/ 280.

التَّوكيدِ والمُبالَغَةِ، بالإضافَةِ إلى إثباتِ مَعنًى آخرَ غيرِ المَعنى الَّذي جاءَ أوَّلًا، فالظَّرْفيَّةُ هَنا مُختَصَّةٌ بالدُّعاءِ والطَّلَبِ، في حينِ أنَّها في المَرَّةِ الأولَى واقِعَةٌ على حالِ الاتِّكاءِ، فدلَّ التّكرارُ على توكيدِ الرُّسوخِ والانغماسِ في النَّعيم.

مصاحبةُ النَّعيمِ للمُتَّقينَ فهو لا يُفارِقُهم

نَوْعُ الباءِ ودلالَتُها:

جاءَتِ الباءُ في قولِه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ للمُصاحَبَةِ والإلْصاقِ، من قَوْلِهِم: دَعا بكَذا، والتَّقْديرُ: دَعا مَدْعوًّا يُصاحِبُهُ كَذا[1]، فالنَّعيمُ لا يُفارِقُهم أصلًا، بلْ هُم في رزقٍ كريمٍ لا انتهاءَ لَهُ.

الكِنايةُ عن التّنعُّمِ الكاملِ ممّا يُدرِكُه المخاطَبون

تَوْجيهُ تَخْصيصِ الفاكِهَةِ والشَّرابِ بِالذِّكْرِ:

في قولِه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ خَصَّصَ النَّظْمُ الحكيمُ الفاكِهَةَ والشَّرابَ بالذِّكْرِ لِلْإيذانِ بأنَّ مَطاعِمَهم لِمَحْضِ التَّفَكُّهِ والتَّلَذُّذِ[2]. وهذا منْ كَمالِ التَّنَعُّمِ، فإنَّهُم لا يَطْعَمونَ عنْ جوعٍ أو عَطَشٍ، بل للتَّمَتُّعِ والتَّلَذُّذِ بنِعَمِ اللّهِ عَلَيْهِم، ومن دلائلِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ الَّتي يعرفها أهلُ الدُّنيا الفاكهةُ والشَّرابُ، فَذِكْرُ هذينِ الصِّنفينِ لبيانِ أنَّ أهلَ الجنَّةِ في غايةِ النِّعمِ التي تُنعِشُ الأبدانَ ممّا يعرِفُه أهلُ الدنيا، وعليه فيكون ذلك كنايةً عن صفةِ التّنعُّمِ البالغِ ممّا يُدرِكُه المخاطَبون.

فاكِهةُ الجنَّةِ أعظمُ وأكثرُ ممّا يخطُرُ على قلبِ متفكِّرٍ

غَرَضُ تَنْكيرِ (فاكِهَةٍ):

نُكِّر لفظُ (فاكِهَةٍ) في قولِه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ للتَّعْظيمِ، إذْ قَدْ تَأْتي النَّكِرَةُ لِهَذا المَعْنَى البَلاغيِّ كَما قَرَّرَ عُلماءُ البَلاغَةِ[3]، فَهي هنا فاكِهَةٌ عَظيمةُ المُتْعَةِ، وقدْ أفادَ التَّنْكيرُ هَهُنا التَّعْظيمَ والتَّعْميمَ؛ لِتَشْمَلَ كُلَّ أنْواعِ الفاكِهَةِ، ما عَرَفْنا مِنْها

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 282.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 204.
(3) السبكيّ، عروس الأفراح: 1/ 205.

وما لَمْ نعرِف، كَما جاءَ في الحديثِ القُدْسيِّ، عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﵁ قالَ: قالَ رَسولُ اللّه ﷺ: «قالَ اللّه: أعْدَدْتُ لِعِبادي الصّالِحينَ، ما لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(1)، كَما أنَّ مُفْرَدَةَ الفاكِهَةِ تَدُلُّ عَلَى طيبٍ واسْتِطابَةٍ واسْتِطْرافٍ، فَهي نِعْمَةٌ من اللّهِ تعالى زيادَةً في تَمَتُّعِ أهلِ الجَنَّةِ ومُبالَغةً في حُسْنِ استِقْبالِهم.

فائدةُ وصْفِ الفاكِهَةِ بالكَثيرَةِ:

توكيدُ تنوُّعِ الفاكِهَةِ وتَعَدُّدِ أصْنافِها

في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ وصَفَ البيانُ القُرْآنيُّ الفاكِهَةَ بأنَّها ﴿كَثِيرَةٖ﴾ لأنَّها تَتَنَوَّعُ، وحَيْثُما ذَكَرَ اللّهُ تعالى الفاكِهَةَ فَإنَّهُ يَذْكُرُ ما يَدُلُّ عَلَى كَثْرَتِها؛ لأنَّها لَيْسَتْ لِدَفْعِ الحاجَةِ حَتَّى تَكونَ بِقَدْرِ الحاجَةِ، بَلْ هيَ لِلتَّنَعُّمِ، فَلِهَذا وصَفَها بالكَثْرَةِ والتَّنَوُّعِ(2)، وكَثْرَتُها لاخْتِلافِ أنْواعِها وكَثْرَةِ كُلِّ نَوْعٍ منها. ورَغْمَ أنَّ لَفْظَ (فاكِهَةٍ) اسْمُ جِنْسٍ، يَشْمَلُ المُفْرَدَ والمُثَنَّى والجَمْعَ، فقدْ جاءَ الوَصْفُ بالكَثْرَةِ للتَّشْويقِ والتَّرْغيبِ فيما يَنْتَظِرُ المُتَّقينَ منْ لَذائِذِ الجنَّةِ ونَعيمِها؛ ففيه توكيدُ الكثرة.

غَرَضُ تَنْكيرِ (شَرابٍ):

جاءَ النَّظْمُ الحكيمُ بِتَنْكيرِ مُفْرَدَةِ (شَّرابٍ) لِلتَّعْظيمِ، أيْ: شَرابٌ نَفيسٌ في جِنْسِه(3)، والتَّنْكيرُ كذلكَ يُفيدُ العُمومَ، فَهو شَرابٌ كثيرٌ يَشْمَلُ كُلَّ أنواعِ الشَّراب.

فنُّ الاكتفاءِ بحذفِ صفة (شراب) وإفرادِه:

إذا تكاثرت الفاكهةُ فمثلُها الشَّرابُ متكاثرٌ

جاءَ الشَّرابُ بالإفْرادِ، دونَ الفاكِهَةِ الَّتي جاءتْ بِصيغَةِ الجَمْعِ، وذلك لأنَّ العربَ تُطلقُ الشَّرابَ على الخمرِ، وقد عقد البِقاعيُّ مقارنةً بينَ إفرادِ الشَّرابِ وجمعِ الفاكِهَةِ، وذلك أنَّ الفاكهةَ جاءَتْ جَمْعًا لأنَّها لا يُمَلُّ مِنها؛ وأنَّ الشَّراب إنَّما أُفْرِدَ

(1) الحديث رواه البخاريّ، كتاب بَدْءِ الخَلْقِ، باب ما جاء في صِفَةِ الجنّة، حديث رقم: (3280).

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 29/ 144.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 282.

لأنَّه لا يُؤْخَذُ إلّا بِقَدْرِ الكِفايَةِ؛ فَجاء دونَ الفاكِهَةِ[1]، وقد يُحمَلُ الكلامُ على الاكتفاءِ، والتَّقْديرُ: وشَرابٌ كَثيرٌ، ونكتةُ الكفايةِ في كون كثرةِ الشَّرابِ قد عُلِمَتْ من كثرةِ الفاكهةِ، فلا تتكاثرُ الفاكهةُ إلّا والشَّرابُ مثلُها متكاثِرٌ.

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

في عطفِ ذِكْرِ الحورِ العينِ على الطَّعامِ والشَّرابِ تَنْويعٌ لِمُتَعِ الجنَّةِ ولَذائِذِها

جاءتِ الواوُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ عاطِفَةً أو حاليَّةً، إذْ لَمّا كانَ الأَكْلُ والشُّرْبُ داعيَيْنِ إلى النِّساءِ؛ لا سيَّما مَعَ الرّاحَةِ[2]؛ عَطَفَ عَلَيْهِما بالامْتِنانِ بذِكْرِ الزَّوجاتِ. وكذَلكَ فإنَّ في عطفِ ذِكْرِ الحورِ العينِ على الطَّعامِ والشَّرابِ تَنْويعًا لِمُتَعِ الجنَّةِ ولَذائِذِها.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ في اسْتِعْمالِ الظَّرْفِ المضافِ للضَّميرِ:

قاصِراتُ الطَّرْفِ مُلازِماتٌ لِمَجالِسِ أهلِ الجنَّةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ ظَرْفَ المكانِ (عِنْدَ) المُفيدَ للقُرْبِ المضافَ إلى ضميرِ المتّقين، فأفادَ بأنَّ هؤلاءِ الزّوجاتِ مُلازِماتٌ لَهم في مَجالِسِهِمُ الَّتي تُدارُ عَلَيْهِمْ فيها كَأْسُ الجَنَّةِ، وكانَ حُضورُ الجَواري مَجالِسَ الشَّرابِ مِن مُكَمِّلاتِ الأُنْسِ والطَّرَبِ عِنْدَ سادَةِ العَرَبِ[3]. وفي إضافَةِ الضَّميرِ (هُم) للظَّرفِ (عِنْدَ) إشارَةٌ إلى اختصاصِ هَؤُلاءِ المُتَّقينَ بهؤلاءِ الزَّوجاتِ، وكِنايَةٌ عَنْ تَمَكُّنِهِم مِنْهُنَّ، فَهُم في سعادَةٍ تامَّةٍ وحبورٍ مُقيمٍ.

بَلاغَةُ حَذْفِ مَوْصوفِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾:

إقامةُ الصِّفةِ مقامَ الموصوفِ لبيانِ عزيزِ شأنِ هذه الصِّفَةِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ حَذَفَ البيانُ القرآنيُّ موصوفَ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، إذ إنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ، أيْ: نِساءٌ قاصِراتُ النَّظَرِ.

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 114.

فَفي حذْفِ المَوصوفُ إشارَةٌ إلى تَمَكُّنِ الصِّفَةِ في المَوْصوفِ، فلا تكادُ صِفَةُ (قَصْرِ الطَّرْفِ) تُعْرَفُ سوى في كاملاتِ الأُنوثَةِ من النِّساءِ، وفي ذلكَ مُبالَغَةٌ في وصْفِ أُنوثَتِهِنَّ وحُسْنِ تَبَعُّلِهِنَّ لأزْواجِهِنَّ، فكأنَّ هذه الصِّفة هي صِفتُهُنَّ الوحيدةُ، فأُقيمَتْ مقامَ الموصوفِ.

بَلاغةُ التَّعْبيرِ بِاسمِ الفاعِلِ المَجْموعِ جَمْعَ قِلَّةٍ:

جَمْعُ القِلَّةِ أُريدَ بِهِ الكَثْرَةَ لِأَنَّهُ أشْهَرُ وأوْضَحُ وأرْشَقُ

جاءَ التَّعبيرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ باسْتِعْمال اسم الفاعِلِ المَجموعِ جَمْعِ قِلَّةٍ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، رَغْمَ كَثْرَةِ عَدَدِ أهلِ الجنَّةِ، وذلكِ أنَّه لَمّا كانَ سياقُ الامْتِنانِ مُفْهِمًا كَثْرَةَ المُمْتَنِّ بِهِ؛ لا سيَّما إذا كانَ مِنَ العَظيمِ تعالى؛ أتى بِجَمْعِ القِلَّةِ؛ مُريدًا بِهِ الكَثْرَةَ؛ لأنَّهُ أشْهَرُ وأوْضَحُ وأرْشَقُ مِن (قَواصِرُ)؛ المُشْتَرِكُ بَيْنَ جَمْعِ (قاصِرٌ)؛ و(قَوْصَرَةٌ)؛ بِالتَّشْديدِ؛ والتَّخْفيفِ؛ لِوِعاءِ التَّمْرِ؛ فَقالَ: ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾[1]، وجمعُ القلَّة فيه من الفخامةِ ما لا يوجد في جمعِ الكثرةِ، فلا يُراد بجمعِ القلّة قلّة العددِ، وإنَّما فخامة الحالِ، واسْتَعْمَلَ اسمَ الفاعِلِ للدّلالَةِ على أنَّ هذا الوصْفَ ثابتٌ فيهِنَّ لا يتَغَيَّرُ ولا يَتَبَدَّلُ.

بلاغةُ إضافَةِ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ لِلَفْظِ ﴿ٱلطَّرْفِ﴾:

كنايةٌ عن المَحبَّةِ وكمالِ الحُسْنِ والجَمالِ

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ جاءتْ كَلِمَةُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ مُضافَةً إلى ﴿ٱلطَّرْفِ﴾، بمعنى: قاصراتٌ للطّرفِ، وذَلكَ كِنايَةٌ عَنْ مَحبَّتِهِنَّ لأزْواجِهِنَّ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعْنى: أنَّهُنَّ يَقْصُرْنَ أطْرافَ أزْواجِهِنَّ عَلَيْهِنَّ فَلا تَتَوَجَّهُ أنْظارُ أزْواجِهِنَّ إلى غَيْرِهِنَّ اكْتِفاءً منهم بِحُسْنِهِنَّ، وذَلِكَ كِنايَةٌ عَنْ تَمامِ حُسْنِهِنَّ في أنْظارِ أزْواجِهِنَّ بِحَيْثُ لا يَتَعَلَّقُ اسْتِحْسانُهم بِغَيْرِهِنَّ، وعليه فالأطْرافُ المَقْصورَةُ أطْرافُ أزْواجِهِنَّ، وإضافةُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إلَى

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 402.

﴿ٱلطَّرۡفِ﴾ مَجازٌ عَقْليٌّ إذْ كانَ حُسْنُهُنَّ سَبَبَ قَصْرِ أطْرافِ الأزْواجِ فَإنَّهُنَّ مُلابِساتٌ سَبَبَ القَصْرِ[1].

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾:

المَجازُ المُرْسَلُ لِعلاقَةِ المُلازَمَةِ بينَ تَحْريكِ الجَفْنِ ولازِمِه وهوَ النَّظَرُ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ بِمُفْرَدَةِ ﴿ٱلطَّرۡفِ﴾، والطَّرْفُ هوَ تَحْريكُ الجُفونِ في النَّظَرِ، هَذا هوَ الأَصْلُ ثُمَّ يُسَمّونَ العَيْنَ بالطَّرْفِ مَجازًا[2]، إذْ كانَ النَّظَرُ من لوازمِ تَحْريكِ الجَفْنِ، وقوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، عِبارَةٌ عن إغْضائِهِنَّ لِعِفَّتِهِنَّ[3]، وعدمِ تحريكِهِنَّ أطرافَهُنَّ إلّا لأزواجِهِنَّ، وفيه إيماءٌ إلى كمالِهِنَّ في نقائِهِنَّ من خائنةِ الأعينِ، وفي ذلكَ إثارَةٌ لَعَقْلِ المُتَلَقّي وإعْمالٌ لخيالِه في فَهْمِ المَعْنَى المُرادِ.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿أَتۡرَابٌ﴾:

خُلوصُ وجْهِ النَّعيمِ وصفاؤُه لأهلِ الجنَّةِ فلا تَعَبَ فيها ولا كَدَرَ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ باسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿أَتۡرَابٌ﴾، والتِّرْبُ الخِدْنُ، والجَمْعُ أتْرابٌ[4]، أيْ: لِداتٌ، تَنْشَأْنَ مَعًا، تَشْبيهًا في التَّساوي والتَّماثُلِ بالتَّرائِبِ الَّتي هيَ ضُلوعُ الصَّدْرِ، أوْ لِوُقوعِهِنَّ مَعًا علَى الأَرْضِ، وقيلَ: لأَنَّهُنَّ في حالِ الصِّبا يَلْعَبْنَ بالتُّرابِ مَعًا[5]، والظّاهِرُ أنَّ هَذا الوَصْفَ بَيْنَهُنَّ، فَيَكونُ في ذَلِكَ إشارَةٌ إلى مَحَبَّةِ بَعْضِهِنَّ لِبَعْضٍ وتَصادُقِهِنَّ فيما بَيْنَهُنَّ، فَإنَّ النِّساءَ الأَتْرابَ يَتَحابَبْنَ، ويَتَصادَقْنَ، وفي ذَلِكَ راحَةٌ عَظيمَةٌ لِأَزْواجِهِنَّ كَما أنَّ في تَباغُضِ الضَّرائِرِ نَصَبًا عَظيمًا، وخَطْبًا جَسيمًا لَهُمْ. وقيلَ: إنَّ ذَلِكَ بَيْنَهُنَّ وبَيْنَ أزْواجِهِنَّ، أيْ إنَّ أسْنانَهُنَّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طرف).
(3) الرّاغب، المفردات: (طرف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترب).
(5) الرّاغب، المفردات: (ترب).

كَأسْنانِهِمْ ليَحْصُلَ كَمالُ التَّحابِّ[1]. وفي ذَلِكَ دَليلٌ على خلوصِ وجْهِ النَّعيمِ وصَفائِه لأهلِ الجنَّةِ فلا تعَبَ فيها ولاكدَرَ.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿أَتْرَابٌ﴾:

جاءَتْ كلِمَةُ ﴿أَتْرَابٌ﴾ نكرةً لأنَّها صفةٌ لقاصرات، فأفادَتْ ما أفادَتْه ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ من التّفخيم والتّعظيم لشأنِهنَّ، وعظيم حالهنَّ. إذْ كثيرًا ما تأْتي النَّكِرَةُ لِهَذا المَعْنَى البَلاغيِّ كَما قَرَّرَ عُلماءُ البَلاغَةِ[2].

بَراعَةُ التَّرْتيبِ في التَّرْغيبِ بِالصِّفاتِ:

تَدَرُّجُ التَّنَعُّمِ بَدْءًا براحَةِ الجَسَدِ، ثم لَذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وانتهاءً بمتْعَةِ الجِماعِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝٥١ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾ رَتَّبَ البيانُ القُرْآنيُّ ما أعدَّه اللّهُ للمُتَّقينَ منْ أفانينِ النَّعيم، فَبَدَأَ ببيانِ راحَةِ الجَسَدِ بِنِعْمَةِ الاتِّكاءِ في ظِلالِ الجنانِ، ثُمَّ الدَّعْوَةِ بالفاكِهَةِ والشَّراب، فالتَّلَذُّذِ بِقاصراتِ الطَّرْفِ، وهذا التَّرتيبُ دالٌّ أشدَّ الدّلالَةِ على دِقَّةِ مُراعاةِ الاحتياجاتِ الإنسانيَّةِ، فَطلبُ الرّاحَةِ بَعْدَ التَّعَبِ والنَّصَبِ مُقَدَّمٌ على الرَّغْبَةِ في الطَّعامِ والشَّرابِ مَهْما بَلَغَ الجوعُ والعطشُ بالإنسانِ، وهذا مَعْلومٌ مُشاهَدٌ، فإذا استَوْفَى قِسْطًا منَ الرّاحَةِ نالَ ما تَيَسَّرَ منِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وتَحَرَّكتْ نَفْسُه لدواعي الجِماعِ والتَّلَذُّذِ بالنِّساءِ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.
(2) السبكيّ، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/ 205.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ۝٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص: 53 - 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهما:

تأكيدُ حصولِ النَّعيمِ للمُتَّقينَ والبِشارَةُ بدَوامِه

لَمّا ذَكَرَتِ الآياتُ السّابقةُ النَّعيمَ لِأَهْلِ الطّاعَةِ؛ وقدَّمَت ذَلِكَ العَذابَ لِأَهْلِ المَعْصيَةِ؛ ناسَبَ الانتقالَ إلى خطابِ المتّقين بقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾[1]، لتأكيدِ ما سيكونُ لهم كأنَّهم قد حضروه واستقبلوا القادمَ من الزّمنِ، لوثوقِ وقوعِه، ويقينِ تحقُّقِه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُوعَدُونَ﴾ (وعد) تَدُلُّ عَلَى تَرْجيَةٍ بِقَوْلٍ. يُقالُ: وعَدْتُه أعِدُهُ وعْدًا ومَوْعِدًا وميعادًا، ويكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ[2]، والمَوْعِدُ والميعادُ يَكونانِ مَصْدَرًا واسْمًا، فَأمّا الوَعيدُ فَلا يَكونُ إلّا بِشَرٍّ. يَقولونَ: أوْعَدْتُه بِكَذا. وكَذَلِكَ الإيعادُ يَكونُ في الشَّرِّ وحْدَهُ. وممّا تَضَمَّنَ الأمْرَينِ قَوْلُ اللّهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [يونس: 55]، فَهَذا وَعْدٌ بالقيامَةِ، وجَزاءُ العِبادِ إنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ[3]. والمُرادُ في الآيَةِ الوعدُ المَذْكورُ من حُسْنِ المَآبِ، أوْ توجيهُ الكَلامِ إلى أهْلِ المَحْشَرِ لِتَنْديمِ الطّاغينَ وإدْخالِ الحَسْرَةِ والغَمِّ عَلَيْهِم، والإشارَةُ إلى النَّعيمِ المُشاهَدِ[4].

2) ﴿نَّفَادٍ﴾: (نفد) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى انْقِطاعِ شَيْءٍ وفَنائِه. ونَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفادًا. وأنْفَدوا: فَنيَ زادُهُم. ويُقالُ لِلْخَصْمِ مُنافِدٌ،

---

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 403.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).

(3) الرّاغب، المفردات: (وعد).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.

وذَلِكَ أنْ يَتخاصَمَ الرَّجُلانِ يُريدُ كُلٌّ مِنْهُما إنْفادَ حُجَّةِ صاحِبِه[1]. والمُرادُ أنَّ نعيمَ الجنَّة، لا نَفادَ لَهُ، أيْ: لا انْقِطاعَ لَهُ ولا زَوالَ، وقدْ ذَكرَهُ ﷻ في آياتٍ أُخَرَ كقَوْلِهِ تعالى فيه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108] وقَوْلِه تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: 96][2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بُشرَى المتَّقينَ في يـوم الحـسـابِ بالنَّعيمِ الدّائِمِ المُقيم

تُخاطبُ الآيتان الكريمتان المتَّقين بما سيكون لهم في الآخرة: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أيْ: هذا الَّذي ذَكَرْناهُ لَكُم مِنْ نَعيم الجنّات، هوَ جَزاءُ إيمانِكُم وعَمَلِكُم الصّالِحِ من أجْلِ يَومِ الحِسابِ. ثُمَّ خَتَمَ سُبْحانَه جَزاءَهُم بِبَيانِ أنَّهُ جَزاءٌ خالِدٌ لا يَنْقَطِعُ ولا يَنْقُصُ فقالَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾. أي: إنَّ هَذا الَّذي ذَكَرْناه لَكَم - أيُّها المُتَّقونَ - مِنَ الجنّاتِ وما اشْتَمَلَتْ عَلَيهِ مِنْ نَعيمٍ، هوَ رِزْقُنا الدّائِمُ لَكُم، ولَيْسَ لَهُ مِنْ نَفادٍ أوْ انْقِطاعٍ أوْ انْتِقاصٍ[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ ونَوْعُهُ:

تأكيدُ البُشرَى السّابِقَةِ بِحُسْنِ المآبِ

جاءَ الاسْتِئْنافُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ اسْتِئْنافًا ابْتدائيًّا، فَيَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا قيلَ لِلْمُتَّقينَ وقْتَ نُزولِ الآيَةِ فهو مُؤَكِّدٌ لِمَضْمونِ جُمْلَة: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾[4]. ويَجوزُ أنْ يكونَ تَبْكيتًا للكافرينَ كَما سَيَأْتي.

تَعْيينُ مَرْجِعِ اسمِ الإشارَةِ:

الإشـــــارَةُ إلى البُشْرَى السّابِقَةِ أو إلى مـا هـوَ مُشاهَدٌ عِنْدَهم مِنَ النَّعيم

في تَعْيينِ مَرْجِعِ الإشارَةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ قَولانِ: الأوَّلُ أنَّه يعودُ على ما سَبَقَ ذِكْرُهُ مِن قَوْلِه ﴿لَحُسۡنَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نفد).
(2) الشَّنْقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 39.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 174.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.

مَـَٔابٍ﴾، فاسْمُ الإشارَةِ هُنا مُغايِرٌ لاسْتِعْمالِهِ المُتَقَدِّمِ في قَوْلِه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾، فَهو تأكِيدٌ لِما سَبَقتِ البشارَةُ به من النَّعيم للمُتَّقينَ. والثّاني: أنْ يكونَ كَلامًا يُقالُ لِلْمُتَّقينَ في الجَنَّةِ بعْدَ أنْ استَقَرَّ بهم المُقامُ فيها، فتَكونُ الجُمْلَةُ مَقولَ قَوْلٍ مَحْذوفٍ هو في مَحَلِّ حالٍ ثانيَةٍ مِنَ المُتَّقينَ، والتَّقْديرُ: مَقولًا لَهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾. والقَوْلُ: إمّا مِنَ المَلائِكَةِ؛ مِثْلُ قَوْلِهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾ [النحل: 32]، وإمّا مِن جانِبِ اللّه تعالى نَظيرُ قَوْلِه لِضِدِّهِمْ: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾ [آل عمران: 181]، والإشارَةُ إذَنْ إلى ما هوَ مُشاهَدٌ عِنْدَهم مِنَ النَّعيم[1]. وفي ذَلِكَ امْتِنانٌ من اللّهِ على عِبادِهِ المُتَّقينَ، وتأكيدٌ للبُشْرى أو تذْكيرٌ بِما هُم فيهِ من النَّعيم.

دلالةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ القَريبِ:

وَعْدُ اللهِ قَريبٌ مُتَحَقِّقُ الوقوعِ لا بُعدَ فيه ولا مَشَقَّةَ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ جيءَ باسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ الدّالِ على القَريبِ، تَنْزيلًا لِلْمُشارِ إلَيْه مَنزِلَةَ المُشارِ إلَيْهِ الحاضِرِ إيماءً إلى أنَّهُ مُحَقَّقٌ وُقوعُهُ تَبْشيرًا لِلْمُتَّقينَ[2]، وهذا على جَعْلِ الخطابِ لما سيكونُ في الآخرة، وقدْ يَكونُ استِعْمالُ اسمِ الإشارَةِ الدّالِ على القُربِ إلْماعًا لِقُرْبِ ذِكْرِ نَعيمِ أهْلِ الجنَّةِ في الآياتِ السّابِقَةِ، أو أنْ يكونَ من بابِ الحقيقةِ على ما معنى أن يكونَ المشارُ إلَيْه هو المستقرَّ في الذِّهنِ وقتَ الخطابِ، أي إنَّ مضمونَ الكلامِ هو ما سيقعُ في الآخرةِ.

نَوْعُ ﴿مَا﴾ ومَعْناها:

نعيمُ الجنَّةِ معلومٌ بالجملةِ لا بالتّفاصيل الحقيقيّة

جاءَتْ ﴿مَا﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ مَوْصولَةً بِمَعْنى (الَّذي) أيْ: هَذا الجَزاءُ الَّذي وُعِدْتُمْ بِهِ لِأَجْلِ يَوْمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.

الحِسابِ[1]. وعَبَّرَ بـ﴿مَا﴾ دونَ (الَّذي) لأنَّ (ما) أقلَّ تَعريفًا منَ (الَّذي)[2]، ولَمّا كان نعيمُ الجنَّةِ غيرَ معلومٍ على التَّحقيقِ في صفاتِه وحقائقِه، ناسَب أن يأتي بما دون الّذي.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ، وبلاغتها:

الالتِفاتُ لِتَشْريفِ المُتَّقينَ بِعِزِّ الحُضورِ لِخِطابِ اللَّهِ تعالى

وَرَدَ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ قِراءَتانِ، فَقَرَأ ابْنُ كَثيرٍ وأبو عَمْرٍو بالغَيْبِ ﴿يُوعَدُونَ﴾، وقَرَأ الباقونَ بالخطابِ﴿تُوعَدُونَ﴾[3]. فأمّا على قراءة الجُمْهورِ فهو علَى الاحْتِمالِ الأوَّلِ - وُهو أنَّ المُرادَ بالإشارة ما سبقَ ذِكْرُه من حُسْنِ المآبِ - التفاتٌ مِنَ الغَيبَةِ إلى الخِطابِ، لِتَشْريفِ المُتَّقينَ بعِزِّ الحُضورِ لِخِطابِ اللّه تعالى، وعَلى الاحْتِمالِ الثّاني الخِطابُ لَهم عَلى ظاهِرِه[4]. ففي الالتِفاتِ من الغَيْبَةِ إلى الخطابِ إرادَةٌ لِلَفْتِ أنْظارِهم، لِلتَّلْذيذِ بالخِطابِ؛ تَنْشيطًا لِهِمَمِهِمْ؛ وإيقاظًا لِقُلوبِهِمْ[5]؛ فَيَجِدّوا في سلوكِ طريقِ الأنبياءِ الصّابرينَ على الابتلاءاتِ في سبيلِ اللّهِ سبحانه.

خطابُ الغَيبَةِ مَوَجَّهٌ لِلطّاغينَ لِزيادَةِ التَّنْكيلِ عَلَيْهِمْ

وأمّا على قِراءةِ ابْنِ كَثيرٍ وأبي عَمْرٍو ﴿يُوعَدُونَ﴾ فهو عَلى الاحْتِمالِ الأوَّلِ التِفاتٌ عَنْ تَوْجيهِ الخِطابِ إلَيْهِم، إلى تَوْجيهِهِ لِلطّاغينَ لِزيادَةِ التَّنْكيلِ عَلَيْهِمْ. والإشارَةُ إلى المَذْكورِ من حُسْنِ المَآبِ، وعَلى الاحْتِمالِ الثّاني كَذَلِكَ وُجِّهَ الكَلامُ إلى أهْلِ المَحْشَرِ لِتَنْديمِ الطّاغينَ وإدْخالِ الحَسْرَةِ والغَمِّ عَلَيْهِم، ولِلإشارَةِ إلى النَّعيمِ المُشاهَدِ[6].

غَرَضُ بِناءِ فِعْلِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ لِلمَفْعولِ:

اعتِمادًا على مَعرِفَةِ فاعِلِه وشُهْرَتِه والعِلمِ به

جاءَ الفِعْلُ ﴿تُوعَدُونَ﴾ مَبْنِيًّا لِلمَفْعولِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 503.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 138.
(3) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 361.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.
(5) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 403.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 283.

مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ اخْتِصارًا للكَلامِ على عادَةِ النَّظمِ الحكيمِ في بلاغَةِ الإيجاز، فَلَمْ يَقُل: (هذا ما وعَدْتُكم إيّاه)، وكثيرًا ما يُبْنى الفعلُ للمفعول اعتمادًا على معرفَةِ فاعلِه وشُهرتِه والعِلْم به، فلا يُحتاجُ إلى ذِكْرِه للمخاطَبين، نحو قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: 28]، أي: خَلَقَ اللّهُ الإنسانَ ضعيفًا[1].

نَوعُ اللّامِ ومَعْناها:

في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ جاءَت اللامُ تَعْليليَّةً مُفيدَةً للاخْتِصاص، أيْ: لِأجْلِ يَوْمِ الحِساب، فقدْ تَردُ اللّامُ بما يُفيدُ التَّعْليلَ، بِمَعْنَى بُلوغِ الأجَلِ، كَما في قولِه تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ [الرعد: 2]، أيْ: كُلٌّ يَجْري لِهَذِه الغايَةِ كَما تَقولُ: كُلُّهُم يَجْري لِلْوُصول إلى الهَدَفِ ولِبُلوغِه. وجوَّزَ أنْ تكونَ اللّامُ بِمَعْنى (بَعْدَ)، كَما في: (كُتِبَ لِخَمْسٍ خَلَوْنَ من جُمادى الآخِرَة)، مَثَلًا، وهو أقَلُّ مَؤونَةً[2].

اللامُ تَعْليليَّةٌ مُفيدَةٌ للاخْتِصاص، ويَجوزُ أن تكونَ بمعنى (بَعْدَ)

براعةُ ذِكْرِ يَوْمِ الحِسابِ دونَ نَعيمِ الجَنَّةِ:

جاءَ النَّظْمُ الحكيمُ باسْتِعْمالِ (يَوْمِ الحِسابِ) رُغْمَ أنَّ المُشارَ إلَيْهِ هوَ نَعيمُ الجَنَّة، فلم يقل: (هذا ما توعدون لدخول الجنَّة)؛ وذَلِكَ لأنَّ ما وُعِدوهُ إنَّما هوَ لِأجْلِ طاعَتِهِم، وأعْمالِهِمُ الصّالِحَة، وهي تَظْهَرُ بالحِساب، فَجُعِلَ كَأنَّهُ عِلَّةٌ لِتَوَقُّفِ إنْجازِ الوَعْدِ، فالنِّسْبَةُ لِلْيَوْمِ والحِسابِ مَجازيَّةٌ[3]، مع ما فيه من الموازنَةِ بين التّرغيبِ والتّرهيب، فإنَّ اللّه تعالى يَعِدُ عبادَه المتّقين بالخيرِ العميم، ويُنَبِّههم على أنَّهم لا ينالوه إلّا بعد الجزاءِ العادلِ، كي لا يَتَّكِلوا.

الموازنةُ بينَ التّرغيبِ والتّرهيبِ كي لا يَتَّكِلَ المتَّقون

(1) عتيق، علم المعاني، ص: 127.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205، والسّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 65.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.

دلالَةُ إضافَةِ (يَومِ) لِلَفْظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾:

الحساب سيكونُ في زمنِ القيامةِ لا عندَ الوعدِ في الدُّنيا

أُضيف (يَوْم) لِلَفظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ للدّلالَةِ على أنَّ هذا اليومَ هوَ الَّذي يَقَعُ فيه الحسابُ، فالإضافةُ بمعنى حرفِ الظَّرفيَّةِ، والمُرادُ منَ الإضافةِ بيانُ أنَّ هَذا الَّذي ذَكرَه اللّهُ تعالى مِنْ صِفَةِ الجَنَّةِ الَّتي وعَدَها لِعِبادِهِ المُتَّقينَ إنَّما يَصيرونَ إلَيْها بَعْدَ نُشورِهِمْ وقيامِهِمْ مِنْ قُبورِهِمْ وسَلامَتِهِمْ مِنَ النّارِ[1].

مَعْنَى اللّامِ في لَفْظِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾:

يَـوْمُ الحِسابِ مـنَ الأمورِ المَعهودةِ لدى كلِّ مُسْلِمٍ

جاءَتِ اللّامُ في كَلِمَةِ ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ مِنْ قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ للعَهْدِ الذِّهْنيِّ، والعَهْدُ الذِّهْنيّ هو أنْ يكونَ المُعرَّفُ بـ "أل" لم يُسبَقْ ذِكْرُه، ولا كانَ حاضِرًا وقْتَ الحَديثِ، ولا يُرادُ به الجِنْسُ، وإنَّما هو مَعْهودٌ في الذِّهْنِ مَعْلومٌ لَدى النّاسِ[2]. والحِسابُ هنا هو المَعْلومُ مِنَ الدّينِ بالضَّرورَةِ، فكانَ مَفْهومًا في سياقِ النَّظْمِ، وإنْ لَمْ يَجِئْ لَهُ ذِكْرٌ قَريبٌ.

بَلاغَةُ فَصْلِ الجُمْلَةِ عَنْ سابِقَتِها:

ثَباتُ الوَعْدِ الإلهِيِّ بالنَّعيمِ المُقيمِ لِلمُتَّقينَ

فَصَلَ البيانُ القُرْآنيُّ هَذِهِ الجُمْلَةَ عنْ سابِقَتِها، فَلَمْ يَعْطِفْ بيْنَهُما بأيِّ أداةٍ مِنْ أدواتِ العَطْفِ، وذَلِكَ لِكَمالِ الاتصالِ بَيْنَهُما، فالجُمْلَتانِ خَبَريَّتانِ لَفْظًا ومَعْنًى، وجاءَتِ الجُملَةُ الثّانيةُ لِتأْكيدِ المَعْنَى الَّذي تَضَمَّنَتْهُ الجُمْلَةُ الأولى، وهوَ ثباتُ الوَعْدِ الإلهيِّ بالنَّعيمِ المُقيمِ لِهَؤُلاءِ المُتَّقينَ، فَصارَ بيْنَهُما مِنَ التَّلاحُمِ والاتِّصالِ والتَّرابُطِ ما هوَ أقْوى وأشَدُّ من الرَّبْطِ الخارجِيِّ بحروفِ العطْفِ، فتُرِكَ العَطْفُ بيْنَهُما لِقوَّةِ الاتِّصالِ المَعْنَويِّ والترابُطِ البَلاغيِّ[3].

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 78.
(2) السّيوطيّ، الأشباه والنَّظائر: 2/ 102، وحسن، النَّحو الوافي: 3/ 374.
(3) فيّود، علم المعاني، ص: 446.

تَـأْكِـيـدُ ثَبـاتِ العطاءِ الإلَهيِّ ودَوامِــه بِما لا مَزيدَ عليهِ من أدواتِ التَّوكيدِ

بَلاغَةُ التَّوْكيدِ وبراعتُه:

تَعَدَّدَتِ المُؤَكِّداتُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾، فَبَدأتِ الجُمْلَةُ بـ﴿إِنَّ﴾ الَّتي تُفيدُ التَّوكيدَ، فَإنَّ قَوْلَ القائِلِ: (إنَّ زَيْدًا قائِمٌ) نابَ مَنابَ تَكْريرِ الجُمْلَةِ مَرَّتَيْنِ إلّا أنَّ قَوْلَكَ: (إنَّ زَيْدًا قائِمٌ) أَوْجَزُ مِنْ قَوْلِك (زَيْدٌ قائِمٌ، زَيْدٌ قائِمٌ)، مَعَ حُصولِ الغَرَضِ مِنَ التَّأْكيدِ[1]. فجاءَ النَّظْمُ مؤكِّدًا دوامَ الرِّزْقِ وعدمَ انقطاعِه. كَما تَخيَّرَ البيانُ القُرْآنيُّ الجُمْلَةَ الاسْميَّةَ الَّتي تُفيدُ الثَّباتَ والدَّوامَ والاسْتِقْرارَ. ثَمَّ بَلَغَ التَّأْكيدُ ذِرْوَتَه بدخولِ اللّامِ المُزَحْلَقَةِ عنِ الابتِداءِ، الَّتي تُفيدُ زيادَةَ التَّوكيدِ، فَهي بِمَثابَةِ إعادَةِ الجُملَةِ، فاجْتَمع التَّوكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ وباللّامِ المُزَحْلَقَةِ، فَكانَ بِمَنْزِلَةِ تَكْرارِ اللَّفْظِ ثَلاثَ مَرّاتٍ[2]، بالإضافَةِ للتوكيدِ المُسْتَفادِ مِنَ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ، فأكَّدَ ثباتَ هذا العطاءِ الإلَهيِّ ودَوامَه بِما لا مَزيدَ عليه، وهو من بديعِ التّوكيدِ الدّالِّ على توثيقِ عُرى الاعتقادِ بما أعدَّ اللّه تعالى لعبادِه المتّقين.

تَـمْـيـيـزُ نَـعـيـمِ المُتَّقينَ وتَعْظيمُه مِنْ تَمامِ الإنْعامِ والتَّفَضُّلِ

بَلاغَةُ تَكْرارِ اسْمِ الإشارَةِ:

كَرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ بَعْدَ أنْ سَبَقَ ذِكْرُه في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ وذَلِكَ لِما لاسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مِنْ دلالَةٍ تامَّةٍ كامِلَةٍ على تَمْييزِ ما يُشارُ إليه، ويَكونُ التَّقْديرُ (إنَّ هَذا المُشارَ إلَيْهِ هو رِزْقُنا لِهَؤُلاءِ)، أوْ (إنَّ هَذا كَما وصَفْنا)، أَضْمَرَ خبرَه[3]، وعلى كلِّ حالٍ جاءَ تَكْرارُ اسمِ الإشارَةِ للدَّلالةِ على تَمامِ الإنْعامِ والتَّفَضُّلِ بالنَّعيمِ المَوْعودِ لِهَؤُلاءِ المُتَّقينَ، كَما أنَّ في التَّعبيرِ باسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ إلْماعًا إلَى تَعْظيمِ ما وُعِدَ بِه المُتَّقون مِنْ جَزيلِ الثَّوابِ.

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 526.
(2) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 526.
(3) النَّسَفيّ، التّيسير: 12/ 516.

نُكْتَةُ العُدولِ عنِ الضَّميرِ إلَى اسْمِ الإشارَةِ:

كَمالُ العِنايَةِ بِتَمْييزِ النَّعيمِ وتَوْجيهِ ذِهْنِ السّامِعِ إلَيْهِ

عَدَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ عَنِ اسْتِعمالِ الضَّميرِ (الهاءِ) فَلَمْ يَقُل: (إنَّه لَرِزْقُنا ما لَه مِنْ نَفادٍ)، بل اسْتَعْمَلَ اسمَ الإشارَةِ ليَعودِ علَى ما ذُكِرَ مِن ألْوانِ النِّعَمِ والكَراماتِ[1]، ولِكَمالِ العِنايَةِ بتَمْييزِهِ وتَوْجيهِ ذِهْنِ السّامِعِ إلَيْهِ[2].

دَلالَةُ إضافَةِ لَفْظِ ﴿لَرِزْقُنَا﴾ إلَى ضَميرِ الجَمْعِ:

رِزْقُ أهْلِ الجَنَّةِ رِزْقٌ عَظيمٌ يَليقُ بالرَّزّاقِ الكريمِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ الرِّزْقَ للّهِ ﷻ بضميرِ العَظَمَةِ، فالإضافةُ بمعنى (من)، أيْ: لرزقٌ منا، وهو الرِّزْقُ الَّذي يَسْتَحِقُّ الإضافَةَ إلَيْنا في مَظْهَرِ العَظَمَةِ[3]، فَرِزْقُ أهْلِ الجَنَّةِ رِزقٌ عَظيمٌ يَليقُ بالرَّزّاقِ الكريمِ تعالى، ومِنْ هُنا كانتِ الإضافَةُ إضافَةَ تعظيمٍ وتَشْريفٍ.

نَوْعُ ﴿مَا﴾ ودَلالَتُها:

نَعيمُ أهْلِ الجَنَّةِ خالِدٌ، لا يَنْقُصُ مِنْه شَيءٌ أبَدًا

جاءتْ ﴿مَا﴾ نافيَةً في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾، فَنَفَتِ انْقِطاعَ الرِّزْقِ عنْ أهْلِ الجَنَّةِ، إذ هوَ مُتَجَدِّدٌ أبَدًا، مُسْتَمِرٌّ لا يَنْفَدُ، فَهوَ نَعيمٌ خالِدٌ، لا يَنْقُصُ مِنْه شَيءٌ أبدًا، علَى كَثْرَةِ الوارِدينَ عَلَيْهِ[4]. وهيَ آكَدُ مِنْ (لَيْسَ)؛ فَإنَّها تَقَعُ جَوابًا للقَسَمِ، تَقولُ: (واللّهِ ما هوَ بِمُنْطَلِقٍ) بِخِلافِ (لَيسَ)، وهيَ أوْسَعُ اسْتِعْمالًا مِنْها أيْضًا، فَـ (لَيْسَ) مُخْتَصَّةٌ بِنَفْيِ الجُمَلِ الاسْميَّةِ، وأمّا (ما) فَتَنْفي الجُمَلَ الفِعْليَّةَ والاسْميَّةَ[5]، ومِنْ هُنا كانَ نَفْيُ النَّفادِ بِـ﴿مَا﴾ أشَدَّ دلالَةً على اسْتِمْرارِ العَطاءِ الجَزيلِ لأهْلِ الجَنَّةِ.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 284.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 404.
(4) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1103.
(5) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 4/ 191.

دلالَةُ حَرْفِ ﴿مِن﴾:

تأكيدُ نَفْيِ النَّفادِ واستِغْراقُه فلا نَفادَ مُطْلقًا لِنَعيمِ أهْلِ الجَنَّةِ

أفادَ حرفُ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ مَعْنى التَّوكيدِ والاستِغْراقِ، وذلِكَ عَلَى ما يتَّضِحُ من قولِكَ: (ما جاءَني مِنْ رَجُلٍ) و(ما رَأَيْتُ مِنْ أحَدٍ)، فَقَوْلُكَ: (ما جاءَني رَجُلٌ) يَحْتَمِلُ أنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ أحَدٌ مِنَ الجِنْسِ، ويَحْتَمِلُ أنَّهُ لَمْ يَأْتِكَ رَجُلٌ واحِدٌ بَلْ أكْثَرُ مِنْ ذلِكَ. فَإذا قُلْتَ: (ما جاءَني مِنْ رَجُلٍ) نَفَيْتَ أنْ يَكونَ جاءَكَ أحَدٌ مِنَ الجِنْسِ، وصارَ النَّفْيُ نَصًّا في الجِنْسِ[1]. فبذَلِكَ يتأكَّدُ نَفْيُ النَّفادِ تَأْكيدًا تامًّا، فَليسَ ثَمَّةَ نفادٌ أبدًا، لاستِغْراقِ نَفْيِه بـ﴿مِن﴾، فلا نفادَ مُطْلقًا لِنَعيمِ أهْلِ الجَنَّة.

فائدةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿نَّفَادٍ﴾:

توكيدُ معنى الخلودِ في جنّاتِ عدنٍ

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ التّعبيرَ بِمُفْرَدَةِ (النَّفادِ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ للدّلالةِ علَى استِمْرارِ نَعيمِ أهْلِ الجَنَّةِ، دونَ غَيرِها من المُفْرَداتِ المُقارِبَةِ لَها في هذا السّياقِ، وذَلِكَ للتَّعبيرِ عنْ أنَّ عطاءَ اللّهِ للمُتَّقينَ لا انْقِطاعَ فيه، بَلْ هو كالماءِ المُتَواصِلِ في نَبْعِهِ؛ كُلَّما أُخِذَ منهُ شَيْءٌ أخْلَفَ في الحالِ؛ بِحَيْثُ إنَّهُ لا يُمَيَّزُ المَأْخوذُ مِنَ المَوْجودِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فَيَكونُ في ذَلِكَ تَلْذيذٌ؛ وتَنْعيمٌ لِأهْلِ الجَنَّةِ بِكَثْرَةِ ما عِنْدَهُ؛ وبِمُشاهَدَةِ ما كانوا يَعْتَقِدونَهُ ويُثْبِتونَهُ للّه مِنَ القُدْرَةِ عَلى الإعادَةِ في كُلِّ وقْتٍ؛ جَزاءً وِفاقًا؛ عَكْسَ ما يَأْتي لِأَهْلِ النّارِ[2]، وهو توكيدٌ لمعنى الخلودِ في جنّاتِ عدنٍ.

نُكْتَةُ تَنْكيرِ ﴿نَّفَادٍ﴾:

امْتِنانٌ مِنَ المَنّانِ سبحانَه على عبادِهِ الطّائِعينَ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿نَّفَادٍ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾، نَكِرَةً في سياق الامتنان من اللّه على عباده، ومثل هذه

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/ 81.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 404.

الصيغة تفيد العُمومَ والشُّمولَ[1]، فَأفادَ التَّنْكيرُ معَ النَّفْيِ هنا تأكيدَ استِمْرارِ العَطاءِ الإلهيِّ لأهلِ الجنانِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّفادُ والانْتِهاءُ:

النَّفادُ انْقِطاعُ الشيءِ وفَناؤُه، والانتهاءُ بُلوغُ الغايَةِ

النَّفادُ يَدُلُّ عَلَى انْقِطاعِ شَيْءٍ وفَنائِه. والمَعْنَى المِحْوَريُّ فَناءُ ما يَتَأتَّى مِنَ الشَّيْءِ، أوْ يَتَأتَّى لَهُ[2]. وأمّا الانْتِهاءُ فَيَدُلُّ على غايَةٍ وبُلوغ. ومِنْهُ أنْهَيْتُ إلَيْهِ الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ. ونِهايَةُ كُلِّ شَيْءٍ: غايَتُهُ. ومِنْهُ نَهَيْتُهُ عَنْهُ، وذَلِكَ لِأمْرٍ يَفْعَلُهُ. فَإذا نَهَيْتَهُ فانْتَهَى عَنْكَ فَتِلْكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[3]. وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان: 27]؛ أي: ما انقَطَعَتْ ولا فَنِيَتْ[4].

(1) الشَّنْقيطيّ، أضواء البيان: 2/ 416.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نفد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نفد).

﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾ [ص: 55 - 58]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بَعْدَ ذِكْرِ نَعيمِ أهلِ الجنّاتِ ناسَبَ ذِكْرُ وعيدِ أهلِ الوَيْلاتِ

بَعْدَ أن بَيَّنَ النَّظْمُ الحكيمُ ثَوابَ المُتَّقينَ على نَحْوٍ مُفَصَّلٍ، أتَى بَعْدَهُ بوَصْفِ عِقابِ الطّاغينَ، ليَكونَ الوَعيدُ مَذْكورًا عَقيبَ الوَعْدِ، والتَّرْهيبُ عَقيبَ التَّرْغيبِ[1]، وذلِكَ لأنَّ النُّفوسَ نَزّاعَةٌ لِلْهَوى؛ مَيّالَةٌ إلى الرَّدى؛ فكانَتْ مُحْتاجَةً إلى مَزيدِ تَخْويفٍ؛ وشَديدِ تَهْويلٍ؛ فأتَى البيانُ القُرْآنيُّ بوَصْفِ عذابِ الطّاغينَ مُتَوَعِّدًا لِمَن تَرَكَ التَّأسّيَ بِهَؤُلاءِ السّادَةِ في أحْوالِ العِبادَةِ؛ مُؤَكِّدًا لِما مَضى من إيعادِ العُصاةِ؛ وتَخْويفِ العُتاةِ[2]، ليُقابِلَ بَيْنَ الفَريقَيْنِ، ويَقْتَرِنَ الوَعْدُ بالوَعيدِ، فَيُقْبِلُ المُسْلِمُ علَى الطّاعَةِ، ويَجْتَنِبُ المَعْصيةَ، ويَتَحَقَّقُ الهَدَفُ المَنْشودُ وهوَ الإصْلاحُ والتَّهْذيبُ[3]، وناسبَ ذكرُ المُقابِلِ لِقَوْلِ اللّٰهِ في شأنِ المُؤْمنينَ: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾، فَأَهْلُ الجَنَّةِ يَطْلُبونَ ما يَشْتَهونَ، وأمّا أَهْلُ النّارِ، فَإِنَّهُم يجدونَ الحميمَ والغَسّاقَ، فهي مقابَلَةٌ لمطاعمِ أهلِ الجنَّةِ ومشاربِهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ (طغى): أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهوَ مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ. يُقالُ: هوَ طاغٍ. وطَغَى السَّيْلُ، إذا جاءَ بماءٍ كَثيرٍ. قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُريدُ خُروجَهُ عَن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 403.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 405.
(3) الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير: 23/ 220.

المِقْدارِ. وطَغَى البَحْرُ: هاجَتْ أَمْواجُهُ. وطَغى الدَّمُ: تَبَيَّغَ، والاسمُ: الطُّغْيانُ، والفِعْلُ مِنْهُ طَغَيْتُ وطَغَوْتُ[1]. والمُرادُ بالطّاغينَ: الَّذينَ لَمْ يَصْبِروا عَلى تَنْزيلِهِمْ أَنْفُسَهم في مَنازِلِها؛ بِالصَّبْرِ عَلى ما أُمِروا بِهِ؛ فَرَفَعوا أَنْفُسَهم فَوْقَ قَدْرِها؛ وتَجاوَزوا الحَدَّ؛ وعَلَوْا في الكُفْرِ بِهِ؛ وأَسْرَفوا في المَعاصي والظُّلْم؛ وتَجَبَّروا؛ وتَكَبَّروا؛ فَكانوا أَحْمَقَ النّاسِ[2].

2) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ (صلي) أَصْلانِ: أَحَدُهُما النّارُ، وما أَشْبَهَها مِنَ الحُمَّى، والآخَرُ جِنْسٌ مِنَ العِبادَةِ. فَأَمّا الأَوَّلُ فَقَوْلُهُمْ: صَلَيْتُ العودَ بِالنّارِ. والصَّلَى صَلَى النّارِ. واصْطَلَيْتُ بِالنّارِ. والصِّلاءُ: ما يُصْطَلَى بِهِ وما يُذْكَى بِهِ النّارُ ويوقَدُ[3]. وأَصْلُ الصَّلْيِ الإيقادُ بِالنّارِ، ويُقالُ: صَلِيَ بِالنّارِ، أَيْ: بُلِيَ بِها، واصْطَلَى بِها، وصَلَيْتُ الشاةَ: شَوَيْتُها، وهيَ مَصْلِيَّةٌ. قال تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: 64]، وقال: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾ [الأعلى: 12]، و﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ [الغاشية: 4]، وقوله: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ [الليل: 15 - 16]، وقيل: صَلَى النارَ: دخل فيها، وأَصْلاها غيرُهُ[4]. والمُرادُ بـ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ أَيْ يَدْخُلونَها، ويُقاسونَ حَرَّها[5].

3) ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: (مهد) أَصلٌ يدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ لِلشَّيْءِ. ومِنْهُ: المَهْدُ. ومَهَّدْتُ الأَمْرَ: وطَّأْتُهُ. وتَمَهَّدَ: تَوَطَّأَ والمِهادُ: الوِطاءُ مِنْ كُلِ شَيْءٍ. وامْتَهَدَ سَنامُ البَعيرِ: ارْتَفَعَ[6]، ومَهَدَ لِنَفْسِه يَمْهَدُ مَهْدًا: كَسَبَ وعَمِلَ. والمِهادُ: الفِراش. وقَدْ مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا: بَسَطْتُه ووَطَّأْتُه. يُقالُ لِلفِراشِ: مِهادٌ لِوثارَتِه. والمِهادُ أَجمعُ مِنَ المَهْدِ، كالأَرض جَعَلَها اللّٰهُ مِهادًا لِلْعِبادِ، وأَصل المَهْد التَّوْثيرُ؛ يُقالُ: مَهَدْتُ لِنَفْسي ومَهَّدت، أي: جَعَلْتُ لَها مَكانًا وطيئًا سَهْلًا. ومَهَدَ لِنَفْسِه خَيْرًا وامْتَهَدَه: هَيّأه وتَوَطَّأه[7]؛ ومنه قوله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الروم: 44]؛ وقَوْلُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أَيْ: الفِراشُ. وذَكَرَهُ بِلَفْظِ المِهادِ تَهَكُّمًا بِهِم أَوْ عَلَى العَكْسِ مِنْ الكَلامِ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 404.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلى).
(4) الرّاغب، المفردات: (صلا).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مهد).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (مهد).

4) ﴿حَمِيمٌ﴾: (حمم) أصلٌ مُتَشَعِّبُ الأبْوابِ جدًّا. فَأَحَدُ أُصولِه: اسْوِدادٌ، والآخَرُ: الحَرارَةُ، والثّالِثُ: الدُّنُوُّ والحُضورُ، والرّابِعُ: جِنْسٌ مِنَ الصَّوْتِ، والخامِسُ: القَصْدُ[1]، وهذه الأصولُ في مجملِها متقاربةُ الدّلالةِ. والحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارَةِ، قال تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ [محمد: 15]، و﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ [النبأ: 25]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: 4][2].

5) ﴿وَغَسَّاقٌ﴾: (غسق) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ظُلْمَةٍ. فالغَسَقُ: الظُّلْمَةُ. والغاسِقُ: اللَّيْلُ. ويُقالُ: غَسَقَتْ عَيْنُهُ: أَظْلَمَتْ. وأَغْسَقَ المُؤَذِّنُ، إذا أَخَّرَ صَلاةَ المَغْرِبِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ. وأمّا الغَسّاقُ فَهوَ: ما تَقَطَّرَ مِنْ جُلودِ أَهْلِ النّارِ[3]. وغَسَقَتْ عَيْنُهُ تَغْسِقُ غَسْقًا وغَسَقانًا: دَمَعَتْ، وقيلَ: انصبَّت، وقيلَ: أظلمت. والغَسَقان: الانْصِبابُ[4]. وقالَ أهلُ العَرَبيَّةِ، في تفسيرِ: الغَسّاق: هوَ الشَّديد البَرْدِ يُحْرِقُ مِنْ بَرْدِهِ[5]، وفي الحديثِ: أن النَّبي ﷺ قالَ: «لَو أنَّ دَلْوًا من غَسّاقٍ يُهَراقُ في الدُّنْيا، لأَنْتَنَ أَهْلَها»[6]. وقَوْلُهُ: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ ما يَسيلُ مِنْ صَديدِ أَهْلِ النّارِ وما يُصْهَرُ مِنْ جُلودِهِم، مِنْ قَوْلِه: غَسَقَتْ عَيْنُه: إذا سالَتْ بِالدَّمْعِ، وقيلَ: هوَ دُموعُهُمُ الَّتي تَخْرُجُ مِنْ عُيونِهِم لِكَثْرَةِ بُكائِها يُسْقَونَها مِنَ الحَميمِ. وقيلَ: المُجَفَّفُ البارِدُ الَّذي يُمَزِّقُ بَرْدُهُ[7].

6) ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾: (شكل) مُعْظَمُ بابِهِ المُماثَلَةُ. تَقولُ: هَذا شَكْلُ هَذا (بِفَتْحِ الشّينِ وكَسْرِها)، أيْ مِثْلُه. ومِنْ ذَلِكَ يُقالُ أَمْرٌ مُشْكِلٌ، كَما يُقالُ أَمْرٌ مُشْتَبِهٌ، أيْ هَذا شابَهَ هَذا، وهَذا دَخَلَ في شِكْلِ هَذا، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ، فَيُقالُ: شَكَلْتُ الدّابَّةَ بِشِكالِه، وذَلِكَ أَنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ إِحْدَى قَوائِمِهِ وشِكْلٍ لَها[8]. والشَّكْلُ، بِالفَتْحِ: الشِّبْه والمِثْل، والجَمْعُ أَشْكالٌ وشُكول؛ وقَدْ تَشاكَلَ الشَّيْئانِ وشاكَلَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما صاحبَه. وفي فُلانٍ شَبَهٌ مِنْ أبيه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حمم).
(2) الرّاغب، المفردات: (حمم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غسق).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غسق).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غسق).
(6) الحديث رواه الترمذي في سننه، كتاب صفة جهنم، حديث رقم: (2787).
(7) السّمين الحلبيّ، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (غسق).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شكل).

وشَكْلٌ وأشْكَلَةٌ وشُكْلَةٌ وشاكِلٌ ومُشاكَلَةٌ[1]. وقالَ الرّاغِبُ: الشَّكْلُ: المُشاكَلَةُ في الهَيْئَةِ والصّورَةِ، والنِّدُّ في الجِنْسيَّةِ. والشَّبَهُ في الكَيْفيَّةِ[2]. والمَعْنَى في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾؛ أيْ: وعَذابٌ آخَرُ مِنْ شَكْلِه، أي: مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ الأوَّلِ، أيْ: مِثْلُه في الهَيْئَةِ وتَعاطي الفِعْلِ[3].

7) ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾: (زوج) أصْلٌ يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ. مِنْ ذَلِكَ الزَّوْجُ: زَوْجُ المَرْأةِ. والمَرْأةُ زَوْجُ بَعْلِها، وهوَ الفَصيحُ[4]. والزَّوْجُ: خِلافُ الفَرْدِ. يُقالُ: زَوْجٌ أو فَرْدٌ، ويُجْمَعُ الزَّوْجُ أزْواجًا وأزاويجَ؛ والأصل في الزَّوْجِ: الصِّنْفُ والنَّوْعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وكُلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ، شَكْلَيْنِ كانا أو نَقيضَيْنِ، فَهُما زَوْجانِ؛ وكلُّ واحِدٍ مِنْهُما زَوْجٌ، والمُزاوَجَةُ والازْدِواجُ، بِمَعْنًى[5]. ويُقالُ لِكُلِّ واحدٍ مِنَ القَرينَيْنِ مِنَ الذَّكَرِ والأُنْثَى في الحَيَوانات المُتَزاوِجَةِ زَوْجٌ[6]. وقَوْلُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾: مَعْناهُ ألوانٌ وأنْواعٌ مِنَ العَذابِ، ووَصَفَهُ بالأزواجِ؛ لأنَّه عَنَى بِهِ الأنواعَ مِنَ العَذابِ والأصنافَ مِنْهُ[7].

المَعنى الإجْماليُّ:

شِدَّةُ عذابِ أهْلِ الطُّغيانِ وهوانُهُم وبؤسهم

بَيَّنَتِ الآياتُ الكريماتُ مصيرَ أهلِ الطُّغْيانِ، الَّذينَ تَجاوَزوا الحُدودَ في الكُفْرِ والجُحودِ والإعْراضِ عن الحَقِّ، فَإنَّ مَرْجِعَهُم إلى اللّهِ تعالى سَيَكونُ شَرَّ مَرْجِعٍ، بِسَبَبِ إصْرارِهِم علَى كُفْرِهِم. فَإذا كانَ المُتَّقونَ يَدْخُلونَ الجَنّاتِ الَّتي فَتَحَتْ لَهُمْ أبْوابَها، فَإنَّ الطّاغينَ تَسْتَقْبِلُهُم جَهَنَّمُ بِسَعيرِها ولَهيبِها، فَيُلْقَونَ فيها، ويَفْتَرِشونَ نارَها،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شكل).
(2) الرّاغب، المفردات: (شكل).
(3) الرّاغب، المفردات: (شكل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زوج).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(6) الرّاغب، المفردات: (زوج).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زوج).

وبِئْسَتْ هيَ فِراشًا ومِهادًا. ثُمَّ بيَّنَتِ الآياتُ بَعْضًا منْ أَلْوانِ هذا العَذابِ الأليمِ الَّذي يَنْتَظِرُهُم، ومِنْهُ هَذا الماءُ الَّذي بَلَغَتْ حرارَتُه الغايَةَ القُصْوَى في الغَليانِ وشِدَّةِ الحَرارَةِ، ومِنْهُ هذا الصَّديدُ الَّذي يَسيلُ مِنْ عَصارَةِ أَهْلِ النّارِ وما يُصْهَرُ مِنْ جُلودِهم[1]، وعذابٌ آخَرُ من شكلِ العذابِ المتقدِّمِ ذكرُه، وسيكون كلُّ صنفٍ أزواجًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغَةُ الاسْتِئْنافِ في الآيةِ:

الجُمَلةُ من عطفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ أو استئنافٌ ابْتدائيٌّ

جاءَ قولُ اللّهِ تباركت آلاؤه: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ اسْتِئْنافًا لبيانِ حالِ أهلِ النّارِ الَّذينَ تَكبَّروا في الأرْضِ، بحيث فَصَلَ اسمُ الإشارةِ المُجَرَّدُ: ﴿هَٰذَاۚ﴾ الكَلامَ الّذي قبلَه عن الكَلام الّذي بَعْدَه، بِقَصدِ الانْتِقالِ مِنْ غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مِثْلُ جُمْلَةِ: (أمّا بَعْدُ)، وكذلك مثلُ اسْمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) في قَوْلِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 30]. وهو كَما يَقولُ الكاتِبُ إذا فَرَغَ مِن فَصْلٍ من كِتابِه؛ وأرادَ الشُّروعَ في آخَرَ: (هَذا وقَدْ كانَ كَيْتَ وكَيْتَ..). وهَذا الأُسْلوبُ مِنَ الانْتِقالِ هو المُسَمّى في عُرْفِ عُلَماءِ الأَدَبِ بِالاقْتِضابِ[2]، وهو طَريقَةُ العَرَبِ في الانْسِيابِ مِنْ مَقصودٍ إلى مقصودٍ فيما يُرادُ التَّعبيرَ عنه. فالجمْلَةُ استِئْنافيَّةٌ، وهي نظيرُ الجملةِ السّابقة لها، وهي قوله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾.

بَراعَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ في الانْتِقالِ بَيْنَ الأغْراضِ:

المحافظةُ على كلِّ موضوعٍ مستقلًّا مع الرّبطِ بينها برباطٍ وثيقٍ

ابْتَدَأَ النَّظْمُ الحكيمُ الآيَةَ الكَريمَةَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ باسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَاۚ﴾ للانْتِقالِ من غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، إنْهاءً لِلْغَرَضِ السّابقِ، وابتداءً بالغرضِ اللّاحقِ، ويكونُ

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 175.

(2) ابن الزَّمَلْكانيّ، التّبيان، ص: 184، والعَسْكَريّ، الصّناعتين، ص: 39، والقَزْوينيّ، كتاب الإيضاح، ص: 307، والتخليص: 432 ، وابن الأثير، المَثل السّائر: 3/ 139.

التَّقديرُ: (المُرادُ الأمْرُ هَذا)، أوْ (هَذا كَما ذُكِرَ)[1]، أو (هذا شأنُ المتّقين)، والمقصودُ من الانتقالِ بين الأغراضِ إقامةُ كلِّ فريقٍ بكلامٍ منفصلٍ في موضوعِه عنِ الآخَرِ، بحيثُ يَبقى الِانْتقالُ حاضرًا بين الأغْراضِ لتحقيقِ المقصودِ الكُليّ.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارَةِ وحذْفِ الخَبَرِ:

فـي التَّـعبـيرِ بـاسمِ الإشـارة (المـبـتـدأ) مِـنْ غَـيرِ خَـبرٍ ضَـرْبٌ مِـنَ التَّـهـويـلِ والتَّخْويفِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ جاءَ التَّعبيرُ باسْمِ الإشارَةِ للدّلالَةِ على أنَّ هذا الأمْرَ العَظيمَ جَديرٌ بأنْ يُجْعَلَ نُصْبَ العَيْنِ؛ وهو أنَّهُ لِكُلٍّ مِنَ الفريقَيْنِ ما ذُكِرَ؛ وإنْ أنْكَرَهُ الكَفَرَةُ. وحَذْفُ الخَبَرِ بَعْدَ إثْباتِه في الأوَّلِ أهْوَلُ؛ ليَذْهَبَ الوَهْمُ فيه كُلَّ مَذْهَبٍ[2].

دلالَةُ التَّوْجيهاتِ الإعْرابيّةِ المُتَعَدِّدَةِ لاسْمِ الإشارَةِ:

تـعَـدُّدُ الأوْجُـهِ الإعرابيّةِ دليلٌ عـلـى كـثـافَـةِ المَـعـاني الّـتـي يـحمِلُها اسـمُ الإشارَةِ

تَعَدَّدتِ الأوْجُهُ الإعْرابيَّةُ لاسم الإشارةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ رغْمَ وضوحِ مَوْقِعها، وما ذاك إلّا لَكثافةِ الاحتمالاتِ الّتي تَزْخَرُ بها هذه الكلمةُ، فذَهَبَ بَعْضُهُم إلى أنَّهُ خَبَرُ مُبْتَدأٍ مَحذوفٍ، وقالَ آخرونَ: المُرادُ: (هَذا لِلْمُؤْمنينَ) عَلى أنَّهُ مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحذوفٌ. وجَوَّزَ بَعْضُهُم الأمْرين: أي: احْتِمالَ كَوْنِه مُبْتَدَأً مَحْذوفَ الخَبَرِ، واحْتِمالَ كَوْنِه خَبَرًا مَحْذوفَ المُبْتَدأ، وجَوَّزَ بَعْضُهم كَوْنَهُ فاعِلَ فِعْلٍ مَحْذوفٍ، أيْ: مَضى هَذا، أو كَوْنَهُ مَفْعولًا لِفِعْلٍ مَحْذوفٍ، أيْ: خُذْ هَذا[3]. وأشارَ بَعْضُهُم إلى أنّه توكيدٌ لـ﴿هَٰذَاۚ﴾ الوارِدِ في الجُمْلَةِ السّابِقَةِ[4]. ويتَّضِحُ أنَّ تعَدُّدَ الأوْجُهِ الإعرابيَّةِ دليلٌ على كثافَةِ المَعاني الَّتي يحْمِلُها اسمُ الإشارَةِ في هذا السّياقِ، وهوَ من إعْجازِ القُرآنِ الكريمِ في قابليّة النَّظم القرآنيّ لتعدُّدِ المعاني بتعدُّدِ أوْجهِ الإعرابِ للَّفظِ الواحدِ.

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 232.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 405.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.
(4) الخطيب ومصلوح والعلّوش، التّفصيل: 23/ 297.

نَوْعُ الواوِ وبلاغتُها:

كُلُّ جُملةٍ تَتَناوَلُ فَريقًا بِعينِه؛ أَهلَ النَّعيمِ وأهلِ الشَّقاءِ

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قَوْلَ اللّهِ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ بالواوِ العاطِفَةِ على اسمِ الإشارَةِ، فَوَصلِ بينَ الجُملَتينِ: جملةِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَاۚ﴾، باعتبارِهِ مبتدأً محذوفَ الخبرِ، وجملةِ ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ للتَّوسُّطِ بينَ الكَمالينِ، كَمالِ الاتصالِ، وكمالِ الانقطاعِ، فقد اتَّفَقَتِ الجُمَلَتانِ لَفظًا ومَعْنًى، فَكِلْتاهُما جُمْلَةٌ خَبَرِيَّةٌ، ووُجِدَتِ المُناسَبَةُ المُسَوِّغَةُ للعَطفِ بينَهُما، ولمْ يَمْنَعْ مِنَ العَطْفِ مانِعٌ، فَكُلُّ واحِدَةٍ مِنَ الجُمْلَتينِ تَتَناوَلُ فَريقًا بعينِه، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ [الانفطار: 13 - 14][1]. فاسمُ الإشارَةِ ﴿هَٰذَاۚ﴾ وخبرُه المَحْذوفُ يُشيرُ - عندَ أغلبِ المُفَسِّرينَ - إلى ما سبقَ مِنْ نَعيمِ أهْلِ الجَنَّةِ، وقَوْلُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ مَخْصوصٌ بأهلِ الجَحيم. فانتَظَمَ الأسْلوبُ على تَناوِلِ الفَريقينِ مَعًا، لذا ساغَ الوَصْلُ بينَهُما على خيرِ الوُجوهِ.

نَوْعُ اللّامِ ومَعْناها:

اخْتِصاصُ أهْلِ النّارِ بِتَذَوُّقِ العَذابِ

جاءَتِ اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ للاخْتِصاص، فأثْبَتَتْ اخْتِصاصَ شَرِّ المآبِ بالطّاغينَ دونَ غَيرِهِم مِنْ أَهْلِ الطّاعَةِ والتَّواضُعِ والإخْباتِ، فَمَعْنى اللّامِ أنَّه تَخْتَصُّ بِهِمْ جَهَنَّمُ، واخْتِصاصُها بِهِمْ هو تَذَوُّقُ عَذابِها لِأنَّ العَذابَ ذاتيٌّ لِجَهَنَّمَ[2].

تَوْجيهُ تَخْصيصِ لَفْظِ الطّاغينَ بِالذِّكْرِ:

المُقابَلةُ بين الصِّفاتِ المتعارضةِ بيانٌ لعلَلِ المآلِ

خَصَّصَ النَّظْمُ الحكيمُ صفةَ الطُّغيانِ بالذِّكْرِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾؛ فَلَمْ يَذْكُرِ صفةَ الكفرِ أو الفسقِ ونَحْوِهِما، وذلكَ لأنَّ الطُّغيانَ هوَ مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ، فَلَمّا ذَكَرَ صِفَةَ التَّقْوى، وهي الخَشْيَةُ والإخْباتُ في قولِه سبحانه: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ

(1) فيّود، علم المعاني، ص: 475.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 285.

﴿لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ ذكَرَ الصِّفةَ المُقابلَةَ لها وهي الطُّغْيان؛ لِتَتَّضِحَ المُقابَلةُ بينَ الصِّنْفَين، لبَيانِ اسْتِحْقاقِ كُلِّ فَريقٍ لمَآلِه الَّذي انْتَهَى إليه في الآخِرَة، فالتَّقوى هي تخليصُ النّفسِ من جميعِ مظاهرِ الطُّغيانِ والكِبْرِ المانعِ من قَبولِ الطّاعة، والطُّغيان على الضِّدِّ.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ جَمْعِ (الطّاغينَ):

كُلُّ مَنِ اتَّصَفَ بِصِفَةِ الطُّغْيانِ وسَلَكَ مسلَكَهم فَهوَ داخِلٌ في الوَعيدِ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحَكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ باسم الفاعِلِ المَجْموعِ جَمْعَ مُذَكَّرٍ سالِمًا (الطّاغين)؛ وذَلِكَ لِأَنَّ المُرادَ هَهُنا الإشارَةُ إلى صِفَةِ الطُّغيانِ في حَدِّ ذاتِها في المَقامِ الأوَّل، ثُمَّ التَّعَرُّضُ لِلناحيَةِ الاسميَّةِ في الصّيغَةِ بعْدَ ذَلِك، إذِ الأصْلُ في جَمْعِ السَّلامَةِ النَّظَرُ إلى الوَصْفيَّة، ثُمَّ الاسْميَّة بَعْدَ ذَلِكَ، أي أنَّ كُلَّ من اتَّصَفَ بِصِفَةِ الطُّغْيانِ فَهوَ داخِلٌ في الوَعيدِ بِشَرِّ المَآب، وأمّا جَمْعُ التَّكْسيرِ فإنَّ الأساسَ فيه الاسْميَّةُ أوَّلًا، ثُمَّ الوَصْفيَّةُ بَعْدَ ذَلكَ[1]، فاختيارُ هذا الجمعِ لبيانِ أنَّ الطُّغيانَ صفةٌ اتَّصفَ بها هؤلاءِ المجرمون في حياتِهم، وسلوكٌ اعتادوه، ثمَّ أصبحَ اسْمًا لاصقًا بهم، كصفةِ المغضوبِ عليهم لليهودِ وفيهم ضلالٌ، وصفة الضّالّين للنَّصارى وعليهم غضبٌ.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

تأكيدُ استِحْقاقِ الطّاغينَ لِشَرِّ مَرْجِعٍ يَرْجعون إلَيْهِ

أَدْخَلَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرْفَ اللّام على كَلِمَةِ (شَرَّ) للتّوكيد، إذِ اللّامُ هُنا هيَ لامُ الابْتِداءِ الواقِعَةُ بَعْدَ (إنَّ) المَكْسورَة، وهيَ المُزَحْلَقةُ، وسُمّيَتْ مُزَحْلَقةً لأنَّها زُحْلِقَتْ عنْ صَدْرِ الجُمْلَةِ كراهيَةَ ابْتِداءِ الكَلام بمُؤَكِّدَين[2]، فَدَخلَتْ علَى الخَبَرِ، لِمَزيدٍ من التَّأكيد، وإثباتِ استِحْقاقِ هؤلاءِ الطّاغينَ لِشَرِّ مَرْجِعٍ يَرْجِعونَ إلَيْهِ في الآخرَةِ جَزاءَ تَكْذيبِهم بآياتِ اللّهِ وإعراضِهم عنْ هَدْيِ القُرآنِ الحكيم.

(1) عمر، دراسات لغوية، ص: 220، وداود، معجم الفروق، ص: 472.
(2) ابن هشام، مُغني اللّبيب: 304.

بَلاغَةُ اخْتِلافِ المُقَابَلَةِ في اخْتيارِ مُفْرَدَةِ (شَرَّ):

الإيـــجـــازُ في الحذفِ التّقابليِّ في المُفْرَدات

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ لفظَ (شَرّ)، وقدْ تَقَدَّمَ في وصْفِ (مَآبِ المُتَّقينَ) بَأنَّهُ ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، فَكانَ مُقْتَضى الظّاهِرِ الإتْيانَ باللَّفْظِ المُقابِلِ وهوَ (سوء)، لَكِن أتَى لَفْظ (شَرَّ)؛ وذلك لأنَّ لفظَ الشَّرِّ يومئُ بضدِّه إلى معنى الخيرِ، كما أنَّ الحُسْنَ في قوله تعالى: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يومئُ بضدِّه إلى معنى السّوءِ، وهو ما يُسَمَّى في البلاغَةِ بالحَذْفِ التّقابُليِّ[1]، فاختلافُ اللّفظين دالٌّ على المقابلَينِ المحذوفَين، وهذا شبيهُ الاحتباكِ، فاجتمع في وصفِ عاقبةِ المتّقين الحسنُ والخيرُ، وفي وصفِ عاقبةِ الطّاغين السّوءُ والشّرُّ، وبِذِكْرِ أحدهما في الجملةِ الأولى، وحذفِ المقابلِ له في الأخرى، وحذف الآخر في الجملةِ الأولى وذِكْرِ مقابِلِهِ في الأُخرى، إيجازٌ بحذفٍ تقابُليٍّ في المفردات.

غَرَضُ تَقْديمِ ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ عَلَى اسْمِ (إنَّ):

الاهْـــتِـــمـــامُ بـالـصِّـفـةِ الـتي أوردَتْ أصحابَها مآلَ العذابِ

قَدَّمَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ مُتَعَلَّقَ خَبَرِ (إنَّ) ﴿لِلطَّٰغِينَ﴾ على اسْمِها ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ للاهْتِمامِ بالمقدَّم، والتَّشْويقِ إلى المؤَخَّر[2]، إذِ التَّقديم في الأصلِ للعنايةِ والاهتمام[3]، وهنا جاء بِتَخْصيصِ الجُمْلَةِ لبيانِ صِفَةِ هؤلاءِ الظالمينَ الباغينَ، ثم لبيانِ مآلِهِم، وما سَيصيرونَ إليه، فَلمْ يأتِ النَّظْمُ على مُقْتَضَى الظّاهِرِ، إذْ لمْ يَقُل: (وإنَّ شَرَّ مآبٍ للطّاغين)، للاهْتمامِ ببيانِ جَزائِهم في مقابلِ المُتَّقينَ، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ للاهتمامِ بِذِكْرِ كُلِّ فَريقٍ في مقابلِ الآخر، ولبيانِ أنَّ هذه الصِّفة التي اتَّصَفَ بها كلُّ فريقٍ هي عِلَّةُ مآلِ كلٍّ منهم.

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/ 129.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 9.

(3) السَّامرّائيّ، أسرار البيان: 21.

بَلاغَةُ التَّوْكيدِ ودلالتُه:

كثرةُ المؤكّدات برهانُ الإنكارِ ودليلُ الاستكبار

تَعَدَّدَتِ المُؤَكِّداتُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾، فَبَدأتِ الجُمْلَةُ بـ(إنَّ) الّتي تُفيدُ التَّوكيدَ، فجاءَ النَّظْمُ مؤكِّدًا سوءَ مَصيرِ الطّاغينَ، وسوءَ مَرْجِعِهم في الآخرةِ. كَما تَخيَّرَ البيانُ القُرْآنيُّ الجُمْلَةَ الاسْميَّةَ الّتي تُفيدُ الثَّباتَ والدَّوامَ والاسْتِقْرارَ. ثُمَّ بَلَغَ التَّأْكيدُ ذِرْوَتَه بدخولِ اللّامِ المُزَحْلَقةِ عنَ الابتِداءِ، الَّتي تُفيدُ زيادَةَ التَّوكيدِ، فَهي بِمَثابَةِ إعادَةِ الجُملَةِ، فَكانَ بِمَنْزِلَةِ تَكْرارِ اللَّفْظِ ثَلاثَ مَرّاتٍ[1]، بالإضافَةِ للتَّوكيدِ المُسْتَفادِ مِنَ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ، فأكدَّ ثباتَ هذا المصيرِ المُهينِ ودَوامَه بما لا مَزيدَ عليهِ، ودلَّ التَّوكيدُ هنا على شِدَّةِ إنكارِ الطّاغينَ لمآبِهم، وأنَّهم يرون أنفسَهم أنّهم على خيرٍ.

بَلاغَةُ الكِنايَةِ:

تلميحٌ من غير تصريح، وعمقٌ دَلاليّ بأُسلوبٍ جماليّ، وسياقٌ مُبْهَمٌ بمعانٍ تُفْهَمُ

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ عَنْ دُخولِ الطّاغينَ النّارَ بقوْلِه: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ كِنايَةً عن مَوْصوفٍ، هوَ النّارُ، بِصِفَةٍ من أسْوأِ أوْصافِها، وهِيَ سوءِ المَرْجِعِ والمآلِ، لِدلالَةِ هَذِه الأوْصافِ عَلَيْها دَلالَةً واضِحَةً، تُسْهِمُ في بيانِ المَعْنى في ذِهْنِ المُتَلَقّي، عَنْ طَريقِ التَّلْميحِ بَدَلَ التَّصْريحِ، مَعَ إيجازٍ ومُبالَغَةٍ في بيانِ المَعاني، إذْ لِلْكِناياتِ أثَرٌ في النُّفوسِ ما لا يكونُ للتّصريحِ والإفصاحِ، فَهُنا يَتِمُّ التّعبيرُ بالكنايةِ عن المعاني البَليغةِ الكَثيفَةِ المُرتَبِطَةِ بالنّارِ، معَ الإضافَةِ والزّيادَةِ بما تُحدِثُه تلكَ الكِنايةُ مِنْ تَهْويلٍ وتَخْويفٍ مِنْ هذا المَصيرِ المُهينِ. ولَيْسَ هُناكَ مِنْ شَكٍ في أنَّ الكِنايةَ عنِ النّارِ بَقوْلِه: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ أبْلَغُ في هذا السّياقِ مِنَ الإفْصاحِ، إذِ التَّعْريضُ هَهُنا أوْقَعُ في النَّفْسِ مِنَ التَّصْريحِ[2].

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصّل: 4/ 526.

(2) الجُرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 53.

بَلاغَةُ التَّفْصيلِ والبَيانِ بَعْدَ الإجْمالِ:

تَفْصيلُ مَرْجِعِ الطّاغينَ تَخْويفٌ وتَرْهيبٌ بأوْضَحِ عِبارَةٍ

لَمّا أجْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ مَصيرَ الطّاغينَ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ عَقَّبَ عَلَيْهِ بما يوَضِّحُهُ ويُبَيِّنُه بِقَوْلِه: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾، فَهوَ كَقَوْلِه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41] فَشَبَّهَتِ الآيةُ ما تَحْتَهم مِنَ النّارِ بِالمِهادِ الّذي يَفْتَرِشُهُ النّائِمُ[1]. ولا يَخْفَى ما لِلْبَيانِ والتَّفْصيلِ بَعْدَ الكنايةِ والإجمالِ مِنْ وقْعٍ في النَّفْسِ؛ لأَنَّهُ عِنْدَ الإجْمالِ تَتَطَلَّعُ النَّفْسُ وتَسْتَشْرِفُ إلَى التَّفْصيلِ، وفي تَفْصيلِ مَرْجِعِ الطّاغينَ تَخْويفٌ وتَرْهيبٌ من السَّيْرِ في سبيلِهم الّتي سَلَكوها، بأوْضَحِ عِبارَةٍ. فَيَجوزُ في قولِه: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ يجوز أن يكون بَدَلًا مِنْ (شَرَّ مَآبٍ) أوْ مَنْصوبَةً بإضْمارِ فِعْلٍ تَقْديرُهُ: (أعْني)، ويَجوز أنْ تَكونَ عَطْفَ بَيانٍ، وأنْ تَكونَ مَنْصوبَةً بِفِعْلٍ يَتَقَدَّمُهُ عَلَى الاشْتِغالِ، أي: (يَصْلَوْنَ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها)[2].

بَلاغَةُ جُمْلَةِ الحالِ:

بيانٌ لِمَبْلَغِ ما يُساقُ إليهِ الطّاغونَ من العَذابِ

جاءَتْ جُمْلَةُ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ في مَحَلِّ نَصْبٍ، حالٌ من ﴿جَهَنَّمَ﴾ أي: يَدْخُلونَها، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ لمعنى اللّامِ الّذي هو عاملٌ في (الطّاغين)؛ فإنَّ معنى اللّامِ أنَّ جهنَّمَ تَختصُّ بهم، وأنّ اختصاصَها بِهِم هو أنْ تُذيقَهم عذابَها؛ لأنَّ العذابَ ذاتيٌّ لجهنَّم.

دَلالَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ المُضارِعِ:

تَصْويرُ المَشْهَدِ واسْتِحْضارُ الصّورَةِ أشَدُّ مُبالَغَةً في التَّرْويعِ والتَّفَجُّعِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا﴾ آثَرَ النَّظْمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفِعْلِ المُضارعِ الدّالِ على التَّجَدُّدِ والاسْتمرار، إذِ الفعلُ المضارعُ يفيدُ مَعَ الحدوثِ الحاضرِ ظاهرةَ التَّجدُّدِ والتّتابُعِ[3]، وهنا جاء للدّلالَةِ على أنَّ حُلولَهم في قَعْرِ جَهَنَّمَ المُظْلِمِ وصَلْيِهِم بَحَرِّها كائنانِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 403.
(2) ابن عادل، اللّباب: 16/ 440.
(3) حسن، البلاغة العربية: 1/ 516.

على وجْهِ الدَّوام والاسْتِمرار، كَما أنَّ التَّعبيرَ بِصيغَةِ المُضارَعَةِ تَصْويرٌ للمَشْهَدِ واستِحْضارٌ للصّورَةِ في الذِّهْنِ، وهذا التَّصْويرُ وهذا الاسْتِحْضارُ أشَدُّ مُبالَغَةً في التَّرويعِ والتَّفَجُّعِ على مَصيرِهم المُهينِ البائِسِ.

نَوْعُ الفاءِ ودلالتُها:

تَرَتُّبُ البؤسِ في المِهادِ المُهينِ على دُخولِ جَهَنَّمَ

جاءَتِ الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ لِتَرْتيبِ الإخْبارِ وتَسَبُّبِهِ عَلى ما قَبْلَهُ، وهوَ نَظيرُ عَطْفِ الجُمَلِ بِـ (ثُمَّ)، وهي كالفاءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: 17] بَعْدَ قَوْلِهِ ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥﴾ [الأنفال: 15]، وهَذا اسْتِعْمالٌ بَديعٌ كَثيرٌ في القُرْآنِ، وهو يَنْدَرِجُ في اسْتِعْمالاتِ الفاءِ العاطِفَةِ[1]، وتَحتَمِلُ الفاءُ أنْ تكونَ الفصيحةَ، أيْ إنْ أردتَ أنْ تَعلمَ حقيقةَ جهنَّمَ فهي بِئْسَ المِهاد[2].

بَلاغَةُ جُمْلَةِ الذَّمِّ:

التَّنْبيهُ على سوءِ المصيرِ والاخْتِصارُ والإيجاز

استعملَ النَّظْمُ الكريمُ الفعلَ (بِئْسَ) في قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ الدّالَّ على الذَّمِّ، وهوَ فِعْلٌ جامِدٌ غيرُ مُشْتَقٍّ، لا يدْخُلُه التَّصْريفُ، وأصْلُه من البُؤْسِ، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بأسلوبِ الذَّمِّ على سوءِ المآلِ، وقُبْحِ المَرْجِعِ، وشِدَّةِ المَصيرِ، فَنَبَّهَ على سوءِ المَصيرِ وحَذَّرَ مِنْ مَغَبَّةِ الطُّغيانِ والتَّكْذيبِ، ثُمَّ حذف النَّظمُ الحكيمُ المَخْصوصَ بالذَّمِ في قولِه سبحانه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ اخْتِصارًا وإيجازًا؛ والمَخْصوصُ بالذَّمِّ المَحْذوفُ عائِدٌ على جَهَنَّمَ، وأصلُ الكلامِ: فَبِئْسَ المِهادُ جَهَنَّمُ، والمعنى: "بِئسَ الفِراشُ الّذي افترَشوه لأنفسِهم جهنَّمُ"[3]. وهذا الحذفُ اختصارٌ لدلالة صَدْرِ الآيةِ عليه وهو قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 285.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 374.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 126.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ فِي اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾:

مِهادُ الطّاغينَ جَمْرٌ ونارٌ، ومِهادُ المُتَّقينَ فُرُشٌ وثيرَةٌ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ مُفْرَدَةَ ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ تَعْبيرًا عنْ فِراشِ أَهْلِ النّارِ، وقَدِ اسْتُعيرَ مِمّا يَفْتَرِشُهُ النّائِمُ، والمَهْدُ كالمِهادِ، وقَدْ يُخَصُّ بِمَقَرِّ الطِّفْلِ[1]، والمُرادُ أَنَّهُ لا فِراشَ لَهم غَيْرُ جَمْرِها؛ فَكانَ التَّقْديرُ: (فَيَكونُ مِهادًا لَهُمْ)؛ لِتُحيطَ بِهِمْ؛ فَيَعُمَّهم صَلْيُها. وفي استِعْمالِ هذِهِ المُفْرَدَةِ تَهَكُّمٌ وتَوبيخٌ لَهُم على طُغْيانِهم وتَكْذيبِهم؛ فَإِنَّ فائِدَةَ الفِراشِ تَنْعيمُ الجَسَدِ؛ وهَذِهِ تُذيبُ الجِلْدَ واللَّحْمَ؛ ثُمَّ يَعودُ في الحالِ؛ كُلَّما ذابَ عادَ؛ عُقوبَةً لَهُمْ؛ لِيُرِيَهُمُ اللّهُ ما كانوا يُكَذِّبونَ بِهِ مِنَ الإعادَةِ في كُلِّ وقْتٍ دائِمًا أَبَدًا؛ كَما كانوا يَعْتَقِدونَ ذَلِكَ دائِمًا أَبَدًا؛ جَزاءً وِفاقًا؛ عَكْسَ ما لِأَهْلِ الجَنَّةِ مِنَ التَّنْعيمِ؛ والتَّلْذيذِ؛ بِإِعادَةِ كُلِّ ما قَطَعوا مِن فاكِهَتِها؛ وأَكَلوا مِن طَيْرِها؛ لِأَنَّهم يَعْتَقِدونَ الإعادَةَ؛ فَنالوا هَذِهِ السَّعادَةَ[2].

دلالَةُ تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾:

التَّوْبيخُ والتَّهَكُّمُ جَزاءُ الطُّغْيانِ والعِصْيانِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلۡمِهَادُ﴾ مُعَرَّفَةً بِلامِ العَهْدِ، والمَعْهودُ مَعْروفٌ، لِكَوْنِه مذْكورًا، وهوَ جَهَنَّمُ، ومِنْ أَغْراضِ ذِكْرِه وتَعْريفِه في أَنْ يكونَ اسمًا لِجَهَنَّمَ هو التَّهَكُّمُ بالعصاةِ؛ لأَنَّهم يُلْقَوْنَ فيها، فَتُصادِفُ جُنوبَهُم وظُهورَهُم، وعِنْدَئِذٍ لنْ يَسْتَطيعُ المُلْقَى في جَهَنَّمَ أَنْ يَتَصَرَّفَ لَحْظَةَ وضْعِهِ في النّارِ، كَما لا يَسْتَطيعُ الطِّفْلُ الوليدُ أن يَتَصَرَّفَ في مِهادِه[3].

بَلاغَةُ الفَصْلِ ودلالته:

ذَوْقُ الحميمِ والغَسّاقِ مِنْ صَلْيِ جَهنَّمَ وبِئسَ المِهاد

ابْتَدَأَ النَّظْمُ الحكيمُ الآيَةَ الكَريمَةَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ باسمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾، فَفَصَلَ بيْنَ الجُمْلَتَينِ، لِكَمالِ الاتصالِ بينَهُما، إِذِ الجُمْلَتانِ خَبَرِيّتانِ لفظًا

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 405.

(3) الشّعراويّ، الخواطر: 12/ 7274.

ومَعْنًى، وبيْنَهُما منِ الاتِّصالِ والاتِّحادِ والتَّلاحُم المَعْنَويِّ ما يَمْنَعُ العَطْفَ بالواو؛ لأنَّ العَطْفَ وصْلٌ خارِجيٌّ، فالجُمْلَةُ الثّانيَةُ بِمَنْزِلَةِ التَّوكيدِ المَعْنَويِّ، لأنَّ الثانيَةَ مُقَرِّرَةٌ لِمَعْنَى الأولى، وجملةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُرتَّبَةٌ على الجملةِ الّتي قبلَها فهي بمنزلةِ جزاءِ شرطٍ محذوفٍ[1]، إذْ إنَّ ذوقَهم الحميمَ والغسّاق هو مِنْ صَلْيِ جَهنَّم، ومن بئس المهادِ.

وَظيفَةُ اسْمِ الإشارَةِ للقَريبِ:

تَصْويرُ المَشْهَدِ وتَهْويلِه وتَحْذيرٌ مِنْ مُلاقاةِ مَصيرِ الطّاغينَ

استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ اسم الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ الَّذي يُفيدُ الإشارَةَ للقَريبِ لِتَقْريبِ الإنْذارِ، والمُشارُ إلَيْه ما تَضمَّنَهُ قَوْلُهُ ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ مِنَ الصَّلْيِ ومِن مَعْنى العَذابِ، أوِ الإشارَةُ إلى (شَرّ) الّذي ورَدَ في قَوْلِه تعالى: ﴿لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾[2]. وعلى التَّقْديرَيْنِ كليهما يَنْبَني تَحْذيرٌ مُخيفٌ مِنْ مُلاقاةِ مَصيرِ الطّاغينَ جزاءَ تَكْذيبِهم وعِصْيانِهم. ولِاسم الإشارةِ دلالةٌ عجيبةٌ في استحضارِ صورةِ العذابِ، وما يكون في جهنَّم من الويلات، كأنَّ المخاطَبينَ من الطّاغين يُلاقونَها.

نَوْعُ الفاءِ ومَعْناها:

تَـرَتُّـبُ تَّـذَوُّقِ الـحَـمـيـمِ والـغَـسّـاقِ على التَّصْليَةِ في مِهادِ الجحيمِ

جاءَتِ الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ اعتراضيَّةً، وهذا من الاعتراضِ المقترنِ بالفاءِ دونَ الواوِ، والفاءُ فيه كالفاءِ في قوله: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾؛ فهي لِتَرْتيبِ الإخْبارِ وتَسَبُّبِه عَلى ما قَبْلَهُ، نَظيرُ عَطْفِ الجُمَلِ بـِ (ثُمَّ) وهي أيضًا كالفاءِ في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ﴾ [الأنفال: 17] بَعْدَ قَوْلِه ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ١٥﴾ [الأنفال: 15]، وهَذا اسْتِعْمالٌ بَديعٌ كَثيرٌ في القُرْآنِ، وهو يَنْدَرِجُ في اسْتِعْمالاتِ الفاءِ العاطِفَةِ[3]، فأفادَتِ الفاءُ تَرَتُّبَ تَذَوُّقِ الحَميم

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 286.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 285.

والغَسّاقِ على التّصْليَةِ في مِهادِ الجحيم، فالجُمْلَةُ مُرَتَّبَةٌ عَلى الجُمْلَةِ قبْلَها، فَهي بِمَنزِلَةِ جَزاءِ شَرْطٍ مَحْذوفٍ، والفاءُ تَفْسيريَّةٌ تَعْقيبيَّةٌ، وتُشْعِرُ بِأنَّ لَهم إذاقَةً بَعْدَ إذاقَةٍ[1].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

من أغراضِ فِعلِ الأمْرِ التّهكُّمُ بالطُّغاةِ

اللّامُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ للأمْرِ، والأمْرُ هَهُنا للتَّهَكُّمِ والتَّوبيخ، والمُراد: إذا كنْتُم قدْ أعرضْتُم في الدُّنيا عنِ الهَدْيِ الإلَهيّ، وجاوزْتُم الحدَّ في العِصْيانِ، فَذوقوا جَزاءَ عِصْيانِكُم من هذا الصَّديدِ والقيحِ الّذي تَناهَى حرُّهُ، زيادَةً على نَتَنِه، فلن تَملِكوا الامتناعَ عنِ الأمْرِ كما كنتُم تَمْتَنعونَ في الدنيا، فَمَهْما بَلَغَ بِكُمُ الاشْمِئزازُ من هذا المَطْعومِ والمَشْروبِ فَلنْ تستطيعوا الامتناعَ عنْ تَذَوُّقه، لِهوانِكُم على اللّهِ تعالى.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّهَكُّمِيَّةِ:

استعمالُ التَّذَوُّقِ لما تَنْفِرُ منه الطِّباعُ السَّليمةُ تَهكُّمٌ واستِهْزاءٌ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ فعلَ الذّوقِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ والأصْلُ في التَّذَوُّقِ أنْ يَكونَ لِما يُشْتَهى مِنَ المَطْعومِ أو المَشْروبِ، ثُمَّ استعيرَ لِغَيرِه، وأنْ يَكونَ للقَليلِ دونَ الكثيرِ، ولكِنَّ البيانَ القرآنيَّ أتى به في هذا السّياقِ لِما تَنْفِرُ منه الطِّباعُ السَّليمَةُ تَهَكُّمًا واستِهْزاءً بِهِم، بسببِ طُغيانِهم وتَجَبُّرِهم. كما أنَّ الحميمَ والغَسّاقَ إنَّما هُما غالبُ طَعامِ أهلِ النّارِ، فأتى بالفعلِ ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ لأنّ ذَلِكَ - وإنْ كانَ في التَّعارُفِ للقَليلِ - فَهوَ مُسْتَصْلَحٌ للكَثيرِ، فَخَصَّه بِالذِّكْرِ لِيَعُمَّ الأمْرَينِ[2]. وفي ذلِكَ بيانٌ لِمَبْلَغِ هَوانِهم وقِلَّةِ شأْنِهم.

نُكْتَةُ الجُمْلَةِ المُعْتَرِضَةِ:

تقديمُ ذِكرِ الجملةِ المُعْتَرِضَةِ مُبالَغَةٌ في التَّهَكُّمِ

ذَهَبَ كثيرٌ من المُعربينَ إلى أنَّ جملَةَ ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ جُمْلَةٌ مُعْتَرِضَةٌ بينَ المبتدأِ ﴿هَٰذَا﴾ وخبرِه ﴿حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾[3]، وأشاروا إلَى أنَّ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.
(2) الرّاغب، المفردات: (ذوق).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.

الأصلَ: (هذا حميمٌ وغسّاقٌ فليَذوقوه)، وقُدِّمَتِ الجُملَةُ وجُعِلَتْ مُعْتَرِضَةً بينَ رُكْنَي الجُملَةَ - على إعراب ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأً، و﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ خبرًا - حِرْصًا على المُبالَغَةِ في التَّهكُّم، فكأنَّ السّامعَ لَمّا يَطْرُقُ سَمْعَه ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ يَتَوَقَّعُ شيئًا مَطْعومًا أو مشْروبًا حقًّا، ثم تأتي كَلِمَتا ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ فتؤكِّدانِ مَهانَةَ هؤلاءِ الطّاغينَ المُكذِّبينَ.

بَراعَةُ الجَمْعِ بَيْنَ لَفْظَيْ ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾:

الجَمْعُ بينَ ما لا تستطيعه الأبدانُ وما تعافه الأنفسُ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ جَمَعَ النَّظْمُ بينَ كَلِمَتَيْ ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، والحَميمُ هوَ الماءُ الشَّديدُ الحَرارَةِ، والغَسّاقُ سائِلٌ يَسيلُ في جَهَنَّمَ، وهَوَ سائِلٌ مُنْتِنٌ، فَفي الحديثِ: أن النَّبي ﷺ قالَ: «لَو أنَّ دَلْوًا من غَسّاقٍ، يُهَراقُ في الدُّنْيا، لأَنْتَنَ أهْلَها»[1]، وقيلَ: هوَ دُموعُهُمُ الَّتي تَخْرُجُ مِنْ عُيونِهم لِكَثْرَةِ بُكائِها يُسْقَوْنَها مِنَ الحَميمِ[2]، فَجَمَعَتِ الآيةُ بين نوعينِ من السّوائلِ، وهو ما يكونُ حارًّا، وما يقْطُرُ من أجسادِهم نتيجة التّعذيب، فأحدُ السّائلين حارٌّ غير مقدورٍ عليه، والآخر منتِنٌ تَعافُهُ النَّفْسُ، فالجمعُ هو بين سائِلَينِ مآلُهما عذابٌ شديدٌ على أهلِ النّارِ.

فائدةُ تَنْكيرِ لَفْظَيْ ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾:

تَهْويلُ ما يشربُه الطُّغاةُ وتحقيرُ حالِهم

ذَكَرَ علماءُ البلاغةِ أنَّ مِنْ أغراضِ استعمالِ النَّكرةِ التَّهويلَ والتَّخويفَ، نحوَ قولِه تعالى عن يوم الحساب: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: 48][3]، وهنا في قولِه تعالى: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ جاءَتْ هاتان الكَلِمَتان نَكِرَتَينِ لإفادَةِ التَّهْويلِ والتَّخْويفِ والتَّرْهيبِ، حَتَّى تَذْهَبَ النَّفْسُ في كُنْهِهما كُلَّ مَذْهَبٍ، وتَتَحَيَّرَ في

---

(1) الحديث أخرجه التّرمذيّ في سننه، كتاب صفة جهنّم، باب ما جاء في صفة شراب أهل النّار حديث رقم: (2787)، والبيهقي في البعث، برقم: (604)، وصحّحه الحاكم في مستدركه، برقم: (8932)، وأقرّه الذّهبيّ.

(2) السّمين، عُمْدَةُ الحُفّاظ: (غسق).

(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/ 40.

الإحاطَةِ بأوْصافِهِما، فتَشْمَلُ كُلَّ وصفٍ مُنَفِّرٍ مُقَزِّزٍ، حَتى يَرْعَوِيَ الطّاغونَ المُكَذِّبونَ عنْ تَكْذيبِ الحَقِّ المُسْتَقيم، ولِكَيْ يَحْذَرَ المُؤمنُ مِنَ السَّيْرِ على سبيلِهِم المُضَلِّلَة.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القرآنيّة:

المُفْرَدَةُ في قراءَةِ التَّخْفيفِ اسمٌ، وفي قِراءَةِ التَّشْديدِ وصْفٌ

جاءَ في كَلِمَةِ ﴿وَغَسَّاقٌ﴾ قِراءاتان، فَقَرَأ حَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ وحَفْصٌ بِتَشْديدِ السّينِ في المَوْضِعَيْنِ من سورةِ (ص) والنَّبأ. وقَرَأ الباقونَ بِتَخْفيفِها فيها ﴿وَغَسَاقٌ﴾[1]، فَهوَ في قِراءَةِ الجَماعَةِ بِالتَّخْفيفِ اسْمٌ؛ كَـ(العَذابُ)؛ و(النَّكالُ)؛ وقيلَ هُما لُغَتانِ، وقيلَ: غَسّاقٌ بِالتَّشْديدِ مُبالَغَةٌ في غَساقٍ بِمَعْنى سائِلٍ، فَهو عَلى هَذا وصْفٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ ولَيْسَ اسْمًا لِأنَّ الأسْماءَ الَّتي عَلى زِنَةِ فَعّالٍ قَليلَةٌ في كَلامِهِمْ[2].

دلالَةُ صيغَةِ (غَسّاقٌ):

صيغَةُ التَّشْديدِ تُشيرُ إلى شِدَّةِ عَذابِهِ وسوءِ وقْعِهِ على أهْلِ النّارِ

جاءَتْ كَلِمَةُ (غَسّاقٌ) في إحدى القِراءَتينِ المُتَواتِرَتينِ - كما مرّ - على وزْنِ (فَعّال): ﴿وَغَسَّاقٌ﴾، وفي القِراءةِ الأُخْرَى بغيرِ تَشْديدٍ ﴿وَغَسَاقٌ﴾، فَذَهَبَ البِقاعيُّ إلى أنَّ قِراءَةَ التَّشْديدِ تُشيرُ إلى شِدَّةِ أمْرِهِ في جَميعِ ما اسْتُعْمِلَ فيهِ مِنَ السَّيَلانِ والبَرْدِ والسَّوادِ[3]، وعَلَّلَ ذَلِكَ الآلوسيُّ بأنَّ الوَصْفيَّةَ في المُشَدَّدِ أظْهَرُ لِأنَّ فَعّالًا بِالتَّشْديدِ قَليلٌ في الأسْماءِ[4].

في حين أشارَ الطّاهِرُ ابن عاشورٍ إلى أنَّ هَذِهِ الزِّنَةَ من هَذِهِ المادَّةِ رُبَّما لَمْ تَكُنْ مَعْروفَةً عِنْدَ العَرَبِ، وبِذَلِكَ يومِئُ كَلامُ الرّاغِبِ في مُفرداته. وهَذا سَبَبُ اخْتِلافِ المُفَسِّرينَ في المُرادِ منهُ. والأظْهَرُ أنَّهُ صيغَ لَهُ هَذا الوَزْنُ لِيَكونَ اسْمًا لِشَيْءٍ يُشْبِهُ ما يُغْسَقُ بِهِ الجُرْحُ،

---

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 361.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 285.

(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 403.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 205.

ولِذَلكَ سُمّيَ بالمُهْلِ والصَّديدِ في آياتٍ أُخْرى[1]. ولِهَذِه الصّيغَةِ وقْعٌ شَديدٌ في الأُذُنِ يوحي بِثِقَلِ العَذابِ وشِدَّةِ وطْأتِه.

نُكْتَةُ حَذْفِ المَوصوفِ:

حُذِفَ المَوْصوفُ لِتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصويرِه كُلَّ مَذْهَبٍ

حَذَفَ النَّظْمُ الحكيمُ مَوْصوف كَلِمَةِ (آخَرُ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾، فـ(آخرُ) صِفَةٌ لِمَوْصوفٍ مَحْذوفٍ دَلَّتْ عَلَيْه الإشارَةُ بِقَولِه ﴿هَٰذَا﴾ وضَميرُ ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ ووَصْفُ (آخَرُ) يَدُلُّ عَلى مُغايرٍ، وقَوْلُهُ ﴿مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾ يَدُلُّ أيضًا عَلى أنَّهُ مُغايرٌ لَهُ بالذّاتِ وموافِقٌ في النَّوْعِ، فَحَصَلَ من ذَلِكَ أنَّهُ عَذابٌ آخَرُ أوْ مَذوقٌ آخَرُ[2]. وقدْ حَذَفَ النَّظْمُ المَوْصوفَ لِتَذْهَبَ النَّفْسُ في تَصويرِه كُلَّ مَذْهَبٍ، فتَتَخَيَّلَ هَوْلَهُ وشِدَّتَه على أبْشَعِ الوُجوهِ، أي: عذابٌ آخرُ غيرُ المذكورِ.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ:

قِراءَةُ الإفْرادِ لِجِنْسِ العذابِ، وقِراءَةُ الجَمْعِ لِتَعَدُّدِ أنْواعِه وضُروبِه

وَرَدَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ قراءاتانِ، فَقَرَأ البَصْريّانِ بِضَمِّ الهَمْزَةِ مِنْ غَيْرِ مَدٍّ عَلَى الجَمْعِ ﴿وَأُخَرُ﴾، وقَرَأ الباقونَ بِفَتْحِ الهَمْزَةِ وألِفٍ بَعْدَها عَلَى التَّوْحيدِ[3]، أيْ عَذابٌ آخَرُ، أمّا عَلى القراءَةِ الأولى فَقَوْلُهُ: ﴿وَءَاخَرُ﴾ أيْ: ومَذوقاتٌ أُخَرُ مِن شَكْلِ هَذا المَذوقِ، أيْ من مِثْلِه في الشِّدَّةِ والفَظاعَةِ، وأمّا عَلى القِراءَةِ الثّانيَةِ فالتَّقْديرُ و(عَذابٌ أوْ مَذوقٌ آخَرُ)، وأزْواجٌ صِفَةٌ (لِآخَرَ) لِأنَّهُ يَجوزُ أنْ يَكونَ ضُروبًا، أوْ صِفَةً لِلثَّلاثَةِ، وهي ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ۝٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ﴾[4]. فَقِراءَةُ الإفْرادِ لِجِنْسِ العذابِ، وقِراءَةُ الجَمْعِ لِتَعَدُّدِ أنْواعِه وضُروبِه.

نَوْعُ ﴿مِن﴾ ودَلالَتُها:

جاءَتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 285.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 287.
(3) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 361.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 404.

للابْتِداءِ، فِهي دالَّةٌ على ابتداءِ تَشْبيهِ هذا العذابِ أو المَذوقِ التّالي بالعَذابِ الأوَّلِ المَذْكورِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، فَحاصِلُ مَعْنى الآيَةِ: أنَّ لِأَهْلِ النّارِ حَميمًا وغَسّاقًا وأنْواعًا مِنَ العَذابِ مِن مِثْلِ الحَميمِ والغَسّاقِ[1]، فَعذابُ الكُفّارِ قد يَشْتَرِكُ في الشَّكْلِ ويُغايِرُه في الألَمِ نِكايَةً بِهِم، وجَزاءً لَهُم على استِكْبارِهم وطُغْيانِهم وصَدِّهِم السبيلَ عنْ قبولِ دَعوةِ الحَقِّ.

عذابُ الكُفّارِ قد يَشْتَرِكُ في الشَّكْلِ ويُغايِرُه في الألَمِ نِكايَةً بِهِم

نُكْتَةُ الجمْعِ بَينَ لَفظِ ﴿وَءَاخَرُ﴾ ولَفْظِ ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾:

تَفْويضُ عَقْلِ السّامِعِ إلى اسْتِنْباطِ وجْهِ المُشاكَلَةِ

جَمَعَ النَّظْمُ الحكيمُ بينَ لَفظِ ﴿وَءَاخَرُ﴾ ولَفْظِ ﴿شَكْلِهِۦٓ﴾، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾، والمُرادُ عَذابٌ مُخْتَلِفٌ مِنْ وجْهٍ، ومُشابِهٌ مِنْ وجهٍ، فقدْ أجْمَلَ المَعْنَى في لفْظ (آخرُ)، ثُمَّ أتَى بِتفْسيرِه جُمْلَةً في قَولِه ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾، دونَ بيانٍ لِوَجْهِ التَّشابُهِ والمُماثَلة، وفَوَّضَ إلَى عَقْلِ السّامعِ اسْتِنْباطَ وجْهِ المُشاكَلَةِ على الوَجهِ اللّائِقِ بالسّياقِ، فَنَبَّهَ اللَّفظُ إلى مَبْلَغِ هَذا العَذابِ المُهينِ وحَرَّضَ على الحَذَرِ ممّا يُؤَدّي إلى الضَّلالِ.

غَرَضُ تَقْديمِ ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ عَلَى ﴿أَزْوَٰجٌ﴾:

الاهْتِمامُ بِبَيانِ صِلَةِ هذا العَذابِ بِسابِقِهِ

كثيرًا ما يكونُ التقديمُ في البلاغة للاهْتمام به، وللتَّشْويقِ إلى ما تَمَّ تأخيرُه[2]، إذِ التَّقديم في الأصل للعنايةِ والاهتمام[3]. وهنا قَدَّمَ النَّظْمُ الجليلُ شِبْهَ الجُملَةِ ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ على كَلِمَةِ ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ وذلكَ على اختلافِ تقديرِ مَواقِعِهِما الإعرابيَّة، للاهْتِمامِ بِبَيانِ مدى الارْتِباطِ بينَ هذا العَذابِ وبينَ سابِقِه، أيْ: وعَذابٌ آخَرُ غَيْرُ ذَلكَ الَّذي ذاقوهُ مِنَ الحَميمِ والغَسّاقِ، فَهوَ مِثْلُ ذَلِكَ المُشارِ إلَيْهِ أوْ مِثْلُ ذَلِكَ الذَّوقِ في التَّعْذيبِ والألَمِ.

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 506.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/ 9.

(3) السَّامرّائيّ، أسرار البيان: 21.

عِلَّةُ إفرادِ الضَّميرِ:

أُفْرِدَ ضميرُ ﴿شَكۡلِهِۦٓ﴾ مَعَ أنَّه يعود إلى المثنَّى ﴿حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾ نَظَرًا إلى إفْرادِ اسْمِ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾، أوْ إلى إفْرادِ (مَذوقٍ) المَأْخوذِ من ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾[1].

بَراعَةُ اسْتِعْمالِ ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ في مَعْنَى (أصْنافٌ):

اجْتِماعُ ألوانِ العذابِ وأصْنافِهِ مِنْ سوءِ مآلِ أهلِ الجَحيمِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ كِلِمَةَ ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ للتَّعبيرِ عَمّا يُلاقيه الطّاغونَ مِنْ أصنافِ العَذابِ في جهنَّم، وذلكَ لأنَّ الأصلَ في الزَّوْجِ الصِّنْفُ والنَّوْعُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، وكُلُّ شَيْئَيْنِ مُقْتَرِنَيْنِ، شَكْلَيْنِ كانا أو نَقيضَيْنِ، فَهُما زَوْجانِ؛ وكلُّ واحِدٍ مِنْهُما زَوْجٌ[2]؛ والمُرادُ بالأزْواجِ: أصْنافٌ وألوانٌ وأنْواعٌ مِنَ العَذابِ، ووَصَفَهُ بالأزواجِ، لأنه عَنَى بِهِ الأنواعَ مِنَ العَذابِ والأصنافَ مِنْهُ[3]، والمَعْنى: وعَذابٌ آخَرُ هو أزْواجُ أصْنافٍ كَثيرَةٍ، فاجْتِماعُ ألوانِ العَذابِ وأصْنافِهِ دليلٌ على سوءِ مآلِ أهْلِ الجَحيمِ وشَرِّ مآبِهِم، فاللونُ الواحدُ من العذابِ، والصنفُ الواحدُ عبارةٌ عن أزواجٍ.

نُكْتَةُ جَمْعِ لَفْظِ ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ وتَنْكيرِها:

جاءَتِ الصّيغَةُ بالجَمْعِ والتَّنْكيرِ للتَّكْثيرِ والتَّهْويلِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿أَزۡوَٰجٌ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ جَمْعًا للدّلالَةِ على اجْتِماعِ أصْنافٍ مِنَ العَذابِ على المُكَذِّبينَ الطّاغينَ[4]، وجاءَتْ نَكِرَةً للتَّكْثيرِ والتَّهْويلِ والتَّخْويفِ والإنْذارِ والتَّرْهيبِ، ليَذْهَبَ العقلُ في تصوُّرِ أصنافِ العذابِ كُلَّ مَذْهَبٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 287.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زوج).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 206.
(4) الثَّعْلَبيّ، الكَشْفُ والبيان: 22/ 565.

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ٥٩
قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٦٠
قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾ [ص: 59 - 61]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ من ذكـرِ الـعَـذابِ الـجَـسَـديِّ إلى ذكـرِ الـعَـذابِ النَّفْسي والقَوليّ

لَمّا بيّنتِ الآياتُ السّابقةُ حالَ الطّاغين في النّارِ، وهم سادةُ الكفرِ والشِّرك والفسادِ في الدُّنيا، ناسبَ ذكرُ من سيكون معهم في النّارِ، ممَّن يُشابِهُهُم في أفعالِهم واعتقادِهم، فذكرَ أنْواعًا من العِقابِ، والعَذابِ النَّفْسيِّ بالتَّلاوُمِ والتَّباغُضِ، إذْ لمّا كانَ مِمّا أفْهَمَهُ الكِتابُ في هَذا الخِطابِ أنَّ الطّاغينَ الدّاخِلينَ إلى جَهَنَّمَ أصْنافٌ كَثيرَةٌ؛ وكانَتِ العادَةُ جارِيَةً بِأنَّ الأصْنافَ إذا اجْتَمَعوا كانَتْ مُحاوَراتٌ؛ ولا سيَّما إنْ كانوا مِنَ الطُّغاةِ العُتاةِ؛ تَحَرَّكَ السّامِعُ إلى تَعَرُّفِ ما يَدُلُّ عَلى تَقاوُلِهِمْ بِأقْبَحِ المُقاوَلَةِ؛ وهو التَّخاصُمُ النّاشِئُ عَنِ التَّباغُضِ والتَّدابُرِ؛ الَّذي مِن شَأْنِهِ أنْ يَقَعَ بَيْنَ الَّذينَ دَبَّروا أمْرًا فَعادَ عَلَيْهِمْ بِالوَبالِ؛ في أنَّ كُلًّا مِنهم يُحيلُ ما وقَعَ بِهِ العَكْسَ عَلى صاحِبِهِ؛ وذَلِكَ أشَدُّ لِعَذابِهِمْ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَوۡجٞ﴾ (فوج) أصل يدُلُّ عَلَى تَجَمُّعٍ. مِنْ ذَلِكَ الفَوْجُ، الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ[2]، فَهوَ اسْمُ جَمْعٍ كَقَوم ورَهْطٍ. والجَمْعُ أفْواجٌ، وجَمْعُ الجَمْعِ أفْواجٌ وأفاوِجُ وأفاويجُ[3]. والمَعْنَى المِحْوَريُّ تَجَمُّعٌ مُنْفَصِلٌ عنْ تَجَمُّعٍ غَيْرِه بِقوَّةٍ وانْتِشارٍ ما[4]. والفَوْجُ: الجَماعَةُ المارَّةُ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 405 - 409.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فوج).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فوج).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فوج).

المُسْرِعَةُ، قالَ تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: 2][1].
والمُرادُ بالفَوجِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ لِرُؤَساءِ الطّاغينَ إذا دَخَلوا النّارَ، واقْتَحَمَها مَعَهم فَوْجٌ كانوا يَتْبَعونَهم في الكُفْرِ والضَّلالَةِ[2].

2) ﴿مَرۡحَبَۢا﴾ (رحب) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يَدُلُّ عَلَى السَّعَةِ. مِنْ ذَلِكَ الرُّحْبُ. ومَكانٌ رَحْبٌ. وقَوْلُهُمْ في الدُّعاءِ: مَرْحَبًا: أَتَيْتَ سَعَةً[3]، وقَوْلُهُمْ: مَرْحَبًا وأَهْلًا: أي أَتَيْتَ سَعَةً، وأَتَيْتَ أَهْلًا، فاسْتَأْنِس ولا تَسْتَوْحِشْ[4]. وقَوْلُه تعالى: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ دُعاءٌ مِنَ المَتْبوعينَ عَلى أَتْباعِهِم، سَواءٌ كانَ قائِلُ ما تَقَدَّمَ المَلائِكَةَ عليهم السلام أَوْ بَعْضَ الرُّؤَساءِ لِبَعْضٍ[5]، يَقولونَ لَهُم: لا اتَّسَعَتْ بِكُم مَداخِلُكُم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مائدةُ الكفّار في جهنّم جَدَلٌ وتلاوُمٌ وتَباغُضٌ

بَيَّنَتِ الآياتُ الكريماتُ ما يَقولُه أَهْلُ النّارِ بَعْضُهم لِبَعْضٍ عَلَى سَبيلِ النَّدَمِ والتَّحَسُّرِ والتَّقْريعِ، إذْ يَقولُ الكُفّارُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ بَعْدَ أَنْ رَأَوْا غَيْرَهُم يُلْقَى في النّارِ مَعَهُم، أَوْ قالَتِ المَلائِكَةُ لَهُم عَلى سَبيلِ التَّقْريعِ والتَّأْنيبِ: هذا جَمْعٌ كَثيرٌ مِنْ أَتْباعِكُم وإِخْوانِكُم في الضَّلالِ داخِلٌ مَعَكُم النّارَ وعَلَى غَيْرِ اخْتيارٍ مِنْهُ، وإنَّما يُساقُ إِلَيْها سَوْقًا في ذِلَّةٍ ومَهانَةٍ. وهُنا يَقولُ زُعَماءُ الكُفْرِ: لا مَرْحَبًا ولا أَهْلًا بِهَؤُلاءِ الدّاخِلينَ في النّارِ مَعَنا، وهُنا يَحْكي القُرْآنُ رَدَّ الفَوْجِ المُقْتَحِمِ لِلنّارِ مَعَهُم فَيَقولُ الدّاخِلونَ في النّارِ: بَلْ أَنْتُم الَّذينَ لا مَرْحَبًا بِكُم، وإِنَّما الضّيقُ والهَلاكُ لَكُم. فَرَدّوا قائِلينَ: لا مَرْحَبًا بِكُم لِأَنَّكُم أَنْتُم

(1) الرّاغب، المفردات: (فوج).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 233.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (رحب).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/ 230.

أيُّها الزُّعماءُ الَّذينَ تَسَبَّبْتُم لَنا دُخولَ النّارِ مَعَكُم، إذْ دَعَوْتُمونا في الدُّنْيا إلَى الكُفْرِ فاتَّبَعْناكُم، فَبِئْسَ القَرارُ والمَنْزِلُ لَنا ولَكُم جَهَنَّمُ، ثُمَّ يُضيفونَ إلَى ذَلِكَ قَوْلَهُم: يا رَبَّنا مَنْ كان سَبَبًا في نِزولِ هذا العَذابِ بِنا، فَزِدْهُ عَذابًا مُضاعَفًا في النّارِ، ونظيرُ هذه الآيةِ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: 67 - 68][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الفَصْلِ فِي الجُمْلَةِ:

ابتداءُ الكلامِ لحكايةِ حالِ الاختصامِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ لأنَّ الجملةَ ابتداءُ كلامٍ، كَلامٍ حُكِيَ بِهِ تَخاصُمُ المُشْرِكينَ في النّارِ فيما بَيْنَهم إذا دَخَلوها، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى في آخِرِهِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾ [ص: 64]، وجَرَيانُهُ بَيْنَهم لِيَزْدادوا مَقْتًا بِأنْ يُضافَ إلى عَذابِهِمُ الجُسْمانيِّ عَذابُ أَنْفُسِهِمْ بِرُجوعِ بَعْضِهِمْ عَلى بَعْضٍ بِالتَّنْديمِ وسوءِ المُعامَلَةِ[2].

غَرَضُ حَذْفِ فِعْلِ القَوْلِ:

تحريكُ الأذهانِ لمعرفةِ محذوفاتِ القرآنِ من دواعي ترسيخِ الأفهامِ

حَذَفَ النَّظْمُ الحكيمُ فِعْلَ القَوْلِ مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾، ذَلِكَ أنَّ جُمْلَةَ ﴿هَٰذَا فَوْجٌ﴾ في مَحَلِّ نَصْبِ مَقولِ قَوْلٍ مُقَدَّرٍ، أي: قالتِ المَلائِكَةُ أوِ الخَزَنَةُ[3]، أو قال الطّاغونَ بَعْضُهم لِبَعْضٍ، فَأُسْلوبُ الكَلامِ يَقْتَضي مُتَكَلِّمًا صادِرًا مِنهُ، وأُسْلوبُ المُقاوَلَةِ يَقْتَضي أنَّ المُتَكَلِّمَ بِهِ هُمُ الطّاغونَ الَّذينَ لَهم شَرُّ المَآبِ؛ لِأَنَّهم أساسُ هَذِهِ القَضِيَّةِ؛ فالتَّقْديرُ: يَقولونَ، أيْ: الطّاغونَ، بَعْضُهم لِبَعْضٍ: هَذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكم، أيْ: يَقولونَ مُشيرينَ إلى

---
(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 287.
(3) الخطيب ومصلوح وآخرون، التّفصيل: 23/ 302 - 303.

فَوْجٍ مِن أهْلِ النّارِ أُقْحِمَ فيهِمْ لَيسوا مِن أكْفائِهِمْ ولا مِن طَبَقَتِهِمْ وهم فَوْجُ الأتْباعِ مِنَ المُشْرِكينَ الَّذينَ اتَّبَعوا الطّاغينَ في الحَياةِ الدُّنْيا، وذَلِكَ ما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ أيْ: أنْتُمْ سَبَبُ إحْضارِ هَذا العَذابِ لَنا. كما قال تعالى في آخِرِ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾ [ص: 64]. وفي حَذْفِ فِعْلِ القَوْلِ بيانٌ لاحْتِدامِ النِّزاعِ بينَ أهْلِ النّارِ أعْجَلَهُم عنْ النُّطْقِ بِفِعْلِ القَوْلِ، أوْ لِبيانِ عُنْصُرِ المُفاجأةِ والذُّهولِ.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ:

تَصْويرُ مَشْهَدِ مُبادَرَةِ الكُفّارِ إلى التَّلاوُمِ والتَّخاصُمِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الجليلُ اسمَ الإشارَةِ ﴿هَٰذَا﴾ للدّلالَةِ على الانْتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، إنْهاءً لِلْغَرَضِ السّابقِ واهتمامًا بالغرضِ اللّاحقِ[1] وهو هنا الإسْراعُ بدُخولِ فَوجِ الكفرة والطغاة إلى ساحَةِ النّيرانِ، فَبِمُجَرَّدِ ظُهورِه إلى ساحَةِ جَهَنَّمَ تَوَّجَهَتِ المَلائكَةُ لَهُم بهذا الحديثِ، أو شَرَعَ الطّاغونَ المُكَذِّبونَ في الحديثِ إلى بَعْضِهم بَعْضًا في إشارَةٍ إلى شِدَّةِ البُغْضِ والتَّلاوُمِ بينَهم، فَلا يُمْهِلُ بَعْضُهُم بعْضًا.

دلالةُ اسْتِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿فَوۡجٞ﴾:

الفَوْجُ الجَماعَةُ الكَثيفَةُ العَدَدِ، المُنْدَفِعَةُ بِسُرْعَةٍ، المُتَتالِيَةُ في الدُّخولِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ استِعْمالَ مُفْرَدَةِ الفَوْجِ، لأنَّ كَلِمَةَ فوجٍ اسْمُ جَمْعٍ كَقَومٍ ورَهْطٍ[2]، فَهيَ تَدُلُّ على تَجَمُّعٍ مُنْفَصِلٍ عنْ تَجَمُّعِ غَيْرِه بِقوَّةٍ وانْتِشارٍ ما. وهي تَنْفَرِدُ ببعضِ الدّلالاتِ التي لا توجدُ في غيرِها، فالفَوْجُ الجَماعَةُ الكَثيرَةُ، الّتي تدخلُ وتتلوها أخرى، فدلَّ اللّفظُ على أنَّ هناك أفواجًا تدخلُ النّارَ كلَّما دخل فوجٌ تَبِعَه آخرُ، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 232.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فوج).

لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: 38].

بلاغةُ استعمال مفردةِ ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾:

تهوينُ شأنِ أهل النّار بدفعِهم مرّةً واحدة

وَصفَ النَّظْمُ الجليلُ الفَوْجَ بِصِفَةِ الاقْتِحام في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ للدّلالَةِ على أنَّ الطّاغينَ وأتْباعَهُم يَدْخُلونَ النّارَ جَماعاتٍ كَثيفَةً، مُشاةً مُسْرِعينَ؛ ويَكونونَ من شِدَّةِ ما تَدْفَعُهُمُ الزَّبانيَةُ عَلى هَيْئَةِ الواثِبِ لِشِدَّةِ هَوانِهِم وذُلِّهِم، إذِ الاقْتِحامُ رُكوبُ الشِّدَّةِ والدُّخولُ فيها، والقُحْمَةُ: الشِّدَّةُ[1].

نكتةُ إفْرادِ ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾:

الإيماءُ إلى أنَّ الاقتحامَ سيكون دفعةً واحدةً

أُفرِد وصفُ الفوجِ بأنَّه ﴿مُّقْتَحِمٌ﴾ إشارَةً إلى أنَّهم في الموافَقَةِ فيهِ والتَّسابُقِ كَأنَّهم نَفْسٌ واحِدَةٌ، أي: كأنَّهُم فَردٌ واحدٌ رامٍ بِنَفْسِهِ في الشِّدَّةِ فُجاءَةً بِلا رَوِيَّةٍ[2]، وما ذاكَ إلّا لِشِدَّةِ عَذابِهِم وبُؤْسِهِم، ولهذا الإيماءِ لم يقل: (هذا فوجٌ مقتحمون) ليرجعَ الجمعُ على معنى الفوجِ.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾:

تهوينُ شأنِ الكُفّارِ وتحقيرُ مآلِهم

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ جاءتْ كَلِمَتا ﴿فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾ نَكِرَتَينِ لِبيانِ حَقارَةِ شأْنِ الطُّغاةِ وأتباعِهم، ولِلتَّهوينِ مِنْ قَدْرِهِم، فَحَتّى لو كانوا جَماعَةً كثيفَةَ العَدَدِ ضَخْمَةَ المِقْدارِ فَلا شَأْنَ لَهُم عِنْدَ اللّهِ ولا قَدْرَ، ما داموا قَدْ أعْرَضوا عن اللّهِ وعَنْ دَعْوَةِ الحقِّ الهادِيَةِ إلى سَواءِ السَّبيل.

دلالَةُ استعمالِ الظَّرْفيَّةِ:

اشْتِراكُ المَصيرِ بسوءِ الاتِّباعِ في الجَهْلِ والضَّلالِ

أفادَ التَّعبيرُ بالظَّرفيَّةِ ﴿مَّعَكُمْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أنَّ المُتَكَلِّمينَ مَتْبوعونَ سابقونَ في دُخولِ النّارِ، وأنَّ

(1) الزّمخشريّ، الكشاف: 4/ 101، والبِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 407.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 407.

الفَوْجَ المُقْتَحِمَ أتْباعٌ لَهم لاحقونَ بهم، فَأُدْخِلوا فيهِمْ مَدْخَلَ التّابِعِ مَعَ المَتْبوعِ بِعَلاماتٍ تُشْعِرُ بِذَلِكَ[1]. وفيهِ دلالَةٌ على اشْتِراكِ المَصيرِ بسوءِ الاتِّباعِ، فهذا الجَمْعُ الكَثيفُ قَدِ اقْتَحَمَ مَعَكُمُ النّارَ كَما كانوا قَدِ اقْتَحَموا مَعَكم في الجَهْلِ والضَّلالِ[2]. فاقْتِحامُ المَتْبوعينَ النّارَ مَعَ الأتْباعِ يُنْبِئُ عَنِ المُشارَكَةِ في رُكوبِ كُلٍّ مِنَ الطّائِفَتَيْنِ قَحْمَةَ النّارِ، ومُقاساةِ شِدَّتِها ووَيْلاتِها وعَذابِها[3].

موقعُ جملةِ ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾:

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ قَولَه تعالى: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ عنِ الجُمْلَةِ السّابِقَةِ عليْها، وهيَ قولُه: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ وهي إمّا أن تكون جملة اعتراضيّة استئنافيَّةً سيقَتْ للدُّعاءِ عليهم والتّهوينِ من أمرهم، لأنَّ الرحبَ هو السَّعَةُ، وإمّا أن تكون حاليَّةً، والتَّقدير: مقولًا لهم: لا مرحبًا بهم[4].

أشدُّ أهلِ النّارِ عداوةً للدّاخلين فيها همُ المتبوعون

نُكْتَةُ إيثارِ نَفْيِ التَّرْحيبِ علَى إثْباتِ الذَّمِّ:

عَبَّرَ النَّظْمُ البَليغُ عنِ المُقاوَلَةِ الَّتي جَرَتْ بينَ الأتْباعِ والمَتْبوعينَ بِقَوْلِه: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ بِنَفْيِ التَّرْحيبِ، دونَ إثْباتِ الذَّمِّ، كأنْ يَقولوا لهُم: (بِئْسًا لَكم)، ولَكِنَّ البيانَ القُرآنيَّ قَدْ آثَرَ التعبيرَ بِنفيِ التَّرْحيبِ، لأنَّ نَفْيَ التَّرحيبِ بالنِّسْبَةِ لِعُرْفِ هؤلاءِ السادَّةِ أشَدُّ دلالَةً على الانْتِقاصِ والاحْتِقارِ والتَّقْليلِ، إذْ إنَّ جملَةَ ﴿لَا مَرۡحَبَۢا﴾ تَقولُها العربُ إذا أرادوا كَراهيَةَ الوافِدِ والدُّعاءَ عَلَيْه، كَأنَّهم أرادوا النَّفْيَ بِمَجْموعِ الكَلِمَةِ، ومَعْنى الرَّحْبِ: السَّعَةُ المَجازيَّةُ، وهي الفَرَحُ ولِقاءُ المَرْغوبِ في ذَلِكَ المَكانِ بِقَرينَةِ أنَّ نَفْسَ السِّعَةِ لا تُفيدُ الزّائِرَ، وإنَّما قالوا ذَلِكَ لِأنَّهم كَرِهوا أنْ يَكونوا هم وأتْباعُهم في مَكانٍ واحِدٍ

نَفْيُ التَّرْحيبِ أشَدُّ دَلالَةً على التَّحْقيرِ والانْتِقاصِ وكراهيةِ القادمِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 287.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 404.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.
(4) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 375.

جَرْيًا عَلى خُلُقِ جاهِليَّتِهِمْ مِنَ الكِبْرياءِ واحْتِقارِ الضُّعَفاءِ[1]. فَهي كَلِمَةٌ واقِعَةٌ في أتَمِّ مَواقِعِها؛ لِأنَّها دالَّةٌ عَلى التَّضَجُّرِ والبِغْضَةِ؛ مَعَ الصِّدْقِ في أصْلِ مَدْلولِها؛ الَّذي هو مُصادَقَةُ الضّيقِ؛ فَهوَ (مَفْعَلٌ) مِن (الرَّحْبِ) الَّذي هوَ مَصْدَرٌ ميميٌّ؛ وهو السَّعَةُ؛ أيْ: لا كانَ بِهِمْ سَعَةٌ أصْلًا؛ ولا اتَّسَعَتْ بِهِمْ هَذِهِ الأماكِنُ؛ ولا هَذِهِ الأزْمانُ؛ ولا حَصَلَتْ لَهم ولا بِهِمْ راحَةٌ[2].

وَجْهُ اتِّساقِ كَلِمَةِ التَّرْحيبِ لِكَلِمَةِ الاقْتِحامِ:

اجتماعُ الهوانِ من جِهةِ الملائكةِ والمتبوعين

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ أشارَ النَّظْمُ الجَليلُ إلى شِدَّةِ سَوْقِ الزَّبانيَةِ لهؤلاءِ الأتْباعِ إلى قَعْرِ جَهَنَّمَ، فَهُم يدْفَعونَهم بِعُنفٍ، ولَكِنَّهُم عِنْدَما يَصِلونَ إلى هنالِكَ لا يَجِدونَ سوى التَّحقيرِ والمَهانَةِ من عَدَمِ التَّرْحيبِ في قولِ الأسيادِ ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾، فَبيَّنَ النَّظْمُ الحكيمُ شِدَّةَ المُفارَقَةِ والمُقابلَةِ بينَ الحالينِ، وهيَ مُفارَقَةٌ تُؤَكِّدُ للمُتَلَقّي مَدى هَوانِهم وذُلِّهم، على خَزَنَةِ جَهَنَّمَ، وعلى الأسيادِ الَّذينَ أضاعَ هؤلاءِ الأتْباعُ أعْمارَهُم سُدًى في اتِّباعِهم في غَيِّهم وضَلالِهم[3].

نَوْعُ الباءِ ودَلالَتُها:

الباءُ للبيانِ وقيلَ للتَّعْدِيَةِ

جاءَتِ الباءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ بَيانًا لِلْمَدْعوِّ عَلَيْهِم، وتَكونُ الباءُ لِلْبَيانِ كاللّامِ في نَحْوِ: (سُقْيًا لَهُ)، وكَوْنُ اللّامِ دونَ الباءِ كَذَلِكَ دَعْوى مِن غَيْرِ دَليلٍ، أيْ ما أتَوْا بِهِمْ رُحْبًا وسَعَةً، وقيلَ: الباءُ لِلتَّعْدِيَةِ فَمَجْرورُها مَفْعولٌ ثانٍ لِأتَوْا، وهو مَبْنيٌّ عَلى زَعْمِ أنَّ اللّامَ لا تَكونُ لِلْبَيانِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.
(2) الماتُريديّ، تأويلات أهل السُّنَّة: 8/ 641، والسَّمَرقَنْديّ، بحر العلوم: 3/ 172.
(3) البقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 408.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.

نُكْتَةُ فَصْلِ ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾:

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جُمْلَةَ ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ عَنْ قَولِه تعالى: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾، لأنَّها جاءَتْ بَيانًا وتعليلًا لِلْقَولِ السّابق، فامتَنَعَ الوَصلُ لِكَمالِ الاتِّصالِ، فكانَ هَذا القولُ مِن جِهَةِ المَلائكَةِ بيانًا لاِسْتِحْقاقِهِمُ الدُّعاءَ عَلَيْهِم، أَوْ وصْفًا لهم بما ذُكِرَ، أَوْ تَعْليلًا مِنَ الرُّؤَساءِ لِذَلِك، والكَلامُ عَلَيْهِ يَتَضَمَّنُ الإشارَةَ إلى عَدَمِ انْتِفاعِهِمْ بِهِمْ[1]، فَأَكَّدَ ما كانَ اسْتَقَرَّ في نُفوسِهِمْ؛ وتَطاوَلَ عَلَيْهِ الزَّمانُ؛ مِن إنْكارِهِمْ لَهُ[2]، والتَفتَ الطاهر ابن عاشورٍ إلى أَنَّ الخَبَرَ مُسْتَعْمَلٌ في التَّضَجُّرِ منهم، أيْ: إنَّهم مُضايِقونَنا في مَضيقِ النّارِ كَما أَوْمَأَ إِلَيْهِ قَوْلُهم ﴿مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾[3].

اتِّساقُ اسْتِعْمالِ ﴿صَالُواْ﴾ مَعَ ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾:

بينَ كَلِمَتَي ﴿صَالُواْ﴾ و﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ جَرْسٌ مُتَناغِمٌ، فالكَلِمَتانِ من جَذْرٍ واحد، الدّالِ على دُخولَ النّارِ، فمَن صَلِيَها صادَفَ مِنَ الضّيقِ ما لَمْ يُصادِفْهُ أَحَدٌ؛ وآذى كُلَّ مَن جاوَرَهُ[4].

نوعُ إضافَةِ ﴿صَالُواْ﴾ إِلَى ﴿ٱلنَّارِ﴾ ودلالتُها:

أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الفاعِلِ ﴿صَالُواْ﴾ إلى ﴿ٱلنَّارِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ أي: هم داخِلوها كَما دخلناها، ومُلاقونَ حَرَّها وشِدَّتَها، فالإضافةُ بمعنى حرفِ الظّرفيّة، وفي هذه الإضافةِ نوع من التّحقير لشأنهم[5] لدخولِهم جهَنَّمَ واصْطِلائِهم بنارِها؛ ذَلِكَ أَنَّ اقْتِحامَهُم النّارَ يُفيدُ أَنَّ عَذابَهُم فيها أَمْرٌ لازِمٌ حَتْمِيٌّ، ولَكِنَّ البيانَ القُرآنيَّ آثَرَ التَّصْريحَ به لتصوير مدى

تَعليلُ نَفْيِ التَّرحيبِ ببيانِ الحالِ وسوءِ المآلِ

تأكيدُ عَذابِ الطّاغين في جِهَنَّمَ واصْطِلائِهِم بنارِها

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 408.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.
(4) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 408.
(5) القَزْوينيّ، الإيضاح: 2/ 36.

تحقيرِهم بتلاوُمِهم فيما بينهم، وشَماتَةِ بَعْضِهِم بالآخرِ، على ما اسْتَحَقّوه من عذابٍ.

وَجْهُ اسْتِعْمالِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دون ﴿جَهَنَّمَ﴾:

الصَّلْيُ يأتي بمعنى الدُّخول في جهنّم مع الحرقِ بالنّار

آثَرَ النَّظْمُ الحكيمُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ التَّعبيرَ عنْ مآلِ الطّاغينَ وأتْباعِهم بِمُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ دونَ مفْرَدَةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ الَّتي سَبَقَ استعمالُها في السّياقِ، وذَلِكَ لِمُناسَبَةِ مُفْرَدَةِ ﴿ٱلنَّارِ﴾ لفِعْلِ الصَّلْي، فإنَّ فِعْلَ الصَّلْي هنا بمعناه، أمّا ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ فمعناها الدُّخول مع الاحتراق، فناسَبَ ذِكْرُ جهنَّمَ باعتبارِها تُدخَل، أمّا هنا في ﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ فناسبَ ذكرُ النّارِ باعتبارِها هي الصّالية والحارقة لأهلِها.

بَلاغَةُ الفَصْلِ بين جُملِ المحاورات:

سقوطُ هَيْبَةِ المَتْبوعينَ في نُفوسِ أتْباعِهم بِسببِ سوءِ المصيرِ وشُؤْمِ المآل

فَصَل النَّظْمُ الحكيمُ بينَ جُمْلَةِ ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، والجُملَةِ السّابقَةِ عليها، وهيَ: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾، لِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ بيْنَهُما، فلا حاجَةَ للعَطْفِ، إذْ جاءتِ الجُملَةُ رَدًّا من الأتْباعِ على المَتْبوعينَ، فكأنّ سائلًا قد سأل: فبماذا أجابوهم؟ فجيءَ بِحِكايَةِ قَوْلِهِمْ عَلى طَريقَةِ المُحاوَراتِ فَلِذَلِكَ جُرِّدَ من حَرْفِ العَطْفِ[1]، وفيه بيانٌ لِسقوطِ هَيْبَةِ المَتْبوعينَ وتَدَنّي درَجَتِهِم في نُفوسِ أتْباعِهم بسببِ سوءِ المصيرِ وشُؤْمِ المآل، فَهُم يَرُدّونَ علَيْهِم القولَ بِمِثْلِه، والدَّعاءَ والشَّماتَةَ بأشَدَّ مِنْهُما.

دلالَةُ ذِكْرِ فِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

تأكيدُ جُرْأةِ الأتْباعِ بِفِعْلِ القَولِ والتَّنْصيصِ عَلَيه

صَرَّحَ النَّظْمُ الحكيمُ بِفِعْلِ القَولِ في جُمْلَةِ: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ اهْتِمامًا بِبَيانِ ردِّ الأتْباعِ علَى المَتْبوعينَ؛ لأنّه رَدٌّ علَى قَوْلٍ سابقٍ قيلَ لَهُم. وفيه تَصْريحٌ لِجُرْأةِ الأتْباعِ على المَتْبوعينَ، وتأكيدُ هَذِه الجُرْأةِ بِفِعْلِ القَولِ والتَّنْصيصِ عَلَيه، قَصْدًا مِنهم إلَى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.

إظْهارِ صِدْقِهِمْ بِالْمُخاطَبَةِ مَعَ الرُّؤَساءِ، والتَّحاكُمِ إلى الخَزَنَةِ طَمَعًا في قَضائِهِمْ بِتَخْفيفِ عَذابِهِم، أَوْ تَضْعيفِ عَذابِ خُصَمائِهِمْ[1]، ولبيانِ وجودِ مقولَيْن وقائلَيْن كلٌّ منهم يردُّ على الآخر.

نَوْعُ ﴿بَلْ﴾ وبَلاغَتُها في الجُمْلَةِ:

الزُّعَماءُ المُضِلّون أوْلى بالشَّتْمِ والتَّحْقيرِ

جاءتْ ﴿بَلْ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾، على أصلِ وجْهِها لِلْإضْرابِ الإبْطاليِّ؛ وهو الّذي يَقتضي نَفْيَ الحُكْم السّابق في الكلام قبلَ ﴿بَلْ﴾، والقَطْعَ بأنَّه غيرُ واقع، وأنَّ مُدَّعيه كاذبٌ، وأنَّ الانْصرافَ عنه واجبٌ إلى حُكْم آخرَ يَجيء بعدَها[2]، لذا فَهيَ هَهُنا لِرَدِّ الشَّتْم عَلَيْهِمْ وأنَّهم أوْلى بِهِ منهم، بَعْدَ أنْ سَمِعَهُمُ الأتْباعُ، فقالوا لَهُم: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ إضْرابًا عَنْ كَلامِهم، أيْ: أَنْتُمْ أَوْلى بِالشَّتْم والكَراهيَةِ بِأنْ يُقالَ لكم: لا مَرْحَبًا بكم، لِأَنَّكُمُ الَّذينَ تَسَبَّبْتُمْ لِأَنْفُسِكم ولَنا في هَذا العَذابِ بِإغْرائِكم إيّانا عَلى التَّكْذيبِ والدَّوامِ عَلى الكُفْرِ[3].

نُكْتَةُ ذِكْرِ ضميرِ الخِطابِ ﴿أَنتُمْ﴾:

توكيدُ تَنَصُّلِ الأتْباعِ من المَتْبوعينَ وجُرْأَتِهِم علَيْهِم

صَرَّحَ النَّظْمُ الحكيمُ في جُمْلَةِ: ﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ بِذِكْرِ ضَميرِ المُخاطَبينَ لِلتَّنَصُّلِ من شَتْمِهم، أيْ: أَنْتُمُ المَشْتومونَ، أيْ: أَوْلى بِالشَّتْم مِنّا، وقدِ اسْتُفيدَ هَذا المَعْنى من حَرْفِ الإبْطالِ ﴿بَلْ﴾ لا منَ الضَّميرِ ﴿أَنتُمْ﴾؛ لِأَنَّ الضَّميرَ لا مَفْهومَ لَهُ، ولِأَنَّ مَوْقِعَهُ هُنا لا يَقْتَضي حَصْرًا ولا تَقْوِيَةً؛ لِأَنَّهُ مُخْبَرٌ عَنْهُ بِجُمْلَةٍ إنْشائيَّةٍ، أيْ: أَنْتُمْ يُقالُ لكم: لا مَرْحَبًا بكم[4]. ولكنْ يُمْكِنُ القولُ: إنَّ إظْهارَ الضَّميرِ ﴿أَنتُمْ﴾ قَدْ قَوّى هَذِه الدَّلالَةَ، فإنَّ النَّظْمَ لو قال: (بَلْ لا مَرْحَبًا بِكُم) لَمْ يُكنِ في المَعْنَى منَ القوَّةِ والتَّنصيصِ على جُرْأَةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 233.
(2) حسن، النحو الوافي: 3/ 623.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289.

الأتْباعِ كما في قولِه: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ﴾، فَدَلَّ ذلِكَ على أنَّ الإظْهارَ في هذا المَوْضِعِ قدَ أكَّدَ دلالَةَ حَرْفِ الإضراب.

دلالةُ اسْتِعْمالِ ﴿لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ﴾ النَّظيرَةِ لِكَلِمَةِ الأسْيادِ:

الإيحاءُ بغلواءِ النُّفوسِ وعظيمِ الخديعةِ التي ذاقها الأتباعُ

في جُمْلَةِ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ﴾ أتى النَّظْمُ بالكَلِمَةِ نَفْسِها الَّتي جابَهَ بِها المَتْبوعونَ أتْباعَهم، وإذا كانَ قَوْلُ: مَرْحَبًا، إنْشاءَ دُعاءٍ بِالخَبَرِ، كانَ نَفْيُهُ إنْشاءَ دُعاءٍ بِضِدِّه[1]؛ لِتَكونَ المواجَهَةُ لِمَن كانوا لا يَقْدِرونَ عَلى مواجَهَتِهِمْ في الدُّنْيا بِقَبيحٍ أشْفى لِصُدورِهِم، حَيْثُ تَسَبَّبوا في كُفْرِهِم، وأنْكى لِلرُّؤَساءِ[2]، المُتَجَبِّرينَ في الدُّنْيا المُتَعاظِمينَ بِجاهِهِم، وفي هذا الرَّدِّ المُطابِقِ في كلماتِه ما يوحي بغلواءِ النُّفوسِ، والشُّعور بعظيمِ الخديعةِ الّتي مورِسَتْ عليهم في الدُّنيا، وذاقوا مرارتَها في الآخرةِ.

نَوْعُ الباءِ ودلالتُها البيانيّة:

الـبـاءُ بَيانيَّةٌ توضِّحُ المقصودَ بالمَدْعوِّ عَلَيْهِم

جاءَتِ الباءُ في ﴿بِكُمۡۖ﴾ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبًۢا بِكُمۡۖ﴾ بَيانيَّةً، كَما كانَ قَوْلُهُ ﴿بِهِمۡۚ﴾ بَيانًا لِمَن وُجِّهَ الدُّعاءُ لَهم، أيْ: إيضاحًا لِلسّامِعِ أنَّ الدُّعاءَ عَلى أصْحابِ الضَّميرِ المَجْرورِ بِالباءِ، فَكانَتِ الباءُ فيهِ لِلتَّبْيينِ، أي: هيَ بَيانٌ لِمَدْعوٍّ عَلَيْهِمْ. وأشارَ الهَمَذانيُّ إلى أنَّ مَعنَى البيانِ مُتَوَلِّدٌ مِن مَعْنَى السَّبَبيَّةِ. وذَهَبَ الطّاهر ابن عاشورٍ إلى أنَّ مَعْنَى البيانِ مُتَوَلِّدٌ مِن مَعْنى المُصاحَبَةِ بِطَريقِ الاسْتِعارَةِ التَّبَعيَّةِ، ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمالُ الباءِ في مِثْلِهِ في كَلامِهِم، فَصارَ كالحَقيقَةِ؛ لِأنَّهُ لَمّا صارَ إنْشاءَ دُعاءٍ لَمْ تَبْقَ مَعَهُ مُلاحَظَةُ الإخْبارِ بِحُصولِ الرَّحْبِ مَعَهم أوْ بِسَبَبِهِمْ كَما يَتَّجِهُ بِالتَّأمُّلِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 289 - 290.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 169.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

دلالَةُ اسْتِعْمالِ ضَميرِ الغَيْبَةِ في ﴿بِهِمۡۚ﴾ والخِطابُ في ﴿بِكُمۡۖ﴾:

اخْتِقارُ المتْبوعينَ للأتْباعِ، وتَشَفّي الأتْبـاعِ من المتْبوعينَ

استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ ضَميرَ الغائبينَ ﴿بِهِمۡۚ﴾ في خِطابِ المَتْبوعينَ لأتْباعِهم في جُملَةِ: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾، وأمّا في خِطابِ الأتْباعِ للمَتْبوعينَ، فقد استَعْمَلَ ضَميرَ المُخاطَبينَ ﴿بِكُمۡۖ﴾، فدَلَّ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلافِ الخِطابِ الموَجَّهِ، إذْ قال الأسْيادُ قَوْلَهُم دونَ تَوْجيهٍ للأتْباعِ، فَسَمِعَهُ الأتْباعُ فَرَدّوه في وُجوهِهم. ويُمْكِنُ أنْ تكونَ عِبارَةُ ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ كلامًا صادرًا مِنْ خَزَنَةِ جهَنَّمَ فَعِنْدَها يُقالُ: إنَّ الأتْباعَ إذا سَمِعوا مِنَ الخَزَنَةِ هَذا الدُّعاءَ أقْبَلوا عَلَى رُؤَسائِهِمْ قائِلينَ: يا رُؤَساءَ السّوءِ أنْتُمْ أحَقُّ بِهِ منّا لإغْوائِكُمْ إيّانا[1]. وعلى كلا الحالينِ فإنَّ في ذَلِكَ دلالَةً على احتقارِ المَتْبوعينَ للأتْباعِ، حَتَّى إنَّهُم يسْتَنْكِفونَ عنْ أنْ يوَجِّهوا لَهُم الخِطابَ. وأمّا تَصْريحُ الأتْباعِ بضَميرِ الخِطابِ فَفيهِ دلالَةٌ على جُرْأَةِ الأتباعِ على المَتْبوعينَ، ورَغْبَتِهم في إبداءِ ما صُدورِهم بتَوْجيهِ الشَّتْمِ لِمَنْ كانوا سَبَبًا في ضَلالِهم.

عِلَّةُ فَصْلِ جملةِ ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ﴾:

تعليلُ الدُّعاءِ علـى الظّالمين دليـلُ وضـوحِ المقامِ الأليمِ

فَصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ جُمْلَةَ ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ عَنِ الجُمْلَةِ السّابِقَةِ عَلَيْها، وهي: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، لأنَّ الجُمْلَةَ جاءَتْ تَعْليلًا لِما سَبَقَ مِنْ رَدِّ الدُّعاءِ عَلَيْهِم، واسْتِمْرارًا للمُحاوَرَةِ الدّائِرَةِ بينَ الفَريقينِ المُتَلاومَينِ. فجُمْلَةُ ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ عِلَّةٌ لِقَلْبِ سَبَبِ الشَّتْمِ إلَيْهِم، أيْ: لأنَّكم قَدَّمْتُمُ العَذابَ لَنا[2].

نُكْتَةُ تَكْرارِ ضَميرِ ﴿أَنتُمۡ﴾:

كَرَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ ضَميرَ الخِطابِ ﴿أَنتُمۡ﴾ في جُمْلَةِ: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ بَعْدَ أنْ سَبقَ ذِكْرُهُ في جُمْلَةِ: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾؛ للتأكيد، إذْ إنَّ تأكيدَ الضّميرِ المنفصلِ بمثلِهِ يُعَدُّ تأكيدًا لفظيًّا،

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 307..
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣﴾ [النمل: 3][1]، وهنا جاءَ تَكرارُ الضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾ لِتأكيدِ تَوْجيه الخِطابِ إلى المَتْبوعينَ الَّذينَ بادَؤوهُم بالشَّتْم والاحتقارِ والتَّنَقُّص، ولبيانِ رَغْبَةِ الأتْباعِ في لَوْم المَتْبوعينَ وإلْقاءِ تَبِعَةِ الشَّقاءِ عَلَيْهم. وفيه كذلِكَ مَزيدُ بيانٍ لِجُرْأَةِ الأتْباعِ، وسُقوطِ هَيْبَةِ المَتْبوعينَ وضَياعِ مَكانَتِهم، فهو دالٌّ على الشُّعور بالقهرِ النّفسيِّ الّذي مرَّ به الأتْباعُ في المحاورة.

التكرارُ لِتأكيدِ تَوْجيهِ الخِطابِ، ولِبيانِ رَغْبَةِ الأتْباعِ في لَوْمِ المَتْبوعينَ

بَلاغَةُ المجازِ في استِعْمالِ مُفْرَدَةِ ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾:

في مَعْرِض إظْهارِ التَّلاوُم استَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ مُفْرَدَةَ التَّقديم، في جُمْلَةِ: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾، والمُرادُ بالتَّقْديم: جَعْلُ الشَّيءِ قُدّامَ غَيْرِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الأنفال: 50 - 51]، فَتَقْديمُ العَذابِ لَهم جَعْلُهُ قُدّامَهم، أيْ: جَعْلُه حَيْثُ يَجِدونَهُ عِنْدَ وُصولِهِمْ. وإسْنادُ تَقْديم العَذابِ إلى المُخاطَبينَ مَجازٌ عَقْليٌّ لِأَنَّ الرُّؤَساءَ كانوا سَبَبًا في تَقْديم العَذابِ لِأَتْباعِهِمْ بِإِغْوائِهِمْ وكانَ العَذابُ جَزاءَ الإغْواءِ. وجُعِلَ العَذابُ مُقَدَّمًا وإنَّما المُقَدَّمُ العَمَلُ الَّذي اسْتَحَقَّ العَذابَ، وهَذا مَجازٌ عَقْلِيٌّ في المَفْعولِ فاجْتَمَعَ في قَوْلِه: ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾ مَجازانِ عَقْلِيّانِ[2].

الرُّؤَساءُ سَبَبٌ في تَقْديمِ العَذابِ لِأَتْباعِهِم، والعَذابُ جَزاءُ الإغْواءِ

غَرَضُ تَقْديمِ المُسْنَدِ إلَيْهِ ﴿أَنتُمۡ﴾ عَلَى المُسْنَدِ الفِعْليّ ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾:

قَدَّمَ النَّظْمُ في جُمْلَةِ: ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ المسندَ إليه على المُسْنَدِ الفِعْليّ ﴿أَنتُمۡ﴾ لإفادَةِ الحَصْرِ، أيْ: لَمْ يُضِلَّنا غَيْرُكم فَأَنْتُمْ أحِقّاءُ بِالعَذابِ[3]، وفي ذَلِكَ تأْكيدٌ لِشِدَّةِ التَّلاوُم والبُغْضِ بينَ الأتْباعِ والمَتْبوعينَ، وتَحْميلُ الأتْباعِ لِهؤلاءِ السّادَةِ نَصيبَهُم في سوءِ المَآلِ

عِنْدَ الإفْلاسِ يتبيّن الإبلاسُ

(1) البَدَوِيّ، من بلاغة القرآن، ص: 114.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

الَّذي انْتَهَوْا إليْه، والصَّحيحُ أنَّ الأمرَ لم يقتصرْ على المتْبوعينَ، بل هم شُركاءُ في الجريمةِ، ولكنْ هذا حالُ المُفْلِسِ في إلقاءِ تَبِعَةِ جرائِمِه على غيرِه.

مرجعُ الضَّمير إلى ما لاقاه المتبوعون وأتباعُهم في الآخرة

تَعْيينُ مَرْجِعِ الضَّميرِ:

يحتملُ أن يرجعَ ضَميرُ النَّصْبِ (الهاءِ) في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾؛ إلى العَذابِ المَفْهومِ مِمّا قَبْلَهُ، أوْ إلى المَصْدَرِ الَّذي تَضَمَّنَهُ، وهو الصَّلْيُ، أيْ: أنْتُمْ قَدَّمْتُمُ العَذابَ أوِ الصَّلْيَ[1]، ويحتملُ أنَّهُ عائدٌ إلى الاقْتِحامِ في العَذابِ؛ أي: بِما أقْحَمْتُمونا فيهِ مِن أسْبابِهِ؛ وقَدَّمْتُمْ في دارِ الغُرورِ مِن تَزْيينِهِ[2]. وأشارَ الرّازيّ إلى أنَّ الضَّميرَ كِنايَةٌ عَنِ الطُّغْيانِ الَّذي دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾[3]. وهَذِهِ الأقوالُ تَرْجِعُ في حقيقَتِها إلى العَذابِ أو إلى سَبَبٍ منَ الأسْبابِ الَّتي أدَّتْ إلى الوُقوعِ فيه.

إلقاءُ التَّبِعَةِ على الآخرين مَسْلكُ المفلسين

نَوْعُ اللّامِ ودلالتُها:

جاءَتِ اللّامُ الدّاخلةُ على نونِ الجَمْعِ في جُمْلَةِ ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾ لإفادَةِ الاخْتِصاصِ، فِهيَ دالّةٌ على اخْتِصاصِ العَذابِ بِهَؤلاءِ الأتْباعِ، فكانَ لِسانُ حالِ الأتْباعِ يقولُ: دُخولُنا النّارَ تمَّ بِإغْوائِنا، وإغْرائِنا بسببِ ما قَدَّمه المتبوعون مِنَ العَقائِدِ الزّائِغَةِ، والأعْمالِ السَّيِّئَةِ، لا أنّا باشَرْناها مِن تِلْقاءِ أنْفُسِنا[4]، فهي دالَّةٌ على الحسرةِ وشديدِ النّدامةِ، مع ما فيه من إلقاءِ التَّبِعَةِ على غيرِهم، للتَّخفيفِ من ألَمِ المُصابِ، وللتَّنفيسِ عن بؤسِ اللّقاءِ.

نَوْعُ الفاءِ ومعناها:

جاءَتِ الفاءُ في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ نَتيجَةً، وهوَ نَظيرُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 409.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.

تَـرَتُّـبُ الـبـؤسِ في الـقَـرارِ على الإغواءِ بالأعْمالِ الفاسِدَةِ

عَطْفِ الجُمَلِ بِـ (ثُمَّ)، وهي كالفاءِ في قَوْلِهِ تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: 17] بَعْدَ قَوْلِه ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنفال: 15]، فقَوْلُهُ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ مَوْقِعُهُ كَمَوْقِعِ قَوْلِهِ آنِفًا ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾، وهو ذَمٌّ لِإقامَتِهِمْ في جَهَنَّمَ تَشْنيعًا عَلَيْهِمْ فيما تَسَبَّبوا لِأَنْفُسِهِمْ فيهِ. والمَعْنى: فَبِئْسَ القَرارُ ما قَدَّمْتُموهُ لَنا، أيْ: العَذابُ[1].

بَلاغَةُ جُمْلَةِ الذَّمِّ ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾:

نَـبَّـهـتْ جَـمْـلَـةُ الـذَّمِ على سوءِ المَصيرِ وحَـذَّرَتْ مِنْ مَغَبَّةِ الاتِّباعِ الأعْمَى

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ عنْ مَصيرِ الطّاغينَ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾، فاسْتَعْمَلَ فِعلَ (بِئْسَ) الدّالَ على الذَّمِ، وهوَ فِعْلٌ جامِدٌ، لا يدْخُلُه التَّصريفُ، وأصْلُه من البُؤْسِ، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بأسلوبِ الذَّمِ على سوءِ المآلِ، وقُبْحِ المَرْجِعِ، وشِدَّةِ المَصيرِ، فَنَبَّه على سوءِ المَصيرِ وحَذَّرَ منْ مَغَبَّةِ الاتِّباعِ الأعمَى، والمُرادُ: فَبِئْسَ المَقَرُّ جَهَنَّمُ، وهو مِن كَلامِ الأتْباعِ، وكَأنَّهم قَصَدوا بِذَلِكَ التَّشَفّيَ والإنْكاءَ، وأنَّ ذَلِكَ المَقَرَّ مُشْتَرَكٌ، وقيلَ: قَصَدوا بِالذَّمِّ المَذْكورِ تَغْليظَ جِنايَةِ الرُّؤَساءِ عَلَيْهِمْ[2].

دَلالَةُ تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلْقَرَارُ﴾:

الـقَـرارُ معهودٌ بالعذابِ الموعودِ

جاءتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلْقَرَارُ﴾ مُعَرَّفَةً بِلامِ العَهْدِ، والمَعْهودُ مَعْروفٌ، لِكَوْنِه مذْكورًا، وهوَ النّارُ، ومِنْ أغْراضِ ذِكْرِه وتَعْريفِه: التَّهَكُّمُ؛ إذْ لَمّا كانَ الاقْتِحامُ؛ وهو الوُثوبُ؛ أوِ الدُّخولُ عَلى شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ؛ كَأنَّها الوُثوبُ؛ يَنْتَهي منهُ إلى اسْتِقْرارٍ؛ وكانَ الفَريقانِ قَدِ اسْتَقَرّوا في مَقاعِدِهِمْ في النّارِ؛ سَبَّبوا عَنْ ذَلِكَ قَوْلَهُمْ: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾؛ أيْ: قَرارُكم[3].

بَلاغَةُ فَصْلُ الآيَةِ عنْ سابِقَتِها:

فَصَلَ النَّظْمُ الحَكيمُ جُمْلَةَ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 290.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 208.

(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 409.

التَّوكيدُ اللَّفظيُّ مِنْ أسْبابِ الفَصْلِ وانتفاءِ الوَصْلِ

﴿عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾، والجُمْلَةَ السّابِقَةَ عَلَيْها، وهيَ مِنْ كَلامِ الأتْباعِ كذَلِكَ، لإرادَةِ التَّوكيدِ اللَّفْظيِّ، والتَّوْكيدُ اللَّفْظيُّ عَلى مِثالِ المُؤَكَّدِ. وذلك حَتَّى لا تَلْتَبِس حِكايَةُ هَذا القَوْلِ عَلى هَذِهِ الكَيْفيَّةِ بِحِكايَةِ المُحاوَراتِ فَيُحْسَبُ أنَّهُ مِن كَلامِ الفَريقِ الآخَرِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ بِعُنْوانِ ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ يُعَيِّنُ أنَّ قائِليهِ هُمُ القائِلونَ ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ﴾، وأنَّ الَّذينَ قَدَّموه لَهم هُمُ الطّاغونَ. وفي مَعْنى هَذِهِ الآيَةِ آيَةُ سورَةِ الأعْرافِ ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ﴾ [الأعراف: 38][1].

وَجْهُ إعادَة فِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾:

أُعيدَ الفِعْلُ لِتَأْكيدِ أنَّ القائِلينَ هُمُ الأتْباعُ، ولِتَغيُّرِ المُخاطَبِ في الجُمْلَتَينِ

في جُمْلَةِ: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾، أعادَ النَّظْمُ الحكيمُ فِعْلَ القَوْلِ: ﴿قَالُواْ﴾ والضَّميرُ عائِدٌ على الفَوْجِ المُقْتَحِمِ، وهو فَوْجُ الأتْباعِ، فَهوَ مِن كَلامِ الَّذينَ قالوا: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ في الآيَةِ السّابِقَةِ؛ لأنَّ قَوْلَهم ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ يُعَيِّنُ هَذا المَحْمَلَ، ولِذَلِكَ حُقَّ أنْ يَتَساءَلَ النّاظِرُ عَنْ وجْهِ إعادَةِ فِعْلِ ﴿قَالُواْ﴾ وعَنْ وجْهِ عَدَمِ عَطْفِهِ عَلى قَوْلِهِمُ الأوَّلِ. فَأمّا إعادَةُ فِعْلِ القَوْلِ فَلإفادَةِ أنَّ القائِلينَ هُمُ الأتْباعُ فَأُعيدَ الفِعْلُ تَأْكيدًا لِلْفِعْلِ الأوَّلِ لِقَصْدِ تَأْكيدِ فاعِلِ القَوْلِ تَبَعًا لأنَّهُ مُحْتَمِلٌ لِضَميرِ القائِلينَ. والمَقْصودُ مِن حِكايَةِ قَوْلِهِمْ هَذا؛ تَحْذيرُ كُبَراءِ المُشْرِكينَ مِن عَواقِبِ رِئاسَتِهِمْ وزَعامَتِهِمُ الَّتي يَجُرّونَ بِها الوَيْلاتِ عَلى أتْباعِهِمْ فَيوقِعونَهم في هاوِيَةِ السّوءِ؛ حَتّى لا يَجِدَ الأتْباعُ لَهم جَزاءً بَعْدَ الفَوْتِ إلّا طَلَبَ مُضاعَفَةِ العَذابِ لَهم[2]. وأشارَ الآلوسيّ إلى أنَّ تَوْسيطَ الفِعْلِ بَيْنَ كَلامَيْهِمْ حاصِلٌ لِما بَيْنَهُما مِنَ التَّبايُنِ ذاتًا وخِطابًا، أيْ: قالوا مُعْرِضينَ عَنْ خُصومَةِ رُؤَسائِهِمْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 291.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 291.

مُتَضَرِّعينَ إلى اللّه ﷻ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ حَرْفِ النِّداءِ:

تَعَجُّلُ الأتْباعِ في الدُّعاءِ على الرُّؤَساءِ تَنْفيسًا لِغَيْظِهم

حذفَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرْفَ النِّداءِ مِنْ جُمْلَةِ: ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ لِبَيانِ عَجَلَةِ الأتْباعِ في التَّحَوُّلِ عَنْ مُحاوَرَةِ المَتْبوعينَ من زُعَماءِ الكُفْرِ ورُؤَساءِ الشِّرْكِ، ورَغْبَتِهم في الإسراعِ إلى الدُّعاءِ عَلَيْهِم، بِقَصْدِ الفَراغِ مِنَ الكَلامِ بِسُرْعَةٍ، لأنَّهم عَلِموا أنَّ سَبَبَ ما وصَلوا إلَيْهِ مِنَ الشَّقاءِ هو الرُّؤَساءُ؛ وكانَ هَذا موجِبًا لِنِهايَةِ غَيْظِهِمْ مِنهُمْ؛ فَلَمّا عَلِموا أنَّهم لا يَقْدِرونَ عَلى الانْتِقامِ مِنهم عَمَدوا إلى الضَّراعةِ للّهِ بِمُضاعَفَةِ عَذابِهم وشَقائِهم في النّار[2].

دلالَةُ اسْتِعْمالِ عُنْوانِ الرُّبوبيَّةِ في النِّداءِ:

مِنْ أرْضَى الدُّعاءِ إلى اللهِ أنْ يُناديَ العَبْدُ رَبَّهُ بِقَوْلِهِ يا رَبِّ

في جُمْلَةِ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا﴾ استعملَ النَّظْمُ الحكيمُ عُنْوانَ الرُّبوبيَّةِ في النِّداءِ، وذلكَ لأنَّ الدُّعاءَ في أكْثَرِ الأمورِ في القرآنِ مَذْكورٌ بِلَفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾، إذْ إنَّ مِنْ أرْضَى الدُّعاءِ إلى رَبِّ العِزَّةِ جَلَّ وعَزَّ أنْ يُناديَ العَبْدُ رَبَّهُ بِقَوْلِه: (يا رَبِّ)، وفي لَفْظِ (الرَّبِ) مَعْنًى دَقيقٌ، فَكَأنَّ العَبْدَ يَقولُ: (كُنْتُ في كَتْمِ العَدَمِ المَحْضِ والنَّفْيِ الصِّرْفِ، فَأخْرَجْتَني إلَى الوُجودِ، ورَبَّيْتَني فاجْعَلْ تَرْبيَتَكَ لي شَفيعًا إلَيْكَ في أنْ لا تُخَلّيَني طَرْفَةَ عَيْنٍ عَنْ تَرْبيَتِكَ وإحْسانِكَ وفَضْلِكَ)[3]. فَجَرَى كَلامُ الأتْباعِ على هذا السَّنَنِ رَغْبَةً في الاسْتِجابَةِ لِكَي تَشْتَفي صُدورُهم.

نُكْتَةُ اسْتِعْمالِ المَوْصولِ ﴿مَن﴾:

في جُمْلَةِ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 208.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 409.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 490 - 491.

الدُّعاءُ على أصحابِ الإغواءِ الظّاهرِ والباطنِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الاسمَ المَوصول ﴿مَن﴾، لأنَّ التَّعبير بـ(مَنْ) يكون محتملًا عدةَ معانٍ في آنٍ واحدٍ؛ بخلافِ (الّذي)[1]، فهي - أي (مَنْ) - تَقَعُ علَى المُفْرَدِ، والمُثَنَّى، والجَمْعِ، والمُذَكَّرِ، والمُؤَنَّث، فَفيها من العُمومِ ما يُناسبُ كَثْرَةَ الطّاغينَ الَّذينَ يُضِلّونَ الأتْباعَ، ولم يستعمل (الذي) ليدخلَ في الدُّعاءِ من كان ظاهرًا في إغوائِه كالمتبوعينَ، ومَنْ كان خفيًّا مِنَ المشركينَ.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِصيغَةِ الماضي:

التَّحَسُّرُ على انْقِضاءِ مُهْلَةِ العَمَلِ في الدُّنيا وسوءِ المآلِ في الآخرةِ

في جُمْلَةِ ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا﴾ اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ الفِعْلَ ﴿قَدَّمَ﴾ ومعناه: سَنَّهُ وشَرَعَهُ[2]، وأقنعَ به، في صيغَةِ المُضيِّ، للدّلالَةِ على انْقِضاءِ مُهْلَةِ العَمَلِ في الدُّنيا، وأنَّ الزُّعَماءَ والرُّؤَساءَ قدْ أفْسَدوا حياةَ أتْباعِهم في الدُّنيا، فَلا رَجاءَ لَهُم في إصْلاحِ ما فَسَدَ باتِّباعِهم الأعْمَى، فَوَقَعوا في هاوِيَةِ السّوءِ، فأفادَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ المُضيِّ التَّحَسُّرَ والتَّنَدُّمَ حينَ لا تَنْفَعُ الحَسْرَةُ ولا النَّدامَةُ.

نَوْعُ اللّامِ ومَعْناها:

الشُّعورُ بالغُبنِ عند فواتِ الأوانِ مذاقٌ لاذِعٌ وطعمٌ حارقٌ

جاءَتِ اللّامُ الدّاخلةُ على نونِ الجَمْعِ في جُمْلَةِ ﴿مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا﴾ لإفادَةِ الاخْتِصاصِ، فهي دالّةٌ على اخْتِصاصِ فَسادِ حَياةِ هَؤلاءِ الأتْباعِ، فكانَ لِسانُ حالِ الأتْباعِ: أفْسَدَ الزُّعماءُ حياتَنا، بإغْرائِهِم لَنا عَلى ما قَدَّمْنا مِنَ العَقائِدِ الزّائِغَةِ، والأعْمالِ السَّيِّئَةِ لا أنّا باشَرْناها مِن تِلْقاءِ أنْفُسِنا[3].

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ اسْمِ الإشارَةِ للقَريبِ وتَكْرارِه:

تصويرُ معاني الغفلةِ وتجسيدُ حقائقِ البؤسِ

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ اسمَ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ للقَريبِ، وهوَ يَعودُ على ضَميرِ الهاءِ في ﴿قَدَّمۡتُمُوهُ﴾، أي: هوَ عائِدٌ على العَذابِ أو

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 1/ 138.
(2) الماوَرْديّ، النُّكت والعيون: 5/ 108.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 207.

الصَّلْي أو اقْتِحام النّارِ أوِ الطُّغيانِ المُسَبِّبِ لسوءِ المَآلِ، أي: مَنْ قَدَّمَ لَنا العَذابَ أو الصَّلْيَ أو سَبَبًا أسبابِه. واستعمالُ اسم الإشارة فيه تصويرٌ للحقائقِ وتجسيدٌ للمعاني، وإيماءٌ إلى رؤيةِ الأتباعِ للعذابِ المعنويِّ في أجْلَى صوَرِهِ الَّتي غَفِلوا عنها في الدُّنيا، وأدْرَكَها عِلْمُهم في الآخرة.

نَوْعُ الفاءِ ودَلالَتُها:

جاءتِ الفاءُ في جُملَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ واقِعَةً في جَوابِ الشَّرْطِ[1]، فاقْترانُ الخَبَرِ بالفاءِ جَرَى عَلى مُعامَلَةِ المَوْصولِ مُعامَلَةَ الشَّرْطِ في قَرْنِ خَبَرِهِ بالفاءِ، وهو كَثيرٌ[2].

دلالَةُ استعمالِ لَفْظِ الزّيادَةِ:

شِـــدَّةُ غَـيْـظِ الأتْـبـاعِ تُظهِرُ عظيمَ حقدِهم وشديدَ عُتوِّهم

في قوله تعالى: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ طلبَ الأتباعُ زيادةَ العذابِ للمتبوعين، والزّيادَةُ تعني أنْ يَنْضَمَّ إلَى شَيْءٍ آخَرَ ما عَلَيْه الشَّيْءُ في نَفْسِه[3]، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بلَفْظِ الزّيادَةِ في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا﴾ على أنَّ الأتْباعَ يَتَضَرَّعونَ أنْ يُصيبَ الطّاغينَ عَذابٌ آخَرُ فَوْقَ عَذابِ الأصْلِ الَّذي اسْتَحَقّوهُ بِكُفْرِهم؛ لِكَوْنِهم قَدَّموا الكُفْرَ والضَّلالَ والصَّلْيَ لأتْباعِهم، فَكانَ هذا التَّضَرُّعُ بزيادَةِ العَذابِ أثَرًا من آثارِ شِدَّةِ غَيْظِ الأتْباعِ من إضْلالِ الزُّعَماءِ لَهُم.

نُكْتَةُ التَّصْريحِ بِلَفْظِ العَذابِ:

تصوير الحالة النّفسيّة للأتباع إثْـرَ استحضار أحداثِ الدُّنيا

في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ صَرَّحَ النَّظْمُ الحكيمُ بِلَفْظِ ﴿عَذَابًا﴾ دون الاكتفاءِ بصفته، فلم يقل: (فَزِدْهُ ضِعْفًا في النّارِ)، فالتَّصْريح عادةً أعْظَمُ وقْعًا في النُّفوسِ مِنَ التَّعْريضِ الإجْماليِّ[4]، والتَّصْريحُ هنا أشارَ به إلى اسْتِفْظاعِ الأتْباعِ لِما هُم فيه مِنَ العَذابِ

---

(1) الخطيب ومصلوح وآخرون، التّفصيل: 23/ 308.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 291.

(3) الرّاغب، المفردات: (زاد).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 309.

الشَّديدِ والنَّكالِ المُهين، فَصَرَّحوا في ضَراعَتِهم بِما أصابَهُم مِنْ سوءِ المَآلِ، ويوحي ذكرُ لفظِ العذابِ بالحالةِ النّفسيّة الّتي يعيشها الأتباعُ في النّار إثْرَ ملاقاةِ المتبوعين، واستحضارِ مشاهدِ الدُّنيا، وما بذلوه لهم من عظيمِ الجرائم، وكبير البلاءِ في معاداة الرُّسُلِ وأتباعهم، فلم يُغْنِ عن ذلك إلّا رفعُ أكُفِّ الدُّعاءِ بإنزالِ العذابِ بالمتبوعين ضِعْفَ ما نزلَ بهم.

غَرَضُ تَنْكيرِ ﴿عَذَابًا﴾:

التَّنْكيرُ للتَّهْويل والتَّعْظيم والتَّفْخيمِ منْ شأنِ عذابِ النّارِ

جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿عَذَابًا﴾ في جُملَةِ ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ نَكِرَةً للتَّهْويلِ والتَّعْظيم والتَّفْخيم، فَكانَ تَعْبيرُ الأتْباعِ بِهَذِهِ الصّيغَةِ إشارَةً إلى أمرين؛ **الأوَّلُ:** شِدَّةُ عَذابِهم في النّار، **والآخَرُ:** شِدَّةُ غَيْظِهم مِمَّنْ أضَلّوهُم، فأوْرَدوهُمُ النّارَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّنْكيرُ لِبَيانِ النَّوْعيَّة، أي: زِدْهُم نَوْعًا مِنَ العَذابِ مُغايِرًا للمَعْهودِ مِنْهُ، فَيكونُ أشَدَّ مِمّا هُم فيه[1].

دلالَةُ الوَصْفِ بِقَوْلِه: ﴿ضِعْفًا﴾:

عـذابُ الإضـلالِ ضعفٌ آخرُ فوق عذابِ الضَّلالِ

في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ﴾ جاءَ النَّظْمُ بِوَصْفِ العَذابِ بأنَّهُ ضِعْفٌ، وضِعْفُ الشَّيءِ هو الّذي يُثَنّيه[2]، وقدْ دَلَّ التَّعبيرُ بِوَصْفِ العَذابِ بالنّارِ على إضافَةِ مِثْلِهِ إليه، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾ [الأعراف: 38] وكَذَلكَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَا ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأحزاب: 67 - 68]، وهوَ مِصْداقُ قولِ رسول اللّٰهِ ﷺ: «ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَوْمِ القيامَةِ»[3]، والمَعْنى أنَّهُ يَكونُ أحَدُ القِسْمَيْنِ عَذابَ الضَّلالِ، والثّاني

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 224.

(2) الرّاغب، المفردات: (ضعف).

(3) رواه مسلم في صحيحه، كتاب الزّكاة، باب الحثّ على الصّدقة، حديث رقم: (2398).

عَذابَ الإضْلالِ[1]؛ فالأتباعُ ذاقوا عذابَهم بسببِ إضلالِ المتبوعين لهم وإغوائِهم، فهذا هو الضِّعْفُ الّذي أرادوه، ليَرَوا في ذلك تَنْفيسًا عن أَلَمِهِمُ المعنويِّ، وعذابِهِمُ النَّفسيِّ.

بَلاغَةُ اسْتِعْمالِ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ:

إحاطَةُ النّارِ بالطّاغينَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فهُم كائِنونَ فيها

اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الحكيمُ حَرْفَ الجرِّ ﴿فِي﴾ في جُمْلَةِ ﴿فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ بمعناهُ البلاغيِّ الأصليِّ، أيْ على سَبيلِ الحقيقيةِ الظَّرْفيَّةِ، لا المجازِ[2]؛ ليُفيدَ إحاطَةَ النّارِ بِهِم مِنْ كُلِّ جانِبٍ، فَهُم كائِنونَ فيها، وهيَ مُشْتَمِلَةٌ علَيْهِم اشْتِمالَ الظَّرفِ للمَظْروفِ، لا يَنْفَكّونَ عَنْها لا يُفارِقونَها.

مَعْنَى تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلنَّارِ﴾:

(ال) التَّعريف إشــارَةٌ إلى المَعهودِ الذِّهْنيِّ في دارِ الشَّقاءِ

عَرَّفَ النَّظْمُ الجَليلُ مُفْرَدَةَ ﴿ٱلنَّارِ﴾ في جُمْلَةِ: ﴿فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾ بِـ (ال) العَهْديّة، والعربُ إذا قدَّمَتْ اسْمًا ثُمَّ حَكَتْ عنه ثانيًا، أتَوا به مُعرَّفًا بـ(ال)[3] الّتي تُسمَّى (ال) العهديَّةُ، إشارَةً إلى المَعْهودِ الذِّهْنيِّ، أي هنا: دارِ الشَّقاءِ المَعْروفَةِ، الَّتي هي النّارُ، الَّتي يَمْكُثُ فيها الأتْباعُ والزُّعَماءُ على حَدٍّ سواءٍ، إلى أنْ يَشاءَ اللّهُ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشَّكْلُ والمِثْلُ:

الشَّكْلُ يُسْتَعْمَلُ في الصّورِ، والمِثْلُ في باقي الصِّفاتِ

الشَكْلُ هوَ الَّذي يُشْبِهُ الشَّيْءَ في أكثرِ صِفاتِه حَتَّى يُشْكِلَ الفَرقُ بَينهما، ولا يُسْتَعْمَلُ الشَّكْلُ إلّا في الصّورِ، فَيُقال هَذا الطّائِرُ شَكْلُ هَذا الطّائِر، ولا يُقالُ: الحَلاوَةُ شَكْلُ الحَلاوَةِ. وأمّا مِثْلُ الشَّيْءِ فَهوَ ما يُماثِلُهُ في ذاتِه، فالمِثْلانِ ما تَكافَآ في الذّات[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(2) حسن، النحو الوافي: 2/ 537.
(3) ابن عادل، اللّباب: 19/ 474.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 154.

الفَوْجُ والجَماعَةُ:

الفَوْجُ الجَماعَةُ الكَثيفَةُ المُسْرِعَةُ، والجَماعَةُ كُلُّ جَمْعٍ قَلَّ أو كَثُرَ

الفَوجُ اسْمُ جَمْعٍ كَقَوم ورَهْطٍ[1]، فَهيَ تَدُلُّ على تَجَمُّعٍ مُنْفَصِلٍ عنْ تَجَمُّعِ غَيْرِه بِقوَّةٍ وانْتِشارٍ ما. وهي تَنْفَرِدُ ببعضِ الدَّلالاتِ لا توجدُ في غيرِها، فالفَوْجُ الجَماعَة الكَثيرَة ومِنْه قَوْله تعالى ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢﴾ [النصر: 2]، وذَلِكَ أنهم كانوا يُسْلِمونَ في وقت نُزولِ هَذه الآيَةِ قَبيلَةً قَبيلَةً. ولا يُقال لِلثُّلَّةِ فَوْجٌ، كَما يُقال لَهُم جماعَةٌ، والثُّلَّةُ الجَماعَةُ تَنْدَفِعُ في الأمرِ جُمْلَةً. والزُّمْرَةُ جَماعَةٌ لَها صَوتٌ لا يُفْهَمُ، وأصْلُه مِنَ الزِّمارِ، وهوَ صَوت الأُنْثَى مِنَ النَّعامِ، ومِنْه قيلَ الزَّمْرَةُ. وقَريبٌ مِنْها الزَّجْلَةُ، وهي الجَماعَة لَها زَجَلٌ، وهوَ ضَرْبٌ مِنَ الأصواتِ، والحِزْبُ الجَماعَةُ تَتَحَزَّبُ عَلَى الأمْرِ، أي: تَتَعاوَنُ، وحَزَبَ الرَّجُلُ الجَماعَةَ الَّتي تُعينُه، فَيَقْوَى أمْرُه بِهِم وهوَ من قَوْلِكَ حَزَبَني الأمرُ إذا اشْتَدَّ عَلَيّ[2].

الاقْتِحامُ والدُّخول:

في الاقْتِحامِ عُنفٌ وعَجَلَةٌ، والدُّخولُ لا يُشترطُ فيه ذلك

الاقْتِحامُ الدُّخولُ في الأمْرِ الشَّديدِ أو في أمْرٍ بِشِدَّةٍ مِنْ غَيْرِ تَهيُّؤٍ أوْ تَهْيِئَةٍ، أوِ اخْتيارٍ أوْ رَويَّةٍ أوْ إعْدادٍ أوْ إذْنٍ[3]، كَما في قَوْلِه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد: 11]، و﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ﴾، وقَحَّمَ الفرسُ فارِسَهُ: توَغَّلَ بِهِ ما يَخافُ عَلَيْه، وقَحَمَ فُلانٌ نَفْسَهُ في كَذا مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ، والمَقاحيمُ الَّذيْنَ يَقْتَحِمونَ في الأمْرِ. وأمّا الدُّخولُ فَهوَ وُلوجُ الشَّيْءِ أوْ تَغَلْغُلُهُ في أثْناءِ شَيْءٍ[4]، وهوَ نَقيضُ الخُروجِ، ويُسْتَعْمَلُ ذَلِكَ في المَكانِ، والزَّمانِ، والأعْمالِ[5]، والعادَةُ أنَّ فيه ليْنًا ودَعَةً ما لَمْ يَدُلَّ السّياقُ على خِلافِه. وقد وصَفَ النَّظْمُ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (فوج).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 277.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (قحم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (دخل).
(5) الرّاغب، المفردات: (دخل).

الجَليلُ الفَوْجَ بِصِفَةِ الاقْتِحامِ للدّلالَةِ على أنَّ الطّاغينَ وأتْباعَهُم يَدْخُلونَ النّارَ جَماعاتٍ كَثيفَةً، مُشاةً مُسْرِعينَ؛ ويَكونونَ مِن شِدَّة ما تَدْفَعُهُمُ الزَّبانيَةُ عَلى هَيْئَةِ الواثِبِ لِشِدَّةِ هَوانِهِم وذُلِّهِم.

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾ [ص: 62 - 64]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

ذِكرُ حالِ العدوِّ بعدَ ذكرِ حالِ الصَّديق

لمّا بيَّنَ ﷺ أحوالَ الكفرةِ معَ الَّذينَ كانوا أحبابًا لهُم في الدُّنيا؛ بيَّنَ هنا أحوالَهم معَ الَّذينَ كانوا أعداءً لهُم فيها[1]؛ إذ نظروا في أهل جهنَّم، فلم يجدوهم، ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾.

ففي مجيءِ هذه الآياتِ - بعد ذكر اقتحامِهم في العذابِ وتقاولِهم بما دلَّ على خِزْيِهم وحسرتِهم - بيانُ زيادةِ خُسْرانِهم وحسرتِهم حين علموا بنجاةِ المؤمنينَ الَّذينَ كانوا يهزؤونَ بهم[2]؛ لأنَّ نعيمَ المؤمن غمٌّ للكافر.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿سِخۡرِيًّا﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، ومِنْ ذلكَ: تسخيرُ اللّهِ ﷻ الشَّيءَ؛ إذا ذلَّلَهُ لأمرِهِ وإرادتِه، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجاثية: 13]، والسُّخريةُ: الاستهزاءُ[3]، وهو المرادُ هنا[4].

2) ﴿زَاغَتۡ﴾: (زيغ) أصلٌ يدلُّ على مَيْلِ الشَّيءِ عن استقامته[5]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: زاغتِ الشَّمسُ؛ إذا مالَتْ، والتَّزايغُ: التَّمايلُ في

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 410.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سخر).
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 512.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (زيغ).

الأسنانِ[1]، وزَيْغُ القلوبِ مَيْلُها عن الحقِّ[2]، ويقالُ: زاغَ البصرُ، أي: كَلَّ، أو مالَ عن مكانِه، كما يَعرِضُ للإنسانِ عندَ الخوفِ[3]، والمرادُ بزَيْغِ الأبصارِ هنا: أنَّها مالَتْ عن جهتِهم، فلم تنظُرْهم[4].

3) ﴿تَخَاصُمُ﴾: (خصم) أصلٌ يدلُّ على المنازعةِ، ومِنْ ذلك يقالُ: خاصمتُه، وخَصَمْتُه مخاصمةً وخِصامًا[5]، والخُصومةُ: المنازعةُ، وأصلُها مِنَ الخُصْمِ، وهو الجانبُ، وذلكَ أنَّ كلًّا مِنَ المتخاصمينِ يأخذُ جانبًا غيرَ الجانبِ الَّذي أخذَهُ صاحبُهُ[6]، والمرادُ بالتَّخاصمِ هنا: التَّنازُعُ والمجادلةُ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تخاصم الكافرين بعضهم لبعض في النّار

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن قولٍ جديدٍ للطّاغينَ وأتباعِهم، فيقولُ بعضهم لبعض على سبيل التَّعجُّب والتَّحسُّر: (وقالوا: ما لنا لا نَرَى معَنا في النّارِ رجالًا، كنّا نحسبُهم في الدُّنيا مِنْ أشرارِنا، أو مِنْ أراذلِنا الَّذينَ لا يُؤبَهُ بهِم؟ أجعَلْناهم مَثارًا للسُّخريةِ والاستهزاءِ في الدُّنيا، أم كنّا نحتقرُهم؟)، ثمَّ يؤكِّد أنَّ الَّذي أخبَرَ بهِ مِنْ تقاوُلِ أهلِ النّارِ وتخاصمِهم لَصِدقٌ واقعٌ لا محالةَ[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ الجملةِ:

ذِكرُ كلامٍ آخرَ للمتبوعينَ بعد ذكرِ كلامِ الأتباعِ

عُطِفَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ على قولِه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابًا ضِعۡفًا فِي ٱلنَّارِ ٦١﴾ [ص: 61]، ولم

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (زيغ).
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (زيغ).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (زيغ).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 293.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خصم).
(6) السمين، عمدة الحفاظ: (خصم).
(7) حسن، قواعد التدبر الأمثل: 3/ 614.
(8) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 247.

يُترَكِ العطفُ؛ لأنَّ القائلَ هنا غيرُ القائلِ الأوَّلِ: فالقائلُ هنا الطّاغونَ مطلقًا، كبراؤهم وضعفاؤهم، والقائلُ هناكَ أتباعُهم فقط(1).

ويحتملُ أنْ يكونَ عطفًا على قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ [ص: 59]؛ لأنَّهُ بتقديرِ فعلِ قولٍ محذوفٍ، أي: (يقولونَ مُشيرينَ إلى فوجٍ مِنْ أهلِ النّارِ أُقحِمَ فيهم، ليسوا مِن طبقتِهم، وهم فوجُ الأتباعِ مِنَ المشركينَ الَّذينَ اتَّبعوا الطّاغينَ في الدُّنيا: هذا فَوْجٌ مُقتحِمٌ معَكم) ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾(2).

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(قالوا) مادَّةً وصيغةً:

إعلانُ الكفّارِ عن خَيبَةِ أملِهم أمرٌ محقَّقُ الوقوعِ

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بمادَّة القول في الآية الكريمة: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ للإعلان عن خَيبةِ أملهم فيما بينهم، وأنَّه لم يكن أمرًا خفيًّا، بل كان جليًّا يُسمِعه الرؤساء أتباعَهم، وعبَّر بصيغةِ الماضي ﴿وَقَالُواْ﴾، معَ أنَّ هذا القولَ أمرٌ مستقبلٌ يقع في يومِ القيامةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّهُ أمرٌ مُحقَّقٌ مُتيقَّنٌ، لا شكَّ في وقوعِه، فهو إخبارٌ مِنَ اللهِ ﷻ الَّذي لا خُلْفَ في إخبارِهِ.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿وَقَالُواْ﴾:

ازدراءُ الطُّغاةِ لضعفاءِ المؤمنينَ في كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ

الضَّميرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾ عائدٌ على الطّاغينَ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾ [ص: 55]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ طغاةَ كلِّ أمَّةٍ مِنَ الأممِ يستصغرونَ شأنَ مؤمنيها، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا القول قولٌ جماعيٌّ صادرٌ من الرُّؤساء والأتباع، كما وقع ذلك من كفّار قريش في شأن ضعفاءِ المؤمنينَ، فالضَّميرُ للرُّؤساءِ والأتباعِ بعدَ أنْ قَضَوا وطَرَهم، ممّا لم يُغْنِ عنهُم شيئًا مِنْ تخاصمِهم(3)، وفي الكلامِ على هذا تنبيهٌ على

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 440.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 410.

ما يُصيبُهم مِنَ الحسرةِ حينَ يعلمونَ أنَّ مَنْ كانوا يستضعفونَهم مِنَ المؤمنينَ ليسوا معَهم.

غرضُ الاستفهامِ بـ﴿مَا﴾:

تعجُّبُ المشركينَ وتحسُّرُهم على عدمِ رؤيةِ المؤمنينَ في النّارِ

الاستفهامُ في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ استفهامٌ يُلقيهِ بعضُهم لبعضٍ من باب الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّعجُّبِ[1] مِنْ عدمِ رؤيتِهم مَنْ كانوا يستضعفونَهم، ويستخفّونَ بشأنِهم مِنَ المؤمنينَ، فهو استفهامٌ يفيد التَّحسُّرَ والتَّلهُّفَ على عدمِ رؤيتِهم لهُم، وليسَ استفهامًا حقيقيًّا ناشئًا عن ظنٍّ أنَّهم يجدونَ رجالَ المسلمينَ معَهم؛ إذ لا يخطرُ ببالِ الطّاغينَ أنْ يكونَ رجالُ المسلمينَ معَهم، كيفَ وهم يعلمونَ أنَّهم بضدِّ حالِهم؟ فلا يتوهَّمونَهم معَهم في العذابِ، هذا الوجه للاستفهام هو الظّاهرُ والأقرب، وجوَّزَ بعضُهم أنْ يكونَ الاستفهامُ حقيقيًّا، استفهموا بهِ عن مصيرِ المسلمين؛ لأنَّهم لم يَرَوْهم يومئذٍ؛ إذ قد عَلِموا أنَّ النّاس صاروا إلى عالَم آخرَ، وهو الَّذي كانوا يُنذَرونَ بهِ، فيكونُ قولُهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ تمهيدًا لقولِهم: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

ندمُ المشركينَ على تحقيرِهم المسلمينَ

تضمَّن قولُ اللّه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ كنايةً؛ إذِ الاستفهام مسلَّطٌ على سبب عدم الرُّؤية، وعدم الرُّؤية كنايةٌ عن عدم المرئيِّ، وهم الرِّجال الذين وصفوهم بالأشرار، ولم يبصروهم معهم في النار[3]، فالاستفهام كنايةٌ عن لوم بعضِهم بعضًا على تحقيرِهم المسلمينَ، وعنِ اعترافِهم

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 440.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 405.

بالخطأِ في حُسْبانِهم[1]؛ لأنَّهم تبيَّنَ لهُم أنَّ المسلمينَ فازوا بالجنّاتِ والنَّعيمِ المقيم.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لَنَا﴾:

توهُّمُ المشركينَ وجودَ مانعٍ مِنَ الرُّؤيةِ

اللّامُ الجارَّةُ في ﴿لَنَا﴾ من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ للاختصاصِ، واسمُ الاستفهامِ في موضعِ الابتداءِ، و﴿لَنَا﴾ متعلِّق بخبرِه، والمعنى: (ما حصلَ لنا؟) أو (ما استقرَّ لنا؟)، وفي اللّامِ إشعارٌ بأنَّهم ظنّوا أنَّ ما سبَّبَ عدمَ الرؤيةِ مُختصٌّ بهِم، كأنَّهم توهَّموا وجودَ مانعٍ، فسألوا عنهُ.

سرُّ النَّفيِ بـ﴿لَا﴾:

عجبُ المشركينَ مِنْ عدمِ الرُّؤيةِ وقتَ الكلامِ

آثر القرآنُ الكريمِ النَّفيَ بـ﴿لَا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ لدلالتِها على نفيِ الرُّؤيةِ في وقتِ الكلامِ، وهو محلُّ التَّعجُّبِ، وقد شاع التَّعبيرُ بـ(لا) بعدَ هذا النَّوعِ مِنَ الاستفهامِ، ولم يستعملوا (ما) - مع اشتراكهما في النَّفي، فلم يقولوا: (ما نرى) - لأنَّ في التَّعبيرِ بها إيهامَ التَّكريرِ معَ ﴿مَا﴾ الاستفهاميَّة.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

يأسُ المشركينَ مِنْ رؤيةِ المؤمنينَ معَهم

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ الرُّؤيةِ أمرٌ مُتجدِّدٌ منهُم؛ حتّى بلغوا اليأسَ مِنْ أنْ تقعَ لهُم رؤيةٌ تجعلُهم يشعرونَ بالتَّساوي بينَهم وبينَ المؤمنينَ، الَّذينَ كانوا يسخرونَ منهُم في الدُّنيا.

بلاغةُ إيرادِ جملةِ ﴿لَا نَرَىٰ﴾:

الحالُ قيدٌ للاستفهامِ

جملةُ ﴿لَا نَرَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ عزَّ مِن قائلٍ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ حالٌ، وهي قيدٌ للاستفهامِ، والمعنى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292.

(ما حصلَ لنا، أو ما استقرَّ لنا حالَ كونِنا لا نرى رجالًا كنّا نعدُّهم مِنَ الأشرارِ؟)، فتكونُ هذهِ الجملةُ هي مَناطَ التَّعجُّبِ أو التَّحسُّرِ والتَّلهُّفِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرِّجالِ:

من طباعِ أهلِ الشِّركِ الاستهزاءُ بمن يرونهم من المؤمنين

عُبِّرَ بالرِّجالِ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾، ولم يقلْ: (أُناسًا)؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ رؤساءَ الشِّركِ من الطّاغين كانوا يختلطونَ بالرِّجالِ مِنَ المؤمنينَ، أمثال: صُهيب وبلال وخبّاب وسلمان[1]، ويسخرونَ منهُم، ويستهزِئونَ بهِم؛ لا لأنَّ النِّساءَ غيرُ داخلاتٍ في الحكمِ المذكورِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿رِجَالًا﴾:

استكبارُ الطُّغاةِ راسخٌ فيهِم

جاءَ تنكيرُ ﴿رِجَالًا﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ للتَّقليلِ والتَّهوينِ من شأنِهم، فهم كانوا لا يأبَهونَ بفقراءِ المؤمنينَ وضعفائِهم، وكانَتْ أعينُهم تزدريهِم، فاستحقارُهم لهُم لا يزالُ راسخًا في نفوسِهم، وهم في النّارِ؛ لِما اشتملَتْ عليهِ مِنَ الكِبْرِ والطُّغيانِ، وكأنَّهم لا يعرفونَ مِنْ أوصافِهم إلّا أنَّهم رجالٌ.

نكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكَونِ:

دلَّ التَّعبيرُ بفعلِ الكونِ الماضي ﴿كُنَّا﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ على رُسوخِ هذا العدِّ في الكفرةِ للمؤمنين، وأنَّهُ كانَ فيهِم طَبْعًا وجِبِلَّةً.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نَعُدُّهُم﴾:

دلَّ التَّعبيرُ بالمضارعِ ﴿نَعُدُّهُم﴾ دون الماضي (عددناهم) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ على أنَّهم كانوا مُستمرّينَ على العدِّ، مُجدِّدينَ لهُ.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 232.

ضعفاءُ المؤمنينَ مِنْ جملةِ الأشرارِ في ظنِّ الكفرةِ

دلالةُ ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ للتَّبعيضِ - أي: (كنّا نعدُّهم بعضَ الأشرارِ)، فهُم في زعمهم مندرجونَ في زُمْرة الأشرار، منخرطونَ في سِلْكِهم، وفي اختيار هذا التَّعبير - دون أن يُقال: (كنّا نعدُّهم أشرارًا) - دلالةٌ على أنَّ المؤمنين كانوا في زعم الطّاغين وعدِّهم متمكِّنين من الوصف بالشَّرِّ.

قلبُ الحقائقِ عادةُ الطُّغاةِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡأَشۡرَارِ﴾:

استعملَ الطُّغاةُ وصفَ الأشرارِ في قولِهم: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾؛ للدَّلالةِ على استرذالِهم للمؤمنينَ، وأنَّهم يرونَ أنَّهم لا خيرَ فيهم ولا جَدْوَى لفقرِهم وضعفِهم، ولأنَّهم كانوا على خلافِ دينِهم، فكانوا عندَهم أشرارًا وضالّينَ[1] - فمعيارُ الخيريَّةِ عندَهم أنْ يوافقوهم على دينِهم الباطلِ - ولأنَّهم يرونَ أنَّهم بإسلامِهم قد خَسِروا لذَّةَ الحياةِ[2]، وما عَلِموا أنَّ غَمْسةً واحدةً في نعيمِ الجنَّةِ خيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها.

نكتةُ صيغةِ جمعِ ﴿ٱلۡأَشۡرَارِ﴾:

جيءَ بالجمعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ على صيغةِ (أفعالٍ) لخِفَّتِه، ولأنَّهُ أنسبُ بفواصلِ الآياتِ.

اختلافُ القراءاتِ بالإخبارِ والاستفهامِ

توجيهُ قراءاتِ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾:

اختلف القرّاء في الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾، فقرأ أبو عمرٍو ويعقوبُ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ: (اتَّخَذْناهم) بالإخبار، وقرأ الباقونَ: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾[3] بهمزة الاستفهام.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 102، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 362.

أمّا قراءةُ الإخبارِ؛ فعلى جعل جملة الاتِّخاذ صفةً لـ﴿رِجَالٗا﴾، كما جاءت جملة الكون صفةً لها أيضًا: ﴿رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾[1]، فوجهها أنَّهم قد أخبروا عن أنفسهم أنَّهم اتَّخذوهم سخريًّا، ثمَّ حُذفت جملةٌ تعادل ﴿أَمۡ زَاغَتۡ﴾، والتَّقدير: (أمفقودون هم؟ أم زاغت عنهم الأبصار؟)، ويكون نظمُ الكلام بناءً على هذا: (ما لَنا لا نرى الرِّجالَ الأشرارَ المَسخورَ منهم؟ أَلِأجلِ أنَّهم لحقارتِهم تُرِكوا، أم لأجلِ أنَّهم زاغَتْ عنهم الأبصارُ؟)[2].

وأمّا على القراءة الثّانية بهمزةِ الاستفهام ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾[3]، فنظمُ الكلامِ: (ما لنا لا نراهم؟ أَلِأجلِ أنّا قد اتَّخَذْناهم سِخْرِيًّا، وما كانوا كذلكَ، فلم يدخلوا النّارَ؟ أم لأجلِ أنَّهُ زاغَتْ عنهُم الأبصارُ؟)[4].

سرُّ فصلِ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ﴾:

قوَّةُ الاتِّصالِ بينَ الجملِ تمنعُ العطفَ

فُصِلَت الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّهُ على قراءةِ الاستفهامِ بدلٌ مِنْ قولِهِ: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾[5]، فالفصلُ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ.

وأمّا على قراءةِ تركِ الاستفهامِ؛ فهو صفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿رِجَالٗا﴾[6]، والصِّفةُ لا تُعطَفُ على الموصوفِ، أو هو جملةٌ مستأنفةٌ لبيانِ ما قبلَها[7]، فيمتنعُ العطفُ أيضًا.

غرضُ الاستفهامِ بالهمز:

ندمُ المشركينَ على الاستهزاءِ بالمؤمنينَ

الاستفهامُ في الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ على قراءةِ مَنْ قرأ بهمز القطع ليسَ على حقيقتِهِ - وهو الاستعلامُ، أي: طلبُ العلمِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 102.
(2) ابن أبي مريم، الموضح: 3/ 1106.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 102.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292 - 293.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292 - 293.
(7) السمين، الدر المصون: 9/ 392، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 317.

- لأنَّ المشركينَ لا يشكّونَ في اتِّخاذِهم المؤمنينَ في الدُّنيا سِخْريًّا، بل الغرضُ منهُ تقريرُ أنفسِهم بهذا على جهةِ التَّوبيخ لها[1]، والإنكارِ عليها، والتَّأنيبِ لها في الاستسخارِ منهُم[2]؛ لأنَّهم قد اتَّخذوهم سِخْريًّا، ولم يكونوا كذلكَ[3]، وعلى جهة التَّعجُّبِ أيضًا مِنْ عدم رؤيتهم[4]، ففي هذا الاستفهام تنبيهٌ على أنَّ الآخرةَ هي محلُّ ظهورِ الحقائقِ، وأنَّ ميزانَها هو الميزانُ الصَّحيحُ، بخلافِ ميزانِ الدُّنيا.

دلالةُ صيغةِ الافتعالِ:

أقبحُ التَّكذيبِ ما يخالفُ يقينَ النَّفسِ

تدلُّ صيغةُ الافتعالِ في الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ على تكلُّفِ المشركينَ في الاستهزاءِ بالمؤمنينَ، أي: (كلَّفْنا أنفسَنا وعالَجْناها في جعلِهم سِخْريًّا)[5]، وهذا التَّكلُّفُ دليلٌ على غايةِ حرصِهم على الاستهزاءِ، وأنَّ قلوبَهم قد أُشْرِبَتْهُ، كيفَ لا؟ وهم في ذلكَ يجاهدونَ أنفسَهم الَّتي توقِنُ أنَّ ما عليهِ المؤمنونَ حقٌّ، ولكنَّهم يُظهرونَ التَّكذيبَ، ويستعينونَ بالاستهزاءِ والسُّخريةِ لإيهام النَّاسِ أنَّ المؤمنينَ في سَفاهةٍ، ولصدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِهم، ففي الصّيغةِ أيضًا دلالةٌ على أنَّهم جعلوا ما ليسَ بمحلٍّ للاستهزاءِ محلًّا لهُ.

بلاغةُ الكنايةِ:

المؤمنونَ ليسوا بأهلٍ للسُّخريةِ منهُم

في الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ كنايةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ المعنى: (أكانَ تحقيرُنا إيّاهم في الدُّنيا خطأً؟)، وكُنِّيَ عنهُ باتِّخاذِهم سِخْريًّا؛ لأنَّ في فعلِ الاتِّخاذ إيماءً إلى أنَّهم ليسوا بأهلٍ للسُّخريةِ، وهذا تندُّمٌ منهُم على الاستسخارِ بالمؤمنينَ[6].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 512.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 102.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 170.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 232.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 411.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 292.

دلالةُ التَّعبير بالماضي:

استهزاءُ المشركينَ بالمؤمنينَ كانَ في الدُّنيا

جيءَ بصيغةِ الماضي في الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الاتِّخاذَ قد تحقَّقَ، ومضَى، ولا غَرْوَ في ذلكَ، فهم في دارِ الجزاءِ، وهم يذكرونَ ما صدرَ عنهُم في الدُّنيا الَّتي هي دارُ التَّكليفِ، واستهزاؤُهم سابقٌ على استفهامِهم هذا.

دلالةُ التَّعبيرِ بالسِّخريّ مادَّةً وصيغةً:

مبالغةُ المشركينَ في تحقيرِ المؤمنينَ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بمادَّة السُّخرية دون التَّحقير في الآية الكريمة: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾؛ للفرق بينهما، فالسُّخرية هي الاستهزاء والاستخفاف، أمّا التَّحقير؛ فهو لازمٌ للسُّخرية، وآثر القرآن التَّعبيرَ بصيغة السِّخريِّ مبالغةً، بتسليطِ الاتِّخاذِ على اسم المصدرِ؛ لأنَّ السِّخْريَّ اسمُ مصدرٍ مِنْ سَخِرَ منهُ؛ إذا استهزأ به، فالسِّخْريُّ الاستهزاءُ، وهو دالٌّ على شدَّةِ الاستهزاءِ وقوَّتِهِ؛ لأنَّ ياءَهُ في الأصلِ ياءُ نَسَبٍ، وياءُ النَّسَبِ تأتي للمبالغةِ في الوصفِ[1]، والأصلُ: (أتَّخَذْناهم مسخورًا بهِم؟)، وهذهِ المبالغةُ كالمبالغةِ في الوصفِ بالمصدرِ.

توجيهُ قراءاتِ ﴿سِخۡرِيًّا﴾:

رؤساءُ الطُّغيانِ كانوا يستَخْفون بالمؤمنين، ويستخدمونهم لأعمالهم

قرأ نافعٌ وحمزةُ والكسائيُّ وأبو جعفرٍ وخلفٌ: (سُخْرِيًّا) بضمِّ السّينِ، وقرأ الباقونَ: ﴿سِخۡرِيًّا﴾ بكسرِها[2]، أمّا قراءةُ الضَّمِّ؛ فهي مِنَ التَّسخيرِ والتَّذليلِ والاستخدام، فتفيدُ أنَّهم كانوا يُسَخِّرونهم، ويستخدمونَهم في أعمالِهم، وأمّا قراءةُ الكسرِ؛ فهي مِنَ الاستهزاءِ[3]، فتفيدُ أنَّهم كانوا يسخرونَ منهُم، ويستخفون بهم، وتحتملُ قراءةُ الضَّمِّ أنْ تكونَ بمعنى قراءةِ الكسرِ، وهو الاستهزاءُ[4].

(1) الجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 402، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 293.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 329.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 233، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 512.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.

استكارف الطّاغين ألّا يكونَ المؤمنون معَهم في النّار

دلالة ﴿أَمْ﴾:

تحتملُ ﴿أَمْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أنْ تكونَ منقطعةً، أي: بمعنى (بل) والهمزة، أضربَتْ عن قولِه تعالى: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾، أي: (ما لَنا لا نراهم في النّارِ، كأنَّهم ليسوا فيها، بل أزاغَتْ عنهُم أبصارُنا، فلا نراهم، وهم فيها؟)[1]، وما بينَهما من جملة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ إمّا اعتراضٌ على قراءةِ الاستفهام ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾، وإمّا صفةٌ ثانية لـ﴿رِجَالًا﴾ على قراءة الإخبار (اتَّخذناهم سِخريًّا)؛ وتكون له صفةً على قراءة الاستفهام أيضًا بإضمارِ القولِ، أي: (ما لنا لا نرى رجالًا مَقولًا فيهِم: أتَّخَذْناهم سخريًّا؟)[2]. وتحتملُ أنْ تكونَ ﴿أَمْ﴾ أضربت عن قولِه تعالى: (اتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا) بقراءة الإخبار.

كما تحتمل ﴿أَمْ﴾ أن تكمون متّصلةً لتقدُّمِ الهمزةِ، والمعنى: (أيُّ الفعلينِ فعَلْنا بهِم؟ السُّخريةُ منهُم أم ازدراؤُهم وتحقيرُهم؟). والغرضُ الإنكارُ على أنفسِهم للسُّخريةِ والزَّيغ جميعًا[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالزَّيغ:

آثر القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالزَّيغ في قول اللّه تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، دون غيره كمادَّة المَيل؛ لأنَّ الزَّيغَ خاصٌّ بالمذموم، فلا يكون إلّا بالمَيل عن الحقِّ، ففي التَّعبير بمادَّة الزَّيغ دلالةٌ على ما زيَّنته نفوسُ المشركين لهم في شأن أهل الإيمان؛ إذ مالوا عن الحقِّ، واتَّبعوا أهواءهم، فالزَّيغ يُطلق على الانحراف عن المقصود والصَّواب، والمشركون قد انحرفوا عن الفطرة في الاستهزاء بأهل الإيمان[4].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 103، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 310.
(2) السمين، الدر المصون: 9/ 392.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 170.
(4) العسكري، الفروق، ص: 213.

بلاغةُ الكنايةِ في زَيغِ الأبصار:

مَن احتقرَ شيئًا صرفَ عنهُ بصرَهُ

يَحتمل قولُ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أن يكون على حقيقته، من عدم رؤيتهم المؤمنين في النّار، ويحتمل كذلك أن يكونَ الزَّيغ حصل في الدُّنيا، فتكونَ في التَّعبيرِ كنايةٌ لطيفةٌ عن احتقارِهم للمؤمنينَ[1]، ووجهُ الكنايةِ: أنَّ مَنْ يَحْقِرُ شيئًا لا ينظرُ إليه، بل يُميلُ عنهُ بصرَهُ[2].

سرُّ إسنادِ الزَّيغِ إلى الأبصارِ:

شــدَّةُ احتقارِ أبصارِ المشركينَ للمؤمنينَ، وتمنّيهم أن يُعذَّبوا معهم

في التَّعبيرِ بالفعل المجرَّد من الزَّيغ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، دونَ (أزَغْنا عنهُم الأبصارَ) مبالغةٌ عظيمةٌ، بنسبةِ الزَّيغ إلى الأبصارِ لا إلى أصحابِها، ووجهُ المبالغةِ: أنَّ العينَ كأنَّها بنفسِها تَمُجُّهم لقُبْحِ منظرِهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّهم جعلوهم مُحقَّرينَ، لا يُنظَرُ إليهم بوجهٍ[3]، وأنكروا بالاستفهامِ هذا الاحتقارَ على أنفسِهم، وهذا على جعْلِ زيغِ الأبصارِ كنايةً عن الاحتقارِ.

ويجوز أنْ يكونَ السِّرُّ في هذا التَّعبير أنَّهم أميَلُ إلى تجويزِ كونِهم معَهم في النّارِ، ومَنْعَهم مِنْ رؤيتِهم مانعٌ، فدلّوا على ذلكَ بنسبةِ خفائِهم عنهُم إلى رخاوةٍ في أبصارِهم[4].

دلالةُ (عَنْ):

تجاوزُ أبصارِ المشركينَ مكانَ المؤمنينَ

حرفُ الجرِّ (عَنْ) في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ للمجاوزةِ، والمعنى: (مالَتْ أبصارُنا متجاوِزَةً عنهُم)[5]، وكأنَّ أبصارَهم لا تمرُّ بمكانٍ في الدُّنيا يوجدُ فيهِ المؤمنونَ، بل تتخطّاهُ، وتتجاوزُهُ، لفَرْطِ ما هم عليهِ مِنَ الاحتقارِ والاسترذالِ لشأنِ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 33.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 441.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 209.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 411.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 411.

المؤمنينَ، وعلى جعل الزَّيغ في الآخرة، فكأنَّ أبصارَهم تُصرَف عن رؤية المؤمنين في النّار صَرفًا، وتُمنَع عنهم بموانع، فتتجاوَزُهم، وهم لا يشعرون، وهذا التَّعبيرُ منهم إشارةٌ إلى شدَّة تمنّيهم أن يُشرِكوهم في عذاب النّار، واستنكارِهم أن يكونوا هم فيها، ولا يجدون مَن كانوا يعدّونهم مِن الأشرار.

غرضُ تقديم ﴿عَنْهُمُ﴾:

سرعةُ مبادرةِ أبصارِ المشركينَ إلى احتقارِ المؤمنينَ

قُدِّمَ ﴿عَنْهُمُ﴾ على ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم والتَّشويقِ للمُؤَخَّرِ، وللمسارعةِ إلى التَّعبيرِ عن إيقاعِ الزَّيغِ عن المؤمنينَ، كما كانَتْ أبصارُهم في الدُّنيا تُسرِعُ إلى احتقارِ المؤمنينَ عندَ رؤيتِهم؛ إضافةً إلى ما في تأخيرِ لفظِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مِنْ مراعاةِ الفاصلةِ.

لطيفةٌ في تعريفِ الأبصارِ:

بصرُ المشركينَ يومَ القيامةِ حديدٌ

تعريفُ الأبصارِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مشتمِلٌ على لطيفةٍ، وهي أنَّ اللّه ﷻ يُعيدُ الخلقَ في القيامةِ على غايةِ الإحكامِ في أبدانِهم وقواها، فتكونُ أبصارُهم أحدَّ ما يمكنُ أنْ تكونَ، كما قالَ الحقُّ ﷻ: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22][1].

سرُّ العدولِ عنِ الإضافة:

اختيارُ الأخفِّ الأنسبِ بالفاصلةِ

يحتملُ أنْ تكونَ اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ للجنس، ويحتمل أن تكون عِوَضًا عن المضافِ إليه، أي: أبصارُنا[2]، وفائدةُ العدولِ عن الإضافةِ إلى التَّعريفِ باللّام: طلبُ الخِفَّةِ، إذِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أخفُّ في النُّطقِ، وطلبُ مراعاةِ ملاءمةِ الفواصلِ.

سرُّ جمعِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾:

جُمِعَتِ ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 411.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 606، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 293.

﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، ولم يقل: (زاغَ عنهم البصرُ)؛ لأنَّ اللّامَ في ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ على أحدِ الأقوالِ، والأبصارُ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ أصحابِها، وفي التَّعبيرِ بالجمعِ لطيفةٌ أيضًا، وهي التَّنبيهُ على أنَّ الأبصارَ على كثرتِها قد زاغَتْ عنهُم.

الأبصارُ مُتعدِّدةٌ بتعدُّدِ المُبصِرينَ، وقد عَجزَت عن رؤيةِ المؤمنين في النّار

سرُّ التَّعبيرِ بالأبصارِ دونَ الأعيُنِ:

تمكُّنُ الزَّيغِ مِنْ أبصارِ المشركينَ

أوثِرَ لفظُ الأبصارِ على لفظِ الأعيُنِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ لأنَّ البصرَ كما يُطلَقُ على الجارحةِ يُطلَقُ على القوَّةِ المودَعةِ فيها، ففي التَّعبيرِ بالأبصارِ إشارةٌ إلى أنَّ الزَّيغَ قد اتَّصفَتْ بهِ الجارحةُ الباصرةُ على وجهٍ قويٍّ، يُشعِرُ بحصولِ خللٍ في القوَّةِ الباصرةِ.

سرُّ إيرادِ زيغِ الأبصارِ بعدَ ذكرِ السُّخريةِ:

زيغُ الأبصارِ أقبحُ مِنَ السُّخريةِ

في ذكرِ زيغِ الأبصارِ بعدَ السُّخريةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ مراعاةٌ لطيفةٍ، وهي أنَّ زيغَ الأبصارِ إذا حُمِلَ على أنَّهُ كنايةٌ عن الاحتقارِ؛ يفيدُ أنَّ سُخريةَ المشركينَ مِنَ المؤمنينَ مصحوبةٌ بالاحتقارِ، وهو أبلغُ مِنَ الاقتصارِ على السُّخريةِ؛ لأنَّ المسخورَ منهُ قد يكونُ محبوبًا مُكرَمًا[1]، فكأنَّهم في استفهامِهم الإنكاريِّ قد ارتقَوا من حالةٍ قبيحةٍ إلى حالةٍ أقبحَ منها.

براعةُ الاحتباكِ:

فَرْطُ تحيُّرِ المشركينَ ودَهْشتِهم

قولُ اللّه تعالى: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ فيهِ - على بعضِ وجوهِ تفسيرِهِ - معَ ما قبلَه فنُّ الاحتباكِ؛ وذلكَ أنَّ معناهُ: (أتّخذناهم سخريًّا فليسوا معنا في النّارِ؟ أم زاغَتْ أبصارُنا، فلم نرَهم، وهم معَنا في النّارِ؟ ولكنْ حجبَهم عنّا بعضُ أوديتِها وجبالِها ولَهَبِها). فـ (أم) معادلةٌ لجملةِ السُّخريةِ، وقد عُلِمَ بهذا التَّقديرِ أنَّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 209.

حاصلَ معنى الآيةِ: (أهم معَنا أم لا؟). فهي مِنَ الاحتباكِ، باعتبارِ أنَّهُ أثبتَ الاتِّخاذَ المذكورَ الَّذي يلزمُهُ عدمُ كونِ المسخورِ منهُم معَهم في النّارِ أوَّلًا دليلًا على ضدِّهِ ثانيًا، وهو كونُهم معَهم فيها؛ وأثبتَ زيغَ الأبصارِ ثانيًا الَّذي يلزمُ منهُ كونُهم معَهم في النّارِ دليلًا على ضدِّهِ أوَّلًا، وهو كونُهم ليسوا معَهم. وسرُّ ذلكَ أنَّ المقامَ للَوْمِهم أنفسَهم في غلطِهم، والَّذي ذُكِرَ عنهُم أدلُّ على ذلكَ[1].

سرُّ الفصلِ:

الاستئنافُ مدعاةٌ لتركِ العطفِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ جيءَ بهِ لتقريرِ ما قبلَهُ مِنَ الحديثِ عن تقاوُلِ الطّاغينَ وأتباعِهم، فلمّا ذكرَ اللّهُ تعالى عنِ الطّاغينَ وأتباعِهم هذهِ المناظرةَ؛ بيَّنَ أنَّها حقٌّ، لا شكَّ في وقوعِها[2]، وبهذهِ الآيةِ خُتِمَ وصفُ حالِهم وعذابِهم وجدالِهم[3].

بلاغةُ التَّذييلِ:

قولُ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ؛ لِما فُهِمَ مِنَ الكلامِ السّابقِ، مِن وجودِ خلافٍ بينَ الطّاغينَ وأتباعِهم[4].

نكتةُ توالي المؤكِّداتِ:

تخاصُمُ الطّاغينَ وأتباعِهم حقٌّ فيهِ عِظَةٌ وعِبْرَةٌ

أُكِّدَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واللّامِ المُزحلَقةِ واسميَّةِ الجملةِ؛ لأنَّ مضمونَ الخبرِ مهمٌّ؛ إذ فيهِ زجرٌ لأصحابِ العقولِ عمّا يُفضي بهم إلى عاقبةِ هؤلاءِ الطّاغينَ وأتباعِهم[5]، ولأنَّ هذا التَّوكيدَ منظورٌ فيهِ لِما يلزمُ الخبرَ مِنَ التَّعريضِ بوعيدِ المشركينَ، وإثباتِ حشرِهم وجزائِهم[6]، ولأنَّهُ قد

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 411.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 293.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 442، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 293.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 412.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 293.

يظنُّ بعضُ السّامعينَ أنَّ هذا المشهدَ الَّذي عرضَهُ القرآنُ مجرَّدُ مشهدٍ لصورةٍ خياليَّةٍ أدبيَّةٍ، كما يفعلُ القصّاصونَ المَهَرةُ، فأكِّدَ الكلامُ؛ لبيانِ أنَّ هذا التَّخاصمَ الَّذي جاءَ في النَّصِّ حقٌّ واقعٌ(1).

مرجعُ الإشارةِ:

اسمُ الإشارةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ راجعٌ إلى ما سبقَ مِنْ حكايةِ تقاولِ الطّاغينَ وأتباعِهم، ومناظرتِهم(2).

نكتةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

المُشارُ إليهِ عظيمُ الشَّأنِ مُلحَقٌ بالبعيدِ

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ مع قُرْبِ العهدِ بتقاوُلِ الطّاغينَ وأتباعِهم؛ لتفخيمِ شأنِ هذا التَّقاوُلِ وتعظيمِه(3)، ولأنَّهُ لمّا تقضَّتْ حكايتُهُ؛ كانَ في حكمِ البعيدِ، كما يُحدِّثُ الرَّجلُ بحديثٍ، ثمَّ يقولُ: إنَّ ذلكَ ممّا لا شكَّ فيه.

نكتةُ تنكيرِ الحَقِّ:

تنكيرُ لفظِ الحقِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾؛ لتفخيمِ شأنِ الحقِّ وتعظيمِه، أي: (لَحَقٌّ عظيمُ الشَّأنِ، لا يُقادَرُ قَدْرُهُ، ولا يُبلَغُ كُنْهُهُ).

سرُّ التَّعبيرِ بالحقِّ:

الحقُّ فيهِ دلالةٌ على الصِّدقِ والثَّباتِ

عُبِّرَ بالحقِّ دونَ الصِّدقِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ كلمةَ الحقِّ تدلُّ بحسَبِ أصلِ وضعِها اللُّغويِّ على الثَّباتِ، فتفيدُ الصِّدقَ وزيادةً، والمعنى: (إنَّ ذلكَ لَصدقٌ واقعٌ ثابتٌ، لا بدَّ أنْ يجريَ بينَهم يومَ القيامةِ، ولا بدَّ أنْ يتكلَّموا بهِ، ولا يتخلَّفُ البتَّةَ)(4).

---

(1) ابن حسن، تفسير القرآن: 3/ 614.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 103، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 405.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 412.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 164، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 171، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 508.

التَّقاوُلُ شبيهٌ بالتَّخاصمِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالتَّخاصُمِ:

سُمّيَ التَّقاوُلُ بينَ الطّاغينَ وأتباعِهم تخاصُمًا - أي: تجادُلًا - في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّهُ قد شُبِّهَ تقاولُهم وما يجري بينَهم منَ السُّؤالِ والجوابِ بما يجري بينَ المتخاصمينَ مِنْ نحوِ ذلكَ، فيكونُ استعارةً تصريحيَّةً؛ أو لأنَّ قولَ الطُّغاة: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ [ص: 59]، وقولَ أتباعِهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ [ص: 60] مِنْ بابِ الخصومةِ، فسُمّيَ التَّقاوُلُ كلُّهُ تخاصُمًا لأجلِ اشتمالِهِ على ذلكَ[1]، فيكونُ مِنْ بابِ المجازِ المرسلِ.

مـقـاولـةُ كـلٍّ مِـنَ الـطّـاغـيـنَ وأتـبـاعِـهـم بعضهم بعضًا

دلالةُ صيغةِ التَّفاعُلِ:

عُبِّرَ بصيغةِ التَّفاعُلِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّ هذهِ الصّيغةَ تدلُّ على المشاركةِ بينَ طرفينِ، والتَّخاصمُ هنا مُعبَّرٌ بهِ عن التَّقاولِ، وهو أمرٌ مشترَكٌ بينَ الطُّغاةِ وأتباعِهم، يقولُ بعضُهم كذا، ويُجيبُهُ بعضُهم بكذا، وذلكَ أنسبُ بمقامِ الاختلافِ وامتزاجِ الأقوالِ ومعارضةِ بعضِها بعضًا.

احتمالُ الكلمةِ أوجهًا متعدِّدةً مِنَ الإعرابِ

بلاغةُ موقعِ ﴿تَخَاصُمُ﴾ الإعرابيِّ:

يحتملُ لفظ التَّخاصُم في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾ أنْ يكونَ خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا بيَّنَ أنَّ الَّذي حكاهُ عنهُم حقٌّ؛ بيَّنَ ما هو، فقالَ: هو تخاصمُ أهلِ النّارِ[2]، فيكونُ قولُهُ: ﴿تَخَاصُمُ﴾ معَ المبتدأِ المحذوفِ (هو) استئنافًا لزيادةِ بيانِ مدلولِ اسمِ الإشارةِ[3]، والفصلُ لشبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وفي الإبهامِ أوَّلًا والتَّبيينِ ثانيًا مزيدُ تقريرٍ لهُ[4].

ويحتملُ أيضًا أنْ يكونَ مرفوعًا بقولِهِ: ﴿لَحَقٌّ﴾، أو أنْ يكونَ عطفَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 103، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 163.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 103، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 225.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 412، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 294.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 209.

بيانٍ لقولِه: ﴿لَحَقٌّ﴾[1]، أو أنْ يكونَ بدلًا مِنْه[2] بدلَ الكلِّ مِنَ الكلِّ[3]، وفي سلوكِ طريقِ البدلِ إيضاحٌ بعدَ إبهامٍ، وفيهِ تقريرٌ للمُبدَلِ بعدَ تشويقٍ إليهِ، ويحتملُ أنْ يكونَ خبرًا ثانيًا لـ ﴿إِنَّ﴾[4]، وفي تعدُّدِ الأخبارِ تنويهٌ بشأنِ المُخبَرِ عنهُ.

علَّةُ إضافةِ التَّخاصُمِ إلى ﴿أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾:

أهلُ الضَّلالاتِ الاعتقاديَّةِ غالبُ أهلِ النّارِ

أُضيفَ التَّخاصمُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ إلى أهلِ النّارِ كلِّهم اعتبارًا بغالبِ أهلِها؛ لأنَّ غالبَهم أهلُ الضَّلالاتِ الاعتقاديَّةِ، وهم: إمّا دعاةٌ للضَّلالِ، أو أتباعٌ لهُم، فكلُّهم يجري بينَهم هذا التَّخاصمُ، أمّا مَنْ كانَ في النّارِ مِن عُصاةِ المؤمنينَ؛ فكثيرٌ منهُم ليسَ عصيانُهُ إلّا تبعًا لهواهُ، معَ كونِهِ على علمٍ بأنَّ ما يأتيهِ ضلالةٌ، لم يُسوِّلْهُ لهُ أحدٌ[5].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾:

إضافةُ الأهلِ إلى النّارِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ لاميَّةٌ، والمعنى: (تخاصمُ أهلٍ للنّارِ)؛ فتفيدُ أنَّ بينَهم وبينَ النّارِ صِلَةً وارتباطًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالأهلِ:

الخلودُ في النّارِ خاصٌّ بالمشركينَ

عُبِّرَ بالأهلِ دونَ الأصحابِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخلودَ في النّارِ خاصٌّ بالمشركينَ، كقولِهم: أهلُ قريةِ كذا، فإنَّهُ لا يشملُ المغتربَ بينَهم، ووقتَ نزولِ هذهِ الآيةِ لم يكنْ في مكَّةَ غيرُ المسلمينَ الصّالحينَ والمشركينَ، فوصفُ أهلِ النّارِ يومئذٍ لا يتحقَّقُ إلّا في المشركينَ دونَ عُصاةِ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 394.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 512، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 225.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 442.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 225.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 294.

المسلمينَ[1]، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ لفظَ الأهلِ أخفُّ، وأنسبُ بالإيجازِ الَّذي بُنِيَتْ عليهِ آياتُ السّورةِ، وفيهِ أيضًا إشارةٌ إلى ما يجمعُ أهلَ النّارِ الخالدينَ فيها، وهو الكفرُ.

نكتةُ تعريفِ النّارِ:

نارُ الآخرةِ مآلُ المشركينَ

جاء تعريفُ النّارِ في قولِ الباري عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾، وهو للعهدِ؛ إذ المرادُ بها نارٌ معهودةٌ، وهي نارُ جهنَّمَ الَّتي تكونُ مثوًى للكافرينَ، يذوقونَ فيها ألوانَ العذابِ، وصروفَ النَّكالِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البصرُ والرُّؤيةُ والنَّظرُ:

الرُّؤيةُ أبلغُ في التَّعبيرِ عن غيبةِ المؤمنينَ عنهُم

البصرُ: يُقالُ للجارحةِ النّاظرةِ، ويقالُ للقوَّةِ الَّتي في الجارحةِ النّاظرةِ، وقد يُطلَقُ على البصيرةِ، وهي الإدراكُ الَّذي في القلبِ[2]، والرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيِّ بالحاسَّةِ، أو بالوهمِ والتَّخيُّلِ، أو بالتفكُّرِ، أو بالعقلِ[3]. والنَّظرُ: تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيتِهِ، وقد يرادُ بِهِ التَّأمُّلُ والرَّوِيَّةُ، واستعمالُهُ في البصرِ أكثرُ عندَ العامَّةِ، وفي البصيرةِ أكثرُ عندَ الخاصَّةِ[4].

والحاصلُ: أنَّ إبصارَ الشَّيءِ، يعني: إبصارَ صورتِهِ وشكلِهِ بحاسَّةِ البصرِ، ورؤيةُ الشَّيءِ، تعني: إدراكَ حقيقتِهِ بالحاسَّةِ، أو بالوهمِ والتَّخيُّلِ، أو بالتَّفكُّرِ، أو بالعقلِ، والنَّظرُ تقليبُ البصرِ، والنَّظرُ إلى الشَّيءِ لا يستلزمُ رؤيتَهُ، فالرُّؤيةُ أعمُّ مِنَ البصرِ والنَّظرِ.

وقد عُبِّرَ بالرُّؤيةِ هنا للتَّنبيهِ على أنَّ إدراكَ أهلِ النّارِ لحقائقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 294.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (بصر).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (رأى).
(4) الراغب، المفردات: (نظر).

المؤمنينَ لم يحصلْ بالحاسَّةِ، ولا بغيرِها، وفي ذلكَ مبالغةٌ في التَّعبيرِ عن غيابِهم عنهُم.

الحُسْبانُ والعدُّ:

عدمُ إعمالِ المشركينَ عقولَهم عندَ جعلِ المؤمنينَ مِنَ الأشرارِ

كلٌّ مِنَ الحُسْبانِ والعدِّ يدلُّ في الأصلِ على الإحصاءِ، إلّا أنَّ (عدَّ) ينحصرُ في تعدادِ الشَّيءِ، و(حَسِبَ) معناهُ مُطلَقٌ في الحسابِ، فيشملُ التَّعدادَ وغيرَهُ مِنَ الطَّرحِ والجمعِ والضَّربِ والتَّقسيمِ، ونحوِ ذلكَ[1]، وكلٌّ منهما يُتجوَّزُ بهِ عن الظَّنِّ.

وفي التَّعبيرِ بالعدِّ هنا إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا يجعلونَ المؤمنينَ مِنْ طائفةِ الأشرارِ دونَ مراجعةٍ وتدقيقٍ في ذلكَ كما يقتضي الحسابُ، بل كانَ حكمُهُم عليهِم جزافًا، ولو أعملوا عقولَهم؛ لَما حكموا بذلكَ.

السُّخريةُ والاستهزاءُ:

المشركونَ حريصونَ على قهرِ المؤمنينَ وإذلالِهم بسببِ إيمانِهم

الاستهزاءُ والسُّخريةُ كلٌّ منهما فيهِ استخفافٌ وهَمْزٌ، والفرقُ بينَهما: أنَّ الإنسانَ يُستهزَأُ بهِ مِنْ غيرِ أنْ يَسبِقَ منهُ فعلٌ يُستهزَأُ بهِ مِنْ أجلِهِ، وأمّا السُّخريَةُ؛ فتدلُّ على فعلٍ يَسبِقُ مِنَ المسخورِ منهُ[2]، والسُّخريةُ تدلُّ بحسَبِ أصلِ معناها على الذُّلِّ والقَهْرِ، وكأنَّ السّاخرَ يبغي قَهْرَ المسخورِ منهُ وإذلالَهُ.

وقد عُبِّرَ بالسُّخريةِ هنا لأنَّ المشركينَ كانوا يستهزِئون بالمؤمنينَ، لِما صدرَ عنهُم مِنَ الإيمانِ واتِّباعِ الرُّسلِ، وكانوا حريصينَ على قهرِهم وإذلالِهم بذلكَ.

الزَّيْغُ والمَيْلُ:

الزَّيْغُ مقارِنٌ للمشركينَ في الدُّنيا والآخرةِ

الزَّيْغُ والمَيْلُ يدلّانِ على الانحرافِ عن الشَّيءِ، وقد عُبِّرَ بالزَّيغِ هنا؛ لأنَّهُ بالإضافةِ إلى دلالتِهِ على المَيْلِ يدلُّ على حالِهم في الدُّنيا، وهو الزَّيْغُ في المُعتقَدِ، والانحرافُ عن طريقِ الحقِّ، فقارنَهم الزَّيغُ

---

(1) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 478 - 479.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 254.

في الدُّنيا والآخرةِ، فالزَّيغ لا يكون إلّا بالمَيل عن الحقِّ، يقال: فلانٌ من أهلِ الزَّيع، ويقال: زاغ عن الحقِّ، فهو يُستعمل في المَيلِ المكروه، بخلاف الميل الَّذي يكون في المكروه والمحبوب.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير به هنا: دلالتُه على ما زيَّنتْه نفوسُ المشركين لهم في شأن أهل الإيمان؛ إذ مالوا عن الحقِّ، واتَّبعوا هواهم، فلأنَّ الزَّيغَ يُطلَق على الانحراف عن المقصود والصَّواب، والمشركون قد انحرفوا عن الفطرة في الاستهزاء بأهل الإيمان، لذلك كان التَّعبيرُ بالزَّيغ دون الميل[1].

التَّنازعُ والتَّخاصمُ:

تجاذبُ الطُّغاةِ وأتباعِهم أطرافَ الأحاديثِ

نزعُ الشَّيءِ: جَذْبُهُ مِنْ مَقَرِّهِ، والتَّنازعُ والمنازعةُ: المجاذبةُ[2]، والتَّخاصمُ والخصومةُ: المنازعةُ[3]، وأصلُ ذلكَ مِنَ الخُصْمِ، وهو الجانِبُ، وذلكَ أنَّ كلًّا مِنَ المتخاصمينِ يأخذُ جانبًا مِن جوانبِ المُتنازَعِ فيهِ، وفي التَّعبيرِ بالتَّخاصمِ هنا إشارةٌ إلى تجاذبِ الطُّغاةِ وأتباعِهم أطرافَ الأحاديثِ، وأنَّ كلًّا منهُم يريدُ إقامةَ الحُجَّةِ لنفسِهِ.

الأهلُ والآلُ:

عَـراقةُ الطُّغاةِ وأتـبـاعِـهـم في النّارِ

(الآلُ) مقلوبُ (الأهلِ)، ويُصغَّرُ على (أُهَيْلٍ)، والفرقُ بينَهما أنَّ (الآلَ) مخصوصٌ بالإضافةِ إلى الأعلامِ النّاطقينَ، ولا يُضافُ إلى النَّكراتِ، ولا إلى الأزمنةِ والأمكنةِ، يقالُ: آلُ فلانٍ، ولا يقالُ: آلُ رجلٍ، ولا آلُ زمانِ كذا أو موضعِ كذا، ويُضافُ إلى الأشرفِ الأفضلِ، فيقالُ مثلًا: آلُ اللّهِ، وآلُ السُّلطانِ، ولا يقالُ: آلُ الخيّاطِ، والأهلُ يُضافُ إلى الكلِّ، يقالُ: أهلُ اللّهِ، وأهلُ الخيّاطِ، كما يقالُ: أهلُ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 213.
(2) الراغب، المفردات: (نزع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خصم).

زمنِ كذا وبلدِ كذا[1]، ويُطلَقُ الآلُ أيضًا على الأتباعِ والموالينَ، كما في قولِهِ ﷻ: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر: 46][2].

وقد عُبِّرَ بالأهلِ هنا؛ لأنَّهُ مضافٌ إلى مكانٍ، وهو النّارُ، والآلُ لا يَصلُحُ للإضافةِ إلى الأمكنةِ، واختيارُ لفظِ الأهل هنا؛ لما يدلُّ عليهِ أيضًا مِنْ عَراقةِ الطُّغاةِ وأتباعِهم في النّارِ، حتَّى كأنَّهم وُلِدوا فيها، وعاشوا فيها، كما هو شأنُ أهلِ البلدِ.

(1) الراغب، المفردات: (آل)، والنزهي، الفروق اللغوية، ص: 29.

(2) زيدان، الفروق اللغوية: 9.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ [ص: 65 - 66]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

الردُّ على شُبُهات منكري التَّوحيد والنُّبوَّة

مناسبة قول الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ لما قبله أنَّهُ ﷻ بعدَ أنْ ذكرَ أوَّلَ السّورةِ أنَّ محمَّدًا ﷺ دعا إلى التَّوحيد، وأثبتَ أنَّهُ نبيٌّ، ودعا إلى الحشرِ والنَّشرِ، فقابلوهُ بالسَّفاهةِ والتَّكذيبِ، ثمَّ صبَّرَهُ على ذلكَ، وقصَّ عليهِ مِنْ قصصِ الأنبياءِ ما يكونُ سُلوةً لهُ في الصَّبرِ على الأذى، ثمَّ أردفَ ذلكَ ذكرَ ثوابِ أهلِ الجنَّةِ، وعذابِ أهلِ النّارِ؛ عادَ هنا إلى تقريرِ ما ذكرَهُ أوَّلَ السّورةِ، وهو تقريرُ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ والبعثِ[1]، ثمَّ لمّا كان ذكرُ قهرِ اللهِ مُشعِرًا بالتَّرهيبِ والتَّخويفِ؛ أردفَهُ بما يدلُّ على الرَّجاءِ والتَّرغيبِ، فقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مُنذِرٞۖ﴾: (نذر) أصلٌ يدلُّ على تخويفٍ، ومنهُ: الإنذارُ، وهو الإبلاغُ بما فيهِ تخويفٌ، واشتُقَّ منهُ النَّذيرُ، وهو المُنذِر، ويُطلق على كلِّ شيءٍ فيه إنذارٌ، إنسانًا كان أو غيرَه[3]، والمرادُ بالمُنذِرِ هنا: المُخوِّفُ بعذابِ اللهِ[4].

2) ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾: (قهر) أصلٌ يدلُّ على غلَبةٍ وعلوٍّ وتذليلٍ، ومِنْ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 406، والطيبي، فتوح الغيب: 13/ 314.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 406.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نذر).
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 33.

ذلكَ يقالُ: قهرَهُ قَهْرًا، أي: غلبَهُ[1]، وأخذَهُ مِنْ غيرِ رضاهُ[2]، وأقهرَهُ: إذا سلَّطَ عليهِ مَنْ يقهرُهُ، والقهّارُ هو الغالبُ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّبيُّ داعٍ إلى عبادةِ اللهِ الواحدِ

يأمرُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ محمَّدًا ﷺ أنْ يقولَ للمشركينَ مِنْ قومِهِ ومَنْ على شاكلتِهم: ما أنا إلّا رسولٌ مُنذِرٌ لكُم بينَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ، ولستُ ساحرًا كذّابًا، كما تدَّعونَ، واعلَموا أنَّهُ ما مِنْ معبودٍ تصلحُ لهُ العبادةُ إلّا اللّهُ الواحدُ الَّذي لا ينبغي أنْ يكونَ لهُ في مُلْكِهِ شريكٌ، ولا يَقبل الشِّركة، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فهو المتفرِّد بالوحدانيَّة، وهو القهّارُ لكلِّ ما دونَهُ بقدرتِهِ، مالكُ العوالمِ كلِّها في السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، العزيزُ الَّذي لا يغالبه مغالِبٌ في أمرٍ من أموره، وهو معَ ذلكَ الغفّارُ لذنوبِ مَنْ شاءَ من عباده.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ:

الرَّدُّ على مُنكري النُّبوَّةِ والوحدانيَّةِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ لغرضٍ جديدٍ، وهو راجعٌ إلى قولِهِ تعالى أوَّلَ السّورة: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾ [ص: 4]، وإلى قولِهِ بعدَه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: 8]، فلمّا أجابَهم عن ذلكَ التَّكذيبِ بأنْ نظَّرَ حالَهم بحالِ الأممِ المكذِّبةِ من قبلِهم، ونظَّرَ حالَ الرَّسولِ ﷺ بحالِ الأنبياءِ الَّذينَ صبروا؛ عادَ الكلامُ إلى تحقيقِ مقامِ الرَّسولِ ﷺ مِنْ قومِهِ، فأمرَهُ اللّهُ أنْ يقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ مقابلَ قولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾ [ص: 4]، وأنْ يقولَ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ مقابلَ إنكارِهم التَّوحيدَ بقولِهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: 5][4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (قهر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (قهر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 294 - 295.

سرُّ افتتاحِ الآيةِ بـ﴿قُلۡ﴾:

الخطابُ تشريفٌ وعنايةٌ

افتُتِحَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ بالأمرِ بالقولِ لإظهارِ العنايةِ بما بعدَ فعلِ القولِ، ولتشريفِ المُخاطَبِ بعِزِّ الخطابِ والحضورِ، وعِزِّ التَّكليفِ بتبليغِ مضمونِ هذا الكلامِ، وشرفِ إقامةِ الحُجَّةِ على المشركينَ.

تعيينُ المُخاطَبِ بـ﴿قُلۡ﴾:

المُخاطَبُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ هو النَّبيُّ ﵇[1]؛ إذ هو النَّبيُّ المُرسَلُ، وهو المُكلَّفُ بتبليغِ الوحيِ، وتقريرِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ.

دلالةُ الأمرِ بالقولِ:

وجوبُ تقريرِ النُّبوَّةِ والوحدانيَّةِ

الأمرُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ للوجوبِ؛ إذ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل مقامُ التَّكليفِ بتقريرِ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ يقتضيه، وهذا واضحٌ من خلالِ آياتِ القرآنِ التي بيَّنت دَورَ رسولِ اللّه ﷺ في البلاغِ عن ربِّه.

سرُّ عدمِ ذكرِ المَقولِ لهُم:

إثباتُ عالميَّةِ رسالته ﷺ لكلِّ العالمين

الظّاهرُ أنَّ المَقولَ لهُم: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ هم مشركو مكَّةَ[2]، ولم يُذكَروا لظهورِ الأمرِ مِنَ المقامِ، وليكونَ الكلامُ صالحًا لأنْ يوجَّهَ للنّاسِ جميعًا إلى قيامِ السّاعةِ، فتبقَى أصداءُ هذهِ الجملةِ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ تتردَّدُ في جَنَباتِ الدَّهرِ، إلى أنْ يَرِثَ اللّهُ الأرضَ ومَنْ عليها، فالنَّبيُّ ﷺ رسولُ العالمينَ، وليسَ رسولًا إلى قومٍ بعينِهم، وفيه إشارةٌ إلى التَّهوينِ من شأنِ مشركي مكَّةَ، بعدمِ ذكرِهم في توجيهِ القولِ إليهم.

بلاغةُ اسميَّةِ جملةِ المَقولِ:

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في مَقولِ القولِ من الآيةِ الكريمةِ: ﴿قُلۡ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104.

﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ قصرَهُ ﷺ على النِّذارةِ أمرٌ ثابتٌ دائمٌ، لا شكَّ فيه، ولا ارتياب.

بلاغةُ القصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾:

النَّبيُّ مقصورٌ على النِّذارة، وليس ساحرًا كما زعموا

القصرُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾ قصرُ موصوفٍ - وهو النَّبيُّ ﵇ - على صفةٍ، وهي النِّذارةُ، أي: (إنَّما أنا متَّصفٌ بالنِّذارةِ، لا أتعدّاها إلى الاتِّصافِ بغيرِها مِنَ الصِّفاتِ)، وهذا القصرُ إضافيٌّ، بالنِّسبةِ إلى ما اتَّهموهُ بِهِ ﵇ مِنَ السِّحرِ والكذبِ، أي: (إنَّما أنا مُنذِرٌ، لا ساحرٌ ولا كذّابٌ كما تدَّعونَ)[1]، فيكونُ قصرَ قلبٍ، أو هو قصرٌ إضافيٌّ، بالنِّسبةِ إلى ظنِّهم أنَّهُ ﷺ إلهٌ قادرٌ على الإتيانِ بما يستعجلونَ بِهِ مِنَ العذابِ، أي: (إنَّما أنا مُنذِرٌ، لا إلهٌ كما تظنّونَ)، وهو قصرٌ للموصوفِ على الصِّفةِ قصرَ قلبٍ أيضًا[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿مُنذِرٞۖ﴾:

رسوخُ النَّبيِّ ﷺ في صفةِ النِّذارةِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ اللّٰهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ يفيدُ الثَّباتَ، فيفيدُ رسوخَ اتِّصافِهِ ﷺ في صفةِ النِّذارةِ، وفي ذلكَ تقويةٌ لفائدةِ القصرِ، وتنبيهٌ على غايةِ حرصِهِ ﷺ على تحذيرِ النّاسِ ممّا يُعرِّضُهم لسَخَطِ اللّٰهِ ونِقْمَتِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمُنْذِرِ دونَ النَّذيرِ:

المُنذِرُ أنسبُ بتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ

عُبِّرَ بالمُنذِرِ دونَ النَّذيرِ في قولِ اللّٰهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾؛ لأنَّ هذهِ الآيةَ راجعةٌ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾ [ص: 4]؛ للرَّدِّ على اتِّهامِ المشركينَ للنَّبيِّ ﷺ بالسِّحرِ والكذبِ، ولتقريرِ حقِّيَّةِ نبوَّتِهِ، وقد عُبِّرَ هناكَ بالمُنذِرِ، فعُبِّرَ بِهِ هنا أيضًا موافقةً لهُ، لتتجاوبَ أطرافُ الكلامِ، ويقوى الارتباطُ والالتئامُ.

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 443.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413.

دلالةُ عدمِ ذكرِ متعلّق ﴿مُنذِرٞ﴾:

المُنذَرُ بِه شأنُه عظيمٌ

أُطلِقَ لفظُ المُنذِر في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾، ولم يُذكَرِ المُنذَرُ ولا المُنذَرُ بِه؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ؛ إذ المُنذَرونَ هم كفّارُ قريشٍ ومَنْ على شاكلتِهم، والمُنذَرُ بِه هو عقابُ اللّهِ تعالى، وفي الإطلاقِ تفخيمٌ لشأنِ المُنذَرِ بِه وتعظيمٌ له[1]؛ لتذهبَ النَّفسُ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ، وفي ذلك من البلاغة ما فيه؛ لأنَّ ما لا يحتاج إلى الذِّكر، بل يُفهم من السّياق؛ كان ترْكُه من بلاغة الإيجاز.

سرُّ الاقتصارِ على النِّذارةِ:

الوعيدُ والتَّهديدُ مناسب بالمشركينَ

اقتُصِرَ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ على ذكرِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ، معَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ متَّصفٌ بهما معًا؛ لأنَّ الكلامَ معَ المشركينَ، وهؤلاءِ يلائمُهم الإنذارُ، لِما يُلوِّحُ بِه مِنَ الوعيدِ والتَّهديدِ[2]، ويُؤيِّدُ ذلكَ أنَّ القصرَ في الآيةِ قصرٌ إضافيٌّ بالنِّسبةِ لأحوالِه ﷺ نحوَ المشركينَ.

سرُّ تقديمِ النِّذارةِ على الوحدانيَّةِ:

مراعاةُ التَّرتيبِ في ردِّ شُبُهاتِ المشركين

قُدِّمَ قَصرُ النِّذارة في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ على قصرِ الوحدانيَّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ الكلامَ ردٌّ على قولِ المشركينَ: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: 4 - 5]، وهم قد قدَّموا ما يتعلَّقُ به ﷺ على ما يتعلَّقُ باللّهِ تعالى، فجاءَ الرَّدُّ عليهِم على هذا التَّرتيب، ولأنَّ تقريرَ وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى مُتوقِّفٌ على تقريرِ صِدْقِ نبوَّتِه ﷺ، يضافُ إلى ذلكَ ما في تأخيرِ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ مِنْ مراعاةِ الفاصلة.

بلاغةُ عطفِ جملةِ الوحدانيَّة:

قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ معطوفٌ على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 314.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 443، والجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 403.

النَّبيُّ مُنذِرٌ وداعٍ إلى توحيدِ اللهِ تعالى

قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾، وكلاهما مَقولُ القولِ، ونكتةُ هذا العطفِ: إفادةُ أنَّ له ﷺ صفةَ الدَّعوةِ إلى توحيدِه ﷻ مع اتِّصافه بالإنذار أيضًا، فالأمرانِ مُستقِلّانِ بالإفادةِ[1]، ولتقريرِ ما يُفهَمُ مِنْ قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ من إثبات الوحدانيَّة للّه تعالى، فهو الواحد لا شريكَ لهُ[2].

نكتةُ اسميَّة الجملةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ قصرَ الأُلوهيَّةِ على اللّهِ تعالى أمرٌ ثابتٌ دائمٌ، لا شكَّ فيه، وهو حقيقةٌ لا يعرفُ النَّقْضُ إليها طريقًا.

بلاغةُ القصرِ بالنَّفيِ والاستثناء:

لا معبودَ بحقٍّ إلّا اللهُ

القصرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قصرٌ لصفة - وهي الإلهيَّةُ - على موصوفٍ، وهو اللّهُ ﷻ[3]، وهو قصرٌ حقيقيٌّ؛ إذ لا معبودَ بحقٍّ إلّا اللّهُ، ومِنْ بلاغةِ هذا القصرِ في هذا المقام: أنَّهُ أبلغُ ردٍّ على المشركينَ الَّذينَ حُكيَ عنهُم في أوَّلِ السّورةِ قولُهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: 5][4].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿مِنۡ﴾:

تقريرُ التَّوحيد ونفي الشِّرك مقصدٌ قرآنيٌّ

جاءت ﴿مِنۡ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ صلةً، لإفادةِ المبالغةِ في النَّفيِ وتأكيدِه[5] نصًّا؛ لأنَّ الاستغراقَ يُفهم من إيراد ﴿إِلَٰهٍ﴾ نكرةً في سياق النَّفي، لكنَّ التعبير بـ﴿مِنۡ﴾ أضاف معنًى جديدًا، وهو أنَّ الاستغراق في نفي الآلهة جاء نصًّا لإبطال كلِّ من يدَّعي إلهًا غيرَ اللّه، ومقامُ تقريرِ وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى؛ ردًّا على المشركينَ، يقتضي هذهِ المبالغةَ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 443.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.

نكتةُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾:

تنكيرُ لفظِ الإله في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ لإفادةِ العمومِ؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفيِ تعمُّ، والمعنى: (ما مِنْ معبودٍ بحقٍّ أصلًا إلّا اللّهُ).

سرُّ التَّعبيرِ بالإلَه:

الإلـهُ أنسبُ بمقامِ تقريرِ الوحدانيَّةِ

عُبِّرَ بالإلَه دونَ الربِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ المقامَ لتقريرِ وحدانيَّةِ اللّهِ تعالى، وانفرادِهِ باستحقاقِ العبادةِ، ولفظُ الإلهِ أنسبُ بهِ؛ لأنَّهُ يدلُّ على العبادةِ بحسَبِ أصلِ وضعِهِ[1]، فلهذا كانت فيه موافقةٌ لكلمةِ التَّوحيدِ، وهي (لا إلهَ إلّا اللّهُ)، وفيه ملاءمة أيضًا لمقامِ الرَّدِّ على قولِ المشركين أوَّلَ السّورة ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: 5].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾:

المُستحِقُّ للعبادةِ هو الجامعُ لصفاتِ الكمالِ والجلالِ

عُبِّرَ بالاسم الأعظم ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ السّياقَ للتَّوحيدِ الَّذي هو أصلُ الدّينِ، واسم اللّهِ أنسبُ بهِ؛ لأنَّه الاسمُ العلَمُ الجامعُ لجميعِ الأسماءِ الحُسنى، ولو شاركَهُ شيءٌ؛ لم يكنْ محيطًا[2].

سرُّ وصفِ الله بالواحد:

توحيدُ اللهِ مَحَطُّ العنايةِ

جيءَ بصفةِ الواحِدِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾؛ لتأكيدِ مدلولِ كلمةِ التَّوحيدِ[3]، ولتقويةِ الرَّدِّ على المشركينَ؛ لأنَّهم قد أقرّوا بمفهومِ الإلهيَّة، ولكنَّهم جعلوهُ عدَّةَ آلهةٍ، كما نطقَ بِهِ إنكارُهم بقولِهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: 5]، فأبطلَ ﷻ اعتقادَهم هذا بإثباتِ أنَّهُ واحدٌ لا نِدَّ له ولا شريكَ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 104.

سرُّ تقديمِ الواحدِ على القهّارِ:

المُقرَّرُ مُقدَّمٌ على تقريرِهِ

قُدِّمَ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ على ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ لأنَّ اسمَ الواحِدِ صريحٌ في إثباتِ الوحدانيَّةِ للّهِ تعالى، وما بعدَهُ تقريرٌ لهُ، والمُقرَّرُ مُقدَّمٌ على تقريرِهِ، ولأنَّ تأخيرَ اسمِ القهّارِ أنسبُ بالفاصلةِ.

سرُّ الوصفِ بالقهّارِ:

مَنْ تفرَّدَ بالأُلوهيَّةِ قهرَ وغلبَ

جيءَ بوصفِ القهّارِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ لتقريرِ الوحدانيَّةِ[1]؛ لأنَّ معناهُ: (القهّارُ لكلِّ شيءٍ)، فلو كانَ لهُ إلهٌ غيرُهُ لزمَ مقهوريَّتُهُ، وذلكَ مُنافٍ للأُلوهيَّةِ[2]، وفي هذا الوصفِ أيضًا تعريضٌ بتهديدِ المشركينَ بأنَّ اللّهَ قادرٌ على قَهْرِهم[3]، وبذلكَ يكونُ في الكلامِ نوعٌ مِن أنواعِ مراعاةِ النَّظيرِ، وهو تشابهُ الأطرافِ، أي: ختمُ الكلامِ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى[4]، فالمقامُ هنا مقامُ وصفٍ بالتَّفرُّدِ بالأُلوهيَّةِ والأحديَّةِ، ومقامُ نذارةٍ وتهديدٍ للمشركينَ، والقهّارُ مناسبٌ لهُما غايةَ المناسبةِ[5].

دلالة صيغةِ (فعّالٍ):

تهويلُ الوعيدِ للمُشرِكِ العَنيدِ

عُبِّرَ بصيغةِ (فعّالٍ) في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ لما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في اتِّصافِهِ تعالى بكونِهِ قاهرًا، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ تقريرِ الوحدانيَّةِ، والتَّشديدِ في الوعيدِ للمُشرِكِ العنيدِ[6].

نكتةُ الجمعِ بينَ الوحدانيَّةِ والقهرِ:

المُتفرِّدُ بالوحدانيَّةِ مُستغنٍ عن الأعوانِ

جُمِعَ بينَ الواحدِ والقهّارِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 33.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 33، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.
(4) التفتازاني، المختصر، ص: 681.
(5) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 443.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 443.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، وقد غلبَ اقترانُ هاتينِ الصِّفتينِ في القرآن الكريم، وذلكَ لمعنًى بديعٍ، وهو أنَّ الغلَبةَ والإذلالَ مِنْ ملوكِ الدُّنيا إنَّما تكونُ بأعوانِهم وجُندِهم وعُدَدِهم، واللّٰهُ تعالى يقهرُ كلَّ الخلقِ، وهو واحدٌ أحدٌ، فردٌ صَمَدٌ، مُستغنٍ عن ظهيرٍ ومُعينٍ[1].

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾:

الآيــةُ تَـفـيـضُ بــالــتَّــهـديـدِ والوعيدِ

قُدِّمَ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ في قولِ اللّٰهِ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ على ما بعدَهُ مِنَ الأوصافِ ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ لأنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ، فقُدِّمَ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ للاهتمامِ بهِ[2]، ولمناسبةِ الاقتصارِ على وصفِ الإنذارِ صريحًا في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾[3].

سرُّ الوصفِ بالرُّبوبيَّةِ:

تــفــرُّدُهُ تعالى بالخلقِ والمِلكِ مِـــنْ دلائـــلِ التَّوحيدِ

وصفَ اللّٰهُ تعالى نفسَهُ في قولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بأنَّهُ ربُّ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما: لتقريرِ التَّوحيدِ[4]، ووجهُ التَّقريرِ: أنَّ ربوبيَّتَهُ للمذكوراتِ تقتضي أنَّهُ الخالقُ لها، ولا يَقدِرُ على هذا الخلقِ سواهُ، فخلْقُ السَّماواتِ عظيمٌ، لِما فيها مِنَ العُلوِّ والسَّعةِ والإحكامِ والحفظِ والزِّينةِ والمنافعِ، وخلقُ الأرضِ أيضًا عظيمٌ، لِما هي عليهِ مِنَ السَّعةِ والكثافةِ والضَّخامةِ، ولِما فيها مِنَ العجائبِ[5]، وفي التَّصريحِ بالرُّبوبيَّةِ للمذكوراتِ أيضًا بيانُ أنَّهُ لا شريكَ لهُ في شيءٍ منها، وذلكَ يُقوّي مقامَ التَّنصيصِ على التَّوحيدِ[6]، والحاصلُ أنَّ في ذكرِ هذهِ الصِّفةِ إدماجًا للاستدلالِ

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (قهر).
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 33.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.

على تعيينِ المعبودِ بالحقِّ، بذكرِ ما هو مِنْ خصائصِهِ المُقتضي تفرُّدَهُ بالإلهيَّةِ[1].

هذا سرُّ مناسبة ذِكر الرُّبوبيَّة عقبَ الألوهيَّة، وأمّا مناسبته لذكر القهر قبله؛ فهي أنَّ اللهَ ﷻ لمّا أخبرَ بأنَّهُ القهّارُ لما دونَهُ؛ أردفَ القَهْرَ باللُّطفِ والتَّربيةِ[2]، وذلكَ جارٍ على عادةِ القرآنِ بتعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ وعكسِهِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ:

مَقام الرُّبوبيَّة أنسبُ للاستدلال لمَقام الوحدانيَّة

ربَّما كان الظّاهرُ أنْ يقالَ: (إلهُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما)؛ لتقدُّم ذكرِ الإلهِ في قولِهِ: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، لكنْ عُبِّرَ بالرُّبوبيَّةِ - ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ - لدلالة لفظِ الرَّبِّ على أنَّهُ ﷻ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما، ومالِكُهُ[3]، ومُفوَّضٌ إليهِ تدبيرُ جميعِ أمورِ المذكوراتِ[4]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ الاستدلالِ على وحدانيَّتِهِ تعالى؛ إذ هذا الوصفُ مُختصٌّ به سبحانَهُ، فيستلزمُ اختصاصَهُ بالألوهيَّةِ؛ إضافةً لما في وصفِ الرَّبِّ مِنَ الإشارةِ إلى إنعامِهِ ﷻ على عبادِهِ بالنِّعَمِ الَّتي لا تتناهَى، ومنها خلْقُ السَّماواتِ والأرضِ وما بينَهما ممّا تدورُ عليهِ مصالحُ العبادِ، والعاقلُ لا يصرفُ العبادةَ لغيرِ الخالقِ المُنعِمِ.

نكتةُ الإضافةِ إلى السَّماواتِ:

الدَّلالة على الحفظ والتَّدبير مِنَ الخالق لمخلوقاته

أُضيفَ الرَّبُّ إلى السَّماواتِ وما عُطِفَ عليها في قولِ الباري ﷻ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إضافةَ المالكِ إلى الملوكِ الَّتي لا ينازِعُ فيها عاقلٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَنْ كانَ شأنُهُ كذلكَ، فهو الخليقُ بالإفرادِ بالأُلوهيَّةِ والعبادةِ، وفي هذهِ الإضافةِ أيضًا إشعارٌ بفَيَضانِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 86.

(2) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 606.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104.

(4) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.

الخيرِ والحفظِ والتَّدبيرِ مِنَ الخالقِ إلى مخلوقاتِه، فيا لَخسارةِ مَنْ أعرضَ، ونأى بجانبِه عن جَنابِ النّورِ!

دلالةُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

جنس السَّماواتِ والأرضِ مربوبٌ لله

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ للجنسِ المُستغرِقِ لجميعِ أفرادِه؛ لأنَّ المقامَ مقامُ بيانِ تفرُّدِه تعالى بالأُلوهيَّةِ والوحدانيَّةِ، وذلكَ يستلزمُ الشُّمولَ؛ إذ ربوبيَّتُه تعالى محيطةٌ بكلِّ مخلوقٍ.

نكتةُ تقديمِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

خلقُ السّماواتِ أعظمُ وأعجبُ مِنْ خلقِ الأرضِ

قُدِّمَت ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، ومن أسبابِ التَّقديمِ أنَّ خلْقَ السَّماواتِ وانتظامَها أعجبُ وأدلُّ على القدرةِ والعلمِ، فيكونُ تقديمُها أنسبَ بمقامِ الاستدلالِ على تفرُّدِه تعالى بالألوهيَّةِ والعبادةِ، وهذا يتناسب في سياقِ الرَّدِّ على المشركين الذين اتَّخذوا الأصنامَ آلهةً، فهي عاجزةٌ عن أيِّ خلقٍ، فضلًا عن ربوبيَّةِ السَّماواتِ.

نكتةُ جمعِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وإفرادِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

السَّموات عوالم والأرضُ عالَمٌ واحدٌ

جُمِعَتِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وأُفرِدَتِ ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ المقامَ لبيانِ القدرةِ[1]، والجمعُ أنسبُ به؛ إذ خلقُ الجمعِ أدلُّ على القدرةِ من خلقِ المفرد، وإنْ كانَ الكلُّ سواءً في قدرةِ اللّهِ، ولأنَّ الأرضَ عالَمٌ واحدٌ، والسَّماواتِ عوالمُ مُتعدِّدةٌ، ولأنَّ جمْعَ الأرضِ: (أَرَضونَ) و(أَرَضاتٌ) و(أُروضٌ)، والنُّطْقُ به ثقيلٌ، فلا يناسبُ فصاحةَ القرآنِ، فاختيرَ المفردُ الأخفُّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 413.

براعةُ الطِّباقِ:

جُمِعَ بينَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ رِعايةً لُمحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، وفائدتُه هنا التَّنبيهُ على أنَّ الكونَ كلَّهُ - مِنَ العَرْشِ الذي هو غايةُ الارتفاعِ، إلى الفَرْشِ الَّذي هو غايةُ الانخفاضِ - مربوبٌ للّهِ تعالى، ومقهورٌ بسلطانِه، وهو دليلٌ باهرٌ على وحدانيَّتِه ﷻ وقدرتِه.

الكونُ كلُّهُ شاهدٌ على الوحدانيَّةِ

نكتةُ عطفِ ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾:

عُطِفَ قولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ على السَّماواتِ والأرضِ في قوله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لتأكيدِ شمولِ ربوبيَّتِه ﷻ كلَّ ما يحيطُ بالعبادِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ الاستدلالِ على أُلوهيَّةِ اللّهِ تعالى ووحدانيَّتِه، فإنَّهُ إذا كانَ كلُّ شيءٍ مملوكًا لهُ سبحانَهُ، ومربوبًا لهُ، فما عُذْرُ مَنْ صرفَ العبادةَ لغيرِه، وحادَ بها عنِ الصِّراطِ المستقيمِ؟

سلطانُ الرُّبوبيَّةِ شـامـلٌ لـكـلِّ الموجوداتِ

دلالةُ (ما):

جيءَ باسمِ الموصولِ (ما) في قولِ اللّهِ تعالى ذِكْرُهُ: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾؛ لأنَّهُ مِن ألفاظِ العمومِ، فيناسبُ مقصودَ الكلامِ، مِنْ حيثُ إنَّ شمولَ ربوبيَّتِه تعالى للسَّماواتِ والأرضِ وجميعِ ما بينَهما مِنَ الفضاءِ والهواءِ وغيرِهما مِنَ العناصرِ، والنَّباتِ، والحيواناتِ العُقلاءِ وغيرِها: دليلٌ على قَهْرِه وتفرُّدِه بجميعِ الأمرِ[1]، فكيفَ يُتوهَّمُ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ مِنْ مخلوقاتِه؟[2].

ضلالُ مَنْ جعلَ المخلوقَ شريكًا للخالِقِ

سرُّ التَّعبيرِ بـ(ما):

يجوزُ عندَ اختلاطِ العُقَلاءِ بغيرِهم استعمالُ (مَنْ) الَّتي أغلبُ إطلاقِها على العُقَلاءِ، و(ما) الَّتي هي بعكسِ ذلكَ؛ وقد استُعمِلَ

كلُّ الخلقِ تحتَ قَهرِه سبحانه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 414.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.

(ما) - الَّتي لغير العقلاء - في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ دفعًا لتوهُّم أنَّ تمكُّنَهُ تعالى مِنَ العُقَلاءِ دونَ تمكُّنِهِ مِنْ غيرِهم، لِما لهُم مِنَ الحيَلِ الَّتي يحترزونَ بها عن المحذورِ، وينظرونَ بها في عواقبِ الأمورِ. فأشارَ بـ(ما) إلى أنَّ حكمَهُ فيهم كحكمِهِ في غيرِهم، مِنْ غيرِ فَرْقٍ[1] بينهما؛ ولا غَرْوَ في ذلكَ، فالمقامُ مقامُ إظهارِ القدرةِ والرُّبوبيَّةِ.

سرُّ الوصفِ بالعزيزِ:

الغـالـبُ لـكـلِّ مـا سـواهُ هو المُستحِقُّ للعبادةِ

الوصفُ بالعِزَّةِ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ لتقريرِ التَّوحيدِ؛ لأنَّ هذهِ الصِّفةَ تقتضي أنْ يغلبَ غيرَهُ، ولا يُغلَبَ، ومعَ الشِّركةِ لا يتمُّ ذلكَ[2]، ولتهديدِ المشركينَ المُعرضينَ عن الإيمانِ والتَّوحيدِ[3]، وللتَّمهيدِ للوصفِ بالغَفّارِ، ببيانِ أنَّهُ الغفّارُ عن عِزَّةٍ ومقدرةٍ، لا عن عجزٍ ومَلَقٍ[4].

نكتةُ استعمالِ صيغةِ (فعيلٍ):

العزَّةُ المُطْلَقَة لا تكون إلّا لله

جيءَ بصيغةِ (فعيلٍ) مِنَ العزَّة في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ للمبالغةِ في اتِّصافِهِ جلَّ ذكرُهُ بها، أي: (العزيزُ البالغُ العِزَّةِ، الَّذي لا يغالبُهُ أحدٌ)، وفيها دلالةٌ على استمرارِ العزَّة ودوامِها، بخلافِ عزَّةِ البشرِ.

سرُّ اقترانِ العزيزِ بالغفّارِ:

عزَّةُ الله مقترنةٌ بمغفرتِه، ومغفرتُه مستنِدةٌ إلى عزَّتِه

قرن اللّهُ ﷻ العزَّةَ بالمغفرة في قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ للدلالة على كمالِ كلٍّ منهما، بخلاف انفراد كلِّ صفةٍ منهما، فلو غلبت المغفرةُ على العزَّة، أو غلبت العزَّةُ على المغفرة؛ لم يكن هذا الكمالُ الجامعُ بينهما، فعزَّتُه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 414.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 33.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.

سبحانه لا تَخلوا من المغفرة، كما أنَّ مغفرتَهُ مقترِنةٌ بالعزَّة، بخلاف من يتَّصف بالعزَّة من المخلوقين، فإنَّه كثيرًا ما تَغلِب عزَّتُه مغفرتَه، ومن اتَّصف بالمغفرة من الخلق كثيرًا ما يكون ضعيفًا غيرَ عزيز، أمّا المولى ﷻ؛ فيجمع صفةَ الكمال فيهما منفردةً ومجتمعةً.

ففي اقترانهما بيانُ أنَّ مغفرتَه صادرةٌ عن عزَّةٍ، لا عن عجزٍ، كما قال تعالى على لسانِ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: 118].

كما أنَّ في اقتران العزَّة بالمغفرة هنا نوعَ مقابلةٍ، فَصِفةُ العزَّة تأكيدٌ لصفةِ القَهْرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾، وصفةُ المغفرةِ تأكيدٌ لصفةِ اللُّطفِ في قولِهِ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾، فمِنْ عِزَّتِهِ أدخلَ أهلَ الاستكبارِ النّارَ، ولمغفرتِهِ أعدَّ الجنَّةَ لأهلِ الاستغفارِ(1).

سرُّ تكرارِ ما يدلُّ على الوعيد:

المـشـركـون جـديـرون بكلِّ وعيدٍ

كُرِّرَ في الآيتينِ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ ما يدلُّ على الوعيدِ - وهو اسمُ القَهّار، واسمُ العَزيز - لأنَّ المطلوبَ الأهمَّ هو الإنذارُ، لا البِشارةُ(2)، فالسّياقُ لإنذارِ المشركينَ ورَدْعِهم عمّا هم عليهِ مِنَ الشِّركِ، ولذلك كان مُفتَتَحُ الآية: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾.

سرُّ تقديمِ العزيزِ على الغفّارِ:

قُدِّمَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ تغليبًا لجانبِ النِّذارةِ اللّائقةِ بحالِ المشركينَ على جانبِ البِشارةِ(3)، ولأنَّ في تأخيرِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ مراعاةً للفاصلةِ.

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 606.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 414، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 444.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.

سرُّ الوصفِ بالغفّارِ:

فتحُ بابِ التَّوبةِ للمشركين

الإتيانُ بوصفِ الغَفّار في قول اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ لاستدعاءِ المشركينَ إلى التَّوحيدِ بعدَ تهديدِهم بمفادِ اسم القَهّار، ومفادِ اسم العَزيز؛ لئلّا ييأسوا مِنْ قَبولِ التَّوبةِ بسببِ كثرةِ ما سيقَ إليهِم مِنَ الوعيدِ؛ جريًا على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والعكسِ[1]، وفي ذلكَ تقريرٌ للتَّوحيدِ، بالتَّنبيهِ على أنَّ هذا الموجودَ هو الَّذي تجبُ عبادتُهُ؛ لأنَّهُ هو الَّذي يُخشَى عقابُهُ، ويُرجَى ثوابُهُ[2].

نكتةُ استعمال صيغةِ (فعّالٍ):

إنَّ ربَّـكَ واسعُ المغفرةِ

جيءَ بصيغةِ (فعّالٍ) في قولِ الباري ﷻ: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ لإفادةِ المبالغةِ في اتِّصافِه تعالى بالمغفرةِ، أي: (المبالغُ في المغفرةِ، يغفرُ ما يشاءُ لِمَنْ يشاءُ[3]، والَّذي يتكرَّرُ منهُ سَترُ الذُّنوبِ لعبادِه)[4]؛ لأنَّ الإنسانَ يُخطِئُ بطبعِه، ومن عادته كثرةُ الذنوب، فناسب الوصفُ بالغفّار على صيغة (فَعّال)؛ لطمْأنَة عبادِه بواسِعِ عفوه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنذارُ والتَّخويفُ:

الإنـــذارُ أنسبُ بحالِ النَّبيِّ ﷺ مَعَ المشركيَن

الفرقُ بينَ الإنذارِ والتَّخويفِ: أنَّ الإنذارَ تخويفٌ مع التَّنبيهِ على موضعِ المخافةِ، مِنْ قولِكَ: نَذِرْتُ بالشَّيءِ، إذا علمتَهُ، فاستعددتَ لهُ، فإذا خوَّفَ الإنسانُ غيرَهُ، وأعلمَهُ حالَ ما يُخوِّفُه بِهِ؛ فقد أنذرَهُ، وإن لم يُعلِمْهُ؛ لم يقلْ: أنذرَهُ، بل يقالُ: خوَّفَهُ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 414.

فالإنذارُ فيه إحسانٌ من المُنذِر، بتوجيه العاصي وإعلامه بما يؤدّي إلى هلاكه، وهذا عين الرَّحمة[1]، وقد عُبِّرَ بالإنذارِ هنا؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قد بيَّنَ للكفرةِ حالَ ما خوَّفَهم بهِ، وحذَّرَهم منهُ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 242.

﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ٦٨﴾ [ص: 67 - 68]

مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

عِظَمُ خطأِ المُعرِضِ عن الحقِّ

لمّا أثبتَ اللّهُ ﷻ في الآياتِ السّابقةِ وحدانيَّتَهُ وقدرتَهُ، ولم يردَعْ ذلكَ المشركينَ عن ضلالِهم، ولا ردَّهم عن عُتوِّهم - معَ أنَّ ما سبق موجِبٌ لأنْ يُقبِلَ كُلُّ أحدٍ عليه، ولا يَعدِلَ أبدًا عنه - أمرَ اللّه نبيَّهُ أن يقولَ لهم ما يُنبِّهُهم على عظيمِ خطئِهم في إعراضِهم عن الحقِّ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبَؤٌاْ﴾: (نبأ) أصلٌ يدلُّ على الإتيانِ مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ، وعلى ظهورٍ مَسبوقٍ بخفاءٍ ما[2]، فيقالُ للَّذي يأتي مِنْ أرضٍ إلى أرضٍ: نابِئٌ[3]، ويقال للخبرِ: نبأٌ؛ لأنَّهُ يأتي مِنْ مكانٍ إلى مكانٍ[4]، وإنَّما يُطلَق النَّبأُ على الخبَرِ ذي الفائدةِ العظيمة، الَّذي يحصل به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ في الأصلِ: (نبأٌ)؛ حتّى يَتَضَمَّنَ هذه الأشياءَ الثلاثة، والمرادُ بالنَّبأِ هنا: نبأُ خلقِ آدمَ وما جرَى بعدَهُ، أو ما تقدَّمَ مِنْ خبرِ الحشرِ وما أُعِدَّ فيهِ للمتَّقينَ والطّاغينَ، وما يجري مِنَ المقاوَلاتِ[5]، أو القولُ بأنَّ الإلهَ واحدٌ، أو القولُ بالنُّبوَّةِ، أو القولُ بكونِ القرآنِ مُعجِزًا[6].

2) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: (عرض) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الطّولِ، أي: اتِّساعُ ما يواجِهُ النّاظرَ مِنَ الشَّيءِ الكثيفِ[7]، ومِنْ ذلكَ يقالُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 415.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبأ).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (نبأ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 296.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 407.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عرض).

أعرضَ الشَّيءُ، أي: بَدا عَرْضُهُ، وعَرَضْتُ الشَّيءَ على البيعِ، وعلى فلانٍ، أي: أظهرتُهُ لهُ، وأبرزتُهُ إليه، كأنّي في ذاكَ قد أرَيتُهُ عَرْضَهُ، وإذا قيلَ: أعرضَ عنّي؛ فمعناهُ: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ[1]، وأعرض: أظهر عُرضه غيرَ مُكترِث، وهو المرادُ هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قصورُ نظرِ المشركينَ وسوءُ رأيِهم

يأمرُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يُخبِرَ عن أحوالِ أهلِ الجنَّةِ والنّارِ، أو عن الإخبارِ بالإنذارِ والتَّوحيدِ، أو عن قِصَّةِ آدمَ وإبليسَ، أو عن القرآنِ: بأنَّهُ خبرٌ عظيمُ الشَّأنِ، وهم معَ ذلكَ لا يتفكَّرونَ فيه، ولا يتدبَّرونَ، وإنَّما يقابلونَهُ بالإعراضِ والغفلةِ، وحقُّهم أن يقابلوهُ بالإيمانِ والتَّصديقِ، والعملِ بمُقتضاهُ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ عمّا قبلَهُ:

الانتقالُ مِنْ غرضٍ إلى غرضٍ يدعو إلى التَّدبُّرِ فيه

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعطَفْ عليهِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ ابتدائيٌّ، للانتقالِ مِنْ غَرَضِ وصفِ أحوالِ أهلِ المَحشَرِ إلى غرضِ قصَّةِ خلقِ آدمَ وشَقاءِ الشَّيطانِ.

ويحتملُ أنْ يكونَ الفصلُ؛ لأنَّ الجملةَ استئنافُ تذييلٍ لِما سبقَ مِنْ قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٤٩﴾ [ص: 49] إلى هنا، وهو تذييلٌ مُشعِرٌ بالتَّنويهِ بهِ، وبطلبِ الإقبالِ على التَّدبُّرِ فيهِ، والاعتبارِ بهِ[2].

سرُّ تكرارِ الأمرِ بالقولِ:

شأنُ هذا القولِ خطيرٌ، كما دلَّ عليه التَّكريرُ

كُرِّرَ الأمرُ بالقولِ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ بعد قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ المَقولَ أمرٌ جليلٌ، لهُ شأنٌ خطيرٌ، لا بدَّ مِنَ الاعتناءِ بهِ أمرًا وائتمارًا[3]، فلم يُؤتَ بهِ

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عرض).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295 - 296.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.

تابعًا للمَقولِ السّابقِ؛ لئلّا يَضْعُفَ تصدّي السّامعينَ لوَعْيِهِ[1]، ويغفُلوا عنهُ[2].

تعيينُ المُخاطَبِ بـ﴿قُلۡ﴾:

النَّبيُّ ﷺ مُخبِرٌ بعِظَمِ شأنِ النَّبأِ

المُخاطَبُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ؛ إذ هو المُكلَّفُ بتبليغِ الوحيِ، ومِنْ جملتِهِ هذا النَّبأُ العظيمُ الشَّأنِ، وفيه دلالةٌ على ثبوتِ نبوَّتِه ﷺ أمامَ إنكارِ مُشركي مكَّة.

دلالةُ الأمرِ بالقولِ:

وجوبُ الإخبارِ بهذا النَّبأِ العظيمِ

الأمرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ للوجوبِ؛ إذ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل مقامُ التَّكليفِ بالتَّبليغِ يقتضيهِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ القرآنَ مِن عندِ اللّه، ودَور رسولِ اللّه فيه إنَّما هو البلاغ، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: 48].

نكتةُ عدمِ ذكرِ المَقولِ لهُم:

بلاغُ النَّبيِّ ﷺ للنّاسِ جميعًا

الظّاهرُ أنَّ المَقولَ لهُم: ﴿هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾ هم مشركو مكَّةَ[3]، ولم يُذكَروا لظهورِ الأمرِ مِنَ المقامِ، وليكونَ الكلامُ صالحًا لِأنْ يوجَّهَ للنّاسِ جميعًا إلى قيامِ السّاعةِ، فهذا النَّبأُ العظيمُ يعني النّاسَ جميعًا، وعليهِم في كلِّ مكانٍ وزمانٍ أنْ يعوه بأُذُنٍ واعيةٍ، وفيه إشارةٌ إلى التَّهوين من شأن مُشركي مكَّةَ، بأنَّ معارضتَهم لا وزنَ لها في تعطيل دعوة الرَّسول ﷺ للنّاس جميعًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عَظَمَةُ هذا النَّبأِ راسخةٌ رسوخَ الجبالِ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ لِمَقولِ القولِ من الآيةِ الكريمةِ: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ كونَ النَّبأِ عظيمًا أمرٌ ثابتٌ، لا ريبَ فيهِ أصلًا، وما يقولُه المشركون إنَّما هو مِن باب الظُّنون والأوهام

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.

(2) أطفيش، تفسير أطفيش: 9/ 113.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104.

الزائفة؛ لذلكَ كان التَّعبيرُ بالاسميَّة ملائمًا لمقامِ لَفْتِ النَّظرِ لخَطَرِ شأنِ هذا النَّبأ.

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

إيثارُ الضَّميرِ لتعدُّدِ المُرادِ المُحتَملِ به

أوثِر التَّعبيرُ بالضَّميرِ ﴿هُوَ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾؛ لأنَّه يحتملُ أنْ يكونَ راجعًا إلى أقربِ مذكورٍ، وهو إخبارُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّهُ رسولٌ مُنذِرٌ، وبأنَّ اللهَ واحدٌ لا شريكَ لهُ[1]، وإفرادُ الضَّميرِ معَ رجوعِهِ إلى مُتعدِّدٍ لتأويلِهِ بالمذكورِ[2].

ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى القرآنِ وما فيهِ مِنَ القَصَصِ والأخبارِ[3]، وما ذُكِرَ مِنَ الإخبارِ بالإنذارِ والتَّوحيدِ داخلٌ فيهِ دخولًا أوَّليًّا[4]، ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ راجعًا إلى ما سبقَ مِنَ الحديثِ عن عاقبةِ المتَّقينَ والطّاغينَ وما تلاهُ[5]، وإفرادُ الضَّميرِ لتأويلِهِ بالمذكورِ[6].

ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للشَّأنِ، ويُفسِّرُهُ ما بعدَهُ، وهو قولُهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، جُعِلَ هذا كالمُقدِّمةِ للقصَّةِ تشويقًا لتلقّيها، فيكونُ المرادُ بالنَّبأِ نبأَ خلقِ آدمَ وما جرَى بعدَهُ[7]، ولا مانعَ من هذه الاحتمالات؛ لِتَحَمُّلِ السياقِ لها، فكلُّها مُرادة، ولا يتأتّى ذلك إلّا مِن التَّعبير بالضَّمير.

سرُّ التَّعبيرِ بالنَّبأ:

لَفتُ أنظارِ السّامعين إلى خطورةِ هذا الخبرِ العظيم

أوثِر التَّعبيرُ بالنَّبأ دون الخبر في قول الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾؛ لِما في النَّبأِ مِنَ الزّيادةِ الَّتي تطابقُ مُقتضَى الحالِ، وهي

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 395.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 226، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 415.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 295.

ما فيهِ مِنَ الدَّلالةِ على عِظَمِ شأنِ المُخبَرِ عنهُ؛ لتنبيهِ المُخاطَبين به، ولَفْتِ نظرِهم إلى وجوبِ التَّفكُّرِ فيه، والعملِ بمُقتضاهُ.

نكتةُ تنكيرِ النَّبَأ:

تفخيمُ شأنِ النَّبأِ وتعظيمُهُ

نُكِّرَ النَّبأ في قولِ اللّهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾؛ لتفخيمِ شأنِ هذا النَّبأ، وبيانِ أنَّهُ نبأٌ يَفوتُ الوصفَ في الجلالِ والعِظَمِ[1]، ذو فائدةٍ عظيمةٍ جدًّا[2]، ولأنَّه متعدِّد المُرادِ المحتمل به، ففي التَّنكير إفادةُ العموم.

نكتةُ وصفِ النَّبأِ بالعظيم:

فخامةُ شأنِ النَّبأِ في ذاتِهِ وصفتِهِ

وُصِفَ النَّبأُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾ بكونِه عظيمًا؛ لتهويلِ شأنِه[3]، وزيادةِ التَّعظيم المستفادِ مِنْ أصلِ كلمةِ النَّبأ[4]، وكيفَ لا يكونُ كذلكَ، وهو واردٌ مِنْ جهتِه تعالى[5]؟ وفي التَّصديقِ به نجاةٌ، وفي التَّكذيبِ به هلَكةٌ[6]، وفي ذلكَ حثٌّ على العنايةِ بهِ، والتَّعظيم لهُ، وعدمِ الاستخفافِ بهِ.

علَّةُ فصلِ ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾:

قُبحُ إعراضِ المشركينَ عنِ النَّبأِ

فُصِلَ قولُ اللّه جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ عن قوله تعالى قبلَهُ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾؛ لأنَّهُ إمّا صفةٌ للنَّبأ[7]، والصِّفةُ لا تُعطَفُ على الموصوفِ، أو هو استئنافٌ، يَنعى عليهِم سوءَ صنيعِهم بهِ، ببيانِ أنَّهم لا يَقدُرونَ قَدْرَهُ الجليلَ؛ إذ يُعرِضونَ عنهُ معَ عظَمتِهِ[8].

براعةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

الإعراضُ مُتمكِّنٌ مِنَ المشركينَ

جيءَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 415.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 296.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 415.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 513.
(7) السمين، الدر المصون: 9/ 395، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234.

مُعۡرِضُونَ﴾؛ لإفادةِ ثباتِ إعراضِ المشركينَ، وتمكُّنِه منهُم[1]، فإنْ كانَ المرادُ بالنَّبأِ ما سبقَ مِنْ وصفِ حالِ المؤمنينَ وحالِ الطُّغاةِ وأتباعِهم، وما ذُكِرَ بعدَهُ؛ فتمكُّنُ الإعراضِ عنهُ مِنْ نفوسِهم ظاهرٌ؛ لأنَّهُ طالَمَا أنذرَهم بعذابِ الآخرةِ، ووصفَهُ لهُم، فلم يكترِثوا بذلكَ، وإنْ كانَ المرادُ بالنَّبأِ قصَّةَ آدمَ وإبليسَ؛ فتأويلُ تمكُّنِ الإعراضِ عنهُ مِنْ نفوسِهم هو عدمُ استعدادِهم للاعتبارِ بمَغْزاهُ، مِنْ تحقُّقِ أنَّ ما هم فيهِ وسْوَسَةٌ مِنَ الشَّيطانِ[2].

غرضُ تقديمِ ﴿أَنتُمۡ﴾:

الإعــراضُ شأنُ المشركينَ

قُدِّمَ ﴿أَنتُمۡ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّهُ مسندٌ إليهِ، وتقديمُهُ هو الأصلُ، وتقديمُ المسندِ إليهِ على المسندِ المُشتقِّ يفيدُ - على رأيِ بعضِ البلاغيّينَ - إمّا الحصرَ، أي: (أنتم عنهُ مُعرِضونَ لا غيرُكم)، أو تقويةَ الحكمِ فقط[3]، كأنَّهُ قيلَ: (أنتم عنهُ مُعرِضونَ، أنتم عنهُ مُعرِضونَ).

نكتةُ الخطابِ بـ﴿أَنتُمۡ﴾:

الـتَّـوبـيـخُ والـتَّـقـريـعُ يـقـتـضـيـانِ المـواجَـهـةَ بالخطابِ

جيءَ بأسلوبِ الخطابِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لأنَّهُ أنسبُ بمقصودِ الكلامِ، فالمرادُ بهذا الإخبارِ توبيخُ المشركينَ، وتقريعُهم[4]، وتحسيرُهم، وتنبيهُهم على مكانِ الخطأِ، وإظهارُ غايةِ الرَّأفةِ واللُّطفِ الَّذي يقتضيهِ مقامُ الدَّعوةِ[5]، وترغيبُهم في النَّظرِ والاستدلالِ[6]، ولا شكَّ أنَّ الخطابَ - لِما فيهِ مِنَ المواجَهةِ - أوفقُ بهذهِ الأغراضِ.

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 445.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 297.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 445.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 513، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 508.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 210.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 407.

تجاوُزُ المشركينَ للحقِّ

سرُّ التَّعبيرِ بـ(عن):

حرفُ الجرِّ (عن) في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ للمجاوزةِ، فتفيدُ أنَّ شأنَ المشركينَ معَ هذا النَّبأِ العظيمِ هو الإعراضُ عنهُ وتجاوزُهُ، حتَّى كأنَّهم لا يقفونَ؛ لينظُروا فيهِ، ويعتبروا بهِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ المشركين لا يتمهَّلون، ولا ينظرون في الحقِّ، بل يُعرِضون عنه بلا تَرَيُّث.

مسارعةُ المشركينَ إلى الإعراضِ عن الحقِّ

دلالة تقديم ﴿عَنْهُ﴾:

الأصلُ أنْ يقالَ: (أنتم مُعرِضونَ عنهُ)، لكنْ قُدِّمَ ﴿عَنْهُ﴾، وقيلَ: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ لإفادةِ العنايةِ بالمُعرَضِ عنهُ، والدَّلالةِ على مسارعتِهم إلى ذلكَ، أو لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: (أنتم عنهُ - لا عن غيرِهِ - مُعرِضونَ)[1].

تمادي المشركينَ في الغفلةِ

دلالةُ اسمِ الفاعلِ ﴿مُعْرِضُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ من الإعراضِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ لِمَا تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ ثباتِ المشركينَ على الإعراضِ في ذلكَ الحينِ، وذلكَ دليلٌ على تماديهِم في الغفلةِ في الحالِ والاستقبالِ[2].

حُسْنُ اختيارِ اللَّفظِ مُهيِّئٌ لقبولِ الحقِّ

سرُّ التَّعبيرِ بالإعراضِ:

عُبِّرَ بالإعراضِ دونَ الإدبارِ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ أخفُّ في التَّبكيتِ مِنَ الإدبارِ، فالمُدبِرُ أشدُّ تولّيًا وابتعادًا من المُعرِض؛ إذِ الإعراض من إبداء العَرْض، والإدبار من إبداء الدُّبُر، ولفظ الإدبار يُستعمل في تقبيح الفعل، كما في قوله تعالى ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥﴾ [الأنفال: 15]، ولمّا كان أكثر مشركي العرب مُتهيِّئًا للإسلامِ والرُّجوعِ عن الكفرِ، لا سيَّما والسورة مكّيَّة، كان

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 415.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.

التَّعبير بالإعراض دون الإدبار، وفي هذا دعوةٌ للإقبال على الحقِّ، والإعراضِ عن كلِّ ما سواهُ؛ لأنَّ في ذلكَ السَّعادةَ الكاملةَ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النَّبأُ والخبرُ:

النَّـبـأُ أنـسـبُ بـعِـظَـمِ شـأنِ المُخبَرِ عنهُ

الفرقُ بينَ النَّبأِ والخبرِ: أنَّ النَّبأ خبرٌ لهُ شأنٌ، ولهُ فائدةٌ عظيمةٌ، يحصلُ بهِ عِلْمٌ أو غلَبةُ ظنٍّ، ولا يقالُ للخبرِ: (نبأٌ)؛ حتَّى يتضمَّنَ هذهِ الأشياءَ الثَّلاثةَ[2]، فالخبرُ أعمُّ مِنَ النَّبأِ؛ لأنَّ النَّبأ خبرٌ مخصوصٌ، فكلُّ نبأٍ خبرٌ، وليسَ كلُّ خبرٍ نبأً[3].

وقد عُبِّرَ هنا بالنَّبأِ دونَ الخبرِ لما في النَّبأِ مِنَ الزِّيادةِ الَّتي تطابِقُ مُقتضَى الحالِ، وهي ما فيهِ مِنَ الدَّلالةِ على تنبيهِ المُخاطَبينَ على عِظَمِ شأنِ المُخبَرِ عنهُ، ولَفْتِ نظرِهم إلى وجوبِ التَّفكُّرِ فيهِ، والعملِ بمُقتضاهُ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 416.

(2) الراغب، المفردات: (نبأ).

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 8/ 226، والسمين، الدر المصون: 8/ 594.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ۝٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾ [ص: 69 - 70]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تعقيبُ الدَّعوى بـالـدَّليـلِ على صحَّتِها

لمّا أخبرَ ﷺ بنبوَّتِه، وقصَرَ نفسَه الشَّريفةَ على الإنذار؛ كذَّبوه، وعانَدوه، فجاءت هاتانِ الآيتانِ للتَّدليل على صِدقِه، واحتجَّ لصحَّة نبوَّته بالإخبارِ بأمرٍ لا يُعلَمُ إلّا مِنْ طريقِ الوحي[1]، فلمّا أخبرَ عن النَّبأِ العظيم؛ احتجَّ لصِدقِه بالإخبارِ بأمرٍ غيبيٍّ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلۡمَلَإِ﴾: (ملأ) أصلٌ يدلُّ على المُساواة والكمال في الشَّيء، ومنه ملأتُ الشَّيءَ أملؤه مَلْئًا، والمِلءُ مقدارُ الذي يُملَأ، سُمّيَ مِلئًا؛ لأنَّه مساوٍ لوعائه في قَدرِه، والملأُ: الأشرافُ، سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم مُلِئوا كرمًا وشرفًا[3]، أو لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبَةً، والعُيونَ جلالةً[4]، أو هو جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، ويقالُ: صرتُ مِنْ مَلَئِه، أي: جَمْعِه[5]، والمرادُ بالملأِ الأعلى هنا: الملائكةُ[6]، أو الملائكةُ وآدمُ وإبليسُ[7].

المَعْنى الإجماليُّ:

النَّبيُّ لا يعلمُ إلّا ما علَّمَهُ ربُّهُ

يقولُ اللّهُ تعالى لنبيِّهِ ﷺ: قلْ لمشركي العرب: ما كانَ لي مِنْ علمٍ - لولا تعليمُ اللّه إيّاي - باختصامِ الملأِ الأعلى وقتَ قولِ بعضهم

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 163، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 416.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 513، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 296.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (ملأ).
(5) الراغب، المفردات: (ملأ).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34.
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104.

لبعضٍ واختصامِهم في شأن آدم، ولا بما كان بينَ آدمَ وإبليسَ بما يُشبِه الاختصامَ مِن امتناعِه عنِ السُّجود له، وتعليله ذلك بقوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾؛ بل ما علمتُ ذلك إلّا بالوحي، ولم يوحَ إليَّ علمُ ما لم أكنْ أعلمُه إلّا لأنّي نبيٌّ مرسَلٌ إليكم لأبلِّغَكم شرْعَ ربِّكم، ولأُنذِرَكم عذابَه إن كفرتم.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصلِ الآية:

الإنباءُ لا يكونُ إلّا بوحيٍ من الله

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مَسوقٌ لتحقيقِ أنَّ القرآن وما ذُكرَ فيه نبأٌ عظيمٌ واردٌ مِنْ جهتِه تعالى، بذكرِ نبأٍ مِنْ أنبائِه على التَّفصيلِ، مِنْ غيرِ سابقةِ معرفةٍ بِه، فإنَّ ذلكَ حجَّةٌ بيِّنةٌ دالَّةٌ على أنَّ ذلكَ بطريقِ الوحيِ، وأنَّ سائرَ أنبائِه أيضًا كذلكَ[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿كَانَ﴾ بصيغةِ الماضي:

ما كانَ غيبًا عن رسول الله صارَ معلومًا بالوَحْي

ذُكِرَ فعلُ الكَون في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المنفيَّ علمُهُ فيما مضَى مِنَ الزَّمنِ قبلَ أنْ يوحَى إليهِ، ثمَّ صار بالوحي معلومًا[2]، ونفيُ العلم بالنَّبأِ قبل الوحي إليه هو محلُّ الاستدلالِ على أنَّ النَّبأَ العظيمَ واردٌ مِنْ جهتِه تعالى.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِيَ﴾:

اختصاص الله رسوله بعلم ما يوحَى إليه من الغيب

اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ للمِلْكِ والاختصاصِ، فتفيدُ أنَّهُ ﷺ لم يكنْ يملكُ علمًا بهذا النَّبأِ قبلَ الوحيِ، فأفادتِ اللّامُ افتقارَهُ لتعليم اللّهِ تعالى، وأفادَتْ أيضًا أنَّ العلمَ نفيسٌ يختصُّ اللّه به رسولَه، ولا سيَّما ما يتعلَّق بعلم الغيب، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ [الجن: 26 - 27].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 508.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 297.

غرضُ تقديمِ شِبهِ الجملة ﴿لِيَ﴾:

النَّبيُّ مُعلَّمٌ مِنْ ربِّهِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لِيَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم، وللتَّشويقِ إلى المُؤخَّر، وللمسارعةِ إلى نفي حيازته ﷺ للعلم بالنَّبأ قبلَ أن يوحَى إليه، وفي ذلك مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّنصيصِ على أنَّهُ لا سبيلَ للعلمِ بالأمورِ الغيبيَّةِ إلّا الوحيُ.

دلالة ﴿مِنْ﴾:

انتفاءُ العلم بالنَّبأِ قبلَ الوحيِ انتفاءً مُؤَكَّدًا

حرفُ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ صلةٌ لتأكيدِ النَّفيِ المستفادِ مِنْ ﴿مَا﴾، أي: (ما كانَ ليَ مِنْ علم مِنْ جهةِ أحدٍ مِنَ النّاسِ)[1]، ومقامُ المبالغةِ في نفيِ العلمِ بالنَّبأِ مِنْ غيرِ جهتِهِ تعالى يقتضي إيرادَ هذهِ الصِّلةِ.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عِلْمٍ﴾:

انتفاءُ العلم بالنَّبأِ قبلَ الوحيِ مِنْ جميعِ الوجوهِ

تنكيرُ لفظِ العِلم في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾ للعموم؛ لأنَّ النَّكرةَ في سياقِ النَّفي تفيدُ العمومَ، أي: (ما كانَ ليَ أيُّ علمٍ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ)[2]، فالأبوابُ موصَدةٌ دونَ هذا العلمِ، ولا سبيلَ إليهِ إلّا الوحيُ الصّادقُ إلى النَّبيِّ الأمينِ ﷺ.

سرُّ التَّعبيرِ بالعلمِ:

العلمُ بالغيب من دون وحي منفيٌّ جملةً وتفصيلًا

عُبِّرَ بالعلمِ دونَ المعرفةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ﴾؛ لأنَّ العلمَ أعمُّ، فالمعرفةُ علمٌ بعينِ الشَّيءِ مُفصَّلًا عمّا سواهُ، والعلمُ يكونُ مُجمَلًا ومُفصَّلًا[3]، ونفيُ الأعمِّ هنا أبلغُ؛ لأنَّهُ يفيدُ نفيَ علمِهِ بالنَّبأِ قبلَ الوحيِ جملةً وتفصيلًا.

دلالةُ تعديةِ العلمِ بالباءِ:

تضمينُ العلمِ معنى الإحاطةِ

عُدّيَ العلمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 416.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 508.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 500.

بالباءِ للنَّظرِ إلى معنى الإحاطةِ الَّتي تتعدَّى بالباءِ في نحوِ قولِكَ: أحطتُ بكذا[1]، وهذا التَّضمينُ شائعٌ استعمالُه في تعديةِ العلم، ويجوز على تفسير النَّبأ بخلق آدم وما جرى بعده أن تكون الباءُ ظرفيَّةً، أي: (ما كان لي علمٌ كائنٌ في الملأ الأعلى، وما كنت حاضرًا فيهم؛ إذْ يختصمون)، قريبًا من قوله تعالى فيما قصَّ عليه من نبأ موسى عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: 44][2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالملأِ:

التَّشريفُ والتَّعظيمُ للأغلَب

عُبِّرَ بالملأ في قولِ اللهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على تشريفِ الملائكةِ وعُلوِّ شأنِهم وقَدْرِهم؛ لأنَّ الملأَ هو الجمعُ العظيمُ الشَّريفُ[3]، سُمّيَ بذلك؛ لأنَّهم يملؤون العيونَ رواءً، والنُّفوسَ جلالةً وبهاءً، وإنْ كانَ إبليسُ داخلًا هنا في إطلاقِ الملأِ؛ فالتَّشريفُ للمُعظَّمِ.

نكتةُ تعريفِ الملأِ:

الملائكةُ هم الملأُ الأعلى

تعريفُ الملأِ في قولِ اللهِ سبحانه وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ للعهدِ؛ إذ المرادُ به - على الأظهرِ - الملائكةُ، بدليلِ وصفِه بالأعلى، وقد وردَ إطلاقُ الملأِ على الملائكةِ في الحديث القُدسيِّ: «وإن ذكَرني في ملَأٍ؛ ذكرتُه في ملَأٍ خيرٍ منهم»[4]، أو المرادُ بهِ الملائكةُ وآدمُ وإبليسُ، وقد ذُكِرَ في القرآنِ نبأُ اختصامِهم، حتَّى صاروا معهودين.

بلاغةُ وصفِ الملأِ بالأعلى:

علـوُّ درجةِ الملائكةِ مكانًا ومكانةً

وُصِفَ الملأُ بالأعلى في قولِ اللهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على تمييزِ الملائكةِ عن الملأِ الأدنى مِنْ ناحيةِ المكانِ، وهم أهلُ الأرضِ، ولتشريفِهم بما تدلُّ عليهِ الصِّفةُ مِنْ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 395، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 446.
(4) صحيح البخاري، الحديث رقم: (7405)، وصحيح مسلم، الحديث رقم: (2675).

عُلوِّهم على غيرِهم[1]، إلّا مَنْ فضَّلَهُ اللّهُ عليهِم، فيفيدُ التَّعبيرُ عُلوَّ درجتِهم مكانًا ومكانةً، وإذا كانَ المرادُ بالملأِ الملائكةَ وآدمَ وإبليسَ، فالعُلوُّ حسّيٌّ؛ لأنَّهم كانوا في السَّماءِ عندَ الاختصامِ المذكورِ[2].

لطيفةٌ في وصفِ الملأِ بالمفردِ:

الملأُ بمنزلةِ شيءٍ واحدٍ

لفظُ الملأِ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمِۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ اسمُ جنسٍ، وليسَ اسمَ جمعٍ[3]، بدلالة وصفه بالمفردِ؛ لأنَّ اسمَ الجمع لا يوصَفُ بالمفرد، كما في قول اللّه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: 10][4]، وفي هذا الوصفِ لطيفةٌ، وهي الإشارةُ إلى أنَّ الملائكةَ - وهم المرادُ بالملأِ على الأظهرِ - متَّفِقون في عُلوِّ رتبةِ الطّاعةِ، كأنَّهم شيءٌ واحدٌ[5].

نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾:

انتفاءُ علمِ النَّبيِّ بأحوالِ الملأِ الأعلى قبلَ أن يوحَى إليه نبَؤُها

الظَّرفُ ﴿إِذْ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمِۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، والتَّقديرُ: (ما كانَ ليَ مِنْ علم بحالِ الملأِ الأعلى وقتَ اختصامِهم)[6]، فإنَّ علمَهُ ﷺ غيرُ مقصورٍ على ما جرَى بينَهم مِنَ الأقوالِ فقط، بل عامٌّ لها وللأفعالِ أيضًا، مِن سجودِ الملائكةِ، واستكبارِ إبليسَ وكفرِه، فلذا عُدَّ العمومُ في النَّفْيِ أيضًا[7]، ففي الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ، ويحتملُ تعلُّقُ الظَّرفِ بـ ﴿عِلْمٍ﴾[8]، وعليهِ فلا حذفَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في الاختصامِ:

الاختصامُ مستعارٌ للتَّقاولِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمِۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 211.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 446.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 416.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104.
(7) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 234، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 211.
(8) السمين، الدر المصون: 9/ 396.

استعارةٌ بديعةٌ، وذلكَ أنَّهُ ليسَ المرادُ بالاختصامِ معناهُ المعروفَ، بل المرادُ بِهِ التَّقاولُ[1]، شُبِّهَ بالتَّخاصُمِ مِنْ حيثُ إنَّ في كلٍّ منهما سؤالًا وجوابًا[2]، فقوله تعالى: ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ لـ (يتقاوَلونَ)[3].

نكتةُ صيغةِ الافتعالِ:

إبرازُ اشتراكِ الملأِ الأعلى في الأمر

عُبِّرَ عن الاختصامِ بصيغةِ الافتعالِ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾؛ للمبالغةِ في هذا الأمرِ الَّذي جرَى في الملأِ الأعلى[4]، فكلٌّ منهُم يخاصمُ الآخرَ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾:

استحضارُ صورةِ الاختصامِ الغريبةِ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة المضارع من فعل الاختصام في قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، مع أنَّ الظّاهرَ أنْ يُقالَ: (إذِ اختصموا)؛ لأنَّ هذا الاختصامَ أمرٌ قد مضَى، لكنْ عُبِّرَ لحكاية الحالِ الماضية بصيغةِ المضارعِ مِن أجل استحضارِها[5]، ويجوز أن يكون المرادُ اختصامَ الطّاغينَ وأتباعِهم في النّارِ بينَ يدَي الملأِ الأعلى - أي: ملائكةِ النّارِ، أو ملائكةِ المحشرِ - فالمضارعُ على أصلِهِ مِنَ الاستقبالِ[6]، وفي صيغةِ المضارعِ أيضًا مراعاةٌ للفاصلة.

دلالةُ جمعِ الضَّميرِ في ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾:

المختصمونَ جماعةُ الملائكةِ، أو جماعةُ أهلِ النّارِ

جُمِعَ الضَّميرُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، وهو راجعٌ إلى الملأِ للتَّنصيصِ على أنَّ المختصمينَ

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 446.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 607.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 272.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 316، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 318.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.

جماعةٌ؛ لئلّا يُظَنَّ حقيقةُ الوحدةِ بعدَ إفرادِ وصفِه ﴿ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾[1]، أو هو راجعٌ إلى أهل النّار من الطّاغين وأتباعهم[2].

سرُّ فصلِ الآية:

ما كان علم النبيّ ﷺ إلّا بوحيٍ من الله

فُصِل قولُ اللّه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّ هذه الجملةَ مبيِّنةٌ لجملة: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾، أي: (ما علمت ذلك النّبأ إلّا بوحيٍ مِنَ اللّه)، فالفصل لكمال الاتّصال[3].

ويحتمل أن تكون الجملةُ اعتراضًا بينَ إجمالِ اختصامِهم وتفصيلِه المُبتدَأ بقولِه تعالى ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾، تقريرًا لثبوتِ علمِه ﷺ، وتعيينًا لسببِه، وهو الوحيُ[4].

بلاغةُ أسلوب القصر:

النّبيُّ نذيرٌ لا ساحرٌ ولا مجنونٌ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ طريقانِ للقصرِ: أحدُهما طريقُ النَّفيِ والاستثناءِ، والآخرُ طريقُ ﴿أَنَّمَآ﴾ المفتوحةِ الهمزةِ أو المكسورةِ (إنَّما)[5]، فأفادتِ الآيةُ حصرَ حكمةِ ما يأتيه ﷺ مِنَ الوحيِ في حصولِ الإنذارِ، وحصرَ صفةِ الرَّسولِ ﷺ في صفةِ النِّذارةِ، ويستلزمُ هذانِ الحصرانِ حصرًا ثالثًا، وهو أنَّ أخبارَ القرآنِ وحيٌ مِنَ اللّهِ، وليسَتْ أساطيرَ الأوَّلينَ كما زعمَ الكفرةُ، فحصلَ في الآيةِ ثلاثةُ حُصورٍ: اثنانِ منها بصريحِ اللَّفظِ، والثّالثُ بكنايةِ الكلامِ، وهذهِ الحُصورُ: اثنانِ منها إضافيّانِ، وهما قصرُ ما يوحَى إليهِ على علّةِ النِّذارةِ، وقصرُ الرَّسولِ ﷺ على صفةِ النِّذارةِ، وكلاهما قلبٌ لاعتقادِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 416.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235، والشوكاني، فتح القدير: 23/ 298.
(5) ابن الجزري، النشر: 2/ 362.

أنَّهم يسمعونَ القرآنَ؛ ليتَّخذوهُ لعبًا، واعتقادِهم أنَّ الرَّسولَ ﷺ ساحرٌ أو مجنونٌ[1].

النَّبيُّ لا يقدرُ على تعجيلِ العذابِ

ويجوز توجيهُ قصرِ النَّبيِّ ﷺ على صفة النِّذارة في قول اللّه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بأنَّه قلبٌ لإنكار المشركين وتعنُّتِهم، وردٌّ على ادِّعائِهم وتَحَدّيهم، حينَ قالوا له: إنَّك، مِثلَ ما أوحيَ إليكَ بعلمِ ما لم تكنْ تعلمُ، يوحَى إليكَ بالقدرةِ على ما لم تكنْ تقدرُ عليهِ، فعجِّلْ لنا الموتَ ثمَّ البعثَ؛ لنرَى ما أخبرتَنا به، لعلَّنا نُصدِّقُكَ فيما أتيتَ بهِ، فأجابَهم اللّهُ بقصرِ الوحيِ على النِّذارةِ، وهي إبلاغُ ما أُنزِلَ إليهِ، لا تعجيلُ شيءٍ ممّا توُعِّدوا بهِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالوحيِ:

الوحيُ مِن دلائلِ النُّبوَّةِ

عُبِّرَ بالوحيِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ حصولِ العلمِ في خفاءٍ، وهو يلائمُ مقامَ اختصاصِ النَّبيِّ ﷺ بإيحاءِ اللّهِ إليهِ؛ لأنَّ هذا العلمَ الحاصلَ لهُ لا يشاركُهُ فيهِ غيرُهُ، وفي ذلكَ تشريفٌ لهُ، وتقويةٌ لمقامِ الاستدلالِ على نبوَّتِهِ.

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ ﴿يُوحَىٰٓ﴾:

الوحيُ تأييدٌ للنَّبيِّ على الاستمرارِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ لفعلِ الإيحاء من قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ[3]، أي: (شأنُ النَّبيِّ ﷺ على الاستمرارِ أنْ يوحَى إليهِ ما فيهِ إنذارٌ للمُعرِضينَ المُكذِّبينَ، ودعوةٌ إلى الخيرِ والرَّشادِ، وليسَ شأنُهُ ما يتَّهمونَهُ بهِ مِنَ الكذبِ والسِّحْرِ والجنونِ ونحوِ ذلكَ)، وفي هذهِ الصِّيغةِ أيضًا إشارةٌ إلى حاجةِ النَّبيِّ ﷺ المُتجدِّدةِ إلى الوحيِ مِنَ اللّهِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 299 - 300.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 417.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 417.

نكتةُ البناءِ للمفعولِ:

المـوحـي هـو اللهُ ﷻ أعرَفُ المَعارِف

بُنيَ فعلُ الإيحاء في قول اللّه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ لِما لم يُسمَّ فاعلُه لأجل العلم بالفاعلِ، وهو اللّهُ ﷻ، وفي ذلكَ تفخيمٌ لشأنِه، ببيانِ أنَّ هذا الفعلَ لا يُتصوَّرُ مِنْ غيرِه، فلا حاجةَ إلى ذكرِ فاعلِه.

دلالةُ التَّعبير بـ (إلى):

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بحرف الجرِّ (إلى) في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّها لانتهاءِ الغايةِ، فتفيدُ أنَّ مُنتهَى الوحيِ هو النَّبيُّ ﷺ؛ إذ هو المأمورُ بتبليغِه.

دلالة تقديم شِبهِ الجملة ﴿إِلَيَّ﴾:

الـوحـيُ للـنَّبيِّ محطُّ العنايةِ والاهتمامِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَيَّ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾: للعنايةِ بكونِ الوحي للنَّبيِّ ﷺ، ولأنَّ في ما بعدَهُ طولًا؛ ولو أُخِّرَ ﴿إِلَيَّ﴾ لفاتَ تجاوُبُ أطرافِ النَّظم، وحُسْنُ انتظامِه، ولضاعَ تلاؤمُ الفواصلِ.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿أَنَّمَآ﴾:

القصرُ حاصلٌ على القراءتينِ

اختلف القرّاءُ في قول اللّه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾، فقرأ أبو جعفرٍ (إنَّما) بكسرِ الهمزةِ، وقرأ الباقونَ ﴿أَنَّمَآ﴾ بفتحِها[1]، أمّا قراءةُ الكسرِ؛ فهي على الحكايةِ، أي: (ما يوحَى إليَّ إلّا هذا القولُ، وهو أنْ أقولَ لكم: إنَّما أنا نذيرٌ مبينٌ، ولا أدَّعي شيئًا آخرَ).

وأمّا قراءةُ الفتحِ؛ فهي على تقديرِ لام جرٍّ داخلةٍ على ﴿أَنَّمَآ﴾، والمعنى: (ما يوحَى إليَّ إلّا لأنَّما أنا نذيرٌ)، أي: (ما يوحَى إليَّ إلّا لعلَّة الإنذارِ)، فحُذِفَتِ اللّامُ، وانتصبَ ما بعدَها على نزعِ الخافضِ، ونُزِّلَ فعلُ (يوحَى) منزلةَ اللّازمِ، أي: (ما يوحَى إليَّ وحيٌ)، فلا يُقدَّرُ له

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 362.

مفعولٌ، ويجوزُ أنْ يرتفعَ ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على معنى: (ما يوحَى إليَّ إلّا هذا، وهو أنْ أُنذِرَ، وأُبلِّغَ، وليسَ إليَّ غيرُ ذلكَ)، وعليهِ فلا يُنزَّلُ (يوحَى) منزلةَ اللّازمِ[1]، والقصرُ حاصلٌ على القراءتين.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نَذِيرٌ﴾:

تعظيم شأنه ﷺ

تنكيرُ ﴿نَذِيرٌ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ للإفرادِ، أي: (إنَّما أنا فردٌ مِنْ أفرادِ المكلَّفين بالنِّذارة، مُندرِجٌ في زُمْرةِ الأنبياءِ المُنذِرينَ)، ويحتملُ أنْ يكونَ للتَّعظيم، أي: (إنَّما أنا نذيرٌ عظيمُ الشَّأنِ، فينبغي عليكم أنْ تتَّبعوني).

نكتةُ إطلاقِ النَّذير:

إفادةُ العمومِ لِتَذهبَ النَّفسُ في تقديره كُلَّ مَذهَب

أُطلِقَ لفظُ النَّذير في قولِ للّهِ ﷻ: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولم يُذكَرِ المُنذَرُ ولا المُنذَرُ به؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ؛ إذِ المُنذَرونَ هم كفّارُ قريشٍ ومَنْ على شاكلتِهم، والمُنذَرُ بِهِ هو عقابُ اللّهِ تعالى، وفي الإطلاقِ تفخيمٌ لشأنِ المُنذَرِ بِهِ وتعظيمٌ لهُ؛ لتذهبَ النَّفسُ في تقديرِهِ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالنَّذيرِ:

يقتضي مقامُ التَّهديدِ المبالغةَ في الإنذارِ

عُبِّرَ بصيغةِ المبالغةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ولم يقل: (مُنذِرٌ) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّ الإنذارَ أبلغُ في ردِّ المخالِفِ وردْعِهِ، وذلكَ يستدعي المبالغةَ المُستلزِمةَ للتَّكثيرِ، وهو مُقتضَى صيغةِ (فعيلٍ)، وفي استعمال اسم الفاعل دون الفعل المُضارِعِ (أُنذِر) دلالةٌ على ثبوت نذارته ودوامها لكلِّ المعاندين والجاحدين.

سرُّ الاقتصارِ على النِّذارة:

خُصَّ الإنذارُ بالذِّكرِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 104، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 298.

لا يـلـيـقُ بـالمشـركـينَ إلّا الإنذارُ

﴿أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّ الكلامَ معَ المشركينَ[1]، وهؤلاءِ لا يليقُ بهِم إلّا الإنذارُ، لعلَّهم يرتدعونَ عمّا هم عليهِ مِنَ الكفرِ، وإلّا فالنَّبيُّ ﷺ نذيرٌ وبشيرٌ، ويجوز أنْ يكونَ مِن بابِ الاكتفاء، كما في قولِ اللّه تعالى: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: 81]، والتقدير: (والبَرْدَ).

بلاغةُ وصفِ النَّذيرِ بالمبُينِ:

النَّـبـيُّ ﷺ أحـرصُ الـنّـاسِ على تبليغ الدَّعوة للمُعانِدين

وُصِفَ النَّذيرُ بالمُبينِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُ ﷺ لا يُقصِّرُ في تبليغِ ما أُمِرَ به، ولا يَدَعُ لَبْسًا فيما يُبلِّغُهُ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ[2]، وفي ذلكَ مدحٌ لهُ ﷺ، وإقامةٌ للحجَّةِ على مخالفيهِ الَّذينَ يحاربونَ الحقَّ الواضحَ.

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 319.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 418.

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾ [ص: 71 - 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكرُ الاختصامِ تفصيلًا بعدَ ذكرِهِ إجمالًا

لمّا ذكرَ ﷺ الاختصامَ إجمالًا في قولِه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۢ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾؛ شرعَ هنا في ذكرِهِ تفصيلًا[1]، ومناسبة هذه القصَّةِ لِما قبلَها مِنَ الآياتِ المَسوقَةِ في سورةِ ص: أنَّه لمّا ذُكِرَ إعراضُ قريشٍ عن قَبولِ الدَّعوة؛ بسبب الحسَد والكِبر ذُكِرَ هنا حالُ إبليسَ مع آدمَ عليه السلام، لمّا خالَفَ أمرَ ربِّه، وامتنع عن السُّجود بسبب كِبرِه، فاستحقَّ اللَّعنَ والطَّردَ؛ لعلَّ المُنذَرين بهذه القِصَّة يتَّعِظون بها، ويَرتَدِعون.

❁ شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾: (سوي) أصلٌ يدلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بينَ شيئَينِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُه، والسَّويُّ يقالُ فيما يُصانُ عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ مِنْ حيثُ القَدْرُ والكيفيَّةُ، ويقالُ: رجلٌ سَويٌّ، أي: استوَتْ أخلاقُه وخِلْقَتُهُ عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ[2]، والمرادُ بالتَّسويةِ في قولِه تعالى ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾: إتمامُ الخِلقَة وتعديلُها[3]، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾ [الانفطار: 7].

2) ﴿وَنَفَخۡتُ﴾: (نفخ) أصلٌ يدلُّ على اندفاعٍ للهواءِ في جوفِ الشَّيءِ مع عُلوِّه[4]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: انتفخَ بَطْنُه، أي: ارتفعَ مِنَ الرِّيحِ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 510.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سوي).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نفخ).

والمِنْفاخُ: الَّذي ينفخُ بِهِ الإنسانُ في النّارِ وغيرِها، والنَّفْخاءُ مِنَ الأرضِ: ما ارتفعَ[1]، والمرادُ بالنَّفخِ هنا: وضعُ قوَّةٍ لطيفةِ السَّرَيانِ، قويَّةِ التَّأثيرِ دفعةً واحدةً[2].

3) ﴿فَقَعُواْ﴾: (وقع) أصلٌ يدلُّ على سقوطِ شيءٍ[3]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: وقعَ الطّائرُ[4]، والواقعةُ لا تُقالُ إلّا في الشِّدَّةِ والمكروهِ، وأكثرُ ما جاءَ في القرآنِ مِنْ لفظِ (وقعَ)؛ جاءَ في العذابِ والشَّدائدِ[5]، والمرادُ بالوقوعِ هنا المبادرةُ إلى السُّجود.

المَعنى الإجْماليُّ:

خلـقُ آدمَ وتـكـريـمُـهُ بسجودِ الملائكةِ لهُ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ عن قصَّةِ خلقِ آدمَ، وأنَّهُ قالَ لملائكتِهِ: إنَّهُ سيخلقُ بشرًا مِنْ طينٍ، فإذا أتمَّ خلقَهُ، وعدَّلهُ، ونفخَ الرّوحَ فيهِ؛ فعليهِم أنْ يسجُدوا لهُ على الفورِ؛ تكريمًا لهُ وتعظيمًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ الآيةِ:

تفصيلُ قصَّةِ آدمَ وإبليسَ بعدَ إجمالِها

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾، عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ قولَهُ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدلٌ مِنْ قولِهِ: ﴿إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾ مُبيِّنٌ لهُ.

هذا إذا كانتِ القصَّةُ الَّتي دخلَتْ ﴿إِذۡ﴾ عليها مشتمِلةً على تقاوُلِ الملائكةِ وإبليسَ في خلقِ آدمَ عليه السلام، واستحقاقِهِ للخلافةِ والسُّجودِ[6]، وإنْ كانتِ القصَّةُ في غيرِ ذلكَ، فـ﴿إِذۡ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُضمَرٍ

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (نفخ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(4) الزمخشري، أساس البلاغة: (وقع).
(5) الراغب، المفردات: (وقع).
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34، والسمين، الدر المصون: 9/ 397.

تقديرُهُ: (واذكُرْ إذ قالَ ربُّكَ)[1]، والجملةُ معَ المحذوفِ استئنافٌ، ونكتةُ التَّذكيرِ بالوقتِ أنَّهُ أدخلُ في التَّذكيرِ بما وقعَ فيه[2].

سرُّ ذكرِ قصَّةِ آدمَ عليه السلام:

الحسدُ والكِبْرُ سببُ كُلِّ عِصيانٍ

تظهرُ مناسبةُ ذكرِ قصَّةِ آدمَ عليه السلام هنا، التي أوَّلُها: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ في الزَّجرِ عنِ الحسدِ والكِبْرِ، وذلكَ أنَّ إبليسَ إنَّما وقعَ في ما وقعَ فيهِ بسببِ الحسدِ والكِبْرِ، والكفّارُ إنَّما نازعوا نبيَّنا محمَّدًا ﷺ بسببِ الحسدِ والكِبرِ[3]، وللتَّنبيهِ على أنَّ إبليسَ بامتناعِهِ عن امتثالِ أمرٍ واحدٍ جرَى عليهِ ما جرَى، فكيفَ يكونُ حالُهم وهم مغمورونَ في المعاصي، وهو أوَّلُ مَنْ سنَّ العصيانَ، فهو إمامُهم وقائدُهم إلى النّارِ[4].

وقد سيقت هذه القصَّةُ بعد ذكر نعيمِ أهلِ الجنَّة، وعقابِ أهلِ النّار، وفي هذا الإيراد ترتيبٌ حكيم، وملاءمةٌ بديعة، بأنْ يُعقَّبَ ذِكرُ نهايةِ الخلق، ومصيرِ البَشَر طائعِهم وعاصيهم؛ ببيانِ أوَّلِه كيفَ بدأ، وكيف كان عصيانُ إبليس ربَّه، ووعدُه بإغواء البشريَّة.

نكتةُ اختصارِ القصَّةِ:

التَّفصيلُ فيما سبَقَ مُغْنٍ عن التَّفصيلِ هنا

اختُصِرَتْ قصَّةُ التَّقاوُلِ في خلقِ آدمَ عليه السلام هنا اكتفاءً بتفصيلِها في سورةِ البقرةِ وغيرِها من السّوَرِ السّابقةِ لها في ترتيبِ المصحف، واقتصارًا على ما هو المقصودُ منها، وهو إنذارُ المشركينَ وردعُهم عنِ استكبارِهم على النَّبيِّ ﷺ بمثْلِ ما حاقَ بإبليسَ بسبب استكبارِهِ على آدمَ عليه السلام[5]، ولا إشكالَ في الإحالةِ على سورةِ البقرةِ قبلَ نزولِها - إذ هي مدنيَّةٌ، وهذه السّورةُ مكّيَّةٌ - لأنَّ نزولَها مُتيقَّنٌ[6].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 514، والسمين، الدر المصون: 9/ 397.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 281.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 409، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 173.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 212.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34.
(6) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 447.

سرُّ التَّعبير بالظرفيَّة ﴿إِذْ﴾:

صدِّرت قصَّة آدمَ عليه السلام بالظرفيَّة ﴿إِذْ﴾ للدَّلالة على عظَمة شأن هذه القصَّة، وأنَّ ما في ثناياها أمرٌ عظيم ينبغي الاستماع إليه، لأخذ العظةِ والعِبرة لأهل الطّاعة ولأهل المعصيةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿قَالَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾؛ لأنَّ هذا القولَ قد تحقَّقَ، ومضَى، كما هو الشَّأنُ في روايةِ القصصِ والأخبارِ الماضيةِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

الوحيُ نعمةٌ مِنَ اللهِ

عُبِّرَ بالرُّبوبيَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ دون الألوهيَّة، فلم يقل: (إذ قال اللّه)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا المقامَ مقامُ إنعام وعطاء، ولبيان أنَّ نُبوَّتَهُ صلى الله عليه وسلم إحسانٌ مِنَ اللّهِ له، وإنعامٌ عليه، بذكرِ الوصفِ الدّالِّ بحسَبِ وضعِهِ اللُّغويِّ على التَّربيةِ والإحسانِ والإنعامِ[1].

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿رَبُّكَ﴾:

العبوديَّةُ للهِ شرفٌ وعطاءٌ للعبدِ

أُضيفَتِ الرُّبوبيَّةُ إلى ضميرِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في قول الباري جل جلاله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾؛ لتشريفِهِ صلى الله عليه وسلم بالاندراجِ تحتَ ظلالِ الرُّبوبيَّةِ، وللإشعارِ بعلَّةِ حُكمِ الإخبارِ، وهو الإحسانُ والإنعامُ[2]، ولبيان أنَّ وحيَ هذا النَّبأِ إليه من باب التَّأييد والتَّثبيت له صلى الله عليه وسلم.

سرُّ إيثارِ الخطابِ:

النَّبيُّ محلُّ العزِّ والتَّشريفِ

أوثِرَ الخطابُ على التَّكلُّم في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، ولم يقل: (إذ قلنا للملائكة) مع

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 418.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 281.

أنَّهُ أوجزُ: لتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بعزِّ الخطابِ والحضورِ(1)، وتحصيلِ ما يترتَّبُ على الإضافةِ مِنَ التَّشريفِ، والتَّكريمِ بالإحسانِ والإنعامِ؛ ولأنَّ في الخطابِ اعتبارَ حالِ الآمرِ، فهو أدلُّ على كونِ القرآنِ وحيًا منزَّلًا مِن عنده تعالى(2).

دلالةُ لامِ الجرِّ:

إعلامُ اللهِ للملائكةِ خلْقَ آدمَ عليه السلام

اللّامُ الجارَّةُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ للتَّبليغِ والإعلامِ، فتفيدُ تبليغَ الملائكةِ الكلامَ المذكورَ.

نكتةُ تعريفِ الملائكةِ:

إخبارُ اللهِ جنسَ الملائكةِ بخلقِ آدمَ

تعريفُ لفظِ الملائِكَةِ في قولِ اللّه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ للجنسِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المخاطَبونَ والمأمورونَ بالسُّجودِ هم الملائكةَ الَّذينَ كانوا في المكانِ الَّذي خُلِقَ فيهِ آدمُ، ويحتملُ الاستغراقَ لجميعِ الملائكةِ(3)، وعُدَّ إبليسُ منهُم؛ لأنَّهُ كانَ إذ ذاكَ معَهم(4).

سرُّ التَّعبيرِ بالملائكةِ:

اشتهارُ الملائكةِ المقولِ لهُم هذا القولُ بهذا اللَّفظِ

إنْ كانَ المرادُ بالملائكةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ ما يعمُّ إبليسَ، وكانَ المرادُ بهم هو المرادَ بالملأِ الأعلى في الآيةِ السّابقةِ؛ فالتَّعبيرُ بهِم دونَ الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الملأِ الأعلى؛ إذ لم يقل: (إذ قال ربُّك لهُم)؛ لشيوعِ تعلُّقِ القولِ بهِم بينَ أهلِ الكتابِ بهذا اللفظِ، أو لشهرةِ المقابلةِ بينَ المَلَكِ والبشرِ، فيَلطُفُ قولُهُ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾(5)؛ إذ يشتملُ على هذهِ المقابلةِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 418.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 38.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 418.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 241.

استبعادُ الملائكةِ خلْقَ مَنْ يصدُر منه فسادٌ

بلاغةُ التَّوكيدِ في الآية:

أُكِّدَ قولُ اللّه تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ بـ(إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ؛ لأنَّ الملائكةَ كانوا عالمينَ - بما دلَّهم عليهِ دليلٌ مِنَ اللّهِ - أنَّ البشرَ يقعُ منهُ الفسادُ، فكانوا يستبعِدونَ أنْ يخلُقَ ﷻ مَنْ يقع منه فسادٌ، فأكَّدَ لهُم سبحانَهُ قولَهُ لإزالةِ استبعادِهم[1]، وفي التَّوكيدِ أيضًا تحقيقٌ لخلقِ اللّهِ تعالى آدمَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، وإظهارٌ للاعتناءِ بهِ.

إذا قضى اللهُ الأمرَ فلا مانِعَ لما قضى

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

عُبِّرَ باسمِ الفاعلِ ﴿خَٰلِقُۢ﴾ دونَ المضارعِ (يخلق) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾، أي: فيما سيأتي؛ لِما في صيغةِ اسمِ الفاعلِ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّهُ تعالى فاعلٌ هذا الخلقَ قطعًا، مِنْ غيرِ صارفٍ يلويه، أو عاطفٍ يُثنيه عن ذلكَ[2].

اسمُ البشرِ ذُكِرَ عندَ الحكايةِ لا عندَ وقوعِ المحكيِّ

سرُّ تسميَتِه ﴿بَشَرٗا﴾:

قالَ اللّه ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾، معَ أنَّ البشرَ لم يكنْ معروفًا ولا معهودًا للملائكةِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ هذا الاسمَ قد ذُكِرَ عندَ الحكايةِ، وأمّا عندَ وقوعِ المَحكيِّ؛ فالظّاهرُ أنَّهُ قالَ لهُم: (إنّي خالقٌ خَلْقًا مِنْ صفتِهِ كيتَ وكيتَ)[3]، أو أنَّهُ سبحانَهُ قد فهَّمَ الملائكةَ الحقيقةَ بما ألقَى فيهم مِنَ العلمِ.

بشريَّةُ آدمَ في خَلقِه من طينٍ

سِرُّ التَّعبيرِ بالبَشَر:

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالبشريَّة في قول اللّه تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾ دون التَّعبير بالإنسانيَّة باعتبارِ ظهور بشَرَته، فمَظهَرُه وجُثَّته معتَبَرٌ هنا، فقد خُلِقَ جمادًا، ثُمَّ نُفِخَ فيه الرّوحُ، فصارَ إنسانًا حيًّا. وفي التَّعبيرِ بالبشَر أيضًا إيماءٌ إلى خِلقَةِ الإنسان

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 419.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 214.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 105، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235.

- مع ذِكرِ مادَّةِ جسده الأولى - وتنبيهٌ إلى الفرق بينها وبين خِلقة الملائكة من نور، وخِلقة الجنِّ من نار. وربَّما جَرَتْ عادةُ القرآن بمقابلة الجنِّ بالإنس، والملائكة بالبشَر، كما في هذا الموضع.

غرضُ تنكيرِ ﴿بَشَرًا﴾:

آدمُ أبـو البَشَر عـظيـمُ الـشأنِ بديعُ الخَلق

تنكيرُ ﴿بَشَرًا﴾ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ للإفرادِ، أي: (إني خالقٌ فردًا من أفرادِ البشرِ، وهو أوَّلُهم وأبوهم)، أو هو للتَّعظيم، والمعنى: (إنّي خالقٌ مِنْ طينٍ بشرًا عظيمَ الخَلْقِ بديعَ الشَّأنِ)، وفي ذلكَ تنبيهٌ للملائكةِ على عُلوِّ شأنِه، وتوطئةٌ لطلبِ السُّجودِ منهُم له.

دلالة ﴿مِّن﴾:

﴿مِّن﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ ابتدائيَّةٌ، والمعنى: (إنّي خالقٌ بشرًا ابتداءً مِنْ طينٍ)، وفيه إشارةٌ للتَّفريق بين طبيعةِ خلق آدمَ وذريَّته؛ إذ خُلِقوا بعدَه من مَنيٍّ يُمنَى.

دلالةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

التّفضيلُ مِنحةٌ ربّانيّة، لا يُسألُ مـولـيهـا عـمّـا يَـفـعـل، وهـم يُسألون

تنكيرُ ﴿طِينٍ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ للتَّحقير، كما روي في تفسير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: 26]: أي المُنتِن[1]. وعلى حقارة هذه المادّة بنى إبليسُ اعتراضَه، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾؛ لكنّ هذا التّنكيرَ في حقيقته إظهارٌ لقدرة اللّه، فهو سبحانه الَّذي يخرج الحيَّ من الميِّت، وهو الَّذي يجعل الأفضليَّة حيث شاء. فسجود الملائكة لآدم لم يكنْ لشرف مادَّةٍ على مادَّة، بل طاعةً للّه الذي شاء أن يفضِّله عليهم[2].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 44.

سرُّ تسميةِ مادَّةِ الخلقِ:

شرفُ الموجوداتِ بمزاياها، لا بمادَّةِ تركيبِها

سمَّى اللهُ ﷻ للملائكةِ المادَّةَ الَّتي منها خَلَقَ أوَّلَ البشرِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾؛ ليعلَموا أنَّ شرفَ الموجوداتِ بمزاياها، لا بمادَّةِ تركيبِها[1]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأفضليَّةَ ممنوحةٌ مِنَ اللهِ، وليستْ ذاتيَّةً، معَ إظهارِ كمالِ قدرته، بإخراجِ الحيِّ مِنَ الميِّت، فآدمُ حيٌّ، والتُّرابُ ميِّت.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

اختلافُ أوصافِ الخَلقِ باختلافِ أطْوارِهِ ومَراحلِهِ

ذكرَ اللهُ ﷻ هنا أنَّهُ خلقَ آدمَ ﴿مِّن طِينٖ﴾، وفي سورةِ آلِ عِمران أنَّه ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: 59]، وفي سورةِ الحِجْرِ أنَّه خلقَهُ: ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: 26]، وفي سورةِ الرَّحمَنِ أنَّه خلقه ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾ [الرحمن: 14]، وكلُّ واحدةٍ منها تصفُ طورًا من أطوارِ خَلقِ آدمَ ﵇، فالمادَّةُ البعيدةُ هي التُّرابُ، وأقربُ منه الطِّينُ، وأقربُ منهُ الحمَأُ المسنونُ، وأقربُ منهُ الصَّلصالُ، ولا منافاةَ بينَ الكلِّ[2]؛ لأنَّ كلَّ آيةٍ تحدَّثت عن مرحلةٍ من مراحلِ الخلق، فالتُّرابُ إذا ضُمَّ إليه الماءُ؛ صارَ طينًا، وإذا يَبِسَ؛ صار صلصالًا كالفخّار، واقتُصِرَ هنا على ذِكرِ الطّينِ اكتفاءً بما ذُكِرَ في المواضعِ الأخرى[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالفاءِ:

السّجودُ مترتِّبٌ على الخلق

أوثِرَ التَّعبيرُ بالفاء دون غيرها في أوَّلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ للسَّببيَّةِ؛ وذلكَ أنَّهُ تعالى لمّا أخبرَهم بما يريدُ أنْ يفعلَ مِنْ خلقِ البشرِ مِنْ طينٍ سبَّبَ عنهُ الأمرَ بالسّجود[4]، فأفادَ أنَّ السجودَ مُترتِّبٌ على الخلقِ. وفي التّعبير بلاغةُ الإيجازِ، وذلك بطيِّ الجملِ بينَ الخلقِ والسجود

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 44.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 409، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 173.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 235.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 419.

في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ والمعنى: (فإذا خلقتُ بشرًا مِنْ طينٍ، وغيَّرتُه طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ، حتَّى سوَّيتُهُ ... فاسجدوا له)[1].

سرُّ التَّعبيرِ بـ(إذا):

التَّسويةُ والنَّفخُ حاصلانِ قطعًا

عُبِّرَ بـ(إذا) دونَ (إنْ) في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِهِ، والتَّسويةُ والنَّفخُ هنا مقطوعٌ بهما، فاختيرَتْ (إذا)، وفيها أيضًا ملاءمةٌ للتَّأكيدِ الَّذي افتُتِحَتْ بِهِ الآيةُ السّابقةُ.

دلالة التَّعبير بالتَّسْويَة:

اللهُ أحسنَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ

دلَّ التَّعبيرُ بالتَّسويَة في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ على أنَّ اللّه تعالى جعل أعضاءَ آدمَ عليه السلام سليمةً مُسَوّاةً، لا إفراط فيها ولا تفريطَ، بل تؤدّي وظيفتَها على الوجه الأكملِ كمًّا وكيفًا.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

الماضي أقربُ للقطعِ بالتَّسويةِ والنَّفخِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ القطعِ بوقوعِ الشَّرطِ، وصيغةُ الماضي باعتبارِ لفظِها أقربُ إلى القطعِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ.

سرُّ إسنادِ التَّسويةِ والنَّفخِ إلى اللهِ:

تشريفُ آدمَ وتعظيمُهُ بتولّي اللهِ لخلقِهِ

في إسنادِ التَّسويةِ والنَّفخِ إلى اللّهِ تعالى في قولِهِ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، تنويهٌ بهذا المخلوقِ، وتشريفٌ لهُ[2]، ببيانِ أنَّ اللّهَ تعالى هو الَّذي تولَّى بنفسِهِ تسويةَ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 44.

أعضائِه، ونَفْخَ الرّوحِ فيه، ولم ينسُبِ الفعلَ إلى ملَكٍ من الملائكةِ، كما قال بعد ذلك لإبليسَ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ لشأنِ هذينِ الفعلينِ اللَّذينِ لا يقدرُ عليهما سوى اللّهِ تعالى.

بلاغةُ عطفِ جملةِ النَّفْخ:

الخلقُ لا يتمُّ إلّا بالتَّسويةِ والنَّفخِ

الواوُ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾؛ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾، فتفيدُ دخولَها معَها في حيِّزِ الشَّرطِ، وأنَّ السُّجودَ يكونُ بعدَ حصولِهما، وأنَّ تخليقَ البشرِ لا يتمُّ إلّا بأمرينِ: التَّسويةِ أوَّلًا، ثمَّ نفخِ الرّوحِ ثانيًا؛ لأنَّ الإنسانَ مُركَّبٌ مِنْ جسَدٍ ونفْسٍ[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالنَّفخ:

النَّفخُ مستعارٌ لإفاضةِ سببِ الحياةِ بالفعلِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ النَّفخَ في الأصلِ إجراءُ الرّيحِ إلى تجويفِ جسمٍ صالحٍ لإمساكِها والامتلاءِ بها؛ والمرادُ هنا تشبيهُ إفاضةِ الرّوحِ بما يتأثَّرُ عن نفخِ الإنسانِ مِنْ لَهَبِ النّيرانِ وغيرِ ذلكَ[2]، والاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ لأنَّها واقعةٌ في الفعلِ؛ أو النَّفخُ تمثيلٌ لإفاضةِ ما به الحياةُ بالفعلِ على المادَّةِ القابلةِ لها[3]. وفائدةُ هذه الاستعارةِ: إفادةُ سَرَيانِ الرّوحِ في ثنايا أجزاءِ الجسم على وجه المجاز.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّة (في):

جسدُ آدمَ موضِعُ نَفْخِ الرّوحِ

حرفُ الجرِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ للظَّرفيةِ المكانيَّةِ، فيفيدُ أنَّ جسدَ آدمَ عليه السلام هو موضِعُ نفخِ الرّوحِ، وفي هذا التَّعبيرِ دلالةٌ على عظيمِ قدرتِه سبحانه؛ إذ أدخَلَ الرّوحَ في كلِّ جزءٍ من أجزائه، حتّى تمكّنتْ منه تَمَكُّنَ الظَّرفِ من المَظروفِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 409.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 419.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 236، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 215.

سِرُّ التَّعبيرِ بالضَّمير:

لم يكتملْ خلقُ آدمَ حتّى نُفِخَ فيه الرّوحُ

آثر القرآنُ الكريم التَّعبيرَ بالضَّمير في قول اللّه تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ دون الاسم الظّاهر، فلم يقل: (ونفختُ في آدمَ)؛ لأنَّه لم تتحقَّق فيه صفةُ الحياة قبل نفخِ الرّوح؛ لذلك عُبِّر بالضَّمير الَّذي يناسِبُ مرحلةَ ما قبلَ الظُّهور.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ للتَّبيينِ؛ لأنَّ في قولِه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ﴾ إبهامًا للمنفوخِ، وفي قولِهِ: ﴿مِن رُّوحِى﴾ توضيحٌ لهُ وبيانٌ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿رُّوحِى﴾:

الـرّوحُ شريفةٌ عظيمةُ الشَّأنِ

إضافةُ الرّوحِ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اللّهِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾؛ لبيانِ أنَّها مملوكةٌ للّهِ تعالى، ولتشريفِها[1]، وبيانِ طهارتِها وقداستِها[2]، كالإضافةِ في (بيتِ اللّهِ)، و(ناقةِ اللّهِ)[3]، أو لأنَّهُ ﷻ خَلَقَها مِنْ غيرِ واسطةٍ تجري مجرى الأصلِ والمادَّةِ[4]، ولو علمَ النّاسُ عِظَمَ شأنِ الرّوحِ المودَعةِ في نفوسِ بني آدمَ؛ لَما بغَى بعضُهم على بعضٍ، ولا قتلَ بعضُهم بعضًا بغيرِ حقٍّ.

دلالةُ فاءِ ﴿فَقَعُواْ﴾:

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾؛ فتفيدُ أنَّهُ بتمامِ التَّسويةِ ونفخِ الرّوحِ يتوجَّهُ أمرُ اللّهِ لهُم بالسُّجودِ دونَ توانٍ[5].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 514.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 164.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 283.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 410.

دلالةُ الأمرِ بالسُّجود:

الأمرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ لوجوبِ السُّجودِ، بدليلِ معاقبةِ إبليسَ على رفضِه السُّجودَ.

دلالة لامِ ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ للتَّعليلِ، أي: فقَعوا لأجلِه ساجدينَ، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّهم كُلِّفوا بالسُّجودِ لذاتِ آدمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]؛ طاعةً للّه واستسلامًا لأمره بذلك.

غرضُ تقديمِ ﴿لَهُۥ﴾:

السُّجودُ لآدمَ محلُّ العنايةِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿سَٰجِدِينَ﴾ في أمرِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ بإيقاعِ السُّجودِ لآدمَ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للتَّخصيصِ له دون غيره من المخلوقات[2]، ولمراعاةِ الفاصلة.

سرُّ التَّعبيرِ بالوُقوع:

تكريمُ آدمَ بالسُّجودِ لإظهارِ محبَّةٍ لله وتعظيمِه

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالوقوع في قول اللّه تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ دونَ أن يُقال: (فاسجُدوا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المطلوبَ أنْ يسجُدوا سُجودًا غايةَ ما يكونُ مِنَ الطَّواعيَةِ والاختيارِ والمحبَّةِ، ليكونوا كأنَّهم وقعوا بغيرِ اختيارٍ[3].

بلاغةُ مجيءِ الحالِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

الوقوعُ المطلوبُ لآدمَ وقوعُ تعظيمٍ وتشريفٍ

جيءَ بالحالِ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾؛ لإفادةِ نوعِ الوقوعِ، وهو الوقوعُ لقصدِ التَّعظيمِ[4]؛ لأنَّ الوقوعَ يكون على أحوالٍ متعدِّدَة، والمقصودُ هنا تعظيمُ آدمَ وتكريمُه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 421.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 45.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخلقُ والذَّرْءُ والبَرْءُ:

الخلقُ في الأصلِ تقديرُ الشَّيءِ[1]، ويُستعمَلُ في إبداعِ الشَّيءِ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ[2]، والبَرْءُ: هو تمييزُ الصّورةِ، فمعنى قولِهم: برأ اللَّهُ الخلقَ: ميَّزَ صوَرَهم[3]، وأصلُ الذَّرْءِ: الإظهارُ، فمعنى ذرأ اللَّهُ الخَلْقَ: أظهرَهم بالإيجادِ بعدَ العدمِ[4]، ويُلحَظُ في الذَّرْءِ معنى البَثِّ والتَّكثيرِ، وقد عُبِّرَ بالخلقِ هنا لدلالتِه على إبداعِ آدمَ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ.

الخلقُ أنسبُ بإبداعِ آدمَ مِنْ غيرِ أصلٍ ولا مثالٍ سابقٍ

البشرُ والإنسانُ:

سُمّيَ البشرُ بذلكَ باعتبارِ ظهورِ جِلْدِه مِنَ الشَّعَرِ، بخلافِ الحيواناتِ الَّتي عليها الصّوفُ أوِ الشَّعَرُ أوِ الوَبَرُ، أو باعتبارِ حُسْنِ الهيئةِ؛ لأنَّهُ مُشتقٌّ مِنَ البِشارةِ، وهي حُسْنُ الهيئةِ، يقالُ: رجلٌ بَشيرٌ؛ إذا كانَ حسنَ الهيئةِ، وأمّا الإنسانُ؛ فهو مِنَ الأُنسِ الَّذي هو خلافُ النُّفورِ، وقد عُبِّرَ بالبشرِ هنا لدلالتِه على حُسْنِ هيئةِ هذا المخلوقِ بالنِّسبةِ لغيرِه، وهو أنسبُ بمقامِ التَّكريمِ والتَّعظيمِ، وأوفقُ بالمقابلةِ بالملائكةِ؛ إذ جرتِ العادةُ بمقابلةِ البشرِ بالملائكةِ.

البشرُ دالٌّ على حُسْنِ الهيئةِ المناسبِ للتَّكريمِ والتَّعظيمِ

التَّسويةُ والتَّعديلُ:

التَّسويةُ: جعلُ الأعضاءِ سليمةً مُسوّاةً مُعدَّةً لمنافعِها، والتَّعديلُ: جعْلُ البنيةِ معتدلةً متناسبةَ الأعضاءِ[5]، وقد عُبِّرَ بالتَّسويةِ هنا لدلالتِها على إتمامِ الخلقِ[6]، واعتدالِ العناصرِ في آدمَ واكتمالِها، بحيثُ صارَتْ قابلةً لنفخِ الرّوحِ[7].

التَّسويةُ أدلُّ على اكتمالِ الخلقِ وتهيئتِه لنفخِ الرّوحِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (خلق).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138، والراغب، المفردات: (ذرأ).

(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 292.

(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 105.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 44.

الوقوعُ والخُرورُ:

دلالـةُ الـوقـوعِ على عدمِ إصدارِ صـوتٍ عـنـدَ السُّقوطِ

الوقوعُ: هو السُّقوطُ، والخُرورُ: سقوطٌ يُسمَعُ منهُ صوتٌ، ولذلكَ يُطلَقُ الخريرُ على صوتِ الماءِ والرّيحِ وغيرِ ذلكَ ممّا يَسْقُطُ مِنْ عُلْوٍ، وقد عُبِّرَ بالوقوعِ هنا؛ لأنَّهُ لا يرادُ صدورُ صوتٍ عندَ السُّقوطِ للسُّجودِ، وكأنَّ المطلوبَ هو سرعةُ الائتمارِ للأمرِ، بحيثُ لا يصدرُ صوتٌ عندَ تنفيذِهِ.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [ص: 73 - 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكرُ حالِ المأمورينَ بعدَ ذكرِ الأمرِ

لمّا أمر اللّه تعالى في الآية السّابقة الملائكةَ بالسُّجودِ لآدمَ عندَ تمامِ خلقِهِ ونفْخِ الرّوحِ فيهِ؛ جاءتْ هاتانِ الآيتانِ جوابًا عن سؤالٍ يرِدُ في النَّفس: (ماذا فعلتِ الملائكةُ؟) فكان الجواب: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، واستثنى امتناعَ إبليسَ مِنْ ذلكَ بقوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَسَجَدَ﴾: (سجد) أصلٌ يدلُّ على تطامُنٍ وذلٍّ[1]، وقد جُعِلَ ذلكَ عبارةً عن التَّذلُّلِ للّهِ وعبادتِهِ، وهو عامٌّ في الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ، وذلكَ نوعانِ: سجودٌ باختيارٍ، وهو للإنسانِ فقطْ، وبهِ يستحقُّ الثَّوابَ، وسجودُ تسخيرٍ، وهو للإنسانِ وغيرِهِ[2] من الحيوان والنبات، قال اللّه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: 15].

2) ﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الصِّغَرِ، ومِنْ ذلكَ: الكِبْرُ، وهو إعجابُ الإنسانِ بنفسِهِ، بأنْ يَرَى نفسَهُ أكبرَ مِنْ غيرِهِ[3]، وأعظمُ التَّكبُّرِ التَّكبُّرُ على اللّهِ بالامتناعِ مِنْ قبولِ الحقِّ والإذعانِ لهُ بالعبادةِ، والاستكبارُ يقالُ على وجهينِ: أحدُهما أنْ يَطلُبَ الإنسانُ أنْ يصيرَ كبيرًا، وذلكَ متى كانَ على ما يَجِبُ، وفي المكانِ الَّذي

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سجد).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سجد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (كبر).

يجبُ، وفي الوقتِ الَّذي يجبُ؛ فمحمودٌ، والثّاني أنْ يتشبَّعَ، فيُظهِرَ مِنْ نفسِهِ ما ليسَ لهُ، وهذا مذمومٌ، وعلى الثّاني ما وردَ في القرآنِ[1]، كما في هذه الآية، فالمرادُ بالاستكبارِ هنا: التَّعظُّمُ[2].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

طاعةُ الملائكةِ ومعصيةُ إبليسَ

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عنِ امتثالِ الملائكةِ للأمرِ بالسُّجودِ، وامتناعِ إبليسَ عنهُ، فيقولُ: فلمّا سوَّى اللّهُ خَلْقَ آدمَ، ونَفَخَ فيهِ مِنْ روحِهِ؛ سجدَ لهُ الملائكةُ كلُّهم إلّا إبليسَ، فإنَّ كِبْرَهُ منعَهُ مِنْ ذلكَ، وصيَّرَهُ مِنَ الكافرينَ، أو استكبَرَ، وأظهرَ كفرَهُ الَّذي كانَ كامنًا في نفسِهِ قبلَ ذلكَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ فاءِ ﴿فَسَجَدَ﴾:

سُرعة الامتثالِ لأمرِ السُّجود

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ فصيحةٌ[3]، تدلُّ على حذفِ جملٍ عديدةٍ، والتَّقديرُ: (فخلَقَهُ، فسوّاهُ، فنَفَخَ فيهِ الرّوحَ، فسجدَ لهُ الملائكةُ)[4]، وفي التَّعبيرِ بها إشارةٌ إلى سرعة الامتثال، أي: سجدوا من غير تأخير ولا توقُّف.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

امتثالُ الملائكةِ مُتحقِّقٌ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ السُّجودِ، وفي ذلكَ مدحٌ للملائكةِ الكرامِ بالامتثالِ، وتمهيدٌ لذمِّ إبليسَ اللَّعينِ بتركِهِ السُّجودَ استكبارًا وحسَدًا.

توجيهُ سجودِ الملائكةِ لآدمَ:

سجودُ الملائكةِ لآدمَ للتَّكريمِ لا للعبادةِ

في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾

(1) الراغب، المفردات: (كبر).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 289.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 320، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 452.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 236، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 510.

تصريحٌ بسجودِ الملائكةِ لآدمَ، وهو سجودٌ لغيرِ اللّهِ تعالى، لكن على وجهِ التَّكرِمةِ، لا على وجهِ العبادةِ(1)، وجاز هذا النَّوعُ من السُّجودِ إمّا لجوازه في الشَّرائعِ السّابقة، ثمَّ جاءت شريعةُ محمَّدٍ ﷺ بالتَّحريم ناسخةً لما قبلَها، وإمّا لأنَّ أحكامَ العالَمِ العُلويِّ لا تقاسُ على أحكامِ عالَمِ الدُّنيا(2).

سرُّ إظهارِ الفاعِلِ:

الملائكةُ أهلُ طاعةٍ وامتثالٍ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فسجَدوا)؛ لتقدُّمِ ذكرِ الملائكةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، لكنْ عُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؛ للتَّصريحِ بذكرِ لفظِ الملائكةِ في مقامِ الحديثِ عن الطّاعةِ والامتثالِ، وفي ذلكَ مدحٌ لهُم، وتلميحٌ إلى الصِّفةِ الَّتي يشتهرونَ بها في العالَمينَ، وهي أنَّهم لا يعصونَ اللّهَ ما أمرَهم، ويفعلونَ ما يُؤمَرونَ، وفيه أيضًا دفْعُ توهُّمٍ قد يردُ في الخاطِرِ من عدمِ سرعةِ امتثالِ الملائكة لقَولِهم قبلَ الأمرِ بالسُّجود: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]، وفي هذا الإظهارِ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ إبليس لم يكنْ مِنَ الملائكة.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

كلُّ الملائكةِ يُطيعون اللهَ ولا يعصونَه

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ جميعَ الملائكةِ(3)؛ لأنَّ الجمعَ المُعرَّفَ يفيدُ العمومَ، ويُؤيِّدُهُ أنَّ استثناءَ الشَّخصِ الواحدِ يدلُّ على أنَّ ما عداهُ داخلٌ في ذلكَ الحكمِ(4)، وفي ذلكَ توسيعٌ لدائرةِ المدحِ والثَّناءِ على الملائكةِ الكرامِ، ويجوزُ أن يكونَ للعهدِ، والمرادُ الملائكةُ الَّذينَ كانوا في المكانِ الَّذي خُلِقَ فيهِ آدمُ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 45.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 320.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 1/ 253.

غَرَضُ التَّأكيدِ بالكُلّيَّة:

تأكيدُ العموم والشُّمول

جيءَ بلفظِ (كلٍّ) في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ﴾؛ لتأكيدِ العمومِ والشُّمولِ المُستفادِ من تعريفِ الملائكةِ، فلا يخرجُ أحدٌ منهُم مِنْ حكمِ السُّجودِ، ولدفعِ التَّجوُّزِ وتوهُّمِ غيرِ الشُّمولِ والإحاطةِ[1]؛ إذ قد يُظَنُّ أنَّ الكلامَ مِنْ قبيلِ إسنادِ الحكمِ إلى الجميعِ وإرادةِ الأكثرِ[2].

سرُّ الجمعِ بينَ ﴿كُلُّهُمْ﴾ و﴿أَجْمَعُونَ﴾:

سجودُ جميع الملائكةِ في وقتٍ واحدٍ غايةٌ في الطّاعة والانقياد

جُمِعَ بينَ ﴿كُلُّهُمْ﴾ و﴿أَجْمَعُونَ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الملائكة سجَدوا عن آخِرهِم، ولم يبقَ منهُم مَلَكٌ إلّا سجدَ، وأنَّهم سَجَدوا جميعًا في وقتٍ واحدٍ غيرَ مُتفرِّقينَ في أوقاتٍ، وذلك بدلالة ﴿كُلُّهُمْ﴾ على الإحاطة، ودلالةِ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على الاجتماعِ[3]، وفي هذا التَّعبيرِ مزيدُ مدحٍ للملائكةِ ببيانِ كمالِ امتثالِهم، حيثُ سَجَدوا دفعةً بلا تراخي بعضِهم عن بعضٍ، وذلكَ يدلُّ على شدَّةِ انقيادِهم، وحُسْنِ تأهُّبِهم للطّاعةِ واستعدادِهم[4]، وفي الجمعِ بينَ هذينِ اللَّفظينِ أيضًا مبالغةٌ في التَّعميمِ، ومنعٌ للتَّخصيصِ[5]، فلمّا بولِغَ في الأمرِ بالسُّجودِ، بولِغَ في بيانِ الامتثالِ[6].

نكتةُ حذفِ مُتعلّقِ ﴿فَسَجَدَ﴾:

السُّجودُ لآدمَ ظاهرٌ مِنَ السّياقِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فسجدَ الملائكةُ لهُ)، أي: للبشرِ المخلوقِ مِنْ طينٍ، أو(لآدمَ)؛ لكنْ حُذِفَ الجارُّ والمجرورُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ إيجازًا، لظهورِهما مِنَ السّياقِ؛ إذ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 320.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 105.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 210.
(6) الكرماني، البرهان، ص: 155.

يدلُّ عليهما قولُهُ تعالى فيما سبقَ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، وقولُهُ فيما يأتي: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، وفي حذفِ المتعلّق أيضًا بيانُ أنَّ الغرضَ امتثالُ أمرِ اللّه بالسُّجود، لا النَّظرُ إلى من أُمروا بالسُّجودِ له.

بلاغةُ الاستثناءِ بـ﴿إِلَّآ﴾:

خالفَ إبليسُ الملائكةَ باستكباره عن السُّجود

يحتملُ الاستثناءُ بـ﴿إِلَّآ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ أنْ يكونَ منقطعًا؛ لأنَّ إبليسَ ليسَ مِنَ الملائكةِ، والمعنى: (ولكنْ إبليسُ استكبرَ)، ويحتملُ أنْ يكونَ متَّصلًا؛ بناءً على دخولِ إبليسَ في الملائكةِ باعتبارِ التَّغليبِ، فتكون جملةُ ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ استئنافًا مُبيِّنًا لسببِ تركِ السُّجودِ المفهوم مِنَ الاستثناءِ، فإنَّ تركَهُ يحتملُ أنْ يكونَ للتَّأمُّلِ والتَّروّي، وبهذا الاستئنافِ يتحقَّقُ أنَّهُ للاستكبارِ، وفائدةُ الاستثناءِ: زيادةُ إيضاحِ العمومِ في لفظِ الملائكةِ[1]، وسواءٌ كان الاستثناء متَّصلًا أم منقطعًا، فإنَّ فيه زيادةَ تقبيحٍ لحالِ إبليسَ، بخروجِهِ عن الامتثالِ الَّذي هو شأنُ الأصفياءِ مِنْ عبادِ اللّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿إِبۡلِيسَ﴾:

إبليسُ محرومٌ مِنْ كلِّ خيرٍ

عُبِّرَ بـ﴿إِبۡلِيسَ﴾ دونَ الشَّيطانِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ لاشتقاقه مِنَ الإبلاسِ، وهو انقطاعُ الرَّجاءِ، والبُعدُ مِنَ الخيرِ، واليأسُ مِنَ الرَّحمةِ، ففيهِ إشارةٌ إلى أنَّهُ في أوَّلِ خطابِ اللّهِ لهُ بالإنكارِ عليهِ على كيفيَّةٍ عُلِمَ منها تأبُّدُ الغضبِ عليهِ، وتحتُّمُ العقوبةِ لهُ[2].

ومن لَطائفِ استعمالِ اللَّفظَين في القرآن أنَّه جاء التَّعبيرُ بإبليس حين كان شرُّ عِصيانِه قاصرًا على نفسه، فلمّا تعدّى أذاه إلى غيرِه؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.

جاء التَّعبيرُ بالشَّيطان، كما في قصَّة خلْقِ آدمَ ﷺ، تكرَّر استعمالُ لفظِ إبليس عند كلِّ أمرٍ بالسُّجود، فلمّا تعدّى أذاه إلى آدمَ وحوّاء؛ قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الأعراف: 20]، وقال: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [البقرة: 36].

نكتةُ صيغةِ الماضي:

إبليسُ مُستحِقٌّ للذَّمِّ والوعيدِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الاستكبارَ قد تحقَّق مِنْ إبليسَ، وظهرَ ظهورًا جليًّا، ومنعَهُ مِنَ السُّجود، ولبيان أنَّه مركوزٌ في جِبِلَّته؛ لذلكَ استحقَّ الذَّمَّ والتَّوبيخَ والوعيدَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالاستكبارِ:

إبليسُ يرَى نفسَهُ أكبرَ مِنْ أمرِ اللهِ

عُبِّرَ بصيغةِ (استفعلَ) في قولِ اللّهِ جل جلاله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في كِبْرِه؛ لأنَّ الاستكبارَ أشدُّ مِنَ الكِبْرِ، أي: (تعظَّمَ عن السُّجودِ[1]، وطلبَ أنْ يكونَ أكبرَ مِنْ أنْ يُؤمَرَ بالسُّجودِ لهُ، وأوجدَ الكِبْرَ على أمرِ اللّهِ)[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(كانَ):

عَراقةُ إبليسَ في الكُفرِ

جيءَ بفعلِ الكونِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على رسوخِ إبليسَ في الكفرِ، وأنَّهُ قد جُبِلَ عليهِ، ولم يَحدُثْ منهُ عندَ الامتناعِ عن السُّجودِ إلّا ظهورُ ذلكَ للخلقِ، والمعنى: (وكانَ الكفرُ فيهِ جِبِلَّةً وطبعًا)[3].

ويحتملُ أنْ يرادَ وجودُ كفرِهِ عندَ الامتناعِ عن السُّجودِ، وأنَّهُ لم يكنْ كافرًا قبلَ ذلكَ[4]، فتكونُ (كانَ) هنا بمعنى (صارَ) الدّالِّ على الانتقالِ مِنْ حالةٍ إلى حالةٍ أخرى، والمعنى: (وصارَ مِنَ الكافرينَ)[5].

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 164.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 105، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 514.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 34، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 452.

بلاغةُ العطفِ بالواوِ:

إنْ كانَ المرادُ بقولِ اللّه تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ الكفرَ منهُ جِبلَّةٌ، وأنَّهُ سابقٌ على تركِ السُّجودِ، فالعطفُ بالواوِ على بابِهِ، والمرادُ بيانُ ظهورِ الكفرِ الَّذي كانَ خافيًا قبلَ ذلكَ(1).

فِطْنةُ السّامعِ تـــدركُ تسبُّبَ الكفرِ عن تركِ السُّجودِ

وإن كان المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّه صارَ منهُم باستكبارِهِ وتعاظُمِهِ على أمرِ اللّهِ تعالى، ففي العطفِ بالواوِ دونَ الفاءِ المُؤذِنةِ بالسَّببيَّةِ تنبيهٌ على ظهورِ المرادِ مِنَ السّياقِ، وإحالةٌ على فِطْنةِ السّامعِ الَّتي تُدرِكُ أنَّ ترْكَ السُّجودِ هو سببُ الكفرِ(2).

معنى ﴿مِنَ﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فتفيدُ أنَّ إبليسَ بعضُ الكافرينَ، وهو مندرجٌ في جملتِهم، بل هو رأسُهم الدّاعي لهُم إلى ما فيهِ هلاكُهم.

سرُّ العدولِ إلى شِبهِ الجُملة:

الـــدَّلالـــة على تمكُّن إبليسَ في الكفرِ وعَراقته فيه

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (وكانَ كافرًا)، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّهُ أبلغُ؛ إذْ معناهُ: (وكانَ مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها وصفُ الكفرِ)، وإذا كانَ مِنَ الفئةِ الكافرةِ؛ فهو كافرٌ أيضًا بطريقِ الكنايةِ، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

بلاغةُ الاحتباكِ:

الكِبْرُ بريدُ الكفرِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فنٌّ بديعٌ مِنْ فنونِ إيجازِ الحذفِ، وهو الاحتباكُ، وذلكَ أنَّ ذِكرَ فعلِ الاستكبارِ أوَّلًا دليلٌ على فعلِ الكفرِ ثانيًا، ووصْفَ الكفرِ ثانيًا دليلٌ على وصْفِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 215.

الاستكبارِ أوَّلًا. وسرُّ ذلكَ أنَّ ما ذُكِرَ أقعدُ في التَّحذيرِ بأنَّ مَنْ وقعَ منهُ كِبْرٌ جرَّهُ إلى الكفرِ[1].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

استكبرَ الكُفّار عن التّصديق، كما استكبر إبليسُ عن السّجود

تشابهَتْ هاتانَ الآيتانِ معَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [البقرة: 34]، ومعَ قولِهِ تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝١١﴾ [الأعراف: 11]، وقولِهِ: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30 - 31]، والاستثناءُ في جميعِ هذهِ الآياتِ يدلُّ على أنَّ إبليسَ لم يسجدْ لآدمَ، فتارةً أُكِّدَ بالنَّفيِ المحضِ، وتارةً ذُكِرَ إباؤُهُ عن السُّجودِ، وتارةً نُصَّ على أنَّ ذلكَ الامتناعَ كانَ سببُهُ الاستكبارَ[2]، وذُكِرَ هنا الاستكبارُ فقطْ دونَ الإباءِ؛ لأنَّ مبنَى السّورةِ على استكبارِ الكفرةِ بكونِهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ، فبُيِّنَ أنَّ المانعَ لهُ عن السُّجودِ هو الكِبْرُ[3]، واقتُصِرَ على الوصفِ المناسبِ لمبنَى السّورةِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 420.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾ [ص: 75 - 76]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهما:

ذِكرُ سببِ الامتناعِ عن السُّجودِ بعدَ ذِكرِ هذا الامتناعِ

لمَّا أخبرَ تعالى بامتناعِ إبليسَ عن السُّجودِ لآدمَ عليه السلام؛ أتبعَهُ السُّؤالَ عن سببِ الامتناعِ، ثمَّ أخبر بجوابِ إبليسَ له[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعَالِينَ﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[2]، فالعُلُوُّ: ضدُّ السُّفلِ، ويقالُ: علا يَعْلو عُلوًّا، فهو عالٍ، وعَليَ يَعْلَى عَلاءً، فهو عَليٌّ[3]، والمرادُ بالعالينَ هنا: المترفِّعونَ عن طاعةِ اللَّهِ تعالى[4]، أو أصحابُ الشَّرفِ والمكانةِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

توبيخُ إبليسَ على تركِ السُّجودِ

في هذه الآيةِ سؤالُ اللَّهِ لإبليسَ عن سببِ امتناعِهِ عن السُّجودِ لآدمَ عليه السلام؛ إذ قال تعالى له: أيُّ شيءٍ منعَكَ يا إبليسُ مِنَ السُّجودِ للمخلوقِ الَّذي كرَّمتُهُ، وخلقتُهُ بنفسي؟ أتعظَّمتَ عن السُّجودِ لهُ، فأصابَكَ الكِبْرُ؟ أم كنتَ مِنْ قبلُ ذا عُلوٍّ وتكبُّرٍ على أمرِ ربِّكَ وخَلْقِهِ؟.

ثمَّ أخبرَ تعالى عن جوابِ إبليسَ، وهو أنَّهُ قالَ مدفوعًا بطبعه الناريِّ، التي طبيعتُها الاندفاعُ والإضرارُ: لم أسجدْ لهُ؛ لأنّي أفضلُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 510.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (علو).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 137.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

منهُ، فأنا مخلوقٌ مِنَ النّارِ، وهو مخلوقٌ مِنَ الطّينِ، والنّارُ أعلى شأنًا مِنَ الطّينِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ:

الفصلُ جارٍ على أسلوبِ المحاوراتِ

فُصِلَ قولُ اللّٰه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ، وذلكَ أنَّهُ لمّا امتنعَ إبليسُ عن السُّجودِ؛ كأنَّ سائلًا سألَ، فقالَ: فماذا قالَ الرَّبُّ تعالى عندَ إبائِهِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾[1]، وهذهِ الطَّريقةُ مِنَ الفصلِ جاريةٌ في المقاوَلاتِ والمحاوَراتِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي من فعلِ القول في كلامِ اللّٰه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ قد تحقَّقَ، ومضَى، كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ الماضيةِ.

بلاغةُ النِّداءِ:

السُّؤالُ عن سببِ تركِ السُّجودِ خطيرُ الشَّأنِ

افتُتِحَ قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ بالنِّداءِ؛ لتنبيهِ إبليسَ وتهْيِئَتِهِ لتلقّي ما بعدَ النِّداءِ مِنَ الكلامِ بنفْسٍ يقظَى وأُذُنٍ واعيةٍ، فالكلامُ كلامٌ خطيرُ الشّانِ، والمقامُ مقامُ توبيخٍ، وهذا يستدعي انتباهَ المُخاطَبِ.

نكتةُ النِّداءِ بـ (يا):

إبليسُ في محلِّ البُعدِ والذَّمِّ

عُبِّرَ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا) في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ لِما تشيرُ إليهِ الأداةُ مِنْ بُعدِ المُنادَى عن ساحة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 290.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 302.

القُرْبِ والتَّكريمِ[1]، فإبليسُ في أقصَى غاياتِ البُعدِ لمخالفتِهِ ما أمرَهُ اللّهُ تعالى بهِ، ولذلكَ استحقَّ الذَّمَّ والتَّوبيخَ والإنكارَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بإبْليس:

إبليسُ يائسٌ مِنَ الخيرِ، بعيدٌ عنِ الرَّحمةِ

عُبِّرَ بإبليسَ دونَ الشَّيطانِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ لاشتقاقِ هذا الاسمِ مِنَ الإبلاسِ، وهو البُعدُ مِنَ الخيرِ، واليأسُ مِنَ الرَّحمةِ[2]، ففيهِ تنبيهٌ وتمهيدٌ لِطَرْدِ إبليسَ مِنْ رحمةِ اللّهِ، وهو يُقوّي التَّوبيخَ والدَّلالةَ على البُعدِ المستفادِ مِنْ أداةِ نداءِ البعيدِ، ومِن لطائفِ اختيارِ لفظِ إبليس دونَ الشَّيطانِ أنَّ الشَّيطانَ يُستعمل في القرآنِ عند تَعَدّي الأذى إلى الآخرين، أمّا (إبليس)؛ فيُستَعمل عندما يكون أذاه مقصورًا على نفسه، وهذا واضحٌ في سياق قصَّة امتناعه عن السُّجود في كلِّ مواطنِها من القرآن الكريم؛ إذْ لم يُعبَّرْ إلّا بلفظ إبليس؛ لأنَّ العقابَ وقع عليه، وهو الطَّرد من رحمة اللّه.

بلاغةُ العدولِ إلى الإظهارِ:

استحقاقُ إبليسَ اللَّعنةَ لامتناعه عن السُّجود

جاء التَّعبير القرآنيُّ بذكر إبليسَ مُظهَرًا، وإن كان الظاهرُ أن يُعَبَّر به مُضمَرًا لسَبْق ذكرِه في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾؛ ولكنَّه أعاد ذكرَه تحقيرًا وتهوينًا من شأنه، ولإقامة الحجَّة عليه بامتناعه هو عن السُّجود، فهو المخصوص بذلك دون غيره.

بلاغةُ الاستفهامِ:

ظهورُ قُبْحِ سريرةِ إبليسَ للملائكةِ

الاستفهامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ مجازٌ، وليسَ على الحقيقة؛ لأنَّ اللّهَ تعالى يعلمُ أنَّ الكِبْرَ هو الَّذي منعَ إبليسَ مِنَ السُّجودِ، بل الغرضُ منهُ هو توبيخُ إبليسَ على تركِهِ السُّجودَ، وإنكارُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 421.

هذا الفعلِ عليهِ[1]، وقطعُ معذرتِه[2]، وإظهارُ مقصدِهِ للملائكةِ[3]؛ ليعلَموا ما انطوَتْ عليهِ نفسُهُ مِنَ التَّعالي والكِبْرِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمنعِ:

الاستكبارُ لا يأتي بخيرٍ

عُبِّرَ بالمنعِ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾؛ للمبالغةِ في الإنكارِ على إبليسَ، بسؤالِهِ عنِ السَّببِ الَّذي صرفَهُ وصدَّهُ عنِ السُّجودِ، حتَّى كأنَّهُ قد حجزَ بينَهما، وفي ذلكَ مِنَ التَّنبيهِ على قُبْحِ الاستكبارِ ما لا يخفى. ويتناسب استعمال مادّة المنع مع طبيعة إبليس وحقده؛ فالمنع في اللغة عدمُ الإعطاء، وإبليسُ قدِ امتنع عن السّجود بسبب ما في باطنه منَ الحرص على منع الخير عن آدمَ عليه السلام وذرّيَّته.

نكتةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ لأنَّ المانعَ مُتقدِّمٌ على زمنِ توجيهِ هذا السُّؤالِ؛ وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا إشارةٌ إلى عَراقةِ هذا المانعِ - وهو الاستكبارُ - في نفسِ إبليسَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّلِ:

الإنكارُ لتركِ نفسِ السُّجودِ

عُبِّرَ بالمصدرِ المؤوَّلِ بالسُّجود في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الإنكارَ مُتوجِّهٌ إلى نفسِ عدمِ السُّجودِ؛ ولو عُبِّرَ بالمصدرِ الصَّريحِ (ما مَنَعَك السُّجودَ) لربَّما ظُنَّ أنَّ الإنكارَ لحالٍ مِنْ أحوالِ السُّجودِ لا لذاتِهِ، بأنْ يكونَ إبليسُ قد سجدَ، وأخلَّ بشيءٍ مِنْ أحوالِ السُّجودِ. فالمصدرُ المؤوَّلُ أبلغُ في الإنكارِ لإفادتِهِ أنَّ أصلَ السُّجودِ لم يقَع، ولدلالته على أنَّ سجود إبليس لم يقع في الحال ولا في الاستقبال؛ وفي هذا إشارة إلى استمرارِ إبليسَ في عدمِ امتثالِ أمرِ اللّهِ تعالى.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 513، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 215.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 39.

دلالة التَّعبير بالمضارع:

عُبِّرَ بالمضارع ﴿تَسْجُدَ﴾ في قول الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾ لتصوير حالة الاعتراض وترك السُّجود من إبليس، وهو قادر عليه؛ وفي هذا مزيدُ توبيخٍ وتقريعٍ لإبليس.

دلالة اللّامِ:

لامُ الجرِّ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ للتَّعليلِ؛ أي: (ما منعَكَ أنْ تسجدَ لأجلِ ما خلقتُهُ بيديَّ؛ وفي التَّعبيرِ بها إظهارُ مزيدِ عنايتِهِ تعالى بالسُّجودِ لذاتِ آدمَ عليه السلام.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

أمرُ اللهِ نافذٌ وإنْ لم تُدرَكْ حكمتُهُ

عُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ دونَ (مَنْ) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ﴾ لأنَّ (ما) يجوزُ إطلاقُها على آحادِ مَنْ يعقلُ؛ أو لأنَّها مصدريَّةٌ، والمصدرُ هنا غيرُ مرادٍ، فيكونُ واقعًا موقعَ المفعولِ بهِ، أي: (لمخلوقي)[1]؛ أو لأنَّ آدمَ كانَ فخّارًا غيرَ جسمٍ حسّاسٍ، فأُشيرَ إليهِ في تلكَ الحالِ بـ﴿مَا﴾[2]؛ أو لأنَّ المرادَ التَّنبيهُ على ما يوجبُ طاعةَ اللهِ، ولو أمرَ بتعظيمِ ما لا يعقلُ، فكيفَ وقد أمرَ بتعظيمِ ما هو عندَ السُّجودِ لهُ عاقلٌ كاملُ العقلِ[3]؟

بلاغةُ التَّعبيرِ بالخلقِ:

عُبِّرَ بالخلقِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ لدلالتِهِ على أنَّ خلْقَ آدمَ ليسَ على مثالٍ سابقٍ؛ وفي ذلكَ مزيدُ تعظيمٍ لهُ، ومزيدُ توبيخٍ لتاركِ السُّجودِ لهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري جلَّ شأنُهُ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174.

(2) السمين، الدر المصون: 9/ 398.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

﴿بِيَدَيَّۖ﴾ لأنَّ خلْقَ آدمَ قد تمَّ قبلَ هذا الخطابِ، وقبلَ ترْكِ إبليسَ السُّجودَ لهُ.

آدمُ عليه السلام محلُّ تشريفِ اللهِ وتعظيمِه

سرُّ إضافةِ اللهِ الخلقَ إلى نفسِه:

أضافَ سبحانه وتعالى الخلقَ إلى نفسِه في قولِه تعالى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ﴾: تكريمًا لآدمَ عليه السلام، ببيانِ أنَّهُ هو سبحانَهُ الَّذي تولَّى خلقَهُ على هذهِ الصّورةِ الكاملةِ. فخاطبَ النّاسَ بما يعرفونَهُ في تعاملِهم، مِنْ أنَّ الرَّئيسَ مِنَ المخلوقينَ لا يباشرُ شيئًا بيدِهِ إلّا على سبيلِ الإعظامِ والتَّكريمِ[1].

إبرازُ كمالِ الاعتناءِ بخلقِ آدمَ عليه السلام

نكتةُ ذكرِ اليدينِ وتثنيتِهما:

ذِكرُ اليدينِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ﴾ لتأكيدِ إسنادِ الخلقِ إليهِ سبحانه وتعالى[2]؛ وفي ذلكَ مزيدُ تأكيدٍ لتكريمِ آدمَ عليه السلام وتشريفِه، إذ خُلِقَ مِنْ غيرِ توسُّطِ أبٍ وأمٍّ. وتثنيةُ اليدينِ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بخلقِهِ عليه الصلاة والسلام المستدعي لإجلالِهِ وإعظامِه، قصدًا إلى تأكيدِ الإنكارِ وتشديدِ التَّوبيخِ[3]؛ كأنَّه قيل: (ما منعك أن تُعَظِّمَ بالسُّجود مَن هو أهلٌ للتَّعظيم، للعناية الرَّبّانيَّة الَّتي حفَّت إيجاده؟!)[4].

تقريرُ المُذنِبِ بالذَّنبِ توبيخٌ لهُ عليه

غرضُ الاستفهامِ:

الاستفهامُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ ليسَ على حقيقتِه، لأنَّ اللّهَ تعالى عالمٌ بحقيقةِ الأمرِ؛ بل هو للتَّقريرِ[5]، أي لِحَملِ إبليسَ على الإقرارِ بأنَّ المانعَ لهُ مِنَ السُّجودِ هو الاستكبارُ أو العلوُّ. وفيهِ أيضًا توبيخٌ لهُ وتقريعٌ[6].

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 228.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 106.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 236.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 23/ 226.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 515، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

سرُّ التَّعبيرِ بالاستكبارِ:

الاستكبار أشدُّ من الكِبر

عُبِّرَ بالاستكبارِ دونَ التَّكبُّرِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ لما تدلُّ عليهِ صيغةُ الاستفعالِ منَ الطَّلبِ الَّذي يفيدُ المبالغةَ في الكِبْرِ، لأنَّ الاستكبارَ أشدُّ منَ الكِبرِ؛ أي: (أطَلبتَ أنْ تكونَ أعلى منهُ، وأنتَ تعلمُ أنَّكَ دونَهُ؟ فأنتَ بذلكَ ظالمٌ)[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

رســـوخُ صفة الـكِـبر في طبع إبليسَ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ لأنَّ الاستكبارَ المُقرَّرَ بهِ قد مضَى، وتحقَّقَ قبلَ زمنِ توجيهِ هذا الخطابِ. وفي هذهِ الصّيغةِ أيضًا إشارةٌ إلى تلبُّسِ إبليسَ بالاستكبارِ وإحداثِهِ لهُ؛ وذلكَ أدعَى للإنكارِ والتَّوبيخِ وإقامةِ الحجَّةِ، وإظهارِ استحقاقِهِ ذلكَ.

معنى ﴿أَمۡ﴾:

﴿أَمۡ﴾ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ متَّصلةٌ، وهي معادلةٌ لهمزةِ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾[2]؛ والمعنى: (أيُّ الأمرينِ حملكَ على عدمِ السُّجودِ؟ أهوَ ادِّعاؤكَ العظمةَ؟ أم أنتَ عظيمٌ حقًّا؟)[3].

نكتةُ فعلِ الكونِ الماضي:

عَراقةُ إبليسَ في طلب الاستعلاء

جيءَ بفعلِ الكونِ الماضي في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ للدَّلالةِ على رسوخِ إبليسَ في طلبِ الاستعلاءِ، وأنَّهُ قد جُبِلَ عليهِ، حتَّى صارَ بمنزلةِ صفةٍ مِنْ صفاتِهِ الجِبِلّيَّةِ الَّتي لا تفارقُهُ[4]؛ والمعنى: (أم كنتَ أبدًا منَ العالينَ الرّاسخينَ في العُلوِّ؟!)[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 455.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 423.

(3) التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 406.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 413.

دلالة ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ للتَّبعيضِ؛ فتفيدُ أنَّ إبليسَ بعضُ العالينَ، وهو مندرِجٌ في زُمرتِهم، بل هو رأسُهم الَّذي علَّمَهم الكِبْرَ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجارِّ والمجرور:

التّعبيرُ كنايةٌ عن الوصفِ بالعُلوّ

كان مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقالَ: (أم كنتَ عاليًا)، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ لأنَّهُ أبلغُ، إذ معناهُ: (أم كنتَ مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو العُلوُّ؟)؛ وإذا كانَ مِنَ الفئةِ العاليةِ، فهو عالٍ أيضًا بطريقِ الكنايةِ الَّتي هي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ. يُضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالعُلوِّ:

إبليسُ مُنغمِسٌ في تكبُّرِهِ

عُبِّرَ بالعُلوِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ لتوسيعِ دائرةِ الذَّمِّ لإبليسَ، بتقريرِهِ برؤيةِ نفسِهِ مِنَ الكُبَراءِ المُستحِقّينَ للكِبْرِ[1]، أو مِنْ أصحابِ الشَّرفِ والمكانةِ؛ أي: (أم كنتَ مِنَ العالينَ على آدمَ، فترَى أنَّهُ لا يستحقُّ أنْ تُعظِّمَهُ؟)[2]. وفي هذا كشْفٌ لطبيعةِ إبليس الحاقدة على آدم وإخراج كوامنها.

بلاغةُ الاحتباكِ:

الاستكبارُ يدلُّ على العُلوِّ، وبالعكسِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ احتباكٌ، دلَّ فعلُ الاستكبارِ أوَّلًا على فعلِ العُلوِّ ثانيًا، ودلَّ وصفُ العُلوِّ ثانيًا على وصفِ الاستكبارِ أوَّلًا. وسرُّ ذلكَ أنَّ إنكارَ الفعلِ المُطلَقِ مُستلزِمٌ لإنكارِ المُقيَّدِ لأنَّهُ المطلَقُ بزيادةٍ، وإنكارَ الوصفِ مُستلزِمٌ لإنكارِ الفعلِ لأنَّهُ جزؤُهُ، معَ أنَّ إنكارَ الفعلِ مِنْ هذا مُستلزِمٌ لإنكارِ الفعلِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 422.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

مِنْ ذاكَ؛ فيكونُ كلٌّ مِنَ الفعلينِ مدلولًا على إنكارِهِ مرَّتينِ: تارةً بإنكارِ فعلِ عديلِهِ، وأخرى بإنكارِ وصفِهِ نفسه، والوصفانِ كذلكَ[1].

علَّةُ الفصلِ:

الاستئنافُ بذكرِ جوابِ إبليسَ عن السُّؤالِ

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا سبقَ، كأنَّهُ قيلَ: (بمَ أجابَ إبليسُ اللَّعينُ؟)، فقيلَ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ الآيةَ[2]. والفصلُ هو ما جرَتْ بهِ العادةُ في طريقةِ المحاوَراتِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الجوابَ قد تحقَّقَ، ومضَى، كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ الماضيةِ.

سرُّ عدمِ ذكرِ الرُّبوبيَّةِ:

شكُّ إبليسَ في حكمةِ اللهِ وعدلِهِ

الظّاهرُ أنْ يقولَ إبليسُ: (ربِّ أنا خيرٌ منهُ)، لكنَّهُ عدلَ عن ذكرِ الرُّبوبيَّةِ في قولِهِ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنَّ الكِبْرَ قد أخذَ بلِجامِ نفسِهِ، حتَّى شكَّ في حكمةِ اللّهِ تعالى وعدلِهِ، إذ أمرَهُ وأمرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لمخلوقٍ يرَى هو أنَّهُ دونَهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

إبليسُ مُتيقِّنٌ مِنْ خيريَّتِهِ

لمّا وقَرَ في نفسِ إبليسَ أنَّهُ أفضلُ مِنْ آدمَ عليه السلام، وأعلى منهُ مرتبةً: عبَّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ للدَّلالةِ على قطعِهِ بخيريَّتِهِ، وأنَّها لا تحتملُ الشَّكَّ عندَهُ، كما هو شأنُ المستكبرينَ بغيرِ الحقِّ، وللدّلالة على أنَّ هذه الخيريَّة في زعمِ إبليس دائمةٌ وثابتةٌ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 423.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 511.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

غرضُ تقديمِ ﴿أَنَا۠﴾:

قُدِّمَ ﴿أَنَا۠﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنَّهُ المُسنَدُ إليهِ، وتقديمُهُ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ؛ ولأنَّ مقامَ الاستكبارِ والتَّعالي يستدعي أنْ يبدأ إبليسُ بنفسِهِ، لأنَّهُ يراها أحقَّ بالتَّقديمِ حالًا ومقالًا. ففي التقديمِ إشارةٌ إلى أنانيَّةِ إبليسَ، وحبِّهِ لذاتِه، واستصغارِ ما عداه.

إبليسُ يرَى نفسَهُ أحقَّ بالتَّقديمِ

سرُّ التَّعبيرِ بالخيريَّةِ:

عُبِّرَ بالخيريَّةِ دونَ الأفضليَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ لأنَّها هي الشّائعةُ في التَّفضيلِ بينَ الأشياءِ، ولِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ مِنْ توسيعِ دائرةِ الأفضليَّةِ المزعومة، إذ الخيرُ في الأصلِ جامعٌ لكلِّ الخصالِ الَّتي يُستحقُّ بها الشَّرفُ والتَّقديمُ؛ وفي ذلكَ مِنَ الإنباءِ عن فَرْطِ الكِبْرِ ما لا يخفَى.

كِبْرُ إبليسَ جاوزَ الحدَّ

معنى (مِنْ):

(مِنْ) في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ للابتداءِ، فتفيدُ ابتداءَ الارتفاعِ في الخيريَّةِ؛ أو للمجاوزةِ، كأنَّهُ قالَ: (جاوزتُهُ في الخيريَّةِ)[1].

علَّةُ الفصلِ:

فُصِلَ قولُ اللّه تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ عمّا قبلَهُ، ولمْ يُعطَفْ عليهِ: لِما بينَهما مِنْ كمالِ الاتِّصالِ، لأنَّ هذهِ الجملةَ مِنَ الجملةِ السّابقةِ بمنزلةِ عطفِ البيانِ مِنَ المُبيَّنِ في البيانِ والإيضاحِ[2]، إذ فيها بيانُ سببِ ما ادَّعاهُ مِنْ كونِهِ خيرًا مِنْ آدمَ عليه السلام.

بيانُ سببِ الخيريَّةِ المزعومةِ

بلاغةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في الفعلَينِ من قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ حكايةً

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 333.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

عن إبليسَ ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: لأنَّ خلْقَ كلٍّ منهما قد مضَى، وتحقَّقَ قبلَ زمنِ هذهِ المحاوَرةِ.

دلالة ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ حكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ للابتداءِ[1]، أي: خلقتَني ابتداءً مِن نارٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَّارٍ﴾:

تعظيمُ إبليسَ شأنَ أصلِ خِلْقتِهِ

الظّاهرُ أنَّ تنكيرَ ﴿نَّارٍ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ حكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ للتَّعظيم، بدلالةِ مقامِ استكبارِ إبليسَ واعتدادِهِ بأصلِ نشأتِهِ؛ أي: (خلقتَني مِنْ نارٍ عظيمةِ الشَّأنِ، فهي في غايةِ القوَّةِ والإشراقِ)[2].

غرضُ تقديمِ خَلقِ إبليسَ:

زعْمُ إبليسَ أنَّه أحقُّ بالتَّقديمِ حالًا ومقالًا

قَدَّمَ إبليسُ ذِكرَ خَلْقِهِ على ذِكرِ خَلْقِ آدمَ عليه السلام في قولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: اعتناءً بذكرِ خَلْقِهِ الَّذي يزعمُ أنَّهُ أفضلُ، وأنَّهُ أحقُّ بالتَّقديمِ حالًا ومقالًا. يضافُ إلى ذلكَ ما في تأخيرِ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

دلالةُ عطفِ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ﴾:

تهوينُ إبليسَ مِن شأنِ آدمَ بعدَ اعتزازهِ بنفسهِ

قولُ اللّه تعالى حكايةً عن إبليسَ ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، ونكتةُ هذا العطفِ: أنَّ إبليسَ بعدَ أنْ ذكرَ خَلْقَهُ مِنَ النّارِ على سبيلِ الاعتدادِ بهِ ذكرَ خلْقَ آدمَ مِنْ طينٍ على سبيلِ التَّهوينِ مِن شأنهِ، والحطِّ مِنْ منزلتِهِ، ليسلمَ لهُ ما ادَّعاهُ مِنَ الخيريَّةِ.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ حكايةً عن إبليس: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ للابتداءِ؛ أي: (وخلقتَهُ ابتداءً مِنَ الطّينِ).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 303.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.

نكتةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

استهانةُ إبليسَ بأصلِ نشأةِ آدمَ

تنكيرُ ﴿طِينٍ﴾ في قولِ اللّهِ عزَّ شأنُهُ حكايةً عن إبليس: ﴿وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ للتَّحقيرِ، بدليلِ مقامِ استكبارِ إبليسَ، وادِّعائِهِ أنَّهُ خيرٌ مِنْ آدمَ، وأنَّ أصلَ نشأتِهِ أعظمُ؛ والمعنى: (وخلقتَهُ مِنْ طينٍ حقيرِ الشَّأنِ؛ إذ هو في غايةِ الكُدورةِ والضَّعفِ)[1].

سرُّ العدولِ عن الجُمَلِ الاسميّة:

فَـرْطُ خصومةِ إبليسَ ولَجاجِهِ

عبَّرَ إبليسُ بقولِهِ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، ولم يقلْ: (أنا مِنْ نارٍ، وهو مِنْ طينٍ)، معَ أنَّهُ أوجزُ: للدَّلالةِ على أنَّ المماثلةَ بينَهُ وبينَ آدمَ في المخلوقيَّةِ مانعةٌ مِنَ السُّجودِ، فكيفَ إذا انضمَّ إليها خيريَّةُ المادَّةِ؟[2]؛ وفي ذلكَ تنبيهٌ على فَرْطِ خصومتِهِ ولَجاجِهِ.

بلاغةُ الطِّباقِ بين النّارِ والطّين:

بيانُ مبنى قياسِ إبليسَ الباطلِ

جاء الأسلوبُ القرآنيُّ بالطِّباق بين النّار والطّين في قول اللّه تعالى حكايةً عن إبليس ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾: لبيان شدَّة استكبار إبليس وعناده واستعلائه قياسًا على عنصر المادَّة، دون النَّظر إلى خالق المادَّة، وهو اللّه ﷻ؛ وفي ذلك إبرازٌ لصورة الاستكبار والعناد من إبليسَ لعَنَه اللّه.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

اختيارُ الألفاظ المختلفةِ للقصّة الواحدة بما يوافق سياقَ السّورة

تشابهَتْ هاتانِ الآيتانِ معَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12]، وقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: 32 - 33]، ووقعَ في ألفاظِ السُّؤالِ والجوابِ بعضُ الاختلافِ؛ وقد يقالُ: إذا كانَ هذا في قِصَّةٍ واحدةٍ، ووقعَ في كلامِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 217.

اللّٰهِ تعالى حكايةُ ما قالَ إبليسُ، وما قيلَ لهُ عندَ عصيانِهِ، فلماذا اختلف الأسلوب مع أنَّ المقصود واحد؟

والجوابُ: أنَّ اقتصاصَ ما مضَى إذا لم يُقصَدْ بهِ أداءُ الألفاظِ بأعيانِها، بل قُصِدَ ذكرُ المعنى، فإنَّ الألفاظَ إذا اختلفَتْ، وأدَّتِ المعنى المقصودَ: كانَ اختلافُها واتِّفاقُها سواءً؛ فقولُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: 12]، وقولُهُ: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الحجر: 32]، وقولُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ﴾، أقوالٌ ثلاثةٌ، في بعضِ ألفاظِها اختلافٌ، وفي المعنى اتِّفاقٌ. وأمّا قولُهُ هنا: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؛ ففيهِ زيادةُ إخبارٍ عن حالٍ لم تكنْ في الآيتينِ السّابقتينِ، ولا ضيرَ في ذلكَ، إذ لم يقلْ عندَهما: إنَّهُ لم يكنْ هناكَ خطابٌ إلّا ما حُكِيَ فيهما[1].

ويجابُ أيضًا عن زيادةِ (لا) في آية الأعراف: بأنَّها صِلَةٌ؛ أو بأنَّ الممنوعَ مِنَ الشَّيءِ مضطرٌّ إلى ما مُنِعَ؛ أو بأنَّ المعنى: (ما الَّذي جعلَكَ في مَنَعَةٍ مِنْ عذابي؟) أو: (مَنْ قالَ لكَ ألّا تسجدَ؟)؛ أو أنَّهُ لمّا حُذِفَ مِنَ الأعرافِ (يا إبْليسُ) واقتُصِرَ على الخطابِ جُمِعَ بينَ لفظِ المنعِ ولفظِ (لا) زيادةً في النَّفي، وإعلامًا بأنَّ المُخاطَبَ بهِ إبليسُ، بخلافِ السّورتينِ فإنَّهُ صُرِّحَ فيهما باسمِهِ.

ومِنْ وجوهِ الاختلافِ أيضًا: أنَّهُ لم يُذكَرِ النِّداءُ لإبليسَ في سورةِ الأعرافِ لأنَّ خطابَهُ قَرُبَ مِنْ ذكرِهِ في هذهِ السّورةِ، وهو قولُهُ: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ﴾ [الأعراف: 11 - 12]، فحَسُنَ حذفُ حرفِ النِّداءِ والمُنادَى؛ ولم يَقْرُبْ في سورتَيْ ص والحِجر، لأنَّ في ص: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بزيادةِ ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، فزادَ حرفَ النِّداءِ والمُنادَى، وكذلكَ في الحِجر، فإنَّ فيها: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: 31] بزيادةِ جملةِ ﴿أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: 31]، فزادَ حرفَ النِّداءِ والمُنادَى[2].

وأمّا اختلافُ الألفاظِ الَّتي أجابَ بها إبليسُ فهو دالٌّ على أنَّه - لعنه اللّٰه - قد أدمج في معصيةٍ واحدة ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمر، ومفارقةَ الجماعة، والاستكبارَ مع تحقير آدمَ عليه السلام. وقد وبَّخه القرآن على كلِّ واحدة منها بما يناسب السّياق في كلِّ سورة، واكتفى بما ذكر في موطنٍ ما بأنَّه كافٍ في التَّوبيخ وإظهار بطلان ما ارتكبه[3].

(1) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 571.
(2) الكرماني، البرهان، ص: 116، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 39.
(3) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل: 2/ 571.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٧٨﴾ [ص: 77 - 78]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

ذِكْرُ عقوبة إبليسَ على معصيته، وبيان أنَّ طَرْدَهُ إلى يوم الدين

لمّا ذكرت الآية السّابقة جواب إبليسَ عن السُّؤال الذي وجّه إليه ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾، وكان جوابُه مبنيًّا على ادِّعاءِ أفضليَّةِ أصلِهِ على أصلِ آدمَ عليه السلام: أخبرَت هذه الآية عن ردِّ اللّٰهِ تعالى عليهِ، وعقوبته الموجّهة إليه.

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى فهي أنَّهُ سبحانَهُ لمّا أخبرَ عن طردِ إبليسَ، والطَّردُ قد يكونُ في وقتٍ يسيرٍ: بيَّنَ أنَّهُ إلى يومِ الدّينِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجِيمٞ﴾: (رجم) أصلٌ يرجعُ إلى الحجارةِ[2]؛ ومِنْ ذلكَ: الرِّجامُ، وهي الحجارةُ. والرَّجْمُ في الأصلِ: الرَّميُ بالرِّجامِ، أي: بالحجارةِ؛ ويُستعارُ للرَّمي بالظَّنِّ والتَّوهُّمِ والشَّتمِ والطَّردِ، قال تعالى: ﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾، وقال تعالى حكايةً عن أبي إبراهيم: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]. والشَّيطانُ الرَّجيمُ: المطرودُ عنِ الخيراتِ، وعن منازلِ الملإِ الملأ الأعلى[3]، قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النحل: 98]؛ وهو المرادُ هنا[4].

2) ﴿لَعۡنَتِيٓ﴾: (لعن) أصلٌ يدلُّ على إبعادٍ وطَرْدٍ[5] على سبيلِ السُّخْطِ، وذلكَ مِنَ اللّٰهِ تعالى في الآخرةِ عقوبةٌ، وفي الدُّنيا انقطاعٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رجم).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 137.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لعن).

مِنْ قبولِ رحمتِهِ وتوفيقِهِ، ومِنَ الإنسانِ دعاءٌ على غيرِهِ؛ والتَّلاعنُ والملاعنةُ: أنْ يلعنَ كلُّ واحدٍ منهما نفسَهُ أو صاحبَهُ[1]. والمرادُ باللَّعنةِ هنا: الإبعادُ مِنْ رحمةِ اللّهِ[2].

3) ﴿ٱلدِّينِ﴾: الدّالُ والياءُ والنّونُ أصلٌ يدلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ[3]؛ ومِنْ ذلكَ: الدّينُ، وهو كالملَّة، لكنَّه يقال اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشَّريعة. ويُطلَقُ الدّينُ على الجزاءِ أيضًا، وعلى الشَّريعةِ[4]. والمرادُ بيومِ الدّينِ: يومُ الجزاءِ[5]، وهو يومُ القيامةِ.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذكرُهُ لإبليسَ بعدَ أنْ أظهرَ حجَّتَهُ الواهيةَ لتركِهِ السُّجودَ: فاخرجْ مِنَ الجنَّةِ، أو مِنَ السَّماواتِ، فإنَّكَ مطرودٌ متبوعٌ باللَّعنةِ إلى يومِ القيامةِ الَّذي تنتقلُ فيهِ إلى عذابِ الآخرةِ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ:

الاستئنافُ بذكرِ عقوبةِ إبليسَ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتّصالِ، لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا سبقَ، كأنَّهُ قيلَ: (ماذا قالَ اللّهُ بعدَ سماعِ جوابِ إبليسَ وحُجَّتِهِ؟)، فقيلَ: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ الآيةَ[6]؛ والفصلُ عادةٌ جاريةٌ في المحاوَراتِ[7].

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (لعن).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 515، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 305.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زجر).
(4) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (دين).
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 39، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 96.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 511.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 305.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ﴾ في قولِ اللّٰهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القيلَ قد تحقَّقَ، ومضَى، كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ السّالفةِ.

دلالةُ فاءِ ﴿فَٱخْرُجْ﴾:

إخراجُ إبليسَ نتيجة مخالفتِهِ للأمرِ

الفاءُ في قولِ اللّٰهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ سببيَّةٌ؛ وهي تفيدُ ترتُّبَ الأمرِ بالخروجِ على ما ظهرَ مِنْ إبليسَ اللَّعينِ مِنَ المخالفةِ للأمرِ الجليلِ، والجوابِ الباطلِ[1] الَّذي دلَّ على خُبْثٍ في نفسِهِ، بدَتْ آثارُهُ في عملِهِ[2]؛ وهذا يدلُّ على عدم أهليَّته للبقاء في الجنَّة.

دلالةُ الأمرِ بالخروجِ:

الأمرُ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ للوجوبِ الكَونيّ، كما يقتضيه مقامُ الغضبِ والطَّردِ؛ وفيه دلالةٌ على تحقير إبليسَ وتوبيخه بقرينة سياق الآية.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيّ:

أُخرِجَ إبليسُ مِنَ السَّماءِ فأُهبِطَ إلى الأرض

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِ اللّٰهِ تعالى في الأعرافِ: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣﴾ [الأعراف: 13]، وقولِهِ تعالى في الحجرِ: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤﴾ [الحجر: 34]. وقد عُبِّرَ بالخروجِ هنا وفي الحِجرِ، وعُبِّرَ في الأعرافِ بالهبوطِ؛ ولا مخالفةَ في الحقيقةِ، لأنَّهُ إذا أمرَهُ بالخروجِ مِنَ الجنَّةِ أو مِنَ السَّماواتِ؛ فقد أمرَهُ بالهبوطِ إلى الأرضِ[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 237، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 217.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 305.
(3) الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل: 2/ 571.

دلالة (مِنْ):

(مِنْ) في قول اللّهِ ﷻ: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ لابتداءِ الغايةِ؛ فتفيدُ أنَّ مكانَ ابتداءِ خروجِ إبليسَ هو الجنَّةُ، أو السَّماواتُ.

مرجعُ ضميرِ ﴿مِنۡهَا﴾:

إخـــراجُ إبليسَ مِـنَ رحـمـة الله مُطلقًا

ضميرُ الغائبِ المؤنّثِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾ للجنَّةِ على الأظهر[1]؛ وجازَ رجوعُهُ إليها معَ عدمِ ذكرِها لأنَّها في حكمِ المذكورِ، للعلمِ بها مِنَ السّياقِ[2]، ولشهرةِ كونِ إبليسَ مِنْ سكّانِها[3].

ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للسَّماواتِ[4]، لأنَّ السّياقَ يدلُّ عليها[5]؛ فالسّماواتُ مكانُ الملأِ الأعلى المذكورِ فيما سبقَ. ولم يصرِّح النَّظم بمرجع الضَّمير لأنَّه موجَّهٌ إلى الخروج من الرَّحمة مكانًا وزمانًا، فهْمًا من سياق الإنذار والوعيد.

معنى الفاءِ:

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ للسَّببيَّةِ والتَّعليل؛ فتفيدُ أنَّ علَّةَ الأمرِ بالخروجِ[6] هي كونُ إبليسَ رجيمًا، أي: مطرودًا مِنْ كلِّ خيرٍ وكرامةٍ[7].

نكتةُ التَّأكيدِ:

إبليسُ مطرودٌ يقينًا

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ، لتحقيقِ طردِ إبليسَ الَّذي كانَ يدَّعي أنَّهُ أهلٌ للقُرْبِ[8]؛ ولتَيْئيسِهِ مِنَ الرُّجوعِ عن الأمرِ بالخروجِ؛ ولإظهارِ العنايةِ بمضمونِ الكلامِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 515.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 456.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 217.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 107، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 515.
(5) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 456.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 237.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 218.
(8) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.

المُشتمِلِ على عقابِ إبليسَ، والتَّلويحِ بالطَّردِ مِنَ الرَّحمةِ لكلِّ مُتكبِّرٍ؛ ولأنَّ الجملةَ للتَّعليلِ، والتَّعليلُ يناسبُهُ التَّأكيدُ.

دلالةُ كافِ الخطاب:

دلَّت كافُ الخطاب في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ على إهانة إبليسَ وتحقيرِه، لأنَّ الإهانةَ بطريق الخطاب أشدُّ من أسلوب الغَيْبة.

غرَضُ الإخبارِ بالرَّجمِ:

إبليسُ مطرودٌ لا مُقرَّبٌ

أوثِر التَّعبيرُ بالرَّجم في قول اللّه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ لما يحملُه من وعيدٍ يتضمَّنُ الجوابَ عن شُبهةِ إبليسَ[1]؛ فإنَّهُ لمَّا ادَّعى لنفسِه الفضلَ والكرامةَ ظنًّا منهُ أنَّهما باعتبارِ العُنصرِ كانَ كأنَّهُ قالَ: (أنا أهلُ القُرْبِ والقبولِ)، فأُجيبَ بأنَّهُ مِنْ أهلِ الطَّردِ، لا مِنْ أهلِ القُرْبِ كما زعمَ[2].

نكتةُ صيغةِ (فعيلٍ):

لا مُقرَّبَ لِمَا بعَّدَهُ اللهُ

جيءَ بصيغةِ (فعيل) في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ المبالغةِ في طَرْدِ إبليسَ وإبعادِهِ. وهي تُلائِمُ مقامَ الغضبِ والعقابِ، وتقطعُ حبائلَ الآمالِ في نفسِهِ إنْ حدَّثَتْهُ بإمكانِ الرُّجوعِ عن الأمرِ بالخروجِ.

بلاغةُ العطفِ:

نَـكـالُ إبـليـسَ مُستمِرٌّ

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ معطوفٌ على ما قبلَهُ، ونكتةُ هذا العطفِ: أنْ يُجمعَ لإبليسَ بينَ الطَّردِ ودوامِهِ[3]، لزيادةِ العقابِ والنَّكالِ؛ إذ لو كانَ اللَّعنُ مُؤقَّتًا بوقتٍ لربَّما هانَ الخَطْبُ فيهِ، وتصبَّرَ الملعونُ حتَّى ينتهيَ أجلُ اللَّعنِ.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 211.
(2) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 152.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.

نكتةُ التَّوكيدِ:

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ بـ (إنَّ) واسميَّةِ الجملةِ لتحقيقِ مضمونِهِ، وإظهارِ العنايةِ بهِ، وزيادةِ تخسيرِ إبليسَ وتحسيرِه؛ وفيه دليلٌ على إبعاده عن كلِّ مواطن الرَّحمة.

دلالةُ (على):

(على) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ مُستعمَلَةٌ في الاستعلاءِ المجازيِّ، وهو تمكُّنُ اللَّعنِ مِنْ إبليسَ، حتَّى كأنَّهُ يقعُ فوقَهُ[1].

سرُّ تقديمِ ﴿عَلَيۡكَ﴾:

لعنُ إبليسَ محطُّ العنايةِ والاهتمامِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ لإظهارِ العنايةِ بكونِ اللَّعنةِ على إبليسَ، والمسارعةِ إلى الإخبارِ بهِ؛ أو للتَّنصيصِ على أنَّ هذهِ اللَّعنةَ العظيمةَ مختصَّةٌ بهِ[2]، مقصورةٌ عليه، لا تتعدّاه إلى غيره.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ اللَّعنَة:

عبَّر القرآن الكريم باللَّعنة لإبليسَ في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لأنَّه يحمل كلَّ صفات الذَّمِّ والإبعاد على سبيل السُّخط والغضب عليه من اللّه تعالى.

نكتةُ الإضافةِ في ﴿لَعۡنَتِيٓ﴾:

أُضيفَتِ اللَّعنةُ إلى الضَّميرِ الرّاجعِ إلى اللّهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ لتشنيعِ مُتعلِّقِها، وهو الملعونُ؛ لأنَّ الملعونَ مِنْ جانبِ اللّهِ هو أشنعُ ملعونٍ[3]، إذ لا يقدرُ أحدٌ على ردِّ اللَّعنِ عنهُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 424.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 305.

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

استحقَّ إبليسُ لعنةَ اللهِ، ولعنةَ الملائكةِ والنّاسِ أجمعين

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِ اللّهِ تعالى في سورةِ الحجرِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر: 35]؛ وقد قالَ هنا: ﴿لَعْنَتِيٓ﴾، وقالَ هناكَ: ﴿ٱللَّعْنَةَ﴾ [الحجر: 35]. فإنْ كانَتِ اللّامُ فيهِ للعهدِ - والمعهودُ هو لعنةُ اللّهِ - أو عِوَضًا عنِ الضَّميرِ المضافِ إليهِ: فعدمُ الفرقِ بينَ الموضعينِ ظاهرٌ.

وإنْ كانَتِ اللّامُ فيهِ للجنسِ، وأُريدَ كلُّ لعنةٍ: فذلكَ لأنَّ لعنةَ اللّاعنينَ مِنَ الملائكةِ والثَّقَلَينِ أيضًا مِنْ جهتِهِ تعالى، فهُم يَدعونَ عليهِ بلعنةِ اللّهِ تعالى، وإبعادِهِ مِنْ رحمتِهِ[1]. وأيضًا فإنّ الإضافةَ الواردةَ هنا فيها مناسبةٌ لفظيَّةٌ للإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2]، لأنَّه سبحانه لمّا أضاف خلْقَ آدمَ إليه في قوله: ﴿بِيَدَيَّ﴾ تشريفًا وتكريمًا، أضافَ طَرْدَ عدوِّه في قوله: ﴿لَعْنَتِيٓ﴾ من باب مزيد الإكرام لآدم والتَّحقير والتَّوبيخ لإبليس، ولِتَجريَ العبارتان على نسَقٍ واحد.

دلالةُ ﴿إِلَىٰ﴾:

لعنُ إبليسَ مستمرٌّ إلى يومِ القيامةِ

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ لانتهاءِ الغايةِ الزَّمانيةِ، فتفيدُ أنَّ غايةَ زمنِ لعنِ إبليسَ هي يومُ القيامةِ؛ وليس المرادُ بانتهاء الغاية خروجَ إبليسَ من اللّعنة يومَ القيامة، بل المرادُ بقاؤه ملعونًا باستمرارٍ في الحياة الدّنيا، وانتقالُه يومَ الدّين إلى أشدّ العذاب[3].

نكتةُ التَّقييدِ بـ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾:

ما بعدَ قيامِ السّاعةِ أعظمُ

ظاهرُ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ يقتضي انقطاعَ تلكَ اللَّعنةِ عندَ مجيءِ يومِ الدّينِ. وليسَ ذلكَ مرادًا، بل المرادُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 218.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 290.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415.

بيانُ أنَّ اللَّعنةَ باقيةٌ عليهِ في الدُّنيا، دائمةٌ لا تنقطعُ؛ فإذا جاءَ يومُ القيامةِ جُعِلَ معَ اللَّعنةِ أنواعٌ مِنَ العذابِ، تصيرُ اللَّعنةُ معَ حضورِها منسيَّةً[1]، إذ ينتقلُ الملعونُ إلى ما هو أشدُّ وأعظمُ[2]. ففي التّعبير بلاغةُ الإيجازِ بجمع اللّعن في الدُّنيا إلى شدَّة العذاب في الأُخرى.

وجهُ الإضافةِ في ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

إضافةُ اليومِ إلى الدّينِ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لأدنَى مُلابَسةٍ، أي: أقلِّ ارتباطٍ؛ وهو وقوعُ الجزاءِ في هذا اليومِ.

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

الحسابُ الأعظمُ حسابُ يومِ القيامةِ

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ للعهدِ، لأنَّ المرادَ بهِ الحسابُ والجزاءُ المعهودُ الَّذي يكونُ يومَ القيامةِ، بحيثُ لا يتبادرُ الذِّهنُ إلى غيرِهِ. ويحتملُ أنْ تكونَ اللّامُ للجنسِ، والغرضُ بيانُ كمالِ الجزاءِ في هذا اليومِ، وأنَّهُ لا يدانيهِ جزاءٌ آخرُ، فهو الحقيقُ دونَ غيرِهِ بلفظِ الدّينِ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

الويلُ والثُّبورُ قرينا إبليس في الدُّنيا والآخرة

عُبِّرَ بـ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ دونَ: (يومِ يُبعَثونَ) ونحوِ ذلكَ: لتأكيدِ ما سبقَ مِنْ أنَّ تقييدَ اللَّعنةِ بكونِها إلى يومِ الدّينِ لا يعني: أنَّ إبليسَ يحصلُ لهُ ضدُّها، وهي الرَّحمةُ يومَ القيامةِ؛ فيومُ الدّينِ هو يومُ الجزاءِ على الأعمالِ، وجزاءُ هذا الملعونِ هو العذابُ الأليمُ[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللَّعْنُ والطَّرْدُ والإبعادُ والرَّجْمُ:

اللَّعْنُ: إقصاءٌ على وجهِ الإهانةِ[4]؛ والطَّرْدُ: الإزعاجُ والإبعادُ على

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 321.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 305.
(4) الراغب، تفسير الراغب: 1/ 258.

إبـلـيـسُ مُـهـانٌ قاصٍ عن رحمةِ الـلـهِ وعـن كـلِّ خيرٍ

سبيلِ الاستخفافِ، ويقالُ: طَرَدَهُ السُّلطانُ إذا أخرجَهُ عن بلدِهِ[1]؛ والإبعادُ أعمُّ منهما؛ والرَّجْمُ في الأصلِ: الرَّمْيُ بالحجارةِ، ويُستعمَلُ مجازًا في الإبعادِ.

وقد عُبِّرَ بالرَّجم في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ للدَّلالةِ على الطَّردِ العنيفِ كنايةً، لأنَّ المطرودَ يُرجَمُ بالحجارةِ في الغالبِ[2]. وعُبِّرَ باللَّعْنِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ﴾ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ مِنَ الإبعادِ المشتملِ على التَّحقيرِ، ومِنَ التَّنبيهِ على أنَّ إبليسَ قد صارَ في أقصَى غاياتِ البُعدِ عن رحمةِ اللّهِ وعن كلِّ خيرٍ.

(1) الراغب، المفردات: (طرد).

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 456.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾ [ص: 79 - 81]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإخبارُ بإنظارِ إبليسَ بعدَ الإخبارِ بلعنِه

لمّا أخبرَ ﷻ فيما سبقَ عن إخراجِ إبليسَ ولعنِه أخبرَ هنا في هذه الآية عن طلبِ إبليسَ الإمهالَ إلى يوم بعْثِ الخلائق، ليتمكّن من إغواءِ بني آدم؛ فأجاب اللّهُ تعالى سُؤالَهُ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾: النّون والظّاء والرّاء أصلٌ يدلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومعاينَتِه. ومنْ ذلكَ: النَّظرُ، وهو تقليبُ البصرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيتِه؛ وقد يُراد به التَّأمُّلُ والفحص، وقد يُراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص. والإنظارُ: الإمهال والتَّأخير[2]، وسمّي إنظارًا لأنَّ إبليسَ ينظر إلى الوقت الَّذي يأتي فيه؛ وهو المرادُ هنا[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إمعانُ إبليسَ في الإغواءِ والفسادِ

يُخبرُ اللّهُ تعالى عمّا قالَهُ إبليسُ بعدَ عِلمِه بالإخراجِ واللَّعنِ، قالَ: ربِّ فإذا لعنتَني، وأخرجتَني فأخِّرْني في الأجَلِ، ولا تُمِتْني في الدُّنيا، بل أمهِلْني معَ آدمَ وذريَّته إلى يوم بعْثِهم مِنْ قبورِهم. فأجابَهُ اللّهُ تعالى بقولِه: فإنَّكَ مِنَ المُؤخَّرينَ إلى ذلكَ الوقتِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ الفصلِ:

الاستئنافُ بذكرِ طلبِ الإنظارِ

فُصِلَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نظر).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 48.

شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا سبقَ، كأنَّهُ قيلَ: ماذا قالَ إبليسُ بعدَ أمرِهِ بالخروجِ، والحكم عليهِ بالرَّجم واللَّعنِ؟ فقيلَ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ الآيةَ[1]؛ ومقامُ المحاوَراتِ مقامُ فصلٍ.

نكتةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ عن فعلِ القَول بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ هذا القولَ قد تحقَّقَ، ومضَى؛ كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ السّالفةِ.

دلالةُ الحذفِ في ﴿رَبِّ﴾:

إيـهـامُ إبـلـيـسَ نـفـسَـهُ أنَّـه في مقامِ القُرْبِ

اقْتُصِرَ في قولِ اللّهِ ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ على المُنادَى ﴿رَبِّ﴾، وحُذِفَ حرفُ النِّداءِ - وهو (يا) - والمضافُ إليه، وهو ياءُ المتكلِّم، ولم يُقَلْ: (يا ربِّي). ونكتةُ هذا الحذفِ: الاختصارُ، والدَّلالةُ على أنَّ إبليسَ اللَّعينَ قد جعلَ نفسَهُ في مقامِ القُرْبِ والزُّلفَى، فنادَى بلا توسُّطِ حرفِ نداءٍ.

سرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

إظهارُ الخضوعِ والانـكـسـارِ لتحقيقِ الإنظارِ

جيءَ بلفظِ الرَّبِّ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ لأنَّ إبليسَ أرادَ بذكرِ هذا الوصفِ إظهارَ التَّخضُّعِ، والحثَّ على إجابةِ سُؤلِهِ، وإنجازِ مطلوبِهِ[2]؛ أي: (أيُّها المُحسِنُ إليَّ بإيجادي وأنواعِ النِّعَمِ أسألُكَ الإنظارَ)[3]. وفي ذلكَ دليلٌ على غايةِ حرصِهِ على تحقُّقِ الإنظارِ.

دلالةُ فاءِ ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

طـيُّ الـكـلامِ لسرعةِ الوصولِ إلى الإنظارِ

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، دلَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 48.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.

عليهِ قولُهُ تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾[1]؛ فهي واقعةٌ في جوابِ شرطٍ محذوفٍ، كأنَّهُ قال: (إن طردتَني عن دارِ الكرامةِ بسببِ آدمَ فأنظِرْني لإغوائِهِ وإغواءِ أولادِهِ إلى يومِ يُبعَثونَ[2]؛ أو كأنّه قال: (إذا جعلتَني رجيمًا فأمهِلْني، ولا تُمِتْني إلى يومِ يُبعَثونَ)[3]. ففي الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ.

دلالةُ طلبِ إبليسَ الإنظارَ:

إبليسُ حريصٌ أشدَّ الحرصِ على إغواءِ ذرِّيَّة آدم

طلبُ إبليسَ الإنظارَ بقولِهِ: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ بعدَ إعلامِهِ بأنَّهُ ملعونٌ إلى يومِ الدّينِ: دليلُ خُبْثِ جِبِلَّتِه، البالغِ نهايتَه التي لا يشفيها إلّا دوامُ الإفسادِ بين ذرّيَّة آدمَ؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ خروجَه من الجنَّة أو من السَّماء كان بسبب آدمَ، وليس بسبب كبرِهِ واستعلائه، فكان هذا الظَّنُّ مَجْلَبةً لدوامِ شِقْوتِهِ[4].

دلالةُ ﴿إِلَىٰ﴾:

غـايـةُ إبـلـيـسَ إغواءُ بني آدم

﴿إِلَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ لانتهاءِ الغايةِ الزَّمانيةِ؛ فتفيدُ أنَّ إبليسَ قد طلبَ أنْ تطولَ حياتُهُ، ولا يموتَ إلى غايةٍ هي يومُ القيامةِ؛ وأرادَ بذلكَ أنْ يجدَ فُسْحةً لإغواءِ بني آدمَ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

عبَّرَ إبليسُ في قولِهِ: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ عن يومِ الدّينِ بـ ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ تمهيدًا لِما عقدَ عليهِ العزمَ مِنْ إغواءِ البشرِ؛ فأرادَ الإنظارَ إلى آخرِ مدَّةِ وجودِ نوعِ الإنسانِ في الدُّنيا. وخلقَ اللّهُ فيهِ حبَّ النَّظرةِ الَّتي قدَّرَها لهُ، وخلقَهُ لأجلِها وأجلِ آثارِها: ليحملَ أوزارَ تَبِعَةِ ذلكَ بسببِ كَسْبِهِ واختيارِهِ تلكَ الحالةَ[5].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 211.
(2) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 154.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 237، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 218.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 48.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 48.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

الإعلان عن وجود ذريّة لآدمَ

ضميرُ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ للبشرِ المعلومينَ مِنْ تركيبِ خلقِ آدمَ عليه السلام، وأنَّهُ يكونُ لهُ نَسْلٌ - ولا سيَّما حيثُ خُلِقَتْ زوجُهُ حينئذٍ، فإنَّ ذلكَ يقتضي أنْ يكونَ منهما نَسْلٌ(1) - ومن إعلام اللّه عند خلقِه آدمَ بأنّه ﴿جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [البقرة: 30]. فليس في تركيب الكلام ما يعود عليه هذا الضّميرُ، وإنّما يُعلم مرجِعُه من السّياق القرآنيّ لقصّة خلق آدمَ عليه السلام وذرّيَّته.

بلاغةُ بناءِ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ للمفعول:

اللّه تعالى يبعثُ مَنْ في القبورِ

بُنِيَ فعلُ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ للمفعولِ استغناءً عن ذكرِ الفاعلِ، للعلم بِه وتعيُّنِه؛ إذ لا يُتصوَّرُ البعثُ إلّا مِنَ اللّهِ جل جلاله. ومِن أغراض هذا البناء: الإشعارُ بعَظَمَةِ هذا اليوم وهَولِه، معَ رعايتِه لفواصلِ الآياتِ؛ إذْ لو قيلَ: (إلى يومِ تَبعَثُهم) لاختلَّ الانسجامُ والتَّلاؤمُ بينَها.

نكتةُ حذفِ مُتعلِّقِ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

الحذفُ إيجازًا للعِلمِ بالمحذوف

حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ في قول اللّه تعالى ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ اختصارًا، للعلم بِه؛ إذ غايةُ البعثِ هي الحسابُ والجزاءُ، والتَّقديرُ: إلى يوم يُبعَثونَ للجزاءِ بعدَ فَنائِهم(2). وفي الحذفِ أيضًا رعايةٌ لتلاؤمِ الفواصلِ.

غرضُ الفصلِ:

إيقاظُ السّامعين إلى جواب ربِّ العالمين

فُصِلَ قولُ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا سبقَ؛ كأنَّهُ قيلَ: (ماذا قالَ اللّهُ تعالى بعدَ طلبِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 49.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 237.

إبليسَ الإنظارَ؟) فقيلَ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ الآية[1]؛ ومقامُ المُحاوَراتِ مقامُ فصلٍ.

نكتةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾: للدَّلالةِ على أنَّ قبولَ الإنظارِ قد تحقَّقَ، ومضَى؛ كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ السّالفةِ.

دلالةُ فاءِ ﴿فَإِنَّكَ﴾:

الإنظارُ مُتفرِّعٌ على طلبِهِ

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ للسَّببيَّةِ[2]، لأنَّ هذا المَقولَ قد أثارَهُ الكلامُ الَّذي قبلَهُ، فتفرَّعَ عنهُ[3]. وفيه دلالةٌ على أنَّ هذا الجواب من باب الإملاء له، ليزداد إثمًا، ولتحقيق غواية بني آدم ابتلاءً.

بلاغةُ التَّوكيدِ بـ(إنّ):

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ بـ (إنَّ) لإظهارِ العنايةِ بمضمونِ هذا الكلامِ، والإشارةِ إلى تحقُّقِهِ، وأنَّهُ إنظارٌ دائمٌ ثابتٌ[4]، لا شكَّ فيه، ولا استبعادَ لهُ[5].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

الإنظارُ مُقدَّرٌ في الأزلِ

في التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في قول اللّه تعالى ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ الدَّلالةُ على أنَّ أمرَ الإنظارِ مقدَّرٌ أزلًا، وليس إنشاءً لطلب إبليس. وممّا يؤكِّد ذلك التَّعبيرُ بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾، فهو شاملٌ لإنظارِ غيره على وجهٍ يُشعِرُ بكونِ السّائلِ تَبَعًا لهُم في ذلكَ. فالتّعبيرُ بالاسميّة دليلٌ واضحٌ على أنَّهُ إخبارٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 49.
(4) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 155.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.

بالإنظارِ المُقدَّرِ لهُم أزلًا، لا إنشاءٌ لإنظارٍ خاصٍّ بهِ قد وقعَ إجابةً لدعائِهِ[1].

معنى ﴿مِنَ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فتفيدُ أنَّ إبليسَ بعضُ المُنظَرينَ[2]، وأنَّهُ مندرجٌ في زُمرتِهم؛ وهذا يدلُّ على أنَّ مِثلَ هذا الإنظارِ لغيرِهِ أيضًا[3].

بلاغةُ التّعبيرِ باسمِ المفعولِ:

هَـوانُ إبليسَ على اللهِ

جيءَ بصيغةِ اسمِ المفعولِ مجموعًا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ دون اسم الفاعل (فإنّي مُنظِرُك): للعِلم بسُلْطانِ الرُّبوبيَّة، وأنَّ المُنظِرَ هو اللّهُ ﷻ، إذ لا يُتصوَّرُ صدورُ الإنظارِ مِنْ غيرِهِ؛ ولإظهارِ التَّهاونِ بإبليسِ، بعدمِ نسبةِ إنظارِهِ إلى اللّهِ تعالى؛ ولمراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالجارِّ والمَجرورِ:

إبليسُ إنّما هو من جُملَة المُنظَرين

الظّاهرُ بعدَ اختيارِ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ أنْ يقالَ: (فإنَّكَ مُنظَرٌ)، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ لأنَّهُ أبلغُ؛ إذ معناهُ: (فإنَّكَ مِنَ الفئةِ التّي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو الإنظارُ). وإذا كانَ مِنَ الفئةِ المُنظَرةِ فهو مُنظَرٌ أيضًا بطريقِ الكنايةِ الَّتي هي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ. وفيهِ تنبيهٌ على أنَّهُ لا خصوصيَّةَ لإبليسَ في هذا الإنظارِ، بل هو تابعٌ لغيرِهِ فيهِ. ويضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾:

غـايـةُ إنـظـارِ إبـلـيـسَ يـومُ النَّفخَةِ الأولى

حرفُ الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 237، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 218.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 45.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 426.

﴿ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ لانتهاءِ الغايةِ الزَّمانيَّةِ؛ فتفيدُ أنَّ اللّهَ تعالى قد جعلَ غايةَ إنظارِ إبليسَ يومَ الوقتِ المعلوم، وهو يوم النَّفخة الأولى، فيموتُ إبليسُ، كما يموت الخلقُ جميعًا.

وجهُ الإضافةِ في ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ﴾:

الإضافةُ لأدنى ملابَسةٍ

إضافةُ اليوم إلى الوقتِ في قولِ اللّهِ تعالى شأنُهُ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ لأدنَى مُلابَسةٍ، أي: أقلِّ ارتباطٍ. فلمّا كان لفظ اليوم يُشعِر بوقوع حدثٍ ظاهرٍ كان مناسبًا للدَّلالة على موت إبليس وسائر الخلائق؛ ثمّ جاء لفظُ الوقت الَّذي يدلُّ على الأجل، ليبيِّنَ أنَّ موتَهُ له أجلٌ معلوم؛ فكانت الإضافة لأجْلِ هذا البيان.

نكتةُ وصفِ ﴿ٱلۡوَقۡتِ﴾ بـ﴿ٱلۡمَعۡلُومِ﴾:

أجَلُ العبادِ معلومٌ عندَ اللهِ

يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بـ﴿ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ الوقتَ المُسمَّى فيهِ أجلُ إبليسَ عندَ اللّهِ، أو انقراضُ النّاسِ كلِّهم، وهو النَّفخةُ الأولى؛ ومعنى كونِهِ معلومًا: أنَّهُ معلومٌ عندَ اللّهِ مُعيَّنٌ، لا يستقدِمُ، ولا يستأخِرُ[1].

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بالأيّامِ الثَّلاثةِ - يوم الدّين، ويوم يُبعَثون، ويوم الوقت المعلوم - يومَ القيامةِ، واختلافُ العباراتِ لاختلافِ الاعتباراتِ: فعُبِّرَ عنهُ أوَّلًا بيوم الدّينِ؛ لأنَّهُ يكونُ فيهِ الجزاءُ والحسابُ، وثانيًا بيوم البعثِ لأنَّهُ بِهِ يحصلُ العلمُ بانقطاعِ التَّكليفِ، واليأسُ عن التَّضليلِ، وثالثًا بيوم الوقت المعلوم لوقوعِهِ في كلامِ اللّهِ تعالى، وفي كلامِ إبليسَ؛ إذ قالَ إبليسُ أوَّلًا: ﴿رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾، وقالَ تعالى في جوابِهِ: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾، وما وقعَ في كلامَي المتكلِّم والمُخاطَبِ يكونُ أمرًا معهودًا معلومًا لهما[2]؛ أو لكونِهِ معلومًا عندَ اللّهِ تعالى مِنْ حيثُ زمنُ وقوعِهِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 108، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 211.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 211، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/ 155.

بلاغةُ التَّعريضِ:

مَن لا يؤمنُ بالبعثِ فهو كالعدمِ

إذا كانَ المرادُ يومَ البعثِ ففي التَّعبيرِ بيوم الوقتِ المعلوم في قولِ اللّهِ سبحانَهُ: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ تعليمٌ بأنَّ اللّهَ يعلمُ ذلكَ الأجلَ؛ والمرادُ: المعلومُ لدينا. ويجوزُ أنْ يرادَ المعلومُ للنّاسِ أيضًا علمًا إجماليًّا؛ فيكونُ فيهِ تعريضٌ بأنَّ مَنْ لم يُؤمِنوا بذلكَ اليومِ مِنَ النّاسِ لا يُعبَأُ بهِم، فهُم كالعدمِ[1].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ:

مراعاةُ الإيجاز أو الإطناب في سياق القصّة

تشابهَتْ هذهِ الآياتُ معَ قولِ اللّهِ تعالى في الأعرافِ: ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15]، وقولِه تعالى في الحِجرِ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر: 36 - 38].

وقد زيدتِ الفاءُ هنا وفي الحِجرِ في قولِه: ﴿فَأَنظِرۡنِي﴾ [الحجر: 36] [ص: 79]، وقولِه: ﴿فَإِنَّكَ﴾ [الحجر: 37] [ص: 80]، ولم تُزَدْ في الأعرافِ: لأنَّ ما قبلَ آيتَي الأعرافِ مبنيٌّ على الإيجازِ في عددِ الكلماتِ، وما قبلَ الآياتِ هنا وفي الحِجرِ مبنيٌّ على الإطنابِ في عددِ الكلماتِ؛ وقُدِّمَ الموضعُ الموجَزُ على الموضعينِ المُطوَّلينِ، لأنَّ التَّفصيلَ يكونُ بعدَ الإجمالِ[2].

وتُرِكَ التَّوقيتُ أيضًا في سورةِ الأعرافِ، كما تُرِكَ النِّداءُ؛ تعويلًا على ما ذُكِرَ هنا وفي سورةِ الحِجرِ[3].

ومن لطيفِ التّناسُبِ في هذه الآياتِ أنّه عُبِّر بالرُّبوبيَّة في سورة ص، وقبل ذلك في سورة الحجر دون موضع سورة الأعراف: لأنَّ القِصّةَ في موضِعَي الحِجر وص مبدوءةً بلفظِ الرُّبوبيَّة، قال تعالى في سورة الحِجر: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 49.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل، ص: 187.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238.

﴿مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]، وفي سورة ص، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ﴾؛ فكان التَّعبير بالرُّبوبيَّة في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾ من باب التَّناسُب للأسلوب في السّورتين.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنظارُ والإمهالُ:

إنـظـارُ إبـليـسَ مـقـترنٌ بـوقـتٍ مُحدَّدٍ

الفرقُ بينَ الإنظارِ والإمهالِ أنَّ الإنظارَ مقرونٌ بوقتٍ مُحدَّدٍ يقعُ فيهِ، وأمّا الإمهالُ فهو مُبهَمٌ غيرُ مُحدَّدٍ بوقتٍ مُعَيَّن[1]. وقد عُبِّرَ بالإنظارِ هنا لاقترانِهِ بوقتٍ مُحدَّدٍ لانتهائِهِ.

البَعْثُ والإحياءُ والنُّشورُ:

البـعـثُ أنـسبُ بـمـدَّةِ انـتـهـاءِ إغواءِ إبليسَ

أصلُ البَعْثِ: إثارةُ الشَّيءِ وتوجيهُهُ، ويختلفُ بحسَبِ اختلافِ ما عُلِّقَ بهِ؛ فبعْثُ البعيرِ: إثارتُهُ وتسييرُهُ، وبعْثُ الموتى: إخراجُهم مِنْ قبورِهم، وتسييرُهم إلى القيامةِ. وأمّا الإحياءُ فهو جعلُ الحياةِ تدبُّ في الشَّيءِ[2]. فالبَعْثُ أعمَّ مِنَ الإحياءِ، لأنَّهُ يُستعمَلُ في إحياءِ الموتى وإخراجِهم للقيامةِ، ويُستعمَلُ في غيرِهِ، كإثارةِ البعيرِ وتسييرِهِ.

وأمّا النُّشورُ فيكونُ بعدَ البعثِ، إذ هو جعلُ الموتى ينتشرونَ في الأرضِ بعدَ بعثِهم، ويتفرَّقونَ فيها، حتَّى يجمعَهم موقفُ الحشرِ[3].

وقد عُبِّرَ بالبعثِ هنا إذْ هو الحدُّ الَّذي ينتهي عندَهُ إغواءُ إبليسَ لبني آدمَ.

(1) العسكري، الفروق، ص: 76.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 286.

(3) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 288.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: 82 - 83]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ عزمِ إبليسَ على الإفسادِ بعدَ إنظارِه

لمّا أخبرَ اللّهُ تعالى عن إنظارِ إبليسَ تشوَّفَ السّامعُ لمعرفةِ ما سيفعلُه إبليسُ؛ فجاءَتْ هاتانِ الآيتانِ لبيانِ عزيمَتِه على الشَّرِّ والإغواءِ والإفسادِ(1)، ولبيانِ مَن يَنجو منها من بني آدم.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: (غوي) أصلٌ يدلُّ على خلافِ الرُّشدِ؛ ومِنْ ذلكَ: الغيُّ، وهو الجهلُ النّاشئُ مِن اعتقادِ الإنسانِ اعتقادًا فاسدًا(2)، والضَّلالُ والخيبةُ أيضًا. والغاوي: هو الضّالُّ المُنهمِكُ في ضلالِه، بحيثُ لا يردُّهُ شيءٌ(3). والمرادُ بالإغواءِ هنا: الإضلالُ(4).

2) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: (خلص) أصلٌ يدلُّ على تَنقيَةِ الشَّيءِ وتهذيبِه؛ ومِنْ ذلكَ: التَّخليصُ، وهو التَّصفيةُ(5). وخُلوصُ الشَّيءِ: عدمُ الشِّركةِ فيهِ(6). والمرادُ بالمخلَصينَ هنا: الَّذينَ أخلصَهم اللّهُ تعالى للعبادةِ(7)، وبكسرِ اللّامِ (المخلِصين): الذين أخلصوا دينَهم للّه.

المَعْنى الإجماليُّ:

مجاهرةُ إبليسَ بعداوةِ البشرِ، ونجاةُ المخلصين مِن إغوائه

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عمّا قالَهُ إبليسُ بعدَ إعلامِهِ بإنظارِه، قالَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 426.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (غوي).
(3) الجوهري، الصحاح، والسمين، عمدة الحفاظ: (غوي).
(4) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 137.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة: (خلص).
(6) الخليل، العين، والسمين، عمدة الحفاظ: (خلص).
(7) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 137.

إبليسُ: فبقدرتِكَ وسلطانِكَ وقهرِكَ لَأُضِلَّنَّ بني آدمَ أجمعينَ بتزيينِ المعاصي، إلّا مَنْ أخلصتَهُ مِنهُم لعبادتِكَ، واصطفيته لإخلاص دينك، وعصمتَهُ مِنْ إضلالي، فلا سبيلَ لي عليه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفصلِ:

مقامُ المحاورات مَقامُ فصلٍ لا وصلٍ

فُصِلَ قولُ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عمّا قبلَهُ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ، لأنَّهُ استئنافٌ بيانيٌّ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ نشأ ممّا سبقَ، كأنَّهُ قيلَ: (ماذا قالَ إبليسُ بعدَ أنْ أنظرَهُ اللهُ تعالى؟) فقيلَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ الآيةَ[1]؛ ومقامُ المحاوَراتِ مقامُ فصلٍ.

نكتةُ صيغةِ الماضي:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ توعُّدَ إبليسَ بإغواءِ آدمَ وذرّيَّتِهِ قد تحقَّقَ، ومضَى؛ كما هو الشَّأنُ عندَ حكايةِ القصصِ والأخبارِ السّابقة.

دلالةُ فاءِ ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾

الفاءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لترتيبِ مضمونِ الجملةِ على الإنظارِ[2]، أو على أمرِ اللهِ إيّاهُ بالخروجِ مِنَ الجنَّةِ، وعقابِهِ إيّاهُ باللَّعنةِ الدّائمةِ[3].

دلالةُ باءِ ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾

عزمُ إبليسَ على إغواءِ بني آدمَ

الظّاهرُ أنَّ الباءَ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ للقَسَمِ[4]؛ وقد أقسمَ إبليسُ اللَّعينُ بسلطانِ اللهِ تعالى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 425.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 218.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 305.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 175.

وقَهْرِهِ للتَّنبيهِ على قيامِه بالمُقسَمِ عليهِ دونَ تخلُّفٍ[1]، وبيانِ أنَّهُ عازمٌ عليهِ عزمًا قويًّا، لا يلويهِ عنهُ صارفٌ.

بلاغةُ الإضافةِ في (عِزَّتِكَ):

أُضيفَتِ العزَّةُ إلى ضميرِ الخطابِ الرّاجعِ إلى اللّهِ في قولِهِ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتفخيمِ شأنِها وتعظيمِه، فهي عزَّةُ العظيمِ القديرِ الَّذي لا يُعجِزُه شيءٌ، ولا يتخلَّفُ عن مرادِهِ شيءٌ.

سرُّ القسمِ بصفةِ العزَّةِ دونَ غيرِها:

لا يقدرُ إبليسُ على الإغواءِ إلّا بتقديرِ اللهِ لهُ

أقسمَ إبليسُ اللَّعينُ في قولِه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بصفةِ العزَّةِ مِنْ بينِ الصِّفاتِ لأنَّها هي المناسبةُ لما قصدَهُ مِنَ الإغواءِ[2]؛ فعزَّةُ اللّهِ هي العزَّةُ الكاملةُ الَّتي لا تختلُّ حقيقتُها، ولا يتخلَّفُ سلطانُها. وقسمُ إبليسَ بها ناشئٌ عن علمِه بأنَّهُ لا يستطيعُ الإغواءَ إلّا بتقديرِ اللّهِ لهُ، ولولا ذلكَ لم يستطعْ نَقْضَ قدرةِ اللّهِ[3].

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ:

غوايةُ إبليسَ من آثارِ حكمةِ اللهِ وعزّتِه

تشابهَتْ هذهِ الآيةُ معَ قولِهِ تعالى في سورةِ الأعرافِ: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]، وقولِهِ في الحِجرِ: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39 - 40].

ولا تنافيَ بينَ القسمِ بعزَّةِ اللّهِ هنا، والقسمِ بإغوائِهِ في الأعرافِ والحِجرِ؛ لأنَّ إغواءَهُ تعالى إيّاهُ أثرٌ مِنْ آثارِ قدرتِهِ تعالى وعزَّتِهِ، وحكمٌ مِنْ أحكامِ قَهْرِهِ وسلطانِهِ، فمآلُ الإقسامِ بهما واحدٌ. ويحتملُ أنْ يكونَ قد أقسمَ بهما جميعًا، فحُكيَ تارةً قسمُهُ بأحدِهما، وأخرى بالآخرِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 456.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238.

غرضُ توالي المؤكِّداتِ:

فَرْطُ ثقةِ إبليسَ بقدرتِهِ على الإغواءِ

أُكِّدَ قولُ اللّهِ تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بالقسم، واللّام الواقعة في جوابِ القسم، ونونِ التَّوكيدِ الثَّقيلة، وبأَجْمَع: للإنباءِ عن فَرْطِ ثقةِ إبليسَ اللَّعينِ بقدرتِه على إغواءِ آدمَ وذرّيَّته، والدَّلالةِ على أنَّهُ عازمٌ على ذلكَ عزمًا بالغًا؛ لأنَّه وجد في نفسه أنَّ اللّه أقدَره على القيام بالإغواء. ويؤكِّد هذا قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩﴾ [الحجر: 39].

نكتةُ صيغةِ المضارعِ:

عزمُ إبليسَ على مواصلة الإغواءِ وتجديده

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللّهِ تعالى حكايةً عن إبليسَ ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾: للدَّلالةِ على أنّ إغواءَهُ أمرٌ مستقبليٌّ بالنِّسبةِ لزمن هذا الكلام، ولبيانِ عَزمِ إبليسَ على مواصلةِ الإغواءِ وتجديدِه، بحيثُ لا يتوقَّفُ عنهُ. وفي ذلكَ مزيدُ تقبيحٍ لفعلِه، ومزيدُ تحذيرٍ لآدمَ وذرّيَّتِهِ منهُ.

دلالة ضميرِ الغائبين:

آدمُ وذرّيَّتُهُ أعداءُ إبليسَ

ضميرُ جمعِ الغائبين في ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ من قول اللّه تعالى ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ راجعٌ إلى آدمَ وذرّيَّتِهِ[1]؛ فهُم أعداءُ إبليسَ الَّذينَ يحرصُ على إغوائِهم، وتزيينِ الباطلِ لهُم.

وممّا يُذكرُ في بلاغة التَّعبير بهذا الضَّمير أنَّه يشمل الذُّرّيَّة الغائبة الَّتي لم توجد بعد عند خلقِ آدم ﷺ؛ لذلك عبَّر عنهم بضمير الغائب. وفي هذا التّعبيرِ إشارةٌ إلى ما يَكمُنه إبليسُ وذريتُه من الشرِّ الدائم لذرّيّة آدم، والحِقد المستمرِّ إلى يوم البعث والمعاد.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

ضراوةُ إبليسَ بالإغواءِ

جيءَ بـ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238.

﴿أَجۡمَعِينَ﴾ للتَّأكيدِ(1)، للتَّنبيهِ على ضَراوةِ نفسِ إبليسَ بالشَّرِّ والإضلالِ؛ لأنَّ إغواءَ النّاسِ كلِّهم هو أشدُّ أحوالِ غايةِ المُغوي(2)، ولا يعزمُ عليه إلّا مَنْ تمحَّضَ للشَّرِّ والإفسادِ.

بلاغةُ الاستثناءِ:

ظُهورُ الصِّدقِ على لسانِ الكَذوبِ من لُطفِ اللهِ بعبادِه

استثنى إبليسُ من جملةِ المُغوَينَ بقولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لئلّا يقعَ في كلامِه الكذبُ؛ لأنَّهُ لو لم يذكرْ هذا الاستثناءَ، وادَّعى أنَّهُ يغوي الكلَّ لكانَ يظهرُ كذبُهُ حينَ يَعْجِزُ عن إغواءِ عبادِ اللّهِ الصّالحينَ(3). وقد جعلَ المُغوَينَ هم الأصلَ، ثمّ استثنَى منهُم عبادَ اللّهِ المُخلَصينَ: لأنَّ عزيمتَهُ منصرفةٌ إلى الإغواءِ، فهو الملحوظُ ابتداءً عندَهُ(4). وفي هذا الاستثناء دلالةٌ على عناية اللّه تعالى بعباده المخلصين، فلم يمكّن عدوَّهم منهم، ولم يجعل له عليهم سلطانًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالعبادِ:

لفظُ العبادِ خاصٌّ بعبادِ اللهِ

عُبِّرَ بالعبادِ دونَ العبيدِ في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لأنَّ لفظَ العبيدِ يُطلَقُ على عبيدِ اللّهِ، وعلى عبيدِ النّاسِ، ولفظَ العبادِ خاصٌّ بعبادِ اللّهِ(5)؛ وهو الأنسبُ بمقامِ التَّنصيصِ على خلوصِهم للّهِ تعالى. وفيه إشارةٌ إلى أنّ عبادَ اللّه من عصى الشيطانَ؛ أمّا الذين أطاعوه وسلكوا سبيلَ غوايته فإنّما هم عبيدٌ لإبليسَ ولأهوائهم.

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿عِبَادَكَ﴾:

شرفُ العبوديَّةِ لِمَنْ أطاعَ اللهَ

إضافةُ العبادِ إلى ضميرِ الخطابِ الرّاجعِ إلى اللّهِ تعالى في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّ غيرَهم مِنَ العُصاةِ

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 456.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 50.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 50.
(5) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 585، وانظر للتوسع: زيدان، الفروق اللغوية، ص: 694 - 695.

قد انسلخ مِنَ التَّشرُّفِ بعبوديَّةِ اللّهِ تعالى، بخلافِ مَنْ أطاعَهُ[1]. وفيها دلالةٌ على تشريفِهم واختصاصهم بهذه المنزلةِ دون غيرِهم، لأنَّهم ذُكِروا في مقام الخطاب والحضور.

معنى (مِنْ):

المُخلَصونَ هم عبادُ اللهِ حقًّا

(مِنْ) في قولِه ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ للتَّبيينِ، أي بيانِ عبادِ اللّهِ بأنّ المرادَ منهم بنو آدم مطلقًا؛ وإنّما ينجو من جملتهم المخلِصون للّه، المخلَصون باللّه. وعلى التَّبعيضِ يكون المعنى: أنَّهم جزءٌ مِن كلٍّ، فالعباد جزءٌ مِنَ العبيد، وعباد اللّه حقًّا إنّما هم المخلصون منهم.

غرضُ تقديمِ ﴿مِنْهُمُ﴾:

قُدِّمَ ﴿مِنْهُمُ﴾ في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ للاهتمام بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ورعايةِ الفاصلة؛ وفيه تنبيهٌ إلى ما يميّزهم عن سائر البشريّة، ممّا يحصِّنهم من إغواء إبليس.

توجيهُ قراءتَي ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

أهلُ الطّاعةِ اختصَّهم اللهُ بطاعتِهِ وخُلوصِ قلوبِهم لهُ

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ ويعقوبُ: (المُخلِصينَ) بكسرِ اللّامِ في الآية ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وقرأ الباقونَ بفتحِها[2].

أمّا قراءةُ الكسرِ فهي للدَّلالةِ على أنَّهم أخلصوا قلوبَهم للّهِ، وصانوها عن الشِّركِ والرّياءِ؛ وأمّا قراءةُ الفتحِ فهي للدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ تعالى قد أخلصَهم لطاعتِهِ، وعصَمَهم مِنَ الضَّلالةِ[3]. والقراءتان متكاملتان، لأنَّ من أخلَصه اللّهُ، وامتنَّ عليه: كان نتيجةَ اصطفاءِ اللّه له أن يُخلِصَ عبادتَه له.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 427.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 295.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 456.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الضَّلالُ والغَيُّ والإغواءُ:

حقدُ إبليسَ على آدمَ وذرّيّتِهِ

الضَّلالُ يقالُ لكلِّ عدولٍ عنِ المنهجِ، عمدًا كانَ أو سهوًا، يسيرًا كانَ أو كثيرًا[1]. والغيُّ: جهلٌ مِن اعتقادٍ فاسدٍ؛ لأنَّ الجهلَ قد يكونُ مِنْ كونِ الإنسانِ غيرَ معتقِدٍ اعتقادًا لا صالحًا ولا فاسدًا، وقد يكونُ مِن اعتقادِ شيءٍ فاسدٍ[2]. والإغواءُ: الإضلالُ الشَّديدُ.

وقد عُبِّرَ بالإغواءِ هنا للدَّلالةِ على الحِقدِ الشَّديدِ الكامنِ في نفسِ إبليسَ على آدمَ وذرّيَّتِهِ؛ فهو لا يرضَى بصرفِهم عن طريقِ الحقِّ فقطْ، بل يريدُ - كما يدلُّ لفظُ الإغواءِ في الأصلِ - أنْ يجعلَهم مُنغمِسينَ في الباطلِ، مُنهمِكينَ فيهِ، لا يردُّهم عنهُ شيءٌ.

(1) السمين، عمدة الحفاظ: (ضلل).
(2) الراغب، المفردات: (غوى).

﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٥﴾ [ص: 84 - 85]

۞ مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

جـــوابٌ إلـهـيٌّ قـاطـعٌ يـردُّ على غـايـةِ إبـلـيـسَ وطريقته

لمّا حصلَ التَّشوُّفُ إلى جوابِ قول إبليس لربِّ العزَّةِ ﷻ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 82]؛ جاء الرَّدُّ الإلهيُّ القاطعُ بقوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾، أي: بسببِ إغوائِك يا إبليسُ لهم وغوايتِهم بكَ أقولُ الحقَّ لا غيرَه أبدًا، بأنْ أملأَ جهنَّم منكَ ومن أتباعكَ الَّذين استجابوا لك، وساروا خلْفَك[1]، أي: جاء قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ﴾؛ تفريعًا على قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ [ص: 82][2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾: (حقق) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصحَّته، فالحقُّ: نقيضُ الباطل[3]، والحقُّ في الأصل: الثُّبوتُ، يُقال: حَقَّ الأمرُ: ثبتَ، واستقرَّ، ووَجَبَ، وقيل: أصلُه: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعُهُ حُقوقٌ وحِقاقٌ، والحَقيقَةُ: الشَّيْءُ الصَّحيحُ يَقينًا، والحقُّ: اسمٌ من أسماءِ اللّهِ تعالى، ومن معاني الحقِّ أيضًا: الصِّدقُ، والعدلُ، والإسلامُ، وأمرُ النَّبيِّ ﷺ، وما أتى به مِنَ القرآن[4]، والمرادُ بالحقِّ في الآية: إمّا اسمه ﷻ، أو نقيضُ الباطل، وعظَّمَهُ اللّهُ تعالى بإقسامه به[5]، أو القولُ الثّابتُ الَّذي لا يقدرُ أحدٌ على نقضهِ ولا نقصه[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 427.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(4) السّمين، عُمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 219.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 427.

2) ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾: أصلُ (ملأ) يدلُّ على المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ، ومَلَأْتُ الشَّيءَ أملَؤُهُ مَلئًا، والمِلْءُ: الاسمُ لِلمِقدارِ الَّذي يُملَأُ، وسُمّيَ لِأنَّهُ مُساوٍ لِوِعائِهِ في قَدْرِه[1]، وملأ الكأسَ وغيرَه: وضعَ فيه قدرَ ما يسَع من الماء وغيره، ومعناه المحوريُّ: تجمُّعُ الشَّيءِ في أثناءِ ظرفٍ، حتّى لا يبقى في الظَّرفِ فَراغٌ، أي: شغلُ كلِّ فراغِ الظَّرْف بمادَّة[2]، ومعنى ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ.

3) ﴿جَهَنَّمَ﴾: اسمُ علم للنّار الَّتي يُعذِّبُ اللهُ بها في الآخِرَة، يُقالُ: بئرٌ جهنَّم، وجَهَنّام (بتثليث الجيم): بعيدةُ القَعْر، ومنه اشتقاقُها، والمشهورُ عند النُّحاة أنَّها عربيَّةٌ، وأنَّ منْعَها من الصَّرفِ للعَلَميَّة والتَّأنيث، ووزنُها فعنَّل، واختُلِفَ في نونها بين الزّيادة والأصالة، وقيل: هي لفظَةٌ أعجَميَّةٌ لا تَنصَرِف لِلعُجْمَةِ والتَّعريف[3].

4) ﴿تَبِعَكَ﴾: أصْلُ (تبع) التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتُهُ، واتَّبَعْتَهُ، وأتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ[4]، فتارةً يكون بالجسم نحو تَبعتُهُ في الطَّريق، واتَّبعتُهُ فيها، وتارةً بالامتثال، يُقالُ: تَبِعَ الشَّيْءَ: سارَ في إثْرِه، وأتْبَعَ فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعهُ يُريد بِهِ شرًّا[5]، والاتِّباعُ: اقتفاءُ الأثر، والمَشْيُ وراءَ الغير، ويكونُ مجازًا في العَمَلِ بقولِ الغيرِ وبرأيِه، وفي الاعتقادِ باعتقادِ الآخر[6]، ومعنى ﴿تَبِعَكَ﴾ في الآية، أي: امتثَلَ لكَ في الغوايةِ والضَّلالِ بسوءِ اختياره[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ الحقُّ سبحانه في ردِّه على إبليسَ: فالحقُّ قسمي ويميني - ولا أقولُ إلّا الحقَّ، وكُلُّ شيءٍ قلتُه؛ ثبتَ، فلا يقدرُ أحدٌ على نقضِه ولا نقصِه - لأملأنَّ جهنَّم من

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ملأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (جهنم)، وأبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 317، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (جهن)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (جهنم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (تبع).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 628.
(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 452.

قولُ الحقِّ ووعدُ اللهِ الصّادقِ بأنَّ جهنَّمَ دارُ إبليسَ وأتباعِه

جنسِكَ يا إبليسُ، وممَّنْ تبعكَ من النّاسِ جميعًا؛ لأنَّ هذا جزاءُ مَن عصاني[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآيةِ عمّا قبلها:

استئنافٌ مبيِّنٌ لحكمِ اللهِ في إبليس ومن يتَّبعه

لم يأتِ البيانُ الإلهيُّ بعاطفٍ بين هذه الآية: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾، والآياتِ الَّتي قبلها؛ إمّا لأنَّ الآيةَ جاءتِ استئنافًا بيانيًّا، فبينَ الجملتين شبهُ كمالِ اتِّصال، وكأنَّ سائلًا يسأل: ما الجوابُ الإلهيُّ على ما قال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 82]؟ هل سيتفلَّتُ إبليسُ وأتباعه الذين يغويهم مِن العقاب، أم إنَّ العقوبةَ ستلحقُ بهم؟ وهل سيكونُ مقابلَ الباطلِ والكذبِ - الَّذي يدَّعيه إبليسُ - الحقُّ؟ فكانت هذه الآيةُ والَّتي بعدها جوابًا على ذلك.

أو لكون الآيةِ جاريةً على طريقةِ المُحاوَراتِ، أي: إنَّ قولَه: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ جوابٌ على قولِ إبليس في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 82]؛ ذلك لأنَّ السّياقَ سياقُ محاورةٍ وإيرادِ قولٍ، ثُمَّ الردُّ عليه على التَّرتيبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿قَالَ﴾، وإشارة المضيِّ فيه:

محاورةٌ فيها تشويقٌ لمقولِ القولِ واستدعاءُ الإقبالِ على سماعِهِ لعظمِ مضمونه

الأصلُ في القولِ أنَّه الكلامُ على التَّرتيب[2]، ولذا كان تعبيرُ البيان القرآنيِّ بالقولِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ﴾ مناسبًا للسّياق الذي هو سياقُ محاورةٍ وإيرادِ قولٍ، ثمَّ الردُّ عليه على التَّرتيبِ؛ إذ بدأ بقولِه سبحانه: ﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ٧١﴾ [ص: 71]، ثم جاءَ خطابه سبحانه لإبليس بقوله: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ [ص: 75]، وهكذا ختمَ هذا الحوار بما بدأ به، وفي التَّعبير بلفظِ القول

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 427، وطَنطاوي، التّفسير الوسيط: 12/ 183.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (قول).

كذلك تشويقٌ لمقولِ القولِ، ولفتُ الانتباهِ إليه، واستدعاءُ الإقبالِ على سماعه، بما يدلُّ على أهمّيَّته وعظمِ مضمونه، وأنَّ قوله سبحانه حقٌّ ثابتٌ لا يتبدَّلُ، ولا يتغيَّر.

وجاء بصيغةِ الماضي؛ ليدلَّ على تحقُّقِ وعدِ اللّهِ الصّادقِ المبين ووقوعِه وإتمامه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الحقَّ الذي يقوله الحقُّ سبحانه لا خُلفَ فيه، ولا ريبَ في حصوله.

في نسبةِ القولِ الحقِّ إلى اللهِ القويِّ العزيز تفخيمٌ لشأنِ المقولِ وتعظيمٌ له

مرجعُ ضمير الفاعل في الفعل ﴿قَالَ﴾:

يرجعُ الضَّمير في الفعل ﴿قَالَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ﴾ إلى اللّهِ ﷻ؛ لأنَّ الكلامَ جاء تفريعًا، وردًّا اللّهُ القويُّ العزيز فيه على قولِ إبليسَ في قوله تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢﴾ [ص: 82][1]، وقد جاء عن مجاهدٍ في قولِه: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾، يقولُ اللّهُ: (أنا الحقُّ، والحقَّ أقولُ)[2].

وفي عودِ ضمير القولِ إلى اللّهِ تعالى تعظيمٌ وتفخيمٌ لهذا القولِ ومضمونه، من أنَّ اللّهَ هو الحقُّ، وقولَه هو الحقُّ؛ لأنَّ عظمةَ المقول من عظمةِ القائل، وهو العزيزُ العظيمُ الجبّارُ المنتقمُ.

تفريعٌ من الحقِّ سبحانه على كلامِ إبليس

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾:

جاءتِ الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾؛ تفريعًا على قولِ إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢﴾ وترتيبًا عليه[3]، أي: لمّا قال إبليسُ، وأقسمَ أنَّه سيُغوي عبادَ اللّهِ إلّا المخلصين؛ جاء الجوابُ من ربِّ العالمين، وهو من بابِ تفريعِ كلامِ متكلِّمٍ على كلامِ متكلِّمٍ آخرَ[4]، ومجيءُ التَّفريعِ مِنَ المتكلِّمِ على ما هو من كلامِ المخاطَبِ فيه إلزامٌ بالحُجَّة[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 149.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 225.

اللهُ هو الحقُّ، وقد عظَّمَ كلَّ ما هو حقٌّ

معنى (ال) في قوله: ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾:

(ال) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾ إمّا عهديَّةٌ، إنْ كان المقصودُ بالحقِّ هنا اللّه، والحقُّ اسمٌ من أسماءِ اللّه سبحانه تعالى، قال تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾ [النور: 25]، والمعنى: فأنا الحقُّ، أو أقسمُ بنفسي، وإمّا جنسيَّةٌ، إنْ كان المقصودُ هنا جنسَ الحقِّ الَّذي هو نقيضُ الباطل، وقد عظَّمه اللّهُ تعالى بإقسامِه به[1]، أو بوصفِ كلامِه سبحانه به.

الحقُّ مِنَ اللهِ حقٌّ ثابتٌ عدلٌ صادقٌ يقينٌ لا يأتيه الباطل

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(الحقِّ) في قوله: ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الحقِّ في قوله: ﴿فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾؛ مناسبةً للسّياق، فتأكيدُ إبليسَ عزمَهُ بالقسم ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: 82] قوبل بتأكيدِ مثلِه، باستعمالِ لفظِ الحقِّ من اللّهِ الحقِّ العزيزِ الغالبِ، فلفظُ الحقِّ دالٌّ على أنَّ ما بعده حقٌّ ثابتٌ لا يتخلَّف[2]، أي: ناسبَ هذا اللَّفظُ اسمَ اللّهِ الحقَّ، وقد قيل: الحقُّ هو الَّذي لا يزاحمه في ذاته ضدٌّ[3]، وناسبَ قوله الحقَّ والرَّدَّ على باطلِ إبليس، فالباطلُ ضدُّ الحقِّ[4]؛ ولأنَّ لفظَ الحقِّ أوسعُ مدلولًا وأشملُ مضمونًا، فهو يدلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[5]، وعلى ثبوتِ الشَّيءِ ولزومه[6]، وعلى الصِّدقِ والصَّوابِ، فهو لفظٌ عامٌّ لصدقِ المقالِ وصوابِ الفعال، يقال: قولُ حقٍّ، كقولك: صوابٌ[7]، والحَقيقَةُ: الشَّيءُ الصَّحيحُ يَقينًا[8]، ويدلُّ كذلك على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(3) تفسير الراغب الأصفهاني: 1/ 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق)، والزمخشري، الكشاف: 4/ 108.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(7) تفسير الراغب الأصفهاني: 1/ 129.
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط: (حق).

العدلِ، وعلى اسمِ اللّهِ، والقرآنِ الكريم، والإسلام[1]، وعلى المطابقةِ والموافقة[2].

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾:

اعتراضٌ مبيِّنٌ ومقرِّرٌ أنَّ حكمَ اللهِ ووعدَهُ الصّادقَ ممّا لا يُخلفُ أصلًا

الواو في قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضيَّةٌ، والجملةُ معترضة، ومعناها: لا أقولُ إلّا الحقَّ، والاعتراضُ إمّا بينَ المقسم به: (فالحقُّ قسمي)، والمقسمِ عليه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾[3]، ويكون الاعتراضُ مقرِّرًا لمضمونِ الجملةِ القَسَميَّةِ، أو بين جملة: (فأنا الحقُّ، أو فقولي الحقُّ)، وقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ الَّتي هي جوابٌ لقسمٍ محذوفٍ، أي: (واللّهِ لأملأنَّ)، ويكون الاعتراضُ مقرِّرًا لمضمونِ الجملة غير القسميَّة، أي: تقريرُ أنَّه تعالى هو الحقُّ أو قوله الحقُّ[4]، وبناءً على هذا القول لا حاجةَ للقَسم؛ إذ الجملةُ الاعتراضيَّة أغنَتْ عنه، فوعدُ اللّهِ تعالى حقٌّ لا يحتاجُ إلى قَسم عليه؛ ترفُّعًا من جلالِ اللّه عن أنْ يقابلَ كلامَ الشَّيطانِ بقسمٍ مثله[5].

معنى (ال) في قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾:

قولُ اللهِ يعمُّ كلَّ حقٍّ ثابتٍ وعدلٍ وصحيحٍ وصادقٍ

(ال) التَّعريف في قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ إمّا عهديَّةٌ، معهودُها ذكريٌّ، وهو قوله ﴿فَٱلْحَقُّ﴾، والمعنى: (فالحقُّ قولي، والحقَّ أقول)، وإمّا جنسيَّةٌ، تعني: أنَّ قولَهُ يعمُّ كلَّ حقٍّ ثابتٍ وعدلٍ وصحيحٍ وصادقٍ ويقينٍ، أي: كلَّ ما هو نقيضُ الباطل.

والنَّتيجةُ على التَّقديرين واحدةٌ، وهي عمومُ الحقِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾، فلامُ ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ عهديَّةٌ تعود إلى ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ التي لامُها جنسيَّةٌ.

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 186.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (حقق).
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 108، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 230، والسمين، الدرّ المصون: 9/ 400.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.

التَّعبيرُ بلفظ ﴿أَقُولُ﴾، وعودُ الضَّمير فيه:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ بالقولِ، وهو لفظٌ يدلُّ في أصله على النُّطقِ والكلام[1]، وذلك لبيانِ أهمّيَّةِ مقولِ القول في الآية، وتعظيمِ شأنه، والتَّشويقِ له، ولفتِ الانتباه إليه، واستدعاءِ الإقبالِ على سماعه.

عظمةُ القائلِ تدلُّ على عظمةِ مقولِ القولِ وتستدعي الإقبالَ عليه

وفي نسبتهِ القولَ إلى اللّهِ تعالى تعظيمٌ وتفخيمٌ لهذا الحقِّ؛ لأنَّ القائلَ عظيمٌ وجبّارٌ ومنتقمٌ، وتخويفٌ وتحذيرٌ لإبليسَ، ولمن تبعهُ لإعراضِهم عن هذا الحقِّ.

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿أَقُولُ﴾:

جاء الفعلُ ﴿أَقُولُ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ بصيغة المضارع؛ ليعطيَ معنى الاستمرارِ والدَّيمومة والتَّجدُّد لهذا القولِ الحقِّ الصادرِ عن اللّه سبحانه، أي: فأنا أقولُ الحقَّ دائمًا، وليفيدَ الاستحضارَ لحالِ الماضي الَّذي كانتْ فيه هذه المحاورة، وكأنَّه حاضرٌ، فأثارَ في المخيِّلة أنَّه لمّا قال إبليسُ: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ بصيغة المضارع؛ جاءَ الجوابُ بالصّيغة نفسِها، بمعنى كلَّما أرادَ إبليس إغواءَ أحدٍ، واستجابَ له؛ فجزاؤه قولُ اللّهِ الحقِّ: أنْ يملأَ جهنَّم مِن إبليس ومِن أتباعه، وهذا هو حالُ آدمَ وذريَّته مع إبليس والشَّياطين من زمنِ خَلقِ الخلقِ إلى قيامِ السّاعة، فصوِّرَتِ المحاورةُ للمخاطَبين، وكأنَّها أحداثٌ حَيَّةٌ أمامهم يشاهدون، ويسمعون أقوالَ المتحاورين فيها.

وعدُ اللهِ الحقُّ متجدِّدٌ مع كلِّ إغواءٍ لإبليسَ وجنوده

وهذا فيه تبشيرٌ وتطمينٌ للمؤمنين، وتهديدٌ لإبليس وللكافرين؛ لأنَّ قولَهُ سبحانه بالمرصادِ لإغواءاتِهم.

موقعُ جملة: ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾:

جاءتْ جملةُ المبتدأ والخبرِ في قوله سبحانه: ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (قول).

مقولُ قولٍ فيه تخويفٌ ووعيدٌ للمتبوعين والتّابعين

محلِّ نصبِ مقولِ القول، وجاءتْ ردًّا وجوابًا على قولِ إبليس لربِّه بأنَّه سيغوي عبادَ اللّه، ويتضمَّنُ هذا الردُّ التَّهديدَ والوعيدَ لإبليس وجنسه، وممَّنْ تبعهُ مِن النّاس جميعًا بعذابِ النّارِ العظيمة.

قـولُ الـلـهِ سبحانه مقصورٌ على الحقِّ

بلاغةُ القصرِ في جملة: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾:

في تقديم المفعول (الحقَّ) على فعله ﴿أَقُولُ﴾ في قوله سبحانه: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ إفادةُ الحصرِ والقصرِ، والمعنى: أنَّ اللّهَ ﷻ لا يقولُ إلّا الحقَّ، ولا يقضي إلّا بالحقِّ، ولا يطلبُ إلّا الحقَّ[1]، وأنَّ كلَّ ما قدَّرهُ اللّهُ تعالى فهو حقٌّ.

في تنوُّعِ القراءات مزيدُ تأكيدٍ للمعنى

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة في قوله: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ قراءتانِ متواترتانِ، فقد قرأها الجمهورُ بالنَّصب (فالحَقَّ)، وانتصابُه إمّا على المفعوليَّة المُطلَقة بدلًا عن فعلٍ مِن لفظه محذوف، تقديرُهُ: (أُحِقُّ حقًّا)[2]، أو أنْ يكون انتصابُهُ على القسم أو شبيهًا بالقسم، والتقدير: حقًّا لأملأنَّ[3]، أو على الإغراء، بمعنى: الزموا، أو اتَّبعوا الحقَّ[4]، "والأوَّل أشبه؛ لأنَّه خطابٌ من اللّهِ لإبليس بما هو فاعلٌ به وبأتباعه"[5].

وقرأها عاصمٌ وحمزةُ بالرَّفع ﴿فَٱلْحَقُّ﴾[6]، على أنَّه لَمّا تعرَّف باللّام؛ غلبتْ عليه الاسميَّة، فتُنوسي كونُهُ نائبًا عن الفعلِ، وهذا الرَّفعُ إمّا على أنَّه مبتدأ والخبر محذوف، أي: (فالحقُّ قولي، أو فالحقُّ قسمي، أو فالحقُّ مني)، أو (فالحقُّ لأملأنَّ جهنَّم)، وتكونُ جملةُ القسم قائمةً مقامَ الخبر، أو على الخبريَّة، أي: خبرَ مُبْتَدأٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13005.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 242، وابن الجزري، النشر: 2/ 362، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 306.
(3) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 5/ 444.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 242.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 242.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 362.

مَحْذوف، تَقديرُهُ: (فقولي الحقُّ)، وتكون جملةُ (لأملأنَّ جهنَّم) مفسَّرَ القولِ المحذوف[1].

وفي الجمع بين القراءات مزيدُ تأكيدٍ للمعنى، سواءٌ على تقدير المفعوليَّة المطلقة، أو الإغراء، أو الابتداء والخبر، أو القسم.

وأمّا الحقُّ الثاني ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾؛ فلا اختلاف في نصبه بين قرّاء الأمصار كلِّهم، بمعنى: وأقولُ الحقَّ[2].

معنى (اللام) في قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾:

في قضاءِ اللهِ المؤكَّدِ النافذِ إبطالٌ لغايةِ إبليس ومقصدهِ ومنهجه في الإغواء

اللّامُ في قوله سبحانه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ إمّا داخلةٌ على جوابِ القسم لقوله: ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾، والتقدير: (فالحقُّ قسمي لأملأن)، أو واقعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوف، والتَّقدير: (واللهِ لأملأنَّ)[3].

وفي التَّقديرين أفادتِ التَّوكيدَ بأنَّ اللهَ سيملأُ جهنَّمَ مِن إبليسَ وجنسه، ومن الغاوين الَّذين اتَّبعوه مِنَ الإنس، وفي هذا التَّوكيدِ إبطالٌ لغايةِ إبليس ومقصده ومنهجه في الإغواءِ والإضلال، وفيه تهديدٌ لكفّارِ قريش في زمنِ الرِّسالة، ولكلِّ عاصٍ مِنَ الإنسِ والجنِّ، وتسليةٌ لرسولِ الله ﷺ، وتثبيتٌ لقلبه؛ إذ إنَّ القَسَمَ من أهمِّ أبوابِ التَّوكيد، وأوسعِ درجاته.

دلالةُ التَّعبيرِ بالملْءِ في الفعل ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾:

في امتلاءِ جهنَّم دليلٌ على كثرة أهلها وشدَّةِ التَّضييقِ والتَّنكيلِ بهم

عبَّر البيانُ الحكيمُ بمفردة ﴿لَأَمۡلَأَنَّ﴾ دون غيرها، فلم يقلْ: (لأُدخلنَّ) أو (لأعبِّئَنَّ)؛ للدّلالةِ على كثرةِ من يتبعُ إبليس، ويتأثَّرُ به، وينحرفُ معه عن الطَّريق المستقيم، وقلَّةِ المُخْلَصينَ مقابلَ ما تمتلأُ به جهنَّم مِن إبليس والشَّياطين وأتباعه، فالملءُ يدلُّ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 241، وتفسير الجلالين، ص: 605، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 243.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 427، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.

الكثرة[1]؛ لأنَّه شغلُ كلِّ فراغِ الظَّرْفِ بمادَّةٍ حتى لا يبقى في الظَّرفِ فَراغٌ، فأصلُ (ملأ) يدلُّ على المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ[2]، بخلافِ لفظ التَّعبئة والتَّهيئة والتَّجهيز، فإنَّها لا تدلُّ على هذا المعنى، ولهذا جاء في سورة الأعراف أنَّ إبليسَ قال عن أتباعه أنَّهم الكثرة: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 17]، ووصفَ اللّٰهُ عباده الصّادقين الشّاكرين بأنَّهم القلَّة، فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13].

كما أنَّ التَّعبيرَ بالملء أنسبُ للسياقِ الذي هو سياقُ تهديدٍ وتخويفٍ وتحذيرٍ، وفي اللَّفظ كذلك دلالةٌ على ضيقِ الفسحة، وأنَّ جهنَّم ليس فيها سعةٌ أو منفرجٌ لأهلها، فهي ظرفٌ قد امتلأتْ بالمظروف، وفي هذا زيادةٌ في العذاب لهم.

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾:

تتابعُ دخولِ المتبوعينَ والأتباعِ جهنَّمَ وتصويرُ مشهدِ امتلائها بهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن فعل جواب القسم: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ بصيغة المضارعة، لإمكانيَّةِ توكيده باللّام الَّتي لا تدخلُ على الفعل الماضي، وبنونِ التَّوكيد الثَّقيلة الَّتي لا تدخلُ إلّا على المستقبل[3]، وللدَّلالةِ على تتابعِ دخولِ المتبوعينَ والأتباعِ جهنَّمَ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا﴾ [الأعراف: 38]، وقد قال ﷺ: «وأمّا النّار؛ فلا تزالُ تقول: هل مِن مزيد؟»[4]، ولتصويرِ مشهدِ امتلاءِ جهنَّم التي لا يَعلمُ عمقَها وسَعتها إلّا اللّٰهُ، بما يحمله هذا التَّصوير من تهديدٍ وتخويفٍ لإبليس ومن تبعَهُ من الكافرين.

---

(1) عياض، مشارق الأنوار: 1/ 379.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ملأ).

(3) ابن الأثير، البديع: 1/ 659.

(4) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56]، رقم: (7449).

معنى (النّون) المتَّصلةِ بالفعل ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾:

النّونُ في قوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ هي نونُ التَّوكيد الثَّقيلة، وقد جاءَتْ هنا لتأكيدِ المعنى وتقويتِهِ بأقصرِ لفظٍ؛ إذ إنَّها تلازمُ القَسَم، وهي بمنزلةِ القَسَم، وبمنزلةِ تكرارِ الفعل، أي: تأكيدُ وعيدِ اللّه تعالى بأنْ يملأ جهنَّم من إبليس والشَّياطين وأتباعه، ولتفيدَ تخليصَ المضارع للزَّمنِ المستقبل، وهو هنا يومُ القيامة، ولتفيدَ كذلك الإحاطةَ والشُّمولَ عندما يكونُ الكلامُ لغيرِ الواحدِ[1]، أي: لأملأنَّ جهنَّم منك وممَّن تبعكَ كلَّكم فردًا فردًا، وهذا التَّوكيدُ فيها يناسبُ توالي المؤكِّدات في هذا الفعل ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مِن لام القسم، وإضافةِ الفعلِ إلى ذاتِهِ الشَّريفةِ بصيغة العظمة، وكذا المؤكِّدات في سياقِ الآيات.

نونٌ زادتْ توكيدَ البيانِ بيانًا بأقصرِ لفظٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿جَهَنَّمَ﴾ هنا دون أسماءِ النّار الأخرى:

استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ جهنَّم في قوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ دون غيرها كالنّار والجحيم والسَّعير؛ لكون معنى لفظِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ أنسبَ للسّياق والمقام، الَّذي يتحدَّثُ عن تأكيدِ ملءِ جهنَّم مِن إبليس ومَنْ تبعه، ويشيرُ إلى اتِّساعها، وكثرةِ الدّاخلين فيها، فناسبَ استعمال لفظِ جهنَّم الذي يدلُّ على بُعد القَعر، يقال: بئر جهنَّم: بعيدةُ القعر[2]، قال ﷺ: «يهوي بها في جهنَّمَ سبعين خريفًا»[3]، كما أنَّها أنسبُ في سياقِ الرَّدِّ على إبليس، وهو أصلُ الضَّلال والإضلال، فناسبَ أنْ يذكرَ أشهرَ الأسماء للنّار وأكثرها ورودًا في القرآن، فقد وردَتْ سبعًا وسبعين مرَّةً، بما يدلُّ على شدَّةِ أثرها في التَّخويف.

نارٌ بعيدةُ القعرِ عظيمةُ الحجمِ يملؤها اللهُ بإبليس ومن تَبعهُ

---

(1) حسن، النحو الوافي: 4/ 168.

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (جهنم).

(3) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب كفّ اللسان في الفتنة، رقم: (3970).

تهديدُ اللهِ يشملُ إبليسَ وجنسه مِنَ الشَّياطين

معنى (مِن) في القيد ﴿مِنكَ﴾:

جاءتْ (مِنْ) في ﴿مِنكَ﴾ من قوله سبحانه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ بيانيَّةً، قد بيَّنتْ ما دلَّتْ عليه كلمةُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ من مقدارٍ مبهم، ولمّا كان شأنُ مدخولِ (من) البيانيَّة أنْ يكونَ نكرةً؛ تعيَّنَ اعتبارُ كافِ الخطابِ في معنى اسم الجنسِ، أي: (مِن جنسِ إبليسَ) بتقدير مضاف، وهم الشَّياطين[1]؛ إذ لا تكون ذاتُ إبليس مَلَأً لجهنَّم[2]، وتقديرُ المضافِ أولى مِنَ التَّجوُّز في ضميرِ ﴿مِنكَ﴾ بأنْ يُقال: هو مَن كان مثلَه، إمّا بالتَّغليبِ أو بعموم المجازِ[3].

اشتراكُ إبليسَ ومن تبعهُ في المعصيةِ والعقوبةِ

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾:

جاءتِ الواو في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ عاطفةً، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿مِنكَ﴾، أي: عطفتِ الَّذين اتَّبعوا إبليس في الغوايةِ على الضَّمير، وهو كافُ الخطابِ في ﴿مِنكَ﴾ العائدُ على إبليس[4]، بجامعِ أنَّ كليهما لبيانِ جنسِ الدّاخلين في النّار، أي: اشتراكهم في دخولِهم جهنَّم؛ لاشتراكهم في المعصية بالضَّلالِ أو الإضلالِ.

وعيدُ اللهِ بملءِ جهنَّم يشملُ كلَّ التّابعين لإبليس من الإنس

معنى (مِنْ) و(مَنْ) في قوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾:

(مِمَّن) في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ مركَّبةٌ من حرفين، أي: (مِنْ مَنْ تبعك)، فـ(مِنْ) الأولى حرفُ جرٍّ، وهي بيانيَّةٌ شأنها شأنُ (مِن) في قوله: ﴿مِنكَ﴾، أي: بيَّنتِ الإبهامَ الذي دلَّتْ عليه كلمةُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾[5]،

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 108، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 15/ 499، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.
(4) الدعاس، إعراب القرآن الكريم: 3/ 130، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.

والمعنى: لأملأنَّ جهنَّمَ منك وكلِّ مَن تَبعكَ من بني آدمَ، لا أتركُ منهم أحدًا[1].

وأمّا (مَنْ) الثّانيةُ؛ فهي اسمُ موصول بمعنى الَّذي، والمعنى: مِنَ الَّذي تبعكَ، والموصوليَّة تشيرُ إلى علَّةِ استحقاقِ هؤلاءِ التّابعين لدخولِ جهنَّم مع إبليس، وهي اتِّباعهم له.

دلالةُ التَّعبير في ﴿تَبِعَكَ﴾، وإشارة المضيِّ فيه:

مَن أعرضَ عن نورِ العقل ونورِ الوحي، واقتدى بإبليس؛ استحقَّ دخولَ جهنَّم

استعملَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ الاتِّباع في قوله: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ دون التَّقليد، فلم يقلْ: (وممَّن قلَّدك)؛ لكون لفظِ الاتِّباع أعمَّ من التقليد، الذي يكونُ من غيرِ تأمُّلٍ ولا دليلٍ، كأنَّ هذا المتَّبعَ جعلَ قولَ الآخرِ أو فعله قلادةً في عنقهِ[2]، أمّا الاتِّباعُ؛ فيكون عن دليلٍ، وعن نظرٍ وتأمُّلٍ، وقد يكون عن غير ذلك، وهذا أنسبُ مع حالِ الغاوين الذين اتَّبعوا إبليسَ، فقد أعطاهمُ اللّهُ العقلَ، وجاءهم الرُّسل، فبعضُهم اتَّبع إبليسَ رغمَ معرفةِ الحقِّ، وبعضهم دون تبصُّرٍ به، وكلٌّ مِن الفريقين دعاهم إبليس، فاستجابوا، ووسوسَ لهم، فانحرفوا، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ﴾ [إبراهيم: 22]، كما أنَّ لفظَ الاتِّباع يدلُّ على الموافقةِ الشَّديدةِ والموالاةِ والاقتداء؛ إذ الاتِّباعُ في أصل اللُّغة المشيُ وراءَ الغير واقتفاءُ آثره[3]، وأنْ يأتيَ بمثْلِ فعْلِ الغيرِ لمجرَّد كونِه آتيًا به[4]، وفي هذا تحقيرٌ للغاوين وتصغيرٌ لهم واستخفافٌ بهم؛ لأنَّهم قد ملكوا الآلةَ الَّتي يكتشفون مِن خلالها ضلالَ إبليسَ، وجاءهم الرَّسولُ بالإنذارِ والتَّحذير من أنْ يتَّبعوا الشَّيطان، وأخبرهم أنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ لهم، ولكنْ غلبتهم أهواؤهم وشهواتهم، فاتَّبعوه.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 416.

(2) الجرجاني، التعريفات، ص: 64.

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

(4) الشربيني، السراج المنير: 2/ 392.

وجاء لفظُ الاتِّباعِ بصيغة الماضي، رغمَ أنَّ اتِّباعَ إبليس مازال مستمرًّا؛ إذ وعدُ إبليس إغواءهم بصيغة المضارع، كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82 - 83]، فكان التَّعبيرُ بالماضي؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ الاتِّباع من الغاوين والسَّير وفقًا لِما يغويهم به الشَّيطان.

معنى (مِنْ) في القيد ﴿مِنْهُمْ﴾:

(مِن) في ﴿مِنْهُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ للتَّبعيض، أي: (بعض الناس)، وهم الذين اتَّبعوا إبليسَ، وساروا خلفَهُ، فالوعيدُ بجهنَّم إنَّما هو لبعضِ بَني آدم.

مرجعُ ضميرِ الغَيبةِ في قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾:

يرجعُ ضميرُ الهاءِ في قوله سبحانه: ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إلى بني آدم؛ إذ الكلامُ فيهم[1]، كما في قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص: 82]، ويمكن أنْ يُرادَ بالضَّمير الثَّقلان (الإنسُ والجنُّ)؛ لأنَّهما مكلَّفان بالأوامرِ والنَّواهي.

نكتةُ التَّوكيد بـ﴿أَجْمَعِينَ﴾، وبيان متبوعه:

مبالغةٌ في تحقُّق قولِ اللهِ الحقِّ وشموله جميعَ أهلِ الغواية والإضلال

﴿أَجْمَعِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مؤكِّدٌ معنويٌّ، أكَّدَ به البيانُ القرآنيُّ أحد احتمالين[2]:

الأول: الضَّميرُ، وهو الكاف في ﴿مِنكَ﴾ مع ما عُطِفَ عليه في قوله ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾[3]، والمعنى: لأملأنَّ جهنَّمَ من المَتْبوعينَ والأتباعِ أجمعين، لا أتركُ منهم أحدًا[4]، كقولِه تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 244، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 108، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415 - 416، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239، والمنتجب، الكتاب الفريد: 5/ 445.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307.

(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 108، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 415 - 416.

﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18]، وهذا القولُ هو المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾ [السجدة: 13][1].

الثاني: الضَّميرُ المجرور بـ(مِن) في قوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾، وهم بنو آدمَ، والمعنى: "لأملأنَّها مِنَ الشَّياطين ومِمَّنْ تبعهم مِن جميعِ النّاس، لا تفاوتَ في ذلك بين ناسٍ وناسٍ بعد وجودِ الأتباع منهم، مِن أولاد الأنبياء وغيرهم"[2]، وبعد وجودِ ما لا يجوز منهم، وهو الإغواءُ والتَّبعُ[3].

وفائدةُ هذا التَّوكيد على الوجهين: تأكيدُ القَسَمِ الذي ابتدأتْ به الآية بأنَّه قَسَمٌ مُنعَقدٌ تامٌّ، لا خُلْفَ فيه، والتَّنصيصُ على العمومِ والقطعيَّة في الدَّلالة على ملءِ جهنَّم بالمتبوعين والأتباع أجمعين، أو على ملءِ جهنَّم من إبليسَ وشياطينه ومن تبعَهُ من النّاس أجمعين دونَ استثناءٍ، وذلك لئلّا يظنَّ أحدٌ أنَّ العمومَ نسبيٌّ، وليس استغراقيًّا، وأنَّ المرادَ الأكثرُ أو الأغلب، فحسمَ الأمرَ في كونِهم في جهنَّم، لا يُستثنى منهم أحدٌ.

بلاغةُ توالي المؤكِّدات في: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ﴾... ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

مبالغةٌ في تأكيدِ وعيدِ اللهِ بإدخالِ إبليسَ والشَّياطين ومَن تبعهم جهنَّم

توالتِ المؤكِّداتُ بدايةً من التَّوكيدِ بالاستئنافِ البيانيِّ الموجود في الجملة الذي يقتضي تأكيدَ الحكم، ثمَّ الجملةِ الاسميَّة ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾، الَّتي تَدلُّ على الثَّباتِ وقوَّةِ الحُكْم وبَقائِه، فالحقُّ الذي هو اللّهُ أو قسمُهُ أو قولُه ثابتٌ، ثُمَّ الجملةِ الاعتراضيَّة: ﴿وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ﴾ التي قرَّرتْ مضمونَ الجملة القسميَّة في الآيتين، أو الجملة الخبريَّة ﴿فَٱلۡحَقُّ﴾، والتي تقديرها: (فالحقُّ قولي، أو فالحق أنا)، ثمَّ التأكيدِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 108.
(3) المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد: 5/ 445.

بالجملةِ القسميَّة المؤلَّفة مِنَ القسم في قوله: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾، وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾، أو من القسم المقدَّر، وهو (واللّه) وجوابه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، ثمَّ تقديمِ المفعول ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ على الفعل ﴿أَقُولُ﴾ الذي أفادَ القصرَ، فاللّهُ لا يقولُ إلّا الحقَّ[1]، ثمَّ اللامِ الواقعة في جوابِ القسم ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ الَّتي أفادَتْ توكيدَ ملءِ اللّه لجهنَّم مِن عصاةِ الإنسِ والجنِّ أجمعين، ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة الملازمة للقسم، فهي أيضًا دالَّةٌ على تأكيدِ وعيده، وإضافةِ الفعلِ إلى ذاتِهِ الشَّريفة بصيغةِ العظمة هو ممّا يُلحقُ بالمؤكِّداتِ المعنويَّة، ثمَّ الختمِ بذكرِ المؤكِّد المعنويِّ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ مبالغةً في تأكيدِ القسم، وتحقيقِ العمومِ والشُّمولِ في ملءِ جهنَّم بالمتبوعين من إبليسَ والشَّياطين، والتّابعين مِنَ الإنسِ من دون استثناء، وفي توالي هذه المؤكِّدات مبالغةٌ في تأكيدِ وعيده، بإدخالِ إبليس والشَّياطين ومن تَبِعهم مِنَ الإنسِ جهنَّم أجمعين، وأنَّه لا سبيلَ لنجاتهم، لكي لا يبقى لأحدٍ أدنى شكٍّ وترديدٍ بهذا الشَّأن، وفيه كذلك تهديدُ الكافرين، وأنَّ استمرارهم بالسَّيرِ على خُطا إبليس يؤدّي إلى جهنَّم، وحمْلُهم على المسارعةِ إلى الإسلام، وتسليةُ قلبِ النَّبيِّ ﷺ، وتثبيته وأصحابه على الحقِّ في ظلِّ ما يعانون في مكَّة مِن إيذاءِ الكافرين؛ إذ بهذه المؤكِّدات يزولُ أيُّ شكٍّ في ملءِ اللّهِ النّارَ مِن هؤلاءِ المجرمين.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 238، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 307، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13005.

﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ٨٨﴾ [ص: 86 - 88]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد التَّحذيرِ مِن اتِّباعِ إبليسَ؛ أمَرَ اللهُ رسولَهُ بالبَراءةِ مِن طَريقِهِ

لَمّا تَمَّ ما أرادَ اللهُ مِنَ الدَّليلِ على أنَّ ما ذَكَرَ النَّبيُّ ﷺ للمُشركينَ نَبأٌ عَظيمٌ هم عنه مُعرِضونَ - بما أخبَرَ به مِن الغَيبِ مَعَ ما له مِن الإعجازِ - فثَبَتَ بذلك ما اقتضَى أنَّه صادِقٌ في نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ إبليسَ؛ أمَرَ تعالَى نبيَّه بالبَراءةِ مِن طَريقِ إبليس، وأنْ يَنفيَ عن نَفسِه ما قدْ يُحمَلُ على التَّقَوُّلِ بقَولِه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾(1).

بعد تبليغِ المشركين، قرعَ أسماعَهم بالحُجَّةِ عليهم

ولَمّا أمَرَ اللهُ رَسولَهُ بإبلاغِ المَواعِظِ والعِبَرِ الَّتي تَضَمَّنَتْها هذه السّورةُ؛ أمَرَه عِندَ انتِهائِها أنْ يَقرَعَ أسماعَهم بهذا الكَلامِ الذي هو كالفَذلَكةِ لِلسّورةِ تَنهيةً لها؛ تَسجيلًا عليهم أنَّه ما جاءَهم إلّا بما يَنفَعُهم، وليس طالِبًا مِن ذلك جَزاءً، أيْ: لو سألَهم عليه أجرًا؛ لَراجَ اتِّهامُهم إيّاه بالكَذِبِ لِنَفعِ نَفْسِه، فلَمّا انتَفَى ذلك؛ وجَبَ أنْ يَنتَفيَ تَوهُّمُ اتِّهامِه بالكَذِبِ؛ لأنَّ وازِعَ العَقلِ يَصرِفُ صاحِبَهُ عن أنْ يَكذِبَ لِغَيرِ نَفْعٍ يَرجوه لِنَفْسِه(2).

بعد طلبِ وجوبِ الاحتياطِ في طَلَبِ الدّينِ جاءَ الأمرُ بالنَّظرِ في حالِ الدّاعي

بعدَ أنْ ذَكَرَ القرآنُ طُرُقًا كَثيرةً دالَّةً على وُجوبِ الاحتياطِ في طَلَبِ الدّينِ، خَتَمَ بأنْ يُنْظَرَ في حالِ الدّاعي، وهو النَّبيُّ ﷺ، وفي حالِ الدَّعْوة، ليَظْهَرَ أنَّه حقٌّ أو باطلٌ، ليقيمَ الحجَّةَ على الكافرين، فقال: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾(3).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 432.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 416.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾: أصلُ (سأل) الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، سألهُ الشَّيءَ: طلبَ منه أنْ يعطيَهُ إيّاه، ومن مَعانيهِ أيضًا: الاسْتِفْهامُ، والاسْتِخْبارُ، والاسْتِعْلامُ، والاسْتِفْسارُ[1]، والسُّؤالُ: استِدعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤَدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤَدّي إلى المال، والسُّؤالُ للمعرفةِ قد يكونُ للاسْتِعلام، وقد يكونُ لِلتَّبْكيتِ، واستدعاءُ المعرفةِ جوابُهُ باللِّسان، وتنوبُ عنه اليدُ، أي: بالكتابةِ والإشارةِ[2]، وإذا كانَ السُّؤالُ طَلَبَ بَذْلٍ؛ عُدّيَ فِعْلُ السُّؤالِ بنَفْسِهِ، وإذا كانَ طَلَبَ إخْبارٍ؛ عُدّيَ الفِعْلُ بحرف (عن) أو ما يَنوبُ مَنابَهُ[3]، ومعنى ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ في الآية: ما أطلبُ منكم[4].

2) ﴿أَجۡرٍ﴾: أصلُ (أجر) الكراءُ على العَمَلِ[5]، ومنه سُمّيَ الثَّوابُ أجْرًا؛ لأنَّ اللّهَ يَجْزي العَبْدَ عليه، والأَجْرُ: العِوَضُ، والأجيرُ: فعيلٌ بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلبُ الشَّيء بالأجرة[6]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوَضُ والجَزاءُ على العَمَلِ، والمعنى: لا أطلبُ منكم من أجرٍ تعطونيهِ عليه، أو جعْلٍ تجعلونه لي من مالٍ دنيويٍّ[7].

3) ﴿ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾: مِنَ التَّكلُّفِ، وتكلُّفُ الشَّيءِ هو ما يَفعلُهُ الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مع مشَقَّةٍ تنالُهُ في تَعاطيه، والتَّكلُّفُ: اسمٌ لِما يُفعلُ بمشقَّةٍ أو تصنُّعٍ أو تشبُّعٍ، فصارتِ الكُلْفةُ في التَّعارُف اسمًا للمَشَقَّةِ[8]، وتَكَلَّفَ الأمرَ: اجتَهَدَ يُبيِّنُ فيه أثَرَهُ، وكَلَّفَهُ: أَلْزَمَهُ ما يَظهَرُ فيه أثره، والتَّكليفُ: الإلزامُ[9]، ومعنى ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾، أي: لا أتكلَّفُ، ولا أتخرَّصُ ما لم أؤمرْ به[10]، فما أنا بمدَّعٍ النُّبوَّة باطلًا من غير أنْ يوحى إليَّ[11].

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (سأل).

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سأل).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 194.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 453.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

(6) الراغب، المفردات: (أجر).

(7) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 454.

(8) الرَّاغِب، المفردات: (كلف).

(9) الأزهري، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كلف).

(10) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 230.

(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308 - 309.

4) ﴿ذِكۡرٌ﴾: أصلُ (ذكر) قوَّةُ الشَّيءِ وصلابةُ مادَّتِه، ومنه الذِّكْرُ: جَرْيُ الشَّيءِ على لسانكَ؛ إذ به يقوى وجودُهُ في الأسماع والقلوب، وهو أيضًا: الحِفْظُ للشَّيءِ، والعَلاءُ والشَّرَفُ[1]، والذِّكْرُ: الكتابُ الَّذي فيهِ تَفْصيلُ الدّين، وكلُّ كتابٍ من كُتبِ الأنبياء عليهم السلام هو ذِكْرٌ[2]، فالذِّكْرُ الكَلامُ الموحَى بِهِ؛ ليُتْلَى، ويُكَرَّرَ، فهو للتِّلاوَةِ؛ لأنَّه يُذْكَرُ، ويُعادُ، ولأنَّ فيه تذكيرًا باللّٰهِ واليَوم الآخِرِ، أو لأنَّه بمعْنَى أنَّ به ذِكْرَهُم في الآخَرينَ[3]، والمقصودُ بالذِّكر في الآية: الكَلامُ الموحَى بِهِ، أي: القُرْآنُ[4].

5) ﴿نَبَأَهُۥ﴾: أصلُ (نبأ) الإتيانُ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذي يَنبَأُ من أرضٍ إلى أرضٍ: نابِئٌ، ومنه النَّبَأُ: الخَبَرُ؛ لِأنَّهُ يَأتي من مَكانٍ إلى مَكانٍ، والمُنبِئُ: المُخبِرُ، وهو ظُهورٌ مَسبوقٌ بِخَفاءٍ[5]، والنَّبأُ: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غلبةُ ظنٍّ، ولا يُقال للخبر نبأٌ حتَّى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، ويكون صادقًا[6]، ومعنى: ﴿نَبَأَهُۥ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغَويِّ، أي: ستعلمون خبرَ هذا القرآن بعد زمانٍ علمًا جازمًا، فيزولُ شكُّكم فيه[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةُ تقريعٍ للمشركين لإعراضِهم عن صادقٍ لا يطلبُ إلّا نفعهم

أَمَرَ اللّٰهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ أن يقولَ لِمُشركي قَومِه: لا أسألُكم على هذا الذِّكرِ، وهو القرآنُ الَّذي أتيتكم به مِن عندِ اللّٰه، أو على تَبْليغي إيّاكم رِسالةَ رَبّي أجرًا دُنيويًّا، وما أنا مِنَ الذين يَتصنَّعون، ويتَحلَّون بما ليسوا من أهله حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ذكر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/ 16.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 83، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 309.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نبأ).
(6) الراغب، المفردات: (نبأ).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 310.

ومِنْ ثَمَّ ما هذا القُرآنُ إلّا تَذكيرٌ مِنَ اللّهِ تعالى للعالمين مِنَ الجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ عَظيمٌ لهما في اتِّباعِ أوامِرِه وتَرْكِ نَواهيه، ولَتَعلَمُنَّ أيُّها المشركون باللّه مِن قريشٍ صِدقَ أخْبارِ القُرآنِ، وتحقُّقَ ما فيه، وحقيقةَ ما فيه من الوعدِ والوعيد، بعدَ وقتٍ مِنَ الزَّمانِ، مُحدَّدٍ في عِلمِ اللّهِ تعالَى[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

خطـــابٌ للـمـشـركـين بــالـــدَّعـــوةِ الخالصةِ للنَّجاة

فَصلَ النَّظمُ الحكيمُ جملة: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ عمّا قبلها: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، ولم يربطْ بينهما؛ لما بين الجملتَين من كمالِ الانقطاع، لاختلافهما خبرًا وإنشاءً، فالجملةُ الأولى خبريَّةٌ، والثّانية: إنشائيَّةٌ؛ ولهذا تعيَّنَ الفصلُ بينهما، وقد جاءتْ جملة: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ استئنافَ خطابٍ للنَّبيِّ ﷺ؛ ليُلقي على المشركين القولَ الأخيرَ، وهو الدَّعوةُ الخالصةُ للنَّجاة، الَّتي لا يطلبُ صاحبُها أجرًا دنيويًّا، ولا يتكلَّفُ، ولا يتصنَّعُ، ولا يأمرُ إلّا بما يوحيه منطقُ الفطرةِ القريب، بما يقيمُ به عليهم الحجَّة.

سرُّ التَّعبيرِ بالأمر ﴿قُلۡ﴾:

خـطـابٌ يُـظهـرُ أهـمّـيَّـةَ المقـولِ وصِـدقَ الـنَّـبيِّ الرَّسول

خاطبَ البيانُ الإلهيُّ النَّبيَّ ﷺ في قوله: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ بفعلِ الأمر ﴿قُلۡ﴾، ولم يخاطبِ المشركين بشكلٍ مباشر؛ لتوجيهِ الأسماعِ إلى مضمونِ ما سيُلقى عليهم، أي: لبيانِ أهمّيَّةِ المقول، فإنَّ أصلَ الأمرِ بالقول في مقام التَّصدّي للتَّبليغ دالٌّ على الاهتمام، ولتوكيدِ صدقِ الرِّسالةِ النَّبويَّة، وأنَّ مضمونَ القول هو من عندِ اللّهِ سبحانه، والإيذانِ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ إنَّما هو منتدبٌ لأداءِ هذه المهمَّة، وليس مندفِعًا فيها بالفضولِ ولا متصنِّعًا ولا زائدًا ولا منقصًا،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 243، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.

وليس متوخّيًا منها أجرًا ولا منفعةً، وإنَّ هذا الذي يبلِّغه عن اللّه هو ذكرٌ للعالمين أجمعَ، ولسوف يتحقَّقون مصداقَهُ ومداهُ، والمتبادرُ أنَّ الآياتِ قد استهدفَتْ فيما استهدفَتْهُ تسليةَ النَّبيِّ ﷺ وتثبيته في الوقت نفسه[1].

ويمكن أنْ يكونَ ضميرُ المخاطَبِ بالأمر ﴿قُلۡ﴾ كلَّ واحدٍ من المسلمين المكلَّفين، فهو مأمورٌ بأنْ يقولَ ذلك، بما يحمِّلهم مسؤوليَّةَ التَّبلُّغ، ويدلُّ على أسلوبٍ حواريٍّ استدلاليٍّ في إقامةِ الحجَّة.

غرضُ الأمر في الفعل ﴿قُلۡ﴾:

مـدحٌ وتـكـريـمٌ لـرسـول الـلـهِ وتـذكـيرٌ للمشركين من حالِهِ بما يقيمُ الحجَّةَ عليهم

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ أمرٌ حقيقيٌّ، طُلِبَ فيه الفعلُ من رسولِ اللّه ﷺ على وجهِ الاستعلاءِ، أنْ يقولَ لهم عن نفسهِ هذه المقالة، بغرضِ المدحِ والإكرامِ للنَّبيِّ ﷺ بكونه المكلَّف بالتَّبليغِ عن اللّهِ، وبالتَّهديدِ والوعيدِ للمشركين، وبغرضِ التَّذكيرِ للمشركين بما علموه من حالِ النَّبيِّ ﷺ، والاستشهادِ عليهم بذلك من أنَّه لا يطلبُ أجرًا منهم، ولا يتكلَّفُ حليةً ليستْ له، وليس غرضُه إعلامهم بالمضمون[2].

مفهومُ النَّفي بـ﴿مَآ﴾ في الآية:

في عـمـومِ نَـفـيِ سُـؤالِ الـنَّـبـيِّ الأجـرَ دعـوةٌ لـلـمـشـركـين بالتَّفكُّرِ بشأنه وبصدقِ دعوته

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ دون غيرها من أدواتِ النَّفي؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ من (ليس) و(لم) و(لا)، وهي لمطلقِ النَّفي في الماضي والحاضر والمستقبل، وإنْ كان الأصلُ فيها لنفي الحال[3]، والمعنى عُمومُ نَفيِ سُؤالِهِ ﷺ الأجرَ منهم في أيِّ زمانٍ أو مكانٍ مِن يوم بُعِثَ إلى وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ، بما يدلُّ على مبالغةِ النَّبيِّ ﷺ في نفيِ أيِّ نفعٍ

(1) دروزة، التفسير الحديث: 2/ 359.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 220.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 14/ 276.

دنيويٍّ، أو عرضٍ مادّي ينالهُ لقاءَ دعوته، وعلى دعوتهِ للكافرين إلى أنْ يتفكَّروا بشأنه وبصدقِ دعوتهِ، فعملُهُ لمحضِ رضوانِ الله تعالى.

وهذا العموم قياسُ استِقراءٍ؛ لأنَّهم إذا استَقْرَوا أحوالَ الرَّسولِ ﷺ فيما مضَى؛ وجَدوا انتِفاءَ سُؤالِهِ أجرًا أمرًا عامًّا بالاستقراءِ التّامِّ الحاصِلِ مِن جميعِ أفراد المُشرِكينَ في جميعِ مُخالطاتِهم إيّاه، فهو أمرٌ مُتواتِرٌ بينهم[1].

علّةُ التَّعبيرِ بالسُّؤال في الفعل ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

مبالغةُ النَّبيِّ ﷺ في نفي حرصِهِ على طلبِ الأجرِ على دعوته

التَّعبيرُ بالسُّؤال في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ﴾ دون (الطَّلَب)؛ للإشارةِ إلى مبالغةِ النَّبيِّ ﷺ في نفي حرصِه على طلبِ الأجر على دعوته سواءٌ من مالٍ أو غيره، بما يكونُ أدعى لإيمانهم، وإقامةِ الحجَّة عليهم؛ لأنَّ السُّؤالَ في اللُّغة: اسْتِدْعاءُ معرفةٍ، أو ما يُؤَدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يُؤَدّي إلى المال[2]، والسُّؤالُ: طَلَبُ أحدٍ مِنْ آخَرَ بَذْلَ شَيْءٍ، أو إخبارًا بِخَبَرٍ[3]، بينما الطَّلبُ هو الفحصُ عن وجودِ الشَّيء[4].

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾:

حِرصُ النَّبيِّ ﷺ على نفي طلبه للنَّفعِ الدُّنيويِّ في أيِّ وقتٍ من الأوقات

جاءَ التَّعبيرُ عن السُّؤالِ بصيغة المضارع ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ مقولةِ النَّبيِّ ﷺ لهم المتضمِّنةِ انتفاءَ سؤالِه أجرًا ومنفعةً لنفسِه على دعوته، وتكرُّرِها، لإشعارهم بعدمِ طَمعِه في مالهم، دفعًا لهم للنَّظرِ في نزاهةِ ما جاءهم به؛ طمعًا في إيمانهم، وهذا الاستمرارُ والتَّجدُّدُ في انتفاءِ سؤالِ نوحِ أجرًا ومنفعةً لنفسِه في أيِّ وقتٍ من الأوقات يدلُّ على عظيمِ عفَّتهِ صلوات ربّي وسلامه عليه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308.

(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (سأل).

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 2/ 194.

(4) الراغب، المفردات: (طلب).

معنى (على) في ﴿عَلَيۡهِ﴾ ودلالته:

علوُّ قَدْرِ القرآنِ الكريمِ أو ما يبلِّغهم إيّاه من الوحي

يفيدُ حرفُ الجرِّ (على) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ معنى الاستعلاء، بما يشيرُ إلى علوِّ قَدْرِ القرآنِ الكريم، أو ما يبلِّغهم إيّاه من الوحي، أو ما يدعوهم إليه، وعلى أنَّ إخلاصَه في ذلك، وتعفُّفَهُ عن أخذِ أيِّ أجرٍ منهم جلَّ أو قلَّ من أعلى ما يُلتفتُ إليه.

مرجعُ ضميرِ الغائب في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ على معانٍ متقاربةٍ متعانقةٍ من إيجازِ القرآنِ البليغ

ضميرُ ﴿عَلَيۡهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ المَعلومِ مِنَ المَقام، فإنَّ مَبدَأ السّورةِ قولُه: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1]، فهذا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[1]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ، وهو وإنْ لم يتقدَّم له ذكرٌ، إلا أنَّه مفهومٌ من السّياق[2]، والمعنى: "ما أسألكم على ما جئتكمْ به مِنَ القرآن أجرًا"[3]، أو عائدٌ إلى تبليغِ الوحي[4]، والقرآنُ مذكورٌ فيه حُكمًا؛ لأنَّ القُرآنَ من جملة الوحي[5]، أو عائدٌ إلى الدَّعوة إلى اللهِ تعالى[6]، أي: "ما أسألكمْ على ما أدعوكمْ إليه من طاعةِ اللهِ أجرًا"[7]، وكلُّها معانٍ متقاربةٌ متعانقةٌ تدلُّ على إيجازِ القرآنِ البليغ.

نكتةُ تقديم ﴿عَلَيۡهِ﴾ على: ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾:

اهتمامٌ بالقرآنِ الكريمِ وإهمالٌ للأجرِ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ما هو في محلِّ المفعول به ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ اهتمامًا بالمُقدَّم، وهو القرآنُ الكريم العالي القَدْرِ العظيمُ الجاه،

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 512.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 112.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 109، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 460.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 220.
(7) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 112.

وتشريفًا لها؛ إذ الضَّميرُ في الجارِّ والمجرور يعودُ عليه، وفي تأخيرِ ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ بيانٌ لإهمالهِ الأجرَ وعدمِ الاهتمام به.

معنى ﴿مِنۡ﴾ في القيد ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾:

مبالغةُ النَّبيِّ ﷺ في نفيِ أيِّ نفعٍ دنيويٍّ ينالهُ لقاءَ دعوته

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡرٍ﴾ صلة[1]، لإفادةِ تأكيدِ نفي الأجرِ وعمومه[2]، أي: أغرقَ في النَّفي[3]؛ لأنَّها لو حُذفتْ؛ لَما اختلَّ نظمُ الكلام، والتَّقدير: (ما أسألكم أجرًا)، إلّا أنَّه أُتي بها لتأكيدِ نفي النَّبيِّ ﷺ سؤالَه لأيِّ أجرٍ لقاءَ دعوته، والمعنى: ما أسألكم أيَّ أجرٍ جلَّ أو قلَّ، وفي هذا قطعٌ لأسبابِ الاتِّهام والنُّفورِ عن الدَّعوة، وتأكيدٌ لتزكيةِ دعوةِ النَّبيِّ ﷺ عن المنافع الزّائلة الَّتي يبتغيها أهلُ الدُّنيا.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿أَجۡرٍ﴾:

مبالغةٌ في بيانِ كـمـالِ تعفُّفِه ﷺ عــن أيِّ عِوَضٍ

التَّعبيرُ بالأجرِ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ دون غيره من الألفاظ، كالمال والمنفعة والجزاء وغير ذلك؛ لكونِ الأجرِ أوسعَ دلالةً، فالأجرُ هو العوضُ على عملٍ، سواءٌ كان مالًا أو أيَّ منفعةٍ، من قوَّةٍ أو جاهٍ أو ثناءٍ، أي: نفى رسولُ الله ﷺ أنْ يسألَ قومَه مقابلَ تبليغِ القرآن والوحي أيَّ مالٍ أو ثوابٍ أو جَزاءٍ أو منفعةٍ بجميعِ أشكالها، وفي هذا دلالةٌ على كمالِ تعفُّفه، بما يكون أدعى للتَّفكُّرِ بشأنهِ وبصدقِ دعوته، ولكون لفظِ الأجر أنسبَ مع حالِ النَّبيِّ ﷺ الذي ما دعاهم إلّا إلى ما فيه نفْعُهم وفلاحهم في الدُّنيا والآخرة، وبذلُه كلَّ ما يستطيعُ في سبيلِ ذلك؛ لأنَّ الأجرَ لا يُقالُ إلّا في النَّفعِ دون الضَّرَرِ[4]، بخلافِ الجزاء فإنَّه يُقالُ في النّافعِ والضّارِّ[5]، ولأنَّ

(1) اليمني، البستان: 2/ 337.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة ص: 253.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 432.

(4) الراغب، المفردات: (أجر).

(5) الراغب، المفردات: (أجر).

الأجرَ لا يكونُ إلّا مقابلَ عملٍ[1]، والمالُ يكونُ مقابلَ عملٍ، ويكون بغير عملٍ، كأنْ يأتي مِن إرثٍ أو هبةٍ.

لطيفةُ تنكيرِ ﴿أَجۡرٍ﴾:

﴿أَجۡرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ نكرةٌ في سياق النَّفي، ولذا أفادَتِ استغراقَ النَّفي لكلِّ ما يُطلَقُ عليه أجرٌ دُنيَويٌّ، مِن مالٍ أو منفعةٍ أو غير ذلك، وفيها معنى التَّقليل والتَّهوين والتَّحقير من قيمةِ هذا المطلوب - وهو الأجرُ - عند النَّبيِّ ﷺ، أي: (ما أسألكم أيَّ أجرٍ دُنيويٍّ جلَّ أو قلَّ)[2]، وفي مبالغته في نفي عدم أخذه لأيِّ أجرٍ مهما كان تأكيدٌ على كمالِ إخلاصِه للّهِ في دعوته، وترفيعًا لشأنه، وهذه سنَّةٌ لازمةٌ للرُّسلِ عليهم السلام، فالرُّسلُ ما بُعثوا أُجراءَ لأحدٍ، وليس منهم أيُّ التفاتٍ إلى تفاهاتِ الدُّنيا، ولأنَّه أرادَ الأجرَ الأعلى الباقي ممَّن له قدرةُ عطاءٍ لا نهايةَ لها، كما قال تعالى: ﴿فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [يونس: 72].

> مِن تعلَّقتْ همَّتُهُ بالأجرِ العظيمِ الباقي؛ زهدَ بالأجرِ الدُّنيويِّ الفاني

موقعُ جملةِ: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾:

جملةُ: ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ في محلِّ نصب مقولِ القول: ﴿قُلۡ﴾[3]، فهو أمرٌ وتلقينٌ مِن اللّه بأنْ يقولَ لهم ذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه ﷺ ما ينطقُ عن الهوى إنْ هو إلّا وحيٌ يوحى، فيتضمَّنُ تبليغُ النَّبيِّ ﷺ قومَه - بِنفْيِ سؤاله إيّاهم الأجرَ بأمرٍ مِنَ اللّه - الاستدلالَ على صِدق دعوته وعلى نبوَّته.

> تبليغُ النَّبيِّ قومَهُ انتفاءَ طلبه للأجرِ بأمرٍ من الله دليلٌ على صدقِ نبوَّته

معنى (الواو) في: ﴿وَمَآ أَنَا۠﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ عاطفةٌ، والجملة في محلِّ نصب، معطوفةٌ على جملة مقولِ القول ﴿مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾[4]،

> في العطفِ والحاليَّة بيانٌ لحالِ النَّبيِّ ﷺ في دعوته

(1) ابن منظور، لسان العرب: (أجر).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 220.
(3) صافي، الجدول: 12/ 147.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم: 8/ 193.

بجامعِ أنَّ كليهما نفيٌ يتعلَّقُ بحالِ الدّاعي، وهو النَّبيُّ صلى الله وسلم، مِن أنَّه لا يطلبُ أجرًا دُنيويًّا على القُرآنِ أو تبليغِ ما يوحى إليه، وأنَّه ليس من المتصنِّعين ممّا ليسوا من أهلِه، فهو غيرُ منتحلٍ للنُّبوَّة، وغيرُ متقوِّلٍ على الله؛ لأنَّ المُتكلِّفَ شَيئًا إنَّما يَطلُبُ مِن تكلُّفِه نَفعًا، فالمَعنى: (وما أنا مِمَّن يَدَّعونَ ما ليسَ لهم)[1]، أو أنَّ الجملةَ الأولى تتحدَّثُ عن حالِ الدّاعي، والثانيةَ عن كيفيَّة الدَّعوة، وأنَّها ليستْ ممّا يحتاجُ في معرفةِ صحَّته إلى التَّكلُّفاتِ الكثيرة، بل هي دينٌ يشهدُ صريحُ العقلِ بصحَّته[2].

أو أنْ تكونَ الواو حاليَّةً[3]، والجملةُ حالًا مِنَ الفاعلِ المستترِ للفعل ﴿أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾[4]، والمعنى: (ما أسألكم على تبليغِ القرآنِ والوحي أجرًا دنيويًّا، والحالُ أنّي لستُ مِنَ المنتحلين للنُّبوَّة والمتقوِّلين للقرآن).

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾:

نفيُ النَّبيِّ ﷺ أنْ يكونَ من زمرةِ المتكلِّفين

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ حرفُ جرٍّ، والجارُّ والمجرور متعلِّقان بمحذوفِ خبر (ما) الحجازيَّة، أو بمحذوف خبر المبتدأ ﴿أَنَا۠﴾[5]، و﴿مِنَ﴾ هنا تبعيضيَّة، والمعنى: وما أنا من زمرةِ المتكلِّفين.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾:

في الجنسيَّةِ مبالغةٌ في نفي كلِّ تكلُّفٍ عن النَّبيِّ ﷺ

لامُ التَّعريف في قوله: ﴿ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ تفيدُ العموم، لتشملَ كلَّ ما ينطبقُ عليه اسمُ المُتكلِّف، أي: كلَّ أفرادِ هذه الفئةِ التي تُعرفُ عند النّاس بفئةِ المتكلِّفين، ومن ثَمَّ أفادتِ الآيةُ انتفاءَ جميع التَّكلُّف عن النَّبيِّ ﷺ[6]، والمعنى: (وما أنا مِن الذين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308 - 309.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 16/ 416.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 386.
(4) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 8/ 193، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 463.
(5) صافي، الجدول: 12/ 147.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308.

يَتصنَّعون، ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه من قولٍ ولا فعلٍ، الذين يكلِّفون أنفسهم تزويرَ الكلامِ والتَّصنُّع فيه، وترتيبَه على طريقٍ من الطُّرقِ بنظمٍ أو نثرِ سجعٍ أو خطبٍ أو غير ذلك، أو وضعَ أنفسهم في غير مواضعها[1]، حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّة، وأتقوَّلَ القُرآنَ)[2]، ولعموم اللَّفظ اختُلفَ في معناه على أقوالٍ، وكلُّها صحيحةٌ، وهي: وما أنا مِن المتكلِّفين لهذا القرآن مِن تلقاءِ نفسي، أو مِن المتكلِّفين لأنْ آمركم بما لم أُؤمرْ به، أو بالذي أكلِّفكم الأجر[3]، أو لستُ ممَّنْ يتعسَّفُ في طلبِ الأمرِ الَّذي لا يقتضيه العقلُ، أو لستُ ممَّن يتكلَّفُ لدعوته ما يخرج به عن حدودِ التَّبليغ، فلا أقهرُ أحدًا، أو أخدعه[4]، أو لستُ مِمَّن يتكلَّفُ إظهارَ خلافِ الإضمار، بل أنا على ما عرفتُموني به مِن الصِّدقِ والأمانةِ ومحاسنِ الأخلاق، ولو كان تكلُّفًا منِّي؛ لظهرَ على تطاولِ الزَّمان خلافُه، وذلك دليلُ صِدقي في دعوى رسالتي[5].

دلالةُ التَّعبير بالتَّكلُّف في ﴿ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾:

عصمةُ رسولِ اللهِ ﷺ عن أنْ يأتيَ بما ليسَ هو لهُ أهلٌ

التَّكلُّفُ: مُعالَجةُ الكُلفةِ، وهي ما يَشُقُّ على المَرءِ عَمَلُهُ والتزامُه، لِكَونِه يُحرِجُه، أو يَشُقُّ عليه، ومادَّةُ التَّفعُّلِ فيه تَدُلُّ على مُعالَجةِ ما ليس بسَهلٍ[6]، قال الرّاغب: "وتكلُّف الشَّيء ما يَفعلُهُ الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مع مشقَّةٍ تنالُهُ في تَعاطيه"[7]، فالمُتكلِّفُ هو الَّذي يَتطَلَّبُ ما ليس له، أو يَدَّعي عِلْمَ ما لا يَعلَمُه، ومِن ثَمَّ يكون التَّعبيرُ بالتَّكلُّف في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾ أبلغَ مِنَ التَّعبيرِ مِنَ التَّصنُّع الذي هو مجرَّدُ التَّظاهر بالشَّيء، وهو ليس فيه[8]؛ لأنَّ التَّصنُّعَ لا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 433.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 112.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1112.
(5) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 12/ 528.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 308 - 309.
(7) الراغب، المفردات: (كلف).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (كلف).

يُشترطُ أنْ يكونَ فيه مشقَّةٌ، ومعلومٌ أنَّ ما نفى النَّبيُّ ﷺ التكلُّفَ فيه مِن انتحالِ النُّبوَّةِ أو التَّقوُّلِ على الله بالقرآن، أو إظهارِ خلاف ما يبطنه، تلازمه المشقَّة، كما أنَّ التَّعبيرَ بالتَّكلُّف مناسبٌ لحالِ النَّبيِّ ﷺ الذي لم يكنْ يشقُّ عليه تبليغُ القرآن أو الوحي أو الدَّعوة إلى الله؛ لكونه مُرسَلًا مِن عند الله مُؤيَّدًا بوحيه، ولم تكنْ كذلك أفعاله وأقواله تصدرُ عنه بكُلْفَةٍ ومشقَّةٍ، وإنَّما هي على ما عرفه به المشركون مِنَ الصِّدق والأمانة ومحاسنِ الأخلاق، ولو كان تكلُّفًا منه؛ لظهرَ على تطاولِ الزَّمان خلافُه.

نكتةُ إيثارِ التَّعبير بقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾:

نفيُ كونه مِن زمرةِ المتكلِّفين أبلغُ في نفيِ التَّكلُّفِ عنه

أُتي بالخبر بالجارِّ والمجرور، فقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، ولم يقلْ: (وما أنا متكلِّف)؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ الجملة الَّتي خبرها ﴿مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، فإنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ تعريفُ الجنس، فإخبارُ النَّبيِّ ﷺ عن نفسِه بأنَّه ليس من المتكلِّفين يفيدُ أنَّه ليس من أفرادِ هذه الفئةِ أصلًا، ولا من أهلها الَّتي تُعرفُ عند النَّاسِ بفئةِ المتكلِّفين، والتي ديدنها التَّكلُّف، وهذه الصِّيغة (مِنَ المتكلِّفين) من قبيل الكناية التي هي إثباتُ الشَّيء بإثباتِ ملزومه، فهي أبلغُ من التَّصريح؛ لأنَّها تشهدُ بأنَّه غيرُ معدودٍ في زمرةِ المتكلِّفين.

فائدةُ الجملةِ: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾:

دينٌ يَذُمُّ التَّكلُّفَ، ولا يحتاجُ في معرفةِ صحَّته إلى التَّكلُّف

أفادتِ الجملةُ الخبريَّة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أنَّ ما جاءَ به مِنَ الدِّينِ لا تكلُّفَ فيه، أي: لا مَشَقَّةَ في تكاليفِه، وهو معنى سَماحةِ الإسلامِ، ولا يحتاجُ في معرفةِ صحَّتِه إلى التَّكْليفات الكثيرة، بل هو دينٌ يشهدُ صريحُ العقلِ بصحَّته[1]، وهذا استرواحٌ مبنيٌّ على أنَّ من حكمةِ الله أنْ يجعلَ بين طبعِ الرَّسول ﷺ وبين روحِ شريعته تناسبًا؛

(1) ابن عادل، اللباب: 16/ 463.

ليكون إقبالهُ على تنفيذِ شرعهِ بشراشرِهِ؛ لأنَّ ذلك أنفى للحرجِ عنه في القيامِ بتنفيذ ما أمر به[1].

كما أنَّ في الأمرِ الرَّبّانيِّ للنَّبيِّ ﷺ بالإعلانِ بأنَّه ليس من المتكلِّفين تلقينًا تأديبيًّا رفيعًا للمسلمين بألّا يتَّصفوا بما ليس لهم علمٌ، وبألّا يكونوا فضوليّين فيما ليسَ فيه مصلحةٌ وفائدة[2]، وقد ورد في ذمِّ التَّكلُّف ما جاء عن عبد اللهِ بن مسعود رضي الله عنه قال: (يا أيُّها النّاس: مَن علمَ شيئًا؛ فليقلْ به، ومَن لم يعلمْ؛ فليقلِ: اللهُ أعلم، فإنَّ مِن العلم أنْ يقولَ الرَّجلُ لِما لا يعلم: اللهُ أعلم، فإنَّ اللهَ عز وجل قال لنبيِّكم ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾)[3].

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

نَفْيُ التَّقوُّلِ على القرآنِ مشتملٌ على ثُبوتِ ربّانيَّته

فصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ عن الَّتي قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بين الجملتين من كمالِ اتِّصال، أي: اتِّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ لأنَّ هذه الآية بدلُ اشتمالٍ من جُملة: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ اشتمالِ نَفْيِ الشَّيءِ على ثُبوتِ ضِدِّه، فلَمّا نَفَى بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أنْ يَكونَ تَقَوَّلَ القُرآنَ على اللهِ؛ ثَبَتَ من ذلك أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ للعالمين ذَكَّرَهمُ اللهُ به، أيْ: ليس هو بالأساطيرِ أو التُّرَّهاتِ، ولكَ أنْ تَجعَلَها تذييلًا؛ إذْ لا مُنافاةَ بَينَهما هنا، وعُمومُ (العالَمينَ) يُكسِبُ الجُملةَ مَعنى التَّذييلِ لِلجُملَتَيْنِ قَبلَها[4].

بلاغةُ القصرِ في جملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾:

قصرٌ أثبتَ أنَّ القرآنَ ذِكرٌ لا أساطيرَ، ولا سِحرَ، ولا شِعر

﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ حرفُ نفي، وهو أقوى نفيًا من (ما)، و(إلّا) استثناءٌ، والأسلوبُ هو قصرٌ بالنَّفي والاستثناء، وهو قصر قَلبٍ إضافيٍّ قُلِبَ به حُكْمُ السّامع، أيْ: هو ذِكرٌ، لا أساطيرَ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 309.
(2) دروزة، التفسير الحديث: 2/ 359.
(3) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾، رقم: (4531).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 309.

ولا سِحرَ، ولا شِعرَ، ولا غَير ذلك؛ لِلرَّدِّ على المُشرِكينَ ما وسَموا به القُرآنَ مِن غَيرِ صِفاتِه الحَقيقيَّةِ[1]، وهي بذلك أثبَتَتْ -مِن كَونِ القُرآنِ ذِكرًا- ما أثبتَتْه أوَّلُ آيةٍ في السُّورةِ ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1] على أتَمِّ وجهٍ، مع زيادةِ الوَعيدِ في قولِه: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾[2].

مرجعُ ضميرِ الغيبةِ ﴿هُوَ﴾:

تفخيمٌ وتعظيمٌ لشأنِ القرآنِ واهتمامٌ بكونه ذِكرًا للعالمين

الضَّميرُ ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ مبتدأ و﴿ذِكۡرٞ﴾ خبره[3]، ويرجعُ إلى القرآنِ الكريم، أي: ما القرآنُ إلّا ذكرٌ للعالمين[4]؛ لأنَّه أنسبُ لظاهرِ الكلام، ولدلالةِ السّياقِ على القرآن، فإنَّ القرآنَ هو ما أُمِرَ رسولُ اللّه بتبليغه، ولم يطلبْ على ذلك أجرًا دنيويًّا، ولكونه معلومًا من المقام، فإنَّ مبدأ السّورة قولُهُ: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1]، ويناسبُ فاتحةَ سورةِ الزُّمر الَّتي ابتدأتْ بقولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾.

وقد أتى بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ دون الاسم الصَّريح (القرآن)، فلم يقلْ: (إنِ القرآنُ إلّا ذكرٌ)؛ تفخيمًا لشأنه، لكون الضَّمائرِ أقوى المعارف[5]، ولكون ﴿هُوَ﴾ ضميرَ الشَّأنِ الَّذي يفيدُ الاهتمامَ بالجملة الَّتي بعده، وإذا سمعهُ المخاطَبُ؛ تطلَّع إلى ما بعده.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ذِكۡرٞ﴾، ولطيفةُ تنكيره:

القرآنُ عظةٌ وشرفٌ وتفكُّرٌ وتذكيرٌ بالعهدِ الأوَّلِ في عالَمِ الذَّرِّ

التَّعبيرُ بلفظ ﴿ذِكۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً من غيره، كالتَّذكرة وهي الموعظة، فالذِّكرُ هنا يشملُ الموعظة[6]، والشَّرفَ لهم[7]، وهو مكانةُ العقول، وما يقعُ فيها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 310.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 435.
(3) دعاس، إعراب القرآن: 3/ 130.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 243، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 83.
(5) ابن الحاجب، الكافية في علم النحو، ص: 37.
(6) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 103.
(7) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 461، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 434.

من تفكُّرٍ واقتناعٍ بما تذكَّر به[1]، وهو ضدُّ النِّسيان، يوقظُ النّاسَ من غفلتهم، ويجعلُهم يتعمَّقون في التَّفكير، ويُذكِّرهم بما نسوه من العهدِ الأوَّل عهدِ الفطرةِ الذي أخذه اللّهُ عليهم، وهم في طوْرِ الذَّرِّ، فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، فأقرَّ الجميعُ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: 172][2]، ولكونِه أنسبَ لسياقِ الدَّعوة والتَّبليغ والشَّرفِ ورفعةِ القرآن، بخلاف لفظ (ذكرى)؛ فإنَّها تُستعملُ في سياقِ النِّسيانِ والتَّذكير العادي، كما في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ۝٩٠﴾ [الأنعام: 90]، وأنسبَ لفاتحةِ السّورة في قوله تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: 1]، ولكثرةِ ما وردَ فيها من التَّذكير، كقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ [ص: 17]، و﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾ [ص: 43]، و﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ [ص: 49]، ممّا يدلُّ على أنَّ القرآنَ كأنَّه عقدٌ واحدٌ نُظمَتْ آياتُه وسورُهُ على أكملِ وجهٍ في الاتِّصال المحكم الوثيق، فيدلُّ على عظمةِ الخالقِ وقدرته وعلمه، وأنَّه المعجزةُ الخالدةُ إلى يومِ القيامة.

وقد جاء لفظُ ﴿ذِكْرٌ﴾ نكرةً لإفادةِ التَّفخيم والتَّعظيم، فهو ذِكْرٌ جليلُ الشَّأنِ من اللّه تعالى[3].

معنى (اللام) في القيد: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

القرآنُ ذِكرٌ لكلِّ العالمين مِن الإنسِ والجنِّ

اللّامُ في قوله: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ حرفُ جرٍّ، وهي لامُ الاختصاص، لقصدِ تشريفِ الثَّقلين من الإنس والجنِّ بهذا الاختصاص؛ امتنانًا مِنَ اللّهِ عليهم، وإقامةً للحجَّة.

معنى (ال) في ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

(ال) التَّعريفُ في لفظ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ دخلتْ على جمعٍ، فأدَّتْ إلى شمولِ عموم العالمين، أي: القرآنُ عظةٌ وشرفٌ

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 101، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1112.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13008.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 220.

لكلِّ العالَمينَ من الإنسِ والجنِّ[1] إلى أنْ تقومَ السّاعة، يتذكَّرون به كلَّ ما ينفعهم، من مصالحِ دينهم ودنياهم، فيكون شرفًا ورفعةً للعاملين به، وإقامةَ حجَّةٍ على المعاندين[2]، يفهمُ كلُّ فردٍ من الثَّقلين ما تحتمله قواه ذكيًّا كان أو غبيًّا، على ما هو عليه من العلوِّ الذي لا يدانيه فيه كلامٌ، بخلافِ الشِّعرِ والكهانةِ التي محطُّها السَّجعُ والكذبُ في الاختبارِ ببعض المغيَّبات، فإنَّهما مع سفولِ رتبتهما لا يفهمهما مِنَ العالمين إلّا ذاكَ وذاك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ وسرُّ إيثارِه على (الناس):

ذِكْــرٌ يشملُ الثَّقلين ولا تنفكُّ عنه صفةُ العلمِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ العالمين في قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ دون لفظِ النّاس، لكون (العالَمِينَ) أعمَّ، فهو يشملُ الثقلين؛ إذ هما المكلَّفان بالأوامرِ والنَّواهي، ولو عبَّر بلفظِ النّاس؛ لاقتصرَ على الإنسِ دون الجنِّ، إلّا أنَّه لم يُرِدِ الملائكة، وإنْ كان لفظُ العالمين يشملهم لأجلِ قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾، والذِّكرُ معناه الموعظةُ والتَّخويف، وهو لا يُناسبُ إلّا الإنسَ والجنَّ[4]، كما أنَّ المَلائكَةَ ليسوا مأمورين بالعمل بالقُرآن، وما عداهم من العجماوات والجمادات ليسوا بمكلَّفين[5]، ولأنَّ في لفظِ (العالمين) معنى الوصفيَّة الدّالَّة على العِلم، وتغليبٌ للعقلاء على غيرهم[6]؛ تأكيدًا على قيامِ هذا الذِّكرِ على العلم وعدمِ مناقضته له، وتعريضًا بالكافرين الَّذين عطَّلوا عقولَهم.

بلاغةُ التَّذييل بجملة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾:

ما أرادَ النَّبيُّ صلى الله وسلم بتبليغهم إلّا رِفْعَتَهم في العالمين

بعد تسجيلِ التَّبليغ على المشركين، وأنَّ النَّبيَّ صلّى اللّه عليهم وسلَّم لا يسألُ على تبليغِ الرِّسالة أجرًا في قوله: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 239.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 434.
(4) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1630.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 461.
(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/ 28.

﴿عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، وما هو دَعيٌّ كذّابٌ - حاشاه - يتكلَّفُ القولَ بالقرآن، ويدَّعيه في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ﴾، بل هو رسولٌ حقًّا؛ ختمَ البيانُ الحكيمُ الكلامَ السّابقَ ببيانِ أنَّ القرآنَ ذِكرٌ للنّاس ذكَّرهم اللّهُ به، أي: ليس هو بالأساطيرِ أو التُّرَّهات، أي: لمّا نفى أنْ يكونَ ﷺ قد تقوَّل القرآنَ على اللّه؛ ثبتَ من ذلك أنَّ القرآنَ ذِكرٌ للنّاس ذكَّرهم اللّهُ به[1]، وأنَّ فائدةَ ما أبلغهم رسولُ اللّهِ ﷺ لهم لا له، وذلك في قولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، وفي هذا تنبيهٌ للمشركين وحثٌّ لهم أنْ يُعملوا عقولَهُم، ولا يحجبهم الكِبرُ عن التَّفكُّر في شأنِ القرآنِ والنَّبيِّ ﷺ، فهو ما أرادَ بتبليغهم إلّا رِفعتهم.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾:

في التَّأكيدِ على ظـهـورِ شـرفِ القرآن وعلوِّهِ في العـالَمينَ تبشيرٌ وتهديدٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ عاطفةٌ[3]، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٌ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، باعتِبارِ كون الجملتَين تتحدَّثان عن القرآنِ الكريم، إحداهُما بأسلوبِ القصرِ، والأخرى بأسلوبِ التَّوكيد، والمعنى: القرآنُ ذِكرٌ لا أساطيرُ ولا سحرٌ ولا شِعرٌ ولا غير ذلك، وستَعلَمونَ خَبَرَهُ بَعدَ زَمانٍ عِلْمًا جَزمًا[4]، وفي هذا الجمعِ بين الأسلوبين المؤكِّدين على ظهورِ شرفِ القرآن وعلوِّهِ في العالَمينَ تبشيرٌ للمؤمنين وتهديدٌ ووعيدٌ للكافرين.

معنى (اللام) في قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾:

تـأكيـدُ تـحـقُّـقِ العلمِ اليقينيِّ بحقّيَّةِ القرآنِ تهديدٌ للكافرين وتـبـشـيرٌ للمؤمنين

اللّامُ في ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ موطِّئةٌ للقسم[5]، وقوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ جوابُ قَسمٍ مقدَّرٍ معناه: (واللّهِ لَتَعرِفُنَّ أنتم يا كفّار مكَّة خبرَ صِدقه بَعْدَ حينٍ)[6]، وغرضُ لامِ القسم تأكيدُ الجواب، أي: تأكيدُ تحقُّقِ العلم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 309.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 310.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 386.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 310.
(5) السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، ص: 605، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 386.
(6) ابن عادل، اللباب: 16/ 463.

اليقينيِّ لدى كفّارِ قريش بحقّيَّةِ القرآن، وما تضمَّنَ من وعدٍ ووعيدٍ وصدقِ النَّبيِّ ﷺ بعد حينٍ من الزَّمن، وفي هذا تخويفٌ وتهديدٌ للكافرين، وتبشيرٌ وتطمينٌ للمؤمنين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالعِلم في الفعل (تَعْلَمُنَّ):

إخبارٌ يستدعي التَّفكُّر في شأن القرآن

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ العِلْم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ دون لفظِ المعرفة، فلم يقلْ: (لتعرفنَّ)؛ لكون العلم أعلى درجةً مِنَ المعرفة، واستعماله أنسبُ للسّياقِ؛ لأنَّ عِلْمَهم سيكون في المستقبل عند الموتِ أو يوم القيامة، وهو علمٌ يقينيٌّ لا إنكارَ فيه، وأصلُ العلم إدراكُ الشَّيء على حقيقته، وهو معرفةُ الشَّيء على ما هو عليه[2]، وعَلِمَ الشَّيء حاصلًا: أيقنَ به، وصدَّقه[3]، والمعرفةُ تُستعملُ في العلم القاصر المتوصَّل إليه بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ[4]، والمعرفةُ ضدُّها الإنكار، والعلمُ لا يضادُّه الإنكار، بل يضادُّه الجهل[5]، وفي الإخبارِ المؤكَّد بالقسم بيقينيَّة العلمِ بحقّيَّة القرآنِ والنَّبيِّ والإسلام بعد حين يستدعي تخويفَ الكافرين ودفعهم للتَّفكُّر في شأنِ هذا النَّبأ وصِدقِه.

ولكونِه كذلك أنسبُ لحالِ القائلِ؛ إذ هو إخبارُ وحيٍ لا شكَّ فيه، والمعنى: (وستَعلَمونَ بانتصارِ الإسلام وظهوره، أو اليقين بصدقِ القرآن، أو بنبوَّة النَّبيِّ ﷺ بَعدَ زَمانٍ عِلْمًا يقينًا جَزمًا، فيَزولُ شَكُّكم فيه)[6].

دلالةُ المضارعةِ في الفعل (تَعلَمُنَّ):

عِلمُ الكافرين بحقّيَّةِ الإسلام علمٌ مستمرٌّ في الدُّنيا والآخرة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ المضارعة في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾، للإشارةِ إلى أنَّ العِلمَ الجازمَ الذي يدركون به حقيقةَ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 462.
(2) السمين، عمدة الحفاظ: (علم).
(3) عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (علم).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 502.
(5) الراغب، المفردات: (عرف).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 310.

القرآنِ وصدقَ النَّبيِّ ﷺ، وكلَّ ما أنكروه في الدُّنيا - سواءٌ بعد الموت والبعث يومَ يُكشفُ لهم الغطاءُ عمّا حجبهُ العنادُ والضَّلال عنهم، أو في الدُّنيا بانتصارِ المسلمين عليهم وارتفاعِ شأن الإسلامِ - هو علمٌ مستمرٌّ لا ينقطع[1]، وهذا يشهدُ له الواقعُ في استمرارِ انتشارِ الإسلام رغمَ كثرةِ المحاربين له، كما أنَّ في المضارعةِ تصويرًا لهذا الحدثِ بما يستدعي تخويفهم عند إدراكِ الحقيقة، من مشاهدِ الخيبةِ التي يجدونها فيه يوم لا ينفعهم النَّدم.

معنى (النون) المتَّصلة بالفعل ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾:

في التَّوكيدِ مبالغةٌ في تخويفِ الكافرين دفعًا لهم للتَّفكُّر بشأنِ القرآن العظيم

تدلُّ نونُ التَّوكيد الثَّقيلة الملازمةِ للقَسم في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ﴾ على تأكيدِ وعيده وتهديده للكافرين بإثباتِ حقّيَّةِ القرآن وصدقِ النَّبيِّ ﷺ؛ إذ إنَّها بمنزلةِ القسم، وبمنزلةِ تكرارِ الفعل، وهي تفيدُ كذلك مع التَّوكيدِ الشُّمولَ والعمومَ عندما يكونُ الكلامُ لغير الواحد، وأنَّ هذا العلمَ اليقينيَّ الجازمَ يكون من الكافرين كلِّهم، وتأكيدُ الفعلِ هنا واجبٌ؛ لأنَّه مضارعٌ، جاء في جوابِ القسَم، وجاء مُثبتًا غيرَ منفيٍّ، ومستقبلًا لزمنٍ آتٍ، وغيرَ مفصولٍ عن لامه بفاصلٍ[2]، وفي التَّوكيدِ مبالغةٌ في تخويفِ الكافرين وتهديدهم؛ دفعًا لهم للتَّفكُّر بشأنِ القرآنِ العظيم والنَّبيِّ الكريم ﷺ.

دلالةُ التَّعبير بالنَّبأ في ﴿نَبَأَهُۥ﴾:

شأنُ القرآنِ وكلِّ ما تضمَّنه شأنٌ عظيمٌ لا يُقادرُ قدره

اصطفى البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالنَّبأ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾؛ إذ كلمةُ النَّبأ لا تُقال إلّا للخبرِ العظيم المهمِّ، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ ۝٦٨﴾ [ص: 67 - 68][3]؛ للدَّلالة على أنَّ خبرَ القرآنِ بأنَّه كلامُ اللهِ، أو خبرُ النَّبيِّ ﷺ بأنَّه

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1112.

(2) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/ 209، وابن هشام، مغني اللبيب، ص: 444.

(3) الراغب، المفردات: (نبأ)، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13009.

رسولُ اللّه، أو خبرُ الوعيد الَّذي توعَّدَ اللّهُ المشركين به بأنَّه صدقٌ هو خبرٌ ذو قدرٍ وشأنٍ عظيم، ولكون هذه الكلمة الَّتي لا تُقال إلّا في الأمر العظيم تتناسبُ مع الإيقاعِ المدوّي العميق، الموحي بضخامةِ ما سيكون من العلمِ اليقينيِّ بحقِّيَّة النَّبأ العظيم عند الموت أو يوم القيامة أو عند انتصارِ الإسلام، وذلك في سياقٍ توالَتْ، وتتابعَتْ فيه المؤكِّدات.

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿نَبَأَهُۥ﴾:

في تعدُّدِ مرجعِ الضَّميرِ ثراءٌ في المعنى

يعودُ الضَّميرُ المتَّصلُ، وهو هاء ﴿نَبَأَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ إمّا إلى القرآنِ الكريم، والمعنى: (ولتعلمنَّ نبأ القرآنِ أنَّه حقٌّ)، أو إلى النَّبيِّ ﷺ، والمعنى: (ولتعلمنَّ نبأ محمَّدٍ ﷺ أنَّه رسولٌ)، أو إلى الوعيدِ، والمعنى: (ولتعلمنَّ نبأ الوعيدِ أنَّه صدقٌ)[1]، وفي التَّعبيرِ بالضَّمير وعدم التَّصريح بما يعودُ إليه إشارةٌ إلى تعدُّدِ المعاني الَّتي تتضمَّنها الآية ممّا يجعلُ لها ثراءً، ولو ذكرَ أحدها؛ لاقتصرَ عليه.

دلالةُ التَّقييد بالبعديَّة في قولِهِ: ﴿بَعۡدَ حِينِۢ﴾:

تــراخــي المــدَّة والإمـهـال إبـلاغٌ في الإعـذارِ بما يقطعُ الحجَّةَ، ويُبطلُ الأعذار

يشيرُ النَّظمُ الحكيمُ في التَّعبير بالبعديَّة ﴿بَعۡدَ حِينِۢ﴾ في قوله: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۢ﴾ إلى الإيحاءِ بتراخي المدَّة والإمهال؛ ليُبلِغَ في الإعذارِ إليهم، فتَنقَطِعَ حُجَجُهم، وتَتناهى ذُنوبُهم الَّتي يَستَحِقّونَ الأخذَ بها[2]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ النَّبيِّ ﷺ تأتي مُتتابعةً، منها ما عُلِمَ في عَهدِهِ، ومنها ما عُلِمَ بعدَ ذلك، ومنها ما لا يُعلَمُ إلّا يومَ القيامة[3].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿حِينِۢ﴾، ولطيفة تنكيره:

إبـهـامُ الـوقـتِ أبـــلـــغُ في التَّخويفِ وأحثُّ على المبادرةِ إلى الامتثالِ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿حِينِۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 112.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 435.

(3) ابن عثيمين، تفسير سورة ص: 258.

﴿نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً؛ لأنَّ الحينَ: هو الزَّمان، قليلًا كان أو كثيرًا[1]، وهو اسمٌ كالوقتِ يصلحُ لجميعِ الأزمانِ كلِّها، طالتْ أمْ قصرتْ[2]، وهو في الآية زمنٌ لم يُنَصَّ لَهُمْ على أمَدِهِ[3]، وذلك إمّا عند نزولِ العذاب عليهم، أو حُلولِ الموتِ بهم، أو نحو ذلك[4]، ولذلك اختلفَ في معناه أقوالُ المفسِّرين، وكلُّها يتضمَّنُها اللَّفظ، فقيل: لتعلمنَّ نبأهُ بعد الموت، قال الحسن: (يا بن آدمَ عند الموتِ يأتيك الخبرُ اليقين)، وقيل: يوم القيامة، عندها سيعلمون صِدْقَ هذا الكلام الَّذي أخبرهم اللّهُ به في قرآنِهِ، وقيل: يوم بدر[5]، وعيدٌ لهم بالقتلِ ببدر، مثل قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤﴾ [الصافات: 174]، يعني: القتلَ ببدر[6]، ويرى الشَّعراوي أنَّ: الحين يُراد به ظهورُ الإسلامِ وفشوُّه وانتصاره على الكفر، بدايةً من معركةِ بدر إلى أنْ قال القائل: عجبتُ لهذا الأُمّيِّ، كيف يفتحُ نصفَ الدُّنيا في نصفِ قرن؟ نعم هذه عجيبةٌ، ولا تزالُ حتّى الآن[7]، ويرجِّحُ الطَّبريُّ أنَّ اللّهَ أعلمَ المشركين المكذِّبين بهذا القرآن أنَّهم يعلمون نبأه بعد حينٍ، من غيرِ حدٍّ منه لذلك الحين، وقد علمَ نبأه الَّذين عاشوا إلى ظهورِ حقيقتهِ، ووضوحِ صحَّتِهِ في الدُّنيا، ومنهم من عَلِمَ حقيقةَ ذلك بهلاكِهِ ببدر، وقبل ذلك، ولا حدَّ عند العرب للحين، لا يُجاوَز، ولا يقصرُ عنه، فإذا كان ذلك كذلك؛ فلا قولَ فيه أصحُّ مِن أن يُطْلَقَ، كما أطلقهُ اللّهُ من غيرِ حصرِ ذلك على وقتٍ دون وقتٍ[8].

كما أنَّ في التَّعبير بلفظ ﴿حِينِۭ﴾ إشارةً إلى أنَّ وقتَ وقوعِ ذلك النَّبأ هو وقتٌ مبهمٌ[9]، وإبهامُ الوقتِ هنا أبلغُ في التَّخويف والتَّهديد لِما فيه من حثِّ المخاطَب للمبادرةِ إلى الامتثالِ لربِّهِ، والإقلاعِ عن عصيانه.

وفي تنكيرِ لفظ ﴿حِينِۭ﴾ زيادةٌ في إبهامِ هذا اللَّفظ، ومِن ثَمَّ زيادةٌ في التَّخويفِ مِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حين).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حان).
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 256.
(4) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 5/ 35، والسعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 717.
(5) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 112.
(6) تفسير مقاتل بن سليمان: 3/ 654.
(7) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13008.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 244.
(9) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 435.

هذا الوقتِ، بما يكون أدعى للمشركين لأنْ يتفكَّروا بشأنِ النَّبيِّ ﷺ وبصدق دعوتِه.

بلاغةُ التَّعريضِ بالتَّهديد في الآية:

تعريضٌ بما لا مَزيدَ عليه في التَّخويفِ والتَّرهيبِ والتَّهديدِ

في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ تعريضٌ بما لا مَزيدَ عليه في التَّخويفِ والتَّرهيبِ والتَّهديدِ لِمَن أصرَّ على الجهلِ والتَّقليد، وأبى قَبولَ البيِّناتِ، وأنَّه سيعلَمُ بعدَ حينٍ إنْ كان مُصيبًا في هذا الإعراض، أو مُخطئًا[1].

بلاغةُ حسنِ الختام في الآية:

حُسنُ اتِّصال الآيات وانتظامها

تظهرُ بلاغةُ حُسن ختامِ سورة (ص) في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ في أنَّ هذه الآيةَ قد أثبتَتْ مِن كونِ القرآن ذِكرًا ظهرَ صِدقُهُ ما أثبتته أوَّل آيةٍ فيها، وهي ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1] على أتمِّ وجهٍ مع زيادةِ الوعيد، فانعطفَ الآخرُ على الأوَّل، واتَّصل به أحسنَ اتِّصالٍ وأجمل، ونظرَ إلى أوَّل الزُّمر في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ أعظمَ نظر وأكمله، فلله درُّ هذا الانتظام، فهو لَعمري أضوأُ من شمسِ الضُّحى، وأتمُّ من بدرِ التَّمام، فسبحان من أنزلَهُ، وأجمله، وفصَّله، وفضَّله، وشرَّفه، وكرَّمه[2].

توالي المؤكِّدات في الآية:

دعـوةٌ أخيرةٌ للنَّجاةِ أُلبِسَتْ لبوسَ التَّهديدِ المؤكَّدِ للمعاندِ المشرك

في توالي المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ دعوةٌ أخيرةٌ للنَّجاة، أُلبسَتْ لبوسَ التَّهديدِ المؤكَّد للمعاندِ المشرك المصرِّ على كفرِه وعصيانِه، وقد تمثَّلتْ هذه المؤكِّدات بلامِ القسم في أوَّل الفعل المضارع، والنّونِ المشدَّدة الَّتي في آخره، وما يفيدهُ هذا

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 109، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 417، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 35.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 435.

التَّركيب من معنى القَسَمِ، والتَّعبيرِ بالعِلْم الذي يفيدُ اليقين، واصطفاءِ التَّعبير بالنَّبأ الَّذي يفيدُ أنَّ الخبر ذو قدرٍ وشأنٍ عظيم، وحصولِ العلم العاري عن الكذبِ؛ تنبيهًا على تحقيقِهِ وكونه من قِبَل اللهِ[1]، فكلٌّ هذه المؤكِّدات تلهبُ النَّفسَ خوفًا وهلعًا.

(1) الراغب، المفردات: (نبأ).

سُورَةُ الزُّمَرِ

سُورَةُ الزُّمَرِ

التّعريف العامّ بالسورة:

المكّيّ والمدني:

سورة الزُّمر كلُّها مكّيّةٌ

سورةُ الزُّمر كلُّها مكّيَّةٌ بالاتِّفاق[1]، وذكر السّيوطيُّ أنَّهم استثنوا من مكّيتها قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [الزمر: 53 - 56]، وزاد بعضهم قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر: 10]، واستثنى بعضهم: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزمر: 23][2].

وقد عقَّب ابن عاشور على هذه الأقوال بقولِه: "والمُتَّجَهُ: أنَّها كُلَّها مَكّيَّةٌ، وأنَّ ما يُخَيَّلُ أنَّهُ نَزَلَ في قَصَصٍ مُعَيَّنَةٍ - إنْ صَحَّتْ أسانيدُهُ - أنْ يَكونَ وقَعَ التَّمَثُّلُ بِهِ في تِلكَ القَصَصِ، فاشْتَبَهَ عَلَى بَعضِ الرّواةِ بِأنَّهُ سَبَبُ نُزولٍ"[3].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 517، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 311.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 63.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 312.

ترتيب النزول وترتيب المصحف وعد الآي:

هي السّورة التّاسعة والثّلاثون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيبُ الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، جاءت بين سورتَي (ص) و(غافر)، والتّاسعة والخمسون في ترتيبها النُّزوليِّ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ سبأ وقَبلَ سورَةِ غافر(1).

وَهي سَبْعونَ وخمْس آيات في الكوفيِّ، وثَلاث وسبعون في الشّاميّ، واثْنَتانِ وسبعون في عدد الباقينَ(2)، وسببُ اختلافهم في عددها هو اختلافُهم في تحديد فواصل سبع آياتٍ منها.

فضائل السورة:

عند البحث والتَّحقيق في فضائلها نجد أنَّها تدخل في السّور المثاني، الَّتي قال فيها النبي ﷺ فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال، قال رسول اللّه ﷺ: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ(3)"، وقد أخرج الإمام التِّرمذيُّ في فضلها عن عائشةَ رضي الله عنها: "كانَ النَّبيُّ ﷺ لا يَنامُ حَتَّى يَقرَأَ الزُّمَرَ، وبَني إسرائيلَ"(4).

اسم السّورة وسبب التَّسميَةِ:

سورةُ الزُّمرِ لم يثبت لها اسمٌ آخر

وردت تسميتُها بسورة الزُّمر في كُتُبِ السُّنَّة والتَّفسير، وذكر القرطبيُّ والسّيوطيُّ تسميتها بسورة الغُرَفِ(5)، ولعلَّ السَّبب في ذلك ورود هذه اللَّفظة فيها في قوله: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: 20]، وذكر بعضهم تسميتها بسورة ﴿تَنزِيلُ﴾؛ لأنَّها استهلَّت به(6)، يقول الزُّحيليُّ عن سبب تسميتها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 312، ودروزة، التفسير الحديث: 4/ 297.
(2) الداني، البيان، ص: 216.
(3) أخرجه أحمد في المسند، حديث رقم: (16982)، والطبراني في المعجم: 22/ 76، حديث رقم: (187).
(4) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، حديث رقم: (3405).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 232، والسّيوطيّ، الإتقان: 1/ 194.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 436.

باسمها المشتهر: سُمّيت سورة الزُّمر؛ لأنَّ الله تعالى ذكر في آخرها زمرةَ الكفّار الأشقياء مع الإذلال والاحتقار، وزُمرَ المؤمنين السُّعداء مع الإجلال والإكرام[1].

ويمكن أن يُقال: إنَّ تسميتها بسورة الزُّمر إنَّما جاء مرتبطًا مع محورها العامِّ الذي يجمع آياتها، وهو يقوم على بيان أثرِ القرآنِ الكريم في تحقيق الدّين الخالصِ لله تعالى مِن خلال إرساء قواعدِ العقائد، وأهمُّها وحدانيَّةُ الله تعالى، وذلك عن طريق المنهج العلميِّ الذي ركَّزت عليه السّورة الكريمة، مِن أجل تحقيقِ سعادة الدّارَيْن؛ لذا فإنَّ تسميتَها بسورة الزُّمر إنَّما جاء مرتبطًا بتلك المقابلات الكثيرةِ الَّتي أجرتها السّورة بين زمرٍ مختلفة مِن أحوال النّاس، لعلَّ من أهمِّها:

أوّلًا: المقابلة بين حالَي الإنسان في الرَّخاء والشِّدَّة: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ [الزمر: 8]، ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: 49].

ثانيًا: المقابلة بين حالِ القانت العالم والجاحد الجاهل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ﴾ [الزمر: 9].

ثالثًا: وكذلك المقابلةُ بين زمرتَي المهتدين والضّالّين: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ۝٣٦ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ [الزمر: 36 - 37].

رابعًا: وبين أحوال الكافرين عند ذكر الله أو غيره: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٥﴾ [الزمر: 45].

خامسًا: المقابلة بين حال مَن شرح الله صدره، ومَن ضاق صدره: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٢﴾ [الزمر: 22].

سادسًا: المقابلة بين حال المكذِّبين وحال المصدِّقين: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣﴾ [الزمر: 32 - 33].

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 23/ 238.

سابعًا: المقابلة بين حال الموحِّد وحال المشرك من خلالِ ضربِ المثلِ بهما: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر: 29].

ثامنًا: المقابلةُ بين أحوال زمرةِ الخاسرين وزمرة الفائزين يوم القيامة: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾﴾ [الزمر: 15 - 17]، ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: 60 - 61]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: 71]، ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾ [الزمر: 73].

المحور العام للسورة:

بيان أثرِ القرآنِ الكريم في تحقيقِ الدّين الخالصِ

جاءت هذه السّورة الكريمة لتقرِّرَ أثرَ القرآن الكريم في تحقيق الدّين الخالص للّه تعالى من خلال إرساءِ قواعد العقائدِ الصَّحيحة القائمة على العلم وإعمال العقل في التَّفكُّر في آيات اللّه تعالى، ومن خلال إجراء تقابلاتٍ متنوِّعة بين أحوال النّاس، وأحوالٍ من المواقف المختلفة، وذلك كلُّه من أجل تحقيق سعادة الدُّنيا والآخرة للإنسانيَّة جمعاء ويظهر ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولًا: اقتضى هذا المحورُ أن تُبيِّن السورة مرارًا أثرَ هذا القرآن في تحقيق سعادةِ الإنسان، وأن تحثَّ على اتِّباعه.

ثانيًا: تُبيِّن السورة قيمةَ العلم في فَهْم مقاصد القرآن وأثرِه في تحقيق الدّين الخالصِ، وأن تنعى كذلك على الجاهلين في أكثر من موضعٍ.

ثالثًا: اقتضى هذا المحورُ أن تُبيِّن السورة أهمَّ المعوِّقات للاستجابة لهذا القرآن، وهو الاستكبار.

موضوعات السورة وخصائصها:

مَـدارُ الـسّـورةِ يـــدور حـــولَ إخلاصِ التَّوحيد لله تعالى

تَحومُ موضوعات هذه السورة حَوْلَ إثْباتِ تفرد اللّه تَعالَى بالإلَهيَّةِ وإبْطالِ الشِّرْكِ فيها، وإبْطال تعللات المُشْرِكينَ لِإشْراكِهِمْ وأكاذيبِهِم، ونَفْيِ ضَرْبٍ مِنْ ضُروبِ الإشْراكِ وهوَ زَعْمُهُمْ أنَّ للّه ولَدًا، ومن أهم الموضعات التي تناولتها السورة هي:

أولًا: ابتدأت هذه السورةُ ببيان تنزيل القرآن الكريم مِنَ اللّه تعالى على رسولهِ ﷺ، وأمر الرَّسول ﷺ بإخلاص الدّين للّهِ، وتنزيه اللّه عن مشابهة المخلوقات، وتوضيح شبهةِ المشركين في اتِّخاذ الأصنام آلهةً شفعاء وعبادتها وسيلة إلى اللّه تعالى، والنَّعي عليهم في عبادة الأوثان.

ثانيًا: أردفت السورة ذلكَ بإقامةِ الأدلَّة على وحدانيَّة اللّه، من خلقِ السَّموات والأرض، وتعاقب اللَّيل والنَّهار، وتسخير الشَّمس والقمر، وخلق الإنسان في أطوار مختلفة متعاقبة، ثمَّ ندَّدت بطبيعة المشرك وتناقضِه حين يدعو اللّهَ حال الضُّرِّ، وينساه حال الرَّخاء، ثمَّ عادت لإيراد بعضِ هذه الأدلَّة كإنزال المطر وإنبات النَّبات.

ثالثًا: عرضت السورة لقضيَّة الموت والبعث في مواضع عديدة منها.

رابعًا: ذكرت السورة مقارنة بين المؤمنين وبين الكافرين، حيثُ يسعد الأوائل في الدُّنيا والآخرة، ويشقى الآخرون فيهما، ويتمنَّون الفداء حين يرون العذاب.

خامسًا: أشادت بعظمة القرآن الكريم؛ إذ تقشعرُّ من آياته جلودُ المؤمنين الخائفين، ثمَّ تلين جلودهم وقلوبهم لذكرِ اللّه، على عكس المشركين الذين تنقبضُ قلوبُهم عند سماع توحيدِ اللّهِ، كما أنَّ القرآن يتضمَّن أمثالًا للنّاس لعلَّهم يتذكَّرون.

سادسًا: فتحَت السورة باب الأملِ أمام المسرفين، ووعدهم بمغفرةِ ذنوبِهم؛ إذا تابوا، وأوضح ما يُرى على وجوه الَّذين كذبوا على اللّه مِن أهل النّار يوم القيامة مِن كآبة وحزن.

وأعقب ذلك ببيان أحوالِ القيامة، وحدوث نفختين: الأولى للإماتة، والثّانية للإحياء مِن القبور، ثمَّ يأتي الحسابُ والقضاء بالحقِّ، وإيفاء كلِّ نفس ما عملت.

سابعًا: خُتِمت السّورة بتقسيم النّاسِ يوم القيامة فريقَين: فريق الكافرين الذين يساقون زمرًا وجماعاتٍ إلى جهنَّمَ، ويشاهدون من أهوال المحشر، وفريق المؤمنين الذين يُساقون إلى الجنان وتحيّيهم الملائكةُ، ويشاهدون في الجنَّة النَّعيم المقيم الَّذي يستدعي الحمد التّامَّ للّه ربِّ العالمين، ويرون الملائكة حافّين حول العرشِ يسبِّحون بحمد ربِّهم[1].

الخصائصُ الموضوعيّة لسورة الزُّمر:

تـميَّزت سـورةُ الزُّمر بخصائص أفـردتـهـا عـن غيرها مِنَ السّور

أولًا: تميَّزتِ السّورةُ الكريمة بموضوعات لم تَرِدْ في غيرها من السّور، مثل: الحديث عن خَلقِ الإنسان في بطن أمِّه في ظلماتٍ ثلاثٍ، وعن أنَّ اللّه تعالى يرضى لعباده الشُّكر ولا يرضى لهم الكفرَ، وعن فضيلة العلم وعدم استواء العالم والجاهل، فضلًا عن تركيزها على موضوع الإخلاص في التَّوحيد للّهِ، ونبذ الشُّركاء والشُّفعاء والأنداد، بصيغ متعدِّدةٍ، وكذلك تفرَّدت بضرب المثل بالرَّجل الذي له شركاء متشاكسون والرَّجل السَّلم لرجلٍ، وتفرَّدت بحديثها عن توفّي الأنفس عند النَّوم، وعن إشراق الأرض بنور ربِّها وعن سوق الكافرين والمتَّقين زمرًا، وغير ذلك.

ثانيًا: تفرَّدتِ السّورة الكريمة بذكر أعظم آيتَيْن في الرَّجاء

(1) الزحيليّ، التّفسير المنير: 23/ 239 - 240.

والخوف، وهما يمثِّلان صورةً مِن صورِ المُقابلات بين هذه الزُّمر المختلفة الَّتي ذكرتها السّورة الكريمة، فأعظمُ آيةٍ في الرَّجاء هي قوله تعالى: ﴿۞قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر: 53]، فقد حظيتْ بأساليبَ مِن التَّوكيد والقصر لم يرد في غيرها، وأمّا أعظمُ آية في الوعيد؛ فقد قالوا: إنَّها: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾ [الزمر: 47].

الخصائصُ الأسلوبيَّة لسورة الزُّمر:

أولًا: تفرَّدت السّورةُ الكريمة بذكر صورٍ من أسلوب المقابلات، ولم ترد في غيرها من السّور بهذا الزَّخم، فضلًا عن وفرة أسلوب الطّباق بين بعض الألفاظ، مثل: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ [الزمر: 21] و﴿ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 21]، ﴿ٱلَّيْلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾، ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ﴾، (فوق وتحت)، (الكفر والشُّكر)، (الصِّدق والكذب)، (السُّجود والقيام)، (العلم والجهل)، ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ [الزمر: 23] و﴿تَلِينُ﴾ [الزمر: 23]، ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [الزمر: 46]، ﴿يَبْسُطُ﴾ [الزمر: 52] و﴿وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الزمر: 52]، وغيرها.

ثانيًا: تفرَّدت السّورةُ الكريمة بأنساق تعبيريَّة فريدة، منها: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾، ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ﴾، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: 7]، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزمر: 8] وغيرها الكثير.

ثالثًا: تكرَّرت في السورة بعضُ الألفاظ والأنماط التَّعبيريَّة بشكل لافت، مثل: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: 9] [الزمر: 18] الَّتي تكرَّرت ثلاث مرّات في ثلاث فواصل(1)، والحديث عن العبادة والعباد؛ إذ وردَ في نحو ستَّ عشرةَ مرَّة(2)، وتكرَّرت فيها لفظةُ الإخلاص

---

(1) الآيات: 9، 18، 21.

(2) الآيات: 2، 3، 7، 10، 11، 14، 15، 16، 17، 36، 46، 53، 64، 66.

ومشتقّاتها أربعَ مرّاتٍ[1]، والعلم ومشتقّاته إحدى عشر مرَّة[2]، ولفظةُ الدّين؛ إذ وردت أربعَ مرّات[3]، وكلُّ ذلك مرتبطٌ بمحورِها العامِّ.

رابعًا: كَثُرَ فيها أسلوب الاستفهام التَّقريريِّ والإنكاريِّ[4]، والذي قد يُراد به أحيانًا التَّعجيب أو التَّوبيخ أو التَّكذيب أو غيره، لا سيَّما في أثناء المقابلات التي أكثرتِ السّورةُ الكريمةُ من إجرائِها، والَّتي كان يُحذفُ فيها أحيانًا طرف المقابلةِ الآخر للعلم بهِ.

خامسًا: كَثُرَ فيها التَّنوُّع في استعمال ألفاظ الشِّرك والشُّركاء في سبيل نفيها عن اللّه تعالى، وإثبات التَّوحيد الخالص له، من مثل لفظ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، و﴿وَلَدًا﴾، و﴿أَندَادًا﴾ [الزمر: 8]، و﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [الزمر: 17]، و﴿شُفَعَآءَ﴾ [الزمر: 43] فضلًا عن استعمال تعبير ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عدَّة مرّاتٍ[5]، واستعمالها بعضَ الأفعال مع هذه الألفاظ من مثل: (الشِّرك) و(الاتِّخاذ) و(العبادة) و(الدُّعاء) و(الجعل).

سادسًا: تفرَّدت السّورةُ الكريمةُ بصيغٍ واشتقاقاتٍ لم ترد في غيرها مِنَ السّور، مثل: ﴿ٱلْخَالِصُ﴾، ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ [الزمر: 8]، ﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾ [الزمر: 49]، ﴿تَمَتَّعْ﴾ [الزمر: 8]، ﴿ٱجْتَنَبُوا۟﴾ [الزمر: 17]، ﴿تُنقِذُ﴾ [الزمر: 19]، ﴿تَلِينُ﴾ [الزمر: 23]، ﴿تَمُتْ﴾ [الزمر: 42]، ﴿يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الزمر: 47]، ﴿أَسْرَفُوا۟﴾ [الزمر: 53]، ﴿مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: 60]، ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ [الزمر: 67]، ﴿مَطْوِيَّٰتٌۢ﴾ [الزمر: 67]، ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ [الزمر: 69]، ﴿وَسِيقَ﴾ [الزمر: 71]، ﴿نَتَبَوَّأُ﴾ [الزمر: 74]، ﴿حَآفِّينَ﴾ [الزمر: 75].

سابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بذكرِها ألفاظًا فريدة في جذرها اللُّغويِّ، لم ترد في غيرها من السّورِ، وهي قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ﴾ [الزمر: 23]، وقوله: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ [الزمر: 29]، وقوله: ﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾ [الزمر: 45]، وقوله: ﴿زُمَرًا﴾ [الزمر: 71] [الزمر: 73] التي وردت مرَّتيْن في هذه السّورة دون غيرها، ولا شكَّ أنَّ هذا كلَّهُ مرتبطٌ بمحور السّورة الكريمة دون أدنى تكلُّفٍ.

مناسبة السورة لما قبلها:

جاءت المناسبة بين سورة الزمر وسورة ص من خلال النقاط الآتية:

---

(1) الآيات: 2، 3، 11، 14.
(2) الآيات: 7، 9، 26، 29، 39، 46، 49، 52، 70.
(3) الآيات: 2، 3، 11، 14.
(4) الآيات: 9، 19، 21، 22، 24، 32، 36، 37، 38، 43، 52، 60، 64، 71.
(5) الآيات: 3، 15، 36، 38، 43، 45.

سورةُ الزُّمرِ متَّصلة تمامًا بسورة (ص) مضمونًا وأسلوبًا

أولًا: سورة الزمر متمِّمة لما تقدَّم في سورة (ص)، فلمّا بُنيت سورة (ص) على ذِكر المشركين وعنادهم وسوء ارتكابهم واتِّخاذهم الأندادَ والشُّركاء؛ ناسب ذلك ما افتتحتْ بِهِ سورة الزُّمر من الأمر بالإخلاص الَّذي هو نقيضُ حال من تقدَّم(1).

ثانيًا: فصَّلت سورة الزُّمر موضوعَ الإخلاص الَّذي أجملته سورة (ص) تفصيلًا عميقًا، فقد أشارت سورة (ص) إلى صفة الإخلاص في حديثها عن كوكبةِ الأنبياءِ الَّذين عرضت مشاهد قصصيَّة مِن حياتهم، ثمَّ قالت عنهم: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۞ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۞﴾ [ص: 46 - 47]، فضلًا عن أنَّ إبليس قد استثنى في آخر سورةِ (ص) المخلصين من غوايتِهِ حين أقسم لربِّه: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۞﴾ [ص: 82 - 83]، واستهلَّت سورة الزُّمر بقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾، وجاء فيها: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۞﴾ [الزمر: 11]، و﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۞﴾ [الزمر: 14].

ثالثًا: أنَّه تعالى ختم سورةَ (ص) واصفًا القرآنَ بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، وابتدأ سورة الزُّمر بقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، فكأنَّه قيل: هذا الذِّكر تنزيلٌ، فهما كالآية الواحدة، بينهما اتِّصالٌ وتلاحمٌ شديدٌ.

رابعًا: ذكر تعالى في آخر (ص) قصَّة خلقِ آدم عليه السلام، وذكر في القسم الأوَّل من سورة الزُّمر أحوال الخلقِ مِن المبدأ إلى المعاد، متَّصلًا بخلق آدم المذكور في السّورة المتقدِّمة(2).

(1) ابن الزّبير الغرناطي، البرهان في تناسب القرآن، ص: 290 - 291.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 141، والزّحيلي، التفسير المنير: 23/ 238.

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾ [الزمر: 1]

❁ مُناسَبَةُ الآية لِما قبلَها:

بدايةُ سورة الزُّمر تتمَّةٌ لِما خُتِمتْ به سورة ص

لَمّا ختمت سورة (ص) بالحديث عن القرآن: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾؛ جاءت أوَّل آية مِنَ الزُّمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، ولذلك أعربوا قولَهُ تعالى: ﴿تَنزِيلُ﴾ بأنَّه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ، تقديره (هذا)، واسم الإشارة يعودُ إلى القرآن الَّذي ورد ذكره في آية (ص)، "فكأنَّه قيل: هذا الذِّكرُ تنزيلٌ، وهذا تلاؤمٌ شديدٌ بحيث إنَّه لو أُسقطتِ البسملةُ؛ لالتأمتِ الآيتان كالآيةِ الواحدة"[1]، وحتّى لو أُعرِبَتْ ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ، و﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبره، تكونُ الجملةُ تعليلًا؛ لكونِهِ ذِكرًا للعالمين، أو لقوله تعالى: ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَنزِيلُ﴾: مصدر (نزَّل) المضاعف، والنُّزولُ هو الانتقالُ من عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وأصله (نزل) يدلُّ على انحطاطٍ من عُلوٍّ، وهبوطِ شيءٍ ووقوعِه، ونزلَ في مكان كذا: حطَّ رحلَه فيه، وقد يرادُ به مجرَّدُ الحلول، والتَّنزيلُ: تَرتيبُ الشَّيْءِ ووَضعُهُ مَنزِلَهُ[2]، والآيةُ تدلُّ على تنزيلِ الكتاب مِنَ الله تعالى[3]، وأنَّه ليس مكتوبًا في الأرض[4].

2) ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾: مصدرُ (كتب)، وأصله يَدُلُّ على جَمعِ شَيْءٍ إلى شَيْءٍ، ويُطلقُ الكتابُ على المكتوب، والكتابةُ ضمُّ الحروفِ بعضها

(1) السيوطي، أسرار ترتيب القرآن، ص: 128.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والفيّوميّ، المصباح المنير: (نزل).
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 8/ 279.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 4/ 25.

إلى بعض بالخطِّ، فالأصلُ في الكتابة النَّظمُ بالخطِّ، وفي المقالِ النَّظمُ باللَّفظ، وقد يُستعملُ كُلٌّ واحدٍ للآخر، ولِهذا سُمّيَ كلامُ اللّه - وإن لم يُكتب - كتابًا، أي: قبل أنْ يكتبَ سُمّي كتابًا؛ لِما يؤولُ إليه من الكتابةِ في علمِ اللّه تعالى[1]، فصارَ الكتابُ عَلَمًا بِالغَلَبَةِ على القرآن[2]، فالمرادُ هنا بالكِتاب القرآنُ[3].

3) ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أصلُ (عزز) يدلُّ على تَماسُكِ الجِرْمِ الرَّخْوِ، حتّى يَبلغَ الشِّدَّةَ والصَّلابةَ التّامَّةَ، والعِزَّةُ: القوَّةُ والشِّدَّةُ والغَلَبَة، والعِزُّ: خِلافُ الذُّلِّ[4]، يُقالُ: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع - إذا اشتَدَّ، وقَوِيَ، وبالكسرِ للمُضارع؛ إذا قَوِيَ، وامتَنَع، وبالضَّمِّ؛ إذا غَلَبَ، وقَهَر[5]، والعَزيزُ: الَّذي يَقهرُ، ولا يُقهرُ، وسُمّي بِهِ لِغَلَبَته على أهلِ مَمْلَكَتِه، والعَزيزُ: من صِفاتِ اللّهِ تعالى وأسمائِه الحُسنى، قالَ الزَّجّاج: هوَ المُمتَنِعُ، فلا يغلبُه شيءٌ، وقالَ غيره: هوَ القويُّ الغالِبُ كلَّ شَيْء، وقيل: هو الَّذي لَيْسَ كمثله شيءٌ[6].

4) ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: أصلُ (حكم) المَنْعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ: المَنْعُ مِنَ الظُّلْمِ ومن الفساد، أي: المَنْعُ للإصلاح، والحَكيمُ: المُتَّصِفُ بالحِكمَةِ في قَولِه وفِعلِه[7]، والحَكيمُ: مِن صفاتِ اللّه تعالى، يجوزُ أن يكونَ مِن صفاته لذاتِه بمعنى العالم، ويجوز أنْ يكونَ من صفاتِ الفعل[8]، وهما بمعنى الحاكم، وهو القاضي، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل، أو هو الذي يُحكمُ الأشياء، ويتقنها، فهو فعيلٌ بمعنى مُفْعِلٍ[9]، فهو العالِمُ، وصاحبُ الحكمة المتْقِنُ للأمور[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر اللّهُ تعالى عن عظمةِ القُرآنِ الكَريم وجلالةِ مُنَزلِه سبحانه، بأنَّ هذا الكتابَ الذي أُحكِمَتْ آياته، ثمَّ فُصِّلتْ، تَنزيلٌ مِن عندِ اللّه وحده الذي وصْفُهُ الألوهيَّةُ للخلق،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كتب).

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 3/ 14.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 248.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).

(5) النحاس، معاني القرآن: 1/ 379.

(6) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (عز).

(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حكم).

(8) الحِمْيَريّ، شمس العلوم: (الحكيم).

(9) ابن منظور، لسان العرب: (حكم).

(10) الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص: 56، والجوهري، الصحاح: (حَكَمَ).

وضفُ كمالِ القرآن وعلوِّ مرتبته وجلالةِ مَن تكلَّم به ونزلَ منه

وذلك لعظمتِهِ وكمالِهِ، والعزَّةُ التي قهرَ بها كلَّ مخلوق، وذلَّ له كلُّ شيء، والحكمةُ في خلقهِ وأمره، والكلامُ وصفٌ للمتكلِّم، والوصفُ يتبعُ الموصوفَ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآية عما قبلها:

استئنافٌ مبيِّنٌ للذِّكر بأنَّه تنزيلٌ من الله

جاءت فاتحةُ سورةِ الزُّمر: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مفصولةً عمّا قبلها من خاتمةِ سورةِ (ص) مقطوعةً عنها، ولم تسبقْ بعاطف، لِما بينهما من شبهِ كمالِ اتِّصال؛ لأنَّه لَمّا قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾، فكأنَّه قيل: هذا الذِّكرُ ما هو؟ فقيل: هو تنزيلُ الكتاب[2]، وهذا على إعراب ﴿تَنزِيلُ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوفٍ تقديرُه (هو) أو (هذا)[3].

وعلى إعراب ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأ، وخبره الجارُّ والمجرور بعده، يختلفُ تقدير السؤال، فإنَّه لما تبيَّن من التَّهديد في سورة (ص) أنَّه سبحانه قادرٌ على ما يريد، ثم ختمها بأنَّ القرآنَ ذِكرٌ للعالمين، وأنَّ كلَّ ما فيه لابدَّ أن يُرى؛ لأنَّه واقعٌ - لا محالةَ - لكن من غير عجلة، فكانوا ربَّما قال مُتعنِّتُهم: ما له إذا كان قادرًا لا يعجِّل ما يريده بعد حين؟ فعلَّل ذلك بأنَّه ﴿تَنزِيلُ﴾، أي: بحسب التَّدريج، لموافقةِ المصالحِ في أوقاتها، وتقريبه للأفهامِ على ما له من العلوِّ حتى صار ذكرًا للعالمين[4].

بلاغةُ ابتداء السورة بأسلوبِ الغيبة:

في الاستمرارِ بأسلوبِ الغيبةِ إظهارٌ للتَّرابطِ بين السّورتين

في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ جرى الأسلوبُ فيه بطريقِ الغَيبة؛ لأنَّه الأنسبُ والأبلغُ للوفاءِ بتحقيقِ

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 181، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 224.

(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 414، والزمخشري، الكشاف: 4/ 112، وابن جرير، جامع البيان: 20/ 154.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 437.

التَّناسبِ مع سورة (ص) الَّتي خُتِمَتْ بالحديثِ عن القرآن الكريم بطريقِ الغَيبة، فاستمرَّ على الطَّريقة ذاتها؛ إظهارًا للتَّرابطِ بين السّورتَين، وتحقيقِ التَّناسب والاتِّصالِ بينهما، فلا يكادُ القارئَ أو السّامع يشعرُ أثناءَ انتقالهِ مِن سورة (ص) إلى سورةِ الزُّمر بانقطاعٍ في المعنى، أو تغييرٍ في السّياقِ، أو تعثُّرٍ في جريانِ الكلام وتسلسلِ حلقاتهِ، وترابطِها، وحسنِ ترتيبها، وإفضاءِ كلِّ حلقةٍ إلى ما يليها في سهولةٍ وسلاسة.

براعةُ الاستهلالِ بالمصدر ﴿تَنزِيلُ﴾:

فاتحةٌ أنيقةٌ في التَّنويه بالقرآن جُعِلَتْ مقدَّمةً للسّورة

من الابتداءِ الحسنِ براعةُ الاستهلال، بأنْ يشتملَ ابتداءُ الكلام على إشارةٍ إلى المقصود من الكلام[1]، وهذا ما تحقَّق في قولهِ تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ باختيار لفظ ﴿تَنزِيلُ﴾ الذي هو مَصْدَرُ (نَزَّلَ) المُضاعَف، وهو مُشعِرٌ بأنَّه أنزلَهُ منجَّمًا، وفي ذلك ردٌّ على الطّاعنين؛ لأنَّهم مِن جملة مَن علَّلوا كفرَهم بكون القرآن نزلَ منجَّمًا، كما أخبر اللّه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الفرقان: 32]؛ ولذلك قال ابنُ عاشور عن فاتحة السّورة: "فاتحةٌ أنيقةٌ في التَّنويهِ بالقرآن، جُعِلَتْ مُقَدِّمَةً لهذه السّورة؛ لأنَّ القرآنَ جامعٌ لما حوَتْهُ وغيرَه من أصولِ الدين"[2]، ولأنَّ القرآنَ هو أعظمُ دليلٍ وأكبرُ حجَّةٍ على تفرُّدِ اللّهِ بالإلهيَّة، وأنَّه وحدَهُ الحقيقُ بالعبادةِ الخالصة، ولذلك كان التَّخلُّصُ إلى مقصودِ السّورة غايةً في الحسن، حيث بدأ بالحديثِ المجملِ عن تنزيلِ الكتاب، ثم بخصوصِ إنزالِ الكتاب على نبيِّه ﷺ ثم فرَّعَ عنه أمرَ نبيِّه بالعبادةِ الخالصة في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ثم تخلَّص إلى مقصودِ السّورة بقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾[3].

---

(1) السيوطي، الإتقان: 3/ 318، وشروح التلخيص: 4/ 259، وما بعدها.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314.

(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 492.

التَّعبيرُ بلفظ ﴿تَنزِيلُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

في عُلوِّ المُنزِّل وشرفِ المُنزَّل ذِكرٌ وإكرامٌ للعالمين

يضافُ النُّزولُ والإنزالُ والتَّنزُّلُ والتَّنزيلُ إلى الأمورِ العظيمة ذاتِ الشَّأن، كالقرآنِ والملائكةِ الكرام، أو الرِّجْزِ والعذاب وغيرها، فهذه الكلمةُ توحي بالجلالِ والقوَّةِ النّافذة، والفخامة المتناهية، والعظمةِ الكاملة؛ لأنَّ مادَّة نزلَ أو نزَّل أو أنزلَ، تدلُّ كلُّها على عُلوِّ المنزِّل، وعلى أنَّ شرفَ المنزَّلِ من شرفِ مَنْ أنزلَهُ، وتدلُّ أيضًا على أنَّ مَنْ أنزلَ المنهجَ القويمَ للمخلوقِ يريدُ أنْ يكرِّمَهُ، وأنْ يعلوَ به(1).

التَّوجيهُ الصَّوتي لصيغة التَّضعيف:

تنزيلٌ عظيمٌ يوحي بفخامة المُنَزِّل، ومتانة أمره، وقوَّة تأثيره

جاء التَّعبيرُ بكلمة ﴿تَنزِيلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وهو مصدرُ (نزَّل)، أي: نزَّل اللهُ تنزيلًا، وهي صيغةٌ مضعَّفةٌ، ومجيء حرف الزّيادة من جنسِ الحروفِ الأصليَّة للكلمةِ يدلُّ على تأثيرهِ في أصلِ المعنى بالزّيادة فيه، ويتَّضحُ أنَّ المعنى الذي زاده التَّضعيفُ في الكلمةِ هو معنى التَّكثير، والتَّكثيرُ فيه معنى المبالغةِ، وهذا التَّضعيفُ في الحرفِ يجعلُ النُّطقَ به صعبًا؛ لقوَّةِ الحرف المضعَّف، فيُضافُ إلى معنى التَّكثير معنى القوَّة، الَّتي توحي بوضوحِ أثرِهِ، وقوَّةِ تأثيرهِ في غيره، ويستدعي التَّضعيفُ كذلك إطالةَ مدَّةِ نطقِ الحرف المضعَّف الزمنيَّة، بالنِّسبةِ إلى غيره، ممّا يستدعي لفتًا للانتباه، وتبطئةً للإمهالِ على التَّأمُّل والملاحظةِ حتى يدركَ أنَّ ثمَّةَ أمرًا مختلفًا يُرادُ التَّنبُّهُ له، والإشارةُ إليه.

كما أنَّ معنى التَّكثير والمبالغة يدلّان على معانٍ زائدةٍ اختصَّ القرآن بها في هذا الموضع، منها الإشارةُ إلى طريقةِ إنزاله على وجهِ التَّنجيم والتَّفصيلِ والتَّدريج حسب الوقائعِ والأحوال المناسبة، وهذا مناسبٌ لكون السّورة التاسعةَ والخمسين نزولًا؛ إذ أُنزلت بعد

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13014.

سورة سبأ وقبل سورةِ غافر[1]، ومنها المبالغةُ في أمرِه حتّى اتَّصفَ بصفاتِ الكمال، والعناية به حتى بلغَ منزلةً رفيعةً، واختصَّ بصفاتٍ كريمة، حتّى وصفه بقوله في السورة ذاتِها بصيغة التَّضعيف كذلك: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ [الزمر: 23][2].

بيانُ الموقعِ الإعرابيِّ لـ﴿تَنزِيلُ﴾:

بين بيانِ شرفِ السّورةِ أو القرآنِ وإثباتِ ربّانيَّةِ مصدره

في إعراب ﴿تَنزِيلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ وجهان[3]، أحدهما: خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذوفٍ، هو اسْمُ إشارَةٍ، تقديره: (هذه) أُشيرَ بِهِ إلى السّورَةِ تَنْزيلًا لَها مَنزِلَةَ الحاضِرِ المُشارِ إلَيْهِ؛ لِكَوْنِها عَلى شَرَفِ الذِّكْرِ والحُضورِ، كَما مَرَّ مِرارًا، وقَدْ قيلَ: هو ضَميرٌ عائِدٌ إلى الذِّكْرِ في ختامِ سورة (ص) في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[4]، ومن لطائفِ هذا الوجهِ الإيجازُ بحذف المسندِ إليه، والاكتفاءِ بقرينةِ السياق والعقل على الحذف، ولفتُ ذهنِ السامع بالحذف إلى هذا الكلام المستأنفِ في سورة الزُّمر، أي: التَّنبيهُ الذي يحمله الخبر.

أو ﴿تَنزِيلُ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، وحَسُنَ رفعُ ﴿تَنزِيلُ﴾ بما بعده؛ لكونِه مضافًا إلى معرفة[5]، وفائدةُ هذا الخبر هو الرَّدُّ على الكافرين والمكرينَ المشكِّكين الذين يدَّعون أنَّ هذا القرآنَ ليس من عند اللّه العزيزِ الحكيم، أي: هذا الخبرُ تأكيدٌ على أنَّ القرآنَ منَ اللّه، بما يدلُّ على ربّانيَّةِ مصدره، وهذا يناسبُ حالَ المشركين الَّذين كانوا يُنكرون كونَهُ من عند اللّه، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: 38]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ [الدخان: 14]،

(1) الزركشي، البرهان: 1/ 193.
(2) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 85.
(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 414، وابن جرير، جامع البيان: 21/ 248، والزمخشري، الكشاف: 4/ 110.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 248.

وقوله: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥﴾ [الفرقان: 5].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

القرآنُ الكريم هو الكتابُ المعهودُ الكاملُ في الكتب

(ال) في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إمّا عهديَّةٌ، والمرادُ به "القرآنُ المعهود بينهم عند كلِّ تذكيرٍ وكلِّ مجادلة"[1]، فهو الكتابُ الكاملُ في الكُتُبِ، ولا ينصرفُ إلّا إلى القرآن الكريم[2]، ويكون إعادةُ ذكره وإظهاره دون إضماره في الآية الثّانية بقصدِ تعظيمِهِ ومزيدِ الاعتناءِ بشأنِه[3]، أو جنسيَّةٌ، والمرادُ بِهِ اسمًا عامًّا لِجَميعِ ما تَنَزَّلَ مِن عِندِ اللّهِ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ[4]، وكأنَّه أخبَرَ إخبارًا مُجرَّدًا أنَّ الكُتُبَ الهاديةَ الشّارعةَ إنَّما تَنزيلُها مِنَ اللّهِ، وجَعَل هذا الإخبارَ تَقدِمةً وتَوطِئةً لِقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾[5]؛ إثباتًا لصدقِ النَّبيِّ ﷺ فيما جاء به، وتأكيدًا لنسبةِ القرآن إلى اللّه ﷻ، فكأنَّ المعنى هو: كما أنَّ اللّهَ أنزلَ الكُتُبَ السَّماويَّةَ السّابقة على رسلِهِ السّابقين، والَّتي يؤمنُ بها معظمكم، كذلك أنزلَ اللّهُ القرآنَ الذي تكذِّبون به على النَّبيِّ ﷺ، وكذلك ليدلَّ على اشتمالِ القرآن الكريم على ما في الكُتُبِ السَّماوية كلِّها من آدابٍ وأخلاقٍ وأحكامٍ وغير ذلك من أخبارِ الأمم السّابقة، فاستحقَّ بذلك إطلاقَ الكتابِ عليه؛ لاشتمالِهِ على ما فيها من أحكامٍ وزيادة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ دون (القرآن):

هو كتابٌ مكتوبٌ في اللّوحِ المحفوظ ومكتوبٌ في الصُّحفِ الّتي بأيدينا

جاء لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في سورة الزُّمر خمس مرّات، فكان التَّعبير بالكتاب في افتتاح السورة متناسبًا مع تكرارِهِ فيها عدَّة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13016.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 23/ 224، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 23/ 224.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 181.

مرّات، والكتاب مِن مادَّة (كتب) الدّالَّة على جمع شيءٍ إلى شيءٍ[1]، ويُعبَّر عن الإثباتِ والتَّقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة، وذُكِرَ أيضًا من معاني هذه المادَّة الحُكمُ، والقضاءُ، والقدرُ، واللَّوحُ المحفوظ، وبمعنى الحُجَّة الثّابتة والإيجاد[2]، ومِنْ ثَمَّ فالتَّعبيرُ بالكتاب يناسبُ السّياق، أي: ما تضمَّنَته الآية مِن قوَّةٍ سواء بالتَّضعيف في لفظ ﴿تَنزِيلُ﴾، أو في ذكر الاسم الجليل وأوصافه، ويناسب المقام، فـ(كتاب) على وزن (فِعال) بمعنى مفعول، أي: فهو مكتوبٌ في اللَّوْحِ المحفوظِ، ومكتوبٌ بالصُّحُف الَّتي بأيدينا، ومكتوبٌ في الصُّحُف التي بأيدي الملائكة[3]، فهو مسجَّلٌ ومكتوبٌ لا يُنكر[4].

معنى ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

مَـبْـدَأُ تَـنْـزِيـلِ القرآنِ مِن عندِ اللهِ وحده يدفعُ أيَّ شـكٍّ فـي عظمته

حرفُ الجر ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ لابتداءِ الغاية، فقد أخبرَ البيانُ القرآنيُّ عن هذا التَّنزيل بأنَّ مَبْدَأ تَنْزيلِهِ كائنٌ منهُ جلَّ جلاله[5]، أي: مِن عند اللهِ وحده الَّذي له الخلقُ والأمر[6]، لا مِن جبريل ولا مِن محمَّد ولا مِن أيِّ مَصْدرٍ كان[7]، فلا تكوننَّ أيُّها المخاطَب في شكٍّ مِن ذلك[8].

دلالةُ التَّعبيرِ في قوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾:

كمالُ المنزَّلِ مِن كـمالِ المُـنْـزِلِ سبحانه

في التَّعبيرِ عن مُنزلِ القرآن سبحانه وتعالى بالاسم الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ الجامع لصفاتِ الكمالِ في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ثناءٌ على القرآن الكريم بأنَّه جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمالِ في أسلوبِه ومضمونِه، فالكلامُ وصفٌ للمتكلِّم، والوصفُ يتبعُ الموصوف، فكما أنَّ مِن وصفِه سبحانه

(1) ابن فارس مقاييس اللغة: (كتب).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كتب).
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 13.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13016.
(5) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 45.
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 192.
(7) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 13.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 248.

الألوهيَّة للخلق، وذلك لعظمتهِ وكمالهِ من كلِّ وجهٍ، ولا مثيلَ له، فكذلك كلامُه كاملٌ من كلِّ وجهٍ لا مثيلَ له[1]، ولأنَّ المنهجَ الَّذي نزلَ به الكتاب هو منهجٌ إيمانيٌّ وخُلُقيٌّ وتعبُّديٌّ، فهو مِن عطاءِ الألوهيَّة لا مِن عطاء الرُّبوبيَّة[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾، ودلالة التَّعبير بالعزَّة فيه:

القرآنُ لا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ، وهو يَغْلِبُ كُلَّ شَيْءٍ

لفظ ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ هو خِلافُ الذَّليل[3]، ومدارُ لفظ العزَّةِ على معنى الشِّدَّةِ والقوَّةِ، وما ضاهاهما مِن الغلبةِ والقهر[4]، وعلى معنى ندرةِ الشَّيء، يُقالُ: عَزَّ الشَّيْءُ حَتَّى يَكادَ لا يوجَدُ[5]، والعزيزُ: مِن أسماء اللهِ الحسنى، ووصفٌ من أوصافِ الذّاتِ العَليَّة، وهو المُمتَنِعُ، فلا يغلبُهُ شيءٌ، فهو الَّذي لَيْسَ كمِثله شيءٌ، ولذا فاللّامُ في اسم العزيز هي عهديَّةٌ، واصطفاءُ التَّعبير به في هذه الآية يوحي بأنَّ كلامَ اللهِ منزَّل على ما يناسبُ هذا الوصف، فيكون عزيزًا غالبًا بالحجَّة لمن كذَّبَ به، وغالبًا بالفضلِ لِما سواه من الكُتُبِ، وغالبًا لبُلَغاء العربِ؛ إذ أعجزهم عن معارضةِ سورة منه[6]، فهو كلامٌ نادرٌ لا يشبهه أيُّ كلام، وفي التَّعبير باسم العزيز كذلك تحذيرٌ من مخالفة كتابِهِ الَّذي أنزل، فهو سبحانه عزيزٌ في انتقامه.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ ودلالة التَّعبير بالحكمة فيه:

في وصفِ الحكيم إيماءٌ إلى أنَّه أنزلَ كتابه بالحكمةِ وإرشادٌ إلى تدبُّره

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ وصفٌ للهِ تعالى واسمٌ من أسمائِهِ، واللّامُ فيه عهديَّةٌ، فالحكيم هو الله سبحانه، وهذا الوصفُ لمنزِلِ الكتاب يوحي

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13017.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عزز).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عزّ).
(6) الآلوسي، روح المعاني: 23/ 233، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314.

باتِّصاف كتابهِ بأنَّه حكيمٌ، والحكيمُ: إمّا بمعنى الحاكم، فيكون القرآنُ حاكمًا على معارضيه بالحجَّة، وحاكمًا على غيره من الكُتُب السَّماويَّة بما فيه من التَّفصيل والبيان، قال تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: 48]، وإمّا بمعنى: المحكم المتقِن، فالقرآنُ مشتمِلٌ على البيانِ الَّذي لا يحتملُ الخطأ، وإمّا بمعنى الموصوف بالحكمة، فالقرآنُ مشتملٌ على الحكمةِ كاتِّصاف مُنزِله بها، وجميعُ ما فيه قائمٌ على أساسِ الحِكَم الباهرةِ[1]، وفي وصفِ الحكيم إيماءٌ إلى أنَّه أنزلهُ بالحكمة، وهي الشَّريعةُ: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 269]، وفي هذا إرشادٌ إلى التَّدبُّرِ في معاني هذا الكتاب؛ ليتوصَّلَ بذلك التَّدبُّرِ إلى العلمِ بأنَّه حقٌّ من عندِ اللهِ[2].

لطيفةُ الجمعِ بين ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾:

كتابٌ غالبٌ لخصومِهِ حاكمٌ على معارضيه بالحجَّةِ والبرهان فمُنزِله العزيزُ الحكيم

التَّعرُّض لوصفَي العزَّةِ والحكمة في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ للإيذانِ بظهور أثَرَيهما في الكتاب بجريان أحكامِه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مُدافعٍ ولا ممانع وبابتناءِ جميع ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة[3]، وقد جاءَتْ فاصلةُ الآية: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ مستقرَّةً مطمئنَّةً في موقعها، خادمةً لمعنى الآية: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾، وما يقتضيه المقامُ والسياقُ وما يناسبُ الغرضَ العامَّ في السورة، فإنَّه لمّا تقدَّم في الآية ذِكرُ التَّنزيل، اقتضى ذلك ذِكرُ: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾؛ للإيماء إلى أنَّ ما ينزلُ منه يأتي على ما يناسب الصِّفتين[4] من العزَّةِ، أي: الغلبةِ للخصوم، وإفحامِ بلغاءِ العرب؛ إذ أعجزهم عن معارضتهِ، والحكمِ على معارضيه بالحجَّة والبرهان، فأنتَ ترى ما في الفاصلةِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 314.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 23/ 233.

من الائتلافِ والتَّمكُّنِ والتَّمهيدِ والقرار، فلا نفورَ فيها ولا قلق، ولا اختلالَ، ولا اضطراب.

وقد دَلَّ استِقراءُ القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللَّهَ إذا ذَكرَ تَنزيلَهُ لكتابِهِ؛ أتبعَ ذلك ببعضِ أسمائِه الحُسنى، المُتَضَمِّنَةِ صفاتِه العُلْيا، بما يَدُلُّ بإيضاحٍ عَلى عَظَمَةِ القُرْآنِ العَظيمِ، وجَلالَةِ شَأْنِهِ وأَهَمِّيَّةِ نُزولِهِ[1].

نكتةُ تقديم ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾:

يغلبُ بحجَّته وفضله سبحانه فيحكمُ بمنهجِهِ وشرعه

قدَّم البيانُ الحكيمُ اسمَ العزيزِ على اسم الحكيم مِن باب تقديمِ السَّببِ على المسبَّب؛ لأنَّه عزَّ فحكم[2]، ولأنَّ صفةَ العزيزِ من صفاتِ الذات، وصفةَ الحكيم من صفاتِ الأفعال[3]، ولكون القدرةِ مقدَّمةً على حسنِ التَّدبير، ولمراعاةِ فاصلةِ الآيةِ للَّتي بعدها، ولمناسبةِ السّياق، وهو الحديث عن القرآنِ الذي أضفى عليه هذان الاسمان صفةَ العزَّةِ والحكم والحكمة، فالقرآنُ يغلبُ الخصومَ، ويُفحمهم بعجزهم عن معارضته، فيحكمُ عليهم بالحجَّة والبرهانِ، ويغلبُ الكُتُبَ السَّماوية بالفضلِ، ويهيمنُ عليها بمنهجه الحكيم وشرعه القويم، وأحكامُه قائمةٌ وأوامرُه ونواهيه نافذةٌ مِن غير مُدافعٍ ولا ممانع.

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 7/ 46.
(2) السيوطي، الإتقان: 3/ 45.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 627.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾

[الزمر: 2]

بعد التّنويهِ بشأنِ القرآنِ تنويهٌ بشأنِ من أُنزِلَ إليه ﷺ

استمرارٌ ببيانِ عظمةِ نعمةِ القرآنِ بما يوجِبُ القيامَ بشُكرِها وإخلاصِ الدّينِ لله

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا بيَّن أنَّ تنزيلَ الكتاب من اللّه؛ بيَّنَ إلى مَن أُنزِلَ، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، فهو شروعٌ في بيانِ المنزَلِ إليه وما يجبُ عليه إثرَ بيانِ شأنِ المنزَلِ، وكونه من عند اللّه تعالى[1].

لَمّا كان الكِتابُ نازِلًا مِنَ الحَقِّ العزيزِ الحكيم؛ كان مُشتَمِلًا على الحَقِّ لهِدايةِ الخَلقِ، ومنزَّلًا على أشرَفِ الخَلقِ، وبهذا عَظُمَتْ فيه النِّعمةُ، وجَلَّتْ، ووجَبَ القيامُ بشُكرِها، وذلك بإخلاصِ الدّينِ للّه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخْلِصًا﴾: (خلص) أصلٌ واحِدٌ هو تَنقيَةُ الشَّيءِ وتَهذيبُهُ ممّا يشوبه، يَقولونَ: خَلَّصتُهُ مِن كَذا تخليصًا؛ إذا صفَّيْتُه مِن كَدَرٍ أو دَرَنٍ، وخَلَصَ هوَ، والخالصُ كالصّافي، إلّا أنَّ الخالِصَ هو ما زالَ عنه شَوبُهُ بعدَ أنْ كانَ فيه، والصّافي قد يُقال لما لا شوبَ فيه[2]، والمعنى المحوريُّ له: نفاذُ الشَّيءِ نقيًّا مِن أثناء ما كانَ يُخالطُه، أو يَشوبُه[3]، وأخلَصَ الشَّيءَ: اختارَهُ، والمُخلَص: الَّذي جَعَلَه اللّه مُختارًا خالِصًا مِن الدَّنَسِ، والمُخلِصُ: الَّذي وحَّدَ اللّه تَعالى خالِصًا[4]، والمعنى في الآية: وأخلِصْ له الألوهيَّةَ، وأفرِدْه بالعبادة، فلا تجعلْ له في عبادتك إيّاه شريكًا، أي: مخلصًا دينَهُ مِن شوائبِ الشِّركِ والرّياءِ[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، وابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خلص).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلص).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خلص).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 250، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 48.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وجَّهت الآيةُ الكريمةُ الخطابَ إلى نَبيِّ اللّه ﷺ لبيان المُنزَل إليه وعظمته عند اللّهِ، وبيانِ غرضِ التَّنزيل، أي: إنّا أنزَلْنا - بما لنا من العظمةِ إليك يا مُحمَّدُ - القُرآنَ ملتبسًا بالحقِّ الذي لا شكَّ فيه، ولأجلِ الأمرِ بالحقِّ والعدلِ، ومِن ذلك الحقِّ والعدلِ أنْ تعبدَ اللّهَ مخلصًا له الدّين؛ لأنَّ الدّينَ له لا للأوثانِ الَّتي لا تملكُ ضرًّا ولا نفعًا، فاخشعْ للّهِ يا محمَّد بالطاعةِ، وأخلصْ له الألوهيَّةَ، وأفرده بالعبادة، ولا تجعلْ له في عبادتكَ إيّاه شريكًا، كما فَعَلَتْ عَبَدَةُ الأوثان[1].

نـازلٌ مِـن الحقِّ متلبِّسٌ بالحقِّ عـلى أشـرفِ الخلق لهدايتهم بالتَّوحيدِ لله

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصل الآيَة عمّا قبلَها:

جملةُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ تتنزَّلُ منزلةَ البيانِ لجملة ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾، أي: بين الجملتين كمالُ اتِّصال، ولذا لم يربطْهُما بعاطفٍ، أي: الآيةُ هي استِئنافٌ وشُروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه، وما يَجِبُ عليه، إثْرَ بَيانِ شَأنِ المُنزَّلِ، وكَونِه مِن عِندِ اللّهِ تَعالى[2].

اسـتِـئـنـافٌ وشُـروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه وما يَجِبُ عليه

نكتةُ العدولِ عن أسلوبِ الغيبةِ إلى التَّكلُّم:

عدلَ النَّظمُ الحكيم مِن أسلوبِ الغَيبةِ في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقلْ: (هو الذي أنزل إليك الكتاب)؛ تفنُّنًا في الخطاب، وليُحْدِثَ إيقاظًا ولفتًا للانتباه إلى أنَّ ما سيتكلَّم عنه، وينتقلُ إليه - وهو إنزالُ القرآنِ - أمرٌ مهمٌّ عظيمٌ، وكلامٌ يجب التَّنبُّهُ له واهتمامُ السّامع لأمرِه، ولذا أكَّد هذا التَّنبيه باستخدامِ ضمير التَّكلُّم الدالِّ على التَّعظيم

قـياسُ الغائبِ عـلى الـحـاضـرِ والخفيِّ المستورِ عـلى الـظـاهـرِ المشاهَدِ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 248.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 388.

في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾، وعلى تفسيرِ الكتابِ في الآيةِ الأولى بالكُتُبِ السَّماويَّة تكونُ بلاغةُ الانتقالِ هي لفتُ الأنظارِ إلى تأمُّلِ كلامِ اللّه؛ ليكونَ طريقُ الاقتناعِ المطمئنِّ والتَّسليم بنسبةِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ كلِّها إلى اللّهِ ﷻ قياسًا للغائبِ منها على الحاضر، والخفيِّ المستورِ على الظّاهرِ المشاهد[1].

غرضُ التَّوكيدِ في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ﴾:

اهتمامٌ بخبرِ إنزالِ القرآنِ وتعريضٌ بالذين أنكروهُ

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ من خلالِ الافتتاحِ بحرفِ التَّوكيد (إنَّ)، وغرضُهُ أمران: أوَّلُهما: الاهتمامُ بالخبرِ، إنْ روعي فيه معنى الامتنانِ على رسولِ اللّه ﷺ باختصاصِه بإنزالِ القرآن إليه، وتشريفِهِ بهذا المقام العظيم، وكذلك زيادةُ الإعلانِ بصِدقِ النَّبيِّ المُنَزَّلِ عليه الكِتابُ، وهو جَديرٌ بالتَّأكيد؛ لأنَّ دَليلَ صِدقِهِ ليس في ذاتِهِ، بل هو قائمٌ بالإعجازِ الَّذي في القُرآنِ، وبغَيرِهِ مِنَ المُعجِزات، فكان مُقتَضَى التَّأكيدِ مَوجودًا، بخِلافِ مُقتَضى الحالِ في قوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[2].

وثانيهما: التَّعريضُ بالمشركين بالتَّأكيدِ على خبرِ إنزال القرآنِ مِن عند اللّه سبحانه؛ لأنَّهم أنكروا أنْ يكونَ منزَّلًا مِنَ اللّه.

كما أنَّ في تَكرارِ الإنزالِ توكيدًا غرضهُ التَّنبيهُ على زيادةِ عظمةِ هذا الكتابِ المنزَّل[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ في ﴿إِنَّآ﴾ و﴿أَنزَلۡنَآ﴾:

في تعظيمِ اللهِ وتعظيمِ إنزالِه تعظيمٌ للقرآنِ وللنَّبيِّ العدنان

جاء الضَّميرُ في ﴿إِنَّآ﴾ و﴿أَنزَلۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ بصيغةِ الجمعِ، أي: نون العظمةِ مع أنَّ اللّهَ واحدٌ أحدٌ[4]؛ ليُشعرَ بعظمةِ المنزِّل سبحانه، وعظمةِ الكتابِ المنزَّل،

(1) طبل، أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص: 112.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 439.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 181.

وعظمة المُنزَل عليهِ ﷺ، ويُفيدَ التَّأكيدَ لإثباتِ المضمون، وتحقُّقَ الموعودِ، وهو إنزالُ الكتابِ الجامعِ لكلِّ صلاح الملتبسِ بالحقِّ، كأنَّه يقول: "إنّا على ما لنا من العظمةِ أنزلنا بما لنا من العظمةِ إليك الكتاب"[1]، كما أنَّ في التَّعبيرِ بهذا الضَّمير اختصارًا في الكلام، يُذكرُ في سياقِ التَّفخيمِ والإعظام.

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿أَنزَلۡنَآ﴾ مادَّةً وصيغةً:

علــوُّ المـنـزِّل سبحانه وشرفُ المُـنـزَّل والمنـزَّل إليه

عُبِّرَ بمادَّةِ الإنزال في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالة على علوِّ المُنَزِّل سبحانه وشرفِه، وشرف المُنزَّل، وشرفِ المنزَّل إليه ﷺ؛ لأنَّ الإنزالَ يكون من علوٍّ[2]، وعدلَ النَّظمُ عن صيغة الفعلِ الأصليَّة (نزل) إلى صيغة (أفعل)، فلم يقُلْ: (نزَل الكتابُ)؛ لأنَّ الفعلَ الماضي المُجَرَّد لهذه الكلمة (نَزَل) فعلٌ لازمٌ لا يتعدّى إلى مفعولهِ بنفسه، وبتحوُّله إلى صيغة (أنزل) فإنَّها تصبح قادرةً على أنْ تتعدّى إلى مفعولها؛ لأنَّ من طرقِ تعديةِ الفعل اللازم إلحاقَ همزةِ التَّعدية بأوَّله، وفائدةُ التَّعدية أنْ يُصرَفَ إسنادُ الإنزال إلى اللّه وحده، ليس بين المسندِ والمسندِ إليه واسطةٌ، ولا وسيلةٌ، على سبيلِ المبالغةِ في تحقيقِ مقصود السّورة (إخلاص العبادة)، وللمبالغةِ في التَّحذير من الشِّركِ والنَّهي عن كلِّ أنواعِه، وسدِّ كلِّ طريقٍ يوصلُ إليه[3]، ومن المعاني الَّتي تفيدها همزةُ التَّعدية في صيغة (أفعل) معنى الجَعْلِ، أي: جعل لك نعمةَ إنزال القرآنِ، وهي نعمةٌ عظيمة، تظهرُ عظيم إفضالهِ سبحانه على خَلْقِهِ، وفي هذه الصّيغة كذلك معنى الخِفَّة، الَّتي يوحي بها سهولةُ خروجها عند النُّطقِ بها، وجريان النَّفَس، وعدم تعَثُّر الصَّوت عند نطقها، أو صعوبة مخارجها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 439.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13014.
(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 49.

الحكمُ بإنزالِ القرآنِ على النَّبيِّ حكمًا كليًّا ثمَّ إيصاله إليه منجَّمًا وفقَ المصالح

والتَّعبيرُ بالإنزالِ بعد التَّعبيرِ بالتَّنزيل في الآية السّابقة للإشارةِ إلى أنَّ القرآنَ نزلَ جملةً ومُفرَّقًا، والمعنى: "إنّا حكمنا حكمًا كليًّا جازمًا بأنْ يوصلَ إليك هذا الكتاب - وهذا هو الإنزالُ - ثمَّ أوصلناه نجمًا نجمًا إليك على وفقِ المصالح، وهذا هو التَّنزيلُ"(1).

معنى (إلى) ونكتةُ التَّقييدِ في ﴿إِلَيۡكَ﴾:

تنويهٌ بشأنِ النَّبيِّ ﷺ، فهو غايةٌ لنزولِ القرآنِ

الأكثرُ والأصلُ أنْ يُعدّى الإنْزالُ بحرف (على)؛ لأنَّه في معنى السُّقوط، ولكنَّه عُدّي هنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بحرفِ الانتهاءِ ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ لِتَضْمينِه معنى الوصف، فالمُنْزَلُ إليه ﷺ غايةٌ للنُّزول، والمعنى: أنزلناه لغايتكَ، أي: أنتَ غايةٌ بحدٍّ ذاتك، وهذا فيه تنويهٌ بشأنِ رسولِ اللّه ﷺ، ومدحٌ وثناءٌ عليه، كأنَّه هو نهايةُ الغايةِ في الإنزال(2)، ولأنَّ (إلى) يُراعى بها وصولُ المنزلِ بواسطة المَلَك، بخلافِ (على) الَّتي يُراعى بها وصولُهُ من عند اللّه سبحانه من غيرِ واسطة، وللتَّناسب مع الآية السابقة، الَّتي ورد فيها لفظ (مِن) في: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ الَّتي هي لابتداءِ الغايةِ، فناسبَ مجيءُ (إلى) الَّتي هي لانتهاءِ الغاية؛ للدَّلالة على أنَّ القرآنَ مبدأُه من اللّهِ، ومنتهاه أنْ يُبلَّغ لرسوله وللعالمين، كما أنَّ استعمالَ حرفِ الانتهاء في ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ فيه تشديدُ التَّكليف عليه، وإنزاله منزلةَ أمَّتِه، فيما يجبُ على عالمهم تبيينُهُ لمتعلِّمهم، فقد أُمِرَ بإخلاصِ العبادة، والمرادُ هو وأمَّته، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: 44]، فكان المرادُ أنَّه تناهى إلى حيثُ لا متعدَّى وراءه(3)، بخلافِ (على) الَّتي تدلُّ على التَّخفيف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ [الزمر: 41] بدليلِ قوله بعده: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾ [الزمر: 41]، أي: لستَ بمسؤولٍ عنهم(4).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 378.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 239، 23/ 315.
(3) الكرماني، البرهان، ص: 321.
(4) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 491.

نكتةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

بيانُ شرفِ النَّبيِّ واختصاصِه بالوحي

قدَّم البيانُ الحكيم ﴿إِلَيۡكَ﴾ على المفعول ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للاختصاص[1]، أي: أنزلنا إليك خاصَّةً بواسطة الملَك، لا يقدرُ أحدٌ مِنَ الخلقِ أنْ يدَّعي مشاركتك في شيءٍ مِن ذلك، فتكون دعواه موجبةً لنوعٍ من اللَّبس[2]، وفي هذا الاختصاصِ تشريفٌ للنَّبيِّ ﷺ، وبيانٌ بأنَّه أشرفُ الخلقِ.

نكتةُ إعادةِ ذِكر ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ وإظهاره:

تفخيمُ القرآنِ والتَّنويه بشأنِه دعوةً وإرشادًا

أعادَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فجاء بالإظهارِ في مقامِ الإضمارِ؛ "إظهارًا لشرفِه ولكمالِ تقرُّره في الذِّهن، وتربيةً لمهابتِه في النُّفوس، ولتشريفِ النَّبيِّ عليه السلام، ولتوصيفه بالحقِّ المنفهمِ ممّا مَرَّ؛ لأنَّ المنزَلَ مِنَ اللّٰه لا يكون إلّا حقًّا وملابسًا بالحقِّ"[3]، وكذلك للتعظيم والتفخيم له والتَّنويه للاعتناءِ بشأنه[4]، بالتَّنبيهِ على ما فيه من جمعِ الأصولِ والفروع واللَّطائف والمعارف، أي: (أنزلنا إليك الكتابَ الجامعَ لكلِّ خيرٍ مع البيانِ القاطعِ والحكم الجازم بالماضي والآتي والكائن)[5]، ولتكونَ جملةُ الاستئنافِ جملةً مستقلَّةً، واستقلالُ الجملةِ ووضعُها وضعًا لا تحتاجُ فيه إلى ما قبلها من بلاغةِ الكلام، وهذا باعتبار أنَّ معنى الكتاب في الموضعين هو القرآنُ الكريم، ويكون في هذا التَّفخيم والتَّنويه دعوةٌ للإيمانِ به والاعتناءِ به والاستمساكِ بهديه، ويرى النَّسفيُّ أنَّ "هذا ليس بتكرار؛ لأنَّ الأوَّل كالعنوانِ للكتاب، والثاني لبيان ما في الكتاب"[6].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 181.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 465.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 168.

وأمّا مَن فسَّرَ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في الآية الأولى بالكُتُبِ السَّماوية السّابقة، وفي الثانية بالقرآن، فتكون إعادتُهُ وإظهاره لاختلافِ المقصودِ بهما، وللإشارةِ إلى أنَّ الَّذي أنزل الكُتُبَ السَّماويَّة هو مَن أنزلَ هذا الكتاب، وأنَّ القرآنَ الكريمَ يجمعُ ما في الكُتُبِ السّابقة، ويهيمن عليها.

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

ملابسةُ القرآن للحقِّ وإظهارُه لــه مــوجــبٌ لقَبولهِ والعمل به

(الباء) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إمّا متعلِّقةٌ بالإنزال، أي: بسببِ الحقِّ وإثباته وإظهارِه، أو بداعيةِ الحقِّ واقتضائه للإنزالِ، وإمّا بمحذوفٍ هو حالٌ من نونِ العظمةِ، أي: أنزلناهُ إليك محقّين في ذلك، أو حالٌ من الكتاب، أي: أنزلناه مُلتبِسًا بالحقِّ والصَّواب في جميع معانيه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: 42][1]، والمراد من ذلك أنَّ كلَّ ما فيه حقٌّ لا ريبَ فيه، ولا يحومُ حوله باطلٌ، أو ما يشبهُ الباطل، وهذا موجبٌ لقبولهِ والعملِ به حَتْمًا[2].

دلالة التَّعبير بـ(الحق):

الـحـقُّ أوسـعُ مدلولًا وأشملُ مضمونًا وأنسبُ لسياقِ التَّعظيم

أصلُ (حقَّ) يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِهِ[3]، ويدلُّ كذلك على ثبوتِ الشَّيءِ ولزومه[4]، ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[5]، والحَقيقَةُ: الشَّيءُ الصَّحيحُ يَقينًا[6]، وبناءً على ذلك فإنَّ انتقاءَ لفظِ (الحقِّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ لسعتهِ وشموله، ولتناسبهِ مع سياقِ التَّعظيم للمنزِّل سبحانه،

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 182، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 224، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 192.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقق).
(6) مصطفى، المعجم الوسيط: (حقق).

وللمنزَّل وهو القرآن، وللمنزَّل إليه ﷺ؛ ولذا فإنَّه يصوِّر بظِلاله ما في الكتاب الذي أنزلَهُ على نبيِّه ﷺ من القضاءِ بين الخصوم، وشتّى أصنافِ العلوم، فقد دمغَ رؤوسَ الباطل، وأسَّسَ العدلَ، وأحيا القلوبَ بعد مواتٍ، وأرسى قواعدَ الفضيلةِ والهدى والعلمِ والنّور.

كما أنَّ انتقاءَ هذا اللَّفظ للتَّعريض بالمشركين الذين خالفوا الحقَّ، واتَّبعوا الباطلَ بأقوالِهم وأفعالِهم ومعتقداتِهم الشِّركيَّة، فالحقُّ هو ما أنزلهُ لأجلِ القرآن، أو ما تضمَّنه دون سواه، وما عليه أدعياءُ الحقِّ هو الباطلُ لا سواه.

العدولُ في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾:

في الإفرادِ تمكينٌ وتهيئةٌ لإظهارِ الاسم الجليل الجامعِ لصفاتِ الكمال

عدلَ النَّظمُ الحكيم من أسلوب التَّكلُّم بنون العظمةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى أسلوبِ الإفرادِ، فقال سبحانه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ولم يقلْ: (فاعبدنا مخلصًا لنا الدين)؛ وذلك لكون الإفرادِ هو الأنسب للسّياقِ، والأبلغ في أداءِ المعنى المرادِ على أكملِ وجهٍ؛ إذ إنَّ في انتقاله إلى الإفراد تمكينًا وتهيئةً للتَّصريح بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الذي اختصَّ به، وتفرَّد به سبحانه، "ولفتًا للقولِ عن مظهرِ العظمةِ إلى أعظم منه بلحظِ جميعِ صفاتِ الكمال، لأجلِ العبادة تعظيمًا لقدرها؛ لأنَّها المقصودُ بالذات"[1]، ويكون العدول بذلك قد أظهرَ التَّناسبَ والملاءمةَ في السّياق بين معانيه الجزئيَّة وبين تراكيبِهِ وألفاظهِ المتجاورة، فتظهر بذلك بلاغةُ الكلامِ وجمالِ التَّعبير.

معنى (الفاء) في جملة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾:

مَـن اختصَّ، وتفرَّد بالنِّعَم؛ كان المستحقَّ الوحيدَ للعبادةِ الخالصة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لِترتيبِ الأمرِ بالعِبادةِ على إنزالِ الكِتابِ إلى النَّبيِّ ﷺ بالحَقِّ، فأمرَ بأنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

يَعبُدَ اللّهَ مُخلِصًا له العِبادةَ، مُمَحِّضًا له الدّينَ مِن شَوائِبِ الشِّركِ والرّياءِ، حَسبَما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما أُنزِلَ إليه[1]، أي: لمّا امتَنَّ تعالى على رَسولِه بإنزالِ الكِتابِ عليه بالحَقِّ، وكان الحَقُّ إخلاصَ العبادةِ للّهِ؛ أمَرَه تعالى بعبادتِه[2]، وفي هذا التَّفريعِ تَعريضٌ بما يُناسِبُ المَعنى التَّعريضيَّ في المُفَرَّعِ عليه، وهو أنَّ المُعرَّضَ بهم أنْ يَعبُدوا اللّهَ مُخلِصينَ له الدّينَ، عليهم أنْ يَدَّبَّروا في المَعنى المُعَرَّضِ، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الكتابِ عليه نعمةٌ كبرى تقتضي أنْ يقابلَها الرَّسول ﷺ بالشُّكرِ بإفرادِه بالعبادةِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إشراكَ المشركين باللّه غيره في العبادة كفرٌ لِنِعَمِهِ الَّتي أنعمَ بها[3]، وفي الفاءِ كذلك معنى السَّببيَّة والتَّعقيب، أي: إنَّ إنعامَ اللّه لنبيِّه وتفضُّله بنعمةِ إنزالِ الكتاب إليه خصوصًا توجبُ، وتقتضي مباشرةً وعلى وجهِ السُّرعةِ استحقاقَ اللّهِ للعبادةِ الخالصةِ والدّين الخالص له وحدَهُ، فاستحقاقُ اللّه للعبادة الخالصة هي بمنزلةِ النَّتيجةِ الثّابتة لِما قبلها، والغرضُ المُهمُّ المرادُ تحقيقه بما قبله مِنَ الأسبابِ والطُّرقِ المؤدّية إليه والمحقِّقة له[4].

دلالةُ التَّعبير بالعبادة في الفعل ﴿فَٱعۡبُدِ﴾:

الخضوعُ والتَّذلُّلُ والانقيادُ للهِ وحده هو غايةُ سورة الزُّمر ومقصدها الأوَّل

المعنى العامُّ الشّائعُ لكلمةِ العبادة هو الخضوعُ والتَّذلُّل والانقيادُ، وأنَّ المُتَّصفَ بها يقعُ تحتَ تصرُّفِ من يخضعُ له[5]، ومعناها في اصطلاحِ الشَّرع: خضوعُ العبدِ وانقيادُهُ لكلِّ ما يأمرُ به اللّهُ واجتنابه لكلِّ ما ينهى عنه على خلافِ هوى نفسه تعظيمًا للّه ﷻ[6]، أي: هي "أقصى درجاتِ التَّذلُّلِ والخضوعِ للمعبودِ ﷻ"[7]، وقد جاء التَّعبيرُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 182.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 315 - 326.
(4) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 270.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 189.
(7) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 192.

بالعبادة هنا متناسبًا مع أحدِ أهمِّ مقاصدِ السّورة والمضمون العامِّ لها، وهو الدَّعوةُ إلى عبادةِ اللّه وحده لا شريكَ له باطنًا وظاهرًا، فقد وردَتْ مفردةُ العبادةِ في ستَّ عشرةَ مرَّةً، ثمانٍ منها بصيغةِ الاسم على الاستمرارِ والثُّبوتِ والدَّوام، وجاءَتْ في الثَّماني الأخرى بصيغةِ الفعل الدّالِّ على التَّجدُّدِ والحدوث.

غرضُ الأمرِ في الفعل ﴿فَٱعۡبُدِ﴾:

إثــارةٌ وتهييجٌ لرسولِ الله ﷺ ليـزدادَ تمسُّكًا بالحقِّ واليقين

أُمِرَ النَّبيُّ ﷺ بالعبادةِ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مع أنَّها واقعةٌ منه ﷺ، ولا يُتصوَّر منه خلافها، ولذا فأمرهُ خارجٌ عن معنى الأمرِ الأصليِّ لأداءِ معنى آخر، وهو الإثارةُ والتَّهييجُ والإلهاب حتى يستمرَّ بالإخلاص في عبادته[1]، ويزدادَ ﷺ تمسُّكًا بما هو عليه من الحقِّ واليقين، ويستمرَّ على ذلك، كما يمكنُ أنْ يكون أمره بما هو قائمٌ به، للإشارةِ إلى أمرِ غيره، وهم الَّذين لم يفعلوا تلكَ الأوامر، وهذا أسلوبٌ راقٍ في التَّربيةِ والحضِّ على الفعل، بعدمِ أمرِهم تصريحًا، بل حضِّهم تعريضًا، وهذا معاملةُ إكرام، وفي الأمرِ المباشر إشارةٌ إلى إظهارِ سلطانِ الرُّبوبيَّة وغلبتها وتفرُّدها بالأمر والنَّهي، وأنَّ البشريَّةَ في أسمى صورها - وهي النُّبوَّةُ - تُؤمَرُ وتُنهى، وهذا تعميقٌ للفرقِ بين الألوهيَّة والنُّبوَّة، وأنَّ محمَّدًا ليس إلّا بشرًا، وبذلك يضمنُ القرآنُ نقاءَ عقيدةِ الوحدانيَّة الَّتي حرصتِ السورةُ على تأكيدها، بل إنَّها جعلته محورها ومقصودها الأهمَّ[2].

مرجعُ ضميرِ الخطابِ في الفعل ﴿فَٱعۡبُدِ﴾:

الإخـــلاصُ بالعبادةِ أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ ولأمَّتِهِ مِن ورائه

ضميرُ الخطاب في قوله: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ يعودُ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ الأمرَ بالعبادةِ جاء مترتِّبًا على خطابِ اللّه له: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ على سبيلِ الامتنانِ بالنِّعمةِ العظيمةِ عليه، الَّتي تستوجبُ الشُّكرَ بالثَّباتِ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 465.

(2) أبو موسى، دلالات التراكيب، ص: 253 - 245.

على إخلاصِ العبوديَّة للّه، ولكن وإنْ كان الخطابُ للنَّبيِّ ﷺ، والأمرُ له بالعبادة، فإنَّه أمرٌ للأمَّة بشخصِ نبيِّها ﷺ، والغرضُ من ذلك تعظيمُ هذا الأمرِ وبيانُ جلالةِ شأنِه.

دلالةُ تعليقِ العبادةِ بالاسم الجليل في ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾:

وجوبُ لحظِ جميعِ صفاتِ الكمالِ للهِ عند عبادته

التَّصريحُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامعِ لكلِّ صفاتِ الكمال والجلال؛ تنبيهًا على وجوبِ لحظِ جميعِ صفاتِ الكمالِ للّهِ عند عبادتِهِ، وتعظيمًا للعبادة ورفعًا لقدرها[1]، كما أنَّ الاسمَ الجليلَ الذي اختصَّ به سبحانه، وتفرَّد به، فلا يتسمّى به غيره، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65]، هو الأنسبُ لسياقِ الامتنان والتَّفضُّلِ على رسولِ اللّه ﷺ بما خصَّه اللّهُ به مِنَ النِّعَم الَّتي شرَّفه بها، وكرَّمه باختصاصه بها، وأعظمها اختصاصهُ بإنزالِ القرآنِ الكريم دون غيره، أي: جاء التَّصريحُ ليتحقَّق التَّناسب بين معنى الاختصاصِ في حقِّ المُنعِم ﷻ الَّذي أنزلَ الكتاب، والاختصاصِ في حقِّ المنعَم عليه، وهو الرَّسول ﷺ، واختصاصِ اللّهِ بالعبادةِ الخالصةِ له وحده لا شريكَ له، وإمحاضِ الدّينِ كلِّه للّه وحدَهُ وتصفيته من كلِّ شركٍ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإخلاص في القيد ﴿مُخۡلِصٗا﴾:

الإخلاصُ أصلُ كلِّ عملٍ بتصفيةِ النّيَّة في أوَّلِهِ وعدمِ الالتفاتِ إليه في آخره

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الإخلاصِ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ دونَ غيرِه، كالصِّدق مثلًا، فلم يَقُلْ: (فاعبدِ اللّه مصدِّقًا)، لكون لفظِ الإخلاص أنسبَ للسّياق، الذي يتحدَّثُ عَنِ الشِّركِ واتِّخاذِ الأولياء من دونِ اللّه، وأنسبَ لمقصودِ السّورةِ الَّتي عمودُها الإخلاصُ للّه، ولذا سُمّيَت بـ(سورة الإخلاص)، التي من خصائصِها أنْ وردَ فيها لفظ ﴿مُخۡلِصٗا﴾ مفردًا بحقِّ النَّبيِّ ﷺ ثلاثَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

(2) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 270.

مرّاتٍ، كما أنَّ الإخلاصَ أعلى مِنَ الصِّدق؛ إذ ليس المطلوبُ عدمَ التَّكذيب، بل ما هو أعلى مِن ذلك، وهو الإخلاصُ الَّذي هو الإمحاضُ وعَدَمُ الشَّوبِ بمُغايِرٍ، وهو إفرادُ اللّهِ بالإلَهيَّةِ؛ ليَثْبُتَ النَّبيُّ ﷺ على عِبادةٍ غَيرِ مَشوبةٍ بحَظٍّ دُنيَويٍّ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[1]، وفي تقييدِ العبادةِ بالإخلاصِ كذلك دلالةٌ على بيانِ أهمّيَّته بالتَّصريح به، لصعوبتِهِ على النَّفْسِ، ولذلك أكَّده في السورة، وصرَّح بهذا اللَّفظ في عدَّة مواضع منها، فهو كما قال الجنيد في بيانِ أهمّيَّته: "أصلُ كلِّ عملٍ، وهو مربوطٌ بأوَّل الأعمال - وهو تصفيةُ النِّيَّة - ومنوطٌ بأواخر الأعمالِ بألّا يلتفتَ إليها، ولا يتحدَّثَ بها، ويضمر في جميع الأحوال إفرادَ اللّه بالعمل"[2]، ولذا لم يؤتَ في هذا التَّركيب بصيغة قصر، دون تصريحٍ به، كما في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ [الزمر: 66][3].

لطيفةُ صوغِ ﴿مُخْلِصًا﴾ اسم فاعل:

رسولُ الله ثابتٌ علـى الإخــلاصِ مستمرٌّ فيه فهو رأسُ المخلِصين

جاء لفظُ ﴿مُخْلِصًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ على وزنِ اسمِ الفاعل الَّذي يدلُّ على الثَّباتِ والاستمرار؛ مبالغةً في بيانِ ثباتِهِ على الإخلاص، وأنَّ المطلوبَ منه ﷺ بلوغُهُ الغايةَ في الإخلاص، والاستمرارُ والثَّباتُ عليه، أي: كما خصَّكَ اللّهُ بهذا الأمرِ، فأخلصْ؛ لتكونَ رأس المخلِصين[4].

نكتةُ حذفِ متعلِّقِ ﴿مُخْلِصًا﴾:

إخلاصٌ عن كلِّ شائبةٍ من شركٍ وريـــاءٍ وحـظٍّ دُنيَويٍّ

حُذِفَ متعلِّقُ ﴿مُخْلِصًا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لإفادة العموم؛ إذ لو ذُكِرَ الشِّرك؛ لاقتصرَ عليه، وإنَّما المقصودُ إخلاصٌ عن كلِّ شائبةٍ من شركٍ ورياءٍ وكلِّ حظٍّ دُنيويٍّ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

إخلاصًا تامًّا، لا يحومُ حوله رياءٌ أو تفاخرٌ، أو غير ذلك ممّا يتنافى مع إخلاصِ الخضوعِ للّه تعالى وحده حسبما بُيِّن في تضاعيفِ ما أنزل إليه ﷺ[1].

معنى (اللام) ونكتة التَّقييد بـ ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ﴾:

خَصَّهُ تعالى بالعبادةِ كما خَصَّك بالنِّعمة العظمى

لامُ ﴿لَّهُ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ للاختصاص، والمعنى: (فاعبدِ اللّه مخلصًا لَه وحدَهُ الدّين بمعانقة الأمرِ على غايةِ الخضوع؛ لأنَّه خصَّك بهذا الأمرِ العظيم، فهو أهلٌ منك لأنْ تخصَّهُ بغايةِ الخضوعِ، وخسأ عنك الأعداءُ، فلا أحدٌ منهم يقدرُ على الوصولِ إليك، فأخلِصْ؛ لتكونَ رأسَ المخلصين)[2].

نكتةُ تقديمِ ﴿لَّهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾:

العبادةُ كُلُّها مُخَصَّصةٌ لله وحده سبحانه

قدَّم البيانُ الحكيمُ الجارَّ والمجرور ﴿لَّهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾، ولم يقلْ: (مخلصًا الدينَ لَه)؛ لإفادةِ الحصرِ والقصر، أي: مخلصًا له وحده لا لغيره[3]، فالعبادةُ كلُّها مُخَصَّصةٌ له وحده سبحانه، ممّا يُبرزُ أهمّيَّةَ الإخلاصِ في النّيَّة، وإخلاصها عن الشَّوائب، وتأكيد ذلك، وأنَّه هو جوهرُ العبادة[4]، ويبرزُ خصوصيَّةَ العلاقةِ بين العبدِ وربِّهِ، كما أنَّ هذا التَّقديم يومئُ بتفخيمِ أمرِ العبادة، وأنَّها ليستْ مجرَّدَ أفعالٍ تُؤدّى، بل هي عملٌ يُخَصُّ به اللّهُ تعالى، ممّا يعكسُ مكانته السّامية، كما أنَّ في التقديمِ مراعاةً للفاصلة القرآنيَّة.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 240، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 316، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 440.

(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 515.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾

[الزمر: 3]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أمرُ اللهِ بإخلاصِ العبادةِ له لاستحقاقِهِ لذلك سبحانه

لمّا أمَر اللّهُ سُبحانَه رسولَهُ ﷺ بإخلاصِ العبادةِ للّه؛ تهييجًا وإلهابًا وتثبيتًا على التَّمسُّكِ بما هو عليه من الحقِّ واليقين؛ نادى باستِحقاقِ اللّهِ لذلك، أي: بأنْ يُفردَ بالعبادةِ، ولا يُقصدَ غيرُهُ، وأنَّه لم يَطلُبْ غيرَ حَقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ لِغيرِه سُبحانَهُ، وبيَّن وعيد مَن خالف الإخلاصَ، وحالفَ الشِّرك(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: (أخذ) أصل يدل على حَوْزِ الشَّيءِ وتَحْصيلِه، وهو خِلافُ العَطاءِ، واتَّخَذَ بوزنِ افْتَعَلَ، أصْلُهُ ائْتَخَذَ، فالاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأَخْذِ، إلّا أنّه أُبدلَتِ الهمزةُ تاءً، ثُمَّ أُدغِمَتْ مَعَ تاءِ الافتعالِ، والاتِّخاذ: إذا كانَ بمعنَى الكَسْبِ؛ تعدَّى لواحدٍ، وإنْ كان بمعنى التَّصيير والجعل؛ تعدَّى لاثنين(2)، وهو في الآية متعدٍّ لمفعولين، والمعنى: والذين جعلوا مع اللّه شركاء.

2) ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾: (ولي) أصل يدل على القُربِ والدُّنوِّ واللُّزوم مَعَ شيءٍ مِنَ الاشتمالِ وعدم الانفكاكِ، وكذا الوليُّ لا ينفكُّ عنَ مولاهُ، والوَليُّ: الصَّديقُ والمحبُّ التّابعُ، وهو خلافُ العدوِّ، والوَلايةُ:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَخَذَ).

النُّصرةُ، والولايةُ: الإمارةُ أيضًا[1]، ومعنى ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ في الآية: أربابٌ ونصراء، كالملائكة وعيسى وعُزير والأصنام، أي: اتَّخذوهم أربابًا، ولم يخلصوا العبادة للّٰه تعالى[2].

3) ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾: (قرب) أصل يدلُّ على خلافِ البُعد، والاقترابُ: الدُّنوُّ، والتَّقَرُّبُ: التَّدنّي والتَّواصلُ بحقٍّ أو قَرابةٍ، والقُرْبانُ: ما تَقرَّبْتَ به إلى اللّٰه تبتغي به قُرْبًا ووسيلةً، والقُرْبَى: حقُّ ذوي القرابة[3]، يقال: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستعملُ ذلك في المكانِ، وفي الزَّمانِ، وفي النِّسبةِ، وفي الحَظْوةِ، والرِّعايةِ، والقُدرةِ[4]، ومعنى ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، بمعنى: يقرِّبونا، ويشفعوا لنا[5].

4) ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: (زلف) أصل يدلُّ على اندفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شيءٍ، يُقالُ مِنْ ذلكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ، أي: تقدَّمَ[6]، والزَّلَفُ والزُّلْفةُ والزُّلْفَى: القُربةُ والدَّرجة والمَنزلةُ[7]، وزَلَفَ إليه: دَنا منه، وأَزْلَفَ الشَّيْءَ: قَرَّبَهُ[8]، ومُزدَلفة: اسمٌ لمكانٍ معروفٍ سُمّي به لقربِ أهله مِن مِنى بعد الإفاضة، أو لاجتماعِ النّاس فيه، والازدلافُ: الجمعُ[9]، ومعنى ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: قُرْبَى[10].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

نادى سبحانه باستِحقاقِه لأنْ يُفردَ بالعبادة، ولا يُقصدَ غيره: ألا للّٰه وحْدَه الطّاعةُ والعِبادةُ النَّقيَّةُ من شوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، لا شركَ لأحدٍ معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحدٍ؛ لأنَّ كلَّ ما دونه ملكُه، فهو المُستَحِقُّ وحْدَه الإفرادَ بالعبادةِ، فلا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلّا ما كان خالِصًا له وحْدَه دونَ ما سِواه[11].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 479، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 534.
(3) الخليل، العَيْن: (قرب).
(4) الراغب، المُفردَات: (قرب).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 79.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).
(7) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).
(8) الزبيدي، تاج العروس: (زلف).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (زلف).
(10) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 79.
(11) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 250.

إثباتُ العبادةِ الخالصةِ لله وحده، وبيانُ بطلانِ الشِّرك

ثمَّ ذكر سُبحانَه ما عليه المُشرِكونَ الَّذين اتَّخَذوا مَعبوداتٍ باطِلةً يَعبُدونها مِن دونِ اللهِ مِن ضَلالٍ، وأنَّهم يَقولونَ: ما نَعبُدُ هذه المعبوداتِ إلّا لِتُقَرِّبَنا إلى اللهِ قُربةً منه ومَنزِلةً في الدُّنيا، ويشفعوا لنا عنده في حاجاتنا، وأنَّ اللهَ يَفصِلُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما هم فيه مُختَلِفونَ في الدُّنيا، وأنَّ اللهَ لا يُرشد إلى الحقِّ ودينه الإسلام والإقرار بوحدانيَّته، مَن هو مفترٍ على الله، وقصده الكذب يتقوَّلُ عليه الباطل، ويضيفُ إليه ما ليس من صفتِه، ويزعمُ أنَّ له ولدًا افتراءً عليه، ويجحد بآياتِه وحُجَجِه وبراهينه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

استئنافٌ مبيِّنٌ أو مقرِّرٌ للأمرِ قبله بإخلاصِ الدِّينِ لله تعالى

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ عن الجملة الَّتي قبلها: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجملتَين مِن كمالِ انقطاعٍ، لاختلافِ الجملتين خبرًا وإنشاءً.

أو أنَّ الفصلَ لمجيء جملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ استئنافًا بيانيًّا، أي: ما يُسمّى بشبهِ كمالِ الاتِّصال؛ لكونها جوابًا عن سؤالٍ تضمَّنته الجملة الأولى، واقتضته، فإنَّه لَمّا أمرَ سبحانه بإخلاصِ العبادة له وحده دون غيره؛ فكأنَّ قائلًا قد قال: لِمَ منعهُ مِن الالتفات إلى غيره، وأكَّدَ على الإخلاصِ له؟ فنادى سبحانه باستحقاقه لذلك، وأنَّه لم يطلبْ غير حقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصوَّر أنْ يكون لغيره[2]، وأنَّه لا يقبلُ إلّا العملَ الخالص له.

أو أنَّه فصلَ لكمالِ الاتِّصال عند من يُجيز العطفَ بين الخبريَّة والإنشائيَّة؛ لكون قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ جاء تقريرًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 251، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 85.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.

للأمرِ بالإخلاص[1]، وبيانًا أنَّه تعالى كما له الكمالُ كلُّه، وله التَّفضُّل على عباده من جميعِ الوجوه، فكذلك له الدّينُ الخالِصُ الصّافي من جميعِ الشّوائب[2]، أو جاءَتْ تعليلًا لِلأمْرِ بالعِبادةِ الخالِصةِ للّه؛ لأنَّه إذا كان الدّينُ الخالِصُ مُستَحَقًّا للّهِ وخاصًّا به؛ كان الأمْرُ بالإخلاصِ له مُصيبًا مَحَزَّهُ، فصارَ أمْرُ النَّبيِّ ﷺ بإخلاصِ العِبادةِ له مُسَبَّبًا عن نِعمةِ إنزالِ الكِتابِ إليه، ومُقتَضًى لِكَونِه مُستَحِقَّ الإخلاصِ في العِبادةِ اقتِضاءَ الكُلّيَّةِ لِجُزئيّاتِها، وجَعَل مَعنى التَّعليلِ حاصِلًا تَبَعًا مِنْ ذِكرِ إخلاصٍ عامٍّ بَعدَ إخلاصٍ خاصٍّ، ومَورِدُهما واحِد[3].

بلاغةُ توالي المؤكِّدات في الآية:

الاعتناءُ بالدّينِ الخالص الذي هو أساسُ كلِّ خير

أكَّد البيانُ الإلهيُّ استحقاقَ اللّهِ الإفرادَ بالعبادة الَّذي يفيدُهُ قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ بعدَّة مؤكِّدات، وهي: الإتيانُ بأداة التَّنبيه ﴿أَلَا﴾ والتَّوكيدُ ببناءِ الجملة على الاسميَّة الدّالَّة على الثُّبوتِ والدَّوام؛ لأنَّ تأسيسَ المعاني المهمَّة والمقاصدِ العظيمةِ يقتضي أنْ يكونَ التَّعبيرُ عنها قويًّا ثابتًا، يحقِّقُ لمعانيها الاستمرارَ والدَّوام، وكذلك التَّوكيدُ بتقديم الخبرِ في الجملة المفيدِ للاختصاص، ومجيئه جارًّا ومجرورًا، والتَّوكيدُ باصطفاءِ لامِ الجرِّ الدّالَّة على الاستحقاقِ، واصطفاءِ لفظ الجلالة الجامعِ لصفاتِ الكمال، والتَّوكيدُ بالاستئنافِ البيانيِّ الَّذي يقتضي تأكيدَ الحُكم، وهو الجوابُ، والذي هو "تعليلٌ للأمرِ بالعبادةِ الخالصة للّه وحدَهُ؛ لأنَّه إذا كان الدّين الخالص مستحقًّا للّه وخاصًّا به؛ كان الأمرُ بالإخلاصِ له مصيبًا محزَّهُ"[4]، فكانت كلُّ هذه المؤكِّدات للاعتناءِ بالدّين الخالص الذي هو أساسُ كلِّ خير؛ لأنَّ غيرَ الخالص كالعدمِ.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 335، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 388.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 317.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 317.

نكتةُ افتتاحِ الجملة بأداة التَّنبيه ﴿أَلَا﴾:

تنبيهُ الأذهانِ إلى أهمّيَّة الإخلاص للـه تـعـالى واسـتـحـقـاقـه لذلك

افتُتِحَتْ جملة: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ بأداةِ التَّنبيه ﴿أَلَا﴾، وهي مُرَكَّبةٌ "من همزةِ الاستفهام وحرفِ النَّفي، لإعطاءِ معنى التَّنبيه على تحقُّق ما بعدها، والاستفهامُ إذا دخلَ على النَّفي؛ أفادَ تحقيقًا"[1]، وفي هذا التَّنبيه والتَّحقيق إشعارٌ بأهمّيَّة ما بعدها، وطلبٌ للإصغاء إليه بتنبيهِ الأذهان إلى أهمّيَّة الإخلاص للّه، الَّذي هو غرضُ السّورة، وزيادة تأكيدٍ وتقريرٍ لِما قبلها[2]؛ لتتلقّاه النَّفسُ بشَراشِرِها، وذلك هو ما رجَّحَ اعتبارَ الاستئنافِ فيها، وجعلَ معنى التَّعليل حاصلًا تبعًا، من ذكرِ إخلاصٍ عامٍّ بعد إخلاصٍ خاصٍّ، وموردهما واحدٌ[3].

معنى (اللام) في القيد ﴿لِلَّهِ﴾:

لا يَحِقُّ الدّينُ الخالِصُ إلّا للهِ وحده

لام ﴿لِلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ لامُ الاستحقاقِ، أيْ: لا يَحِقُّ الدّينُ الخالِصُ - أي: الطّاعةُ غيرُ المَشوبةِ - إلّا له على نحو: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 2][4]، وإنَّما استحقَّه سبحانه دون غيره؛ لأنَّه هو الذي شرعَهُ، فكيف يشركهُ مَن لا أمرَ له بوجهٍ من الوجوه، وأمّا ما كان فيه أدنى شركٍ؛ فهو ردٌّ على عامله، واللّهُ غنيٌّ حميدٌ[5].

نكتةُ إظهارِ الاسم الجليل في قوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ﴾:

اختصاصُ اللهِ بالدين الخالص لما له من صفات الجمال والجلال

في إبرازِ اسم (اللّه) في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ شأنٌ عَظيمٌ، وخَطبٌ جَليلٌ؛ لإفادةِ ذلك الدَّلالةَ على وجهِ اختصاص اللّهِ الملكِ الأعلى وحده بالدّينِ الخالصِ، وأنَّه تعالى هو المستحقُّ للعبادةِ الخالصةِ من كلِّ شائبةٍ، لكونهِ المتفرِّدَ بصفاتِ الإلهيَّة،

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 13/ 335.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 518.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 317.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 318.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 442.

والاطِّلاع على الأسرارِ والضَّمائر[1]، وله الأمرُ والخلقُ لا يشركُه فيه أحدٌ، فكما تفرَّد سبحانه بأنْ خلقَك، وخلقَ كلَّ ما لك من شيءٍ، فكذلك ينبغي أنْ تُفردَهُ بالطّاعة، ولأنَّه إذا عبده أحدٌ مخلصًا؛ كفاهُ كلُّ شيءٍ، وأمّا غيره؛ فلو أخلصَ له أحدٌ؛ لا يمكن أنْ يكفيه شيئًا مِنَ الأشياءِ فضلًا عن كلِّ شيءٍ[2].

معنى (ال) في ﴿ٱلدِّينُ﴾:

الدّينُ الخالصُ هو الدّينُ الكامل وهو الإسلامُ

لامُ ﴿ٱلدِّينُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ عهديَّةٌ، والمقصودُ بالدّين هو الدّين الكاملُ، فكمالُ الدّين بكونه خالصًا، وهو دينُ الإسلامِ الذي كان في كلِّ ملَّةٍ، المنبني على توحيدِ اللّه في عبادتِهِ، وعلى إقامة شعائرِ دينِهِ بالإخلاص المحضِ النّاشئ مِنَ المراقبة والمحاسبة، فيجعلُ جميعَ ما يرضي اللّهَ ﷻ مِنَ الأعمال الظّاهرة والباطنة له وحده خالصًا صافيًا؛ ابتغاءَ مرضاته وأجره، من غيرِ شهوةٍ ظاهرةٍ أو باطنة في شهرةٍ ولا غيرها[3].

بلاغةُ تقديمِ المسندِ في ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾:

اللهُ مُستحِقٌّ للدّين الخالص مُختَصٌّ به

قُدِّم المسنَدُ - وهو الخبر ﴿لِلَّهِ﴾ - على المسنَدِ إليه - وهو المبتدأ ﴿ٱلدِّينُ﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾، فلم يقل: (الدين الخالص للّه)؛ لإفادة الاختصاص والقصر، وأنَّه مُستحِقُّه، ومُختَصٌّ به[4]، والمعنى: (ألا إنَّ للّه تعالى وحدَهُ، وليس لأحدٍ سواه الدّينُ الخالِصُ مِن شوائبِ الشِّرك والرّياء، والعبادةُ لوجهه وحدَهُ، والخضوعُ لقدرته الَّتي لا يعجزها شيءٌ)[5].

ويتفرَّعُ على هذا الاستحقاقِ والاختصاصِ وجوبُ إخلاصِ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 336.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 441 - 442.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 318.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.

المؤمن الموحِّد في عبادة ربِّه، أي: أنْ يعبدَ اللّهَ لأجله، أي: طلبًا لرضاه وامتثالًا لأمره، وهو آيلٌ إلى أحوالِ النّيَّة في العبادة المشارِ إليها، بقول النَّبيِّ ﷺ[1]: «إنَّما الأعمالُ بالنّيّات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمنْ كانتْ هجرتُه إلى اللّهِ ورسوله؛ فهجرتُه إلى اللّه ورسوله، ومن كانَتْ هجرتُه إلى دنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها؛ فهجرتُه إلى ما هاجرَ إليه»[2].

معنى (الواو):

التَّوحيدُ الخالصُ والشِّرك المُهلِك على طرفَي نقيضٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ عاطفةٌ، عطفتِ الآيةَ الكريمة على قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾؛ لظهورِ العلاقةِ بينهما، وقوَّة تناسبهما وترابطهما وتعانقهما؛ إذ بينهما تضادٌّ في قضيَّةٍ واحدة، فالتَّوحيدُ الخالصُ والشِّركُ على طرفَي نقيض، وهذا توسُّطٌ بين كمالِ الاتِّصال وكمالِ الانقطاع، وممّا يُحسنُ العطف بينهما تناسبُ الجملتين في الاسميَّة، وهو من محسِّنات الوصل[3]؛ إذ تتَّفقُ الجملتان في إفادةِ الثُّبوت، وتناسبهما في استخدامِ ما يزيد تأكيدَ المعنى في الجملتين، وهو أسلوبُ القصر، ففي الأولى استُخدِمَ القصرُ بطريق تقديم الخبر، وفي الثانية عن طريقِ النَّفي والاستثناء.

ولطيفةُ هذا العطف هو زيادةُ تَحقيقِ مَعنى الإخلاصِ للّهِ في العبادة، وأنَّه خُلوصٌ كاملٌ لا يَشوبُه شيءٌ مِنَ الإشراك، ولا إشراك الَّذين زَعموا أنَّهم اتَّخَذوا أولياءَ، وعَبَدوهم حِرصًا على القُربِ مِنَ اللّهِ، يَزعُمونَه عُذرًا لهم، فقَولُهم مِن فَسادِ الوَضعِ، وقَلبِ حَقيقةِ العِبادةِ، بأنْ جَعَلوا عِبادةَ غَيرِ اللّهِ وسيلةً إلى القُربِ مِنَ اللّهِ، فنَقَضوا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 318.
(2) البخاري، صحيح البخاري، باب بدء الوحي، رقم: (1).
(3) عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح: 2/ 307.

بهذه الوَسيلةِ مَقصدَها، وتَطَلَّبوا القُربةَ بما أَبْعَدَها، والوَسيلةُ إذا أفضَتْ إلى إبطالِ المَقصدِ؛ كان التَّوسُّلُ بها ضَربًا مِنَ العَبَثِ(1).

علَّةُ التَّعبير بالموصول (الذين):

بيانُ سببِ استحقاقِ المشركين حُكمَ اللهِ فيهم مع كراهةِ التَّصريحِ بهم

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ عند الحديث عن المشركين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ استعمالَ الاسم الموصول (الذين) دون الاسم الصَّريح، فلم يقل: (والمشركون اتَّخذوا)؛ لِما في الصِّلة من بيانِ السَّببِ الَّذي استحقّوا به الحكمَ المذكور في قوله تعالى مخبرًا عنهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾، ولِما في التَّعبيرِ عن المخالفين باسم الموصول من إيحاءٍ بكراهةِ التَّصريحِ بهم؛ استحقارًا وإهانةً لهم، استحقّوها بما افتعلوه من عندِ أنفسِهم، كما دلَّ على ذلك التَّعبيرُ بصيغة الافتعال ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، بما يدلُّ على سُخفهم وضعف عقولهم(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ في ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

المشركون متكلِّفون مخالفون للفطرةِ والعقلِ بما يدلُّ على ضعفِ عقولهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ بلفظ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، ولم يقلْ: (والذين عبدوا من دونه)؛ لأنَّ الاتِّخاذَ افتعالٌ من الأخذ، وهو أخذُ الشَّيءِ لأمرٍ يستمرُّ فيه(3)، أي: افتعلوا ذلك، واستمرّوا فيه، والافتعالُ فيه تكلُّفٌ، ويدلُّ على أنَّ الإنسانَ مفطورٌ على الخضوعِ للملكِ الدَّيّان، ولا يلتفتُ إلى غيرِه إلا بمعالجةِ النَّفسِ بما لها من الهوى والطُّغيان، أي: إنَّ الَّذين اتَّخذوا من دونِ اللّه أولياء إنَّما يتكلَّفون ضدَّ فطرتهم وعقولِهم بعبادةِ أصنامٍ نحتوها بأيديهم، وهذا يدلُّ على سُخفهم وضعفِ عقولهم، وشدَّةِ ضلالهم وسعيهم في الضَّلال، والمعنى: (عالجوا عقولهم حتى صرفوها عن اللّهِ، فاتَّخذوا...)(4)، كما أنَّ في الصيغة تصويرًا لتكلُّفهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 321.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 16/ 444.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 138.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

وأمّا مجيءُ فعل الاتِّخاذ بصيغة الماضي؛ فللدّلالة على تحقُّقِ وقوعِ إشراكِ المشركين.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

يعبُدُ المشركون مَن يخالف اللهَ في جميع الصِّفات

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيد معنى التَّوكيد، إنْ كانت (دون) بمعنى غير، والمعنى: (والذين اتَّخذوا غير اللّه أولياء)، أو هي ابتدائيَّة، إنْ كانت كلمة (دون) اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، وتكون هنا مُستعارةً لمعنى المخالفة، والمعنى: (والذين اتَّخذوا أولياءَ موصوفين بأنَّهم مخالفون لصفاتِ اللّه).

دلالة التَّعبير بـ(دون)، وسرُّ إيثاره على (غير):

اتِّخاذُهم الأدنى وتركُ عبادةِ الأعلى دليلٌ على شدَّةِ حُمقهم وسخافتهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الآلهةِ سوى اللّه بلفظ (دون) في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ استعارةً لمعنى الدّونيَّة لتلكَ الآلهة المتَّخذة؛ إذ إنَّ مِن معاني (دون) أنْ تكون اسمًا للمكان المُباعِدِ، أي: "نبَّههم على خطَئِهم في رضاهم بالأدنى على الأعلى بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، ومعلومٌ أنَّ كلَّ شيءٍ دونه"[1]، وهذا يدلُّ على شدَّةِ حُمقهم وسخافتهم، كما في التَّعبير بهذا اللَّفظ ﴿دُونِهِۦٓ﴾ في هذه الجملة المعطوفةِ بالواوِ على الجملة السّابقة - الَّتي صُرِّح فيها بالاسم الجليل - مقارنةٌ توضِّحُ المغايرةَ بين الإلهِ الحقِّ والأصنامِ المزعومة، وإشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ وحده هو المستحقُّ للعبادة.

نكتةُ إضافةِ (دون) إلى ضميرِ الاسم الجليل:

تنزيهُ الاسم الجليل من إضافته إلى دونه من الشُّركاء

جاء الاسم الجليل (اللّهُ) في قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ مُضمرًا لا صريحًا، فلم يقلْ سبحانه: (اتَّخذوا من دون اللّه) اختصارًا، للعلم به؛ إذ سَبَقَ ذكره في الجملةِ السّابقةِ المعطوف عليه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾، وتحاشيًا لإضافةِ هذا الغيرِ، وهو أصنامٌ إلى اللّهِ سبحانه تنزيهًا له سبحانه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

دلالةُ التَّعبيرِ بالولاية في قوله: ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

اتِّخاذُهم الأولياءَ واعتقادهم بقربهم ونفعهم دليلٌ على فسادِ عقولهم

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الولاية في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ تماشيًا مع اعتقادهم بأنَّهم أولياء لهم، وأنَّهم ينفعونهم، ويقرِّبونهم من اللّه، فالوليُّ هو المحبُّ والنّاصرُ والحليفُ والملازمُ الَّذي لا ينفكُّ عَن مَولاه[1]، فأصلُهُ يدلُّ على القُرْبِ والدُّنوِّ[2]، وفي هذا التَّعبير مزيدُ توبيخٍ لهم على اعتقادِهم وفساد عقولهم حين اتَّخذوا من دونِه سبحانه أولياءَ، واللّهُ أقربُ إلى عبادِه من حبل الوريدِ.

دلالةُ جمع ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾، ولطيفة تنكيره:

في إفرادِ المعبود تعالى قرارُ الكون وما فيه

في الآية المعطوفِ عليها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ اصطفى البيانُ الحكيم لفظَ الجلالةِ؛ للدَّلالةِ على الوحدانيَّة، فهو اللّهُ الفردُ الصَّمد، بينما اصطفى للتَّعبيرِ عن الآلهةِ في الآية المعطوفة - وهي ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ - لفظَ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ بصيغةِ الجمع؛ تناسبًا مع الجمع في (الذين)، ومراعاةً لِما يقتضيه حالُ المخاطَبين، فقد كانَتْ آلهتُهم متعدِّدَةً، وهذا يدلُّ على بطلانِها، واستحقاقِ اللّه وحده للعبادةِ الخالصة، فلو كان لهذه الآلهةِ المتعدِّدة شيءٌ من أمورِ العباد؛ لَما استقرَّ للكونِ بما فيه قرارٌ، ولفسدتِ الحياةُ كلُّها؛ إذ لا يعقلُ أنْ تصلُحَ أمورُ العبادِ والحياةِ عامَّة مع هذا التَّعدُّد، ولكلِّ وليٍّ منها من أهواء ورغبات: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ **[الأنبياء: 21 - 22]**.

وقد نكَّر ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾؛ لإفادةِ العموم، أي: الَّذين اتَّخذوا من دونِه أيَّ وليٍّ، كما في التَّنكيرِ تحقيرٌ لهؤلاء الأولياء الذين اتَّخذوهم.

---

(1) الجوهري، الصحاح، وابن دريد، جمهرة اللغة، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).

بيانُ حالِهم وسببِ اتِّخاذهم الأولياء ينبئُ عن حُمقهم وفسادِ اعتقادهم

موقع جملة: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾:

جملة: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ؛ لأنَّ نظمَها يقتضي ذلك؛ إذ ليس في الكلام ما يصلُحُ لأَنْ يعودَ عليه نونُ المتكلِّم ومعه غيره، فتعيَّن أنَّه ضميرٌ عائدٌ إلى المبتدأ، أي: هم المتكلِّمون به وبما يليه، وفعلُ القولِ محذوفٌ، وهذا القولُ المحذوفُ يجوزُ أنْ يُقدَّر بصيغة اسم الفاعل، فيكون حالًا مِن (الذين اتَّخذوا)[1]، مبيِّنةً لكيفيَّةِ إشراكِهم وعدم خُلوصِ دينهم، والتَّقدير: (قائلين ما نعبدهم لشيءٍ مِنَ الأشياءِ إلّا ليُقَرِّبونا إلَى اللّه تعالى تقريبًا)[2]، ويجوزُ أنْ يُقَدَّرَ بصيغة الفعل، والتَّقدير: (يقولون: ما نعبدهم إلّا للقربةِ)[3]، وتكون الجملةُ حينئذٍ بدلَ اشتمالٍ من جملةِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، فإنَّ اتِّخاذهم الأولياء اشتملَ على هذه المقالة[4].

وممّا لا بُدَّ مِن لفتِ الانتباه إليه أنَّ في الآيةِ إيجازَ حذْفٍ بحذفِ جملةِ القول، فحذْفُهُ أحسنُ وأوجز وأبلغ، وبلاغتُهُ بالإضافة إلى الإيجازِ والاختصار إفادةُ احتقارِ قولِهم وما نطقوا به، وأنَّه قولٌ ضعيفٌ مَهينٌ لا يستحقُّ ذِكره، ولا التَّصريح به وبقائله، مع توجيهِ العناية إلى المقولِ الفاسدِ، فهو الغرضُ المقصود الَّذي يبيِّن حمقَهم وفساد عقولهم واعتقادهم، ويبطلُه البيانُ القرآنيُّ.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ﴾:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ نافيةٌ لا عملَ لها[5]، نفتْ عن المشركين عبادَتهم للشُّركاء إلّا مِن أجلِ أنْ يقرِّبوهم إلى اللّه زلفى.

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.
(3) الزركشي، البرهان: 3/ 196.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 321.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 505.

العبادةُ نهايةُ التَّعظيم ولا تليقُ إلّا بِمن يصدرُ عنه غايةُ الإنعام

دلالةُ التَّعبيرِ بالعبادة في: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا﴾:

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالعبادة في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ دون لفظِ الطّاعة مثلًا، فلم يقلْ: (ما نطيعهم إلّا ليقرِّبونا)، لكونِ العبادة أبلغَ وأنسبَ للسّياق مِن لفظ الطّاعة، فالعبادةُ هي الطّاعةُ مع الخُضوعِ والتَّذلُّل والانقياد[1]، بل هي غايةُ التَّذلُّل، فلا يستحقُّها إلّا من له غايةُ الإفضال، وهو اللّهُ ﷻ[2]، والعبادةُ نهايةُ التَّعظيم، ونهايةُ التَّعظيم لا تليقُ إلّا بمن يصدرُ عنه غايةُ الإنعام، وهو المنعمُ ﷻ، وهذه الأوثانُ لا مدخلَ لها في ذلك الإنعام، فالاشتغالُ بعبادةِ هذه الأوثانِ يوجبُ كفران نعمةِ المنعم الحقِّ[3]، فكان التَّعبيرُ بلفظِ العبادة متناسبًا مع السّياق الَّذي وردَ فيه الأمرُ بالإخلاصِ للّه، ولينعي على المشركين عبادتهم الأولياءَ والشُّركاء مع اللّه، وتركهم إخلاصَ العبادة للّه، الَّذي لا يستحقُّ أحدٌ غيره العبادة، وكذلك أتى التَّعبيرُ بلفظ العبادةِ مناسبًا لورودهِ في الآية السابقة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ووروده في السّورة في عدَّة مواضعَ متناسبٌ مع أحدِ أهمِّ مقاصدِ السّورة والمضمون العامِّ لها، وهو إخلاصُ العبادةِ للّه وحده، كما ذكرنا.

في تجدُّدِ المشركين واستمرارِهم على عبادةِ الشركاء تصويرٌ لإصرارهم على الشِّرك

دلالةُ المضارعةِ في الفعلِ ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾:

أتى الفعل (نعبد) في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ بصيغة المضارع الَّتي تدلُّ على التَّجدُّدِ والحدوث والاستمرار؛ للدَّلالة على تأكيدِ المشركين نفْيَ استمرارِ عبادتهم وتجدُّدِها للأولياء الَّذين اتَّخذوهم لأيِّ غرضٍ مِنَ الأغراض إلّا مِن أجلِ أنْ يقرِّبوهم إلى اللّه زلفى، وفي هذا التعبير تصويرٌ لاستمرارهم على عبادةِ الشُّركاء وتجدُّدها منهم، ممّا يدلُّ على إصرارهم على الشِّرك.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).

(2) الراغب، المفردات: (عبد).

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 422.

مرجعُ الضَّمير في ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾، ونكتة إيثارِه عاقلًا:

مجاراةُ اعتقادِ المشركين بنفعِ أصنامهم وشفاعتِها تهكُّمٌ بهم

ضميرُ المفعول (هم) في قوله: ﴿نَعۡبُدُهُمۡ﴾ يرجعُ إلى الأولياء[1] في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، فهو آخرُ مذكور، أي: ما نعبد تلك الأولياء إلّا ليقرِّبونا[2]، وقد استعملَ القرآنُ ضميرَ العاقلِ مع أنَّ مِن معبوداتهم ما هو غيرُ عاقل؛ اعتبارًا ومجاراةً لِما يَعتقِده المشركون فيها من أنَّها آلهةٌ تَعقِلُ، وتَشفَعُ لهم، وتقرِّبهم من اللّٰه، وهذا تهكُّمٌ بهم، أو باعتبار أنَّ مِن بين الأولياء الذين عبدوهم مِن دون اللّٰه مَنْ يعقل كعُزير وعيسى والملائكة عليهم السلام، فغلَّبهم.

معنى ﴿إِلَّا﴾ في قولهم: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

حصْرُ المشركين شركَهم بعلَّة التَّقرُّب إلى الله لا ينفي عنهم الوقوع في الشِّرك

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، مفرَّغٌ من أعمِّ العِلَلِ[3]، أي: مِن عللٍ محذوفةٍ، والمعنى: ما نعبدهم لشيءٍ مِنَ الأشياء إلّا لعلَّة أنْ يقرِّبونا إلى اللّٰه، فيفيدُ قصرًا على هذه العلَّة، وهو قصرُ قلبٍ إضافيٍّ، أي: دون ما شنَّعتم علينا مِن أنَّنا كفرنا نعمةَ خالقنا؛ إذ عبدنا غيره[4]، أرادوا بهِ المعذرةَ، فالقصرُ لا ينافي أنَّهم عبدوهم لأشياءَ أُخَرَ؛ إذْ عدّوهم شفعاءَ، واستنجدوهم في النّوائبِ، واستقسموا بأزلامِهم للنَّجاح، كما هو ثابتٌ في الواقع.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾:

تعليلُ المشركين لا ينفي عنهم الوقوعُ في عين الشِّرك

اللامُ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ هي لامُ (كي)[5]، وتُسمّى لامُ التَّعليل[6]، والمعنى: (ما نعبدهم إلّا كي يقرِّبونا)، فهُم يعلِّلون عبادتَهم للأولياء، بأنَّها لأجلِ أنْ يقرِّبوهم إلى اللّٰه، وهذا لا

---

(1) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 24/ 479.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 182.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 193.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.

(5) الهرري، حدائق الرّوح والريحان: 24/ 505.

(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 388.

ينفي عنهم الشِّرك، بل هو عينُ الشِّرك، فإنَّ اللّهَ تعالى لا يقبلُ إلّا العبادةَ الخالصةَ دون شريكٍ أو وسيطٍ.

دلالةُ التَّعبير بالتَّقريب في قوله: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾:

تعلُّلهم بأنَّ عبادتَهم للشُّركاء تقرِّبهم إلى الله يثبتُ شركهم، وينبئُ عن فسادِ اعتقادهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ التَّقريبِ على لسانِ المشركين في قوله: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لاتِّساع دلالةِ التَّقريب، ومناسبةِ معناه للسياق، فالقربُ يدلُّ في أصلِه على خلافِ البُعد[1]، ويُستعملُ في المكانِ والزَّمانِ والنِّسبة، وفي الدُّنوِّ والحظوةِ والمنزلةِ والرِّعاية[2]، فتقرُّبُ العبدِ مِنَ اللّه، يعني: التَّوسُّلَ والتَّقرُّبَ إليه بالذِّكرِ والعمل الصّالح، وقربُ اللّهِ مِنَ العبدِ معناه قربُ نعمهِ وألطافهِ منه، وبرِّه وإحسانه إليه، وترادفُ مِنَنِه عنده، وفيضُ مواهبِهِ عليه[3]، فتعلُّلُ المشركين بأنَّ عبادتَهم للشُّركاء هي مِن أجلِ تقريبهم إلى اللّهِ على أنَّها وسيلةٌ إليه وشفيعٌ عنده، يثبتُ شركهم مع اللّهِ غيره، فالعبدُ يتقرَّب إلى اللّهِ بالذِّكر والعمل الصّالح؛ لتكونَ له الحظوةُ والمنزلة، ويتحصَّلُ له برُّ اللّهِ وإحسانه إليه وفيض مواهبه عليه، وليس كما اعتقدَ المشركون بعقولِهم الفاسدةِ أنَّ عبادتهم غيره معه تقرِّبهم إليه.

معنى ﴿إِلَى﴾ في القيد ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

اعتقادُ المشركين الوصول إلى غايةِ القرب من الله بعبادتهم للأصنام اعتقادٌ فاسد

﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ حرفُ جرٍّ، يفيدُ انتهاءَ الغاية، والتَّعبيرُ به مع الاسمِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيهِ منه سبحانه على بُعدِ هؤلاء المشركين بقولهم هذا عن الصَّواب[4]، أي: اعتقادهم الوصول إلى غايةِ القربِ مِن اللّه بعبادتهم للأصنام اعتقادٌ فاسِدٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(2) الراغب، المفردات: (قرب).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (قرب).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

التقرُّبُ إلى الله الذي له معاقدُ العزِّ ومجامعُ العظمةِ لا يكونُ باتِّخاذ الأولياء

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسم الجليل في ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

التَّعبيرُ باسم اللّهِ الأعظم ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وهو الذي له معاقدُ العزِّ ومجامعُ العظمة؛ قصدًا من المشركين امتداحَ هذه الطريقة من التَّقرُّبِ إلى اللّه باتِّخاذ الشُّركاء، أي: نعبدهم ليقرِّبونا إلى اللّه تقريبًا عظيمًا على وجه التَّدريج، ويزلفونا إليه[1].

غـايـةُ المشركين مـن عـبـادتِـهـم الـشُّـركـاء تأكيدُ تحصيلهم منزلةَ القربِ من الله

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ دون (واسطة):

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بـ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لإفادةِ التَّوكيد بالمصدر الملاقي لعامله في المعنى[2]؛ إذ لو قال: (واسطة)؛ لَمَا أفادَ ذلك؛ لأنَّ زلفى اسم مصدر، فيكون مفعولًا مطلقًا، والمعنى: ليقرِّبونا قربًا شديدًا[3]؛ إذ أصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّم في قُربٍ إلى شَيءٍ[4]، والزُّلْفَى هي القُربةُ والدَّرَجةُ والمَنزلةُ[5]، والمعنى: ليقرِّبونا تقريبًا حسنًا سهلًا بهجًا زائدًا ناميًا متعاليًا[6]، والمقصودُ منزلةُ القربِ، وهي منزلةُ الكرامة والعناية في الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يؤمنون بمنازلِ الآخرة[7]. فلفظ ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ أوسعُ دلالةً؛ إذ دلَّ هنا على معنى الشَّفاعة والمنزلة والقرب[8]، فيكون المعنى: (ليَشْفَعوا لَنا، ويُقَرِّبونا عِنْدَهُ مَنْزِلَةً)[9]، بينما الواسطةُ لا تدلُّ على كلِّ هذه المعاني، فهي الشَّفاعةُ والوسيلة[10].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 518.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322، ويجوز أنْ يكون ﴿زُلۡفَىٰٓ﴾ منصوبًا بدلًا من ضمير ﴿لِيُقَرِّبُونَآ﴾ بدل اشتمال، أي: ليقربوا منزلتنا إلى الله.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زلف).

(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (زلف).

(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 444.

(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.

(8) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 114.

(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 85.

(10) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وسط).

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ بين الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، والَّتي قبلها ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، ولم يأتِ بالعاطفِ؛ لِما بينَهما من كمالِ اتِّصال، أي: اتِّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسبب كون قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ خبرًا للمبتدأ الَّذي هو الاسم الموصول (الذين)، والخبرُ وعيدٌ وتَهديدٌ لهم على قَولِهم ذلك، فعُلِمَ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لأنّ الواقِعَ أنَّهم عَبَدوا الأصنامَ أكثَرَ مِن عِبادَتِهم للّهِ[1].

وعيدٌ وتَهديدٌ للمشركين يُعلَمُ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم لشركهم

أو أنَّه فصلَ لِما بينهما من شبهِ كمال اتِّصال، لكونه استئنافًا بيانيًّا واقعًا في جوابِ سؤالٍ مُقدَّرٍ، تقديره: ماذا يحصل لهم؟[2] فقيل: إنَّ اللّه يحكم بينهم.

غرضُ توكيدِ الخبرِ في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾:

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ، وهو حُكمُ اللّهِ بإبطالِ دعوى جميع المشركين، أو الحكمُ بينهم وبين المخلِصين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وغرضُه التَّهديدُ للمشركين والوعيدُ لهم على قولهم ذلك[3]، أي: نبَّهَ سبحانه على أنَّ محطَّ دينِ المشركين هو الهوى الَّذي يؤدّي إلى الاختلافِ، مهدِّدًا لهم بقولِه، مخبِرًا خبرًا مُؤكَّدًا لأجلِ إنكارهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾[4].

تهديدٌ للمشركين ووعيدٌ لهم على قولِهم الباطلِ

نكتةُ إظهارِ الاسم الجليل في ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ﴾:

أظهرَ البيانُ الحكيم الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 321.
(2) الصاوي، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 1632.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 717.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 445 - 446.

تربيةٌ للمهابةِ منه سبحانه وتعظيمٌ لحكمهِ وتهويلٌ للوعيدِ على اعتذارهِم القبيح

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، لتربيةِ مهابته سبحانه في النُّفوس، ولتعظيمِ حُكمه، سواءٌ في إبطالِ ما يختلفُ فيه هؤلاء المشركون، أو في الحكمِ بينهم وبين المؤمنين، ولتهويلِ الوعيدِ للمشركين على اعتذارِهم الدالِّ على قبيحِ صنعهم، والمعنى: (إنَّ اللّهَ الذي له جميعُ صفاتِ الكمالِ يحكمُ بين جميعِ المخالفين في الأديان وغيرها، من المتَّخذين للأولياء من دونه ومن المخلصين وغيرهم)[1]، وفي إظهارِ الاسم الجليل كذلك إشارةٌ إلى خطَئِهم في اعتقادهم الفاسد بأنَّ الأولياءَ ينفعونهم، فيكون المعنى بأنَّ اللّهَ وحده لا أحدَ غيره هو الَّذي يحكمُ بينهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالحُكم دون القضاء في ﴿يَحۡكُمُ﴾:

من مَلَكَ، وتفرَّدَ بالإلهيَّة والقاهريَّةِ فلهُ الحكمُ والأمر

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الحكم دون القضاءِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ رغمَ أنَّ من معاني الحكم القضاء[2]؛ لاتِّساعِ دلالة لفظ الحُكم، ولمناسبته للسياق؛ إذ مادَّةُ (حكم) تدلُّ في أصلها على المنع، وأوَّلُ ذلك الحُكم هو المنعُ مِنَ الظُّلم ومن الفسادِ[3]، ومن معاني الحُكم: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بِالعَدْلِ والقوَّة[4]، وهذه المعاني كُلُّها تتناسبُ مع سياقِ التَّفرُّدِ بالإلهيَّة والملكيَّة والقوَّة والقاهريَّة، فمَن مَلَك؛ فله الحكمُ والأمر.

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿يَحۡكُمُ﴾:

جاءَ الفعلُ ﴿يَحۡكُمُ﴾ بصيغةِ المضارعِ الَّذي يدلُّ على الاستمرار والتَّجدُّد، ويفيدُ التَّصويرَ؛ لإفادةِ تفخيم هذا الحكمِ وتعظيمه؛ وللدَّلالة على استمرارِ حكم اللّهِ تعالى في عبادِهِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).

عودُ الضَّميرِ في قوله: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾:

اللـهُ يحكمُ يـومَ القيامةِ بـين المشـركين وأولـيـائِـهـم وبين المشركين والمسلمين

الضَّميرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ إمّا أنْ يكونَ عائدًا إلى الَّذين اتَّخذوا أولياء، والمرادُ بـ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ اختلافُ طرائقهم في عبادةِ الأصنام وفي أنواعِها مِنَ الأنصاب والملائكة والجنِّ، على اختلافِ المشركين في بلادِ العرب، ومعنى الحكم بينهم: أنَّه يبيِّن لهم ضلالَهم جميعًا يومَ القيامة؛ إذ ليس معنى الحكم بينهم مقتضيًا الحكمَ لفريقٍ منهم على فريقٍ آخر، بل قد يكونُ الحكمُ بين المتخاصمين بإبطالِ دعوى جميعهم[1]، وإمّا أنْ يعودَ على المشركين وعلى أوليائِهم، أي: عائِدٌ على المُتَّخِذينَ، والمُتَّخَذينَ؛ إذ يرجو العابدون شفاعتَهُم، وهم يتبرَّؤونَ منهم، ويلعنونهم، والمعنى: (إنَّ اللّهَ يحكمُ بينهم بأنَّه يُدخلُ الملائكةَ وعيسى الجنَّةَ، ويُدخلهم النّارَ مع الحجارة الَّتي نحتوها، وعبدوها مِن دون اللّه، يعذِّبُهم بها؛ إذ يجعلهم وإيّاها حصبَ جهنَّم)، أو أنْ يعودَ الضَّميرُ إلى المشركين وإلى المسلمين أو المخلصين فيما اختلفو فيه من التَّوحيد والإشراك، والمعنى: (إنَّ اللّه يحكم يوم القيامة بين المتنازعين مِن الفريقَين)[2]، أو (يحكم بين أهلِ الأديان يوم القيامة، فيجازي كُلًّا بما يستحقُّ)[3].

نكتةُ تقييد الحُكم بـ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾، ولطيفة إضافته:

حُكمُهُ سبحانه بـيـنـهـم فـيـه تخويفٌ وتهديدٌ للمشركين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ قيَّد البيانُ القرآنيُّ الحكمَ بالظَّرف ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ مضافًا إلى ضميرهم فقط، أي: ضميرِ الذين اتَّخذوا من دونه أولياء؛ وذلك للتَّخويف والتَّهديدِ، ولتهويلِ الوعيدِ للمشركين على اعتذارِهم الدّالِّ على قبيحِ صنعهم.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 113، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 183، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 234.

ففي الجملة إيجازٌ بالحذف؛ لأنَّ الأصل: (يحكم بينهم وبين غيرهم ممَّن ذكرنا)، فحذفَ المقابل إيجازًا للكلام، أو اكتفاء بالمذكور[1].

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي مَا هُمْ﴾:

إحاطةُ علمِه سبحانه بالظّالمين إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ

معنى حرف الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ﴾ الظرفيَّة المجازيَّة، والتَّعبيرُ فيه إيذانٌ بإحاطةِ عِلْمِه سبحانه لكلِّ اختلافاتِهم، وقدرته على الحكمِ بينهم جميعًا، إحاطةَ الظَّرف بالمظروف.

نكتةُ تقديم ﴿هُمۡ﴾ في جملة: ﴿هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾:

اختلافُ طرائِقِ المشركين في عبادةِ الأصنامِ وفي أنواعها

أفادَ تقديمُ المسندِ إليه، وهو الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾، إبرازَ المسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ باعتبارِهم مِحورَ الإخبار عنهم، وفيه دلالةٌ على تخصيصِ الخبر، وهو ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ بالمشركين دون غيرِهم، وعلى تحقُّق الخبرِ، وأنَّه حاصلٌ - لا محالة - فاختلافُ طرائِقِهم في عبادةِ الأصنام وفي أنواعِه أمرٌ ثابتٌ لهم[2]، ودلَّ أيضًا على تقويةِ الحُكم، وهو اختلافهم، وذلك لتكرارِ الإسناد، فكأنَّ الحكمَ هنا ذُكِرَ مرَّتين: مرَّةً حين أُسنِدَ الفعلُ ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ إلى المبتدأ، ومرَّةً حين أُسنِدَ إلى ضميره العائدِ إلى المبتدأ ﴿هُمۡ﴾، ولو تأخَّر المسندُ إليه، فقال: (يختلفون هم)؛ لَما تحقَّق هذا التَّكرار، وكذلك في التَّقديم تحوَّلت الجملةُ إلى اسميَّة، فأفادتِ الثَّباتَ والدَّوامَ والتَّأكيد.

هذا إن كان الضَّمير ﴿هُمۡ﴾ يعود إلى الَّذينَ اتَّخذوا من دونِ اللّه أولياءَ، وأمّا إنْ كان عائدًا إلى المشركين وخصمائِهم مِنَ المؤمنين الذين هم المُخلِصون للدّين[3]، فالفائدةُ ذاتها - من

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 518.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 322.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.

الدَّلالة على تحقُّقِ الخبر وثباته وغير ذلك - متعلِّقةٌ بالاختلافِ بين المشركين والمؤمنين.

معنى (في) في القيد ﴿فِيهِ﴾:

الاختلافُ بين المشركين في عبادتِهم للأصنامَ اختلافٌ مستقرٌّ فيهم ومتمكِّنٌ منهم

الاختلافُ بين المشركين في طرائقِ عبادتهم للأصنام وفي أنواعها اختلافٌ مستقرٌّ فيهم ومتمكِّنٌ منهم؛ لأنَّ محطَّ دينهم الهوى، وكان كلُّ من تبعَ الهوى لا ينفكُّ عن الاضطرابِ في نفسه، فكيف إذا كان معه غيره، فكيف إذا كانوا كثيرًا، فيكثرُ الخلافُ والنِّزاع، ولذلك كان لكلِّ قبيلةٍ ممَّن يعبدُ الأصنام صنمٌ غيرُ صنمِ الأخرى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: 159]، وقال سبحانه: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: 53][1]، بل إنَّهم مظروفون لذلك العملِ الَّذي مبناهُ الهوى، وهو منشأُ الاختلاف، فليس لهم أصلٌ يضبطهم، فهُم لا يرجعون إلّا إلى الخلفِ كيف ما تقلَّبوا، فكيف إذا انضمَّ إلى ذلك خلافُ المخلصين وإنكارهم عليهم الَّذي أرشدَ إليه اعتذارهم[2].

نكتةُ تقديم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

اهتمامٌ بمحلِّ اختلافِ المختلفين من المشركين وغيرهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِيهِ﴾ على الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للاهتمام بمحلِّ الاختلاف، فهو العنصرُ الأبرزُ في السّياق، سواءٌ كان الاختلافُ بين المشركين في طرائقِ عبادتهم للأصنام؛ إذ أظهرَ به بطلانَ عبادتِهم، وأنَّها محضُ هوًى، أو كان الاختلافُ بين المشركين والموحِّدين؛ إذ محلُّ الاختلافِ هو توحيدُ اللّٰه بالعبادة، وهو أمرٌ لا يُقدَّمُ عليه غيره؛ إذ لا يوجدُ ما هو أهمُّ منه.

دلالةُ التَّعبيرِ في الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾ دون غيره؛ لاتِّساع دلالة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.

مادَّةِ الاختلافِ الَّتي تدلُّ في أصلها على عدمِ الاتِّفاق وعدمِ التَّساوي، وعدمِ الاجتماع على رأيٍ، كأنَّ كُلًّا يذهبُ إلى ما جعلَهُ الآخر خَلْفَهُ[1]، كما أَنَّ الخِلافَ أعمُّ مِنَ الضِّدِّ؛ لأنَّ كُلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين[2]، وبهذا يكونُ استعمالُ لفظِ الاختلاف يناسبُ المعنيَين لكلمة ﴿بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين أنفسِهم، أو بين المؤمنين والمشركين، كما أنَّ لفظَ الاختلاف أنسبُ للمقام؛ إذ الاختلافُ يُستعار للمنازعةِ والمجادلة[3]، والحالُ بين المشركين أنفسهم هو حالُ منازعةٍ ومجادلة، فقد "كانوا أوزاعًا، أكثرُ قبائلهم على خلافِ ما يعتقدُهُ غيرها"[4]، قال تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، وكذلك الحالُ بين المختلفين مِن المؤمنين والمشركين هو حالُ منازعةٍ ومجادلةٍ.

الاختلافُ أوسعُ دلالةً، فهو يشملُ المتضادّين فيما بينهم وغير المتضادّين

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾:

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة في المسندِ الفعليِّ ﴿يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ يفيدُ أنَّ الاختلافَ بين المشركين في طرائقِ عبادتهم للأصنام وأنواعها اختلافٌ مُتكَرِّرٌ مُتجدِّدٌ، وهذا يدلُّ على تحكُّمِ الهوى فيهم، والاختلافُ كذلك بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الشِّركِ، فهو متجدِّدٌ مستمرٌّ، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨﴾ [هود: 118]، فالاختلافُ بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ سيبقى إلى قيامِ السّاعة.

تحكُّمُ الهوى في المشركين وعدمُ اهتدائهم

علَّةُ فصل الآيةِ عمّا قبلها:

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ عمّا قبلها؛ إمّا لكونِ هذه الجملة جاءتْ خبرًا ثانيًا عن قوله:

إخبارٌ عن كونِ المشركين كاذبين وكفّارين بسببِ قولهم واعتذارهم

---

(1) المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).

(2) الراغب، المفردات: (خلف).

(3) الراغب، المفردات: (خلف).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 446.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وهو كنايةٌ عن كونِهم كاذبين في قولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وعن كونِهم كفّارين بسببِ ذلك، وكنايةٌ عن كونِهم ضالّين[1]، أو جاءَتْ تعليلًا لِما ذُكِرَ من حُكمِه تعالى[2]، وعلى الأمرين يكونُ بين الجملةِ وما قبلَها كمالُ اتِّصالٍ، أو أنَّها جاءتِ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾ يثيرُ في نفوسِ السّامعين سؤالًا عن مصيرِ حالهم في الدُّنيا مِن جرّاءِ اتِّخاذهم أولياءَ من دونِه، فيجابُ بأنَّ اللّهَ لا يهدي مَن هو كاذبٌ كفّارٌ، أي: يذرهم في ضلالهم، ويُمهِلُهم إلى يوم الجزاء بعد أنْ بيَّن لهم الدّينَ، فخالفوه[3].

غرضُ توكيدِ الخبرِ في الآية:

تأكيدُ نفي اللهِ عنايَتَهُ بالمشركين

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، أي: (إنَّ اللّهَ ينفي عنايته بهم)، أي: العنايةَ الَّتي بها تيسيرُ الهدايةِ عليهم حتّى يهتدوا، أي: (لا يوفِّقُهم اللّه، بل يتركهم على رأيهم غضبًا عليهم)[4].

لطيفةُ التَّعبيرِ بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي﴾:

تربيةٌ للمهابةِ منه سبحانه وتعظيمٌ لِما أخبرَ به من عدمِ توفيقهم للهداية

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾؛ لتربيةِ مهابتهِ سبحانه في النُّفوس، والمعنى: (إنَّ اللّه الملك القادر القاهر الحكيم)[5]، ولتعظيمِ ما يتضمَّن الخبر، وهو عدمُ توفيقِ اللّه للَّذين اتَّخذوا من دونِه أولياءَ للهداية والإرشاد إلى الحقِّ.

المرادُ بنفي الهدايةِ في قوله: ﴿لَا يَهۡدِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أخبرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.

سبحانه بأنَّه لا يهدي مَن هو كاذبٌ كفّار، وكم من كاذبٍ أو كافرٍ قد هداهُ اللّهُ، فأسلمَ، وصدَّق؟ فيكون المرادُ بنفي الهداية إمّا نفيُها عمَّن هو دائمٌ على كفرِهِ وكذبه، أو لا يهديه إلى حجَّةٍ يُلزم بها المؤمنين[1]، أو لا يهديه إلى الثَّوابِ في الآخرة[2]، فهدايةُ اللّهِ المنفيَّةُ عنهم هي الهدايةُ التكوينيَّة، لا الهداية بمعنى الإرشاد والتَّبليغ، والمراد: نفيُ عنايةِ اللّه بهم، أي: العناية الَّتي بها تيسيرُ الهدايةِ عليهم حتى يهتدوا، أي: لا يوفِّقهم اللّه، بل يتركهم على رأيهم غضبًا عليهم، فلا يتداركهم اللّهُ بلطفهِ بخلقِ الهداية في نفوسهم[3]؛ "لأنَّ اللّهَ تعالى هدى الكلَّ هدايةَ الدَّلالةِ والإرشاد، فمَنْ آمنَ منهم؛ زادهُ هدايةَ المعونةِ والتَّوفيق"[4].

نفيُ هدايةِ اللهِ عن كلِّ كاذبٍ كفّارٍ هو نفيُ عنايةِ اللهِ وتوفيقه له

عِلَّةُ التَّعبير بالموصول في ﴿لَا يَهۡدِي مَنۡ﴾:

المرادُ بقوله: ﴿كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ الَّذين اتَّخذوا مِن دونِهِ أولياء، أي: المشركين، فكانَ مقتضى الظّاهر الإتيانَ بضميرِهم، بأنْ يقولَ: (والَّذين اتَّخذوا مِن اللّه أولياء إنَّ اللّه لا يهديهم)، ولكنَّه عَدَلَ إلى الإضمار بقوله: ﴿كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ مستعملًا الاسمَ الموصول ﴿مَنۡ﴾ لإفادةِ العموم؛ ليعمَّ أولئك المُحدَّثَ عنهم وغيرهم[5]، وكذلك لِما في الصِّلة من وصفهم بالكذبِ وقوَّة الكفر، ومِن ثَمَّ بيانُ السَّبب الذي استحقّوا به عدمَ توفيقِ اللّهِ لهم بالهدايةِ، وهو عراقتُهم في الكذبِ ورسوخهم فيه ومبالغتهم في الكفر[6]، وكذلك لتشويقِ السّامعِ إلى معرفةِ مَن لا يهديه اللّه، بما يتضمَّنُهُ الاسمُ الموصول من إبهام.

إيماءٌ بسبب استحقاقِ المشركين عدمَ توفيقِ الله

(1) الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 492.
(2) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 361.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13027.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 227.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 323.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكذب في الخبر ﴿كَٰذِبٌ﴾:

بطلانُ اتِّخاذ المشركين الأولياءَ من دون الله ودعواهم بأنَّها تقرِّبهم مِن الله

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الكَذِب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٌ﴾؛ للإشارةِ إلى بطلانِ فعل اتِّخاذ الأولياء مِن دونِ اللّه، ودعواهم بأنَّها تقرِّبهم مِنَ اللّهِ زلفى؛ لأنَّ الكَذِبَ باطلٌ لا قوَّةَ لَهُ، وهو خلافُ الصِّدقِ الَّذي يدلُّ في أصلهِ على قوَّةٍ في الشَّيء[1]، ولمناسبتِه للسّياق كذلك، فعبادتُهم الأولياءَ مِن دون اللّه باطلةٌ، ودعواهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ كذِبٌ وافتراءٌ على اللّه.

لطيفةُ صوغِ الخبرِ ﴿كَٰذِبٌ﴾ اسمَ فاعل:

الرُّسوخُ في الكذبِ والدَّوامُ عليه من أقبحِ الصِّفاتِ

التَّعبيرُ باسمِ الفاعل الَّذي يدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام في قوله: ﴿كَٰذِبٌ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة طغيانِه ومبالغتِه في الكذب، أي: (إنَّ اللّه لا يهدي من كان دائمَ الكذبِ على دينِ اللّه راسخًا فيه[2])، - كما تُعربُ عنه قراءةُ (كذّاب) و(كَذوب) في الشّاذِّ - فإنَّه فاقدٌ للبصيرةِ غيرُ قابل للاهتداءِ؛ لتغييره الفطرةَ الأصليَّةَ بالتَّمرُّنِ في الضَّلالةِ والتَّمادي في الغَيِّ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكفر في قولِهِ: ﴿كَفَّارٞ﴾:

الكفّارُ يحاولُ جاهدًا سَترَ الحقِّ جحودًا وتعنُّتًا

مادَّةُ لفظ ﴿كَفَّارٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾، ترجعُ إلى السَّترِ والتَّغطية[4]، وتوحي بأنَّ الحقَّ واضحٌ بيِّنٌ، ولكنَّ الكَفّارَ الشَّديد الكفر يحاولُ جاهدًا سترَ هذا الحقِّ، ويبالغ متعنِّتًا في ذلك، وكلَّما كوشِف بالحقِّ؛ استظهر بسرابيلِ الكفرانِ، وضاعف التَّلفُّعَ بها حتّى لا يجدَ الحقُّ له مسلكًا، ولا هو عن الكفرِ مخلصًا.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صدق).

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 194.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 241.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).

دلالةُ صوغِ ﴿كَفَّارٌ﴾ على (فعّال):

مبالغةُ المشركين في شركهم تقطعُ عنهم هدايةَ اللهِ التَّكوينيَّة

عبَّر البيانُ الحكيمُ عن وصفِ الذين اتَّخذوا مِن دونِ اللّه أولياءَ بالكفرِ في قوله تعالى: ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ بصيغة (فعّال)؛ للدَّلالة على المبالغةِ في كفرهم، وأنَّ كفرَ هؤلاءِ قد بلغَ إلى الغاية[1]، والكَفّارُ: الشَّديد الكُفْرِ البَليغُهُ، وذلك لأنَّ مَن كفرَ في حينٍ مِن الدَّهرِ قد ضاعفَ كفرَهُ؛ لكثرةِ ما على الوحدانيَّةِ مِنَ الدَّلائلِ، وما للّه عليه من الإحسان، ولكون هؤلاءِ الَّذين تحدَّث عنهم السّياقُ قد كفروا بتأهيلِهم لشركائِهم للعبادةِ، ولعبادتهم بالفعل، ولادِّعائهم فيهم التَّقريب، أي: بـ"كفرهم باللّهِ وبالرَّسول ﷺ، وبالقرآن بإعراضهم عن تلقّيه، والتَّجرُّد عن الموانعِ للتَّدبُّر فيه"[2]، وتشيرُ المبالغةُ إلى أنَّ الذي لا يُهدى إنَّما هو مَنْ خَتَمَ عليه سبحانه الموتَ على ذلك، وفيها تهديدٌ لمن يتعرَّض لغير مقامِه، ويدَّعي شيئًا ليس بصادقٍ فيه، فاللّهُ لا يهديه قطُّ إلى ما فيه سدادُهُ ورشدُهُ، وتكون عقوبته أن يحرِّمَهُ ذلك الشَّيء الذي تصدّى له بدعواه قبل تحقُّقه بوجودِه وذوقِه[3].

نكتةُ اقترانِ وصفه المشركين بالكذب بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ:

عُلِمَ مِن مُقارَنةِ وصفِهم بالكَذِبِ بوَصفِهم بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ أنَّهم مُتبالِغونَ في الكَذِبِ أيضًا؛ لأنَّ كَذِبَهمُ المَذمومَ إنَّما هو كَذِبُهم في كُفريّاتِهم، فلَزِمَ مِن مُبالَغةِ الكُفرِ مُبالَغةُ الكَذِبِ فيه[4].

نكتةُ تقديمِ ﴿كَٰذِبٌ﴾ على ﴿كَفَّارٌ﴾:

تفظيعُ كذبِهم فهو سببُ كفرِهم

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ وصفَ الَّذين اتَّخذوا من دونِ اللّه أولياءَ بالكذب على الكفر في قولِه: ﴿كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾؛ تفظيعًا لكذبِهم،

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 515.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.

ولكونِ كذبهِم هو "ما اختلقوهُ من الكفرِ بتأليه الأصنامِ، وما ينشأُ عن ذلك مِن اختلاقِ صفاتٍ وهميَّة للأصنام، وشرائع يدينون بها لهم"[1]، أي: إنَّ كفرَهم بسببِ كذبهم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ [الزمر: 4]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

بعد نفي الشُّركاءِ عن الله أتبعَ بنفي اتِّخاذ الولد

لَمّا أخبَرَ سُبحانَه بالحُكمِ بينَهم، فكان ذلك - مع تضَمُّنِه التَّهديدَ - وافيًا بنَفيِ الشَّريكِ، كافيًا في ذلك؛ لأنَّ المحكومَ فيه لا يجوزُ أنْ يكونَ قَسيمًا للحاكِمِ، فلم يَبْقَ في شَيءٍ مِن ذلك شُبهةٌ إلّا عندَ ادِّعاءِ الوَلَديَّةِ؛ نفى هذه الولديَّة جوابًا لِمَن يقولُ: فما حالُ مَن يتولَّى الولَدَ؟[1].

زعمُهم نسبةَ الولدِ إلى اللهِ وجهٌ من وجوهِ كفرِهم وكذبِهم

عندما وصفَهُم اللهُ، ووصمَهُم بأنَّهم كاذبون كَفّارون؛ أتبعَ ذلك بذكرِ وجهٍ من وجوهِ كفرِهم وكَذِبِهم، وردَّ على هذا الوجه بقوله: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّخِذَ﴾: الاتِّخاذ افْتِعالٌ مِنَ الأخْذِ، ويَدورُ مَعنى الأصل (أخذ) على حَوْزِ الشَّيءِ وتَحْصيلِه، وهو خِلافُ العَطاءِ، والاتِّخاذ: إذا كانَ بمعنَى الكَسْبِ؛ تعدَّى لواحدٍ، وإنْ كان بمعنى التَّصيير والجعل؛ تعدَّى لاثنين[2]، والولَدُ: هو الابن والابنة، وأصله: هو دليلُ النَّجلِ والنَّسلِ، ثمَّ يُقاسُ عليهِ غيرُهُ، وهو للواحدِ والجميعِ[3]، ومعنى اتِّخاذ الولد في الآية التَّبنّي؛ لأنَّ إبطالَ التَّبنّي بهذا الاستدلالِ يستلزمُ إبطالَ تولُّد الابن بالأولى[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.

(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَخَذ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ولد).

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 325.

2) ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾: (صفو) أصل يدلُّ على خُلوصٍ مِن كلِّ شَوْبٍ، مِن ذلك الصَّفاءُ، وهو ضِدُّ الكَدَرِ، يُقالُ: صَفا يَصفو؛ إذا خَلَصَ[1]، وصَفوَةُ الشَّيءِ: ما صفا منه وخلصَ، ومحمَّدٌ ﷺ صفوةُ اللهِ مِن خلقِهِ ومصطفاه، أي: خالِصُهُ ومختاره، واصطفاهُ: اختارهُ، واستخلصَهُ[2]، وكأنَّهُ أخَذَه؛ لأنَّه أصفَى جِنْسِه أو أجودُهُ[3]، ومعنى ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ في الآية موافِقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: اختارَ، واستخلص.

3) ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾: (قهر) أصل يدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلوٍّ، يُقالُ: قَهَرَهُ يَقهَرُهُ قَهرًا؛ إذا أخذَه قهرًا مِن غيرِ رضاه[4]، والقهرُ: الغلبةُ والأخذُ مِن فوقٍ على طريقِ التَّذليل، والقاهرُ: الغالِبُ جَميعَ الخَلقِ، والقهّارُ للمبالغة، وهو مِن أسماءِ اللهِ الحُسنى، ومعناه: الَّذي يقصمُ ظهرَ الجبابرةِ مِن أعدائه، فيقهرُهم بالإماتةِ والإذلالِ، فهو سبحانه قَهَرَ خَلْقَهُ بِسُلۡطانِهِ وقُدرَتِهِ، وصَرَّفهم على ما أراد طَوْعًا وكَرْهًا[5].

المَعنى الإجماليُّ:

ردٌّ على من زعمَ أنَّ للهِ ولدًا تَنزَّهَ اللهُ الواحدُ القهّارُ عن ذلك

يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه أنَّه لا ولَدَ له؛ ردًّا على مَن زعَم ذلك، فيقولُ: لو أرادَ اللهُ ﷻ أنْ يتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا؛ لاختارَ ما يَشاءُ مِمّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشركِينَ؛ ليَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم، تَنزَّهَ اللهُ عن الولَدِ، وعمّا يَصِفُه به المُشركونَ، وهو الواحدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصفاتِه وأفعالِه، القهّارُ الَّذي ذلَّ له، وخضَعَ كُلُّ شَيءٍ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

مَوقِعُ قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ موقعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).
(2) الرازي، مختار الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (صفا).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صفو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المُحكم، والزّبيدي، تاج العروس: (قهر).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وعمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (قهر).

احتجاجٌ على كذب المُشركينَ وكفرهم وضلالهم

الاحتِجاجِ على أنَّ المُشرِكينَ كاذِبونَ وكَفّارونَ في اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللّهِ، وفي قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وأنَّ اللّهَ حَرَمَهمُ الهُدى، وذلك ما تَضمَّنَهُ قولُه قَبْلَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾، فقَصَدَ إبطالَ شِركِهم بإبطالِ أقْواه، والمعنى: لو كان اللّهُ متَّخِذًا ولدًا؛ لاختارَ مِن مخلوقاتِهِ ما يشاءُ اختياره، أي: لاختارَ ما هو أجدرُ بالاختيار، ولا يختارُ لبنوَّته حجارةً كما زعمتم؛ لأنَّ شأنَ الاصطفاء أنْ يتعلَّقَ بالأحسن مِنَ الأشياءِ المختار منها، فبطلَ أنْ تكون اللّاتُ والعزّى ومناةُ بناتٍ للّه تعالى، وإذا بطلَ ذلك عنها؛ بطلَ عن سائرِ الأصنام بحكم المساواة أو الأحرى[1]، أي: بين قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ وما قبلها كمالُ اتِّصال.

معنى ﴿لَّوۡ﴾ في الآية:

نفيُ اتِّخاذِ اللهِ الولدَ بأسلوبِ افتراضِ المستحيل أبلغُ في الإبطال

﴿لَّوۡ﴾ المستعملة في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ حرف شرط غير جازم، وهو حرف امتناعٍ لامتناعٍ، ويفيدُ امتناعَ وقوعِ الجواب لامتناع وقوعِ الشَّرط[2]، وهي المُلَقَّبَة بالصُّهَيْبِيَّة[3]، والَّتي يكون شرطُها مفروضًا فرضًا على أقصى احتمال، فأفادتِ القصدَ إلى إبطالِ الشِّرك، وأنَّ المشركين كاذبون كفّارون في اتِّخاذهم أولياءَ من دونِ اللّه، كما بيَّنتِ الآيةُ السابقة لهذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾: فأفادتْ ﴿لَّوۡ﴾ وما دخلَتْ عليه إبطالَ شركهم هذا بإبطالِ أقواه، وهو عدُّهم في جملة أوليائهم من دونِ اللّه آلهةً وأولياء، زعموا لهم بُنُوَّةً للّه[4]، ومن التَّوجيهات في الآية أنَّ المعنى:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 324.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 18/ 390، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13029.

(3) نسبةً إلى صهيب الرومي الوارد فيما أثر عن عمر بن الخطاب أنَّه قال: "نِعْمَ العبدُ صهيب لو لم يَخَفِ الله، لم يَعْصِه"، يُنظر: ابن هشام، المغني، ص: 257، وحاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: 4/ 36.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 325.

لو أرادَ اللّهُ اتِّخاذَ الولدِ؛ لامتنعَتْ تلك الإرادة، لتعلُّقها بالممتنع، وهو اتِّخاذُ الولد، وأصلُ المعنى: لو اتَّخذ الولدَ؛ لامتنعَ؛ لاستلزامِهِ ما ينافي الألوهيَّة، فعدلَ النَّظمُ عن هذا؛ لأنَّه أبلغُ في الإبطال، وحذفَ الجواب، وجيِّءَ بدله بقوله: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الاصطفاءَ هو الممكنُ، دون الأوَّل (الإرادة)، فلو كان هذا الاصطفاءُ مِن اتِّخاذ الولدِ في شيءٍ؛ لجازَ اتِّخاذُ الولد عليه ﷻ شأنه عن ذلك[1].

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿أَرَادَ﴾، وإشارة صوغه ماضيًا:

امتناعُ الإرادةِ أقوى في إفادةِ الاستحالة

عبَّر النَّظمُ الحكيم بلفظِ الإرادة، وجعلَ الفعلَ الماضيَ ﴿أَرَادَ﴾ هو مدخولُ ﴿لَوۡ﴾ وشرطُهُ، ولم يقلْ: (لو اتَّخذ اللّهُ ولدًا؛ لاصطفى)؛ محاجَّةً للمشركين وإفحامَهم بالدَّليلِ القاطع، لإبطالِ شركهم بإبطالِ أقواه، وهو عدُّهم في جملة أوليائهم أولياءَ زعموا لهم بنوَّةً للّه تعالى، وبيانُ ذلك أنَّ أصلَ الكلام: (لو اتَّخذَ اللّهُ الولدَ؛ لامتنعَ)، لاستلزامه ما ينافي الألوهيَّة، ولكنَّ النَّظمَ عَدَلَ عن ذلك إلى ما تقديره: (لو أرادَ اتِّخاذَ الولدِ؛ لامتنعتْ تلكَ الإرادة)؛ لِتَعلُّقها بالممتنعِ، (وهو اتِّخاذ الولد)، ولا تجوزُ للباري إرادةٌ مُمتنِعةٌ، فعدلَ إلى هذا؛ لأنَّه أبلغ، أي: جَعْلُ ﴿أَرَادَ﴾ شرطًا لـ﴿لَّوۡ﴾، أبلغُ من جعله: (اتَّخذ)؛ لأنَّ امتناعَ الإرادةِ أقوى في إفادةِ الاستحالةِ الَّتي بُني عليها الدليلُ في الآية؛ لأنَّ ﴿أَرَادَ﴾ يجعلُ الشَّرطَ مفروضًا فرضًا على أقصى احتمال، وأبعد تصوُّرًا[2]، كما أنَّ التَّعبيرَ بلفظِ الإرادة هنا أنسبُ من لفظِ المشيئة في إفادةِ الاستحالةِ على اللّه؛ لأنَّ المشيئةَ مِن اللّهِ تقتضي وجودَ الشَّيء، وأمّا الإرادةُ منه؛ فلا تقتضي وجودَ المُراد[3].

(1) الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 178، والآلوسي، روح المعاني: 23/ 236.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 178، والآلوسي، روح المعاني: 23/ 236.
(3) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (شيأ).

نكتةُ إظهارِ الاسمِ الجليل في ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ﴾:

لا يقفُ أمام إرادة الله شيءٌ

إظهارُ الاسم الجليل (اسم الألوهيَّة) في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾؛ للإشعارِ بِعلّيَّة فعل (الإرادة)، وسرعةِ جريانِهِ في النَّفاذِ والتَّحقُّق؛ لأنَّ الَّذي يريدُ هو اللّهُ الجامعُ لكلِّ صفاتِ الجلال والكمال، فلا يقفُ أمامَ إرادتِهِ شيءٌ، فهو الَّذي خضعَتْ لألوهيَّتهِ كلُّ الإراداتِ.

سِرُّ إيرادِ المصدرِ المؤوَّل في: ﴿أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾:

التَّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّل تقويةٌ للمعنى وزيادةٌ في توكيدِهِ

﴿أَن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ حرفُ مصدرٍ ونصبٍ، و﴿أَن﴾ وما بعدها مصدرٌ مؤوَّلٌ في محلِّ نصب مفعول به للفعل ﴿أَرَادَ﴾[1]، وقد جيءَ بالمصدرِ المُؤوَّل دونَ الصَّريح، فلم يقلْ: (لو أرادَ اللّهُ اتِّخاذَ ولدٍ)؛ لإرادةِ تقويةِ المعنى وزيادةِ توكيدِه، فيجعله أنسبَ وأقوى، فقد أتى بالفعلِ المضارع الَّذي يفيدُ التَّجدُّدَ والاستمرار، فدلَّ على أنَّ اللّهَ تعالى لو أرادَ اتِّخاذَ الولد في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقات؛ لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاتِّخاذ في الفعل ﴿يَتَّخِذَ﴾:

التَّبنّي مستحيلٌ على اللهِ حتى لو كان على سبيلِ الافتراض

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ الاتِّخاذ الدّالِّ على التَّصرُّف والمبالغة والتَّكلُّف[2]، فالاتِّخاذُ افتِعالٌ مِنَ الأخذ، ويَدورُ معناه على حَوْزِ الشَّيءِ وتَحْصيلِه[3]، والاتِّخاذُ يدلُّ على التَّكلُّف، يعني: أنَّ اتِّخاذَ الولد لا يستقيمُ، ولا يصحُّ، ولا يتأتّى له ﷻ، لكونِهِ مُحالًا[4]، فهذا التَّعبيرُ يُشيرُ إلى أنَّه لا يسوغُ في عقلٍ أنْ يكونَ الإلهُ مُتَكَلِّفًا[5]، ومِن ثَمَّ كانَ إيثارُ هذا التَّعبير؛ للدَّلالة على تقوّي استحالةِ الولد على اللّه، كما أنَّ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 506.
(2) سيبويه، الكتاب: 4/ 74، وابن عصفور، الممتع الكبير، ص: 131.
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أَخَذ).
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 112.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.

بناءَ القياسِ الشَّرطيِّ على فرضِ اتِّخاذِ الولد لا على فرضِ التَّولُّد يقتضي أنْ يكونَ المرادُ باتِّخاذ الولد هو التَّبنّي، وإبطالُ التَّبنّي بهذا الاستدلال يستلزمُ إبطالَ تولُّدِ الابن بالأولى، تعالى اللّه عن ذلك[1]، ولأنَّ الاتِّخاذَ يجري مجرى الجَعْل[2]، وقد وردَ هذا الأسلوبُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: 9].

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿يَتَّخِذَ﴾:

أتى النَّظمُ الحكيمُ بصيغة المضارع ﴿يَتَّخِذَ﴾ الَّذي يدلُّ على التَّجدُّدِ والاستمرار في قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللّهَ تعالى لو أرادَ اتِّخاذَ الولدِ في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقات؛ لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَلَدًا﴾، ولطيفة تنكيره:

اللّه تعالى مُنزَّهٌ عن اتِّخاذِ أيِّ ولدٍ ذكرًا كانَ أو أنثى

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ بلفظِ الولدِ دون الابن في قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾؛ لكونِهِ أنسبَ للسّياق والمقام، فلفظُ الولدِ يشملُ الذَّكرَ والأنثى، بينما الابنُ يُطلقُ على الذَّكَر فقط[3]، والولدُ هو الابنُ الحقيقيُّ لا مَن اتَّخذتَهُ، وتَبَنَّيتَه وهو مِن غيرك[4]، فكان التَّعبيرُ بالولدِ متناسبًا مع قولِ المشركين؛ إذ ادَّعوا أنَّ للّه أولادًا، ثم زعموا أنَّهم بنات، كقولهم: عيسى هو ابن اللّه، والملائكة بناتُ اللّه، تعالى اللّه عن قولهم عُلوًّا كبيرًا، وكذلك هو متناسبٌ مع قوله: ﴿يَتَّخِذَ﴾؛ ليدلَّ معه على التَّبنّي، فلفظُ الاتِّخاذ مع لفظ الولد يدلُّ على التَّبنّي، ولا حاجةَ لِذِكر الاتِّخاذ مع الابن؛ لأنَّه لا يُشترَط في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 325.
(2) الراغب، المفردات: (أخذ).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ولد).
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281 - 282، والزبيدي، تاج العروس: (ولد).

الابنِ أنْ يكونَ مِن نسلِ الأبِ[1]، وقد استعملَ القرآنُ هذا التَّركيب (الولد مع الاتِّخاذ) عند إرادة معنى التَّبنّي.

وأمّا تنكيرُ ﴿وَلَدًا﴾؛ فلإفادة الإبهام؛ إذ لا يُشير إلى ولدٍ معيَّن، بل يشيرُ إلى مفهومِ الولد بشكلٍ عامٍّ، بما يُعزِّزُ الفكرةَ بأنَّ اللّهَ ليس بحاجةٍ إلى أيِّ ولدٍ، سواءٌ كان هذا الولدُ ذكرًا أو أنثى، وللإشارةِ كذلك إلى التَّكريم والتَّشريف[2]؛ مبالغةً في إبطالِ نسبةِ الشُّركاء إلى اللّه، والمعنى: لو أرادَ اللّهُ أنْ يتَّخذَ ولدًا شريفًا كريمًا - لا ما نسبتموه إلى اللّه من الإناث والأصنام - لاصطفى ممّا يخلقُ ما يشاء، ولكن لم يُرِدْ سبحانه، فلم يكنْ.

معنى (اللام) في الجواب ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾:

امتناعُ أن يتَّخذ اللّهُ الولدَ امتناعًا قاطعًا جازمًا

لام ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ هي اللّامُ الرابطةُ لجواب ﴿لَّوۡ﴾[3]؛ لربط الاصطفاء بفعل الشَّرطِ، وهو إرادةُ الولد، فلمّا كانت هذه الإرادة ممتنعةً؛ امتنع أن يصطفيَ اللّه من عبادِهِ من يكون ولدًا له - سبحانه وتعالى - عمّا يقولون علوًّا كبيرًا - دون تطرُّقٍ لأيِّ احتمالٍ أو تقديرٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاصطفاء في الفعل ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾:

الاصطفاءُ تخليصُ المختار من كلِّ شائبةٍ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الاصطفاءِ في قوله: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾؛ مبالغةً في إقامةِ الحُجَّة على المُخْطِئ ليُغَيِّرَ في مَهْواةِ خَطَئِه، والمعنى: (لو كان اللّهُ متبنّيًا؛ لاختارَ ما هو الأليقُ بالتَّبنّي من مخلوقاته دون الحجارة الَّتي زعمتموها بناتٍ للّه)، ولذلك اختارَ مِن الألفاظ ما يدلُّ على هذا المعنى، فالصَّفو يدلُّ في أصلِه على خُلوصٍ من كلِّ شَوْبٍ، ومِن ذلك الصَّفاءُ، وهو ضِدُّ الكدرِ، وصَفوةُ

---

(1) الزبيدي، تاج العروس: (ولد).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 450.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 506، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 391.

الشَّيء ما صفا منه، وخلصَ[1]، "واستصفى الشَّيء، واصطفاه: اختاره كأنَّه أخذه؛ لأنَّه أصفَى جِنْسه أو أجودُهُ"[2].

لطيفةُ صوْغِ الفعل ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ ماضيًا:

لو أرادَ اللهُ اتِّخاذَ الولدِ؛ لتحقَّقَ منه اصطفاءُ مَن يشاء

(اصْطَفَى) فعلٌ ماضٍ مزيد، وزنه افْتَعَلَ (اصتفى) حصلَ فيه إبدال، فقُلبتِ التّاءُ طاءً للمجانسة الصَّوتيَّة، وقد جاء في الآية بصيغة الماضي الدّالَّة على الوقوع والتَّحقُّق؛ للمبالغة في الرَّدِّ على المشركين المفترين على الله، وللدَّلالةِ على أنَّ اللهَ لو أرادَ أنْ يتَّخذَ ولدًا؛ لكان قد تحقَّقَ منه اصطفاءُ مَن يشاء مِن خَلْقِه، فلا يقفُ أمامَ إرادتِهِ شيءٌ.

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾:

الدَّلالةُ على كمالِ قدرته سبحانه

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾ تبعيضيَّةٌ، والمعنى: (لاصطفى مِن بعض مخلوقاته ما يشاء)، وهي تشيرُ إلى عظمتِهِ وقدرته سبحانه على اختيارِ الأشرف والأكرم ممّا خلقَ، (ولاختار أحسنَ النَّصيبَين، وهو الذَّكرُ، لا ما نسبتوه له مِنَ البنات).

نوع (ما) في قوله: ﴿مِمَّا يَخۡلُقُ﴾:

مِن كمالِ قدرةِ الله خَلْقُهُ لِكُلِّ شيءٍ

(ما) اسمُ موصولٍ بمعنى الَّذي، وتُستعملُ مع العاقل وغير العاقل، وتفيدُ العمومَ، أي: (لاصطفى مِن كُلِّ مخلوقاتِهِ ما يشاء)، ولو عبَّر بقوله: (لاصطفى من خَلقِه مَنْ يشاء)؛ لَمَا أفادتْ هذا العموم، وكذا لو عبَّر بقوله: (ممَّن يخلق)؛ لاختصَّ بالعاقل فقط؛ لأنَّ (ما) أعَمُّ من (مَن)، فالتَّعبيرُ بالأداة الَّتي أكثرُ استعمالِها فيما لا يعقلُ إشارةٌ إلى أنَّه قادرٌ على جعلِ أقلِّ الأشياء أجلَّها على سبيلِ التَّكرار والاستمرار[3]، وأيضًا لأنَّه إذا أُريدَ ملاحظةُ الصِّفةِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صفو).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المُؤصَّل: (صفو).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 450.

فإنَّه يُعَبَّرُ بـ(ما) عن (مَن)، وهنا يُرادُ ملاحظةُ الصِّفةِ، وهي: العبادةُ[1]، كما أنَّ التَّعبيرَ بالاسم الموصول يستدعي التَّشويق لِما فيه مِن إبهام.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخلق في الفعل ﴿يَخۡلُقُ﴾:

من عظيمِ قدرتِهِ سبحانه وكمالِها أنَّه لا يفتقرُ في خلقِهِ إلى أسبابٍ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لَفظَ الخَلق في قوله تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾؛ للدَّلالة على عظيمِ قدرته تعالى وكمالِها، وأنَّه لا يُعجزه شيءٌ، فهو لا يفتقرُ في خلقٍ لأسبابٍ؛ لأنَّ الخلقَ إبداعُ الشَّيء مِن غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ، وليس هذا إلّا للّه تعالى[2]، والمعنى: لاصطفى ممّا يُبدعُهُ في أسرع مِنَ الطَّرف[3].

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿يَخۡلُقُ﴾:

خَلْقُ اللهِ متجدِّدٌ متكرِّرٌ لا يقف أمامه شيءٌ

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعة الَّتي تدلُّ على التَّجدُّدِ والحدوث في قوله: ﴿يَخۡلُقُ﴾؛ للدَّلالة على عظيمِ قدرته وكمالها سبحانه؛ فخَلْقُهُ متجدِّدٌ متكرِّرٌ لا ينقطع، بما يدلُّ على أنَّه لو أراد أنْ يَتَّخِذَ ولدًا؛ لاصطفى ممّا يخلقه في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقات، فلا يقفُ أمامَ إرادتِهِ شيءٌ.

عِلَّةُ التَّعبيرِ بالموصول ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾:

كمالُ قدرةٍ مع كمالِ مشيئةٍ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ اسمٌ موصولٌ في محلِّ نصْبِ مفعولٍ به[4]، وهو يفيدُ العموم؛ للدَّلالة على كمال قدرته سبحانه، والمعنى: لاصطفى ممّا يخْلُقُ أيَّ خلقٍ شاء، وجملة ﴿يَشَآءُۚ﴾ صلة ﴿مَا﴾، والضَّمير يعود على اللّه، والعائدُ محذوفٌ، والتَّقدير: (لاصطفى ممّا يخلق ما يشاؤه اللّه).

دلالةُ التَّعبيرِ بالمشيئة في الفعل ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾:

يكونُ الاصطفاءُ ممّا وُجِدَ مِنَ المخلوقات

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلفظ المشيئة دونَ الإرادة في قوله

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 40.

(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلق)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 566.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 391.

تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّ المشيئةَ مِن اللّهِ تقتضي وجودَ الشَّيء، وأمّا الإرادةُ منه؛ فلا تقتضي وجود المُراد[1]، ولذا علَّق مشيئته سبحانه بالاصطفاء، بينما علَّق لفظَ الإرادة باتِّخاذ الولد؛ لأنَّه يتحدَّثُ عن إرادةٍ ممتنعة على اللّه؛ لتعلُّقها بالمُمتنع (وهو اتِّخاذ الولد)، وفي هذا مناسبةٌ للسياق والمقام، فالحديثُ عن اصطفاءِ اللّه ممّا يشاء من خلقِه، وهذا ليس ممتنعًا على اللّه، بخلاف إرادةِ اتِّخاذ الولد.

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿يَشَآءُۚ﴾:

قدرةُ اللهِ مطلقةٌ على الخلق شاملةٌ لِكلِّ وقتٍ

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارِعِ في ﴿يَشَآءُۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ يدلُّ على أنَّ مشيئة اللّه متجدِّدةٌ مستمرَّةٌ، بما يدلُّ على أنَّ قدرةَ اللّهِ مُطلَقَةٌ على الخلقِ في أيِّ وقتٍ يشاء، ويعزِّزُ مفهومَ القدرةِ الإلهيَّة غير المحدودة.

نكتةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ في قوله: ﴿مَا يَشَآءُۚ﴾:

عموم مشيئةِ الله

حذفَ البيانُ الحكيمُ مفعولَ المشيئةِ في قوله تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ اختصارًا؛ لأنَّه يلزمُ مِن وجودِ المشيئةِ وجودُ المَشيء، ولذا كَثُرَ حَذْفُ مفعول المشيئة دون سائر الأفعال، والتَّقدير: (لاصطفى مِمّا يَخْلُقُ ما يَشاء أنْ يصطفيه).

لطيفةُ العدول عن فِعلِ الاتِّخاذ في الشَّرط:

لو فُرِضَ اتِّخاذُ الولدِ؛ لكان اصطفاءُ عبدٍ على وجه الكمال لا ما يزعمونه

آثرَ البيانُ الحكيمُ استخدامَ لفظِ الاصطفاء مقابل لفظ الاتِّخاذ: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ﴾؛ لتعزيز المقصودِ مِن ذكر فعل الاتِّخاذ بتعقيبِه بفعلِ الاصطفاءِ على طريقةِ مجاراة الخَصم المخطئ ليغيِّرَ في مهواةِ خطئِه، أي: لو كان لأحدٍ مِنَ اللّه نسبةُ بنوَّةٍ؛ لكانت تلك النِّسبةُ هي التَّبنّيَ لا غير؛ إذ لا تتعقَّل بنوَّةٌ للّه غير التَّبنّي،

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (شيأ).

ولو كان اللّهُ مُتبنّيًا؛ لاختارَ ما هو الأليق بالتَّبنّي مِن مخلوقاته دون الحجارةِ الَّتي زعمتموها بناتِ للّه[1]، فلمّا كان الولدُ لا يُراد إلّا أنْ يكون خيارًا، وكان اللّهُ قادرًا على كُلِّ شيءٍ؛ عدلَ عن أنْ يقولَ: (لاتَّخذ) إلى قوله: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ﴾، أي: لاختارَ على سبيلِ التَّبنّي[2].

كما أنَّ لفظَ الاتِّخاذ يعمُّ اتِّخاذَ النَّسل واتِّخاذَ الأصفياء[3]، فكان في استعمالِه إشارةٌ؛ إذ وُضِعَ الاصطفاءُ موضعَ الاتِّخاذِ الَّذي تقتضيهِ الشَّرطيَّةُ تنبيهًا على استحالةِ مُقدَّمها، لاستلزام فَرْضِ وقوعِه، بل فرضِ إرادة وقوعه انتفاءَه، أي: (لو أراد اللّه تعالى أنْ يتَّخذَ ولدًا؛ لفعلَ شيئًا ليس هو مِن اتِّخاذِ الولد في شيءٍ أصلًا، بل إنَّما هو اصطفاءُ عبدٍ)، ولا ريب في أنَّ ما يستلزم فرضُ وقوعِه انتفاءَه؛ فهو ممتنعٌ قطعًا[4].

وجه الاستدلال بـ ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾:

ليس لمخلوقٍ أن يماثِلَ الخالق

في قوله تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ إثباتٌ لوحدانيَّته سبحانه؛ لأنَّ اختياره سبحانه ممّا يخلق يدلُّ على أنَّ كلَّ ما سواه هو مخلوق، ومن البيِّن أنَّ اتِّخاذَ الولد منوطٌ بالمماثلة بين المتَّخِذ والمتَّخَذِ، وأنَّ المخلوقَ لا يماثِلُ خالِقَهُ حتّى يمكن اتِّخاذه ولدًا، فلو فُرِضَ اتِّخاذُ الولد؛ لم يكن اتِّخاذَ ولدٍ، بل اصطفاءَ عبدٍ[5]، فدلَّ على أنَّه سبحانه واحدٌ أحدٌ لا شريك له.

عِلَّةُ فصل ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾:

تقريرُ تنزُّهِ الله عن اتِّخاذ الولد

فصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها جاءَتْ تقريرًا لما ذُكِرَ من استحالةِ اتِّخاذ الولد في حقِّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 326.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 449.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 519.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.

تعالى في قوله: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾، وتأكيدًا له ببيانِ تنزُّههِ تعالى عنه، أي: تنزَّهَ بالذّاتِ عن ذلك تَنَزُّهَهُ الخاصَّ به[1]، أي: بين قوله تعالى سبحانه وما قبلَهُ كمال اتِّصال.

نكتةُ الإطنابِ في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾:

في الاعتراضِ تنزيهٌ لله عمّا نسبوه إليه من اتِّخاذ الولد

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بذكر الجملة الاعتراضيَّة ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ لتنزيهِ اللّهِ عمّا نسبوه إليه من اتِّخاذ الولد والشُّركاء، اهتمامًا بقضيَّة التَّوحيد وإخلاصِ العبادة للّه وحده، وهو مقصودُ السّورة.

دلالةُ التَّعبيرِ في ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾، ولطيفة الإضافة فيه:

اللهُ منزَّهٌ عن اتِّخاذِ الولدِ والشُّركاء وعن كلِّ ما لا يليقُ به

التَّسبيحُ: التَّنزيهُ، وتسبيحُ اللّه تعالى: تنزيهُهُ مِنْ كلِّ سوءٍ[2]، وعَن كلِّ ما لا يَنْبَغي لَهُ أنْ يوصَفَ بِهِ[3]، فهو سبحانه منزَّهٌ عن اتِّخاذ الولد والشُّركاء وعن كلِّ ما لا يليق به، ولفظ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ توكيدٌ بالمصدرِ؛ إذ إنَّ (سبحان) مصدر (سَبّح يسبِّح)؛ إذا بعُد، أو أسبِّحه تسبيحًا لائقًا به على أنَّه عَلَم للتَّسبيح مقولٌ على ألسنةِ العباد، أو سبِّحوه تسبيحًا حقيقًا بشأنه، والمصدرُ مضافٌ إلى الضَّمير العائد عليه تعالى، أي: تقريرٌ لما ذُكِرَ من استحالةِ اتِّخاذ الولد في حقِّهِ تعالى، وتأكيدٌ له ببيانِ تنزُّههِ تعالى عنه، أي: تنزَّهَ بالذّاتِ عن ذلك تَنَزُّهَهُ الخاصَّ به[4].

نكتةُ فصل جملة: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ عمّا قبلها:

تعليلٌ وبيانٌ لتنزُّهِهِ تعالى عن اتِّخاذ الولد

بين قولهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ وما قبلها: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سبح).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (سبح).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 228.

﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ﴾ كمال اتِّصال؛ إذ جاء قولُهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ دَليلًا على تَنزيهِ اللّهِ المُستَفادِ من ﴿سُبۡحَٰنَهُۥۖ﴾[1]، فالجملةُ بمنزلةِ التَّعليل والبيان لتنزُّهِ تعالى، بحسبِ الصِّفاتِ إثرَ بيانِ تنزُّهِ تعالى عنه بحسب الذّاتِ[2]، وذلك بما اقتضتْهُ الصِّفاتُ الإلهيَّة الواردة فيها.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الجليل في ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾:

اتِّخاذُ الولدِ منافٍ لاسمِ الله الجامع لكلِّ صفاتِ الكمالِ والجلالِ

بدأ الجملةَ بصفةِ الألوهيَّة التي يدلُّ عليها الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ لإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختَصِّ به الجامعِ لكلِّ صفاتِ الكمال والجلال والجمال، وذلك تربية لمهابته في النُّفوس؛ فلِذلك لم يقل: (هو الواحِدُ القَهّارُ)، كما قال بَعدُ: ﴿هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾[3]، وللتَّناسبِ مع السياق، فالاسمُ الجليلُ جامعٌ لكلِّ صفاتِ الكمال ينفي عنه كلَّ سماتِ النُّقصان، واتِّخاذُ الولد من سماتِ النُّقصانِ والعجز ومُنافٍ لكمالِ الألوهيَّة.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾، ونكتة تعريفه:

في إثباتِ الوحدانيَّة إبطالٌ للشَّريك في الإلهيَّة على تفاوتِ مراتبه

صفةُ الوحدانيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ توجبُ امتناعَ المماثلة والمشاركة بينه وبين غيره على الإطلاق[4]، فهو سبحانه مُتَبَرِّئٌ عن انضمامِ الأعداد متعالٍ عن التَّجزُّؤ والأولاد[5]، فالواحِدُ هو الَّذي لا ثاني له، ولا مثيلَ له ذاتًا ولا صفةً، والولدُ ثاني والده، فهو يماثلُ الوالد في الذات والصفات[6]، ففي إثباتِ الوحدانيَّة له سبحانه إبطالٌ للشَّريك في الإلهيَّة على تفاوتِ مراتبه[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 327.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 327.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 169.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 481.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 327.

هو الكامل سبحانه في صفاتِه وأفعاله لا مثيلَ له ولا شبيه

وقد أتى اسمُ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ معرَّفًا؛ للدَّلالة على التَّعظيمِ والكمال والاختصاص، فهو الكاملُ في جميعِ صفاته وأفعاله، فالواحدُ إذا أطلقَ لا يذهبُ إلّا إلى اللّه تعالى، فهو اسمٌ خاصٌّ به سبحانه، فهو الواحدُ الَّذي لا شريكَ له، وهو وحده المستحقُّ للعبادةِ؛ لأنَّه متفرِّدٌ في صفاته وأفعالِه لا مثيلَ له ولا شبيه.

لطيفةُ صوغِ ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ اسم فاعل:

الوحدانيَّةُ صفةٌ ثابتةٌ لله لا يشبهه فيها أحدٌ

عبَّر القرآنُ بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ المفيدِ للثُّبوتِ والدَّوام؛ للدَّلالة على تأكيدِ المبالغة في الوحدانيَّة، وأنَّها صفةٌ ثابتةٌ له سبحانه لا يمكن لأحدٍ أنْ يتَّصفَ بها، فلا أحدَ يشبهه في صفاتِهِ ولا أفعالِهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالقهر في ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾:

محالٌ في حقِّ القهّار أن يكونَ له الولدُ

القهرُ غلبةٌ مع علوٍّ وتذليلٍ معًا، ويدلُّ على كمالِ القدرةِ[1]، والقهّارُ هو الشَّديدُ الغلبة لكلِّ شيءٍ لا يغلبهُ شيءٌ، ولا يصرفه عن إرادته شيءٌ[2]، فصفةُ القاهريَّةِ تدلُّ على أنَّ كلَّ ما سوى اللّه مقهورٌ، وعُرضةٌ للفناء، فكيف يتأتّى أنْ يكون المقهورُ إلهًا أو شريكًا للّه، والقاهريَّةُ المطلقة تنافي قَبولَ الزَّوال المحوجِ إلى الولدِ أو الشَّريك، فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يتَّخذَ من هو مستحيلُ الفناء، ومن هو قهّارٌ لكلِّ الكائناتِ من الأشياءِ الفانيةِ ما يقومُ مقامَه[3]، فكونه سبحانه (قهّارًا) يمنعُ من ثبوت الولد؛ لأنَّ المحتاجَ إلى الولدِ هو الذي يموتُ، فيحتاجُ إلى ولدٍ يقوم مقامه، وبذلك يكون مقهورًا بالموتِ، أمّا الذي يكون قاهرًا، ولا يقهره غيره كان الولد في حقِّه محالًا.

نكتةُ صوغِ ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ على (الفعّال):

أتى اسم ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين، عمدة الحفاظ: (قهر).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 327.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 535.

القهّارُ الشَّديدُ الـغـلـبـةِ لـكـلِّ شـيءٍ، يمتنعُ عليه اتِّخاذُ الولد مِن المقهورين له

على وزن فعّال؛ للمبالغةِ في صفة القهرِ، فالقهّارُ هو الشَّديدُ الغلبةِ لِكُلِّ شيء، لا يغلبهُ شيءٌ، ولا يصرفُهُ عن إرادتِهِ شيءٌ(1)، وهو كثيرُ القهرِ، فكلُّ شيءٍ تحتَ قهره - آلهتهم وغيرها - على سبيلِ التَّكرار والاستمرار(2)، فهو القهّارُ على الإطلاق؛ لأنَّ أحدًا من الخلق إنِ اتَّصفَ بالقهر؛ فمقيَّدٌ في أشياءَ قليلة، وهو في حيّزِ قهره لغيره مقهورٌ للّه تعالى على أشياءَ كثيرة(3)، ومِن هنا يمتنعُ على اللّهِ القهّار أنْ يتَّخِذَ ولدًا ممّا يخلقُ من المقهورين له.

لطيفةُ تقديم ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ على ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾:

الاهتمامُ بصفةِ الوحدانيَّة فهي أساسُ الإيمان والإخلاص

قدَّم البيانُ الحكيم اسمَ اللّه ﴿ٱلۡوَٰحِدُ﴾ على (القَهّار) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾؛ للاهتمامِ بصفة الوحدانيَّة، والتَّأكيدِ عليها، فالوحدانيَّةُ هي الأساسُ الَّتي يقومُ عليها الإيمان والإخلاص، وكذلك للتَّناسبِ مع مقصودِ السّورة، وهو الوحدانيَّة وإخلاص العبادة للّه، ومع سياقِ الآيات التي تتحدَّث عن اتِّخاذ المشركين أولياءَ من دونِ اللّه، ونسبتهم للّه ولدًا وشركاء، وإبطالِ ذلك من خلال إثباتِ الوحدانيَّة للّه، وأيضًا من بابِ تقديم السَّببِ على النَّتيجة، فالقهرُ نتيجةٌ طبيعيَّةٌ لوحدانيَّتِهِ سبحانه.

وجهُ مناسبةِ صِفتَي ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾:

تـلازُمُ وحدانيَّةِ الله وقهرِه

خُتِمَتِ الآيةُ بوصفِ اللّه سبحانه بـ﴿ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، وهوفي غايةِ التَّناسبِ مع مضمون الآية، فالواحدُ سبحانه المستجمعُ لصفاتِ الكمال المتوحِّد في ذاته، الذي ليس معه غيره، فلا مماثلَ له ولا شريك، وهو القهّارُ لكلِّ مخلوقاتِهِ القويُّ الَّذي لا يُغلب، فليس به إلى الولدِ حاجة، ممّا يبغيهِ الوالدون مِنَ الأولاد، فلا يحتاجُ إلى عزْوةٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 327.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 451.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 519.

ولا يحتاجُ إلى مُعينٍ، ومَن كان متَّصِفًا بهذه الصِّفات؛ استحالَ وجودُ الولدِ في حقِّه؛ لأنَّ الولدَ مماثلٌ لوالدِه، ولا مماثلَ له سبحانه(1)، فهو منزَّهٌ عن الشَّريكِ، فهو واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، ومنزَّهٌ عن الضَّعفِ، فلا يحتاجُ لمعينٍ مِن ولدٍ أو وليٍّ، فهو خالقٌ قهّارٌ، وكلُّ ما عداه مخلوقٌ ومقهورٌ، أي: وحدانيَّتُهُ وقاهريَّتُهُ تُنافي أنْ يتَّخذَ ﷻ ولدًا، فوحدتُهُ تعالى وقهره متلازمان، فالواحدُ لا يكون إلّا قهّارًا، والقهّارُ لا يكون إلّا واحدًا، وذلك ينفي الشِّركةَ له مِن كلِّ وجهٍ(2).

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 516، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1117، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13029.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 719.

المحتويات

الجزء الثالث والعشرون 7

سورة الصّافّات 9

- [الصافات: 145 - 148] 10
- [الصافات: 149 - 153] 26
- [الصافات: 154 - 157] 43
- [الصافات: 158] 56
- [الصافات: 159 - 163] 65
- [الصافات: 164 - 166] 77
- [الصافات: 167 - 170] 88
- [الصافات: 171 - 173] 99
- [الصافات: 174 - 179] 111
- [الصافات: 180 - 182] 126

سورة ص 137

- [ص: 1] 145
- [ص: 2] 150
- [ص: 3] 155
- [ص: 4] 162
- [ص: 5] 170
- [ص: 6] 175
- [ص: 7] 181
- [ص: 8] 189
- [ص: 9 - 10] 197
- [ص: 11] 206
- [ص: 12 - 14] 212
- [ص: 15] 225
- [ص: 16] 232
- [ص: 17] 237
- [ص: 18 - 19] 246
- [ص: 20] 258
- [ص: 21] 264
- [ص: 22] 273
- [ص: 23] 285
- [ص: 24] 292
- [ص: 25] 308
- [ص: 26] 315
- [ص: 27] 330
- [ص: 28] 342
- [ص: 29] 353
- [ص: 30] 365
- [ص: 31] 373
- [ص: 32] 380
- [ص: 33] 391
- [ص: 34] 398
- [ص: 35] 405
- [ص: 36 - 38] 416
- [ص: 39] 430
- [ص: 40] 438
- [ص: 41] 444
- [ص: 42] 454
- [ص: 43 - 44] 460
- [ص: 45 - 47] 481
- [ص: 48] 497
- [ص: 49 - 52] 503
- [ص: 53 - 54] 525
- [ص: 55 - 58] 535
- [ص: 59 - 61] 555
- [ص: 62 - 64] 578
- [ص: 65 - 66] 600
- [ص: 67 - 68] 616
- [ص: 69 - 70] 624
- [ص: 71 - 72] 635
- [ص: 73 - 74] 649
- [ص: 75 - 76] 657
- [ص: 77 - 78] 670
- [ص: 79 - 81] 679
- [ص: 82 - 83] 688
- [ص: 84 - 85] 695
- [ص: 86 - 88] 711

سورة الزُّمر 735

- [الزمر: 1] 745
- [الزمر: 2] 756
- [الزمر: 3] 769
- [الزمر: 4] 795

